تفسير القرآن العظيم

للإمام المحدّث ابن كثير

(٧٠١ - ٧٧٤هـ)

تحقيق

د. محمّد ابراهيم البنّا

الجزء السادس

سورة النور - سورة يس

الآية ٢٦

مؤسسة علوم القرآن

شركة دار القبلة

دار ابن حزم

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار القبلة للثقافة الإسلامية
المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب: ١٩٣٢ - ت: ٦٧١٠٠٠٠ - تلكس: ٤٠٤٠٨٠ - دلة - س ج

مؤسسة علوم القرآن
سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب: ٤٦٠ - ت: ٢١٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب: [illegible]

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

تفسير القرآن العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

سورة النور

وهي مدنيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ① الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ② ﴾

يقولُ تعالى: هذه ﴿سورةٌ أنزلناها﴾، فيه تنبيه إلى الاعتناء بها ولا يَنْفي ما عداها: ﴿وفَرَضْناها﴾[١]، قال مجاهدٌ وقتادةُ: أيْ بيَّنا الحلال والحرام، والأمر والنهي، والحدود. وقال البخاريُّ: «ومن قرأ ﴿فَرَّضْناها﴾ يقول: فَرَضنا عليكم وعلى مَن بعدكم»[١].

﴿ وأنزلنا فيها آياتٍ بيناتٍ ﴾، أي: مُفسَّراتٍ واضِحاتٍ، ﴿ لعلكم تَذَكَّرونَ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ الزانية والزاني فاجلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلْدَةٍ ﴾: هذه الآية الكريمة فيها حُكم الزاني في الحدِّ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع، فإنَّ الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً، وهو الذي لم يتزوج. أو محصناً، وهو الذي قد وَطِىءَ في نكاحٍ صحيحٍ، وهو حُرٌّ بالغ عاقل. فأمَّا إذا كان بكراً لم يَتزوَّج فإن حَدَّه جَلْدُ مائةٍ، كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يُغرَّب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفةَ ـ رحمه الله ـ فإن عنده أنَّ التغريبَ إلى رأي الإمام، إن شاء غرَّب وإن شاء لم يُغرِّب. وحجةُ الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين، من رواية الزهري، عن عُبَيْد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن أبي هُرَيرةَ وزيدِ بن خالدٍ الجُهَنِيِّ، في الأعرابيَّيْن اللَّذين أتيا رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ فقال أحدُهما: يا رسولَ الله، إن ابني كان عَسِيفاً ـ يعني أجيراً ـ على هذا فَزَنى بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة وَوَلِيدَة، فسألتُ أهل العلم، فأخبروني أنَّ على ابني جلدَ

---

(١) قرأ بالتشديد من السبعة ابنُ كثير وأبو عَمْرو. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧١١، وتفسير الطبري ١٨/٦٥ ـ ٦٦، وروح المعاني للألوسي ١٨/٧٥، وفتح الباري، كتاب التفسير ٨/٤٤٦، ومعاني القرآن للفراء ٢/٢٤٤.

مائةٍ وتغريبَ عامٍ ، وأنَّ على امرأةِ هذا الرجمَ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده لأقضينَّ بينكما بكتاب الله: الوليدةُ والغنم رَدٌّ عليك، وعلى ابنك جَلْدُ مائة وتغريبُ عام. واغدُ ـ يا أنيس، لرجلٍ من أسْلَم ـ إلى امرأةِ هذا، فإن اعترفَت فارجُمها. فغدا عليها، فاعترفت، فرَجَمها»(١).

ففي هذا دلالةٌ على تغريبِ الزَّاني مع جَلْدِ مائةٍ إذا كان بِكْراً لم يتزوَّج، فأما إنْ كان مُحصَناً فإنه يُرجَمُ، كما قال الإمام مالك:

حَدَّثني ابن شِهَابٍ، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ بن مسعودٍ، أنَّ ابن عباس أخبره، أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ قام فَحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعدُ، أيُّها الناسُ، فإنَّ الله بعثَ محمداً بالحقِّ، وأنزلَ عليه الكتابَ، فكان فيما أنْزَلَ عليه آيةُ الرَّجْمِ ، فقرأناها وَوَعَيْناها، ورَجَم رسولُ الله ـ ﷺ ـ ورَجَمْنا بعده، فأخشى أن يطول بالناسِ زمان أن يقول قائل: «لا نجدُ آية الرَّجْم في كتابِ الله». فيَضِلُّوا بِتَرْكِ فريضةٍ قد أنزلها الله، فالرجم في كتابِ الله حَقٌّ على من زَنَى، إذا أحصَنَ، من الرجال والنساء، إذا قامت البينةُ أو الحبَل أو الاعتراف»(٢).

أخرَجاه في الصَّحِيحَين من حديثِ مالكٍ مُطَوَّلاً، وَهذه قطعةٌ منه، فيها مَقصُودُنا هاهنا(٢).

وَرَوَى الإمامُ أحمدُ عن هُشَيم ، عن الزُّهريِّ، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عَبَّاس: حدثني عبد الرحمن بن عَوف: أن عُمَر بن الخطاب خَطَب الناسَ فَسَمِعْتُهُ يقولُ: ألاَ وَإنَّ أناساً يقُولون: ما بالُ الرَّجْم؟ في كتابِ الله الجلدُ. وقد رَجَم رسولُ الله ـ ﷺ ـ ورَجَمنا بعدَه، ولولا أن يقولَ قائلون ـ أو يتكلَّم مُتكلِّمونَ ـ أنَّ عمر زادَ في كتابِ الله ما ليس منه لأثبتُّها كما نزلت(٣). وأخرجه النسائي، من حديث عُبَيد الله بن عبد الله، به(٣).

وقد رَوَى أحمد أيضاً عن هُشَيم، عن علي بن زيد، عن يوسُف بن مِهْران، عن ابن عباس قال: خَطَب عمرُ بن الخطابِ فذَكَر الرجمَ فقال: لا تُخْدَعُنَّ عنه فإنه حَدٌّ من حُدودِ الله ، ألا إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قد رَجَم ورَجَمنا بعده، ولولا أن يقولَ قائلون: زاد عُمَر في كتاب الله ما ليس فيه لكتبتُ في ناحيةٍ من المصحَفِ: «وشَهِد عُمَر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وفلان، وفلان أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قد رَجَم ورَجَمنا بعده». ألا وإنه سيكونُ من بعدكم قومٌ يُكَذِّبون بالرجمِ وبالدجالِ وبالشفاعةِ وبعذابِ القبر، وبقوم يخرجون من النار بعدما امتُحِشُوا(٤).

وَرَوَى أحمدُ أيضاً عن يحيى القَطَّانِ، عن يحيى الأنصاري: عن سَعِيد بن المسيَّب، عن عُمَر بن الخطاب: «إيَّاكُم أن تَهلِكوا عن آية الرجم(٥)». . . . الحديث. ورواه الترمذيُّ: من حديث سعيد، عن عُمَر، وقال: صحيح(٥).

---

(١) فتح الباري، كتاب الصلح ٥/٣٠١، ومسلم، كتاب الحدود ٣/١٣٢٤ ـ ١٣٢٥.

(٢) الموطأ، كتاب الحدود ٢/٨٢٣. وأخرجه في كتاب الحدود من حديث ابن شهاب، فتح الباري ١٢/١٤٤ ـ ١٤٥، ومسلم ٣/١٣١٧.

(٣) مسند أحمد ١/٢٩، وأخرجه النسائي في كتاب الرَّجْم من سُنَنه الكبرى، تحفة الأشراف للمزي ٨/٨٣، وقال: «رواه جماعة فلم يذكروا عبد الرحمن بن عوف في إسناده، وهو الصواب».

(٤) مسند أحمد ١/٢٣ والمَحْش: إحراق النار الجلد.

(٥) مسند أحمد ١/٣٦. وعارضة الأحوذي، أبواب الحدود ٦/٢٠٤.

وقال الحافظ أبو يعلى المَوْصلي: حدثنا عُبَيد الله بن عُمَر القَوَارِيرِيُّ، حدثنا يزيدُ بن زُرَيع، حدثنا ابن عَونٍ، عن محمد ـ هو ابن سيرين ـ قال: نُبِّئْتُ عن كَثِير بن الصَّلْتِ قال: كنا عند مَرْوان وفينا زيدٌ، فقال زيد: كنا نقرأ: «والشيخ والشيخة إذا زَنَيا فارجموهما البتةَ»، قال مَرْوان: ألاَ كتبتَهَا في المُصحَف؟ قال: ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب، فقال: أنا أَشْفِيكم من ذلك. قال: قلنا: فكيفَ؟ قال: جاء رجلٌ إلى النبي ـ ﷺ ـ قال: فَذَكر كذا وكذا، وذكر الرجْم فقال: يا رسول الله، أَكْتِبْني آية الرجم. قال: لا أستطيع الآن. هذا أو نحو ذلك.

وقد رواه النسائي عن مُحَمَّد بن المثنى، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن قتادة، عن يونُس بن جُبَير، عن كَثِير ابن الصَّلت، عن زيد بن ثابت، به[1].

وهذه طرق كلها مُتعاضِدةٌ ودالَّةٌ على أن آية الرجم كانت متلوَّةً فَنُسِخَ تلاوتُها وبَقِي حكمُها معمولاً به، ولله الحمد.

وقد أَمَر رسولُ الله ـ ﷺ ـ برَجْم هذه المرأة، وهي زوجةُ الرجلِ الذي استأجَرَ الأجيرَ لما زَنَت مع الأجير، وَرَجم النبيُّ ـ ﷺ ـ ماعِزاً والغامديّة. وكلُّ هؤلاء لم يُنقَل عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه جَلدهم قبل الرجم، وإنما وَرَدت الأحاديثُ الصِّحاح المتعددة الطرق والألفاظ بالاقتصارِ على رَجْمِهم، وليس فيها ذكر الجَلْد. ولهذا كان هذا مذهبَ جمهور العلماء، وإليه ذَهَب أبو حنيفة، ومالكٌ، والشافعيُّ، رحمه الله. وذهب الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ إلى أنه يجب أن يُجمَعَ على الزاني المحصَن بين الجلد للآيةِ، والرجمِ للسُّنةِ، كما رُوِي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه لما أُتِيَ بشُراحَةَ، وكانت قد زَنَت وهي مُحصَنةٌ، فَجلدها يوم الخميس، ورَجَمها يوم الجمعة، ثم قال: جَلَدتُها بكتاب الله، ورَجَمتُها بسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ[2].

وقد رَوَى الإمام أحمد ومسلم، وأهلُ السُّنَن الأربعةِ، من حديث قتادةَ، عن الحسن، عن حِطَّانَ بن عبد الله الرَّقاشي، عن عُبادَةَ بن الصامتِ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سَبِيلاً: البِكر بالبِكر، جلدُ مائةٍ وتغريبُ سنةٍ، والثَّيِّبُ بالثيبِ جَلْدُ مائةٍ والرجمُ»[3].

وقولُه: ﴿ ولا تَأْخذكم بهما رأفةٌ في دين الله ﴾، أي: في حُكم الله، لا تَرحَمُوهما وتَرْثُوا[4] لهما في شرع الله، وليس النَّهيُ عن الرأفةِ الطبيعيةِ ألاَّ تكون حاصلةً، وإنَّما المنهيُّ أن يحمل الحاكم الرأفةُ الطبيعيةُ على تَرْك الحَدِّ، فإنّه لا يجوز له ذلك.

قال مجاهدٌ: ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾، قال: إقامةُ الحدود إذا رُفعت إلى السلطان، فتقام ولا تعطل. وكذا رُوِي عن سعيد بن جُبَير، وعطاء بن أبي رباح. وقد جاء في الحديث: «تَعَافَوْا الحدودَ فيما

(١) أخرجه النسائيُّ في كتاب الرجم من سننه الكبرى. تحفة الأشراف للمزِّيّ ٣/٢٢٥.
(٢) مسند أحمد ١/٩٣، ١٠٧، ١٤١، ١٥٣، وفتح الباري، كتاب الحدود ١٢/١١٧، ومسند أبي يعلى ١/٢٥٠.
(٣) مسند أحمد ٥/٣١٧، وأخرجوه في الحدود مسلم ٣/١٣١٦ ـ ١٣١٧، وسنن أبي داود ٤/١٤٤، وعارضة الأحوذي ٦/٢٠٧، وابن ماجه ٢/٨٥٢ ـ ٨٥٣.
(٤) رَثَى له: رَحِمَه وَرَقَّ له.

بينكم، فما بلغني من حدٍّ فقد وجبَ[١]. وفي الحديث الآخر: «لَحدٌّ يقام في الأرض خيرٌ لأهلها من أن يُمطَروا أربعينَ صباحاً»[٢].

وقيل: المرادُ: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾، فلا تُقيموا الحدَّ كما يَنبغِي من شِدَّةِ الضربِ الزاجرِ عن المأثم، وليس المرادُ الضربَ المبرِّح.

قال عامرٌ الشعبيُّ: ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾، قال: رحمةٌ في شدَّة الضَّرب. وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرِّح.

وقال سعيدُ بن أبي عَرُوبةَ، عن حمَّاد بن أبي سليمان: يُجلَد القاذفُ وعليه ثيابُه، والزاني تُخلَع ثيابُه، ثم تلا: ﴿ ولا تأخُذكم بهما رأفةٌ في دينِ الله ﴾، فقلتُ: هذا في الحُكمِ؟ قال: هذا في الحكم والجَلْدِ. يعني في إقامة الحدِّ، وفي شدَّةِ الضرب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأَوْدِيُّ، حدثنا وكيع، عن نافع بن عُمَر، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عمر: أن جاريةً لابن عُمَر زنت، فضرَبَ رجليها ـ قال نافع: أُرَاه قال: وظهرَها ـ قال، قلتُ: ﴿ ولا تأخُذكم بهما رأفة في دِينِ الله ﴾، قال: يا بُنَيَّ، ورأيتَني أخذَتْني بها رأفةٌ. إن الله لم يأمرني أن أقتلَها، ولا أن أجعل جَلْدَها في رأسِها، وقد أوجعتُ حيثُ ضَربتُ[٣].

وقولُه: ﴿ إن كنتُم تؤمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾، أي: فافعلوا ذلك، أَقِيمُوا الحدودَ على من زَنَى، وشَدِّدُوا عليه الضربَ، ولكن ليس مُبرِّحاً؛ ليرتدع هو ومن يصنَعُ مثلَه بذلك. وقد جاء في المسند عن بعضِ الصحابة أنه قال: «يا رسولَ الله، إني لأذبَحُ الشاةَ وأنا أرحَمُهـا. فقال: ولك في ذلك أجرٌ»[٤].

وقولُه: ﴿ وَلْيَشْهد عَذَابهما طائفةٌ من المؤمنين ﴾، هذا فيه تنكيلٌ للزانِيَين إذا جُلِدَا بحضرَةِ الناس، فإنَّ ذلك يكونُ أبلغَ في زجرهما وأنجعَ في رَدْعِهما، فإن في ذلك تقريعاً وتوبيخاً وفضيحةً إذا كان الناس حُضُوراً.

قال الحسن البصري في قوله: ﴿ وَلْيَشْهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾، يعني: علانيةً.

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ وَلْيَشْهد عَذَابَهما طائفةٌ من المؤمنين ﴾، الطائفة: الرجلُ فما فوقه.

وقال مجاهد: الطائفة: رجل إلى الألْف. وكذا قال عكرمة، ولهذا قال الإمام أحمد: إن الطائفة تصدُقُ على واحد.

وقال عطاءُ بن أبي رَبَاح: اثنان، وبه قال إسحاقُ بن راهَوَيه. وكذا قال سعيد بن جُبَير: ﴿ طائفة من المؤمنين ﴾، قال: يعني رجلين فصاعداً.

وقال الزهري: ثلاثة نَفَرٍ فصاعداً.

وقال عبدُ الرازق: حدَّثني ابنُ وهب، عن الإمام مالك في قوله: ﴿ وَلْيَشْهد عَذَابهما طائفةٌ من

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الحدود ٤/١٣٣، والنسائي في كتاب القطع ٨/٧٠.
(٢) أخرجه النسائي وابن ماجه، سنن النسائي، كتاب القطع ٨/٧٥ ـ ٧٦، وابن ماجه، كتاب الحدود ٢/٨٤٨.
(٣) أخرجه عبد الرازق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر. الدر المنثور ٦/١٢٥، وانظر تفسير الطبري ١٦/٦٦ ـ ٦٧.
(٤) مسند أحمد ٣/٤٣٦.

المؤمنين ﴾، قال: الطائفةُ أربعةُ نفرٍ فصاعِداً، لأنه لا يكون شهادةٌ في الزِّنا دُونَ أربعةِ شُهداءَ فصاعِداً. وبه قال الشافعيُّ.

وقال ربيعةُ: خمسةٌ. وقال الحسنُ البصريُّ: عشرةٌ. وقال قتادةُ: أَمَرَ الله أن يشهَدَ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين، أي: نفرٌ من المسلمين، ليكونَ ذلك موعظةً وعبرةً ونكالاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عُثمان، حدثنا بَقِيَّةُ قال: سَمِعتُ نصر بن عَلْقَمَة في قوله: ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾، قال: ليس ذلك للفضيحة، إنَّما ذلك لِيُدعى الله تعالى لهما بالتوبةِ والرحمةِ.

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

هذا خَبَرٌ من الله تعالى بأنَّ الزاني لا يَطأُ إلا زانيةً أو مشركةً، أي: لا يُطاوِعُه على مُرادِهِ من الزنا إلا زانيةٌ عاصيةٌ أو مشركةٌ، لا ترى حُرمَةَ ذلك، وكذلك: ﴿ الزانيةُ لا يَنكِحُها إلا زانٍ ﴾، أي: عاصٍ بِزِناه، ﴿ أو مشركٌ ﴾، لا يعتقد تحريمه.

قال سفيانُ الثوري، عن حَبيب بن أبي عَمْرَةَ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانيةً أو مشركةً ﴾، قال ليس هذا بالنِّكاح، إنما هو الجِمَاعُ، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشركٌ[١].

وهذا إسناد صحيح عنه. وقد رُوِيَ عنه من غير وجه أيضاً. وقد رُوِيَ عن مجاهد، وعِكْرِمَةَ، وسعيد بن جُبَير، وعُروَةَ بن الزُّبَيرِ، والضَّحَّاكِ، ومَكْحُولٍ، ومُقَاتِل بن حَيَّانَ، وغير واحد، نحوُ ذلك.

وقولُه تعالى: ﴿ وحُرِّم ذلك على المُؤمنينَ ﴾، أي: تَعاطِيه والتزويجُ بالبَغَايا، أو تزويجُ العفائِفِ بالفُجَّارِ من الرجال.

وقال أبو داود الطَّيَالِسِيُّ: حدثنا قَيسٌ، عن أبي حُصَين، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين ﴾، قال: حَرَّم الله الزِّنَا على المؤمنينَ.

وقال قتادةُ، ومقاتلُ بن حَيَّان: حَرَّم الله على المؤمنينَ نِكَاحَ البَغَايا، وتَقَدَّمَ في ذلك فقالَ: ﴿ وحُرِّمَ ذلك على المُؤمِنينَ ﴾.

وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿ مُحْصَناتٍ غيرَ مُسافحاتٍ ولا متخذاتِ أَخْدَانٍ ﴾، وقوله: ﴿ مُحصِنين غير مُسافحين ولا مُتَّخِذي أَخْدَانٍ ﴾... الآية. ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حَنبل ـ رحمه الله ـ إلى أنه لا يَصِحُّ العقد من الرجلِ العفيف على المرأة البغيِّ ما دامت كذلك حتى تُستَتاب، فإن تابت صَحَّ العقدُ عليها وإلا فلا، وكذلك لا يَصِحُّ تزويجُ المرأةِ الحُرَّةِ العفيفةِ بالرجل الفاجر المُسافح، حتى يتوبَ توبةً صَحِيحَةً، لقوله تعالى: ﴿ وحُرِّم ذلك على المؤمنين ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا مُعتَمِرُ بن سليمان قال: قال أبي، حدثنا الحَضْرمي، عن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق وغير واحد، الدر المنثور ٦/١٢٦ ـ ١٢٧.

القاسم بن محمد، عن عبد الله بن عَمْرو ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رَجُلا من المسلمين استأذنَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في امرأة ـ يقال لها: «أم مَهْزُول» ـ كانت تُسافح، وتشترط له أن تُنفِق عليه ـ قال: فاستأذن رسولَ الله ـ ﷺ ـ أو: ذُكِرَ له أمرُها ـ قال: فقرأ عليه نَبِيُّ الله ـ ﷺ ـ : ﴿الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾[1].

وقال النسائي: أخبرنا عَمرو بن علي، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن الحَضرمي، عن القاسم ابن محمد، عن عبد الله بن عمرو قال: كانت امرأة يقال لها: «أم مَهْزُول»، وكانت تسافح، فأراد رجلٌ من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أن يتزوجها، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿والزانيةُ لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحُرِّم ذلك عل المؤمنين﴾[2].

قال الترمذي: حدثنا عبدُ بن حُمَيد، حدثنا رَوحُ بن عُبادة، عن عُبَيد الله بن الأخنس، أخبرني عمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه قال: كان رجلٌ يُقال له: مَرْثَدُ بن أبي مَرْثَدٍ، وكان رجلا يحملُ الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينةَ. قال: وكانت امرأة بَغِيٌّ بمكة يقال لها: عناق، وكانت صديقةً له، وأنه واعد رجلا من أسارى مكة يَحْمِلُه. قال: فجئتُ حتى انتهيتُ إلى ظلِّ حائط من حوائِطِ مكَّةَ في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عَناقُ فأبصرَتْ سَوادَ ظلِّ تحتَ الحائط، فلما انتهتْ إليَّ عَرَفتني، فقالت: مَرْثَدٌ؟ فقلت: مَرْثَدٌ. فقالت: مرحباً وأهلاً، هَلُمَّ فَبِت عندنا الليلة. قال: فقلتُ: يا عناقُ، حَرَّمَ الله الزنا. فقالت: يا أهلَ الخيامِ، هذا الرجُل يحمِلُ أسْراكم. قال: فتبعني ثمانية ودخلتُ الخَنْدَمَةَ[3]، فانتهيت إلى غار ـ أو: كَهْفٍ فدخلت فيه، فجاءوا حتى قاموا على رأسي فبالُوا، فَظَلَّ[4] بولُهم على رأسي، وأعماهم الله عنِّي. قال: ثم رَجَعُوا ورَجعتُ إلى صاحبي فَحملتُه، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيتُ إلى الإذْخرِ[5]، ففككت عنه أكبُلَه[6]، فجعلتُ أحمِلُه ويُعْيِيني، حتى قَدِمتُ المدينةَ، فأتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسولَ الله، أنكحُ عناقاً؟ ـ مرتين ـ فأمسك رسولُ الله ـ ﷺ ـ فلم يرد عَلَيَّ شيئاً، حتى نزلت: ﴿الزاني لا ينكحُ إلا زانيةً أو مشركة والزانيةُ لا يَنكِحُها إلا زانٍ أو مشركٌ وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين﴾. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يا مَرْثَدُ، ﴿الزاني لا ينكحُ إلا زانيةً أو مشركةً والزانيةُ لا ينكِحُها إلا زانٍ أو مشركٌ﴾، فلا تَنكِحْها[7].

ثم قال الترمذيّ: «هذا حديث حسنٌ غريبٌ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وقد رواه أبو داودَ والنسائي، في كتاب النكاح من سُنَنِهما، من حديث عُبَيد الله بن الأخنس به[7].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مُسَدَّد أبو الحسن، حدثنا عبد الوارث، عن حَبيب المعلم، حَدَّثني عمرو بن شُعَيب، عن سعيدٍ المَقبُرِيِّ، عن أبي هُرَيرة ـ رَضِيَ الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: لا ينكح الزاني المجلودُ إلا مثلَه.

---

(١) مسند أحمد ٢/١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) أخرجه النسائي في التفسير من سننه الكبرى. تحفة الأشراف للمزِّيّ ٦/٣٧٥.

(٣) لفظ الترمذي والنسائي: وسلكت الخندمة. والخَنْدَمَةُ: جبل بمكة. وحُرِّفت في نسخة الحرم إلى: الحديقة.

(٤) لفظ النسائي: فطار بولهم. يقال: طُلَّت الأرضُ طَلاً: أصابها الطَّلُّ، وطَلَّها الندى فهي مطلولة. والطَّلُّ: المطرُ الصِّغارُ القطرِ الدائم.

(٥) في سنن النسائي: إلى الأراك. والأراكُ: شجر السواك. والإِذْخِرُ: حشيشٌ طيب الريح.

(٦) لفظ النسائي والترمذي: كَبْله. والأكبُلُ: جمع كَبْلٍ، وهو القيد. وفي نسخة الحرم: إكليله. وهو تحريف.

(٧) عارضة الأحوذي، تفسير سورة النور ١٢/٤٢ ـ ٤٤، وسنن أبي داود ٢/٢٢٠ ـ ٢٢١، والنسائي ٦/٦٦ ـ ٦٧.

وهكذا أخرجه أبو داود في سُنَنه عن مُسَدَّد وأبي مَعْمَر ـ عبد الله بن عمرو ـ كِلَاهُما عن عبد الوارث، به[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوبُ، حدثنا عاصم بن محمد بن زيد[٢] بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن أخيه عُمَر بن محمد، عن عبد الله بن يَسَار ـ مولى ابن عمر ـ قال: أشهد لَسَمِعتُ سالماً يقولُ: قال عبدُ الله: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنةَ، ولا ينظر الله إليهم يومَ القيامة: العاقُّ لوالديه، والمرأةُ المترجِّلَةُ ـ المتشبهة بالرجال ـ والديُّوثُ. وثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، ومدمِنُ الخمر، والمنَّان بما أعطى»[٣].

ورواه النسائي عن عمرو بن علي الفَلَّاس، عن يزيد بن زُرَيع، عن عُمَر بن محمد العُمَري، عن عبد الله ابن يَسَار، به[٣].

وقال الإمام أحمدُ أيضاً: حدثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، حدثنا الوليدُ بن كثير، عن قَطَن بن وَهب بن[٤] عُويمِر بن الأجدع، عمَّن حَدَّثه، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال: حَدَّثني عبدُ الله بن عمر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ثلاثةٌ حرَّم الله عليهم الجنةَ: مُدمِن الخمر، والعاقُّ، والدَّيُّوثُ الذي يُقِرُّ في أهله الخَبَث»[٥].

وقال أبو داود الطيالسي في مُسْنَده: حدثنا شعبةُ، حَدَّثني رجل من آل سهل بن حُنَيف، عن محمد بن عَمَّار، عن عمار بن ياسر قال: رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يدخلُ الجنَّةَ دَيوثٌ»[٥]. يُسْتَشهد به لما قبله مِنَ الأحاديث.

وقال ابنُ ماجه: حدثنا هشام بن عَمَّار، حدثنا سَلَّام بن سَوَّار، حدثنا كَثِير بن سُلَيم، عن الضَّحَّاك بن مُزاحم: سمعتُ أنسَ بن مالك يقول: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «من أراد أن يلقى الله طاهراً مُطَهَّراً فَلْيَتَزوَّج الحرائر»[٦]. في إسناده ضعفٌ.

قال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حَمَّاد الجوهري في كتاب «الصِّحَاح في اللغة»: الدَّيُّوثُ القُنْذُع، وهو الذي لا غَيرَةَ له.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في «كتاب النكاح» من سُنَنه: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن عُلَيَّة، عن يزيدَ بن هارون، عن حَمَّاد بن سَلَمة وغيره، عن هارون بن رِئاب، عن عبد الله بن عُبَيد

---

(١) سنن أبي داود، كتاب النكاح ٢/٢٢١.

(٢) في نسخة الحرم: من بني عبد الله. وفي المسند: عاصم بن محمد يعني ابن زيد بن عبد الله.

(٣) مسند أحمد ٢/١٣٤، وسنن النسائي، كتاب الزكاة ٦/٨٠ ـ ٨١.

(٤) في النسخ: عن عويمر. وهو خطأ، انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٧/١٣٨.

(٥) مسند أحمد ٢/٦٩، ومسند أبي داود ٨٩.

(٦) سنن ابن ماجه، كتاب النكاح ١/٥٩٨. وفي مجمع الزوائد: إسناده ضعيف لضعف كثير بن سليم. وسلام هو ابن سليمان بن سوَّار، عنده مناكير.

ابن عمير ـ وعبد الكريم، عن عبد الله بن عُبَيد بن عُمَير ـ عن ابن عباس ـ عبدُ الكريم رفعه إلى ابن عباس، وهارون لم يرفعه ـ قالا: جاء رجلٌ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إنَّ عندي امرأة هي من أحبِّ الناسِ إليّ، وهي لا تمنع يَدَ لامسٍ، قال: طَلِّقها. قال: لا صبرَ لي عنها. قال: استمتع بها.

ثم قال النسائي: هذا الحديثُ غير ثابت، وعبد الكريم ليس بالقوي، وهارون أثبتُ منه، وقد أرسل الحديث وهو ثقة، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم[1].

قلتُ: وهو[2] ابن أبي المخارق البَصْري المؤدِّب، تابعيٌّ ضعيفُ الحديث، وقد خالفه هارونُ بن رِئاب، وهو تابعي ثقة من رجال مسلم، فَحَدِيثه المرسَلُ أولى كما قال النسائي. لكن قد رَوَاه النسائي في كتاب الطلاق، عن إسحاق بن إبراهيم، ابن راهَوَيه، عن النضر بن شُمَيل، عن حَمَّاد بن سَلَمة، عن هارون بن رِئاب، عن عبد الله بن عُبَيد بن عُمَير، عن ابن عباس مسنداً، فذكره، فهذا بهذا الإسناد رِجالُه على شَرْطِ مسلم، إلا أن النسائي بعد روايته له قال: «وهذا خطأ، والصواب مرسل، ورواه غير النضر على الصواب»[3].

وقد رواه النسائي أيضاً وأبو داود، عن الحسين بن حُرَيث، أخبرنا الفضل بن موسى، أخبرنا الحُسَين بن واقد، عن عُمَارة بن أبي حَفْصَةَ، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ فذكره. وهذا إسناد جيد[4].

وقد اختلف الناسُ في هذا الحديث ما بين مُضَعِّف له، كما تَقَدَّم عن النسائي، وكما قال الإمام أحمد: هو حديث منكر. وقال ابن قُتَيبة: إنما أراد أنها سَخِيَّة لا تمنع سائلاً[5]. وحَكَاه النسائي في سُنَنه عن بعضهم [فقال: وقيل: «سخية تعطي». ورُدَّ هذا بأنه لو كان المراد لقال: لا تَرُدُّ يد ملتمس][6].

وقيل: المراد إن سَجِيَّتها لا تَرُدّ يد لامس، لا أن المراد أن هذا واقع منها، وأنها تفعلُ الفاحشة؛ فإن رسول الله ـ ﷺ ـ لا يأذَنُ في مُصَاحبة من هذه صفتها، فإن زوجها ـ والحالة هذه ـ يكون دَيّوثاً، وقد تَقَدَّم الوعيد على ذلك. ولكن لما كانت سَجِيَّتُها هكذا ليس فيها مُمَانَعَة ولا مُخَالَفَة لمن أرادها لو خَلا بها أحد، أمره رسولُ الله ـ ﷺ ـ بفراقها، فلما ذكر أنَّهُ يحبُّها أباح له البقاء معها، لأنَّ محبته لها مُحَقَّقة، ووقوعُ الفاحشة منها مُتَوَهَّم، فلا يُصَار إلى الضَّررِ العاجلِ لتوهُّمِ الآجلِ، والله ـ سبحانَه وتعالى ـ أعلمُ.

قالوا: فأما إذا حَصَلَت توبة فإنه يحل التزويج، كما قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم، رَحِمه الله:

حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد، عن ابن أبي ذئب، قال: سَمِعت شعبَة ـ مولى ابن عباس، رضي الله عنه ـ قال: سَمِعت ابن عباس وسأله رجلٌ قال: إني كنتُ أَلِمُّ بامرأة آتي منها ما حَرَّم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليَّ، فرزق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من ذلك توبةً، فأردت أن أتزوَّجها، فقال أناس: إن الزاني لا ينكِحُ إلا زانيةً. فقال

---

(١) سنن النسائي ٦/٦٧ ـ ٦٨.

(٢) أي: عبد الكريم. انظر الجرح لابن أبي حاتم ٦/٥٩ ـ ٦٠.

(٣) سنن النسائي، كتاب الطلاق ٦/١٧٠ وقوله: «ورواه غير النضر على الصواب» ليس في سنن النسائي، وهو في تحفة الأشراف للمزي ٥/٤٧ معزواً إلى النسائي.

(٤) سنن النسائي، كتاب الطلاق ٦/١٦٩ ـ ١٧٠، وسنن أبي داود، كتاب النكاح ٢/٢٢٠.

(٥) ذكر أبو موسى المديني في المجموع المغيث ٣/١٤٨، بإسناده إلى أحمد بن سعيد بن عبد الخالق قال: سألت أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ عن معنى «لا ترد يد لامس»، قال: تعطي من ماله. قلت: فإن أبا عبيد يقول: من الفجور. فقال: ليس هو عندنا إلا أنها تعطي من ماله، ولم يكن النبي ـ ﷺ ـ ليأمره بإمساكها وهي تفجر.

(٦ ـ ٦) ليس في نسخة الحرم.

ابن عباس: ليس هذا في هذا، انكحها فما كان من إثم فعليّ[1].

وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيّب قال: ذُكِرَ عنده ﴿ الزاني لا ينكحُ إلا زانية أو مشركة والزانيةُ لا ينكحُها إلا زانٍ أو مشركٌ ﴾، قال، كان يُقال: نسختها الّتي بعدها: ﴿ وأنكِحُوا الأيامَى منكُم ﴾، قال: كان يُقال الأيامَى من المُسلِمينَ[2].

وهكذا رواه الإمامُ أبو عُبيد القاسم بن سَلّام في كتاب «الناسخ والمنسوخ» له، عن سعيد بن المسيّب. ونَصَّ على ذلك أيضاً الإمامُ أبو عبد الله محمدُ بن إدريسَ الشافعيُّ، رَحِمَه الله.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

هذه الآيةُ الكريمةُ فيها بَيَان حكمُ جلدِ القاذف للمحصَنة، وهي الحرَّةُ البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوفُ رجلاً فكذلك يُجلَد قاذِفُه أيضاً، وليس في هذا نزاعٌ بين العلماء. فأما إن أقام القاذفُ بيِّنةً على صحة ما قاله رُدَّ عنه الحدُّ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم لم يأتوا بأربعةِ شهداء فاجلِدُوهم ثمانين جلدةً ولا تقبَلُوا لهم شهادةً أبداً وأولئك هُم لفاسِقُون ﴾. فأَوجبَ على القاذفِ إذا لم يُقِم بينةً على صِحّة ما قاله ثلاثةَ أحكام، أحدها: أن يُجلَد ثمانين جلدة. الثاني: أنه تُرَدُّ شهادته دائماً. الثالث: أن يكون فاسقاً ليس بِعَدْلٍ، لا عندَ الله ولا عندَ الناس.

ثم قال تعالى: ﴿ إلا الذين تابُوا من بعد ذلك وأصلَحُوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ ﴾. اختلف العلماء في هذا الاستثناء: هل يعود إلى الجُملةِ الأخيرةِ فقط فَترفَعُ التوبةُ الفسقَ فقط، ويبقَى مردودَ الشهادةِ دائماً وإن تاب، أو يعودُ إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ أما الجلدُ فقد ذَهب وانقضى، سواء تاب أو أصرَّ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف. فذهب الإمامُ مالكٌ والشافعيُّ وأحمدُ بن حَنبل إلى أنه إذا تاب قُبِلت شهادتُه، وارتَفع عنه حكمُ الفِسْقِ. ونَصَّ عليه سَعِيد بن المسيب ـ سيِّد التابعين ـ وجماعة من السلف أيضاً. وقال الإمامُ أبو حنيفةَ إنما يعود الاستثناءُ إلى الجُملةِ الأخيرة فقط، فَيرتفع الفِسْقُ بالتوبة، ويبقى مردودَ الشهادة أبداً. وممن ذَهب إليه من السلف القاضي شُرَيح، وإبراهيم النَّخَعيُّ، وسعيد بن جُبَير، ومكحولٌ، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر

وقال الشعبيُّ والضحَّاكُ: لا تُقبَلُ شهادتُه وإن تاب، إلا أن يَعْتَرِف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فَحينئذ تُقبَل شهادتُه، والله أعلم.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

---

(١) أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة وغير واحد. انظر الدر المنثور ٦/١٢٩.

(٢) أخرجه كذلك ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وغير واحد. الدر المنثور ٦/١٣٠، ولفظه: «فهُنَّ من أيامى المسلمين».

هذه الآيةُ الكريمةُ فيها فَرَجٌ للأزواجِ وزيادةُ مخرجٍ ـ إذا قذفَ أحدُهم زوجتَه، وتعسَّر عليه إقامةُ البيِّنة ـ أن يُلاعنها، كما أمر الله ـ عزَّ وجل ـ وهو أن يُحضرها إلى الإمام، فيَدَّعِيَ عليها بما رماها به، فيُحلِّفه الحاكمُ أربعَ شهاداتٍ باللهِ في مُقابلةِ أربعةِ شُهَداء، ﴿ إنه لمن الصَّادقين ﴾، أي: فيما رَمَاها به من الزِّنَا، ﴿ والخامسةُ أنَّ لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين ﴾. فإذا قال ذلك بانت منه بنَفْسِ هذا اللعان عند الشافعيِّ وطائفةٍ كثيرةٍ من العلماء، وحُرِّمت عليه أبداً، ويُعطيها مَهْرَها، ويَتَوجَّه عليها حَدُّ الزِّنَا، ولا يُدرأُ عنها إلا أن تُلاعِنَ فتشهدَ أربعَ شهاداتٍ باللهِ إنه لمنَ الكاذبينَ، أي: فيما رَمَاها به، ﴿ والخامسةَ أن غَضَبَ الله عليها إن كان من الصادقين ﴾. ولهذا قال: ﴿ ويَدْرَأُ عنها العذابَ ﴾، يعني: الحدَّ، ﴿ أن تشهد أربعَ شهاداتٍ باللهِ إنَّه لَمِنَ الكاذبين * والخامسةَ أنَّ غَضَبَ الله عليها إن كان من الصادقين ﴾. فَخَصَّها بالغضب، لأنَّ الغالب أن الرجل لا يَتَجشَّم فضيحةَ أهلِه وَرَمْيَها بالزِنَا إلا وهو صادقٌ مَعْذُورٌ، وهي تعلمُ صدقَه فيما رماها به. ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غَضَبَ الله عليها، والمغضوبُ عليه هو الذي يعلَم الحقَّ ثم يحيدُ عنه.

ثم ذكر تعالى لُطفَه بخلقه، ورأفتَه بهم، وشَرْعَه لهم الفرجَ والمخرجَ من شدَّةِ ما يكونُ فيه من الضِيق، فقال: ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه ﴾، أي: لَحَرِجتُم ولشقَّ عليكم كثيرٌ من أُمورِكم، ﴿ وأن الله تَوَّابٌ ﴾ على عبادِه ـ وإن كان بعد الحَلِفِ والأيمانِ المُغَلَّظة ـ ﴿ حكيم ﴾ فيما يشرعه ويأمرُ به وفيما ينهى عنه.

وقد وردت الأحاديثُ بِمُقْتَضَى العَمَلِ بهذه الآية، وذِكْرِ سَبَبِ نزولها، وفِيمَن نَزَلت فيه مِنَ الصَّحابةِ، فقال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا يزيدُ، أخبرنا عَبَّادُ بنُ منصور، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: لما نَزَلت: ﴿ والذين يرمونَ المحصنات ثُمَّ لم يأتوا بأربعة شُهَداء فاجلدُوهم ثمانينَ جلدةً ولا تَقبلُوا لهم شهادةً أبداً ﴾، قال سعدُ بن عُبادة ـ وهو سَيِّدُ الأنصار ـ: أهكذا أُنزِلت يا رسولَ الله؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيِّدكم؟ قالوا: يا رسولَ الله، لا تَلُمه فإنه رجلٌ غيورٌ، والله ما تَزَوَّجَ امرأةً قطُّ إلا بكراً، وما طلق امرأةً له قطُّ فاجترأ رجلٌ منا أن يتزوجها، من شدَّةِ غَيْرَتِه. فقال سعد: والله ـ يا رسولَ الله ـ إني لأعلَمُ أنها حقٌّ، وأنها من الله، ولكنِّي قد تَعَجَّبتُ أني لو وَجَدتُ لَكَاعاً[1] قد تَفَخَّذها رجلٌ، لم يكن لي أن أُهَيِّجه ولا أُحَرِّكه حتى آتيَ بأربعة شهداء، فوالله لا آتي بهم حتى يَقضِيَ حاجته. قال: فما لَبِثُوا إلا يسيراً حتى جاء هلالُ بن أُمية ـ وهو أحد الثلاثة الذين تِيبَ[2] عليهم ـ فجاء من أرضِه عِشاءً، فوجدَ عند أهلِه رجلاً، فرأى بعينيه وسَمِعَ بأذنيه، فلم يَهِجْه حتى أصبحَ، فغَدا على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إني جِئتُ أهلي عشاءً، فوجدتُ عندها رَجُلاً، فرأيت بعيني وسمعتُ بأُذُني. فكرهَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ما جاء به، واشتدَّ عليه. واجتمعت الأنصارُ فقالت: قد ابتُلينا بما قال سعدُ بن عُبادَةَ، الآن يَضربُ رسولُ الله ـ ﷺ ـ هلالَ بن أُمَيَّة، ويُبْطِلُ شهادَتَه في الناس. فقال هلالٌ: والله إني لأرجو أن يجعَل الله لي منها مخرجاً. وقال هلالٌ: يا رسولَ الله، إني قد أرى ما اشتدَّ عليك مما جِئْتُ به، والله يعلَمُ إني لَصادِقٌ. فوالله إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يريد أن يأمر بضَرْبِه إذ أنزَلَ الله على رسول الله ـ ﷺ ـ الوحي، وكان إذا نَزَلَ عليه الوحيُ عرفوا ذلك، في تَرَبُّدِ وجهه، يعني فأمسكوا عنه حتى فَرَغَ من الوحي ـ فنزلت: ﴿ والذين يرمُون أزواجَهُم ولم يكن لهم شهداءُ إلا أنفسُهم فشهادةُ أحدهم أربعُ شهاداتٍ بالله ﴾.... الآية، فسُرِّيَ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: أبشِرْ يا هلالُ، قد جَعَلَ الله لك فرجاً ومخرجاً. فقال

---

(١) اللَّكاع: العبد.

(٢) انظر خبر هلال في آية التوبة ١١٨

هلالٌ: قد كنتُ أرجو ذلك من رَبِّي عزَّوجلَّ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أرسلُوا إليها. فأرسلُوا إليهـا، فجاءت فتلاها رسُولُ الله ـ ﷺ ـ عليهما، وذَكَّرهما وأخبرَهُما أن عذابَ الآخرة أشدُّ من عذاب الدنيا. فقال هلال: والله ـ يا رسولَ الله ـ لقد صَدَقْتُ عليها. فقالت: كذَبَ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لاعنوا بينهما. فقيل لهلال: اشهَدْ. فَشَهِدَ أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلَما كان في الخامسة قيل له. يا هلالُ، اتَّقِ الله، فإن عذابَ الدنيا أهونُ من عذاب الآخرةِ، وإنَّ هذه الموجبةُ التي تُوجِب عليك العذابَ. فقال: والله لا يُعَذِّبني الله عليها كما لم يَجْلِدني عليها. فَشَهِد في الخامسة أنَّ لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم قيل لها: اشهَدِي أربَع شهاداتٍ بالله إنَّه لمن الكاذبين، فلما كانت الخامسةُ قيل لها: اتقي الله، فإنَّ عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبةُ التي تُوجِب عليك العذاب، فَتَلَكَّأت ساعةً، ثم قالت: والله لا أفضحُ قومي. فشهدت في الخامسة أن غَضَب الله عليها إن كان من الصادقين. فَفَرَّق رسول الله ـ ﷺ ـ بينهما، وقضى أن لا يُدْعَى ولدُها لأبٍ ولا يُرمَى ولدها، ومن رَمَاها أو رَمَى ولدها فعليه الحدُّ، وقَضَى ألَّا بيتَ لها عليه ولا قُوتَ لها، من أجل أنهما يَتفرَّقان من غير طَلَاقٍ ولا مُتَوَفَّى عنها، وقال: إن جَاءَت به أُصَيْهِبَ أُرَيْسِحَ حَمْشَ الساقين[1] فَهُو لهلالٍ، وإن جاءت به أورقَ جعداً جُمَالِيًّا خَدَلَّجَ الساقينَ سَابِغَ[1] الأَلْيَتَين، فهو الذي رُمِيت به. فجاءت به أورقَ جَعداً جُمَالِيًّا خَدلَّجَ الساقين سابغ الأليتين، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لولا الأَيمانُ لكان لي ولها شأنٌ. قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر، وكان يُدعَى لأمّه ولا يُدْعَى لأبٍ[2].

ورواه أبو داود عن الحسن بن عليٍّ، عن يزيد بن هارون، به [نحوه مختصراً][2].

ولهذا الحديثِ شواهدُ كثيرةٌ في الصِحَاح وغيرها من وُجُوهٍ كثيرةٍ، فمنها ما قال البخاريُّ:

حدثني محمد بن بَشّار، حدثنا ابن أبي عَدِيٍّ، عن هشام بن حَسَّانَ، حدثني عِكْرِمَةُ، عن ابن عباس: أن هلال بن أُمَيَّةَ قذف امرأته عند النبي ـ ﷺ ـ بِشَريك بن سَحْمَاءَ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: البينةَ أو حدٌّ في ظَهرِك. فقال: يا رسول الله، إذا رَأَى أحدُنا على امرأته رجلاً ينطلقُ يلتمسُ البيِّنةَ؟! فَجَعَل النبي ـ ﷺ ـ يقول: البينةَ وإلا حَدٌّ في ظهرِك. فقال هلالٌ: والّذي بَعَثك بالحقِّ إني لصادق، ولَيُنزِلَنَّ الله ما يُبرِىءُ ظَهري من الحدِّ. فَنَزَل جبريل، وأَنزَلَ عليه: ﴿ والذين يَرْمُون أزواجهم ﴾، فقرأ حتى بَلَغ: ﴿ إن كان من الصادقين ﴾. فانصرف النبيُّ ـ ﷺ ـ فأرسل إليهما، فجاء هلالٌ فَشَهِدَ، والنبيُّ ـ ﷺ ـ يقول: إنَّ الله يعلَمُ أنَّ أحدكما كاذِبٌ، فهل منكما تائبٌ؟ ثم قامت فَشَهِدَت، فلما كانت عند الخامسةِ وَقَّفُوها وقالوا: إنَّها موجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضَحُ قومي سائرَ اليوم. فمضت، فقال النبي ـ ﷺ ـ: أبصِرُوها، فإن جاءت به أَكْحَلَ العينين، سَابِغَ الأَلْيَتَين، خَدَلَّج الساقين، فهو لشَريك بن سَحماء، فجاءت به كذلك، فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: لولا ما مَضَى من كِتاب الله، لكان لي ولها شأن[3].

انفرَدَ البخاريُّ من هذا الوَجهِ، وقد رواه من غير وَجْهٍ، عن ابن عباس وغيرِه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرَّمادي، حدثنا يونُس بن محمد، حدثنا صالح ـ وهو ابن

(١) الأُصَيهِب الذي تعلُو لونه صُهْبَةٌ، وهي كالشُّقرة. والأُرَيسح: الذي لا عَجُز له. وفي سنن أبي داود: أُرَيصِح، بالصاد. وهي لغة. والأَوْرَقُ: الأسمر، والجَعْدُ: جَعْدُ الشَّعَر، وهو ضِدُّ السَّبْط. والجُمَاليُّ: الضخم الأعضاء، التام الأوصال. والخَدلَّج: عظيم الساقين.

(٢) مسند أحمد ١/٢٣٨ ـ ٢٣٩، وسنن أبي داود، كتاب الطلاق ٢/٢٧٦ ـ ٢٧٨. (٣) فتح الباري، تفسير سورة النور ٨/٤٤٩.

عُمَر - حدثنا عاصم - يعني ابن كُلَيب - عن أبيه، حدثني ابن عباس قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله، فرَمَى امرأته برجل، فكره ذلك رسولُ الله - ﷺ -، فلم يزل يُرَدِّده حتى أنزل الله: ﴿ والذينَ يرمُون أزواجَهُم ولم يكنْ لهم شهداء ﴾، حتى فرغ من الآيتين، فأرسل إليهما فدعاهما، فقال: إن الله - عزَّ وجلَّ - قد أنزل فيكما. فدعا الرجل فقرأ عليه، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. ثم أمَر به فأُمسِكَ على فيه فوَعظه، فقال له: كلُّ شيء أهونُ عليه[1] من لَعْنَةِ الله. ثم أرسله فقال: ﴿ لعنةُ الله عليه إن كان من الكاذبين ﴾. ثم دعا بها، فقرأ عليها، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، ثم أمر بها فأُمسِكَ على فيها فوَعظها، وقال: ويحكِ. كلُّ شيء أهونُ من غضب الله. ثم أرسلها، فقالت: ﴿ غَضَبَ الله عليها إن كان من الصادقين﴾. فقال رسولُ الله - ﷺ -: أما والله لأقضِيَنَّ بينكما قضاءً فصلاً. قال: فوَلدت، فما رأيتُ مولوداً بالمدينة أكثر غاشيةً[2] منه، فقال: إن جاءت به لِكَذا وكَذا فهو لكذا. وإن جاءت به لِكَذا وكَذا فهو لِكَذا. فجاءت به يُشبِهُ الذي قُذِفَت به.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الملك بن أبي سُلَيمان قال: سمعت سَعيد بن جُبَير قال: سُئِلْتُ عن المتلاعِنَين أيُفرَّق بينهما؟ في إمارة ابن الزبير، فما دَرَيتُ ما أقولُ، فقُمت من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلتُ: أبا عبدِ الرحمن، المتلاعنان أيُفرَّقُ بينهما؟ فقال: سُبحانَ الله! إن أول مَن سأل عن ذلك فلانُ بن فلان. فقال. يا رسولَ الله، أرأيتَ الرجل يَرَى امرأته على فاحشة فإن تَكلَّم تَكَلَّم بأمر عظيم، وإن سَكَت سَكَت على مثل ذلك؟ فسكَت فلم يُجبه، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال: الذي سألتك عنه قد ابتُليت به. فأنزل الله - عزَّ وجلَّ - هذه الآيات في سورة النور: ﴿والذين يرمُون أزواجهم﴾، حتى بلغ: ﴿أنَّ غَضَبَ الله عليها إن كان من الصادقين ﴾. فبَدأ بالرجل فوَعظه وذكَّره، وأخبرَه أن عذَاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، فقال. والذي بَعثك بالحق ما كَذَبْتُك. ثم ثَنَّى بالمرأة فَوَعظها وذكَّرها، وأخبرها أن عذاب الدُّنيا أهونُ من عذابِ الآخرةِ، فقالت: والذي بَعثك بالحقِّ، إنه لكاذب. قال: فبَدأ بالرجل، فشَهِد أربعَ شَهاداتٍ بالله إنه لمن الصادقين. والخامسةُ أن لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين. ثم ثَنَّى بالمرأة فشَهِدت أربع شهاداتٍ بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسةَ أنَّ غَضَبَ اللهِ عليها إن كان من الصادقين. ثم فَرَّق بينهما[3].

رواه النسائي في التفسير، من حديث عبد الملك بن أبي سليمان به، وأخرجاه في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس[3].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى بن حَمّاد، حدثنا أبو عَوانة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمةَ، عن عبد الله قال: كنّا جلوساً عَشيَّةَ الجُمُعةِ في المسجد، فقال رجلٌ من الأنصار: أحدُنا إذا رأى مَعَ امرأته رجلاً فقتله قتلتُموه، وإن تكلم جلَدتُموه، وإن سَكَت سَكَت على غيظٍ، والله لئن أصبحتُ صالحاً لأسألنَّ رسول الله ﷺ . قال، فسأله، فقال: يا رسولَ الله، إنَّ أحدنا إذا رأى مَعَ امرأته رَجُلاً فقتله قتلتُموه، وإن تكلّم جلدتُموه، وإن سَكَت سَكَت على غيظٍ، اللهُمَّ احكُم. قال. فأُنزلت آية اللعان، فكان ذلك الرجُل أولَ مَن ابتُلي به[4].

انفرد بإخراجه مسلمٌ، فرواه من طُرُق، عن سُليمان بن مهرانَ الأعمش، به[4].

(١) في تفسير ابن أبي حاتم. أهون عليك.
(٢) أي. قوماً حُضوراً
(٣) مسند أحمد ١٩/٢، وفتح الباري، كتاب الطلاق ٤٥٧/٩، ومسلم، كتاب اللعان ١١٣١/٢ - ١١٣٢. وأخرجه النسائي في التفسير من سننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف للمزي ٤٦/٥)
(٤) مسند أحمد ٤٢١/١ - ٤٢٢، ومسلم، كتاب اللعان ١١٣٣/٢.

وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدّثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيمُ بن سَعد، حدثنا ابن شِهاب، عن سهل بن سعد، قال: جاء عُوَيمرٌ إلى عاصمِ بن عديٍّ فقال: سَلْ رسولَ الله ـ ﷺ ـ. أرأيتَ رَجُلاً وَجَد رجلا مع امرأته فقتله، أيُقتَل به أم كيف يَصنعُ؟ فسأل عاصمٌ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فعابَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ المَسَائلَ، قال. فلقيه عُوَيمر فقال: ما صنعتَ؟ قال: ما صنعت! إنك لم تأتني بخير؛ سألتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فعابَ المسائلَ. فقال عُوَيمر: واللهِ لآتينَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فلأسألنَّه. فأتاه فوجَدَه قد أُنزل عليه فيهما، قال: فدَعا بهما فلاعَن بينهما. قال عُوَيمر: لئن انطلقتُ بها يا رسولَ اللهِ لقد كَذَبت عليها. قال: ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ـ ﷺ ـ فصارت سنة المتلاعنين، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أبصروها فإن جاءت به أسحَمَ أدْعَجَ[1] العينين عظيم الأليتين، فلا أراه إلا قد صَدَق، وإن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَةٌ[1] فلا أراه إلا كاذباً. فجاءت به على النعت المكروه[2].

أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذيَّ، من طُرُقٍ، عن الزهريِّ، به[2].

وقال الحافظ أبو بكر البزّارُ: حدثنا إسحاق بن الضيف، حدثنا النضر بن شُمَيل، حدثنا يُونُس بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن زيد بن يُثَيع، عن حُذَيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لأبي بكر: لو رأيتَ مع أم رُومَانَ رجلاً، ما كنتَ فاعلاً به؟ قال: كنتُ واللهِ فاعلاً به شرّاً. قال: فأنتَ يا عُمر؟ قال: كنتُ واللهِ قاتِلَه، كنت أقولُ: لَعَن الله الأعجَزَ، وإنه خبيثٌ. قال: فنَزَلت: ﴿ والذين يرمُون أزواجَهم ولم يكن لهم شُهَداء إلا أنفُسهم ﴾[3].

ثم قال: لا نعلم أحداً أسنَدَه إلا النضر بن شميل، عن يُونُس بن أبي إسحاقَ. ثم رواه من حديث الثوري عن أبي إسحاق، عن زيد بن يُثَيع مرسلاً، فالله أعلم[3].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجَرْمِيُّ، حدثنا مَخلد بن الحُسَين، عن هشام، عن ابن سيرينَ، عن أَنَس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: أول لِعَانٍ كان في الإسلام أنَّ شريكَ بن سَحْمَاء قذفه هلالُ ابن أمية بامرأته، فَرُفِعَتْ إلى رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أربعةَ شُهودٍ وإلا فحدٌّ في ظهرك. فقال: يا رسولَ الله، إن الله يعلم إني لصادق، ولَيُنزِلَنَّ الله عليك ما يُبَرِّىءُ به ظهري من الجلد. فأنزل الله آية اللِّعَانِ: ﴿ والذين يرمُون أزواجهم ولم يكن لهم شُهَداء إلا أنفُسهم ﴾، إلى آخر الآية. قال: فدَعاه النبيُّ ـ ﷺ ـ فقال: اشهَدْ بالله إنَّك لمن الصادقين فيما رميتها بِهِ من الزِّنَا. فَشَهِد بذلك أربعَ شهاداتٍ، ثم قال له في الخامسة: ولعنة الله عليك إن كنتَ من الكاذبين فيما رميتَها به من الزِّنَا. فَفَعل. ثم دعاها رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: قُومي فاشهَدِي بالله إنَّه لمن الكاذبين فيما رماكِ به من الزِّنَا. فَشَهِدت بذلك أربع شهادات، ثم قال لها في الخامسة: وغَضِبَ الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماكِ به من الزِّنَا. فقالت.

فلما[4] كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتةً، حتى ظنوا أنها ستعترفُ، ثم قالت: لا أفضح قومي سائرَ

---

(١) أسْحَم: أسود، وأدْعَج شديد سواد العينين. والوحرةُ: دُوَيبةٌ تلزق بالأرض.

(٢) مسند أحمد ٥/٣٣٤، وفتح الباري، تفسير سورة النور ٨/٤٤٨، ومسلم، كتاب اللعان ٢/١١٢٩ ـ ١١٣٠، وسنن أبي داود، كتاب الطلاق ٢/٢٧٤ ـ ٢٧٥.

(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار، تفسير سورة النور ٣/٦٠ ـ ٦١.

(٤) قبله في مسند أبي يعلى: قال محمد.

اليوم. فمضت على القول. ففرّق رسول الله ـ ﷺ ـ بينهما، وقال: انظروه، فإن جاءت به جَعْداً حَمْشَ الساقين فهو لشريك بن سَحْماء، وإن جاءت به أبيضَ سَبِطاً [أقمرَ] قَضِيءَ[1] العينين فهو لهلال بن أمية. فجاءت به آدمَ جَعْداً حَمْشَ الساقين، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ولولا ما نَزَل فيهما من كتابِ الله لكانَ لي ولها شأن»[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

هذه العشرُ الآياتِ كلُّها نزلَت في شأن عائشةَ أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ حين رَماها أهلُ الإفك والبُهتان من المنافقين بما قالوه من الكَذِب البَحْتِ والفِرْيَة التي غار الله تعالى لها ولنبيه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ فأنزل بَراءتها صيانةً لِعِرْضِ الرسول ـ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام ـ فقال: ﴿إِنَّ الذين جاءُوا بالإفْكِ عُصبةٌ﴾، أي: جماعةٌ منكم، يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدَّمُ في هذه اللعنة عبدَ الله بن أُبَيّ ابن سَلُولَ رأسَ المنافقين، فإنه كان يجمَعه ويَسْتَوشِيه[3]، حتى دَخَل ذلك في أذهانِ بعضِ المسلمين فتكلَّموا به، وجَوَّزه آخرون منهم، وبقي الأمرُ كذلك قريباً من شهر، حتى نَزَل القرآن، وسياقُ ذلك في الأحاديث الصحيحة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمرٌ، عن الزُّهريِّ قال: أخبرني سعيدُ بن المسيِّب، وعُروةُ بن الزُّبير، وعلقمةُ بن وَقَّاص، وعُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن حديث عائشةَ زوجِ النبي ـ ﷺ ـ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرَّأها الله، وكلّهم قد حدَّثني بطائفةٍ من حديثها، وبعضُهم كان أوعَى لحديثها من بعضٍ وأثبتَ اقتصاصاً، وقد وَعَيتُ عن كلِّ واحدٍ منهم الحديثَ الذي حَدَّثني، وبعض حديثهم يصدق بعضاً:

ذكروا أن عائشةَ زوجَ النبي ـ ﷺ ـ قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا أراد أن يخرج سَفَراً أقرعَ بين نسائه، فأيَّتهنَّ خرجَ سهمُها خَرَج بها رسولُ الله ـ ﷺ ـ معه، قالت عائشة: فأقرعَ بيننا في غزوةٍ غزاها، فخرج فيها سَهمي، وخرجتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ وذلك بعدما أُنزِلَ الحجابُ، فأنا أُحمَل في هَودَجي وأُنزل فيه مَسيرنا، حتى إذا فَرَغ رسولُ الله ـ ﷺ ـ من غَزْوِه وقفَل ودَنَونا من المدينة آذنَ ليلةً بالرَّحيل، فقمتُ حين آذنُوا بالرحيل، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيتُ شأني أقبلتُ إلى الرحل فلَمستُ صَدري، فإذا عِقدٌ من جَزْعِ ظَفَارِ[4] قد انقطع، فرجعتُ فالتمستُ عِقدي، فحبسني ابتغاؤه. وأقبل الرهطُ الذين كانوا يرحَلون بي فحملُوا هودجي فرَحلوه على بعيري الذي كنت أركبُ، وهم يَحسَبون أني فيه ـ قالت: وكان النساءُ إذ ذاك خفافاً لم يُهبِّلْهنَّ[5] ولم يغشَهنَّ اللحمُ، إنما يأكُلن العُلْقَة[6] من الطعام. فلم يستنكر القومُ ثِقَل الهودج حين رَحَلوه

---

(١) في مسند أبي يعلى «سبطاً أقمر العينين» والسبط ـ بفتح فسكون، وبالتحريك ـ وبفتح فكسر ـ: نقيض الجعد، وشعر سَبْط: مسترسل غير جعد. والأقمر: الأبيض. وقضيء العينين: فاسدهما.

(٢) مسند أبي يعلى ٥/٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٣) استوشى الحديث: استخرجه بالبحث والمسألة.

(٤) الجزْع: الخرَز. وظفار: مدينة باليمن لحمير.

(٥) أي: لم يكثر عليهنّ.

(٦) العُلقة: الشيء اليسير.

وَرَفَعُوه، وكنت جارية حديثة السنّ، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدتُ عِقدي بعدما استمرَّ الجيشُ، فجئت منازلَهم وليس بها داعٍ ولا مُجيبٌ، فتيممتُ منزلي الذي كنتُ فيه، وظننتُ أن القومَ سيَفقِدُوني فيَرجِعُون إليَّ. فبينا أنا جالسة في منزلي، غَلَبتني عيني فنمت. وكان صفوان بن المعطَّل السُّلميُّ ثم الذَّكْوَانِي قد عَرَّس من وراء الجيش، فادَّلَجَ[1] فأصبحَ عند منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فَعرفني حينَ رآني وقد كان يراني قبلَ أن يُضرَبَ عليَّ الحِجَابُ، فاستيقظت باسترجاعه[2] حين عَرَفني، فَخمَّرتُ[3] وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كَلِمةً، ولا سَمِعتُ منه كلمةً غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فَوَطِئ على يَدِها فركبتُها، فانطلق يقود بي الراحلةَ حتى أتينا الجيشَ بعد ما نزلوا مُوغِرِينَ في نَحرِ الظهيرة[4]. فَهَلَك مَن هَلَك في شأني، وكان الذي تولى كِبْرَه عبد الله بن أبي ابن سَلُولَ. فَقَدِمتُ المدينةَ فاشتكيتُ حين قَدِمنا شهراً، والناسُ يُفِيضُون في قول أهل الإفك، ولا أشعرُ بشيءٍ من ذلك، وهو يَرِيبني[5] في وَجَعي أني لا أعرفُ من رسول الله ـ ﷺ ـ اللُّطفَ[6] الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنما يدخلُ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فَيُسلِّم، ثم يقول: كيفَ تِيكُم؟ فذلك يَريبني ولا أشعرُ بالشرِّ، حتى خرجتُ بعد ما نَقِهتُ، وخَرَجَت معي أم مِسْطح قِبَلَ المَنَاصِع ـ وهو مُتَبرَّزُنا ـ ولا نخرجُ إلا ليلاً إلى ليلٍ، وذلك قبل أن نتَّخِذَ الكُنُفَ قريباً من بُيُوتنا، وأمرُنا أمرُ العرب الأُوَلِ في التنزُّه[7]، وكنا نتأذَّى بالكُنُف أن نتَّخِذَها في بيوتنا. فانطلقتُ أنا وأمُّ مسْطح ـ وهي ابنةُ أبي رُهْم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنةُ صخر بن عامر، خالةُ أبي بكر الصديق، وابنها مِسْطح بن أثاثة بن عَبَّاد بن المطلب ـ فأقبلتُ أنا وابنةُ أبي رهم قِبَلَ بيتي حين فَرَغنا من شأننا، فَعَثَرت أم مِسْطح في مِرْطها[8]، فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ. فقلت لها: بئسما قلتِ! تَسُبِّينَ رجلاً قد شهد بدراً؟! قالت: أيْ هَنْتَاه[9]، ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددتُ مَرَضاً إلى مرضي، فلما رَجَعت إلى بَيْتِي فدخل عليَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فَسَلَّم، ثم قال: كيف تِيكُم؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ ـ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقَّن الخبر من قِبَلِهما ـ فأذِنَ لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ فجئتُ أبويَّ فقلت لأمي: يا أُمَّتَاه، ما يتحدثُ الناس؟ فقالت: أي بُنَيَّة، هَوِّني عليكِ، فوالله لَقَلَّما كانت امرأةٌ قطُّ وَضِيئةٌ عند رجلٍ يُحبُّها، ولها ضرائرُ، إلا أَكْثَرْنَ عليها. قالت: فقلتُ: سُبحانَ الله! أَوَقد تحدَّث الناسُ بهذا؟ قالت: فَبَكيتُ تلك الليلةَ حتى أصبحتُ، لا يَرْقَأُ[10] لي دمعٌ ولا أكتحِلُ بنوم، ثم أصبحتُ أبكي، فَدَعا رسول الله ـ ﷺ ـ عليّاً، وأسامةَ بنَ زيدٍ حين استلبثَ[11] الوحيُ، يَستشيرُهما في فِراقِ أهله، قالت: فأمَّا أسامة بن زيد فأشارَ على رسول الله ـ ﷺ ـ بالذي يعلم من براءةِ أهله، وبالذي يعلمُ في نفسه لهم من الودِّ، فقال: يا رسولَ الله، هم أهلك، ولا نعلمُ إلا خيراً. وأما عليُّ بنُ أبي طالب فقال: لَمْ يُضَيِّقِ الله عليك،

---

(١) ادَّلَجَ: سار آخر الليل.
(٢) الاسترجاع: قولُ «إنا لله وإنا إليه راجعون».
(٣) أي: جَعَلَت جلبابها خماراً. والخمار: ثوبٌ تغطي به المرأة رأسها.
(٤) مُوغِرين: داخلين في وقت الهاجرة. ونحر الظهيرة: حين تبلغ الشمس منتهاها، وهو وقت الهاجرة.
(٥) الريبُ: الشك.
(٦) اللُّطفُ: الرفق والبر.
(٧) أي: التباعد، تريد قضاء الحاجة في مكانٍ بعيد.
(٨) المِرْطُ: الكساء.
(٩) أي: يا هذه. أو: يا بَلْهاء.
(١٠) لا يرقأ: لا ينقطع.
(١١) أي: أبطأ وتأخر.

والنساءُ سِواها كثيرٌ، وإن تَسأَلِ الجاريةَ تَصدُقْكَ الخبرَ. قالت: فدعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بَريرةَ، فقال: أيْ بَريرةُ هل رأيتِ من شيءٍ يَريبك من عائشة؟ فقالت له بَريرةُ: والذي بعثك بالحقِّ إنْ رأيتُ عليها أمراً قطُّ أغمِصُه[1] عليها أكثَرَ من أنها جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، تنامُ عن عَجينِ أهلِها، فتأتي الداجنُ[2] فتأكلُه.

فقام رسولُ الله ـ ﷺ ـ فاستعذَرَ[3] من عبدِ الله بن أبي ابن سَلُولَ، قالت: فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ وهو على المنبر: يا معشرَ المسلمين، مَنْ يَعذِرُني من رَجُلٍ قد بلَغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رَجُلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي. فقام سعدُ بن مُعاذ الأنصاري فقال: أنا أعذِرُكَ منه يا رسولَ الله، إن كان من الأوس ضَربنا عُنقَه، وإن كان من إخواننا مِنَ الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرَك. قالت: فقام سعدُ بن عُبادةَ ـ وهو سيدُ الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ[4] ـ فقال لسعدِ بن مُعاذٍ: لَعمرُ الله لا تقتُله، ولا تقدر على قتْله. فقام أُسَيد بن حُضَير ـ وهو ابنُ عمِّ سعد بن مُعاذ ـ فقال لسعدِ بن عُبادةَ: كذبتَ! لعمرُ الله لنقتُلَنَّه، فإنك منافق تُجادلُ عن المنافقين. فثار الحيَّانِ الأوسُ والخزرجُ حتى هَمُّوا أن يقتتِلُوا، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ قائمٌ على المنبر، فلم يزَل رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُخفِّضُهم حتى سَكَتُوا وسَكَتَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ قالت: وبكَيتُ يومِي ذلك، لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيتُ ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يَظُنَّان أن البكاء فالقٌ كبدي. قالت: فبينما هُما جالسانِ عندي وأنا أبكي استأذَنَت عَلَيَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلَست تبكي معي.

فبينا نحن على ذلك إذ دَخَل علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ فسلَّم ثم جلس، قالت: ولم يجلِسْ عندي منذ قيل فيَّ ما قيلَ، وقد لَبِث شهراً لا يُوحى إليه في شأني شيءٌ، قالت: فتشهَّد رسولُ الله ـ ﷺ ـ حين جلَس، ثم قال: أمَّا بعدُ يا عائشة فإنه قد بلَغني عنكِ كذا وكذا، فإن كنتِ بَريئةً فسَيُبرِّئُكِ الله، وإن كنتِ ألمَمْتِ بذَنبٍ فاستغفري الله ثم توبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذَنبٍ ثم تاب تابَ الله عليه. قالت: فلما قَضَى رسولُ الله ـ ﷺ ـ مقالته قَلَصَ[5] دمعي، حتى ما أُحِسُّ منه قطرةً، فقلت لأبي: أجِب عَنِّي رسولَ الله ﷺ. فقال: والله ما أدري ما أقولُ للرسول! فقلتُ لأمي: أجيبي عَنِّي رسولَ الله. فقالت: والله ما أدري ما أقولُ لرسول الله! قالت: فقلت، وأنا جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، لا أقرأ كثيراً من القرآن، إنِّي والله لقد عرفتُ أنَّكم قد سَمِعتُم بهذا، حتى استقرَّ في أنفسِكُم وصدَّقتُم به، ولَئِن قلتُ لكم إني بريئة ـ والله يعلم أنِّي بريئة ـ لا تُصدِّقوني بذلك، ولَئِن اعترفتُ لكم بأمرٍ ـ والله عزَّ وجلَّ يعلم أني بريئة ـ تُصدِّقوني، وإني والله ما أجِدُ لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسُفَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. قالت: ثم تحوَّلتُ فاضطجعتُ على فِراشي، قالت: وأنا والله حينئذٍ أعلمُ أني بريئة، وأن الله مُبرِّئي ببَراءتي، ولكن والله ما كنتُ أظنُّ أن يَنزِلَ في شأني وحيٌ يُتلَى، ولَشأني كان أحقرَ في نفسي من أن يَتكلَّم الله فيَّ بأمرٍ يُتلَى. ولكن كُنتُ أرجو أن يَرى رسولُ الله ـ ﷺ ـ في النوم رُؤيا يُبرِّئُني الله بها. قالت: فو الله ما رامَ[6] رسولُ الله ـ ﷺ ـ من مَجلِسِه ولا خَرَج من أهل البيت أحدٌ، حتى أنزل الله على نَبيِّه،

---

(١) أي: أعيبها به.

(٢) الداجن: كل ما ألف البيوت من حيوان وطير، يقال للذكر والأنثى.

(٣) استعذر من فلان: طلب من الناس العُذر إنْ هو عاقبه. وعذَره: رفع عنه اللوم.

(٤) أي: حملته الأنفة والغضب على الجهل.

(٥) أي: ذهب وارتفع.

(٦) يقال: ما رام مكانه، وما رام من مكانه: ما فارقه.

فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء[1] عند الوحي، حتى إنه لَيَتحدَّرُ منه مثل الجُمَان[2]، من العَرَق في اليوم الشَّاتي، من ثِقَل القول الذي أُنزل عليه. قالت: فلما سُرِّيَ عن رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يضحك، كان أولُ كلمةٍ تكلَّم بها أن قال: أبشري يا عائشةُ، أمَّا الله فقد برَّأكِ. فقالت لي أُمِّي: قُومي إليه. فقلتُ: والله لا أقومُ إليه ولا أحمدُ إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو الذي أنزل براءتي. وأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ إنَّ الذين جاءُوا بالإفك عُصبةٌ منكم ﴾، عَشْرَ آياتٍ، فأنزل الله هذه الآيات براءتي. قالت: فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وكان يُنفِقُ على مِسْطَحٍ لقرابته منه وفَقْرِه: والله لا أُنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشةَ. فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ولا يأتَلِ أولوا الفضلِ منكم والسَّعةِ ﴾ إلى قوله: ﴿ ألا تُحبُّون أن يَغفِرَ الله لكم ﴾، فقال أبو بكر: والله إنِّي لأُحِبُّ أن يَغفِرَ الله لي. فرجَع إلى مِسْطَحٍ النفقةَ التي كان يُنفِق عليه. وقال: لا أنزِعها منه أبداً.

قالت عائشةُ: وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ سأل: زينبَ بنتَ جَحْشٍ زَوْجَ النبيِّ ـ ﷺ ـ عن أمري: ما عَلِمتِ، أو: ما رأيتِ، أو: ما بَلَغَكِ؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سَمْعي وبصري، والله ما عَلِمتُ إلا خيراً. قالت عائشة: وهي التي كانت تُسامِيني[3] من أزواج النبيِّ ـ ﷺ ـ فعَصَمها الله تعالى بالوَرَع، وطَفِقَت أختُها حَمنةُ بنتُ جحش تُحارِب لها، فهَلَكت فيمن هَلَك.

قال ابنُ شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمرِ هؤلاء الرَّهْطِ[4].

أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث الزهري[4]. وهكذا رواه ابن إسحاق، عن الزهري كذلك، قال: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عائشة ـ وحدثني عبد الله بن أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، عن عَمرة[5]، عن عائشة بنحو ما تقدم، والله أعلم[4].

ثم قال البخاري: وقال أبو أُسامةَ، عن هِشام بن عُروةَ قال: أخبرني أبي، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما ذُكِرَ من شأني الذي ذُكِرَ وما عَلِمتُ به قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ فيَّ خطيباً، فتشهد فحَمِدَ الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم قال: أما بعدُ أشيروا عَلَيَّ في أُناسٍ أبَنُوا[6] أهلي، وايمُ[7] الله ما عَلِمتُ على أهلي من سُوءٍ، وأَبَنُوهم بمَن والله ما عَلِمتُ عليه من سُوءٍ قطُّ، ولا يدخل بيتي قطُّ إلا وأنا حاضرٌ، ولا غِبتُ في سَفَرٍ إلا غابَ معي. فقام سعدُ بنُ مُعاذٍ الأنصاريُّ فقال: ائذن يا رسولَ الله أن نَضرِبَ أعناقَهم. فقام رجلٌ من الخزرج ـ وكانت أُمُّ حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل ـ فقال: كَذَبتَ، أما والله لو كانُوا من الأوس ما أحببتَ أن تُضرَبَ أعناقُهم. حتى كاد أن يكونَ بين الأوس والخزرج شرٌّ في المسجد، وما عَلِمت. فلما كان مساءُ ذلك اليوم، خَرَجتُ لبعض حاجتي ومعي أُمُّ مِسْطَحٍ، فعَثَرتْ فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فقلت: أيْ أُمِّ، تَسُبِّين ابنك؟! وسكَتَتْ، ثم عَثَرت الثانية فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فقلت لها: أيْ أُمِّ، تَسُبِّين ابنكِ؟! ثم عَثَرت الثالثة فقالت.

---

(١) البُرَحاء: شدة الكَرْب من ثقل الوحي.
(٢) الجمان: اللؤلؤ.
(٣) أي: تعاليني وتباريني.
(٤) مسند أحمد ١٩٤/٦ ـ ١٩٧، وفتح الباري، كتاب الشهادات ٢٦٩/٥ ـ ٢٧٢، وتفسير سورة يوسف ٣٦٢/٨ ـ ٣٦٣، وتفسير سورة النور ٤٥٢/٨ ـ ٤٥٥. ومسلم، كتاب التوبة ٢١٢٩/٤ ـ ٢١٣٧. وسيرة ابن هشام ٢٩٧/٢ وما بعدها.
(٥) في نسخة الحرم: عن عمرة، أخبرني أبي. وهذه الزيادة ليست في السيرة.
(٦) أي: اتهموها.
(٧) في نسخة الحرم: «وايم الله ما علمت على أهلي إلا خيراً، أو ما علمت على أهلي من سوء».

تَعِسَ مِسْطَحٌ! فانتهرتُها فقالت: والله ما أسبّهُ إلا فيكِ، فقلت: في أيّ شأني؟ قالت: فَبَقَرت[1] لي الحديث. فقلتُ: وقد كانَ هذا؟ قالت: نعم، والله. فرجعتُ إلى بيتي كأن الذي خرجت له لا أَجِدُ منه قليلاً ولا كثيراً، وَوُعِكتُ، وقلتُ لرسول الله ـ ﷺ ـ: أَرْسِلني إلى بَيتِ أبي. فأرسلَ معي الغلامَ، فدخلتُ الدارَ، فوجدتُ أم رُومانَ في السُّفل، وأبا بكر فوقَ البيت يَقرأ، فقالت أمي: ما جاء بك يا بُنيّة؟ فأخبرتُها، وذكرتُ لها الحديثَ، وإذا هو لم يبلغ منها ما بلغ مني، فقالت: يا بنية، خَفِّفي عليك الشأن؛ فإنه ـ والله ـ لَقَلَّما كانت امرأةٌ حسناءُ عند رجل يُحِبُّها لها ضرائر إلا حَسَدْنها، وقيل فيها. فقلتُ: وقد عَلِمَ به أبي؟ قالت: نعم. قلتُ: ورسولُ الله ﷺ؟ قالت: نَعَم، ورسولُ الله ﷺ. فاستَعْبَرتُ[2] وبكيتُ، فَسَمِعَ أبو بكر صَوتِي، وهو فوقَ البيتِ يقرأ، فَنَزل فقال لأمي: ما شأنُها؟ قالت: بَلَغَها الذي ذُكِرَ من شأنها. ففاضت عيناه وقال: أقسمتُ عليكِ ـ أي بُنَيّة ـ إلا رَجَعتِ إلى بيتِكِ. فَرَجعتُ، ولقد جاءَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيتي، فسأل عني خادمتي، فقالت: لا، والله ما علمتُ عليها عيباً، إلا أنها كانت ترقُد حتى تدخلَ الشاةُ فتأكل خَميرَها أو: عَجِينَها، وانتهرها بعضُ أصحابه فقال: اصدُقِي رَسُولَ الله ﷺ. حتى أسقطُوا[3] لها به، فقالت: سبحانَ الله! والله ما علمتُ عليها إلا ما يعلم الصائغ على تِبْرِ الذَّهَبِ الأحمرِ. وبلغ الأمرُ ذلك الرجلَ الذي قِيلَ له، فقال: سبحانَ الله. والله ما كَشَفتُ كَنَفَ[4] أنثى قط. قالت عائشة: فَقُتِل شهيداً في سَبيل الله. قالت: وأصبَحَ أبواي عندي، فلَم يزالا حتى دَخَلَ عليَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقد صَلّى العصرَ، ثم دخل وقد اكتنفَني أبواي عن يميني وعن شمالي، فَحَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعدُ يا عائشة، إن كُنتِ قارَفتِ سُوءاً أو ظَلَمتِ فتوبي إلى الله، فإن الله يقبلُ التوبةَ عن عباده. قالت: وقد جاءت امرأةٌ من الأنصار، فهي جالسة بالباب، فقلت: ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكُرَ شيئاً؟! فوعَظَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فالتفتُّ إلى أبي فقلتُ: أجِبْه. قال: فماذا أقول؟ فالتفتُّ إلى أُمّي فقلت: أجيبيه. قالت: أقولُ ماذا؟ فلما لم يجيباه تَشَهَّدتُ فَحَمِدتُ الله وأثنيتُ عليه بما هو أهلُه، ثم قلت: أما بعد، فَوَالله لئن قلتُ لكم إني لم أفعل، والله عزّ وجلّ يشهدُ إني لصادقة، ما ذاك بنافعي عندكم، لقد تكلمتُم به، وأُشْرِبَتْهُ قلوبُكُم، وإن قلت: إني قد فعلتُ، والله يعلم أني لم أفعل، لَتقولُنَّ: قد باءَت به على نَفسِهَا، وإني ـ والله ـ ما أجد لي ولكم مثلاً ـ والتمستُ اسمَ يعقوبَ فلم أقدِر عليه ـ إلا أبا يوسف حين قال: ﴿ فَصَبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تَصِفُون ﴾، وأنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ من ساعته، فسكتنا، فَرُفع عنه وإني لأتبيَّنُ السُّرورَ في وجهه، وهو يمسَحُ جَبينَه ويقول: أبشري يا عائشةُ، فقد أنزل الله براءَتَك. قالت: وكنت أشدَّ ما كنتُ غضباً، فقال لي أبواي: قومي إليه. فقلتُ لا، والله لا أقومُ إليه ولا أحمَدُهُ ولا أحمدُكُما، ولكن أحمَدُ الله الذي أنزلَ براءتي، لقد سَمِعتُموه فما أنكرتُموه ولا غَيَّرتُموه. وكانت عائشةُ تقول: أما زينبُ بنتُ جَحش فقد عَصَمَها الله بدينها، فلم تَقُل إلا خيراً. وأما أختُها حَمنةُ بنتُ جَحْشٍ، فهلكت فيمن هَلَك. وكان الذي يتكلَّم فيه مِسْطَحٌ وحَسّانُ بنُ ثابتٍ. وأما المنافقُ عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلُولَ فهو الذي كان يَسْتَوشِيه ويَجمعه، وهو الذي تولى كِبْرَه منهم هو وحَمنةُ. قالت: وحَلَفَ أبو بكر ألا ينفعَ مِسْطَحاً بنافعة أبداً، فأنزل الله: ﴿ولا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضلِ منكم ﴾. إلى آخر الآية، يعني أبا بكر، ﴿ والسعةِ أن يؤتوا أولي القربى والمساكين ﴾، يعني مِسْطَحاً، إلى قوله: ﴿ ألا تُحِبُّون أن يغفِرَ الله لكم والله غفور رحيم ﴾. فقال أبو بكر: بلى والله يا رَبَّنا، إنا لَنُحِبُّ أن تغفِرَ لنا. وعاد له بما كان يصنع.

---

(١) أي: كشفت

(٢) أي: جرت دموعي

(٣) أي: سبُّوها، وقالوا لها من سقط الكلام

(٤) الكنفُ ـ بالتحريك ـ الجانب والناحية. ويروى بكسر فسكون، ومعناه الوعاء

هكذا (١)[رواه البخاري(٢) من هذا الوجه مُعلّقاً بصيغة الجزم، عن أبي أُسامة حَمّادِ بن أسامة أحدِ الأئمة الثقات. وقد](١) رواه ابنُ جَرير في تفسيره عن سفيانَ بن وَكيعٍ، عن أبي أسامَة، به مُطَوّلاً، مثله أو نحوه(٢). ورواه ابنُ أبي حاتم عن أبي سَعيدِ الأشجِّ، عن أبي أُسامَة ببَعضِه.

وقال الإمام أحمد: حَدّثنا هُشَيم(٣)، أخبرنا عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما نَزَل عُذْري من السماء جاءني النبي ـ ﷺ ـ فأخبرني بذلك، فقلتُ: نَحمَدُ الله لا نَحمَدُكَ(٤).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثني ابن أبي عَدِيّ، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عَمْرَةَ، عن عَائشَةَ قالت: لما نَزَلَ عُذْرِي قامَ رسول الله ـ ﷺ ـ فذكر ذلك، وتَلَا القُرآن، فلما نَزَلَ أمَرَ برجلين وامرأة فَضُرِبُوا حَدَّهم(٥).

وأخرجه أهل السنن الأربعة(٥)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن» ووقع عند أبي داودَ تسميتُهم: حسانُ بن ثابت، ومسطحُ بن أُثاثة، وحَمْنَةُ بنتُ جَحْش.

فهذه طرقٌ مُتَعَدِّدة عن أُمِّ المؤمنينَ عائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ في المسانيدِ والصِحاحِ والسُّنَنِ وغيرها.

وقد رُوِيَ من حَديث أمها أمّ رُومَانَ ـ رضي الله عنها ـ فقال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا علي بن عاصم، أخبرنا حُصَين، عن أبي وائل، عن مَسْرُوقٍ، عن أم رُومانَ قالت: بينا أنا عندَ عائشةَ إذ دخلت عليها امرأةٌ من الأنصار فقالت: فَعَلَ الله بابنها وفعل. فقالت عائشة: وَلِمَ؟ قالت: إنه كان فيمن حَدّثَ الحديثَ. قالت عائشةُ: وأيُّ حديثٍ؟ قالت: كذا وكذا. قالت: وقد بَلَغَ ذلك رسولَ الله ﷺ؟ قالت: نَعَم. وبلَغَ أبا بكر؟ قالت: نعم. قالت: فَخرّت عائشة ـ رضي الله عنها ـ مَغشِيّاً عليها، فما أفاقت إلا وعَلَيها حُمّى بنافض(٦). قالت: فقمتُ فدَثّرتها، قالت: وجاء النبيُّ ـ ﷺ ـ فقال: ما شأنُ هذه؟ قلت: يا رسولَ الله، أخذتها حُمّى بنافِض. قال: فلعلّه في حَديث تُحِدِّثَ به. قالت: فاستوت عائشة قاعدةً فقالت: واللهِ لَئِن حَلَفتُ لَكُم لا تُصَدِّقوني، ولَئِن اعتذرتُ إليكم لا تَعذِروني، فَمَثلي ومَثَلُكم كَمَثلِ يعقوبَ وبَنِيه ﴿ والله المستعانُ على ما تَصِفُون ﴾. قالت: وخَرَجَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله عُذرَها، فَرَجع رسولُ الله ـ ﷺ ـ معه أبو بكر، فدخَل فقال: يا عائشةُ، إنَّ الله تعالى قد أنزَل عُذرَكِ. فقالت: نَحمد الله لا نَحمَدُك. فقال لها أبو بكر: تقولين هذا لرسولِ الله ﷺ؟! قالت: نعم. قالت: فكان فِيمَن حَدّث الحديثَ رجلٌ كان يعولُه أبو بكر. فَحَلف أبو بكر ألّا يَصِلَه، فأنزل الله: ﴿ ولا يَأتَلِ أولُوا الفَضلِ مِنكُم والسَعَةِ ﴾... إلى آخر الآية، قال أبو بكر: بَلَى. فَوَصَله(٧).

تَفَرّد به البخاريُّ دون مُسلم، من طريق حُصَين(٧). وقد رواه البخاري عن موسى بن إسماعيل، عن أبي

(١ ـ ١) سقط من نسخة الحرم.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة النور ٨/٤٨٧ ـ ٤٨٨، وتفسير الطبري ١٨/٩٣ ـ ٩٤.
(٣) في المسند: «حدثنا هشيم، قال: أنا منصور، عن عبد الرحمن بن عمر بن أبي سلمة».
(٤) مسند أحمد ٦/٣٠.
(٥) مسند أحمد ٦/٣٥، وسنن أبي داود، كتاب الحدود ٤/١٦٢، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة النور ١٢/٥٦ ـ ٥٧. وأخرجه النسائي في كتاب الرجم من سننه الكبرى، تحفة الأشراف ١٢/٤٠٨ ـ ٤٠٩، وابن ماجه، كتاب الحدود ٢/٨٥٧.
(٦) أي: برعدة شديدة.
(٧) مسند أحمد ٦/٣٦٧ ـ ٣٦٨، وفتح الباري، تفسير سورة النور ٨/٤٨٢.

عَوَانة ـ وعن محمد بن سلام، عن محمد بن فُضَيل ـ كلاهما عن حُصَين، به. وفي لفظ أبي عوانة: «حدثتني أم رُومانَ»[1]. وهذا صريحٌ في سَمَاع مَسْرُوقٍ منها، وقد أنكر ذلك جماعةٌ من الحفاظ، منهم الخطيبُ البغداديُّ، وذلك لما ذكره أهلُ التاريخ أنَّها ماتت في زمانِ النبي ـ ﷺ ـ. قال الخطيبُ: «وقد كان مَسْرُوقٌ يُرسِلُه فيقولُ: «سُئِلت أمُّ رومان»، ويَسُوقه، فلعلَّ بعضهم كَتَب «سُئِلَت» بألف، فاعتقد الرواي أنها «سَأَلتُ»، فظنَّه مُتَّصلاً، قال الخطيب: «وقد رَوَاه البخاري كذلك، ولم تظهر له عِلَّته». كذا قال[2]، والله أعلم. [3][ورواه بعضهم عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، عن أم رومان، فالله أعلم][3].

فقولُه: ﴿ إن الذين جاءُوا بالإفك ﴾، أي: بالكَذِب والبَهْتِ والافتراء، ﴿عُصبةٌ﴾، أي: جماعةٌ منكم، ﴿ لا تحسبوه شراً لكم ﴾يا آلَ أبي بكر، ﴿ بل هو خيرٌ لكم ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، لِسانُ صِدْقٍ في الدنيا، وَرِفْعَةُ منازلَ في الآخرة، وإظهارُ شرف لهم باعتناء الله بعائشةَ أم المؤمنين، حيث أنزلَ الله تعالى براءَتَها في القرآن العظيم الذي ﴿ لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيه ولا من خَلْفِه تنزيلٌ من حكيم حميد ﴾، ولهذا لما دَخَل عليها ابنُ عباس ـ رضي الله عنه ـ وهي في سِيَاقِ الموتِ، قال لها: أَبْشِري، فإنَّك زوجةُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ وكان يُحبُّكِ، ولم يَتزوَّج بِكراً غيرك، وأُنْزِل براءَتُكِ من السماء[4].

وقال ابن جرير في تفسيره: حدثني محمد بن عثمان الواسطي، حدثنا جعفر بنُ عون، عن المُعَلَّى بن عِرْفان، عن محمد بن عبد الله بن جَحْش قال: تفاخَرت عائشةُ وزينبُ ـ رضي الله عنهما ـ فقالت زينب: أنا التي نَزَل تَزْويجي، قال: وقالت عائشة: أنا التي نزلَ عُذري في كتابه، حين حَمَلني ابن المُعَطَّل على الراحِلَة. فقالت لها زينب: يا عائشة، ما قلت حين رَكِبتِها؟ قالت: قلت: حَسْبِي الله ونِعْمَ الوكيل. قالت: قلتِ كلمةَ المؤمنين[5].

وقولُه: ﴿ لكلِّ امرئ منهم ما اكتَسَب من الإثم ﴾، أي: لِكُلِّ مَن تكَلَّم في هذه القصة ورَمَى أم المؤمنين عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ بشيءٍ من الفاحشة، نصيبٌ عظيمٌ من العذاب.

﴿ والذي تَوَلَّى كِبْرَه منهم ﴾، قيل: ابتدأ به. وقيل: الذي كان يجمَعُه ويَسْتَوشيه ويُذيعه ويُشيعه، ﴿ له عذاب عظيم ﴾، أي: على ذلك.

ثم الأكثرون على أنَّ المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي ابن سَلُولَ ـ قبَّحه الله ولعنه ـ وهو الذي تقدَّم النصُّ عليه في الحديث. وقال ذلك مجاهدٌ وغير واحد.

وقيل: بل المرادُ به حسانُ بن ثابت. وهو قولٌ غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يَدُلُّ على ذلك لما كان لإيراده فائدة، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائلُ ومناقبُ ومآثِرُ، وأحسنُ محاسنه أنه كان يَذُبّ عن رسول الله ـ ﷺ ـ بشعره، وهو الذي قال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: هاجهم وجبريلُ معك.

وقال الأعمشُ، عن أبي الضُّحَى، عن مَسْرُوقٍ قال: كنتُ عندَ عائشة ـ رضي الله عنها ـ فَدَخل حسانُ بن

---

(١) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٣٥ ـ ٤٣٦، وكتاب الأنبياء ٦/٤١٨.
(٢) انظر فتح الباري ٧/٤٣٨. وتحفة الأشراف ١٣/٧٩ ـ ٨٠.
(٣) من نسخة الحرم، وراجع التعليق السابق.
(٤) أخرجه البخاري، فتح الباري، تفسير سورة النور ٨/٤٨٢ ـ ٤٨٣.
(٥) تفسير الطبري ١٨/٨٨ ـ ٨٩.

ثابت، فأمرتْ فأُلقِي له وسادةٌ، فلما خرج قلت لعائشة: ما تصنعين بهذا؟ يدخلُ عليك؟! ـ وفي رواية قيل لها: أتأذنين لهذا يدخلُ عليكِ ـ وقد قال الله: ﴿والذي تولّى كِبْرَه منهم له عذابٌ عظيم﴾؟! ـ قالت: وأيُّ عذابٍ أشدُّ من العَمَى ـ وكان قد ذَهَبَ بَصَرُه ـ لعلَّ الله أن يجعلَ ذلك هو العذابَ العظيمَ. ثم قالت: إنه كان يُنافِحُ عن رسولِ الله ﷺ[1].

وفي روايةٍ أنه أنشدَها عندما دخل عليها شعراً يمتدحُها به، فقال[2]:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ ... وتُصبِحُ غَرْثَى من لحومِ الغَوافِلِ

فقالت: أما أنتَ فلستَ كذلك. وفي رواية: لكنكَ لستَ كذلك[1].

وقال ابنُ جرير: حدثنا الحسن بن قَزَعَة، حدثنا مَسْلمةُ بنُ عَلْقمة، حدثنا داود، عن عامر، عن عائشةَ أنها قالت: ما سمعت بشيءٍ أحسَنَ من شعر حسانَ، ولا تمثَّلت به إلا رجوتُ له الجنةَ، قوله لأبي سفيان، يعني ابن الحارث بن عبد المطلب:

هَجَوتَ مُحَمَّداً، فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاكَ الجزاءُ
فإنَّ أبي ووالدَه وعِرضي ... لِعِرضِ مُحَمَّدٍ منكم وِقاءُ
أتشتُمُه، ولستَ له بكُفْءٍ؟! ... فشرُّكُما لخيرِكُما الفِداءُ
لِساني صارمٌ لا عَيْبَ فيه ... وبَحْري لا تُكَدِّرُهُ الدِّلاءُ

فقيل: يا أمَّ المؤمنينَ، أليس هذا لغواً؟ قالت: لا، إنما اللغوُ ما قيلَ عند النساء، قيل: أليس الله يقولُ: ﴿والذي تولّى كِبْرَه منهم له عذابٌ عظيم﴾، قالت: أليسَ قد أصابه عذابٌ عظيمٌ؟ قد ذهب بصرُه وكُنِّعَ بالسيف[3]. تعني الضربةَ التي ضَرَبَه إياها صفوانُ بن المُعطَّل، حين بلَغه عنه أنه يتكلّم في ذلك، فعلاه بالسيف، وكاد أن يقتلَه.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

هذا تأديبٌ من الله للمؤمنين في قضيةِ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ حين أفاض بعضُهم في ذلك الكلام السيِّء، وما ذُكر من شأنِ الإفك، فقال: ﴿لولا﴾، بمعنى هلّا ﴿إذ سمعتُموه﴾، أي: ذلك الكلامَ الذي رُمِيت به أمُّ المؤمنين ﴿ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾، أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليقُ بهم فأمُّ المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى.

وقد قيل: إنها نزلت في أبي أيوبَ خالدِ بن زيدٍ الأنصاري وامرأته ـ رضي الله عنهما ـ كما قال الإمامُ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/٨٨، والبخاري في تفسير سورة النور ٨/٤٨٥.

(٢) ديوانه ٢٢٨. وحصان: من الحصن والتحصين، والمراد الامتناع على الرجال ومن نظرهم إليها. ورزان: من الرزانة، والمراد قلة الحركة. وتُزَنُّ: تُرمَى. وغَرْثَى: خميصة البطن، أراد أنها لا تغتاب أحداً. والغوافل جمع غافلة، وهي العفيفة الغافلة عن الشرّ.

(٣) كُنِّعَ فلاناً بالسيف: ضربه حتى اعوجّت أكواعُه. والأثر في تفسير الطبري ١٨/٨٨

محمد بن إسحاقَ بن يَسار، عن أبيه، عن بعض رجال بني النجّار: أن أبا أيوب خالدَ بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوبَ، أما تسمَعُ ما يقول الناسُ في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلكَ الْكَذِبُ، أكنتِ فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا، والله ما كنتُ لأفعله. قال: فعائشةُ والله خيرٌ منك. فلما نزل القرآن ذكر الله -عزّ وجلّ- من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك: ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبةٌ منكم ﴾، وذلك حسانُ وأصحابه، الذين قالوا ما قالوا، ثم قال: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ .... الآية، أي: كما قال أبو أيوبَ وصاحبته[1].

وقال محمد بن عُمَر الواقديُّ: حدثني ابنُ أبي حَبيبة، عن داود بن الحُصَين، عن أبي سفيان، عن أَفْلَحَ مولى أبي أيوبَ، أن أمّ أيّوب قالت لأبي أيّوبَ: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشةَ؟ قال: بلى، وذَلِكَ الكَذِبُ، أفكنتِ يا أمّ أيّوبَ فاعلةً ذلك؟ قالت: لا، والله. قال: فعائشةُ والله خيرٌ منك. فلما نزل القرآنُ، وذَكَر أهلَ الإفك، قال الله -عزّ وجلّ-: ﴿ لولا إذ سَمِعْتُموه ظن المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفكٌ مُبِين ﴾، يعني أبا أيّوبَ حينَ قال لأمّ أيّوبَ. قال: ويقال: إنما قالها أُبَيُّ بن كعب[2].

وقولُه: ﴿ هذا إفكٌ مُبِينٌ ﴾، أي: هَلّا ظنوا الخير، فإنّ أمّ المؤمنين أهلُه وأولى به، هذا ما يتعلّق بالباطن، ﴿ وقالوا ﴾، أي: بألسنتهم: ﴿ هذا إفكٌ مبين ﴾، أي: كَذِبٌ ظاهرٌ على أمّ المؤمنين، فإن الذي وَقَع لم يكن ريبةً، وذلك أنّ مجيءَ أمّ المؤمنين راكبةً جَهْرةً على راحلةِ صفوانَ بن المُعَطّل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يُشاهِدُون ذلك، ورسولَ الله -ﷺ- بين أظهُرِهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبةٌ لم يكن هكذا جَهْرةً، ولا كانا يُقدِمان على مثل ذلك على رءوس الأشهاد، بل كان يكون هذا -لو قُدِّر- خفيةً مستوراً، فتَعيّن أن ما جاء به أهلُ الإفكِ مما رَمَوا به أمّ المؤمنين هو الكَذِب البَحْتُ، والقول الزور، والرّعُونة الفَاجِرة، والصفقةُ الخاسرةُ.

قال الله تعالى: ﴿لولا﴾، أي: هَلّا ﴿جاءوا عليه﴾، أي: على ما قالوه ﴿بأربعةِ شُهَداءَ﴾ يَشْهَدُون على صِحّةِ ما جاءوا به، ﴿ فإذ لم يأتوا بالشُّهَداءِ فأولئك عند الله هُم الكاذِبُونَ ﴾ أي: في حكم الله كَذَبَةٌ فَجَرةٌ.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه في الدنيا والآخرة ﴾ أيّها الخائضُون في شأن عائشة، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة، ﴿ لَمَسّكم فيما أفضتُم فيه ﴾، من قضيةِ الإفكِ، ﴿ عذابٌ عظيمٌ ﴾. وهذا فيمن عنده إيمان رَزَقَه الله بِسَببه التوبة إليه، كَمِسْطَحٍ، وحَسّانَ، وحَمْنةَ بنت جَحْش، أخت زينبَ بنت جَحْش. فأما من خَاضَ فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي ابن سلولَ وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادلُ هذا

(١) تفسير الطبري ١٨/٩٦، وسيرة ابن هشام ٢/٣٠٢.
(٢) المغازي للواقدي ٢/٤٣٤.

ولا ما يُعارِضُه، وهكذا شأنُ ما يَرِد من الوعيد على فِعْلٍ مُعَيَّن، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة، أو ما يُقابِله من عَمَلٍ صَالحٍ يُوازِنُه أو يَرجُحُ عليه.

ثم قال تعالى: ﴿ إذ تلَقَّونَه بألسنتكم ﴾، قال مجاهد، وسعيد بن جبير. أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا: سمعته من فلان كذا، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا.

وقرأ آخرون: ﴿ إذ تَلِقُونه بألسنتكم ﴾. وفي صَحيح البخاري عن عائشة: أنها كانت تقرؤُها كذلك[1]. وتقول: هو من وَلْقِ القَوْلِ، يعني الكَذِبَ الذي يستمرُّ صاحبه فيه، تقول العربُ: وَلَق فلانٌ في السير: إذا استمرَّ فيه. والقراءة الأولى أشهر، وعليها الجمهور، ولكن الثانية مَرْوِيَّة عن أم المؤمنين عائشة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشَجُّ، حدثنا أبو أُسامَةَ، عن نافع بن عُمَر[2]، عن ابن أبي مُلَيكَةَ، عن عائشةَ أنها كانت تقرأ: ﴿ إذ تَلِقُونَهُ ﴾، وتقول: إنما هو وَلْقُ القَوْل. قال ابن أبي مُلَيكَةَ: هي أعلم به من غيرها.

وقولُه: ﴿ وتقولُون بأفواهكم ما ليس لَكُم به عِلْمٌ ﴾، أي: تَقُولون ما لا تَعْلَمُونَ.

ثم قال تعالى: ﴿وتحسَبُونه هَيِّناً وهو عند الله عَظِيمٌ﴾ أي: تقولون ما تقولُون في شأنِ أمِّ المؤمنين، وتَحسَبُون ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن زوجةَ النبي ـ ﷺ ـ لما كان هَيِّناً، فكيف وهي زوجةُ النبيِّ الأميِّ، خاتَمِ الأنبياء وسَيِّد المرسلين، فَعظِيمٌ عند الله أن يقال في زَوجةِ رَسُوله ما قيل! الله يغار لهذا، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ لا يُقَدِّرُ على زوجةِ نبي من أنبيائه ذلك، حاشا وكلّا ولمّا!! فكَيْفَ يكونُ هذا في سيدةِ نساءِ الأنبياء، وزوجةِ سيِّد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وتحسَبُونه هَيِّناً وهو عند الله عظيم﴾، وفي الصحيحين: «إن الرجل ليتكلَّم بالكلمةِ من سَخَطِ الله لا يَدْري ما تبلُغُ، يَهوي بها في النارِ أبعدَ ما بينَ السماءِ والأرض». وفي رواية: «لا يُلقِي لها بالاً»[3].

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

هذا تأديبٌ آخرُ بعدَ الأَوَّلِ الأمر بالظنِّ خيراً، أي: إذا ذُكِر ما لا يَلِيق من القول في شأن الخِيَرة[4] فأَوْلَى ينبغي الظنُّ بهم خيراً، وألاّ يُشعِرَ نفسَه سِوَى ذلك. ثم إن عَلِقَ بنفسه شيءٌ من ذلك ـ وَسْوَسَةً أو خيالاً ـ فلا ينبغي أن يتكلَّم به، فإن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله تجاوزَ لأُمَّتي عما حَدَّثت به أنفُسَها ما لم تَقُل أو تَعْمَل». أخرجاه في الصَّحِيحَين[5].

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة النور ٨/٤٨٢. وتفسير عائشة رضي الله عنها للوَلْق أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/٩٨

(٢) في النسخ: نافع عن ابن عمر. وهو خطأ، انظر ترجمة نافع بن عُمَر الجُمَحي في تهذيب الكمال ١٠/٤٠٩ وقد أخرجه الطبراني في المعجم الكبير بإسناده إلى نافع بن عمر ٢٣/١٤٣. وكذلك الطبري في تفسيره ١٨/٩٨

(٣) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٣٠٨، ومسلم، كتاب الزهد ٤/٢٢٩٠.

(٤) الخِيَرَة. مصدر خاره على صاحبه، أي: فضَّله، وليس جمعاً، وإنما هو من قبيل الوصف بالمصدر

(٥) تقدَّم الحديث عند تفسير آية البقرة ٢٨٤، والأعراف ١٥٧.

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوه قلتُم ما يكونُ لنا أن نَتَكلَّم بهذا ﴾، أي: ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكُرَه لأحدٍ، ﴿ سُبحانَكَ هذا بُهتانٌ عظيمٌ ﴾، أي: سُبحانَ الله أن يقال هذا الكلام على زوجة نبيِّه ورسوله وَحَلِيلة خليله.

ثم قال تعالى: ﴿ يَعِظُكم الله أن تَعُودُوا لمثله أبداً ﴾، أي: ينهاكُم الله مُتَوعِّداً أن يَقَع منكم ما يُشْبِه هذا أبداً، أي: فيما يُستقبَلُ فلهذا قال: ﴿ إن كنتم مُؤمنين ﴾، أي: إن كنتُم تُؤمِنُون بالله وَشَرْعِهِ، وتُعظِّمون رسوله ـ ﷺ ـ فأمَّا من كان مُتَّصِفاً بالكُفْرِ فذاك له حُكمٌ آخَرُ.

ثم قال: ﴿ وَيُبَيِّنُ الله لكم الآياتِ ﴾، أي: يُوَضِّح لكم الأحكام الشرعية والحِكَمَ القَدَرِيَّة، ﴿ والله عليم حَكِيم ﴾، أي: عَلِيم بما يُصلح عباده، حَكِيم في شَرْعه وقَدَره.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

وَهَذا تأديبٌ ثالثٌ لمن سَمِع شيئاً من الكلام السيىء، فقَام بذهنه منه شيءٌ، وتكلم به، فلا يُكثِرُ منه ويُشيعه ويُذيعه، فقد قال تعالى: ﴿ إن الذين يُحِبُّون أن تَشيع الفاحشة في الذين آمنوا ﴾، أي: يختارون ظُهورَ الكلام عنهم بالقبيح، ﴿ لهم عذاب أليم في الدنيا ﴾، أي: بالحَدِّ، وفي الآخرة بالعذابِ، ﴿ والله يعلَمُ وأنتم لا تعلَمُون ﴾، أي: فَرُدُّوا الأمورَ إليه تَرْشُدُوا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمونُ أبو محمد[1] المَرَئيُّ، حدثنا محمد بن عَبَّاد المخروميُّ، عن ثَوبانَ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لاتُؤذُوا عبادَ الله ولا تُعَيِّروهم، ولا تطلُبُوا عَوْرَاتِهم، فإنه مَن طَلَبَ عورَةَ أخيه المسلم طَلَبَ الله عَوْرَتَه، حتى يفضحَه في بَيْتِه»[2].

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه وأنَّ الله رءوفٌ رحيمٌ ﴾، أي: لولا هذا لكانَ أمرٌ آخرُ، ولكنه تعالى رءوفٌ بعباده، رحيمٌ بهم. فتاب على من تَاب إليه من هذه القضية، وَطَهَّر من طَهَّر منهم بالحدِّ الذي أقيم عليه.

ثم قال: ﴿ يا أيها الذين آمنُوا لا تتبعوا خُطُواتِ الشيطان ﴾، يعني طرائقَه ومَسَالِكَه وما يأمر به، ﴿ ومن

---

(١) في نسخة الحرم: ميمون بن محمد. وفي نسخة الأزهر: ميمون بن أبي محمد. والمثبت من المسند، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٠.

(٢) مسند أحمد ٥/ ٢٧٩.

يتّبع خُطُواتِ الشيطانِ فإنه يأمرُ بالفحشاءِ والمنكرِ ﴾: هذا تنفيرٌ وتحذيرٌ من ذلك، بأفصح العبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنِها.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ خُطُواتِ الشيطانِ ﴾ عَمَلَه. وقال عكرمة: نَزَغاته. وقال قتادةُ: كل معصيةٍ فهي من خُطُواتِ الشيطان. وقال أبو مِجْلَز: النذورُ في المعاصي من خطوات الشيطان.

وقال مسروقٌ: سأل رجلٌ ابنَ مسعود فقال: إني حَرَّمتُ أن آكل طعاماً [نَخَمْنَاه][1]. فقال: هذا من نَزَغات الشيطان، كَفّر عن يمينك، وكُلْ[2].

وقال الشعبيُّ في رجل نَذَر ذَبح ولده: هذا من نَزَغاتِ الشيطانِ وأفتاه أن يَذْبح كبشاً.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حَسّان بن عبد الله المصري، حدثنا السَّرِيُّ بن يحيى، عن سليمان التيمي، عن أبي رافع قال: غضبت عليَّ امرأتي فقالت: هي يوماً يهودية ويوماً نصرانيةٌ، وكل مملوك لها حر إن لم تُطَلِّق امرأتك. فأتيت عبدَ الله بن عُمَر فقال: إنما هذه من نزغات الشيطان.

وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذ أفقهُ امرأة بالمدينة، وأتيت عاصم بنَ عُمَر، فقال مثل ذلك[3].

ثم قال تعالى: ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه ما زَكَى منكم من أحدٍ أبداً ﴾، أي: لولا هو يرزقُ مَن يشاء التوبة والرجوعَ إليه، ويُزكّي النفوس شِرْكها وفُجورها ودَنَسها وما فيها من أخلاق رديئة، كلٌّ بحَسَبِه لَما حصَّلَ أحد لنفسه زكاة ولا خيراً، ﴿ ولكن الله يُزَكّي من يشاء ﴾ أي: مِن خَلْقِه، ويُضِلّ من يشاءُ ويُرديه في مَهَالِك الضلال والغي.

وقوله: ﴿ والله سميع ﴾، أي: سميعٌ لأقوالِ عبادِه، ﴿ عليمٌ ﴾ بهم، مَنْ يستحق منهم الهُدَى والضَّلالَ

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ولا يأتل ﴾، من الأَلِيّة وهي: الحَلِفُ، أي: لا يَحلِفُ ﴿ أولُوا الفضلِ منكم ﴾، أي: الطَّوْلِ والصَّدقةِ والإحسان ﴿ والسَّعَةِ ﴾، أي: الجِدَةِ، ﴿ أن يُؤتوا أولي القربَى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيل الله ﴾، أي: لا تَحلِفُوا ألاّ تَصِلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين. وهذه في غايةِ الترفّق والعطف على صِلَةِ الأرحام، ولهذا قال: ﴿ وَلْيعفُوا وَلْيصفَحُوا ﴾، أي: عما تقدَّم منهم من الإساءةِ والأذَى؟ وهذا من حِلمه تعالى وكَرَمِه ولُطفِهِ بخلقه مع ظلمِهم لأنفسهم.

وهذه الآية نزلت في الصِّدِّيق، حين حَلَفَ ألاّ يَنفَعَ مِسْطَح بن أُثَاثَةَ بنافعةٍ بعدما قال في عائشة ما قال،

---

(١) من نسخة الحرم. ولكن النون الأولى فيها تقرأ فاء والصص. جعلته ناعما وطيبة
(٢) أخرجه الحاكم مُطوَّلاً في كتاب التفسير ٢/٣١٥ ـ ٣١٦، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عند هذه الآية.
(٣) راجع هذه الآثار عند تفسير الآية ١٦٨ من سورة البقرة.

كما تقدَّم في الحديث، فلما أنزل الله براءة أُمِّ المؤمنين عائشة، وطابت النفوسُ المؤمنةُ واستقرَّت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأُقيم الحدُّ على من أُقيم عليه ـ شَرَع تبارك وتعالى ـ وله الفَضْلُ والمِنَّةُ ـ يُعطِّفُ الصدِّيقَ على قريبه ونسيبه، وهو مِسْطَحُ بنُ أُثَاثة، فإنه كان ابن خالة الصدِّيق، وكان مسكيناً لا مالَ له إلا ما يُنفِقُ عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المُهاجِرين في سبيل الله، وقد وَلَق وَلْقَة[1] تاب الله عليه منها، وضُرِب الحد عليها، وكان الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ معروفاً بالمعروف، له الفضلُ والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآيةُ إلى قوله: ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفورٌ رحيم﴾، أي: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفرُ لك، وكما تصفح نصفح عنك. فعند ذلك قال الصدِّيق: بلى، والله إنا نُحبُّ ـ يا ربنا ـ أن تغفرَ لنا. ثم رَجَع إلى مِسْطح ما كان يَصِلُه من النفقة، وقال: والله لا أنزِعُها منه أبداً، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعةٍ أبداً. فلهذا كان الصدِّيقُ هو الصدِّيقُ، رضي الله عنه، وعن بنته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾

هذا وعيدٌ من الله تعالى للذين يَرْمُون المحصَنات الغافلاتِ ـ خُرِّج مخرجَ الغالِب ـ المؤمناتِ، فأُمَّهات المؤمنين أولى بالدخولِ في هذا من كلِّ مُحصَنة، ولا سِيَّما التي كانت سببَ النزول، وهي عائشة بنت الصدِّيق، رضي الله عنهما.

وقد أجمع العلماء ـ رحمهم الله ـ قاطبةً على أن من سبَّها بعد هذا ورَماها بما رَماها به الذين ذُكِروا في هذه الآية، فإنه كافر، لأنه مُعانِدٌ للقرآن. وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي ـ رضي الله عنهنَّ ـ والله أعلم.

وقولُه: ﴿لُعِنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾، كقوله: ﴿إنَّ الذين يُؤذون الله ورسوله لَعَنَهم الله في الدنيا والآخرة وأعدَّ لهم عذاباً مهيناً﴾. وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة، فقال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا أبو سعيد الأشجّ، حدثنا عبد الله بن خِرَاش، عن العَوَّام، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿إن الذين يَرْمُون المحصَنات الغافِلاتِ المُؤمناتِ﴾، قال: نزلت في عائشة خاصة.

وكذا قال مقاتل بن حيان، وقد ذكره ابنُ جرير عن عائشة فقال:

حدثنا أحمدُ بن عَبْدَة الضَّبِّي، حدثنا أبو عَوانة، عن عُمَر بن أبي سَلَمة، عن أبيه قال: قالت عائشة: رُمِيتُ بما رُمِيت به وأنا غافلة، فَبَلَغني بعد ذلك، قالت: فبينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ جالس عندي إذ أُوحِي إليه، قالت: وكان إذا أُوحِيَ إليه أخذه كهيئة السُّبات، وإنه أوحي إليه وهو جالسٌ عندي، ثم استوى جالساً يمسح على وَجْهه، وقال: يا عائشةُ، أبشري. قالت: قلت: نَحْمَد الله لا نَحْمدك. فقرأ: ﴿إن الذين يرمُون المحصنات الغافلات المؤمنات﴾، حتى قرأ ﴿أولئك مُبرَّءُون مما يقولون﴾[2].

---

(١) في نسخة الحرم: ولق ولقة. وقد تقدّم تفسير الولْق عند الآية ١٥ من هذه السُّورة.

(٢) تفسير الطبري ١٨/١٠٣ ـ ١٠٤.

هكذا أورده، وليس فيه أنّ الحكم خاصٌّ بها، وإنما فيه أنها سببُ النزول دون غيرها، وإن كان الحكم يعمُّها كغيرها. ولعله مرادُ ابن عباس ومَن قال كقوله، والله أعلم.

قال الضحاك، وأبو الجوزاء، وسَلَمة بن نُبَيط: المراد بها أزواج النبيِّ خاصَّة، دون غيرهنَّ من النساء.

وقال العَوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ إنّ الذين يَرْمُونَ المُحْصَنَـٰتِ الغافلات المؤمنات ﴾ الآية. يعني أزواجَ النبي ـ ﷺ ـ، رَمَاهنَّ أهلُ النفاق، فأوجب الله لهم اللعنةَ والغضبَ، وباءوا بسخطٍ من الله، فكان ذلك في أزواجِ النبي ـ ﷺ ـ ثم نَزَلَ بعد ذلك: ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ﴾ إلى قوله: ﴿ فإنّ الله غفور رحيم ﴾، فأنزل الله الجلد والتوبة، فالتوبة تُقبَلُ، والشهادةُ تُرَدُّ.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحُسَين، حدثنا هُشَيم، أخبرنا العوّام بن حَوشب، عن شيخ من بني أسَد، عن ابن عباس، قال: فَسَّر سورةَ النور، فلما أتى على هذه الآية: ﴿ إنّ الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾... الآية، قال: في شأن عائشة وأزواجِ النبيِّ ـ ﷺ ـ وهي مُبهمةٌ، وليست لهم توبة. ثم قرأ: ﴿ والذين يرمُونَ المحصناتِ ثم لم يأتوا بأربعةِ شُهَداء ﴾، إلى قوله: ﴿ إلا الذين تابُوا مِن بعد ذلك وأصلحوا ﴾... الآية، قال: فجعل لهؤلاء توبةً، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة، قال: فهمَّ بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه، من حسن ما فسر سورة النور(١).

فقولُه «وهي مبهمة»، أي: عامَّةٌ في تحريم قَذْفِ كُلِّ محصنة، ولَعْنَتِه في الدنيا والآخرة.

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا في عائشةَ، ومن صنع مثلَ هذا أيضاً اليومَ في المسلمات فله ما قالَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكن عائشةَ كانَتْ إمَامَ ذلك(٢).

وقد اختار ابنُ جَرير عُمومها، وهو الصحيح، ويُعَضِّد العُمُوم ما رواه ابن أبي حاتم:

حدثنا أحمدُ بن عبد الرحمن، ابنُ أخي ابن وهب، حدثنا عَمِّي، حدثنا سُليمان بن بلال، عن ثور بن زيد، عن أبي الغَيث، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «اجتنبوا السبعَ الموبقاتِ. قيل: يا رسول الله وما هُنَّ؟ قال: الشركُ بالله، والسحرُ، وقتلُ النفس التي حَرَّم الله إلا بالحقِّ، وأكلُ الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحفِ، وقذفُ المحصنات الغافلات المؤمنات». أخرجاه في الصَّحيحَين، من حديث سليمان بن بلال، به(٣).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عَمْرو بن خالد الحَذَّاء الحراني، حدثني أبي، (ح) حدثنا أبو شُعَيب الحَرّاني، حدثنا جَدِّي أحمد بن أبي شُعَيب، حدثنا موسى بن أعيَنَ، عن ليث، عن أبي إسحاق، عن صِلَةَ بن زُفَر، عن حُذَيفةَ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: قذفُ المحصنةِ يَهدِم عملَ مائة سنة(٤).

وقولُه: ﴿ يوم تَشهدُ عليهم أَلسِنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانُوا يَعملُون ﴾، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو يحيى الرازيُّ، عن عَمرو بن أبي قيس، عن مُطَرِّف، عن المنهال،

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/١٠٥.
(٢) تفسير الطبري ١٨/١٠٤.
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٠، ٣١ من سورة النساء، ١٦ من سورة الأنفال وخرّجناه هناك.
(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣/١٦٨.

عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: إنهم ـ يعني المشركين ـ إذا رَأَوا أنه لا يدخُل الجنةَ إلا أهلُ الصلاة قالوا: تعالَوا حتى نجحَدَ. فيجحَدُون فيختم على أفواهِهم، وتشهدُ أيديهم وأرجلُهم، ولا يكتمونَ الله حديثاً.

وقال ابن جرير، وابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا يونُس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إذا كان يومُ القيامة عُرِّفَ الكافر بعمله، فَجَحَد وخاصَمَ، فيُقال له: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك. فيقول: كَذَبوا. فيقول: أهلُك وعشيرتك؟ فيقول: كَذبوا، فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يُصَمِّتهم وتَشْهَد عليهم أيديهم وألسنتُهم، ثم يُدخِلُهم النار[1].

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبو شيبةَ إبراهيمُ بن عبد الله بن أبي شيبةَ الكوفيُّ، حدثنا مِنْجَابُ بن الحارث التَّميمي، حدثنا أبو عامر الأسَديّ، حدثنا سفيان، عن عُبَيد المُكْتِب، عن فُضَيل بن عمرو الفُقَيمي، عن الشعبي، عن أنس بن مالك قال: كُنَّا عند النبي ـ ﷺ ـ فضَحِك حتى بدت نَوَاجذُه، ثم قال: تدرون مِمَّ أضحك؟ قلنا: الله ورسولُه أعلم. قال: من مجالدة العبدِ ربَّه يوم القيامة، يقول: يا ربِّ، ألم تُجِرْني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أُجيزُ عليَّ شاهداً إلا من نفسي. فيقول: كفى بنفسك اليوم وبالكرام عليك شهيداً. فيُختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي. فَتَنطق بعمَلِه، ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لكُنَّ وسُحْقاً، فعنكُنَّ كنتُ أناضِل.

وقد رواه مسلم والنسائي جميعاً، عن أبي بكر بن أبي النَّضر، عن أبيه، عن عُبَيد الله الأشجَعي، عن سُفيانَ الثَّوري، به. ثم قال النسائي: «لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سُفيانَ الثوريِّ غيرُ الأشجعيِّ»، وهو حديثٌ غريبٌ، والله أعلم[2]. هكذا قال.

وقال قتادةُ: ابنَ آدَمَ، والله إنَّ عليك لَشُهوداً غير مُتَّهمَةٍ من بَدَنِكَ[3]، فراقبهم واتق الله في سَرَائِرِكَ وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظُّلْمَة عنده ضوء، والسِّرُّ عنده علانيةٌ. فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسنُ الظن فليفعل، ولا قوة إلا بالله[4].

وقولُه: ﴿ يومئذٍ يُوَفِّيهم الله دينهم الحقَّ ﴾، قال ابن عباس: ﴿ دينَهم ﴾، أي: حِسَابهم، وكلُّ ما في القرآن ﴿ دينهم ﴾، أي: حِسَابهم. وكذا قال غيرُ واحدٍ[5].

ثم إن قراءة الجُمهور بنصب ﴿ الحقَّ ﴾، على أنه صِفَةٌ لِدِينِهم، وقرأ مجاهدٌ بالرفع، على أنه نَعْتٌ الجَلالة[6]. وقرأها بعضُ السلف في مُصْحَفِ أُبَيِّ بن كعب: «يومئذٍ يوفيهم الله الحقُّ دينَهم»[7].

وقولُه: ﴿ ويعلمُون أن الله هو الحقُّ المبين ﴾، أي: وعدَه ووعيدَه وحسابُه هو العدلُ، الذي لا جَوْرَ فيه.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/١٠٥

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد ٤/٢٢٨٠ ـ ٢٢٨١، والنسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف ١/٢٤٩.

(٣) في نسخة الحرم: «لشهوداً منهم من بدنك». وفي تفسير ابن أبي حاتم: «من بدنك».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بإسناده إلى قتادة، عند تفسير هذه الآية

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، والطبري ١٨/١٠٦

(٦) تفسير الطبري ١٨/١٠٦، والمحتسب لابن جني ٢/١٠٧

(٧) القارئ هو أبو النضر جرير بن حازم، والأثر في تفسير الطبري ١٨/١٠٦

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُولَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

قال ابنُ عباس: الخبيثاتُ من القولِ للخبيثين من الرجالِ. والخَبيثُون من الرجال للخبيثاتِ من القول. والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيِّبونَ من الرجال للطيباتِ من القولِ. قال: ونزلت في عائشة وأهلِ الإفكِ.

وهكذا رُوي عن مجاهدٍ، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، والشّعبي، والحسن بن أبي الحَسن البصريّ، وحَبيب بن أبي ثابت، والضحَّاكِ. واختاره ابنُ جرير، ووجَّهَهُ بأن الكلامَ القبيحَ أولى بأهل القبح من الناس، والكلامَ الطيبَ أولى بالطيِّبين من الناس، فما نَسَبه أهلُ النفاق إلى عائشةَ هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهةِ منهم. ولهذا قال: ﴿ أولئك مُبَرَّءون مما يقولون ﴾.

وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: الخبيثاتُ من النساء للخبيثين من الرجالِ، والخبيثُون من الرجال للخبيثاتِ من النساء، والطيِّباتُ من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيِّباتِ من النساء.

وهذا أيضاً يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم، أي: ما كان الله لِيجعلَ عائشةَ زوجةً لرسولِ الله ـ ﷺ ـ إلا وهي طَيِّبَةٌ؛ لأنه أطيبُ من كلِّ طَيِّبٍ من البشر، ولو كانت خبيثةً لما صَلحت له، لا شرعاً ولا قَدَراً. ولهذا قال: ﴿ أولئك مُبَرَّءون مما يقولون ﴾، أي: هم بُعَداءُ عمَّا يقوله الإفكِ والعُدوان، ﴿ لهم مغفرة ﴾، أي: بسبب ما قيلَ فيهم من الكَذِب، ﴿ ورزقٌ كريمٌ ﴾، أي: عند الله في جَنَّاتِ النعيم. وفيه وعدٌ بأن تكونَ زوجةَ النبيّ ـ ﷺ ـ في الجنة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا عبد السلام بن حَرب، عن يزيدَ بن عبد الرحمن، عن الحَكَم، عن يحيى بن الجَزّار قال: جاء أُسَيرُ بن جابر إلى عبد الله فقال: لقد سَمِعت الوليدَ ابنَ عُقْبَةَ اليوم تكلَّم بكلامٍ أعجبني، فقال عبد الله: إن الرجلَ المؤمنَ يكون في قلبه الكلمةُ غيرُ الطيِّبة تتجلجلُ في صدره ما تستقر حتى يخرجها، فيسمَعُها رجل عنده يَتَلُّها[1] فيَضمُّها إليه. وإن الرجلَ الفاجرَ يكونُ في قلبه الكلمةُ الطيبة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها، فيسمَعُها الرجل الذي عنده يَتَلُّها[1] فيضمُّها إليه، ثم قرأ عبد الله: ﴿ الخَبيثات للخَبيثين والخبيثُون للخبيثاتِ والطيِّبات للطيِّبين والطيِّبُون للطيِّباتِ ﴾.

ويُشبه هذا ما رواه الإمامُ أحمدُ في المسند مرفوعاً: «مثلُ الذي يَسمَعُ الحكمة ثم لا يُحدِّث إلا بشرِّ ما سَمِع، كمثل رجل جاء إلى صاحب غَنَم فقال: أَجْزِرْني شاةً. فقال: اذهب فخُذ بأُذُنِ أيها شئتَ. فذهب فأخذ بأذن كَلْب الغنم»[2]. وفي الحديث الآخر: «الحكمة ضالة المؤمن، حيثُ وجَدها أخذها»[3].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ

(١) في تفسير ابن أبي حاتم: عنده مثلها، وكذلك في الدر المنثور ١٩٨/٦، وتلّه: ألقاه.
(٢) مسند أحمد ٣٥٣/٢، وأخرجه ابن ماجه في الزهد ١٣٩٦/٢ ـ ١٣٩٧، ومعنى أجزرني: أعطني شاةً تصلح للذبح.
(٣) أخرجه الترمذي في أبواب العلم، وابن ماجه في الزهد. عارضة الأحوذي ١٥٩/١٠، وسنن ابن ماجه ١٣٩٥/٢.

لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذه آدابٌ شرعية، أدَّب الله بها عبادَه المؤمنين، وذلك في الاستئذان، أمَر الله المؤمنين ألَّا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبلَ الدخول، ويُسلِّموا بعده. وينبغي أن يستأذن ثلاثاً، فإن أُذِن له وإلا انصرف، كما ثبت في الصحيح: أن أبا موسى حين استأذن على عُمَر ثلاثاً، فلم يُؤذَن له، انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قَيس يستأذن؟ ائذنُوا له. فطلبوه فوجدُوه قد ذَهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما رَجَعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يُؤذَن لي، وإني سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إذا استأذن أحدُكم ثلاثاً، فلم يُؤذَن له، فلْينصرف». فقال: لَتأتِيَنّ على هذا ببينةٍ وإلا أوجعتُك ضرباً. فذهب إلى مَلأٍ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهَدُ لك إلا أصغَرُنا. فقام معه أبو سعيد الخُدْرِيّ فأخبرَ عُمَر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصَّفْق بالأسواق[1].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمَرٌ، عن ثابت، عن أَنَس ـ أو: غيره ـ أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ استأذن على سعدِ بن عُبَادة فقال: «السلامُ عليكَ ورحمةُ الله». فقال سعدٌ: وعليكَ السلامُ ورحمةُ الله، ولم يسمَع النبي ـ ﷺ ـ حتى سَلَّم ثلاثاً، وردَّ عليه سعد ثلاثاً ولم يُسْمِعه. فرَجع النبيُّ ـ ﷺ ـ واتَّبعه سعد فقال: يا رسولَ الله، بأبي أنتَ وأُمِّي ما سَلَّمتَ تسليمةً إلا وَهِي بأذني، ولقد رَدَدْتُ عليكَ ولم أُسمِعْكَ، وأردتُ أن أستكثر من سَلامك ومن البَرَكة. ثم أدخله البيت. فقرَّبَ إليه زَبيباً، فأكل نبيُّ الله، فلما فَرَغ قال: «أكل طعامَكُم الأبرار، وصلَّت عليكم الملائكة، وأفطر عندكُم الصائمون»[2].

وقد رَوَى أبو داودَ والنَّسائي، من حديث أبي عمرو الأوزاعي: سَمِعتُ يحيى بن أبي كثير يقول: حَدَّثني محمد بن عبد الرحمن بن أسعَدَ بن زُرَارة، عن قيس بن سعد ـ هو ابن عُبَادةَ ـ قال: زارَنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ في منزلِنا، فقال: «السلامُ عليكُم ورحمةُ الله». فردَّ سعدٌ رداً خفياً. قال قيس: فقلتُ: ألا تأذنُ لرسول الله ﷺ؟ فقال: ذَرْه يكثِرُ علينا من السلام. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «السلامُ عليكُم ورحمةُ الله». فرد سعدٌ رَداً خفياً. ثم قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «السلامُ عليكم ورحمةُ الله». ثم رَجَع رسول الله ـ ﷺ ـ واتبعَهُ سعد فقال: يا رسولَ الله، إني كنتُ أسمَعُ تسليمَكَ، وأرُدُّ عليكَ رداً خفياً، لتكثر علينا من السلام. قال: فانصرف معه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فأمر له سعدٌ بِغُسلٍ، فاغتسل، ثم ناوله مِلْحَفَةً مصبوغةً بزعفرانٍ ـ أو: وَرْس ـ فاشتمل بها، ثم رفع رسولُ الله ـ ﷺ ـ يديه وهو يقول: «اللهمّ اجعل صلاتَك ورحمتَك على آلِ سعدِ بن عُبَادة». قال: ثم أصابَ رسُولُ الله ـ ﷺ ـ من الطعام، فلما أراد الانصراف قرَّب إليه سعدٌ حماراً قد وَطَّأ[3] عليه بقطيفة، فركب رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال سعد: يا قيس، اصحَبْ رسولَ الله ﷺ. قال قيسٌ: فقال [لي] رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «اركب». فأبيتُ، فقال: «إما أن تركب وإما أن تنصرِفَ». قال: فانصرفت[4].

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الاستئذان ١١/٢٦ ـ ٢٧، ومسلم، كتاب الآداب ٣/١٦٩٤ ـ ١٦٩٦. والصَّفْقُ: التجارة والمعاملة

(٢) مسند أحمد ٣/١٣٨

(٣) أي: جعل عليه فرشاً وطيئاً لا يؤذي راكبه

(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٤٧ ـ ٣٤٨ وذكر المزّي في تحفة الأشراف ٨/٢٨٧ أن النسائي أخرجه في اليوم والليلة.

وقد رُوي هذا من وجهٍ آخَرَ، فهو حديثٌ جيدٌ قويٌ، والله أعلم.

ثم ليُعلَم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ألّا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن البابُ عن يمينه أو يساره، لما رواه أبو داودَ:

حدّثنا مُؤمّل بن الفضل الحَرّاني ـ في آخرين ـ قالوا: حدثنا بقيّةُ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن، عن عبد الله بن بُسْر قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا أتى بابَ قومٍ لم يستقبل البابَ من تلقاءِ وَجْهه، ولكن من رُكنه الأيمنِ أو الأيسرِ، ويقول: السلامُ عليكُم، السلامُ عليكُم. وذلك أن الدُورَ لم يكن عليها يومئذٍ ستورٌ. تفرّد به أبو داود[1].

وقال أبو داودَ أيضاً: حدثنا عُثمانُ بن أبي شَيبة، حدثنا جَرير ـ (ح) ـ قال أبو داود: وحدثنا أبو بكر بن أبي شَيبةَ، حدثنا حَفصٌ، عن الأعمش، عن طلحةَ، عن هُزَيلٍ قال: جاء رجلٌ ـ قال عثمان: سعد ـ فوقفَ على باب النبي ـ ﷺ ـ يستأذن، فقام على الباب ـ قال عثمان: مُستقبِلَ الباب ـ فقال له النبي ـ ﷺ ـ: هكذا عنك، أو: هكذا، فإنما الاستئذانُ من النظر[2].

وقد رَواه أبو داودَ الحَفَرِيُّ، عن سُفيانَ الثوريِّ، عن الأعمش، عن طلحةَ بن مُصَرِّف، عن رجل، عن سعد، عن النبي ﷺ. رَواهُ أبو داود من حديثه[2].

وفي الصحيحَين عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لو أنَّ امرأً اطّلَعَ عليكَ بغير إذنٍ فحذفته بحصاةٍ، ففقأتَ عينَه، ما كان عليك من جُناح»[3].

وأخرجَ الجماعةُ من حديث شُعبةَ، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: أتيتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ في دَين كان على أبي، فدققتُ البابَ، فقال: مَن ذا؟ قلتُ: أنا. قال: أنا، أنا. كأنّه كَرِهه[4].

وإنما كَرِه ذلك لأن هذه اللفظةَ لا يُعرَف صاحبُها حتى يُفصِحَ باسمه أو كُنيته التي هو مشهورٌ بها، وإلّا فكل أحد يُعبّر عن نفسه «أنا» فلا يَحصُل بها المقصودُ من الاستئذان، الذي هو الاستئناسُ المأمورُ به في الآية.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: الاستئناس: الاستئذانُ. وكذا قال غيرُ واحد.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا ابن بَشّار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن أبي بشر، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿ لا تدخلُوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنِسُوا وتُسلّموا ﴾، قال: إنما هي خطأ من الكاتب، ﴿ حتى تستأذنوا وتسلموا ﴾.

وهكذا رواه هُشَيم، عن أبي بشر ـ وهو جعفرُ بن إياس ـ به. وروى معاذ بن سليمان، عن جعفر بن إياس، عن سعيد، عن ابن عباس، بمثله، وزاد: وكان ابن عباس يقرأ: ﴿ حتى تستأذنوا وتسلموا ﴾، وكان يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه. وهذا غريب جداً عن ابن عباس[5].

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٤١.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٤٤ وسعدٌ المذكور في الحديث هو ابن أبي وقاص. كما في تُحفة الأشراف للمزّي ٣/٣٦٢
(٣) فتح الباري، كتاب الديات ١٢/٢٤٣، ومسلم، كتاب الآداب ٣/١٦٩٩
(٤) فتح الباري، كتاب الاستئذان ١١/٣٥، ومسلم، كتاب الآداب ٣/١٦٩٧، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٤٨، وعارضة الأحوذي، أبواب الاستئذان ١٠/١٧٩، والنسائي في اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف ٢/٣٦١، وابن ماجه في كتاب الأدب ٢/١٢٢٢
(٥) تفسير الطبري ١٨/١٠٩ ـ ١١٠، ١١٢

وقال هُشَيم: أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم قال: في مصحف ابن مسعود: «حتى تُسَلِّموا على أهلها وتستأذنوا». وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس[١]، وهو اختيارُ ابن جَرِيرٍ[١].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا رَوحٌ، حدثنا ابن جُرَيج، أخبرني عَمرو بن أبي سفيان: أن عَمرو بن أبي صفوان أخبره، أن كَلَدةَ بن الحَنْبَل أخبَرَه، أن صَفوان بن أُمَيَّةَ بعثَه في الفتح بِلِبَإٍ وجَدَايَةٍ وضَغَابِيسَ[٢]، والنبي ـ ﷺ ـ بأعلى الوادي، قال: فدخلتُ عليه ولم أُسَلِّم ولم أستأذن، فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: ارجع فقل: السلامُ عليكُم، أأدخل؟ وذَلِكم بعدما أسلَم صفوانُ[٣].

ورواه أبو داودَ والترمذيُّ والنسائي من حديث ابن جُرَيج، به، وقال الترمذي: حَسَنٌ غَرِيب، لا نَعرِفُه إلا من حديثه[٣].

وقال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو الأحوَص، عن منصور، عن رِبْعِيٍّ قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ـ ﷺ ـ وهو في بيته، فقال: أأَلِجُ؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ لخادمه: اخرج إلى هذا فعَلِّمه الاستئذان، فقل له: السلام عليكم، أأدخلُ؟ فَسَمِعه الرجل فقال: السلامُ عليكُم، أأدخل؟ فأذن له النبي ـ ﷺ ـ فدخل[٤].

وقال هُشَيم: أخبرنا منصور، عن ابن سِيرينَ ـ وأخبرنا يونس بن عُبَيد، عن عَمْرو بن سعيد الثقفي: أنَّ رجلا استأذن على النبي ـ ﷺ ـ فقال: أأَلِج ـ أو: أنلجُ؟ ـ فقال النبي ـ ﷺ ـ لأمةٍ له، يُقال لها روضةُ: قُومِي إلى هذا فعَلِّمِيه، فإنه لا يُحسِنُ يستأذنُ، فقولي له يقول: السلام عليكم، أأدخلُ؟ فَسَمِعها الرجل، فقالها، فقال: ادخُلْ[٥].

وقال الترمذيُّ: حَدَّثنا الفضلُ بن الصَّبَّاح، حدثنا سعيدُ بن زكريا، عن عَنْبَسَةَ بن عبد الرحمن، عن محمد بن زاذانَ، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال. قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: السلامُ قبل الكلام»[٦].

ثم قال الترمذيُّ: عنبسةُ ضعيفُ الحديثِ ذاهِبٌ، ومحمد بن زاذان مُنكَر الحديث[٦].

وقال هُشَيم: قال مُغيرة: قال مجاهد: جاء ابنُ عُمَر من حاجةٍ، وقد آذاه الرمضاءُ[٧]، فأتى فُسطاطَ امرأةٍ من قُريش، فقال السلامُ عليكم، أأدخلُ؟ قالت: ادخُل بِسَلامٍ. فأعاد، فأعادت، وهو يُرَاوِح[٧] بين قَدَمَيه، قال: قُولِي: ادخُلْ. قالت: ادخُلْ. فدخلَ[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو نعيم الأحوَلُ، حدثنا خالدُ بن إياس، حدثتني جدَّتي أمُّ إياس قالت: كنتُ في أربع نِسْوةٍ نستأذنُ على عائشةَ، فقلتُ: ندخُل؟ قالت: لا، قُلن لصاحِبَتِكُنَّ:

---

(١) تفسير الطبري ١٨/١٠٩ ـ ١١٠، ١١٢

(٢) اللِّبَأ: أول ما يُحلَب عند الولادة. والجداية: ما بلغ ستة أشهر أو سبعة من أولاد الظِّباء. والضغابيس: جمع ضُغْبُوس، وهي صغار القثاء.

(٣) مسند أحمد ١٣/٤١٤، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٤٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الاستئذان ١٠/١٧٩، والنسائي في الوليمة من سننه الكبرى، وفي اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزي ٨/٣٢٧.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٤٥

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/١١٠.

(٦) عارضة الأحوذي، أبواب الاستئذان ١٠/١٧٣ ـ ١٧٤.

(٧) الرمضاء: شدة الحر. ويُرَاوِح: يعتمد على إحدى رجليه مرة، وعلى الأخرى مرة، ليوصل الراحة إلى كلٍّ منهما.

تستأذن فقالت: السلامُ عليكم، أدخلُ؟ قالت: ادخلُوا، ثم قالت: ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لا تدخُلُوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وَتُسَلِّموا على أهلها ﴾.

وقال هُشَيم: أخبرنا أشعثُ بن سَوَّار، عن كُرْدُوسٍ، عن ابن مسعود قال: عليكُم أن تستأذنُوا على أمهاتكم وأخَواتكم. قال أشعثُ، عن عدي بن ثابت: إنَّ امرأة من الأنصار قال: يا رسول الله، إني أكونُ في منزلي على الحال التي لا أُحِبُّ أن يراني أحدٌ عليها والد ولا وَلَد، وإنه لا يزالُ يدخلُ عليَّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال؟ قال: فنزلت: ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لا تدخُلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنِسُوا وتُسَلِّموا على أهلها ﴾[١].

وقال ابن جُرَيج: سمعتُ عطاء بن أبي رباح يُخبر عن ابن عباس ـ رَضِي الله عنه ـ قال: ثلاثُ آياتٍ جَحَدها الناس. قال الله: ﴿ إن أكرَمَكُم عند الله أتقاكم ﴾، قال: ويقولُون: إن أكرمَهُم عند الله أعظمهم بيتاً. قال: والإذنُ كُلُّهُ قد جَحَده الناس. قال: قلت: أستأذن على أخَواتي أيتام في حجري، مَعِي في بيتٍ واحدٍ؟ قال: نعم. فَرَدَدْتُ لِيُرخِّصَ لي فأبى، قال: تحب أن تَرَاها عُريانة؟ قلت: لا. قال: فاستأذِن. قال: فراجعتُه أيضاً، فقال: أتحِبُّ أن تطيع الله؟ قلتُ: نعم. قال: فاستأذِنْ.

قال ابنُ جُرَيج: وأخبرني ابن طاووس، عن أبيه قال: ما من امرأة أكرَهُ إليَّ أن أرى عُرْيَتَها[٢] من ذاتِ محرمٍ. قال: وكان يُشَدِّد في ذلك.

وقال ابن جُرَيج، عن الزُّهريِّ: سمعتُ هُزَيل بن شُرَحبيل الأَوْدِيّ الأعمى أنه سَمِع ابن مسعودٍ يقول: عليكم الإذنَ على أمهاتكم.

وقال ابن جُرَيج: قلت لعطاء: أيستأذِنُ الرجلُ على امرأته؟ قال: لا[٣].

وهذا محمولٌ على عَدَم الوجوب، وإلا فالأولى أن يُعلِمَها بدخُوله ولا يُفاجِئَها به، لاحتمال أن تكونَ على هيئةٍ لا تُحِبُّ أن يَرَاها عليها.

وقال أبو جعفر بن جَرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحُسَين، حدثنا محمد بن حازم، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن يحيى بن الجَزَّار، عن ابن أخي زينب ـ امرأة عبد الله بن مسعود ـ عن زينبَ ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجةٍ فانتهى إلى البابِ، تَنَحنَحَ وبَزَق، كراهية أن يَهجُم ما على أمْرٍ يكرَهُه[٤]، إسناد صحيح.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنان الواسطي، حدثنا عبد الله بن نُمير، حدثنا الأعمش، عن عمرو ابن مُرَّة، عن أبي عبيدة قال: كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس، تكلم[٥] ورفع صوته.

وقال مجاهد: ﴿ حتى تستأنِسُوا ﴾، قال: تَنَحْنَحُوا، وتَنَخَّمُوا[٦].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/١١٠ ـ ١١١.
(٢) يقال: عَرِيَ عُرْياً وعُرْيَةً: تجرد من ثيابه.
(٣) انظر الآثار السابقة في تفسير الطبري ١٨/١١١ ـ ١١٢.
(٤) تفسير الطبري ١٨/١١٢.
(٥) في تفسير ابن أبي حاتم: سَلَّم ورفع.
(٦) تفسير الطبري ١٨/١١١.

وعن الإمام أحمدَ بنِ حَنبل ـ رحمه الله ـ أنه قال: إذا دَخل الرجلُ بيته استُحِبَّ له أن يَتنحنَحَ، أو يُحرِّكَ نعليه. ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أنه نَهى أن يَطرُقَ الرجلُ أهلَه طُرُوقاً. وفي رواية: لِئلا يَتخوَّنهم [1].

وفي الحديث الآخر: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قدِم المدينة نهاراً، فأناخَ بظاهرِها، وقال: انتظِرُوا حتى تدخُلَ عِشاءً ـ يعني آخرَ النهار ـ حتى تمتشِطَ الشعِثَة وتَستحِدَّ المُغيبة [2].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبوبكر بن أبي شيبةَ، حدثنا عبد الرحيم [3] بن سُليمان، عن واصل ابن السائب، حدثني أبو سَوْرة ابن أخي أبي أيوبَ، عن أبي أيوبَ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، هذا السلام، فما الاستئناسُ، قال: يتكلَّم الرجل بتسبيحةٍ وتكبيرةٍ وتحميدةٍ، ويتنحنحُ فيؤذِنُ أهلَ البيتِ. هذا حديث غريب [4].

وقال قتادةُ في قوله: ﴿ حتى تَستأنِسُوا ﴾، قال: هو الاستئذانُ ثلاثاً، من لم يُؤذَن له فيهنَّ فَلْيرجِعْ، أما الأولى فَليُسمِعَ الحيَّ، وأمَّا الثانية فَليأخذُوا حِذْرَهم، وأما الثالثةُ فإن شاءُوا أذِنُوا وإن شاءُوا رَدُّوا. ولا تَقِفَنْ على باب قومٍ رَدُّوكَ عن بابِهم، فإنَّ للناسِ حاجاتٍ ولهم أشغالٌ، والله أولى بالعُذر.

وقال مُقاتل بن حَيَّان في قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلُوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسُوا وتُسلِّموا على أهلها ﴾: كان الرجل في الجاهلية إذا لَقِي صاحبَه لا يُسلِّم عليه، ويقول: حُيِّيت صباحاً وحُيِّيت مساء، وكان ذلك تحيةَ القوم بينهم، وكان أحدُهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذنُ حتى يقتحمَ، ويقول: «قد دخلتُ»، فَيشُقُّ ذلك على الرجل، ولعله يكونُ مع أهله، فغيَّر الله ذلك كُلَّه، في سَتْرٍ وعِفَّةٍ، وجعله نَقِياً نَزِهاً من الدنس والقَذَرِ والدَّرَنِ، فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تَدخلُوا بُيوتاً غير بُيوتكم حتى تستأنِسُوا وتُسلِّموا على أهلها ﴾.

وهذا الذي قاله مقاتل: حَسَن. ولهذا قال: ﴿ ذلكم خَيرٌ لكم ﴾، يعني الاستئذانُ خيرٌ لكم، بمعنى هو خيرٌ للطرفين: للمستأذِنِ ولأهل البيت، ﴿ ولعلكم تَذكَّرون ﴾.

وقولُه: ﴿ فإن لم تَجِدُوا فيها أحداً فلا تدخلُوها حتى يؤذن لكم ﴾، وذلك لما فيه من التصرُّف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذِن، وإن شاء لم يأذن، ﴿وإن قيل لكم ارجعُوا فارجعُوا هو أزكى لكمُ﴾، أي: إذا رَدُّوكم من الباب قبلَ الإذْنِ أو بعدَه، ﴿ فارجعوا هو أزكى لكم ﴾، أي: رُجُوعكم أزكى لكم وأطهر، ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾.

وقال قتادةُ: قال بعضُ المهاجرين: لقد طلبتُ عُمْري كُلَّه هذه الآيةَ فما أدركتُها: أن أستأذِنَ على بعض إخواني، فيقول لي: «ارجع». فأرجعُ وأنا مغتبط [5]: ﴿ وإن قيل لكم ارجعُوا فارجعُوا هو أزكَى لكم والله بما تعملون عليم ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ٩/٣٣٩، ومسلم، كتاب الإمارة ٣/١٥٢٨. والطُّرُوقُ: الإتيان في الليل، وكلُّ آتٍ في الليل فهو طارق. ويَتخوَّنهم: يظنُّ خِيانتهم، ويكشف هل خانوا أم لا؟

(٢) أخرجاه في البابين السابقين، فتح الباري ٩/٣٤٣، ومسلم ٣/١٥٢٧. والشعثة: التي توسخ شعرها وتلبَّد. والمُغيبةُ: التي غاب زوجها. والاستحداد: إزالة شعر العانة.

(٣) في الأصول: عبد الرحمن. والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم، والجرح والتعديل له ٥/٣٣٩.

(٤) أخرجه ابن ماجه من هذه الطريق في كتاب الأدب ٢/١٢٢١. وقال في الزوائد: «في إسناده أبو سورة، قال فيه البخاري: منكر الحديث. ويروى عن أبي أيوب مناكير لا يتابع عليها» وفي فتح الباري، كتاب الاستئذان ١١/٨: «وأخرج ابن أبي حاتم بسند ضعيف من حديث أبي أيوب... وذكر الحديث».

(٥) لفظ الطبري ١٨/١١٣ «وأنا مُغتَبطٌ لقوله...». والدر المنثور ٩/١٧٦: «وأنا مُغتبط لقوله تعالى». وفي نسخة الحرم: «وأنا متغيظ».

وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ وإن قيل لكم ارجعُوا فارجعوا ﴾، أي: لا تقفوا على أبواب الناس.

وقولُه: ﴿ ليس عليكم جُناحٌ أن تدخلُوا بيوتاً غير مسكونةٍ فيها متاع لكم والله يعلم ما تُبدون وما تَكتمون ﴾، هذه الآية الكريمة أخصُّ من التي قبلها، وذلك أنها تَقتَضِي جوازَ الدخولِ إلى البيوتِ التي ليس فيها أحدٌ، إذا كان لكم فيها متاع، بغير إذن، كالبيت المعد للضيف، إذا أُذِن له فيه أول مَرَّةٍ كَفَى.

قال ابنُ جُرَيج: قال ابن عباس: ﴿ لا تدخلُوا بيوتاً غيرَ بُيوتكم ﴾، ثم نُسِخ واستُثني فقال: ﴿ ليس عليكُم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ﴾[1]. وكذا روى عن عكرمة، والحسن البصري.

وقال آخرون: هي بيوت التجار، كالخانات ومنازل الأسفار، وبيوتُ مكة، وغير ذلك. واختار ذلك ابن جرير، وحكاه عن جماعة. والأول أظهرُ، والله أعلم.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هي بيوت الشَّعر.

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يَغضُّوا من أبصارِهم عما حَرَّم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يَغضُّوا أبصارَهم عن المحارِم، فإن اتفق أن وَقَع البصرُ على مُحرَّم من غير قصدٍ فليصرف بَصَرَه عنه سريعاً، كما رَوَاه مسلمٌ في صحيحه، من حديث يونُس بن عُبَيد، عن عَمرو بنِ سعيد، عن أبي زُرعة بن عَمرو بن جَرير، عن جَدِّه جَرير بن عبد الله البَجَليِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: سألتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ عن نَظرَةِ الفَجْأَةِ، فأمرني أن أصرفَ بَصَري[2].

وكذا رواه الإمام أحمد، عن هُشَيم، عن يُونُسَ بن عُبَيد، به. ورواه أبو داود والترمذيّ والنسائيّ، من حديثه أيضا، وقال الترمذيّ: «حَسَن صحيحٌ»[2].

وفي رواية لبعضهم: «فقال: أطرِقْ بَصَرَكَ»، يعني: انظر إلى الأرضِ. والصرفُ أعمُّ، فإنه قد يكون إلى الأرض، وإلى جهة أخرى، والله أعلم.

وقال أبو داود: حدثنا إسماعيلُ بن موسى الفَزَاريُّ، حدثنا شَريك، عن أبي رَبيعةَ الإياديِّ، عن عبد الله ابن بُرَيدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لعليٍّ: «يا عليُّ، لا تُتبِع النظرةَ النظرةَ، فإن لكَ الأولى، وليس لك الآخرة»[3].

ورواه الترمذيُّ من حديث شَرِيك، وقال: «غَريبٌ، لا نعرفُه إلا من حديثه»[3].

وفي الصَّحيح عن أبي سَعيدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إيَّاكم والجلوسَ على الطُّرُقاتِ. قالوا: يا رسولَ الله، لابدَّ لنا من مجالسنا، نَتحدثُ فيها. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إن أبيتم فأعطُوا الطريقَ حقَّه. قالوا:

---

(١) تفسير الطبري ١٨/١١٥.

(٢) مسلم، كتاب الآداب ٣/١٦٩٩ ـ ١٧٠٠ ومسند أحمد ٤/٣٦١، وسنن أبي داود، كتاب النكاح ٢/٢٤٦، وعارضة الأحوذي، أبواب الأدب ١٠/٢٢٧ ـ ٢٢٩ والنسائي في عشرة النساء من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف ٢/٤٣٤.

(٣) سنن أبي داود، كتاب النكاح ٢/٢٤٦، وعارضة الأحوذي، أبواب الأدب ١٠/٢٢٩

وما حَقُّ الطريقِ يا رسولَ الله؟ قال: غَضُّ البَصرِ وكَفُّ الأذى، وردّ السلامِ، والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكرِ[1].

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا فضّال[2] بن جُبَير، سمعت أبا أمامة يقول: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «اكفُلوا لي ستّ أكفلْ لكُم بالجنةِ: إذا حدَّثَ أحدُكم فلا يكذب، وإذا اؤْتُمِنَ فلا يَخُن، وإذا وَعَدَ فلا يُخلِفَ، وغُضّوا أبصاركم، وكُفّوا أيديكم، واحفظُوا فُروجَكُم»[3].

وفي صحيح البخاري: «من تكفَّلَ لي ما بين لَحيَيه ورِجلَيه أكفلُ له الجنةَ»[4].

وقال عبد الرزّاق: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن أيوبَ، عن ابن سيرينَ، عن عَبِيدَةَ قال: كُلُّ ما عُصِيَ الله به فهو كَبِيرةٌ. وقد ذكر الطَّرَفين فقال: ﴿قُل للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم﴾.

ولما كان النظرُ داعيةً إلى فسادِ القلب، كما قال بعض السَّلَفِ: «النظرُ سِهَامُ [سمٍّ] إلى القلب». ولذلك أمر الله بحفظ الفُروجِ كما أمر بحفظِ الأبصارِ التي هي بواعثُ إلى ذلك، فقال: ﴿ويحفَظُوا فُرُوجَهم﴾. وحِفظُ الفَرجِ تارةً يكون بِمَنْعِه من الزِّنَا، كما قال: ﴿والذين هُم لفُروجِهم حافظون ◉ إلا على أزواجِهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غيرُ مَلُومين﴾، وتارةً يكونُ بحفظه من النظر إليه، كما جاء في الحديث في المُسنَدِ والسُّنَنِ: ﴿احفظ عَورَتك، إلاّ من زَوجتِكَ أو ما مَلَكَتْ يَمينُكَ﴾[5].

﴿ذلك أَزكى لَهُم﴾، أي: أطهرُ لقلوبهم وأنقى لدينِهم، كما قيل: «من حَفِظ بصرَه أورثَه الله نوراً في بصيرته». ويُروَى: «في قلبه».

وقد قال الإمام أحمدُ: حدثنا عتَّابٌ، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عُبَيد الله بن زَحْر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: ما من مُسلِم ينظُرُ إلى محاسنِ امرأةٍ[6] ثم يَغُضّ بَصَرَه إلا أخلَفَ الله له عبادةً يَجِدُ حَلاوَتَها»[7].

ورُوي هذا مرفوعاً عن ابن عُمَر، وحُذَيفة، وعائشة رَضِيَ الله عنهم. ولكن في أسانيدها ضعف، إلا أنها فيها التَرغيب ومثلُه يُتسامَحُ فيه.

وفي الطبراني من طريق عُبَيد الله بن زَحْر، عن عَليّ بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعاً: «لتغضُّنّ أبصاركم، ولتحفظُنّ فُروجَكُم، ولَتُقِيمُنّ وُجُوهَكُم، أو لَتُكسَفَنّ وُجوهكُم»[8].

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب المظالم ٥/١١٢، ومسلم، كتاب اللباس ٣/١٦٧٥.

(٢) في النسخ «فضل» والمثبت من أسد الغابة، ترجمة أبي أمامة. وفي المعجم الكبير ٨/٣١٣ قال: «فضال بن جبير، عن أبي أمامة». وقال محمد بن عرعرة: فضال بن الزبير الغداني. والصحيح فضال بن جبير.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/٣١٤ بإسناده إلى محمد بن عرعرة، عن فضال. وفي مجمع الزوائد ١٠/٣٠١: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه فضال بن الزبير، ويقال: ابن جبير، وهو ضعيف».

(٤) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٣٠٨ وفيه: «من يضمن» وذكر ابن حجر أن الترمذي أخرجه بلفظ: «من تكفّل». وأخرجه البخاري في كتاب الحدود ١٢/١١٣، وفيه: «من توكّل».

(٥) مسند أحمد ٥/٣ ـ ٤، وسنن أبي داود، كتاب الحمام ٤/٤٠ ـ ٤١، وعارضة الأحوذي، أبوابُ الأدب ١٠/٢٢٢ ـ ٢٢٣، والنسائي، في العشرة من السنن الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٨/٤٢٨، وسنن ابن ماجه، كتاب النكاح ١/٦١٨.

(٦) لفظ المسند «إلى محاسن امرأة أول مرة» وفي المعجم الكبير: «إلى امرأة أول رمقة».

(٧) مسند أحمد ٥/٢٦٤. وأخرجه الطبراني في الكبير ٨/٢٤٧ بإسناده إلى يحيى بن أيوب.

(٨) المعجم الكبير ٨/٢٤٦. وقد وقع في نسخة المحرم في السند غلط كثير.

وقال الطبراني: حدثنا أحمد زُهَير التُستَري قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المُقرِئ، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هُرَيم بن سفيان، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود ـ رَضِي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ النظرَ سَهمٌ من سِهام إبليس مَسْمُومٌ، من تَرَكه مخافتي أبدلتُه إيماناً يجدُ حَلاوتَه في قلبِه»[1].

وقولُه: ﴿ إنَّ الله خبيرٌ بما يَصنَعُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ يعلَمُ خائنةَ الأعيُنِ وما تُخفي الصدورُ ﴾

وفي الصحيح، عن أبي هُرَيرة ـ رَضِي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كُتِبَ على ابن آدم حظُّه من الزنا، أدركَ ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطقُ، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخُطَى، والنفسُ تَمنَّى وتَشتَهي، والفرج يُصَدِّقُ ذلك أو يُكَذِّبُه»[2].

رواه البخاري تعليقاً، ومسلم مُسنداً من وجهٍ آخَرَ، بنحو ما تقدم[2]

وقد قال كثيرٌ من السَلَفِ: إنهم كانوا ينهونَ أن يُحِدَّ الرجلُ بَصَره إلى الأمرد. وقد شَدَّد كثيرٌ من أئمةِ الصوفيةِ في ذلك، وحَرَّمه طائفةٌ من أهل العلم، لما فيه من الافتتان، وشَدَّد آخرون في ذلك كثيراً جداً.

وقال ابنُ أبي الدنيا: حدثنا أبو سعيد المدني[3]، حدثنا عُمَر بن سَهل المازني، حدثني عُمَر بن محمد بن صهبان، حدثني صفوان بن سليم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «كلُّ عينٍ باكيةٌ يوم القيامة، إلا عيناً غَضَّت عن محارمِ الله، وعيناً سَهِرَت في سبيل الله، وعيناً يخرجُ منها مثلُ رأسِ الذباب من خشية الله عزَّ وجلَّ».

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

هذا أمرٌ من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغَيْرَةٌ منه لأزواجهنّ عباده المؤمنين، وتمييزٌ لهنّ عن صفةِ نساءِ الجاهلية وفعال المشركات. وكان سببُ نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حَيّان قال: بلغنا ـ والله أعلم ـ أن جابر ابن عبد الله الأنصاري حدث: أن «أسماء بنت مُرشِدَة، كانت في نَخْلٍ لها في بني حارثة، فجعل النساءُ يدخلن عليها غير مُتَّزِراتٍ فيبدُو ما في أرجلهن من الخَلاخِل، وتبدو صدورهن وذوائبُهنّ، فقالت أسماء: ما أقبح هذا! فأنزل الله: ﴿ وَقُل للمُؤمِناتِ يَغضُضنَ مِن أبصارِهِنّ ويحفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾.. الآية[4]

(١) أخرجه في المعجم الكبير ٢١٤/١٠.
(٢) فتح الباري، كتاب الاستئذان ٢٦/١١، وكتاب القدر ٥٠٢/١١ ـ ٥٠٣، وفيه رواه تعليقاً، قال: «وقال شبابة، عن ورقاء، عن ابن طاوس، عن أبي هريرة». ومسلم، كتاب القدر ٢٠٤٦/٤.
(٣) في نسخة الحرم: المقبري.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والسيوطي في الدر عنه ١٧٩/٦ «ومُتَّزِرات» غير لابسات الإزار، وهو ما يستر أسفل البدن «وذوائبهن» شعورهن.

فقوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾، أي: عما حَرَّم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن. ولهذا ذهبَ كثيرٌ من العلماء إلى أنه لا يجوزُ للمرأة أن تنظر إلى الرجال الأجانب بشَهوة ولا بغير شَهوةٍ أصلا. واحتج كثير منهم بما رواه أبو داودَ والترمذي، من حديث الزُهريِّ، عن نَبْهَانَ ـ مولى أم سلمة ـ أنه حدَّثه: أن أمَّ سلمة حَدَّثته: أنها كانت عند رسولَ الله ـ ﷺ ـ وميمونة، قالت: فبيما نحن عنده أقبل ابنُ أمِّ مكتوم، فدخَلَ عليه، وذلك بعدما أُمِرْنا بالحجاب، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: احتجبا منه. فقلت: يا رسولَ الله، أليس هو أعمى لا يُبصِرُنا ولا يَعرفنا؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ. أوَ عمياوان أنتما؟ ألستما تُبصِرانه.

ثم قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»(1).

وذهبَ آخرون من العلماء إلى جواز نظرهنّ إلى الأجانب بغير شَهوة، كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ـ ﷺ ـ جَعَلَ ينظر إلى الحبشة وهم يَلعبُون بحرابهم يومَ العيد في المسجد، وعائشةُ أمُّ المؤمنين تنظر إليهم من ورائه. وهو يسترها منهم حتى مَلَّت ورَجَعت»(2).

وقولُه: ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾، قال سعيد بن جُبَير: عن الفواحش، وقال قتادةُ وسفيان: عما لا يحلُّ لهنَّ. وقال مقاتل: عن الزنا. وقال أبو العالية: كلُّ آية أنزلت في القرآن يُذكَرُ فيها حِفظُ الفُروج فهو من الزِنَا، إلا هذه الآية: ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ ألَّا يراها أحدٌ.

وقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، أي: ولا يُظهِرْنَ شيئاً من الزينة للأجانب إلَّا ما لا يمكن إخفاؤه. وقال ابن مسعود: كالرداء والثياب. يعني على ما كان يتعاناه(3) نساء العرب، من المقنعة التي تُجلِّل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حَرَج عليها فيه، لأنَّ هذا لا يُمكِنُ إخفاؤُه. ونظيرُه في زيِّ النساءِ ما يظهر من إزارها، وما لا يُمكِنُ إخفاؤُه. وقال بِقول ابنِ مسعود الحسنُ، وابنُ سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيمُ النَخَعي، وغيرهم.

وقال الأعمش، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾، قال: وجهها وكفيها والخاتم. ورُوِي عن ابن عُمَر، وعطاءٍ، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وأبي الشعثاء، والضحَّاكِ، وإبراهيم النَخَعي، وغيرهم، نحو ذلك. وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال أبو إسحاق السَّبِيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال في قوله: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾: الزينة القُرْط، والدُّملُوجُ، والخَلْخال، والقلادة.

وفي روايةٍ عنه بهذا الإسناد قال: الزينةُ زينتان، فزينةٌ لا يَرَاها إلا الزوج: الخاتم والسِوَارُ. والظاهرُ الثيابُ.

وقال الزُهريُّ: لا يبدُو لهؤلاء الذين سَمَّى الله ممَّن لا تحِلُّ له إلا الأسورةُ [والأخمرة] والأقرطةُ من غير حَسْرٍ. وأما عامَّةُ الناسِ فلا يبدُو منها إلا الخواتمُ. وقال مالك، عن الزُهريِّ: ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾، الخاتم والخَلْخال.

ويحتمِل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظَهَر منها بالوجه والكفين، وهذا هو المشهورُ عند

---

(1) سنن أبي داود، كتاب اللباس ٤/٦٣ ـ ٦٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الأدب ١٠/٢٣٠.
(2) أخرجاه، فتح الباري، كتاب الصلاة ١/٥٤٩، ومسلم، كتاب صلاة العيدين ٢/٦٠٨ ـ ٦١٠.
(3) أي: يأخذن به أنفسهن. والمقنعة: ما تغطي به المرأة رأسها

الجمهور، ويُستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سُنَنه:

حدَّثنا يعقوبُ بن كعب الأنطاكيُّ ومؤمّل بن الفضل الحرّاني قالا: حدَّثنا الوليدُ، عن سعيد بن بَشِير، عن قتادة، عن خالد بن دُرَيك، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنَّ أسماء بنت أبي بكر دَخلت على النبي ـ ﷺ ـ وعليها ثيابٌ رِقاقٌ، فأعرضَ عنها وقال: يا أسماءُ، إن المرأة إذا بَلَغتِ المحيضَ لم يصلُح أن يُرى منها إلا هذا. وأشار إلى وَجهه وكفَّيه[1].

لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازيُّ: هذا مرسَلٌ؛ خالد بن دُرَيك لم يسمع من عائشة[1]، فالله أعلم.

وقولُه: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾، يعني: المقانع يُعمَلُ لها صَنِفات[2] ضاربات على صُدور النساء، لِتُواريَ ما تحتَها من صَدرها وترائبها، ليخالفن شِعارَ نساء أهل الجاهلية، فإنهنَّ لم يكُن يَفعلْنَ ذلك، بل كانت المرأة تَمُرُّ بين الرجال مُسفِحَة[3] بصدرها، لا يُواريه شيءٌ، وربما أظهرت عُنقَها وذوائبَ شعرها وأقرِطة آذانها، فأمرَ الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالِهنَّ، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾، والخُمُرُ: جمعُ خِمارٍ، وهو ما يَخمِرُ، أي: يُغطَّى به الرأس، وهي التي تُسمِّيها الناسُ.

قال سَعيد بن جُبَير: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾: وَلْيَشدُدْنَ ﴿ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾، يعني على النَّحرِ والصدرِ، فلا يُرَى منه شيءٌ.

وقال البخاري: حدثنا أحمد بن شَبيب، حدثنا أبي، عن يونُسَ، عن ابن شِهاب، عن عُروة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «يرحَمُ الله نساءَ المهاجراتِ الأُوَل، لما أنزل الله: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾، شقَقْنَ مُروطَهُنَّ فاختمَرْنَ به»[4].

وقال أيضاً: حَدَّثنا أبو نُعَيم، حَدَّثنا إبراهيم بن نافع، عن الحَسَن بن مسلم، عن صَفيَّة بنت شيبة: أنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت[5]: «لما نزلت هذه الآية: ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾، أخذن أُزُرَهُنَّ فشقَقْنها من قبل الحواشي، فاختمَرْن[4] بها».

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونُسَ، حدثني الزنجيُّ بن خالد، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن صَفيَّة بنت شَيبَة قالت: بينا نحنُ عند عائشةَ، قالت: فذكرنا نساء قُريش وفَضلَهُنَّ، فقالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ: «إن نساءَ قُريش لَفُضلَى[6]، وإني ـ والله ـ ما رأيتُ أفضلَ من نساء الأنصار أشدَّ تصديقاً بكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أُنزلت سورةُ النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾، انقلبَ إليهنَّ رجالُهنَّ يتلُون عليهنَّ ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلُو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي

---

(١) سنن أبي داود، كتاب اللباس ٤/٦٢.

(٢) في نسخة الأزهر: صيفات. وفي نسخة الحرم: صنفات. والصنفات: جمع صنفة، وصنفةُ الإزار: حاشية الثوب، وطرفه من الثوب.

(٣) كذا، ولم يقع لنا في المعاجم هذا الاستعمال. بيد أنه يقال: سفرت المرأة: كشفت عن وجهها.

(٤) فتح الباري، تفسير سورة النور ٨/٤٨٩، والمُرُوطُ: جمع مِرْطٍ، وهو الإزارُ.

(٥) كذا في النسخ. ولفظ البُخاريِّ: «كانت تقولُ».

(٦) كذا في مخطوطة الحرم، ومخطوطة تفسير ابن أبي حاتم، بيد أنها رسمت: فضلاً. وانظر الدرّ المنثور ٦/١٨٦.

قراءته، فما منهنّ امرأةٌ إلا قامت إلى مِرْطها المُرَحَّل[1] فاعتَجَرت به، تصديقاً وإيماناً بما أنزلَ الله من كتابه، فأصبحْن[2] وراء رسولِ الله ـ ﷺ ـ [الصُّبح] معتجرات[1]، كأنَّ على رءوسهنَّ الغِربان»[3].

ورواه أبو داود من غير وَجه، عن صَفِيَّة بنت شَيْبَة، به[3].

وقال ابنُ جرير: حدثنا يونُس، أخبرنا ابن وَهب، أن قُرَّة بن عبد الرحمن أخبره، عن ابن شهاب، عن عُروَة، عن عائشة أنها قالت: يرحَمُ الله النساءَ المهاجراتِ الأوَل، لما أنزل الله: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾، شقَقن أكثفَ مُروطِهنَّ فاختمرن به[4]. ورواه أبو داود من حديث ابن وهب، به[4].

وقوله: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾، يعني أزواجَهُنَّ، ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ﴾، كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهَرَ عليهم بزينتها، ولكن من غير اقتصادٍ وتبهرُجٍ.

وقال ابنُ المنذر: حدثنا موسى ـ يعني ابن هارون ـ حدثنا أبو بكر ـ يعني ابن أبي شيبة ـ حدثنا عفَّان، حدثنا حمَّاد بن سَلَمة، أخبرنا داود، عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾، حتى فرَغ منها قال: لم يذكر العَمَّ ولا الخال، لأنهما يَنْعَتَانِ لأبنائهما، ولا تضع خمارها عند العم والخال، فأما الزوج فإنما ذلك كلّه من أجله، فتصنع له ما لا يكون بحضرةِ غيره.

وقوله: ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾، يعني: تُظهر زينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساءِ الذِّمَّة، لئلا يَصِفْنَ لرجالهن، وذلك وإن كان محذوراً في جميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة أشدُّ، فإنهن لا يمنعهُنَّ من ذلك مانع، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرَام فتنزَجِرُ عنه. وقد قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : لا تباشرُ المرأةُ المرأةَ، تنعتُها لزوجها كأنه ينظُر إليها. أخرجاه في الصَّحيحَين، عن ابنِ مَسْعُود[5].

وقال سعيد بن منصور في سُننه: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن هشام بن الغاز، عن عُبادة بن نُسَيٍّ، عن أبيه، عن الحارث بن قيس قال: كتب أميرُ المؤمنين عُمر بن الخطاب إلى أبي عُبَيدة: أما بعد فإنه بَلَغني أنَّ نساءً من نساء المسلمين يدخلن الحمَّاماتِ مع نساءِ أهلِ الشرك، فإنه مَن قِبَلَكَ فإنه لا[6] يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهلُ ملتها[7].

وقال مجاهد في قوله: ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾، قال: نساؤهنَّ المسلماتُ، ليس المشركاتِ من نسائِهِنَّ، وليس للمرأة المسلمة أن تكشِفَ بين يَدَي المشركة[8].

وروى عبدٌ في تفسيره، عن الكلبيِّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس: ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾، قال: هُنَّ

(١) المرط: الكساء، والمرحّل: الذي فيه تصاوير الرحال. واعتجرت: لبست المعجر، وهو الثوب الذي تشده على رأسها.
(٢) في تفسير ابن أبي حاتم: فأصبحن يصلين.
(٣) سنن أبي داود، كتاب اللباس ٤/٦١، والدر المنثور ٦/١٨١ عن ابن أبي حاتم، وابن مردويه.
(٤) سنن أبي داود، كتاب اللباس ٤/٦١، وتفسير الطبري ١٨/١٢٠.
(٥) فتح الباري، كتاب النكاح ٩/٣٣٨، وأخرجه النسائي في عشرة النساء من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزيّ ٧/٥٧ ولم يقع لنا في مسلم.
(٦) في سنن البيهقي: فانهه عن ذلك، فإنه...
(٧) أخرجه البيهقي في كتاب الخلع من سننه ٧/٩٥ بإسناده إلى سعيد، به. وانظر الدر المنثور ٦/١٨٣.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.

المسلمات، لا تبديه ليهوديةٍ ولا نصرانيةٍ، وهو النحرُ والقُرط والوشاح، وما لا يحل أن يراه إلا محرَمٌ.

وروى سعيدٌ: حدثنا جرير، عن ليث، عن مجاهدٍ قال: لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة، لأن الله تعالى يقول: ﴿أو نسائهن﴾، فليسْنَ من نسائهن[1].

وعن مكحول وعُبادة بن نُسيٍّ: أنهما كرها أن تُقبِّل النصرانيةُ واليهوديةُ والمجوسيةُ المسلمة.

فأما ما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا أبو عُمير، حدثنا ضمرةُ قال: قال ابنُ عطاءٍ، عن أبيه: «ولمَّا قدِمَ أصحابُ النبيِّ ـ ﷺ ـ بيت المقدس، كان قوابلُ نسائهم اليهوديات والنصرانيات». فهذا إن صحَّ محمول على حال الضرورة، أو أنَّ ذلك من باب الامتهان، ثم إنه ليس فيه كشفُ عورةٍ ولا بُدّ. والله أعلم.

وقولُه: ﴿أو ما مَلَكَتْ أيمانُهنَّ﴾، قال ابن جُريج: يعني من نساء المشركات[2]، فيجوزُ لها أن تُظهر زينتَها لها وإن كانت مشركةً، لأنها أمتُها. وإليه ذَهَبَ سعيدُ بن المسيِّب. وقال الأكثرون: بل يجوز لها أن تظهر على رَقيقِها من الرجال والنساء، واستدلُّوا بالحديث الذي رَواه أبو داود.

حدثنا محمدُ بن عيسى، حدثنا أبو جُمَيع سالم بن دينار، عن ثابتٍ، عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ـ ﷺ ـ أتى فاطمةَ بعبدٍ قد وَهَبه لها، قال: وعلى فاطمة ثوبٌ إذا قنَّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطَّت به رِجلَيها لم يبلُغ رَأسَها، فلما رأى النبيُّ ـ ﷺ ـ ما تلقى قال: «إنَّه ليس عليكِ بأسٌ، إنما هو أبوكِ وغلامُكِ»[3].

وقد ذكر الحافظ ابنُ عساكرٍ في تاريخه ترجمة خَديج[4] الخَصيِّ ـ مولى معاوية ـ أن عبد الله بن مَسْعدة الفَزَاريَّ كان أسودَ شديدَ الأدمةِ، وأنه قد كان النبيُّ ـ ﷺ ـ وهبه لابنته فاطمة، فربَّته ثم أعتقته، ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاويةَ أيامَ صِفِّين، وكان من أشدِّ الناس على عليِّ بن أبي طالب، رضي الله عنه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عُيَيْنة، عن الزُّهريِّ، عن نَبْهان، عن أم سلمة ذكرت أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا كان لإحداكنَّ مُكاتَبٌ، وكان له ما يُؤدِّي، فلتحتجِبْ منه»[5].

ورواه أبو داود، عن مُسَدَّد، عن سُفيانَ، به[5].

وقوله: ﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾، يعني كالأُجراء والأتباع الذين ليسُوا بأكفاءٍ، وهم مع ذلك في عقولهم وَلَه وخَوَث[6]، ولا هَمَّ لهم إلى النساءِ ولا يشتهونَهُنَّ.

قال ابن عباس: هو المُغفَّلُ الذي لا شهوةَ له. وقال مجاهد: هو الأبلهُ. وقال عكرمة: هو المخنَّثُ الذي لا يقوم زُبُّه. وكذلك قال غيرُ واحدٍ من السَّلَف.

---

(١) أخرجه البيهقي في تفسيره، كتاب النكاح ٧/ ٩٥.

(٢) في بعض النسخ: «من نساء المشركين» ولفظ الطبري ١٨/ ١٢١: «من الإماء المشركات».

(٣) سنن أبي داود، كتاب اللباس ٤/ ٦٢.

(٤) تقدم الأثر عند تفسير الآية ٢٢ من سورة النساء. هذا وقد ذكر في تهذيب تاريخ دمشق ٤/ ٩١ باسم: خُديج، وقال: «كذا هو في كتاب من كتب إسحاق بن إبراهيم الموصلي. ويقال: إن اسمه حصين وكان صاحب لمعاوية».

(٥) مسند أحمد ٦/ ٢٨٩، وسنن أبي داود، كتاب العتق ٤/ ٢١.

(٦) في نسخة المحرم: «وخوب». وفي نسخة الأزهر: «وخوث». وفي نسخة المحرم: «ولا عيبة».

وفي الصحيح من حديث الزُّهريِّ، عن عُروة، عن عائشة: أن مُخنَّثاً كان يدخل على أهل رسول الله ـ ﷺ ـ وكانوا يعدّونه من غير أولي الإربة، فدخل النبيُّ ـ ﷺ ـ وهو ينعت امرأةً: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع (١)، وإذا أدبرت أدبرت بثمانٍ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ألا أرى هذا يعلَم ما هاهنا، لا يدخلَنّ عليكُنّ. فأخرجه، فكان بالبيداء يدخلُ يومَ كُلِّ جمعة يستطعِم(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا هِشامُ بن عُروَةَ، عن أبيه، عن زَيْنَب بنتِ أبي سَلَمة، عن أم سَلَمَة قالت: دخل عليها رسول الله ـ ﷺ ـ وعندها مخنث، وعندها [أخوها] عبد الله بنُ أبي أمية والمخنث يقول لعبد الله: يا عبد الله بن أبي أمية، إن فتحَ الله عليكم الطائف غداً فعليكَ بابنة غيلانَ، فإنها تُقبِلُ بأربع وتُدبِر بثمانٍ. قال: فَسَمِعه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال لأم سلمة: لَا يدخُلَنَّ هذا عليك»(٣).

أخرجاه في الصَّحيحَين، من حديث هشام بن عروة، به(٣).

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا عبد الرزَّاق، حدثنا مَعمَرٌ، عن الزُّهريِّ، عن عُروَةَ بن الزبير، عن عائشة ـ رَضِي الله عنها ـ قالت: كان رجلٌ يدخلُ على أزواج النبي ـ ﷺ ـ مُخَنَّثٌ، وكانوا يَعُدُّونه من غير أولي الإربَة، فدخل النبي ـ ﷺ ـ وهو عند بَعض نسائه، وهو ينعَتُ امرأةً. فقال: إنها إذا أقبلَت أقبلَت بأربعٍ وإذا أدبرَتْ أدبرَتْ بثمانٍ. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: ألا أرى هذا يعلَمُ ما هاهنا؟ لا يدخلن عليكم هذا. فَحَجَبُوه(٤).

ورواه مسلم، وأبو داود، والنسائي من طَريق عبد الرزاق،(٤) به.

وقولُه: ﴿أو الطفل الذين لم يظهَرُوا على عورات النساء﴾، يعني لِصِغَرهم لا يفهَمُون أحوال النساء وعوراتهنّ، من كلامِهنّ الرَّخيم، وتَعَطُّفهن في المِشيَةِ وحَرَكاتِهنّ وسكناتِهنّ، فإذا كان الطفلُ صغيراً لا يفهَمُ ذلك فلا بأسَ بدُخوله على النساء، فأما إن كان مُرَاهقاً أو قريباً منه بحيث يَعرِفُ ذلك ويَدْرِيه، ويُفَرِّق بين الشوهاء والحسناء، فلا يُمكَّن من الدخول على النساء. وقد ثَبَت في الصحيحَين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: إيَّاكُم والدخولَ على النساء. قالوا: يا رسولَ الله، أفرأيت الحَمْوَ؟ قال: الحَمْو الموتُ»(٥).

وقولُه: ﴿ولا يَضرِبن بأرجلهنَّ لِيُعلَم ما يُخفِينَ من زينتهن﴾، كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تَمشي في الطريق وفي رجلها خَلْخَالٌ صامت ـ لا يُسمَعُ صوته ـ ضَرَبت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طَنِينه. فنَهى الله المؤمناتِ عن مثل ذلك. وكذلك إذا كان شيءٌ من زِينَتِها مَستوراً فتحرَّكت بحَرَكةٍ لتُظهِرَ ما هو خَفِيٌّ دَخَلَ في هذا النهي؛ لقوله تعالى: ﴿ولا يَضْرِبن بأرجُلِهِنَّ لِيُعلَمَ ما يُخفِينَ من زِينَتِهِنَّ﴾. ومن ذلك أيضاً أنها تنهى عن التَّعطُّر والتَّطيُّبِ عند خروجها من بيتها لِيَشْتَمَّ الرجالُ طيبها، فقد قال أبو عيسى الترمذي:

---

(١) أي: أقبلت بأربع عُكَنٍ وأدبرت بثمان عُكَن. والعُكَن: جمع عُكْنَة، وهي ما انطوى وتَثَنّى من لَحْم البَطْن سِمَناً.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب السلام ٤/١٧١٦، وأبو داود في كتاب اللباس ٤/٦٣، والنسائي في عشرة النساء من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف ١٢/٨٨.

(٣) مسند أحمد ٦/٢٩٠، وفتح الباري، كتاب اللباس ١٠/٣٣٣، ومسلم، كتاب السلام ٤/١٧١٥.

(٤) مسند أحمد ٦/١٥٢، ومسلم، كتاب السلام ٤/١٧١٦، وسنن أبي داود، كتاب اللباس ٤/٦٣، والنسائي في كتاب عشرة النساء من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف ١٢/٨٨.

(٥) فتح الباري، كتاب النكاح ٩/٣٣٠، ومسلم، كتاب السلام ٤/١٧١١.

والحَمْو: أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج، ابن العم ونحوه. ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام: الحمو الموتُ، أنَّ الخُلوة بالحَمْو قد تؤدّي إلى هلاك الدين إن وقعت المعصية، أو إلى الموت إن وقعت المعصية ووجب الرجم، أو إلى هلاك المرأة بفراق زوجها إذا حملته الغيرة على تطليقها

حدثنا محمد بن بَشَّارٍ، حدثنا يحيى بن سَعِيد القطَّان، عن ثابت بن عُمارة الحنفيِّ، عن غُنيم بن قيس، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «كلُّ عينٍ زانيةٌ، والمرأة إذا استعطرت فمرَّت بالمجلس فهي كذا وكذا، يعني زانيةً».

قال: «وفي البابِ عن أبي هُرَيرَةَ، وهذا حَسَنٌ صحيحٌ»[1] ورواه أبو داودَ والنَّسائيُّ، من حديث ثابتِ بن عُمارَةَ[1]، به.

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا سُفيانُ، عن عاصم بن عُبَيد الله، عن عُبَيد مولى أبي رُهْم، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: لقيتْه امرأةٌ وَجَد منها ريحَ الطيب، ولذيلها إعصارٌ[2] فقال: يا أَمَةَ الجَبَّار، جئتِ من المسجدِ؟ قالت: نعم. قال: ولَه تَطَيَّبتِ؟ قالت: نَعَم. قالَ: إنِّي سَمِعتُ حِبِّي أبا القاسم ـ ﷺ ـ يقول «لا يقبل الله صلاةَ امرأةٍ تَطَيبت لهذا المسجدِ، حتى تَرجِعَ فتغتسِلَ غُسلَهَا من الجنابة»[3].

ورواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سُفيانَ ـ هو ابن عُيَينَةَ ـ[3] به.

وروى الترمذيُّ أيضاً من حديث موسى بن عُبَيدة، عن أيوب بن خالد، عن ميمونةَ بنت سَعدٍ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «الرافِلَةُ في الزينَةِ في غير أهلها كمثل ظُلمةٍ يومَ القيامة لا نُورَ لها»[4].

ومن ذلك أيضاً أنهنَّ يُنهَينَ عن المشي في وسط الطريق، لما فيه من التبرُّج؛ قال أبو داود:

حدثنا القعنبيُّ، حدثنا عبد العزيز ـ يعني ابنَ محمد ـ عن أبي اليمانِ، عن شَدَّادِ بن أبي عمرو بن حِمَاس، عن أبيه، عن حَمْزَةَ بن أبي أُسَيدٍ الأنصاريِّ، عن أبيه: أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ وهو خارج من المسجد ـ وقد اختلط الرجالُ مع النساء في الطريقِ ـ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ للنساء: «استأخِرْنَ، فإنه ليس لكن أن تَحْقُقْنَ[5] الطريق، عليكُنَّ بحافاتِ الطريقِ. فكانت المرأةُ تَلْتَصِقُ بالجدار، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدارِ، من لُصُوقِها»[5] به.

وقولُه: ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّهَ المؤمنون لعلكم تُفلِحُون ﴾، أي: افعلُوا ما أمركم به من هذه الصفاتِ الجَميلةِ والأخلاقِ الجليلةِ، واتركُوا ما كان عليه أهلُ الجاهليةِ من الأخلاق والصفاتِ الرَّذيلةِ، فإن الفلاحَ كلُّ الفلاحِ في فعل ما أمر الله به ورسولُه، وترك ما نَهَيا عنه، والله تعالى هو المستعان، وعليه التكلان:

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

---

(1) عارضة الأحوذي، أبواب الأدب ١٠/٢٣٤ ـ ٢٣٥، وسنن أبي داود، كتاب الترجل ٤/٧٩، والنسائي، كتاب الزينة ٨/١٥٣
(2) الإعصار: الغبار.
(3) سنن أبي داود، كتاب الترجل ٤/٧٩، وابن ماجه، كتاب الفتن ٢/١٣٢٦
(4) عارضة الأحوذي، أبواب الرضاع ٥/١١٣ ـ ١١٤.
(5) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٦٩ وتَحْقُقن الطريق: تَرْكَبْن حُقَّها، وهو وسطها

اشتملت هذه الآيات الكريمات المُبيَّنة على جُمَلٍ من الأحكام المحكمة، والأوامر المُبْرَمة، فقوله تعالى: ﴿ وأنكحُوا الأيامى منكم والصالحينَ من عبادِكُم وإمائكم ﴾، هذا أمرٌ بالتزويج. وقد ذهب طائفةٌ من العلماءِ إلى وُجُوبه، على كل من قدر عليه، واحتجُّوا بظاهر قوله - ﷺ - : «يا معشر الشباب، مَن استطاع منكم الباءةَ فليتزوَّج، فإنه أغضُّ للبَصَرِ، وأحصنُ للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاءٌ». أخرجاه من حديث ابن مسعود[1].

وجاء في السنن - من غير وجه - أن رسولَ الله - ﷺ - قال: «تزوَّجوا توالدوا تناسَلُوا، فإني مُباهٍ بكم الأمم يوم القيامة»[2]. وفي رواية: «حتى بالسِّقْطِ».

الأيامى: جمع أيِّم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوْجَ لها، وللرجُلَ الذي لا زوْجَة له. وسواء كان قد تزوَّج ثم فارق، أو لم يتزوَّج واحدٌ منهما، حكاه الجوهري عن أهل اللغة، يقال: رجل أيِّمٌ وامرأة أيِّمٌ أيضاً

وقولُه تعالى: ﴿ إن يكونوا فُقَراء يُغْنِهم الله من فضله والله واسعٌ عليمٌ ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رَغَّبهم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعَبيد، ووعَدَهم عليه الغِنَى، فقال: ﴿إن يكونوا فُقَراء يُغْنِهم الله مِن فَضْلِه ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد الأزرقُ، حدث عُمَر بن عبد الواحد، عن سعيد - يعني ابن عبد العزيز - قال: بلغني أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: أطيعوا الله فيما أمَرَكُم به من النِّكاحِ يُنجِزْ ما وعدكُم من الغنى، قال: ﴿إن يكونوا فُقَراء يُغْنِهِمُ الله من فضله﴾.

[وعن ابن مسعود: التمسوا الغِنَى في النكاح، يقول الله تعالى: ﴿ إن يكونُوا فُقَراء يُغْنِهم الله من فَضْلِهِ ﴾]. رواه ابنُ جرير[3]، وذكَر البَغَويُّ عن عُمَر بنحوه[4].

وعن الليث، عن محمد بن عَجْلانَ، عن سعيد المقبري، عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «ثلاثة حقٌّ على الله عونُهم: الناكحُ يريد العَفاف، والمكاتَبُ يريد الأداءَ، والغازي في سَبيل الله». رَواه الإمام أحمدُ، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابنُ ماجه[5].

وقد زوَّج رسول الله - ﷺ - ذلك الرجلَ الذي لم يَجِد إلا إزارَه، ولم يَقدِر على خاتم من حديد، ومع هذا فزوَّجه بتلك المرأة، وجعل صداقها عليه أن يُعَلِّمها ما يحفظه من القرآن.

والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزُقه وإياها ما فيه كفايةٌ له ولها. فأما ما يُورِده كثير من الناس على أنه حديث: «تزوَّجوا فقراءَ يُغنِكُم الله»، فلا أصل له، ولم أرَه بإسناد قويٍّ ولا ضعيفٍ إلى الآن، وفي القرآنَ غُنيةٌ عنه، وكذلك هذا الحديثُ الذي أوردناه، ولله الحمد.

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٨٣ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك، وشرحنا غريبه

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٤ من سورة النور، وخرجناه هنالك عن سنن أبي داود. وأخرجه النسائي في كتاب النكاح ٦/٩٥ والبغوي في تفسيره ٣/٣٤١

(٣) تفسير الطبري ١٨/١٢٦.

(٤) لفظ عُمر كما في تفسير البغوي ٣/٣٤٢. «عجبتُ لمن ابتغى الغنى بغير النكاح، والله عزَّ وجلَّ يقول ﴿إن يكونوا فُقَراء يُغْنِهِمُ الله من فضله﴾»

(٥) مسند أحمد ٢/٢٥١، ٤٣٧، وعارضة الأحوذي، أبواب فضائل الجهاد ٧/١٥٦ - ١٥٧، وسنن النسائي، كتاب النكاح ٦/٦١، والجهاد ٦/١٥ - ١٦، وابن ماجه، كتاب العتق ٢/٨٤١ - ٨٤٢

وقولُه: ﴿ وَلْيَستَعفِفِ الذينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حتى يُغنِيَهم الله من فضلِهِ ﴾، هذا أمرٌ من الله تعالى لمن لا يجدُ تزويجاً بالتعفُّفِ عن الحرام، كما قال - ﷺ -: يا معشرَ الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوَّج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاءٌ.

وهذه الآية مطلقةٌ، والتي في سورة النساء أخصُّ منها، وهي قوله تعالى: ﴿ ومَن لم يَستطع مِنكُم طَولاً أن يَنكِحَ المُحصَناتِ المؤمناتِ فمِمَّا ملَكَت أيمانُكُم من فَتَياتِكم المُؤمناتِ ﴾، إلى أن قال: ﴿ ذلِك لِمَن خَشِيَ العَنَتَ منكم وأن تصبروا خيرٌ لكم ﴾، أي: صَبرُكم عن تزويج الإماءِ خيرٌ، لأن الولَدَ يجيءُ رَقيقاً، ﴿ والله غفورٌ رحيمٌ ﴾.

قال عكرمة في قوله: ﴿وَلْيستعفِفِ الذين لا يَجِدُون نِكاحاً﴾، قال: هو الرجل يرى المرأة فكأنَّه يشتهي، فإن كانت له امرأةٌ فليذهب إليها وَلْيَقضِ حاجَتَه منها، وإن لم يكن له امرأةٌ فلينظر في ملكوت السمواتِ والأرضِ حتى يُغنِيَه الله.

وقولُه: ﴿ والذينَ يَبتغُونَ الكتابَ مما ملَكت أيمانُكم فكاتِبُوهم إن عَلِمتم فيهم خيراً ﴾، هذا أمرٌ من الله تعالى للسادة إذا طَلَب منهم عَبيدُهم الكتابة أن يُكاتبوهم، بشرط أن يكون للعبد حيلةٌ وكسبٌ يُؤدِّي إلى سَيِّده المالَ الذي شارَطه على أدائه. وقد ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أن هذا الأمر أمرُ إرشادٍ واستحبابٍ، ولا أمرَ تحتُّمٍ وإيجابٍ، بل السيدُ مُخيَّر، إذا طَلَب منه عبدُه الكتابَة إن شاء كاتَبَه، وإن شاء لم يُكاتِبه.

وقال الثوريُّ، عن جابرٍ، عن الشعبيِّ: إن شاء كاتَبَه، وإن شاء لم يُكاتِبه.

وقال ابنُ وهب، عن إسماعيلَ بن عَيَّاش، عن رجل، عن عَطاءِ بن أبي رَباح: إن شاءَ كاتَبَهُ، وإن شاءَ لم يُكاتِبه(١). وكذا قال مُقاتل بن حَيَّانَ، والحسنُ البصريُّ.

وذهبَ آخرون إلى أنه يَجب على السيد إذا طَلَب منه عبدُه ذلك أن يُجيبَه إلى ما طلب؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر.

قال البخاري: وقال رَوحٌ، عن ابن جُرَيج قلتُ لعطاء: أواجبٌ عليَّ إذا عَلِمتُ له مالاً أن أُكاتِبَه؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقال عمرو بن دينار: قلت لعطاءٍ أتأثُرُه عن أحدٍ؟ قال: لا. ثم أخبرني أن موسى بن أنسٍ أخبرَه، أن سِيرينَ سأل أنَساً المُكاتَبَةَ، وكان كثيرَ المال فأبى، فانطلقَ إلى عُمرَ بن الخطاب فقال: كاتِبْه. فأبى، فضَربه بالدِّرة، ويتلو عُمَر - رضي الله عنه -: ﴿ فكاتِبُوهم إن عَلِمتُم فيهم خيراً ﴾. فكاتبه»(٢).

هكذا ذكره البخاري تَعليقاً، ورواه عبد الرزَّاق: أخبرنا ابن جُرَيج قال: قلت لعطاء: أواجبٌ عليَّ إذا عَلِمتُ له مالاً أن أُكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقالها عمرو بن دينار، قال: قلتُ لعطاءٍ: أتأثُرُه عن أحدٍ؟ قال: لا(٣).

وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا سَعِيد، عن قَتادة، عن أنس بن مالك: أنَّ سيرين أراد أن يُكاتبه، فتلكَّأ عليه، فقال له عمر: لَتُكاتِبَنَّه. إسناد صحيح(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، وعبد الرزاق، انظر الدرّ المنثور ١٩٠/٦.
(٢) فتح الباري، كتاب المكاتب ١٨٤/٥.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢٦/١٨.

وقال سَعِيدُ بنُ منصور: حدثنا هُشَيم، عن جُوَيبر، عن الضَّحَّاكِ قال: هي عزْمة.

وهذا هو القولُ القديم من قولَي الشافعي ـ رحمه الله ـ وذهب في الجَديد إلى أنه لا يجبُ، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يَحِلُّ مالُ امرئٍ مسلمٍ إلا بِطِيبٍ من نَفْسِه»[١].

وقال ابنُ وَهبٍ: قال مالكٌ: الأمرُ عندنا أنْ ليس على سَيِّد العبدِ أن يُكَاتبه إذا سألَه ذلك، ولم أسمَع أحداً من الأمة أكرهَ أحداً على أن يُكَاتِبَ عبده، قال مالك: وإنما ذلك أمرٌ من الله، وإذنٌ منه للناس، وليس بواجب[٢].

وكذا قال الثوريّ، وأبو حنيفة، وعبد الرحمن بن زيدِ بن أسلَم، وغيرهم: واختار ابنُ جَريرٍ قولَ الوجوبِ لظاهرِ الآية.

وقولُه ـ ﴿ إن عَلِمتم فيهم خيراً ﴾، قال بعضُهم: أمانةً، وقال بعضُهم: صدقاً. وقال بعضهم: مالاً. وقال بعضهم: حِيلةً وكسباً.

ورَوَى أبو داود في كتاب المراسيل، عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿ فَكَاتِبُوهم إن علمتُم فيهم خيراً ﴾، قال: إن علمتم فيهم حِرفةً، ولا ترسلوهم كَلًّا على الناس[٣].

وقولُه: ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾، اختلف المفسِّرون فيه، فقال قائلون: معناه اطْرَحُوا لهم من الكتابة بعضها، ثم قال بعضهم: مقدارَ الربع. وقيل: الثلث. وقيل: النصف. وقيل: الربع. وقيل: جزءٌ من الكتابة من غير حدّ.

وقال آخرون: بل المراد من قوله: ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾: هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكَوات. وهذا قولُ الحسنِ، وعبد الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ، وأبيه، ومقاتل بن حيان. واختاره ابنُ جرير.

وقال إبراهيم النخعي في قوله: ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾، قال: حَثَّ الناس عَلَيه، مولاه وغيره[٤]. وكذلك قال بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي، وقتادةُ.

وقال ابنُ عباس: أمر الله المؤمنينَ أن يُعِينُوا في الرِّقاب. وقد تقدَّمَ في الحديث عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «ثلاثةٌ حق على الله عونُهم». فذكر منهم المكاتَب يريد الأداءَ. والقول الأول أشهر.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمدُ بن إسماعيلَ، حدثنا وكيعٌ، عن ابن[٥] شَبِيبٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ، عن عُمَرَ: أنه كاتَبَ عبداً له، يُكنَى أبا أُمَيَّةَ، فجاءه بِنَجْمِه[٦] حين حَلَّ، فقال: يا أبا أُميَّةَ، اذهب

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه، كتاب الغصب ٦/١٠٠.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/١٢٧.

(٣) المراسيل ٢١

(٤) لفظ الطبري ١٨/١٣١. «يعطي مكاتبه وغيره. حَثَّ الناس عليه»

(٥) في نسختنا: ابن شبيب. وفي مصادر التخريج: أبي شبيب.

(٦) المراد بالنجم هنا: القسط والحصّة المقدّرة. وهو في الأصل اسم لأحد الأجرام السماوية المضيئة بذاتها، ومنها الشمس. وهو عَلَمٌ على الثريا خاصة. ويطلق على الكوكب، وكانت العرب تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وغيرها، فتقول: إذا طلع النجم حلّ عليك مالي، يريدون الثريا. وكذلك باقي المنازل

فاستعن به في مُكاتبتك. قال: يا أميرَ المؤمنين، لو تركته حتى يكون من آخر نجم؟ قال: أخاف ألّا أُدرِك ذلك. ثم قرأ: ﴿ فكاتبوهم إن عَلِمتُم فيهم خيراً وآتُوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾. قال عكرمةُ: فكان أوّلَ نجم أُدِّيَ في الإسلام»(١).

وقال ابنُ جَرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا هارونُ بن المُغيرة، عن عنبسة، عن سالم الأفطس، عن سعيد ابن جُبَير قال: كان ابنُ عُمَر إذا كاتَبَ مُكاتَبَهُ لم يَضَع عنه شيئاً من أوّل نُجومه، مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقتُه. ولكنه إذا كان في آخر مُكاتبته وَضَع عنه ما أحبّ(٢).

وقال علي بن أبي طلحَةَ، عن ابن عبّاس: ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾، قال: يعني ضعُوا عنهم من مكاتبتهم. وكذلك قال مجاهدٌ، وعطاءٌ، والقاسم بن أبي بزّة، وعبد الكريم بن مالك الجزريّ، والسُّدّي.

وقال محمد بن سيرينَ في قوله: ﴿ وآتُوهم من مال الله الذي آتاكُم ﴾: كان يُعجبُهم أن يدَع الرجل لمكاتَبه طائفةً من مكاتبته.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا الفضلُ بن شاذانَ المُقرىء، أخبرنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشامُ بن يوسُفَ، عن ابن جُرَيج، أخبرني عطاءُ بن السائب: أن عبد الله بن جُندُب أخبره، عن علي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: ربع الكِتابَة.

وهذا حديث غريبٌ، ورفعه مُنكرٌ، والأشبهُ أنه موقوفٌ على علي ـ رضي الله عنه ـ كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ، رَحِمه الله(٣).

وقولُه: ﴿ ولا تُكرِهُوا فَتَياتكم على البِغاءِ إن أَردن تَحصُّناً لِتبتغُوا عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا ﴾... الآية، كان أهلُ الجاهلية إذا كان لأحدهم أمةٌ أرسَلَها تَزني، وجعل عليها ضريبةً يأخذُها منها كلَّ وقتٍ. فلما جاء الإسلامُ نَهى الله المسلمين عن ذلك.

وكان سببُ نزول هذه الآية الكريمة ـ فيما ذكره غيرُ واحدٍ من المفسرين، من السلَف والخلَف ـ في شأن عبد الله بن أبي ابن سَلُولَ، المنافق، فإنه كان له إماءٌ، فكان يُكرِهُهنّ على البِغاءِ طلباً لخَراجِهِنّ، ورغبةً في أولادِهِنّ، وَرِياسَةً منه فيما يزعم.

ذكرُ الآثار الواردة في ذلك

قال الحافظُ أبو بكر أحمد بن عَمرو بن عبد الخالق البزّار رحمه الله في مُسنده: حدثنا أحمدُ بن داود الواسطي، حدثنا أبو عمرو اللَّخْميُّ ـ يعني محمدَ بن الحجّاج ـ حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزُّهريّ قال: كانت جارية لعبد الله بن أُبيٍّ يقال لها مُعاذة، يُكرِهُها على الزنا، فلما جاء الإسلام نزلت: ﴿ ولا تُكرِهُوا فتياتكم على البغاء ﴾، إلى قوله: ﴿ فإن الله من بعد إكراهِهنّ غفورٌ رحيمٌ ﴾(٤).

وقال الأعمشُ، عن أبي سفيان، عن جابر في هذه الآية: ﴿ ولا تُكرِهُوا فتياتكم على البغاءِ ﴾، قال:

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/٣٧١، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب المكاتب ١٠/٣٢٩ ـ ٣٣٠، وأخرجه الطبري بإسناده إلى فضالة بن أبي أمية، عن أبيه ١٨/١٣٠.

(٢) تفسير الطبري ١٨/١٣٠. وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب البيوع، بإسناده إلى سالم الأفطس ٦/٣٧٠.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في كتاب البيوع ٦/٣٦٩، ولفظه «الرُّبع من أول نجومه».

(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٦١ وقال الهيثمي ٧/٨٣ رواه البزار، وفيه محمد بن الحجاج اللخمي، وهو كذّاب.

نزلت في أمةٍ لعبد الله بن أُبيّ ابن سَلُول يقال لها: مُسَيكَة، كان يُكرِهُها على الفُجُور، وكانت لا بأس بها، فتأبى. فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ هذه الآية إلى قوله: ﴿ ومن يُكرِههُنّ فإنّ الله من بعد إكراههنّ غفورٌ رحيمٌ ﴾[1].

وروى النسائيُّ، من حديث ابن جُرَيج، عن أبي الزُّبير، عن جَابر، نحوه[2].

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار: حَدَّثنا عمرو بن علي، حدثنا علي بن سعيد، حدثنا الأعمشُ، حدثني أبو سفيانَ، عن جابر قال: كان لعبد الله بن أُبيّ ابن سَلُولَ جاريةٌ يقال لها مُسَيكَةُ، وكان يُكرِهُها على البِغَاءِ، فأنزلَ الله: ﴿ ولا تُكرِهُوا فتياتِكُم على البِغَاءِ ﴾ إلى قوله: ﴿ ومن يكرههُنّ فإن الله من بعد إكراهِهنّ غفورٌ رحيمٌ ﴾.

صرّح الأعمشُ بالسماع من أبي سفيانَ طلحةَ بن نافعٍ، فدلَّ على بُطلانِ قولِ من قالَ: لم يسمَع منه، إنما هو صَحِيفةٌ، حكاه البَزّار.

قال أبو داودَ الطَّيالِسيُّ، عن سُلَيمان بن مُعَاذٍ، عن سِمَاكٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ: أن جارية لعبد الله بن أُبيّ كانت تزني في الجاهلية، فولدت أولاداً من الزنا، فقال لها: ما لكِ لا تزنين؟ قالت: لا، والله لا أزني. فضربها، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ ولا تُكرِهُوا فَتَياتكم على البِغَاءِ إن أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمرٌ، عن الزهريّ: أنّ رجُلاً من قُرَيش أُسِر يومَ بدرٍ، وكان عند عبد الله بن أُبيّ أسيراً، وكانت لعبد الله بن أُبيّ جاريةٌ يقال لها: معاذةُ، وكان القرشيُّ الأسيرُ يُريدها على نفسها، وكانت مسلمةً، وكانت تمتنع منه لإسلامها، وكان عبد الله بن أُبيٍّ يكرهها على ذلك ويضربها، رجاءَ أن تحمل للقُرَشيّ، فيطلب فداءَ ولدِه، فقال تبارك وتعالى: ﴿ ولا تُكرِهُوا فَتَياتِكم على البِغَاء إن أَرَدْن تَحصُّناً ﴾[3].

وقال السُّدّي: أُنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أُبيّ ابن سَلُولَ رأسِ المنافقين، وكانت له جارية تدعى معاذةَ، وكان إذا نَزل به أرسلها إليه ليواقعها، إرادةَ الثوابِ منه والكرامةِ، فأَقبلت الجاريةُ إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فشكت إليه ذلك، فذَكره أبو بكر للنبي ـ ﷺ ـ فأمره بقبضها. فصاح عبد الله بن أُبيّ: من يَعْذِرنا من محمدٍ؟! يغلبنا على مملوكتنا. فأنزل الله فيهم هذا[4].

وقال مقاتلُ بن حَيَّان: بلغنا ـ والله أعلمُ ـ أن هذه الآية نزلت في رَجُلين كانا يُكرِهان أَمتين لهما، إحداهما اسمُها مُسيكةُ، وكانت للأنصاريّ، وكانت أميمةُ أمُّ مُسيكةَ لعبد الله بن أُبيٍّ، وكانت معاذةُ وأروى بتلك المنزلة، فأتت مُسيكةُ وأمها النبيَّ ـ ﷺ ـ فذكرَتا ذلك له، فأنزل الله في ذلك: ﴿ ولا تُكرِهُوا فتياتكم على البغاء ﴾، يعني الزنا[4].

وقولُه: ﴿ إن أردن تَحَصُّنا ﴾: هذا خَرَجَ مخرَجَ الغالب، فلا مفهومَ له.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ومسلم في كتاب التفسير من سننه ٤/٢٣٢٠.

(٢) أخرجه النسائي في التفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ٢/٣٢٣، وأبو داود في كتاب الطلاق من سننه ٢/٢٩٤، وابن جرير في تفسيره ١٨/١٣٢ ـ ١٣٣.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/١٣٢.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره. وانظر الدرّ المنثور ٦/١٩٣، ١٩٤.

وقولُه: ﴿ لتبتغوا عرض الدنيا ﴾، أي: من خَرَاجِهِنَّ ومُهُورِهن وأولادهن. وقد نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن كسبِ الحجَّام، ومَهْرِ البَغِيِّ، وحُلْوانِ الكاهن(١) ـ وفي رواية: مهرُ البغي خبيثٌ، وكسْبُ الحجَّامِ خَبيثٌ، وثمنُ الكَلْبِ خَبيثٌ(٢).

وقولُه: ﴿ ومن يُكرِههُنَّ فإن الله من بعد إكراهِهِنَّ غفور رحيم ﴾، [أي، لهن، كما تقدم في الحديث عن جابر.

وقال ابن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: فإن فعلتُم فإن الله لهن غفور رحيم]، وإثمهن على من أكرههنَّ. وكذا قال مجاهد، وعطاء الخراساني، والأعمش، وقتادةُ.

وقال أبو عُبَيد: حدثني إسحاقُ الأزرقُ، عن عَوف، عن الحسن في هذه الآية: ﴿ فإن الله من بعد إكراههنَّ غفور رحيم ﴾، قال: لهنَّ والله، لهنَّ والله(٣).

وعن الزهري قال: غفور لهن ما أُكْرِهْنَ عليه. وعن زيد بن أسلم قال: غفور رحيم للمُكْرَهاتِ. حكاهن ابن المنذر في تفسيره بأسانيده.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى عبد الله، حدثني ابن لَهيعة، حدثني عطاء، عن سعيد بن جُبَير قال: في قراءة عبد الله بن مسعود: «فإنَّ الله من بَعدِ إكراهِهِنَّ لَهُنَّ غفورٌ رحيمٌ»، وإثمُهنَّ على من أكرهَهُنَّ.

وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ـ ﷺ ـ إنه قال: «رُفِعَ عن أُمتي الخطأُ والنسيانُ وما استُكرِهُوا عليه»(٤).

ولما فَصَّل تعالى هذه الأحكام وبيَّنها قال: ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آياتٍ مُبيِّناتٍ ﴾، يعني: القرآنَ فيه آياتٌ واضحاتٌ مُفسِّرات، ﴿ ومَثَلاً من الذين خَلَوا من قبلكم ﴾، أي: خبراً عن الأمم الماضية، وما حَلَّ بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ فجعلناهم سَلَفاً ومثلاً للآخرين ﴾.

﴿ وموعظةً ﴾، أي: زاجراً عن ارتكابِ المآثم والمحارمِ، ﴿ للمتقين ﴾، أي: لمن اتَّقى الله وخافه

قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في صفة القرآن: «فيه حكمُ ما بينكم، وخَبَرُ ما قبلكم، ونبأُ ما بعدَكم. وهو الفصل ليس بالهَزْلِ، من تركه من جبَّارٍ قَصَمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله»(٥)

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

---

(١) فتح الباري، كتاب البيوع ٤٢٦/٤، ومسلم، كتاب المساقاة ١١٩٨/٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساقاة ١١٩٩/٣، وأبو داود في كتاب البيوع ٢٦٦/٣، والترمذي في أبواب البيوع، عارضة الأحوذي ٢٧٥/٥ ـ ٢٧٧.

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره ٣٤٤/٣.

(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٥٧ من سورة الأعراف، وخرجته هنالك.

(٥) نهج البلاغة ٤٥٦، بتحقيقنا.

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ الله نورُ السموات والأرض ﴾، يقول: هادي أهلِ السمواتِ والأرضِ.

وقال ابن جُرَيج: قال مجاهد وابن عباس في قوله: ﴿ الله نورُ السمواتِ والأرضِ ﴾: يُدَبِّرُ الأمرَ فيهما، نجومهما وشمسهما وقمرهما.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا سليمان بن عُمَر بن خالد الرقّيّ، حدثنا وهبُ بن راشد، عن فَرْقَد، عن أنس بن مالك قال: إن إلهي يقول: نُوري هُدَاي[1] واختار هذا القول ابن جرير، رحمه الله.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيّ بن كعب في قول الله تعالى: ﴿ الله نورُ السموات والأرضِ مثلُ نورِه ﴾، قال: هو المؤمن الذي قد جُعِل الإيمانُ والقرآنُ في صدره، فضرب الله مثله فقال: ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾، فبدأ بنور نفسه. ثم ذكر نورَ المؤمنِ فقال: مثل نور من آمن به، قال فكان أُبيُّ بن كعبٍ يقرؤها: «مثلُ نورِ مَن آمن به»، فهو المؤمن جُعِلَ الإيمانُ والقرآنُ في صدره[2].

وهكذا رَوَى سعيدُ بن جُبَير، وقيسُ بن سَعد، عن ابنِ عَبَّاسٍ أنه قرأها كذلك «مَثَلُ نورِ مَن آمنَ بالله».

وقرأ بعضهم: «الله نَوَّرَ السمواتِ والأرضَ»[3]. وعن الضحَّاك: «الله نَوَّر السمواتِ والأرض»[3].

وقال السديُّ في قوله: ﴿ الله نورُ السمواتِ والأرضِ ﴾: فَبِنُورِه أضاءتِ السمواتُ والأرضُ[4].

وفي الحديث الذي رواه محمدُ بن إسحاقَ في السيرةِ، عن رسولِ الله - ﷺ - أنه قال في دعائه يوم آذاه أهلُ الطائف: «أعوذُ بنورِ وجهكَ الذي أشرقت له الظلماتُ، وصَلَح عليه أمرُ الدنيا والآخرةِ، أن يَحِلَّ بي غضبُك، أو ينزل بي سَخَطُك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حَول ولا قوة إلا بك»[5].

وفي الصَّحيحين، عن ابن عباس: كان رسولُ الله - ﷺ - إذا قامَ من الليل يقول: «اللهمَّ لك الحمد، أنت قَيِّم السمواتِ والأرضِ ومن فيهنَّ، ولك الحمدُ، أنت نورُ السمواتِ والأرضِ ومن فيهنَّ»... الحديث[6].

وعن ابن مسعود - رَضِي الله عنه - قال: «إنَّ ربَّكم ليس عنده ليل ولا نهار، نُور العرشِ من نُورِ وَجْهِهِ».

وقولُه: ﴿ مثَلُ نورِهِ ﴾، في هذا الضَّمير قولان:

أحدُهما: أنه عائدٌ إلى الله - عزَّ وجلَّ - أي: مثلُ هُداه في قلبِ المُؤمنِ - قاله ابن عباسٍ - كَمِشْكَاةٍ.

والثاني: أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دَلَّ عليه سياق الكلام، تقديره: مثل نُور المؤمن الذي في قلبه كمِشْكَاةٍ. فشُبِّه قلبُ المؤمنِ وما هو مفطورٌ عليه من الهُدى، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور

---

(١) تفسير الطبري ١٨/١٣٥
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/١٣٥، ١٣٦
(٣) انظر روح المعاني للألوسي ١٨/١٦٤
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره
(٥) سيرة ابن هشام ١/٤٢٠، والروض الأنف ١/٢٦١ - ٢٦٢ وفي النسخ «ولا حول ولا قوة إلا بالله» والمثبتُ من المصدرين السابقين
(٦) فتح الباري، كتاب التهجد ٣/٣، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٣٢ - ٥٣٣

عليه ـ كما قال تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ ـ فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقِنديل من الزجاج الشفاف الجَوْهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل، الذي لا كَدَر فيه ولا انحراف.

فقولُه: ﴿ كَمِشكاةٍ ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وغير واحد: هو موضعُ الفتيلة من القنديل. هذا هو المشهور، ولهذا قال بعده: ﴿ فيها مصباح ﴾، وهو الذُّبالة التي تضيء.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿الله نورُ السموات والأرض مثلُ نوره كمشكاةٍ﴾، وذلك أن اليهود قالوا لمحمد ـ ﷺ ـ: كيف يَخلُصُ نورُ الله من دونِ السماء؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره، فقال: ﴿ الله نورُ السمواتِ والأرضِ مثلُ نُورِهِ كمشكاةٍ﴾. والمِشْكاةُ: كُوَّة في البيت ـ قال. وهو مثل ضربه الله لطاعته. فسمّى طاعَتَه نُوراً، ثم سَمّاها أنواعاً شتّى[1].

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: الكُوَّةُ بلغة الحبشة. وزاد غيرُه فقال المشكاة: الكُوَّةُ التي لا منفذ لها وعن مجاهد: المشكاة: الحَدائد التي يُعلَّق بها القنديلُ.

والقولُ الأول أولى، وهو أن المشكاة هي موضع الفتيلة من القنديل، ولهذا قال ﴿ فيها مصباحٌ ﴾ وهو النور الذي في الذبالة. قال أُبيُّ بن كَعب: المصباح. النورُ، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره. وقال السُّدّي: هو السراج.

﴿ المصباح في زُجاجة ﴾، أي: هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية

قال أُبيّ بن كعب وغيرُ واحد: وهي نظيرُ قلبِ المؤمن، ﴿ الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرّيٌّ ﴾، قرأ بعضهم بضم الدال من غير هَمْزٍ، من الدُّرّ، أي: كأنها كوكبٌ من دُرّ. وقرأ آخرون: ﴿ دِرّيءٌ ﴾ و﴿ دُرّيءٌ ﴾ بكسر الدال وضمها مع الهمز[2]، من الدَّرْءِ وهو الدفعُ؛ وذلك أن النجم إذا رُمِي به يكونُ أشدّ استنارة من سائر الأحوالِ، والعربُ تُسمّي ما لا يُعرَف من الكواكب دراريّ

قال أُبيُّ بن كعب: كوكبٌ مضيءٌ. وقال قتادةُ: مُضيءٌ مُبينٌ ضَخْمٌ.

﴿ يوقَد من شجرة مباركة ﴾، أي: يَستمدُّ من زيت زيتونِ شجرةٍ مباركة ﴿ زيتونةٍ ﴾، بدلٌ أو عطفُ بيانٍ، ﴿لا شَرقيةٍ ولا غَربيّةٍ﴾، أي: ليست في شرقي بقعتها فلا تصلُ إليها الشمسُ من أول النهار، ولا في غَربيّها فيتقلّص عنها الفيءُ قبل الغروب، بل هي في مكانٍ وسطٍ تَعرُفُها[3] الشمسُ من أول النهار إلى آخره، فيجيءُ زيتها معتدلاً صافياً مشرقاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَمّار قال: حدثنا عبدُ الرحمن بنُ عبد الله بن سعد، أخبرنا عمرُو ابن أبي قَيْسٍ، عن سِمَاك بن حَرْبٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيّةٍ ﴾، قال: وشجرةٌ بالصحراء، لا يُظِلُّها جَبَلٌ ولا شَجَر ولا كَهْفٌ، ولا يُواريها شيءٌ، هُو أجودُ لزيتها»

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ١٨/١٣٧
(٢) قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر، وحفص عن عاصم «دُرِّيٌّ»، بضم الدال، وتشديد الياء، من غير مدٍّ ولا همز. وقرأ أبو عمرو والكسائي «دِرِّيءٌ»، بكسر الدال والراء، ممدودة بعدها همزة. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم «دُرِّيءٌ»، بضم الدال والراء، ممدودة بعدها همزة. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧١٢
(٣) في النسخ: تقصرها. وما أثبتناه من قول ابن كثير بعد أن أورد الآثار في تفسير هذا الجزء من الآية: ويحصل غروب الشمس عنها

وقال يحيى بن سعيد القطان، عن عمران بن حُدَير، عن عكرمة، في قوله ﴿لا شرقيةٍ ولا غَربيةٍ﴾ قال: هي بصحراء، وذلك أصفَى لزيتها[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا عُمَر بن فَرُّوخ، عن حَبيب بن الزُّبير، عن عكرمة سأله رجلٌ عن: ﴿ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ ﴾، قال: تلك زيتونةٌ بأرضِ فَلاةٍ، إذا أشرقت الشمسُ أشرقت عليها، وإذا غَربت غَربَت عليها، فذاك أصفَى ما يكونُ من الزيت.

وقال مجاهد في قوله: ﴿زَيتُونةٍ لا شَرقيةٍ ولا غَربيةٍ﴾، قال: ليست بشرقيةٍ، لا تُصِيبها الشمس إذا غَرَبت، ولا غَربية لا تصيبها الشمس إذا طَلَعت، ولكنها شرقيةٌ وغربيةٌ تُصيبها إذا طَلَعت وإذا غَرَبت[١].

وقال سَعيد بن جُبَير في قوله: ﴿ زَيتُونةٍ لا شرقية ولا غربية يكادُ زيتها يُضِيء ﴾ قال: هو أجودُ الزيت. قال. إذا طَلَعت الشمسُ أصابتها من صَوبِ المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمسُ، فالشمسُ تصيبها بالغداة والعشي، فتلك لا تُعَدُّ شرقيةً ولا غربية[٢].

وقال السُّديّ قوله: ﴿ زيتونةٍ لا شرقية ولا غربية ﴾، يقول: ليست بشرقيةٍ يحوزُها المشرق، ولا غربية يحوزُها المغرب دون المشرق، ولكنها على رأسِ جبل، أو في صحراء، تُصِيبها الشمسُ النهارَ كلَّه.

وقيلَ: المرادُ بقوله: ﴿ زيتونة لا شَرقيةٍ ولا غَربيةٍ ﴾: أنها في وَسَط الشجر، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب.

قال أبو جَعفر الرازيٌّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالة، عن أُبَي بن كعب، في قول الله تعالى: ﴿ زَيتُونةٍ لا شرقية ولا غربية ﴾ قال: فهي خضراء ناعمة، لا تُصيبها الشمس على أيِّ حالٍ كانت، لا إذا طَلَعت ولا إذا غَربت، قال: فكذلك هذا المؤمنُ، قد أُجير من أن يُضِلَّه شيء من الفِتَن، وقد ابتلي بها فَيُثَبِّته الله فيها، فهو بين أربع خلال: إن قال صَدَق، وإن حَكم عَدلَ، وإن ابتُلي صَبَر، وإن أُعطِي شكر. فَهُو في سائرِ الناسِ كالرجل الحيِّ يمشي في قُبور الأموات[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحَسَن[٣]، حدثنا مُسَدَّد: حَدَّثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد ابن جُبَير في قوله: ﴿زَيتُونـةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ ﴾، قال: هي وَسَطُ الشجرِ، لا تُصِيبها الشمسُ شرقاً ولا غرباً.

وقال عطية العوفي: ﴿ لا شَرقية ولا غربية ﴾، قال: هي شجرةٌ في مَوضِعٍ من الشجرِ، يُرى ظلُّ ثَمرِها في وَرَقها وهذه من الشجرِ لا تطلع عليها الشمسُ ولا تَغرُبُ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن الدَّشْتَكِيّ، حدثنا عَمرو بن أبي قيس، عن عطاء، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ لا شَرقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ ﴾، ليست شرقيةٌ ليس فيها غربٌ، ولا غربية ليس فيها شرقٌ، ولكنها شرقيةٌ غربيةٌ.

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿ لا شَرْقِيَّة ولا غَرْبِيَّة ﴾، قال: هي القِبْلية. وقال زيدُ بن أسلَمَ: ﴿ لا شَرقِيَّةٍ ولا غَربِيَّةٍ ﴾، قال: الشامُ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.

(٢) الدرّ المنثور عن عبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم، وغير واحد ٦/١٩٧.

(٣) في النسخ علي بن الحسين والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم، وهو: علي بن الحسن الهسنجاني، مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/١٨١

وقال الحسنُ البصريُّ: لو كانت هذه الشجرةُ في الأرض لكانت شرقيةً أو غربيةً، ولكنه مثلٌ ضربَه الله لنوره[(١)].

وقال الضحاك، عن ابن عباس ﴿ تُوقَدُ من شجرة مباركة ﴾، قال: رجلٌ صالح، ﴿ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ ﴾، قال: لا يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ.

وأولى هذه الأقوال القولُ الأول، وهو أنها في مستوى من الأرض، في مكان فسيح بارز ظاهرٍ ضاحٍ للشمس، تقرعُهُ من أول النهار إلى آخره، ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف، كما قال غير واحد ممن تقدم ولهذا قال: ﴿ يكادُ زيتُها يُضِيءُ ولو لم تَمْسَسْهُ نارٌ ﴾، قال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني لضَوْء إشراق الزيت.

وقولُه: ﴿ نورٌ على نورٍ ﴾ قال العوفي، عن ابن عباس: يعني بذلك إيمانَ العبد وعملَه. وقال مجاهدٌ، والسُّدي: يعني نورَ النارِ ونورَ الزيتِ.

وقال أُبَيّ بن كَعب: ﴿ نورٌ على نورٍ ﴾، فهو يتقلب في خمسةٍ من النور: فكلامُه نورٌ، وعملُه نورٌ، ومدخَلُه نورٌ، ومخرجُه نورٌ، ومَصِيره إلى النورِ يومَ القيامةِ إلى الجَنَّة.

وقال شِمْرُ بن عَطِية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: حَدِّثني عن قول الله: ﴿ يكادُ زيتُها يضيءُ ولو لم تمسسه نارٌ ﴾، قال: يكادُ محمدٌ يُبين للناسِ وإن لم يَتَكَلَّم، أنه نبي، كما يكادُ ذلك الزيتُ أن يضيء[(٢)].

وقال السُّدّي في قوله: ﴿ نورٌ على نورٍ ﴾، قال: نورُ النار ونُور الزيت، حين اجتمعا أضاءا، ولا يُضيء واحدٌ بغير صاحبه، كذلك نورُ القرآنِ ونورُ الإيمانِ حين اجتَمعا، فلا يكون واحدٌ منهما إلا بصاحبه.

وقولُه: ﴿ يَهدِي الله لنوره من يشاء ﴾، أي: يُرشِدُ الله إلى هدايته من يختارُه، كما جاء في الحديثِ الذي رَوَاه الإمامُ أحمدُ:

حَدَّثنا معاويةُ بن عمرو، حدثنا إبراهيمُ بن محمد الفَزَارِيُّ، حدثنا الأوزاعيُّ، حدثني رَبيعة بن يَزيد، عن عبد الله الدَّيْلميِّ، عن عبد الله بن عَمرو، سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: إن الله خَلَق خلقَه في ظُلمةٍ، ثم ألقى عليهم من نُورِه يومئذ، فمن أصابه من نوره يومئذٍ اهتدى، ومن أخطأَ ضَلَّ، فلذلك أقولُ: جفَّ القَلَمُ على علم الله عزَّ وجلَّ[(٣)].

طريقٌ أخرى عنه، قال البزّارُ [حدثنا نَهار بن عثمان][(٤)]، حدثنا أيوبُ بن سُوَيد، عن يحيى بن أبي عمرو السَّيباني، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله خلق خَلْقَهُ في ظلمة، فألقى عليهم نوراً من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأَهُ ضَلَّ».

وقولُه تعالى: ﴿ ويضرِب الله الأمثالَ للناس واللهُ بكلِّ شيءٍ عليم ﴾، لما ذَكَر تعالى هذا مثلاً لنورِ هُداه

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/١٤٢.
(٢) أخرجه عبد بن حميد وغير واحد. الدر المنثور ٦/١٩٨ ـ ١٩٩.
(٣) مسند أحمد ٢/١٧٦.
(٤) من نسخة الحرم، وفيها: «شهاب»، بدل «نهار». والمثبت من كشف الأستار، كتاب العلم ١/١٠٢ في سند حديث آخر. ونهار بن عثمان أبو مُعاذ البصري، حدّث عن أيوب بن سُويد الرَّملي، كما في الإكمال لابن ماكولا ٧/٣٦٨.

في قلب المؤمن ختم الآية بقوله: ﴿ويضربُ الله الأمثال للناس والله بكلِّ شيءٍ عَليم﴾، أي: هو أعلمُ بمن يستحقّ الهداية ممن يستحق الإضلال.

قال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو النَضر، حدثنا أبو معاوية شيبانُ عن لَيْثٍ، عن عَمرو بن مُرَّة، عن أبي البَخْتَرِيّ، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «القلوبُ أربعةٌ. قلبٌ أجردُ فيه مثل السراج يُزهر، وقلبٌ أغلفُ مربوطٌ على غلافِهِ، وقلبٌ مكوسٌ، وقلبٌ مُصْفَحٌ. فأما القلب الأجردُ فقلبُ المؤمن، سِراجه فيه نورُه. وأما القلبُ الأغلفُ فقلب الكافر، وأما القلب المنكوسُ فقلبٌ عَرَفَ ثم أنكر، وأما القلبُ المُصْفَح فقلبٌ فيه إيمانٌ ونفاقٌ. ومَثَلُ الإيمانِ فيه كمَثَل البقلة يَمُدّها الماء الطيِّبُ، ومثلُ النفاقِ فيه كمَثَلِ القُرحة يَمُدّها القيحُ والدمُ، فأيُّ المدَّتين غَلَبت على الأخرى غَلَبت عليه»[1]. إسناد جيدٌ، ولم يُخرجُوه.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

لما ضَرَب الله تعالى مَثَلَ قلب المؤمن، وما فيه من الهُدى والعِلم بالمصباح في الزُجاجة الصَافية المتوقِّدِ من زيت طيِّبٍ، وذلك كالقنديل مَثَلاً، ذَكر مَحَلَّها وهي المساجد التي هي أحبُّ البقاع إلى الله تعالى من الأرضِ، وهي بيوتُه التي يُعبَدُ فيها ويُوحَّدُ، فقال: ﴿في بيوتٍ أَذِنَ الله أن تُرفَعَ﴾، أي: أمر الله تعالى برَفعها، أي: بتطهيرها من الدَنَس واللغو، والأفعالِ والأقوالِ التي لا تليق فيها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة: ﴿في بيوت أذن الله أن تُرفَعَ﴾، قال: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها. وكذا قال عكرمة، وأبو صالح، والضحّاكُ، ونافع بن جُبَير، وأبو بكر بن سليمان بن أبي حَثْمَة، وسفيان بن حُسَين[2]، وغيرهم من عُلَماء المفسرين.

وقال قتادةُ: هي هذه المساجد، أمر الله سبحانه ببنائها ورَفعها، وأمر بِعِمارتها وتطهيرها. وقد ذُكِر لنا أن كعباً كان يقول: إن في التوراة مكتوباً: «ألاَ إن بُيوتي في الأرض المساجد، وإنّه مَن توضّأ فأحسنَ وُضوءَه، ثم زارني في بيتي أكرمته، وحَقٌ على المَزُور كرامةُ الزائِر». رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره.

وقد وَرَدت أحاديثُ كثيرةٌ في بناء المساجد، واحترامها وتَوقيرها، وتَطييبها وتَبخيرها. وذلك له محلٌّ مفرد يذكر فيه، وقد كتبت في ذكل جُزءاً على حدة، ولله الحمدُ والمِنّةُ. ونحن بِعَونِ الله تعالى نذكر ها هنا طَرَفاً من ذلك، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التّكلان.

فَمِن أمير المؤمنين عثمانَ بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: سَمِعْتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من بَنَى مسجداً يبتغي به وجه الله بَنَى الله له مِثْلَه في الجنة». أخرجاه في الصحيحين[3].

---

(١) مسند أحمد ٣/١٧. والقلب الأجردُ: الذي ليس فيه غِلٌّ ولا غشٌّ، فهو على أصل الفطرة، فنور الإيمان فيه يُزهِرُ. والأغلف: الذي عليه غشاوةٌ عن سماع الحق وقبوله. والمنكوسُ: المقلوب. والمُصْفَحُ: الذي له وجهان، يلقى أهل الكفر بوجه، وأهل الإيمان بوجه.

(٢) أخرج هذه الآثار ابن أبي حاتم في تفسيره، وانظر أثر ابن عباس في تفسير الطبري ١٨/١٤٤.

(٣) فتح الباري، كتاب الصلاة ١/٥٤٤، ومسلم، كتاب المساجد ١/٣٧٨.

ورَوَى ابنُ ماجه: عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من بنى مسجداً يُذكَر فيه اسمُ الله بَنَى الله له بيتاً في الجنة»[1].

وللنسائي عن عَمْرو بن عَبَسَة مثله[2]. والأحاديثُ في هذا كثيرة جداً.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أمر رسولُ الله ـ ﷺ ـ ببناء المساجد في الدُّور، وأن تُنظَّفَ وتُطيَّب. رواه أحمدُ وأهلُ السُّنَن إلا النسائيَّ[3]. ولأحمد وأبي داودَ، عن سَمُرة بن جُنْدَب نحوَه[4].

وقال البخاري: قال عُمَر: ابن للناسِ ما يُكِنُّهم، وإيَّاكَ أن تُحَمِّر أو تُصَفِّر فَتَفْتِنَ الناسَ[5].

وروى ابنُ ماجه عنه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما سَاءَ عَمَلُ قومٍ قطُّ إلا زَخْرَفُوا مساجِدَهُم»[6]. وفي إسنادِه ضَعفٌ.

ورَوَى أبو داودَ عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما أُمِرْتُ بتشيِيد المساجد». قال ابن عباس: «لَتُزَخْرِفُنَّها كما زَخْرَفَتِ اليهودُ والنصارى»[7].

وعن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: لا تقومُ الساعةُ حتى يتباهى الناسُ في المساجِد. رَوَاه الإمامُ أحمدُ وأهلُ السُّنَن إلا التِّرمِذِيَّ[8].

وعن بُرَيدَةَ أنَّ رَجُلاً أنشدَ في المسجِد، فقال: مَن دَعَا إلى الجَمَلِ الأحمرِ؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «لا وَجَدتَ، إنما بُنِيتِ المساجدُ لما بُنِيت له». رَوَاه مُسلم[9].

وعن عَمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه قال: نهى رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن البيع والابتياع، وعن تناشُد الأشعارِ في المساجد. رواه أحمدُ وأهل السُّنَنِ، وقال الترمذي: حَسَنٌ[10].

وعن أبي هُرَيرة ـ رَضِي الله عنه ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا رأيتُم من يبيعُ أو يبتاع في المسجِدِ فقولُوا: لا أَرْبَحَ الله تجارتَكَ. وإذا رأيتُم من يَنْشُد ضالة في المسجِد فقُولوا: لا رَدَّ الله عليك». رواه الترمذي، وقال: «حَسَنٌ غريبٌ»[11].

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب المساجد ١/٢٤٣.

(٢) سنن النسائي، كتاب المساجد ٢/٣١.

(٣) مسند أحمد ٦/٢٧٩، وسُنَن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٢٤، وعارضة الأحوذي، أبواب السفر ٣/٧٧، وابن ماجه، كتاب المساجد ١/٢٥٠.

(٤) مسند أحمد ٥/١٧، وسُنَن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٢٥.

(٥) فتح الباري، كتاب الصلاة ١/٥٣٩، ولفظهُ: «أكِنَّ الناسَ من المطر، وإيَّاكَ...».

(٦) سُنَن ابن ماجه، كتاب المساجد ١/٢٤٤ ـ ٢٤٥. وفي الزوائد: في إسناده أبو إسحاق، كان يدلِّس. وجُبَارةُ كذابٌ

(٧) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٢٢. وشيَّدَ البناء: أعلاه ورفعه، وأحكم بناءه.

(٨) مسند أحمد ٣/١٣٤، ١٤٥، ١٥٢، ٢٣٠، ٢٨٣. وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٢٣، والنسائي، كتاب المساجد ٢/٣٢، وابن ماجه، كتاب المساجد ١/٢٤٤.

(٩) مسلم، كتاب المساجد ١/٣٩٧. من دعا إلى الجَمَل الأحمر؟ أي: من وَجَدَ ضالَّتِي، وهو الجمل الأحمر، فدعاني إليه؟ وقوله ﷺ «إنما المساجد لما بُنِيت له»، معناه: لِذِكْرِ الله تعالى والصلاة والعلم والمذاكرة في الخير، ونحوها.

(١٠) مسند أحمد ٢/١٧٩، ٢١٢، وعارِضَةُ الأحوذي، أبواب الصلاة ٢/١١٨، والنسائي، كتاب المساجد ٢/٤٧ ـ ٤٨، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/٢٨٣، وسنن ابن ماجه، كتاب المساجد ١/٢٤٧.

(١١) عارضة الأحوذي، أبواب البيوع ٦/٦١ ـ ٦٢.

وقد رَوَى ابنُ ماجه وغيرُه، من حديث ابن عُمَر مرفوعاً، قال: خِصَالٌ لا تنبغي في المسجد: لا يُتَّخَذُ طريقاً، ولا يُشهَر فيه سلاحٌ، ولا يُنبَض فيه بِقَوس، ولا يُنثَرُ فيه نَبْلٌ، ولا يُمَرُّ فيه بلحمٍ نَيِّءٍ، ولا يُضرَبُ فيه حَدٌّ ولا يُقتَصُّ فيه أحدٌ، ولا يُتَّخذ سُوقاً[1].

وعن واثِلَةَ بن الأسقَعِ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «جَنِّبوا مَساجِدكم صبيانكم ومجانينكم، وشراءكم وبَيعكم، وخُصُوماتكم ورفعَ أصواتكم، وإقامة حُدُودكم وسَلَّ سُيوفكم، واتَّخِذُوا على أبوابها المَطَاهر، وجَمِّروها في الجُمَعِ»[1]. ورواه ابنُ ماجه أيضاً، وفي إسنادهما ضَعفٌ[2].

أما أنه «لا يُتَّخذُ طريقاً»، فَقد كَرِه بعضُ العلماء المرورَ فيه إلا لحاجةٍ إذا وَجَد مندوحةً عنه، وفي الأثر: «إن الملائكةَ لتعجَبُ من الرجل يمرُّ في المسجد لا يُصَلِّي فيه».

وأما أنه «لا يُشهَرُ فيه بسلاح، ولا يُنبَضُ فيه بقوس، ولا يُنثَرُ فيه نَبلٌ»، فلِمَا يُخشَى من إصابة بعض الناس به، لكثرَة المُصلِّين فيه، ولهذا أمر رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا مَرَّ أحدٌ بسهام أن يَقبِضَ على نِصَالها، لئلا يُؤذِيَ أحداً، كما ثَبَت في الصَّحيح[3].

وأما النَّهيُ عن المُرور باللَّحم النَّيِّء فيه، فلما يخشى من تقاطر الدم منه، كما نُهيت الحائض عن المُرورِ فيه إذا خافت التلويث.

وأما أنه «لا يُضرَبُ فيه حَدٌّ أو يُقتَصُّ»، فلما يُخشَى من إيجادِ نجاسَةٍ فيه من المضرُوبِ أو المقطوع.

وأما أنه «لا يُتَّخذُ سُوقاً»، فلِما تقدَّم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بُنِيَ لِذِكْر الله والصَّلاة، كما قال النبي ـ ﷺ ـ لذلك الأعرابيِّ الذي بال في طائفةِ المسجد: «إن المساجد لم تُبنَ لهذا، إنما بُنِيت لذكر الله والصلاة فيها»[4]. ثم أمر بِسَجْلٍ من ماء، فَأُهريقَ على بَوْله.

وفي الحديث الثاني: «جَنِّبوا مساجدَكم صبيانَكم». وذلك لأنهم يَلْعَبون فيه ولا يُنَاسِبهم، وقد كان عُمَر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا رأى صبياناً يلعبون في المسجد، ضربهم بالمِخْفَقَة ـ وهي الدِّرَّة ـ وكان يُفَتِّش المسجدَ بعد العشاء فلا يَترُكُ فيه أحداً.

«ومَجانينكم»، يعني: لأجل ضَعْف عُقُولهم، وسَخَرِ الناسِ بهم، فَيُؤَدِّي إلى اللَّعِبِ فيها، ولما يُخشَى من تقذيرهم المسجدَ، ونحو ذلك.

«وبيعَكم وشراءَكم»، كما تقدم.

«وخُصُوماتكم»، يعني التحاكم والحُكم فيه. ولهذا نصَّ كثير من العُلَماء على أنَّ الحاكم لا ينتصب

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب المساجد ١/٢٤٧. وفي الزوائد: إسناده ضعيف، لاتفاقهم على ضعف زيد بن جُبَيْرة. قال ابن عبد البرّ: أجمعوا على أنه ضعيف.
لا يُنبَض: لا يُمَدّ وتَرُه. ولحم نِيء: غير مطبوخ.

(٢) في الزوائد عن الحديث الثاني: إسناده ضعيف، فيه الحارث بن نبهان مُتَّفَق على ضعفه.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد عن أبي موسى، فتح الباري، كتاب الفتن ١٣/٢٤، ومسلم، كتاب البر ٤/٢٠١٩، ومسند أحمد ٤/٣٩٢.

(٤) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة ٢/٥٠٣.

لفصل الأقضية في المسجد، بل يكونُ في موضع غيره، لما فيه من كثرة الحُكُومات والتشاجُر والعِياط الذي لا يُناسبه، ولهذا قال بعده: وَرَفْع أصواتِكم».

وقال البخاريُّ: حدثنا علي بن عبد الله، حَدَّثنا يحيى بن سَعيد، حدثنا الجُعَيد بن عبد الرحمن، عن يزيدَ بن خُصَيفة، عن السائب بن يزيدَ الكِنْديِّ قال: وكنتُ قائماً في المسجد، فحصَبني رجلٌ، فنظرتُ فإذا عُمَر بن الخطاب، فقال: اذهب فائتني بهذين. فجئته بهما، فقال: من أنتما؟ ـ أو: من أين أنتما؟ ـ قالا: من أهل الطائف. قال: لو كنتُما من أهل البلد لأوجعتُكُما. ترفعانِ أصواتَكُما في مَسْجدِ رسول الله ﷺ»(١).

وقال النسائيّ: حدثنا سُوَيد بن نصر، عن عبد الله بن المبارك، عن شُعْبة، عن سَعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: سَمع عُمَر صوتَ رجلٍ في المسجدِ فقال: أتدري أين أنت(٢)؟! وهذا أيضاً صحيحٌ.

وقولُه: «وإقامَة حُدُودكم، وسَلِّ سُيُوفكم»، تقدَّما.

وقولُه: «واتَّخِذُوا على أبوابِها المَطاهر»، يعني: المراحِيضَ التي يُستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة. وقد كانت قريباً من مَسجد رسول الله ـ ﷺ ـ آبارٌ يستقُون منها، فيشربُون ويتَطَهَّرُون، ويتوضَّئُون وغير ذلك.

وقولُه: ﴿ وجَمِّروها في الجُمَع ﴾، يعني: بَخِّروها في أيام الجُمَع لكثرة اجتماع الناسِ يومئذ.

وقد قال الحافظُ أبو يعلى الموصليُّ: حدثنا عُبَيد الله، حدثنا عبدُ الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عُمَر، عن نافع، عن ابن عُمَر. أن عمر كان يُجَمِّر مَسْجِدَ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ كُلَّ جُمُعة(٣). إسنادُه حسن لا بأسَ به، والله أعلم.

وقد ثبت في الصَّحِيحَين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «صلاةُ الرجل في الجماعة تُضَعَّفُ على صَلاته في بيته وفي سُوقه، خمساً وعشرين ضِعفاً. وذلك أنه [إذا] توضأ فأحسَن الوُضُوء، ثم خَرَج إلى المسجد، لا يُخرِجُه إلا الصلاةُ، لم يَخطُ خطوة إلا رُفِع له بها درجةٌ، وحُطَّ عنه بها خطيئةٌ. فإذا صَلَّى لم تَزل الملائكةُ تُصَلِّي عليه ما دام في مُصَلاه: اللهُمَّ صَلِّ عليه، اللهُمَّ ارحَمه. ولا يزالُ في صلاةٍ ما انتظَرَ الصلاةَ»(٤).

وعندَ الدارقُطنِيِّ مَرفُوعاً: «لا صَلاةَ لِجارِ المَسْجِدِ إلاَّ في المَسْجِدِ»(٥). وفي السُّنَنِ: «بَشِّر المشَّائين في الظُّلَم بالنُّورِ التامِّ يومَ القِيامةِ»(٦).

والمستَحَبُّ لِمَن دَخَل المسجدَ أن يبدأ برجله اليُمنى، وأن يقولَ كما ثبت في صحيح البُخاريّ عن عبد الله بن عَمرو ـ رَضِيَ الله عنه ـ عن رَسُول ـ ﷺ ـ أنه كان إذا دَخَل المسجدَ قال. وأعوذ بالله العظيم،

(١) فتح الباري، كتاب الصلاة ١/٥٦٠.
(٢) أخرجه النسائي في كتاب المواعظ من سننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف للمزي ٤/٨
(٣) مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق إرشاد الحق ١/١٢١
(٤) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/١٣١، ومسلم، كتاب المساجد ١/٤٥٩.
(٥) أخرجه الدارقطني عن جابر، وأبي هريرة، كتاب الصلاة ١/٤١٩ ـ ٤٢٠
(٦) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٥٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ٢/٢٣، أخرجاه عن بُريدة. وأخرجه ابن ماجه في كتاب المساجد ١/٢٥٦، ٢٥٧ عن سهل بن سعد، وأنس بن مالك

وَبِوجْهِهِ الكَرِيم، وسُلطانِهِ القَدِيمِ، من الشيطانِ الرجيم. قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: حُفِظ مني سائر اليوم»[١].

وَرَوى مُسلِمٌ بِسَنَدِهِ عن أبي حُمَيد ـ أو: أبي أُسَيْد ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إذا دخل أحدُكم المسجدَ فليقل: اللهمَّ افتح لي أبوابَ رَحمَتِكَ. وإذا خَرَج فَلْيَقُل: اللهمَّ إني أسألُكَ من فَضْلِك»[٢].

وَرَواه النَّسائي عنهما، عن النبيِّ ﷺ[٣].

وعن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: وإذا دَخَل أحدُكم المسجدَ فَلْيُسَلِّم على النبي ـ ﷺ ـ وليقل: اللهمَّ افتح لي أبوابَ رحمَتِكَ، وإذا خَرج فَلْيُسَلِّم على النبي ـ ﷺ ـ وَلْيَقُلْ: اللهمَّ اعصِمْنِي من الشيطانِ الرَّجيم». رواه ابنُ ماجه، وابن خُزَيمة، وابن حبَّان في صَحِيحَيهِمَا[٣].

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا إسماعيلُ بن إبراهيمَ، حَدَّثنا ليثُ بن أبي سُلَيم، عن عبد الله بن حَسَنٍ[٤]، عن أُمِّه فاطمة بنت حُسَين، عن جَدَّتها فاطمة بنتِ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا دخلَ المسجدَ صلَّى على محمد وسلَّم، ثم قال: «اللهُمَّ، اغفِرْ لي ذُنُوبي، وافتَحْ لي أبواب رَحمتك». وإذا خرج صلَّى على محمد وسلَّم ثم قال: «اللهُمَّ، اغفِر لي ذُنُوبي، وافتح لي أبوابَ فَضْلِك»[٥].

ورواه التِرمذيُّ وابنُ ماجه، وقال الترمذيُّ: وهذا حديثٌ حَسَن، وإسنادُه ليس بِمُتَّصِلٍ؛ لأنَّ فاطمةَ بنت الحُسَين الصُّغرى لم تدرك فاطمة الكبرى»[٥].

فهذا الذي ذكرناه، مع ما تَركناه من الأحاديثِ الواردةِ في ذلك لحالِ الطُّولِ[٦]، كُلُّه داخِلٌ في قوله تَعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾.

وَقولُه: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، أي: اسمُ الله، كقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾. قال ابنُ عبَّاس: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ يعني: يتلى فيها كتابُه.

وقولُه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، أي: في البُكرات والعَشِيَّات. والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار. وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: كُلُّ تسبيحٍ في القرآن هو الصلاةُ.

وقال علي بن أبي طَلْحَة، عن ابن عبَّاس: يعني بالغُدُوِّ صلاة الغَدَاةِ، ويعني بالآصالِ صلاةَ العصرِ، وهما أوَّلُ ما افترضَ الله من الصلاة، فأحبَّ أن يَذْكرهما وأن يُذَكِّرَ عبادَه[٧].

وكذا قال الحسن، والضحاك: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، يعني الصلاةَ.

---

(١) كذا، ولم يقع لنا في صحيح البخاري، والحديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ١/ ١٢٧.

(٢) مسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/ ٤٩٤، وسنن النسائي، كتاب المساجد ٢/ ٥٣. وكذلك رواه أبو داود عنهما في كتاب الصلاة من سُنَنه ١/ ١٢٦ ـ ١٢٧

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب المساجد ١/ ٢٥٤، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان كتاب الصلاة ٣/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٤) في نسخة الأزهر: عبد الرحمن بن حسن. وفي نسخة الحرم: عبد الله بن حسن. والمثبت من مصادر التخريج. وهو: عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب. مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/ ٣٣ ـ ٣٤.

(٥) مسند أحمد ٦/ ٢٨٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ١/ ١١١، وسنن ابن ماجه، كتاب المساجد ١/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٦) في نسخة الأزهر: لحال الطول. وفي نسخة الحرم: بكافي القول.

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/ ١٤٦

ومن قرأ من القُرّاء: ﴿ يُسَبَّح له فيها بالغُدُوّ والآصالِ ﴾(١) ـ بفتح الباء من ﴿ يُسَبَّح ﴾، على أنه مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعله ـ وَقَفَ على قوله: ﴿ والآصالِ ﴾ وقفاً تاماً. وابتدأ بقوله: ﴿ رجالٌ لا تُلهيهم تجارة ولا بيعٌ عن ذكر الله ﴾، وكأنه مُفسِّرٌ للفاعل المحذوف، كما قال الشاعر(٢):

لِيُبْكَ يزيدُ، ضارعٌ لخُصُومة ... ومُخْتَبِطٌ مما تُطيح الطَّوائحُ

كأنه قال: من يبكيه؟ قال: هذا يبكيه. وكأنه قيل: من يُسَبِّح له فيها؟ قال: رجالٌ.

وأما على قراءة مَنْ قرأ ﴿ يُسَبِّح ﴾ ـ بكسر الباء ـ فجعله فعلاً، وفاعله ﴿ رجالٌ ﴾، فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل، لأنه تَمامُ الكَلام.

فقولُه: ﴿ رجالٌ ﴾ فيه إشعار بهِمَمِهِم السامية، ونِيّاتِهم وعَزائمهم العالية، التي بها صاروا عُمّاراً للمساجد، التي هي بيوتُ الله في أرضِه، ومواطنُ عبادتِه وشُكرِه، وتوحيدِه وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿ من المؤمنين رجال صَدَقُوا ما عاهَدُوا الله عليه ﴾.

فأما النساء فَصلاتُهنَّ في بيوتِهنَّ أفضلُ لهنَّ، لما رَوَاه أبو داود، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «صلاةُ المرأةِ في بيتِها أفضلُ من صلاتِها في حُجرتِها، وصلاتُها في مَخدعِها أفضلُ من صلاتِها في بيتها»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غَيلانَ، حدثنا رِشدينُ، حدثني عَمرو، عن أبي السَّمح، عن السائِب ـ مولى أم سَلَمة ـ عن أم سَلَمَة ـ رضي الله عنها ـ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «خيرُ مساجد النساءِ قَعرُ بُيوتِهنَّ»(٤).

وقال الإمامُ أحمد أيضاً: حدثنا هارونُ، أخبرني عبد الله بن وَهب، حدثنا داوُد بن قيس، عن عبد الله بن سُوَيد الأنصاريِّ، عن عَمَّتِه أم حُميد ـ امرأة أبي حُميد السّاعِدي ـ: أنها جاءت النبيَّ ـ ﷺ ـ فقالت: يا رَسُولَ الله إنّي أُحبُّ الصلاةَ معك. قال: «قد عَلِمتُ أنّكِ تُحبِّين الصلاةَ معي، وصلاتُك في بيتِكِ خيرٌ من صَلاتِكِ في حُجْرَتِك، وصلاتُكِ في حُجْرَتِكِ خيرٌ من صَلاتِك في دارِك، وصلاتُكِ في دارِكِ خيرٌ من صلاتِك في مسجد قومِكِ، وصَلاتُكِ في مَسجِد قَومِكِ خيرٌ من صَلاتِكِ في مَسْجِدي». قال: فأمَرَتْ فَبُنِي لها مسجدٌ في أقصَى بيتٍ(٥). من بيتها، والله لَكَانتْ تُصَلِّي فيه حتّى لَقِيَتِ الله عزَّ وجلّ(٦). لم يُخرجُوه.

هذا ويجوزُ لها شهودُ جماعة الرجال، بِشرطِ ألاّ تؤذِيَ أحداً من الرجال بظهور زينةٍ ولا ريحِ طِيب، كما ثبت في الصَّحِيحَين عن عبد الله بن عُمَر أنه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله»(٧).

---

(١) قرأ بالبناء للمفعول من السبعة ابن عامر وأبو بكر. انظر الإقناع لابن الباذش ٧١٣/٤
(٢) البيت لنهشل بن حَرِّيّ، من قصيدة يرثي بها يزيد بن نهشل. انظر شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٢٩٦/٧ والقائل شاعر إسلامي عاصَرَ الفرزدق وجريراً.
والضارع: الذليل. والمُخْتَبِطُ: الذي يأتيك للمعروف من غير وسيلة. والطوائح: المهلكات. وتُطيح: تُذهب وتُهلك.
(٣) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١٥٦/١.
(٤) مسند أحمد ٢٩٧/٦.
(٥) في المسند: «أقصى شيء من بيتها وأظلمه، فكانت»
(٦) مسند أحمد ٣٧١/٦.
(٧) فتح الباري، كتاب الجمعة ٣٨٢/٢، ومسلم، كتاب الصلاة ٣٢٧/١

رواه البخاريُّ ومُسلمٌ، ولأحمدَ وأبي داودَ «وبيوتُهنَّ خيرٌ لهن»[(١)]، وفي رواية: وَلْيخرُجْنَ وهُنَّ تَفِلاتٌ[(٢)]. أي: لا رِيحَ لهنَّ.

وقد ثبت في صحيح مسلم، عن زينبَ امرأة ابن مَسعُودٍ قالت: قال لنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا شَهِدَتْ إحداكُنَّ المسجدَ فلا تَمَسَّ طيباً»[(٣)].

وفي الصَّحيحَين عن عائشةَ ـ رَضِي الله عنها ـ أنها قالت: «كان نساءُ المؤمنات يَشْهَدْنَ الفجرَ مع رسول الله ـ ﷺ ـ ثم يرجِعْنَ مُتلفِّعاتٍ بمُروطِهنَّ، ما يُعْرَفْنَ من الغَلَسِ»[(٤)].

وفي الصَّحيحَين أيضاً عنها أنها قالت: «لو أدركَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ما أحدثَ النساءُ لمنعهُنَّ المساجدَ، كما مُنِعت نساءُ بني إسرائيل»[(٥)].

وقولُه: ﴿رِجَالٌ لا تُلهِيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكْرِ الله﴾، كقوله: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لا تُلْهِكُم أموالُكُم ولا أولادُكم عن ذِكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نُودِيَ للصلاة من يوم الجمعة فاسْعَوا إلى ذِكْرِ الله وذَرُوا البيعَ ذلكُم خير لكم إن كنتم تعلَمون﴾.

يقولُ تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفُها وزينتُها، ومَلاذُّ بَيعه وربحها، عن ذكر رَبِّهم الذي هو خَالِقُهم ورازِقُهم، والذين يعلمون أن الذي عندَه هو خيرٌ لهم وأنفعُ مما بأيديهم، لأنَّ ما عندهم ينفَدُ وما عندَ الله باقٍ، ولهذا قال: ﴿لا تُلهِيهِم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكْرِ الله وإقامِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة﴾، أي: يُقَدِّمون طاعتَه ومُرادَه ومَحبَّتَه على مُرادهم ومَحبَّتهم.

قال هُشَيم: عن سَيَّار: حُدِّثت عن ابن مَسعُودٍ أنه رأى قوماً من أهل السُّوق، حيث نُودِي بالصلاة، تركوا بياعاتهم ونَهَضُوا إلى الصلاة، فقال عبد الله: هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه: ﴿رِجَالٌ لا تُلهِيهِم تِجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكْرِ الله﴾[(٦)].

وهكذا روى عَمرو بن دينار القَهْرَمَانيّ، عن سالم، عن عبد الله بن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ أنه كان في السُّوقِ فأُقِيمت الصلاةُ، فأغلقوا حَوانيتهم ودخلُوا المسجدَ، فقال ابن عُمَر: فيهم نَزَلت: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾. رواه ابنُ أبي حاتم، وابنُ جَرير.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر الصنعاني، حدثنا أبو سَعيد مولى بني هاشم، حدثنا عبد الله بن بُجَير، حدثنا أبو عبد ربٍّ قال: قال أبو الدَّرداءِ ـ رضي الله عنه ـ: إني أقمتُ على هذا الدَّرَج أبايعُ عليه، أربحُ كلَّ يوم ثلاثمائة دينار، [و] أشهدُ الصلاةَ في كلِّ يوم في المسجدِ، أما إني لا أقول: «إنَّ ذلك ليس بحلال»، ولكني أُحِبُّ أن أكون من الذين قال الله: ﴿رجالٌ لا تُلهِيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله﴾.

---

(١) مسند أحمد ٢/٧٦ ـ ٧٧، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٥٥.

(٢) مسند أحمد ٢/٤٣٨، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٥٥.

(٣) مسلم، كتاب الصلاة ١/٣٢٨.

(٤) فتح الباري، كتاب المواقيت ٢/٥٤، ومسلم، كتاب المساجد ١/٤٤٥ ـ ٤٤٦.

(٥) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/٣٤٩، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٣٢٩.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/١٤٦، والطبراني في المعجم الكبير ٩/٢٥٣. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/٨٣: «وفيه راوٍ لم يُسَمَّ وبقية رجاله رجالُ الصحيح». وانظر الدر المنثور ٦/٢٠٨.

وقال عمرو بن دينارٍ الأعورُ: كنتُ مع سالم بن عبدِ الله ونحنُ نُريد المسجدَ، فمررنا بسُوقِ المدينةِ وقد قامُوا إلى الصلاة، وخَمَّروا مَتَاعهم، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحدٌ، فتلا سالم هذه الآيةَ: ﴿رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ الله﴾، ثم قال: هم هؤلاء.

وكذا قال سعيدُ بن أبي الحَسَنِ، والضحاكُ: لا تُلهيهم التجارةُ والبيعُ أن يأتُوا الصلاةَ في وقتها.

وقال مطر الوَرَّاق: كانوا يبيعُون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانُه في يده خفضه، وأقبل إلى الصلاة.

وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكْرِ الله﴾، يقول: عن الصلاة المكتوبة، وكذا قال الربيع بن أنس، ومُقاتِلُ بن حيان.

وقال السدي: عن الصلاةِ في جَمَاعة. وعن مُقاتل بن حَيَّانَ: لا يُلهيهم ذلك عن حُضُور الصلاةِ، وأن يقيموها كما أَمَرَ الله، وأن يُحافِظُوا على مَوَاقيتها، وما استحفظَهُم الله فيها.

وقولُه: ﴿يخافُونَ يوماً تتقلَّب فيه القلوبُ والأبصارُ﴾، أي: يومَ القيامة الذي تتقلَّب فيه القلوبُ والأبصارُ، أي: من شدَّة الفَزَع وعَظَمة الأهوال، كما قال تعالى: ﴿وأنذِرْهُم يومَ الآزِفَةِ إذ القلوبُ لدى الحَنَاجِر كاظمين﴾، وقال تعالى: ﴿إنما يُؤَخِّرهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصارُ﴾، وقال تعالى: ﴿ويُطعِمُون الطعَام على حُبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنما نُطعِمُكُم لوجه الله لا نُريدُ منكم جزاءً ولا شُكُوراً * إنا نخافُ من رَبِّنا يوماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقاهم الله شرَّ ذلك اليوم ولَقَّاهم نضرة وسُرُوراً * وجَزَاهم بما صَبَرُوا جَنَّةً وحَرِيراً﴾.

وقال هاهنا ﴿لِيَجزِيَهُم الله أحسنَ ما عَمِلوا﴾، أي: هؤلاء من الذين يُتَقَبَّل عنهم أحسنَ ما عَمِلوا ويُتَجاوزُ عن سَيِّئاتِهم.

وقولُه: ﴿ويَزيدَهم من فَضله﴾، أي: يَتقبَّل منهم الحَسَنَ ويُضَاعفه لهم، كما قال تعالى: ﴿إنَّ الله لا يظلِمُ مثقالَ ذرة وإن تَكُ حسنةً يضاعفها ويُؤتِ من لَدُنه أجراً عَظيماً﴾، وقال تعالى: ﴿مَن جاء بالحسنةِ فله عشرُ أمثالِها﴾، وقال: ﴿من ذا الذي يُقرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فيضاعفَه له أضعافاً كثيرةً﴾، وقال: ﴿والله يضاعِفُ لمن يشاء﴾، كما قال هاهنا: ﴿والله يرزُقُ مَن يشاءُ بغير حساب﴾.

وعن ابن مسعود: أنه جيء بلبن فَعَرضه على جُلَسائه واحداً واحداً، فكُلُّهم لم يشربه لأنه كان صائماً، فتناوله ابنُ مسعود وكان مُفْطِراً فشَرِبه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿يخافُون يوماً تَتَقلَّب فيه القلوبُ والأبصارُ﴾، رواه النسائي. وابن أبي حاتم، من حديث الأعمشِ، عن إبراهيمَ، عن علقمةَ، عنه[1].

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا سُوَيد بن سعيد، حدثنا علي بن مُسهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شَهر بن حَوْشَب، عن أسماءِ بنت يزيدَ قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا جمَع الله الأولين والآخرين يومَ القيامة جاء منادٍ فنادى بصوتٍ يُسمِع الخلائق: سيعلم أهلُ الجَمْعِ مَن أولى بالكَرَم، لِيَقم الذين لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذِكْر الله. فيَقُومون وهم قليل، ثم يُحاسِبُ سائرَ الخلائقِ.

وروى الطبراني، من حديث بَقِيَّةَ، عن إسماعيل بن عبد الله الكِنْدي، عن الأعمشِ، عن أبي وائلٍ،

---

(١) أخرجه النسائي في المواعظ من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ١٠٤/٧، والحاكم في مستدركه، تفسير سورة النور ٣٩٩/٢، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

عن ابن مسعود، عن النبي - ﷺ - في قوله: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾، قال: أجورُهم يدخلهم الجنة، ويزيدُهم من فضله الشفاعةَ لمن وَجَبَتْ له الشفاعة، لِمَن صَنَع لهم المعروف في الدنيا[1].

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾

هذان مَثَلانِ ضَرَبَهُما الله تعالى لنوعَي الكُفّار، كما ضَرَب للمنافقين في أَوَّلِ «البقرة»[2] مَثَلين نارياً ومائياً، وكما ضرب لما يَقِرُّ في القلوب من الهدى والعلم في «سُورَة الرَّعد»[2] مثلين مائياً وناريّاً. وقد تكلَّمنا على كُلٍّ منها في موضعه بما أغنى عن إعادَته، ولله الحمدُ والمِنَّة.

فأمّا الأولُ من هَذين المَثَلين فهو للكفّار الدُّعاة إلى كُفرهم، الذين يحسَبُون أنَّهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفسِ الأمر على شيء، فَمَثَلُهم في ذلك كالسَّرابِ الذي يُرَى في القِيعان من الأرضِ مِن بُعدٍ كأنه بحرٌ طامٍ[3].

والقِيعَةُ: جمعٌ قاع، كَجار وجيرَة. والقاعُ أيضاً: واحد القِيعَانِ، كما يقال: جار وجيران. وهي: الأرضُ المستويةُ المتّسعةُ المنبسطةُ، وفيه يكونُ السرابُ، وإنما يكون ذلك بعد نصفِ النَّهار. وأما الآلُ فإنما يكون أوّلَ النهار، يُرَى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السرابَ مَن هو محتاجٌ إلى الماء حَسِبه ماءً فَقَصده ليشربَ منه، فلما انتهى إليه ﴿ لم يَجِدْه شيئاً ﴾، فذلك الكافر يحسَب أنه قد عَمِلَ عَمَلاً، وأنه قد حَصَّل شيئاً، فإذا وافى اللهَ يومَ القيامةِ وحاسَبَه عليها، ونُوقش على أفعاله، لم يَجِد له شيئاً بالكُلِّية قد قُبِلَ، إما لِعدَمِ الإخلاص، وإما لِعَدَمِ سُلوكِ الشرع، كما قال تعالى: ﴿ وقَدِمنا إلى ما عَمِلوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً ﴾. وقال هاهنا: ﴿ وَوَجد الله عنده فوَفّاه حِسابه والله سريعُ الحساب ﴾. وهكذا رُوِيَ عن أُبَيّ بن كعب، وابن عباس، ومجاهد، وقتادةَ، وغيرِ واحدٍ.

وفي الصحيحَين أنه يُقال يوم القيامة لليهود: ما كنتم تعبدُون؟ فيقولون: كنا نعبد عُزَيْرَ ابن الله. فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله مِن وَلَدٍ، ماذا تبغُون؟ فيقولون، أيْ رَبَّنا، عَطِشنا فَاسْقِنَا. فيقال: ألا تَرَون؟ فتُمثَّلُ لهم النارُ كأنها سَرَاب يحطِمُ بعضُها بعضاً، فينطلقون فيتهافَتُون فيها[4].

وهذا مثالٌ لذوي الجهل المُرَكَّب[5]، فأما أصحابُ الجهلِ البسيطِ، وهم الطُماطم[6] الأغْتامُ المقلِّدون

---

(١) أخرجه في المعجم الكبير ١٠/٢٤٨.

(٢) انظر تفسير سورة البقرة، الآيات ١٧ - ٢٠، وسورة الرعد، الآية ١٧.

(٣) أي: مرتفع، يقال: طما الماء. ارتفع وملأ النهر، وطما النهرُ ونحوه: امتلأ وغَزُرَ. ويجوز أن يكون من مادة (طَ مْ مْ)، يقال: طَمَّ الشيءُ طُموماً. كثر حتى عَظُم أو عَمّ، ويقال: طَمَّ البحرُ أو الماء، والطامُّ: الشيءُ العظيم، والماء الكثير.

(٤) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٨/٢٤٩ - ٢٥٠، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٦٧ - ١٧١.

(٥) قال الشريف الجرجاني في التعريفات ٨٠: الجهل البسيط: عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالماً. والمركب: هو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع.

(٦) الطَماطِمُ جمع طِمْطِم، وهو الأعجم. والأغتامُ، جمع أَغْتَم - بالغين والتاء المثناة - وهو: الذي لا يفصح لعجمة في منطقه، والجمعُ: غُتْمٌ وأغتام

لأئمة الكفر، الصُّم البُكم الذين لا يعقلون، فمَثَلُهم كما قال تعالى: ﴿أو كظلماتٍ في بحرٍ لُجّيٍّ﴾ ـ قال قتادة: وهو العميقُ ـ ﴿ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سَحابٌ ظلماتٌ بعضُها فوق بعضٍ إذا أخرج يدَه لم يَكد يَراها ﴾، أي: لم يُقارب رُؤيتَها من شِدّة الظلام، فهذا مثَلُ قلب الكافر الجاهل البسيط المقلّد الذي لا يدري أين يذهب، ولا هو يعرف حال من يقودُه، بل كما يُقال في المثَلِ للجاهل. أين تذهَبُ؟ قال: معَهم وقيل: فإلى أين يذهبُونَ؟ قال: لا أدري.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس ـ رَضِي الله عنهما ـ ﴿ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ ﴾، يعني بذلك الغِشَاوة التي على القَلب والسمع والبَصَر، وهي كقوله: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سَمعهم وعلى أبصارهم غشاوةٌ ولهم عذاب عظيم ﴾، وكقوله: ﴿ أفرأيتَ من اتَّخذ إلٰهه هَواه وأضلّه الله على عِلمٍ وخَتَم على سَمعه وقلبه وجَعَل على بصره غِشاوة فَمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون ﴾[1].

وقال أُبيُّ بن كعب في قوله: ﴿ ظُلُماتٌ بعضُها فوق بعضٍ ﴾، فهو يتَقلب في خَمسة من الظُّلَم: كلامُه ظُلمةٌ، وعَمَله ظُلمة، ومَدْخَلُه ظُلمة، ومَخْرَجُه ظُلمة، ومَصيره يومَ القيامةِ إلى الظُّلُمات إلى النار[2].

وقال الربيعُ بن أنَس، والسُّدي نحوَ ذلك أيضاً.

وقولُه: ﴿وَمَن لم يجعل الله له نُوراً فما له من نُورٍ﴾، أي: مَنْ لَم يهدِه الله فهو هالِكٌ جاهِلٌ حائرٌ بائرٌ كافرٌ، كما قال تعالى: ﴿ من يُضلِل الله فلا هاديَ له ﴾، وهذا في مُقابلةِ ما قال في مَثَل المؤمنين: ﴿ يَهدي الله لنوره من يشاء ﴾. فَنَسألُ الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نُوراً، وعن أيماننا نُوراً، وعن شَمائِلنا نُوراً، وأن يُعظِمَ لنا نُوراً.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

يُخبر تعالى أنه يُسبّحه مَن في السموات والأرض، أي: من الملائكة والأناسي، والجانّ والحيوانِ، حتّى الجَماد، كما قال تعالى: ﴿ تُسبّح له السمواتُ السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيءٍ إلا يُسبّح بحمدِه ولكن لا تفقهُون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾.

وقولُه: ﴿ والطيرُ صافّاتٍ ﴾، أي: في حال طَيرانِها تُسبّح ربَّها وتَعبُده بتسبيحٍ ألهمَهَا وأرشدَها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلةٌ، ولهذا قال: ﴿ كلٌّ قد عَلِم صَلاته وتسبيحه ﴾، أي: كلٌّ قد أرشَدَه إلى طريقِه ومَسلَكِه في عبادةِ الله عزّ وجلّ. ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولهذا قال: ﴿ والله عليمٌ بما يفعلُونَ ﴾.

ثم أخبر تعالى: أن له ملكَ السمواتِ والأرض، فهو الحاكمُ المتصرّف الذي لا مُعقّبَ لِحُكمِه، وهو الإلٰهُ المعبودُ الذي لا تَنبغي العبادةُ إلا لَه، ﴿ وإلى الله المصيرُ ﴾، أي: يومَ القيامة، فَيحكُم فيه بما يشاء، ﴿ليجزيَ الذينَ أساءوا بما عَمِلوا ويجزيَ الذين أحسَنُوا بالحُسنَى﴾، فهو الخالقُ المالِك، ألا له الحُكمُ في الدنيا والأُخرَىٰ، وله الحمدُ في الأُولى والآخِرَةِ.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ١٨/١٥٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، والحاكم في تفسير سورة النور ٢/٣٩٩ ـ ٤٠٠، والطبري ١٨/١٥١

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾

يذكُر تعالى أنه بقُدرته يسوق السحابَ أول ما يُنشئها وهي ضعيفةٌ، وهو الإزجاءُ، ﴿ ثم يُؤلِّف بينه ﴾، أي: يجمَعه بعد تفرُّقه، ﴿ ثم يجعله رُكاماً ﴾، أي: متراكماً، أي: يُرَكِّب بعضَه بعضاً، ﴿ فترى الوَدْقَ ﴾، أي: المطر ﴿ يخرُج من خِلاله ﴾، أي: من خَلَله. وكذلك قرأها ابنُ عبّاسٍ والضَّحاكُ[1].

قال عُبَيد بن عُمَير اللَّيْثي: يبعث الله المُثيرة فتقُمُّ الأرضَ قمّاً، ثم يبعثُ الله الناشئةَ فتُنشِئُ السحابَ، ثم يبعَثُ الله المؤلِّفة فتؤلِّف بينه، ثم يبعث الله اللواقح فتَلقَحُ السحابَ. رواه ابنُ أبي حاتم، وابنُ جَرير[2]، رحمهما الله.

وقولُه: ﴿ وينزِّل من السماء من جبالٍ فيها من بَرَدٍ ﴾، قال بعضهم النحاة: ﴿ من ﴾ الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، والثالثة لبيان الجنس. وهذا إنما يجيءُ على قولِ من ذَهَب من المُفسِّرين إلى أنَّ قوله: ﴿ من جبالٍ فيها من بردٍ ﴾، معناه: أن في السماء جبالَ بَرَدٍ ينزل الله منها البرد. وأما من جعل الجبال هاهنا كنايةً عن السحاب، فإن «من» الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضاً، لكنها بَدَلٌ من الأولى، والله أعلم.

وقولُه: ﴿فيُصيبُ به مَن يشاء ويَصْرِفُه عن مَن يشاءُ﴾، يَحتمِلُ أن يكون المرادُ بقولِه: ﴿فيُصيبُ به﴾، أي: بما يُنزِلُ من السماء من نَوْعَي المَطَرِ والبَرَد، فيكون قوله: ﴿ فَيُصِيب به مَن يشاء ﴾، رحمةً لهم، ﴿ويصْرِفه عن مَن يشاء﴾، أي: يُؤخِّر عنهم الغيث.

ويحتمِلُ أن يكون المرادُ بقوله: ﴿ فيُصيبُ به ﴾، أي: بالبَرَد نقمةً على من يشاء، لما فيه من نَثْرِ ثِمارهم، وإتلاف زُرُوعهم وأشجارهم، ويَصرِفُه عن مَن يشاءُ رحمةً بهم.

وقولُه: ﴿ يكادُ سَنا بَرْقه يذهَبُ بالأبصار ﴾، أي: يكادُ ضَوءُ بَرْقِه من شِدَّته يَخطَفُ الأبصارَ إذا اتَّبعته وتَراءته.

وقولُه: ﴿ يُقلِّبُ الله الليل والنهارَ ﴾، أي: يَتصرَّفُ فيهما، فيأخذُ من طُولِ هذا في قِصَرِ هذا حتَّى يَعتدِلا، ثم يأخذُ من هذا في هذا، فيطُولُ الذي كان قصيراً، ويَقصُر الذي كان طويلاً. والله هو المتصرِّفُ في ذلك بأمره وقهره، وعِزّته وعِلْمه.

﴿ إن في ذلك لعبرةً لأولي الأبصارِ ﴾، أي: لَدليلاً على عَظَمته تعالى كما قال تعالى: ﴿ إنَّ في خلقِ السموات والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ ﴾، وما بعدها من الآياتِ الكريماتِ.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

(١) روح المعاني للألوسي ١٨/١٩٠، وتفسير الطبري ١٨/١٥٤
(٢) تفسير الطبري ١٨/١٥٣، وتَقُمّ الأرض: تكنُسها

يذكر تعالى قُدرته التامّة وسُلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، من ماءٍ واحدٍ، ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾، كالحيَّة وما شاكلها، ﴿ ومنهم من يمشي على رِجلين ﴾، كالإنسان والطير، ﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾، كالأنعام، وسائر الحيوانات. ولهذا قال: ﴿ يخلقُ الله ما يشاءُ ﴾، أي: بقدرته، لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: ﴿ إنّ الله على كلّ شيء قدير ﴾.

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقرِّر تعالى أنه أنزل في هذا القرآنِ من الحِكَمِ والحِكَم والأمثالِ البيِّنة المُحكمة كثيراً جداً، وأنه يُرشِدُ إلى تفهُّمها وتعقُّلها أولي الألبابِ والبصائرِ والنُّهى، ولهذا قال: ﴿ والله يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيمٍ ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن صفاتِ المنافقين، الذين يُظهرون خلافَ ما يُبطِنُون، يقولون قولاً بألسنتهم: ﴿ آمنّا بالله وبالرسولِ وأطعنا ثم يتولّى فريقٌ منهم من بعدِ ذلك ﴾، أي: يُخالِفُون أقوالهم بأعمالِهم، فيقولون ما لا يفعلُون، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما أُولئك بالمؤمنين ﴾.

وقوله: ﴿ وإذا دُعوا إلى الله ورسولِه ليحكُم بينهُم إذا فريقٌ منهم مُعرِضون ﴾، أي إذا طُلِبُوا إلى اتّباع الهدى، فيما أنزل الله على رسُوله، أعرضُوا عنه واستكبرُوا في أنفُسِهم عن اتّباعِه. وهذه كقوله: ﴿ ألم ترَ إلى الذين يزعُمون أنهم آمنُوا بما أُنزِلَ إليك وما أُنزِلَ من قبلِك يُريدُون أن يتحاكموا إلى الطاغوتِ وقد أُمِرُوا أن يكفرُوا به ويُريدُ الشيطانُ أن يُضِلَّهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسولِ رأيت المُنافقين يَصُدُّون عنك صُدُوداً ﴾.

وفي الطَّبَرانيِّ من حديثِ رَوح بن عطاءِ بن أبي ميمونة، عن أبيه، عن الحسن، عن سَمُرَة مرفوعاً: «من دُعي إلى سُلطانٍ فلم يُجِب فهو ظالِمٌ لا حقَّ له»[(١)].

وقوله: ﴿ وإن يكُن لهم الحقُّ يأتوا إليه مُذعِنين ﴾، أي: إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءُوا سامِعِينَ مُطيعين، وهو معنى قوله: ﴿ مُذعِنين ﴾، وإذا كانت الحكومةُ عليه أعرضَ ودَعا إلى غير الحقّ، وأحبّ أن يتحاكم إلى غير النبي ـ ﷺ ـ ليروِّجَ باطلَه ثَمّ. فإذعانُه أولاً لم يكُن عن اعتقادٍ منه أنّ ذلك هُو الحقُّ، بل لأنه موافقٌ لهواه، ولهذا لما خالَفَ الحقُّ قصدَهُ عَدَل عنه إلى غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿ أفي قُلُوبهم مرضٌ أم

(١) أخرجه في المعجم الكبير ٧/٢٢٥. وفي مجمع الزوائد ٤/١٩٨ «وفيه روح بن عطاء، وثّقه ابن عديّ، وضعّفه الأئمة».

ارتابُوا أم يخافُونَ أن يَحِيفَ اللهُ عليهم ورسولُه ﴾، يعني: لا يخرجُ أمرُهم عن أن يكون في القُلُوبِ مَرَضٌ لازِمٌ لها، أو قد عَرَضَ لها شَكٌّ في الدِّين، أو يخافُون أن يَجُور اللهُ ورسوله عليهم في الحكم! وأيّاً ما كان فهو كُفْرٌ محضٌ، واللهُ عليمٌ بكل منهم، وما هو عليه مُنْطَوٍ من هذه الصفاتِ.

وقولُه: ﴿ بل أولئك هُم الظالمون﴾، أي: بل هُم الظالِمُونَ الفاجِرُونَ، واللهُ ورسولُه مُبرَّآن مما يَظُنُّون ويتوهَّمُونَ مِنَ الحَيف والجَور، تعالى اللهُ ورسولُه عن ذلك.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مُوسَى بن إسماعيلَ، حَدَّثنا مبارَكٌ، حَدَّثنا الحسنُ قال: كان الرجلُ إذا كان بينه وبين الرجل منازعةٌ، فَدُعِي إلى النبي ـ ﷺ ـ وهو مُحِقٌّ أذعنَ، وعَلِم أن النبي ـ ﷺ ـ سيَقضي له بالحقِّ، وإذا أراد أن يَظلِم فَدُعِي إلى النبي ـ ﷺ ـ أعرضَ، وقال: انطلِقْ إلى فلانٍ. فأنزل الله هذه الآيةَ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ومن كان بينه وبين أخيه شيءٌ فَدُعِيَ إلى حَكَمٍ من حُكّام المسلمين فأبى أن يُجيبَ فَهُو ظالمٌ لا حَقَّ له.

وهذا حَدِيثٌ غريبٌ وهو مُرسَلٌ.

ثُم أخبر تعالى عن صفةِ المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، الذين لا يَبغُون ديناً سِوَى كتاب الله وسُنَّة رسولِه، فقال: ﴿ إنّما كان قولَ المؤمنين إذا دُعُوا إلى اللهِ ورَسُوله لِيحكُمَ بَينَهم أن يقولُوا سَمِعنا وأطَعنا ﴾، أي: سمعاً وطاعةً. ولهذا وصَفَهم تعالى بالفلاح، وهو نيلُ المطلوبِ والسلامةُ من المرهوبِ، فقال: ﴿ وأولئك هم المُفلِحُون ﴾:

وقال قتادةُ في هذه الآية: ﴿ أن يَقُولوا سَمِعنا وأَطعنا ﴾: ذُكر لنا أن عُبادة بن الصامت ـ وكان عَقَبيّاً بَدْرِيّاً، أحدَ نُقَباء الأنصار ـ: أنه لما حَضَره الموتُ قال لابن أُخته[1] جُنادة بن أبي أُميّة: ألا أُنبِّئُك بماذا عليكَ وَماذا لكَ؟ قال: بلى. قال: فإنّ عليك السمعَ والطاعةَ، في عُسرِكَ ويُسرِكَ، ومَنْشَطِكَ ومَكْرَهِكَ، وأثرةً عَلَيكَ، وعليك أن تُقيم لسانَكَ بالعدل، وَألاّ تُنازِعَ الأمرَ أهلَه، إلا أن يأمروكَ بمعصيةِ الله بَوَاحاً[2]، فما أُمِرتَ به من شيءٍ يُخالِفُ كتابَ الله فاتَّبِعْ كتابَ الله.

وقال قتادةُ: وَذُكِر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلامَ إلا بطاعةِ الله، ولا خَيرَ إلا في جَمَاعةٍ، والنصيحةُ لله ولرسوله، وللخليفةِ وللمؤمنين عامَّة.

قال: وقد ذُكِرَ لنا أن عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يقولُ: عُروةُ الإسلامِ شَهادةُ أن لا إلَه إلا الله، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، والطاعةُ لمن وَلاّه الله أمر المسلمين. رواه ابن أبي حاتم.

والأحاديثُ والآثارُ في وجوبِ الطاعةِ لكتاب الله وسُنَّة رسوله، وللخلفاء الراشدين، والأئمة إذا أمَروا بطاعةِ الله كثيرةٌ جداً، أكثرُ من أن تُحصَرَ في هذا المكان.

وقولُه: ﴿ وَمَن يُطعِ اللهَ ورَسُولَه ﴾، قال قتادةُ: ﴿ يُطِعِ اللهَ ورسولَه ﴾ فيما أمراه، ويتركْ ما نَهَيا عنه، ﴿ ويَخشَ اللهَ ﴾ فيما مضى من ذنوبه، ﴿ ويَتَّقْهِ ﴾ فيما يَستقبل.

وقولُه: ﴿ فأولئكَ هُم الفائِزُونَ ﴾، يعني: الذينَ فَازُوا بِكُلِّ خيرٍ، وأَمِنُوا من كلِّ شرٍّ في الدُّنيا والآخرة.

(١) في الأصول: لابن أخيه. والمُثبتُ من تفسير ابن أبي حاتم. ولم يتبين لنا أنه ابن أخيه، لأنّ جنادة دَوْسِيٌّ.
(٢) أي: ظاهراً بادياً.

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: مُخبِراً عن أهلِ النِّفاقِ، الذين كانوا يَحلِفُونَ للرسول ـ ﷺ ـ: لئن أمَرهم بالخروج في الغَزْو قال الله تعالى: ﴿ قل: لا تُقسِموا ﴾، أي: لا تَحلِفوا.

وقوله: ﴿ طاعة معروفة ﴾، قيل: تقديرُه طاعتكم طاعةٌ معروفةٌ، أي: قد عُلِمَ طاعتُكم، إنما هي قولٌ لا فعلَ معه، وكُلَّما حلفتم كَذَبتم، كما قال تعالى: ﴿ يَحلِفون لكم لِترضَوا عنهم فإن ترضَوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القومِ الفاسقين ﴾. وقال تعالى: ﴿ اتَّخذوا أيمانهم جُنَّةً فصدُّوا عن سبيل الله إنَّهم ساء ما كانوا يعملون ﴾، فهم من سَجِيَّتِهم الكذبُ حتى فيما يختارُونه، كما قال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولُون لإخوانهم الذين كفَرُوا من أهل الكتاب لئن أُخرجتُم لنخرجَنَّ معكم ولا نُطيعُ فيكم أحداً أبداً وإن قُوتِلتم لننصُرَنَّكم والله يشهَدُ إنهم لكاذبون * لئن أُخرِجُوا لا يخرجُون مَعَهم وَلَئِن قُوتِلُوا لا ينصُرونَهم ولئن نصَروهم ليولُّن الأدبَار ثم لا يُنصَرون ﴾.

وقيل: المعنى في قوله: ﴿ طاعةٌ معروفةٌ ﴾، أي: لِيكُن أمرُكم طاعةً معروفةً، أي: بالمعروفِ من غيرِ حَلِفٍ ولا إقسام، كما يُطيع الله ورسولَه المؤمنون بغير حَلِفٍ، فكُونُوا أنتم مثلَهم.

﴿ إنَّ الله خَبير بما يعملون ﴾، أي: هو خَبيرٌ بكم وبمن يُطيع ممن يَعصِي. فالحلِفُ وإظهارُ الطاعة ـ والباطن بخلافه، وإن راج على المخلوق ـ فالخالق تعالى يعلَم السِّرَّ وأخفَى، لا يروجُ عليه شيءٌ من التدليس، بل هو خَبيرٌ بِضَمائرِ عبادِه وإن أظهروا خلافَها.

ثم قال تعالى: ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ ﴾، أي: اتَّبِعُوا كتابَ الله وسنَّةَ رَسولِه.

وقولُه: ﴿ فإن تولَّوا ﴾، أي: تَتولوا عنه وتَتركُوا ما جاءكم به، ﴿ فإنما عليه ما حُمِّل ﴾، أي: إبلاغُ الرسالةِ وأداءُ الأمانةِ، ﴿ وعليكُم ما حُمِّلتم ﴾، أي: من قبولِ ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه، ﴿ وإن تُطيعوه تهتَدُوا ﴾، وذلك لأنه يدعُو إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴿ صِراطِ الله الذي له ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ ألا إلى الله تصيرُ الأمورُ ﴾.

وقولُه: ﴿ وما على الرسولِ إلا البلاغُ المبين ﴾، كقوله: ﴿ فإنما عليك البلاغُ وعلينا الحسابُ ﴾، وقولِه: ﴿فذكِّر إنما أنت مُذكِّر * لستَ عليهم بمُصَيطِر﴾.

وقال وَهبُ بن مُنَبِّه: أوحى الله إلى نَبيٍّ من أنبياءِ بني إسرائيلَ يُقال له شَعياءُ: أن قُم في بني إسرائيلَ فإني سأُطلِقُ لسانَك بوَحْيٍ، فقال: يا سماءُ اسمعي، ويا أرضُ أنصِتي، فإنَّ الله يُريد أن يَقضيَ شأناً ويُدبِّر أمراً هو مُنفذُه، إنه يُريد أن يُحوِّل الريفَ إلى الفَلاةِ، والآجامَ[1] في الغِيطان، والأنهارَ في الصَّحارى، والنعمةَ في الفُقَراء، والمُلْكَ في الرِّعاةِ، ويُريد أن يبعثَ أُمِّيّاً من الأُمِّيين، ليس بفَظٍّ ولا غَليظٍ ولا سَخَّابٍ[2] في الأسواق،

(١) الآجام، جمعُ أَجَمةٍ، وهو الشجر الكثير الملتف. والغِيطان، جمع غائط، وهي الأرض المطمئنة.
(٢) الصَّخَبُ والسَّخَبُ: الضجة واضطراب الأصوات للخصام.

لو يمرُّ إلى جنب السراج لم يُطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب اليابس لم يُسمع من تحتَ قدميه. أبعثُه مبشراً ونذيراً، لا يقول الخنا[1]، افتحُ به أعيناً عمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلفاً، وأسدِّده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبرَّ شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خُلُقه، والحقَّ شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملّته، وأحمدُ اسمُه، أهدي به بعد الضلالة، وأُعلِّمُ به من الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة[2]، وأُعرِّف به بعد النكرة، وأُكثِّر به بعد القلّة، وأُغني به بعد العَيلة، وأجمعُ به بعد الفرقة، وأؤلِّف به بين أمم متفرِّقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتّتة، وأستنقذ به فئاماً[3] من الناس عظيماً من الهلكة، وأجعلُ أمته خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، موحِّدين مؤمنين مخلصين، مصدِّقين بما جاءت به رُسُلي. رواه ابنُ أبي حاتم[4].

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

هذا وعدٌ من الله لرسوله ـ ﷺ ـ بأنه سيجعلُ أُمته خُلفاءَ الأرض أئمةً للناس والولاةَ عليهم، وبهم تصلُح البلادُ، وتخضع لهم العبادُ، وليُبدِّلنَّ بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم. وقد فعل تبارك وتعالى ذلك، وله الحمد والمنّة: فإنه لم يمُت رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى فتح الله عليه مكّة وخيبرَ والبحرين، وسائرَ جزيرة العَرَب وأرضَ اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مجوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقلُ ملكُ الروم، وصاحبُ مصرَ والإسكندرية ـ وهو المقوقسُ ـ وملوكُ عُمان والنّجاشي مَلِكُ الحبشة، الذي تملّك بعد أصحمة، رحمه الله وأكرمه.

ثم لما ماتَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ واختارَ الله له ما عندَه من الكرامة، قامَ بالأمر بعده خليفتُه أبو بكر الصدّيقُ، فَلَمَّ شَعَثَ ما وَهَى بعدَ موته ـ ﷺ ـ وأخذ جزيرةَ العرب ومهّدها، وبعث الجيوشَ الإسلاميةَ إلى بلادِ فارسَ صحبة خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ ففتحوا طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها. وجيشاً آخر صُحبة أبي عُبيدة ـ رضي الله عنه ـ ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حُوران وما والاها، وتوفاه الله ـ عزّ وجلّ ـ واختار له ما عنده من الكرامة. ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصدّيق أن استخلفَ عُمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياماً تاماً، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ على مثله، في قوّة سيرته وكمال عدله. وتمّ في أيامه فتح البلاد الشاميّة بكمالها، وديار مصرَ إلى آخرها، وأكثر إقليم فارسَ، وكسّر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته. وقصّر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى

---

(١) الخنا: الفحش في القول.

(٢) خَمَل ذكرُه خمولاً: خفيَ. وهذا المصدر وهو خمالة أثبته الأندلسيون، وقالوا هو مثل: كرم كرامة. وقال بعض اللغويين إن جاء على خمالة لمشاكلة الضلالة والجهالة، ومال إلى هذا الزَّبيديُّ وقال ـ لاطبائهم على أنه ـ أي الفعل من باب نصر، لا كرُم.

(٣) الفئام. الجماعة الكثيرة

(٤) وأخرجه القاضي عياض في الشفاء ١/٣١ ـ ٣٢ بإسناده إلى عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وسيأتي هذا الأثر بأتمّ من هذا عند تفسيره الآية ٤٥ من سورة الأحزاب

قسطنطينية، وأنفق أموالَهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك وَوعد به رسولُ الله، عليه من ربِّه أتم سلام، وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولةُ العثمانيةُ امتدت الممالكُ الإسلاميةُ إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففُتحت بلادُ المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرصَ، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتة مما يلي البحر المحيط ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقُتل كسرى، وباد ملكُه بالكلِّية وفُتحت مدائنُ العراق، وخُرَاسان، والأهوازُ. وقتلَ المسلمُونَ من التركِ مقتلةً عظيمةً جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخَراجُ من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجَمعه الأمَّةَ على حفظِ القرآن. ولهذا ثَبت في الصَّحيح[1] عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن الله زَوَى لي الأرض فرأيتُ مشارِقَها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوِيَ لي منها»[1] فها نحن نتقلَّب فيما وعدنا الله ورسولُه، وصَدَق اللهُ ورسولُه، فنسأل الله الإيمانَ به، وبرسوله، والقيامَ بشُكْرِه على الوجه الذي يُرْضيه عنا.

قال الإمامُ مُسلِمُ بن الحجَّاج: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن عبد الملك بن عمير، عن جابر ابن سَمُرَة قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا يزالُ أمرُ الناسِ ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً» ثم تكلم النبيُّ ـ ﷺ ـ بكلمة خفيت عَلَيَّ فسألتُ أبي: ماذا قال رسولُ الله ﷺ؟ فقال: «كلُّهم من قريش». ورواه البخاري من حديث شُعبةَ، عن عبد الملك بن عُمَير، به[2]، وفي رواية لِمُسلم أنه قال ذلك عَشيةَ رُجِمَ ماعز ابن مالك، وذكر معه أحاديث أخر[2].

وهذا الحديثُ فيه دلالةٌ على أنه لا بدَّ من وجود اثني عشرَ خليفةً عادلاً، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عَشَر، فإن كثيراً من أولئك لم يكُن إليهم من الأمر شيءٌ؛ فأما هؤلاء فإنهم يكُونون من قريش، يَلُون فيعدلون وقد وقعت البشارةُ بهم في الكُتُب المتقدمة، ثم لا يُشتَرَطُ أن يكونوا مُتتابعين، بل يكون وجودُهم في الأمة مُتتابعاً ومُتفرِّقاً، وقد وُجِد منهم أربعة على الولاء، وهم: أبو بكر، ثم عُمَر، ثم عُثمان، ثم عليٌّ رضي الله عنهم. ثم كانت بعدهم فترةٌ بينهم، ثم وُجِد منهم ما شاء الله، ثم قد يُوجَد منهم مَن بَقيَ في وقتٍ يعلمُه الله ومنهم المهديُّ الذي يُطابِق اسمُه اسم رسولِ الله ـ ﷺ ـ وكُنيته كنيته، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما مُلئت جُوراً وظُلما.

وقد رَوَى الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والترمذيُّ، والنَّسائيُّ، من حديث سَعِيد بن جُمْهانَ، عن سَفِينَةَ ـ مولى رسول الله ـ ﷺ ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الخلافةُ بعدي ثلاثونَ سنةً، ثم تكونُ ملكاً عَضُوضاً»[3].

وقال الربيعُ بن أنس، عن أبي العالية في قوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخلِفَنَّهم في الأرض كما استَخلَفَ الذين من قَبْلِهم ولَيُمكِّنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ولَيُبدِّلَنَّهم من بعد خَوفِهم أمناً﴾ . . . الآية، قال: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ وأصحابه بمكةَ نحواً من عَشر سنين، يَدعُون إلى الله وحدَه،

(١) في نسخة الحرم: «الصحيحين». والحديث أخرجه مسلم في كتاب الفتن بإسناده إلى ثوبان مولى رسول الله ـ ﷺ ـ ٢٢١٥/٤ وانظره فيما تقدم، عند تفسير الآية ٦٥ من سورة الأنعام، ٣٣ من سورة التوبة.

(٢) مسلم، كتاب الإمارة ١٤٥٢/٣، ١٤٥٣. وفتح الباري، كتاب الأحكام ٢١١/١٣

(٣) مسند أحمد ٢٢٠/٥ ـ ٢٢١، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٢١١/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الفتن ٧٠/٩ ـ ٧١، والنسائي في المناقب من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٢١/٤ ـ ٢٢

وعبادَتَه وحدَه لا شريكَ له، سراً وهم خائفون، لا يُؤمَرُون بالقتال، حتى أُمِروا بعدُ بالهجرة إلى المدينة، فَقَدِمُوا المدينةَ، فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين يُمْسُون في السلاح ويُصبِحُون في السلاح، فَغَبَرُوا[1] بذلك ما شاء الله. ثم إن رجلاً من أصحابه قال: يا رسولَ الله، أبَدَ الدهر نحن خائفون هكذا؟ ما يأتي علينا يوم نأمنُ فيه ونضع عنا فيه السلاحَ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لن تَغْبُرُوا[2] إلا يسيراً حتى يجلس الرجُل منكم في الملأ العظيم مُحتبيا، ليست فيهم حَديدَةٌ. وأنزل الله هذه الآية، فأظهر الله نَبِيَّه على جزيرةِ العَرَب، فَأَمِنُوا ووضعوا السلاح. ثم إن الله ـ عزّ وجل ـ قبَضَ نبيه ـ ﷺ ـ فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعُمَر وعثمانَ حتى وَقَعُوا فيما وقعوا، فأدخِلَ عليهم الخوفِ، فاتخذوا الحَجَزَة[3] والشُّرَط وغَيَّروا، فَغُيِّرَ بهم[4].

وقال بعضُ السَّلَفِ: خلافةُ أبي بكر وعُمَر ـ رضي الله عنهما ـ حقٌّ في كتابه، ثم تلا هذه الآية.

وقال البراءُ بن عازِبٍ: نَزَلَتْ هذه الآيةُ ونحنُ في خوفٍ شديدٍ[5].

وهذه الآيةُ الكريمةُ كقوله تعالى: ﴿ واذكرُوا إذ أنتُم قليلٌ مُستضعَفُون في الأرض تخافُونَ أن يَتخطَّفَكُمُ الناسُ فآواكُم وأيَّدكم بنَصره ورَزَقكم من الطَّيِّباتِ لعلَّكُم تشكُرون ﴾.

وقولُه: ﴿كما استخلَفَ الذين من قبلهم﴾، كما قال تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ أنه قال لقومه. ﴿عسى ربُّكم أن يُهلِكَ عَدُوَّكم ويَستخلِفكم في الأرض فَيَنظُرَ كيفَ تَعمَلُون﴾، وقال تعالى ﴿ونُريد أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفُوا في الأرض ونجعلَهم أئمة ونجعلهم الوارثين ۞ ونُمَكِّن لهم في الأرض ونُرِيَ فِرعَونَ وهامانَ وجُنودَهما منهُم ما كانوا يَحذَرُون﴾.

وقولُه: ﴿ وَلَيُمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليُبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً﴾، كما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لعديِّ بن حاتمٍ، حينَ وَفَدَ عليه: أتعرفُ الحيرةَ؟ قلت. لم أرها، وقد سَمِعتُ بها. قال: «فوالذي نفسي بيده لَيُتِمَّن الله هذا الأمرَ حتى تخرجَ الظعينةُ من الحِيرَةِ حتى تطوفَ بالبيتِ في غير جوارِ أحدٍ، وَلَتُفتَحَنَّ كنوزَ كسرى بن هُرمُزَ. قلت. كِسرى بن هُرمُزَ؟! قال: نعم، كسرى بن هُرمُزَ، ولَيُبذَلَنَّ المالُ حتى لا يقبَلُه أحده. قال عَديُّ بن حاتم: فهذه الظعينةُ تخرج من الحيرة فتطوفُ بالبيتِ في غير جوارِ أحدٍ، ولقد كنتُ فيمن افتتح كُنوزَ كِسرَى بن هُرمُزَ، والذي نفسي بيده لتكونَنَّ الثالثةُ، لأن رسول الله ـ ﷺ ـ قد قالَها[6].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا سُفيانُ، عن أبي سَلَمة، عن الرَّبيع بن أنسٍ، عن أبي العَاليةِ، عن أُبي بن كَعبٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بَشِّر هذه الأمةَ بالسَّناءِ والرفعةِ، والدينِ والنَّصرِ والتمكينِ في الأرض، فمن عَمِل منهم عَمَلَ الآخرةِ للدنيا لم يكُن له في الآخرةِ نَصِيبٌ»[7].

---

(١) في نسخة الحرم: فصبروا. وغبروا بذلك: مكثوا على هذه الحال.

(٢) أي: لن تلبثوا. ومحتبياً: ضاماً رجليه إلى بطنه بثوب، يجمعهما به مع ظهره، ويشدُّه عليها.

(٣) الحجزة: جمع حاجز. والمراد: الحُجّاب. والشُّرَط: جمع شُرْطي.

(٤) أخرجه الحاكم في كتاب التفسير ٢/٤٠١، بإسناده إلى الربيع، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والطبري في تفسيره بإسناده إلى أبي العالية ١٨/١٥٩ ـ ١٦٠.

(٥) أخرجه ابنُ أبي حاتم في تفسيره، وابن مردويه، انظر الدرّ المنثور ٦/٢١٥.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، فتح الباري ٦/٦١٠ ـ ٦١١، والترمذي في تفسير سورة الفاتحة، عارضة الأحوذي ١١/٧٢ ـ ٧٥، والنسائي مختصراً في كتاب الزكاة ٥/٦٤ ـ ٦٥ والإمام أحمد في مسنده ٤/٢٥٧.

والحيرة: كانت بلد ملوك العرب تحت حكم آل فارس، وهي بجانب الكوفة، وكان يسكنها نصارى العِبَاد. والظعينة: المرأة في الهودج، وهو في الأصل اسم للهودج.

(٧) مسند أحمد ٥/١٣٤.

وقولُه: ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾، قال الإمام أحمد:

حدثنا عفّان، حدثنا همّام، حدثنا قتادةُ، عن أنس، أن معاذَ بن جبل حدَّثه قال: بينما أنا رَديفُ رسول الله ـ ﷺ ـ ليس بيني وبينه إلا آخِرَةُ(١) الرَّحْل، قال: «يا معاذ»، قلت: لَبَّيكَ يا رسولَ الله وسَعْدَيك. قال: ثم سار ساعةً ثم قال: يا معاذُ بن جَبَلٍ. قلت: لبيكَ يا رسولَ اللهِ وسعديكَ. ثم سار ساعةً ثم قال: يا معاذُ بن جَبَلٍ. قلت: لَبَّيْكَ يا رسولَ الله وسَعْدَيكَ. قال: هل تدْري ما حَقُّ اللهِ على العبادِ؟ قلت: الله ورسولُه أعلم. قال: حَقُّ الله على العِبادِ أن يَعبدُوه ولا يُشركوا به شيئاً، قال: ثم سار ساعةً ثم قال: يا معاذُ بنَ جبلٍ. قلت: لَبَّيْكَ يا رسولَ الله وسَعْدَيكَ. قال: فهل تَدْري ما حقُّ العباد على الله إذ فَعَلُوا ذلك؟ قلتُ. الله ورسولُه أعلمُ. قال: فإن حَقَّ العبادِ على الله ألاَّ يُعذِّبهم»(٢). أخرجاه في الصَّحيحَين من حديث قتادة(٢).

وقولُه: ﴿ ومن كَفَر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقُونَ ﴾، أي: فمن خَرَجَ عن طاعتي بعد ذلك فقد فَسَقَ عن أمر رَبِّه وكفى بذلك ذنباً عظيماً. فالصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ لما كانوا أقومَ الناس بعد النبي ـ ﷺ ـ بأوامر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وأطوعهم لله ـ كان نصرُهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم الله تأييداً عظيماً، وتحكموا في سائر العبادِ والبلادِ. ولما قصَّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نَقَصَ ظهورُهم بحَسْبِهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين، من غير وَجه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى اليوم القيامة». وفي رواية: حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك». وفي رواية: «حتى يقاتلوا الدجالَ» وفي رواية: «حتى ينزل عيسى ابن مريمَ وهم ظاهرون»(٣). وكل هذه الروايات صَحيحةٌ، ولا تعارُضَ بينها.

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً عبادَه المؤمنين بإقام الصلاة، وهي: عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له، وإيتاءِ الزكاةِ، وهي: الإحسانُ إلى المخلوقين ضُعفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مُطيعين للرسولِ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أي: سالكينَ وراءه فيما أمرهم، وتاركين ما عنه زَجَرهم، لعلَّ الله يرحمُهم بذلك، ولا شكَّ أنَّ من فعل ذلك أن الله سيرحمهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ أولئك سيرحَمهم الله ﴾.

وقولُه: ﴿ لا تحسبنَّ ﴾، أي: يا محمد ﴿ لا تحسبَنَّ الذين كفَروا ﴾، أي: خالفُوك وكذبوك، ﴿ معجزِينَ في الأرض ﴾، أي: لا يُعجزون الله، بل اللهُ قادرٌ عليهم، وسيُعذِّبهم على ذلك أشدَّ العذاب، ولهذا قال ﴿ ومأواهُم النارُ ﴾، أي: في الدار الآخرة ﴿ ولَبِئسَ المصيرُ ﴾، أي: بئسَ المآلُ مآلُ الكافرين، وبئسَ القرارُ وبئسَ المهادُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ

(١) آخِرَةُ الرَّحْل: العُود الذي يجعل خلف الراكب يستند إليه.
(٢) مسند أحمد ٢٤٢/٥، وفتح الباري، كتاب الرقاق ٣٣٧/١١، ومسلم، كتاب الإيمان ٥٨/١ ـ ٥٩
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢٠، ١٢٩ من سورة البقرة، ١٨١ من سورة الأعراف، وخرّجته هنالك

تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ
طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ
الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾
وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن
يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

هذه الآياتُ الكريمةُ اشتملت على استئذان الأقارب بعضِهم على بعض. وما تقدم في أول السورة فهو استئذانُ الأجانبِ بعضِهم على بعض، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنَهم خدَمُهم مما ملكت أيمانُهم وأطفالُهم الذين لم يبلُغوا الحلم منهم في ثلاثةِ أحوال: الأول من قبل صلاة الغداة[1]، لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فُرُشهم، ﴿ وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴾، أي: في وقت القَيْلُولة؛ لأن الإنسانَ قد يَضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ﴿ ومن بعد صلاةِ العشاءِ ﴾، لأنه وقتُ النوم، فيُؤمَرُ الخَدَمُ والأطفال ألاَّ يَهجُمُوا على أهل البيت في هذه الأحوال، لما يُخشى من أن يكون الرجلُ على أهله، أو نحو ذلك من الأعمال، ولهذا قال: ﴿ ثلاثُ عوراتٍ لكم ليس عليكم ولا عليهم جُناحٌ بعدهُنّ ﴾، أي: إذا دخلُوا في غير هذه الأحوالِ فلا جُناحَ عليكم في تمكينِكُم إياهُم من ذلك، ولا عليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال، لأنه قد أُذِن لهم في الهجوم، ولأنهم ﴿ طوّافون ﴾ عليكُم، أي: في الخدمةِ وغير ذلك. ويغتفر في الطّوّافين ما لا يُغتفر في غيرهم. ولهذا روى الإمام مالكٌ وأحمدُ بن حنبلٍ وأهلُ السُّنن أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال في الهِرَّة: «إنها ليست بِنَجِس؛ إنها من الطّوّافين عليكُم، أو: الطّوّافاتِ»[2].

ولما كانت هذه الآيةُ محكمةً ولم تُنسخ بشيء، وكان عمل الناس بها قليلاً جداً، أنكر عبدُ الله بن عباس ذلكَ على الناس، كما قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو زُرعةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لَهِيعَةَ، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جُبَير قال: قال ابنُ عباس: تركَ الناسُ ثلاثَ آياتٍ فلم يعمَلُوا بهنّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكُم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلُغوا الحُلُم منكم ثلاث مرّاتٍ ﴾... إلى آخر الآيةِ، والآيةُ التي في سورة النساء ﴿وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزُقُوهم منه﴾، والآيةُ التي في الحُجُراتِ ﴿ إنّ أكرمَكُم عند الله أتقاكُم ﴾[3].

وروى أيضاً من حديث إسماعيل بن مسلم ـ وهو ضعيفٌ ـ عن عَمرو بن دينار، عن عَطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: غلب الشيطانُ الناسَ على ثلاثِ آياتٍ، فلم يعملوا بهنّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾... إلى آخر الآية.

وقال أبو داود: حدثنا ابن الصباح[4] بن سفيان، وابن عَبْدَه ـ وهذا حديثُه ـ أخبرنا سفيانُ، عن عُبَيد الله

---

(١) صلاة الغداة: هي صلاة الصبح.
(٢) الموطأ، كتاب الطهارة ١/٢٣، ومسند أحمد ٥/٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٩، وأخرجوه في كتاب الطهارة، سنن أبي داود ١/١٩ ـ ٢٠، وعارضة الأحوذي ١/١٣٧، والنسائي ١/٥٥، وكتاب المياه ١/١٧٨، وابن ماجه ١/١٣٠ ـ ١٣١.
(٣) وأخرجه ابن جرير في تفسيره بإسناده إلى عطاء، قال ابن عباس، بنحوه. انظر ١٨/١٦٢.
(٤) هو محمد بن الصباح بن سفيان، وابن عَبْدَة هو أحمد بن عَبْدَة بن موسى الضبي.

ابن أبي يزيد، سمع ابنَ عباس يقول: لم يُؤمن بها أكثرُ الناس آيةُ الإذن، وإني لآمُرُ جاريتي هذه تستأذنُ عليَّ.

قال أبو داود: وكذلك رواه عطاءٌ، عن ابن عباسٍ يأمُرُ به[1].

وقال الثوريُّ، عن موسى بن أبي عائشة سألتُ الشعبيَّ: ﴿ لِيَسْتَأْذِنكُم الذين مَلَكت أيمانُكم ﴾، قال: لم تُنسخ، قلتُ: فإنَّ الناس لا يعمَلُون بها؟ فقال: الله المستعان[2].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الربيعُ بن سُليمانَ، حدثنا ابنُ وهبٍ، أخبرنا سُليمان بن بلالٍ، عن عمرو بن أبي عَمرو، عن عِكرمَةَ، عن ابن عباسٍ: أنَّ رجلين سَألاه عن الاستئذانِ في الثلاث عَوراتٍ التي أمر الله بها في القرآنِ، فقال ابن عباس: إن الله ستِّير يحب السَّتر، كان الناسُ ليس لهم سُتورٌ على أبوابهم ولا حجال[3] في بُيُوتهم، فربما فاجأ الرجلَ خادمُه أو ولدُه أو يتيمُه في حجره، وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العَوراتِ التي سَمَّى الله. ثم جاء بعده الستورُ، فبسط الله عليهم في الرزق، فاتخذوا الستور واتخذوا الحِجَال، فرأى الناسُ أنَّ ذلك قد كفَاهم من الاستئذانِ الذي أُمِرُوا به.

وهذا إسنادٌ صَحيح إلى ابن عباس، ورواه أبو داودَ، عن القعنبي، عن الدَّراوردي، عن عَمرو بن أبي عَمرو[4] به.

وقال السُّديُّ: كان أُناسٌ من الصحابةِ ـ رَضِيَ الله عنهم ـ يُحِبُّون أن يُواقعوا نساءهم في هذه الساعات، ليغتسلوا ثم يخرجُوا إلى الصلاةِ. فأمرهُم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان ألَّا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن[5].

وقال مقاتلُ بن حَيَّان: بَلَغنا ـ والله أعلم ـ أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماءَ بنتَ مُرْشدَة صَنَعا للنبي ـ ﷺ ـ طعاماً، فجعل الناس يدخلون بغير إذن. فقالت أسماءُ: يا رسولَ الله، ما أقبحَ هذا! إنه ليَدخُل على المرأة وزوجها، وهما في ثوب واحد غلامُهما بغير إذنٍ! فأنزل الله في ذلك: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لِيَستأذِنكُم الذين مَلَكت أيمانكم والذين لم يَبلُغوا الحلم منكم ثلاثَ مراتٍ ﴾. الآية[*].

ومما يَدُلّ على أنها مُحكمة لم تنسخ، قوله: ﴿ كذلك يُبيِّن الله لكم الآياتِ والله عليمٌ حكيمٌ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ وإذا بَلَغ الأطفالُ منكم الحُلُمَ فَلْيَستأذِنُوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴾، يعني إذا بلغ الأطفالُ الذين إنما كانُوا يستأذنون في العَورات الثلاث، إذا بَلَغوا الحلم وَجَب عليهم أن يستأذنوا على كُلِّ حال، يعني بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوالِ التي يكون الرجل [فيها] مع أهله، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث.

قال الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كَثير. إذا كان الغلامُ رَبَاعِياً فإنه يستأذنُ في العَوراتِ الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحُلُم فَلْيستأذِن على كُلِّ حالٍ. وهكذا قال سَعيد بن جُبير[*].

وقال في قولِهِ: ﴿ كما استأذَنَ الذينَ من قَبلِهِمْ ﴾، يعني: كما استأذنَ الكبارُ من وَلَدِ الرجل وأقاربه[*].

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٤٩

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، وكذلك الطبري ١٨/١٦٣

(٣) الحجال. جمع حجلة، وهي ساتر كالقُبَّة يُزيَّن بالثياب والستور للعروس. وستر يُضرب للعروس في جوف البيت

(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٤٩.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عند هذه الآية

وقولُه: ﴿ والقواعدُ من النساء ﴾، قال سعيد بن جُبَير، ومقاتلُ بن حَيَّان، وقتادةُ، والضحاكُ: هُنَّ اللواتي انقطع عنهنَّ الحيضُ ويَئِسْنَ من الولد، ﴿اللاتي لا يَرجُون نِكاحاً﴾، أي: لم يبقَ لهن تَشوُّفٌ إلى التزويج، ﴿ فليس عليهنَّ جناحٌ أن يضعن ثيابهنَّ غير متبرجاتٍ بزينةٍ ﴾، أي: ليس عليها من الحَجْرِ في التستر كما على غيرها من النساء.

قال أبو داود: حدَّثنا أحمدُ بن محمد المروَزيّ، حدثني علي بن الحُسَين بن واقد، عن أبيه، عن يزيدَ النحويِّ، عن عِكرِمَةَ، عن ابن عبَّاس: ﴿ وقُل للمؤمناتِ يَغضُضنَ من أبصارِهنَّ ﴾... الآية، فَنُسِخَ، واستُثنِيَ من ذلك: ﴿ القواعدُ من النساء اللاتي لا يَرجُون نكاحاً ﴾... الآية[1].

قال ابنُ مسعود: ﴿ فليس عليهنَّ جناحٌ أن يَضَعنَ ثِيابهنَّ ﴾، قال: الجِلْبابُ، أو الرِّداءُ[2]. وكذا رُوي عن ابن عباس، وابنِ عُمَر، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبَير، وأبي الشعثاءِ، وإبراهيمَ النَّخَعِيِّ، والحَسَنِ، وقتادةَ، والزهريِّ، والأوزاعيِّ، وغيرهم.

وقال أبو صالح: تَضَعُ الجلبابَ، وتقومُ بين يَدَي الرجُلِ في الدِّرْعِ والخِمَارِ[3].

وقال سعيد بن جُبَير وغيره، في قراءة عبد الله بن مسعُود: «أن يَضَعْنَ مِن ثِيابِهِنَّ»: وهو الجلبابُ من فوقِ الخِمَارِ، فلا بأس أن يَضَعن عند غريبٍ أو غيره، بعد أن يكون عليها خِمار صَفيق[4].

وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ غيرَ مُتَبرِّجاتٍ بزينةٍ ﴾، يقولُ: لا يتبرَّجن بوَضعِ الجلباب أن يُرَى ما عليها من الزينَة[4].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عُبَيد الله[5]، حدثنا ابنُ المبارك، حدثني سوار بن ميمون، حدثنا طلحةُ بنتُ عاصم[6]، عن أم المضاء[7]، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: دخلتُ عليها فقلتُ: يا أمَّ المؤمنين، ما تقولين في الخِضَاب، والنِّفَاض[8]، والصِّبَاغ، والقُرطين، والخَلْخَالِ، وخاتَمِ الذهب، وثِيابِ الرقاق؟ فقالت: يا معشر النساءِ، قِصَّتكنَّ كلُّها واحدةٌ، أحلَّ الله لكنَّ الزينةَ غيرَ مُتَبرِّجاتٍ. أي: لا يَحِلُّ لكنَّ أن يَرَوا منكنَّ مُحرَّما.

وقال السُّدِّي: كان شريكٌ لي يُقال له: مُسلِم، وكان مولىً لامرأةِ حُذَيفة بن اليمان، فجاء يوماً إلى السوقِ وأثر الحنّاء في يَدِه، فسألتُه عن ذلك، فأخبرني أنه خضَب رأس مولاته ـ وهي امرأة حُذَيفة ـ فأنكرتُ ذلك، فقال: إن شئتَ أدخلتُكَ عليها؟ فقلتُ: نعم. فأدخَلني عليها، فإذا امرأةٌ جليلةٌ، فقلتُ: إن مُسلِماً حَدَّثني أنه

---

(١) سنن أبي داود، كتاب اللباس ٤/٦٣

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والبيهقي في كتاب النكاح من سننه الكبرى ٧/٩٣، والطبري في تفسيره ١٨/١٦٦، والطبراني في المعجم الكبير ٩/٢٣٧

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره. ودرع المرأة: قميصُها.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.

(٥) في النسخ: عبدالله. والمثبت من تفسيره، والجرح ٩/٦٧.

(٦) في نسخة الحرم: حدثنا طلحة بن عاصم. ولم نجده.

(٧) في نسخة الحرم: وأم المصاص، عن عائشة. والمثبت من نسخة، وهو يوافق مخطوطة تفسير ابن أبي حاتم.

(٨) النفاض: إزار من أُزُر الصبيان.

خضَب رأسَكِ؟ فقالت: نعم، يا بُنيّ، إني من القواعد اللاتي لا يرجُون نكاحاً، وقد قال الله في ذلك ما سمعتَ[1].

وقولُه: ﴿ وأن يستعفِفنَ خيرٌ لهن ﴾، أي: وتركُ وضعهنَّ لثيابهنَّ، وإن كان جائزاً، خيرٌ وأفضلُ لهنّ، ﴿ والله سَمِيعٌ عليمٌ ﴾.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

اختلف المفسرون ـ رَحِمهم الله ـ في المعنى الذي رُفع من أجله الحرجُ عن الأعمى والأعرج والمريضِ هاهنا، فقال عطاءٌ الخراساني، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَم: يُقال نزلت في الجهاد. وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتي في سورة الفتح[2]، وتلك في الجهادِ لا محالةَ، أي: إنهم لا إثمَ عليهم في تَرك الجهادِ، لِضعفهم وعَجزهم، وكما قال تعالى في سورة براءة: ﴿ ليس على الضُّعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدُون ما يُنفِقون حَرَجٌ إذا نَصَحُوا لله ورسوله ما على المُحسنينَ من سَبيل والله غفور رحيم ﴾ وَلا على الذين إذا ما أتوك لِتحملهُم قلتَ لا أجدُ ما أحملكم عليه تولّوا وأعيُنهم تفيضُ من الدمع حزناً ألّا يجدُوا ما ينفقون﴾.

وقيل: المراد ههنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكلِ مع الأعمى، لأنه لا يَرى الطعام وما فيه من الطيِّبات، فربما سبقه غيرُه إلى ذلك، ولا مع الأعرجِ لأنه لا يَتمكّن من الجلوس فيفتاتُ[3] عليه جليسُه، والمريضِ لا يستوفي من الطعام كغيره. فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك. وهذا قول سَعيد بن جُبَير، ومِقْسَم.

وقال الضحاكُ: كانوا قبل المبعث يتحرّجون من الأكل مع هؤلاء تَقذُّراً وتقزّزاً، ولئلا يَتفضّلوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية.

وقال عبد الرزّاق: أخبرنا معمرٌ، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ في قوله تعالى: ﴿ ليس على الأعمى حَرَجٌ ﴾... الآية قال: كان الرجلُ يذهَبُ بالأعمى أو الأعرج أو المريضِ إلى بيتِ أبيه، أو بيتِ أخيه، أو بيتِ أخته، أو بيتِ عَمّته، أو بيت خالته. فكان الزّمنى يَتحرَّجون من ذلك، يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم[4]. فنزلت هذه الآية رخصةً لهم[5].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره. وابن أبي شيبة في مُصَنَّفه ٣٣٤/٢/٤ ـ ٣٣٥ بإسناده إلى السدّي، عن أبي مالك، عن ابن عبّاس.

(٢) هي الآية ١٧.

(٣) المراد: أنه يستبدّ جليسه بالطعام دونه، ويسبقه إليه.

(٤) في نسخة الحرم: إلى بيوت عشيرتهم.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ١٦٩/١٨

وقال السُّدِّي: كان الرجل يدخلُ بيتَ أبيه، أو أخيه أو ابنه، فتُتحِفه المرأةُ بالشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن ربَّ البيت ليس ثَمّ. فقال الله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرجٌ ولا على الأعرج حرجٌ ولا على المريض حَرَجٌ ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوتِ آبائكم﴾، إلى قوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ولا على أنفُسِكُم أن تَأكُلوا من بُيُوتِكُم﴾، إنما ذُكر هذا، وهو معلومٌ، ليعطفَ عليه غيره في اللفظ، وليُساوِيَ به ما بعدَه في الحُكم. وتَضمَّنَ هذا بيوتَ الأبناء، لأنه لم يَنُصَّ عليهم. ولهذا استدلَّ بهذا من ذَهَبَ إلى أنَّ مال الولدِ بمنزلة مال أبيه، وقد جاء في المسند والسُّنَن، من غير وجه، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «أنتَ ومالُك لأبيك»[1].

وقولُه: ﴿أو بيوتِ آبائكم أو بيوتِ أُمَّهاتكم﴾، إلى قوله: ﴿أو ما مَلَكتُم مَفَاتحه﴾، هذا ظاهرٌ. وقد يَستدِلُّ به من يُوجِب نَفَقه الأقارِب بعضِهم على بعضٍ، كما هو مذهبُ أبي حَنِيفة والإمامِ أحمدَ بن حَنبلٍ، في المشهور عنهما.

وأمّا قولُه: ﴿أو ما ملكتم مَفَاتِحَه﴾، فقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والسُّدِّي: هو خادمُ الرجلِ من عبدٍ وقَهْرَمانٍ[2]، فلا بأسَ أن يأكلَ مما استودَعه من الطعَام بالمعروف.

وقال الزُّهريُّ، عن عُروَةَ، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان المسلمُون يرغبُون في النَّفير[3] مع رسول الله ـ ﷺ ـ، فيدفعُون مفاتحهم إلى ضُمَنائهم[3]، ويقولون: قد أحْلَلنا لَكُم أن تأكلوا مِمَّا احتجتم إليه. فكانوا يقولون: إنه لا يحلُّ لنا أن نأكلَ؛ إنهم أذِنوا لنا عن غير طِيب أنفُسِهم، وإنما نحن أُمَناءُ. فأنزل الله: ﴿أو ما مَلَكتُم مَفَاتحه﴾[4].

وقولُه: ﴿أو صَديقكم﴾، أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جُناح عليكُم في الأكلِ منها إذا عَلِمتم أنَّ ذلك لا يَشُقّ عَلَيهم ولا يَكرَهُون ذلك.

وقال قتادةُ: إذا دخلت بيتَ صَديقك فلا بأسَ أن تأكل بغير إذنه.

وقولُه: ﴿ليسَ عَليكُم جُناحٌ أن تأكلُوا جميعاً أو أشتاتاً﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباسٍ في هذه الآية: وذلك لَمَّا أنزل الله: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تأكُلوا أموالَكُم بينكُم بالباطل﴾، قال المسلمُون: إن الله قد نَهانا أن نأكُل أموالَنا بيننا بالباطِل، والطعامُ هو أفضلُ الأموال، فلا يحلُّ لأحد منا أن يأكلَ عند أحدٍ. فَكفَّ الناسُ عن ذلك، فأنزل الله: ﴿ليس على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعرج حَرَجٌ﴾، إلى قوله: ﴿أو ما ملكتم مَفَاتحه أو صديقكم﴾، وكانوا أيضاً يأنفون ويتحرَّجُون أن يأكُلَ الرجُل الطعامَ وحدَه، حتى يكون مَعَه غيرُه، فرَخَّص الله لهم في ذلك، فقال: ﴿ليس عليكم جناحٌ أن تأكُلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾[5].

---

(١) مسند أحمد ١٧٩/٢، ٢٠٤، ٢١٤. وسنن أبي داود، كتاب البيوع ٢٨٩/٣، وسُنن ابن ماجه، كتاب التجارات ٧٦٩/٢، والبيهقيّ في كتاب النفقات من سُنَنه الكبرى ٤٨٠/٧ ـ ٤٨١.

(٢) القَهْرَمان: أمين الملك ووكيلُه الخاصّ بتدبير دَخْلِه وخَرْجه. والقَهْرَمانةُ: مُدَبِّرة البيت ومتولِّية شئونه.

(٣) النفير: قيام عامة الناس لقتال العدو. والضُّمَناء: جمع ضمين، وهو الذي يلتزم أن يؤدي عنك ما قد تقصر في أدائه.

(٤) أخرجه البزار في مسنده بإسناده إلى الزهريّ، كشفُ الأستار عن زوائد البزار، تفسيرُ سُورَةِ النُّور ٦١/٣ ـ ٦٢. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨٤/٧: «رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ١٦٨/١٨.

وقال قتادة: كانَ هذا الحيُّ من بني كنانة يرى أحدُهم أن محرَّمًا عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجلُ لَيَسُوق الذَّودَ الحُفَّل وهو جائعٌ حتى يجد من يؤاكله ويُشاربه، فأنزل الله: ﴿ ليس عليكم جناحٌ أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾(١).

فهذه رخصةٌ من الله تعالى في أن يأكلَ الرجلُ وحدَه، ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضلَ وأبركَ، كما رواهُ الإمامُ أحمدُ:

حدثنا يزيدُ بن عبدِ ربِّه، حدثنا الوليدُ بن مسلم، عن وحشيِّ بن حَرْب، عن أبيه، عن جدِّه: أنَّ رجلاً قال للنبيِّ ـ ﷺ ـ: إنا نأكلُ ولا نشبع؟! قال: «فلعلَّكم تأكلون متفرِّقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله، يُبارَكْ لكم فيه»(٢). ورواه أبو داود وابنُ ماجه، من حديث الوليد بن مُسلم(٢)، به

وقد رَوَى ابنُ ماجه أيضاً، من حديث عمرو بن دينار القَهْرماني، عن سالم، عن أبيه، عن عُمَر، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «كُلُوا جميعاً ولا تفرَّقوا؛ فإنَّ البركة مع الجَماعة»(٢).

وقولُه: ﴿ فإذا دَخلتُم بيوتاً فَسَلِّموا على أنفُسِكم ﴾، قال سعيد بن جُبَير، والحسن البصري، وقتادةُ، والزهريُّ: فَلْيُسَلِّم بعضُكم على بعض.

وقال ابنُ جريج: أخبرني أبو الزُّبَير: سمعتُ جابرَ بن عبد الله يقول: إذا دخلتَ على أهلك فسلِّم عليهم تحيةً من عند الله مباركةً طيبةً. قال: ما رأيته إلا يُوجِبه(٣).

قال ابن جريج: وأخبرني زياد، عن ابن طاوسَ أنه كان يقول: إذا دخلَ أحدكم بيته فَلْيُسَلِّم(٣).

قال ابن جُرَيج: قلتُ لعطاء: أواجبٌ إذا خرجتُ ثم دَخلتُ أن أُسَلِّم عليهم؟ قال: لا، ولا آثِرُ وجوبه عن أحد، ولكن هو أحبُّ إليَّ، وما أدعه إلا ناسياً(٣).

وقال مجاهد: إذا دخلتَ المسجد فقل: السلامُ على رسولِ الله. وإذا دَخلت على أهلك فسلِّم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحدٌ فقل: السلامُ علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وروى الثوريّ، عن عبد الكريم الجَزَريّ، عن مجاهد: إذا دخلتَ بيتاً ليس فيه أحد فقل: بسم الله، والحمدُ لله، السلام علينا من رَبِّنا، السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين(٤).

وقال قتادةُ: إذا دخلتَ على أهلك فَسلِّم عليهم، وإذا دخلتَ بيتاً ليس فيه أحد، فقل: السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين. فإنه كان يؤمر بذلك، وحُدِّثنا أن الملائكةَ تَرُدُّ عليه.

وقال الحافظُ أبو بكر البزَّار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عُبَيْدُ بن أبي عمران الحَوْفي، عن أبيه، عن أنس قال: أوصاني النبيِّ ـ ﷺ ـ بخمس خصال، قال: «يا أنس، أسبغ الوضوء يُزَد في عمرك. وسلِّم على من لقيك من أمتي تَكْثُر حسناتك. وإذا دخلت ـ يعني بيتك ـ فسلم على أهل بيتك، يكثر خير بيتك. وصلِّ صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك. يا أنس، ارحم الصغير، ووقِّر الكبير، تَكُنْ من رفقائي يوم القيامة»

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره. والذَّوْد: القطيع من الإبل من الثلاث إلى العشر. والحُفَّل: جمع حافل، وهو الضرع الممتلئ لبناً، وكأنه أطلق على الناقة توسُّعاً

(٢) مسند أحمد ٥٠١/٣، وأخرجاه في كتاب الأطعمة، أبو داود ٣٤٦/٣، وابن ماجه ١٠٩٣/٢

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧٣/١٨

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، وابن أبي شيبة في كتاب الأدب من مصنفه ٤٩١/٨

وقولُه: ﴿ تحيةً من عندِ الله مباركةً طيبةً ﴾، قال محمدُ بن إسحاق: حدثني داودُ بن الحُصَين، عن عكرمَة، عن ابن عبَّاس أنه كان يقول: ما أخذتُ التشهُّدَ إلا من كتابِ الله، سَمِعتُ الله يقولُ: ﴿ فإذا دخلتُم بيوتاً فسلِّموا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركة طيبة ﴾، فالتشهد في الصلاة: التحياتُ المباركاتُ الصلواتُ الطيباتُ لله، أشهد أن لا إلَه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، السلام عليكَ أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. ثم يدعو لنفسه ويسلم.

هكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث ابن إسحاقَ. والذي في صَحيح مسلم، عن ابن عباس، عن رسول الله ـ ﷺ ـ يخالف هذا[1]، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ كذلكَ يُبيِّن الله لكم الآياتِ لعَلَّكم تَعقِلُونَ ﴾، لما ذكر تعالى ما في هذه السورة الكريمةِ من الأحكام المُحكَمة، والشرائع المُتقَنة المُبرَمة نَبَّه تعالى على أنه يُبيِّن لعباده الآياتِ بَياناً شافياً، لِيتدبَّرُوها ويَعقِلُوها.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

وهذا أيضاً أدَبٌ أرشدَ الله عبادَه المؤمنين إليه، فكما أمَرَهُم بالاستئذان عند الدُخولِ، كذلك أمَرهم بالاستئذان عند الانصراف، لا سِيَّما إذا كانُوا في أمرٍ جامع مع الرسول ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ من صلاةِ جُمُعة أو عيدٍ أو جَمَاعةٍ، أو اجتماعٍ لمشورةٍ ونحوِ ذلك، أمرَهم الله تعالى ألاّ يَنصرِفُوا عنه ـ والحالةُ هذه ـ إلا بعد استئذانِه ومشاورته. وإن من يفعلُ ذلك فهُو من المؤمنين الكاملين.

ثم أمر رسولَه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ إذا استأذنه أحدٌ منهم في ذلك أن يأذَن له، إن شاء، ولهذا قال: ﴿ فَأْذَن لِمَن شِئتَ مِنهُم واستغفِرْ لهم الله إنَّ الله غفورٌ رَحِيمٌ ﴾.

وقد قال أبو داودَ: حدثنا أحمد بن حَنْبَلٍ ومُسَدَّد قالا: حدثنا بِشر ـ هو ابن المُفَضَّل ـ عن ابن عَجلان، عن سعيد المقبُري، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا انتهى أحدُكم إلى المجلسِ فَلْيُسَلِّم، فإذا أراد أن يَقُومَ فليُسلِّم، فليستِ الأولى بأحقَّ من الآخرة»[2].

وهكذا رواه الترمذيُّ والنَّسائيُّ، من حديث مُحمد بن عَجلان، به. وقال الترمذيُّ: حسن[2].

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

قال الضحاكُ، عن ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمدُ، يا أبا القاسم. فنهاهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن

---

(١) انظر حديث التشهد المروي عن ابن عباس في صحيح مسلم، كتاب الصلاة ١/٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣٥٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الاستئذان ١٠/١٧٧، وأخرجه النسائي في اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف للمزي ٩/٤٩٢ ـ ٤٩٣.

ذلك، إعظاماً لنبيه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ قال: فقالُوا. يا رسولَ الله، يا نبي الله[1]. وهكذا قال مجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير.

وقال قتادةُ: أمر الله أن يُهابَ نَبِيُّه ـ ﷺ ـ وأن يُبَجَّل وأن يُعَظَّم وأن يُسَوَّد.

وقال مُقاتِل بن حَيَّانَ في قوله: ﴿لا تَجعلُوا دعاءَ الرسولِ بينكم كدُعاءِ بعضِكم بعضاً﴾، يقول: لا تُسَمُّوه إذا دَعَوتموه «يا محمدُ»، ولا تقولوا: يا ابنَ عبدِ الله. ولكن شَرِّفوه فقُولوا: «يا نبيَّ الله»، «يا رسولَ الله»[1].

وقال مالكٌ، عن زيدِ بن أسلَمَ في قوله: ﴿لا تجعلُوا دعاءَ الرسولِ بينَكم كدُعاءِ بعضِكم بعضاً﴾، قال: أمرهُم الله أن يُشرِّفوه.

هذا قول، وهو الظاهرُ من السياق، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظُرنا واسمعوا﴾، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لا ترفَعُوا أصواتَكم فوقَ صوت النبيِّ ولا تجهَرُوا له بالقول كَجهرِ بَعضِكم لبعضٍ أن تحبطَ أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ إلى قوله: ﴿إن الذين ينادُونك من وراءِ الحُجُرات أكثرُهم لا يعقلون ۝ ولو أنهم صَبَرُوا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾.

فهذا كلُّه من بابِ الآدابِ في مُخاطبةِ النبي ـ ﷺ ـ والكلامِ مَعَه وعندَه، كما أُمِرُوا بتقديم الصَّدَقةِ قبل مُناجاته.

والقولُ الثاني في ذلك أن المعنى في: ﴿لا تجعلُوا دعاءَ الرسولِ بينكم كدُعاءِ بعضِكم بعضاً﴾، أي: لا تعتَقِدُوا أن دعاءَه على غيره كدُعاء غيره، فإنَّ دعاءه مستجاب، فاحذرُوا أن يدعُو عليكُم فتَهلِكوا. حكاه ابنُ أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسنِ البصريِّ، وعَطيةَ العَوفي. والله أعلم.

وقولُه: ﴿قد يعلَمُ الله الذينَ يتسلَّلُون منكم لِواذاً﴾ قال مقاتل بن حَيَّان: هم المنافقونَ، كان يثقلُ عليهم الحديثُ في يوم الجمعة ـ ويعني بالحديثِ الخطبةَ ـ فيلوذُون ببعضِ الصحابة ـ أصحابِ محمدٍ ـ ﷺ ـ حتى يخرجُوا من المسجد، وكان لا يَصلُح للرجل أن يخرجَ من المسجد إلا بإذنٍ من النبي ـ ﷺ ـ في يوم الجمعة، بعد ما يأخذ في الخطبة. وكان إذا أرادَ أحدُهم الخروجَ أشارَ بإصبعه إلى النبي ـ ﷺ ـ فيأذَن له من غير أن يَتكلَّم الرجلُ؛ لأنَّ الرجلَ منهم كان إذا تَكلَّم والنبيُّ ـ ﷺ ـ يخطُب، بطلَتْ جُمعتُه.

وقال السديُّ: كانوا إذا كانوا مَعَه في جماعةٍ لاذَ بعضُهم ببعضٍ، حتى يتغيَّبوا عنه، فلا يراهُم.

وقال قتادةُ في قوله: ﴿قد يعلَمُ الله الذين يَتسلَّلُون منكم لواذاً﴾، يعني: لِواذاً عن نبي الله وعن كتابه.

وقال سفيانُ: ﴿قد يعلَمُ الله الذين يَتسلَّلُون منكم لِواذاً﴾، قال: من الصفِّ. وقال مجاهد: ﴿قد يعلم الله الَّذين يَتسلَّلُون منكم لِواذاً﴾، قال: خلافاً.

وقولُه: ﴿فليحذَرِ الذين يُخالِفُون عن أمره﴾، أي: عن أمرِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو سبيلُه ومِنهاجُه وطريقتُه وشريعتُه، فتُوزَنُ الأقوالُ والأعمالُ بأقواله وأعمالِه، فما وافقَ ذلك قُبِلَ، وما خالفه فهو مَرْدُود على قائِله وفاعِله، كائناً ما كانَ، كما ثَبَت في الصَّحِيحَين وغيرهما، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «من عَمِل عَمَلاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ»[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١١٢ من سورة البقرة، ٣٢، ٨٥ من سورة آل عمران، وخرّجته هناك. ورَدٌّ: مَرْدُودة

أي: فَلْيحذر ولْيخشَ من خالف شريعةَ الرسول باطناً أو ظاهراً ﴿ أن تُصيبَهُم فتنةٌ ﴾، أي: في قلوبهم، من كُفرٍ أو نفاقٍ أو بِدْعةٍ، ﴿ أو يُصيبَهُم عذابٌ أليم ﴾، أي: في الدنيا، بقتل أو حَدٍّ أو حَبْسٍ أو نحو ذلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزّاق، حدثنا مَعمرٌ، عن همّام بن مُنبِّه قال: هذا ما حَدَّثنا أبو هُرَيرةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مثلي ومثلُكم كمَثَلِ رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدوابُّ اللاتي يَقَعن في النار يَقَعن فيها، وجَعل يَحجزهُنَّ ويغلِبنَه فيَتقَحَّمن فيها. قال: فذلك مثلي ومثلُكم، أنا آخذ بحُجَزكم عن النار: هَلُمَّ عن النار. فتَغلِبوني فيها»[1]. أخرجاه من حديث عبد الرزاق[1].

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى أنه مَالِكُ السمواتِ والأرضِ، وهو عَالِم غيب السموات والأرض، وهو عالم بما العباد عامِلُون في سِرِّهم وجَهرهم، فقال: ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾، و«قد» للتحقيق، كما قال قبلها: ﴿ قد يعلم الله الذين يتسلَّلون منكم لواذاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ قد يَعلَمُ الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إلينا ﴾. وقال تعالى: ﴿ قَد سَمِعَ الله قول التي تُجادِلُك في زوجها وتَشتكي إلى الله والله يَسمَعُ تَحاوُرَكما إن الله سميع بصير ﴾. وقال: ﴿ قد نَعلم إنه لَيحزُنك الذي يقولون فإنهم لا يُكذِّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحَدُون ﴾. وقال: ﴿ قد نرى تقلب وجْهِكَ في السماء فَلنُوَلِّينَّك قِبلةً ترضاها ﴾. فَكُلُّ هذه الآياتِ فيها تحقيقُ الفعلِ بقد، كما يقولُ المؤذن تحقيقاً وثبوتاً: «قد قامت الصلاة. قد قامت الصلاة». فقوله تعالى: ﴿ قد يَعلمُ ما أنتم عليه ﴾ أي: هو عالِمٌ به، مُشاهِدٌ له، لا يعزُب عنه مثقالُ ذرّةٍ، كما قال تعالى: ﴿ وتوكل على العزيزِ الرحيم * الذي يَراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين * إنه هو السميع العليم ﴾. وقال: ﴿وما تكون في شأنٍ وما تتلومنه من قرآن ولا تعملُون من عمل إلّا كنّا عليكم شُهُودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا في كتابٍ مبين﴾. وقال تعالى: ﴿أفمن هو قائمٌ على كُلِّ نفسٍ بما كسَبَت ﴾، أي: هو شهيدٌ على عباده بما هُم فاعلون من خير وشر. وقال تعالى: ﴿ ألا حِينَ يستغشُون ثيابهم يعلَمُ ما يُسِرُّون وما يُعلِنُون إنه عليمٌ بذات الصُّدُور ﴾. وقال تعالى: ﴿ سواءٌ منكم من أسرَّ القولَ ومن جَهَر به ومن هو مُستخفٍ بالليلِ وساربٌ بالنهار ﴾. وقال تعالى: ﴿ وما من دابّةٍ في الأرض إلا على الله رِزقُها ويعلَمُ مُستقرَّها ومُستودَعَها كُلٌّ في كتاب مُبينٍ ﴾، وقال: ﴿ وعنده مَفَاتح الغيبِ لا يَعلَمُها إلا هو ويعلَمُ ما في البَرِّ والبحرِ وما تَسقُط من ورقة إلا يَعلَمُها ولا حَبَّةٍ في ظلماتِ الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتاب مبين ﴾. والآياتُ والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ جداً.

وقوله: ﴿ ويومَ يُرجَعُون إليه ﴾، أي: ويومَ ترجع الخلائق إلى الله ـ وهو يومُ القيامة ـ ﴿ فينبئهم بما عمِلوا ﴾، أي: يُخبرهُم بما فعلوا في الدنيا، من جليلٍ وحقيرٍ، وصغيرٍ وكبيرٍ، كما قال تعالى: ﴿ يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذ بما قدَّم وأخر ﴾. وقال: ﴿ ووُضِع الكتابُ فَترى المجرمينَ مُشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مَالِ هذا الكتاب لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووَجدُوا ما عَمِلوا حاضراً ولا يَظلِم رَبُّكَ أحداً ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿ ويوم يُرجَعُون إليه فيُنبِّئُهم بما عملوا والله بكل شيء عَليمٌ ﴾.

• • •

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٧ من سورة الرعد، وخرّجته هنالك.

تفسير

سورة الفرقان

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ① الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ② ﴾

يقولُ تعالى حامداً نفسَه الكريمةَ على ما نَزَّله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. قَيِّماً لِيُنذِرَ بأساً شديداً من لدنه ويبشِّر المؤمنين الذين يعمَلُون الصالحات أنّ لهم أجراً حسناً. ماكثين فيه أبداً﴾. وقال هاهنا: ﴿ تَبارك ﴾، وهو تفاعل من البركة المستقرة الدائمة الثابتة ﴿ الذي نَزَّل الفُرقان ﴾، نَزَّل: فَعَّل، من التكرر والتكثر، كما قال: ﴿ والكتابِ الذي نَزَّل على رسوله والكتابِ الذي أَنْزَلَ من قبلُ ﴾؛ لأن الكتب المتقدّمة كانت تنزلُ جملةً واحدة، والقرآن نَزَل منجَّماً مُفَرَّقاً مفصَّلا، آياتٍ بعد آياتٍ، وأحكاماً بعد أحكامٍ، وسُوراً بعد سُوَرٍ. وهذا أبلغُ وأشدُّ اعتناءً بمن أُنزل عليه، كما قال في أثناء هذه السورة: ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لِنُثَبِّت به فُؤادَكَ ورتَّلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمَثَلٍ إلا جئناكَ بالحقّ وأحسن تفسيراً ﴾. ولهذا سماه هاهنا الفُرقان؛ لأنه يَفرِق بين الحقِّ والباطلِ، والهُدَى والضَّلالِ، والغَيِّ والرشادِ، والحلالِ والحرامِ.

وقولُه: ﴿ على عبده ﴾، هذه صفةُ مدحٍ وثناءٍ، لأنه أضافه إلى عُبُوديَّته، كما وَصَفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿ سُبحانَ الذي أسرَى بعبده ليلاً ﴾، وكما وَصَفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿ وأنه لما قام عبدُ الله يدعُوه كادوا يكونُون عليه لِبَداً ﴾. وكذلك وَصَفه عند إنزالِ الكتاب عليه ونُزُول المَلَك إليه، فقال: ﴿ تبارك الذي نَزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾.

وقولُه: ﴿ ليكونَ للعالمين نَذيراً ﴾، أي: إنما خَصَّه بهذا الكتاب العظيم المُبيِّن المفصَّل المُحكمِ الذي ﴿ لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيه ولا من خَلْفِه تنزيلٌ من حَكيم حميدٍ ﴾، الذي جعَله فُرقاناً عظيماً، إنما خَصَّه به

ليخصَّه بالرسالة إلى من يَستظِلُّ بالخَضراءِ، أو يَستقِلُّ بالغبراءِ، كما قال ـ صَلَواتُ الله وسلامُه عليه ـ: «بُعثتُ إلى الأحمر والأسود»(1). وقال: «أُعطيتُ خمساً لم يُعطَهنَّ أحدٌ مِنَ الأنبياءِ قَبلي»، فذكر منهن: أنّه «كان النبيُّ يُبعَثُ إلى قومِه، وبُعِثتُ إلى الناسِ عامةً»(2). وقال الله تعالى: ﴿ قل يا أيها الناسُ إني رسولُ الله إليكُم جميعاً الذي له ملكُ السمواتِ والأرضِ لا إله إلا هو يُحيي ويُميتُ ﴾، أي: الذي أرسلني هو مالكُ السمواتِ والأرضِ، الذي يقولُ للشيءِ كُن فيكونُ. وهو الذي يُحيي ويُميت، وهكذا قال هاهنا: ﴿ الذي له ملكُ السمواتِ والأرضِ ولم يتخذ ولداً ولم يكُن له شريكٌ في المُلك ﴾، فنزّه نفسه عن الولَدِ، وعن الشريكِ.

ثم أخبر أنه ﴿ خلَق كُلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً ﴾، أي: كُلُّ شيءٍ مما سِواه مخلوقٌ مربوبٌ، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومليكُه وإلهُه، وكلُّ شيءٍ تحتَ قَهرِه وتسخيره، وتدبيره وتقديره.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى عن جَهلِ المشركين في اتِّخاذهم آلهةً من دُونِ الله، الخالِقِ لكلِّ شيءٍ، المالكِ لأزمَّةِ الأمورِ، الذي ما شاء كانَ وما لم يَشأ لم يكُن، ومع هذا عَبَدُوا مَعَه من الأصنامِ ما لا يَقدِر على خَلقِ جناحِ بَعوضةٍ، بل هُم مخلوقون، ولا يَملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف يَملكون لعابديهم؟! ﴿ ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ﴾، أي: ليس إليهم من ذلك شيءٌ، بل ذلك مرجعُه كلُّه إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهو الذي هو يُحيي ويُميت، وهو الذي يُعيد الخلائقَ يوم القيامةِ أوّلهم وآخرهم، ﴿ ما خلْقُكم ولا بعثُكم إلا كنَفسٍ واحدةٍ ﴾، ﴿ وما أمرُنا إلا واحدةٌ كلَمحٍ بالبَصرِ ﴾، ﴿ فإنما هي زجرةٌ واحدةٌ * فإذا هُم بالساهِرَة ﴾، ﴿ فإنما هي زجرةٌ واحدةٌ فإذا هم ينظُرون ﴾، ﴿ إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هُم جميعٌ لدينا مُحضَرون ﴾. فهو الله الذي لا إله غيرُه ولا ربَّ سِواه، ولا تَنبغي العبادةُ إلا له، لأنه ما شاء كانَ وما لم يَشأ لم يكن. وهو الذي لا وَلَد له ولا والِدَ، ولا عديلَ ولا نَديدَ(3)، ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحدُ الصَّمدُ، الذي لم يلِد ولم يُولد، ولم يكُن له كُفُواً أحدٌ.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ افْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن سَخافةِ عُقولِ الجَهلةِ من الكُفّار، في قولهم عن القرآن: ﴿ إن هذا إلا إفكٌ ﴾، أي: كَذِبٌ، ﴿ افتراه ﴾، يعنون محمداً النبي ـ ﷺ ـ ﴿ وأعانه عليه قومٌ آخرون ﴾، أي: واستعان على جَمعه بقومٍ آخرين قال الله تعالى: ﴿ فقد جاءُوا ظلماً وزوراً ﴾، أي: فقد افتَرَوا هم قَولاً باطلاً، وهُم يعلمون أنه باطلٌ، ويعرفُونَ كَذِبَ أنفسِهم فيما يزعمُون.

(1) تقدم الحديث عند الآية ٢٠ من سورة آل عمران، وخرّجته هنالك.

(2) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٥١ من سورة آل عمران، ٤٣ من سورة النساء، ٩٢ من سورة الأنعام، ١٥٨ من سورة الأعراف، ١، ٦٧ من سورة الأنفال، ٤ من سورة إبراهيم. وخرّجته هنالك.

(3) النديدُ: المثيلُ والشبيه، مثلُ: النِّدُّ، والنَّديدة.

﴿ وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها ﴾، يعنون كتبَ الأوائلِ استنسخها، ﴿ فهي تُملى عليه ﴾، أي: تُقرأ عليه ﴿ بُكرةً وأصيلا ﴾، أي: في أوّلِ النهار وآخره.

وهذا الكلامُ ـ لسخافته وكَذِبه وبَهْتِه منهم ـ كلُّ أحد يعلم بطلانه، فإنه قد عُلِمَ بالتواتر وبالضَّرورة: أن محمداً رسولَ الله لم يكُنْ يُعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عُمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أوّلِ مَولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يَعرفون مدخله ومخرجه، وصِدْقه وبِرَّه وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يُسمُّونه في صِغره إلى أن بُعث إلا الأمينَ، لما يَعلمون من صدقه وبِرِّه. فلما أكرَمه الله بما أكرَمَه به، نَصَبُوا له العداوةَ، ورَمَوْه بهذه الأقوالِ التي يعلَم كلُّ عاقِل براءته منها، وحاروا ماذا يَقذِفُونه به، فتارةً من إفكهم يقولُون: ساحرٌ، وتارةً يقولُون: شاعرٌ، وتارةً يقولون: مجنونٌ، وتارةً يقولونَ: كذابٌ، قال الله تعالى: ﴿ انظر كيف ضَرَبُوا لك الأمثالَ فضلُّوا فلا يستطيعونَ سبيلاً ﴾.

وقال تعالى في جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا: ﴿ قُلْ أنزله الذي يعلم السرَّ في السموات والأرض ﴾، أي. أنزَل القرآنَ المشتملَ على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج، ماضياً ومستقبلاً، ﴿ أنزله الذي يعلَم السرَّ ﴾، أي: الله الذي يعلَم غيبَ السمواتِ والأرضِ، ويعلَم السرائر كعِلْمِه بالظواهر.

وقولُه: ﴿ إنه كان غفُوراً رَحيماً ﴾، دعاءٌ لهم إلى التوبةِ والإنابةِ، وإخبارٌ بأن رَحمتَه واسعةٌ، وأنَّ حِلْمَه عظيمٌ، وأن من تاب إليه تابَ عليه. فهؤلاء مع كَذِبهم وافترائهم وفُجُورهم وبَهْتهم وكُفرهم وعِنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعُوهم إلى التوبةِ والإقلاعِ عما هُم فيه إلى الإسلام والهُدى، كما قال تعالى: ﴿ لقد كَفَرَ الذين قالوا إن اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ وما من إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ وإن لم ينتهُوا عما يقولون ليمسَّنَّ الذين كفَرُوا منهم عذابٌ أليم * أفلا يتُوبون إلى الله ويَستغفرونه والله غفورٌ رحيمٌ ﴾. وقال تعالى: ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمناتِ ثم لم يتُوبوا فلهُم عذابُ جهنَّم ولهم عذابُ الحريقِ ﴾. قال الحسن البصري: انظرُوا إلى هذا الكَرَم والجُود، قتَلُوا أولياءه وهو يدعُوهم إلى التوبةِ والرحمةِ!

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا
(٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا
(٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا
مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا
(١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا
(١٣) لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) ﴾

يُخبر تعالى عن تعنُّت الكُفّار وعِنادهم، وتكذيبهم للحقّ بلا حُجّة ولا دليلٍ منهم، وإنما تعلّلُوا بقولهم: ﴿ مالِ هذا الرسول يأكُل الطعام ﴾، يعنون كما نأكله، ويحتاجُ إليه كما نحتاجُ إليه، ﴿ ويمشي في الأسواق ﴾، أي: يتردَّد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة، ﴿ لولا أُنزل إليه ملكٌ فيكونَ معه نذيراً ﴾، يقولون: هلا أُنزِلَ إليه مَلَكٌ من عند الله فيكونَ له شاهداً على صِدْقِ ما يدَّعيه! وهذا كما قال فرعونُ. ﴿ فلولا أُلقي عليه أسْورةٌ من ذهبٍ أو جاء معه الملائكةُ مُقترنين ﴾. وكذلك قال هؤلاء على السَّواء، تشابهت قلوبُهم، ولهذا قال. ﴿ أو

يُلقى إليه كنزٌ ﴾، أي: عِلْمُ كنزٍ يُنفق منه، ﴿ أو تكون له جَنّةٌ يأكلُ منها ﴾، أي: تسير معه حيث سار. وهذا كلُّه سهلٌ يَسيرٌ على الله، ولكن له الحكمةُ في تَرْكِ ذلك، وله الحجةُ البالغةُ. ﴿ وقال الظالمون إن تتّبعون إلا رجلاً مَسْحُوراً ﴾. قال الله تعالى: ﴿ انظر كيف ضَرَبُوا لك الأمثال ﴾، أي: جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم ساحرٌ، مسحورٌ، مجنونٌ، كذابٌ، شاعرٌ. وكلُّها أقوالٌ باطلةٌ، كلُّ أحدٍ ممَّن له أدنى فهمٍ وعقلٍ يعرفُ كَذِبهم وافتراءَهم في ذلك، ولهذا قال: ﴿ فَضَلُّوا ﴾، أي: عن طريق الهُدَى، ﴿ فلا يَستطيعُون سَبيلا ﴾، وذلك لأن كلَّ مَن خَرَج عن الحقِّ فإنه ضالٌّ حيثما تَوَجَّه، لأن الحقَّ واحدٌ ومنهجٌ مُتّحِدٌ، يُصَدِّقُ بعضُه بعضاً.

ثم قال تعالى مخبراً نَبيَّه أنه لو شاءَ لآتاهُ خيراً مما يقولُون في الدنيا وأفضلَ وأحسنَ، فقال: ﴿ تبارك الذي إن شاء جَعَل لك خيراً من ذلك جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ويَجعَل لك قُصُوراً ﴾.

قال مجاهد: يعني في الدنيا، قال: وقريشٌ يُسمُّون كُلَّ بيتٍ من حجارةٍ قصراً سَوَاءٌ كان كَبيراً أو صغيراً[(١)].

وقال سفيانُ الثوريُّ، عن حَبيب بن أبي ثابت، عن خَيثَمةَ؛ قيل للنبي ـ ﷺ ـ: إن شِئْتَ أن نُعطيكَ خزائنَ الأرضِ ومفاتيحَها ما لم يُعطَ نَبِيٌّ قبلك، ولا يُعطى أحدٌ من بعدك، ولا يَنقصُ ذلك مما لك عند الله؟ فقال اجمعُوها لي في الآخرة. فأنزل الله في ذلك: ﴿ تبارك الذي إن شاءَ جَعَل لك خيراً من ذلك جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ويَجعل لك قُصُورا ﴾[(٢)].

وقولُه: ﴿ بل كذَّبُوا بالساعةِ ﴾، أي: إنما يقولُ هؤلاءِ هكذا تكذيباً وعناداً، لا أنهُم يطلبُون ذلك تَبصُّراً واسترشاداً، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملُهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال، ﴿ وأعتدنا ﴾، أي: وأرْصَدنا ﴿ لمن كَذَّب بالساعة سَعِيراً ﴾، أي: عذاباً أليماً حارّاً لا يُطاقُ في نارِ جَهَنَّم.

وقال الثوريُّ، عن سَلَمة بنِ كُهَيلٍ، عن سَعيد بن جُبَير: ﴿ السَّعِيرُ ﴾: وادٍ من قَيحِ جَهَنَّم[(٣)].

وقولُه: ﴿ إذا رأتهم ﴾، أي: جَهَنَّم ﴿ من مكانٍ بعيدٍ ﴾، يعني: في مقام المحشر. قال السُّدّي: من مسيرةِ مائة عام[(٣)]، ﴿ سَمِعوا لها تغيظاً وَزَفيراً ﴾، أي: حَنَقاً عليهم، كما قال تعالى: ﴿ إذا أُلقُوا فيها سَمِعُوا لها شهيقاً وهي تَفُور * تكاد تَميَّزُ من الغيظِ ﴾، أي: يكاد ينفصِلُ بعضها من بعض، من شِدَّة غيظِها على مَن كفر بالله.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا إدريس بن حاتم بن الأحنفِ الواسِطي: أنه سمع محمد بن الحسن الواسِطيّ، عن أصبغ بن زيد، عن خالد بن كثير، عن خالد بن دُرَيك، عن رَجُلٍ من أصحاب النبي قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: من يَقُل عليَّ ما لم أَقُل، أو ادَّعى إلى غير والِدَيه، أو انتمى إلى غير مَواليه فَلْيتبوَّأ بين عَيْنَي جَهَنَّم مقعداً. قيل: يا رسولَ الله، وهل لها من عَيْنَين؟ قال: أما سمعتُم الله يقول: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾[(٤)]... الآية.

ورواه ابن جرير، عن محمود بن خِدَاش، عن محمد بن يزيدَ الواسطي، به[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري في تفسيرهما. انظر الطبري ١٨/١٨٦.

(٢) أخرجه الطبري ١٨/١٨٦، وابن أبي حاتم في تفسيره، وابن المنذر، وابن أبي شيبة، وغير واحد. انظر الدر المنثور ٦/٢٣٨.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، والطبري ١٨/١٨٧.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسيُّ، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عيسى بن سُليم، عن أبي وائل قال: خرجنا مع عبد الله ـ يعني ابنَ مسعود ـ ومعنا الربيع بن خثيم فمروا على حدّاد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، ونظر الربيعُ بن خُثَيم إليها فتمايل ليسقط، فمر عبد الله على أتون[1] على شاطىء الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، فصَعِقَ ـ يعني الربيع بن خُثَيم ـ فحملوه إلى أهل بيته، ورابطه عبد الله إلى الظهر، فلم يُفِقْ رضي الله عنه.

وحدثنا أبي: حدثنا عبدُ الله بن رَجَاء، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي يحيى، عن مجاهد، عن ابن عبّاس قال: إنّ العبدَ ليُجَرُّ إلى النار، فَتَشهَقُ إليه شهقةَ البغلةِ إلى الشعير، ثم تَزْفِر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا خاف[2].

هكذا رَوَاه ابنُ أبي حاتمٍ مختصراً، وَقد رواه الإمامُ أبو جعفرٍ بنِ جَرير:

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّورقي، حدثنا عُبَيد الله بن مُوسى، أخبرنا إسرائيلُ، عن أبي يحيى، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس قال: إن الرجل لَيُجَرُّ إلى النار فَتَنزوي وتَنْقَبِض بعضُها إلى بعض، فيقول لها الرحمنُ: ما لك؟ قال: إنه يستجيرُ منِّي. فيقولُ: أرسلُوا عَبدي. وإن الرجلَ ليُجَرّ إلى النار، فيقول: يا ربِّ، ما كان هذا الظنُّ بك؟ فيقول: فما كان ظَنُّك؟ فيقول: أن تَسَعني رَحمتُك. فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل لَيُجَرّ إلى النار، فتشهَقُ إليه النار شهُوقَ البغلةِ إلى الشَّعير، وتزفِر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا خاف. وهذا إسناد صحيح[2].

وقال عبد الرَّزاق: أخبرنا معمرٌ، عن منصور، عن مجاهد، عن عُبَيد بن عُمَير في قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، قال: إن جَهنَّم تزفِرُ زفرةً، لا يَبقَى مَلَكٌ ولا نَبِيٌّ إلا خرَّ تُرْعَدُ فرائصُه، حتى إنّ إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ لَيَجثُوا على رُكبَتَيه ويقول: رب، لا أسألك اليومَ إلا نفسي[3].

وقولُه: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا ﴾، قال قتادةُ، عن أبي أيُّوبَ، عن عَبدِ الله بن عَمرو قال: مثل الزُّجِّ في الرُّمحِ[4]. أي: من ضيقه.

وقال عبدُ الله بن وهب: أخبرني نافع بن يزيد، عن يحيى بن أبي أسيد ـ يرفع الحديثَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أنه سُئِل عن قول الله: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾، قال: «والَّذي نفسي بِيَدِهِ إنهم لَيُستكرَهُون في النار كما يُستَكرَهُ الوتدُ في الحائط»[4].

وقولُه: ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾، قال أبو صالح: يعني مُكَتَّفِينَ[4]. ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾، أي: بالويل والحسرة والخيبة ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾.

قال الإمام أحمدُ: حدثنا عفّان، حدثنا حَمّاد بن سلمة، عن علي بن يزيدَ، عن أنسِ بن مالكٍ أنّ رسولَ

---

(١) الأتون: الموقد الكبير كموقد الحمّام والجَصّاص.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، والطبري ١٨/١٨٧.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/١٨٧، وابن أبي حاتم في تفسيره، وغير واحد. انظر الدر ٦/٢٣٩.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره. والزُّجّ: الحديدة التي تركب في أسفل الرمح، والسنان يركب في أعلاه. والزُّجّ: تركز به الرمح في الأرض، والسنان يُطعَن به.

الله ـ ﷺ ـ قال: أولُ من يُكسَى حُلَّةً من النار إبليسُ، فيَضَعها على حاجِبَيه ويسحَبُها من خَلْفِه، وذُرِّيته من بعدِه، وهو ينادي: يا ثُبوراه. وينادون: يا ثُبورَهُم. حتى يقِفُوا على النار، فيقول: يا ثُبوراه. ويقولون: يا ثُبورَهُم. فيقال لهم: ﴿ لا تدعُوا اليومَ ثُبوراً واحداً وادعُوا ثُبوراً كثيراً ﴾[1].

لم يُخرجه أحدٌ من أصحابِ الكُتُبِ الستَّةِ، ورواه ابنُ أبي حاتم، عن أحمدَ بن سِنانٍ، عن عَفَّانَ، به. ورواه ابنُ جرير، من حديث حماد بن سلمة[2] به.

وقال العَوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ لا تدعُوا اليوم ثبوراً واحداً وادعُوا ثُبوراً كثيراً ﴾، أي: لا تدعو اليوم وَيلاً واحداً، وادعوا وَيلاً كثيراً.

وقال الضحاك: الثبور: الهلاك. والأظهر أن الثُّبور يجمع الهلاكَ والويل والخَسار والدَّمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿ وإني لأظنك يا فرعون مَثْبوراً ﴾، أي: هالكاً. وقال عبد الله بن الزِّبَعْرى[3]:

إذْ أُجاري الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَيِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبورُ

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى: يا محمدُ، هذا الذي وَصَفْناهُ من حال أولئك الأشقياء، الذين يُحشَرون على وجُوهِهِم إلى جهنَّم، فتلقاهم بوجهٍ عَبُوسٍ وبغَيظٍ وزَفيرٍ، ويُلقَون في أماكنها الضَّيقةِ مقرَّنين، لا يستطيعون حِراكاً، ولا انتصاراً ولا فكاكاً مما هم فيه، أهذا خيرٌ أم جنةُ الخلدِ التي وَعَدها الله المتقين من عباده، التي أعدَّها لهم، وجَعَلها لهم جزاءً على ما أطاعوه في الدنيا، وجَعَل مآلهم إليها. ﴿ لهم فيها ما يشاءُون ﴾، أي من الملاذِّ، من مآكلَ ومشاربَ، وملابسَ ومساكنَ، ومراكبَ ومناظرَ، وغيرِ ذلك، مما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سَمِعَت، ولا خطَرَ على قلبِ أحدٍ. وهم في ذلك خالدون أبدا دائماً سَرْمداً بلا انقطاعٍ ولا زوالٍ ولا انقضاءٍ، لا يبغُون عنها حِوَلاً. وهذا مِن وَعْد الله الذي تَفَضَّل به عليهم، وأحسَنَ به إليهم. ولهذا قال: ﴿ كان على ربِّك وعداً مَسْئولاً ﴾، أي: لابدَّ أن يقعَ وأن يكونَ، كما حكاه أبو جعفر بن جرير، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وعداً مسئولاً﴾، أي: وعداً واجباً[4].

وقال ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿كان على ربك وعداً مَسْئولاً﴾، يقول: «سَلُوا الذي واعدتُكم ـ أو قال: واعدناكم ـ تَنَجَّزُوه»[5].

وقال محمدُ بن كَعبٍ القُرَظي في قوله: ﴿ كان على ربِّك وعداً مَسْئولاً ﴾: إن الملائكة تسألُ لهم ذلك: ﴿ رَبَّنا وأدخلهم جناتِ عدنٍ التي وعدتَهم ﴾. وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون: رَبَّنا عَمِلنا لك

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/١٥٢.
(٢) الطبري ١٨/١٨٨، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن يحيى بن أبي بكير، عن حماد ١٣/١٦٨.
(٣) تقدّم البيت عند تفسير الآية ١٠٢ من سورة الإسراء، ١٠١ من سورة الأنبياء. وخرّجناه هنالك.
(٤) تفسير الطبري ١٨/١٨٩. وقد نقل الطبري ذلك عن الفراء في معاني القرآن ٢/٢٦٣.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ١٨/١٨٩.

بالذي أمرتنا، فأنجز لنا ما وَعَدتنا. فذلك قولُه: ﴿وعداً مسئولاً﴾[1].

وهذا المقام في هذه السُورةِ من ذِكْر النارِ، ثم التنبيهِ على حالِ أهلِ الجنة، كما ذَكَر تعالى في «سورة الصافات» حالَ أهلِ الجنة، وما فيها من النضرةِ والحُبُورِ، ثم قال: ﴿ أذلك خيرٌ نُزُلاً أم شجرةُ الزَّقُّوم * إنا جعلناها فتنةً للظالمين * إنها شجرةٌ تخرجُ في أصلِ الجَحِيم * طَلْعُها كأنه رءوسُ الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البُطونَ * ثم إن لهم عليها لَشَوباً من حَمِيم * ثم إنَّ مَرجِعَهم لإلى الجَحِيم * إنهم ألفَوا آباءَهُم ضالِّين * فهم على آثارهم يُهْرَعُون﴾.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عما يَقعُ يومَ القيامة من تَقريع الكفار في عبادتهم مَن عَبَدُوا من دون الله، من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿ ويوم نَحشُرهم وما يعبدُون من دون الله ﴾، قال مجاهد: عيسى، والعُزَير، والملائكة[2].

﴿فيقول أأنتُم أضللتُم عبادي هؤلاء أم هم ضَلُّوا السبيل ﴾، أي: فيقول الرب تبارك وتعالى للمعبُودين: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دَعوةٍ منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتَّخِذوني وأُمِّيَ إلَهين من دُونِ الله قال سُبحانَكَ ما يكُون لي أن أقولَ ما ليس لي بحقٍّ إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه تعلَمُ ما في نفسي ولا أعلَمُ ما في نفسِكَ إنك أنتَ عَلَّامُ الغُيُوب * ما قلت لهم إلَّا ما أمرتني به أن اعبدُوا الله ربي وربكم وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلما تَوَفَّيتني ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى مخبراً عما يُجيبُ به المعبودُون يوم القيامة: ﴿ قالوا سبحانَكَ ما كانَ يَنبغي لنا أن نَتَّخِذ من دونك من أولياء ﴾، قرأ الأكثرون بفتح «النون» من قوله ﴿ نَتَّخِذ من دونك من أولياء ﴾، أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فَعَلُوا ذلك من تِلْقاءِ أنفُسِهم من غير أمْرِنا ولا رِضَانا ونحن بُرآءُ منهم ومِن عبادَتِهم، كما قال تعالى: ﴿ ويومَ نَحشُرهم جميعاً ثم نَقُولُ للملائكة أهؤلاءِ إيَّاكم كانُوا يعبدون * قالوا سُبحانَكَ أنتَ وَلِيُّنا من دُونِهم بل كانوا يعبدون الجِنَّ أكثرُهم به مؤمنون ﴾. وقرأ آخرون[3]: ﴿ ما كان ينبغي لنا أن نُتَّخَذَ من دونك أولياء ﴾، أي: ما ينبغي لأحدٍ أن يَعبدَنا، فإنا عَبيدٌ لك، فُقَراءُ إليكَ. وهي قريبة المعنى من الأولى.

﴿ ولكن مَتَّعتَهم وآباءَهم ﴾، أي: طال عليهم العمر حتى نَسُوا الذكر، أي: نَسُوا ما أنزلته إليهم على ألسِنَةِ رُسُلِك، من الدَّعوة إلى عبادَتِك وحدَكَ لا شريكَ لك.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والبيهقي. وراوي هذا الأثر هو سعيد بن أبي هلال الليثي. انظر الدر المنثور ٦/٢٤١.

(٢) الطبري ١٨/١٨٩، وابن أبي حاتم في تفسيره، وغير واحد. الدر المنثور ٦/٢٤١.

(٣) قرأ بها أبو الدرداء، وزيد بن ثابت، وغير واحد. انظر تفسير الطبري ١٨/١٩١، والمحتسب لابن جني ٢/١١٩ ـ ١٢٠، وروح المعاني للألوسي ١٨/٢٤٩.

﴿ وكانُوا قوماً بُوراً ﴾، قال ابنُ عباس: أي هَلْكَى. وقال الحسنُ البصريُّ ومالك، عن الزُّهريِّ: أي لا خير فيهم. وقال ابن الزِّبعرى حين أسلم[1]:

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَيِّ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

قال الله تعالى: ﴿ فقد كذَّبُوكم بما تقولون ﴾، أي: فقد كذَّبكم الذين عَبَدْتُم فيما زَعمتُم أنهم لكم أولياءُ، وأنكم اتخذتُموهم قُرباناً يُقرِّبُونكم إليه زُلفَى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن أضلُّ ممن يدعُو من دونِ الله من لا يَستجيبُ له إلى يوم القيامةِ وهُم عن دُعائِهم غافلون * وإذا حُشِر الناسُ كانُوا لهم أعداءً وكانُوا بِعبادَتِهم كافرين ﴾.

وقولُه: ﴿فما يستطيعون[2] صرفاً ولا نصراً﴾، أي: لا يَقدِرُون على صَرْفِ العذابِ عنهُم ولا الانتصارِ لأنفُسِهم، ﴿ وَمَن يظلِم منكُم ﴾، أي: يُشرِك بالله، ﴿ نُذِقه عَذاباً كبيراً ﴾.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن جَميع مَن بعثَه من الرسل المتقدِّمين: أنهم كانوا يأكلون الطعام، [ويحتاجون إلى التغذِّي به] ﴿ ويمشُون في الأسواق ﴾، أي: للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمنافٍ لحالهم ومَنصِبهم؛ فإن الله جَعَل لهم من السِمَات الحسنةِ، والصفات الجميلةِ، والأقوالِ الفاضلةِ، والأعمالِ الكاملةِ، والخوارقِ الباهرة، والأدلة القاهرة، ما يَستدِلُّ به كلُّ ذِي لُبٍّ سَليم، وبَصيرةٍ مستقيمةٍ، على صِدْقِ ما جاءُوا به من الله ـ عزَّ وجلَّ. ونظيرُ هذه الآيةِ الكريمةِ قولُه تعالى: ﴿ وما أرسلنا مِن قبلكَ إلا رجالاً نُوحِي إليهم من أهل القرى ﴾، وقوله: ﴿ وما جعلناهُم جَسَداً لا يأكُلونَ الطعامَ وما كانُوا خالدين ﴾.

وقولُه: ﴿ وجعلنا بعضَكم لبعض فتنةً ﴾، أي اختبرنا بعضَكم ببعض، وبَلَونا بعضَكم ببعض، لنعلم مَن يُطِيعُ ممَّن يَعْصِي. ولهذا قال: ﴿ أتصبِرُون وكان ربُّك بَصيراً ﴾، أي: ممن يَستحِقُّ أن يُوحَى إليه، كما قال تعالى: ﴿ الله أعلم حَيثُ يجعلُ رسالته ﴾، ومن يَستحِقُّ أن يهديه الله لما أرسَلَهم به، ومَن لا يَستحِقُّ ذلك.

وقال محمدُ بن إسحاق في قوله: ﴿ وجعلنا بعضَكم لبعض فتنةً أتصبِرُون ﴾، قال: يقول الله: لو شئتُ أن أجعلَ الدنيا مع رسلي فلا يُخالَفُون، لَفعلتُ، ولكنِّي قد أردتُ أن أبتلي العِبادَ بِكُم، وأبتليكُم بهم[3].

وفي صحيح مسلم عن عِياضِ بن حِمَارٍ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ: «يَقُولُ الله: إني مُبتَليكَ ومُبْتَلٍ بك»[4]. وفي المسند عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «لو شئتُ لأجرى الله معي جبالَ الذهب والفضة»[5]. وفي

---

(١) تقدم من قريب عند الآية ١٤ من هذه السورة.

(٢) كذا في النسخ: (يستطيعون)، وهي قراءة السبعة ما عدا حفصاً. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧١٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري بإسناده إلى ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد، عن ابن عباس ١٨/١٩٤ ـ ١٩٥

(٤) مسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٩٧

(٥) أخرجه الحسن بن عرفة في جزئه، بإسناده إلى علقمة ٥٢ ـ ٥٣.

الصَّحيح أنه ـ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلامِ ـ خُيِّر بين أن يكون نَبياً مَلكاً أو عبداً رسُولاً، فاختار أن يكون عَبْداً رَسُولاً»(١).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن تَعَنُّتِ الكُفَّارِ في كُفرهم وعِنادهم في قولهم. ﴿ لولا أُنزِلَ علينا الملائكةُ ﴾، أي: بالرسالة كما نُزِّل على الأنبياء، كما أخبر عنهم تعالى في الآية الأخرى ﴿قالوا لن نُؤمِن حتى نُؤتى مِثْل ما أُوتِي رُسُل الله ﴾. ويَحتمِلُ أن يكون مرادُهم هاهنا: ﴿ لولا أُنزِلَ علينا الملائكةُ ﴾ فنراهم عِياناً، فيُخبروننا أن محمداً رسول الله، كقولهم: ﴿ أو تأتيَ بالله والملائكةِ قَبيلا ﴾ وقد تقدَّم تفسيرُها في «سُورةِ سُبحان»(٢) ولهذا قال: ﴿ أو نَرَى ربَّنا ﴾، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ لقد استكبروا في أنفسِهم وعَتوا عُتُوّاً كبيراً ﴾. وقد قال تعالى: ﴿ ولو أننا نزلنا إليهمُ الملائكةَ وكَلَّمهُم الموتى وحَشرنا عَليهم كُلَّ شيء قُبُلاً ما كانوا ليُؤمِنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرَهُم يجهلُون ﴾.

وقولُه: ﴿ يومَ يرونَ الملائكة لا بُشرَى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حِجْراً محجوراً ﴾، أي: هم لا يَرَون الملائكة في يومِ خيرٍ لهم، بل يوم يَرَون الملائكة لا بُشرَى يومئذ لهم، وذلك يَصْدُق على وقت الاحتضار حين تُبَشِّرهم الملائكةُ بالنار، وغَضَبِ الجبّار، فتقول الملائكة للكافر عند خُروج روحه: اخرُجي أيتها النفس الخَبيثة في الجَسَد الخَبيث، اخرُجي إلى سَمُومٍ وحَميمٍ، وظِلٍّ من يحمُومٍ. فتأبى الخروج وتتفرَّق في البدن، فيضربُونه، كما قال الله تعالى: ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يَضربُونَ وجُوهَهُم وأدبارهم ﴾. وقال: ﴿ ولو تَرَى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكةُ باسِطُو أيديهم ﴾، أي: بالضرب، ﴿ أخرجوا أنفسكم اليومَ تُجزَون عذابَ الهُونِ بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبِرُون ﴾. ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿ يوم يَرَون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ﴾، وهذا بخلاف حال المؤمنين في وقتِ احتضارِهم، فإنهم يُبَشَّرون بالخيراتِ، وحُصُولِ المسرات، قال الله تعالى ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تَتنزَّلُ عليهم الملائكةُ ألَّا تخافُوا ولا تَحزنُوا وأبشِرُوا بالجنة التي كنتم تُوعَدُون * نحن أولياؤكُم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكُم فيها ما تَشتَهي أنفسكُم ولكُم فيها ما تدَّعون * نُزُلاً من غفور رحيم﴾.

وفي الحديث الصَّحيح عن البراءِ بن عَازِبٍ: أن الملائكةَ تقولُ لروحِ المُؤمن: «اخرُجي أيتُها النفسُ الطَّيبَةُ في الجسد الطيِّب، كنتِ تعمُرينه، اخرُجي إلى روحٍ ورَيحانٍ وربٍّ غيرِ غضبانَ». وقد تقدم الحديث في «سورة إبراهيم»، عند قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة ويُضِلُّ الله الظالمين ويفعلُ الله ما يشاء ﴾(٣).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة ٢/٢٣١.

(٢) انظر تفسير الآية ٩٢ من سورة الإسراء.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم

وقال آخرون: بل المرادُ بقوله: ﴿ يومَ يرونَ الملائكةَ ﴾، يعني: يوم القيامة. قاله مجاهدٌ، والضحاكُ، وغيرهما.

ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدّم، فإن الملائكة في هذين اليومين، يوم الممات ويوم المَعادِ، تتجلَّى للمؤمنين وللكافرين، فتُبشِّر المؤمنين بالرحمةِ والرضوان، وتُخبِر الكافرين بالخيبةِ والخسرانِ، فلا بُشرَى يومئذٍ للمجرمين.

﴿ ويقولون حِجْراً مَحجُوراً ﴾، أي: وتقول الملائكة للكافرين: حَرام مُحَرَّم عليكم الفلاحُ اليومَ.

وأصل الحِجْر المنعُ، ومنه يقال: حَجَرَ القاضي على فلان: إذا مَنَعه التصرفَ إما لسَفَهٍ، أو فَلَسٍ، أو صِغَرٍ، أو نحو ذلك. ومنه سُمِّي «الحِجْر» عند البيت الحرام، لأنه يمنع الطُّوَّاف أن يَطُوفوا فيه، وإنما يُطَاف من ورائه. ومنه يقال للعقل: «حِجْر»، لأنه يمنع صاحبَه عن تعاطِي ما لا يليقُ.

والغرضُ أن الضَّمير في قوله: ﴿ ويقولُون ﴾ عائدٌ على الملائكة. هذا قولُ مجاهدٍ، وعكرمةَ، والضحاكِ، والحسنِ، وقتادةَ، وعطيةَ العَوفي، وعطاءِ الخُراسانيِّ، وخُصَيفٍ، وغيرِ واحدٍ، واختاره ابن جرير[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا موسى - يعني ابن قيس - عن عطيةَ العَوفيُّ، عن أبي سعيدٍ الخُدري: ﴿ويقولون حِجراً مَحجُوراً﴾، قال: حَرَاماً مُحَرَّماً أن نُبَشَّر بما يُبَشَّرُ به المتقون.

وقد حكى ابنُ جرير عن ابن جُرَيج أنه قال: ذلك من كلامِ المشركين: يومَ يرونَ الملائكةَ يقولونَ: حِجراً محجوراً، أي: يَتعوَّذون من الملائكةِ، وذلك أن العربَ كانوا إذا نَزَل بأحدهم نازلة أو شدة يقولون: حِجْراً محجُوراً.

وهذا القولُ - وإن كان له مأخذٌ ووجهٌ - ولكنه بالنسبةِ إلى السياقِ في الآية بعيدٌ، ولا سِيَّما قد نصَّ الجمهور على خلافه. ولكن قد روى ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهد أنه قال في قوله: (حِجْراً مَحجُوراً)، أي: عَوذاً مُعَاذاً. فيَحتمِلُ أنه أراد ما ذكره ابن جُرَيج. ولكن في رواية ابن أبي حاتم، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد أنه قال: (حجراً محجوراً)، عَوذاً مُعَاذاً، الملائكةُ تقوله. فالله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وقَدِمنا إلى ما عَمِلُوا من عَمَل فجعلناه هَباءً مَنثُوراً﴾، وهذا يومَ القيامة، حين يُحاسِب الله العبادَ على ما عَمِلوه من خيرٍ وشرٍّ، فأخبر أنه لا يَتحصَّلُ لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظَنُّوا أنها منجاةٌ لهم شيءٌ؛ وذلك لأنها فَقَدت الشرطَ الشرعيَّ، إما الإخلاصَ فيها، وإما المتابعةَ لشرع الله. فكُلُّ عملٍ لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية، فهو باطل. فأعمالُ الكفار لا تخلُو من واحدٍ من هذين، وقد تَجمَعُهما معاً، فتكون أبعدَ من القبولِ حينئذٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وقَدِمنا إلى ما عَمِلوا من عمل فجعلناهُ هباءً منثوراً ﴾.

قال مجاهدٌ، والثوريُّ: ﴿ وقَدِمنا ﴾، أي: عَمَدنا. وقال السُّدِّيُّ: ﴿ قدمنا ﴾: عَمَدنا، وبعضُهم يقول: أتينا عليه.

وقولُه: ﴿فجعلناه هباءً منثوراً﴾، قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاقَ، عن الحارثِ، عن عليٍّ - رضي

(١) الطبري ١٩/٣

الله عنه ـ في قوله: ﴿هباءً منثوراً﴾، قال: شعاعُ الشمسِ إذا دخل في الكُوَّة[1]. وكذا رُوي من غير هذا الوجه عن علي. ورُوي مثله عن ابن عباس، ومجاهدٍ، وعكرمةَ، وسعيد بن جُبير، والسُّدِّي، والضحَّاكِ، وغيرهم. وكذا قال الحسن البصري: هو الشُّعاعُ في كُوَّة أحدهم لو ذهَب يقبضُ عليه لم يستطع.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿هَبَاءً مَّنثُوراً﴾، قال: هو الماء المُهراق.

وقال أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن عليٍّ: ﴿هباءً منثوراً﴾، قال: الهَبَاءُ رَهْجُ الدوابّ[2]. ورُوي مثله عن ابن عباس أيضاً، والضحَّاكِ، وقاله عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَم.

وقال قتادةُ في قوله: ﴿هَبَاءً منثوراً﴾ قال: أما رأيت يَبِيس الشَّجرِ إذا ذَرَته الريحُ؟ فهو ذلك الوَرَق.

وقال عبدُ الله بن وهبٍ: أخبرني عاصمُ بن حَكِيم، عن أبي سريع الطائي، عن عُبَيد بن يَعْلَى قال: وإنَّ الهَبَاء الرَّماد[3].

وحاصلُ هذه الأقوال التنبيهُ على مضمون الآية، وذلك أنهم عَمِلوا أعمالاً اعتقدوا أنها شيءٌ، فلما عُرِضت على الملك الحَكيم العَدْلِ الذي لا يجوُر ولا يظلِم أحداً، إذا إنَّها لا شيءَ بالكُلِّية. وشُبِّهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق، الذي لا يقدر صاحبه منه على شيءٍ بالكلية، كما قال الله تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالُهم كرَمادٍ اشتدَّت به الريحُ في يوم عاصفٍ لا يقدِرُون مما كَسَبُوا على شيءٍ ذلك هو الضلالُ البعيدُ﴾. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلُوا صَدَقاتكم بالمنِّ والأذى كالذي يُنفِق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صَفْوَانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صَلْداً لا يقدِرُون على شيءٍ مما كَسَبُوا﴾. وقال تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالُهم كسرابٍ بقيعةٍ يحسَبُه الظمآنُ ماءً حتّى إذا جاءَه لم يَجِده شيئاً﴾. وتَقدَّم الكلامُ على تفسير ذلك، ولله الحمد والمنة.

وقولُه: ﴿أصحابُ الجنَّةِ يومئذ خيرٌ مستقرّاً وأحسنُ مَقِيلا﴾، أي: يومَ القيامة ﴿لا يستوي أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنة أصحابُ الجَنَّةِ هم الفائزون﴾، وذلك أنَّ أهل الجنة يصيرونَ إلى الدَّرجاتِ العالياتِ، والغُرُفاتِ الآمناتِ، فهم في مقامٍ أمينٍ، حَسَنِ المنظرِ، طَيِّب المقامِ، ﴿خالدين فيها حَسُنَت مُستقرّاً ومُقاماً﴾، وأهلُ النارِ يصيرونَ إلى الدَّرَكاتِ السافلات، والحَسَراتِ المُتابعات، وأنواعِ العذاب والعُقوبات، ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾، أي: بئسَ المنزلُ منظراً، وبئس المَقِيل مَقاماً، ولهذا قال: ﴿أصحابُ الجنةِ يومئذ خيرٌ مستقراً وأحسنُ مقيلاً﴾، أي: بما عملوه من الأعمال المُتقَبَّلة، نالُوا ما نالُوا، وصارُوا إلى ما إليه صاروا، بخلاف أهل النارِ فإنه ليسَ عملٌ واحدٌ يقتضي لهم دخولَ الجنة والنجاة من النار، فنَبَّه ـ تعالى ـ بحال السُّعداءِ على حال الأشقياءِ، وأنه لا خيرَ عندَهم بالكُلِّية، فقال: ﴿أصحابُ الجنةِ يومئذ خيرٌ مستقراً وأحسنُ مَقِيلاً﴾.

قال الضَّحَّاكُ، عن ابن عباسٍ: إنما هي ضَحوةٌ، فيَقِيلُ أولياءُ الله على الأَسرَّةِ مع الحُورِ العينِ، ويَقِيلُ أعداءُ الله مع الشياطينِ مُقرَّنين.

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ١٩/٤.

(2) أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر الدر المنثور ٦/٢٤٦. والرَّهَجُ: الغبار.

(3) أخرجه ابن أبي حاتم، وهو في الدر عنه ٦/٢٤٦.

وقال سعيد بن جُبير: يفرغ الله من الحساب نصفَ النهار، فيَقيل أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار، قال الله تعالى: ﴿ أصحابُ الجنةِ يومئذ خيْرٌ مستقراً وأحسنُ مقيلاً﴾.

وقال عِكرمةُ: إني لأعرفُ الساعةَ التي يدخُلُ فيها أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، هي الساعةُ التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضُحَى الأكبر، إذا انقلبَ الناسُ إلى أهليهم للقَيلولةِ، فيصرفُ أهلُ النارِ إلى النار، وأما أهلُ الجنةِ فيُنطَلق بهم إلى الجنة، فكانت قيلُولَتُهم في الجَنّةِ وأُطعِمُوا كَبِد حُوتٍ، فأشبعهم ذلك كلُّهم، وذلك قوله: ﴿ أصحاب الجنة يومئذٍ خيرٌ مستقرّاً وأحسنُ مَقِيلاً﴾.

وقال سفيانُ، عن ميسرةَ، عن المنهال، عن أبي عُبَيدة، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لا ينتصِفُ النهارُ حتى يَقِيلَ هؤلاءِ وهؤلاءِ، ثم قرأ: ﴿ أصحابُ الجنّةِ يومئذٍ خيرٌ مستقرّاً وأحسنُ مَقِيلاً ﴾، وقرأ: ﴿ ثم إن مَرجعَهم لإلى الجَحِيم ﴾[1].

وقال العوفيُّ، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ أصحابُ الجنّةِ يومئذٍ خيرٌ مُستقرّاً وأحسنُ مَقِيلاً﴾، قال: قالُوا في الغُرَف من الجنة، وكان حِسابهم أن عُرِضُوا على ربِّهم عَرضةً واحدةً، وذلك الحسابُ اليَسِيرُ، وهو مثلُ قوله تعالى: ﴿ فأمّا من أُوتي كِتابَه بِيَمِينِه فَسوفَ يُحاسَبُ حِساباً يسيراً * ويَنقَلِبُ إلى أهلِه مسروراً﴾[2].

وقال قتادةُ في قوله: ﴿ أصحابُ الجنّةِ يومئذٍ خيرٌ مُستقرّاً وأحسنُ مَقِيلا ﴾، أي: مأوى ومنزلاً. قال قتادة: وحَدَّث صفوانُ بن مُحرِزٍ أنه قال: يُجاء يومَ القيامةِ برجلين، كان أحدهما مَلِكاً في الدنيا إلى الحُمرةِ والبياض[3] فيُحاسَبُ، فإذا عبدٌ لم يعمل خيراً فيُؤمر به إلى النار. والآخرُ كان صاحِبَ كساءٍ في الدنيا، فيُحاسَب فيقول: يا رب، ما أعطيتَني من شيءٍ فتُحاسِبَني به. فيقول: صَدَق عبدي، فأرسلوه. فيؤمر به إلى الجنة، ثم يُترَكان ما شاء الله. ثم يُدعَى صاحبُ النار، فإذا هو مثلُ الحُممَةِ[4] السوداء، فيُقال له: كيف وجدتَ؟ فيقول: شرُّ مَقِيلٍ. فيقال له: عُدْ. ثم يُدعَى بصاحِبِ الجنّةِ، فإذا هو مثلُ القَمَرِ ليلةَ البدرِ، فيقال له: كيفَ وجدتَ؟ فيقول: ربِّ، خيرُ مَقيل. فيقال له: عُدْ. رواها ابنُ أبي حاتمٍ كُلَّها.

وقال ابنُ جرير: حدَّثني يونس، أنبأنا ابنُ وهب، أنبأنا عمرو بن الحارث، أن سعيداً الصوَّاف حدَّثه، أنه بلَغه: «أن يومَ القيامة يَقصُرُ على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإنّهم لَيَقِيلُون في رياضِ الجَنّةِ حتى يفرغ من الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿أصحابُ الجنة يومئذ خير مُستقرّاً وأحسنُ مَقِيلاً﴾[5].

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، والحاكم في مستدركه ٢/٤٠٢، وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه».
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، والطبري ١٩/٥.
(٣) أي: لونه أقرب إلى هذين اللونين. وقوله: «فإذا عبدٌ»، أي: فإذا الملك عبدٌ.
(٤) في نسخة الحرم: مثل الفحمة. والحُمَمةُ: واحدة الحمم، وهو الفحم.
(٥) الطبري ١٩/٥.

يُخبر تعالى عن هَول يوم القيامة، وما يكونُ فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاقُ السماء، وتفطّرها وانفراجُها بالغمام ـ وهو ظُلَلُ النور العظيم الذي يبهرُ الأبصار ـ ونزولُ ملائكة السموات يومئذٍ، فيُحيطون بالخلائق في مقام المحشرِ، ثم يجيءُ الربُّ تبارك وتعالى لِفصل القضاء.

قال مجاهد. وهذا كما قال تعالى: ﴿ هل ينظرونَ إلا أن يأتيهمُ اللهُ في ظُلَلٍ من الغمام والملائكةُ وقُضي الأمرُ وإلى الله تُرجَع الأمورُ ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمّار بن الحارث، حدثنا مُؤمّل، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي ابن زيد، عن يُوسُفَ بن مِهرانَ، عن ابن عَبّاسٍ، أنه قرأ هذه الآية: ﴿ ويوم تَشقّقُ السماءُ بالغَمَامِ ونُزِّل الملائكة تنزيلا ﴾، قال ابن عباس: يجمَعُ اللهُ الخلقَ يوم القيامة في صَعيدٍ واحدٍ، الجنَّ والإنسَ والبهائمَ والسباعَ والطيرَ وجَميعَ الخَلْقِ، فَتَنشقُّ السماءُ الدنيا، فينزلُ أهلُها ـ وهم أكثرُ من الجنّ والإنسِ ومن جَميع الخلائق ـ فيُحيطون بالجنّ والإنسِ وبجميع الخلق. ثم تَنشقُّ السماءُ الثانيةُ فينزلُ أهلها، وهم أكثرُ من أهل السماء الدنيا ومن الجنّ والإنسِ، ومن جميع الخلق. فيُحيطون بالملائكةِ الذين نَزَلوا قبلهم والجنِّ والإنسِ وجميعِ الخلق. ثم تنشق السماء الثالثة، فينزلُ أهلها، وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدّنيا ومن جَميع الخلق، فيُحيطون بالملائكة الذين نَزَلوا قبلَهم، وبالجنِّ والإنسِ وبجميع الخلق. ثم كذلك كل سماء، حتى تنشقَّ السماءُ السابعةُ، فينزلُ أهلُها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق، فيُحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات، وبالجن والإنس وجميع الخلق، وربُّنا ـ عزّ وجلّ ـ في ظُلَلٍ من الغَمَامِ، وحولَه الكَرُوبيُّون[1]، وهم أكثرُ من أهلِ السموات السبع الإنسِ والجنِّ وجميعِ الخلق، لهم قرونٌ كأكعُبِ القَنا[2]، وهم تحتَ العرش، لهم زَجَلٌ بالتسبيح والتهليل والتقديس لله ـ عزّ وجل ـ ما بين أخمَص قَدَم أحدهم إلى كَعبه مسيرةُ خمسمائة عام، وما بين كَعبِه إلى رُكبَتِه مسيرة خمسمائةِ عام، وما بين رُكبَتِه إلى حُجزَتِه[3] مَسيرةُ خمسمائة عام، وما بين حُجزتِهِ إلى تَرقُوَتِه[4] مَسيرةُ خمسمائة عام، وما بين تَرقُوَتِه إلى موضعِ القُرطِ مَسيرةُ خمسمائةِ عام، وما فوقَ ذلك مسيرةُ خمسمائة عامٍ، وجَهنَّم مُجَنّبَتُه[5] هكذا رواه ابنُ أبي حاتمٍ بهذا السياق.

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثنا القاسم، حَدَّثنا الحُسَين، حدثني الحجّاجُ، عن مُبَارك بن فَضَالة، عن عَلي بن زيدِ بن جُدعَان، عن يوسفَ بن مِهْران، أنه سَمع ابن عباس يقول: إنّ هذه السماء إذا انشقّت نَزَل منها من الملائكةِ أكثرُ من الجنِّ والإنس، وهو يوم التَّلاقِ، يوم يلتقي أهلُ السماء وأهلُ الأرض، فيقول أهلُ الأرض: جاء ربُّنا؟ فيقولون: لم يجيء، وهو آتٍ. ثم تَنْشقُّ السماءُ الثانيةُ، ثم سماءٌ سماءٌ، على قدرِ ذلك من التضعيفِ إلى السماء السابعةِ. فينزل منها من الملائكة أكثر من جَميع من نَزَل من السمواتِ ومن الجنِّ والإنسِ. فتنزل الملائكة الكَرُوبيّون[1]، ثم يأتي ربُّنا في حَمَلةِ العرش الثمانيةِ، بين كعب كُلِّ مَلَكٍ ورُكبَتِهِ مسيرةُ

---

(١) الكروبيون: سادةُ الملائكة، وهم المقرَّبُون.

(٢) أي: الرماح.

(٣) في نسختي الحرم والأزهر: «واربته»، والأرْبَةُ: طرَفُ الأنف! والمثبت عن نسخة، والطبعات السابقة وتفسير ابن أبي حاتم. والحُجزَة: موضع شدّ الإزار.

(٤) الترقوة: العظم الذي بين ثُغرة النحر والعاتق.

(٥) مُجَنّبَتُه: وردت هذه الكلمة في النسخ دون نقط، ولعلّها: مُجنِّبة، بكسر النون المشدّدة: جناح الجيش، وبالفتح مقدّمته، والكلام تمثيل.

سبعين سنةً، وبين فَخِذه ومَنْكِبه مَسِيرةُ سبعينَ سنةً. قال: وكلُّ ملك منهم لم يَتأمَّل وَجهَ صاحِبه، وكُـلُّ مَلَكٍ منهم واضِعٌ رأسَه بين ثَدْيَيه يقولُ: سبحانَ الملكِ القُـدُّوس. وعلى رُءُوسِهم شيءٌ مبسوطٌ كأنه القَبَاءُ، والعرشُ فوقَ ذلك. ثم وقف[1].

فمدارُه على عليِّ بن يزد بن جُدْعان، وفيه ضعفٌ، وفي سياقاته غالباً نكارةٌ شديدةٌ. وقد ورد في حديث الصُّور المشهور قريبٌ من هذا[2]، والله أعلم.

وقد قال تعالى: ﴿فيومئذٍ وقَعَتِ الواقعة * وانشقَّت السماءُ فهي يومئذٍ واهية * والملك على أرجائها ويحملُ عَرْشَ ربك فوقَهم يومئذٍ ثمانية﴾، قال شهرُ بن حَوشبٍ: حملةُ العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانَك اللهم وبحمدِك، لك الحمدُ على حِلْمِك بعد علمك. وأربعة يقولون: سبحانَك اللهم وبحمدك، لك الحمدُ على عَفوِك بعد قُدرتِك، رواه ابن جرير، عنه[3].

وقال أبو بكر بن عبد الله: إذا نَظَر أهلُ الأرض إلى العرشِ يهبط عليهم من فوقهم، شَـخَصت إليه أبصارُهم، ورَجَفت كُلاهم في أجوافِهم، وطارت قلوبُهم من مَقَرِّها من صُدُورِهم إلى حَناجِرهم[3].

وقال ابنُ جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحُسَين، حدثنا مُعتَمِرُ بن سليمان، عن عبد الجليل، عن أبي حازم، عن عبد الله بن عَمرو قال: يَهبطُ الله حينَ يَهبطُ وبينه وبين خَلقِهِ سبعونَ ألفَ حجابٍ، منها النورُ والظلمة، فيُصَوِّت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلعُ له القلوبُ[1].

وهذا موقوفٌ على عبد الله بن عَمرو من كلامه، ولعله من الزَّامِلَتَين، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿ الملك يومئذ الحقُّ للرحمن وكان يوماً على الكافرين عَسِيراً ﴾، كما قال تـعالى: ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾. وفي الصَّحيح: أن الله يطوي السَّموات بيمينه ويأخذُ الأرَضِين بِيَدِه ثم يقولُ: أنا الملك، أنا الديَّانُ، أين ملوكُ الأرض؟ أين الجبَّارُونَ؟ أين المُتكَبِّرونَ[4].

وقولُه: ﴿ وكان يوماً على الكافرين عَسِيراً ﴾، أي: شديداً صعباً، لأنه يومُ عدلٍ وقضاءُ فصلٍ، كما قال تعالى: ﴿فإذا نُقِر في النَّاقُورِ * فذلك يومئذ يوم عسيرٌ * على الكافرين غيرُ يسيرٍ﴾، فهذا حال الكافرين في ذلك اليوم. وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿ لا يَحزُنُهم الفزعُ الأكبرُ وتَتلقَّاهم الملائكةُ هذا يومُكم الذي كُنتم تُوعَدُون ﴾.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا حَسَن بن مُوسَى، حدثنا ابنُ لَهِيعَة، حدثنا دَرَّاجٌ، عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ قال: قيل: يا رسولَ الله ﴿ يوم كان مقدارُه خمسين ألفَ سَنَةٍ ﴾: ما أطولَ هذا اليوم؟! فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: والذي نفسي بيده إنه لَيُخفَّفُ على المؤمِن حتى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ يُصلِّيها في الدنيا[5].

---

(١) الطبري ١٩/٦ـ٧

(٢) انظره في تفسير الآية ٢١٠ من سورة البقرة، والآية ٧٣ من سورة الأنعام.

(٣) الطبري ١٩/٧

(٤) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب التوحيد، فتح الباري ١٣/٣٩٣، ومسلم في كتاب صفة القيامة ٤/٢١٤٨، عن عبد الله بن عُمر.

(٥) مسند أحمد ٣/٧٥.

وقولُه ـ ﴿ ويوم يَعَضُّ الظالمُ على يَدَيه يقولُ يا ليتني اتخذتُ مَعَ الرسُولِ سَبيلا ﴾، يُخبِرُ تعالى عن نَدَم الظالم الذي فارقَ طريقَ الرسولِ وما جاء به من عندِ الله من الحقِّ المبين، الذي لا مِرْيَةَ فيه، وسَلَك طريقاً أخرى غير سبيلِ الرسول، فإذا كان يومُ القيامة نَدِمَ حيثُ لا ينفعهُ النَدَمُ، وعضَّ على يديه حسرةً وأسفاً.

وسواءٌ كان سببُ نُزولها في عُقبةَ بن أبي مُعَيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامَّةٌ في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يومَ تُقلَّبُ وجوهُهم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسُولاً * وقالوا ربَّنا إنا أطعنا سادَتَنا وكُبَراءنا فأضلُّونا السبيلا * رَبَّنا آتِهم ضِعفَين من العذاب والعَنْهُم لعناً كَبيراً﴾. فكل ظالم يندَم يوم القيامة غايةَ الندم، ويَعَضُّ على يديه قائلاً: ﴿يا ليتني اتخذتُ مع الرَّسول سبيلاً * يا ويلتا ليتني لم أتَّخِذ فلاناً خليلاً﴾، يعني: مَنْ صرفه عن الهدى وعَدَل به إلى طريق الضلالة، وسواء في ذلك أُميَّةُ بن خَلَف، أو أخوه أُبيُّ بن خَلَف، أو غيرهما[1].

﴿ لقد أضلَّني عن الذِّكْرِ ﴾ ـ وهو القرآن ـ ﴿ بعدَ إذ جاءَني ﴾، أي: بعد بُلُوغِه إليَّ، قال الله تعالى: ﴿ وكان الشيطانُ للإنسانِ خَذُولاً ﴾، أي: يَخذُله عن الحقِّ، ويَصرِفهُ عنه، ويَستعمِلُه في الباطل، ويدعُوه إليه.

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمَّد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه دائماً إلى يوم الدين ـ أنه قال: ﴿ يا ربِّ إنَّ قومي اتَّخذُوا هذا القرآنَ مهجوراً ﴾. وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآن ولا يسمَعُونه، كما قال تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لا تَسمَعُوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾، وكانوا إذا تُلِي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلامَ في غيره، حتى لا يَسمعُوه. فهذا من هِجرانه، [وتركُ[2] علمه وحفظه أيضاً من هجرانه]، وتركُ تفهُّمه وتَدَبُّره من هجرانه. وتركُ الإيمان به وتصديقه من هِجْرانِه، وتَرْكُ العَمَل به من امتثال أوامره واجتناب زَوَاجِره من هجرانه، والعدولُ عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناءٍ أو لَهْوٍ أو كَلامٍ أو طريقةٍ مأخوذةٍ من غيره، من هِجْرانه. فنسأل الله الكريمَ المنانَ القادرَ على ما يشاء، أن يخلِّصنا مما يُسخِطُه، ويستعملنا فيما يُرضِيه، من حِفْظِ كتابِه وفَهْمِه، والقيامِ بمُقتضاه آناءَ الليل وأطرافَ النهار، على الوجه الذي يُحِبُّه ويرضاه، إنه كريمٌ وهابٌ.

وقولُه: ﴿ وكذلكَ جَعَلنا لكل نبيٍّ عُدوّاً من المجرمين ﴾، أي: كما حَصَلَ لك ـ يا محمَّدُ ـ في قومك من الذين هَجَروا القرآن، كذلك كان في الأُمَم الماضين، لأن الله جَعَلَ لكلِّ نَبيٍّ عَدوّاً من المجرمينَ، يدعُونَ الناس إلى ضَلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿ وكذلك جَعَلنا لكل نَبيٍّ عَدوّاً شياطينَ الإنس والجنِّ يُوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرفَ القول غروراً ولو شاء ربُّك ما فعلُوه فَذَرْهُم وما يفترون * ولِتَصْغَى إليه أفئدةُ الذين لا يُؤمِنُون بالآخرة وليَرضَوْهُ وَليقترِفُوا ما هم مُقترِفُون﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿ وكَفَى بربِّك هادياً ونَصيراً ﴾، أي: لمن اتَّبع رسولَه، وآمنَ بكتابه وصدَّقه واتَّبعَه، فإن الله هاديه وناصِرُه في الدُّنيا والآخرة. وإنما قال: ﴿هادياً

(١) انظر الآثار الواردة في ذلك في تفسير الطبري ١٩/٧ ـ ٩، والدر المنثور ٦/٢٥٠ ـ ٢٥٤.

(٢) من نسخة المحرم.

ونصيراً ﴾ لأن المشركين كانوا يصدُّون الناس عن اتباع القرآن، لئلا يهتديَ أحدٌ به، ولتَغْلِبَ طريقتهم طريقةَ القرآن، فلهذا قال: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربِّك هادياً ونصيراً ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كثرةِ اعتراضِ الكفّار وتَعَنُّتِهم، وكلامهم فيما لا يَعنيهم، حيث قالوا: ﴿ لولا نُزِّل عليه القرآن جُملةً واحدةً ﴾، أي: هلَّا أُنزِلَ عليه هذا الكتابُ الذي أُوحي إليه جملة واحدةً، كما نَزَلت الكتبُ قبله، كالتوراة والإنجيل والزبور، وغيرها من الكُتُب الإلٰهية. فأجابهمُ الله عن ذلكَ بأنه إنما أُنزِلَ مُنجَّماً في ثلاث وعشرين سنةً بحسب الوقائع والحوادث، وما يُحتاج إليه من الأحكام لتثبيت قُلوب المؤمنين به، كما قال: ﴿ وقرآناً فَرَقناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ونزَّلناه تنزيلا ﴾، ولهذا قال: ﴿ لِنُثَبِّت به فؤادَكَ ورتَّلناه ترتيلاً ﴾، قال قتادة: وبيَّناه تبييناً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: وفسَّرناه تفسيراً[1].

﴿ ولا يأتونَكَ بمثل ﴾، أي: بحجَّةٍ وشُبهةٍ ﴿ إلا جئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً ﴾، أي: ولا يقولُون قولاً يُعارِضُون به الحقَّ إلا أجبناهم بما هُو الحقُّ في نفسِ الأمر وأبينُ وأوضحُ وأفصحُ من مقالتهم.

قال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ولا يأتونك بمثل ﴾، أي: بما يلتمسون به عيبَ القرآن والرسول، ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾، أي: إلا نَزَل جبريلُ مِنَ الله بجوابهم.

ثم في هذا اعتناء كبير؛ لشرف الرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ حيث كان يأتيه الوحيُ من الله بالقرآن صباحاً ومساءً، ليلاً ونهاراً، سفراً وحَضَراً، فكلُّ مَرَّةٍ كان يأتيه المَلَك بالقرآن كإنزالِ كتابٍ مما قبله من الكتب المتقدِّمة، فهذا المقامُ أعلى وأجلُّ، وأعظمُ مكانةً من سائر إخوانه من الأنبياء ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين ـ فالقرآنُ أشرفُ كتابٍ أنزله الله، ومحمد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أعظم نَبيٍّ أرسلَه الله، وقد جَمَع الله تعالى للقرآن الصفتين معاً، ففي الملأ الأعلى أُنزِلَ جملةً من اللوح المحفوظ إلى بيتِ العِزَّةِ من سماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض مُنَجَّما بحسَب الوقائع والحوادث.

قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا أحمدُ بن سُليمان، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا داودُ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: أُنزِلَ القرآنُ جملةً إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: ﴿ ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً ﴾، ﴿ وقرآناً فَرَقناه لتقرأه على الناس على مكث ونَزَّلناه تنزيلاً ﴾[2].

ثم قال تعالى مُخبراً عن سُوءِ حال الكُفّار في مَعادهم يوم القيامة وحَشْرهم إلى جهنَّم، في أسوإ الحالاتِ وأقبحِ الصفات: ﴿ الذين يُحشَرُون على وجُوهِهم إلى جهنم أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ سبيلاً ﴾. وفي الصحيح، عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يُحشَر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره. وانظر أثر ابن زيد في الطبري ١٩/ ١٤.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف ٥/ ١٣٣.

رِجْلَيهِ قادرٌ أن يُمشِيَه على وجهه يوم القيامة»[١]. وهكذا قال مجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ من المفسِّرين.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُتوعِّداً مَن كَذَّبَ رسولَه محمداً ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ من مشركي قومِه ومن خالفَه، ومُحذِّرَهم من عقابِه وأليمِ عذابِه، مما أحلَّه بالأمم الماضية المكذِّبين لرسله، فبدأ بذِكْرِ موسى عليه السلام. وأنه ابتعثَه وجعَلَ معه أخاه هارونَ وَزِيراً، أي: نبياً مُؤازِراً ومؤيِّداً وناصراً، فكذَّبهما فرعون وجنودُه، فـ﴿ دَمَّرَ اللهُ عليهم وللكافرين أمثالُها﴾. وكذلك فعل بقوم نُوحٍ حين كذَّبوا رسولَه نُوحاً عليه السلام، ومن كَذَّبَ برسولٍ فقد كَذَّبَ بجميع الرسل؛ إذ لا فرقَ بين رسولٍ ورسولٍ، ولو فُرِضَ أن الله بَعثَ إليهم كلَّ رسولٍ فإنهم كانُوا يُكذِّبونه، ولهذا قال: ﴿ وقومَ نُوحٍ لما كَذَّبوا الرسل ﴾، ولم يُبعَثْ إليهم إلا نُوحٌ فقط، وقد لَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله، ويُحذِّرهم نقمَه، فما آمن معه إلا القليلُ، ولهذا أغرقهم اللهُ جميعاً. ولم يَبْقَ منهم أحدٌ، ولم يَبْقَ على وجه الأرض من بني آدم سِوى أصحاب السَّفينة فقط.

﴿وجَعَلناهُم للناسِ آيةً﴾، أي: عبرةً يعتبِرُون بها، كما قال تعالى: ﴿إنّا لما طَغَى الماءُ حَمَلناكم في الجَارية * لِنجعَلَها لكم تذكرةً وتَعِيها أذنٌ واعيةٌ ﴾، أي: وأبقينا لكُم من السُّفُن ما تركبونَ في لُجَجِ البحارِ، لتذكُروا نعمةَ الله عليكم في إنجائِكُم من الغَرَق، وجَعْلِكم من ذرِّية مَن آمن به وصَدَّق أمرَه.

وقولُه: ﴿ وعاداً وثمودَ ﴾ قد تقدَّم الكلامُ على قِصَّتيهما في غير ما سُورةٍ، منها في «سورة الأعراف»، بما أغنى عَن إعادَتِه. وأما أصحابُ الرسِّ فقال ابنُ جُرَيج، عن ابن عَبّاس: هُم أهلُ قَريةٍ من قُرى ثَمودَ[٢]. وقال ابن جُرَيج: قال عكرمةُ: أصحابُ الرسِّ بِفَلَجٍ وهم أصحابُ ياسين. وقال قتادةُ: فَلَجُ من قُرَى اليَمامةِ.

وقال ابنُ حاتم: حدثنا أحمدُ بن عَمرو بن أبي عاصمٍ النَّبيل، [حَدَّثنا أبي عَمْرو بن الضَّحّاك][٣]، حَدَّثنا [أبي][٣] الضَّحّاكُ بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شَبِيبُ بن بشر، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس في قوله ﴿ وأصحاب الرسِّ ﴾، قال: بِئرٌ بأذَرْبِيجَانَ.

وقال سفيانُ الثوريُّ، عن أبي بَكْرٍ، عن عكرمةَ: الرس بئرٌ رَسُّوا فيها نَبِيَّهم[٤] أي دفنوه بها.

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، تفسير سورة الفرقان ٨/٤٩٢، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٤/٢١٦١
(٢) الطبري ١٩/١٣، والدرّ ٦/٢٥٦.
(٣) زِدْناها بين الأقواس؛ فقد تردَّد هذا السند مراراً في تفسير ابن أبي حاتم، وذكر هذا السند في تفسير الآية ٣٧ من هذه السورة في تفسير ابن أبي حاتم هكذا: «حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، حدثني أبي، حدثني أبي، أبا شبيب» بيد أنه في هذه الآية ٣٨ ورد السند في الأثر الذي معنا وفيه «حدثني أبي» مرّةً واحدة، وأحسب أنه سقط منه الثانية. والله أعلم.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره بإسناده إلى سفيان، عن رجل، عن عكرمة.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أول الناس يدخلُ الجنةَ يومَ القيامة العبدُ الأسودُ، وذلك أن الله ـ تعالى وتبارك ـ بعثَ نبياً إلى أهل قريةٍ، فلم يُؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود، ثم إنَّ أهلَ القريةِ عَدَوا على النبيِّ، فحَفَروا له بئرا فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجرٍ أصَمّ[1]. قال: فكان ذلك العبدُ يذهَب فيَحتطب على ظَهره، ثم يأتي بحطبه فَيبيعه، ويَشتري به طعاماً وشراباً، ثم يأتي به إلى تلك البئر، فيرفَعُ تلك الصخرة، ويُعينُه الله عليها، فيُدلي إليه طَعامَه وشرابَه، ثم يَردُّها كما كانت. قال: فكان كذلك ما شاء الله أن يكون، ثم إنه ذَهب يوماً يحتطبُ كما كان يَصنعُ، فجمع حَطَبه وحَزم حُزْمَته وفَرَغ منها، فلما أراد أن يَحتمِلَها وَجَد سِنَةً، فاضطجَعَ فنام. فضَرب الله على أذُنه سبعَ سنينَ نائماً، ثم إنه هَبَّ فتمطى، فتحوَّل لشقه الآخر فاضطجَع، فضرب الله على أذنه سبع سنينَ أخرى. ثم إنه هَبَّ واحتمل حُزْمَته ولا يحسبُ إلا أنه نام ساعةً من نهار، فجاء إلى القرية فَباعَ حزمته، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنعُ. ثم ذهب إلى الحَفِيرَة في موضعها الذي كانت فيه، فالتمسه فلم يجده. وكان قد بدا لقومه فيه بَداء، فاستخرجُوه وآمنوا به وصدَّقوه. قال: فكان نبيُّهم يسألهم عن ذلك الأسود: ما فَعل؟ فيقولون له: ما نَدْري، حتى قَبض الله النبيَّ، وَأهبَّ الأسودَ من نومته بعدُ[2] ذلك. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن ذلك الأسودَ لأوَّلُ من يدخُلُ الجنةَ».

هكذا رواه ابنُ جرير[3]، عن ابن حُمَيد، عن سَلَمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن كَعب مرسلا. وفيه غرابة ونَكارةٌ، ولعل فيه إدْرَاجاً، والله أعلم. وأما ابنُ جرير فقال: لا يجوزُ أن يُحمَل هؤلاء على أنهم أصحابُ الرسِّ الذين ذُكِروا في القرآن، لأنَّ الله أخبرَ عنهم أنه أهلكَهُم، وهؤلاءِ قد بَدَا لهم فآمنوا بِنَبيِّهِم، اللهمَّ إلا أن يكونَ حَدَث لهم أحداث، آمنوا بالنبيِّ بعد هَلاكِ آبائهم[4]. والله أعلم.

واختار ابنُ جرير أنَّ المراد بأصحاب الرسِّ هم أصحابُ الأخدودِ، الذين ذُكِروا في سورة البُروج، فالله أعلم.

وقولُه: ﴿ وقُروناً بين ذلك كثيراً ﴾، أي: وأمماً[5] بين أضْعافِ مَنْ ذُكِرَ أهلكناهم كثيرةً، ولهذا قال: ﴿ وكُلاً ضَربنَا له الأمثالَ ﴾، أي: بيَّنا لهم الحُجج، ووضَّحنا لهم الأدلة، كما قال قتادة: أزحنا عنهم الأعذار، ﴿ وكلاً تَبَّرنا تتبيراً ﴾، أي: أهلكنا إهلاكاً، كقوله: ﴿ وكَم أهلكنا من القُرونِ من بعد نُوح ﴾.

والقرنُ: هو الأمةُ من الناس، كقوله: ﴿ ثم أنشأنا من بَعدِهم قَرْناً آخرين ﴾. وحَدَّه بعض المفسّرين بمائةٍ وعشرينَ سنةً، وقيل: بمائةِ سنةٍ. وقيل: بثمانينَ سنةٍ. وقيل: أربعينَ. وقيل غيرُ ذلك. والأظهرُ أن القَرْنَ هم الأمةُ المتعاصِرُونَ في الزمن الواحد؛ فإذا ذَهَبوا وخَلَفَهم جيلٌ فهم قرنٌ ثانٍ، كما ثَبت في الصَّحيحَينِ عن

---

(١) في تفسير الطبري، والدر: «بحجر ضخم». وحَجَرٌ أصمُّ: صُلْبٌ مُصْمَت.
(٢) في نسخة الحرم: «من نومه، فعند ذلك قال رسول الله...».
(٣) تفسير الطبري ١٩/١٤ـ١٥.
(٤) نص الطبري ١٩/١٥: «غير أن هؤلاء في هذا الخبر يذكر محمد بن كعب، عن النبي ـ ﷺ ـ أنهم آمنوا بنبيِّهم واستخرجوه من حفرته، فلا ينبغي أن يكونوا المعنيِّين بقوله: (وأصحاب الرسّ)، لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه دمَّرهم تدميراً، إلا أن يكونوا دُمِّروا بأحداث أحدثوها بعد نبيِّهم الذي استخرجوه من الحفرة وآمنوا به، فيكون ذلك وجهاً».
(٥) في نسخة الحرم: «وأمماً أضعافه»، بإسقاط «بين». وفي نسخة: «وأمماً بين ذلك أضعافه» بزيادة: «ذلك». والمراد: وأمماً في أثناء من ذكرناهم. فالضِّعف قد يراد به: تضاعيف الشيء، أي: أوساطه وأثناؤه، ومنه أضعاف الكتاب، أي: حواشيه وما بين سُطوره.

رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «خيرُ القُرونِ قرني، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم، ثم الذين يَلُونَهُم»[١]... الحديث.

وقولُه: ﴿ وَلَقد أَتَوا على القَريةِ التي أُمطِرَت مَطَرَ السَّوءِ ﴾، يعني قرية قوم لُوطٍ، وهي سدُوم ومُعامَلَتُها[٢] التي أهلكَها اللهُ بالقلب، وبالمَطر الحجارَةِ من سِجِّيل، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمطرنا عليهم مطراً فساء مَطَرُ المُنذَرين ﴾، وقال: ﴿ وإنَّكم لَتَمُرُّونَ عليهم مُصبِحِينَ * وبِاللَّيلِ أفلا تَعقِلُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَإنها لَبِسَبِيلٍ مُقِيم ﴾، وَقَال: ﴿ وَإنَّهما لبِإمام مُبين ﴾. ولهذا قال: ﴿ أَفلم يكُونُوا يَرونها ﴾، أي: فيَعتَبِرُوا بما حَلَّ بأهلها مِنَ العَذابِ والنَّكالِ بسببِ تكذيبهم بالرسولِ ومُخالفتِهم أوامرَ الله.

وقولُه: ﴿ بل كانُوا لا يرجُون نُشوراً ﴾، يعني: المارِّين بها من الكُفَّار لا يَعتبرون، لأنهم لا يَرجُون نُشوراً، أي: مَعاداً يوم القيامة.

﴿ وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤ ﴾

يُخبِر تعالى عن استهزاءِ المشركين بالرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ إذا رَأوه، كما قال: ﴿ وَإذا رَآكَ الذينَ كَفَرُوا إن يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً أهذا الذي يَذكُرُ آلهتكم ﴾، يَعْنُونَ بالعيبِ والنَّقص، وقال هاهنا: ﴿ وإذا رأوكَ إن يَتَّخِذونكَ إلا هُزُواً أهذا الذي بَعَثَ الله رَسُولاً ﴾؟! أي: على سبيلِ التَّنقُّصِ والازدِراءِ ـ قبَّحهم الله ـ كما قال: ﴿ ولقد استُهزِئَ بِرُسُلٍ من قبلكَ فأمليتُ للذين كفروا ثم أخذتُهم فكيفَ كانَ عقابِ ﴾.

وقولُهم: ﴿ إن كاد لَيُضِلُّنا عن آلهتِنا لولا أن صَبَرنا عليها ﴾، يعنونَ أنه كاد يَثنيهم عن عبادةِ أصنامهم، لولا أن صَبَرُوا وتجلَّدوا واستمرُّوا على عبادتها. قال الله تعالى مُتوعِّداً لهم ومُتهدِّداً: ﴿ وسوف يعلَمُون حين يَرَون العذابَ مَن أضلُّ سبيلا ﴾.

ثم قال تعالى لنبِيِّه، منبِّهاً له أن من كَتَبَ الله عليه الشقاوَةَ والضلالَ فإنه لا يَهديه أحدٌ إلا الله: ﴿ أرأيت مَن اتخذَ إلَهه هَوَاه ﴾، أي: مهما استحسَنَ من شيءٍ ورآه حَسَناً في هَوى نفسه كان دِينَه ومَذهَبَه، كما قال تعالى: ﴿ أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله فرآه حسناً فإن الله يُضِلُّ من يشاء ويَهدي من يشاء فلا تَذهَبْ نفسُكَ عليهم حَسَراتٍ ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿ أفأنت تكونُ عليه وكيلاً ﴾، قال ابنُ عباسٍ: كان الرجلُ في الجاهليةِ يعبُدُ الحجر الأبيضَ زماناً، فإذا رأى غيرَه أحسَنَ منه عبَدَ الثاني وترَكَ الأولَ.

ثم قال: ﴿ أم تحسَبُ أن أكثرهم يَسمَعُون أو يعقِلُون إن هُم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً ﴾، أي: أسوأُ حالاً من الأنعام السارحةِ، فإن تلك تَعقِلُ ما خُلِقَت له، وهؤلاء خُلِقُوا لعبادةِ الله وحدَه لا شريك له، وهم يعبدون غيرَه ويُشركون به، مع قيامِ الحُجَّةِ عليهم، وإرسالِ الرُّسُلِ إليهم.

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الشهادات ٥/٢٥٨ ـ ٢٥٩، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ٤/١٩٦٣
(٢) أي: ما يتبعها.

قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾ ﴾

من هاهنا شرَعَ تعالى في بيان الأدلة الدالة على وُجُوده، وقُدرته التامة على خَلق الأشياء المختلفة والمتضادَّة، فقال: ﴿ ألم ترَ إلى ربِّك كيف مدَّ الظل ﴾، قال ابنُ عباس، وابنُ عُمَر، وأبو العالية، وأبو مالك، ومَسْرُوق، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وإبراهيم النخَعِيُّ، والضَّحَّاك، والحسن البَصري، وقتادةُ، والسُّدِّي، وغيرهم: هو ما بين طُلوع الفجر إلى طُلوع الشمس. ﴿ ولو شاء لجَعله ساكناً ﴾، أي: دائماً لا يزول، كما قال تعالى: ﴿ قُل أرأيتم إن جَعَل الله عليكم الليل سَرْمَداً إلى يوم القِيامةِ ﴾، ﴿ قل أرأيتُم إن جَعَل الله عليكم النهارَ سَرمداً إلى يوم القِيامَةِ ﴾.

وقولُه: ﴿ثم جَعَلنا الشمسَ عليه دليلاً﴾، أي لولا أن الشمسَ تطلعُ عليه لما عُرِف، فإنَّ الضِدَّ لا يُعرَف إلا بِضِدِّه. وقال قتادةُ، والسُّدِّي: دَليلاً يتلوه ويَتبَعُه حَتَّى يأتي عَلَيه كُلِّه.

وقولُه: ﴿ ثم قبضنـاهُ ﴾، أي: الظلُّ. وقيل: الشمس. ﴿ إلينا قَبضاً يَسيراً ﴾، أي: سَهلاً. قال ابنُ عباس: سَريعاً. وقال مجاهد: خفياً. وقال السُّدِّي: قبضاً خفيًّا، حتى لا يبقى في الأرض ظلٌّ إلا تحتَ سقفٍ أو تحت شَجَرةٍ، وقد أظَلَّت الشمسُ ما فوقَه[1].

وقال أيوبُ بن موسى: ﴿ ثم قَبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾، أي: قليلاً قليلاً[1].

وقولُه: ﴿ وهُو الذي جعل لكم الليلَ لِباساً ﴾، أي: يلبَسُ الوُجودَ ويَغشاه، كما قال: ﴿ والليل إذا يغْشى ﴾ وقال: ﴿والليل إذا يغشاها﴾.

﴿ والنومَ سُباتاً ﴾، أي: قَطْعاً للحركةِ لراحةِ الأبدانِ، فإنَّ الأعضاءَ والجوارحَ تَكِلُّ من كَثرةِ الحركة في الانتشار بالنهار في المعاشِ، فإذا جاء الليلُ وسَكن سكنتِ الحركاتُ فاستراحَت، فحصلَ النومُ الذي فيه راحة البدن والرُّوح معاً.

﴿ وجعل النهار نُشوراً ﴾، أي: ينتشِرُ الناسُ فيه لمعايشهم ومَكاسِبهم وأسبابهم، كما قال تعالى: ﴿ ومن رحمته جعَلَ لكم الليلَ والنهار لِتسكُنوا فيه ولِتبتغوا من فَضْلِه ولعلكم تَشكُرون ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾ ﴾

وهذا أيضاً من قُدرته التامَّة وسلطانه العَظيم، وهو أنه تعالى يُرسلُ الرياحَ مُبشِّراتٍ، أي: بمجيء السحاب بعدها، والرياحُ أنواعٌ، في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحابَ، ومنها ما يَحمِله، ومنها ما يسُوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمّ الأرضَ[2]. ومنها ما يُلقحُ السحابَ ليُمطِر، ولهذا قال: ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طَهوراً ﴾، أي: آلة يتطهر بها، كالسَّحُور [والوَقُود][3] وما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.

(٢) أي: يكنسها.

(٣) ليس في نسخة الحرم، وفي غيرها: الوجود. والصواب من تفسير القرطبي ١٣/٣٩.

جرى مجراه. فهذا أصح ما يقال في ذلك. وأما من قال: إنه فعول بمعنى فاعل، أو مبنيٌّ للمبالغة أو التعدي فعلى كُلٍّ منهما إشكالاتٌ من حيث اللغةُ والحكمُ[1]، ليس هذا موضع بسطها، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُمر بنُ حفص بن غياث، حدثنا أبي، عن أبي جعفر الرازيِّ، حدثني حُمَيد الطويلُ، عن ثابت البُناني قال: دخلت مع أبي العالية في يوم مطير، وطُرُق البصرة قذرةٌ، فصلَّى فقلت له، فقال: ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً ﴾، قال: طهَّره ماءُ السماء.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا وُهيب، عن داود، عن سعيد بن المسيِّب في هذه الآية ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهُورا ﴾، قال: أنزله الله طهُوراً لا يُنجِّسُه شيء[2].

وعن أبي سعيد قال: قيل: يا رسولَ الله، أنتوضأُ من بئر بُضَاعَة؟ ـ وهي بئر يُلقى فيها النَّتْن ولُحومُ الكلاب ـ فقال: إن الماء طهورٌ لا يُنجِّسه شيء. رواه الشافعي، وأحمد وصححه، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الأشعث، حدثنا مُعتمرٌ، سمعت أبي يُحدِّث عن سيرين، عن خالد بن يزيدَ قال: كان عند عبد الملك بن مَرْوانَ، فذكروا الماءَ، فقال خالد بنُ يزيد: منه من السماء، ومنه ما يسقيه الغيمُ من البحر فيُعْذِبه[4] الرعدُ والبرقُ. فأمَّا ما كان من البحرِ فلا يكونُ به نبتٌ، فأمَّا النبتُ فمما كان من السماء.

ورُوِي عن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرةً إلا أنبت في الأرض عُشبةً أو في البحر لؤلؤةً. وقال غيره: في البَرِّ بُرٌّ، وفي البحر دُرٌّ.

وقوله: ﴿ لِنُحييَ به بلدةً ميتاً ﴾، أي: أرضاً قد طال انتظارُها للغيث، فهي هامدةٌ لا نباتَ فيها ولا شيء. فلما جاءها الحَيَا[5] عاشت واكتست رُباها أنواعَ الأزاهيرِ والألوان، كما قال تعالى: ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّت وربَت وأنبتَت من كلِّ زوْجٍ بَهيج ﴾.

﴿ونُسقِيَه مما خلقنا أنعاماً وأناسيَّ كثيراً ﴾، أي: وليشربَ منه الحيوانُ من أنعامٍ وأناسيَّ يحتاجون إليه غاية الحاجةِ، لشربهم وزُروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قَنَطوا وينشر رَحمته وهو الوليُّ الحميد ﴾، وقال تعالى: ﴿ فانظُر إلى آثارِ رَحمةِ الله كيف يُحيي الأرض بعد موتها إنَّ ذلك لمحيي الموتَى إنه على كل شيء قدير ﴾.

وقولُه: ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذَّكَّروا ﴾، أي: أمطرنا هذه الأرضَ دُون هذه، وسُقنا السحابَ فمرَّ على الأرض وتعدَّاها وجاوَزَها إلى الأرضِ الأخرى، [6][فأمطرتها وكفتها فجعلتها غدقةً، والتي وراءها][6] لم ينزل فيها قطرةٌ من ماءٍ، وله في ذلك الحجَّةُ البالغةُ والحكمة القاطعةُ.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٩/٣٩ ـ ٤٠، وروح المعاني للألوسي ١٩/٣٠.

(٢) أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الطهارات ١/١٤٣، والدارقطني في سننه، كتاب الطهارة ١/٢٩.

(٣) ترتيب مسند الشافعي ١/٢١، ومسند أحمد ٣/١٥ ـ ١٦، وسنن أبي داود، كتاب الطهارة ١/١٧، وعارضة الأحوذي، أبواب الطهارة ١/٨٣، والنسائي، كتاب المياه ١/١٧٤.

(٤) أي: يجعله عَذْباً.

(٥) أي: المطر.

(٦ ـ ٦) من نسخة المحرم، وفيها: غدقا. وأرضٌ غدقة: في غاية الريّ، وهي الندية المبتلة الريّ، الكثيرة الماء.

قال ابنُ مسعود وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس عامٌ بأكثرَ مطراً من عامٍ، ولكن الله يُصَرِّفه كيف يشاءُ. ثم قرأ هذه الآية: ﴿ ولقد صَرَّفناه بينهم ليذَّكَّروا فأبى أكثرُ الناسِ إلا كُفوراً ﴾[1].

أي: ليذكُروا بإحياءِ الله الأرضَ الميتة أنه قادرٌ على إحياءِ الأمواتِ والعِظامِ الرُّفاتِ أو: ليذكُر مَن مُنِعَ القَطْرَ أنما أصابَه ذلك بذنبٍ أصابَه، فيُقلِع عما هُو فيه.

وقال عُمَر[2] مولى غُفْرَة: كان جبريل ـ عليه السلام ـ في موضع الجَنَائز[3]، فقال له النبيُّ ـ ﷺ ـ: يا جبريلُ، إني أحب أن أعلم أمْرَ السحاب؟ قال: فقال جبريل: يانبيَّ الله، هذا مَلَكُ السحاب فَسَله. فقال: تأتينا صِكَاكٌ[4] مُخَتَّمة: أسقِ بلادَ كذا وكذا، كذا وكذا قطرةً. رواه ابنُ أبي حاتمٍ، وهو حديثٌ مرسَلٌ.

وقولُه: ﴿ فأبى أكثرُ الناسِ إلا كُفُوراً ﴾، قال عِكْرِمةُ: يعني الَّذين يقولون: مُطِرنا بِنَوءِ[*] كذَا وكذَا.

وهذا الذي قاله عِكْرِمة كَمَا صَحَّ في الحديث المخرَّج في صحيح مسلم، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال لأصحابه يوماً، على أثر سَمَاء أصابَتهم من الليل: وأتدرُون ماذا قالَ ربُّكم؟ قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: قال: أصبح مِن عبادِي مُؤمنٌ بي وكافر، فأما مَن قال: مُطِرنا بفَضل الله ورَحمتِه، فذاك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب. وأما من قال: مُطِرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافرٌ بي، مؤمنٌ بالكوكب»[6].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ولو شِئنا لَبَعَثنا في كلِّ قريةٍ نَذيراً ﴾ يدعُوهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكنَّا خصصناك ـ يا محمدُ ـ بالبَعثةِ إلى جَميع أهلِ الأرض، وأمرناك أن تُبَلِّغ الناسَ هذا القرآنَ، ﴿ لأنذركم به ومَن بلغ ﴾، ﴿ ومَن يكفر به من الأحزاب فالنارُ مَوعِدُه ﴾، ﴿ لِتُنذِر أمَّ القرى ومَن حولها ﴾، ﴿ قل يا أيُّها الناسُ إني رسولُ الله إليكُم جميعاً ﴾. وفي الصَّحِيحَين: «وبُعِثتُ إلى الأحمرِ والأسودِ». وفيهما: «وكان النبي يبعث إلى قومه، وبُعِثْتُ إلى الناسِ عامة»[7]. ولهذا قال: ﴿ فلا تُطِع الكافِرينَ وَجاهِدْهُم به ﴾، يعني: بالقرآنِ، قالَهُ ابنُ عباسٍ، ﴿ جِهاداً كَبيراً ﴾، كما قال تعالى: ﴿ يا أيُّها النبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمنافِقِينَ واغلُظ عَلَيهِم ﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس، والطبري ٢٢/١٩، والحاكم في مستدركه ٤٠٣/٢، والبيهقي في سُننه عنهما، كتاب صلاة الاستسقاء ٣٦٣/٣

(٢) هو عُمر بن عبد الله المدني، مترجم في الجرح ١١٩/٦.

(٣) ورد ذكر موضع الجنائز في حديث عبد الله بن عُمر الذي أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب الصلاة على الجنائز بالمصلّى والمسجد، وانظر فتح الباري ١٩٩/٣.

(٤) الصكاك: جمع صَكّ، ويجمع على صكوك أيضاً، وهو: الكتاب.

(*) كانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحرّ والبرد إلى النَّوء، وهو سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من ساعته بالمشرق

(٦) مسلم، كتاب الإيمان ٨٣/١ ـ ٨٤. وقد أخرجه البخاري في كتاب الأذان، وكتاب الاستسقاء، وغيرهما. انظر فتح الباري ٣٣٣/٢، ٥٢٢

(٧) تقدَّم الحديث في غير موضع، وانظر تعليقنا عند وُرُوده في تفسير مُفتتَح هذه السورة، سورة الفرقان.

وقولُه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهذا مِلحٌ أُجاجٌ ﴾، أي: خلَق الماءين: الحلْو والمِلح، فالحُلو كالأنهار والعُيون والآبار، وهذا هو البحر الحُلو الفُرات العذب الزُّلال. قاله ابن جُريج، واختاره ابنُ جرير. وهذا الذي لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحرٌ ساكن وهو عذبٌ فُرات. والله سبحانه إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نِعَمِه عليهم ليشكروه، فالبحرُ العذبُ هو هذا السارحُ بين الناس، فرّقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعُيوناً في كل أرضٍ، بحَسَب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم

وقولُه: ﴿ وهذا مِلحٌ أُجاجٌ ﴾، أي: مالحٌ مُرٌّ زُعاقٌ[1] لا يُستَساغُ، وذلك كالبحارِ المعروفةِ في المشارق والمغاربِ، البحر المحيط وما يتصل به من الزُّقاق[2] وبحر القُلْزم، وبحر اليمن، وبحر البصرة، وبحر فارسَ، وبحر الصينِ والهندِ، وبحر الروم وبحر الخَزَر، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تتموجِ وتضطرب وتغتلم في زمن الشتاء وشدَّة الرياح، ومنها ما فيه مَدٌّ وجَزْرٌ، ففي أول كلِّ شهر يحصُل منها مدٌّ وفيضٌ، فإذا شرع الشهر في النقصان جَزَرت[3]، حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهلَّ الهلالُ من الشهر الآخر شَرَعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرَع في النقص، فأجرى الله سبحانه وتعالى ـ وله القدرةُ التامةُ ـ العادةَ بذلك. فكل هذه البحار الساكنة خلَقها الله سبحانه وتعالى مالحةَ الماء، لئلا يحصُلَ بسببها نَتْنُ الهواء، فيَفسُدَ الوجودُ بذلك، ولئلا تَجْوَى[4] الأرض بما يموتُ فيها من الحيوانِ، ولما كان ملؤُها ملحاً كان هواؤها صَحيحاً وَمِيتَتُها طيبة، ولهذا قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقد سُئِل عن ماءِ البحر: أنتوضأ به؟ فقال: «هو الطهورُ ماؤه، الحلُّ ميتتُه». رواه الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمدُ، وأهل السُّنَن بإسنادٍ جيدٍ[5].

وقولُه: ﴿ وَجَعَلَ بينهُما ﴾، أي: بين العَذْب والمالح ﴿ بَرْزَخاً ﴾، أي: حاجزاً، وهو اليَبس من الأرض، ﴿وحِجراً محجوراً﴾، أي: مانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر، كما قال: ﴿مَرَجَ البحرين يَلتقيانِ * بينهما بَرْزَخٌ لا يبغيان * فبأيِّ آلاءِ ربكما تُكذِّبان﴾، وقال تعالى: ﴿أَمَّن جعلَ الأرضَ قراراً وجَعَل خلالها أنهاراً وجَعَل لها رواسيَ وَجَعَل بين البحرين حاجزاً أإلَهٌ مَعَ الله بل أكثرهُم لا يعلمُون﴾.

وقولُه: ﴿ وهو الذي خَلَق من الماء بَشَرا فَجَعَلَه نَسَباً وصِهْراً وكان ربُّك قديراً ﴾، أي: خلَق الإنسان من نُطفةٍ ضعيفةٍ، فسَوَّاه وعَدَّله، وجَعَله كاملَ الخِلْقَةِ، ذكراً أو انثى، كما يشاء، ﴿ فَجَعَلَه نسباً وصِهْراً ﴾، فهو في ابتداءِ أمره وَلَدٌ نَسِيبٌ، ثم يتزوَّج فيصير صِهراً، ثم يَصيرُ له أصهارٌ وأختانٌ وقَرَابات. وكل ذلك من ماءٍ مَهين. ولهذا قال: ﴿ وكان ربُّك قَديراً ﴾.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى

---

(١) الزُّعاق من الماء: المرّ الغليظ لا يطاق شُرْبُه.

(٢) البحر المحيط كان يدعى البحر الأخضر، وهو كما يقول ياقوت: محيط بالدنيا كلها والزُّقاق مجاز البحر بين طنجة والجزيرة الخضراء بالأندلس. وبحر الخزَر: هو بحر طبرستان وجرجان

(٣) جَزر البحرُ: انحسرَ ملؤُه.

(٤) جَوِي الماء: أنتن وتغيَّر

(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة، و٩٦ من سورة المائدة، وخرّجه هنالك

﴿ ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن جَهْلِ المشركين في عبادتهم غيرَ الله من الأصنام، التي لا تملكُ لهم نفعاً ولا ضَرّاً، بلا دليلٍ قادَهم إلى ذلك، ولا حُجَّةٍ أدتهم إليه، بل بمجرَّدِ الآراء، والتشهي والأهواء، فهم يُوالونَهم ويُقاتِلون في سَبيلهم، ويُعادُون الله ورسوله والمؤمنين فيهم، ولهذا قال: ﴿ وكان الكافر على ربِّه ظَهيراً ﴾، أي: عَوناً في سبيل الشيطانِ على حِزْبِ الله، وحزبُ الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم يُنصَرُون ● لا يستطيعُون نصرَهم وهُم لهم جند مُحضَرُون﴾، أي: آلهتهم التي اتَّخذُوها من دونِ الله لا تَمْلِكُ لهم نصراً، وهؤلاءِ الجهلَةُ للأصنام جندٌ مُحضَرون، يقاتلون عنهم، ويَذبُّون عن حَوْزَتهم، ولكنَّ العاقبةَ والنُّصرةَ لله ولرسوله في الدنيا والآخرة.

قال مجاهدٌ: ﴿ وكان الكافرُ على رَبِّه ظهيراً ﴾، قال: يظاهر الشيطان على مَعصيةِ الله، يُعِينه. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ وكان الكافرُ على ربه ظهيراً ﴾، يقول: عوناً للشيطانِ على رَبِّه بالعداوةِ والشِرْكِ. وقال زيدُ ابن أسلم: ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾، قال: مُوالياً[1].

ثم قال تعالى لرسوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿ وما أرسلناكَ إلا مُبشِّراً ونَذِيراً ﴾، أي: بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مُبَشِّراً بالجنة لمن أطاع الله، ونَذِيراً بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ لمن خَالَفَ أمرَ الله.

﴿قل ما أسألُكُم عليه من أجرٍ﴾، أي: على هذا البلاغِ وهذا الإنذار من أُجرةٍ أطلبُها من أموالِكُم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله، ﴿ لمن شاءَ منكم أن يستقِيمَ ﴾، ﴿ إلا مَن شاء أن يتَّخِذَ إلى رَبِّه سبيلا ﴾، أي: طريقاً ومَسْلَكاً ومنهجاً يَقْتَدِي فيها بما جئتَ به.

ثم قال: ﴿ وتوكل على الحيِّ الذي لا يموتُ ﴾، أي: في أمورِكَ كُلِّها كُن متوكِّلاً على الله الحيِّ الذي لا يموتُ أبداً، الذي هو ﴿ الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكلِّ شيءٍ عليم ﴾، الدائمُ الباقي السَّرْمَدِيُّ الأبديُّ، الحيُّ القيُّوم ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، اجعله ذُخرَك وملجأك، وهو الذي يُتَوكَّل عليه ويُفزَع إليه، فإنه كافيك وناصرُك ومؤيِّدك ومُظفِّرك، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بَلِّغ ما أُنزِلَ إليكَ من رَبِّكَ وإن لم تفعل فما بَلَّغْتَ رسالته والله يَعصِمُكَ من الناسِ ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَة، حدثنا عبدُ الله بن محمَّد بن عَلِي بن نُفَيل قال: قرأت على مَعقِل ـ يعني ابن عُبيد الله ـ عن عبد الله بن أبي حُسَين، عن شهر بن حَوْشَب قال: لَقِيَ سَلْمَانُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في بعض فجاج المدينة، فَسجد له، فقال: لا تسجُد لي يا سلمان، واسْجُد للحيِّ الذي لا يموتُ. وهذا مُرسَل حَسَن[2].

وقولُه تعالى: ﴿ وسَبِّح بحَمْدِه ﴾، أي: اقرِن بين حمْدِه وتَسبيحه، ولهذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «سُبحانك اللهُمَّ رَبَّنا وبحمدك»[3] وقال: ﴿ هو الرحمنُ آمنَّا به وعَلَيه توكَّلنا ﴾ أي: أخلص له العبادة

---

(١) أخرج هذا الأثر ابن أبي حاتم في تفسيره، وانظر الطبري ١٩/٢٦-٢٧.

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٠٠ من سورة يوسف.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم، فتح الباري، تفسير سورة النصر، ٨/٧٣٣، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٣٥٠ وانظر الحديث مسنداً فيما يأتي عند تفسير الآية الثالثة من سورة النصر.

وفجاج، جمع فجّ، وهو الطريق الواسع البعيد.

والتوكل، كما قال تعالى ﴿ربُّ المشرق والمغرب لا إله إلا هُو فاتّخذهُ وكيلا﴾ وقال ﴿فاعبُده وتوكّل عليه﴾.

وقولُه: ﴿وكَفَى به بذُنُوبِ عِبادِهِ خَبيراً﴾، أي: لعلمه التامّ الذي لا يخفى عليه خافيةٌ، ولا يعزُب عنه مثقالُ ذرّةٍ.

وقولُه: ﴿الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما في ستّةِ أيام﴾، أي: هو الحيُّ الذي لا يموتُ، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومليكُه، الذي خَلَقَ بقدرته وسُلطانه السموات السبعَ في ارتفاعها واتّساعها، والأرضين السبعَ في سفولها وكثافتها، ﴿في ستّةِ أيامٍ ثم استوَى على العرش الرحمنُ﴾، أي: يُدبّر الأمر، ويقضي الحقَّ، وهو خيرُ الفاصلين.

وقولُه: ﴿فاسأل به خَبيراً﴾، أي: استعلم عنهُ من هو خبيرٌ به عالمٌ به فاتّبعه واقتدِ به، وقد عُلم أنه لا أحدَ أعلمُ بالله ولا أخبرُ به من عَبدِه ورسوله مُحمّدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ سيّدِ وَلَدِ آدم على الإطلاق، في الدنيا والآخرة، الذي لا يَنطِقُ عن الهوى، إن هُو إلا وحيٌ يوحَى ـ فما قاله فهو حقٌّ، وما أخبر به فهو صدقٌ، وهو الإمامُ المحكَم الذي إذا تنازَعَ الناسُ في شيءٍ وَجَب رَدُّ نزاعهم إليه، فما يُوافق أقواله وأفعاله فهو الحقُّ، وما يُخالِفُها فهو مردودٌ على قائله وفاعله، كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿فإن تنازعتُم في شيءٍ فرُدّوه إلى الله والرسولِ﴾، وقال: ﴿وما اختلفتُم فيه من شيءٍ فحكمُه إلى الله﴾، وقال تعالى ﴿وتمّت كلماتُ[1] ربِّك صِدقاً وعدلاً﴾، أي: صدقاً في الإخبارِ وعدلاً في الأوامرِ والنّواهي، ولهذا قال: ﴿فاسأل به خَبيراً﴾. قال مجاهد في قوله: ﴿فاسأل به خبيراً﴾، قال: ما أخبرتك من شيءٍ فهو كما أخبرتك. وكذا قال ابن جُرَيج[2]

وقال شِمْرُ بن عَطيّة في قوله: ﴿فاسأل به خَبيرا﴾، قال: هذا القرآن خبيرٌ به[2].

ثم قال تعالى منكراً على المشركين الذين يَسجُدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وإذا قيل لهم اسجُدوا للرحمنِ قالوا وما الرحمنُ﴾، أي: لا نعرف الرحمن. وكانوا يُنكرون أن يُسمّى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلكَ يوم الحُديبية حين قال النبي ـ ﷺ ـ للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتُب: باسمِكَ اللّهُمّ»[3] ولهذا أنزل الله. ﴿قل ادعُوا الله أو ادعُوا الرحمنَ أيًّا ما تدعُوا فله الأسماء الحسنى﴾، أي: هو الله وهو الرحمن. وقال في هذه الآية ﴿وإذا قيل لهم اسجُدوا للرحمن قالوا وما الرحمنُ﴾؟ أي: لا نعرفه ولا نُقرّ به. ﴿أنسجُد لما تأمرنا﴾، أي: لمجرد قولك؟! ﴿وزادَهم نُفُورا﴾. أما المؤمنون فإنهم يعبُدون الله الذي هو الرحمنُ الرحيم، ويُفرِدُونه بالإلهية ويسجدون له. وقد اتفق العلماءُ ـ رحمهم الله ـ على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروعٌ السجودُ عندها لقارئِها ومُستَمِعها، كما هو مُقرَّر في موضعه، والله أعلم.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

---

(١) كذا في نسخة الحرم (كلماتُ) جمعاً، وبها قرأ من السبعة من عدا الكوفيين، وقرأ هؤلاء (كلمةُ) انظر الإقناع لابن الباذش ٦٤٢/٢

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، وأثر ابن جريج في تفسير الطبري ٢٨/١٩

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، فتح الباري ٣٣١/٥، والإمام أحمد في مسنده ٣٢٥/٤ وانظره في سيرة ابن هشام ٣١٧/٢ وانظر كذلك الآثار الواردة في تفسير سورة الفتح

يقول تعالى مُمَجِّداً نفسه ومُعظِّماً على جميل ما خَلَق في السماء من البُرُوجِ ، وهي الكواكِبُ العِظامُ، في قول مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وأبي صالح، والحَسن، وقتادة.

وقيل: هي قصورٌ في السماء للحَرَس، يُروَى هذا عن علي، وابن عباس، ومحمد بن كَعب، وإبراهيم النخعي، وسُليمان بن مِهْران الأعمش. وهو رواية عن أبي صالح أيضاً. والقول الأول أظهرُ، اللهم إلا أن يكون الكواكب العِظَامُ هي قصور للحرس، فَيجتمع القولانِ، كما قال تعالى: ﴿ ولقد زَيَّنا السماءَ الدُّنيا بمصابيحَ وجعلناها رجوماً للشياطينِ ﴾، ولهذا قال: ﴿ تَبارك الذي جَعَل في السماء بُرُوجاً وجعل فيها سِرَاجاً ﴾، وهي الشمسُ المُنيرة، التي هي كالسِراجِ في الوُجُود، كما قال: ﴿ وَجَعلنا سِرَاجاً وهاجاً ﴾.

﴿ وقَمراً مُنيراً ﴾، أي: مُضيئاً مُشرقاً بنورٍ آخَرَ ونوعٍ وفَنٍّ آخرَ غير نُورِ الشمس، كما قال: ﴿ وهو الذي جَعَل الشمس ضياءً والقَمَرَ نُوراً ﴾، وقال مخبراً عن نوح ـ عليه السلام ـ أنه قال لقومه: ﴿ ألم تَرَوا كيف خلق الله سبعَ سَمٰواتٍ طِباقاً ● وجعل القَمَر فِيهنَّ نوراً وجَعَل الشمسَ سِراجاً ﴾.

ثم قال: ﴿ وهو الذي جعَلَ الليل والنهارَ خلفةً ﴾، أي: يَخلُفُ كُلُّ واحدٍ منهما الآخَرَ، يتَعاقبانِ، إذا ذَهَب هذا جاء هَذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال: ﴿ وسَخَّر لكُم الشمسَ والقمر دائبين وسَخَّر لكم الليل والنهار ﴾، وقال ﴿ يُغشِي الليل النهار يطلُبه حثيثاً والشمس القمر والنجوم مسخراتٍ بأمره ﴾ وقال: ﴿ لا الشمس يَنبغي لها أن تدرِكَ القَمَر ولا الليلُ سابِقُ النهارِ وكل في فَلَكٍ يسبَحُون ﴾.

وقولُه: ﴿ لمن أراد يَذَّكَّر أو أراد شُكُوراً ﴾، أي: جَعَلهما يتعاقبان، توقِيتاً لِعبادةِ عباده له، فمن فاته عملٌ في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عَمَلٌ في النهار استدركَه في الليل. وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يبسُط يده بالليل ليتوبَ مُسيءُ النهارِ ويبسط يده بالنهار ليتوبَ مُسيء الليل»[1].

قال أبو داود الطيالسي: حدَّثنا أبو حُرَّةَ، عن الحسن: أنَّ عُمر بن الخطاب أطالَ صلاةَ الضُّحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تَصنَعُه؟ فقال: إنَّه بَقِي عَليَّ من وِرْدِي شيء، فأحببت أن أُتِمَّه، أو قال: أقضِيه. وتَلَا هذه الآية: ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَةً لمن أراد أن يذكَّر أو أراد شكوراً ﴾[2].

وقال عَليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وهو الذي جَعل الليل والنهار خِلفةً ﴾ يقول: من فاته شيءٌ من الليل أن يعمله أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل[3]. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن.

وقال مجاهدٌ: ﴿ خِلْفَةً ﴾، أي: مُختلِفَين، هذا بِسَوادِه، وهذا بِضيائِه.

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾

هذه صفاتُ عباد الله المؤمنين ﴿ الذين يمشُون على الأرض هَوناً ﴾، أي: بِسَكِينةٍ ووَقارٍ من غيرِ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب التوبة ٤/٢١١٣، والنسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ٦/٤٧٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره. وانظر الدر المنثور ٦/٢٧٠.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً، والطبري ١٩/٣٠-٣١.

خَبْرِيَةٍ(١) ولا استكبار، كما قال: ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾، فأما هؤلاء فإنهم يَمشُون من غير استكبار ولا مَرَحٍ، ولا أشَرٍ ولا بَطَرٍ، وليس المرادُ أنهم يمشون كالمرضَى من التصانُع تَصنُّعاً ورياءً، فقد كان سيِّدُ ولَدِ آدم ـ ﷺ ـ إذا مشى كأنما ينحط من صبب(٢) وكأنما الأرض تُطوَى له. وقد كَرِه بعضُ السلف المشي بتضعُّفٍ وتَصنُّعٍ، حتى رُوِي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رُوَيداً، فقال: ما بالُكَ؟ أأنت مريضٌ؟ قال: لا، يا أميرَ المؤمنين. فعلاه بالدِّرّة، وأمره أن يمشي بقوّة(٣). وإنما المراد بالهَوْن ها هنا السكينةُ والوقارُ، كما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إذا أتيتُم الصلاةَ فلا تأتوها وأنتم تسعَون، وأتوها وعليكُم السَّكِينَةُ، فما أدركتم فصَلّوا، وما فاتكم فأتِمُّوا(٤).

وقال عبد الله بن المبارك: عن معمر، عن يحيى(٥) بن المختار، عن الحسن البصري في قوله ﴿ وعبادُ الرحمنِ الذين يمشُون على الأرض هَوْناً ﴾ قال: إن المؤمنين قوم ذُلُل، ذلّت منهم ـ والله ـ الأسماعُ والأبصارُ والجوارحُ، حتى تَحسَبُهم مرضَى وما بالقوم من مَرَضٍ، وإنهم لأصحّاء، ولكنّهم دخلهم من الخوف ما لم يدخُل غيرَهم، ومَنَعهم من الدنيا علمُهم بالآخرة، فقالوا: الحمدُ لله الذي أذهب عنا الحزن. أما والله ما أحزَنَهم حَزَنُ الناس، ولا تعاظَمَ في نفوسهم شيءٌ طَلَبوا به الجنّة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يتعزَّ بعَزاءِ الله تَقَطَّعُ نفسُه على الدنيا حَسَراتٍ، ومن لم يَرَ لله نعمةً إلا في مطعَمٍ أو في مَشرَبٍ، فقد قلّ علمُه وحضر عذابُه(٦).

وقولُه: ﴿وإذا خاطَبَهم الجاهلون قالوا سَلاماً﴾، أي: إذا سَفِهَ عليهم الجُهّالُ بالسَّيِّء لم يقابلُوهم عليه بمثله، بل يعفُون ويصفَحُون، ولا يقولُون إلا خيراً، كما كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ لا تزيده شِدّةُ الجهل عليه إلا حِلماً، وكما قال تعالى: ﴿ وإذا سَمِعُوا اللغو أعرضُوا عنه وقالوا لنا أعمالُنا ولكُم أعمالُكم سلامٌ عليكُم لا نبتغي الجَاهِلينَ ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسودُ بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي خالد الوالبي، عن النعمان بن مُقَرِّن المُزَني قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ وسَبَّ رجلٌ رجلاً عنده، قال: فجعل الرجلُ المسبوبُ يقول: عليكَ السلامُ. قال: فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أمَا إنّ مَلَكاً بينكما يَذُبُّ عنك، كلّما شتمكَ هذا قال له بل أنت، وأنتَ أحقُّ به. وإذا قال له: عليكَ السلامُ، قال: لا، بل عليك، وأنتَ أحقُّ به، إسنادٌ حسن(٧)، ولم يُخرِجُوه.

وقال مجاهدٌ: ﴿ قالوا سلاماً ﴾، يعني قالوا سداداً. وقال سعيد بن جُبير: ردُّوا معروفاً من القول

---

(١) الخبريَّةُ: التكبُّرُ.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، عارضة الأحوذي ١٣/١١٦ ـ ١١٧، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ليس إسناده متّصل، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/٩٦، ١١٦ ـ ١١٧، ١٢٧، ١٣٣ ـ ١٣٤، ١٥١، من طرق عن الإمام علي والصَّبَبُ: الموضعُ المُنْحَدِرُ.

(٣) أخرجه الآمدي في شرح ديوان الأعشى، الدر المنثور ٦/٢٧٢.

(٤) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الجمعة ٢/٣٩٠، ومسلم، كتاب المساجد ١/٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٥) في نسختي الحرم والأزهر: عُمر بن المختار، والصواب من نسخة، وتفسير الطبري، وترجمة يحيى بن المختار في الجرح لابن أبي حاتم ٩/١٩١، وانظر ترجمة الحسن البصري في تهذيب الكمال ٦/١٠٢.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/٣٤.

(٧) مسند أحمد ٥/٤٤٥.

وقال الحسن البصري: «وقالوا: سلام عليكم، إن جُهِل عليهم حَلُموا، يُصاحبون عبادَ الله نهارَهُم بما تسمعُون. ثم ذَكر ليلَهُم خيرُ ليل»[1].

وقوله: ﴿ والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً ﴾، أي: في عبادَتِه وطاعتِه، كما قال تعالى: ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجَعُون، وبالأسحار هم يستغفرون ﴾. وقال: ﴿ تتجافى جنُوبهم عن المضاجع يدعُون ربَّهم خوفاً وطمعاً، ومما رزقناهم يُنفقون﴾. وقال: ﴿أمن هو قانتٌ آناء الليلِ ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرةَ ويرجُو رحمةَ ربِّه﴾ . الآية، ولهذا قال: ﴿ والذين يقولُون ربَّنا اصرف عنا عذابَ جهنم؛ إن عذابَها كانَ غراماً ﴾، أي: ملازماً دائماً، كما قال الشاعر[2]:

إنْ يُعَذِّبْ يكُنْ غَراماً، وإن يُعـطِ جَزيلا فَإنَّه لا يُبَالي

ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿ إنَّ عذابها كان غراماً ﴾: كلُّ شيء يُصيبُ ابنَ آدم ويزولُ عنه فليس بغرام، وإنما الغَرَامُ اللازمُ ما دامت السمواتُ والأرضُ[3]. وكذا قال سليمان التَّيميُّ.

وقال محمد بن كعب القُرظيّ: ﴿إنَّ عذابها كان غَراماً﴾ يعني: ما نَعِمُوا في الدنيا؛ إنَّ الله سأل الكُفَّار عن النعمةِ فلم يَرُدُّوها إليه، فأغرمَهُم فأدخلَهُم النار.

﴿ إنها ساءت مُستقراً ومُقاماً ﴾، أي: بئسَ المنزلُ منزلاً، وبئس المَقيلُ مَقيلاً[4].

قال ابنُ أبي حاتم عند قوله: ﴿إنها ساءت مُستقرًا ومُقاماً﴾:

حدثنا أبي، حدثنا الحسنُ بن الربيع،حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مالك بن الحارث قال: إذا طُرِح الرجل في النارِ هَوَى فيها، فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل مكانَك حتى تُتحفَ[5]، قال: فيُسقَى كأساً من سُمِّ الأساوِدِ[6] والعقارب، قال: فيميزُ الجلدُ[7] على حِدَةٍ، والشعَر على حِدَة، والعصبَ على حِدَةٍ، والعُروقَ على حِدَةٍ.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عُبيد بن عُمير قال: إن في النار لجباباً[8] فيها حيَّاتٌ أمثال البُخت[9]، وعقاربُ أمثالُ البغال الدُّلْم[10]، فإذا قُذِف بهم في النار خَرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارِهم وأشعارِهم، فكَشَطت لُحومَهُم إلى أقدامِهم، فإذا وَجدت حَرَّ النار رَجعت.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسنُ بن مُوسى، حدثنا سَلَّام ـ يعني ابن مسكين ـ عن أبي ظِلَال، عن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ١٩/٣٥، وفي الدرّ المنثور عن عبد بن حميد ٦/٢٧٤
(٢) الأعشى الكبير، ديوانه ٩، وتفسير الطبري ١٩/٣٥.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وغير واحد، انظر الدر المنثور ٦/٢٧٤.
(٤) في نسختي الحرم والأزهر: بئس المنزل منظراً، وبئس المقيل مقاماً والمثبت من نسخة
(٥) اتحفه: أعطاه تُحفةً، وهي: ما تقدمت له من البرّ واللطف، والتُحف أيضاً. والتُحفُ. كذا للعيش.
(٦) الأساود: جمع أسود، وهو أخبث الحيات
(٧) مار الشيء: عزله وميزه.
(٨) الجباب: جمع جُبّ، وهو البئر
(٩) البُخت: الإبل الخراسانية، واحدها بُختيّ
(١٠) في نسخة الحرم: الدُّهْم. والدُّلْم: جمع أدلم، وهو الأسود

أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: إن عبداً في جهنَّم لَينادي ألف سنة: يا حَنَّان، يا منَّان. فيقولَ الله لجبريلَ: اذهب فأتني بعبدي هذا. فينطلق جبريلُ فيجدُ أهل النار مُكبِّين يبكون، فيرجعُ إلى ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ فيخبره، فيقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ائتني به فإنه في مكان كذا وكذا. فيجيءُ به فيُوقفه على ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ فيقول له: يا عبدي، كيف وجدت مكانك ومَقِيلك؟ فيقول: يا ربِّ، شرَّ مكانٍ وشرَّ مَقيل! فيقول: رُدُّوا عبدي. فيقول: يا ربِّ، ما كنتُ أرجو إذ أخرجتني منها أن تردَّني فيها! فيقول: دعُوا عبدي[1].

وقوله: ﴿ والذين إذا أنفقُوا لم يُسرفوا ولم يقترُوا وكان بين ذلك قوامًا﴾، أي: ليسُوا بمبذِّرين في إنفاقهم فيصرفُون فوقَ الحاجةِ، ولا بُخلاء على أهليهم فيُقصِّرون في حقِّهم فلا يكفُونهم، بل عدلاً خياراً، وخيرُ الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾، كما قال: ﴿ ولا تجعل يدَكَ مغلولةً إلى عُنقِك ولا تبسُطها كلَّ البَسطِ فتقعُدَ ملُوماً محسُوراً ﴾.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عصام بن خالد، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مَريَم الغسَّاني، عن ضَمْرَة، عن أبي الدَّرْدَاء، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: مِن فِقهِ الرجُل رِفقُه في معيشته[2]. لم يُخرجُوه.

وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا أبو عُبَيدة الحدَّاد، حدثنا سُكَين بنُ عبد العزيز العَبْدي، حدثنا إبراهيم الهَجَري عن أبي الأحوص، عن عبدِ الله بن مَسعُودٍ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما عَالَ من اقتصَد[3]. لم يُخرجُوه.

وقال الحافظ أبو بكر البزَّارُ: حدثنا أحمدُ بن يحيى، حدثنا إبراهيمُ بن محمد بن ميْمُون، حدثنا سعيد بن حكيم، عن مُسلم بن حبيب، عن بلال ـ يعني العَبْسي ـ عن حُذيفة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ما أحسنَ القَصْدَ في الغِنَى، وأحسنَ القصدَ في الفَقرِ، وأحسنَ القصدَ في العبادة[4]. ثم قال: لا نعرفُه يُروَى إلا من حديثِ حُذيفة رضي الله عنه.

وقال إياس بن مُعاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سَرَفٌ. وقال غيره: النفقةُ في معصية الله. وقال الحسنُ البصريُّ: ليسَ النفقةُ في سبيلِ الله سَرَفٌ، والله أعلم.

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾

قال الإمامُ أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن شَقِيق، عن عبد الله ـ هو ابن مسعُود ـ قال: سُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أيُّ الذنبِ أكبرُ؟ قال: أن تجعلَ لله نِدًّا وهو خلَقَك. قال: ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتلَ ولدكَ خشيةَ أن يَطْعَمَ معك. قال: ثم أيٌّ؟ قال: أن تُزاني حَليلةَ جارك. قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك:

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٢٣٠.
(٢) مسند أحمد ٥/ ١٩٤.
(٣) مسند أحمد ١/ ٤٤٧.
(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الزهد ٤/ ٢٣٢. وانظر مجمع الزوائد ١٠/ ٢٥٢.

﴿ والذين لا يدعُون مع الله إلَهاً آخر ولا يقتُلون النفس التي حَرَّم الله بالحقّ ولا يزنـون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾[١].

وهكذا رواه النسائي عن هَنَّاد بن السريّ، عن أبي مُعاوية، به[١]. وقد أخرجه البخاري ومسلم، من حديث الأعمش ومنصور ـ زاد البخاري: وواصل ـ ثلاثتهم عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن أبي مَيْسَرة عَمْرو بن شُرَحْبيل، عن ابن مَسْعُود، به، فالله أعلم، ولفظُهما عن ابن مسعود قال: قلتُ: يا رسول الله، أيّ الذنب أعظم؟ الحديث[١]. طريقٌ غريب.

وقال ابنُ جُرَير: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازيُّ، حدثنا عامر بن مُدرِك، حدثنا السَّري ـ يعني ابن إسماعيل ـ حدثنا الشعبي، عن مَسْرُوق قال: قال عبد الله: خَرَج رسول الله ـ ﷺ ـ ذاتَ يومٍ فاتبعتُه، فجلس على نَشَزٍ[٢] من الأرض وقعدتُ أسفلَ منه، ووجهي حيال ركبتيه، فاغتنمتُ خَلْوَتَهُ وقلتُ: بأبي أنتَ وأمّي يا رسولَ الله، أيُّ الذنوبِ أكبرُ؟ قال: أن تدعُوَ لله نِدّاً وهو خلَقَك. قلت: ثُمَّ مَه؟ قال: أن تقتُلَ ولَدَك كراهيةَ أن يطعَم معك. قلت: ثم مه؟ قال: أن تُزَانِي حَلِيلَةَ جَارِك. ثم قرأ: ﴿ والذين لا يدعُونَ مع الله إلَهاً آخر ﴾ . . . إلى آخر الآية[٣].

وقال النسائي: حدثنا قُتَيبةُ بن سعيد، حدثنا جرير، عن منصور، عن هلال بن يِساف، عن سَلَمة بن قَيسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ في حَجّة الوداع: ألاَ إنما هي أربع، فما أنا بأشحَّ عليهن مِنّي منذُ سَمِعتُهنّ من رسول الله ـ ﷺ ـ: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرِقُوا[٤].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَلِيّ بن المَدِيني ـ رحمه الله ـ حدثنا محمد بن فُضَيل بن غَزْوَانَ، حدثنا محمد ابن سعد الأنصاري، سَمِعت أبا ظَبْيَةَ الكَلاعي سَمِعت المِقداد بن الأسود ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: ما تقولُون في الزنا؟ قالوا: حَرَّمه الله ورسوله، فهو حَرَام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: لأن يَزْنِيَ الرجلُ بعَشر نسوة أيسرُ عليه من أن يَزْني بامرأةِ جَاره. قال: ما تقولون في السَّرقة؟ قالوا: حَرَّمها الله ورسوله، فهي حرامٌ. قال: لأَن يَسرِق الرجلُ من عشرةِ أبياتٍ أيسَرُ عليه من أن يسرِق مِن جَاره[٥].

وقال أبو بكر بن أبي الدُّنيا: حدثنا عَمَّار بن نَصر، حدثنا بَقِيَّةُ، عن أبي بكر بن أبي مَرْيَم، عن الهيثم بن مالك الطَائي عن النبي ـ ﷺ ـ: قال: مَا مِن ذَنْبٍ بعد الشِرْكِ أعظَمَ عند الله من نُطفةٍ وَضَعها رجلٌ في رَحِم لا يحلُّ له[٦].

وقال ابن جُرَيج: أخبرني يَعلى، عن سَعِيد بن جُبَير أنه سَمِعه يُحدِّث عن ابن عَبَّاس: أنَّ ناساً من أهل الشرك قَتَلوا فأكثَرُوا، وزَنَوا فأكثَرُوا، ثم أتَوا مُحمَّداً ـ ﷺ ـ فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعُو إليه لَحَسَنٌ، لو تُخبِرُنا

---

(١) مسند أحمد ٣٨٠/١. وأخرجه النسائي من هذه الطريق في كتاب التفسير من سننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف للمزّي ٤٦/٧ فأمّا حديث الشيخين فقد تقدم في سورة البقرة، الآية ٢٢، والأنعام، الآية ١٥١، ويوسف، الآية ١٠٦، وخرّجناه هنالك.
(٢) النَّشَز: المرتفع من الأرض.
(٣) تفسير الطبري ٤٢/١٩.
(٤) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزّي ٥١/٤.
(٥) مسند أحمد ٨/٦.
(٦) تقدّم عند تفسير الآية ٣٢ من سورة الإسراء.

أنْ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارةً، فنزلت ﴿ والذين لا يدعُون مع الله إلَهاً آخر ولا يقتُلون النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ ولا يزنُونَ ﴾، ونزلت: ﴿ قُلْ يا عبادِيَ الذي أسرفُوا على أنفسِهم لا تقنطُوا من رحمةِ الله إن الله يغفرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾(١).

وقال ابنُ أبي حَاتِمٍ: حَدَّثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمر، حدثنا سُفيانُ، عن عمرو، عن أبي فاختة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لرجل: «إنَّ الله ينهاك أن تعبُدَ المخلوقَ وتدَعَ الخالق، وينهاك أن تقتل ولدك وتغذُو كَلْبَكَ، وينهاك أن تزني بحَليلة جَارِك. قال سفيان: وهو قولُه: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفسَ التي حَرّمَ الله إلّا بالحقّ ولا يزنُونَ ﴾

وقولُه: ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ ـ رُوي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: ﴿ أثاماً ﴾: وادٍ في جهنم.

وقال عكرمة: ﴿ يلق أثاماً ﴾، أوديةٌ في جَهَنّم يُعذَّب فيها الزُّناة. وكذا رُوِيَ عن سعيد بن جُبَير، ومجاهد..

وقال قتادةُ. ﴿ يلْقَ أثاماً ﴾: نَكَالاً، كنا نُحدَّث أنه وادٍ في جَهَنّم. وقد ذُكِر لنا أن لُقمانَ كان يقُول: يا بُنَيّ، إيَّاك والزِّنَا، فإنّ أوّلَه مخافةٌ وآخِرَه نَدَامةٌ(٢).

وقد وَرَدَ في الحديث الذي رواه ابنُ جرير وغيره، عن أبي أُمَامَةَ الباهِلِيِّ، موقوفاً ومرفوعاً: أنَّ «غيّاً، وأثاماً، بئرانِ في قَعْرِ جَهَنَّمَ»(٣). أجارنا الله منها بمنّه وكَرَمِه.

وقال السُّدّي: ﴿ يلق أثاماً ﴾ جزاء. وهذا أشبهُ بظاهِرِ الآية. ولهذا فسّره بما بعده مُبدلاً منه، وهو قوله: ﴿ يُضاعَفْ له العذابُ يومَ القيامةِ ﴾، أي: يُكَرّر عليه ويُغلّظ، ﴿ ويخلُد فيه مُهاناً ﴾، أي: حَقِيراً ذَلِيلاً.

وقولُه. ﴿ إلّا مَن تاب وآمَنَ وعمل عَمَلاً صالحاً ﴾، أي: جزاؤُه على ما فَعَل من هذه الصفاتِ القبيحةِ ما ذُكِر ﴿ إلّا من تاب ﴾ في الدنيا إلى الله من جَميع ذلك، فإن الله يتوبُ عليه. وفي ذلك دلالة على صحةِ توبة القاتل، ولا تعارُضَ بين هذه وبين آية النساء: ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤُه جهنّمُ خالداً فيها وغضِب الله عليه ولَعنه وأعدَّ له عذاباً عظيماً ﴾، فإن هذه وإن كانت مَدَنية إلا أنها مُطلَقَةٌ، فتُحمل على مَن لم يتب، لأن هذه مُقيَّدة بالتوبة، ثم قد قال تعالى: ﴿ إنّ الله لا يغفرُ أن يُشرَكَ به ويغفرُ ما دُونَ ذلك لمن يشاء ﴾. وقد ثبتت السنةُ الصحيحَةُ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ بصحة توبةِ القاتلِ، كما ذُكِر مُقَرّراً من قصة الذي قَتَل مائة رَجُلٍ ثم تاب، وقُبِل مِنه(٤). وغير ذلك من الأحاديث.

وقولُه: ﴿ فأُولئك يُبدِّل الله سَيِّئاتِهم حسناتٍ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾، في معنى قوله: ﴿ يُبَدِّلُ الله سَيِّئاتهم حَسَناتٍ ﴾، قولان أحدُهما: بَدَّلوا مكانَ عملِ السيئاتِ بعملِ الحسنات، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ فأولئك يُبَدِّل الله سَيِّئاتهم حسناتٍ ﴾ قال. هم المؤمنونَ، كانوا من قبل إيمانِهم على السيِّئاتِ، فَرَغّبَ الله بهم عن ذلك فَحَوَّلهم إلى الحسناتِ، فأبدلَهم مكانَ السيِّئاتِ الحسناتِ(٥).

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، تفسير سورة الزمر ٥٤٩/٨، ومسلم، كتاب الإيمان ١١٣/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٤٤ ـ ٤٥ وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠٦/٨ ـ ٢٠٧، وانظر مجمع الزوائد ٣٨٩/١٠.
(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٩٣ من سورة النساء، وخرّجناه هنالك.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ٤٦/١٩. ورغب به عنه: زهّدنا به عنه، وكرهه له.

ورَوَى مجاهد، عن ابن عباس أنه كان يُنشِدُ عند هذه الآية(١):

مُـبَدَّلْـنَ بَـعْـدَ جِـرَّةٍ صَـرِيـفَـا ... وَبَـعْـدَ طُـولِ النَّفَسِ الـوَجِـيـفَـا

يعني: تغيَّرت الأحوالُ إلى غيرِها.

وقال عطاءُ بن أبي رَبَاح: هذا في الدنيا، يكونُ الرجلُ على هيئةٍ قبيحةٍ، ثم يُبَدِّلُه الله بها خيراً.

وقال سَعيد بنُ جُبير: أبدلهم بعبادةِ الأوثانِ عبادةَ الله، وأبدَلَهم بقتالِ المسلمين قتالاً مع المسلمين للمشركينَ، وأبدَلَهم بنكاحِ المشركاتِ نكاحَ المؤمناتِ ﴾.

وقال الحسن البصريّ: أبدَلَهم الله بالعملِ السَّيِّء العملَ الصالحَ، وأبدَلَهم بالشركِ إخلاصاً، وأبدَلَهم بالفجورِ إحصاناً وإسلاماً.

وهذا قولُ أبي العالية، وقتادةَ، وجماعةٍ آخرينَ.

والقول الثاني: أنَّ تلك السيئاتِ الماضية تنقلبُ بنفسِ التوبةِ النَّصوح حسناتٍ، وما ذاك إلا أنه كلما تَذَكَّر ما مَضَى نَدِمَ واسترجَعَ واستغفَر، فينقلبُ الذَّنبُ طاعةً بهذا الاعتبار، فيومَ القيامةِ وإن وَجَده مكتوباً عليه لكنه لا يَضُرُّه وينقلِبُ حسنةً في صحيفته، كما ثبتتِ السنةُ بذلك، وصحَّت به الآثارُ المرويةُ عن السَّلَفِ رَحِمَهُم الله تعالى. وهذا سياق الحديث، قال الإمام أحمد:

حدَّثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن المعرُورِ بن سُوَيد، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إني لأعرفُ آخِرَ أهلِ النار خُروجاً من النارِ، وآخِرَ أهلِ الجنة دخولاً إلى الجنة: يُؤتَى برجل، فيقول(٢): نَحُّوا كِبَارَ ذُنُوبه وَسَلُوه عن صِغارِها. قال: فيُقالُ له: عَمِلتَ يومَ كذا وكذا كذا، وعَمِلت يومَ كذا وكذا كذا؟ فيقول: نعم ـ لا يستطيع أن يُنكِرَ من ذلك شيئاً ـ فيُقال: فإن لَكَ بكلِ سيئةٍ حسنةً. فيقول: يا ربِّ، عملت أشياء لا أراها هاهنا! قال: فضَحِكَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى بَدَت نواجِذُه(٣). وانفرد به مسلم(٣).

وقال الحافظُ أبو القاسم الطَّبَرانِيُّ: حدثنا هاشم بن مَرْثَدٍ(٤)، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني أبي، حدثني ضَمْضَمُ بن زُرْعَةَ، عن شُرَيحِ بن عُبَيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا نام ابن آدم قال المَلَكُ للشيطان: أعطِني صحيفتك. فيُعطيه إيّاها، فما وَجَد في صحيفته من حَسَنةٍ محا بها عَشرَ سيِّئاتٍ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ٤٧/١٩ والبيت الأول قريب من رواية الإتقان للسيوطي ١٢٠/١، وديوان لبيد ٣٥١ على أن في تفسير الطبري: مبدَّلن بعد جرّةٍ خريفَاً. والمعنى على ما أثبت أولى.

والجِرّة: ما يخرجه البعير من بطنه ثم يبلعه. والمراد من الصريف صوت ناب البعير، من الإعياء والكلال. يريد تبدل حاله من النعيم إلى البؤس.

والوجيف: الاضطراب، والإسراع في المشي. ويروى البيت الثاني:

يُبَدِّلن بعد النَّقْش الوجيفا

والنقْش: الرعي ليلاً بغير راعٍ. وكلتا الروايتين قريب معناهما.

(٢) لفظ مسلم: فيقال.

(٣) مسند أحمد ١٧٠/٥، ومسلم، كتاب الإيمان ١٧٧/١.

(٤) في نسخة الحرم. هشيم، بدل: هاشم، وفيها وفي نسخة الأزهر: يزيد، بدل. مرثد.

انظر المؤتلف والمختلف للدارقطني ٢٠٣٣/٤، والإكمال لابن ماكولا ٢٣١/٧، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٢٧٠/١٣، والتهذيب، ترجمة محمد بن إسماعيل بن عياش.

من صحيفة الشيطان، وكتبهنّ حسناتٍ، فإذا أراد أن ينام أحدُكم فليُكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرةً، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدةً، ويُسَبِّح ثلاثاً وثلاثين تسبيحةً، فتلك مائة[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمة وعارمٌ قالا: حدثنا ثابت ـ يعني ابن يزيد أبو زيد ـ حدثنا عاصمٌ، عن أبي عُثمانَ، عن سَلمانَ قال: يُعطَى رجلٌ يومَ القيامةِ صحيفتَه فيقرأ أعلاها، فإذا سيئاته، فإذا كاد يَسُوءُ ظنُّهُ نَظَر في أسفلها فإذا حَسَناتُه، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي بُدِّلت حَسَناتٍ.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سُليمان بن موسى الزُّهريُّ أبو داوُدَ، حدثنا أبو العَنبس، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: لَيَأتينَّ اللهَ ـ عزّ وجلّ ـ بأُناسٍ يومَ القيامةِ رأوا أنهم قد استكثَروا من السيِّئاتِ، قيل: مَن هُم يا أبا هُرَيرة؟ قال: الذين يُبَدِّل الله سيِّئاتهم حسناتٍ.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد، حدثنا سَيَّارٌ، حدثنا جعفرٌ، حدثنا أبو حَمزَةَ، عن أبي الصَّيفِ ـ وكان من أصحابِ مُعاذِ بن جَبَلٍ ـ قال: يدخلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ على أربعةِ أصنافٍ: المتقينَ، ثم الشاكرين ثم الخائفين، ثم أصحابِ اليمين. قلت: لم سُمُّوا أصحابَ اليمينِ؟ قال: لأنهم عَمِلوا بالحسناتِ والسيئاتِ، فأُعطوا كُتُبَهُم بأيمانهم، فقرءوا سيِّئاتِهم حَرْفاً حَرْفاً، قالوا: يا رَبَّنا، هذه سيئاتُنا، فأين حَسَناتُنا؟ فعند ذلك محا الله السيئاتِ وجَعَلها حسناتٍ، فعند ذلك قالوا: ﴿هاؤُمُ اقرءُوا كِتَابِيَه﴾، فهم أكثر أهلِ الجنة.

وقال علي بن الحُسَين زينُ العابدينَ: ﴿يُبَدِّل الله سيئاتِهم حَسَناتٍ﴾، قال: في الآخرة. وقال مَكحُولٌ: يَغفِرُها لهم فيجعلها حَسَناتٍ. رَوَاهما ابنُ أبي حاتم. ورَوَى ابنُ جرير، عن سَعيدِ بن المُسَيِّب، مثله.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا محمدُ بن الوزير الدِّمَشقيُّ، حدثنا الوليدُ بن مُسلِم، حدثنا ابنُ جابرٍ، أنه سَمِع مَكحُولاً يُحدِّث قال: جاء شيخٌ كبيرٌ هَرِمٌ قد سقطت حاجِبَاه على عَينيه، فقال: يا رسولَ الله، رجل غَدَرَ وفَجَرَ، لم يدع حاجَةً ولا داجَةً[2] إلا اقتطعها بيمينه، لو قُسِمت خطيئتُه بين أهل الأرض لأوبَقَتهم، فهل له من توبةٍ؟ فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أسلمتَ؟ قال: أمَّا أنا فأشهد أن لا إلَهَ إلا الله وحدَه لا شريك له، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: فإن الله غافرٌ لك ما كنتَ كذلك، ومُبَدِّل سيئاتِكَ حسناتٍ. فقال: يا رسولَ الله، وغَدَرَاتي وفَجَراتي؟ فقال: وغَدَرَاتِك وفَجَراتِكَ. فوَلَّى الرجلُ يُكبِّر ويُهَلِّلُ.

ورَوَى الطَّبَرانيُّ من حديثِ أبي المُغيرة، عن صفوان بن عَمْرو، عن عبد الرحمن بن جُبَير، عن أبي طَويلٍ[3]: شَطْبٍ، أنه أتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: أرأيتَ رَجُلاً عَمِل الذنوبَ كُلَّها، ولم يترُك حاجةً ولا داجةً، فهل لَه مِن توبةٍ؟ قال: أسلمتَ؟ فقال: نعم، قال: فافعل الخيراتِ، واترك السيئاتِ، فيَجعَلُها الله لكَ خيراتٍ كلَّها. قال: وغَدَرَاتي وفَجَراتي؟ قال: نعم. قال فما زال يكبِّر حتى توارَى[4].

ورواه الطبراني من طريق أبي فَروة الرُّهاويِّ، عن ياسينَ الزياتِ، عن أبي سَلَمة الحِمْصيِّ، عن يحيى ابن جابرٍ، عن سَلَمة بن نُفَيل مرفوعاً[5].

---

(١) الدر المنثور ٦/٢٨٢، وفي الزوائد ١/١٢٠ ـ ١٢١: «رواه الطبراني، وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش، وهو ضعيف».
(٢) أي: لم يدع صغيراً ولا كبيراً، قالوا: الحاجة: الصغيرة، والداجة: الحاجة الكبيرة.
(٣) في النسخ: عن أبي فروة. والمثبت عن المعجم الكبير، والمقتنى للذهبي ٣٣١، وأسد الغابة ٢/٥٢٤.
(٤) المعجم الكبير ٧/٣١٤.. وانظر مجمع الزوائد ١/٣١ ـ ٣٢، ١٠/٢٠٢.
(٥) المعجم الكبير ٧/٥٣ ـ ٥٤.

وقال أيضاً: حدثنا أبو زُرعَة، حدثنا إبرهيم بن المُنذِر، حدثنا عيسى بن شُعَيب بن ثوبان، عن فُلَيح بن عُبَيد بن أبي عُبَيد الشمَّاس، عن أبيه(١)، عن أبي هُرَيرَة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاءتني امرأة فقالت: هل لي من توبةٍ؟ إني زَنَيتُ وولدتُ وقتلته. فقلت: لا، ولا نَعِمَتِ العينُ ولا كرامَةَ. فقامت وهي تدعُو بالحسرة. ثم صَلَّيت مع النبي ـ ﷺ ـ الصبحَ، فقصصتُ عليه ما قالت المرأةُ وما قُلتُ لها، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بئسما قلتَ! أما كنتَ تقرأ هذه الآية: ﴿ والذين لا يدعُون مع الله إلَهاً آخرَ ﴾ إلى قوله: ﴿ إلا من تابَ وآمنَ وعمِل عَمَلاً صالحاً فأولئك يُبَدِّل الله سيئاتِهم حسناتٍ وكانَ الله غفُوراً رَحِيماً ﴾، فقرأتُها عليها، فخرَّت ساجدة وقالت: الحمدُ لله الذي جَعَل لي مخرجاً(١).

هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي رجاله مَن لا يُعرف، والله أعلم. وقد رواه ابنُ جرير(٢) من حديث إبراهيمَ بن المنذر الحِزَامِيِّ بسنده بنحوه، وعنده: «فخَرجت تدعُو بالحسرة وتقول: يا حسرتَا! أخُلِقَ هذا الحسنُ للنار؟!». وعنده أنه لما رَجَع من عند رسولِ الله ـ ﷺ ـ تَطَلَّبها في جميع دُورِ المدينة فلم يَجدها، فلما كان من الليلة المقبلةِ جاءته، فأخبرها بما قال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ فخرَّت ساجدَة وقالت: «الحمد لله الذي جَعَل لي مخرجاً وتوبةً مما عَمِلت». وأعتقت جاريةً كانت معها وابنتها، وتابت إلى الله عزَّ وجلَّ.

ثم قال تعالى مخبراً عن عُمُومِ رَحمتِه بعبادِه، وأنه مَن تاب إليه منهُم تاب عليه من أيِّ ذَنبٍ كان، جليلٍ أو حَقيرٍ، كبيرٍ أو صغيرٍ، فقال: ﴿ومَن تاب وعَمِل صالحاً فإنه يتوبُ إلى الله متاباً﴾، أي: فإن الله يَتَقَبَّل توبتَه، كما قال تعالى: ﴿ ومَن يعمل سوءاً أو يظلِم نفسَه ثم يستغفِر الله يجد الله غفُوراً رَحيماً ﴾، وقال: ﴿ ألم يعلَمُوا أن الله هو يقبلُ التوبةَ عن عباده ويأخذُ الصدقاتِ وأن الله هو التوابُ الرَّحِيم ﴾، وقال: ﴿ قُل يا عبادِيَ الذين أسرَفُوا على أنفُسِهم لا تقنَطُوا من رحمةِ الله إنَّ الله يغفِرُ الذنوبَ جَمِيعاً إنه هو الغفُور الرحيمُ ﴾، أي: لمن تابَ إليه.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾

وهذه أيضاً من صفاتِ عبادِ الرحمن أنهم: ﴿ لا يشهَدُونَ الزورَ ﴾، قيل: هو الشركُ وعبادةُ الأصنام. وقيل: الكذب، والفسق، واللغو، والباطل. وقال محمد بن الحَنَفِيَّة: هو اللهو والغناء(٣). وقال أبو العاليةِ، وطاوسٌ، ومحمد بن سيرينَ، والضحاكُ، والربيعُ، بن أنس، وغيرهم: هي أعيادُ المشركين. وقال عَمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا(٤).

(١) كذا وَرَد السندُ في أصولنا، وفي أصل تفسير ابن أبي حاتم، وقد رواه عن أبي زُرعَة أيضاً بإسناده إلى أبي هريرة كذلك. وأبقيناه على هذا النحو، وإن كان في السند ما فيه، لاتفاق الأصول، ولأن ابن كثير سيقول بعد: «وفي رجاله من لا يعرف». ونحسب أن صواب السند هو: «عن فُلَيح الشمَّاس، عن عُبَيد بن أبي عبيد، عن أبي هريرة»، وكذلك ورد عند الطبري، وقد أخرجه عن عبد الكريم بن عمير، عن إبرهيم بن المنذر. وانظر ترجمة فُلَيح الشماس في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨٥/٧، وترجمة عبيد بن أبي عبيد فيه ٤١١/٥ والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ٤٣/١٩، وابن مَرْدُويه. وقال في الدر المنثور ٢٧٩/٦: «بسند ضعيف».

(٣) أخرجه الفريابي وعبد بن حميد، الدر المنثور ٢٨٣/٦.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والخنا: فحش القول.

وقال مالك، عن الزُّهريِّ: [شربُ الخمر](١)، لا يحضُرُونه، ولا يرغبون فيه، كما جاء في الحديث «من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَجلِس على مائدةٍ يدار عليها الخمرُ»(٢).

وقيل: المرادُ بقوله تعالى: ﴿ لا يشهَدُون الزورَ ﴾، أي: شهادة الزور، وهي الكذب متعمّداً على غيره، كما ثبت في الصحيحين عن أبي بَكْرَة، عن رَسُول الله ـ ﷺ ـ: «ألا أُنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قلنا: بلى، يا رسولَ الله. قال: الشركُ بالله وعُقوقُ الوالدين. وكان مُتّكئاً فَجلس، فقال: ألا وقولَ الزورِ، ألا وشهادة الزور، فما زال يُكرِّرها، حتى قلنا: ليتَه سَكَت»(٣).

والأظهر من السياق أن المراد: لا يَشهَدُون الزور، أي: لا يَحضُرونه، ولهذا قال: ﴿ وإذا مَرُّوا باللغو مَرُّوا كِراماً ﴾، أي: لا يحضُرون الزورَ، وإذا اتفق مُرُورهم به مَرُّوا ولم يَتدنَّسُوا منه بشيءٍ، ولهذا قال: ﴿ مَرُّوا كراماً ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سَعيد الأشجُّ، حدثنا أبو الحُسَين العُكْلِيُّ(٤)، عن محمد بن مسلم، أخبرني إبراهيم بن مَيْسَرة، أن ابن مسعود مَرَّ بلهو فلم يقف، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لقد أصبَحَ ابنُ مسعودٍ أو أمسى ـ كريماً».

وحدثنا الحسنُ بنُ محمد بن سَلَمة النحويُّ، حدثنا حَبَّانُ، أخبرنا عبد الله، أخبرنا محمدُ بن مُسلم، أخبرني ابنُ ميسَرة قال: بلَغني أن ابن مسعود مر بلهو مُعرضاً، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لقد أصبحَ ابنُ مسعودٍ ـ أو أمسى ـ كريماً»، ثم تلا إبراهيمُ بن ميسرةَ: ﴿ وإذا مَرُّوا باللغو مَرُّوا كِراماً ﴾.

وقولُه: ﴿ والذين إذا ذُكِّروا بآيات رَبِّهم لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُمياناً ﴾، هذه من صفاتِ المؤمنين، ﴿ الذين إذا ذُكِر الله وَجِلت قلوبُهم وإذا تُلِيت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربِّهم يَتوكَّلون ﴾، بخلاف الكافر، فإنه إذا سَمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقصِر عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كُفره وطغيانه وجَهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿ وإذا ما أُنزلت سورةٌ فمنهم من يقولُ أيُّكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنُوا فزادتهم إيماناً وهُم يَستبشرون * وأما الذين في قُلُوبهم مَرَضٌ فزادتهم رِجساً إلى رِجسِهم ﴾.

فقولُه: ﴿ لم يَخِرُّوا عليها صُمّاً وعمياناً ﴾، أي: بخلافِ الكافرِ الذي ذُكِّر بآيات ربِّه فاستَمرَّ على حَالِهِ كأن لم يَسمعها أصمَّ أعمَى.

قال مجاهد: قوله: ﴿ لم يَخِرُّوا عليها صُمّاً وعُمياناً ﴾. لم يسمَعُوا ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئاً. وقال الحسن البصريُّ: كم من رجل يقرؤها ويخِرُّ عليها أصمَّ أعمى.

وقال قتادةُ: ﴿ والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربِّهم لم يَخِرُّوا عليها صُمّاً وعُمياناً ﴾، يقول: لم يَصُمُّوا عن الحق ولم يَعمَوا فيه، فهم ـ والله ـ قوم عقلوا عن الحق، وانتفعوا بما سَمِعُوا من كتابه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أُسَيد بن عاصم، حدثنا عبد الله بن حُمْران، حدثنا ابن عَون قال: سألت

(١) مكانه في نسختي الحرم والأزهر: المعاصي. والمثبت من نسخة.
(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٤٠ من سورة النساء، وخرّجته هنالك.
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٣١ من سورة النساء، وخرّجته هنالك.
(٤) في النسخ: العِجْلِيّ. والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم. وأبو الحسين هو: زيد بن الحباب. انظر الأنساب للسمعاني ٤/٢٢٣ ـ ٢٢٤، وتهذيب الكمال ١٠/٤٠ وما بعدها.

الشعبيَّ قلتُ: الرجلُ يَرى القومَ سُجُوداً ولم يَسمع ما سَجدوا، أيسجُد معهم؟ قال: فتلا هذه الآية: ﴿ والذين إذا ذُكِّروا بآيات رَبِّهم لم يَخرُّوا عليها صماً وعمياناً ﴾[١]. يعني: انه لا يسجُدُ معهم لأنه لم يتدبر آية السجدة، فلا ينبغي للمؤمن أن يكون إمَّعَةً، بل يكون على بَصيرة من أمرِه، ويقينٍ واضحٍ بيِّن.

وقولُه: ﴿ والذين يقولون رَبَّنا هَب لنا من أزواجنا وذُرِّياتنا قُرَّة أعيُنٍ ﴾، يعني الذين يسألون الله أن يُخرج من أصلابهم وذُرِّياتهم مَن يُطيعه ويَعبُده وحدَه لا شريكَ له.

قال ابن عباس: يعنون مَن يعمل بالطاعة، فتَقرُّ به أعينُهم في الدنيا والآخرة. وقال عِكرمةُ. لم يُريدوا بذلك صَباحة ولا جَمالاً، ولكن أرادوا أن يكونُوا مُطيعين. وقال الحسن البصري ـ وسُئل عن هذه الآية ـ فقال: أن يُري اللهُ العبدَ المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حَميمه طاعةَ الله. لا والله ما شيءٌ أقرَّ لعين المسلم من أن يَرى ولداً، أو وَلَد وَلَدٍ، أو أخاً، أو حَميماً مطيعاً لله عزَّ وجلَّ. وقال ابنُ جُرَيج في قوله: ﴿ هَبْ لنا من أزواجنا وذُرِّياتنا قُرَّة أعيُنٍ ﴾، قال: يَعبدُونك ويُحسِنُون عِبادَتَك، ولا يَجُرُّون علينا الجَرائرَ. وقال عبد الرحمن ابن زَيد بن أسلم: يعني يسألونَ اللهَ لأزواجهم وذُرِّياتهم أن يَهديَهم للإسلام.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يَعْمَرُ بنُ بشر، حدثنا عبدُ الله بن المبارك، أخبرنا صفوانُ بن عمرو، حدثني عبدُ الرحمن بن جُبَير بن نُفَير، عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فَمرَّ به رجل فقال: طُوبى لهاتين العَينين اللتين رأتا رسولَ الله ﷺ! لَـوددْنا أنا رأينا ما رأيتَ، وشهدنا ما شهدتَ. فاستغضَبَ، فجعلتُ أعجبُ، ما قال إلا خيراً! ثم أقبل إليه فقال: ما يحمِل الرجلَ على أن يتمنى مَحضراً غَيَّبه الله عنه، لا يدري لو شَهده كيفَ كان يكُون فيه؟ والله لقد حَضر رسولَ الله ـ ﷺ ـ أقوامٌ أكبَّهم الله على مَناخرِهم في جَهنَّم، لم يُجيبوه ولم يُصدِّقوه، أوَلا تحمَدُون الله إذ أخرجَكم لا تعرفون إلا رَبَّكم مُصدِّقين لما جاء به نَبيُّكم، قد كُفيتم البلاءَ بغيركم؟ لقد بَعَث الله النبي ـ ﷺ ـ على أشَدِّ حالٍ بُعِثَ عليها نَبيٌّ من الأنبياء في فترةٍ من جاهلية، ما يَرون أنَّ ديناً أفضلَ من عبادة الأوثان. فجاء بِفُرقانٍ فَرَّقَ به بين الحقِّ والباطِل، وفَرَّقَ بين الوالِدِ وَوَلَدِه، إن كان الرجلُ لَيرى والده وولَدَه، أو أخاه كافراً، وقد فتح الله قُفْل قلبِه للإيمانِ، يعلَم أنه إن هلك دَخَل النار، فلا تَقرُّ عينه وهو يعلم أن حَبيبَه في النار، وإنَّها التي قال الله تعالى: ﴿ رَبَّنا هَب لنا من أزواجنا وذُرِّياتنا قُرة أعين ﴾[٢] وهذا إسناد صحيحٌ، ولم يُخرِجُوه.

وقولُه: ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾، قال ابنُ عباس، والحسنُ، وقتادةُ، والسدِّي، والربيعُ بن أنس: أئمةً يُقتَدى بنا في الخير. وقال غيرُهم: هداة مَهديِّين ودعاةً إلى الخير. فأحبوا أن تَكُون عِبادتهم مُتَّصِلة بعبادة أولادهم وذراريهم، وأن يكون هُداهُم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثرُ ثواباً، وأحسنُ مآباً، ولهذا وَرَد في صحيح مسلم، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إذا مات ابنُ آدم انقطع عملُه إلا من ثلاثٍ: ولدٍ صالحٍ يدعُو له، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ به من بَعدِه، أو صَدَقةٍ جاريةٍ[٣].

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا (٧٥) خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا (٧٦) قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا (٧٧) ﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ١٩/٥١.
(٢) مسند أحمد ٦/٢ ـ ٣
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢٨ من سورة البقرة، وخرّجناه هنالك.

لما ذكر تعالى من أوصافِ عبادِه المؤمنين ما ذكر من هذه الصفاتِ الجميلة، والأقوال والأفعال الجليلة، قال بعد ذلك كله: ﴿ أولئك ﴾، أي: المتصفون بهذه ﴿ يُجزَوْن ﴾، أي: يوم القيامة ﴿ الغُرفة ﴾، وهي الجنة. قال أبو جعفرٍ الباقرُ، وسعيد بن جُبَير، والضحّاكُ، والسُّدِّي. سُمِّيت بذلك لارتفاعها. ﴿ بما صبَروا ﴾، أي: على القيام بذلك، ﴿ ويُلقَّون فيها ﴾، أي: في الجنة ﴿ تحيةً وسلاماً ﴾، أي: يُبتدَءُون فيها بالتحية والإكرام. ويُلقَّون التوقيرَ والاحترامَ، فلهم السلامُ وعليهم السلامُ، فإن الملائكة ﴿ يدخلون عليهم من كل باب ❁ سلامٌ عليكُم بما صَبَرتُم فَنِعمَ عُقبَى الدار ﴾.

وقوله: ﴿ خالدين فيها ﴾، أي: مُقيمين، لا يظعنون ولا يَحُولون، ولا يَموتُون، ولا يزولون عنها ولا يبغُون عَنها حِوَلاً، كما قال تعالى: ﴿ وأما الذين سُعِدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرضُ إلا ما شاء ربُّك عطاءً غير مَجذوذ ﴾. وقوله: ﴿ حَسُنَت مستقراً ومقاماً ﴾، أي: حَسُنَت منظراً وطابت مَقيلاً ومنزلاً.

ثم قال تعالى: ﴿ قُل ما يَعبأُ بكم ربي ﴾، أي: لا يُبالي ولا يكترثُ بكم إذا لم تعبُدوه، فإنه إنما خلق الخَلْقَ ليعبدُوه ويُوحِّدوهُ ويُسبِّحُوهُ بكرةً وأصيلاً.

وقال مجاهد، وعَمرو بن شعيب: ﴿ ما يعبأُ بكم ربي ﴾، يقول: ما يفعلُ بكم ربِّي.

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ قل ما يَعبأُ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ يقول: لولا إيمانكم، وأخبر الله الكفارَ أنه لا حاجةَ له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجةٌ لحبَّب إليهم الإيمانَ كما حَبَّبه إلى المؤمنين[1].

وقوله: ﴿ فقد كَذَّبتم ﴾، أي: أيها الكافرون، ﴿ فسوفَ يكونُ لِزاماً ﴾، أي: فسوف يكون تكذيبُكم لِزاماً لكم، يعني مُقتَضياً لهلاككم وعذابكم ودَمارِكم في الدنيا والآخرة. ويدخلُ في ذلك يومُ بدر، كما فسَّره بذلك عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن كعب القُرَظي، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّي، وغيرهم.

وقال الحسن البصريُّ: ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾، يعني: يومَ القيامة. ولا منافاة بينهما. والله أعلم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ١٩/٥٥.

تفسير

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

وهي مكية

ووقع في تفسير مالك المرويّ عنه تسميتُها: سورةَ الجامعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾

أما الكلامُ على الحروف المُقطَّعة في أوائل السُّوَرِ فقد تكلَّمنا عليه في أول تفسير سُورَةِ البقرة.

وقولُه: ﴿تلك آياتُ الكتابِ المُبين﴾، أي: هذه آياتُ القرآنِ المبينِ، أي: البيِّنِ الواضحِ، الذي يَفصِل بين الحقِّ والباطل، والغيِّ والرشاد.

وقولُه: ﴿لعلَّك باخِعٌ﴾، أي: مُهلِكٌ ﴿نفسَكَ﴾، أي: مما تَحرِص وتحزَن عليهم؛ ﴿ألا يكونُوا مُؤمنين﴾: وهذه تسليةٌ من الله لرسوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ في عدمِ إيمانِ مَن لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فلا تذهب نفسُك عليهم حسراتٍ﴾، وقال: ﴿فلعلك باخِعٌ نفسَك على آثارِهم إن لم يُؤمنوا بهذا الحديث أسَفاً﴾.

قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادةُ، وعطيةُ، والضحَّاك: ﴿لعلك باخعٌ نفسَك﴾، أي: قاتِلٌ نفسَك، قال الشاعر[1]:

أَلَا أيُّهذا الباخِعُ الحُزنُ نَفْسَهُ ... لِشَيءٍ نَحَتْهُ عَنْ يَدَيْهِ المَقَادِرُ

(١) ذو الرمّة، ديوان ٢/١٠٣٧. والبيت في تفسير الطبري ١٩/٥٨، وسيرة ابن هشام ١/٣٠٢.

ثم قال الله تعالى: ﴿ إن نشأ نُنَزِّلْ عليهم من السماءِ آيةً فظلَّت أعناقُهم لها خاضعين ﴾، أي: لو شئنا لأنزلنا آيةً تَضطَرُّهم إلى الإيمانِ قهراً، ولكنا لا نفعلُ ذلك، لأنا لا نُريد من أحدٍ إلا الإيمانَ الاختياريَّ؛ وقال تعالى: ﴿ ولو شاءَ ربُّك لآمَنَ مَن في الأرضِ كُلُّهم جميعاً أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾، وقال: ﴿ولو شاء ربُّك لجعَلَ الناسَ أمةً واحدةً ولا يزالُون مُختلفين * إلا من رَحِم ربُّك ولذلك خلقهم﴾، فنفذ قَدَرُه، ومَضَت حِكمتُه، وقامت حُجَّته البالغةُ على خلقه، بإرسال الرُّسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم.

ثم قال: ﴿ وَما يأتيهم من ذِكرٍ من الرحمن مُحدَثٍ إلا كانوا عنه مُعرضين ﴾، أي: كُلَّما جاءَهم كتابٌ من السماء أعرضَ عنه أكثرُ الناس، كما قال: ﴿ وما أكثرُ الناسِ ولو حرصتَ بمؤمنين ﴾، وقال: ﴿ يا حسرةً على العِباد ما يأتيهم مِن رَسُولٍ إلا كانوا به يَستهزِءُون ﴾، وقال: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى كُلَّما جاء أمةً رسولُها كذَّبوه فأتبعنا بعضَهم بعضاً وجعلناهُم أحاديثَ فبُعداً لقومٍ لا يُؤمنون ﴾. ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿ فقد كذَّبوا فسيأتيهم أنباءُ ما كانوا به يَستهزءُون ﴾، أي: فقد كذَّبوا بما جاءَهم من الحقِّ، فسيعلمون نبأ هذا التكذيبِ بعد حينٍ، ﴿ وَسَيعلمُ الذين ظَلَموا أيَّ منقلبٍ ينقلبُون﴾.

ثم نَبَّه تعالى على عظَمتِهِ في سلطانه وجلالةِ قدْرِه وشأنِه، الذين اجترءُوا على مُخالفة رسُوله وتكذيب كتابه، وهو القاهرُ العظيمُ القادرُ، الذي خَلَق الأرضَ وأنبت فيها من كلِّ زوجٍ كريم، من زُروعٍ وثمارٍ وحيوانٍ.

قال سفيان الثوري، عن رجُلٍ، عن الشعبي: الناسُ من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريمٌ، ومن دخل النار فهو لَئيم[1].

﴿ إن في ذلك لآيةً ﴾، أي: دلالةً على قُدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرضَ ورفع بناءَ السماءِ، ومع هذا ما آمن أكثرُ الناسِ، بل كَذَّبوا به وبرُسُله وكتبه، وخالفوا أوامره وارتكبوا زواجره.

وقولُه: ﴿ وَإنَّ ربَّك لهو العزيزُ ﴾، أي: الذي عزَّ كلَّ شيءٍ وقهره وغلبه، ﴿ الرحيمُ ﴾، أي: بخلقه، فلا يَعجَلُ على من عصاه، بل يُنظِرُه ويُؤَجله، ثم يأخذُه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

قال أبو العالية، وقتادةُ، والربيعُ بن أنسٍ، وابن إسحاق: العزيزُ في نِقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيرَهُ. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿الرحيم﴾ بمن تاب إليه وأناب.

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ
صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا
مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا
وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عما أمر به عبدَه ورسوله وكليمه موسى بن عمران ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ حين

---

(١) أخرجه الفريابي، وعبد بن حُميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. الدر المنثور ٦/٢٨٩.

ناداه من جانب الطورِ الأيمن، وكلّمه وناجاه، وأرسلَه واصطفاه، وأمرَه بالذهابِ إلى فرعونَ وملَئه، ولهذا قال: ﴿أن ائت القوم الظالمينَ ● قومَ فرعون ألا يتَّقون ● قال ربِّ إني أخافُ أن يُكذِّبونِ ● ويضيق صدري ولا ينطلقُ لساني فأرسل إلى هارونَ ● ولهم عليَّ ذنب فأخافُ أن يقتلونِ﴾، هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه: ﴿قال ربِّ اشرح لي صدري ● ويسّر لي أمري ● واحلُل عقدةً من لساني ● يفقَهُوا قولي ● واجعل لي وزيراً من أهلي ● هارونَ أخي ● اشدُد به أزري ● وأشركه في أمري ● كي نُسبِّحك كثيراً ● ونذكرك كثيراً ● إنكَ كنتَ بنا بصيراً ● قال قد أوتيتَ سُؤلك يا موسَى﴾.

وقولُه: ﴿ولهم عليَّ ذنبٌ فأخاف أن يقتلونِ﴾، أي: بسبب ما كان من قتل ذلك القبطيِّ الذي كان سببَ خُروجه من بلاد مصر: ﴿قال كَلَّا﴾ أي: قال الله له: لا تَخَف من شيءٍ من ذلك، كما قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيكَ ونجعل لَكُما سلطاناً﴾، أي: بُرهاناً ﴿فلا يَصِلُون إليكُما بآياتنا أنتما ومن اتَّبعكما الغالبون﴾.

﴿فاذهبَا بآياتنَا إنا معكُم مُستَمِعُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿إنني معَكُما أسمَعُ وأرى﴾، أي: إنَّني معكُما بحفظي وكَلاءتي ونَصري وتأييدِي.

﴿فأتيا فرعونَ فَقُولا إنا رسولُ ربِّ العالمين﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿إنا رَسُولا ربك﴾، أي: كلٌّ منا رسولٌ من ربِّك إليكَ، ﴿أن أرسِل مَعَنا بني إسرائيلَ﴾، أي: أطلقهم من إسَارك وقَبضتك وقَهرك وتَعذيبك، فإنهم عِبادُ الله المؤمنون، وحِزبُه المخلصون، وهُم معك في العذابِ المهين. فلما قال له موسى ذلك أعرضَ فرعونُ عما هُنالك بالكلية، ونَظَر بعينِ الازدراءِ والغَمْص فقال: ﴿ألم نُربِّكَ فينا وَليداً ولَبِثتَ فينا من عُمُرك سنين ● وفعَلت فَعْلتك التي فعَلتَ وأنت من الكافرين﴾، أي: أمَا أنتَ الذي ربَّيناه فينا وفي بيتنا وعلى فِراشنا وغذَّيناه، وأنعمنا عليه مُدَّةً من السِّنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسانَ بتلك الفَعلةِ أن قتلتَ منا رجلاً، وجَحَدت نعمتنا عليك! ولهذا قال: ﴿وأنتَ من الكافرين﴾، أي: الجَاحِدين، قاله ابن عباس، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَم، واختاره ابنُ جرير[1].

﴿قال فعلتُها إذاً﴾، أي: في تلك الحال، ﴿وأنا من الضالِّين﴾ أي: قبل أن يُوحَى إليَّ ويُنعِم الله عليَّ بالرسالة والنُّبوَّة.

قال ابن عباس ـ رَضِي الله عنهما ـ ومجاهدٌ، وقتادةُ، والضحاكُ، وغيرهم: ﴿وأنا من الضالِّين﴾، أي: الجاهلين. قال ابن جريج: وهو كذلك في قِراءةِ عبد الله بن مسعُود، رَضِي الله عنه[2].

﴿ففررت منكم لما خفتُكم فوهَبَ لي ربِّي حُكماً وجعَلني من المرسلين﴾ أي: الحال الأول انفصل وجاء أمرٌ آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإن أطعته سَلِمتَ، وإن خالفتَه عَطِبتَ.

ثم قال موسى: ﴿وتلك نِعمةٌ تمنُّها عليَّ أن عبَّدت بَني إسرائيلَ﴾، أي: وما أحسنتَ إليَّ وربَّيتني مُقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل! فجعلتَهم عبيداً وخدَماً، تُصَرِّفهم في أعمالك ومشاق رَعيَّتك، أفيَفِي إحسانُك إلى رجلٍ واحدٍ منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟! أي: ليس ما ذكرتَه شيئاً بالنسبةِ إلى ما فعلتَ بهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا

(١) الطبري ١٩/٦٦.
(٢) الطبري ١٩/٦٧.

تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن كُفرِ فِرْعَون، وتَمرُّده، وطغيانه وجُحُوده في قوله: ﴿ وما ربُّ العالمين ﴾، وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿ مَا عَلِمتُ لكُم من إلَهٍ غيري ﴾، و﴿ استخفَّ قومه فأطاعوه ﴾، وكانوا يجحدُون الصانع ـ تعالى ـ ويعتقدُون أنه لا ربَّ لهم سوى فِرعَونَ. فلما قال له موسى: ﴿ إني رسولُ ربِّ العالمين ﴾، قال له: ومن هذا الذي تزعُم أنه ربُّ العالمين غيري؟! هكذا فَسَّره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السُّدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قال فمن رَبُّكما يا مُوسى * قال رَبُّنا الذي أعطَى كُلَّ شيء خلْقَه ثم هدى ﴾.

ومَن زعَم من أهل المنطق وغيرهم أنَّ هذا سؤالٌ عن الماهيَّة[1] فقد غلط، فإنه لم يكُن مقراً بالصانع حتى يسأل عن ماهيَّته، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحُجَج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال مُوسَى لما سأله عن ربِّ العالمين: ﴿ قال ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما ﴾، أي: خالقُ جميع ذلك ومالكُه، والمتصرِّفُ فيه وإلَهه، لا شريكَ له، هو الله الذي خلَق الأشياء كُلَّها، العالَم العُلويّ وما فيه من الكواكبِ الثوابت والسيَّاراتِ النيِّراتِ، والعالَم السفليّ وما فيه من بحارٍ وقفارٍ، وجبالٍ وأشجارٍ، وحيوانٍ ونباتٍ وثمارٍ، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجوُّ، الجميعُ عبيدٌ له خاضعونَ ذليلون.

﴿ إن كنتم موقنين ﴾، أي: إن كانت لكُم قلوبٌ مُوقِنة، وأبصارٌ نافِذَةٌ. فعند ذلك التفتَ فِرعَونُ إلى مَن حولَه من مَلَئه ورؤساءِ دولته قائلاً لهم، على سَبيل التهكُّم والاستهزاءِ والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿ ألا تَستَمِعُون ﴾، أي: ألا تعجبُون مما يقول هذا في زعمه أنَّ لكم إلَهاً غيري؟! فقال لهم موسى: ﴿ ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين ﴾، أي: خالقُكم وخالقُ آبائكم الأوَّلين، الذين كانوا قبل فِرعَونَ وزمانِه، ﴿ قال ﴾، أي: فرعونُ لقومه: ﴿ إنَّ رسولَكم الذي أُرسِلَ إليكم لَمجنونٌ ﴾، أي: ليس له عقل في دَعواه أن ثَمَّ رباً غيري. ﴿ قال ﴾، أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعونُ ما أوعز من الشُّبهَة، فأجاب موسى بقوله: ﴿ رَبُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾، أي: هو الذي جَعَل المشرقَ مَشرِقاً تطلُعُ منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرُب فيه الكواكبُ، ثوابتُها وسيَّاراتها، مع هذا النظام الذي سَخَّرها فيه وقدَّرها، فإن كان هذا الذي يزعُم أنه رَبُّكم وإلَهُكم صادقاً فَليَعكِسِ الأمرَ، وَلْيَجعل المشرقَ مغرباً، والمغرب مَشرِقاً، كما أخبر تعالى عن ﴿ الذي حَاجَّ إبراهيمَ في رَبِّه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيمُ رَبِّي الذي يُحيي ويُميتُ قال أنا أُحيي وأميت قال إبراهيمُ فإن الله يأتِي بالشمسِ من المشرقِ فائتِ بها من المغرب فَبُهتَ الذي كفَر والله لا يَهدي القومَ الظالمين ﴾. ولهذا لما غُلِب فرعونُ وانقطعت حُجَّته عَدَل إلى استعمال جاهِه وقُوَّته وسلطانِه، واعتقد أنَّ ذلك نافعٌ له ونافذٌ في موسى ـ عليه السلام ـ فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ

(١) الماهية ـ تطلق غالباً على الأمر المُتعقَّل، مثل المُتعقَّل من الإنسان، وهو الحيوان الناطق، مع قطع النظر عن الوجود الخارجي. والأمرُ المُتعقَّل من حيث إنه مقولٌ في جواب: ما هو؟ يُسمَّى ماهيَّةً.

إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

لما قامت على فِرْعَونَ الحجةُ بالبيانِ والعقل عَدَل إلى أن يَقهرَ موسَى بيده وسلطانه، وظَنَّ أنه ليس وراءَ هذا المقامِ مقال[1]، فقال: ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غيري لأجعلنَّكَ مِن المسجُونين ﴾. فعند ذلك قال موسى: ﴿ أوَلَوْ جئتكَ بشيءٍ مُبين ﴾، أي: ببُرهانٍ قاطعٍ واضحٍ، ﴿ قال فأتِ به إن كُنتَ من الصَّادِقِين * فألقى عَصاه فإذا هي ثعبانٌ مُبينٌ ﴾، أي: ظاهرٌ واضحٌ في غاية الجَلاء والوُضوح والعَظَمة، ذات قوائمَ وفمٍ كبيرٍ، وشكلٍ هائلٍ مُزعجٍ ﴿ ونزع يدَه ﴾، أي: من جيبه، ﴿ فإذا هي بيضاءُ للناظِرينَ ﴾، أي: تتلألأ كقطعةٍ من القمر. فبادر فرعون بشقائه إلى التكذيب والعِناد، فقال للملأ حوله: ﴿ إنَّ هذا لساحرٌ عليمٌ ﴾، أي: فاضِلٌ بارعٌ في السِّحْر. فَرَوَّج عليهم فرعونُ أن هذا من قَبيل السِّحرِ لا من قبيل المُعجزة، ثم هَيَّجهم وحَرَّضهم على مخالفته والكُفر به. فقال: ﴿ يُريد أن يخرجَكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرونَ ﴾، أي: أراد أن يذهَب بقلوب الناس مَعَه بِسَبب هذا، فيكثر أعوانُه وأنصارُه وأتباعُه ويغلبكم على دولتِكم، فيأخذ البلادَ مِنكم، فأشيرُوا عليَّ فيه ماذا أصنعُ به؟ ﴿ قالوا أرْجِه وأخاه وابعَثْ في المدائن حاشرينَ * يأتوكَ بكلِّ سحَّارٍ عليمٍ ﴾، أي: أخِّره وأخاه حتى تجمَع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كلَّ سحَّار عليم يُقابِلُونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبَه أنت وتكونَ لك النُّصرةُ والتأييدُ. فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك، ليجتمعَ الناسُ في صَعيدٍ واحدٍ، ولِتظهَرَ آياتُ الله وحُجَجه وبَراهينُه على الناس في النهار جَهرةً.

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ذكر تعالى هذه المناظرةَ الفعليَّة بين موسى والقِبط في «سورة الأعراف» وفي «سورة طه»، وفي هذه السورة، وذلك أن القِبطَ أرادُوا أن يُطفِئوا نُورَ الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يُتِمَّ نُورَه ولو كَرِه الكافرون. وهذا شأنُ الكفرِ والإيمان، ما تواجَها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، ﴿ بل نَقذِفُ بالحقِّ على الباطل فيدمَغُهُ فإذا هو زاهِقٌ ولكم الويلُ مما تصِفُون ﴾، ﴿ وقل جاء الحقُّ وزهق الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زَهُوقاً ﴾. ولهذا لما جاء السحرةُ، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصرَ، وكانوا إذ ذاك أسحرَ الناس وأصنَعهم وأشدَّهم تخييلاً في ذلك، وكان السحرةُ جمعاً كثيراً، وجَمّاً غفيراً، قيل: كانوا اثني عشر ألفاً، وقيل: خمسةَ عشرَ ألفاً، وقيل: سبعةَ عشرَ ألفاً، وقيل: تسعةَ عشر ألفاً، وقيل: بضعةً وثلاثين ألفاً. وقيل: ثمانين ألفاً. وقيلَ غيرُ ذلك، [والله أعلم بعدتهم].

قال ابن إسحاق: وكان أمرُهم راجعاً إلى أربعةٍ منهم وهم رؤساؤهم، وهم: ساتُور وعازُور وحُطْحُط ويصفَى[2].

(١) في النسخ: مقام.
(٢) أثر ابن إسحق في معجمات الأقران ١٥٠، وزاد: وشمعون. وقد ساقه الطبري وذكر أربعة فقط في تاريخه ١/٤٠٧ - ٤٠٨.

وحُشِد الناسُ في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿ لعلنا نتبعُ السحرة إن كانوا هُم الغالبين ﴾، ولم يقُولوا: نتّبع الحقَّ سواءٌ كان من السحَرةِ أو من موسى، بل الرعيةُ على دين ملكهم.

﴿ فلما جاء السَّحَرةُ ﴾، أي: إلى مجلس فِرعون وقد ضُرِب له وطاق[1] وجَمَع حَشمه وخدمه ووُزراءه ورؤساءَ دولتِه وجُنودَ مملكتِه. فقام السَّحَرةُ بين يَدَي فِرعون، يطلُبون منه الإحسان إليهم والتقرُّب إليه إن غلبوا، أي: هذا الذي جَمَعتَنا من أجله. فقالوا: ﴿ أئن لنا لأجراً إن كُنا نحنُ الغالبين ۝ قال نعم وإنكم إذاً لمن المقرَّبين ﴾، أي: وأخصُّ مما تطلُبونَ، أجعلكم من المقرَّبين عندي وجُلَسائي. فعادُوا إلى مقام المناظرة، ﴿ قالوا يا موسى إمَّا أن تُلقيَ وإما أن نكونَ أولَ من ألقى ۝ قال بل ألقُوا ﴾، وقد اختُصر هذا هاهنا. فقال لهم موسى: ﴿ ألقوا ما أنتم مُلقون ۝ فألقوا حِبالَهم وعِصيَّهم وقالوا بعزَّة فِرعونَ إنا لنحنُ الغالبُون ﴾، وهذا كما يقوله الجَهَلة من العوام إذا فَعلُوا شيئاً: هذا بثواب فلان. وقد ذكر الله في «سورة الأعراف» أنهم ﴿ سَحَروا أعيُنَ الناسِ واسترهَبُوهم وجاءُوا بسحرٍ عَظيمٍ ﴾، وقال في «سورة طه»: ﴿ فإذا حبالُهم وعِصيُّهم يُخيَّل إليه من سِحرهم أنَّها تسعَى ۝ فأوجسَ في نفسه خيفةً موسى ۝ قلنا لا تخَف إنكَ أنت الأعلى ۝ وألقِ ما في يمينك تَلقَفْ ما صنعوا إنما صَنَعُوا كيدُ ساحرٍ ولا يُفلِحُ الساحرُ حيثُ أتى ﴾. وقال هاهنا: ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقَفُ ما يأفكون﴾، أي تَخْطَفُه وتَجمَعُه من كل بُقعةٍ وتَبتلِعهُ فلم تَدَعْ منه شيئاً. قال تعالى: ﴿فوقَع الحقُ وبَطَل ما كانوا يعملون ۝ فَغُلِبوا هنالك وانقلَبُوا صاغرين ۝ وأُلقِيَ السحرةُ ساجدين ۝ قالوا آمنّا بربِّ العالمين ۝ ربِّ موسى وهارون﴾. وكان هذا أمراً عَظيماً جداً، وبُرهاناً قاطعاً للعُذرِ وحُجّةً دامغةً، وذلك أن الذين استحضَرَهم وطلب منهم أن يَغلِبُوا قد غُلِبُوا وخَضَعوا وآمنُوا بموسَى في الساعة الراهنة، وسَجدُوا لله ربِّ العالمين، الذي أرسَلَ موسى وهارونَ بالحقِّ وبالمعجزةِ الباهرَةِ، فَغُلِب فِرعَونُ غَلْباً لم يُشاهِد العالمُ مثلَه، وكان وَقحاً جريئاً ـ عليه لعنة الله ـ فعدل إلى المُكابرة والعِناد ودَعوى الباطل، فَشَرع يَتهدَّدُهم ويتوعَّدُهم، ويقول: ﴿ إنه لكبيركُم الذي عَلَّمكُم السِّحْرَ ﴾. وقال: ﴿ إنّ هذا لمكرٌ مَكَرتُمُوه في المدينةِ لِتُخرِجُوا منها أهلَها فَسوفَ تعلمُون ﴾.

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

تَهدَّدَهم فلم يقطَع ذلك فيهم، وتوعَّدَهم فما زادَهم إلا إيماناً وتسليماً. وذلك أنه قد كُشِف عن قُلوبهم حِجابُ الكفرِ، وظَهر لهم الحقُّ بعلمهم ما جَهِل قومُهم، من أنَّ هذا الذي جاء به موسى لا يصدُر عن بَشَرٍ، إلا أن يكونَ الله قد أيَّده به، وَجَعله له حُجّةً ودَلالةً على صِدْقِ ما جاء به من ربِّه. ولهذا لما قال لهم فرعونُ: ﴿ آمنتُم له قبلَ أن آذَنَ لكم ﴾، أي: كان ينبغي أن تستأذنُوني فيما فَعلتُم، ولا تَفتَاتُوا[2] عليَّ في ذلك، فإن أذِنتُ لكم فعلتُم، وإن منعتكُم امتنعتُم، فإني أنا الحاكمُ المطاعُ؛ ﴿ إنه لكبيركُم الذي عَلَّمكم السحرَ ﴾. وهذه مكابرةٌ يعلم كلُّ أحدٍ بُطلانها، فإنهم لم يجتَمِعُوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيفَ يكُون كبيرهم الذي أفادهم صناعةَ السحرِ؟! هذا لا يقوله عاقل.

(١) كذا، ولم نجد هذه اللفظة فيما أتيح لنا من معاجم.

(٢) أي: لا تنفردوا بالرأي وتستبدُّوا به.

ثم توعّدهم فرعونَ بقطع الأيدي والأرجل والصَّلب، فقالوا ﴿ لا ضَيْرَ ﴾، أي: لا حرج، ولا يضرُّنا ذلك ولا نُبالي به ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾، أي: المرجعُ إلى الله، وهو لا يُضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلْتَ بنا، وسيَجزينا على ذلك أتمَّ الجزاء. ولهذا قالوا: ﴿ إنا نطمعُ أن يغفر لنا ربُّنا خطايانا ﴾، أي: ما قارفناه مِنَ الذُّنوب، وما أكرهتنا عليه من السِّحْرِ، ﴿ أن كُنَّا أولَ المؤمنين ﴾، أي: بسببِ أنا بادرْنا قومنا من القِبطِ إلى الإيمانِ قبلهم كُلِّهم.

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾

لما طال مُقام موسى ـ عليه السلام ـ ببلاد مصرَ، وأقام بها حُجَج الله وبراهينَه على فرعونَ وملئه، وهُم مع ذلك يُكابِرُون ويُعانِدون، لم يبقَ لهم إلا العذابُ والنَّكال، فأمر الله موسى ـ عليه السلام ـ أن يخرُج ببني إسرائيل ليلاً من مصرَ، وأن يمضي بهم حيث يُؤمر، ففعل موسى ـ عليه السلام ـ ما أمره به ربُّه ـ عزَّ وجلَّ ـ خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعونَ حُلِيّاً كثيراً، وكان خروجُه بهم فيما ذَكر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين وقتَ طلوع القمر. وذكر مجاهدٌ ـ رحمه الله ـ أنه كُسِفَ القمرُ تلك الليلةَ، فالله أعلم، وأن موسى ـ عليه السلام ـ سأل عن قبر يوسُفَ عليه السلام، فدلَّته امرأةٌ عجوزٌ من بني إسرائيلَ عليه، فاحتمل تابُوتَه معهم، ويقال: إنه هو الذي حَمَله بنفسِه عليهما السلامُ، وكان يوسُفُ قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يَحمِلُوه معهم، وقد وَرَد في ذلك حديثٌ رواه ابنُ أبي حاتم ـ رحمه الله ـ فقال:

حدثنا علي بن الحُسين، حدَّثنا عبدُ الله بنُ عُمَر بن أبانَ بن صالح، حدثنا ابنُ فُضَيل، عن يُونُس بن أبي إسحاقَ، عن ابن أبي بُردَة، عن أبي مُوسَى قال: نزَلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بأعرابيٍّ فأكرمَه، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: تعاهَدْنا[1]، فأتاه الأعرابيُّ فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ما حاجتُك؟ قال: ناقةٌ برحلها وأعنُزٌ[2] يحتلبها أهلي، فقال: أعجزتَ أن تكونَ مثل عَجُوزِ بني إسرائيل؟ فقال له أصحابه: وما عجوزُ بني إسرائيل يا رسولَ الله؟ قال: إنَّ موسى لما أراد أن يسيرَ ببني إسرائيل أضلَّ الطريق، فقال لبني إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماءُ بني إسرائيل: نحن نُحدِّثك أن يوسُفَ ـ عليه السلام ـ لما حضره الموتُ أخذ علينا مَوثِقاً من الله ألّا نخرُجَ من مصرَ حتى ننقُلَ تابُوتَه معنا، فقال لهم مُوسَى: فأيُّكم يدري أين قبرُ يوسُفَ؟ قالوا: ما يعلَمه إلا عجوزٌ لبني إسرائيل. فأرسل إليها فقال لها: دُلِّيني على قبرِ يوسُفَ. فقالت: والله لا أفعلُ حتى تُعطيني حُكْمِي. قال لها: وما حُكْمُكِ؟ قالت: حُكْمِي أن أكونَ معَك في الجنة. فكأنه ثَقُلَ عليه ذلك، فقيل له: أعطِهَا حُكْمَها. قال: فانطلَقت معَهم إلى بُحيرةٍ ـ مُستنقع ماءٍ ـ فقالت لهم: أنضِبُوا[3] هذا الماء. فلما أنضبُوه قالت: احتفِرُوا. فلما احتفَرُوا استخرجُوا قبرَ يوسف، فلما احتمَلُوه إذا الطريقُ مثلُ ضوءِ النهار[4].

هذا حديثٌ غريبٌ جداً، والأقربُ أنه موقوفٌ، والله أعلم.

---

(١) أي: تفقَّدنا واطلُبْ منزلنا.

(٢) في نسخة الحرم: «وأعنُقٌ»، وأعنُقٌ: جمع عناق، وهي الأنثى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول.

(٣) نضب الماء نضوباً: غار في الأرض، ولم يقع لنا منه فعلٌ متعدٍّ بالهمزة.

(٤) أخرجه عبد بن حُميد، والفِريابي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحّحه: المستدرك، كتاب التفسير ٤٠٤/٢ ـ ٤٠٥، والدرّ المنثور ٣٠٢/٦.

فلما أصبَحُوا وليس في ناديهم دَاعٍ ولا مُجيبٌ غاظ ذلك فرعون واشتدَّ غضبُه على بني إسرائيل، لما يريد الله به من الدَّمارِ. فأرسل سَريعاً في البلاد حاشرين، أي: من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحُجّاب، ونادى فيهم: ﴿ إنَّ هؤلاء ﴾ ـ يعني: بني إسرائيل ـ ﴿ لشرذمةٌ قليلون ﴾، أي: لطائفةٌ قليلةٌ، ﴿ وإنهم لنا لغائظونَ ﴾، أي: كل وقت يصل إلينا منهم ما يَغيظنا، ﴿ وإنا لجميعٌ حاذرون ﴾، أي: نحن كلَّ وقت نحذرُ من غائلتهم وإني أريدُ أن أستأصلَ شأفتَهم، وأبيد خَضْراءهم. فجُوزي في نفسه وجُنده بما أراد لهم، قال الله تعالى: ﴿ فأخرجناهُم من جناتٍ وعُيُونٍ * وكُنُوزٍ ومقامٍ كَريمٍ ﴾، أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركُوا تلك المنازلَ العاليةَ والبساتين والأنهارَ والأموالَ والأرزاقَ والملكَ والجاهَ الوافر في الدنيا، ﴿ كذلك وأورثناها بَني إسرائيلَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وأورثنا القومَ الذين كانوا يُستضعفُون مشارقَ الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمَّت كلمةُ ربك الحُسنَى على بني إسرائيل بما صبروا ودمَّرنا ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُه وما كانوا يَعرِشُون ﴾، وقال تعالى: ﴿ ونريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفُوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونُمكِّنَ لهم في الأرض ونُري فرعونَ وهامانَ وجُنودَهُما منهم ما كانوا يحذرُون﴾

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ
﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾
وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

ذكر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين أنَّ فرعونَ خَرَج في جَحْفَلٍ عظيم وجمعٍ كبيرٍ، هو عبارةٌ عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحَلِّ والعقدِ والدُّوَلِ[1]، من الأمراء والوزراء والكُبَراء والرُّؤساء والجنود، فأما ما ذكره غيرُ واحد من الإسرائيليات، من أنه خَرَج في ألف ألف وستمائةِ ألف فارس، منها مائةُ ألف على خيلٍ دُهْمٍ، وقال كعبُ الأحبار: فيهم ثمانمائةِ ألف حصانٍ أدهَم، ففي ذلك نظرٌ. والظاهر أنه من مجازفات بني إسرائيل، والله سبحانه وتعالى أعلم، والذي أخبر به هو النافعُ، ولم يُعيِّن عِدَّتهم، إذ لا فائدة تحته، إلا أنهم خَرَجُوا بأجمَعِهم.

﴿ فأتبعوهم مُشرِقينَ ﴾، أي: وَصَلوا إليهم عندَ شُروق الشمس، وهو طلوعُها. ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾، أي: رأى كلٌ من الفريقين صاحبَه فعند ذلك ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمُدركُون ﴾، وذلك أنهم انتهى بهم السيرُ إلى سِيفِ[2] البحر، وهو بحر القُلْزُم، فصار أمامَهم البحرُ، وفرعونُ قد أدركهُم بجنوده، فلهذا قالوا: ﴿ إنا لمُدرَكُونَ * قال كَلَّا إنَّ معيَ رَبِّي سَيَهدين ﴾، أي: لا يصلُ إليكُم شيءٌ مما تحذَرُون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسيرَ هاهنا بِكُم، وهو لا يُخلِفُ الميعادَ.

وكان هارونُ ـ عليه السلام ـ في المقدِّمة، ومعه يُوشَعُ بن نُونٍ، ومؤمن آل فرعون، وموسى عليه السلام في الساقة، وقد ذَكَر غيرُ واحد من المفسِّرين: أنهم وَقَفُوا لا يدرون ما يصنعُون، وجعل يُوشَعُ بن نونٍ، أو مؤمن

---

(1) أي: أصحاب الأمر، يقال: دالت له الدولةُ، أي: انتقل الأمر إليه.

(2) أي: ساحله.

آل فِرعونَ يقول لموسى عليه السلام: يا نَبِيَّ الله، هاهنا أمرك الله أن تسير؟ فيقول: نعم. واقترب فِرعونُ وجنودُه، ولم يبق إلا القليلُ. فعند ذلك أمر الله نبيه موسَى أن يضرِبَ بعصاه البحر، فضربه وقال: انفلق بإذن الله.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَة، حدثنا صفوانُ بن صالح، حدثنا الوليد، عن محمد بن حمزةَ بن يوسُفَ بن عبد الله بن سَلام: أنَّ موسَى ـ عليه السلام ـ لما انتهى إلى البحر قال: يا مَن كان قبلَ كلِّ شيءٍ، والمُكَوِّنَ لكلِّ شيء، والكائنَ بعدَ كل شيءٍ، اجعل لنا مخرجاً، فأوحى الله إليه: ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾[1].

وقال قتادةُ: أوحى الله تلك الليلة إلى البحر: أنْ إذا ضَربكَ مُوسى بعصَاه فاسمَع له وأطِع. فبات البحرُ تلك الليلة وله اضطراب[2]، لا يَدري من أيِّ جانبٍ يَضربُه موسى، فلما انتهى إليه موسَى قال له فتاه يوشع بن نُونٍ: يا نبي الله، أين أمرَكَ ربك؟ قال: أمرني ربي أنْ أضرب البحر. قال: فاضربه.

وقال محمدُ بن إسحاق: أوحى الله، فيما ذُكر لي، إلى البحر: أن إذا ضَربكَ موسَى بعصاه فانفلِق له. قال: فبات البحر يضطرب، يضربُ بعضُه بعضاً، فَرَقاً من الله تعالى، وانتظاراً لما أمره الله، وأوحى الله إلى موسى: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾، فضربه بها، ففيها سلطانُ الله الذي أعطاه، فانفلق[3].

وذكر غيرُ واحدٍ أنه كَنّاه فقال: انفلِق عَلَيَّ أبا خالد بإذن الله.

قال الله تعالى: ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾، أي: كالجَبَل الكبير. قاله ابنُ مسعود، وابنُ عباس، ومحمدُ بن كعب، والضحاكُ، وقتادةُ، وغيرهم. وقال عطاء الخراساني: هو الفَجُّ بين الجَبَلين. وقال ابن عباس: صارَ البحر اثني عَشَر طريقاً، لكل سِبْطٍ طريقٌ. وزاد السُّدّي: وصار فيه طاقاتٌ ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حَيْلِه[4] كالحيطان، وبَعَث الله الريحَ على قعر البحرِ فَلَفَحته، فصار يَبَساً كوجهِ الأرض، قال الله تعالى: ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾.

وقال في هذه القصة: ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾، أي: هنالك الآخرين. قال ابن عباس، وعطاء الخَراسانيّ، وقتادةُ، والسُّدي، ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾، أي: قَرَّبنا فِرعون وجنودَه من البحر وأدنيناهُم إليه.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾، أي: أنجينا مُوسى وبَني إسرائيلَ ومن مَعَهم على دِينهم فلم تَهلِك منهم أحداً، وأُغرِق فِرعَونُ وجُنودُه فلم يبقَ منهم رجلٌ إلا هَلَك.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا أبو بكر بن أبي شَيبَة، حدثنا شبابَةُ، حدثنا يونسُ بن أبي إسحاق، عن أبي إسحاق، عن عَمرو بن ميمونٍ، عن عبد الله، هو ابن مَسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ أن موسى عليه السلام حين أسرَى ببني إسرائيل بَلَغ فِرعونَ، فأمر بشاةٍ فَذُبِحت، ثم قال: لا، والله لا يُفرَغ مِن سَلخها حتى يجتمع إليّ ستمائة ألفٍ من القِبطِ. فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر، فقال له: انفرِق. فقال البحر:

---

(١) الدرّ المنثور ٦/ ٢٩٩.
(٢) مكانها في نسخة الحرم كلمة غير واضحة
(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٨٠.
(٤) الحَيْل: الماء المتجمّع في بطن الوادي.

لقد استكبرتَ يا موسى، وهل فُرِقتْ لأحدٍ من بني آدم فأُفرق لك؟! قال: ومع موسى رجلٌ على حصانٍ له، فقال له ذلك الرجلُ: أين أُمِرْتَ يا نبي الله؟ قال: ما أُمِرْتُ إلا بهذا الوجه، هذا البحر. فاقتحم فرسه فسبح به فخرج، فقال: أين أُمِرتَ يا نبي الله؟ قال: ما أُمِرْتُ إلا بهذا الوجه. قال: والله ما كَذَبَ ولا كُذِبْتَ. ثم اقتحم الثانية فسَبَحَ، ثم خرج، ثم قال: أين أُمِرت يا نبيَّ الله؟ قال: ما أُمِرتُ إلا بهذا الوجه؟ قال: والله ما كذب ولا كُذِبْتُ. قال: فأوحى الله إلى موسى أن اضرِبْ بعصاكَ البحرَ، فضرَبه موسى بعصاه، فانفلق، فكان فيه اثنا عشر سبطاً، لكلِّ سبطٍ طريق يتراءون، فلما خَرَجَ أصحابُ موسى وتَتامَّ أصحابُ فِرعَونَ، التقى البحر عليهم فأغرقهم[1].

وفي رواية إسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ، عن عمرو بن مَيْمُونٍ، عن عبدِ الله قال: فلما خرج آخرُ أصحاب مُوسَى، وتكامَلَ أصحابُ فِرعَون، اضطمَّ عليهم البحرُ، فما رُئِي سوادٌ أكثرُ من يومئذٍ، وغُرِقَ فِرعَونُ لعنه الله.

ثم قال تعالى: ﴿ إن في ذلك لآيةً ﴾، أي: في هذه القصةِ وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين، لدلالةٍ وحُجَّةٌ قاطِعةٌ وحِكمةٌ بالغةٌ، ﴿وما كان أكثرُهم مؤمنينَ * وإنَّ ربَّك لَهُوَ العزيزُ الرحيمُ﴾، تقدم تفسيره.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

هذا إخبارٌ من الله تعالى عن عبدِه ورسوله وخليله إبراهيمَ إمامِ الحُنَفاء، أمر الله رسولَه محمداً ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أن يتلُوهَ على أُمّتِه، ليقتدُوا به في الإخلاص والتوكُّل، وعبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، والتبرِّي من الشركِ وأهلِه؛ فإن الله تعالى آتى إبراهيم رُشدَه من قبلُ، أي: من صِغَره إلى كِبَرِه، فإنه من وقتِ نَشأ وشَبَّ أنكر على قَومِه عبادةَ الأصنام مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقال ﴿ لأبيه وقومه ماذا تعبدُون ﴾، أي: ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكِفُون؟ ﴿ قالوا نعبدُ أصناماً فنظلُّ لها عاكِفين ﴾، أي: مُقيمين على عبادتها ودُعائِها، ﴿ قال هل يَسمعُونكم إذ تَدعُونَ * أو ينفعونكُم أو يَضُرُّون * قالوا بل وَجَدنا آباءنا كذلك يَفعَلُون﴾، يعني اعترفوا بأن أصنامَهُم لا تفعلُ شيئاً من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعَلُون، فهم على آثارِهم يُهرَعُون. فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿أفرأيتم ما كُنتم تعبدُون * أنتم وآباؤكم الأقدمُون * فإنهم عَدُوٌّ لي إلا ربَّ العالمين﴾، أي: إن كانت هذه الأصنامُ شيئاً ولها تأثير فلْتَخلُص[2] إليَّ بالمَساءَةِ، فإني عدُوٌّ لها لا أباليها ولا أفكِّر فيها. وهذا كما قال تعالى مُخبِراً عن نوحٍ عليه السلام: ﴿ فَأجمِعُوا أمرَكُم وشركاءَكُم ثم لا يكُن أمرُكُم عليكم غُمَّةً ثم اقضُوا إليَّ ولا تُنظِرُونِ ﴾، وقال هود عليه السلام: ﴿إني أُشهِدُ الله واشهدوا أني بريءٌ ممَّا تشركون * من دُونِه فكيدُوني جميعا ثم لا تنظرونِ * إني توكلتُ على الله رَبِّي وربِّكم ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها إنَّ ربِّي على صراطٍ مستقيم ﴾. وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم، وقال: ﴿ وكيفَ أخافُ ما أشركتُم ولا تخافونَ أنكم أشركتُم بالله ما لم يُنَزِّلْ به عليكم سلطاناً ﴾. وقال تعالى: ﴿ قد كانت لكم أُسوةٌ حسنةٌ في إبراهيمَ والذين مَعَه إذ قالوا لقومهم

---

(١) أخرجه عبد بن حُمَيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. الدر المنثور ٩/٣٠١ـ٣٠٢.
(٢) أي: فلتصِلْ إليَّ بها.

إنا برآءُ منكُم ومما تعبدُون من دون الله كَفَرنا بكُم وَبَدَا بيننا وبينكُم العداوةُ والبغضاءُ أبَداً حَتّى تؤمنُوا بالله وحده﴾، وقال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيمُ لأبيه وقومه إنّني براءٌ مما تعبدُون ◈ إلا الذي فَطَرني فإنه سَيهدين ◈ وجعَلها كلمة باقية في عَقِبه لعلّهم يَرجعُون﴾، يعني لا إلهَ إلا الله.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾

يعني: لا أعبُد إلا الذي يفعلُ هذه الأشياء، ﴿الذي خَلَقني فهو يهدين﴾، أي: هو الخالقُ الذي قدَّر قدراً، وهَدَى الخلائق إليه، فكلٌّ يجري على قَدَر، وهو الذي يَهدي مَن يشاء ويُضِلُّ من يشاء. ﴿والذي هو يُطعِمني ويَسقين﴾، أي: هو خالقي ورازقي، بما سَخّر ويَسّر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المُزْنَ، وأنزل الماء، وأحيا به الأرضَ، وأخرج به من كلِّ الثمراتِ رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زُلالاً ﴿نُسْقِيَه مما خلقنا أنعاماً وأناسيَّ كثيراً﴾.

وقولُه: ﴿وإذا مَرِضتُ فهو يشفين﴾، أسند المرضَ إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخَلْقه، ولكن أضافه إلى نَفْسِه أدباً، كما قال تعالى آمراً للمصلّي أن يقول: ﴿اهدنا الصِراط المستقيم ◈ صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فأسند الإنعام إلى الله سبحانه وتعالى، والغَضَبَ حُذِف فاعله أدباً، وأُسنِدَ الضلالُ إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وأنا لا ندري أشرٌّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربُّهم رَشَداً﴾، ولهذا قال إبراهيم: ﴿وإذا مَرِضتُ فهو يشفين﴾، أي: إذا وَقَعتُ في مرضٍ فإنه لا يقدِرُ على شفائي أحدٌ غيره، بما يُقدِّر من الأسبابِ المُوصِلةِ إليه.

﴿والذي يُميتني ثم يُحيين﴾، أي: هو الذي يُحيي ويميتُ، لا يَقدِر على ذلك أحدٌ سواه، فإنه هو الذي يُبدِئ ويعيدُ، ﴿والذي أطمعُ أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾، أي: هُوَ الذي لا يَقْدِر على غَفرِ الذُنوبِ في الدنيا والآخرةِ إلا هو، ومن يغفرُ الذنوبَ إلا الله، فهو الفعَّال لما يشاءُ.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٨٤ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨٥ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾

وهذا سؤال من إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يؤتيَه حُكماً. قال ابنُ عباس: وهو العِلْمُ. وقال عكرمة: هو اللُّبُّ. وقال مجاهد: هو القرآنُ. وقال السُّدّي: هو النُبوَّة.

وقولُه: ﴿وألحِقني بالصَّالحين﴾، أي: اجعَلني مع الصَّالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ـ ﷺ ـ عند الاحتضار: «اللهمَّ في الرفيق الأعلى»[1]. قالها ثلاثاً. وفي الحديث في الدعاء: «اللهم أحيِنَا مُسلِمين، وأمِتنا مُسلِمين، وألحقنا بالصَّالحين، غير خزايا ولا مُبدَّلين»[2].

(١) تقدَّم الحديثُ عند تفسير الآية ١٠١ من سورة يوسف، وخرجناه هناك.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/٤٢٤، والنسائي في اليوم والليلة. وانظر الحديث في تفسير الآية ٧ من سورة الحجرات

وقولُه: ﴿ واجعَل لي لسانَ صِدْقٍ في الآخرين ﴾، أي: واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أُذكَرُ به، ويُقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ● سلام على إبراهيمَ ● كذلك نجزي المُحسنين ﴾

قال مجاهد، وقتادةُ: ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾، يعني الثناء الحسن. قال مجاهد: وهو كقوله تعالى: ﴿ وآتيناه أجرَه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾، وكقوله: ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنةً وإنّه في الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾. قال ليثُ بن أبي سُلَيم: كلُّ ملّةٍ تُحبُّه وتتولاه. وكذا قال عكرمة.

وقولُه: ﴿ واجعلني من وَرَثة جنة النَّعيم ﴾، أي: أنعم عليَّ في الدُّنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرَةِ بأنْ تجعلني من وَرَثةِ جَنَّةِ النعيم.

وقولُه: ﴿ واغفِر لأبي إنَّه كانَ من الضالِّين ﴾ كقوله: ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي ﴾، وهذا مما رَجع عنه إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلاّ عن موعِدَةٍ وعَدَها إيّاه فلما تبيَّن له أنه عدوٌّ لله تبرّأ منه إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم ﴾. وقد قَطَع تعالى الإلحاقَ في استغفاره لأبيه فقال: ﴿ قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرآء منكم ومما تعبُدُون من دونِ الله كَفَرنا بكُم وبَدَا بيننا وبينكُم العداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى تُؤمِنُوا بالله وحدَه إلا قولَ إبراهيمَ لأبيه لأَستغفِرَنَّ لك وما أملِكُ لك من الله من شيءٍ ﴾.

وقولُه: ﴿ ولا تُخْزِني يومَ يُبعثُونَ ﴾، أي: أجِرني من الخِزْيِ يومَ القيامةِ ويَبْعثِ الخلائقِ أوّلِهم وآخرِهم.

قال البُخاريُّ في قوله: ﴿ ولا تُخزِني يومَ يُبعَثُونَ ﴾: وقال إبراهيم بن طَهمانَ، عن ابن أبي ذِئْبٍ، عن سَعيد بن أبي سَعيد المقبُريِّ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إنّ إبراهيمَ رَأى أباه يومَ القيامةِ عليه الغَبَرَةُ والقَتَرَةُ[١]:

حدّثنا إسماعيلُ، حدّثنا أخي، عن ابن أبي ذِئبٍ، عن سعيدٍ المقبُريِّ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: يلقى إبراهيمُ أباه، فيقول: يا ربِّ، إنكَ وَعَدتَنِي أن لا تُخزني يومَ يُبعَثُون. فيقولُ الله: إنّي حرَّمتُ الجنةَ على الكافرين.

هكذا رواه عند هذه الآية[٢]. وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفرداً به، ولفظه: يلقى إبراهيمُ أباه آزرَ يومَ القيامة، وعلى وَجهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وغَبَرةٌ، فيقول له إبراهيمُ: ألم أقل لَكَ: لا تعصِني؟ فيقولُ أبوه: فاليومَ لا أعصيك. فيقول إبراهيمُ: يا ربِّ، إنك وعدتني أن لا تُخزيَني يومَ يُبعثُونَ، فأيُّ خِزْيٍ أخزَى من أبي الأبعَد؟ فيقول الله تعالى: إنّي حَرَّمتُ الجنة على الكافرين. ثم يُقَال: يا إبراهيمُ، ما تحتَ رِجلَيكَ؟ فينظر فإذا هو بذيخٍ مُتلطِّخٍ، فيُؤخَذُ بقوائمه فيُلقَى في النار[٣].

وقال أبو عبدِ الرحمن النَّسائي في التفسير من سُننه الكَبير: قولُه: ﴿ ولا تُخزِني يومَ يُبعَثُونَ ﴾: أخبرنا أحمد بن حفص بن عبد الله، حدثني أبي، حدثني إبراهيم بن طَهمان، عن محمد بن عبد الرحمن، عن سَعيد ابن أبي سعيد المقبُري، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن إبراهيم رَأى أباه يوم القيامة

---

(١) بعده في الصحيح: «والغَبَرةُ هي القترةُ». وهو من كلام البخاري. والقَترُ: الغُبار. وقال بعضهم: القَتَرةُ: ما يغشى الوجه من الكَرْب والقَتَرة: ما يعلوه من الغُبار. وقيل: القتَرةُ: شدّة الغبرة بحيث يسودُّ الوجه. وقيل: القترةُ: سواد الدخان. فاستعيرها.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة الشعراء ٨/٤٩٩.
(٣) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٣٨٧. والذِّيخُ: يأتي تفسيره.

عليه الغَبَرة والقَتَرة، وقال له: قد نهيتُك عن هذا فعصيتني. قال: لكنِّي اليوم لا أعصيك واحدةً. قال: يا ربِّ، وعدتني ألَّا تُخزيني يومَ يُبعثون، فإن أخزيت أباه فقد أخزيتَ الأبعدَ. قال: يا إبراهيمُ، إني حرَّمتُها على الكافرين. فأُخِذ منه، قال: يا إبراهيمُ، أين أبوك؟ قال: أنت أخذته منِّي. قال: انظر أسفلَ منكَ. فنظر فإذا ذيخٌ يتمرَّغُ في نتنِه، فأُخِذ بقوائمه فأُلقي في النار[1]. هذا سياقٌ غريبٌ، وفيه نكارةٌ.

والذِّيخُ: هو الذَّكَرُ من الضِّباع، كأنه حُوِّل آزرُ إلى صُورة ذِيخٍ مُتلطِّخٍ بعَذِرَته، فأُلقي في النار كذلك.

وقد رواه البزَّارُ من حديث حمَّاد بن سَلَمة، عن أيوبَ، عن محمد بن سيرينَ، عن أبي هُريرة، عن النبي - ﷺ -. وفيه غَرابة. ورواه أيضاً من حديث قتادَةَ، عن عُقبَةَ بن عبد الغفار، عن أبي سعيدٍ، عن النبي - ﷺ - بنحوه.

وقولُه: ﴿ يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنُون ﴾، أي: لا يَقِي المرءَ من عذاب الله مالُه، ولو افتدى بملءِ الأرضِ ذهباً، ﴿ ولا بنُون ﴾، ولو افتدى بمَن في الأرض جميعاً، ولا ينفعُ يومئذٍ إلا الإيمانُ بالله، وإخلاصُ الدِّين له، والتبرِّي من الشركِ، ولهذا قال: ﴿ إلا مَن أتى الله بقلبٍ سليمٍ ﴾، أي: سَلِم من الدَّنسِ والشِّركِ.

قال مُحمَّد بن سيرينَ: القلبُ السليم أن يعلَم أن الله حقٌّ، وأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنَّ الله يبعثُ مَن في القبور.

وقال ابنُ عباس: ﴿ إلا مَن أتى الله بقلبٍ سليمٍ ﴾، يعني: يشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا الله. وقال مجاهد، والحسنُ، وغيرهما: ﴿ بقلبٍ سليمٍ ﴾، يعني: من الشركِ.

وقالَ سَعيدُ بن المسيِّب: القلبُ السليمُ: هو القلبُ الصحيحُ، وهُو قلبُ المؤمنِ، لأنَّ قلبَ المنافق مريضٌ، قال الله: ﴿في قُلوبهم مَرَضٌ﴾. وقال أبو عُثمان النَّيسابوريُّ[2]: هو القلبُ الخالي من البِدعةِ، المطمئنُّ على السُّنَّةِ.

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

﴿ وأُزلفَت الجنةُ ﴾، أي: قُرِّبت الجنةُ وأُدنِيَت من أهلها يومَ القيامة مزخرفةً مزيَّنةً لناظريها، وهُم المتَّقون الذين رَغِبُوا فيها، وعمِلُوا لها في الدنيا. ﴿ وبُرِّزت الجَحيمُ للغاوين ﴾، أي: أُظهرَت وكُشِفَ عنها، وبدَت منها عُنُقٌ[3] فزفرت زفرةً بلَغت منها القلوبُ الحناجرَ، وقيل لأهلها تقريعاً وتوبيخاً: ﴿أين ما كنتُم تعبدُون ۞ من دُونِ الله هل ينصُرونكم أو ينتصِرُون﴾؟ أي: ليستِ الآلهةُ التي عَبَدتُموها من دُونِ الله، من تلك الأصنامِ والأندادِ

---

(١) انظر تحفة الأشراف للمِزّي ١٠/٣٠٩.

(٢) هو: عَمرو بن عبد الله البصري. ذكره الذهبي في المقتنى ١/٢٩٣

(٣) العُنُق من كل شيء: أوَّله.

تُغني عنكُم اليومَ شيئاً، ولا تدفعُ عن أنفسِها، فإنّكم وإيّاها اليومَ حَصَبُ جهنّم أنتم لها واردُون.

وقولُه: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾، قال مجاهدٌ: يعني فَدُهْوِرُوا فيها[1]. وقال غيرُه: كُبّوا فيها، والكافُ مُكَرَّرة، كما يقال: صَرْصَرٌ[2]. أنه أُلقِيَ بعضُهم على بعضٍ، من الكفّارِ وقادتِهم الذين دعَوهم إلى الشرك، ﴿وجنودُ إبليسَ أجمعون ﴾، أي: أُلقُوا فيها عن آخرهم. ﴿قالوا وهُم فيها يختصمُون ● تالله إن كنا لفي ضلالٍ مُبينٍ ● إذ نُسوِّيكم بربِّ العالمين﴾، أي: يقولُ الضُّعَفاءُ للذين استكبَرُوا: ﴿إنَّا كُنَّا لكم تبعاً فهل أنتم مُغنُون عنا نصيباً من النارِ ﴾. ويقولون وقد عادُوا على أنفُسِهم بالمَلامة: ﴿تالله إن كُنّا لَفِي ضلالٍ مبين ● إذ نُسَوِّيكم بربِّ العَالَمين ﴾، أي: نجعَلُ أمرَكُم مطاعاً كما يُطاعُ أمرُ ربِّ العالمين، وعبدناكم مع ربِّ العالمين، ﴿ وما أضلّنا إلا المجرمون ﴾ أي: ما دعَانا إلى ذلك إلا المجرمُونَ، ﴿ فما لنا مِن شافعين ﴾، قال بعضُهم: يعني من الملائِكةِ، كما يَقولُون: ﴿ فهل لنا من شُفَعاء فيشفعُوا لنا أو نُرَدُّ فنعملَ غير الذي كنا نعملُ ﴾. وكذا قالوا: ﴿فما لنا من شافعين ● ولا صَديقٍ حميمٍ﴾، أي. قريب.

قال قتادةُ: يعلمون - والله - أن الصديقَ إذا كان صالحاً نَفَع، وأن الحميمَ إذا كان صالحاً شفع.

﴿فلو أن لنا كرّةً فنكون من المؤمنين ﴾، وذلك أنهم يتمنَّونَ أن يُرَدُّوا إلى الدار الدنيا، ليعملُوا بطاعةِ ربِّهم فيما يزعُمون، وهو سبحانه وتعالى يعلم أنه لو ردَّهم إلى الدار الدنيا لعادُوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون وقد أخبر تعالى عن تخاصُم أهلِ النار في سورة «ص»، ثم قال: ﴿ إن ذلك لحقٌّ تخاصُمُ أهل النار ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ إن في ذلك لآيةً وما كانَ أكثرُهم مؤمنين ﴾، أي: إن في محاجَّةِ إبراهيمَ لقومه وإقامته الحُجَج عليهم في التوحيد لآيةً ودَلالةً واضحةً جليةً على أنه لا إلهَ إلا الله، ﴿وما كان أكثرُهم مؤمنين ● وإن ربَّك لهو العزيزُ الرحيمُ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ﴾

هذا إخبارٌ من الله - عزَّ وجلَّ - عن عبدِه ورسولِه نوحٍ عليه السلام، وهو أولُ رسولٍ بُعث إلى أهل الأرضِ بعدَ ما عُبِدَت الأصنامُ والأندادُ، بَعثه الله ناهياً عن ذلك، ومُحذِّراً من وَبيل عقابه، فَكَذَّبه قومه واستمرُّوا على ما هم عليه من الفِعَالِ الخبيثة في عبادتهم أصنامهم. ونزَّل تكذيبُهم له بمنزلة تكذيب جميعِ الرُّسُلِ، ولهذا قال: ﴿كَذَّبت قومُ نوحٍ المرسَلين ● إذ قال لهم أخوهم نُوحٌ ألا تتّقونَ ﴾، أي: ألا تخافُونَ الله في عبادَتِكم غيره؟ ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾، أي: إنّي رسولٌ من الله إليكُم، أمين فيما بَعثني به، أُبلّغكم رسالَةَ الله لا أَزيدُ فيها ولا أَنقُصُ منها، ﴿فاتقُوا الله وأطيعونِ ● وما أسألُكم عليهِ من أجرٍ إن أجريَ إلا على ربِّ العالمين ﴾، أي: لا أطلبُ منكم جزاءً على نُصحِي لكم، بل أَدَّخِرُ ثوابَ ذلك عند الله، ﴿فاتقُوا الله وأطيعونِ ﴾، فقد وَضَح لكم وبانَ صِدقي ونُصحِي وأَمانَتي فيما بَعثني به وائتمنَني عليه.

---

(١) الدَّهْوَرَةُ: جَمْعُكَ الشيءَ وقذْفُكَ به في مَهْواةٍ.

(٢) انظر روحَ المعاني للآلوسي ١٠٢/١٩، وتفسير القرطبي ١١٦/١٣، وشرح الشافية للرضي ٦٢/١

﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

يقولون: أنؤمِن لك ونتبعُك، ونتساوى في ذلك بهؤلاء الأرذل الذين اتَّبعُوك وصدَّقوك، وهم أراذلنا؟! ولهذا قالوا: ﴿أنؤمنُ لك واتبعك الأرذلون * قال وما علْمي بما كانوا يعمَلون﴾، أي: وأيُّ شيء يلزمُني من اتباع هؤلاء لي، ولو كانوا على أيِّ شيء كانوا عليه لا يَلزمُني التنقيبُ عنه والبحثُ والفحصُ، إنما عليَّ أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وسرائرُهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿إن حسابُهم إلا على ربِّي لو تشعرون * وما أنا بطاردِ المؤمنين﴾، كأنهم سألوا منه أن يُبعدَهم عنه ليتابعوه، فأبى عليهم ذلك، وقال: ﴿وما أنا بطاردِ المؤمنين * إن أنا إلا نذيرٌ مبينٌ﴾، أي: إنما بُعثتُ نذيراً، فمَن أطاعني واتَّبعني وصدَّقني كان منِّي وكنتُ منه، سواءٌ كان شريفاً أو وضيعاً، أو جليلاً أو حقيراً.

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

لما طال مقامُ نبي الله بين أظهُرهم يدعُوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، وجهراً وإسراراً، وكلَّما كرَّر عليهم الدعوةَ صمَّمُوا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿لئِن لم تَنْتهِ﴾، أي: عن دَعْوتكَ إيانا إلى دينك يا نوحُ ﴿لَتكوننَّ من المرجُومين﴾، أي: لنرجمَنَّك. فعند ذلك دعَا عليهم دعوةً استجاب الله منه، قال: ﴿ربِّ إن قومي كذبونِ * فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجِّني ومن معي من المؤمنين﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فدعا ربه أنِّي مغلوبٌ فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء مُنهمِر * وفجَّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قُدِر * وحملناه على ذات ألواح ودُسُر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾، وقال هاهنا: ﴿فأنجيناه ومن معه في الفُلْك المَشْحُون * ثم أغرقنا بعد الباقين﴾، والمشحُون: هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حَمَل فيه من كلِّ زوجين اثنين، أي: نجينا نوحاً ومَن اتَّبعه كلَّهم، وأغرقنا من كذَّبه وخالَف أمره كلَّهم، ﴿إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مؤمنين * وإنَّ ربَّك لهو العزيزُ الرحيمُ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هُودٍ ـ عليه السلام ـ: أنه دعا قومه عاداً وكانوا قوماً يسكُنون الأحقاف، وهي جبالُ الرمل قريباً من بلاد حضرموت، متاخمةً لبلادِ اليمن، وكان زمانُهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿واذكروا إذ جعلكم خُلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسْطة﴾، وذلك أنهم كانوا في غاية من قُوَّة التركيب، والقوَّة والبطش الشديد، والطُّول المديد، والأرزاق الدارَّة، والأموال والجنَّات

والعُيُونِ، والأنهارِ والزُّرُوعِ والثمارِ، وكانوا مع ذلك يعبُدُون غير الله معه، فبعث الله إليهم رجلاً منهم رسُولاً وبَشِيراً ونَذِيراً، فدعاهم إلى الله وحده، وحذَّرهم نقمته وعذابه في مخالفته، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال: ﴿ أتبنُون بكلِّ ريعٍ آيةً تعبَثُون ﴾، اختلف المفسِّرون في الريع بما حاصله: أنه المكان المرتفع عند جوادِّ[1] الطرق المشهورة، تبنون هناك بناء محكماً باهراً هائلاً. ولهذا قال: ﴿ أتبنون بكلِّ ريعٍ آيةً ﴾، أي: معلماً بناء مشهوراً، ﴿ تعبثون ﴾، وإنما تفعلون ذلك عَبَثاً لا للاحتياج إليه، بل لمجرَّد اللعب واللهو وإظهار القوة ولهذا أنكر عليهم نَبِيُّهم ـ عليه السلام ـ ذلك، لأنه تضييع للزمان، وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغالٌ بما لا يُجدِي في الدنيا ولا في الآخِرة.

ثم قال: ﴿وتتَّخِذُون مصانِعَ لعلَّكُم تخلُدون﴾، قال مجاهد: المصانع: البروجُ المشيَّدة، والبنيان المخلَّد. وفي رواية عنه: بُروجُ الحمام. وقال قتادةُ: هي مآخِذُ الماء. قال قتادة: وقرأ بعض القراء[2] «وتتخذون مصانِعَ كأنَّكم خالِدُون»[2]. وفي القراءة المشهورة ﴿ لعلكم تخلدون ﴾، أي: لكي تقيمُوا فيها أبداً، وليس ذلك بحاصلٍ لكم، بل زائلٌ عنكم، كما زال عمَّن كان قبلكم.

وقال ابنُ أبي حاتم رحمه الله: حدثنا أبي، حدثنا الحَكَمُ بن موسى، حدثنا الوليد، حدثنا ابن عجلان، حدثني عَونُ بن عبد الله بن عُتبَةَ، أنَّ أبا الدرداء ـ رَضِي الله عنه ـ لما رأى ما أحدَث المسلمون في الغُوطَة[3] من البُنيان ونَصْب الشَّجَر قام في مسجدهم فنادى: يا أهلَ دمشقَ! فاجتمعوا إليه، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تستَحيُون! ألا تَستَحيون! تجمَعُون ما لا تأكلون، وتبنُون ما لا تسكُنُون، وتأمُلون ما لا تدرِكون! إنه كانت قبلكم قرونٌ، يجمَعُون فيُوعُون، ويبْنُون فيُوثِقُون، ويأمُلون فيُطِيلُون، فأصبح أملُهم غُروراً، وأصبح جمعُهم بوراً، وأصبَحت مساكِنُهم قُبوراً، ألا إن عاداً ملَكت ما بين عَدَن وعُمانَ خيلاً وركاباً، فمَن يشتري مني ميراث عادٍ بدرهمين؟!

وقولُه: ﴿ وإذا بطشتُم بطشتُم جبَّارِين ﴾، وصفَهم بالقُوَّة والغِلظة والجَبرُوت. ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أي: اعبدُوا ربَّكم، وأطِيعُوا رَسُولَكم.

ثم شَرَع يُذكِّرهم نِعَم الله عليهم فقال: ﴿واتقُوا الذي أمدَّكم بما تعلَمُون * أمدَّكم بأنعام وبنين * وجنات وعُيُون * إني أخافُ عليكُم عذابَ يومٍ عظيمٍ﴾، أي: كذَّبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نَفَع فيهم.

﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن جواب قوم هُودٍ له. بعد ما حذَّرهم وأنذرهم، ورغَّبهم ورهَّبهم، وبيَّن لهم الحقَّ ووضَّحه ﴿قالوا سواءٌ علينا أوَعَظت أم لم تَكُن من الواعظين ﴾، أي: لا نَرجعُ عمَّا نحن فيه، ﴿ وما نحنُ بتارِكي آلهتنا

(١) الجوادّ: جمع جادَّة، وهي: الطريقُ الأعظم الذي يجمع الطرق، ولا بُدَّ من المرور عليه.
(٢) في نسخة الحرم: «وقرأ بعض الكوفيين»، وعبارة الطبري ١٩/ ٩٧ عن قتادة، قال: هي بعض الحروف، بيد أن النصّ المثبت «كأنكم تخلدون». وما في روح المعاني ١٩/ ١١٠ يوافق ما أثبتناه.
(٣) غُوطَةُ: موضع بالشام كثير الماء والشجر، وهو غوطة دمشق. وذكرها الليث مُعرَّفةً بالألف واللام. ومدينة دمشق تسمَّى غوطة.

عن قولك وما نحنُ لك بمؤمنين ﴾. وهكذا الأمر، قال الله تعالى: ﴿ إن الذين كَفَرُوا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذِرهُم لا يؤمنون ﴾، وقال تعالى: ﴿إن الذين حَقَّت عليهم كلمةُ ربِّك لا يُؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ حتَّى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾.

وقولُه: ﴿ إن هذا إلا خُلُقُ الأوَّلين ﴾. قرأ بعضُهم: ﴿ إن هذا إلا خَلْقُ الأوَّلين ﴾، بفتح الخاء وتسكين اللام[1]. قال ابن مسعود، والعَوفي عن عبد الله بن عباس، وعَلْقَمةُ، ومجاهدٌ: يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا اختلاق[2] الأولين. كما قال المشركون من قُرَيش: ﴿وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً﴾، وقال: ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرُون فقد جاءُوا ظلماً وزوراً * وقالوا أساطيرُ الأولين﴾، وقال: ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزلَ ربُّكم قالوا أساطيرُ الأولين﴾.

وقرأ آخرون: ﴿ إن هذا خُلُقُ الأولين ﴾، بضم الخاء واللام، يعنون: دينُهم وما هم عليه من الأمر هو دينُ الأوائل من الآباء والأجداد. ونحن تابِعُون لهم، سالِكُون وراءَهم، نعيشُ كما عاشُوا، ونموتُ كما ماتوا، ولا بَعثَ ولا مَعادَ. ولهذا قالوا: ﴿ وما نحنُ بمعذَّبين ﴾.

قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ إن هذا إلا خُلُقُ الأولين ﴾، يقولُ: دينُ الأولين. وقاله عكرمة، وعطاء الخراساني، وقتادةُ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابنُ جرير[3].

قال الله تعالى: ﴿ فكذبوه فأهلكناهم ﴾، أي: فاستمرُّوا على تكذيب نبيِّ الله هُودٍ ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله. وقد بيَّن سببَ إهلاكه إيَّاهم في غير موضعٍ من القرآنِ بأنه أرسلَ عليهم ريحاً صرصراً عاتيةً، أي: ريحاً شديدةَ الهُبُوب، ذاتَ بردٍ شديدٍ جداً، فكان إهلاكُهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيءٍ وأجبَرَه، فسلَّط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشدُّ قوة، كما قال: ﴿ألم تَرَ كيف فعلَ ربُّك بعادٍ * إرَم﴾، وهُم عادُ الأولى، كما قال: ﴿ وأنه أهلَكَ عاداً الأولى﴾، وهم من نَسْلِ إرَم بن سام بن نُوح ﴿ ذاتِ العمادِ ﴾، أي: الذين كانُوا يسكُنون العَمَد. ومن زَعَم أن «إرَمَ» مدينةٌ، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليَّاتِ من كَلَامِ كعبٍ ووهبٍ، وليس لذلك أصلٌ أصيلٌ. ولهذا قال: ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾، أي: لم يخلق مثل هذه القَبِيلة في قوتهم وشدتهم وجَبَرُوتهم، ولو كان المراد بذلك مدينةً لقال: التي لم يُبنَ مثلُها في البلاد، وقال: ﴿ فأما عادٌ فاستكبروا في الأرض بغير الحقِّ وقالوا من أشدُّ منا قوةً أوَلم يَرَوا أن الله الذي خَلَقهم هو أشدُّ منهم قوَّةً وكانُوا بآياتنا يجحَدُون ﴾.

وقد قَدَّمنا أن الله تعالى لم يُرسل عليهم من الرِّيح إلا بمقدارِ أنفِ الثَّور، عَتَت على الخزنة، فأذن الله لها في ذلك، وسَلَكت وحَصَت بلادهم، فحَصَبت كلَّ شيءٍ لهم كما قال تعالى: ﴿ تُدَمِّر كلَّ شيءٍ بأمر ربها فأصبحوا لا تَرَى إلا مساكنُهم ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وأما عاد فأهلِكُوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتيةٍ * سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حُسُوماً ﴾، أي: كاملة، ﴿ فترى القوم فيها صَرْعَى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ ﴾، أي: بقُوا أبداناً بلا رُءُوس، وذلك أنَّ الريحَ كانت تأتي الرجلَ منهم فتقتلعهُ وترفعُه في الهواء، ثم تَنكُسهُ على أمِّ رأسه فتشدَخ دماغَه، وتكسِر رأسه، وتلقيه، كأنهم أعجازُ نخلٍ مُنقَعِر. وقد كانوا تحصَّنُوا في الجبالِ والكُهُوفِ

---

(١) هذه قراءة ابن كثير، وأبي عَمْرو، والكسائي. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧١٦.
(٢) في النسخ: اختلاق. والمثبت من الطبري ١٩/٩٧.
(٣) الطبري ١٩/٩٨.
(٤) كذا في نسخة المحرم (تَرَى)، بالتاء. وهي قراءة السبعة ما عدا عاصماً وحمزة. انظر الإقناع ٢/٧٦٦.

والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يُغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً، ﴿إنَّ أجلَ الله إذا جاء لا يُؤخَّر﴾، ولهذا قال: ﴿فَكذَّبوه فأهلكناهم إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربَّك لهو العزيزُ الرحيمُ﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

وهذا إخبارٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن عبده ورسوله صالح ـ عليه السلام ـ أنه بعثه إلى قومه ثمود، وكانوا عرباً يسكُنون مدينة الحِجْر، التي بين وادي القُرَى وبلادِ الشام، ومساكنُهم معروفةٌ مشهورةٌ. وقد قدَّمنا في سورة الأعراف[1] الأحاديثَ المرويَّةَ في مُرور رسول الله ـ ﷺ ـ بهم حينَ أرادَ غزوَ الشام، فوصل إلى تبوك، ثم عاد إلى المدينة ليتأهَّبَ لذلك. وقد كانوا بعد عادٍ وقبل الخليل عليه السلام. فدعاهُم نبيُّهم صالحٌ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يعبُدوه وَحده لا شَريك له، وأن يُطيعون فيما بلَّغهم من الرسالة، فأبَوا عليه وكذَّبوه وخالفوه. فأخبرهم أنه لا يَبتغي بِدَعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلُب ثوابَ ذلك من الله عزَّ وجلَّ. ثم ذكَّرهم آلاء الله عليهم فقال:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

يقولُ لهم واعظاً لهم ومحذِّراً إياهم نِقَمَ الله أن تَحِلَّ بهم، ومُذكِّراً بأنعُم الله عليهم فيما رزَقهم من الأرزاقِ الدارَّةِ، وجعلهم في أمْنٍ من المحذُوراتِ، وأنبتَ لهم من الجناتِ، وأنبعَ لهم من العُيونِ الجاريات، وأخرجَ لهم من الزُّروعِ والثمراتِ، ولهذا قال: ﴿ونخلٍ طلعُها هضيمٌ﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: أينع وبَلَغ، فهو هضيم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ونخل طلعها هضيم﴾، يقول: مُعْشِبة.

قال إسماعيلُ بن أبي خالد، عن عمرو بن أبي عمرو، وقد أدركَ الصَّحابةَ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ونخلٍ طلعُها هَضِيمٌ﴾، قال: إذا رَطُب واسترخَى. رواه ابنُ أبي حاتم، قال: ورُوِيَ عن أبي صالح نحو هذا.

وقال أبو إسحاقَ، عن أبي العَلاءِ: ﴿ونَخلٍ طَلعُها هَضِيمٌ﴾، قال: هو المُذَنِّبُ[2] من الرُّطَب. وقال مجاهد: هو الذي إذا مُسَّ تهشَّم وتفتَّتَ وتناثر. وقال ابن جُرَيج: سَمعتُ عبد الكريم أبا أمية، سَمعتُ مجاهداً يقول: ﴿ونخل طلعُها هضيمٌ﴾، قال: حين يُطلِعُ[3] تَقبِضُ عليه فتَهضِمُه، فهو من الرُّطَب الهَضِيمُ، ومن اليابس

(١) انظر تفسير الآيات ٧٣ ـ ٧٩ من سورة الأعراف.
(٢) ذَنَّبَ البُسر: أرطب من قِبَل ذَنَبِه، والذَّنَبُ من كل شيء: طرَفُه.
(٣) يقال: طَلَع النَّخلُ: أخرج طلْعَه، ويقال أيضاً: أطلَع. والطَّلْعُ: غلافٌ يشبه الكوز ينفتح عن حبٍّ منضودٍ فيه مادّة إخصاب النخلة. والكِمُّ: غلاف الطلع ووعاؤه.

الهشيم، تقبض عليه فتهشمه. وقال عكرمة، وقتادة: الهضيم: الرطبُ اللينُ. وقال الضحاك: إذا كثر حَمْلُ النخلةِ المثمرة، وركب بعضُه بعضاً، فهو هضيم. وقال مُرَّةُ: هو الطَّلْعُ حين يَتَفرّق ويخضرُّ. وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوى له. وقال أبو صخر: أما رأيتَ الطَّلْعَ حين يتشقّق عنه الكِمُّ، فترى الطَّلْعَ قد لَصِق بعضُه ببعض، فهو الهضيمُ.

وقوله: ﴿ وتنحِتُونَ من الجبال بيوتاً فارهينَ﴾، قال ابن عباس، وغير واحد: يعني حاذقين. وفي رواية عنه: شرهين أشرين. وهو اختيارُ مجاهدٍ وجماعةٍ. ولا منافاةَ بينهما، فإنهم كانوا يتّخذون تلك البيوتَ المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً، من غير حاجةٍ إلى سكناها، وكانوا حاذقين مُتقِنين لنحتها ونَقْشِها، كما هو المشاهَدُ من حالهم لِمن رَأى منازلَهم، ولهذا قال: ﴿ فاتقُوا الله وأطيعونِ ﴾، أي: أقبلوا على عَمَلٍ ما يعود عليكم نفعُه في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خَلقكم ورزقكم لتوحِّدوه وتعبدُوه وتُسبِّحُوه بكرةً وأصيلا، ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يُفسِدُون في الأرض ولا يصلحون ﴾ يعني: رُؤساءهم وكُبَراءهم، الدعاةَ لهم إلى الشركِ والكفرِ، ومخالفةِ الحقِّ.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ثمودَ في جوابهم لنبيِّهم صالح ـ عليه السلامُ ـ حين دعاهُم إلى عبادة ربِّهم، ﴿قالوا إنما أنت من المسحَّرين ﴾، قال مجاهدٌ، وقتادةُ: يعنونَ من المسحُورين. وروى أبو صالح، عن ابن عباس: ﴿ من المسحَّرين ﴾. يعني من المخلوقين[1]. واستشهد بعضُهم على هذا القول بما قال الشاعر[2]:

فإنْ تسألينا: فِيمَ نَحْنُ؟ فإنّنا عَصَافير من هَذَا الأنام المُسَحَّرِ

يعني الذين لهم سُحُورٌ، والسَّحْرُ: هو الرئة.

والأظهر في هذا قول مجاهد وقتادة: أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحورٌ لا عقل لك.

ثم قالوا: ﴿ ما أنت إلا بشرٌ مثلنا ﴾، يعني: فكيف أُوحِيَ إليك دوننا؟! كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿ أأُلقي عليه الذكرُ من بيننا بل هو كذّابٌ أشِرٌ * سيعلمون غداً من الكذّابُ الأشِرُ﴾.

ثم إنهم اقترحُوا عليه آيةً يأتيهم بها، ليعلمُوا صِدْقَه بما جاءهم به من ربِّهم، فطلبوا منه وقد اجتمع ملؤُهم أن يُخرِجَ لهم الآن من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرةٍ عندهم، ناقةً عُشَراءَ من صفتها كذا وكذا. فعند ذلك أخذ عليهم نبيُّ الله صالحٌ العهودَ والمواثيقَ، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤمِنُنَّ به، ولَيُصَدِّقُنَّه وليتبعُنَّه، فأنعمُوا بذلك[3]. فقام نبيُّ الله صالح عليه السلام فصلّى، ثم دعا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يُجيبهم إلى سُؤلهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقةٍ عُشَراءَ على الصفة التي وصفوها. فآمن بعضُهم وكفر أكثرُهم،

(١) أخرجه الطبري وغير واحد، تفسير الطبري ١٩/١٠٢، والدر المنثور ٦/٣١٦
(٢) تقدّم البيت عند تفسير الآية ٤٦ من سورة الإسراء، وخرجته هنالك
(٣) أي قالوا له: نعم

﴿ قال هذه ناقةٌ لها شِرْبٌ ولكم شِرْبُ يومٍ معلومٍ ﴾ يعني ترِدُ ماءكم يوماً، ويوماً تردُونه أنتم، ﴿ ولا تمسُّوها بسوءٍ فيأخذَكم عذابُ يومٍ عظيم﴾. فحذرهم نقمةَ الله إن أصابوها بسوءٍ، فمكثت الناقةُ بين أظهرهم حيناً من الدهر ترِدُ الماء، وتأكل الوَرَقَ والمرعى. وينتفعون بلبنها، يحتلبون منها ما يكفيهم شُرباً ورِيّاً، فلما طال عليهم الأمدُ وحَضَر شقاؤُهم، تمالئُوا على قتْلها وعقرِها، ﴿فعقرُوها فأصبحُوا نادمين ● فأخذهم العذابُ ﴾، وهو أن ارضهم زُلزِلَت زِلزالاً شديداً، وجاءتهم صيحةٌ عظيمةٌ اقتلعت القلوبَ عن مَحالّها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يَحتسِبُون، فأصبحُوا في ديارهم جاثمين، ﴿إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مؤمنين ● وإن ربك لهو العزيزُ الرحيمُ ﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٤) ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن عبده ورسولهِ لوطٍ ـ عليه السلامُ ـ وهو: لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالى قد بَعثه إلى أمةٍ عظيمةٍ في حياة إبراهيم، وكانوا يسكُنون «سدُوم» وأعمالها[(١)] التي أهلكها الله، وجعل مكانها بُحيرةً مُنتِنةً خَبيثة، وهي مشهورةٌ ببلاد الغور، متاخمة لجبال بيت المقدس، بينها وبين بلاد الكَرَك[(٢)] والشَّوبَك. فدَعاهم إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يعبدُوه وحدَه لا شريكَ له، وأن يطيعوا رسُولهم الذي بَعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصيَةِ الله، وارتكابِ ما كانُوا قد ابتدعُوه في العالم، مما لم يسبِقْهم الخلائقُ إلى فعله، من إتيان الذُّكرانِ دُونَ الإناثِ، ولهذا قال تعالى:

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٧٥) ﴾

لما نَهاهم نبي الله عن إتيانهم الفواحش، وغِشيانهم الذكورَ، وأرشدَهم إلى إتيانِ نسائهم اللاتي خلقهُنّ الله لهم، ما كان جوابُ قومِه له إلا أن قالوا: ﴿ لئن لم تنته يا لوطُ ﴾، يعنُون عما جئتنا به، ﴿ لتكونَنّ من المخرجين ﴾، أي: ننفيك من بين أظهُرنا، كما قال تعالى: ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناسٌ يتطهَّرون ﴾. فلما رأى أنَّهم لا يرتَدِعُون عما هم فيه وأنهم مُستمِرُّون على ضلالتهم تبرّأ منهم فقال: ﴿ إني لعملكم من القالين ﴾، أي: المُبغضين، لا أحبه ولا أرضى به، وإني بريءٌ منكم. ثم دعا الله عليهم قال: ﴿ ربِّ نَجِّني وأهلي مما يعْمَلُون ﴾. قال الله تعالى: ﴿ فنجَّيناه وأهله أجمعين ﴾، أي: كلَّهم، ﴿ إلا عجُوزاً في الغابرين﴾، وهي امرأته، كانت عجوزَ سَوءٍ، بَقِيَت فهَلكَت مع من بقي من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في «سورة الأعراف» و «هُود»، وكذا في «الحِجْر» حين أمره الله أن يَسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتُون

(١) يقال: قريةٌ من أعمال كذا: إذا كانت تحت حكمه ومضافةً إليه.

(٢) الكرك: قلعة حصينة جدًا في طرف الشام، من نواحي البلقاء في جبالها. والشوبكُ: قلعة حصينة أيضاً في أطراف الشام بين عمّان وأيلة

إذا سمعوا الصيحةَ حين تنزلُ على قومه، فصبرُوا لأمر الله واستمرُّوا، وأنزل الله على أولئك العذابَ الذي عمَّ جميعَهم، وأمطر عليهم حجارةً من سجّيلٍ منضُودٍ، ولهذا قال: ﴿ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مَطَراً فساء مَطَرُ المُنذَرين * إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربّك لَهُو العَزيزُ الرَّحيمُ﴾.

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

هؤلاءِ ـ أعني أصحابَ الأيكةِ ـ هم أهلُ مَدْيَنَ على الصحيحِ. وكان نبيُّ الله شُعَيبٌ من أنفسهم، وإنما لم يَقُل هاهنا أخُوهم شُعَيب، لأنهم نُسِبوا إلى عبادةِ الأيكة، وهي شجرةٌ. وقيل: شَجَرٌ مُلتَفٌّ كالغَيضةِ، كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿كذّبَ أصحابُ الأيكةِ المرسلين﴾، لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿ إذ قال لهم شعيبٌ ﴾، فقطع نِسبَةَ الأُخُوَّةِ بينهم؛ للمعنى الذي نُسِبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً. ومن الناس من لم يتفطن لهذه النُّكتةِ، فظن أن أصحابَ الأيكةِ غيرُ أهلِ مدين، فزعم أن شعيباً ـ عليه السلام ـ بعثه الله إلى أُمّتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم.

وقد رَوَى إسحاقُ بن بِشرٍ الكاهلِي ـ وهو ضَعيفٌ ـ: حدثني ابن السُّدِّي، عن أبيه ـ وزكريا بن عُمَر، عن خُصَيف، عن عِكْرِمَة ـ قالا: ما بَعَث الله نَبِيّاً مرَّتين إلا شُعيباً، مرَّةً إلى مدينَ فأخذهم الله بالصيحةِ، ومرَّةً إلى أصحابِ الأيكةِ، فأخذهم الله بعذاب يوم الظُّلَّة.

ورَوَى أبو القاسم البَغَوِيُّ، عن هُدْبَة، عن همّام، عن قتادةَ في قوله تعالى: ﴿ وأصحابَ الرسِّ ﴾: قوم شُعَيب، وقوله: ﴿ وأصحابُ الأيكةِ ﴾: قوم شُعَيب.

قال إسحاقُ بن بشرٍ: وقال غير جُوَيبر: أصحابُ الأيكة ومدينُ هما واحدٌ. والله أعلم.

وقد روى الحافظُ ابن عساكر في ترجمة شُعيب، من طريق محمد بن عُثمان بن أبي شَيبةَ، عن أبيه، عن معاوية بن هِشام، عن هِشام بن سعد، عن سَعيدِ بن أبي هلال، عن ربيعةَ بن سيفٍ، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن قومَ مدينَ وأصحابَ الأيكةِ أُمّتانَ، بعَثَ الله إليهما شُعَيباً النبي عليه السلام».

وهذا غريبٌ، وفي رَفعِهِ نَظَرٌ، والأشبهُ أن يكونَ موقُوفاً. والصحيحُ أنهم أُمّةٌ واحدةٌ، وُصِفُوا في كلِّ مقامٍ بشيءٍ، ولهذا وَعَظَ هؤلاء وأمرهم بوفاءِ المكيالِ والميزانِ، كما في قِصّةِ مدين سواءً بسواءٍ، فدل ذلك على أنهم أمة واحدةٌ.

﴿ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

يأمرهم تعالى بإيفاءِ المكيالِ والميزانِ، وينهاهُم عن التطفيف فيهما، فقال: ﴿ أوْفوا الكَيْلَ ولا تكُونوا من المُخسِرين ﴾، أي: إذا دفعتُم إلى الناس فكَمِّلوا الكيلَ لهم، ولا تُخسِرُوا الكيلَ فتعطوه ناقصاً، وتأخذُوه إذا كان لكم تامّاً وافياً، ولكن خُذوا كما تعطون، وأعطُوا كما تأخذُون.

﴿ وَزِنُوا بالقِسطَاس المستقيم ﴾، والقِسطاسُ هو الميزانُ، وقيل. القَبّانُ[1]. قال بعضهم: هو مُعَرَّبٌ من الرُّوميَّةِ[2]. وقال مجاهدٌ: القِسطاسُ المستقيمُ: العدلُ بالروميَّةِ. وقال قتادةُ: القِسطاس: العدلُ.

وقولُه: ﴿ ولاَ تبخَسُوا الناسَ أشياءَهم ﴾، أي: لا تَنْقُصُوهم اموالَهم، ﴿ ولا تعثوا في الأرض مُفسِدِينَ ﴾، يعني: قَطع الطريقِ، كما قال في الآيةِ الأخرى: ﴿ولا تقعُدوا بكلِّ صراطٍ تُوعِدُون وتصدُّون عن سبيل الله مَنْ آمَنَ ﴾.

وقولُه: ﴿ واتَّقوا الذي خَلَقكم والجِبلَّةَ الأَوَّلين ﴾، يُخوِّفهم بأسَ الله الذي خَلَقهم وخلق آباءَهم الأوائلَ، كما قال موسى عليه السلام: ﴿ ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين ﴾. قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، والسُّدّيّ، وسفيانُ بنُ عُيَينة، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَم: ﴿ والجِبلَّةَ الأولين ﴾، يقولُ: خَلْقَ الأوَّلين. وقرأ ابنُ زيد: ﴿ ولقد أضلَّ منكم جِبِلّاً كثيراً﴾[3].

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

يُخبِر تعالى عن جواب قومِه له بمثل ما أجابت به ثمودُ لرسولها، تَشَابهت قلوبُهم، حيث قالوا: ﴿ إنما أنت من المُسَحَّرينَ ﴾، يعنون: منَ المَسْحُورين، كما تَقَدَّم. ﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنُّك لمن الكاذبين ﴾، أي: تتعمَّد الكَذِب فيما تقوله، لا أنَّ الله أرسَلَك إلينا، ﴿ فأسقط علينا كِسَفاً من السَّماءِ ﴾، قال الضحَّاكُ: جانباً من السماء. وقال قتادة: قِطعاً من السماء. وقال السُّدِّي: عَذاباً من السماءِ. وهذا شبيهٌ بما قالت قُرَيشٌ فيما أخبرَ الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجُر لنا من الأرض يَنْبوعاً ﴾، إلى أن قالوا: ﴿ أو تُسقِطَ السماء كما زعمتَ علينا كِسَفاً أو تأتيَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾. وقوله: ﴿ وإذ قالوا اللهمَّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حِجارةً من السماءِ أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ ﴾. وهكذا قال هؤلاء الكفرةُ الجهلةُ: ﴿ فأسقطْ علينا كِسَفاً من السماء إن كنتَ من الصَّادِقين ﴾.

﴿قال ربِّي أعلَمُ بما تعمَلُون﴾، يقول: الله أعلمُ بكم، فإن كنتم تستحقُّونَ ذلك جازاكم به غير ظالم لكم. وكذلك وَقَع بهم كما سَأَلُوا، جزاءً وفاقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ فكذَّبوه فأخذَهم عذابُ يوم الظُّلَّةِ إنه كان عذابَ يومٍ عظيمٍ ﴾. وهذا من جنس ما سألوا من إسقاط الكِسَفِ عليهم، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل عُقوبتهم أن أصابهم حَرٌّ شديدٌ جداً مُدَّةَ سبعةِ أيام لا يُكِنُّهم منه شيءٌ، ثم أقبلت إليهم سحابةٌ أظلَّتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يَستظِلُّون بظلها من الحرِّ، فلما اجتمعوا كُلُّهم تحتها أرسلَ الله تعالى عليهم منها شَرَراً من نار، ولهباً ووَهجاً عظيماً، ورَجَفت بهم الأرضُ، وجاءتهم صيحةٌ عظيمةٌ أزهقت أرواحهم، ولهذا قال: ﴿ إنه كان عذابَ يومٍ عظيمٍ ﴾.

وقد ذكر الله تعالى صفةَ إهلاكِهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تُناسب ذلك السياقَ، ففي الأعراف

---

(١) القَبَّان: الميزان ذو الذراع الطويلة المقسمة أقساماً، ينقل عليها جسم ثقيل يُسمّى الرُّمّانة، ليُعيِّن وزن ما يُوزن. وهي كلمة مُعرَّبة عن كبان الفارسية.

(٢) انظر المعرب للجواليقي ٢٩٩.

(٣) انظر بعض هذه الآثار في تفسير الطبري ١٩/١٠٨ ـ ١٠٩، والدرّ المنثور ٦/٣١٩.

ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا: ﴿ لَنُخرِجَنَّكَ يا شُعَيب والذين آمَنُوا معكَ من قريتنا أو لَتعودُنَّ في مِلَّتِنا ﴾، فأرْجَفُوا[1] بنبيِّ الله ومَن اتَّبعه، فأخذتهم الرجفةُ. وفي سورة هُودٍ قال: ﴿ وأخذت الذين ظَلَمُوا الصيحةُ ﴾[2] وذلك لأنهم استهزؤُوا بنبي الله في قولهم: ﴿ أصلاتك تأمُرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليمُ الرشيدُ ﴾. قالوا ذلك على سبيل التهكُّم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة ﴾[2]. وهاهنا قالوا: ﴿ فأسقط علينا كِسَفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾، على وجه التعنُّت والعناد، فناسب أن يُحَقِّق عليهم ما استبعدوا وقوعه: ﴿ فأخذهم عذابُ يوم الظُّلَّةِ إنه كان عذابَ يومٍ عظيمٍ ﴾.

قال قتادةُ: قال عبد الله بن عُمر: إن الله سَلَّط عليهم الحرَّ سبعة أيام حتى ما يُظِلُّهم منه شيءٌ. ثم إن الله أنشأ لهم سحابةً، فانطلق إليهم أحدهُم واستظل بها، فأصاب تحتها برداً وراحةً، فأعلم بذلك قومَه، فأتوها جميعاً، فاستظلُّوا تحتَها، فأجَّجتْ عليهم ناراً[3].

وهكذا رُوي عن عكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادة، وغيرهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: بَعَثَ الله إليهم الظُّلَّة، حتى إذا اجتمَعُوا كلُّهم كَشَفَ الله عنهم الظُّلَّة، وأحمى عليهم الشمسَ فاحترقُوا كما يحترق الجَرَادُ في المِقْلَى[4].

وقال محمدُ بن كعب القُرَظيُّ: إن أهل مَدْيَن عُذِّبوا بثلاثة أصنافٍ من العذاب: أخذتهم الرجفةُ في دارهم حتى خَرَجُوا منها، فلما خَرَجُوا منها أصابهم فزعٌ شديدٌ، فَفَرِقُوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقُطَ عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة، فدخل تحتها رجلٌ فقال: ما رأيتُ كاليوم ظِلاً أطيبَ ولا أبرد، هَلُمُّوا أيُّها الناس. فدخلُوا جميعاً تحت الظُّلَّةِ، فصاح بهن صيحةً واحدةً، فماتوا جميعاً. ثم تلا محمدُ بن كعب: ﴿ فأخذهم عذابُ يوم الظُّلَّة إنه كانَ عذابَ يومٍ عظيمٍ ﴾[5].

وقال ابنُ جرير: حدثني الحارثُ، حدثني الحسنُ، حدثني سعيدُ بن زيدٍ - أخو حمادِ بن زيدٍ - حدَّثني حاتم ابن أبي صَغيرة، حدثني يزيدُ الباهليُّ: سألتُ ابنَ عبَّاسٍ عن هذه الآية: ﴿ فأخذهُم عذابُ يوم الظُّلَّةِ إنه كان عذابَ يومٍ عظيمٍ ﴾، قال: بعث الله عليهم وَمْدَةً[6] وحرّاً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، [فدخلُوا البيوتَ، فدخَلَ عليهم أجوافَ البيوت، فأخذ بأنفاسهم]، فخرجُوا من البيوت هِرَاباً إلى البرِّية، فبعثَ الله سحابةً فأظلَّتْهم من الشمس، فوجدُوا لها برداً ولذةً، فنادى بعضُهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها الله عليهم ناراً. قال ابنُ عباسٍ: فذلك عذابُ يومِ الظُّلَّة، إنه كان عذابَ يومٍ عظيمٍ[7].

---

(١) أرجف القوم: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن.

(٢) في النسخ (فأخذتهم الصيحة) وهذه آية الحجر ٨٣.

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة. الدر المنثور ٩/ ٣٢٠

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ١١١ والمقلى: ما يُقلى عليه

(٥) الدرّ المنثور عن ابن المنذر وابن أبي حاتم ٦/ ٣١٩.

(٦) في نسختي الحرم والأزهر رعدة والمثبت عن الطبري والومدةُ. شدة حرِّ اليوم والليل ونَدًى يجيء في صميم الحرّ من قبل البحر مع سكون الريح، وهو ما يُعَبَّر عنه بالرطوبة

(٧) تفسير الطبري ١٩/ ١١٠ وأخرجه أيضاً عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، الدر المنثور ٦/ ٣٢٠، والمستدرك، كتاب التاريخ ٢/ ٥٩٨ - ٥٩٩

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، أي: العزيزُ في انتقامِه من الكافرين، الرحيمُ بعبادِه المؤمنين.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿وإنَّه﴾، أي: القرآنُ الذي تَقَدَّم ذكره في أول السورةِ في قوله: ﴿وما يأتيهم من ذكرٍ من الرَّحمنِ مُحْدَثٍ﴾ ... الآية، ﴿لتنزيلُ ربِّ العالمين﴾، أي: أنزله الله عليكَ وأوحاهُ إليكَ، ﴿نَزَلَ به الروحُ الأمين﴾، وهو جبريلُ عليه السلام. قاله غيرُ واحدٍ من السلف: ابنُ عباس، ومحمدُ بن كعب، وقتادة، وعطيةُ العوفيّ، والسُّدِّي، والضحاكُ، والزهريُّ، وابن جُرَيجٍ. وهذا ما لا نِزَاعَ فيه.

قال الزُّهريُّ: وهذه كقوله: ﴿قُل من كان عدوّاً لجبريل فإنه نَزَّله على قلبكَ بإذن الله﴾ ... الآية. وقال مجاهد: من كَلَّمه الروحُ الأمينُ لا تأكلُه الأرض.

﴿على قلبكَ لتكونَ من المنذرين﴾، أي: نَزَلَ به مَلَكٌ كريمٌ أمين، ذو مَكَانةٍ عند الله، مُطاعٍ في المَلإِ الأعلى، ﴿على قَلْبِكَ﴾ يا محمدُ، سالماً من الدَّنسِ والزيادةِ والنقص، ﴿لِتَكُونَ من المُنْذِرِينَ﴾، أي: لِتُنذِرَ به بأسَ الله ونقمَتَه على من خالفه وكذَّبه، وتُبَشِّر به المؤمنين المُتَّبِعين له.

وقولُه: ﴿بلسانٍ عَرَبيٍّ مُبِينٍ﴾، أي: هذا القرآنُ الذي أنزلناه إليكَ بلسانِكَ العَرَبيِّ الفصيحِ الكاملِ الشاملِ، ليكونَ بَيِّناً واضحاً ظاهراً، قاطِعاً للعُذرِ، مُقيماً للحجّةِ، دليلاً إلى المحجَّةِ[1].

قال ابنُ أبي حاتمٍ: حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا عبدُ الله بن أبي بكرٍ العَتَكيُّ، حدثنا عبَّاد بن عبَّاد المُهَلَّبي، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التَّيميِّ، عن أبيه قال: بينما رسولُ الله ـ ﷺ ـ مع أصحابه في يوم دَجْنٍ[2] إذ قال لهم: كيفَ تَرَون بَوَاسِقَها[3]؟ قالوا: ما أَحْسَنَها وأشدَّ تراكُمَها! قال: فكيف ترون قواعدَها[4]؟ قالوا: ما أحسَنَها وأشدَّ تَمَكُّنَها! قال: فكيف ترون جَوْنَها؟[5] قالوا: ما أَحْسَنَه وأشدَّ سَوَادَه! قال: فكيفَ تَرَون رَحاها استدارت؟ قالوا: ما أحسَنَها وأشدَّ استدارَتِها! قال: فكيف تَرَون بَرْقَها، أَوَمِيضٌ أم خَفْوٌ[6] أم يَشُقُّ شقّاً؟ قالوا: بل يَشُقُّ شقّاً. قال: الحَياةَ الحَياةَ[7] إن شاء الله. قال: فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، بأبي وأمي ما أفصحَكَ! ما رأيت الذي هو أعربُ منكَ! قال: فقال: حُقَّ لي، وإنما نَزَلَ القرآنُ بلساني! والله يقول: ﴿بلسانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ﴾.

وقال سفيانُ الثَّوريُّ: لم ينزلْ وَحيٌ إلا بالعربيَّةِ، ثم تَرْجَم كُلُّ نبيٍّ لقومه، واللسانُ يوم القيامة بالسُّريانيَّةِ، فمن دَخَلَ الجنّةَ تكلَّم بالعَرَبيَّةِ. رواهُ ابنُ أبي حاتمٍ.

---

(١) المَحَجَّة: الطريق المستقيم.
(٢) الدجن: إلباسُ الغيم الأرضَ وأقطار السماء، يقال: يومٌ دَجْنٌ، ويوصف به فيقال: يومٌ دَجْنٌ.
(٣) البواسق: ما استطال من فروعها. وهذا سؤال عن صفة السحاب.
(٤) القواعد: ما اعترض منها وسَفَل. تشبيهاً بقواعد البناء.
(٥) في نسخة الحرم: جريها.
(٦) في النسخ: خفق. والصواب عن النهاية، والمخصص ٩/٩٦، يقال: خفا البرق إذا برق برقاً ضعيفاً.
(٧) يقال: حبا فلاناً حباءً وحبواً: أعطاه. والحباءُ أيضاً: ما يحبو به الرجل صاحبه ويكرمه به.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى: وَإِنَّ ذِكْرَ هذا القرآنِ والتنويهَ به لموجودٌ في كتب الأولين المأثورةِ عن أنبيائهم، الذين بَشَّروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذَ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرُهم خطيباً في مَلَئِه بالبشارة بأحمدَ: ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مُصَدِّقًا لما بين يدي من التوراة ومُبَشِّرا برسول يأتي من بعدي اسمُه أحمدُ ﴾. والزُّبُر: هاهنا هي الكتبُ، وهي جمعُ زَبُور، وكذلك الزبور، وهو كتابُ داودَ. وقال تعالى: ﴿ وكل شيء فعلوه في الزُّبر ﴾ أي. مكتوبٌ عليهم في صُحُف الملائكة.

ثم قال تعالى: ﴿أوَ لم يكن لهم آيةً أن يعلَمَه علماءُ بني إسرائيل﴾، أي: أوَ ليس يكفيهم من الشاهدِ الصَّادِق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدُون ذكر هذا القرآن في كتُبِهم التي يدرسونها؟! والمراد العُدُول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صِفَةِ محمد ـ ﷺ ـ ومَبْعثه وأمّته، كما أخبر بذلك مَنْ آمَنَ منهم كعبد الله بن سلّام، وسَلمان الفارسي، عمن أدركه منهم ومن شاكلَهم. وقال الله تعالى: ﴿الذين يَتَّبِعون الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾. . . الآية.

ثم قال تعالى: مخبراً عن شدَّة كُفْر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو أنزَله على رَجُلٍ من الأعاجم ممن لا يدري من العربيَّة كلمةً، وأنزل عليه هذا الكتابَ ببيانه وفصاحته، لا يؤمنون به، ولهذا قال: ﴿ولو نَزَّلناه على بعضِ الأعجمين ● فقرأه عليهم ما كانُوا به مؤمنين ﴾، كما أخبر عنهم في الآية الأخرى: ﴿ ولو فَتَحنا عليهم باباً من السَّماء فظلوا فيه يعرجُون ● لقالوا إنما سُكِّرت أبصارُنا بل نحن قومٌ مسحُورون﴾. وقال تعالى: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكةَ وكلَّمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾. وقال: ﴿ إن الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ ربِّك لا يؤمنون ● ولو جاءتهم كل آية حتّى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيبَ والكُفر والجُحُود والعِناد، أي: أدخلناه في قُلوبِ المجرمين، ﴿ لا يؤمنون به ﴾، أي: بالحقِّ، ﴿ حتى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾، أي: حيث لا ينفع الظالمين مَعذِرتُهم، ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار. ﴿ فيأتيهم بغتة ﴾، أي: عذابُ الله بغتةً، ﴿وهم لا يشعُرون ● فيقولوا هل نحن منظَرون ﴾ أي: يتمنّون حين يُشاهِدُون العذاب أن لو أنظِرُوا قليلاً ليعملوا [من فزعهم][(١)] بطاعة الله، كما قال تعالى: ﴿ وأنذر الناسَ يومَ يأتيهمُ العذابُ فيقولُ الذين ظَلَمُوا ربَّنا أخِّرنا إلى أجلٍ قريبٍ نُجب دعوتَك ونتَّبع الرسُلَ أوَ لم تكونوا أقسمتُم من قبلُ ما لكُم من زَوالٍ ﴾، فكلُّ ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته نَدِم نَدَماً شَديداً، هذا فرعونُ لما دعا عليه الكَلِيم بقوله: ﴿ ربَّنا إنك آتيتَ فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا ربَّنا لِيُضِلّوا عن سبيلك ربَّنا

(١) من نسخة الحرم. وفي نسخة «في رهمهم»

اطمِس على أموالهم واشدُد على قلُوبهم فلا يُؤمِنُوا حتى يَرَوُا العذابَ الأليم * قال قد أُجيبَت دعوتُكما ﴾. فأثّرت هذه الدعوةُ في فِرعَون، فما آمَنَ حتى رأى العذاب الأليم، ﴿ حتى إذا أدركه الغَرَقُ قال آمنتُ أنه لا إلَهَ إلا الذي آمَنَتْ به بَنُو إسرائيل وأنا من المسلمين * الآن وقد عَصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين ﴾ وقال: ﴿فلما رأوا بأسَنَا قالُوا آمنَّا باللهِ وحدَه وكفرنا بما كنا به مُشركين * فلم يكُ ينفعُهم إيمانُهم لما رَأَوا بأسنا﴾... الآية.

وقولُه تعالى: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾، إنكارٌ عليهم، وتهديدٌ لهم، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً: ﴿ ائتنا بعذاب الله ﴾. كما قال تعالى: ﴿ ويستعجلُونكَ بالعَذَابِ ولولا أجلٌ مُسمّىً لجاءهم العذاب وليأتينَّهم بغتةً وهم لا يشعرُون * ويستعجلونك بالعذاب وإن جهنّم لمحيطة بالكافرين﴾.

ثم قال: ﴿أفرأيت إن مَتَّعناهم سِنينَ * ثم جاءهم ما كانوا يُوعَدُون * ما أغنَى عنهم ما كانوا يُمَتَّعون ﴾، أي: ولو أخّرناهم وأنظرناهم وأمْلَينا لهم بُرهةً من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال، ثم جاءهم أمر الله، أيُّ شيء يُجدِي عنهم ما كانوا فيه من النعيم، ﴿ كأنهم يوم يَرونها لم يلبثُوا إلا عشيةً أو ضُحَاها ﴾، وقال تعالى: ﴿ يودُّ أحدهم لو يُعمَّرُ ألف سنةٍ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعَمَّر ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما يُغني عنه مالُه إذا تَرَدّى ﴾، ولهذا قال: ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يُمتَّعون ﴾. وفي الحديث الصحيح: «يُؤتَى بالكافرِ فيُغمَسُ في النار غَمْسَةً، ثم يقال له: هل رأيتَ خيراً قطُّ؟ هل رأيت نَعيماً قط؟ فيقول: لا. ويُؤتَى بأشدِّ الناس بُؤساً كان في الدنيا، فيُصبَغُ في الجنَّة صَبغةً، ثم يقال له: هل رأيتَ بُؤساً قطّ؟ فيقول: لا»[1]. أي: ما كانَ شيءٌ كانَ. ولهذا كان عُمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يتمثَّلُ بهذا البيت[2]:

كَأَنَّكَ لَمْ تُوتَر مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً إذا أَنْتَ أَدْرَكْتَ الذي كنتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عَدله في خَلْقِه: أنه ما أهلَكَ أمةً من الأمم إلاّ بعد الإعذارِ إليهم، والإنذار لهم وبعثة الرسل، وقيامِ الحُجَج عليهم. ولهذا قال: ﴿وما أهلكنا من قريةٍ إلا لها مُنذِرُون * ذكرى وما كُنَّا ظالمين ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وما كنا مُعذِّبين حتى نبعثَ رَسُولاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما كان ربكَ مُهلِكَ القُرَى حتى يبعَثَ في أُمِّها رسُولاً يتلُو عَليهِم اياتِنا وما كُنّا مُهلِكي القُرَى إلاّ وأهلُها ظالمون ﴾.

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيه ولا من خَلفِه، تنزيلٌ من حَكيم حَميدٍ: أنه نُزِل به الروحُ الأمينُ المؤيَّد من الله، ﴿ وما تنزّلت به الشياطين ﴾. ثم ذَكَر أنه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجُهٍ، أحدُها: أنه لا ينبغي لهم، أي: ليس هو من بُغْيتهم ولا من طَلِبَتِهم، لأنّ من سَجاياهم الفَسادَ وإضلالَ العباد، وهذا فيه الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المُنكَرِ، ونورٌ وهُدىً وبرهانٌ عظيمٌ، فبينه وبين الشياطينِ منافاةٌ عظيمةٌ. ولهذا قال تعالى: ﴿ وما يَنبغي لهم ﴾.

وقولُه: ﴿ وما يستطيعُون ﴾، أي: ولو انبغى لهم لما استطاعُوا ذلك، قال الله تعالى: ﴿ لو أنزلنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لرأيته خاشعاً متصدِّعاً من خشيةِ الله ﴾.

ثم بَيَّن أنه لو انبغى لهم واستطاعُوا حَمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزل عن استماعِ القرآنِ

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة ٤/٢١٦٢، والنسائي في كتاب الجهاد ٦/٣٢، والإمام أحمد في مسنده ٣/٢٠٣، ٢٥٣ ـ ٢٥٤.
(2) البيت في سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي ١٣٥.

حالَ نُزُولِه، لأنَّ السماء مُلِئَت حَرَساً شَدِيداً وشُهُباً في مُدَّة إنزال القرآن على رسُوله، فلم يخلُص أحدٌ من الشياطين إلى استماع حَرفٍ واحدٍ منه، لئلاَّ يَشتَبِه الأمرُ. وهذا من رحمةِ الله بعباده، وحِفظِه لِشَرعِه، وتأييده لكتابه ولرسوله، ولهذا قال: ﴿ إنَّهم عن السمع لَمعزولُون ﴾، كما قال تعالى مُخبراً عن الجنِّ: ﴿ وأنا لَمَسنا السماء فوجدناها مُلِئت حَرَساً شديداً وشُهُباً * وأنا كنا نقعدُ منها مقاعدَ للسمع فمن يستمع الآن يَجِدْ له شهاباً رَصَداً * وأنا لا نَدْري أَشَرٌ أُرِيدَ بمن في الأرض أم أراد بهم رَبُّهم رَشَداً ﴾.

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧) ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٢٢٠) ﴾

يقولُ تعالى آمراً بعبادته وحدَه لا شريكَ له، ومُخبِراً أن من أشرك به عذَّبه.

ثم قال تعالى آمراً لرسوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أن يُنذِرَ عشيرَته الأقربين، أي: الأدنيْن إليه، وأنه لا يُخلِّص أحداً منهم إلا إيمانهُ بربِّه عزَّ وجلَّ. وأمره أن يُلِينَ جانبَه لمن اتَّبعه من عباد الله المؤمنينَ. ومن عَصَاه من خَلق الله كائناً مَن كان فَلْيتبرَّأ منه، ولهذا قال: ﴿ فإن عَصَوك فقُل إني بريءٌ مما تعمَلُون ﴾. وهذه النِّذارةُ الخاصَّةُ لا تُنافي العامَّة، بل هي فردٌ من أجزائها، كما قال: ﴿ لِتُنذِرَ قوماً ما أُنذِر آباؤُهم فهم غافِلُون ﴾، وقال: ﴿ لِتُنذِر أُمَّ القُرى ومن حَولها ﴾، وقال: ﴿ وأنذِر به الذين يخافُون أن يُحشَرُوا إلى رَبِّهم ﴾، وقال: ﴿ لِتُبشِّر به المتقين وتُنذِرَ به قوماً لُدّاً ﴾. وقال: ﴿ لأُنذِرَكُم به ومَن بَلَغ ﴾، كما قال: ﴿ ومَن يكفُر به من الأحزاب فالنار موعِدُه ﴾. وفي صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده لا يَسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم لا يُؤمن بي إلا دَخل النار»[(1)]. وقد وردت أحاديثُ كثيرةٌ في نزول هذه الآية الكريمة، فلنذكرها:

الحديث الأول، قال الإمام أحمدُ ـ رحمه الله ـ: حدثنا عبدُ الله بن نُمَير، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، أتى النبي ـ ﷺ ـ الصفا فَصَعِدَ عليه، ثم نادى: يا صَبَاحَاه[(2)]. فاجتمع الناسُ إليه بين رَجُلٍ يجيء إليه، وبين رَجُل يبعثُ رسوله، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: يا بني عبد المطلب، يا بني فِهْرٍ، يا بني لُؤَيٍّ، أرأيتم لو أخبرتُكُم أن خيلاً بِسَفحِ هذا الجبل تُريد أن تُغِير عليكم، صدَّقْتُموني؟ قالوا: نعم. قال: فإني نَذِيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ. فقال أبو لَهَب: تَبّاً لك سائرَ اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟! وأنزل الله: ﴿ تَبَّت يَدَا أبي لَهَبٍ وتَبَّ ﴾[(3)].

ورواه البخاريُّ ومسلمٌ والنسائيُّ والترمذيُّ، من طُرُقٍ، عن الأعمش، به[(3)].

الحديث الثاني، قال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا هشامٌ، عن أبيه، عن عائشةَ قالت: لما نزلت:

---

(1) تقدم الحديث في سورة البقرة، آية ١٢١، وآل عمران، آية ٢٠، والأعراف، آية ١٥٨، وهود، آية ٧، ١٧. وخرَّجناه هنالك.

(2) هي كلمة كانوا يعتادونها عند وقوع أمر عظيم، حتى يجتمعوا ويتأهبوا له.

(3) مسند أحمد ١/٣٠٧ وفتح الباري، تفسير سورة الشعراء ٨/٥٠١، و﴿ تَبَّت يدا أبي لهب وتبَّ ﴾ ٨/٧٣٧، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٩٣ ـ ١٩٤، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة تبت ١٢/٢٥٩، والنسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، وفي اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف للمزي ٤/٤٣٧

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾، قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا فاطمة ابنة محمدٍ، يا صفية ابنة عبد المُطَّلب، يا بَنِي عبدِ المطلب، لا أملكُ لكم من الله شيئاً، سَلُوني من مالي ما شِئْتُم[1]. انفرد بإخراجه مسلمٌ[1].

الحديث الثالث، قال أحمدُ: حدثنا معاويةُ بن عمرو، حدثنا زائدةُ، حدثنا عبد الملك بن عُمير، عن موسى بنِ طلحةَ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نَزَلت هذه الآيةُ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾، دعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ قريشاً، فعَمَّ وخَصَّ، فقال: يا معشرَ قريش، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني كعب، أنقذُوا أنفسَكُم من النارِ. يا معشرَ بني عَبد مَنَاف، أنقذوا أنفُسَكم من النار. يا معشرَ بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشرَ بني عبدِ المطلب، أنقذوا أنفُسكم من النار. يا فاطمةَ بنتَ محمدٍ، أنقذِي نفسَكِ من النار. فإني ـ والله ـ ما أَملِكُ لكُم من الله شيئاً، إلا أنَّ لكم رَحِماً سأَبُلُّها بِبلالها[2].

ورَواهُ مسلمٌ والترمذيُّ، من حديث عبد الملك بن عُمَير، به، وقال الترمذيُّ: غريبٌ من هذا الوجه. ورواه النسائيُّ من حديث مُوسَى بن طَلْحَةَ، مُرسَلاً، لم يذكر فيه أبا هُرَيرَةَ. والموصولُ هو الصحيحُ. وأخرجاه في الصَّحيحَين من حديث الزُّهريِّ، عن سَعيدِ بنِ المُسَيَّب وأبي سلمَةَ بن عبد الرحمن، عن أبي هُرَيرة[2].

وقال الإمام أحمدُ، حدثنا يزيدُ، حدثنا محمدٌ ـ يعني ابن إسحاقَ ـ عن أبي الزِّنَادِ، عن الأعرجِ، عن أبي هُرَيرةَ ـ رَضِي الله عنه ـ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا بَني عبدِ المطلب، اشتَرُوا أنفُسَكم من الله. يا صَفِيَّةُ عمةَ رسولِ الله! ويا فاطمةُ بنتَ رسول الله، اشتريا أنفُسكما من الله، لا أُغني عَنكُما من الله شيئاً، سَلاَني من مالي ما شِئتُما[2].

تفرَّد به من هذا الوجه. وتَفَرَّد به أيضاً، عن معاويةَ، عن زائدةَ، عن أبي الزناد، عن الأعرَجِ، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه. ورواه أيضاً عن حَسَن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا الأعرج، سمعت أبا هُرَيرةَ مرفوعاً[3].

وقال أبو يَعْلَى: حدثنا سُوَيد بن سَعيد، حدثنا ضِمَامُ بن إسماعيل، عن موسى بن وَرْدَان، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ: «يا بني قُصَيّ، يا بني هَاشمٍ، يا بني عبدِ مناف، أنا النذيرُ والموت المُغير والساعة الموعد»[4].

الحديث الرابع، قال أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا التيمي، عن أبي عثمان، عن قَبِيصة بن مُخَارق وزُهَير بن عمرو قالا: لما نَزَلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾، صَعِد رسولُ الله ـ ﷺ ـ رَضْمَةً من جَبَلٍ، على أعلاها حَجَرٌ[5]، فجعل يُنادي: يا بني عبد مناف، إنما أنا نذير، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو، فذهب يَرْبَأُ أهله، يخشَى أن يسبقوه، فجعل يُنادي ويهتِفُ: يا صَباحاه[6].

---

(١) مسند أحمد ٦/١٨٧، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٩٢.

(٢) مسند أحمد ٢/٣٦٠، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٩٢، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الشعراء ١٢/٦٠ ـ ٦١، والنسائي، كتاب الوصايا ٦/٢٤٨ ـ ٢٤٩، وفتح الباري، تفسير سورة الشعراء ٨/٥٠١ ـ ٥٠٢، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٩٢ ـ ١٩٣.
وعَمَّ وخَصَّ، أي: عَمّ في النداء في قوله: يا معشر قُرَيش، ثم خصّ بطون قريش فيما بعد ذلك. وبلال ـ بكسر الباء ـ جمع بَلَل، وهو كل ما بَلَّ الحلق من ماء أو لبن أو غيره. والمعنى: سأبلُّها ببلالها: سأصِلُها، شُبِّهت قطيعةُ الرحِم بالحرارة، ووصْلُها بإطفاءِ الحرارة ببرودة.

(٣) مسند أحمد ٢/٢٤٨ ـ ٢٤٩، ٣٩٨ ـ ٣٩٩، ٣٥٠.

(٤) مسند أبي يعلى، تحقيق إرشاد الحق ٥/٤٢٤.

(٥) كذا في المسند. وفي المسند ٣/٤٧٦، ومسلم: «فعلا أعلاها حجراً».

(٦) مسند أحمد ٥/٦٠، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٩٣ وأخرجه النسائي في التفسير من سننه الكبرى وفي اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف ٣/١٨٩.

ورواه مسلمٌ والنسائي، من حديث سُلَيمانَ بن طَرخان التَّيميِّ، عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مُلٍّ النَّهديِّ، عن قَبيصة وزُهَير بن عَمْرو الهِلالي، به.

الحديثُ الخامسُ، قال الإمام أحمدُ: حدثنا أسوَدُ بن عامر، حدثنا شَريك، عن الأعمش، عن المِنهال، عن عباد بن عبد الله الأسَدي، عن عَلي ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآيةُ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾، جمع النبي ـ ﷺ ـ من أهل بيتِه؛ فاجتمع ثلاثون، فأكلوا وشَربوا قال: وقال لهم: مَن يَضْمَنُ عَني دَيني ومواعيدي، ويكونُ معي في الجنة، ويكونُ خَليفتي في أهلي؟ فقالَ رجلٌ ـ لم يُسَمِّه شريك ـ: يا رسولَ الله، أنت كنت بحراً[1]، من يقوم بهذا؟! قال: ثم قال لِآخَرَ، قال: فَعرَض ذلك على أهلِ بيتِه، فقال عَليٌّ: أنا[2].

طريق أخرى بِأبسَطَ من هذا السياق، قال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عَوانَةَ، عن عثمانَ بن المغيرةِ، عن أبي صادقٍ، عن ربيعةَ بن ناجذٍ، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: جَمَع رسولُ الله ـ ﷺ ـ أو دعا رسول الله ـ ﷺ ـ بني عبد المطلب، وهم رَهطٌ، كلهم يأكل الجَذَعَةَ ويشرَب الفَرَق[3]، قال: وصَنَع لهم مُدّاً من طعام فأكلوا حتى شبعوا، قال: وبقي الطعام كما هو كأنه لم يُمَسّ، ثم دعا بغُمَرٍ[4] فشربوا حتى رَوُوا، وبقي الشرابُ كأنه لم يُمَسّ ـ أو: لم يُشرَبْ ـ وقال: يا بَني عبد المطلب، إني بُعِثتُ إليكم خاصة وإلى الناس عامة، وقد رأيتم من هذهِ الآيةِ ما رأيتم، فأيكم يُبايِعُني على أن يكُونَ أخِي وصَاحِبي؟ قال: فلم يَقُم إليه أحدٌ. قال: فَقُمتُ إليه ـ وكنتُ أصغَرَ القوم ـ قال: فقال: اجلس. ثم قال ثلاثَ مراتٍ، كلُّ ذلك أقومُ إليه فيقولُ لي: اجلس. حتى كان في الثالثةِ ضَرَب بيَدِه على يَدي[5].

طريقٌ أخرى أغرَبُ وأبسَطُ من هذا السياق، بزيادات أُخَرَ، قال الحافظُ أبو بكر البَيهقيّ في دَلائِلِ النُّبُوَّةِ:

أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ، حَدَّثنا أبو العباس محمد بن يَعقُوبَ، حدثنا أحمدُ بن عبدِ الجَبَّار، حدثنا يُونُسُ بن بُكَير، عن محمد بن إسحاقَ قال. فحدثني من سَمِع عبد الله بن الحارث بن نوفل ـ واستكتَمَني اسمَه ـ عن ابن عَبَّاس، عن علي بن أبي طالب ـ رَضِي الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآيةُ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ۞ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: عَرَفت أنِّي إن بادأتُ بها قَومي رأيتُ منهم ما أكرَهُ، فَصَمَتُّ. فَجاءني جبريلُ ـ عليه السلام ـ فقال: يا محمد، إنَّكَ إن لم تفعل ما أمَرَك به ربُّك عَذَّبك ربُّك. قال علي ـ رضي الله عنه ـ: فَدَعاني فقال: يا علي، إن الله قد أمرني أن أُنذِرَ عَشِيرتي الأقربين، فعرفتُ أنّي إن بادأتُهم بذلك رأيتُ منهم ما أكره، فَصَمتُّ عن ذلك، ثم جاءني جبريل فقال: يا محمدُ، إن لم تفعَل ما أُمِرتَ به عذبك رَبُّك. فاصنع لنا يا عليُّ شاةً[6] على صاعٍ من طعام، وأعِدَّ لنا عُسَّ لبن، ثم اجمَع لي بني عبد المطلب. ففعلتُ فاجتمعُوا له، وهم يومئذ أربعُون رجلاً، يَزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً، فيهم أعمامه، أبو طالب، وحمزةُ، والعباسُ، وأبو لَهَب الكافرُ الخبيثُ. فقَدَّمتُ إليهم تلك الجَفْنَةَ، فأخذ رسولُ الله ـ ﷺ ـ منها حِذْيَةً[7]، فَشَقَّها بأسنانه ثم رَمَى بها في نَوَاحِيها، وقال: كُلُوا

ـ والرصمة: حجارة مجتمعة ليست بثابتة في الأرض، كأنها منثورة. وغَرِيّاً: يحفظهم ويتطلع لهم.

(١) في نسخة الحرم: تجري. وفي نسخة الأزهر: بحري. والمثبت عن المسند ومجمع الزوائد.

(٢) مسند أحمد ١١١/١، وقال في الزوائد ١١٣/٩: رواه أحمد وإسناده جيد.

(٣) الفرق: مكيال يسع ١٦ رطلاً.

(٤) في نسخة الحرم. بغُسّ. والغُمَر: القدح الكبير، والغُسّ: القدح الصغير.

(٥) مسند أحمد ١٥٩/١. والمُدّ: ربع صاع.

(٦) في الدلائل: برِجْل شاة.

(٧) الحذية من اللحم: ما قطع طولاً. وقيل: هي القطعة الصغيرة.

بسم الله. فأكل القومُ حتى نَهِلُوا[1] عنه ما يُرَى إلا آثارُ أصابعهم. والله إن كانَ الرجلُ منهم ليأكُلُ مثلَها. ثم قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: اسقِهم يا عليُّ. فجئتُ بذلك القَعب[2] فشربوا منه حتى نَهِلُوا جميعاً، وايمُ الله إن كان الرجُل منهم ليشرَبُ مثله. فلما أراد رسول الله ـ ﷺ ـ أن يُكَلِّمهم، بَدَره أبو لهب إلى الكلام فقال. لَهِدَّ[3] ما سَحَرَكُم صاحبُكم. فتفرقوا ولم يُكَلِّمهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ. فلما كان الغدُ قال رسول الله ﷺ. يا عليُّ، عُدْ لنا بِمِثْلِ الذي كنتَ صنعتَ بالأمس من الطعام والشراب، فإن هذا الرجلَ قد بَدَرني إلى ما سمعت قبل أن أُكَلِّم القوم. ففعلتُ، ثم جَمَعْتُهم له، فصنع رسولُ الله ﷺ كما صَنَع بالأمس، فأكلُوا حتى نَهِلُوا عنه، وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ثم قال رسول الله ﷺ: اسقهم يا علي. فجئت بذلك القَعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بَدَره أبو لهب بالكلام فقال: لَهِدَّ ما سحركم صاحبكم فتفرقوا ولم يُكَلِّمْهُم رسول الله. فلما كان الغد قال رسول الله ـ ﷺ ـ : يا علي، عُد لنا بمثل الذي كنت صنعتَ لنا بالأمس من الطعام والشراب، فإنَّ هذا الرجلَ قد بَدَرني إلى ما سمعتَ قبل أن أكلِّم القوم. ففعلت، ثم جمعتُهم له فصَنع رسول الله ـ ﷺ ـ : كما صنع بالأمس، فأكلوا حتى نَهِلوا عنه، ثم سقيتهم من ذلك القَعب حتى نهلوا عنه، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشربُ مثلَها، ثم قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : يا بني عبد المطلب، إني ـ والله ـ ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتُكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة»[4].

قال أحمدُ بن عبد الجبار: بَلَغني أن ابن إسحاق إنما سَمِعه من عبد الغفار بن القاسم أبي مريم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن الحارث.

وقد رواه أبو جعفر بنُ جرير، عن ابن حُمَيد، عن سَلَمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الغفار بن القاسم، عن المنهال بن عَمرو، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس، عن عَلي بن أبي طالب، فذكر مثله، وزاد بعد قوله: «إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة» ـ: «وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يُوَازِرني على هذا الأمر على أن يكون أخي، وكذا وكذا؟ قال: فأحجَم القومُ عنها جميعاً، وقلت ـ وإني لأحدثهم سناً، وأرمصُهم، عيناً، وأعظمُهم بَطناً، وأحمَشُهم ساقاً ـ : أنا يا نبيَّ الله، أكونُ وزيرَكَ عليه. فأخذ بِرَقَبتي ثم قال: إنَّ هذا أخي، وكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعوا. قال: فقام القومُ يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمَعَ لابنِكَ وتُطيعَ»[5].

تَفَرَّد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبو مريم، وهو متروك كَذَّاب شِيعي، اتهمه علي بن المَديني وغيرُه بوضع الحديث، وضَعَّفه الأئمةُ، رحمهم الله.

طريق أخرى، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حَدَّثنا الحُسَين بن عيسى بن مَيْسَرَة الحارثي، حَدَّثنا عبد الله بن عبد القُدُّوس، عن الأعمش، عن المِنهال بن عَمرو، عن عبد الله بن الحارث قال: قال علي ـ رضي الله عنه ـ لما نَزَلتْ هذه الآية: ﴿وَأَنذِر عَشِيرَتَكَ الأقربين﴾، قال لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ: واصنع لي

---

(١) النَّهَلُ إنما يكون في الشراب كالعَلل. وهذا من المجاز الذي علاقته اللزوم، فلما كان الشرب ملازماً للأكل قيل أكلوا حتى نهلُوا!
(٢) القَعبُ: القدح العظيم.
(٣) يقال. لَهِدَّ الرجلُ! أي: ما أجلَدَه! ويقال معناه أيضاً: لنعم الرجلُ!
(٤) دلائل النبوة للبيهقي ٢/١٧٩ ـ ١٨٠.
(٥) تفسير الطبري ١٩/١٢١ ـ ١٢٢. والرَّمَصُ وسخ أبيض جامد يجتمع في مُوق العين، وهو مؤخرها والحمَشُ دِقَّة الساقين.

رِجْل شاةٍ بصاعٍ من طعامٍ وإناءً لَبَناً. قال: فصنعتُ، ثم قال: ادعُ بني هاشمٍ. قال: فدعوتُهم وإنَّهم يومئذٍ لأربعون غيرَ رجلٍ ـ أو: أربعون ورجلٌ ـ قال: وفيهم عشرةٌ كلُّهم يأكلُ الجَذَعة[1] بإدامها. قال: فلما أتوا بالقصعةِ أخذ رسولُ الله ـ ﷺ ـ من ذروتها ثم قال: كُلوا. فأكلوا حتى شبعوا، وهي كهيئتها لم يَرْزَأُوا[2] منها إلا يسيراً، قال: ثم أتيتهم بالإناء فشربوا حتى رَوُوا. قال: وفَضَل فَضْلٌ. فلما فرغوا أرادَ رسول الله ـ ﷺ ـ أن يتكلَّم، فبدرُوه الكلام، فقالوا: ما رأينا كاليوم في السِّحْر. فسكت رسولُ الله ﷺ، ثم قال: اصنع لي رِجل شاة بصاعٍ من طعام، قال. فدعاهم، فلما أكلوا وشربوا قال: فبدروه فقالوا مثل مقالتهم الأولى، فسكت رسولُ الله ﷺ، ثم قال: اصنع لي رِجل شاةٍ بصاعٍ من طعام. فصنعتُ، قال: فجمعتُهم، فلما أكلوا وشربوا بدرهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ الكلام فقال: أيكم يقضي عني دَيني ويكونُ خليفتي في أهلي؟ قال: فسكتوا وسكتَ العباسُ خشيةَ أن يُحيطَ ذلك بماله، وسكتُّ أنا لِسِنِّ العباس. ثم قالها مرةً أخرى فسكتَ العباس، فلما رأيتُ ذلك قلتُ: أنَا يا رسولَ الله. فقال: أنت. قال: وإني يومئذٍ لأسوأهم هيئةً، وإني لأعمشُ العينين، ضخمُ البطن، حَمْشُ الساقين.

فهذه طرقٌ متعددةٌ لهذا الحديثِ عن علي رضي الله عنه. ومعنى سُؤاله ـ ﷺ ـ لأعمامه وأولادهم أن يقضُوا عنه دينه، ويخلفُوه في أهله، يعني إن قُتل في سبيل الله، كأنه خشي إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل؛ فلمَّا أنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ يا أيها الرسولُ بلِّغ ما أُنزلَ إليكَ من ربِّكَ وإن لم تفعل فَما بلَّغتَ رِسَالَته والله يَعصِمُك من الناس ﴾، فعند ذلك أمِن. وكان أولاً يُحرَسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿ والله يَعصِمك من الناس ﴾. ولم يكن في بني هاشم إذ ذاك أشدُّ إيماناً وإيقاناً وتصديقاً لرسول الله ـ ﷺ ـ من عَليٍّ ـ رضي الله عنه ـ فلهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسولُ الله ﷺ ثم ثم كان بعد هذا ـ والله أعلم ـ دعاؤه ـ ﷺ ـ الناسَ جَهرةً على الصفا، وإنذارُه لبطونِ قريشٍ عموماً وخصُوصاً، حتى سَمّى من سَمّى من أعمامه وعمّاته وبناته، لِيُنبِّه بالأدنى على الأعلى، أي: إنما أنا نذير، والله يَهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقد رَوَى الحافظ ابنُ عساكر في ترجَمَةِ عبدِ الواحد الدِّمشقي ـ غيرُ منسوب ـ من طريق عَمرو بن سَمُرة، عن محمد بن سوقة، عن عبد الواحد الدمشقي قال: رأيتُ أبا الدرداء ـ رَضي الله عنه ـ يُحدِّث الناس ويُفتيهم، وولدهُ إلى جنبه، وأهلُ بيته جلوسٌ في جانبِ المسجد يتحدَّثون، فقيل له: ما بالُ الناسِ يَرْغبون فيما عندكَ من العلم، وأهلُ بيتكَ جلوسٌ لاهين؟ فقال: لأني سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: أزهدُ الناسِ في الدنيا الأنبياءُ، وأشدُّهم عليهم الأقربون. وذلك فيما أنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وأنذر عَشيرتَكَ الأقربين ﴾، ثم قال: إنَّ أزهَدَ الناس في العالم أهله حتى يفارقهم. ولهذا قال: ﴿وأنذر عَشيرتَكَ الأقربين * واخفِضْ جَناحَكَ لمن اتَّبعَكَ مِنَ المُؤمنين * فإن عصوكَ فقل إنّي بَريءٌ مما تعملُون﴾.

وقولُه: ﴿ وتَوكّل على العزيز الرّحيم ﴾، أي: في جَميع أُمورك، فإنه مُؤيِّدك وناصرُك وحافظُك ومُظفِّرُك ومُعْلٍ كلمتك.

وقولُه: ﴿ الذي يراكَ حين تقومُ ﴾، أي: هو مُعتنٍ بك، كما قال تعالى: ﴿ فاصبِر لحكم ربك فإنك بأعيُنِنا ﴾، قال ابن عباس: ﴿ الذي يراكَ حين تقومُ ﴾، يعني: إلى الصلاةِ. وقال عكرمة: يَرى قيامَه وركُوعَه وسُجودَه. وقال الحسنُ: ﴿ الذي يراكَ حين تقومُ ﴾، إذا صَلَّيت وحدك. وقال الضحّاك: ﴿ الذي يراكَ حين تقومُ ﴾، أي: من فراشك أو مجلسك. وقال قتادة: ﴿ الذي يَراكَ ﴾ قائماً وجالساً وعلى حالاتِك.

(١) الجذع من الضأن: ما بلغ ثمانية أشهر أو تسعة، الواحدة: جذعة.

(٢) أي: لم ينقصوا منها إلا قليلاً.

وقولُه: ﴿ وتقلُّبَك في السَّاجدين ﴾، قال قتادةُ ﴿ الذي يراك حين تقومُ وتقلُّبَك في الساجدين ﴾، قال: في الصَّلاة، يَرَاكَ وحدَك ويراكَ في الجَمْع. وهذا قول عِكْرِمة، وعطاءٍ الخراساني، والحسن البصريّ.

وقال مجاهد: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يرى من خَلْفه كما يرى من أمامه، ويشهد لهذا ما صحَّ في الحديث. «سَوُّوا صُفُوفَكم فإني أَرَاكُم من وَرَاء ظهري»(١).

وروى البزَّار(٢) وابنُ أبي حاتم، من طريقَين، عن ابن عبَّاس أنه قال في هذه الآية: يعني تقلُّبَه من صُلْب نبيٍّ إلى صُلْبِ نبيٍّ، حتى أخرجه نبيًّا.

وقولُه: ﴿ إنه هو السميعُ العليم ﴾، أي: السميعُ لأقوال عباده، العليمُ بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿ وما تكونُ في شأنٍ وما تتلُو منه من قرآن ولا تعملُون من عملٍ إلا كُنَّا عليكم شُهُوداً إذ تُفيضُون فيه ﴾... الآية.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ (٢٢٣) وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾

يقول تعالى مخاطباً لمن زَعَم من المشركين أنَّ ما جاء به الرسولُ ليس حقًّا، وأنه شيءٌ افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رَئِيٌّ(٣) من الجنّ، فنزَّه الله ـ سبحانه ـ جَنَابَ رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبَّه أن ما جاء به إنما هُو من عند الله، وأنه تنزيلُه ووحيُه، نَزَل به مَلَكٌ كريمٌ عظيمٌ، وأنه ليس من قبيل الشياطين، فإنَّهمْ ليس لهم رغبةٌ في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما يَتنزَّلُون على ما من يشاكلهم ويُشابههم من الكُهَّان الكَذَبة. ولهذا قال الله: ﴿ هل أُنَبِّئُكُم ﴾، أي: أُخبِرُكم ﴿على من تَنَزَّلُ الشياطينُ • تَنَزَّلُ على كلّ أفاكٍ أثيم ﴾، أي: كذوب في قوله، وهو الأفَّاكُ الأثيمُ، أي: الفاجرُ في أفعاله. فهذا هو الذي تَنَزَّل عليه الشياطين كالكُهَّان وما جرى مَجراهم من الكَذَبة الفَسَقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة.

﴿ يُلْقُونَ السَّمعَ ﴾، أي: يَسترِقُون السمعَ من السماء، فيسمَعُون الكَلِمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كِذْبةٍ، ثم يُلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدَّثون بها، فيصدِّقهم الناسُ في كلِّ ما قالوه، بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سُمِعت من السماء، كما صَحَّ بذلك الحديثُ، كما رواه البُخاريّ، من حديث الزُّهريِّ: أخبرني يحيى بن عُروةَ بن الزبير، أنه سمع عُروَةَ بنَ الزُّبَير يقول. قالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ: سأل ناسٌ النبي ـ ﷺ ـ عن الكُهَّان، فقال: إنَّهم ليسوا بشيء. قالوا: يا رسولَ الله، فإنهم يُحدِّثُون بالشيء يكونُ حقاً؟ فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: تلك الكلمةُ من الحقّ يَخطَفُها الجنيُّ فيُقَرْقِرُها في أُذنِ وليِّه كقَرْقَرة الدجاجة، فيَخلِطُون معها أكثرَ من مائة كِذْبةٍ(٤).

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الأذان ٢/٢٠٨، ومسلم، كتاب الصلاة ١/٣٢٤.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٦٢.

(٣) الرَّئِيُّ: الجِنِّي يعرض للإنسان ويُطلعه على ما يزعم من الغيب.

(٤) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٥٣٥ وقوله: «فيُقَرْقِرُها» في رواية معمر عن الزهري: «فيَقُرُّها»، أي: يلقيها في أذنه، ومعنى يقرقرها: يُرَدِّدها. وانظر فتح الباري، كتاب الطب ١٠/٢١٩ ـ ٢٢٠.

وقال البخاري أيضاً: حدثنا الحُمَيدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: سمعت عكرمة يقولُ. سمعت أبا هُرَيرَةَ يقولُ: إن نَبيَّ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا قَضَى الله الأمرَ في السماءِ ضَرَبت الملائكةُ بأجنحتِها خُضعاناً لقوله، كأنّه سِلْسِلَةٌ على صَفْوان، حتى إذا فُزِّع عن قُلوبهم قالوا. ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ. فَيسمعُها مُسترِقُو السَّمْعِ، ومُسترِقُو السمع ـ هكذا بعضُهم فوقَ بعض ـ ووصَفَ سفيانُ بيده فَحَرفَها، وبَدَّدَ بين أصابعه ـ فيسمَعُ الكلمةَ، فيُلقيها إلى مَن تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تَحتَه، حتى يُلقيها على لسان السَّاحِرِ ـ أو: الكاهِنِ. فَرُبَّما أدركَهُ الشِّهَابُ قبل أن يُلقِيَهَا، وَرُبَّما ألقاها قبل أن يُدركَه، فيكذِبُ معها مائة كِذبةٍ. فيقال: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيُصدَّقُ بتلك الكلمةِ التي سُمِعَت من السماء». انفرد به البخاري[1].

وروى مُسلمٌ من حديث الزُّهريِّ، عن علي بن الحُسَين، عن ابن عبَّاس، عن رجالٍ من الأنصار قريباً من هذا[2].

وسيأتي عند قوله تعالى في سبأ: ﴿حتَّى إذا فُزِّع عن قلوبهم﴾... الآية، إن شاء الله تعالى.

وقال البُخاريُّ. وقال الليثُ: حدثني خالد بن يَزيد، عن سَعيدَ بن أبي هِلالٍ: أن أبا الأسودِ أخبره، عن عُروَةَ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ أنه قال: إن الملائكةَ تَحَدَّثُ في العَنَان ـ والعَنَان: الغَمَام ـ بالأمر في الأرضِ، فتسمَعُ الشياطينُ الكَلِمَةَ، فتَقرُّها في أُذُنِ الكَاهِنِ كما تُقَرُّ القارُورَةُ، فيزيدون معها مائةَ كِذْبَةٍ[3].

وقال البخاري في موضع آخر من كتاب «بدء الخلق» عن سعيد بن أبي مَرْيَم، عن اللَّيث، عن عبد الله ابن أبي جَعفرٍ، عن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن، عن عُروة، عن عائشة، بنحوه[4].

وقولُه: ﴿والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعهم الغَاوُون﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الكفارَ يتبعُهُم ضُلَّالُ الإنسِ والجن[5]. وكذا قال مجاهد ـ رحمه الله ـ وعبد الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ، وغيرهما.

وقال عِكْرِمَةُ: كان الشاعران يَتَهاجيان، فينتصر لهذا فِئَامٌ[6] من الناس، ولهذا فِئَامٌ من الناس، فأنزل الله: ﴿ والشُّعَرَاء يَتَّبِعهم الغَاوُونَ ﴾.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا قُتيبةُ، حدثنا لَيثٌ، عن ابن الهادِ، عن يُحَنَّسَ ـ مولى مُصعَبِ بن الزُّبَيرِ ـ عن أبي سَعِيد قال: بينما نحن نَسِير مع رسولَ الله ـ ﷺ ـ بالعَرْجِ إذ عَرَضَ شاعرٌ يُنشِدُ، فقال النبي ـ ﷺ ـ: خُذوا الشيطانَ ـ أو: أَمسِكوا الشيطان ـ لأنْ يمتلىء جوفُ أحدكم قَيحاً خيرٌ له من أن يمتلىء شِعراً[7].

وقولُه: ﴿ ألم تَرَ أنَّهم في كلِّ وادٍ يهيمُونَ ﴾، قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: في كلِّ لَغوٍ

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة سبأ ٨/٥٣٧ ـ ٥٣٨. وانظر الحديث فيما تقدم عند تفسير الآية ١٦ من سورة الحِجْر. وخُضْعاناً: خاضعين ويروى: خُضُعاناً، بضمتين. والصفوان: الحجر الأملس. يشبه الصوت المسموع بصوتِ السِّلْسِلَةِ على الصَّفْوان.

(٢) مسلم، كتاب السلام ٤/١٧٥١.

(٣) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣٢٨.

(٤) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣٠٤.

(٥) الطبري ١٩/١٢٧.

(٦) أي: جماعات.

(٧) مسند الإمام أحمد ٣/٨ والعَرْج: مَوْضِعٌ بين مكة والمدينة، قيل على أربعة أميالٍ من المدينة.

يَخُوضُونَ. وقال الضحاك عن ابن عباس: في كلّ فَنٍّ من الكلام. وكذا قال مجاهد وغيره. وقال الحسنُ البصريُّ: قد ـ والله ـ رأينا أوديتهم التي يهيمون فيها، مَرّةً في شَتْمةِ فلان، ومرة في مِدْحة فلان. وقال قتادة الشاعرُ يَمْدح قوماً بباطل، ويذمّ قوماً بباطل.

وقولُه: ﴿وأنهم يقولُون ما لا يفعلُون﴾، قال العَوفيُّ، عن ابن عباس: كان رجلانِ على عهد رسول الله، أحدُهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وإنهما تهاجيا، وكان مع كلّ واحد منهما غُوَاة من قومه ـ وهم السفهاء ـ فقال الله تعالى: ﴿والشُعَراءُ يَتَّبِعُهم الغاوُونَ * ألم تَرَ أنّهم في كُلِّ وادٍ يهيمُون * وأنّهم يقولون ما لا يَفْعلُونَ﴾[1].

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: أكثرُ قولهم يَكذِبُون فيه.

وهذا الذي قاله ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ هو الواقعُ في نفسِ الأمر؛ فإن الشعراء يَتَبجّحون بأقوال وأعمال لم تصدُر منهم، ولا عنهم، فَيتكثّرون بما ليس لهم. ولهذا اختلف العلماء ـ رَحِمهم الله ـ فيما إذا اعترفَ الشاعرُ في شعره بما يُوجِب حَدّاً: هل يُقام عليه بهذا الاعتراف أم لا؟ لأنهم يقولونَ ما لا يفعلون، على قولين. وقد ذَكَر محمد بن إسحاق، ومحمد بن سَعد في الطبقات، والزُبَير بن بَكّار في كتاب الفاكهة: أنّ أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب ـ رَضِي الله عنه ـ استعمل النعمانَ بنَ عَدِيِّ بن نضلةَ على «مَيسان» ـ من أرض البَصرة ـ وكان يقول الشعر، فقال[2]:

أَلاَ هَـلْ أَتَى الحَسْنَاءَ أَنَّ حَلِيلَهَـا بِمَيْسَـانَ، يُسقَى في زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ
إِذَا شئتُ غَنَّتْنِي دَهَـاقِينُ قَـرْيَـةٍ وَرَقَّـاصَـةٌ تَجْـذُو على كُـلِّ مَنْسِمِ
فَإِنْ كُنتَ نَـدْمانِي فَبالأكْبَرِ اسْقِنِي وَلاَ تَسْقِنِي بِـالأصْغَـرِ المُتَثَلِّمِ
لَـعَـلَّ أَمِيـرَ المُـؤْمِـنِينَ يَسُـوؤُهُ تَـنَـادُمُنَـا بِـالجَـوْسَقِ المُتَهَـدِّمِ

فلما بلغ ذلك أميرَ المؤمنين قال: إي والله، إنّه ليسُوؤني ذلك، ومَن لَقِيه فَلْيُخبره أني قد عَزَلْته. وكتب إليه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافرِ الذنب وقابلِ التَّوبِ شديدِ العقابِ ذِي الطول لا إلَه إلا هو إليه المصير﴾، أما بعد فقد بلغني قولك:

لَـعَـلَّ أَمِيـرَ المُـؤْمِـنِينَ يَسُـوؤُهُ تَـنَـادُمُنَـا بِـالجَـوْسَقِ المُتَهَـدِّمِ

وَأيمُ الله إنه ليسوؤني وقد عزلتك. فلما قَدِم على عُمَر بَكَّتَه بهذا الشعر، فقال: والله ـ يا أمير المؤمنين ـ ما شَرِبتُها قطُّ، وما ذاكَ الشِعرُ إلا شَيءٌ طَفَح على لِسَانِي. فقال عُمَر: أظنُّ ذلك، ولكن والله لا تعمَلُ لي على عَمَلٍ أبداً وقد قُلتَ ما قلتَ!

فلم يذكر أنه حَدّه على الشراب، وقد ضَمَّنه شعره، لأنهم يقولُون ما لا يفعلون، ولكنه ذَمَّه عمر ـ رضي الله عنه ـ ولامَه على ذلك وعزله به. ولهذا جاء في الحديث: لأَن يمتلِىءَ جوفُ أحدِكم قيحاً يَرِيه خيرٌ لَه من أن يمتلِىءَ شِعراً[3].

---

(١) الطبري ١٩/١٢٧.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٢٦٦، والروض الأنف ٢/٢٥٢، وكتاب نسب قريش لمصعب الزبيري ٣٨٢، والاستيعاب لابن عبد البرّ ٤/١٥٠٢، والفرائض وشرح آيات الوصية للسهيلي ٨٢، والمعرب للجواليقي ١٤٥.

وتجذو: تثبت قائمة على أطراف أصابعها. والمَنسِم: خف البعير، واستعماله هنا مجاز، والجَوْسَق: الحصن، أو شبه به.

(٣) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٥٤٨، ومسلم، كتاب الشعر ٤/١٧٧٠. ووَرَى القيحُ جوفه يريه: أكله وأفسده.

والمرادُ من هذا أنَّ الرسول ـ ﷺ ـ الذي أُنزل عليه القرآنُ ليس بكاهن ولا بشاعر؛ لأنَّ حاله منافٍ لحالهم من وُجُوهٍ ظاهرةٍ، كما قال تعالى: ﴿ وما علَّمناه الشِّعرَ وما ينبغي لَهُ إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إنه لقولُ رسولٍ كريمٍ ۞ وَمَا هُوَ بقولِ شاعرٍ قليلاً ما تؤمنونَ ۞ ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكَّرُونَ ۞ تنزيلٌ من رَبِّ العالمينَ ﴾. وهكذا قال ها هنا: ﴿ وإنَّهُ لتنزيلُ ربِّ العالمين ۞ نزلَ به الروحُ الأمينُ ۞ على قلبك لتكونَ من المُنذرينَ ۞ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ ﴾ . . . إلى أن قال: ﴿ وما تنزَّلت به الشياطينُ ۞ وما ينبغي لهم وما يستطيعُونَ ۞ إنَّهم عن السَّمع لمعزُولونَ ﴾، إلى أن قال: ﴿ هل أُنبِّئُكم على من تَنَزَّلُ الشياطينُ ۞ تَنَزَّلُ على كلِّ أفَّاكٍ أثيمٍ ۞ يُلقونَ السَّمْعَ وأكثَرُهم كاذبُونَ ۞ والشعراء يَتَّبِعُهم الغاوُونَ ۞ ألم تَرَ أنَّهم في كلِّ وادٍ يهيمُونَ ۞ وأنَّهُم يقولون ما لا يفعلُونَ ﴾.

وقولُه: ﴿ إلَّا الذين آمَنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ ﴾، قال محمد بن إسحاقَ، عن يزيدَ بن عبد الله بن قُسَيط، عن أبي الحسن سالم البرَّاد مولى تَميم الداريِّ قال: لما نزلت: ﴿ والشعراءُ يَتَّبِعُهُم الغاوونَ ﴾، جاء حسَّان بنُ ثابتٍ، وعبد الله بن رَواحَة، وكعبُ بن مالك إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهم يبكُونَ فقالوا: قد عَلِم الله حين أنزل هذه الآية أنَّا شعراء. فتلا النبي ـ ﷺ ـ: ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾، قال: أنتم، ﴿ وذَكَرُوا الله كثيراً ﴾، قال: أنتم، ﴿ وانتصرُوا من بعد ما ظُلِموا ﴾، قال: أنتم. رواه ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ جَريرٍ، من رواية ابن إسحاقَ[1].

وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً، عن أبي سعيد الأشجِّ، عن أبي أُسامة، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي الحسنِ مولى[2] [بني] نوفل: أن حسَّان بن ثابت وعبدَ الله بن رَوَاحة أتيا رسول الله ـ ﷺ ـ حين نَزَلت ﴿ والشعراءُ يتَّبِعُهُم الغاوونَ ﴾ يبكيان، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ وهو يقرَؤها عليهما: ﴿ والشُّعَراءُ يتَّبِعُهُم الغاوونَ ﴾، حتى بلَغ: ﴿ إلا الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات ﴾، قال: أنتم[3].

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمة[3]، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عُروَة، عن عُروَةَ قال: لما نَزَلت: ﴿ والشُّعراءُ يتَّبِعُهم الغاوونَ ﴾، إلى قوله: ﴿ يقُولون ما لا يفعَلُون ﴾، قال عبد الله بن رَوَاحة: يا رسولَ الله، قد علم الله أنِّي منهم. فأنزل الله: ﴿ إلا الذين آمنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ ينقلبُون ﴾[4].

وهكذا قال ابنُ عباس، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وزيدُ بنُ أسلَمَ، وغيرُ واحد أن هذا استثناءٌ مما تقدم، ولا شكَّ أنه استثناءٌ، ولكنْ هذه السورة مكيَّةٌ، فكيف يكون سببُ نزول هذه الآية في شعراء الأنصار؟ في ذلك نظرٌ، ولم يتقدَّم إلا مُرسلاتٌ لا يُعتمدُ عليها، والله أعلم، ولكن هذا الاستثناء يدخُل فيه شعراء الأنصار، وغيرهم، حتى يدخل فيه من كان مُتلبِّساً من شُعراء الجاهلية بذمِّ الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب، ورجَع وأقلَع، وعمِل صالحاً، وذكر الله كثيراً في مُقابلة ما تقدَّم من الكلام السيِّء، فإن الحسنات يُذهِبنَ السيِّئات، وامتدَحَ الإسلام وأهلَه في مقابلة ما كان يذمُّه، كما قال عبد الله بن الزِّبَعْرى حين أسلم[5].

(١) الطبري ١٩/١٢٨ ـ ١٢٩، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة في كتاب الأدب من مصنفه ٨/٥١٨ ـ ٥١٩، وانظر الدرّ المنثور ٦/٣٣٤.

(٢) في نسختي الحرم والأزهر: «مولى نوفل». والحديث أيضاً أخرجه الحاكم في كتاب معرفة الصحابة ٣/٤٨٨.

(٣) في نسخة الحرم: أبو مسلم. وهو أبو سلمة موسى بن إسماعيل التبوذكي، مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/١٣٦، وانظر ترجمة حماد بن سلمة في تهذيب الكمال ٧/٢٥٨.

(٤) وأخرجه أيضاً ابن سعد، وعبد بن حميد، وابن عساكر. انظر الدرّ المنثور ٦/٣٣٤.

(٥) تقدم البيتان عند تفسير الآية ١٨ من سورة الفرقان، والثاني عند تفسير الآية ١٤ من هذه السورة أيضاً، وانظر أيضاً عند تفسير الآية ١٠٢ من سورة الإسراء، ١٠١ من سورة الأنبياء.

يَا رَسُولَ المَلِيكِ، إنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ
إذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الغَيِّ، ومَن مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

وكذلك أبو سفيان بنُ الحارث بن عبد المطلب، كان من أشدِّ الناس عداوةً للنبي ـ ﷺ ـ وهو ابن عمه ـ وأكثرهم له هَجْواً، فلما أسلم لم يكُن أحدٌ أحبَّ إليه من رسول الله ـ ﷺ ـ وكان يمدح رسول الله ـ ﷺ ـ بعد ما كان يهجوه، ويتولاه بعد ما كان عاداه. وهكذا رَوَى مُسلمٌ في صَحيحه، عن ابن عباس: أن أبا سفيان صَخْرَ بن حَرْبٍ لما أسلم قال: يا رسولَ الله؟ ثلاثٌ أَعْطِنِيهِنَّ. قال: نعم. قال: معاوية تجعله كاتباً بين يديك. قال: نعم. قال: وتُؤَمِّرني حتى أُقاتِلَ الكفار، كما كنتُ أقاتِلُ المسلمين. قال: نعم. وذكر الثالثة[1].

ولهذا قال تعالى: ﴿ إلا الذين آمَنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ وذكَرُوا الله كثيراً ﴾، قيل: معناه ذكروا الله كثيراً في كلامهم. وقيل: في شِعرهم، وكلاهُما صحيح مُكَفِّر لما سبق.

وَقولُه: ﴿ وانتصَرُوا من بعد ما ظُلِموا﴾، قال ابن عباس: يَرُدُّون على الكفار الذين كانوا يهجُون به المؤمنينَ. وكذا قال مجاهدٌ، وقتادةُ، وغير واحد. وهذا كما ثبت في الصحيح. أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لحسان: «اهْجُهم ـ أو قال: هَاجِهم ـ وجبريلُ معك»[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزَّاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهريِّ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه أنه قال للنبي ـ ﷺ ـ: إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أنزل في الشعرِ ما أنزَلَ، فقال: «إن المؤمن يُجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لَكأنَّ ما ترمُونَهم به نَضْحُ النَّبْلِ»[3].

وَقولُه: ﴿ وسيعلَمُ الذين ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقلِبُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ يوم لا يَنفعُ الظالمين معذرتُهم ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدارِ ﴾، وفي الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إيَّاكم والظلمَ، فإن الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة»[4].

وقال قَتَادةُ بن دِعَامَةَ في قوله: ﴿ وسيعلم الذين ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ ينقلبون ﴾، يعني من الشُّعراءِ وغيرهم[5].

وقال أبو داود الطَّيَالسيُّ: حدثنا إياس بن أبي تَمِيمَةَ، قال: حَضَرتُ الحسنَ وَمُرَّ عليه بجنازة نَصرانيٍّ، فقال الحسنُ: ﴿ وسيعلَمُ الذين ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقلِبُونَ ﴾.

وقال عبد الله بن رَبَاح، عن صَفوانَ بن مُحْرِز: أنه كان إذا قرأ هذه الآية بَكَى حتى أقول: قد اندقَّ قَصَصُ[6] زَورِه: ﴿ وسيعلم الذين ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقلِبُونَ ﴾[7].

وقال ابنُ وهب: أخبرني ابن سُرَيج الإسكندراني، عن بعض المشيخة: أنهم كانوا بأرض الرُّوم، فبينما هم ليلةً على نار يَشْتَوُون عليها ـ أو: يَصْطَلُونَ ـ إذا بركبانٍ قد أقبلُوا، فقاموا إليهم، فإذا فَضالة بن عُبيد فيهم،

---

(١) مسلم، كتاب الفضائل ٤/١٩٤٥.
(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٨٧ من سورة البقرة، وخرّجناه هنالك
(٣) مسند أحمد ٦/٣٨٧ ونَضْحُ النَّبْلِ: الرَّمْيُ به
(٤) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١١١ من سورة (طه)، وخرّجناه هناك
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، وعبد بن حُميد. الدر المنثور ٦/٣٣٦
(٦) في النسخ: فقطعت زوره والمثبت عن ابن أبي شيبة، والنهاية. وقصصُ الزَّوْر: منبت شعره على صدره، ويقال له القصّ أيضاً
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في مُصنفه، كتاب الزهد ١٤/١٠

فأنزلوه مَجلس معهم ـ قال: وصاحبٌ لنا قائم يُصَلِّي ـ قال: حتى مَرّ بهذه الآية: ﴿ وسيعلم الذين ظلَموا أيّ منقلب ينقلبون ﴾، قال فضالة بن عُبَيد: هؤلاء الذين يُخرِبُون البيت[1].

وقيل: المُرَادُ بهم أهلُ مكّة. وقيل: الذين ظَلموا من المشركين. والصحيح أن هذه عامةٌ في كلِّ ظالم، كما قال ابنُ أبي حاتم: ذُكر عن زكريا بن يحيى الواسطي: حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سَعْدٍ النَّهدي، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المُجَبَّر، حدثنا هشام بن عُروَة، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كَتَبَ أبي وَصِيَّته سَطرين:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قُحَافة، عند خُروجه من الدنيا، حين يُؤمن الكافرُ، وينتهي الفاجرُ، ويَصدُق الكاذبُ: أنّي استخلفتُ عليكم عُمَرَ بنَ الخطاب، فإن يعدلْ فذاك ظَنّي به، ورجائي فيه، وإن يَجُر ويُبَدِّل فلا أعلَمُ الغيبَ، ﴿وَسَيعلَمُ الذين ظَلَمُوا أيَّ مُنقلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾»[2].

آخرُ تَفْسيرِ سورة الشُّعراء، والحمدُ لله ربِّ العالمين

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٣٣٨/٦.

(٢) أخرجه أيضاً ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٣٣٩/٦

تفسير

سُورَةُ النَّمْلِ

وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) ﴾

قد تقدَّم الكلامُ في «سُورَةِ البَقَرة» على الحُرُوفِ المُقَطَّعةِ في أوائلِ السُّوَرِ.

وَقَولُه: ﴿ تلكَ آياتُ ﴾، أي: هذهِ آياتُ ﴿ القرآنِ وكتابٍ مُبينٍ ﴾، أي: بيِّنٍ واضحٍ، ﴿ هُدىً وبُشرى للمؤمنينَ ﴾، أي: إنما تحصُلُ الهدايةُ والبِشارةُ من القرآن لمن آمنَ به واتَّبعه وصدَّقه، وعَمِل بما فيه، وأقام الصلاةَ المكتُوبةَ، وآتى الزكاةَ المفروضةَ، وأيقَنَ بالدار الآخرة والبَعثِ بعد الموتِ، والجزاءِ على الأعمالِ، خَيرِها وشَرِّها، والجنَّةِ والنارِ، كما قال تعالى: ﴿ قُل هُوَ للذين آمنوا هُدىً وشِفاءٌ والذين لا يُؤمنُون في آذانهم وَقرٌ وهو عليهم عَمىً أُولئك يُنادَون من مكانٍ بعيدٍ ﴾. وقال: ﴿لِتُبَشِّرَ به المُتَّقينَ وتُنذِرَ به قَوماً لُدّاً ﴾، ولهذا قال هاهنا: ﴿ إن الذين لا يُؤمِنُونَ بالآخرةِ ﴾، أي: يُكَذِّبون بها، ويستبعِدون وقوعها ﴿ زَيَّنّا لهم أعمالَهم فهم يَعمَهُون ﴾، أي: حَسَّنّا لَهُم ما هُم فيه، ومَدَدنا لهم في غَيِّهم فهم يَتِيهُونَ في ضَلالِهم. وكان هذا جزاءً على ما كَذَّبُوا به منَ الدارِ الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ ونُقَلِّبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يُؤمنُوا به أول مَرَّةٍ ونَذَرُهم في طُغيانهم يَعمَهُون ﴾، ﴿ أولئك الذينَ لهم سُوءُ العذاب ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، ﴿ وهُم في الآخرة هم الأخسَرُون ﴾، أي: ليس يخسَر أنفُسَهم وأموالَهم سِواهُم من أهلِ المَحشَرِ.

وَقَولُه: ﴿ وإنكَ لَتُلَقَّى القرآنَ من لَدُن حَكيمٍ عَليمٍ ﴾، أي: ﴿ وإنَّكَ ﴾ يا مُحمَّد، قال قتادةُ: ﴿ لَتُلَقَّى ﴾، أي: لَتأخُذُ ﴿ القرآنَ من لَدُن حَكيمٍ عَليمٍ ﴾، أي: من عند حكيمٍ عليمٍ، أي: حكيمٍ في أوامِره

وبراهيه، عليم بالأمور جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدقُ المحضُ، وحُكْمُه هو العدلُ التامُّ، كما قال تعالى: ﴿ وتمّت كلمة ربك صِدقاً وعدلاً لا مُبدِّل لِكَلِماتِه ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله - ﷺ - مُذكِّراً له ما كان من أمرِ موسى، كيفَ اصطفاه الله وكَلَّمه، وناجاه وأعطاه من الآياتِ العظيمةِ الباهرة، والأدلّةِ القاهرةِ، وابتعثه إلى فرعونَ ومَلَئِه، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقيادِ له، فقال تعالى: ﴿ إذ قال موسى لأهلِه ﴾، أي: اذكُر حين سار موسى بأهله، فأضلَّ الطريقَ، وذلك في ليلٍ وظلام، فآنسَ من جانبِ الطُّورِ ناراً، أي: رأى ناراً تأجَّجُ وتضطرِمُ، فقال ﴿ لأهلِه إني آنستُ ناراً سآتيكُم منها بخبرٍ ﴾، أي: عن الطريق، ﴿أو آتيكُم﴾ منها ﴿بشهابٍ قَبسٍ لعلكم تَصْطَلُون﴾، أي: تتدفّئون به. وكان كما قال، فإنه رَجع منها بخبرٍ عظيمٍ، واقتبسَ منها نوراً عظيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿ فلما جاءَها نُودِيَ أن بُورِكَ مَن في النارِ ومَن حولَها ﴾ أي: فلما أتاها رأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها، والنارُ تضطرِم في شجرةٍ خضراء، لا تزدادُ النارُ إلا توقُّداً، ولا تزدادُ الشجرةُ إلا خضرةً ونضْرةً، ثم رَفَع رأسه فإذا نورُها متصل بعنانِ السماء.

قال ابنُ عباس، وغيرُه: لم تكن ناراً، إنما كانت نوراً يَتَوهّج. وفي رواية عن ابن عباس: نورُ ربِّ العالمين. فوقف موسى متعجبا مما رأى، فنودي: أن بُورِكَ مَن في النارِ. قال ابن عباس: قُدِّس[١].

﴿ ومَن حولَها ﴾، أي: من الملائكة. قاله ابنُ عباس، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بن جُبَير، والحسنُ، وقتادةُ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يُونُس بن حَبيب، حدثنا أبو داودَ - هو الطَّيالسي - حدثنا شُعبة والمسعوديُّ، عن عمرو بن مُرّة، سمع أبا عُبَيدة يُحدِّث، عن أبي موسى - رَضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يَخفِضُ القِسْطَ ويرفعُهُ، يُرفَع إليه عملُ الليلِ بالنهار، وعَمَلُ النهارِ بالليل - زاد المسعودي: وحجابه النارُ[٢]، لو كشفها لأحرقت سُبُحات[٢] وَجْهِه كلَّ شيءٍ أدركه بصرُه. ثم قرأ أبو عُبَيدة: ﴿ أن بُورِكَ مَن في النار ومن حولها ﴾.

وأصلُ هذا الحديث مُخرَّجٌ في الصحيح لمسلم، من حديث عمرو بن مُرّة[٣]، به.

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/١٣٣

(٢) في نسخة الحرم: «وحجابه النور». وفي تفسير ابن أبي حاتم: «لأحرقت سحابة وجهه».

(٣) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة، وخرّجناه هنالك. وفرحنا غريبه.

وَقَوْلُه: ﴿وسبحانَ الله رب العالمين﴾، أي: الذي يفعلُ ما يشاءُ ولا يُشبهُ شيئاً من مخلوقاته، ولا يُحيطُ به شيءٌ من مَصنوعَاته، وهو العليُّ العظيمُ، المباينُ لجميعِ المخلوقات، ولا يكتنفه الأرضُ والسمواتُ، بل هو الأحدُ الصَّمدُ، المنزَّه عن مُمَاثلةِ المحدثات.

وَقَوْلُه: ﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيزُ الحكيمُ ﴾، أعلَمه أنَّ الذي يُخاطبه ويُناجيه هو ربُّه الله ﴿ العزيزُ ﴾، الذي عَزَّ كلَّ شيءٍ وقهره وغلبه، ﴿ الحكيم ﴾ في أفعالِه وأقواله.

ثم أمره أن يُلقِيَ عصاه من يَدِه لِيُظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار، القادرُ على كلِّ شيء؛ فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلَبَتْ في الحال حَيَّةً عظيمة هائلةً في غاية الكبر، وسُرعَةِ الحركة مع ذلك، ولهذا قال: ﴿ فلما رآها تهتزُّ كأنها جانٌّ ﴾، والجانُّ: ضَرْبٌ من الحيَّات، أسرعُه حركةً، وأكثره اضطراباً ـ وفي الحديثِ نَهْيٌ عن قَتْلِ جِنَّانِ البيوت(١) ـ فلما عاين موسى ذلك ﴿ ولَّى مُدبراً ولم يُعقِّب ﴾، أي: ولم يَلتفِت من شِدَّةِ فَرَقِه، ﴿ يا موسى لا تَخَفْ إني لا يخافُ لديَّ المرسلون ﴾، أي: لا تخف مما ترى، فإني أُريدُ أن أَصْطَفِيكَ رَسُولاً وأجعلَك نَبيّاً وَجِيهاً.

وَقَوْلُه: ﴿ إلا من ظَلَم ثم بَدَّل حُسناً بعد سُوءٍ فإني غفورٌ رحيمٌ ﴾، هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أنَّ من كان على شيءٍ ثم أقلَعَ عنه، ورَجَع وأناب، فإن الله يتوبُ عليه، كما قال تعالى: ﴿ وإني لغفَّارٌ لمن تابَ وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾. وقال تعالى: ﴿ ومن يَعمل سُوءاً أو يَظلم نفسَه ثم يستغفر الله يَجِد الله غفوراً رحيماً ﴾. والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

وَقَوْلُه: ﴿ وأدخل يَدَكَ في جيبك تَخرُج بيضاءَ من غير سُوءٍ ﴾، هذه آيةٌ أُخرى، ودليلٌ باهرٌ على قُدرةِ الله الفاعل المختار، وصِدْقِ مَن جعل له مُعجزةً، وذلك أن الله ـ تعالى ـ أمره أن يُدخِل يَدَه في جيبِ دِرْعِه، فإذا أدخلها وأخرجَها خَرَجت بيضاءَ ساطعةً، كأنها قطعةُ قَمَرٍ، لها لَمَعانٌ يتلألأ كالبرق الخاطف.

وَقَوْلُه: ﴿ في تِسْعِ آياتٍ ﴾، أي: هاتان ثنتانِ من تسعِ آياتٍ أُؤيِّدك بهنَّ، وأجعلهن بُرهاناً لك إلى فِرْعَونَ وقومِه، ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾.

وهذه هي الآياتُ التسعُ التي قال الله تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسَى تسعَ آياتٍ بيِّناتٍ﴾ كما تقدم تقريرُ ذلك هنالك(٢). وقولُه: ﴿ فلما جاءتهم آياتُنا مُبصِرَةً ﴾ أي: بيِّنةً واضحةً ظاهرةً ﴿ قالوا هذا سحرٌ مبينٌ ﴾، وأرادوا مُعَارضته بسحرهم ﴿ فَغُلِبوا هنالك وانقلبوا صاغرِينَ ﴾، ﴿ وجَحَدوا بها ﴾، أي: في ظاهر أمرهم ﴿ واستيقنتها أنفسُهُم ﴾، أي: عَلِموا في أنفسهم أنها حَقٌّ من عند الله، ولكن جَحَدُوها وعاندوها وكابروها، ﴿ ظلماً وعُلُوّاً ﴾، أي: ظُلماً من أنفسهم، سَجيَّةً ملعونةً، ﴿ وعُلُوّاً ﴾، أي: استكباراً عن اتباع الحق. ولهذا قال: ﴿ فانظر كيف كان عاقبةُ المفسدين ﴾، أي: انظر ـ يا محمد ـ كيف كان عاقبةُ أمرِهم في إهلاكِ الله إيَّاهم، وإغراقِهم عن آخِرِهم في صَبيحةٍ واحدةٍ.

وفحوى الخطاب يقول: احذَرُوا أيها المكذبون بمحمد، الجَاحِدُون لما جاء به من رَبِّه، أن يُصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى؛ فإنَّ محمداً ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أشرفُ وأعظمُ من موسى، وبُرهانه

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣٥١، ومسلم، كتاب السلام ٤/١٧٥٤ وفي بعض النسخ حيات البيوت والجِنَّان: جمع جانّ، وهو الحية الصغيرة

(٢) انظر تفسير الآية ١٠١ من سورة الإسراء

أدلُّ وأقوى من برهان موسى، مما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ المواثيق له عليهم، عليه من ربه أفضلُ الصلاة والسلام.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبدَيه ونبيَّيه داودَ وابنه سليمانَ - عليهما من الله السلامُ - من النِّعَم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والمُلك والتمكين التامِّ في الدنيا، والنُّبوة والرسالة في الدِّين، ولهذا قال: ﴿ ولقد آتينا داودَ وسُليمانَ عِلماً وقالا الحمد لله الذي فضَّلنا على كثيرٍ من عبادِه المؤمنين ﴾.

قال ابن أبي حاتم: ذُكر عن إبراهيم بن هشام بن يحيى[(١)]: أخبرني أبي، عن جَدِّي قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إن الله لم يُنعِم على عبدٍ نعمةً فحمِد الله عليها إلا كان حَمْدُهُ أفضلَ من نِعمَتِه، لو كنتَ لا تعرفُ ذلك إلا في كتاب الله المنزل؛ قال الله تعالى: ﴿ ولقد آتينا داود وسُليمان عِلماً وقالا الحمدُ لله الذي فضَّلنا على كثيرٍ من عبادِه المؤمنين ﴾. وأيُّ نعمة أفضلُ مما أوتي داودُ وسليمانُ عليهما السلام[(٢)].

وقولُه: ﴿ ووَرِث سليمانُ داودَ ﴾، أي: في المُلك والنُّبوة، وليس المرادُ وِراثةَ المالِ، إذ لو كان كذلك لم يَخُصَّ سليمانُ وحدَه من بين سائر أولادِ داودَ، فإنه قد كان لداودَ مائةُ امرأةٍ. ولكن المرادُ بذلك وراثةُ المُلك والنُّبوة؛ فإن الأنبياء لا تُورَث أموالهم، كما أخبر بذلك رسولُ الله - ﷺ -: «نحن معشر الأنبياءِ لا نُورَثُ، ما تركنا فهو صدقةٌ»[(٣)].

وقولُه: ﴿ يا أيها الناسُ عُلِّمنا منطِقَ الطَّيرِ وأُوتينا من كلِّ شيءٍ ﴾، أي: أخبرَ سُليمان بنعم الله عليه، فيما وَهَبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سُخِّر له الإنسُ والجنُّ والطيرَ. وكان يعرفُ لغةَ الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيءٌ لم يُعطَه أحدٌ من البشر - فيما علمناه - مما أخبر الله به ورسوله. ومن زَعَم من الجهلة والرَّعاع أنّ الحيوانات كانت تنطق كنُطق بني آدم قبل سُليمان بن داود - كما قد يتفوّه به كثيرٌ من الناس - فهو قولٌ بلا علم، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سُليمانَ بذلك فائدةٌ، إذ كلُّهم يسمَع كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول، فليس الأمرُ كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائمُ والطيور وسائر المخلوقاتِ من وقتِ خُلقت إلى زمانِنا هذا على هذا الشكل والمنوال. ولكن الله - سبحانه وتعالى - كان قد أفهمَ سُليمانَ - عليه

---

(١) في النسخ «إبراهيم بن يحيى بن هشام» والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم، وهو مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٤٢/٢ - ١٤٣، وإبراهيم يروي عن أبيه هشام، وأبوه يروي عن جده يحيى، انظر ترجمة هشام بن يحيى الغساني في الجرح أيضاً ٧٠/٩ - ٧١.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر عن ابن أبي حاتم ٣٤٤/٦.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٥ من سورة مريم وخرّجناه هنالك.

السلامُ ـ ما يتخاطبُ به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيواناتُ على اختلاف أصنافها، ولهذا قال: ﴿ عُلِّمنا مَنطِقَ الطيرِ وأُوتِينا من كلّ شيء ﴾، أي: مما يحتاجُ إليه المُلْكُ، ﴿ إن هذا لَهُوَ الفضلُ المبين ﴾، أي الظاهرُ البيِّن لله علينا.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا قُتيبةُ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المُطَّلب، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عنه ـ: أنَّ رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ قال: كان داودُ ـ عليه السلام ـ فيه غيرة شديدة، فكان إذا خَرَجَ أُغلِقت الأبوابُ، فلم يَدخُل على أهلِه أحد حتى يرجع. قال: فخرج ذاتَ يوم وأُغلقتِ الأبوابُ، فأقبلت امرأةٌ تَطَلَّعُ[1] إلى الدار، فإذا رجلٌ قائم وَسَطَ الدار، فقالت لمن في البيت: مِنْ أين دخل هذا الرجلُ، والدارُ مغلقة؟ والله لَتَفْتَضِحَنَّ بداود[2]، فجاء داود ـ عليه السلام ـ فإذا الرجُل قائمٌ وسطَ الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: الذي لا يَهابُ الملوكَ ولا يَمتنِع من الحُجَّاب. فقال داود: أنت والله إذاً مَلَكُ الموتِ! مَرْحَباً بأمر الله، فَتَزَمَّلَ[3] داود ـ عليه السلام ـ مكانه حتى قُبِضت نفسُه، حتى فَرَغ من شأنه وَطَلعت عليه الشمسُ، فقال سليمان ـ عليه السلام ـ للطير: أظلي على داودَ. فأظلت عليه الطيرُ حتى أظلمت الأرض[4]، فقال لها سليمان: اقبِضي جَناحاً جناحاً ـ قال أبو هُرَيرةَ، يا رَسُول الله، كيفَ فَعَلتِ الطيرُ؟ فقبضَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ يدَه ـ وغَلَبت عليه يومئذٍ المضْرَحِيَّةُ[5].

قال أبو الفرج بنُ الجَوْزِيّ: المَضْرَحِيَّة: النُّسُور الحُمْرُ.

وقولُه تعالى: ﴿ وحُشِر لسليمانَ جُنودُه من الجنِّ والإنس والطَّير فَهُم يُوزَعُونَ ﴾، أي: وجُمِع لسليمان جنودُه من الجنِّ والإنْسِ والطَّير. يعني رَكِب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة، في الإنس وكانوا هم الذين يَلُونه، والجنُّ وهم بعدَهم في المنزلة، والطير ومَنزلتُها فوقَ رأسِه، فإن كان حَرٌّ أظلته منه بأجنحتها.

وَقولُه: ﴿فَهُم يُوزَعُونَ﴾، أي: يَكُفُّ أوَّلُهم على آخِرِهم، لِئلاَّ يَتقدَّم أحدٌ عن مَنْزِلَتِه التي هي مَرْتَبَةٌ له.

قال مجاهد: جُعِل على كل صنف وَزَعَة، يَرُدُّون أُولاَها على أُخرَاها، لئلا يَتقدَّموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم[6].

وَقولُه: ﴿ حتى إذا أَتَوا على وادِ النمل ﴾، أي: حتى إذا مَرَّ سليمان ـ عليه السلام ـ بمن مَعَه من الجُيوش والجنود على وادي النمل، ﴿ قَالت نَملةٌ يا أيُّها النملُ ادخلوا مساكِنَكم لا يَحطِمَنَّكم سُلَيمانُ وجنودُه وهُم لا يَشعرُونَ ﴾.

(١) اطَّلع إليه: تطلَّع ونظر ليعرفه، وفي التنزيل: ﴿ فاجعل لي صَرْحاً لعلّي أطَّلِعُ إلى إله موسى ﴾.

(٢) في المسند: لتفتضحن، بالتاء. والمعنى: لَتَنْزِلَنَّ الفضيحة بداود. يقال: افتضح الرجلُ: إذا رَكِبَ أمراً سيئاً فاشتهر به. فضُمِّن الفعل معنى أنزل، وعُدِّي تعديته.

(٣) كذا في نسختي الحرم والأزهر. وفي المسند: فَرَمَلَ. وفي الزوائد: فَزَمَّل. ومعنى تزمَّل: تلفَّفَ وتغطّى.

(٤) في المسند. «حتى أظلمت عليهما الأرض»، وفي نسخة من التفسير: «عليه الأرض».

(٥) في نسختي الأزهر والحرم. المَضْرَحيَّة، بالصاد. وفي الزوائد. المصرحة. والمثبت من نسخة. وفي اللسان: المَضْرَحِيّ من النُّسور: ما طال جناحه.

هذا والحديث في المسند ٢/٤١٩، ويقول الهيثمي في الزوائد ٨/٢٠٧: «رواه أحمد، وفيه المطلب بن عبد الله بن حنطب. وثَّقه أبو زرعة وغيره، وبقيَّةُ رجاله رجال الصحيح».

(٦) هذا الأثر مَرْوِيٌّ عن ابن عباس، انظر الطبري ١٩/١٤١، والدر المنثور ٦/٣٤٧. وانظر أثر مجاهد في الدر، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/٤١٧.

أورد ابن عساكر، من طريق إسحاق بن بشر، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن: أنَّ اسمَ هذه النملة حرس(١)، وأنها من قبيلة يقال لهم: بنو الشيصان، وأنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذيب.

أي: خافت على النمل أن تحطمها الخيولُ بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها، ففهم ذلك سليمانُ ـ عليه السلام ـ منها، ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها وقال ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعملَ صالحاً ترضاه ﴾، أي: ألهمني أن أشكرَ نعمتك التي مننت بها عليَّ، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والديَّ بالإسلام والإيمان بك، ﴿ وأن أعملَ صالحاً ترضاه ﴾، أي: عملاً تحبه وترضاه، ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾، أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك.

ومن قال من المفسرين ـ إنَّ هذا الواديَ كان بأرض الشام أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها.

وعن نوف البكالي أنه قال: كان نملُ سليمان أمثالَ الذئاب. هكذا رأيته مضبوطاً بالياء المثناة من تحت. وإنما هو بالباء الموحدة. وذلك تصحيفٌ، والله أعلم.

والغرضُ أن سليمانَ ـ عليه السلام ـ فهم قولها، وتبسَّم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمرٌ عظيمٌ جداً.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أنبأنا مِسْعَر، عن زيد العمي، عن أبي الصديق الناجي قال: خرج سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعةٍ قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهمَّ، إنا خَلْقٌ من خلقك، ولا غِنى بنا عن سُقياك، وإلا تسقنا تهلكنا. فقال سليمان ـ عليه السلام ـ: ارجعوا فقد سُقيتم بدعوة غيركم(٢).

وقد ثبت في الصحيح ـ عند مسلم ـ من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، عن النبي ـ ﷺ ـ: قرصت نبياً من الأنبياء نملةٌ، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه، أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة!(٣).

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما، عن ابن عباس وغيره: كان الهدهدُ مهندساً، يدُلُّ سليمان ـ عليه السلام ـ على الماء، إذا كان بأرض فلاةٍ طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسانُ الشيءَ الظاهرَ على وجهِ الأرض، ويعرف كم مساحة بُعده من وجه الأرض، فإذا دلّهم عليه أمر سليمان ـ عليه السلام ـ الجانَّ فحفروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان ـ عليه السلام ـ يوماً بفلاةٍ من الأرض، فتفقد الطير ليرى الهدهد، فلم يره، ﴿ فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾.

(١) ذكر بعض المفسرين لها أسماء أخرى. انظر مبهمات الأقران للسيوطي ١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) أخرجه البخاري في تاريخه، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، انظر الدر المنثور ٣٤٧/٦.
(٣) مسلم، كتاب السلام ١٧٥٩/٤.

حَدَّث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي القوم رجلٌ من الخوارج، يقال له «نافع بن الأزرق»، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس، فقال له: قِفْ يا ابن عباس، غُلِبتَ اليوم! قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهُدهُد أنه يرى الماءَ في تُخُومِ الأرض، وإنّ الصبيَّ ليضع له الحبَّة في الفخ، ويحثو على الفخ تراباً، فيجيء الهدهد ليأخُذَها فيقع في الفخ، فيَصيدُه الصبيُّ. فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس، لما أجبتُه. ثم قال له: ويحَك! إنه إذا نزل القدر عمي البصرُ، وذهب الحذر. فقال له نافع: والله لا أجادلُك في شيء من القرآن أبداً[1].

وقد ذكر الحافظ ابنُ عساكر في ترجمة أبي عبد الله البَرْزيّ ـ من أهل «بَرْزة» من غُوطة دمشق، وكان من الصالحين يصومُ الاثنين والخميس، وكان أعوَر قد بلغ الثمانين ـ فروى ابنُ عساكر بسنده إلى أبي سليمان بن زيد: أنه سأله عن سَبَب عَوَره، فامتنع عليه، فألحَّ عليه شهوراً، فأخبره أن رجُلين من أهل خراسان نزلا عنده جُمعةً في قرية بَرْزَةَ، وسألاه عن وادٍ بها، فأريتُهما إياه، فأخرجا مجامر وأوقدا فيها بخوراً كثيراً، حتى عَجْعج الوادي بالدُّخان، فأخذا يَعْزِمان[2] والحياتُ تُقبِل من كلِّ مكانٍ إليهما، فلا يلتفتان إلى شيءٍ منها، حتى أقبلت حيَّةٌ نحو الذِّراع، وعيناها تُوقَدان مثل الدِّينار. فاستبشرا بها عَظيماً، وقالا: الحمدُ لله الذي لم يُخيِّب سفرنا من سَنَةٍ، وكَسَرا المجامر، وأخذا الحيَّةَ فأدخلا في عَينها مِيلاً فاكتحلا به، فسألتُهما أن يكْحلاني، فأبيا، فألححتُ عليهما وقلتُ: لابدَّ من ذلك، وتوعَّدتُهما بالدَّولة[3]، فَكَحلا عيني الواحدةَ اليمنى، فحين وقع في عيني نظرتُ إلى الأرض تحتي مثل المرآةِ، أنظُر ما تحتها كما تُرى المرآة، ثم قالا لي: سِرْ معنا قليلاً، فسِرتُ معهما وهما يحدثاني، حتى إذا بَعُدت عن القريةِ أخذاني فكَتَّفاني، وأدخَل أحدُهما يَدَه في عيني فَفَقأها، ورَمَى بها ومضيا فلم أزل كذلك مُلقىً مكتوفاً، حتى مَرَّ بي نَفَرٌ فَفَكَّ وَثاقي. فهذا ما كان من خبرِ عيني.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا هشام بن عَمّار، حدثنا صَدَقةُ بن عَمْرو الغَسّاني، حدثنا عَبّاد بن مَيْسَرَة المِنقَري، عن الحَسَن قال: اسم هُدهُدِ سليمانَ عليه السلام: عنبر[4].

وقال محمد بن إسحاق: كان سليمانُ ـ عليه السلام ـ غَدَا[5] إلى مجلسِه الذي كان يجلس فيه، فتفقَّد الطيرَ، وكان فيما يزعُمون يأتيه نُوَبٌ من كلِّ صِنفٍ من الطير، كلَّ يوم طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلِّها من حَضَره إلا الهُدهُدَ، ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾، أخطأه بَصَري من الطير، أم غاب فلم يحضر[6].

وقولُه: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا ﴾، قال الأعمش، عن المِنْهال بن عمرو، عن سعيد، عن ابن عباس: يعني نَتْفَ رِيشِهِ[7].

وقال عبد الله بن شَدّاد: نتفُ ريشه وتَشميسُه. وكذا قال غيرُ واحدٍ من السلف: إنه نتف ريشه، وتركه مُلقىً يأكله الذَّرُّ والنمل.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي حاتم. انظر الدر المنثور ٦/٣٤٩

(٢) عَزَم الراقي: قرأ العزائم، جمع عزيمة وهي الرُّقْيَةُ

(٣) أي: إنه حذرهما بأنه إذا تمكّن منهما فسوف يحل بهما غضبه

(٤) أخرجه السيوطي في مفحمات الأقران، عن ابن أبي حاتم، انظر ١٥٢، وكذلك في الدر ٦/٣٤٩

(٥) في النسخ: «إذا غداه». ونصّ الطبري: «حتى إذا كان ذات غداةٍ في بعض زمانه غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه»

(٦) أخرجه الطبريُّ بإسناده إلى ابن إسحق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه ١٩/١٤٤

(٧) أخرجه الحاكم وصححه، المستدرك، كتاب التفسير ٢/٤٠٥، كما أخرجه غير واحد، انظر الدر المنثور ٦/٣٤٩

وقوله: ﴿ أو لأذبحنَّه ﴾، يعني: قتله، ﴿ أو ليأتيني بسلطانٍ مبين ﴾ أي: بِعُذرٍ واضحٍ بَيِّن.

وقال سُفيان بن عُيَينة، وعبد الله بن شدَّاد، لما قَدِم الهُدهُد قالت له الطير: ما خلَّفَك، فقد نَذَر سُليمانُ دَمَك؟ فقال: هل استثنى؟ فقالوا: نعم، قال: ﴿ لأُعذِّبنَّه عذاباً شديداً أو لأذبحنَّه أو ليأتيني بِسُلطانٍ مُبينٍ ﴾، فقال: نجوتُ إذاً

قال مجاهد: إنما دَفَع الله عنه بِبِرِّه بأمِّه.

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ فمكث ﴾ الهدهد ﴿ غير بعيد ﴾، أي: غاب زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿ أحطتُ بما لم تُحِط به ﴾، أي: اطَّلعت على ما لم تطَّلع عليه أنتَ ولا جنودُك، ﴿ وجئتُك من سَبَإٍ بنبإٍ يقينٍ ﴾، أي: بخبرٍ صِدْقٍ حَقٍّ يقينٍ. وسَبَأ: هم حِميرُ، وهم ملوكُ اليمن.

ثم قال: ﴿ إني وجدتُ امرأةً تَملِكُهم ﴾، قال الحسنُ البصري: وهي بِلقيسُ بنتُ شَراحيلَ ملكةِ سبأ[1].
وقال قتادةُ: كانت أمُّها جنية، وكان مُؤَخَّرُ قدَمَيها مثلَ حافرِ الدابةِ، من بيتِ مَملَكةٍ. وقال زُهير بن محمد: هي بِلقيسُ بنتُ شَراحِيلَ بن مالك بن الريَّانِ، وأمها فارعةُ الجِنِّيَّة[2]. وقال ابن جُرَيج: بِلقِيسُ بنتَ ذي شَرْخ، وأمها بلتعة[1].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسين، حدثنا مُسَدَّد، حدثنا سُفيان ـ يعني ابن عُيَينة ـ عن عطاءِ بن السائب، عن مجاهِد، عن ابن عبَّاس قال: كان مع صاحبةِ سُليمان ألفُ قَيْلٍ[2]، تحت كل قَيل مائةُ ألفِ مقاتل.

وقال الأعمش، عن مُجاهِد: كان تحتَ يَدَي مَلِكةِ سَبَإ اثنا عَشَر ألفَ قَيْلٍ، تحتَ كلِّ قَيْل مائةُ ألفِ مقاتل.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرٌ، عن قتادةَ في قوله: ﴿ إني وجدتُ امرأةً تَملِكهم ﴾، كانت من بَيتِ مَملَكةٍ، وكان أُولو مشورتها ثلاثمائةٍ واثني عشر رجلا، كل رجل منهم على عشرة آلاف رَجُل. وكانت بأرض يقال لها مَأْرِبُ، على ثلاثة أميال من صنعاء.

وهذا القولُ هو أقربُ، على أنه كثيرٌ على مَملَكةِ اليَمَن، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وأُوتِيت من كلِّ شيء ﴾، أي: من متاع الدنيا ما يحتاجُ إليه المَلِكُ المُتمكِّنُ: ﴿ ولها عرشٌ عظيمٌ ﴾، يعني: سرير تجلس عليه عظيم هائلٌ مُزَخرَفٌ بالذهب، وأنواع الجواهر واللآلىء.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في مبهمات الأقران للسيوطي ١٥٢، والدر المنثور ٦/٣٥١.
(٢) القَيْل من مُلوك اليمن، دُون الملك الأعظم.

قال زُهَير بن مُحمَّد: كان من ذهَب وصفحتاه، مرمول[1] بالياقوت والزَّبرجد، طولُه ثمانون ذراعاً، وعرضُه أربعُون ذِراعاً.

وقال مُحمَّد بن إسحاقَ: كانَ من ذَهَبٍ مُفَصَّصٍ بالياقوتِ والزَّبَرجَدِ واللُّؤلُؤ، وكان إنَّما يخدُمها النِّساءُ، لها سِتمائةُ امرأةٍ تليها للخدْمَةِ.

قال علماء التاريخ: وكان هذا السريرُ في قَصرٍ عَظيمٍ مَشيدٍ رَفيعِ البناءِ مُحكَمٍ، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقةً من شَرقه، ومثلها من غَربه، قد وُضِعَ بناؤه على أن تدخُلَ الشمسُ كلَّ يوم من طاقةٍ، وتغرُب من مقابلتها، فيسجُدون لها صباحاً ومساءً، ولهذا قال: ﴿ وجدتُها وقومَها يسجُدون للشمس من دُون الله وزَيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم فَصَدَّهم عن السَّبيل ﴾، أي: عن طريق الحق، ﴿ فهم لا يهتَدُون ﴾.

وقولُه: ﴿ ألا يَسجُدوا لله ﴾، أي: لا يعرفون سَبيلَ الحقِّ التي هي إخلاصُ السجودِ لله وحدَه دون ما خَلَق من شيءٍ من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِن آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ لا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا لِلْقَمَرِ واسجُدُوا لله الذي خَلَقَهنَّ إن كنتُم إياه تَعبُدونَ ﴾.

وقرأ بعضُ القراء: «ألَا يا اسجُدُوا لله»[2]، جَعَلها «ألَا» الاستفتاحية، و«يا» للنداء، وحُذِفَ المنادى، تقديره عنده: «ألا يا قوم، اسجُدوا لله».

وقولُه: ﴿ الذي يخرج الخَبْءَ في السموات والأرض ﴾، قال عَليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: يعلمُ كلَّ خبيئةٍ في السماء والأرض. وكذا قال عكرمةُ، ومجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وقتادةُ، وغير واحد.

وقال سعيد بن المُسَيِّب: الخَبْء: الماء. وكذا قال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ: خَبْءُ السمواتِ والأرض ما جُعل فيها من الأرزاق: المَطَرُ من السماء، والنَّباتُ من الأرض.

وهذا مناسِبٌ من كلام الهُدهُد، الذي جَعَل الله فيه من الخاصِّية ما ذكَره ابنُ عباس وغيره، من أنه يرى الماء يجري في تُخُوم الأرض ودَوَاخِلها.

وقولُه: ﴿ وَيَعْلَمُ ما تُخفُونَ وما تُعلِنُون ﴾، أي: يعلَم ما يُخفيه العبادُ، وما يُعلِنُونه من الأقوال والأفعال. وهذا كقوله تعالى: ﴿ سَواءٌ منكم مَن أسرَّ القَوْلَ ومن جَهَر بِهِ ومَن هُوَ مُستَخفٍ بالَّيلِ وسارِبٌ بالنهار ﴾.

وقولُه: ﴿ اللهُ لا إلَهَ إلا هُوَ ربُّ العرشِ العَظِيم ﴾، أي: هو المدعوُّ الله، وهو الَّذي لا إلَهَ إلا هُوَ ربُّ العرشِ العظيم، الذي ليس في المخلوقاتِ أعظَمُ منه.

ولما كان الهُدهدُ داعياً إلى الخير، وعبادةِ الله وحدَه والسُّجود له، نُهِيَ عن قَتْلِه، كما رواه الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ وابنُ ماجه، عن أبي هُرَيرةَ ـ رَضِيَ الله عنه ـ قال: نَهَى النبيُّ ـ ﷺ ـ عن قَتْلِ أربعٍ من الدَّوابِّ: النَّملَةِ والنَّحلةِ والهُدْهُدِ والصُّرَدِ[3]. وإسناده صحيح.

---

(١) في نسخة الحرم: «وصفحتاه مرمولة». والمثبت موافق لتفسير ابن أبي حاتم، والدر المنثور. والمرمولُ: المنسوجُ.

(٢) هذه قراءة الكسائي، انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧١٩ ـ ٧٢٠.

(٣) أخرجه ابن ماجه عن أبي هُرَيرة وابن عباس في كتاب الصيد ٢/١٠٧٤ فأما أبو داود فرواه عن ابن عباس في كتاب الأدب ٤/٣٦٧ ولم يقع لنا في المسند إلا من رواية ابن عباس ١/٣٣٢، ٣٤٧.
والصُّرَد: طائر أكبر من العصفور، ضخم الرأس والمنقار، يصيد صغار الحشرات.

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قِيل سُليمان ـ عليه السلام ـ للهُدْهُدِ حين أخبره عن أَهْلِ سَبَإٍ ومَلِكَتِهم: ﴿ قال سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أم كُنتَ من الكاذِبين ﴾، أي: أَصَدَقْتَ في إِخْبارِكَ هذا، ﴿ أم كُنتَ من الكاذِبينَ ﴾، في مقالَتِكَ، فتَتخلَّص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿ اذهَبْ بكتابي هذا فألقِه إليهم ثُمَّ تولَّ عنهم فانظر ماذا يَرجِعُون ﴾، وذلك أن سليمان ـ عليه السلام ـ كَتَب كتاباً إلى بِلْقِيس وقَومِها. وأعطاه لذلك الهُدهُدَ فحَمَله، قيل: في جناحه كما هو عادةُ الطير، وقيل: بمنقاره. وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بِلْقِيسَ، إلى الخَلْوَة التي كانت تختلي فيها بنَفْسِهَا، فألقاها إليها من كُوَّةٍ هُنالك بين يَدَيها، ثم تَوَلَّى ناحيةً أدباً ورياسةً فتَحيَّرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عَمَدت إلى الكتاب فأَخذَته، فَفتحت خَتْمَهُ وقرأته، فإذا فيه: ﴿ إِنَّه من سُلَيمانَ وإنه بِسْم الله الرَّحمنِ الرَّحيم ۞ أَلَّا تعلُوا عليَّ وأتوني مُسلِمِينَ ﴾. فَجمعت عند ذلك أمراءها ووُزَراءها وكُبَراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم: ﴿ يا أيها الملأ إنِي أُلقِيَ إليَّ كِتابٌ كَريمٌ ﴾، تعني بكرمه ما رأته من عَجيب أمره، كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تَوَلَّى عنها أَدَباً. وهذا أمرٌ لا يَقدِر عليه أحدٌ من الملوك، ولا سَبيلَ لهم إلى ذلك، ثم قَرَأته عليهم، ﴿ إنه من سُلَيمانَ وَإِنَّه بسم الله الرحمن الرحيم ۞ أَلَّا تعلُوا عليَّ وَأْتوني مُسْلِمِينَ ﴾، فعرَفوا أنه من نَبِيِّ الله سُلَيمان، وأنه لا قِبَل لهم به. وهذا الكتابُ في غايةِ البلاغةِ والوَجازةِ والفصاحةِ، فإنّه حَصَّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء: ولم يكتُب أحدٌ ﴿ بِسْمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ ﴾ قبل سُلَيمان عليه السلام.

وقد رَوَى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً في تفسيره، حيث قال: حدثنا أبي، حدثنا هارونُ بن الفضل أبو يعلي الحَنَّاطُ، حدثنا أبو يوسف، عن سَلَمة بن صالح، عن عبدِ الكريمِ أبي أُمَيَّةَ، عن ابن بُرَيدَةَ، عن أبيهِ قال: كنتُ أمشي مع رَسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: إني أعلم آية لم تنزل على نبيٍّ قبلي بعد سُلَيمانَ بن داود. قال: قلتُ: يارسولَ الله، أيُّ آية؟ قال: سأُعلِّمُكها قبل أن أخرجَ من المسجد. قال: فانتهى إلى الباب، فأخرجَ إحدَى قدَمَيه، فقلت: نَسِي. ثم التفت إليّ وقال: ﴿ إنَّه مِنْ سُلَيمانَ وإنه بِسْمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ ﴾. هذا حديثٌ غريبٌ، وإسنادُه ضعيفٌ.

وقال مَيمُونُ بن مِهْرانَ: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يكتب: باسمِكَ اللَّهُمَّ، حتى نزلت هذه الآية، فكتب، ﴿ بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيم ﴾.

وقولُه: ﴿ أَلَّا تعلُوا عَلَيَّ ﴾، قال قتادة: يقولُ: لا تَجبَّروا عليَّ ﴿ وأتوني مسلمين ﴾. وقال عبدُ الرحمنِ ابنُ زيدِ بن أسلَمَ: لا تمتنعُوا ولا تتكبَّروا عَلَيَّ.

﴿ وَأْتوني مُسْلِمينَ ﴾، قال ابنُ عباس: مُوحِّدين. وقال غيرُه: مُخلِصِينَ. وقال سُفيان بن عُيَينة: طائعين.

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

لما قرأت عليهم كتابَ سليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها، ولهذا قالت: ﴿ يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون ﴾، أي: حتى تحضرون وتشيرون. ﴿ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ﴾، أي: منّوا إليها بعَددهم وعُددهم وقوّتهم، ثم فوّضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿ والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ﴾، أي: نحن ليس لنا عاقةٌ[1] ولا بنا بأسٌ[2]، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه فما لنا عاقةٌ[1] عنه. وبعد هذا فالأمر إليكِ، فري فينا رأيكِ نمتثله ونطيعه.

قال الحسن البصريُّ رَحمَه الله: فوّضوا أمرهم إلى عِلْجَةٍ تضطربُ ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأياً منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنّه لا قِبل لها بجُنوده وجُيوشه، وما سُخّر له من الجنِّ والإنس والطير، وقد شاهَدَت من قضيّةِ الكتاب مع الهُدْهُد أمراً بديعاً، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربَه ونمتنع عليه، فيقصدَنا بجُنوده، ويُهلكنا بمَن معَه، ويخلص إليَّ وإليكم الهلاكُ والدمارُ دون غيرنا. ولهذا قالت: ﴿ إن الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدُوها ﴾.

قال ابنُ عبّاس: أي إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدُوه، أي: خرّبوه، ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾، أي: وقصدُوا من فيها من الوُلاة والجنود فأهانُوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو بالأسر.

قال ابن عباس: قالت بلقيسُ: ﴿ إن الملوكَ إذا دخلُوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾، قال الربُّ عز وجلّ: ﴿ وكذلك يفعلون ﴾[3].

ثم عدَلت إلى المُهادنة والمُصالحة والمُسالمة والمُخادعة والمصانعة، فقالت: ﴿ وإني مرسلةٌ إليهم بهديّةٍ فناظرةٌ بمَ يرجعُ المرسَلُون ﴾، أي: سأبعث إليه بهديّةٍ تليق بمثله وأنظر ماذا يكونُ جوابُه بعد ذلك. فلعله يقبل ذلك ويَكُفُّ عنا، أو يَضرب علينا خَراجاً نَحمِلُه إليه في كلِّ عام، ونَلتزمُ له بذلك ويترُك قتالنا ومُحاربتنا. قال قتادةُ: رَحِمَها الله ورَضِي عنها، ما كان أعقلَها في إسلامها وفي شِركِها! علِمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس.

وقال ابنُ عباس وغيرُ واحدٍ: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتِلُوه، وإن لم يقبلها فهو نبيٌّ فاتّبعُوه.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ذكر غيرُ واحدٍ من المفسّرين، من السَّلَف وغيرهم: أنها بعثت إليه بهديّةٍ عظيمةٍ من ذهبٍ وجواهرَ ولآلىء وغير ذلك. وقال بعضهُم: أرسلت إليه بِلَبِنٍ[4] من ذَهَب. والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب.

قال مجاهد، وسعيد بن جُبير، وغيرهما: وأرسلت جَوارِيَ في زيِّ الغلمان، وغلماناً في زيِّ الجواري،

---

(١) كذا، وليس بعربي. والمراد أنه ليس بهم ما يعوقهم عن المضيّ معها إلى القتال.

(٢) المراد بالبأس هنا: الخوفُ والمانعُ والحرَجُ.

(٣) الطبري ١٩/ ١٥٤ ـ ١٥٥. والدرّ المنثور عن ابن أبي حاتم ٦/ ٣٥٧

(٤) في نسخة: بلبنةٍ. والمثبت من نسخة الحرم، واللَّبِنُ واحدهُ لَبِنَة، وهي التي يبنى منها الجدار أي: إن الذهب كان على هيئة اللَّبن

وقالت: إن عَرَف هؤلاء من هؤلاء فهو نبيٌّ. قالوا: فأمرهم عليه السلام أن يتوضئوا، فجعلت الجارية تُفرغُ على يدها من الماء، وجعل الغلامُ يَغترفُ، فميَّزهم بذلك.

وقيل: بل جعلت الجارية تغسلُ باطن يدها قبل ظاهرها، والغلامُ بالعكس. وقيل: بل جعلت الجواري يغتسلن من أكفهن إلى مرافقهن، والغلمان من مرافقهم إلى أكفهم. ولا منافاة بين ذلك كلِّه، والله أعلم.

وذكر بعضُهم: أنها أرسلت إليه بقدح ليملأهُ ماءً رَواءً[1]، لا من السماء ولا من الأرض، فأجرى الخيلَ حتى عَرِقت، ثم ملأه من ذلك. وبخرزةٍ وسِلكٍ ليجعلَه فيها، ففعل ذلك. والله أعلم أكانَ ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات. والظاهر أن سُليمان -عليه السلام- لم ينظر إلى ما جاءُوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرضَ عنه، وقال منكراً عليهم ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾، أي: أتصانعونني بمالٍ لأتركَكُم على شِرْكِكم ومُلكِكم؟! ﴿فما آتانِيَ الله خيرٌ مما آتاكم﴾، أي: الذي أعطاني الله من المُلكِ والمالِ والجُنودِ خيرٌ مما أنتم فيه، ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾، أي: أنتم الذين تنقادُون للهدايا والتُّحف، وأما أنا فلا أقبلُ إلا الإسلامَ أو السَّيفَ.

قال الأعمشُ، عن المنهالِ بن عمرو، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاسٍ -رضي الله عنه-: أمَرَ سليمانُ الشياطين فموَّهُوا له ألفَ قصرٍ من ذهبٍ وفضةٍ، فلما رأت رُسلُها ذلك قالوا: ما يصنعُ هذا بهديَّتنا؟! وفي هذا دلالةٌ على جَوَازِ تهيُّؤِ الملوك وإظهارهم الزينة للرسُل والقُصَّاد.

﴿ارجِعْ إليهم﴾، أي: بهديتهم، ﴿فلنأتينَّهُم بجُنودٍ لا قِبَلَ لهُم بها﴾، أي: لا طاقة لهم بقتالهم، ﴿ولنُخرجنَّهم منها﴾، أي: من بلدهم ﴿أذلَّةً وهم صاغِرون﴾، أي: مُهانون مدحُورُون.

فلما رَجَعت إليها رسلُها بهديَّتها، وبما قال سُليمان، سَمِعت وأطاعت هي وقومُها، وأقبلت تسيرُ إليه في جنودها خاضعةً ذليلةً، مُعظِّمةً لسليمانَ، ناويةً متابعته في الإسلامِ، ولما تحقَّقَ سُليمانُ -عليه السلام- قُدُومَهم عليه ووُفُودَهم إليه، فَرِح بذلك وسَرَّه.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قال محمد بن إسحاق، عن يزيدَ بن رُومان قال: فلما رَجَعت إليها الرسلُ بما قال سليمان قالت: قد -والله- عرفتُ ما هذا بملِكٍ، وما لنا به من طاقةٍ، وما نصنعُ بمكابرته شيئاً. وبَعَثت إليه: إني قادمةٌ عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرُك وما تدعُونا إليه من دينك. ثم أمرت بسرير مُلكها الذي كانت تجلسُ عليه -وكان من ذهب مُفصَّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ- فجُعِل في سبعةِ أبياتٍ، بعضُها في بعضٍ، ثم أقفلت عليه الأبوابَ، ثم قالت لمن خلَّفتْ على سلطانها: احتفظ بما قِبَلك، وسرير ملكي فلا يخلُصُ إليه أحدٌ من عباد الله، ولا يَرينَّهُ أحدٌ حتى آتيك. ثم شَخَصت إلى سُليمان في اثني عشر ألفَ قَيْلٍ من مُلوكِ اليمن، تحت يَدَي كُلِّ قَيلٍ منهم ألوفٌ كثيرة. فجعل سُليمان يبعث الجنَّ يأتُونه بمسيرها ومُنتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دنت جَمَعَ من عنده من الجنِّ والإنس، ممن تحت يديه، فقال: ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾.

(١) الماء الرَّواء: العذب.

وقال قتادةُ: لما بلغ سليمان أنها جائيةٌ، وكان قد ذُكِرَ له عَرشُها فأعجبه، وكان من ذهبٍ، وقوائمُهُ لؤلؤٌ وجوهرٌ، وكان مُستَّراً بالدِّيباج والحرير، وكانت عليه تسعةُ مَغَالِيق، فكره أن يَأخُذَه بعد إسلامهم. وقد علم نبيُّ الله أنهم متى أسلموا تَحرُم أموالُهم مع دمائهم فقال: ﴿ يَا أَيُّها المَلأُ أيُّكم يَأتِيني بِعَرْشِها قبلَ أن يأتوني مُسلِمينَ ﴾(١).

وهكذا قال عطاء الخراساني، والسُّدِّيّ، وزُهير بن محمد: ﴿ قبل أن يأتوني مسلمين ﴾، فتحرُم علي أموالُهم بإسلامهم، ﴿قال عِفريتٌ من الجنِّ﴾، قال مجاهدٌ: أي ماردٌ من الجن. وقال شُعَيبٌ الجَبَئِيّ: وكان اسمه كَوْزَن. وكذا قال محمد بن إسحاق، عن يزيدَ بن رُومانَ(٢). وكذا قال أيضاً وهبُ بن مُنَبِّه. قال أبو صالح: وكان كأنه جبلٌ(٣).

﴿ أنا آتيك به قبل أنْ تَقُومَ من مَقَامِك ﴾ ـ قال ابن عباس: يعني قبل أن تَقُوم من مجلسك. وقال مجاهدٌ: مقعدك، وقال السُّدِّي، وغيره: كان يجلس للناس للقضاءِ والحُكومات، وللطعام، من أوّل النهار إلى أن تزُول الشمسُ. ﴿ وإني عليه لقوي أمين ﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ: أي قويٌّ على حَمْلِه، أمينٌ على ما فيه من الجَوْهَرِ.

فقال سُلَيمان عليه السلام: أُريد أعجَلَ من ذلك. ومن هاهنا يظهر أن النبيَّ سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهارَ عَظَمة ما وَهَبه الله له من الملك، وسَخَّر له من الجُنُود، الذي لم يُعطه أحدٌ قبله، ولا يكونُ لأحدٍ من بعدِه. وَلِيتَّخِذَ ذلك حجةً على نُبُوَّته عند بِلْقِيسَ وقومها؛ لأن هذا خارقٌ عظيمٌ أن يأتِي بعَرشِها كما هُو من بِلادِها قبل أن يَقْدَموا عليه. هذا وقد حَجَبَته بالأغلاق والأقفالِ والحَفَظَة. فلما قال سليمان: أريد أعجَلَ من ذلك، ﴿ قال الذي عنده علْمٌ من الكتاب﴾، قال ابن عباس: وهو آصفُ كاتبُ سُليمان. وكذا رَوَى محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومَان: أنه آصَفُ بن برخيا، وكان صِدِّيقاً يعلم الاسم الأعظم.

وقال قتادة: كان مؤمناً من الإنسِ، واسمه آصَفُ. وكذا قال أبو صالح، والضَّحَّاك، وقتادةُ: إنه كان من الإنس. زاد قتادةُ: من بني إسرائيل.

وقال مجاهد: كان اسمه أسطُومَ. وقال قتادة ـ في رواية عنه ـ كان اسمه بليخا. وقال زُهَير بن محمد: هو رجل من الأندلس يقال له: ذو النور. وزَعَم عبد الله بن لَهِيعة: أنه الخَضِر. وهو غريب جداً.

وقولُه: ﴿ أنا آتيكَ به قبل أن يرتدَّ إليك طَرْفُكَ ﴾، أي ارفَعْ بصرك وانظر مَدَّ بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يَكِلُّ بصرُك إلا وهو حاضرٌ عندك. وقال وهبُ بنُ مُنَبِّه: امدُد بصرَك، فلا يبلغ مَدَاه حتى آتِيكَ به. فذكرُوا أنه أمره أن ينظُرَ نحو اليَمَن التي فيها هذا العرشُ المطلوبُ، ثم قام فتوضَّأَ، ودعا الله عزَّ وجلَّ.

قال مجاهدٌ: قال. يا ذا الجلالِ والإكرامِ. وقال الزُّهرِيُّ: قال: يا إلَهنا وإلَه كلِّ شيءٍ، إلَهاً واحداً، لا إله إلا أنت، ائتني بعرشها. قال: فتمثل له بين يديه.

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن إسحاق، وزُهَير بن مُحمَّد، وغيرهم: لما دَعَا الله عزَّ وجلَّ، وسأله أن يأتيه بعرش بِلْقِيسَ ـ وكان في اليَمَن، وسُلَيمانُ عليه السلام ببيتِ المقدس ـ غاب السريرُ، وغاص في الأرض، ثم نبع من بين يَدَي سُلَيمان عليه السلام.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وغير واحد، انظر الدر المنثور ٣٥٩/٦ والمغاليق: جمع مِغلاق، وهو ما يُغلق به الباب.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، انظر مفحمات الأقران للسيوطي ١٥٤.
(٣) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. الدر المنثور ٣٥٩/٦.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم يشعر سليمانُ إلا وعرشُها يُحمَلُ بين يَدَيه. قال: وكان هذا الذي جاء به من عُبّاد البحر. فلما عاين سُليمان وملؤه ذلك، ورآه مُستقراً عنده، ﴿ قال هذا من فَضْلِ ربي ﴾، أي: هذا من نعم الله عليَّ ﴿ لِيَبْلُوني ﴾، أي: ليختبرني ﴿ أأشكُر أمْ أكفر ومن شكر فإنما يشكُر لنفسه ﴾، كقوله: ﴿ مَن عَمِلَ صالحاً فلنفسه ومن أساءَ فعليها ﴾، وكقوله: ﴿ ومن عَمِلَ صالحاً فلأنفسهم يمهدُون ﴾.

وقولُه: ﴿ ومن كفر فإن ربي غنيٌّ كريمٌ ﴾، أي: هو غنيٌّ عن العباد وعبادتِهم، ﴿ كريمٌ ﴾، أي: كريمٌ في نفسه، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مُفتقرةً إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿ إن تكفُروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لَغَنيٌّ حَميدٌ ﴾.

وفي صحيح مسلم: «يقولُ الله تعالى: يا عبادي، لو أنَّ أوّلكم وآخركم، وإنسكم وجنّكم، كانوا على اتقى قَلْبِ رَجُلٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً. يا عبادي، لو أنَّ أوّلكم وآخِرَكم، وإنسكم وجنّكم، كانوا على أفجرِ قَلْبِ رَجُلٍ منكم، ما نقص ذلك من مُلكي شيئاً. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أُحصِيها لكم، فمن وَجَد خيراً فلْيَحمَدِ الله، ومن وَجَدَ غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه»(١).

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

لمّا جِيءَ سُليمانُ ـ عليه السلام ـ بعَرش بلْقيسَ قبل قُدومها، أمَر به أن يُغيِّر بعضُ صفاته، ليختبر مَعرفتها وثَباتها عند رؤيته، هل تقدمُ على أنه عرشُها أو أنه ليس به، فقال: ﴿ نكِّرُوا لها عَرْشَها ننظر أتهتدي أم تكونُ من الذين لا يهتدُونَ ﴾. قال ابن عباس: نُزِع عنه فُصُوصُه ومَرَافِقُه. وقال مجاهد: أمَر به فغُيِّر ما كان أحمرَ جُعِل أصفرَ، وما كان أصفرَ جُعِل أحمرَ، وما كان أخضرَ جُعِلَ أحمرَ، غُيِّر كلُّ شيءٍ عن حاله. وقال عِكْرِمَةُ: زادُوا فيه ونَقَصُوا. وقال قتادة: جُعِل أسفلُه أعلاه ومُقَدَّمُهُ مؤخّرَه، وزادوا فيه ونَقَصُوا.

﴿ فلما جاءت قِيل أهكذا عَرشُكِ ﴾، أي: عُرِضَ عليها عرشُها، وقد غُيِّر ونُكِّر، وزِيدَ فيه ونُقِص، وكان فيها ثَباتٌ وعقلٌ، ولها لُبٌ ودَهاءٌ وحَزْمٌ، فلم تقدم على أنه هُو لِبُعدِ مَسافته عنها، ولا أنه غيرُه، لِمَا رأت من آثاره وصِفاتِه، وإن غُيِّر وبُدِّل ونُكِّر، فقالت: ﴿ كأنه هو ﴾، أي: يُشبِهُه ويُقارِبه. وهذا غاية في الذَّكاءِ والحَزْم.

وقولُه: ﴿ وأوتينا العِلْم من قَبْلِها وكنا مُسلِمين ﴾، قال مجاهد: سليمانُ يَقُوله(٢).

وقولُه: ﴿ وصدَّها ما كانت تعبُد من دون الله إنها كانت من قومٍ كافرين ﴾، هذا من تَمام كَلام سُلَيمان عليه السلام، في قول مجاهد، وسعيد بن جُبير ـ رحمهما الله ـ أي: قال سليمان: ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكُنّا

---

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٢٩ من سورة الرعد، ٧ من سورة إبراهيم، وخرّجناه هنالك.

(٢) أي: هذا قول سليمان. وقد أخرج الأثر الفريابي، وابن أبي شيبة، وغير واحد. انظر الدر المنثور ٣٦٢/٦.

مُسلِمِينَ ﴾، وهي كانت قد صَدَّها، أي: مَنَعها من عبادة الله وحده ﴿ ما كانت تعبُد من دون الله إنَّها كانت من قوم كافرين ﴾. وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد حَسَنٌ، وقاله ابنُ جَرير أيضاً[1].

ثم قال ابن جرير: ويَحتمِلُ أن يكون في قوله: ﴿ وصَدَّها ﴾، ضميرٌ يعودُ إلى سُليمان، أو إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تقديره: ومَنَعها ﴿ ما كانت تعبدُ من دونِ الله ﴾، أي: صَدَّها عن عبادةِ غير الله، ﴿ إنَّها كانت من قومٍ كافِرِينَ ﴾.

قلتُ: ويؤيد قولَ مجاهد: أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصَّرْح كما سيأتي.

وقولُه: ﴿ قِيلَ لها ادخُلِي الصَّرْحَ فلما رأته حَسِبته لُجَّةً وكَشَفت عن ساقَيْها ﴾، وذلك أن سُليمان ـ عليه السلام ـ أمر الشياطين فَبَنوا له قصراً عَظيماً من قوارير، أي: من زُجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرفُ أمره يحسَب أنه ماءٌ، ولكن الزجاج يحولُ بين الماشي وبينه. واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان ـ عليه السلام ـ إلى اتِّخاذه، فقيل: إنه لما عَزَم على تزويجها واصطفائها لنفسه؛ ذُكِر له جمالُها وحُسنُها، ولكن في ساقِها هُلْبٌ[2] عَظِيم، ومؤخر أقدامها كمؤخَّر الدابَّة. فساءه ذلك، فاتخذ هذا ليعلَم صحَّته أم لا؟ هذا قول محمد بن كعب القُرَظي، وغيره. فلما دَخَلت وكَشَفت عن ساقيها، رأى أحسنَ الناس ساقاً وأحسنه[3] قدماً، ولكن على رِجلَيها شعرٌ، لأنها مَلِكَةٌ ليس لها بعلٌ، فأحبَّ أن يُذهِبَ ذلك عنها فقيل لها: الموسى؟ فقالت: لا أستطيعُ ذلك. وكَرِه سُليمان ذلك، وقال للجنّ: اصنَعُوا شيئاً غير المُوسَى يَذْهَب به هذا الشعرُ. فصنعوا له النُّورة، فكان أوَّلَ مَن اتُّخِذت له النُّورَةُ[4]، قاله ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، ومُحمَّد بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، والسُّدِّي، وابن جُرَيج، وغيرُهم.

وقال محمد بن إسحاقَ، عن يزيدَ بن رُومَان: ثم قال لها: ادخُلي الصَّرح، لِيُرِيَها مُلْكاً هو أعزُّ من مُلْكِها، وسُلطاناً هو أعظمُ من سُلطانها. فلما رأته حسبته لُجّة وكَشَفت عن ساقيها، لا تشك أنه ماءٌ تخوضه، فقيل لها: إنه صَرْحٌ مُمَرَّد من قوارير. فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله، وعاتبها في عبادتها الشمسَ دُونَ الله.

وقال الحسنُ البصريُّ: لما رَأتِ العِلْجَةُ الصَّرْحَ عَرَفَتْ ـ والله ـ أنْ قد رَأت مُلْكاً أعظَمَ من مُلْكِها.

وقال محمدُ بنُ إسحاقَ، عن بَعضِ أهلِ العلم، عن وَهب بن مُنَبِّه قال: أمر سُلَيمان بالصَّرح، وقد عَمِلته له الشياطينُ من زُجاج، كأنه الماءُ بياضاً. ثم أرسل الماءَ تحتَه، ثم وَضَع له فيه سَرِيرَه، فَجَلس عليه، وعَكَفت عليه الطيرُ والجنُّ والإنسُ، ثم قال: ادخُلي الصَّرح، لِيُرِيَها مُلكاً هو أعزُّ من ملكها، وسُلطاناً هو أعظم من سلطانها، ﴿ فلما رأته حَسِبته لُجَّةً وكَشَفت عن ساقَيها ﴾، لا تشك أنه ماء تخوضه، قيل لها: ﴿ إنه صَرحٌ مُمَرَّد من قوارير ﴾، فلما وَقَفت على سُلَيمانَ، دعاها إلى عبادةِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعاتَبها في عبادتها الشمسَ دون الله، فقالت بقولِ الزنادقة، فوقع سليمان ساجداً إعظاماً لما قالت، وسجد معه الناس، فَسُقِط في يديها حين رأت سُلَيمان صَنَع ما صنع، فلما رفع سُلَيمانُ رأسه قال: ويحكِ! ماذا قلت؟ قالت: وأُنسِيتَ ما قُلتَ؟ فقالت:

---

(١) الطبري ١٩/١٦٨.

(٢) الهُلْبُ: ما غَلُظ وصَلُب من الشَّعر.

(٣) هذا أسلوب عربي، والنحاة يقولون إنه لما كان المعنى: وأحسن شيء قدماً، أفرد الضمير على هذا فقيل: وأحسنه.

(٤) النُّورة: أخلاط من أملاح الكلسيوم والباريوم، تستعمل لإزالة الشعر.

﴿ رَبِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلمتُ مع سُلَيمانَ لله ربِّ العالمينَ ﴾، فأسلمَتْ وحَسُنَ إسلامُها[1].

وقد رَوَى الإمامُ أبو بكر بن أبي شيبةَ في هذا أثراً غَرِيباً عن ابن عباس، قال:

حدثنا الحُسَين بن علي، عن زائدة، حدَّثني عطاء بن السائب، حدثنا مجاهد ونحن في الأَزْدِ، قال: حَدَّثنا ابنُ عباس قال: كان سليمانُ ـ عليه السلامُ ـ يجلس على سَرِيره، ثم تُوضَعُ كراسيٌّ حوله، فيجلِس عليها الإنس، ثم تجلِسُ الجن، ثم الشياطين، ثم تأتي الريح فترفعُهم، ثم تُظِلُّهم الطير، ثم يَغْدُو قَدْرَ ما يشتهي الراكبُ أن يَنْزِلَ شهراً ورواحُهَا شهرٌ، قال: فبينما هو ذات يوم في مسيرٍ له، إذ تَفَقَّدَ الطير، قال: وتَفَقَّد الهُدْهُدَ فقال: ﴿ ما لي لا أرى الهُدْهُدَ أم كان من الغائبين ● لأعذِّبنه عَذاباً شديداً أو لأذبحنَّه أو ليأتيَنِّي بسُلطانٍ مُبِينٍ ﴾، قال: وكان عذابُه إيَّاه أن يَنْتِفَه ثم يُلقِيه في الأرض، فلا يمتنعُ من نَملةٍ ولا مِن شيءٍ من هَوامِّ الأرضِ. ـ قال عطاء: وذُكِرَ سعيد بن جُبَير عن ابن عباس مثلُ حديث مجاهد ـ ﴿ فمكث غيرَ بعيد ﴾، فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿ سننظر أصدقتَ أم كُنتَ من الكَاذِبين ● اذهَبْ بِكِتَابي هَذا ﴾، وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى بلْقِيسَ: ﴿ ألاَّ تَعلُوا عليَّ وائتُوني مُسْلِمِينَ ﴾. فلما ألقى الهدهد هذا الكتابَ إليها أُلقِي في رُوعِهَا: إنه كتابٌ كريم، وإنه من سليمان، وألاَّ تعلوا علي، وائتُوني مُسلِمِينَ. ﴿ قالوا نَحنُ أولوا قُوَّة ﴾، ﴿ قالت إنَّ الملوك إذا دَخلُوا قريةً أفسدوهَا ﴾، ﴿ وإني مُرسِلَةٌ إليهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾. فلما جاءت الهديةُ سليمانَ ﴿ قال أتُمِدُّونَنِ بمالٍ ﴾، ﴿ ارجع إليهم ﴾ فلما نظر إلى الغبار ـ أخبرنا ابن عباس قال: ﴿ وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومَن مَعها حين نظر إلى الغُبار كما بيننا وبين الحِيرَة، قال عطاء: ومجاهد حينئذ في الأزد ـ قال سُلَيمان: ﴿ أيُّكم يأتيني بعَرْشِها ﴾، قال: وبين عرشها وبين سُلَيمان حين نَظَر إلى الغُبَارِ مَسِيرَةُ شهرين، ﴿ قال عِفْرِيتٌ من الجن أنا آتيكَ به قبل أن تَقُومَ من مَقَامِكَ ﴾ ـ قال: وكان لسُليمان مَجْلِسٌ يَجْلِس فيه للناس كما يجلسُ الأمراء ثم يقوم ـ فقال: ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مَقَامِكَ ﴾ ـ قال سُلَيمان: أريد أعجَلَ من ذلك. فقال الذي عنده عِلمٌ من الكتابِ: أنا أنظرُ في كتاب رَبِّي، ثم آتيكَ بِهِ قَبل أن يَرتَدَّ إليك طَرْفُكَ. قال: فنَظر إليهِ سُلَيمانَ فلما قَطَع كَلامَه رَدَّ سُليمان بَصَرَهُ، فنبع عرشُها من تحت قَدَم سليمان، من تَحت كرسيٍّ كان سُلَيمان يَضَع عليه رِجْلَه، ثم يصعَد إلى السرير. قال: فلما رأى سُلَيمان عرشها قال: ﴿ هذا من فَضْلِ رَبِّي ﴾، ﴿ قال نَكِّروا لها عَرْشَها ﴾، فلما جاءت قيل لها: ﴿ أهكذا عرشُك قالت كأنَّه هُوَ ﴾، قال: فسألته حين جاءته عن أمرين، قالت لسليمان: ما ماءٌ من زَبَدٍ رَوَاءٍ، ليس من أرضٍ ولا سَماءٍ؟ وكان سُلَيمان إذا سُئِل عن شيء سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين. قال: فقالت الشياطين: هذا هيِّنٌ، أجْرِ الخيلَ ثم خُذْ عَرَقَها، ثم املأ منه الآنية. قال: فأمر بالخيل فأُجريَت، ثم أخذ عَرَقَها فملأ منه الآنِيَة. قال: وسألت عن لون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قال: فوثَبَ سُلَيمانُ عن سَرِيره، فخَرَّ ساجداً، فقال: يا ربِّ، سألَتني عن أمرٍ إنه ليتكابر في[2] قلبي أن أذكره. قال: ارجع فقد كَفَيتُكَهُم. قال: فرجع إلى سَرِيره فقال: ما سألت عنه؟ قالت: ما سألتُكَ إلا عن الماء. فقال لجنوده: ما سَألتْ عَنه؟ فقالوا: ما سَألتك إلا عن الماء. ونَسُوهُ كلُّهم. قال: وقالتِ الشياطينُ لسُلَيمان: تُريدُ أن تَتَّخِذَها لِنَفسِك، فإنْ اتخذها لنفسه ثم وُلِد بينهما وَلَدٌ، لم تنفَكَّ من عُبُودِيتِه. قال: فجعلوا صَرْحاً مُمرَّداً من قَوارِيرَ، فيه السمك، قال: فقيل لها: ادخلي الصرح. فلما رأته حَسِبته لُجَّةً، وكَشَفت عن ساقيها، فإذا هي شَعْرَاءُ. فقال سليمان: هذا قبيحٌ، ما يُذْهِبه؟ فقالوا. تُذْهِبه المَوَاسي. فقال: أثَرُ المُوسَى. قبيحٌ! قال: فجعَلتِ الشياطينُ النُّورَة. قال: فهو أول من جُعِلت له النُّورةُ[3].

(١) أخرجه الطبري ١٩/١٦٨.

(٢) في نسخة: يتكابد. والمثبت من نسخة الحرم.

(٣) أخرجه أيضاً عبد بن حُميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. انظر الدرّ المنثور ٦/٣٦٣ ـ ٣٦٧.

ثم قال أبو بكر بن أبي شَيبَةَ: ما أحسنَه من حديث!

قلت: بل هو مُنكَرٌ غريبٌ جداً، ولعله من أوهام عطاء بن السائب، على ابن عباس، والله أعلم. والأقربُ في مثل هذه السياقات أنها مُتلَقَّاة عن أهل الكتاب، مما يُوجَدُ في صُحُفِهم، كروايات كعْبٍ ووَهْبٍ ـ سامحهما الله تعالى ـ فيما نَقَلا إلى هذه الأمة من أخبار بَنِي إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يَكُن، ومما حُرِّف وبُدِّل ونُسِخ. وقد أغنانا الله ـ سبحانه ـ عن ذلك بما هو أصحُّ منه وأنفعُ وأوضَحُ وأبلغُ، ولله الحمدُ والمنّةُ.

أصلُ الصَّرحِ في كَلَامِ العَرَبِ هو القَصْرُ، وكلُّ بناءٍ مُرتفعٍ، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ إخباراً عن فرعون ـ لعنه الله ـ أنه قال لوزيره هامانَ: ﴿ابنِ لي صَرْحاً لعلي أبلغُ الأسباب • أسبابَ السَّموات فأطلع إلى إله موسى﴾ . . . الآية. والصَّرْحُ: قَصْرٌ في اليَمَن عالي البناء، والمُمَرَّدُ أي: المَبْنيُّ بناءً مُحكَماً أملسَ ﴿من قواريرَ﴾، أي: زُجاجٍ. وتَمريدُ البناءِ تَمْليسُه. ومارِدُ: حِصنٌ بدُوْمَةِ الجَندلِ.

والغَرَض أن سُلَيمانَ عليه السلام اتخذ قصراً عَظيماً مُنيفاً من زُجاجٍ لهذه المَلِكة، ليُريها عظمة سُلطانِه وتَمكُّنِه، فلما رأت ما آتاه الله ـ تعالى ـ وجلالَةَ ما هُو فيه، وتبَصَّرت في أمره انقادت لأمر الله وعرفت أنه نبيٌّ كَريمٌ، ومَلِكٌ عظيمٌ، فأسلمت لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقالت: ﴿رَبِّ إنِّي ظلمتُ نفسي﴾، أي: بما سلف من كفرها وشِركها وعبادتها وقومَها للشمس من دونِ الله، ﴿وأسلمتُ مع سُلَيمان لله ربِّ العالمين﴾، أي: مُتابِعةً لدين سُلَيمان في عبادَتِه لله وحدَه، لا شريكَ له، الذي خلَق كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يُخبِرُ تعالى عن ثَمُودَ وما كان أمرُها مع نَبِيِّها صالحٍ عليه السلامُ، حين بَعَثه الله إليهم، فدَعاهم إلى عبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، ﴿فإذا هُم فريقان يَختَصِمُون﴾. قال مجاهد: مُؤمِنٌ وكافِرٌ، كقوله تعالى: ﴿قال الملأُ الذين استكبَرُوا من قومه للذين استضعِفُوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أُرسل به مؤمنون • قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾.

﴿قال يا قومِ لم تستعجِلُونَ بالسيِّئةِ قبل الحَسَنةِ﴾، أي: لم تَدْعُون بحضور العذاب، ولا تطلُبُون من الله رحمَتَه؟! ولهذا قال: ﴿لولا تستغفِرُون الله لعلَّكم تُرحَمُون • قالوا اطَّيَّرنا بكَ وبمن مَعَكَ﴾، أي: ما رأينا على وَجْهِك ووُجُوهِ من اتَّبعَك خيراً. وذلك أنهم ـ لِشقائِهم ـ كان لا يُصِيب أحداً منهم سوءٌ إلا قال: هذا من قِبَلِ صالحٍ وأصحابِه.

قال مجاهد: تشاءَمُوا بهم. وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فِرْعَون: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله﴾. وقال تعالى: ﴿وإن تُصِبهم حسنةٌ يقولوا هذه من عند الله وإن تُصِبهم سيِّئةٌ يقولوا هذه من عندِكَ قُلْ كُلٌّ من عندِ الله﴾، أي: بقَدَرِ الله وقضائه. وقال مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قالوا إنا تَطَيَّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجُمنَّكم وليَمسَّنَّكم ما

عذابٌ أليم * قالوا طائرُكم معكم﴾. وقال هؤلاء: ﴿اطَّيرنا بك وبمن معك قال طائرُكم عند الله﴾، أي: الله يُجازيكم على ذلك ﴿بل أنتم قومٌ تُفتنون﴾، قال قتادة: تُبتَلون بالطاعةِ والمَعْصيةِ.

والظاهِر أنَّ المُراد بقوله: ﴿تُفتَنونَ﴾، أي: تُستَدرجُونَ فيما أنتُم فيه من الضَّلال.

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يخبر تعالى عن طُغاةِ ثَمودَ ورُءُوسِهم، الذين كانُوا دعاةَ قومِهم إلى الضَّلالةِ والكُفرِ وتكذيبِ صالحٍ، وآلَ بهم الحالُ إلى أنهم عَقَروا الناقةَ، وهمُّوا بقتلِ صالحٍ أيضاً، بأن يُبيِّتوه في أهلِهِ ليلاً فيقتلُوه غِيلَةً، ثم يقولوا لأوليائه من أقرَبيه: إنهم ما عَلِموا بشيءٍ من أمره، وإنهم لصادقُون فيما أخبروهم، من أنهم لم يُشاهِدُوا ذلك.

فقال تعالى: ﴿وكان في المدينةِ﴾، أي: مدينةِ ثمودَ ﴿تسعةُ رَهْطٍ﴾، أي: تسعةُ نَفَرٍ، ﴿يُفسِدون في الأرض ولا يُصلِحُونَ﴾، وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمودَ، لأنهم كانوا كُبَراءَ فيهم ورؤَساءَهم.

قال العَوفي، عن ابنِ عباس: هؤلاء هم الذين عَقَرُوا الناقةَ[1]. أي: الذين صَدَرَ ذلك عن آرائِهم ومَشُورتِهم. قبَّحَهُم الله ولَعَنَهم، وقد فَعَلَ ذلك.

وقال السُّدِّي، عن أبي مالك، عن ابنِ عباس: كان أسماءُ هؤلاء التسعة: زعمى، وزعيم، وهرم، وهريم، وداب، وصواب، ورياب، وسطيع، وقُدار بن سالف عاقر النَّاقة[2]. أي: الذي باشَرَ ذلك بيدِه. قال الله تعالى: ﴿فنادَوا صاحبَهم فتعاطى فعقر﴾، وقال تعالى: ﴿إذ انبعَثَ أشقاها﴾.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا يَحْيَى بن ربيعةَ الصَّنْعاني، سَمِعتُ عطاءً ـ هو ابن أبي رَباح ـ يقول: ﴿وكان في المدينة تسعةُ رَهْطٍ يُفسِدون في الأرض ولا يُصلِحُون﴾، قال: كانوا يَقرِضُون الدراهم[3]، يعني أنهم كانوا يأخذون منها، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً، كما كان العربُ يَتعامَلُون.

وقال الإمامُ مالكٌ، عن يحيى بن سَعيد، عن سَعِيد بن المُسَيَّب أنه قال: قَطْعُ الذَّهَبِ والوَرِقِ من الفساد في الأرض[4].

وفي الحديثِ الذي رَواه أبو داودَ وغيرُه: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ نَهَى عن كَسْرِ سِكَّةِ المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأْسٍ[5].

---

(١) الطبري ١٩/١٧٢، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/٣٧٠

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، الدرّ المنثور ٦/٣٧٠، ومصحفات الأقران ١٥٥ وفي بعض هذه الأسماء اختلاف وأثبتنا ما في نسخة الحرم، هذا وانظر تفسير القرطبي ١٣/٢١٥ ـ ٢١٦

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، عن الإمام عبد الرزاق في تفسيره. كما أخرجه عبد بن حميد. انظر الدر المنثور ٦/ ٣٧٠

(٤) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب البيوع ٢/٦٣٥

(٥) أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسنادهما إلى عبد الله بن عمرو المزني، سنن أبي داود، كتاب البيوع ٣/٢٧١ ـ ٢٧٢، وابن ماجه، كتاب =

والغرضُ أن هؤلاءِ الكفرة الفسَقَة كان من صفاتِهم الإفسادُ في الأرضِ بكلِّ طريقٍ يقدِرُون عليها، فمنها ما ذكره هؤلاءِ الأئمةُ وغير ذلك.

وقولُه: ﴿ قالوا تقاسَمُوا باللهِ لنُبيِّتَنَّه وأهلَه ﴾، أي: تحالفُوا وتبايَعُوا على قتلِ نبيِّ الله صالح - عليه السلام - فكادَهُم الله، وجعَلَ الدائرةَ عليهم.

قال مجاهد: تقاسَمُوا وتحالفُوا على هلاكِه، فلم يَصِلُوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين.

وقال قتادةُ: توافقُوا على أن يأخذُوه ليلاً فيقتُلُوه. وذُكِر لنا أنهم بينما هم مَعانِيقُ إلى صالحٍ ليفتكوا به، إذ بَعَث اللهُ عَلَيهِم صَخرةً فأهمدَتْهُم[1].

وقال العَوفي، عن ابن عباس: هم الذين عَقَرُوا الناقةَ، قالوا حين عقروها: نُبيِّتُ صالحاً وأهله فنقتُلُهم، ثم نقولُ لأولياءِ صالحٍ: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به عِلْمٌ. فدَمَّرَهُم الله أجمعين[2].

وقال محمدُ بن إسحاق: قال هؤلاءِ التسعةُ بعد ما عَقَرُوا الناقة: هَلُمَّ فلنقتُلْ صالحاً، فإن كان صادقاً عَجَّلناه قبلنا، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته! فأتوه ليلاً لِيُبيِّتوه في أهله، فدَمَغَتْهُم الملائكةُ بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم، أتوا منزلَ صالحٍ، فوجدُوهم مُنشَدِخين قد رُضِخُوا[3] بالحجارة فقالوا لصالحٍ: أنت قتلتهم، ثم هَمُّوا به، فقامت عشيرتُه دونه، ولَبِسُوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلُونه أبداً، وقد وعدكُم أن العذاب نازلٌ بكم في ثلاثٍ، فإن كان صادقاً فلا تزيدُوا ربكم عليكم غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تُريدُون. فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك[4].

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم[5]: لما عَقَرُوا الناقةَ وقال لهم صالحٌ: ﴿ تمتَّعُوا في داركم ثلاثةَ أيامٍ ذلك وعدٌ غيرُ مكذُوبٍ ﴾، قالوا: زَعَم صالحٌ أنه يَفْرُغُ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نَفْرُغُ منه وأهلِه قبل ثلاثٍ. وكان لصالحٍ مسجدٌ في الحِجْرِ عند شِعْبٍ هناك يُصَلِّي فيه، فخرجُوا إلى كَهْفٍ، أي: غارٍ هناك ليلاً، فقالوا: إذا جاء يُصَلِّي قتلناه ثُمَّ رَجَعنا إذا فَرَغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم. فبعث الله صخرة من الهِضَبِ[6] حِيالهم، فخشُوا أن تَشْدَخهم فتبادَرُوا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يَدْرِي قومهم أين هم، ولا يدرُون ما فُعِل بقومهم. فعذَّبَ الله هؤلاءِ هاهنا، وهؤلاءِ هاهنا، وأنجى الله صالحاً ومن معه، ثم قرأ: ﴿ ومكَرُوا مَكْراً ومكرنا مكراً وهُم لا يشعرُون * فانظُر كيفَ كان عاقبةُ مَكْرِهم أنا دَمَّرناهم وقومَهم أجمعين * فتلك بيوتُهم خاويةً ﴾، أي: فارغةً ليس فيها أحدٌ ﴿ بما ظَلَمُوا إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يعلَمُونَ * وأنجينا الذين آمَنُوا وكانوا يتَّقون ﴾.

= التجارات ٢/٧٦١.

والمراد بِسِكَّة المسلمين: الدراهم والدنانير المضروبة، فيسمى كلُّ واحد منهما سكة، لأنه طُبِع بالحديدة واسمها السِّكَّة. ومعنى (إلا من بأس)، أي: إلا من أمرٍ يقتضي كسرها، كرداءتها أو شكٍّ في صحة نقدها

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، والطبري ١٩/١٧٤. ومعانيقُ: مُسرعون.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/١٧٧، وابن أبي حاتم في تفسيره. وانظر الدر المنثور ٦/٣٧٠ وبَيَّتُ العَدُوَّ: قَصَدَه ليلاً من غير أن يعلم، فيؤخذ بَغتةً.

(٣) أي: شُدِخوا.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عند تفسير هذه الآية، والطبري ١٩/١٧٣.

(٥) كذا في النسخ، وهو قول عبد الرحمن بن زيد كما في تفسير ابن أبي حاتم، والطبري ١٩/١٧٣ - ١٧٤

(٦) الهِضَبُ - بكسر ففتح -: جمع هَضْبَة، وهي الرابيةُ، والجبلُ المنبسط المستدُّ على وجه الأرض

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن عبده لوطٍ ـ عليه السلامُ ـ أنه أنذر قومه نِقْمَةَ الله بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحدٌ من بني آدم، وهي إتيانُ الذُّكورِ دونَ الإناثِ، وذلك فاحشةٌ عظيمةٌ، استغنى الرجالُ بالرجال، والنساءُ بالنساءِ، قال: ﴿ أتأتون الفاحِشَةَ وأنتم تُبصِرُون ﴾، أي: يَرَى بعضُكم بعضاً، وتأتون في ناديكم المنكرا؟ ﴿ أئنكم لتأتُون الرجالَ شَهوةً من دون النساءِ بل أنتُم قومٌ تجهَلُونَ ﴾، أي. لا تعرفُون شيئاً لا طَبْعاً ولا شَرْعاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أتأتون الذُّكْران من العالَمين * وتَذَرُون ما خلَق لَكُم ربُّكم من أزْواجِكُم بل أنتم قومٌ عادُون﴾. ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوطٍ من قريتكم إنهم أناس يَتطهرون﴾، أي يتحرّجون من فِعل ما تَفعَلُونه، ومن إقراركم على صَنيعِكم، فأخرجُوهم من بين أظهُرِكم فإنهم لا يَصلُحُون لمجاورَتِكم في بلادِكم. فعزمُوا على ذلك، فَدَمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالُها، قال الله تعالى: ﴿ فأنجيناه وأهلَه إلا امرأته قدرناها من الغابرين﴾، أي: من الهالِكينَ مع قومها، لأنها كانت رِدْءاً لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تَدُلّ قومها على ضِيفانِ لوطٍ، ليأتُوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفاحشة، تكرِمَةً لنبيِّ الله ـ ﷺ ـ لا كَرامةً لها.

وقولُه: ﴿وأمطرنا عليهم مَطَراً﴾، أي: ﴿حجارةً من سِجِّيلٍ منضُودٍ * مُسَوَّمةً عند ربِّك وما هِيَ من الظالمين ببعيدٍ ﴾، ولهذا قال: ﴿ فساء مطرُ المُنذَرين ﴾، أي: الذين قامت عليهم الحجَّةُ، ووصلَ إليهم الإنذارُ، فخالفوا الرسولَ وكذَّبوه، وهَمُّوا بإخراجِهِ من بينهم.

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه ـ ﷺ ـ أن يقول: ﴿الحمدُ لله﴾، أي: على نِعَمِه على عباده، من النِّعم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، وعلى ما اتَّصف به من الصِّفات العُلَى والأسماء الحُسنَى، وأن يُسَلِّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارَهم، وهم رسلُه وأنبياؤه الكرام ـ عليهم من الله الصلاةُ والسلامُ ـ هكذا قال عبدُ الرحمن بن زَيدِ بن أسلَم، وغيرُه، إنَّ المرادَ بعبادِه الَّذين اصطَفى هم الأنبياءُ، قال: وهو كقولِه تعالى: ﴿ سُبحانَ رَبِّكَ ربِّ العِزَّةِ عما يَصِفُون * وسلامٌ على المُرسَلين * والحمدُ لله ربِّ العالَمين ﴾[1].

وقال الثَّورِيُّ: والسُّدِّيُّ: هم أصحابُ مُحمَّدٍ ـ ﷺ ـ ورَضِي عنهم أجمَعِين. ورُوِي نحوُه عن ابن عباس[2].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٢) أخرجه أيضاً ابن أبي حاتم، والطبري ٢٠/٢.

ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى. والقصدُ أنّ الله تعالى أمَر رسولَه ومن اتّبعه بعد ما ذكر لهم ما فَعَل بأوليائه من النّجاةِ والنصر والتأييد، وما أحلّ بأعدائه من الخِزْي والنّكالِ والقهرِ، أن يَحمَدُوهُ على جميع أفعاله، وأن يُسلِّموا على عبادِه المُصطَفَين الأخيار.

وقد قال أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عُمارة بن صَبيح، حدثنا بن غنّام، حدثنا الحكم بن ظَهير، عن السُّدِّي ـ إن شاء الله ـ عن أبي مالكٍ، عن ابن عباس: ﴿ وسلامٌ على عبادِه الذين اصطفى ﴾، قال: هم أصحابُ مُحمّدٍ ـ ﷺ ـ اصطفاهم الله لِنبيِّه، رَضِي الله عنهم[1].

وقولُه: ﴿ ءآلله خيرٌ أم ما يُشرِكُونَ ﴾، استفهامُ إنكارٍ على المشركين في عبادتهم مع الله آلهةً أُخرَى، ثم شَرَع تعالى يبين أنه المُتفرِّدُ بالخَلْقِ والرِّزقِ والتدبير دونَ غيره، فقال: ﴿ أمّن خَلَق السموات والأرض ﴾ أي: تلك السمواتِ بارتفاعها وصَفَائها. وما جعل فيها من الكواكب النيِّرة والنجوم الزّاهرة والأفلاك الدائرة، والأرض باستفالها وكَثافتِها، وما جعل فيها من الجبالِ والأوعارِ والسُّهُول، والفيافي والقِفَار، والأشجار، والزُّروعِ، والثِّمارِ والبِحَارِ والحيوان، على اختلاف الأصنافِ والأشكالِ والألوان وغير ذلك.

وقولُه: ﴿ وأنزل لكم من السماء ماءً ﴾، أي: جَعله رِزْقاً للعباد، ﴿ فأنبتنا به حَدائِقَ ﴾، أي: بساتين ﴿ ذاتَ بَهْجَةٍ ﴾، أي: مَنظرٍ حَسَنٍ وشكل بَهِيٍّ، ﴿ ما كان لكم أن تُنبِتُوا شَجرها ﴾، أي: لم تكونوا تقدِرون على إنباتِ شَجَرِها. وإنما يَقدِر على ذلك الخالقُ الرازقُ، المستقلُّ بذلك المُتفرِّد به، دُونَ ما سِواه من الأصنام والأندادِ، كما يعترف بِهِ هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآيةِ الأخرَى: ﴿ ولئن سألتهم مَن خلقهم ليقولُنَّ الله ﴾، ﴿ ولئن سألتهم من نَزّل من السماء ماء فأحيا به الأرضَ من بعد موتها ليقولُنَّ الله ﴾، أي: هم مُعترِفُون بأنه الفاعلُ لجميع ذلك وحدَه لا شريكَ له، ثم هم يعبدُون معه غيرَه مما يعترفون أنه لا يخلُق ولا يرزُق، وإنما يَستحِقُّ أن يُفرَدَ بالعبادة مَن هو المُتفرِّد بالخَلْقِ والرِّزْقِ، ولهذا قال: ﴿ أإله مع الله ﴾، أي: أإلهٌ مَعَ الله يُعبَدُ وقد تَبيّن لكُم ولكلِّ ذي لُبٍّ مما يَعرِفُون به أيضاً أنه الخالق الرزاق؟!

ومِن المفسرين من يقول معنى قوله: ﴿ أإلهٌ مَعَ الله ﴾ فَعَل هذا؟ وهو يَرجِعُ إلى معنى الأوّل، لأنّ تقديرَ الجوابِ أنّهم يقولُون: ليس ثَمَّ أحدٌ فَعَل هذا مَعَه، بل هُوَ المُتفرِّد به. فيقال: فكيف تَعبُدون معه غيره وهو المستقِلُّ المُتفرِّدُ بالخَلْقِ والتّدبير؟ كما قال: ﴿ أفمن يخلُق كَمَن لا يخلُق ﴾.

وقولُه هاهنا: ﴿ أمّن خلقَ السمواتِ والأرضَ ﴾، ﴿ أمّن ﴾ في هذه الآياتِ كُلِّها تقديرُه: أمَّنْ يفعلُ هذه الأشياء كمن لا يَقدِرُ على شيءٍ منها؟ هذا مَعنَى السِّياقِ وإن لم يذكر الآخَرُ، لأنّ في قوّة الكلام ما يُرشِدُ إلى ذلك، وقد قال: ﴿ ءآلله خيرٌ أم ما يُشرِكون ﴾.

ثم قال في آخر الآية: ﴿بل هُم قوم يَعدِلون﴾، أي: يجعلون لله عِدلاً ونظيراً. وهكذا قال تعالى: ﴿ أمّن هُوَ قانتٌ آناءَ الليل ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرة ويَرجُو رحمةَ ربِّه ﴾، أي: أمَّن هُوَ هكذا كَمَن ليس كذلك؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هل يَستَوِي الذين يَعلَمون والذين لا يعلَمون إنما يَتذكّر أولوا الألباب﴾، ﴿أفمن شرَح الله صدره للإسلامِ فهو على نُورٍ من ربِّه فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهم من ذِكر الله أولئكَ في ضلالٍ مبين ﴾، وقال: ﴿ أمّن هُوَ قائمٌ على كُلِّ نفسٍ بما كَسَبت ﴾، أي: أمَّنْ هو شَهيدٌ على أفعالِ الخَلْقِ، حَرَكاتِهم وسَكَناتِهم، يعلَمُ الغيبَ جَليله

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٦٢/٣ وقال الهيثمي ٨٧/٧ «رواه البزار، وفيه الحكم بن ظهير، وهو متروك».

وحَقِيره، كمن هو لا يَعْلَم ولا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ مِن هَذِه الأصنامِ التي عبدوها؟ ولهذا قال ﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهم﴾، وهكذا هذه الآياتُ الكريماتُ كلُّها.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول: ﴿أَمَّن جَعَل الأرضَ قَرَاراً﴾، أي: قارَّة ساكنةً ثابتةً، لا تَميدُ ولا تتحرك بأهلها ولا تَرْجُفُ بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيشُ والحياةُ، بل جَعَلها من فَضْله ورَحْمَتِه مِهاداً بِساطاً ثابتةً لا تتزلزلُ ولا تتحرَّك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿الله الذي جَعَل لكم الأرضَ قَراراً والسماءَ بناءً﴾.

﴿وجَعَل خلالها أنهاراً﴾، أي: جَعَل فيها الأنهار العَذْبَةَ الطَيِّبَةَ تَشقُّها في خِلالها، وصَرَّفها فيها، ما بين أنهارٍ كبارٍ وصِغارٍ، وبين ذلك، وسَيَّرها شَرْقاً وغرباً وجَنُوباً وشَمالاً، بِحَسَبِ مصالحِ عبادِه في أقاليمهم وأقطارهم حيثُ ذَرَأهم في أرجاءِ الأرض سَيَّر لهم أرزاقَهم بحسَبِ ما يحتاجُون إليه، ﴿وجَعَل لها رَوَاسِيَ﴾، أي: جبالاً شامخةً تُرْسِي الأرضَ وتُثَبِّتها لئلا تميدَ بكم، ﴿وجَعَل بين البحرَين حاجِزاً﴾، أي: جَعَل بين المياه العذبةِ والمالحةِ حاجِزاً، أي: مانعاً يمنَعُها من الاختلاط، لئلا يفسُدَ هذا بهذا وهذا بهذا، فإنَّ الحكمة الإلَهيّة تقتضي بقاءَ كلٍّ منهما على صِفَتِه المقصُودةِ منه، فإن البحر الحُلْوَ هو هذه الأنهار السارِحَةُ الجارِيَةُ بين الناس، والمقصودُ منها أن تكون عَذْبةً زُلالاً تسقي الحيوانَ والنباتَ والثِّمارَ منها. والبحارُ المالحة هي المحيطةُ بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها أن يكون ماؤُها ملحاً أُجاجاً، لئلا يفسُدَ الهواء بريحها، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي مَرَج البحرين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا ملحٌ أجاجٌ وجَعَل بينهما بَرْزَخاً وحِجْراً مَحجُوراً﴾، ولهذا قال: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ الله﴾، أي: فَعَل هذا؟ أو يُعبدُ على القَوْلِ الآخرِ، وكلاهما مُتلازِمٌ صَحيحٌ، ﴿بل أكثرُهم لا يعلَمون﴾، أي: في عِبادَتِهم غيرَه.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يُنَبِّه تعالى أنه هو المدعُوُّ عند الشدائد، المرجُوُّ عند النَّوازِل، كما قال: ﴿وإذا مَسَّكُم الضرُّ في البحر ضَلَّ من تدعُونَ إلا إيَّاه﴾، وقال تعالى: ﴿ثم إذا مَسَّكم الضرُّ فإليه تَجأَرُون﴾. وهكذا قال هاهنا: ﴿أَمَّن يُجيبُ المُضطَرَّ إذا دَعَاه﴾، أي: مَن هو الذي لا يَلْجأ المُضطَرُّ إلا إليه، والذي لا يَكشِفُ ضُرَّ المضرُورِين سِوَاه.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفَّان، حدثنا وهَيْب، حدثنا خالد الحَذَّاء، عن أبي تَميمةَ الهُجَيمي، عن رَجُل من بَلْهُجَيم قال: قلتُ: يا رسولَ الله، إلامَ تدعُو؟ قال: أدعُو إلى الله وحدَه، الذي إن مَسَّك ضُرٌّ فدعوتَه كَشَفَ عنك، والذي إن أضلَلْتَ بأرضٍ[1] قَفْرٍ فدعوتَه رَدَّ عليك، والذي إن أصابتك سَنَةٌ[2] فدعوتَه أنبت لك. قال: قلتُ: أوصِني. قال: لا تَسُبَّنَّ أحداً، ولا تَزْهدَنَّ في المعروفِ، ولو أن تلقَى أخاكَ وأنت مُنبَسِطٌ إليه

(١) أي: فقدتَ شيئاً بأرض.
(٢) أي: جَدْبٌ وقحط.

وجهَكَ، ولو أن تُفرِغَ من دَلْوِكَ في إناءِ المُستَقِي، واتَّزِر إلى نصفِ الساق، فإن أبيتَ فإلى الكعبين. وإيَّاكَ وإسبالَ الإزارِ فإنَّ إسبالَ الإزارِ من المَخِيلة، وإن الله لا يحب المَخِيلةَ[1].

وقد رواه الإمامُ أحمدُ من وجه آخرَ، فذكر اسمَ الصَّحابيِّ فقال:

حدثنا عفَّان، حدثنا حمَّاد بنُ سَلَمَةَ، حدثنا يونس ـ هو ابنُ عُبَيد ـ حدثنا عَبِيدةُ الهُجَيميُّ، عن أبيه[2] عن أبي تَمِيمَةَ الهُجَيمي، عن جابر بن سُلَيم الهُجَيميِّ[3] قال: أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وهو مُحتَبٍ[4] بشَمْلَة، وقد وقع هُدْبها على قَدَميه، فقلت: أيُّكم مُحمَّدٌ؟ ـ أو: رسول الله؟ ـ فأومأ بيَدِه إلى نفسه، فقلتُ يا رسولَ الله، أنا من أهلِ البادية، وفيَّ جَفاؤهم، فأوصِني. فقال: لا تحقِرَنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تلْقَى أخاكَ ووَجهُكَ مُنبسِطٌ، ولو أن تُفرِغَ من دَلْوِكَ في إناءِ المُستقِي، وإنِ امرؤٌ شتَمَكَ بما يعلَمُ فيك فلا تَعَلَم فيه، فإنه يكونُ لكَ أجرُه وعليه وِزْرُه، وإيَّاكَ وإسبالَ الإزارِ فإنَّ إسبالَ الإزارِ من المَخِيلَةِ، وإن الله لا يُحِبُّ المَخِيلَةَ، ولا تَسُبَّنَّ أحداً. قال: فما سَبَبْتُ بَعْدَه أحداً، ولا شاةً ولا بَعيراً[5].

وقد رَوَى أبو داود والنسائيُّ لهذا الحديثِ طُرُقاً، وعندهما طَرَفٌ صالحٌ منه[6].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هَاشِم، حدثنا عَبْدَةُ بن نُوح، عن عُمَر بن الحَجَّاج، عن عُبَيد الله بن أبي صالح قال: دَخَل عليَّ طاوسٌ يعودُني، فقلت له: ادعُ الله لي يا أبا عبد الرَّحمٰن. فقال: ادعُ لنفسِكَ، فإنه يُجيبُ المُضطَرَّ إذا دَعاه.

وقال وَهبُ بن مُنَبِّهٍ: قرأتُ في الكِتَاب الأوَّل: إنَّ الله يقولُ: بعزتي إنَّه من اعتصَمَ بي فإن كادته السموات ومن فيهن، والأرضُ بمن فيها، فإنِّي أجعَلُ له من بين ذلك مخرَجاً. ومن لم يَعتصِم بي فإني أخسِفُ به من تحت قَدَمَيه الأرضَ، فأجعله في الهواء، فأَكِله إلى نَفْسِه[7].

وذكر الحافظ ابنُ عساكر في ترجمة رَجُل ـ حَكَى عنه أبو بكر محمدُ بنُ داود الدِّينَوَرِيِّ[8]، المعروفُ بالدُّقِّيِّ الصُّوفي ـ قال هذا الرجلُ: كنتُ أُكاري على بَغْلٍ لي من دِمَشْقَ إلى بلدِ الزَّبَدَاني[9]، فركب معي ذاتَ مَرَّةٍ رجلٌ، فمَرَرْنا على بَعْضِ الطريق، على طريقٍ غيرِ مَسلُوكةٍ، فقال لي: خُذ في هذه، فإنها أقربُ. فقلت: لا خِبْرَةَ لي فيها. فقال: بل هي أقربُ. فسلكناها فانتهينا إلى مكانٍ وَعْرٍ ووادٍ عميقٍ، وفيه قَتْلَى كثيرٌ. فقال لي: أمسِك رَأْسَ البَغْلِ حتى أنزِلَ. فنَزَلَ وتَشمَّر، وجمع عليه ثيابَه، وسلَّ سكِّيناً معه وقصَدني، ففررت من بين يَدَيه وتَبِعَني، فناشدتُه الله وقلتُ: خُذِ البَغْلَ بما عليه. فقال: هُو لي، وإنما أُريدُ قتلَك. فخوَّفتُه الله والعقوبةَ فلم يَقْبَلْ، فاستسلمتُ بين يَدَيه وقلت: إن رأيت أن تترُكَني حتى أُصَلِّيَ ركعتين؟ فقال: وعَجِّل. فقمتُ أُصلِّي

---

(١) مسند أحمد ٥/ ٦٤.

(٢) كذا في النسخ: «عَبِيدة الهُجَيمي، عن أبيه، عن أبي تميمة». وليس في المسند «عن أبيه».

(٣) سقط من المسند: «عن جابر بن سُلَيم الهُجَيمي».

(٤) الاحتباء: أن يَضُمَّ الإنسان رِجْلَيه إلى بطنه بثوبٍ، يجمعهما به مع ظهره، ويشدّه عليها. والهُدْبُ ـ بضَمٍّ فسكون ـ: فُضُول الثَّوب.

(٥) مسند أحمد ٥/ ٦٣ ـ ٦٤.

(٦) سنن أبي داود، كتاب اللباس ٤/ ٥٦ ـ ٥٨، وأخرجه النسائي في كتاب الزينة، ذكر في تحفة الأشراف ٢/ ١٤٥ «ولعلّه في الكبرى» يعني السُّنَن الكبرى للنسائي.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عند هذه الآية.

(٨) من كبار الصوفية، وكان أحد حفّاظ القرآن. له ترجمةٌ في الأنساب للسَّمعاني. توفي بدمشق سنة ٣٦٠ هـ.

(٩) الزَّبَدَاني: كورة مشهورة بين دمشق وبعلبك.

فارْتَجَ(١) عليّ القرآنُ فلم يَحضُرني منه حرفٌ واحدٌ، فَبَقيتُ واقفاً مُتحيِّرا وهو يقولُ: هِيه. افرُغ. فأجرى الله على لساني قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾، فإذا أنا بفارسٍ قد أقبلَ من فم الوادي، وبيَدِه حَرْبَةٌ، فَرَمى بها الرجلَ فما أخطأت فُؤادَه، فَخَرَّ صريعاً، فتعلَّقتُ بالفارس وقلت: بالله من أنت؟ فقال: أنا رسولُ الذي يُجيبُ المُضطرَّ إذا دَعَاه ويكشِفُ السُّوءَ. قال: فأخذتُ البَغْلَ والحِمْلَ ورجعتُ سالماً.

وذُكر في تَرجمة «فاطمةَ بنتِ الحسن أمِّ أحمدَ العِجْليَّة»، قالت: هَزَم الكُفَّارُ يوماً المسلمين في غَزاةٍ، فوقف جَوادٌ جَيِّدٌ بصاحبه، وكان من ذوي اليسار ومن الصُّلَحاء، فقال للجواد: ما لَكَ؟ وَيْلكَ! إنما كنتُ أُعِدُّكَ لمثل هذا اليوم. فقال له الجوادُ: وما لي لا أُقصِّر وأنت تَكِلُ عَلُوفَتي(٢) إلى السُّوَّاس فَيَظلِمُونني ولا يُطعِمُونني إلا القليل؟ فقال: لَكَ عليَّ عهد الله أني لا أعلِفُكَ بعد هذا اليوم إلا في حِجْري. فجرى الجوادُ عند ذلك، ونَجَّى صاحبَه، وكان لا يعلِفُه بعد ذلك إلا في حِجْره. واشتهر أمرُه بين الناس، وجعلوا يقصِدونه ليسمَعُوا منه ذلك، وبَلَغ ملكَ الروم أمرُه، فقال: ما تُضَام بلدةٌ يكون هذا الرجُل فيها. واحتال لِيُحصِّله في بلده، فبعث إليه رَجُلاً من المُرتدِّين عنده، فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حَسُنت نِيَّتُهُ في الإسلام وقَوْمِه، حتى استوثق، ثم خرجا يوماً يمشيان على جَنْب الساحل، وقد واعَدَ شخصاً آخر من جِهَة ملك الروم لِيَتَساعدا على أَسْره، فلما اكتنفاه ليأخذاه رَفَع طَرْفَه إلى السماء وقال: اللهُمّ، إنه إنما خَدَعني بك فاكفنيهما بما شِئْتَ. قال: فخرج سبعانِ إليهما فأَخَذاهما، ورَجَع الرجُل سالماً.

وقولُه تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾، أي: يُخْلِفُ قرناً لِقَرنٍ قبلهم وخَلَفاً لِسَلَفٍ، كما قال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾، أي: قوماً يخلف بعضُهم بعضاً كما قدّمنا تقريره(٣). وهكذا هذه الآية: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أي: أُمَّةً بعد أُمَّةٍ، وجيلاً بعد جيلٍ، وقوماً بعد قوم. ولو شاء لأوجَدَهم كُلَّهم في وقتٍ واحدٍ، ولم يجعلْ بعضَهم من ذُرِّيَّة بَعْضٍ، بل لو شاء لَخَلَقَهم كُلَّهم أجمعين كما خَلَقَ آدم من تُراب. ولو شاء أن يَجعلَهم من ذُرِّيَّةِ بعضهم بَعْضاً، ولكن لا يُميتُ أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقتٍ واحدٍ، فكانت تضيقُ عليهم الأرضُ، وتَضيق عليهم مَعايِشُهم وأكسابُهم، ويتضرَّرُ بعضُهم ببعضٍ. ولكن اقتضت حكمتُه وقدرتُه أن يخلُقَهم من نفسٍ واحدةٍ، ثم يُكَثِّرَهُم غايةَ الكَثْرة، ويَذْرَأهم في الأرض، ويجعلَهم قروناً بعد قرون، وأُمماً بعد أُمَمٍ، حتى ينقضي الأجلُ وتفرُغ البَرِيَّة، كما قدَّر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهُم وعَدَّهم عَدّاً، ثم يُقيم القيامة، ويُوفِّي كل عاملٍ عَمَله إذا بلغ الكتابُ أجلَه، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾، أي: يقدِرُ على ذلك، أو إلَه مع الله يُعْبَد؟ وقد عُلِم أن الله هو المُتَفرِّد بفعل ذلك ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾، أي: ما أَقَلَّ تَذكُّرَهم فيما يُرشِدُهم إلى الحقِّ، ويَهديهم إلى الصراط المُستقيم.

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾

---

(١) أي: استغلق عليه، ولم يُفتح عليه من القراءة بشيء.

(٢) العلوفة: العلف، وجمعها: عُلُف.

(٣) انظر تفسير الآية ٣٠ من سورة البقرة، ١٣٣، ١٦٥ من سورة الأنعام.

يقولُ: ﴿ أَمَّن يهديكم في ظُلُماتِ البرِّ والبحرِ ﴾، أي: بما خلَق من الدلائلِ السماويةِ والأرضيةِ، كما قال: ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدُون ﴾ وقال تعالى: ﴿ وهو الذي جعَل لكم النُّجومَ لتهتدُوا بها في ظُلُماتِ البرِّ والبحرِ ﴾. . . الآية. ﴿ ومن يُرسِلُ الرياحَ بُشراً بين يدَي رَحْمَتِه ﴾، أي: بين يدَي السحاب الذي فيه مطرٌ، يُغيثُ به عِبادَه المُجدِبينَ الأزِلينَ(١) القَنِطينَ، ﴿ أَإلَهٌ مع الله تعالى الله عما يُشركون ﴾.

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾

أي: هو الذي بقُدرته وسُلطانه يبدأ الخَلْق ثم يُعيدُه، كما قال تعالى في الآية الأُخرى: ﴿ إنَّ بطشَ ربِّك لشديدٌ ● إنه هو يُبدِئُ ويُعيدُ ﴾، وقال: ﴿ وَهُو الذي يَبْدأُ الخَلْقَ ثم يُعيدُه وهو أَهْوَنُ عليه ﴾. ﴿ ومن يرزُقُكم من السَّماء والأرضِ ﴾ بما يُنزِلُ من مَطَرِ السماء، ويُنبِت من بَركاتِ الأرض، كما قال: ﴿ والسماء ذاتِ الرَّجْعِ ● والأرضِ ذاتِ الصَّدْعِ ﴾، وقال: ﴿ يَعلمُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يخرُج منها وما ينزِل من السماءِ وما يعرُج فيها ﴾. فهو ـ تبارك وتعالى ـ يُنزِل من السماء ماءً مباركاً فيسكنه في الأرض، ثم يُخرج به منها أنواعَ الزُّروعِ والثمارِ والأزاهير، وغيرَ ذلك من ألوانٍ شتَّى، ﴿ كُلُوا وارعَوا أنعامكم إنَّ في ذلك لآياتٍ لأُولي النُّهى ﴾، ولهذا قال: ﴿أإلَه مع الله﴾، أي: فعَلَ هذا؟ وعلى القول الآخر: يُعبَدُ؟ ﴿قل هاتوا بُرهانَكُمْ﴾ على صِحَّةِ ما تدَّعُونه من عبادةِ آلهةٍ أخرى، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في ذلك، وقد عُلِم أنه لا حُجَّةَ لهم ولا بُرهانَ، كما قال: ﴿ وَمَن يَدْعُ مع الله إلَهاً آخَرَ لا بُرهانَ لَهُ بِهِ فإنما حِسابه عند ربِّه إنَّه لا يُفلِحُ الكافرُون﴾.

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) ﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه ـ ﷺ ـ ان يقولَ مُعْلِماً لِجميع الخَلْق: أنَّه لا يَعْلَم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيبَ. وقولُه: ﴿ إلا الله ﴾ استثناء منقطع(٢)، أي: لا يعلم أحدٌ ذلك إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنه المُنفرِدُ بذلك وحدَه، لا شريكَ له، كما قال: ﴿ وعنده مفاتحُ الغيب لا يَعْلمُها إلا هُو ﴾. . . الآية، وقال: ﴿ إنَّ الله عنده علمُ الساعةِ ويُنزِّلُ الغيثَ ويعلمُ ما في الأرحامِ وما تدْرِي نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ ﴾. والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

وقولُه: ﴿ وَمَا يَشْعُرونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾، أي: وما يشعُر الخلائقُ الساكنُون في السمواتِ والأرض بوقتِ الساعةِ، كما قال: ﴿ ثَقُلت في السَّمواتِ والأرضِ لا تأتيكم إلا بغتةً ﴾، أي: ثَقُل علمُها على أهلِ السَّمواتِ والأرضِ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا عليُّ بن الجَعد، حدثنا أبو جعفر الرازيُّ، عن داود بن أبي هِند، عن الشعبيِّ، عن مَسْرُوقٍ، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت: مَن زَعَم أنه يَعلمُ ـ تعني النبيَّ ـ ﷺ ـ ما يكون في

(١) يقال: أصبح القومُ آزلين، أي: واقعين في شدّة.
(٢) انظر تقدير الاستثناء في روح المعاني للالوسي ٢٠/٩، والطبري ٢٠/٥.

غد، فقد أعظمَ على الله الفِرْيَةَ، لأن الله تعالى يقولُ: ﴿ لا يعلَمُ مَن في السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلا الله ﴾[1].

وقال قتادةُ: إنما جَعَل الله هذه النجومَ لثلاثِ خَصْلاتٍ: جعلها زِينةً للسماءِ، وجَعَلها يُهتدَى بها، وجَعَلها رجوماً فمن تعاطى فيها غيرَ ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظَّه، وأضاعَ نَصيبه وتكلَّف ما لا عِلْمَ له به. وإنَّ ناساً جَهَلَةً بأمر الله، قد أحدثُوا من هذه النجوم كَهانةً: من أعْرَسَ بنَجْمِ كَذا وكَذا، كان كَذا وكَذا. ومن سافرَ بنجمِ كَذا وكَذا، كان كَذا وكَذا. ومن وُلِدَ بنَجمِ كَذا وكَذا، كان كَذا وكَذا. ولَعَمْري ما من نجمٍ إلا يُولَد به الأحمرُ والأسودُ، والقصيرُ والطويلُ، والحَسَنُ والدَّميمُ، وما عِلْمُ هذا النجمِ وهذه الدابَّةِ وهذا الطيرِ بشيءٍ من الغَيب! وقَضَى اللهُ أنه ﴿ لا يَعْلَم مَن في السَّمواتِ والأرضِ الغيبَ إلا اللهُ وما يَشْعُرونَ أيانَ يُبعثُونَ ﴾. رَوَاه ابنُ أبي حاتمٍ[2] عنه بحرُوفِه، وهو كلامٌ جليلٌ متينٌ صحيحٌ.

وقولُه: ﴿ بل أدْرَكَ[3] عِلْمُهُم في الآخِرَةِ ﴾ أي: انتهى[4] عِلْمُهم وعَجَزَ عن مَعرِفَةِ وقتها.

وقرأ آخرون: ﴿ بل ادَّارَكَ عِلْمُهُم ﴾، أي: تَساوى عِلْمُهم في ذلك، كما في الصَّحِيح لمسلم: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لجبريلَ ـ وقد سأله عن وقتِ السَّاعةِ ـ: «ما المسئولُ عنها بأعلم من السائل»[5]. أي: تساوى في العجز عن دَرْكِ ذلك علمُ المسئول والسائل.

قال عَليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿ بل أدْرَكَ عِلمُهم في الآخِرَة ﴾، أي: غاب[6].

وقال قتادةُ: ﴿ بل أدْرَكَ[7] عِلمُهم في الآخرةِ ﴾، يعني بِجَهْلِهم رَبَّهم، يقول: لم يَنْفُذ لَهُم إلى الآخرةِ علمٌ. هذا قولٌ.

وقال ابن جُرَيج، عن عَطاءٍ الخُرَاسانيِّ، عن ابن عبَّاس: ﴿ بل أدْرَكَ عِلمهم في الآخرة ﴾، حين لم ينفَعِ العلمُ. وبه قال عطاء الخراساني، والسدِّيّ: أن علمهم إنما يُدرِكُ ويكمُل يومَ القيامةِ حيثُ لا ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿ أسمِعْ بهم وأبْصِرْ يومَ يأتونَنَا لكن الظَّالِمُونَ اليومَ في ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾.

وقال سفيان، عن عَمرو بن عُبَيد، عن الحسن أنه كان يقرأ: «بَلِ ادَّرَكَ[8] عِلْمُهم»، قال: اضمحَلَّ عِلمُهم في الدنيا حين عايَنُوا الآخرة.

وقولُه: ﴿ بل هُم في شكٍّ منها ﴾، عائدٌ على الجِنْسِ، والمرادُ الكافِرُون، كما قال تعالى: ﴿ وعُرِضُوا على رَبِّك صفاً لقد جِئْتُمونا كما خلقناكم أولَ مَرَّةٍ بل زعمتُم ألن نجعَلَ لكُم موعداً ﴾، أي: الكافرون منهم. وهكذا قال هاهنا: ﴿ بل هم في شَكٍّ منها ﴾، أي: شاكُّون في وُجُودها ووُقُوعِها، ﴿ بل هم منها عَمُون ﴾، أي: في عَمايةٍ وجهلٍ كَبيرٍ في أمْرِها وشَأنِها.

---

(١) وأخرجه الطبري أيضاً ٢٠/٥، والبخاري في تفسير سورة النجم، فتح الباري ٨/٦٠٦، ومسلم في كتاب الإيمان ١/١٥٩.
(٢) وأخرجه الطبري في تفسير سورة النَّحل ٨/٩١ ـ ٩٢، بنحوه.
(٣) هذه قراءة ابن كثير وأبي عمرو، من السبعة، وأبي جعفر، وأهل مكة، كما في الإقناع لابن الباذش ٢/٧٢٠، وتفسير الطبري ٢٠/٦، وروح المعاني للألوسي ٢٠/١٤. وقرأ باقي السبعة (ادَّارك)، وهي قراءة عامة أهل المدينة سوى أبي جعفر، وعامة قراء أهل الكوفة.
(٤) في لسان العرب «وأدرك الشيءُ: بلغ وقته وانتهى. وأدرك أيضاً: فَنِيَ».
(٥) أخرجه الشيخان في كتاب الإيمان، فتح الباري ١/١١٤، ومسلم ١/٣٩. (٦) الطبري ٢٠/٧.
(٧) كذا في نسخة الحرم، والطبري ٢٠/٧، ومخطوطة تفسير ابن أبي حاتم. وفي نسخة الأزهر: ادارك.
(٨) يُنسبُ إلى الحسن قراءتان، الأولى آدْرَكَ، بمدَّةٍ بعد همزة الاستفهام، وأصله: أأدرك، فقُلبت الثانية ألفاً تخفيفاً، كراهة الجمع بين همزتين. والأخرى. «ادَّرك»، بهمزةٍ، وإدغام فاء الكلمة ـ وهي الدال في تاء افتعل، بعد صيرورة التاء دالاً. وهي المرادة في هذا الأثر. انظر روح المعاني للألوسي ٢٠/١٤ وقد أخرج الأثر ابن أبي حاتم في تفسيره.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ
هَٰذَا إِلَّا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا
تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) ﴾

يقولُ تَعالى مُخبراً عن مُنكِري البعثِ من المشركين أنهم استبعَدُوا إعادةَ الأجسادِ بعد صَيْرُورتِها عظاماً ورُفاتاً وتُراباً، ثم قال: ﴿ لقد وُعِدنا هذا نحنُ وآباؤُنا من قبلُ ﴾، أي: ما زِلنا نسمعُ بهذا نحنُ وآباؤُنا، ولا نرى له حقيقةً ولا وُقوعاً.

وقولُهم: ﴿ إنْ هٰذا إلا أساطيرُ الأوَّلين ﴾، يعنون: ما هذا الوعدُ بإعادةِ الأبدانِ ﴿ إلا أساطيرُ الأوَّلين ﴾، أي: أخذه قومٌ عمَّن قبلَهم من كُتُبهم، يتلقَّاها بعضٌ عن بعضٍ، وليس له حقيقة. قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنُّوه من الكفر وعدَم المَعادِ: ﴿ قل ﴾ ـ يا مُحمّد ـ لهؤلاء: ﴿ سيرُوا في الأرض فانظُروا كيف كانَ عاقبةُ المُجرِمِينَ ﴾، أي: المُكذِّبين بالرُّسُل وما جاؤوهم به من أمر المَعاد وغيره، كيف حلَّتْ بهم نِقَمُ الله وعذابُه ونَكالُه، ونجَّى الله مِنْ بينهم رُسُلَه الكرامَ ومَن اتبعهم من المؤمنين، فدَلَّ ذلك على صِدْقِ ما جاءت به الرسلُ وصِحَّتِه.

ثم قال تعالى مُسَلِّياً لنبيِّه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ ﴿ ولا تَحزن عليهم ﴾، أي: المكذِّبين بما جئت به لا تأسَفْ عليهم وتَذْهَبْ نفسُك عليهم حَسَراتٍ، ﴿ ولا تكُن في ضَيقٍ ممَّا يمكُرونَ ﴾، أي: في كَيْدِك ورَدِّ ما جئتَ به، فإن الله مُؤيِّدك وناصِرُك، ومُظهِرٌ دينَك على من خالَفَه وعانَدَه في المشارقِ والمغاربِ.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا
مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين، في سُؤالهم عن يوم القيامة واستبعادِهم وُقوعَ ذلك: ﴿ ويقولُونَ متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين ﴾ قال الله مجيباً لهم: ﴿ قُل ﴾ ـ يا مُحمَّدُ ـ ﴿ عسى أن يكونَ رَدِفَ لكم بعضُ الذي تستعجِلون ﴾. قال ابنُ عبَّاس: عَسَى أن يكون قَرُبَ ـ أو: أن يَقرُبَ ـ لكم بعضُ الذي تَستَعجِلُونَ. وهكذا قال مجاهدٌ، والضحَّاكُ، وعطاءٌ الخُراسانيّ، وقتادةُ، والسُّدِّيّ.

وهذا هو المرادُ بقوله تعالى: ﴿ ويقولُونَ متى هُو قُل عسى أن يكونَ قريباً ﴾. وقال تعالى: ﴿ ويستعجِلُونَكَ بالعَذاب وإنَّ جهنَّم لمحيطةٌ بالكافِرينَ ﴾.

وإنما دخلت «اللام» في قوله: ﴿ رَدِفَ لكم ﴾، لأنه ضُمِّن معنى «عَجِل لكم»، كما قال مجاهد في رواية عنه: ﴿ عَسَى أن يكونَ رَدِفَ لكم ﴾: عَجِلَ لكم.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وإنَّ ربَّك لذو فضلٍ على النَّاس ﴾، أي: في إسباغِه نِعَمَه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يَشكُرونه على ذلك إلا القليل منهم، ﴿ وإنَّ ربَّك ليعلم ما تُكِنُّ صُدُورُهم وما يعلنون ﴾، أي: يعلم السرائر والضمائر، كما يعلم الظواهر، ﴿ سواءٌ منكم من أسرَّ القولَ ومن جَهر به ﴾، ﴿ يَعلَمُ السِرَّ وأخفَى ﴾، ﴿ ألا حين يَستغشُونَ ثيابَهم يعلمُ ما يُسِرُّون وما يُعلِنُون ﴾

ثم أخبر تعالى بأنّه عالمُ غيب السموات والأرض، وأنه عالمُ الغيبِ والشّهادةِ ـ وهو ما غابَ عن العِبَاد وما شاهَدُوه ـ فقال: ﴿ وما مِن غائبةٍ ﴾، قال ابنُ عبّاسٍ: يعني وما مِن شيءٍ ﴿ في السماء والأرضِ إلا في كتابٍ مُبينٍ ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿ ألم تعلَم أنّ الله يعلمُ ما في السماءِ والأرضِ إنّ ذلكَ في كِتابٍ إنّ ذلكَ علَى الله يسيرٌ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتَمَل عليه من الهُدَى والبيِّناتِ والفُرقانِ: أنه يَقُصُّ على بني إسرائيل ـ وهم حَملَة التوراة والإنجيلِ ـ ﴿ أكثرَ الذي هُمْ فيه يَختلِفُون ﴾، كاختلافهم في عيسَى وَتبايُنِهم فيه، فاليهود افتَروا، والنصارى غَلَوا فجاء القرآن بالقول الوسط الحقِّ العَدل: أنه عبدٌ من عبادِ الله وأنبيائه ورسله الكرام ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ كما قال تعالى: ﴿ ذلك عيسَى ابن مَريَم قولَ الحَقِّ الذي فيه يمتَرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَإنّه لَهُدىً ورحمةٌ للمؤمنين ﴾، أي: هُدىً لقلوبِ المؤمنينَ، ورَحْمَةٌ لهم في العَمَليّاتِ.

ثم قال: ﴿ إنّ ربّكَ يقضِي بينهم ﴾، أي: يومَ القيامة ﴿ بِحُكمِه وهو العزيزُ ﴾ في انتقامِه، ﴿ العليمُ ﴾ بأفعالِ عبادِه وأقوالِهم.

﴿ فتوكَّل على الله ﴾، أي في أمورِكَ، وبلِّغ رسالةَ ربِّك، ﴿ إنَّك على الحقِّ المُبين ﴾، أي: أنت على الحقِّ المُبينِ وإن خالَفَكَ مَن خالفك ممن كُتِبت عليه الشقاوَة وحَقَّت عليهم كلمةُ ربِّكَ أنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كُلُّ آية. ولهذا قال: ﴿إنّك لا تُسمِعُ الموتى﴾، أي: لا تُسمِعُهم شيئاً ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبِهم غَشاوةٌ، وفي آذانِهم وَقْرُ الكُفرِ، ولهذا قال: ﴿ولا تُسمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا ولوا مُدبِرينَ ۞ وما أنتَ بِهادِي العُمْيِ عن ضَلالَتِهم إنْ تُسمِعُ إلا مَن يُؤمِن بآياتنا فهم مسلمون ﴾، أي: إنما يستجيبُ لَكَ مَن هو سميعٌ بَصيرٌ، السمعُ والبصرُ النافعُ في القَلْبِ والبَصيرةِ الخاضعُ لله، ولما جاءَ عنه على ألسِنَةِ الرُّسلِ عليهم السلامُ.

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

هذه الدّابةُ تخرُج في آخر الزمان عند فَساد الناس وتَركِهم أوامرَ الله وتَبديلهم الدينَ الحقَّ، يُخرِج الله لهم دابةً من الأرضِ ـ قيل: من مكّةَ. وقيل: من غيرها. كما سيأتي تَفصيلُه ـ فتُكلّمُ الناسَ على ذلك.

قال ابنُ عباس، والحَسَن، وقتادةُ ـ ورُوِيَ عن عَليٍّ رضي الله عنه ـ: تُكلِّمهم كلاماً، أي: تُخاطِبُهم مخاطبةً.

وقال عطاء الخراساني: تُكلّمهم فتقول لهم: إن الناسَ كانوا بآياتنا لا يُوقِنُون. ويُروَى هذا عن عَليٍّ، واختاره ابن جرير(١). وفي هذا القولِ نَظَرٌ لا يخفَى، والله أعلم.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/١٦.

وقال ابن عباس ـ في رواية ـ: تجرحُهم. وعنه روايةٌ، قال: كلاً تفعلُ[1]. يعني هذا وهذا، وهو قولٌ حَسَنٌ، ولا منافاةَ، والله أعلم.

وقد وَرَد في ذكرِ الدابَّةِ أحاديثُ وآثارٌ كثيرةٌ، فلْنذكُر ما تيسر منها، والله المستعانُ:

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سفيان، عن فُرات، عن أبي الطُّفيل، عن حُذَيفة بن أَسيد الغفاريِّ قال: أشرف علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ من غُرفَةٍ ونحنُ نتذاكرُ أمْرَ السّاعةِ فقال: لا تقومُ الساعةُ حتى تَرَوا عَشْرَ آياتٍ: طلوعُ الشمس من مغربها، والدُّخانُ، والدابَّةُ، وخُروجُ يأجوجَ، وخروجُ عيسى ابن مَرْيَم، والدجالُ. وثلاثةُ خسوفٍ: خَسْفٌ بالمغربِ، وخَسْفٌ بالمشرقِ، وخَسْفٌ بجزيرة العرب، ونارٌ تخرج من قَعرِ عَدَن تسوقُ ـ أو: تحشُرُ ـ الناسَ، تَبِيتُ معهم حيثُ باتوا، وتَقِيل معهم حيث قالُوا[2].

وهكذا رواه مسلم وأهلُ السنن، من طرق، عن فُرات القزاز، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حُذَيفة به مَرْفوعاً، وقال الترمذي: حَسَنٌ صَحيحٌ. ورواه مُسلِمٌ أيضاً من حديث عبد العزيز بن رُفَيع، عن أبي الطُّفَيل، عنه موقوفاً، والله أعلم.

طريقٌ أُخرَى، قال أبو داودَ الطَّيالسيُّ، عن طلحةَ بن عمرو، وجَريرُ بن حازم، فأما طلحةُ فقال: أخبرني عبد الله بن عُبَيد[3] بن عُمَير اللَّيثيُّ: أن أبا الطُّفَيل حدثه، عن حذَيفة بن أسيد الغفاري أبي سَريحة. وأما جَريرٌ فقال: عن عبد الله بن عُبيد، عن رَجُلٍ من آلِ عبدِ الله بن مَسْعُودٍ ـ وحديثُ طلحة أتَمُّ وأحسَنُ ـ قال: ذكرَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ الدَّابةَ فقال: لها ثلاثُ خَرَجاتٍ من الدهر، فتخرج خَرْجَةً من أقصى البَادِيةِ، ولا يدخُل ذِكْرُها القريةَ ـ يعني مَكَّة ـ ثم تَكمُنُ زماناً طويلاً، ثم تخرج خَرْجة أخرى دُون تلك، فيعلو ذِكْرُها في أهل البادية، ويدخُل ذكرُها القريةَ ـ يعني مَكةَ ـ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ثم بينما الناسُ في أعظمِ المساجد عَلى الله حُرمَةً وأكرمِها: المسجد الحرام، لم يَرُعْهم إلا وهي تَرْغُو بين الرُّكنِ والمَقام، تَنفُضُ عن رأسِها التُّرابَ. فارفضَّ الناسُ عنها شتَّى ومعاً، وَبقِيَتْ عصابةٌ من المؤمنين، وعَرفوا أنهم لم يُعجِزُوا الله، فبَدأت بهم فجلت وُجُوهَهم حتى جعلتها كأنها الكوكبُ الدُّرِّيُّ، وَوَلّت في الأرض لا يُدرِكُها طالبٌ، ولا ينجو منها هارب، حتى إنَّ الرجُلَ ليتعوَّذُ منها بالصلاة، فتأتيه من خَلْفِه فتقول: يا فلان، الآنَ تُصَلِّي؟! فيقبل عليها فَتَسِمُه في وجهه. ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال، ويَصْطَحِبُون في الأمصار، يُعرَف المؤمن من الكافر، حتى إنَّ المُؤمِنَ لَيقُولُ: يا كافِرُ، اقضِني حَقِّي. وحَتّى إنَّ الكافِرَ لَيقُولُ: يا مُؤمِنُ، اقضِني حقِّي[4].

ورواه ابنُ جرير من طريقين، عن حُذَيفة بن أَسِيد موقوفاً. فالله أعلم. وَرَوَاه من روايةِ حُذَيفة بن اليَمان مرفوعاً، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مَرْيَم، وهو يطوفُ بالبيتِ، ولكنَّ إسنادَهُ لا يَصِحُّ.

حَديثٌ آخَرُ، قال مُسلِم بن الحَجّاج: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ، حدثنا محمد بن بشر، عن أبي حَيّان، عن أبي زُرْعَةَ، عن عبد الله بن عَمْرو قال: حَفِظْتُ من رسولِ الله ـ ﷺ ـ حديثاً لم أَنْسَه بعد: سَمِعت رسولَ

---

(1) أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره بإسناده إلى نُفيع الأعمى قال. سألت ابن عبّاس عن قوله. (أخرجنا لهم دابةً من الأرض تكلمهم)، أو تُكَلِّمُهُم، قال: كُلّ ذلك ـ والله ـ تَفْعَلُ، تُكلِّم المؤمن، وتكْلِم الكافر، أو الكافر تجرحه.

وفي روح المعاني ٢٠/٢٥: أن قراءة ابن عباس وغير واحد (تَكْلِمُهُم)، بفتح التاء، وسكون الكاف، وتخفيف اللام.

(2) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٥٨ من سورة الأنعام، وخرّجناه هنالك، من المسند، ومسلم، والسنن الأربعة.

(3) في مسند أبي داود: بن عمير.

(4) مسند أبي داود ١٤٤. وتفسير الطبري ٢٠/١٤، ١٥.

الله ـ ﷺ ـ يقولُ: إنّ أول الآياتِ خروجاً طلوعُ الشمسِ من مَغْرِبها، وخروجُ الدابة على الناس ضُحى، وأيتُهما ما كانت قبل صاحبتِها، فالأخرى على إثرِها قريباً[1].

حَديثٌ آخَرُ، روى مُسلِمٌ في صَحِيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوبَ ـ مولى الحُرَقةِ ـ عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رَضِي الله عنه ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: بَادِرُوا بالأعمال سِتاً. طلوعَ الشمسِ من مَغْرِبها، أو الدُّخانَ، أو الدَّجَّالَ، أو الدابّةَ، أو خاصّةَ أحَدِكم، أو أمْرَ العامّةِ[2].

وله من حديث قتادَةَ، عن الحسَنِ، عن زيادِ بن رِيَاح، عن أبي هُرَيرة ـ رَضِي الله عنه ـ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: بَادِرُوا بالأعمالِ سِتاً: الدجال، والدُّخانَ، ودابَّةَ الأرضِ، وطُلُوعَ الشَّمسِ من مَغْرِبها، وأمر العامّة وخُوَيْصَة أحدكم[2].

حديث آخَرَ، قال ابن ماجه: حدثنا حَرْمَلة بن يحيى، حدثنا ابنُ وهبٍ، أخبرني عَمْرو بن الحارث وابن لَهِيعَةَ، عن يزيدَ بن أبي حَبِيب، عن سِنَان بن سعدٍ، عن أنس بن مالك ـ رَضِي الله عنه ـ عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ قال: بَادِرُوا بالأعمالِ سِتاً. طلوعَ الشمسِ من مَغْرِبها، والدُّخانَ، ودابَّةَ الأرض، والدَّجَّالَ، وخُوَيْصة أحدكم، وامر العامَّة. تفرد به[3].

حديثٌ آخَرُ، قال أبو داودَ الطَّيالِسيُّ أيضاً: حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن أوسِ بن خالدٍ عن أبي هُرَيرة ـ رَضِي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: تخرجُ دابةُ الأرضِ، ومعها عَصَا موسى وخاتَمُ سُلَيمان عليهما السلام، فَتَخْطِمُ أنف الكافر بالعصا، وتُجلي وجهَ المؤمن بالخاتَمِ، حتى يجتمعَ الناسُ على الخُوَان يُعرفُ المؤمنُ من الكافر[4].

ورواهُ الإمامُ أحمدُ، عن بَهْزٍ وعفَّانَ ويَزيد بن هارُونَ، ثلاثتُهم عن حَمَّادِ بن سَلَمَةَ، به. وقال: «فتَخطِمُ أنفَ الكافرِ بالخاتَمِ، وتجلُو وَجْهَ المؤمنِ بالعَصَا، حتى إنّ أهلَ الخُوَانِ الواحدِ لَيَجْتَمِعُون فيقول هذا: يا مؤمنُ. ويقولُ هذا: يا كافر[4].

ورواه ابنُ ماجه، عن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ، عن يُونُسَ بن مُحمَّدٍ المؤدِّب، عن حَمَّادِ بن سَلَمَةَ، به[4].

حديثٌ آخَرُ، قال ابنُ ماجه: حدثنا أبو غَسَّان مُحمَّدُ بنُ عمرو، حدثنا أبو تُمَيلَةَ، حدثنا خالدُ بنُ عُبَيدٍ، حدثنا عبدُ الله بن بُرَيدَةَ، عن أبيه قال: ذهبَ بي رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى مَوضِعٍ بالباديةِ، قريبٍ من مكَّةَ، فإذا أرضٌ يابسَةٌ حولَها رَمْلٌ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: تَخرجُ الدابةُ من هذا الموضع. فإذا فِتْرٌ في شِبْرٍ.

قال ابن بُرَيدَةَ: فحججتُ بعد ذلك بِسِنِينَ فأرانا عَصاً له، فإذا هو بِعَصَاي هَذِه، كَذا وكَذا[5].

وقال عبد الرزّاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادة أنّ ابنَ عباس قال: هي دابّةٌ ذاتُ زَغَبٍ، لها أربع قوائم، تخرج من بعضِ أوديَةِ تِهامَةَ[6].

---

[1] تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٥٨ من سورة الأنعام، وخرّجناه هنالك.
(٢) مسلم، كتاب الفتن ٤/٢٢٦٧
(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن ٢/١٣٤٨.
(٤) مسند أبي داود ٣٣٤، ومسند الإمام أحمد ٢/٢٩٥، ٤٩١. وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ٢/١٣٥١ ـ ١٣٥٢ والخَطْمُ: الضَّرْبُ.
(٥) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن ٢/١٣٥٢. والفِتْرُ: ما بين الإبهام والسّبابة.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم عند هذه الآية من تفسيره.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا عبدُ الله بن رَجاءٍ، حدثنا فُضَيل بن مرزوق، عن عطيَّة قال: قال عبد الله: تخرُجُ الدَّابةُ من صَدْعٍ من الصَّفا كجري الفَرَسِ ثلاثةَ أيامٍ، لم يخرُج ثلثها.

وقال محمَّد بن إسحاق، عن أبان بن صالح قال: سُئِل عبدُ الله بن عمرو عن الدّابة، فقال: الدّابةُ تخرجُ من تحت صَخْرَةٍ بِجِيادٍ، والله لو كنتُ مَعَهم ـ أو لو شِئتُ [لقَرَعْتُ][1] بعَصَاي الصخرةَ التي تخرجُ الدابةُ من تحتها. قيل: فتصنعُ ماذا يا عبدَ الله بن عمرو؟ قال: تستقبلُ المشرقَ فتصرُخ صرْخةً تنفُذه، ثم تستقبلُ الشام فتصرخ صرخة تَنْفُذُه، ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تَنْفُذُه، ثم تستقبل اليمنَ فتصرُخ صرخةً تنفذه. ثم تَرُوحُ من مَكَّة فتُصبِحُ بِعُسْفَانَ. قيل: ثم ماذا؟ قال: ثمَّ لا أعلمُ[2].

وعن عبد الله بن عُمَر أنّه قال: تخرُجُ الدابةُ ليلةَ جَمْعٍ[3]. رواه ابنُ حاتِمٍ. وفي إسناده ابنُ البَيْلَمانيِّ.

وعن وهب بن مُنَبِّه: أنه حكى من كلام عُزَير عليه السلام أنه قال: وتخرج من تحت سَدُومَ[4] دابَّةٌ تُكلِّمُ الناس، كُلٌّ يسمَعُها، وتَضَع الحبالى قبل التَّمام، ويعودُ الماء العذبُ أُجاجاً وتتعادى الأخِلاَّء، وتُحرقُ الحِكْمَةُ، ويُرفَعُ العِلْمُ، وتُكلِّم الأرضُ التي تليها. وفي ذلك الزمان يرجُو الناسُ ما لا يبلُغون، ويتعَبُون فيما لا ينالُونَ، ويعمَلُون فيما لا يأكُلون. رواه ابن أبي حاتم، عنه.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حَدَّثنا أبي، حدثنا أبو صالح ـ كاتبُ الليث ـ حَدَّثني معاويةُ بنُ صالحٍ، عن أبي مَرْيَمَ: أنَّه سَمِع أبا هُرَيرَةَ ـ رَضِي الله عنه ـ يقول: إن الدابةَ فيها من كلِّ لونٍ، ما بين قرنيها فرسخٌ للراكِب.

وقال ابنُ عبّاسٍ: هي مثلُ الحربة الضخمة[5].

وعن أمير المؤمنين عَليِّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: إنها دابّةٌ لها ريشٌ وزَغَبٌ وحافرٌ، وما لها ذَنَبٌ، ولها لِحيَةٌ، وإنها لتخرجُ حُضْرَ[5] الفَرَسِ الجَوادِ ثلاثاً، وما خَرج ثلثاها. رواه ابنُ أبي حاتمٍ.

وقال ابنُ جُرَيج، عن أبي[6] الزُّبَير أنه وَصَفَ الدابة فقال: رأسُها رأسُ ثورٍ، وعينُها عينُ خِنْزيرٍ، وأُذُنها أُذُنُ فيلٍ، وقَرْنها قَرْنُ أُيَّلٍ[7]، وعُنُقُها عُنق نَعامَةٍ، وصَدْرُها صَدْرُ أَسَدٍ، ولونُها لونُ نَمِرٍ، وخاصِرَتُها خاصِرَةُ هِرٍّ، وذَنَبُها ذَنَبُ كَبْشٍ، وقَوائِمُها قوائمُ بَعيرٍ، بين كل مَفْصِلين اثنا عَشَر ذراعاً، تخرُجُ مَعَها عَصَا مُوسَى وخاتمُ سُلَيمان، فلا يبقَى مُؤمنٌ إلا نكتت في وَجْهِه بعصا موسى نُكتةً بيضاء، فتفشُو تلك النُّكتةُ حتى يَبْيَضَّ لها وَجْهُه ولا يبقى كافرٌ إلا نَكَتَتْ في وجهه نُكتةً سوداءَ بخاتَم سُلَيمان، فتفشُو تلك النُّكتةُ حتى يَسْوَدَّ لها وجهُه، حتى إنَّ الناسَ يَتبايَعُون في الأسواق: بِكم ذا يا مُؤمنُ، بكم ذا يا كافرُ؟ وحتى إنَّ أهلَ البيتِ يجلِسُونَ على مائدتهم فَيعرِفُونَ مُؤمِنَهم من كافِرهم، ثم تقول لهم الدابّةُ: يا فلانُ، أبشِر، أنتَ من أهلِ الجَنّةِ؟ ويا فلانُ، أنتَ من أهلِ النَّارِ. فذلك قول الله تعالى: ﴿ وإذا وَقَعَ القَولُ عليهم أخرَجنا لهم دابَّةً من الأرضِ تُكَلِّمُهُم أنَّ الناسَ كانُوا بآياتِنَا لا يُوقِنُون ﴾.

---

(١) ما بين القوسين من تفسير ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عند هذه الآية من تفسيره.

(٣) جَمْعٌ هي: المُزْدَلِفَةُ. وقد أخرج الأثر أيضاً ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الفتن ١٥/١٨٠ ـ ١٨١

(٤) سَدُوم. مدينة من مدائن قوم لوط. وذكر الميداني في كتابه الأمثال أن سَدُوم هي سَرْمِينُ، بلدةٌ من أعمال حلب، معروفة عامرة [illegible]

(٥) الحُضْرُ: العدو. والمعنى ـ والله أعلم ـ أن الفرس الجواد إذا عدا ثلاث مرات [illegible] لا يصل إلى ثلثي طولها

(٦) في النسخ: ابن الزبير. وهو خطأ، صوابه من تفسير ابن أبي حاتم

(٧) الأَيِّل، والإيَّل: الوَعِلُ، وهو تَيْسُ الجبلِ، وهو جنسٌ من المعْزِ الجبلية له قرنان [illegible]

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عن يوم القيامة، وحشْر الظَّالمين المكذِّبين بآيات الله ورُسُله إلى بين يَدَي الله - عزّ وجلّ - لِيسألَهم عمّا فعلوه في الدّار الدُّنيا، تقريعاً وتوبيخاً، وتصغيراً وتحقيراً فقال: ﴿ ويوم نحشر من كلّ أمّةٍ فوجاً ﴾، أي: من كلّ قوم وقَرْنٍ فوجاً أي: جماعةً، ﴿ مِمَّن يُكذِّب بآياتنا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ احشُروا الذين ظلَمُوا وأزواجَهُم ﴾، وقال تعالى: ﴿ وإذا النفوسُ زُوِّجَت ﴾.

﴿ وقوله: ﴿ فَهُم يُوزَعُونَ ﴾، قال ابنُ عبّاس رَضِيَ الله عنهما: يُدفَعُونَ. وقال قَتادةُ: وَزَعَةٌ تردُّ أوّلَهم على آخرهم. وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلم: يُساقون[1].

﴿ حتى إذا جاءُوا ﴾، أي: أُوقِفُوا بين يَدَي الله - عزّ وجلّ - في مقام المُسَاءلةِ، ﴿ قال أكذَّبتم بآياتي ولم تُحيطُوا بها عِلماً أم ماذا كُنتم تعمَلُون ﴾، أي: ويُسألُون عن اعتقادِهم وأعمالهم، فلمّا لم يكُونوا من أهل السَّعادةِ وكانوا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ فلا صَدَّقَ ولا صلَّى * ولكن كَذَّبَ وتَوَلَّى ﴾، فحينئذٍ قامت عليهم الحجّةُ، ولم يكن لهم عُذرٌ يعتذِرُون به، كما قال تعالى: ﴿هذا يومُ لاَ ينطِقُون * ولا يُؤذَنُ لهم فيعتذِرُون * ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾. وهكذا قال ها هنا: ﴿وَوَقَعَ القولُ عليهم بما ظَلَمُوا فَهُم لاَ ينطِقُون﴾، أي: بُهِتُوا فلم يكن جوابٌ، لأنهم كانوا في الدّارِ الدنيا ظَلَمةً لأنفُسِهم، وقد رُدُّوا إلى عالِم الغَيبِ والشّهادةِ الذي لا تخفَى عليه خافيةٌ.

ثم قال تعالى مُنبِّهاً على قُدرَتِه التّامةِ، وسُلطانه العَظِيم، وشأنِه الرَّفيع، الذي تَجِب طاعتُه والانقيادُ لأوامره، وتصديقُ أنبيائه فيما جاءوا به من الحقِّ الذي لا مَحِيد عنه، فقال: ﴿ ألم يَرَوا أنّا جعَلنا الليلَ ليسكُنوا فيه ﴾، أي: فيه ظلامٌ تسكُنُ بسببه حركاتُهم، وتهدأُ أنفاسُهم، ويستريحُون من نَصَب التّعب في نهارهم. ﴿ والنهارَ مُبصِراً ﴾، أي: مُنيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يَتصرَّفون في المعايش والمكاسب، والأسفارِ والتِّجارات، وغير ذلك من شُئونهم التي يحتاجُون إليها، ﴿ إنّ في ذلك لآياتٍ لِقَومٍ يُؤمِنُون ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

يُخبِر تعالى عن هَولِ يوم نَفخةِ الفَزَع في الصُّور، وهو كما جاء في الحديث: «قَرنٌ يُنفخُ فيه»[2]، وفي حديث «الصُّور»[3] أنّ إسرافيلَ هو الذي ينفُخ فيه بأمر الله تعالى، فينفُخ فيه أولاً نفخةَ الفَزَع ويُطوِّلها، وذلك في

---

(١) أخرج هذه الآثار ابن أبي حاتم في تفسيره. والأثرين الأولين في تفسير الطبري ٢٠/١٧.
(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام، والآية ١٠٢ من سورة طه.
(٣) تقدم الحديث عند تفسير آية الأنعام المتقدمة.

آخر عُمُر الدنيا، حين تقومُ الساعة على شِرار الناس من الأحياء، فيفزَعُ من في السموات ومَن في الأرض ﴿ إلا مَن شاء الله ﴾، وهُم الشهداء، فإنهم أحياءٌ عند ربِّهم يُرزَقون.

قال الإمامُ مسلمُ بن الحجاج: حدثنا عُبيد الله بن مُعاذ العَنْبَرِيُّ، حدثنا أبي، حدثنا شُعبةُ، عن النُّعمان ابن سالم: سَمِعت يعقوبَ بن عاصم بن عُروَةَ بن مسعودٍ الثقفيِّ، سَمِعت عبد الله بن عَمْرو ـ رَضي الله عنه ـ وجاءه رجلٌ فقال: ما هذا الحديثُ الذي تُحدِّث [به؟ تقول]: إن الساعة تقومُ إلى كذا وكذا؟ فقال: سُبحان الله! ـ أو: لا إلَه إلا الله. أو كلمةً نحوهما ـ لقد هَمَمتُ ألاّ أحدِّثَ أحداً شيئاً أبداً، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً، يُحَرِّقُ البيتُ، ويكونُ ويكونُ. ثم قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يخرج الدجّالُ في أمتي فيمكث أربعينَ ـ لا أدري أربعينَ يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً ـ فيبعثُ الله عيسى ابنَ مريَم كأنه عُروةُ بن مسعودٍ، فيَطلُبه فيُهلِكهُ. ثم يمكثُ الناسُ سبعَ سنينَ، ليس بين اثنين عداوةٌ، ثم يُرسِلُ الله ريحاً باردةً من قِبَل الشام، فلا يبقَى على وَجهِ الأرض أحدٌ في قلبه مثقالُ ذرّةٍ من خيرٍ أو إيمانٍ إلا قبَضَتْهُ، حتى لو أنَّ أحدهم دخل في كَبِدِ[1] جَبَلٍ لدخَلَتْه عليه حتى تقبِضَه. قال: سَمِعتُها من رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: فيبقى شِرارُ الناس في خِفّة الطير وأحلام السِّباع، لا يعرفون معروفاً ولا يُنكِرون مُنكَراً، فيتمثّل لهم الشيطانُ فيقولُ: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمُرُهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دارٌّ[2] رزقُهم، حَسَنٌ عيشُهم. ثم يُنفَخ في الصُّور فلا يَسمَعُه أحدٌ إلا أصغَى لِيتاً ورفَع لِيتاً[3]. قال: وأوّلُ مَن يسمَعُه رجلٌ يَلوطُ[4] حَوضَ إبله. قال: فيَصْعَقُ ويَصعَقُ الناسُ، ثم يرسلُ الله ـ أو قال: يُنزِلُ الله ـ مطراً كأنه الطَّلُّ ـ أو قال: الظِّلُّ[5] ـ نُعمانُ الشاكُّ ـ فتَنبُتُ منه أجسادُ الناس، ثم يُنفَخُ فيه أخرى فإذا هُم قيامٌ ينظرون، ثم يقال: يا أيُّها الناسُ، هَلُمُّوا إلى ربِّكم، وقِفُوهم إنهم مَسْئُولون. ثم يُقال: أخرجُوا بَعْثَ النار. فيُقالُ: مِن كَم؟ فيُقال: من كُلِّ ألفٍ تِسعَمائةٍ وتسعةً وتسعينَ، قال: فذلك يومُ يَجعَلُ الوِلدانَ شِيباً، وذلك يومُ يُكشَفُ عن ساقٍ[6].

وقولُه: «ثم يُنفَخُ في الصُّور فلا يَسمَعُه أحدٌ إلاّ أصغَى لِيتاً ورَفَع لِيتاً». اللِّيتُ: هو صَفْحَةُ العُنُق، أي: أمالَ عُنُقَه ليستمِعه من السماء جيداً.

فهذه نفخةُ الفَزَع. ثم بعدَ ذلك نفخةُ الصَّعق، وهو الموتُ، ثم بعد ذلك نفخَةُ القيام لربِّ العالمين، وهو النُّشور من القُبور لجميع الخلائق، ولهذا قال: ﴿ وكلٌّ أتَوه داخِرين ﴾ ـ قُرِئ بالمد، وبغيره على الفعل، وكل بمعنىً واحدٍ[7] ـ و ﴿داخِرين ﴾، أي: صاغِرين مُطيعينَ، لا يتخلّفُ أحدٌ عن أمره، كما قال تعالى: ﴿ يومَ يدعُوكُم فتستجيبُونَ بحمدِه ﴾، وقال: ﴿ ثُمَّ إذا دَعاكُم دعوةً من الأرض إذا أنتم تَخرجُون ﴾. وفي حديث الصُّور: أنه في النفخَة الثالثة يأمرُ الله الأرواحَ، فتوضع في ثَقْبٍ في الصُّور، ثم يَنفُخ إسرافيلُ فيه بعد ما تَنبُتُ الأجسادُ في قُبورها وأماكنها. فإذا نَفَخ في الصُّور طارت الأرواحُ، تتوهَّجُ أرواحُ المؤمنين نُوراً، وأرواحُ الكافِرينَ ظُلمَةً، فيقولُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: وعِزَّتي وجَلالي لترجعَنَّ كلُّ رُوحٍ إلى جَسَدِها. فتجيءُ الأرواحُ إلى

---

(١) أي: جوفه.

(٢) أي: كثير.

(٣) أصغى: أمال. واللِّيتُ: صفحة العنق، وهي جانبه.

(٤) أي. يُطَيِّنُه ويُصلِحُه.

(٥) الأصح: الطَّلُّ، وهو الموافق للحديث الآخر أنه كَمَنِيِّ الرجال. والطلُّ: المطر الضعيف يكون له أثر قليل

(٦) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ١٥٩ من سورة النساء، وخرّجناه هنالك.

(٧) قرأ حفص وحمزةُ: (أتَوْهُ). وقرأ باقي السبعة (آتوه) بمدّ الهمزة والتاء مضمومة. انظر الإقناع لابن الباذش ٧٢١/٢

أجسادها، فتنبتُ فيها كما ينبتُ السّمُّ في الثَّرى، ثم يقومون فينفضُون التراب من قبورهم، قال الله تعالى: ﴿ يوم يخرجُون من الأجداثِ سِراعاً كأنَّهم إلى نُصُبٍ يُوفِضُون ﴾.

وقولُه: ﴿ وترَى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهي تمُرُّ مَرَّ السَّحاب ﴾، أي: تَراها كأنها ثابتةً باقيةً على ما كانت عليه، وهي تمُرّ مرَّ السَّحاب، أي: تَزُولُ عن أماكِنِها، كما قال تعالى: ﴿ يومَ تَمورُ السماءُ مَوْراً * وتَسيرُ الجبالُ سَيراً ﴾، وقال: ﴿ ويَسألُونَكَ عن الجبالِ فقُل يَنسِفُها رَبِّي نَسْفاً * فيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً * لا تَرَى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ ويومَ نُسَيِّرُ الجبالَ وترَى الأرضَ بارزةً ﴾.

وقولُه: ﴿ صُنعَ الله الذي أتقَنَ كُلَّ شيء ﴾، أي: يفعَلُ ذلك بقُدرته العَظيمة الذي قد أتقن كُلَّ ما خَلَق، وأودَعَ فيه من الحِكْمَةِ ما أودَع، ﴿ إنه خبيرٌ بما تفعَلُون ﴾، أي: هو عليمٌ بما يفعَلُ عبادُه من خيرٍ وشرٍّ فيُجازيهم عليه.

ثم بيَّن تعالى حالَ السُّعداء والأشقياءِ يومئذ فقال: ﴿ من جاءَ بالحَسَنةِ فله خيرٌ منها ﴾، قال قتادةُ: بالإخلاص. وقال زينُ العابدين: هي لا إلَه إلا الله. وقد بيَّن في المَكانِ الآخر(١) أن له عَشْرَ أمثالها. ﴿ وهُم من فَزَعٍ يومئذٍ آمنُون ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لا يَحْزُنُهم الفَزَعُ الأكبرُ﴾، وقال: ﴿أفمن يُلقى في النَّارِ خيرٌ أم من يأتي آمناً يومَ القيامةِ ﴾. وقال: ﴿ وهُم في الغُرُفاتِ آمِنُون ﴾.

وقولُه: ﴿ ومَن جاء بالسَّيِّئةِ فكُبَّت وُجُوهُهم في النَّار ﴾، أي: مَن لَقِيَ الله مُسيئاً لا حَسَنَةَ له، أو: قد رَجَحت سيئاتُه على حَسَناته، كُلٌّ بحَسَبه. ولهذا قال: ﴿ هل تُجزَون إلا ما كُنتُم تعمَلُون ﴾.

وقال ابنُ مسعود وأبو هُرَيرة وابن عباس ـ رَضِيَ الله عنهم ـ وأنسُ بن مالك، وعطاءٌ، وسعيدُ بن جُبَير، وعِكْرِمَةُ، ومُجاهِدُ، وإبراهيمُ النَّخعي، وأبو وائل، وأبو صالح، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلَم، والزُّهريُّ، والسُّدِّي، والضَّحَّاك، والحَسَن، وقتادةُ، وابنُ زيد، في قوله: ﴿ ومَن جاء بالسَّيِّئةِ ﴾، يعني: بالشِّركِ.

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً رَسُولَه وآمراً له أن يقول. ﴿ إنما أُمِرتُ أن أعبدَ رَبَّ هذه البلدةِ الذي حرَّمها وله كلُّ شيءٍ ﴾،كما قال: ﴿ قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إن كنتُم في شكٍّ من ديني فلا أعبدُ الذين تَعبدُون من دونِ الله ولكن أعبدُ الله الذي يَتوفَّاكم ﴾.

وإضافة الرُّبوبيَّةِ إلى البَلدة على سَبيل التشريف لها والاعتناءِ بها، كما قال: ﴿ فليَعبُدُوا رَبَّ هذا البيتِ * الذي أطعَمَهُم من جُوعٍ وآمنَهُم من خوفٍ ﴾.

وقولُه: ﴿ الذي حرَّمها ﴾، أي: الذي إنّما صارت حَرَاماً قَدَراً وشرعاً بتحريمه لها، كما ثبت في الصَّحيحَين عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوم فتح مكّة: «إنَّ هذا البلدَ حرَّمه الله يومَ خَلَقَ السموات والأرض، فهو حَرَام بحرمة الله إلى يومِ القيامةِ، لا يُعضَدُ شوكُه، ولا يُنفَّر صيدُه، ولا يُلتقطُ لُقَطتُه إلا لمن

(١) انظر تفسير الآية ١٦٠ من سورة الأنعام.

عَرْفَها، ولا يُختلَى خَلاَها»(١)... الحديث بتمامه. وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيدُ القطعَ، كما هو مُبيَّن في مَوْضِعِه من كتاب الأحْكَامِ، ولله الحمد.

وقولُه: ﴿ وله كلُّ شيءٍ ﴾، من باب عَطفِ العامِّ على الخاصِّ، أي: هو ربُّ هذه البلدة، وربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، ﴿ وأُمِرتُ أن أكونَ من المسلمين ﴾، أي: المُوحِّدين المُخلِصينَ المُنقادِينَ لأمرِه المُطيعين له.

وقولُه: ﴿ وأن أتلوَا القرآنَ ﴾، أي: على الناس أبلِّغُهم إيّاه، كقولِه: ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآياتِ والذِّكرِ الحكيم ﴾. وكقوله: ﴿ نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعونَ بالحقِّ لقوم يؤمنون ﴾، أي: أنا مُبلِّغٌ ومنذِرٌ، ﴿ فمنِ اهتدى فإنّما يهتدي لِنَفسِه ومن ضلَّ فقل إنما أنا من المُنذِرين ﴾، أي: لي سُوَيَّةٌ(٢) الرُّسُلِ الذين أنذَروا قومَهم، وقاموا بما عليهم من أداءِ الرِّسالةِ إليهم، وخَلَصُوا من عُهدَتِهم، وحِسابُ أُممِهم على الله. كقوله تعالى: ﴿ فإنما عليك البلاغُ وعلينا الحِسابُ ﴾، وقال: ﴿ إنما أنتَ نذيرٌ والله على كُلِّ شيءٍ وكيلٌ ﴾.

﴿ وقُلِ الحمدُ لله سيُريكم آياتِه فتعرِفونَها ﴾، أي: لله الحمد الذي لا يُعذِّبُ أحداً إلا بعد قيام الحُجَّةِ عليه، والإعذارِ إليه، ولهذا قال: ﴿ سيُريكُم آياتِه فتعرفونها ﴾، كما قال تعالى: ﴿ سنُريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم حتّى يتبيَّنَ لهم أنه الحقُّ ﴾.

وقولُه: ﴿ وما ربُّكَ بغافلٍ عما تعمَلونَ ﴾، أي: بل هُو شهيدٌ على كُلِّ شيءٍ.

قال ابنُ أبي حاتم: ذكر عن أبي عُمَرَ الحَوْضِيِّ حفص بن عمر: حدثنا أبو أُمَيَّةَ بن يعلى الثَّقفي، حدثنا سعيد بن أبي سَعيدٍ، سَمِعتُ أبا هُرَيرةَ يقولُ: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا أيها الناسُ، لا يَغتَرَّنَّ أحدُكم بالله، فإنَّ الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفَلَ البَعُوضةَ والخردَلةَ والذَّرَّة».

وقال أيضاً: حدَّثنا محمد بن يحيى، حدثنا نصرُ بنُ عَليٍّ، قال أبي: أخبرني عن خالد بن قيس، عن مَطرٍ، عن عُمَر بن عبدِ العَزيز قال: فلو كان الله مُغفِلاً شيئاً لأغفل ما تعفي(٣) الرياح من أثر قَدَمَي ابنِ آدمَ.

وقد ذُكِر عن الإمام أحمدَ ـ رحمه الله ـ أنه كان يُنشِدُ هذين البيتين، إما له أو لغيره(٤):

إذا ما خَلَوتَ الدَّهرَ يوماً فلا تقُل ... خَلَوتُ ولكن قُل عَليَّ رَقيبُ
ولا تَحْسَبَنَّ الله يَغفُلُ ساعةً ... ولا أنَّ ما يَخفى عَلَيهِ يَغيبُ

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢٦ من سورة البقرة، وخرّجته هنالك. ومعنى: لا يعضد شوكه: لا يقطع. ولا يُختلى: لا يُجز. والخَلَى: الرطب من النبات.

(٢) يقال: هو على أمر سَويٍّ وطريقةٍ سَويّةٍ. أي عاديةٌ لا شذوذ فيها.

(٣) أي: تمحو.

(٤) لأبي نواس، انظر البيتين مع غيرهما في البداية والنهاية ٢٤٤/١٠.

تفسير

سورة القصص

قال الإمامُ أحمدُ بن حنبل ـ رحمه الله ـ: حدثنا يحيى بن آدمَ، حدثنا وكيعٌ، عن أبيه، عن أبي إسحاقَ، عن مَعدِ يكربَ قال: أتينا عبدَ الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿ طسٓمٓ ﴾ المائتين، فقال: ما هِيَ مَعِي، ولكن عليكُم مَنْ أخذَها من رسول الله ـ ﷺ ـ: خبَّابَ بنَ الأرتِّ. قال: فأتينا خبّابَ بنَ الأرتِّ، فقرأها علينا[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ
كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ ﴾

تقدَّمَ الكلامُ على الحُرُوف المُقَطَّعةِ.

وقولُه: ﴿ تلكَ ﴾، أي: هذه ﴿ آياتُ الكتابِ المُبينِ ﴾، أي: الواضحِ الجليِّ الكاشفِ عن حقائقِ الأمورِ، وعلمِ ما قد كانَ وما هُوَ كائن.

وقولُه: ﴿ نتلُوا عليكَ من نَبَإ مُوسَى وفرعونَ بالحقِّ لقوم يُؤمِنُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ نحن نقصُّ عليك أحسَنَ القَصَصِ ﴾، أي: نذكُر لكَ الأمرَ على ما كان عليه، كأنّكَ شاهِدٌ وكأنّكَ حاضِرٌ.

ثم قال: ﴿ إنَّ فِرعَونَ عَلا في الأرضِ ﴾، أي: تَكبّر وتَجَبّر وطَغَى، ﴿ وجَعَلَ أهْلَهَا شِيَعاً ﴾، أي: أصنافاً، قد صَرَفَ كُلَّ صِنْفٍ فيما يُريد من أُمورِ دولته.

وقولُه: ﴿ يستضعِفُ طائفةً منهم ﴾، يعني: بَني إسرائيلَ. وكانوا في ذلك الوقتِ خِيارَ أهلِ زمانِهم. هذا وقد سُلِّط عليهم هذا الملك الجبّار العَنيد يستعمِلُهُم في أخسِّ الأعمال، ويَكُدُّهُم ليلاً ونهاراً في أشغالِه

(١) مسند أحمد ١/٤١٩.

وأشغالِ رَعِيَّتِه، ويقتُل مع هذا أبناءَهُم ويَسْتَحيي نِساءَهم، إهانةً لهم واحتقاراً، وخوفاً من أن يُوجد منهم الغلامُ الذي كان قد تخوَّفَ هو وأهلُ مملكتِه من أن يُوجَد منهم غلام يكونُ سَبَبُ هلاكِه وذهابُ دولتِه على يدَيه. وكانت القِبْطُ قد تلقَّوا هذا من بَني إسرائيلَ فيما كانوا يدرُسُونه من قول إبراهيمَ الخليل، حين وَرد الديار المصريَّة، وجَرَى له مع جَبَّارِها ما جَرَى، حين أخذَ سارَةَ ليتَّخِذَها جاريةً، فصانها الله منه، ومَنَعها منه بقُدرَته وسُلطَانِه. فبشر إبراهيمُ ـ عليه السلامُ ـ وَلَدَه أنه سيُولَد من صُلْبِه وذُرِّيته مَن يكونُ هلاكُ مَلِكِ مصرَ على يَدَيه، فكانت القِبطُ تَتَحدَّثُ بهذا عند فِرْعَونَ، فاحترزَ فِرْعَونُ من ذلك، وأمر بقتل ذُكُور بني إسرائيل. ولن يَنفَعَ حَذَرٌ من قَدَرٍ، لأنَّ أجلَ الله إذا جاءَ لا يُؤَخر، ولكلِّ أجَلٍ كتابٌ. ولهذا قال: ﴿ وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ على الذين استضعفُوا في الأرض ونجعلَهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * وَنُمكِّن لهم في الأرض ونُرِيَ فِرْعَونَ وهامانَ وجُنُودَهُما منهم ما كانوا يحذَرُونَ ﴾. وقد فَعَل تعالى ذلك بهم، كما قال: ﴿ وأورثنا القومَ الذين كانوا يُستضعَفُونَ مَشارِقَ الأرضِ ومَغَارِبها التي باركنا فيها وتَمَّت كَلِمَةُ ربِّكَ الحُسنَى على بني إسرائيلَ بما صَبَرُوا ودَمَّرنا ما كان يصنَعُ فِرْعَونُ وقومُه وما كانوا يَعرِشُون ﴾. وقال: ﴿ كذلك وأورثناها بَني إسرائيلَ ﴾، أرادَ فِرْعَونُ بحَوله وقُوَّته أن يَنجُوَ من مُوسَى، فما نَفَعه ذلك مع قَدَرِ الملك العَظيم الذي لا يُخالَفُ أمرُه القَدَري ولا يُغَالب، بل نَفَذ حكمُه وجَرَى قلمُه في القِدَم بأن يكونَ هلاكُ فِرْعَونَ على يديه، بل يكونُ هذا الغلامُ الذي احترزتَ من وُجُوده، وقتلْتَ بسببه أُلوفاً من الوِلْدانِ إنما مَنْشَؤُه ومَرْبَاه على فِراشِك، وفي دارك. وغِذَاؤُه من طَعَامِك، وأنت تُرَبِّيه وتُدَلِّله وتَتَفَدَّاه[1]، وحَتفُكَ وهلاكُكَ وهَلاكُ جُنُودِك على يَدَيه، لِتَعلَمَ أنَّ رَبَّ السمواتِ العُلا هو القاهرُ الغالبُ العَظيم، العَزِيزُ القويُّ الشَّديدُ المِحَال، الذي ما شاء كانَ، وما لم يَشأ لم يكُن.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾

ذكَرُوا أن فِرْعَونَ لما أكثَرَ من قَتل ذُكُور بني إسرائيل خافتِ القِبطُ أن يُفنِيَ بني إسرائيلَ، فيَلُون هُم ما كانوا يَلُونَه من الأعمال الشاقة، فقالوا لفِرعَونَ: إنه يُوشِكُ ـ إن استمر هذا الحال ـ أن يموتَ شيوخُهُم وغِلمانُهم لا يَعيشُون، ونساؤهم لا يمكن أن يَقُمْنَ بما يَقومُ به رجالُهم من الأعمال، فَيخلُصَ إلينا ذلك. فأمَرَ بقتل الوِلدان عاماً وتَركِهم عاماً، فوُلِدَ هارونُ ـ عليه السلام ـ في السنة التي يَترُكون فيها، ووُلِدَ موسى ـ عليه السلام ـ في السنة التي يَقتُلون فيها الوِلدَان، وكان لفِرعَونَ أناسٌ مُوكَّلُون بذلك، وقوابلُ يَدُرْنَ على النساء، فَمَن رأينها قد حَمَلت أحصَوا اسمَهَا، فإذا كان وِلادَتُها لا يَقبَلُها[2] إلا نساءُ القِبطِ، فإن وَلَدت المرأة جاريةً تَركْنَها وذَهَبْنَ، وإن ولدت غلاماً دَخَل أولئك الذَّبَّاحُون بأيديهم الشِّفَارُ المُرهَفَة، فَقتلوه ومَضَوا قَبَّحَهُم الله. فلما حَمَلت أُمُّ مُوسَى ـ عليه السلامُ ـ بِهِ لم يظهر عليها مَخَايِلُ الحَمْلِ كغَيرِها، ولم تَفطِن لها الدَّايات، ولكن لما وَضَعَته ذكراً ضاقت به ذَرْعاً وخافَت عليه خَوفاً شديداً وأحبَّته حُبّاً زائداً. وكان مُوسى ـ عليه السلامُ ـ لا يراه أحدٌ إلا أحبَّه، فالسعيدُ من أحبَّه

---

(١) لم تقع لنا هذه الصيغة من هذا الفعل، وإنما يقال: فَدَاه، وفاداه: إذا أعطى شيئاً فأنقذه.

(٢) قَبِلَت القابلةُ الوَلدَ: تَلَقَّته عند الولادة.

طبعاً وشرعاً قال الله تعالى: ﴿ وألقيتُ عليكَ مَحبَّةً مِنِّي ﴾. فلما ضاقت ذَرعاً به أُلهِمَت في سِرِّها، وأُلقي في خلَدها، ونُفِثَ في رُوعِها، كما قال الله تعالى: ﴿ وأوحينا إلى أُمِّ موسى أن أرضِعيه فإذا خِفْتِ عليه فألقيه في اليمِّ ولا تخافي ولا تحزَني إنا رادُّوه إليكِ وجاعِلوه من المُرسَلينَ ﴾. وذلك أنه كانت دارها على حافَّةِ النيل، فاتخذت تابُوتاً، ومَهَدت فيه مَهداً، وجعَلت تُرضِع وَلَدها، فإذا دخل عليها أحَدٌ مِمَّن تخافُه جعَلته في ذلك التابُوتِ، وسَيَّرته في البحر، ورَبَطته بحبلٍ عِندها. فلما كان في بعض الأيام دَخَل عليها مَن تخافه، فذهبت فوضعته في ذلك التابُوتِ، وأرسلته في البحر وذَهِلَت عن أن تَربطه، فذهَبَ مَعَ الماءِ واحتَمَلَهُ، حتى مَرَّ به على دارِ فرعَون، فالتقطه الجواري فاحتَمَلنَهُ، فذَهَبنَ به إلى امرأة فِرعَونَ ولا يدْرِين ما فيه، وخَشِينَ أن يَفْتَتَنَّ[1] عليها في فَتحِه دُونَها، فلما كُشِفت عنه إذا هو غلامٌ من أحسَنِ الخَلْقِ وأجمَلِه[2] وأحلاه وأبهاه، فأوقَع الله مَحبَّته في قَلْبِها حين نظَرت إليه، وذلك لسَعَادتِها وما أراد الله من كَرَامتها وشَقَاوة بَعلِهَا، ولهذا قال: ﴿ فالتقطه آلُ فِرعَونَ ليكونَ لهم عَدُوّاً وحَزَناً ﴾.

قال محمد بن إسحاق وغيره: اللامُ هنا لامُ العاقبَةِ لا لام التعليل[3]، لأنهم لم يُريدوا بالتقاطِه ذلك. ولا شكَّ أن ظاهرَ اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نُظِر إلى معنى السياق فإنه تَبقى اللام للتعليلِ، لأن معناه أن الله ـ تعالى ـ قَيَّضهم لالتقاطه ليجعلَه لهم عَدُوّاً وحَزَناً فيكون أبلغ في إبطالِ حَذَرِهم منه، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾

وقد رُوِي عَن أمير المؤمنين عُمَر بن عبد العزيز أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية، في تكذيبهم بكتاب الله وبأقدارِه النافذَة في علمه السابِق: «وموسى في علم الله السابق لفرعون عدوٌّ وحَزَنٌ، قال الله تعالى: ﴿ ونُرِيَ فِرعَون وهامان وجنودَهما منهم ما كانوا يحذَرُون ﴾، وقلتم أنتم: لو شاء فِرعَونُ أن يكونَ لموسى وَلِياً وناصراً، والله يقول: ﴿ ليكون لهم عَدُواً وحَزَناً ﴾»[4].

وقولُه تعالى: ﴿ وقالت امرأةُ فِرعَونَ قُرَّةُ عَينٍ لي ولَكَ لا تقتلوه عَسَى أن ينفعَنا أو نتَّخِذه وَلَداً وهم لا يَشعُرُون ﴾، يعني أنَّ فِرعَون لما رآه هَمَّ بقتله خوفاً من أن يكونَ من بني إسرائيل، فشَرَعت امرأتُه آسِيَةُ بنتُ مُزَاحِم تُحاجُّ عنه وتذُبُّ دُونَه، وتُحَبِّبه إلى فرعون، فقالت: ﴿ قُرَّةُ عينٍ لي ولك ﴾، فقال: «أما لَكِ فَنَعَم، وأما لي فلا». فكان كذلك، وهَدَاها الله به، وأهلَكه الله علي يَدَيه. وقد تقدَّم في حديثِ الفُتُون في «سورة طه» هذه القصَّة بطُولِها، من رواية ابن عباسٍ مَرفُوعاً، عن النسائيِّ وغيره[5].

وقولُه: ﴿ عَسَى أن ينفعَنا ﴾، وقد حَصَلَ لها ذلك، وَهَدَاها الله به، وأسكنها الجنَّةَ بِسَبَبِه. وقولُها: ﴿ أو نتَّخِذَه وَلَداً ﴾، أي: أرادت أن تتَّخِذَه وَلَداً وتتَبنَّاه، وذلك أنَّها لم يكن لها ولدٌ منه.

وقولُه تعالى: ﴿ وَهُم لا يَشعُرون ﴾، أي: لا يَدْرُونَ ما أرادَ اللهُ مِنهُ بالتقاطِهم إيَّاه، من الحِكمة العَظِيمةِ، والحجَّةِ البالغة.

---

(١) افتات عليه بالأمر: انفرد به واستبد به دونه.

(٢) هذا من أساليب العربية الفصيحة، وقد أعيد الضمير بالإفراد حملاً على المعنى، لأن المراد: من أحسن شيءٍ وأجمله.

(٣) روى ابن أبي حاتم في تفسيره بإسناده إلى ابن إسحق في تفسير الآية: «ليكون لهم في عاقبة أمره عدوّاً»، وكذلك رواه الطبري ٢٠/٣٢

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.

(٥) انظر الحديث عند تفسير الآية ٤٠ من سورة طه

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالى مُخبراً عن فُؤادِ أُمِّ موسى، حين ذَهَبَ وَلَدُها في البحرِ، أنّه أصبحَ فارغاً، أي: من كل شيء من أمور الدنيا إلا مِن موسى. قاله ابن عباس، ومجاهدٌ، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وأبو عُبَيدة[1]، والضَّحاك، والحسنُ البصريُّ، وقتادةُ، وغيرهم.

﴿ إنْ كادَت لَتُبدي به ﴾، أي: إن كادت من شِدّة وَجْدِها وحُزنها وأسَفِها لَتُظهر أنّه ذَهَب لها ولدٌ، وتُخبر بحالها، لولا أن الله ثَبَّتها وصَبَّرها، قال الله تعالى: ﴿ لولا أن رَبَطنا على قَلْبِها لِتَكُون من المُؤمنين ۞ وقالَت لأُخته قُصِّيه ﴾، أي: أمرت ابنتها ـ وكانت كبيرةً تَعِي ما يُقالُ لها ـ فقالت لها: ﴿ قُصِّيه ﴾، أي: اتْبعي أثَرَه، وخُذي خَبَرَه، وتَطَلَّبي شأنه من نَواحِي البَلَد. فَخرجت لذلك، ﴿ فبَصُرَت به عن جُنُب ﴾، قال ابنُ عبّاس: عن جَانِبٍ.

وقال مجاهدٌ: ﴿ فَبَصُرت بِهِ عن جُنُبٍ ﴾، عن بعيد. وقال قتادةُ: جعلت تنظر إليه وكأنّها تُريده.

وذلك أنه لما استقرَّ موسى عليه السلام بدار فِرْعَون، وأحبَّته امرأةُ الملِك، واستطلقته منه، عَرَضُوا عليه المَراضِعَ التي في دَارِهم، فلم يقبل منها ثَدْياً، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك. فَخَرجوا به إلى سُوقٍ لعلَّهم يجدون امرأةً تصلُح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عَرَفته. ولم تُظهر ذلك ولم يَشعُروا بها، قال الله تعالى: ﴿ وَحَرَّمنا عليه المَراضِعَ من قبلُ ﴾، أي: تحريماً قَدَرِيّاً، وذلك لكرامة الله له صَانَه عن أن يرتضع غير ثَدْيِ أُمِّه، ولأن الله ـ سبحانه ـ جعل ذلك سبباً إلى رُجُوعِه إلى أُمِّه لِتُرضِعَه وهي آمِنةٌ بعد ما كانت خائفةً. فلما رأتهم حائرِينَ فيمن يُرضِعهُ ﴿ قالَتْ هَل أَدُلُّكم على أَهْلِ بيتٍ يَكفُلُونه لكم وهم له نَاصِحُونَ ﴾؟

قال ابن عباس: لما قالت ذلك أخذُوها، وشَكُّوا في أمرها، وقالوا لها: وما يُدرِيكِ نُصحُهم له وشَفَقتُهم عليه؟ فقالت: نصحُهم له وشفقتهم عليه رغبتُهم في صِهْرِ[2] الملك، ورَجاءَ مَنْفَعَتِه. فأرسلُوها.

فلما قالت لهم ذلك وخَلَصت من أذاهم ذَهَبُوا مَعَها إلى منزلهم، فَدَخلُوا به على أُمّه، فأعطته ثَدْيَها فالتقمه، فَفَرِحُوا بذلك فَرَحاً شَديداً. وذَهَب البشير إلى امرأةِ المَلِك، فاستدعت أُمَّ موسى، وأحسَنَت إليها، وأعطتها عطاءً جَزِيلاً، وهي لا تعرف أنها أُمُّه في الحقيقة، ولكن لكونه وافَق ثَدْيَها. ثم سألتها آسيةُ أن تُقيم عندها فَتُرضِعَه، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً، ولا أقدِر على المُقام عِنْدَكِ. ولكن إن أحببتِ أن أُرضِعَه في بيتي فعلتُ. فأجابتها امرأةُ فِرْعَونَ إلى ذلك، وأجْرَت عليها النفقةَ والصِّلاتِ والكَساوى والإحسانَ الجزيل. فرجعت أُمُّ موسى بولَدِها راضيةً مَرْضِيةً، قد أبدلها الله من بَعدِ خَوفها أمناً، في عزٍّ وجاهٍ ورزقٍ دَارٍّ[3]. ولهذا جاء في الحديث: «مثلُ الذي يعمَلُ ويحتسِبُ في صَنعته الخيرَ، كمثَلِ أُمِّ موسى تُرضِع ولدها وتأخذ

(١) هو أبو عُبَيدة بن عبد الله بن مَسْعُود.

(٢) كذا في النسخ. وقد روي عن ابن عباس أن الله حرم من النسب سبعاً، ومن الصهر سبعاً. وذكر أن من المحرمات من الصِّهر ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم﴾. فقولها: «رغبتهم في صِهْر الملك» معناه: أنه رضاعتهم له تحدث مصاهرة للملك. وقد مرَّ في حديث الفُتُون عند تفسير الآية ٤٠ من سورة طه: «رغبتهم في ظُئُورة الملك». وانظر تفسيرنا لهذا النصّ هنالك. (٣) أي: كثير.

أجرَها[1]. ولم يكن بين الشدَّةِ والفَرَجِ إلا القليل، يوم وليلة، أو نحوه، والله أعلم، فسبحان من بيده الأمرُ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكُن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً، وبعدَ كلِّ ضِيقٍ مخرجاً. ولهذا قال تعالى: ﴿ فَرَددناه إلى أُمِّهِ كي تقرَّ عينُها ﴾، أي: به، ﴿ ولا تحزَنَ ﴾، أي: عليه، ﴿ ولتعلم أن وعدَ الله حَقٌّ ﴾، أي: فيما وعدها من رَدِّه إليها، وجَعلِه من المُرسَلِينَ. فحينئذ تحقَّقت بردِّه إليها أنه كائنٌ منهُ رسولٌ من المُرسَلِين، فعاملته في تربِيَتِه ما ينبغي له طبعاً وشرعاً.

وقولُه: ﴿ ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون ﴾، أي: حُكْمَ الله في أفعالِه وعواقبِها المحمودة، التي هو المحمودُ عليها في الدُّنيا والآخرة، فرُبَّما يقعُ الأمرُ كريهاً إلى النفوس، وعاقبتُه محمودةٌ في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿ وَعَسى أن تكرَهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ﴾. وقال: ﴿ فعَسَى أن تكرَهُوا شيئاً ويجعلَ اللهُ فيه خيراً كثيراً ﴾.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

لَمَّا ذكر تعالى مبدأَ أمرِ موسى ـ عليه السلام ـ ذكر أنه لَمَّا بلغ أشُدَّه واستوى، آتاه الله حُكماً وعِلْماً، قال مجاهد: يعني النُّبوَّةَ. ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾.

ثم ذكر تعالى سَبَبَ وُصُولِه إلى ما كان تعالى قَدَّر له من النُّبوَّة والتكليم في قَضِيَّةِ قتله ذلك القِبْطيَّ، الذي كان سبب خُروجه من الدِّيار المصريَّة إلى بلاد مَدْيَنَ، فقال تعالى: ﴿ ودخلَ المدينةَ على حينِ غَفْلَةٍ من أهلها ﴾، قال ابنُ جُرَيجٍ، عن عَطاء الخراسَانيِّ، عن ابن عباس: وذلك بينَ المغرب والعِشاءِ.

وقال ابنُ المُنكَدِر، عن عَطاءِ بن يَسارٍ، عن ابن عباسٍ: كان ذلك نصفَ النهار. وكذلك قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وعِكْرِمَةُ، والسُّدِّي، وقتادةُ.

﴿ فوجَدَ فيها رَجُلين يقتَتِلان ﴾، أي: يَتَضاربان ويَتَنازعان، ﴿ هذا من شيعَتِهِ ﴾، أي: من بني إسرائيلَ، ﴿ وهذا من عَدُوِّه ﴾، أي: قِبطيٌّ، قاله ابنُ عبَّاس، وقتادةُ، والسُّدِّي، ومحمدُ بن إسحاقَ. فاستغاث الإسرائيليُّ بموسى عليه السلام، وَوَجد مُوسَى فُرصَةً، وَهِيَ غفلةُ الناسِ، فَعَمَد إلى القِبطيِّ ﴿ فوكَزَه مُوسَى فقَضَى عليه ﴾.

قال مجاهدٌ: وَكَزه، أي: طَعَنه بجُمْعِ[2] كَفِّه. وقال قتادةُ: وَكَزَه بِعَصاً كانَت معه.

﴿ فَقَضَى عليه ﴾، أي: كان فيها حتفُه فمات، ﴿ قال ﴾ موسى: ﴿ هذا من عَمَلِ الشيطانِ إنه عَدوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ● قال ربِّ إني ظَلَمتُ نفسي فاغفر لي فَغَفَرَ له إنه هو الغفورُ الرحيمُ ● قال ربِّ بما أنعمتَ علي ﴾، أي: بما جَعَلْتَ لي من الجاه والعِزَّةِ والمَنَعةِ ﴿ فلن أكونَ ظهيراً ﴾، أي: مُعِيناً ﴿ للمُجْرِمِينَ ﴾، أي الكافِرِينَ بكَ، المُخالِفِينَ لأمرِكَ.

---

(1) أخرجه البيهقي في سُننه الكبرى بنحوه، في كتاب السير ٩/٢٧.
(2) يُقال: ضربه بجُمْعِ يده: ضربه بها مقبوضة.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩)﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن موسى ـ عليه السلام ـ لما قتل ذلك القبطيَّ أنه أصبح ﴿في المدينة خائفاً﴾، أي: من معرَّة ما فعل، ﴿يترقَّب﴾، أي: يتلفَّتُ ويتوقَّع ما يكونُ من هذا الأمر، فمرَّ في بعض الطُّرق، فإذا ذلك الذي استنصرَه بالأمسِ على ذلك القبطيِّ يُقاتِل آخر، فلما مرَّ موسى استصرخه على الآخر، فقال له موسى: ﴿إنك لغويٌّ مبينٌ﴾، أي: ظاهر الغَواية كثيرُ الشرِّ. ثم عزم على البطش بذلك القبطيِّ، فاعتقد الإسرائيليُّ لِخَوَره وضعفِه وذلَّتِه أن موسى إنما يريدُ قصدَه لمَّا سمعه يقولُ ذلك، فقال يدفع عن نفسه: ﴿يا موسى أتريدُ أن تقتلني كما قتلتَ نفساً بالأمس﴾. وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام، فلما سمعها ذلك القبطيُّ لَقِفَها من فمه، ثم ذهبَ بها إلى باب فرعونَ فألقاها عندهم، فعلم بذلك، فاشتدَّ حنَقُه، وعزَم على قتلِ موسى، فطلبوه وبعثوا وراءه ليُحضِروه لذلك.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠)﴾

قال تعالى: ﴿وجاء رجلٌ﴾، وصفَهُ بالرُّجولية لأنه خالف الطريق، فسلك طريقاً أقربَ من طريق الذين بُعثوا وراءه، فسبق إلى موسى، فقال له: يا موسى، ﴿إن الملأ يأتمرون بك﴾، أي: يتشاورون فيك ﴿ليقتلوك فاخرج﴾، أي: من البلد، ﴿إني لك من الناصحين﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾

لمَّا أخبره ذلك الرجلُ بما تمالأ عليه فرعونُ ودولتُه في أمره خرج من مصر وحدَه، ولم يألف ذلك قبلَه، بل كان في رفاهيةٍ ونعمةٍ ورياسةٍ، ﴿فخرج منها خائفاً يترقَّب﴾، أي: يتلفَّتُ، ﴿قال ربِّ نجني من القوم الظالمين﴾، أي: من فرعونَ وملئه. فذكروا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعث له مَلَكاً على فرسٍ، فأرشده إلى الطريق، فالله أعلم.

﴿ولمَّا توجَّه تِلقاء مدين﴾، أي: أخذ طريقاً سالكاً مَهْيَعاً(١) فرح بذلك، ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾، أي: إلى الطريقِ الأقوم. ففعل الله به ذلك، وهداه إلى الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة، فجعله هادياً مهدياً.

(١) المَهْيَع من الطُّرق: البيِّن.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾، أي: ولما وصل إلى مَدْيَن وَوَرَد ماءَها، وكان لها بئر تَرِدُه رِعَاء الشاءِ(١) ﴿ وَجَدَ عليه أُمَّةً ﴾، أي: جماعةً ﴿ من الناس يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِم امرأتين تَذُودَانِ ﴾، أي: تُكَفْكِفَان غَنَمَهما أن تَرِد مع غَنَم أولئك الرِّعاءِ لئلا يُؤْذَيَا. فلما رآهما موسى ـ عليه السلام ـ رَقَّ لهما ورَحِمَهُما، ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾، أي. ما خَبَرُكُما لا تَرِدَانِ مع هؤلاء؟ ﴿ قالتا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾، أي: لا يحصلُ لنا سَقْيٌ إلا بعد فَرَاغِ هؤلاء، ﴿ وَأَبُونَا شيخٌ كبيرٌ ﴾ أي: فهذا الحال المُلجِىءُ لنا إلى ما تَرَى. قال الله تعالى: ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾.

قال أبو بكر بنُ أبي شَيْبَةَ: حدثنا عُبَيد الله، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عَمْرو بن مَيْمونٍ الأَوْدِيِّ، عن عُمَر بن الخطاب ـ رَضِي الله عنه ـ أن مُوسَى ـ عليه السلامُ ـ لما وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ، وجَدَ عليه أُمَّةً من الناس يَسقُون، قال: فلما فرغوا أعادُوا الصخرةَ على البئرِ، ولا يُطيقُ رفعَها إلا عَشَرةُ رجالٍ، فإذا هو بامرأتين تَذُودَانِ، قال: ما خَطْبُكُما؟ فَحَدَّثَتَاه، فأتى الحجر فرَفَعه، ثم لم يَسْتَقِ إلا ذنوباً واحداً حتى رَوِيَتِ الغَنَمُ. إسناد صحيح(٢).

وقولُه: ﴿ ثم تَوَلَّى إلى الظلِّ فَقَالَ ربِّ إنّي لما أنزلتَ إليَّ من خَيرٍ فقيرٌ ﴾، قال ابنُ عباسٍ: سار مُوسَى من مِصرَ إلى مَدْيَن، ليس له طعامٌ إلا البقلُ وَوَرَقُ الشَّجرِ، وكان حافياً فما وصل إلى مَدْيَنَ حتى سَقَطت نعلُ قَدَمِهِ(٣). وَجَلَس(٤) في الظِّل وهو صَفْوَةُ الله من خَلْقِهِ، وإن بطنه لاصقٌ بظهره من الجوع، وإن خُضرةَ البَقْلِ لَتُرى من داخلِ جَوفِه، وإنه لمحتاجٌ إلى شِقِّ تَمرَةٍ.

وقولُه: ﴿ إلى الظل ﴾، قال ابنُ عباس، وابنُ مسعود، والسُّدِّي: جَلَس تحت [ظِلِّ](٥) شَجَرةٍ.

وقال ابنُ جرير: حدثني الحُسَين بن عَمرو العَنْقَزِيُّ، حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن عَمرو بن مَيْمُونٍ، عن عبدِ الله ـ هو ابنُ مَسْعُودٍ ـ قال: حَثَثْتُ على جَمَلٍ ليلتَين، حَتَّى صَبَّحت مَدْيَنَ، فسألتُ عن الشَّجَرَةِ التي أوَى إليها مُوسَى، فإذا شجرةٌ خضراءُ تَرِفُّ، فأهوَى إليها جَمَلِي ـ وكان جائعاً ـ فأخذها جَمَلِي فعالجَهَا ساعةً، ثم لفظَها. فدعوتُ الله لموسَى ـ عليه السلام ـ ثم انصرفتُ(٦).

وفي رِوايَةٍ عن ابن مَسْعُودٍ: أنه ذَهَب إلى الشجرة التي كَلَّم الله منها موسى، كما سيأتي، والله أعلم.

وقال السُّدِّي: كانت من شجر السَّمُر(٧). وقال عطاءُ بنُ السائِب: لما قال مُوسَى: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾، أَسْمَعَ المرأةَ(٨).

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ

---

(١) الرِّعاء: جمع راعٍ. ويجمع أيضاً على رُعَاةٍ، ورُعْيانٍ.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفضائل ١١/ ٥٣٠ ـ ٥٣١. والذَّنوب: الدَّلو العظيمة.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، وكذلك ابن المنذر. الدر المنثور ٦/ ٤٠٥.
(٤) في النسخ: ولما جَلَس.
(٥) من نسخة الحرم
(٦) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٨
(٧) السَّمُر: ضرب من شجر الطلح، وهو: شجر عظامٌ من شجر العضاه، ترعاه الإبل.
(٨) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٩، ولفظه بعد الآية: «بلغني أنَّ موسى قالها وأَسْمَع المرأة».

وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ
اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ
أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

لما رَجَعتِ المرأتان سَريعاً بالغَنَم إلى أبيهما أنكر حَالَهما ومَجِيئَهما سَريعا، فَسألهما عن خبرهما، فقصَّتا عليه ما فَعَل موسى عليه السلام، فَبَعث إحداهما إليه لِتدعُوَه إلى أبيها، قال الله تعالى: ﴿ فجاءته إحداهما تَمْشِي على استحياءٍ ﴾، أي: مَشْيَ الحَرائر، كما رُوي عن أمير المؤمنين عُمَر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: جاءت مُستَتِرةً بِكُمِّ دِرْعِها(١).

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا أبو نُعيم، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن عمرو بن ميمون قال: قال عُمَر ـ رضي الله عنه ـ جاءَتْ تَمشِي على استحياءٍ، قائلَةً بِثوبها على وَجْهِها، ليست بِسَلْفَعٍ، خَرّاجَةٍ وَلّاجَةٍ. هذا إسناد صحيح(٢).

قال الجَوهَريُّ: السَّلْفَعُ من الرجال: الجَسُورُ. ومن النساء: الجَرِيئة السَّلِيطَةُ، وَمِنَ النُّوق: الشَّدِيدَةُ.

﴿ قالت إنَّ أبي يدعُوكَ لِيَجزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيتَ لنا ﴾، وهذا تَأدُّبٌ في العبارة، لم تطلُبه طَلَباً مُطلَقاً لئلا يُوهِمَ رِيبةً، بل قالت: ﴿ إنَّ أبي يدعُوك ليجزِيَكَ أجرَ ما سَقَيت لنا ﴾، يعني: لِيُثيبَك ويُكافِئَك على سَقْيِك لِغَنَمنا. ﴿ فلما جاءه وقَصَّ عليه القَصَصَ ﴾، أي: ذَكَر له ما كان من أمره، وما جَرَى له من السبب الذي خَرَج من أجله من بلده، ﴿ قال لا تَخَفْ نَجَوتَ من القوم الظّالمين ﴾، يقول: طِب نفساً وقَرَّ عيناً، فقد خرجتَ من مَمْلَكتِهم فلا حُكْمَ لهم في بلادنا، ولهذا قال: ﴿ نَجَوتَ من القومِ الظالمين ﴾.

وقد اختلف المفسِّرون في هذا الرجل: مَن هُو؟ على أقوال: أحدها أنه شُعَيْبٌ النبيُّ ـ عليه السلام ـ الذي أُرسِلَ إلى أهل مدين. وهذا هو المشهورُ عند كثيرين، وقد قاله الحَسَنُ البَصريّ وغير واحد. ورواه ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي: حدثنا عبد العزيز الأُوَيسِيُّ، حدثنا مالك بن أَنَس: أنه بلغه أن شُعَيباً هو الذي قَصَّ عليه موسى القَصَصَ، قال: ﴿ لا تَخَفْ نَجَوتَ من القوم الظّالمين ﴾.

وقد روى الطَّبَراني عن سَلَمة بن سعدٍ العَنَزيِّ أنه وَفَد على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له: مرحباً بقوم شُعَيبٍ وأَخْتانِ مُوسَى، هُدِيت(٣).

وقال آخرون: بل كان ابن أخِي شُعَيب. وقيل: رَجُلٌ مؤمن من قوم شُعَيب. وقال آخرون: كان شُعَيب قبل زمان موسى ـ عليه السلام ـ بِمُدَّةٍ طويلة، لأنه قال لقومه: ﴿ وما قومُ لُوطٍ منكم ببعيدٍ ﴾. وقد كان هلاكُ قومِ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ٢٠/٦٠، ودِرْعُ المرأة: قميصُها.

(٢) وأخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير ٢/٤٠٧، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

هذا وقوله: وقائلة بثوبها، أي: واضعةً ثوبها على وجهها والعرب كانت تستعمل القول في كل فعل، ورواية الحاكم: وكانت تجيء وهي خرّاجةٌ ولّاجةٌ واضعةٌ يدها على وجهها، وقوله: خرّاجة ولّاجة تصوير لاستحيائها، من شأن المستحي أنه لا يدري ما يقول وما يَفْعل.

(٣) المعجم الكبير ٧/٥٥. والأَخْتانُ: كلّ ما كان من قبل المرأة، كأبيها وأخيها.

لُوطٍ في زمن الخليل ـ عليه السلام ـ بنص القرآن، وقد عُلِم أنه كان بين موسى والخليل ـ عليهما السلام ـ مدَّةٌ طويلة تزيد على أربعمائة سنةٍ، كما ذكره غيرُ واحدٍ. وما قيل: إنَّ شُعَيباً عاش مدة طويلة، إنما هو ـ والله أعلم ـ احترازٌ من هذا الإشكال. ثم من المُقَوِّي لكونه ليس بِشُعَيبٍ أنه لو كان إيّاه لأوشك أن يَنُصَّ على اسمه في القرآن هاهنا. وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قِصَّة موسى، لم يَصِحَّ إسناده، كما سنذكره قريباً إن شاء الله. ثُمَّ من الموجود في كتب بني إسرائيل أَنَّ هذا الرجلَ اسمُه يَثْرُون[١]. والله أعلَمُ. وقال أبو عُبَيدة ابنُ عبدِ الله بن مَسْعُودٍ: وأَثْرُونُ هو ابنُ أخي شُعَيب عليه السلام[١].

وعن أبي جَمْرَةَ[٢]، عن ابن عباس: الذي استأجر مُوسَى يَثْرَى صاحبُ مدْيَنَ. رَوَاه ابنُ جَرير، ثم قال: الصوابُ أَنَّ هذا لا يُدرَك إلَّا بخَبَرٍ، ولَا خَبَرَ تَجِبُ به الحُجَّةُ في ذلك.

وقولُه: ﴿ قالت إحداهُما يا أَبتِ استأجِرْهُ إنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرتَ القويُّ الأمينُ ﴾، أي: قالت إحدى ابنتَيْ هذا الرجلِ. قيل: هي التي ذَهَبت وَرَاء موسى ـ عليه السلام ـ قالت لأبيها: ﴿ يا أبتِ استأْجِرْهُ ﴾، أي: لِرِعْيَةِ هذه الغَنَمِ.

قال عمر، وابنُ عباس، وشُرَيح القاضي، وأبو مَالِكٍ، وقتادةُ، ومُحمَّد بن إسحاقَ، وغيرُ واحد: لما قالت: ﴿ إنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرتَ القويُّ الأمينُ ﴾، قال لها أبوها: وما عِلمُكِ بذلك؟ قالت: إنه رَفَع الصَّخرَةَ التي لا يُطيق حَمْلَها إلا عَشَرةُ رجالٍ، وإنه لما جئتُ مَعَه تقدمتُ أمامه، فقال: لي: كُوني من وَرَائي، فإذا اختلفتِ الطريقُ فاحذِفِي[٣] بحصَاةٍ أعلَمُ بها كيفَ الطريقُ لأهتدي إليه.

قال سُفيان الثَّوريُّ، عن أبي إسحاق، عن أبي عُبَيدَةَ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: أفرسُ الناس ثلاثةٌ: أبو بكر حين تَفَرَّس في عُمَر، وصاحبُ يوسُفَ حين قال: ﴿ أكرِمِي مَثْوَاه ﴾، وصاحِبَةُ مُوسَى حين قالت: ﴿ يا أبت استأجِره إنَّ خيرَ مَنِ استأجرتَ القويُّ الأمينُ ﴾[٤].

قال: ﴿ إني أُريد أن أُنكِحَكَ إحدى ابنتَيَّ هاتين ﴾، أي: طَلَب إليه هذا الرجلُ الشيخُ الكبيرُ أن يرعَى عنه، ويُزوِّجه إحدى ابنتَيه هاتَين. قال شُعَيب الجَبَئيُّ: وهما صَفُورا، وَلَيَّا[٥].

وقال محمد بن إسحاق: صَفُورا وشَرْفا، ويقال: لَيَّا[٥]. وقد استدلَّ أصحابُ أبي حَنيفة بهذه الآية على صِحَّة البيع فيما إذا قال: بعتُكَ أحَدَ هذين العبدين بمائةٍ. فقال: اشتريتُ. أنه يَصِحُّ، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ على أن تَأجُرني ثماني حِجَجٍ فإن أتممتَ عَشْراً فمن عِندِكَ ﴾، أي: على أن تَرْعَى عَلَيَّ ثماني سنين، فإن تَبرَّعت بزيادةِ سَنَتَين فهو إليكَ، وإلَّا ففي ثمانٍ كِفَايةٌ، ﴿ وما أريد أن أَشُقَّ عَلَيك سَتَجِدُني إن شاءَ الله من الصالحينَ ﴾، أي: لا أشاقك، ولا أُوَاذِيكَ، ولا أُمَارِيكَ.

وقد استدلُّوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعيِّ، فيما إذا قال: «بعتُكَ هذا بعَشرةٍ نقداً، أو بعشرين نسيئةً»، أنه يصِحُّ، ويختار المشتري بأيهما أخَذه صَحَّ. وحُمِلَ الحديثُ المرويُّ في سُنَن أبي داودَ: «من باع

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة أن اسمه: أثرون. ثم قال: قال أبو زرعة: الصحيح يثْرُون. وانظر مُفْحِمات الأقران للسيوطي ١٥٩

(٢) في نسخة الحرم: أبي هريرة. وفي نسخة الأزهر: أبي صخرة. وفي أخرى: أبي حمْزَة. ومثلها في تفسير الطبري ٦٢/١١. ولعل الصواب ما أثبتناه، وأبو جمْرة هو: نَصْرُ بن عِمْران الضبعي. روى عنه حماد بن سلمة ـ كما في رواية الطبري. وانظر تهذيب الكمال ٢٥٦/٧، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤٦٥/٨

(٣) حذفه بحصاةٍ: رماه بها

(٤) تقدم عند تفسير الآية ٢١ من سورة يوسف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره. وانظر مفحمات الأقران للسيوطي ١٥٨، كما أخرجه الطبري في تفسيره ٦٢/٢٠.

يَحتين في بَيْمَةٍ فَلَه أوكَسْهُما أو الرِّبا»(١). على هذا المذهب. وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظرٌ، ليس هذا موضع بَسْطِهِ لِطُوله. والله أعلم.

ثم قد استدلَّ أصحابُ الإمام أحمدَ ومن تَبِعهم، في صِحَّةِ استئجار الأجير بالطُّعمة والكُسوة بهذه الآية، واستأنسوا في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن زيد، ابنُ ماجه في كتابه السُّنن، حيث قال «باب استئجار الأجير عَلَى طعام بَطْنِه»:

حدثنا محمد بن المُصَفَّى الحِمْصِيّ، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، عن مَسْلَمَةَ بن علي، عن سعيد بن أبي أيوبَ، عن الحارث بن يزيدَ، عن علي بن رَبَاح قال: سمعت عُتبةَ بن النُّدَّر يقولُ: كنّا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقرأ: ﴿طسٓمٓ﴾، حتى إذا بلغ قصَّة موسى قال: «إن موسى آجَرَ نفسَه ثماني سنين ـ أو: عشر سنين ـ على عِفَّةِ فَرْجِهِ وطَعَام بَطْنِهِ»(٢).

وهذا الحديثُ من هذا الوجه ضعيف؛ لأنَّ مَسْلَمَةَ بن علي ـ وهو الخُشَني الدِّمشقي البِلَاطِيُّ ـ ضعيف الرواية عند الأئمة، ولكن قد رُوِي من وجه آخر، وفيه نَظَر أيضاً، فقال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لَهِيعَةَ ـ وحدثنا أبو زُرْعَةَ،حدثنا صَفوانُ، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لَهِيعَةَ ـ عن الحارث بن يزيدَ الحَضْرَمِيِّ، عن علي بن رَبَاح اللَّخمِيِّ قال: سمعت عُتبةَ بن النُّدَّر السُّلَمِيَّ ـ صاحبَ رسول الله ـ ﷺ ـ يُحدِّث أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: إنَّ مُوسَى آجر نَفْسَه بِعفَّة فَرْجِه، وطُعْمَة بَطْنِه».

وقولُه تعالى إخباراً عن مُوسَى عليه السلام: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، يقول: إنَّ موسى قال لِصِهره: الأمرُ على ما قلتَ من أنك استأجرتَني على ثماني سنين، فإن أتممتُ عشراً فمن عِنْدِي، فأنا متى فعلتُ أقلَّهما بَرِئت من العهد، وخرجتُ من الشَّرط، ولهذا قال: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾، أي: فلا حَرَجَ عليَّ مع أن الكامل ـ وإن كان مُباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج، كما قال تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لحمزةَ بن عَمرو الأسلمي رضي الله عنه، وكان كثير الصيام، وسأله عن الصوم في السَّفر ـ فقال: «إن شئتَ فَصُم، وإن شئت فأفطِر»(٣)، مع أنَّ فعل الصيام راجحٌ من دليل آخَرَ.

هذا وقد دَلَّ الدليلُ على أن مُوسَى ـ عليه السلامُ ـ إنما فعل أكمَلَ الأجلين وأتمَّهما، قال البُخاريُّ:

حَدَّثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سَعِيدُ بن سُلَيمان، حدثنا مَرْوان بن شُجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جُبَير قال: سألني يَهُودِيٌّ من أهل الحِيرة: أَيَّ الأجلين قَضَى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدَمَ على حَبْرِ العَرَب فأسأله. فَقَدِمتُ فسألتُ ابنَ عباس ـ رَضِي الله عنه ـ فقال: قَضَى أكثرَهُما وأطيَبهما، إنَّ رسولَ الله إذا قال فَعَل(٤).

---

(١) سنن أبي داود، كتاب البيوع ٣/٢٧٤. وأوكَسُهما: أنقصهُما.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الرهون ٢/٨١٧.

(٣) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي، ثلاثتهم في كتاب الصوم، مسلم ٢/٧٩٠، وسنن أبي داود ٢/٣١٦، والنسائي ٤/١٨٥. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/٤٩٤.

(٤) فتح الباري، كتاب الشهادات ٥/٢٨٩ ـ ٢٩٠. وقال في الفتح: «كذا رواه سعيد بن جبير موقوفاً، وهو في حكم المرفوع، لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب».

هكذا رواه البخاري، وهكذا رواه حَكِيم بن جُبَير وغيرُه، عن سَعِيد بن جُبَير. ووقَعَ في «حَدِيث الفُتُون»[١]، من رواية القاسم بن أبي أيُّوبٍ، عن سَعِيد بن جُبَير: أن الذي سأله رَجلٌ من أهل النصرانيَّة. والأولُ أشبهُ، والله أعلم.

وقد رُوي من حديثِ ابن عبَّاسٍ مَرفُوعاً، قال ابن جَرِير:

حدثنا أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا الحُمَيدي، حدثنا سُفيانُ، حدثني إبراهيم بن يحيى بنُ أبي يَعقُوب، عن الحكم بن أبَان، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عبَّاسٍ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «سألتُ جبريلَ. أيَّ الأجلَينِ قضى موسى؟ قال: أتَمُّهُمَا وأكْمَلُهُما»[٢].

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن الحُمَيدي، عن سُفيانَ ـ وهو ابن عُيَيْنَةَ ـ حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب ـ وكان من أسناني أو أصغَرَ مني، فذكره.

قلت: وإبراهيمُ هذا ليس بمعروف.

ورواه البَزَّارُ عن أحمدَ بن أبانَ القُرَشيِّ، عن سُفيان بن عُيَينة، عن إبراهيم بن أعينَ، عن الحكم بن أبَان، عن عكرمةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ فذكره. ثم قال: لا نعرِفهُ مرفوعاً عن ابن عبَّاسٍ إلا من هذا الوجه[٣].

وقال ابن أبي حاتم: قُرِىءَ على يُونُسَ بن عبد الأعلى، أنبأنا ابنُ وَهبٍ، أنبأنا عَمرو بن الحارث، عن يحيى بن مَيْمُونٍ الحَضْرَميِّ، عن يوسف بن سَرْح[٤] أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ سُئل: أيَّ الأجلين قَضَى مُوسَى؟ قال: لا عِلْمَ لي. فَسأل رسولُ الله ـ ﷺ ـ جبريلَ، فقال: لا عِلْمَ لي. فسأل جِبْريلُ مَلَكاً فوقَه فقال: لا عِلْمَ لي. فَسأل ذلك المَلَكُ ربَّه ـ عَزَّ وجَلَّ ـ عما سأله عنه جِبْريلُ عمَّا سأله عنه مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ فقال الربُّ ـ سبحانه وتعالى ـ: أبَرُّهما وأبقاهُما. أو قال: أزكاهُما.

وهذا مُرسَلٌ. وقد جاء مُرسَلاً من وجه آخر، فقال سُنَيد:

حدثنا حَجَّاجٌ، عن ابن جُرَيج قال: قال مجاهدٌ: إنَّ النبيَّ ـ ﷺ ـ سأل جِبْريلَ: أيَّ الأجلين قَضَى مُوسَى؟ فقال: سوف أسألُ إسرافيلَ. فسأله فقال: سوف أسألُ الربَّ عَزَّ وجَلَّ. فسأله فقال: أبَرُّهما وأوفاهما[٥].

طريقٌ أخرى مُرسَلة أيضاً، قال ابنُ جَرِير:

حدثنا ابنُ وكيع، حدَّثنا أبي، حدثنا أبو مَعْشَر، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ قال: سُئِل رسول الله ـ ﷺ ـ: أيَّ الأجلين قَضَى موسى؟ قال: أوفاهما وأتَمُّهما[٦].

فهذه طُرُقٌ مُتَعاضِدةٌ، ثم قد رُوِي هذا مرفوعاً من رواية أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ: قال الحافظُ أبو بكر البَزَّار:

حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن مُحمَّد بن السَّكَن، حدثنا إسحاقُ بن إدْرِيسَ، حدثنا عُوَيْدُ بن أبي عمران

---

(١) انظر تفسير الآية ٤٠ من سورة طه
(٢) تفسير الطبري ٢٠/٦٨.
(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٦٣.
(٤) يُوسُفُ بنُ سَرْحٍ ـ بالحاء المهملة ـ ذكره الدارقطني في المؤتلف والمختلف ٣/١٢٢٥، وابن ماكولا في الإكمال ٤/٢٨٨
(٥) تفسير الطبري ٢٠/٦٩

الجَوْنيّ، عن أبيه، عن عبد الله بن الصّامت، عن أبي ذرّ: أن النبيّ ـ ﷺ ـ سُئِل: أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهُما وأبرّهما. قال: وإن سُئِلتَ أيّ المرأتين تزوّج؟ فقُل: الصُّغرى منهما.

ثم قال البزّار: لا نعلم يُروى عن أبي ذرّ إلّا بهذا الإسناد[1].

وقد رَوَاه ابنُ أبي حاتم من حديث عُوَيْدِ بن أبي عِمْران، وهو ضعيف، وَقد رُوِيَ أيضاً نحوُه من حديث عُتبَة بن النُّدَّر بزيادةٍ غريبة جداً، فقال أبو بكر البزّار.

حدثنا عمر بن الخطاب السِّجِسْتَاني، حدثنا يحيى بن بُكَير، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، حدثنا الحارثُ بن يزيدَ، عن علي بن رَبَاحٍ اللخمي قال: سمعت عتبة بن النُّدَّرِ يقولُ: إنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ سُئِل: أيّ الأجلين قضى موسَى؟ قال: أبرّهما وأوفاهُما. ثم قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: إن مُوسَى ـ عليه السلام ـ لما أراد فِراق شُعَيب ـ عليه السلام ـ أمر امرأته أن تسأل أباها أن يُعطِيهَا من غَنَمه ما يَعِيشُون به. فأعطاها ما وَلَدت غَنَمُه في ذلك العام من قالِب لَونٍ. قال: فما مَرّت شاةٌ إلا ضَرَبَ مُوسَى جَنْبَها بعَصاه فولدت قَوالِبَ ألوانٍ كُلّها، وولدت ثنتين وثلاثاً، كلّ شاة ليس فيها فَشُوش، ولا ضَبُوبٌ، ولا كَمْشَةٌ تَفُوت الكف، ولا ثَعُولٍ. وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إذا افتتحتُم الشامَ فإنكم ستَجِدُون بقايا منها، وهي السّامِرِيَّةُ[2].

هكذا أورده البزّار. وقد رَوَاه ابن أبي حاتم بأبسطَ من هذا، فقال:

حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَير، حدثني عبد الله بن لَهِيعَةَ (ح) وحدَّثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا صَفوانُ، حَدَّثنا الوَلِيدُ، حدثنا عبد الله بن لَهِيعَةَ، عن الحارث بن يزيدَ الحَضْرَمِيّ، عن عَلِيّ بن رَبَاحٍ اللَّخمِيّ قال: سَمِعتُ عتبةَ بن النُّدَّر السُّلَمِيَّ ـ صاحبَ رسول الله ـ ﷺ ـ يُحدِّثُ أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: إنّ مُوسَى ـ عليه السلامُ ـ آجر نَفْسَه بعِفَّة فَرْجِه وطُعمَةِ بَطْنِه. فلما وَفّى الأجل قيل: يا رسولَ الله، أيّ الأجلين؟ قال: أبَرّهما وأوفاهُما. فلما أراد فِراقَ شُعَيب أَمَرَ امرأته أن تسأل أباها أن يُعطِيهَا من غَنَمِهِ ما يَعِيشُونَ به، فأعطاها ما وَلَدت من غَنَمه من قالِب لونٍ من وَلَدِ ذلك العام، وكانت غَنَمُه سَوْداءَ حسناء. فانطلق موسى ـ عليه السلامُ ـ إلى عصاه فسَمَاها من طَرَفِها، ثم وَضَعَها في أدنى الحوض، ثم أوردها فَسَقاها، ووقف موسى بإزاءِ الحَوض فلم تَصدُر منها شاةٌ إلا ضَربَ جَنبها شاةً شاةً. قال: فَأَتْمَتْ[3] وأَنّتْ، وَوَضَعت كُلّها قَوالِبَ ألوانٍ، إلا شاةً أو شاتَين، ليس فيها فَشُوشٌ. قال يحيى: ولا ضَبُوب. وقال صَفْوانُ: ولا ضَبُوبٌ ـ قال أبو زُرعَةَ: الصوابُ طَنُوبٌ ـ ولا عَزُوزٌ ولا ثَعُولٌ ولا كَمْشَةٌ تَفُوتُ الكَفَّ. قال النبي ـ ﷺ ـ: لو افتتحتُم الشامَ وجدتُم بقايا تلك الغَنَم، وهي السّامِرِيَّةُ.

وحدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا صَفْوَانُ قال: سَمِعتُ الوَليدَ قال: فسألتُ ابنَ لَهِيعَةَ: ما الفَشُوشُ؟ قال: التي تَفُشّ بلَبنِها واسعة الشُّخْب[4]. قلت: فما الطَّنُوب[*]؟ قال: الطويلة الضرع تَجرُّه. قلت: فما العَزُوز؟ قال:

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٦٣.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٦٣ ـ ٦٤.

وشاةٌ قالِبُ لَوْنٍ: على غير لون أُمِّها. والفَشُوش: التي يَنْفَشُّ لبنُها من غير حَلْبٍ. والضَّبُوبُ: الشاةُ الضيِّقة الإحليل، يُضَبُّ ضَرْعُها عند الحلب، أي: يسيل قليلاً. والكَمْشَةُ: الصغيرة الضَّرْع. والثَّعُول: الشاة التي لها زيادة حَلَمَةٍ، وهو عَيْبٌ فيها.

(٣) الغُتُمُ من ذوات الحمل: التي تَمّت مُدّةُ حَمْلها وشارفت الوضع. وأَنَّتْ: ألقت الثنيّة، وهي إحدى الأسنان الأربع التي في مُقَدَّم الفم، ثنتان من فوق وثنتان من تحت

(٤) الشُّخْبُ: ما يخرجُ من اللَّبن إذا احتُلِبَ.

(*) في النسخ: الضبوب. وأثبتنا ما صححه أبو زرعة، وهو المناسب للمعنى المذكور.

ضَيِّقةِ الشَّخْب. قال: فما الثَّعُول؟ قال: التي ليس لها ضرع إلا كهيئة حَلَمَتَين. قلت: فما الكَمْشَةُ؟ قال: التي تُفوِّت الكَفّ، كَمْشَةُ الضَّرْع، صغيرٌ لا يُدركه الكَفُّ.

مدارُ هذا الحديثِ على عبد الله بن لَهِيعة المصري ـ وفي حِفْظِه سُوءٌ ـ وأخشى أن يكون رفعُه خطأً، والله أعلم. وينبغي أن يُرْوَى: ليس فيها فَشُوشٌ ولا عَزُوزٌ، ولا ضَبُوبٌ ولا ثَعُولٌ، ولا كَمْشَةٌ، لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة. وقد رَوَى ابن جرير من كلام أنس بن مالك ـ موقوفاً عليه ـ ما يقارب بعضَه بإسنادٍ جيدٍ، فقال:

حدثنا محمد بن المُثنَّى، حدثنا معاذُ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالكٍ قال: لما دَعَا نبيُّ الله مُوسَى ـ عليه السلام ـ صاحِبَه إلى الأجل الذي كان بينهما، قال له صاحبه: كلُّ شاةٍ وَلَدتْ على غير لونها فلَك وَلَدُها. فعمد فرفع خيالاً(1) على الماء، فلما رأتِ الخَيَال فَزِعت فجالت جَولةً، فولدن كلُّهن بُلْقاً(2) إلا شاةً واحدةً، فذهب بأولادهنّ ذلك العام(2).

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قد تقدَّم في تفسير الآية قبلها أنّ موسى ـ عليه السلام ـ قضَى أتمَّ الأجلين وأوْفاهما وأبرَّهما وأكملَهما وأنْقاهما، وقد يُستفادُ هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال: ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ ﴾، أي: الأكمل منهما، والله أعلم.

قال ابنُ أبي نَجيح، عن مُجاهدٍ: قضى عشر سنين، وبعدها عشراً أُخَر. وهذا القولُ لم أرَه لغيره، وقد حكاه عنه ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتمٍ، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ وسار بأهله ﴾، قالوا: كان مُوسى قد اشتاقَ إلى بلادِه وأهلِه، فعَزم على زيارتهم في خِفْيَةٍ من فِرْعونَ وقومِه، فتحمَّلَ بأهله وما كان معه من الغَنَم التي وَهَبها له صِهرُه، فسلك بهم في ليلة مَطِيرة مُظلِمةٍ بَارِدةٍ، فنزل منزلاً، فجعلَ كلما أورى زَنْدَه لا يُضِيءُ شيئاً، فتعجَّب من ذلك، فبينما هو كذلك إذ ﴿ آنَسَ من جانب الطُّورِ ناراً ﴾، أي: رأى ناراً تُضيء له على بُعدٍ، ﴿ فقال لأهلِه امكُثوا إني آنستُ ناراً ﴾، أي: حتى أذهب إليها، ﴿ لعلي آتيكم منها بخَبَرٍ ﴾. وذلك لأنه كان قد أضلَّ الطريق، ﴿ أو جَذْوَةٍ من النار ﴾، أي: قِطْعَةٍ منها، ﴿ لعلكم تَصْطَلُون ﴾، أي: تَتَدفَّئُون بها من البرد. قال الله تعالى: ﴿ فلمّا أتاها نُودِيَ من شَاطِئِ الوَادِ الأيمن ﴾، أي: من جانبِ الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحيةِ الغَرْبِ، كما قال تعالى: ﴿ وما كنت

(1) في نسخة الحرم: «فرفع حبالاً ... فلما رأت الحبال».
(2) تفسير الطبري ٢٠/٦٩. والبُلْق: جمع أبْلَق، وهو: ما كان فيه سواد وبياض.

بجانبِ الغربيِّ إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾، فهذا مما يُرشِد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبلُ الغربي عن يمينه، والنارُ وَجَدَها تضطرم في شجرة خضراء في لِحْفِ[1] الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتاً[2] في أمرها، فناداه ربه: ﴿من شاطىءِ الوادِ الأيمنِ في البُقعةِ المباركة من الشجرة﴾

قال ابنُ جَرير: حدثنا ابنُ وكيع، حدثنا أبو مُعاوية، عن الأعمش، عن عَمْرو بن مُرَّة، عن أبي عُبيدة. عن عبد الله قال: رأيتُ الشجرة التي نُودي منها موسى ـ عليه السلام ـ سَمُرَةٌ خضراءُ ترِفُ[3]. إسنادٌ مقارب.

وقال مُحَمَّد بن إسحاق، عن بعض مَن لا يتَّهم، عن وَهب بن مُنَبِّه قال: شجرة من العُلَّيْق[4]، وبعض أهل الكتاب يقول: من العَوْسَج[5].

وقال قتادةُ: هي من العَوْسَجِ، وعَصَاه من العَوْسَج.

وقولُه تعالى: ﴿أن يا موسى إني أنا الله ربُّ العالَمين﴾، أي: الذي يُخاطِبُك ويكلِّمك هو ربُّ العالمين، الفَعَّالُ لما يشاءُ، لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سواه، تعالى وتقدَّس وتنزَّه عن مُماثلة المخلوقاتِ في ذاته، وصفاتِه، وأقوالِه وأفعاله، سُبحانَه!

وقولُه: ﴿وأن ألقِ عَصَاكَ﴾ أي: التي في يدِكَ. كما قرَّره على ذلك في قوله: ﴿وما تلْكَ بيمينِكَ يا موسى * قال هي عصايَ أتوكَّأُ عليها وأهُشُّ بها على غنمي وليَ فيها مآربُ أُخرى﴾. والمعنى: أما هذه عصاك التي تعرفُها؟ ﴿ألقِهَا فألقَاها فإذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾، فعرف وتحقّقَ أن الذي يُخاطبه ويكلِّمه هو الذي يقولُ للشيءِ: كن، فيكونُ. كما تقدَّم بيان ذلك في «سورة طه»[5].

وقال هاهنا: ﴿فلما رآها تهتزُّ﴾، أي: تضطرب ﴿كأنها جانٌّ﴾[6]: أي: في حركتها السريعة مع عِظَم خِلْقَتِها [وقوائمها] واتِّساعِ فَمِها، واصطكاكِ أنيابها وأضراسِها، بحيثُ لا تمرُّ بصخرةٍ إلا ابتلعَتْها، فتنحدرُ في فيها تتقعقعُ، كأنها حادرةٌ في وادٍ. فعند ذلك ﴿ولَّى مُدبراً ولم يُعقِّبْ﴾، أي: ولم يكن يلتفتُ، لأن طبْعَ البشريَّةِ ينفِرُ من ذلك. فلما قال الله له: ﴿يا موسى أقبِلْ ولا تخَفْ إنَّكَ من الآمنين﴾، رَجَع فوقف في مقامه الأوّل، ثم قال الله له: ﴿اسلُكْ يدَكَ في جيبِكَ تخرُجْ بيضاءَ من غير سُوءٍ﴾. أي: إذا أدخلتَ يدَك في جيب دِرْعِك ثُمَّ أخرجتَها فإنها تخرُجُ تتلألأ، كأنها قِطعةُ قَمَرٍ في لَمَعان البرقِ. ولهذا قال: ﴿من غيرِ سُوءٍ﴾، أي: من غير بَرَصٍ.

وقولُه: ﴿واضمُمْ إليك جناحَكَ من الرَّهْب﴾[7]، قال مجاهد: من الفزَع. وقال قتادةُ: من الرُّعب. وقال عبد الرحمن بن زَيدِ بن أسلَمَ وابنُ جَرير: مما حَصَلَ لك من خوفِكَ من الحَيَّة[7].

---

(١) اللَّحْفُ: أصلُ الجَبَل.

(٢) بَهِتَ الرَّجُل بَهْتاً: أُخِذَ، فشَحَبَ لونه.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/٧١.

(٤) العُلَّيْق: نبتٌ يتعلَّق بالشجرِ ويتلوَّى عليه. والعَوْسَجُ: جِنسُ نباتٍ شائك من الفصيلة الباذنجانية، له ثمرٌ مُدوَّر كأنه خرزُ العقيق. واحدته: عَوْسَجَة.

(٥) انظر تفسير الآيات ١٧ ـ ٢٣ من سورة طه.

(٦) الجانُّ: واحد الجِنَّان، وهي نوع معروف من أنواع الحيات، وهي منها عظام، ومعنى الكلام ـ كما قال الطبري ـ كأنها جانٌّ من الحيات.

(٧) قرأ الحرميّان وأبو عمرو بفتح الراء والهاء، وحفص بإسكان الهاء، والباقون بضم الراء وإسكان الهاء. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٢٣، وتفسير الطبري ٢٠/٧٣.

والظاهر أنَّ المرادَ أعمُّ من هذا، وهو أنه أُمِر ـ عليه السلامُ ـ إذا خاف من شيءٍ أن يَضُمَّ إليه جَناحَه، وهي يَدُه، وإذا فعل ذلك ذهَب عنه ما يَجِدُه من الخَوف. ورُبَّما إذا استعملَ أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوَضع يده على فُؤَاده، فإنه يزول عنه ما يَجِدُ أو يخافُ، إن شاء الله، وبه الثقة.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الربيع بن ثَعلَب الشيخُ الصالحُ، أخبرنا أبو إسماعيلَ المؤدِّبُ، عن عبد الله بن مُسلِم، عن مجاهدٍ، قال: كان مُوسَى ـ عليه السلام ـ قد مُلِئَ قلبُهُ رعباً من فِرْعَونَ، فكان إذا رآه قال: اللهُمَّ، إني أدْرَأُ بك في نَحرِه، وأعوذُ بك من شَرِّه. فَفَرَّغَ الله ما كان في قلبِ موسى ـ عليه السلام ـ وجَعَله في قَلْبِ فِرْعَون، فكان إذا رآه بَالَ كما يبولُ الحِمَارُ.

وقولُه: ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾، يعني إلقاءه العَصَا وجَعْلَها حَيَّةً تسعَى، وإدخاله يَدَه في جَيْبِه فتخرجُ بيضاءَ من غير سُوء ـ دَليلان قاطعان واضحان على قُدرة الفاعلِ المختار، وصحة نُبُوَّةِ مَن جَرَى هذا الخارقُ على يَدَيه، ولهذا قال: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾، أي: وقَومِه من الرُّؤَساء والكُبَراء والأتباعِ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾، أي: خارجين عن طاعةِ الله، مُخالِفين لدينِ الله. والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

لما أمره الله ـ تعالى ـ بالذَّهاب إلى فرعونَ، الذي إنما خَرَج من ديار مصر فِراراً منه وخَوفاً من سَطْوَتِه، ﴿ قال رَبِّ إني قتلتُ منهم نفساً ﴾، يعني ذلك القِبطيَّ، ﴿ فأخافُ أن يقتُلونِ ﴾، أي: إذا رَأَوني. ﴿ وأخي هارونُ هو أفصحُ مني لِساناً ﴾، وذلك أن مُوسَى ـ عليه السلامُ ـ كان في لسانه لُثغَةٌ بسبب ما كان تناوَلَ تلك الجَمْرةَ، حين خُيِّر بينها وبين التمرة أو الدُّرَّة، فوضَعها على لِسانه، فَحصل فيه شدة في التعبير، ولهذا قال: ﴿واحلُل عقدةً من لساني * يفقَهُوا قولي * واجعل لي وَزِيراً من أهلي * هارون أخي * اشدُد به أَزْرِي * وأشركه في أمري﴾، أي: يُؤنِسني فيما أمرتني به من هذا المَقام العَظِيم، وهو القِيامُ بأعباءِ النُّبوَّة والرِّسَالَةِ إلى هذا الملك المتكبِّر الجبَّارِ العنيد. ولهذا قال: ﴿ وأخي هارونُ هو أفصحُ مِني لساناً فأرسِلْه مَعِيَ رِدْءاً ﴾، أي: وزيراً ومعيناً ومُقَوِّياً لأمري، يُصدِّقني فيما أقوله وأخبِرُ عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأن خَبَر اثنين أنجعُ في النُّفوسِ من خَبَرِ واحد، ولهذا قال: ﴿ إنِّي أخافُ أن يُكذِّبونِ ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿ رِدْءاً يُصدِّقني ﴾، أي: يُبين لهم عني ما أُكلِّمُهم به، فإنه يفهم عني مالا يفهمون[1].

فلما سأل ذلك قال الله تعالى: ﴿ سَنَشدُّ عَضُدَك بأخيك ﴾، أي: سَنُقوِّي أمرك، ونُعِزُّ جانبَك بأخيك، الذي سألت له أن يكون نبيّاً معك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿ قد أُوتيتَ سُؤلَكَ يا مُوسَى ﴾، وقال تعالى: ﴿ ووهبنا له من رَحمتنا أخاه هارونَ نبيّاً ﴾. ولهذا قال بعض السلف: ليس أحدٌ أعظمَ مِنَّةً على أخيه من موسى على هارونَ عليهما السلام، فإنه شَفَع فيه حتى جَعَله الله نبياً ورسُولاً معه إلى فِرْعَونَ ومَلَئه، ولهذا قال في حَقِّ موسى: ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، والطبري ٢٠/٧٤.

وقولُه تعالى: ﴿ ونجعلُ لكما سُلطاناً ﴾، أي: حُجَّةً قاهرة، ﴿ فلا يَصِلُون إليكما بآياتنا ﴾، أي: لا سَبيلَ لهم إلى الوُصُولِ إلى أذاكُما بسببِ إبلاغِكُما آياتِ الله، كما قال الله تعالى لرسوله محمد ـ ﷺ ـ: ﴿ يا أيُّها الرَّسُولُ بَلِّغ ما أُنزِلَ إليكَ من رَبِّكَ وإن لم تفعل فما بلَّغتَ رسالتَهُ والله يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾. وقال تعالى: ﴿ الذين يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ الله ويخشَونَهُ ولا يخشَون أحداً إلا الله وكَفَى بالله حَسِيباً ﴾، أي: وكفى بالله ناصراً ومُعِيناً ومُؤيِّداً. ولهذا أخبرَهُما أنَّ العاقِبَةَ لهما ولمن اتَّبعَهُما في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ أنتما ومن اتَّبعكُما الغالبون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ الله لأغلِبَنَّ أنا ورسلي إنَّ الله قويٌّ عزيزٌ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إنَّا لننصُرُ رُسُلَنا والذين آمنُوا في الحياةِ الدُّنيا ويومَ يقومُ الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمينَ معذرتُهم ولهم اللعنةُ ولَهُم سُوءُ الدارِ ﴾.

وَوجَّه ابنُ جريرٍ على أن المعنى ﴿ ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما ﴾، ثم يبتدئ فيقولُ: ﴿ بآياتنا أنتُما ومن اتَّبَعَكُما الغالِبُونَ ﴾، تقديرُه: أنتُما ومَن اتَّبعكُما الغالبُونَ بآياتنا [1].

ولا شك أن هذا المعنى صحيحٌ، وهو حاصلٌ من التوجيهِ الأول، فلا حاجة إلى هذا، والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧ ﴾

يُخبر تعالى عن مَجيءِ موسى وأخيه هارونَ إلى فِرعَونَ ومَلَئِه، وعَرْضِه ما آتاهما الله من المُعجزاتِ الباهرة والدَّلالاتِ القاهرة، على صدقهما فيما أخبرا عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من توحيده واتباع أوامره. فلما عاينَ فِرعَونُ ومَلَؤُهُ ذلك وشاهدُوه وتحقَّقُوه، وأيقنوا أنه من الله، عَدَلوا بكُفرهم وبَغْيِهم إلى العِناد والمباهَتة، وذلك لِطُغيانهم وتكبُّرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿ ما هذا إلا سحرٌ مُفترى ﴾، أي: مُفتعَلٌ مصنوعٌ. وأرادوا مُعارضتَه بالحيلة، فما صَعِد معهم ذلك. وقولهم: ﴿ وما سَمِعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾، يَعنُونَ عبادةَ الله وحدَه لا شريكَ له، ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدِّين، ولم نَرَ الناسَ إلا يُشركُون مع الله آلهةً أُخرى. فقال موسى ـ عليه السلامُ ـ مُجيباً لهم: ﴿ رَبِّي أعلمُ بمَن جاء بالهُدَى من عنده ﴾، يعني مني ومنكم، وسَيَفصِلُ بيني وبينكُم. ولهذا قال: ﴿ ومن تكونُ له عاقبةُ الدارِ ﴾، أي: النُّصرةُ والظَّفَرُ والتأييدُ، ﴿ إنه لا يُفلِحُ الظالِمُونَ ﴾، أي: المشركُون بالله.

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي
صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ
ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ
فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢ ﴾

(١) تفسير الطبري ٢٠/٧٦.

يُخبِرُ تعالى عن كُفرِ فِرعَونَ وطُغيانِه وافترائِه في دَعْوَى الإلَهِيَّةِ لنفسه القَبيحة ـ لَعَنه الله ـ كما قال تعالى: ﴿ فاستخفَّ قَوْمَه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسِقِينَ ﴾. وذلك لأنه دَعاهُم إلى الاعتراف له بالإلَهيَّة، فأجابُوه إلى ذلك بقلَّةِ عُقُولِهم وسَخافَةِ أذهانهم، ولهذا قال: ﴿ يا أيُّها المَلَأُ ما عَلِمتُ لكم من إلَهٍ غَيري ﴾، قال تعالى إخباراً عنه: ﴿ فَحَشر فَنادى * فقال أنا رَبُّكم الأعلى * فَأَخذَه الله نَكالَ الآخرةِ والأولى * إنَّ في ذلك لعبرةً لمن يخشَى ﴾. يعني: أنه جَمَعَ قومه ونادى فيهم بصوته العالي مُصَرِّحاً لهم بذلك، فأجابُوه سامِعِين مُطِيعين. ولهذا انتقم الله تعالى منه، فَجَعله عِبرةً لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى إنه واجَهَ مُوسَى الكليم بذلك فقال: ﴿ لَئِن اتخذتَ إلَهاً غيري لأجعلنَّك مِنَ المسجُونِينَ ﴾.

وقولُه: ﴿ فَأَوقِدْ لي يا هامانُ عَلَى الطين فاجعَل لي صَرحاً لعلِّي أطَّلِعُ إلى إلَهِ مُوسَى ﴾، أي: أمر وزيره هامان ومدبر رَعِيَّته [وعشيرته] ومشير دولته أن يوقد له على الطين، يعني ليتَّخذَ له آجُرّاً لبناءِ الصرح، وهو القصرُ المُنِيفُ الرفيعُ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال فِرْعَونُ يا هامانُ ابن لي صَرْحاً لعلِّي أبلغُ الأسباب * أسبابَ السموات فأطَّلعَ إلى إله موسى وإني لأظنُّه كاذِباً وكذلك زُيِّن لِفِرْعَونَ سوءُ عَمَلِه وصُدَّ عن السبيل وما كيدُ فِرْعَونَ إلا في تَبابٍ ﴾، وذلك لأن فِرْعَونَ بَنَى هذا الصرحَ الذي لم يُرَ في الدنيا بناءٌ أعلَى منه، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيبَ موسى فيما زعمه من دَعوى إلَه غير فِرْعَون، ولهذا قال: ﴿ وإني لأظنُّه من الكاذبين ﴾، أي: في قوله إن ثَمَّ ربّاً غيري، لا أنه كذبه في أن الله أرسَلَه، لأنه لم يكن يعترفُ بوجود الصانع، فإنه قال: ﴿ وما ربُّ العالمين ﴾، وقال: ﴿ لئن اتخذتَ إلَهاً غيري لأجعلنَّكَ من المسجونِينَ ﴾ وقال: ﴿ يا أيها الملأ ما عَلِمتُ لكم من إلَهٍ غيري ﴾. وهذا قولُ ابنِ جَرير[1].

وقولُه: ﴿ واستكبَرَ هوَ وجنودُه في الأرضِ بغير الحقِّ وظَنُّوا أنَّهم إلينا لا يُرْجَعُون ﴾، أي: طَغَوا وتجبَّرُوا، وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدُوا أنه لا معادَ ولا قيامةَ، ﴿فصَبَّ عليهم ربُّك سَوطَ عذابٍ * إنَّ ربَّك لَبِالمرصَادِ ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿ فأخذناه وجنودَه فنبذناهُم في اليَمِّ ﴾، أي: أغرقناهُم في البحرِ في صَبيحةٍ واحدةٍ، فلم يبقَ منهم أحدٌ، ﴿ فانظُر كيفَ كان عاقبةُ الظالمين ﴾ [المجرمين]، ﴿وجعلناهُم أئمةً يدعُون إلى النارِ ﴾، أي: لمن سَلَكَ وراءَهم وأخذ بطريقتهم، في تكذيب الرسُلِ وتَعطيل الصانع، ﴿ ويومَ القيامة لا يُنصَرُون ﴾، أي: فاجتمعَ عليهم خِزْيُ الدنيا موصولاً بذُلِّ الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ أهلكناهُم فلا ناصِرَ لهم ﴾.

وقولُه: ﴿ وأتبعناهُم في هذه الدُّنيا لعنةً ﴾، أي: وشَرَعَ الله لعنتهم ولعنةَ مَلِكهم فِرْعَونَ على السنة المؤمنينَ من عباده المتَّبعين رُسُلَه، وكما أنهم في الدنيا مَلْعُونون على ألسنةِ الأنبياء وأتباعِهم، كذلك ﴿ ويومَ القيامةِ هُم من المَقْبُوحِينَ ﴾. قال قتادةُ: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وأُتبِعُوا في هذهِ لعنةً ويومَ القيامةِ بئسَ الرِّفْدُ المرفودُ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يُخبر تعالى عما أنعَم به على عبدِه ورَسُولِه موسى الكَليم ـ عليه من ربِّه الصلاةُ والتسليمُ ـ من إنزالِ التَّوراة عليه بعد ما أهلَك فِرعَونَ ومَلأه.

(١) تفسير الطبري ٢٠/٧٨

وقولُه: ﴿ مِن بعدِ ما أهلكنا القرونَ الأولى ﴾، يعني: أنه بعدَ إنزالِ التوراةِ لم يُعذِّب أمّةً بعامةٍ، بل أمر المؤمنين أن يُقاتِلوا أعداءَ الله من المشركين، كما قال: ﴿ وجاء فِرعَونُ ومن قبله والمؤتفكاتُ بالخاطئة ● فعَصَوا رَسُولَ ربِّهم فأخذَهم أخذةً رابيةً ﴾.

وقال ابنُ جَرير: حدَّثنا ابنُ بَشّار، حدَّثنا محمدٌ وعبدُ الوهاب قالا: حدَّثنا عوفٌ، عن أبي نَضرةَ، عن أبي سعيد الخُدْري قال: ما أهلَكَ الله قوماً بعذابٍ من السماء ولا من الأرضِ بعدما أُنزلت التوراة على وجه الأرض، غير القَريةِ التي مُسخوا قردة، ألم ترَ أن الله يقول: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ من بعدِ ما أهلكنا القُرونَ الأُولى ﴾[1].

ورواهُ ابنُ أبي حاتم، من حديث عوف بن أبي جَميلةَ الأعرابيِّ، بنحوه. وهكذا رواه أبو بكر البزّارُ في مسنده، عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيى القطان، عن عوف، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد موقوفاً. ثم رواه عن نصر بن علي، عن عبد الأعلى، عن عوف، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيدٍ ـ رفعه إلى النبي ـ ﷺ ـ قال: ما أهلكَ الله قوماً بعذابٍ من السماءِ ولا مِنَ الأرضِ إلا قبل موسى، ثم قرأ: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدِ ما أهلَكْنا القُرونَ الأُولَى ﴾[2].

وقولُه: ﴿ بصائرَ للناس ﴾، أي: من العَمَى والغَيِّ، ﴿ وهُدىً ﴾ إلى الحق، ﴿ ورحمةً ﴾، أي: إرشاداً إلى الأعمالِ الصالحة، ﴿ لعلهم يتذكّرون ﴾، أي: لَعلَّ الناسَ يتذكَّرونَ به، ويهتدُون بسَبَبِه.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنَبِّهاً على بُرهانِ نُبوَّة محمدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ حيثُ أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سَامِعه شاهدٌ وراءٍ لما تقدم، وهو رجلٌ أُمِّي لا يقرأ شيئاً من الكُتُب، نشأ بين قوم لا يعرفُون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مَرْيَمَ وما كان من أمرها قال تعالى: ﴿ وما كنتَ لديهم إذ يلقُون أقلامَهم أيُّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾، أي: ما كنتَ حاضِراً لذلك، ولكنّ الله أوحاه إليك. وهكذا لما أخبره عن نوحٍ وقومِه، وما كان من إنجاءِ الله له وإغراقِ قومه.

ثم قال تعالى: ﴿ تلك من أنباءِ الغَيبِ نُوحِيها إليكَ ما كنتَ تعلَمُها أنتَ ولا قومُك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقِين ﴾. وقال في آخر السورة: ﴿ ذلك من أنباء القُرَى نَقُصُّه عليكَ ﴾، وقال بعد ذكر قِصّة يوسف: ﴿ ذلك من أنباء الغَيبِ نُوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعُوا أمرهم وهم يمكرون ﴾. وقال في سورة طه: ﴿ كذلك نقصُّ عليك من أنباءِ ما قد سَبَق وقد آتيناكَ من لَدُنّا ذِكراً ﴾، وقال هاهنا بعد ما أخبرَ عن قِصّةِ موسى

(١) تفسير الطبري ٢٠/٨١.
(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، تفسير سورة القصص ٣/٦٤ ـ ٦٥ كما أخرجه الحاكم في المستدرك مرفوعاً ٢/٤٠٨.

من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداءُ إيحاءِ الله إليه وتكليمِه له: ﴿ وما كنت بجانبِ الغربيِّ إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾، يعني: يا محمدُ، ما كنتَ بجانب الجَبَل الغربي الذي كَلَّم الله مُوسَى من الشجرةِ التي هي شرقيَّةٌ على شاطئِ الوادي، ﴿ وما كنت من الشاهدين ﴾ لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحَى إليك ذلك، ليجعلهُ حُجَّةً وبُرهاناً على قُرُونٍ قد تطاوَلَ عهدُها، ونَسُوا حُجَجَ الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياءِ المتقدِّمين.

وقولُه: ﴿ وما كنتَ ثاوياً في أهلَ مَدْيَنَ تتلو عليهم آياتنا ﴾، أي: وما كنتَ مقيماً في أهلِ مَدْيَنَ تتلو عليهم آياتنا، حين أخبرتَ عن نَبِيِّها شُعَيب، وما قال لقومه، وما رَدُّوا عليه، ﴿ ولكنّا كنا مُرسِلِينَ ﴾، أي: ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلناك للناس رَسُولاً.

﴿ وما كنتَ بجانب الطُّورِ إذ نادينا ﴾، قال أبو عبد الرحمن النسائي، في التفسير من سُنَنِه:

أخبرنا علي بن حُجْر، أخبرنا عيسى ـ وهو ابن يُونُس ـ عن حَمْزَةَ الزيَّات، عن الأعمش، عن علي بن مُدرك، عن أبي زُرْعَة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ : ﴿وما كنتَ بجانبِ الطُّور إذْ نادينا﴾، قال: نُودوا: أنْ يا أمة محمد، أعطيْتُكم قبل أن تسألوني، وأَجَبْتُكم قبل أن تدعُوني[1].

وهكذا رواه ابنُ جَرير وابنُ حاتمٍ، من حديث جَماعةٍ، عن حمزةَ ـ وهو ابنُ حَبيبٍ الزيَّاتُ ـ عن الأعمش. ورواه ابنُ جَريرٍ من حديثِ وَكيعٍ ويحيى بن عيسى[2]، عن الأعمشِ، عن عَليِّ بن مُدرِك، عن أبي زُرْعَةَ ـ وهو ابن عَمرو بن جرير ـ أنه قال ذلك من كلامِه، والله أعلم.

وقال مُقاتِلُ بن حَيَّان: ﴿وما كنتَ بجانب الطورِ إذ نادينَا﴾ أُمَّتك في أصلابِ آبائِهم أن يُؤمِنُوا بِكَ إذا بُعِثْتَ[3].

وقال قتادةُ: ﴿ وما كنتَ بجانبِ الطُّور إذْ نادينا ﴾ مُوسَى. وهذا ـ والله أعلم ـ أشبهُ بقوله تعالى: ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى مُوسَى الأمرَ ﴾.

ثم أخبر ها هنا بصيغةٍ أُخرَى أخصَّ من ذلك، وهو النداء، كما قال تعالى: ﴿ وإذ نادى ربُّك موسَى ﴾، وقال: ﴿إذ ناداه ربُّه بالوادِ المقدَّسِ طُوىً﴾، وقال: ﴿وناديناهُ من جانبِ الطُّورِ الأيمنِ وقرَّبناه نَجِيّاً﴾

وقولُه: ﴿ ولكن رحمةً من ربك ﴾، أي: ما كنتَ مشاهداً لشيءٍ من ذلك، ولكن الله أوحاه إليك وأخبَرك به، رحمةً منه لك وبالعبادِ بإرسالك إليهم، ﴿ لِتُنذِر قوماً ما أتاهُم من نذيرٍ من قَبلِكَ لعلَّهم يتذكَّرُونَ ﴾، أي: لعلَّهم يهتدُون بما جئتَهم به من الله عزَّ وجلَّ.

﴿ ولولا أن تُصيبهم مصيبةٌ بما قدَّمت أيديهم فيقولُوا رَبَّنا لولا أرسلتَ إلينا رَسُولاً فَنتَّبِعَ آياتِك ونكونَ من المؤمنين ﴾، أي: وأرسلناك إليهم لِتُقيم عليهم الحجة وَلِيَنْقَطِعَ عُذْرهم إذا جاءهم عذابٌ من الله بكفرهم، فيحتجُّوا بأنَّه لم يأتِهم رسول ولا نذيرٌ، كما قال تعالى بعد ذكره، إنزالَ كتابه المبارَك وهو القرآن: ﴿ أن تقولوا إنما أُنزِل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أُنزِلَ علينا الكتابُ لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بيِّنةٌ من ربِّكم وهدىً ورحمةٌ ﴾، وقال: ﴿ رسلاً مُبشِّرين ومُنذِرِينَ لِئلَّا يكونَ للناسِ على

(١) ذكره الحافظ المزي في تحفة الأشراف عن النسائي ١٠/٤٤١.
(٢) الذي وجدناه في الطبري رواية محتسر، وسفيان، ويحيى بن عيسى، عن الأعمش، انظر تفسير الطبري ٢٠/٨١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، وابن المنذر، وأبو نصر السجزي. انظر الدر المنثور ٦/٤١٩

الله حُجَّةٌ بعد الرُّسُلِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يا أهلَ الكتاب قد جاءكُم رسولُنا يبيِّن لكم على فترةٍ من الرُّسُل أن تقُولوا ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذير فقد جاءكُم بَشيرٌ ونَذِيرٌ والله على كل شيء قدير ﴾. والآيات في هذا كثيرة، والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن القوم الذين لو عذَّبهم قبلَ قيام الحُجَّة عليهم لاحتجُّوا بأنهم لم يأتِهم رسولٌ: أنهم لما جاءهم الحقّ من عنده على لسانِ محمد ـ صلواتُ الله وسلامهُ عليه ـ قالوا على وجه التَّعنُّتِ والعِناد والكُفر والجَهل والإلحادِ: ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾، يعنون ـ والله أعلمُ ـ من الآياتِ الكثيرة، مثل العصا واليد، والطُّوفانَ والجرادَ والقُمَّل والضفادع والدَّم، وتنقيصَ الزُّروع والثمار، مما يُضيِّق على أعداء الله، وكَفَلْق البحر وتَظْليل الغمام، وإنزال المَنّ والسَّلْوى، إلى غير ذلك من الآياتِ الباهرة، والحُجَج القاهرة، التي أجراها الله على يَدَي موسى ـ عليه السلام ـ حُجَّةً وبراهينَ له على فِرْعون ومَلَئِه وبني إسرائيل، ومع هذا كُلّه لم ينجع في فِرْعونَ ومَلَئِه، بل كَفَرُوا بموسى وأخيه هارُونَ، كما قالوا لهما: ﴿أجئتنا لتلفتنا عما وَجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾، وقال تعالى: ﴿ فكذَّبوهما فكانُوا من المُهلَكِين ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿ أوَ لم يكفرُوا بما أوتِي مُوسَى من قبلُ ﴾، أي: أوَلم يكفر البَشَرُ بما أوتِيَ مُوسَى من تلك الآيات العظيمة ﴿ قالوا سَاحِرَانِ[1] تظاهرا ﴾، أي: تعاونا، ﴿ وقالوا إنَّا بكُلّ كافِرُونَ ﴾، أي: بكُلٍّ منهما كافِرون. ولِشدَّةِ التلازُم والتصاحُبِ والمُقارنةِ بين موسى وهارُون، دَلَّ ذِكرُ أحدِهما على الآخر، كما قال الشاعر[2]:

فَـمَـا أدْري إذا يَـمَّـمْـتُ أرْضـاً ... أريـدُ الـخَـيْـرَ أيـهُـمَـا يَـلِـيـنِـي

أي: فما أدري أيَليني الخير أو الشر؟

قال مجاهدُ بن جَبر: أمَرتِ اليهودُ قُرَيشاً أن يقولوا لمحمد ـ ﷺ ـ ذلك، فقال الله: ﴿ أوَ لم يكفُروا بما أُوتِيَ مُوسَى مِن قبلُ قالُوا سَاحِرَانِ[1] تظَاهَرا﴾، يعني مُوسَى وهارُونَ عليهما السلام[3]. ﴿تظَاهَرا﴾، أي: تعَاوَنا وتَناصَرا وصَدَّقَ كُلٌّ منهما الآخرَ. وهكذا قال سعيدُ بنُ جُبَير وأبو رَزِين في قوله: ﴿ساحِرَان﴾[1]، يعنون مُوسَى وهارُونَ. وهذا قول جَيِّدٌ قويٌّ، والله أعلم.

وقال مُسلِم بن يسار، عن ابن عباس ﴿قالُوا سَاحِرَان[1] تظَاهَرا﴾، يعني مُوسَى ومُحمَّداً ﷺ: وهذا روايةٌ عن الحسَنَ البصريِّ.

وقال الحسنُ وقتادةُ: يعني عِيسَى ومُحمَّداً ﷺ. وهذا فيه بُعدٌ، لأنَّ عيسى لم يَجْرِ له ذكرٌ هاهُنا، والله أعلم.

---

(١) قرأ الكوفيون: (سِحْران)، بدون ألف. وقرأ باقي السبعة (ساحران). انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٢٤.

(٢) تقدَّم البيت عند تفسير الآية ١٩ من سورة براءة.

(٣) لفظ الطبري ٢٠/٨٤، وابن أبي حاتم: «يقول يَهُودُ لموسى وهارون».

وأما من قرأ ﴿ سِحْرَانِ تَظَاهرا ﴾، فقال علي بن أبي طلحة والعَوفيُّ، عن ابن عباس. يَعْنُون التوراةَ والقرآن. وكذا قال عاصم الجَحْدَرِيّ[1]، والسدّيّ، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ، قال السدي: يعني صَدَّقَ كلُّ واحدٍ منهما الآخَرَ.

وقال عكرمة: يعنون التوراةَ والإنجيل. وهو رواية عن أبي رَزِين، واختاره ابنُ جَرير[2]. وقال الضحاكُ وقتادةُ: الإنجيلُ والقرآن. والله ـ سبحانه ـ أعلم بالصواب.

والظاهر على قراءة: ﴿ سِحْرَانِ ﴾أنهم يَعنُون التوراة والقرآن، لأنه قال بعده: ﴿ قل فأتوا بكتابٍ من عندِ الله هو أهدَى منهما أتَّبِعْهُ ﴾، وكثيراً ما يَقرِن الله بين التَّوراة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ قل مَن أنزل الكتاب الذي جاء به مُوسَى نوراً وهُدىً للناس ﴾، إلى أن قال: ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناه مُبارَكٌ ﴾، وقال في آخر السورة: ﴿ ثم آتينا مُوسَى الكتابَ تماماً على الذي أحسَنَ ﴾، إلى أن قال: ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناه مُبارَكٌ فاتَّبِعُوه واتَّقوا لعلكم تُرحَمُون ﴾، وقالت الجنُّ: ﴿ إنا سَمِعنا كتاباً أُنزِل من بعد مُوسَى ﴾ وقال وَرَقَةُ بنُ نوفل: هذا الناموسُ الذي أُنزِلَ على موسى. وقد عُلِم بالضرورة لِذَوِي الألباب أن الله لم يُنزِلْ كتاباً من السماء فيما أَنزَل من الكُتُب المتعددة على أنبيائه أكمَلَ ولا أشمَلَ ولا أفصَحَ ولا أعظَمَ ولا أشرَفَ من الكتاب الذي أنزَل على محمد ـ ﷺ ـ وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتابُ الذي أنزَلَه على مُوسَى بنِ عمران ـ عليه السلام ـ وهو التوراةُ التي قال الله تعالى فيها: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هُدىً ونورٌ يحكمُ بها النبيُّون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيُّون والأحبارُ بما استُحفِظُوا من كتابِ الله وكانُوا عليه شُهَدَاءَ ﴾ والإنجيلُ إنما نَزَل مُتَمِّماً للتوراةِ ومُحِلّاً لبعضِ ما حُرِّم على بني إسرائيل. ولهذا قال تعالى: ﴿ قُل فأتُوا بكتابٍ من عند الله هو أهدَى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾، أي: فيما تُدافِعُون به الحقَّ وتعارِضُون به من الباطل.

قال الله تعالى: ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾، أي: فإن لم يُجيبوك عما قلتَ لهم ولم يَتَّبعوا الحقَّ، ﴿ فاعلم أنما يَتَّبِعُون أهواءَهم ﴾، أي. بلا دليلٍ ولا حُجَّةٍ، ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾، أي: بغير حُجَّةٍ مأخوذةٍ من كتابِ الله، ﴿ إنَّ الله لا يَهْدِي القومَ الظالمينَ ﴾.

وقولُه: ﴿ ولقد وَصَّلنا لهم القولَ ﴾، قال مجاهدٌ: فَصَّلنا لهم القولَ. وقال السُّدّي: بيَّنا لهم القولَ. وقال قتادةُ: يقول تعالى: أخبرَهم كيفَ صَنَعَ بمن مَضَى وكيف هو صَانِعٌ، ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾[3].

قال مجاهد وغيره: ﴿ وَصَّلنا لهم ﴾، يعني قُرَيشاً. وهذا هو الظاهرُ، لكن قال حَمَّاد بن سَلَمة، عن عَمرو ابن دينارٍ، عن يحيى بن جَعْدَة، عن رِفاعَةَ القُرَظِيِّ قال: نَزَلت: ﴿ ولقد وَصَّلنا لهم القول ﴾ في عَشَرةٍ أنا أحدُهم. رواه ابنُ جَريرٍ، وابنُ أبي حاتمٍ من حديثِه[4].

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥ ﴾

(١) في النسخ: الجحدي. والمثبت من تفسير ابن أبي حاتم.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/٨٥.
(٣) أخرجه الطبري ٢٠/٨٧ ـ ٨٨.
(٤) تفسير الطبري ٢٠/٨٨، كما أخرجه الطبراني في معجمه بإسناده إلى حماد بن سلمة ٥/٥٣.

يُخبر تعالى عن العُلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يُؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتابَ يتلُونه حقّ تلاوته أولئك يؤمنون به﴾، وقال: ﴿وإنَّ مِن أهل الكتاب لَمَن يُؤمِنُ بالله وما أنزل إليكُم وما أُنزِلَ إليهم خاشعين لله﴾. وقال: ﴿إن الذين أُوتوا العلم من قبله إذا يُتلَى عليهم يخرّون للأذقانِ سُجَّداً ۞ ويقولون سُبحانَ ربِّنا إن كان وعدُ ربِّنا لَمفعُولاً ﴾، وقال: ﴿ ولَتجدنَّ أقربَهُمْ مودَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نَصارى ذلك بِأنَّ منهم قِسِّيسينَ ورُهباناً وأنهم لا يستكبِرُونَ ۞ وإذا سَمِعوا ما أُنزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أعينَهم تفيض من الدمع مما عَرَفُوا من الحقِّ يقولُون ربَّنا آمنَّا فاكتُبنا مَعَ الشاهِدِينَ ﴾.

قال سعيد بن جُبَير: نزلت في سبعين من القِسِّيسين بَعَثهم النجاشي، فلما قدِموا على النبي ـ ﷺ ـ قرأ عليهم: ﴿ يسٓ ۞ والقرآنِ الحَكيم﴾، حتى ختمها، فَجعلوا يبكُون وأسلَمُوا، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ۞ وإذا يُتلَى عليهم قالوا آمنا به إنَّه الحقُّ من ربِّنا إنا كُنَّا من قبله مُسلِمين ﴾[(١)]. يعني: من قبل هذا القرآنِ كُنَّا مُسلِمين. أي: مُوحِّدين مخلصين لله مستجيبين له.

قال الله: ﴿ أولئك يُؤتَون أجرَهُم مرَّتين بما صَبَرُوا ﴾، أي: هؤلاء المُتَّصِفونَ بهذه الصِّفَةِ الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ﴿ يُؤتَون أجرهم مرتين ﴾ بإيمانهم بالرسول الأول ثم الثاني. ولهذا قال: ﴿ بما صَبَروا ﴾، أي: على اتباع الحق؛ فإنَّ تَجشُّمَ مثلِ هذا شديدٌ على النفوس. وقد ورد في الصحيحَين من حديث عامر الشعبي، عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي مُوسَى الأشعريِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثة يُؤتَونَ أجرَهم مرَّتَين: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمَنَ بي، وعَبْدٌ مملوك أدَّى حَقَّ الله وحقَّ مواليه، ورَجُل كانت له أَمَةٌ فأدَّبها فأحسَنَ تأديبها، ثم أعتقها فتزوَّجها»[(٢)].

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا يحيى بنُ إسحاق السَّيلَحِيني، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، عن سُليمان بن عبد الرحمن، عن القاسم، عن أبي أُمامَة قال: إني لتحتَ رَاحلةِ رسول الله ـ ﷺ ـ يومَ الفتح، فقال قولاً حسَناً جميلاً، وقال فيما قال: مَن أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرَّتَين، وله ما لنا وعليه ما علينا، [ومن أسلم من المشركين، فله أجرُه، وله ما لنا، وعليه ما علينا][(٣)].

وقولُه: ﴿ ويدرَءُونَ بالحَسَنةِ السَّيِّئةَ ﴾، أي لا يُقابلون على السيِّءِ بمثله، ولكن يعفُون ويصفحُون.
﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾، أي: ومن الذي رَزَقهم من الحلال يُنفقُون على خَلْق الله في النفقاتِ الواجبةِ لأهلهم وأقاربهم، والزكاة المفروضةِ والمستحبَّةِ من التطوعات، وصَدَقات النَّفل والقُرُبات.

وقولُه: ﴿ وإذا سَمِعُوا اللَّغوَ أعرضُوا عنه ﴾، أي: لا يُخالِطُون أهلَه ولا يُعاشِرُونَهم، بل كما قال تعالى: ﴿ وإذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ﴾. ﴿ وقالوا لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم سلامٌ عليكُم لا نَبتغي الجاهلينَ ﴾، أي: إذا سَفِه عليهم سَفيهٌ، وكَلَّمهم بما لا يَليقُ بهم الجوابُ عنه، أعرضُوا عنه ولم يُقابلُوه بمثله من الكلام القَبيح، ولا يَصدُر عنهم إلا كلامٌ طيِّبٌ. ولهذا قال عنهم: إنهم قالوا: ﴿ لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم سلامٌ عليكُم لا نَبتغي الجَاهلين ﴾، أي: لا نُريد طَريقَ الجاهِلينَ ولا نُحبُّها.

قال محمدُ بن إسحاقَ في السِّيرة: ثُمَّ قَدِم على رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو بمكَّةَ عِشرُون رَجُلاً، أو قريبٌ من ذلك، من النصارى، حين بلغَهم خَبَرُه من الحبشة. فوجدُوه في المسجد، فجلسُوا إليه وكَلَّموه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٤، ٢٨٢ من سورة البقرة، ١٩٩ من سورة آل عمران، وخرّجته هناك.
(٣) مسند أحمد ٥/٢٥٩. وما بين القوسين عنه.

وساءلوه ـ ورجال من قريش في أنديتهم حولَ الكعبة ـ فلما فرغوا من مساءلةِ رسولِ الله عما أرادوا دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينُهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدَّقوه، وعرفوا منه ما كان يُوصَفُ لهم في كتابهم من أمره. فلما قامُوا عنه اعترضهم أبو جهلِ بنُ هشام في نفرٍ من قريش، فقالوا لهم: خيَّبَكُم الله مِنْ ركبٍ! بعثكم مَنْ وراءكم مِن أهل دينكم ترتادُون لهم لتأتوهم بخبَرِ الرجل، فلم تطمئنَّ مجالسُكم عنده حتى فارقتُم دينكم وصدَّقتُموه فيما قال! ما نعلم ركباً أحمقَ منكم! أو كما قالوا لهم. فقالوا: سلامٌ عليكم، لا نُجاهِلُكم، لنا ما نحنُ عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نَألُ[1] أنفسَنا خيراً. قال: ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجرانَ، فالله أعلم أيُّ ذلك كان؟ قال: ويقال ـ والله أعلم ـ إن فيهم نزلت هذه الآياتُ: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يُؤمِنُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ لا نَبتغِي الجَاهِلينَ ﴾. قال: وقد سألت الزهريَّ عن هذه الآيات: فيمن أُنزِلن؟ قال: مازلتُ أسمعُ من عُلمائنا أنهن أُنزِلْنَ في النجاشي وأصحابه، والآيات اللاتي في سورة المائدة: ﴿ ذلك بأنَّ منهم قسِّيسين ورُهباناً ﴾ إلى قوله: ﴿ فاكتبنا مع الشاهِدِين ﴾[2].

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى لرسوله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: إنك يا محمدُ ﴿ لا تَهدِي مَن أَحْبَبتَ ﴾، أي: ليس إليك ذلك، إنما عليكَ البلاغُ، والله يَهدِي من يشاءُ، وله الحكمة البالغةُ والحُجَّةُ الدامغةُ، كما قال تعالى: ﴿ ليس عليك هُداهُم ولكنَّ الله يَهدِي مَن يشاء ﴾. وقال: ﴿ وما أكثرُ الناسِ ولو حَرَصْتَ بِمُؤمِنينَ ﴾.

وهذه الآية أخصُّ من هذا كلِّه، فإنه قال: ﴿ إنك لا تَهدي من أحببتَ ولكنَّ الله يَهدِي مَن يشاء وهو أعلَمُ بالمهتدين ﴾، أي: هو أعلَمُ بمن يستحق الهداية ممن يستحقُّ الغَوَاية. وقد ثَبت في الصَّحيحَين أنها نَزَلت في أبي طالب عَمِّ رسول الله ـ ﷺ ـ وقد كان يَحوطُه وينصُره، ويقوم في صَفِّه ويُحبه حُباً طَبعياً لا شرعياً، فلما حَضَرته الوفاةُ وحانَ أجَلُه، دَعاه رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى الإيمانِ والدُّخولِ في الإسلام، فَسَبق القَدَرُ فيه، واختُطِفَ من يده، فاستمرَّ على ما كان عليه من الكفر، ولله الحُجَّةُ التامَّةُ.

قال الزهريُّ: حدَّثني سَعيدُ بن المُسَيَّب، عن أبيه ـ وهو المسيَّبُ بنُ حَزْنٍ المخزوميُّ، رضي الله عنه ـ قال: لما حَضَرتْ أبا طالب الوفاةُ جاءه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فوجَد عنده أبا جهل بن هشام، وعبدَ الله بن أبي أُميَّة ابن المُغيرة. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يا عَمِّ، قُل: «لا إله إلا الله»، كلمةً أشهدُ لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبدُ الله بنُ أبي أمية: يا أبا طالب، أترغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطلب؟ فلم يَزَل رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَعرِضُها عليه، ويَعُودان له بتلك المقالة، حتى قال آخرَ ما قالَ: هو على مِلَّةِ عبد المطلب. وأبى أن يقولَ: لا إله إلا الله. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أما لأستغفرَنَّ لك ما لم أُنه عنك. فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يَستَغفِرُوا للمشركين ولو كانوا أُولي قربى ﴾، وأنزل في أبي طالب: ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾.

(١) ألا يألو: قصّر وأبطأ، ومنه: إني لا آلوك نُصْحاً. وفي الكتاب العزيز: ﴿لا يألونكم خبالاً﴾، والمعنى هنا: لا نَمنَع أنفسنا الخير.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٩١ ـ ٣٩٢.

أخرجاه من حديث الزُّهريِّ[١]. وهكذا رواه مسلم في صحيحه، والترمذيُّ، من حديث يزيدَ بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: لما حَضَرَتْ وفاةُ أبي طالب أتاه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال. يا عمَّاه، قل: «لا إلَه إلا الله»، أشهدُ لك بها يوم القيامة. فقال: لولا أن تُعَيِّرَني بها قريش، يقولون: ما حَمله عليه إلا جَزع الموتِ، لأقرَرْتُ بها عينك، لا أقولُها إلا لأُقِرَّ بها عينك. فأنزل الله: ﴿ إنك لا تهدي مَن أحببت ولكن الله يَهدي من يَشاء وهو أعلمُ بالمهتدين ﴾. وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ غريبٌ، لا نَعرفه إلا من حديثِ يزيدَ بن كَيْسانَ[٢].

ورواه الإمامُ أحمدُ، عن يحيى بنِ سعيدٍ القَطَّانِ، عن يزيدَ بن كيسانَ، حَدَّثني أبو حازمٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ، فذكره بِنحوِه[٢].

وهكذا قال ابنُ عباس، وابنُ عُمَر، ومجاهِدٌ، والشعبيُّ، وقتادةُ: إنها أُنزلت في أبي طالب حين عَرَضَ عليه رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يقول: «لا إلَهَ إلا الله»، فأبى عليه ذلك، وقال: أي ابنَ أخي، مِلَّةَ الأشياخِ. وكان آخر ما قال: هو على مِلَّةِ عبدِ المطلب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمة، حدثنا حَمَّاد بن سلمَة، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن سعيد بن أبي راشدٍ قال: كان رسولُ قيصرَ جاراً لي، قال: كتب معي قيصرُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ كتاباً، فأتيتُه فدفعتُ الكتابَ، فوضعه في حِجْرِه، ثم قال: مِمَّن الرجلُ؟ قلت: من تَنُوخ. قال: هل لكَ في دين أبيكَ إبراهيم الحنيفية؟ قلت: إني رسولُ قومٍ، وعلى دينهم حتى أرجعَ إليهم. فضَحِك رسولُ الله ـ ﷺ ـ ونظر إلى أصحابه وقال: ﴿إنَّكَ لا تَهْدِي من أحببتَ ولكنَّ الله يهدِي من يشاء﴾.

وقولُه: ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾، يقولُ تعالى مُخبِراً عن اعتذار بعض الكُفَّار في عَدَم اتِّباع الهُدَى حيثُ قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ من أَرْضِنَا﴾، أي: نخشى إن اتبعنا ما جئتَ به من الهُدَى، وخالفنا مَن حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يَقصِدُونا بالأذى والمحاربة، ويَتخطَّفونا أينما كنا. فقال الله تعالى مُجيباً لهم: ﴿ أَوَلم نُمَكِّن لهم حَرَماً آمناً ﴾، يعني هذا الذي اعتَذَرُوا به كَذِبٌ وباطل، لأن الله جعلهم في بلدٍ أمينٍ، وحَرَمٍ مُعَظَّمٍ آمنٍ منذ وُضِع، فكيف يكون هذا الحرمُ آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أَسلَمُوا وتَابَعُوا الحقَّ؟!

وقولُه: ﴿ يُجْبَى إليه ثَمراتُ كلِّ شيءٍ ﴾، أي: من سائرِ الثِّمار مما حوله من الطائفِ وغيره، وكذلك المتاجرُ والأمتعةُ ﴿ رزقاً من لَدُنَّا ﴾، أي: من عِندِنا، ﴿ ولكنَّ أكثرهم لا يعلَمُون ﴾ فلهذا قالُوا ما قالُوا.

وقد قال النَّسائيُّ: أنبأنا الحسنُ بنُ محمدٍ، حدثنا الحجاج، عن ابن جُرَيج، أخبرني ابنُ أبي مُلَيكة قال: قال عَمْرو بن شعيب، عن ابن عباسٍ ـ ولم يسمعه منه ـ: أنَّ الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال: ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾[٣].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١١٣ من سورة التوبة، وخرجناه هنالك.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان ١/٥٥، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة القصص ١٢/٦٣، ومسند أحمد ٢/٤٣٤.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف للمزي ٥/١٩٠.

يقولُ تعالى مُعرِّضاً بأهلِ مكةَ في قوله: ﴿ وكَم أهلكنا من قريةٍ بَطِرَت مَعيشتَها ﴾، أي: طَغَت وأشِرَت وكَفَرت نعمةَ الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رَغَداً من كلِّ مكانٍ فكَفَرت بأنعُمِ الله فأذاقها اللهُ لباسَ الجُوعِ والخوفِ بما كانوا يَصنَعُونَ * ولقد جاءهم رسولٌ منهم فكذبوه فأخذَهم العذابُ وهم ظالمون ﴾. ولهذا قال: ﴿فتِلكَ مساكِنُهم لم تُسكَن من بَعدِهم إلا قليلاً ﴾: أي. دَثَرَت ديارُهم فلا تُرَى إلا مَساكِنُهم.

وقولُه: ﴿ وكُنَّا نحنُ الوارِثِينَ ﴾، أي: رَجَعت خَرَاباً ليس فيها أحدٌ.

وقد ذكر ابنُ أبي حاتم عن ابن مَسْعُودٍ أنه سَمع كعباً يقول لعمر: إن سليمان ـ عليه السلام ـ قال للهامَةِ ـ يعني البُومَةَ ـ مَا لَكِ لا تأكُلِين الزَّرعَ؟ قالت: لأنه أخرجَ آدمَ بسَببه من الجنة. قال: فما لَكِ لا تَشرَبِين الماء؟ قالت: لأن الله أغرق قَوْمَ نوحٍ به. قال: فما لك لا تأوِين إلا إلى الخَرَاب؟ قالت: لأنهُ مِيراثُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ثم تلا: ﴿وكُنَّا نحنُ الوارثِينَ﴾[1].

ثم قال الله مُخبِراً عن عَدْله، وأنه لا يُهلِك أحداً ظالماً له، وإنما يُهلِك مَن أهلَكَ بعد قيامِ الحُجَّةِ عليهم، ولهذا قال: ﴿ وما كانَ رَبُّكَ مُهلِكَ القُرَى حتى يبعثَ في أُمِّها ﴾ ـ وهي مكة ـ ﴿ رَسُولاً يتلُو عليهم آياتِنا ﴾، فيه دَلالةٌ على أن النبيَّ الأُمِّيَّ، وهو محمَّدٌ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ المبعوثُ من أمِّ القرى، رَسولٌ إلى جميعِ القُرَى من عَرَبٍ وأعجامٍ، كما قال تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ القرى ومَن حَولَها ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُل يا أيها الناسُ إني رسولُ الله إليكم جَميعاً ﴾، وقال: ﴿ لأُنذِرَكُم به ومَن بَلَغ ﴾، وقال: ﴿ ومَن يكفر به من الأحزابِ فالنارُ موعِدُه ﴾. وتمام الدليل: ﴿ وإن من قريةٍ إلا نحن مُهلِكُوها قبلَ يوم القيامة أو مُعذِّبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾. فأخبر أنه سَيُهلِكُ كُلَّ قريةٍ قبلَ يومِ القيامة، وقد قال: ﴿ وما كُنَّا مُعذِّبين حتى نبعثَ رَسُولاً ﴾. فجعل تعالى بعثةَ النبيِّ الأُمِّيِّ شاملةً لجميعِ القُرَى، لأنه مبعوثٌ إلى أُمِّها وأصلِها التي ترجِع إليها. وثَبت في الصحيحَين عنه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أنه قال: «بُعِثتُ إلى الأحمرِ والأسودِ»[2]. ولهذا ختم به الرسالة والنُّبوَّة، فلا نبيَّ بعدَه ولا رسولَ، بل شَرْعُه باقٍ بقاءَ اللَّيلِ والنهارِ إلى يوم القيامة.

وقيل: المرادُ بقوله: ﴿ حتى يبعَثَ في أُمِّها ﴾، أي: أصلِها وعَظِيمتها، كأُمَّهات الرساتِيقِ[3] والأقاليم، حكاه الزمخشريُّ وابن الجَوزِيِّ[4]، وغيرُهما، وليس بِبَعيدٍ.

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن حَقارة الدنيا، وما فيها من الزينة الدنيئة والزَّهرةِ الفانية بالنسبة إلى ما أعدَّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العَظِيم المُقِيم، كما قال: ﴿ ما عندكم يَنْفَدُ وما عند الله باقٍ ﴾،

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره معلقاً.

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٠ من سورة آل عمران، ٥١ من سورة الفرقان. وخرجناه هنالك.

(٣) الرُّستاق ـ ويقال فيه أيضاً: الرُّزداق ـ: موضع فيه مُزدرَع، وقُرىً أو بيوت مجتمعة.

(٤) الكشاف ٣/١٧٥، وزاد المسير ٦/٢٤٣.

وقال: ﴿وما عندَ الله خيرٌ للأبرارِ﴾، وقال: ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاعٌ﴾، وقال: ﴿بل تؤثِرُون الحياةَ الدُّنيا * والآخرةُ خيرٌ وأبقى﴾. وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمِس أحدُكم إصبعه في اليمِّ، فلينظُر ماذا يَرْجِع إليه»(١).

وقولُه: ﴿ أفلا يعقلون﴾، أي: أفلا يَعقِل مَن يُقدِّم الدُّنيا على الآخرة؟!

وقولُه: ﴿ أفمن وَعَدناه وعداً حَسَناً فهو لاقيه كمن متَّعناه متاعَ الحياةِ الدُّنيا ثم هُوَ يومَ القيامة من المُحضَرينَ ﴾، يقولُ: أفَمن هو مؤمن مُصَدِّقٌ بما وعدَه الله على صالح أعماله من الثَّواب الذي هو صائر إليه لا محالة، كمن هو كافر مُكَذِّبٌ بلقاءِ الله ووَعْدِهِ ووَعيدِه، فهو مُمَتَّعٌ في الحياةِ الدنيا أياماً قلائلَ، ﴿ ثم هُوَ يومَ القيامةِ من المُحضَرين ﴾. قال مجاهد، وقتادةُ: من المعذَّبين.

ثم قد قِيل: إنها نزلَت في رسولِ الله ـ ﷺ ـ وفي أبي جهل. وقيل: في حمزة(٢)، أو حَمْزَةَ وعَليٍّ وأبي جهل. وكلاهما عن مجاهد. والظاهر أنها عامة، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حينَ أشرفَ على صاحبه، وهو في الدَّرجات وذاكَ في الدَّرَكات: ﴿ ولولا نعمةُ ربي لكنتُ من المُحضَرين ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولقد عَلِمَتِ الجِنَّةُ إنهم لَمُحضَرون ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى مُخبِراً عما يُوَبِّخ به الكفارَ المشركين يوم القيامة، حيث يناديهم فيقول: ﴿ أينَ شُركائي الذين كنتُم تزعُمون ﴾. يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدُونها في الدار الدنيا، من الأصنام والأنداد، هل ينصُرونكم أو ينتصِرون؟ وهذا على سَبيلِ التقريع والتهديد، كما قال: ﴿ ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أوَّلَ مرَّةٍ وتركتُم ما خوَّلناكم وراءَ ظُهوركم وما نَرَى معكم شفعاءكم الذين زعمتُم أنهم فيكم شُركاء لقد تقطَّع بينكم وضَلَّ عنكُم ما كنتُم تزعُمون ﴾.

وقولُه: ﴿ قال الذين حَقَّ عليهم القولُ ﴾، يعني من الشياطينِ والمَرَدَةِ والدُّعاة إلى الكفر، ﴿ ربَّنا هؤلاء الذين أغْوينا أغويناهُم كما غَوَينا تبرَّأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدُون ﴾، فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتَّبعوهم، ثم تبَرَّءُوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿واتَّخذُوا من دُونِ الله آلهةً ليكونُوا لهم عِزّاً * كلَّا سيكفرُون بعِبادتِهم ويكونُونَ عليهم ضِدّاً ﴾، وقال: ﴿ ومن أضلُّ مِمَّن يدعُو من دون الله من لا يستجيبُ له إلى يومِ القيامة وهُم عن دُعائِهم غافلون * وإذا حُشِر الناسُ كانوا لهم أعداءً وكانُوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال الخليل لقومه: ﴿ إنما اتخذتُم من دونِ الله أوثاناً مَوَدَّة بينكم في الحياة الدنيا ثُمَّ يومَ القيامة يكفُر بعضُكم ببعضٍ ويلعَنُ بعضُكم بعضاً

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٨٥ من سورة آل عمران، والآية ٢٦ من سورة الرعد، وخرّجناه هنالك.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّي أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل. وأخرج الطبري عن مجاهد أنها نزلت في حمزة وعلي، وأبي جهل، تفسير الطبري ٩٧/٢٠.

ومأواكم النارُ وما لكم من ناصرين ﴾، وقال الله: ﴿ إذ تبرَّأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبعوا ورأوُا العذابَ وتقطَّعت بهمُ الأسبابُ ۝ وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرَّةً فنتبرَّأ منهم كما تبرَّأوا منا كذلك يُريهم اللهُ أعمالَهم حسَراتٍ عليهم وما هُم بخارِجينَ مِنَ النارِ ﴾. ولهذا قال: ﴿ وقيلَ ادعُوا شُركاءَكم ﴾، أي: لِيخلِّصُوكم مما أنتم فيه، كما كنتم ترجُون منهم في الدار الدنيا، ﴿ فدَعوهُم فلم يَستجيبُوا لهم ورأوُا العذابَ ﴾، أي: وتيقَّنوا أنهم صائِرُون إلى النارِ لا مَحالةَ.

وقولُه: ﴿ لو أنّهم كانُوا يهتَدُون ﴾، أي: فوَدُّوا حين عايَنُوا العذابَ لو أنهم كانوا من المُهتَدِين في الدار الدنيا. وهذا كقوله تعالى: ﴿ ويومَ يقولُ نادُوا شركائي الذين زعَمتُم فدَعَوهم فلَم يَستجيبُوا لهم وجَعلنا بينهم مَوْبِقاً ۝ ورأى المجرمُون النارَ فظنُّوا أنهم مُواقِعُوها ولم يَجِدُوا عنها مَصْرِفاً ﴾.

وقولُه: ﴿ ويومَ يُناديهِم فيقول ماذا أجبتُم المُرسَلين ﴾، النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النُّبوّات: ماذا كان جوابُكم للمُرسَلين إليكُم؟ وكيف كان حالُكم مَعهم؟ وهذا كما يُسأل العبدُ في قبره: مَن ربُّك؟ ومن نبيُّك؟ وما دينُك؟ فأما المؤمن فيشهد أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمداً عبدُ الله ورسوله. وأما الكافرُ فيقولُ: هاه! هاه[(١)] ! لا أدري. ولهذا لا جواب له يوم القيامة غيرُ السكوت، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ فعَمِيَتْ عليهم الأنباءُ يومئذٍ فهم لا يَتساءَلُونَ ﴾.

وقال مُجاهدٌ: فعَميَتْ عليهمُ الحُجَجُ، فهُم لا يتساءَلُون بالأنسابِ[(٢)].

وقولُه: ﴿ فأمّا مَن تابَ وآمنَ وعَمِلَ صالحاً ﴾، أي: في الدنيا، ﴿ فعَسى أن يكُون مِنَ المُفلِحِينَ ﴾، أي: يومَ القيامةِ و«عَسى» مِنَ الله مُوجِبَةٌ[(٣)]، فإن هذا واقعٌ بِفضلِ اللهِ ومَنِّه لا مَحالةَ.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠ ﴾

يُخبِرُ تعالى أنه المُنفرِدُ بالخَلْقِ والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازِعٌ ولا مُعقِّبٌ فقال: ﴿ وربك يخلُق ما يشاء ويختار ﴾، أي: ما يشاء، فما شاء كانَ، وما لم يَشأ لم يَكُن، فالأمورُ كلُّها خيرُها وشرُّها بيده، ومَرْجِعُها إليه.

وقولُه: ﴿ ما كان لهم الخِيَرَةُ ﴾، نفي على أصحِّ القولين، كقوله تعالى: ﴿ وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً أن يكونَ لهم الخِيَرةُ من أمرِهم ﴾.

وقد اختار ابن جرير أن (ما) ها هنا بمعنى «الذي»، تقديرُه: ويختار الذي لهم فيه خِيَرَةٌ[(٤)]. وقد احتجَّ بهذا المسلك طائفةُ المعتزلة على وُجُوب مراعاة الأصلح. والصحيحُ أنها نافيه. كما نقلَه ابن أبي حاتم، عن

---

(١) هذا قطعة من حديث تقدم عند تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم، وقبل ذلك عند تفسير الآية ٤٠ من سورة الأعراف، وخرجناه هنالك.
وقول الكافر: هاه! هاه! هي كلمة توجع
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ٢٠/٩٩.
(٣) أخرج ابن أبي حاتم بإسناده إلى ابن عباس: «وعسى من الله واجب».
(٤) تفسير الطبري ٢٠/١٠١.

ابن عبّاس وغيره أيضاً، فإن المقام في بيان انفرادِه تعالى بالخلْق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿ سُبْحان الله وتعالى عما يُشركون ﴾، أي: من الأصنام والأنداد، التي لا تخلُق ولا تختارُ شيئاً.

ثم قال: ﴿ وربُّك يعلَمُ ما تُكِنُّ صدورُهم وما يُعلِنُون ﴾، أي: يعلم ما تُكِنُّه الضمائر، وما تنطوي عليه السرائرُ، كما يعلَم ما تُبدِيه الظواهرُ من سائرِ الخلائق، ﴿ سواءٌ منكم من أسرَّ القولَ ومن جَهَر به ومن هُو مُستَخفٍ بالليل وساربٌ بالنّهارِ ﴾.

وقولُه: ﴿ وهو الله لا إلَهَ إلا هُو ﴾، أي: هو المُنفرد بالإلَهية، فلا معبودَ سواه، كما لا ربَّ يخلق ويختارُ سِواه، ﴿ له الحمدُ في الأولى والآخِرَة ﴾، أي: في جَميع ما يفعلُه هو المحمُودُ عليه، لِعَدْله وحِكْمته ﴿ وله الحكمُ ﴾، أي: الذي لا مُعقِّبَ له، لِقهره وغلَبته وحِكْمتِه ورَحْمته، ﴿ وإليه تُرْجَعُون ﴾، أي: جميعُكم يوم القيامة، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمَلِه، من خيرٍ وشرٍّ، ولا يخفَى عليه منهم خافيةٌ في سائِرِ الأعمال.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُمتنّاً على عباده بما سَخَّر لهم من الليل والنهار، اللذين لا قِوامَ لهم بدونهما. وبيّن أنه لو جعلَ الليلَ دائماً عليهم سَرْمَداً إلى يوم القِيامَةِ لأضرَّ ذلك بهم، ولَسئِمته النفوسُ وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: ﴿ مَن إلَهٌ غيرُ الله يأتيكم بضِياءٍ ﴾، أي: تُبصِرُون به وتَستأنِسُون بسَببِه، ﴿ أفَلا تسْمَعُون ﴾.

ثم أخبَرَ أنه لو جَعَل النهار سَرْمَداً دائماً مُستمِرّاً إلى يوم القِيامَة لأضرَّ ذلك بهم، ولَتعِبت الأبدانُ وكلَّت من كثرة الحركات والأشغال. ولهذا قال: ﴿ مَن إلَهٌ غيرُ الله يأتيكم بليلٍ تَسكُنون فيه ﴾، أي: تَستريحُون من حركاتكم وأشغالكم، ﴿أَفَلا تُبصِرُونَ * وَمِن رَحْمَتِه﴾، أي: بكم ﴿جعل لكم الليلَ والنهارَ﴾، أي: خلَق هذا وهذا، ﴿ لِتَسكُنوا فيه ﴾، أي: في الليل، ﴿ وَلِتبتَغُوا من فَضْلِهِ ﴾، أي: في النهارِ بالأسفارِ والتَّرحالِ، والحَرَكاتِ والأشغالِ. وهذا من باب اللّفِّ والنشر[١].

وقولُه: ﴿ وَلعلّكم تشكُرون ﴾، أي تشكُرون الله بأنواع العبادات في اللّيلِ والنّهارِ. ومن فاته شيءٌ بالليل استدركَه بالنّهار، أو بالنّهارِ استدركَه باللّيلِ، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جَعَل الليلَ والنهارَ خِلْفَةً لمن أراد أن يَذَّكَّر أو أراد شُكُوراً﴾، والآيات في هذا كثيرة.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

وهذا أيضاً نداءٌ ثانٍ على سبيل التقريع والتوبيخ لمن عَبَد مع الله إلَهاً آخرَ، يُناديهم الربُّ ـ تباركَ وتعالى ـ

(١) اللّفُّ والنَّشْرُ: هو أن يُذكَر المُتعدِّدُ مُفصَّلاً أو مُجمَلاً، ثمّ يُذكر ما لكلٍّ واحدٍ من آحاد هذا المتعدِّد بالترتيب، وهو اللفُّ والنَّشْر المرتَّب، أو من غير ترتيب، وهو اللّفُّ والنَّشْر غير المرتَّب. والآية المذكورة من الأول.

على رؤوس الأشهاد فيقول: ﴿ أين شُركائِيَ الذينَ كُنتُم تَزعُمون ﴾، أي: في الدار الدنيا.

﴿ونَزعنا من كلِّ أُمّةٍ شهيداً﴾، قال مجاهدٌ: يعني رَسُولاً. ﴿فقلنا هاتوا بُرهانكم﴾، أي: على صِحَّةِ ما ادعيتموه من أن لله شُركاء، ﴿ فَعَلِمُوا أن الحقَّ لله ﴾، أي: لا إلَهَ غيرُه، أي: فلَم ينطِقُوا ولم يُحيروا جَوَاباً، ﴿ وضَلَّ عنهُم ما كانوا يفتَرُون ﴾، أي: ذهَبُوا فلم ينفعُوهم.

﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

قال الأعمشُ، عن المِنهال بن عَمرو، عن سَعيد بن جُبير، عن ابن عبّاسٍ قال: ﴿ إن قارُونَ كانَ مِن قَوْمِ مُوسَى ﴾، قال: كان ابنَ عمِّه[1]. وهكذا قال إبراهيمُ النَّخَعي، وعبد الله بنُ الحارث بن نوفل، وسِماك ابنُ حَرب، وقتادةُ، ومالك بن دِينار، وابنُ جُرَيج، وغيرُهم: أنه كان ابنَ عمِّ موسى عليه السلام. قال ابنُ جُرَيج: هو قارون بن يصهَرَ بن قاهِث، وموسى بن عمران بن قاهِث.

وزعَم محمدُ بن إسحاقَ بن يَسار: أن قارونَ كان عمَّ موسى بن عِمران عليه السلام. قال ابنُ جرير: وأكثرُ أهل العلم على أنه كان ابنَ عمِّه[2]، والله أعلم.

وقال قَتادةُ بن دِعامة: كنا نُحدَّث أنه كان ابنَ عمِّ موسى، وكان يُسمّى المُنوِّر لحسن صَوته بالتوراة، ولكن عَدُوَّ الله نافق كما نافَقَ السامِريُّ، فأهلكه البغيُ لكثرة ماله[3].

وقال شَهرُ بنُ حَوشَب: زاد في ثيابه شِبراً طولاً، تَرفُّعاً على قَومه.

وقولُه: ﴿ وآتيناه من الكُنوز ﴾، أي: الأموال ﴿ مَا إنَّ مفاتِحَه لتَنوءُ بالعُصْبَةِ أُولي القُوَّة ﴾، أي: ليُثقِلُ حملَها الفِئامُ[4] من الناس لِكَثْرتها.

قال الأعمش، عن خَيْثَمة: كانت مفاتيحُ كُنوزِ قارونَ من جُلود، كُلُّ مفتاحٍ مثلُ الإصبَع، كُلُّ مفتاح على خِزانةٍ على حِدَتِهِ، فإذا رَكِبَ حُمِلت على ستين بغلاً أغرَّ مُحَجَّلاً[5]. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ إذ قال له قومُه لا تَفرَحْ إنَّ الله لا يحبُّ الفَرِحِينَ ﴾، أي: وَعَظه فيما هو فيه صالِحُو قومه، فقالوا على سبيل النُّصح والإرشادِ: لا تَفرَح بما أنتَ فيه، يَعنُون لا تَبطَر بما أنتَ فيه من الأموال، ﴿ إنَّ الله لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ ﴾.

قال ابنُ عباس: يَعني المَرِحِينَ. وقال مجاهد: يعني الأشِرِينَ البَطِرين، الذين لا يشكُرُون الله على ما أعطاهُم.

وقولُه: ﴿ وابتَغِ فيما آتاكَ الله الدارَ الآخِرَةَ ﴾ أي: استَعمِلْ ما وَهَبكَ الله من هذا المالِ الجَزيل والنِّعمةِ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/١٠٥.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، والطبري ٢٠/١٠٦.
(٤) الفئام: الجماعة من الناس.
(٥) تفسير الطبري ٢٠/١٠٦-١٠٧.

الطائلةِ في طاعة رَبِّك والتقرُّب إليه بأنواع القُرُبات التي تُحصِّل لك الثوابَ في الدَّار الآخِرَة ﴿ ولا تنسَ نصيبَك من الدنيا ﴾، أي: ما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربِّك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزَوْرِك[1] عليك حقاً، فآتِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. ﴿ وأحسِنْ كما أحسنَ اللهُ إليك ﴾، أي: أحسِنْ إلى خَلْقِه كما أحسَن هو إليك، ﴿ ولا تبغِ الفسادَ في الأرض ﴾، أي: لا تكن هِمَّتُك بما أنتَ فيه أن تُفسِدَ به الأرض، وتُسيء إلى خَلْقِ الله، ﴿ إنَّ الله لا يُحبُّ المفسدين ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن جواب قارونَ لقومِه، حين نَصَحُوه وأرشدُوه إلى الخير، ﴿ قال إنما أُوتيتُه على عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أي: أنا لا أفتقرُ إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المالَ لِعلْمِه بأني أستحقُّه ولمحبَّتِه لي، فتقديره: إنما أُعطيتُه لعلم الله فيَّ أنِّي أهل له. وهذا كقوله تعالى: ﴿ فإذا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دعانا ثم إذا خوَّلناه نعمةً منا قال إنما أُوتيتُه على علم ﴾. أي على عِلْمٍ مِنَ الله بي، وكقوله تعالى: ﴿ وَلَئن أذقناه رحمةً منا من بعد ضرَّاء مسته ليقولن هَذا لِي ﴾، أي: هذا أستحقُّه.

وقد رُوي عن بعضهم أنه أراد: ﴿ إنما أوتيتُه على عِلم عِنْدي ﴾، أي: إنه كان يعاني عِلْمَ الكيمياء. وهذا القول ضعيف، لأنَّ علم الكيمياء في نفسه علمٌ باطل، لأنَّ قلب الأعيانِ لا يقدِرُ أحدٌ عليها إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قال الله: ﴿ يا أيها الناس ضُرِب مثل فاستمعوا له إن الذين تَدعُون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾، وفي الصحيح عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: يقول الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهَب يخلُق كخلْقي، فليَخلُقوا ذَرَّةً، فليخلُقوا شعيرةً»[2]، وهذا ورد في المُصوِّرين الذين يُشبِّهون بخلْق الله في مُجرَّد الصُّورةِ الظاهرة أو الشكل، فكيف بمن يدعي أنه يُحِيلُ ماهيَّةَ هذه الذاتِ إلى ماهيةِ ذاتٍ أُخرى، هذا زورٌ ومحال، وجَهلٌ وضَلال. وإنما يقدرون على الصَّبغ في الصُّورةِ الظاهرة، وهو كَذِبٌ وزَغَلٌ[3] وتَمويهٌ، وترويجُ أنه صحيح في نفس الأمر، وليس كذلك قطعاً لا محالة، ولم يثبُت بطريقٍ شرعيٍّ أنه صحَّ مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاناها هؤلاء الجَهلَة الفَسقة الأفاكون المُزوِّرون، فأما ما يُجريه الله ـ تعالى ـ من خَرْق العوائد على يَدَي بعضِ الأولياء من قَلْب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك فهذا أمرٌ لا يُنكِرُه مسلم، ولا يردُّه مؤمنٌ، ولكن هذا ليس من قَبيل الصِّناعات، وإنما هذا عن مَشيئةِ رَبِّ الأرض والسموات، واختياره وفعله، كما رُوِيَ عن حَيْوة بن شُرَيح المِصْريِّ ـ رحمه الله ـ أنه سأله سائل، فلم يكن عنده ما يُعطيه، ورأى ضَرورَته، فأخذ حَصاةً من الأرض فأجالها[4] في كفِّه، ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هي ذهبٌ أحمرُ. والأحاديث والآثار كثيرةٌ جداً يطول ذكرها.

وقال بعضُهم: إنَّ قارونَ كان يَعلَم الاسمَ الأعظمَ، فدعا الله فتَموَّل بـه؛ والصحيحُ المعنى الأول، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ رَاداً عليه فيما ادَّعاه مِنَ اعتناءِ الله به فيما أعطاه من المال: ﴿ أوَ لم يعلَم أنَّ الله قد

---

(١) الزَّوْر: الزُّوَّار. واحده: زائر.
(٢) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الحج، وخرجناه هنالك.
(٣) الزَّغَل: الغِش.
(٤) أجالها: أدارها.

أهلكَ من قبله من القرون من هو أشدُّ منه قُوَّةً وأكثر جمعاً ﴾، أي: قد كان من هو أكثرُ منه مالاً وما كان ذلك عن مَحَبَّةٍ منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكُفرِهم وعَدَم شُكرِهم، ولهذا قال: ﴿ ولا يُسْئَلُ عن ذُنُوبِهِمُ المجرمُون ﴾، أي: لِكَثْرَةِ ذُنوبِهم.

قال قتادةُ: ﴿ على عِلْمٍ عِندي ﴾، على خَيرٍ عندي. وقال السُّدّي: على عِلْمٍ أني أهلٌ لذلك.

وقد أجادَ في تفسيرِ هذه الآيةِ الإمامُ عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ، فإنه قالَ في قوله: ﴿ قال إنما أوتيتُه على عِلْمٍ عِندي ﴾ قال: لولا رِضَا الله عَني ومعرفتُه بفَضْلِي ما أعطاني هذا المَالَ، وقرأَ: ﴿ أَوَلم يَعْلَم أنَّ الله قد أهلَكَ من قَبلِهِ من القُرُونِ مَن هُو أشدُّ مِنهُ قوةً وأكثرُ جَمْعاً ولا يُسأَلُ عن ذُنُوبهم المُجرِمُونَ ﴾[1].

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن قارونَ: أنَّه خرَجَ ذاتَ يومٍ على قومِه في زينةٍ عَظيمةٍ، وتَجمُّل باهرٍ، مِن مراكبَ وملابسَ عليه وعلى خَدَمه وحَشَمه، فلمَّا رآه مَن يُريد الحياة الدنيا ويَميلُ إلى زُخرفها وزينَتِها تمنَّوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطى، ﴿ قالوا يا ليتَ لَنا مثلَ ما أُوتِيَ قارونُ إنَّه لذو حَظٍّ عظيمٍ ﴾، أي: ذُو حظٍّ وافرٍ من الدنيا. فلما سَمِع مقالَتَهم أهلُ العلم النافع قالوا لهم: ﴿ وَيْلَكم ثَوابُ الله خيرٌ لمن آمَنَ وعَمِلَ صَالحاً ﴾، أي: جَزَاءُ الله لعبادِه المؤمنينَ الصالحينَ في الدار الآخرة خيرٌ مما ترون، كما في الحديث الصَّحيح: يقولُ الله تعالى: ﴿ أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رَأت، ولا أُذُن سَمِعت، ولا خطَر على قَلْبِ بَشَر، واقرءوا إن شئتم: ﴿ فلا تعلَمُ نفسٌ ما أُخفِيَ لَهم مِن قُرَّةِ أعين جَزَاءً بما كَانُوا يَعمَلُون ﴾[2].

وقولُه: ﴿ وَلاَ يُلَقَّاها إلا الصَّابِرُون ﴾، قال السُّدّي: وما يُلَقَّى الجنةَ إلا الصابرون. كأنه جعل ذلك تَمام كَلام الذين أوتوا العلم. قال ابن جرير: وما يُلَقَّى هذه الكلمةَ[3] إلا الصابرون عن مَحَبَّةِ الدنيا، الراغبُون في الدار الآخرة. وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك، وجَعَله مِن كلامِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإخبارِه بذلك.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لما ذكر ـ تعالى ـ اختيالَ قارونَ في زينَتِه، وفَخْرَه على قومِهِ وبَغْيَه عليهم، عَقَّبَ ذلك بأنه خَسَفَ به

(١) بعده في نسخة الحرم. «. يقول من قلَّ علمه ـ إذا رأى من وسَّع الله عليه ـ: لولا أنه يستحق ذلك لما أعطى».
(٢) أخرجه الشيخان، فتح الباري، تفسير سورة السجدة ٨/٥١٥ ـ ٥١٦، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٧٦.
(٣) قال الطبري في تفسيره ٢٠/١١٦: «ولا يلقاها، أي: ولا يُوَفَّق لقيل هذه الكلمة، وهي قوله. (ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً)، والهاء والألف كناية عن الكلمة...».

وبداره الأرضَ، كما ثبت في الصَّحيح ـ عند البخاري من حديث الزهريّ، عن سالم ـ: أن أباه حدَّثه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بَيْنَا رجلٌ يجرُّ إزارَه إذ خُسِفَ به، فَهُوَ يَتَجلْجَلُ في الأَرْضِ إلى يوم القيامة»(١).

ثم رواه من حديث جَرير بن زَيْدٍ، عن سالم عن أبي هريرة، عن النبي ـ ﷺ ـ نحوه(١).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا النضرُ بنُ إسماعيلَ أبو المغيرة القاصُّ، حدثنا الأعمش، عن عَطِيَّةَ، عن أبي سَعيدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بَيْنا رجلٌ فيمن كان قبلكم خَرَج في بُرْدَيْن أَخْضَرين يختال فيهما، أمر الله الأرضَ فأخذَته، فإنه ليتَجلْجَلُ فيها إلى يَومِ القِيامَةِ». تفرَّد به أحمدُ(٢)، وإسنادُه حَسَنٌ.

وقال الحافظ أبو يعلَى المَوْصِلي: حدثنا أبو خيثمة، مُعَلَّى بن منصور، أخبرني محمَّد بن مُسلم، سَمِعت زياداً النُّميري يُحَدِّث عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بَينا رجلٌ فيمن كان قبلَكُم خَرَج في بُرْدَين فاختالَ فيهما، فأمر الله الأرضَ فأخذته، فهو يَتجلْجلُ فيها إلى يَومِ القِيامَة»(٣).

وقد ذكر الحافظُ محمدُ بن المنذر ـ شَكَرٌ ـ في كتاب العَجائب الغريبة بِسَنَدِه عن نوفل بن مساحق قال: رأيتُ شاباً في مسجدِ نَجْرَانَ، فجعلتُ أنظرُ إليه وأتعجَّبُ من طُوله وتَمامه وجَماله، فقال: ما لك تنظرُ إليّ؟ فقلتُ: أعجَبُ من جَمالك وكَمالك! فقال: إن الله ليعجَب مِنّي. قال: فما زال يَنقُصُ وَينقُصُ حتى صار بطول الشِّبر، فأخذَه بعضُ قَرابته في كُمِّه وذَهَب.

وقد ذُكِرَ أنَّ هلاكَ قَارُونَ كان عن دعوةِ نَبيِّ الله موسى عليه السلام. واختُلِف في سببه، فعن ابن عباس والسُّدِّي أن قارونَ أعطى امرأةً بَغِيّاً مالاً على أن تَبْهَت موسى بحَضْرَةِ المَلإِ من بَنِي إسرائيلَ، وهو قائمٌ فيهم يتلُو عليهم كتابَ الله، فتقُولَ: يا مُوسَى، إنّك فَعلتَ بي كَذَا وكَذا. فلما قالت في الملإ ذلك لموسى ـ عليه السلام ـ أُرْعِدَ من الفَرَق، وأقبل عليها بعدما صَلَّى ركعتَين ثم قال: أَنْشُدُكِ بالله الذي فَرَق البحر، وأنجاكم من فِرْعَونَ، وفَعَل كذا وكذا، لَمَّا أَخْبَرتِني بالذي حَمَلَكِ على ما قُلتِ؟ فقالت: أَمَا إذ نَشَدْتَني فإنَّ قارُونَ أعطاني كَذَا وكذا، على أن أقولَ لك، وأنا أستغفرُ الله وأتوبُ إليه. فعند ذلك خرَّ مُوسَى لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ساجداً، وسأل الله في قَارُونَ. فأوحى الله إليه أنّي قد أمرتُ الأرضَ أن تُطيعك فيه. فأمر مُوسَى الأرضَ أن تَبْتَلِعَه ودَارَه، فكان ذلك.

وقيل: إنَّ قارُون لمّا خَرَج على قومه في زِينَتِهِ تلك، وهو راكبٌ على البِغال الشُّهْبِ، وعليه وعلى غَنَمه ثيابُ الأُرْجُوانِ(٤) المُصَبَّغة، فمرَّ في جَحْفَلِه ذلك على مَجلِس نَبيِّ الله موسى ـ عليه السلام ـ وهو يُذَكِّرهم بأيام الله. فلما رأى الناسُ قارونَ انصرفت وُجُوه الناسِ حَوْلَه، يَنظُرون إلى ما هو فيه. فَدَعاه موسى ـ عليه السلام ـ وقال: ما حَمَلك على ما صنعتَ؟ فقال: يا موسى، أَمَا لَئِن كنت فُضِّلتَ عَلَيَّ بالنبوة فلقد فُضِّلت عليك بالدنيا، ولئن شِئت لتخرُجَنَّ فَلَتدعُوَنَّ عليّ وأدعُو عليك. فَخرج وخَرَج قارون في قومه، فقال موسى: تَدعُو أو أدعو أنا؟ قال: بل أنا أدعُو. فدعا قارون فلم يُجَبْ له. ثم قال موسى: أدعُو؟ قال: نعم. فقال موسى:

---

(١) فتح الباري، كتاب اللباس ١٠/٢٥٨. والتَّجَلْجُل: التحرك. وعن ابن فارس: التجلجل: أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد، ويندفع من شقٍّ إلى شقٍّ. فالمعنى ـ كما قال ابن حجر ـ يتجلجل في الأرض، أي: ينزل فيها مضطرباً متدافعاً.

(٢) مسند أحمد ٣/٤٠.

(٣) مسند أبي يعلى، تحقيق إرشاد الحق ٤/٢٢٢.

(٤) الأُرْجُوان: شجر من الفصيلة القرنية، له زهر شديد الحمرة، حسن المنظر، وليست له رائحة. والأُرْجُوان أيضاً: الصبغ الأحمر، والثوب المصبوغ فيه.

اللهمَّ، مُرِ الأرض أن تُطيعني اليوم. فأوحى الله إليه أنّي قد فعلتُ. فقال موسى: يا أرضُ، خُذيهم. فأخذتهم إلى أقدامِهم. ثم قال: خُذيهم. فأخذتهم إلى رُكَبِهم، ثم إلى مَناكِبهم، ثم قال: أقبلي بِكُنُوزِهم وأموالهم. قال: فأقبلت بها حتى نَظَرُوا إليها. ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبُوا بني لاوِي[1]. فاستوت بهم الأرض[2].

وعن ابن عباس أنه قال: خُسِفَ بهم إلى الأرض السابعة. وقال قتادةُ: ذُكِر لنا أنه يُخسَفُ بهم كُلَّ يوم قامةً، فهم يَتجلْجَلُونَ فيها إلى يوم القيامة.

وقد ذكر هاهنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحاً.

وقولُه: ﴿ فما كَانَ له من فِئَةٍ ينصُرونَه من دُونِ الله وما كان من المُنتَصِرينَ ﴾، أي: ما أغنى عنه مالُه وما جَمَعه، ولا خَدَمُه وحَشَمُه. ولا دفعوا عنه نِقمَةَ الله وعذابَه ونَكَاله، ولا كان هو في نفسه مُنتَصِراً لنفسه، فلا ناصِرَ له من نَفْسِه ولا من غيره.

وقولُه تعالى: ﴿ وأصبحَ الذين تَمَنَّوا مكانَه بالأمسِ ﴾، أي: الذين لما رَأَوه في زِينَتِهِ ﴿قالوا يا ليتَ لنا مِثلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إنه لذو حَظٍّ عَظِيمٌ ﴾ فَلَمَّا خُسِفَ به أصبحوا يقولون: ﴿ وَيْكَأَنَّ الله يبسُطُ الرِّزقَ لمن يشاءُ من عبادِه ويَقْدِرُ ﴾، أي: ليس المال بدالٍّ على رِضَا الله عن صاحبه من عباده؛ فإن الله يُعطي ويمنَعُ، ويُضيِّق ويُوسِّع، ويخفِضُ ويرفَعُ، وله الحكمةُ التامَّةُ والحجَّةُ البالغة. وهذا كما جاء في الحديث المرفوع عن ابن مَسعُود: «إن الله قَسَم بينكم أخلاقَكُم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يُعطِي المال مَن يُحِبُّ ومن لا يُحِبُّ، ولا يعطِي الإيمانَ إلا مَن يُحِبُّ»[3].

﴿ لولا أن منَّ الله علينا لخَسَف بنا ﴾، أي: لولا لطفُ الله بنا وإحسانُه إلينا لخَسَفَ بنا، كما خَسَف به، لأنا وَدِدْنا أن نكون مثله.

﴿ وَيْكَأَنَّه لا يُفلِحُ الكافِرُونَ ﴾، يعنون أنه كان كافراً، ولا يُفلِحُ الكافرون عند الله، لا في الدُّنيا ولا في الآخِرَة.

وقد اختلف النحاة في معنى قوله تعالى هاهنا: ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾، فقال بعضهم: معناها: «وَيْلَكَ اعلَم أنَّ»، ولكن خُفِّفَت فقيل: «وَيْكَ» ودلَّ فتحُ «أنَّ» على حذف «اعلم». وهذا القول ضَعَّفَه ابنُ جرير[4]. والظاهر أنه قَوِيٌّ، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة «وَيْكَأَنَّ». والكتابةُ أمر وَضْعِيٌّ اصطلاحي، والمرجع إلى اللفظ العربي، والله أعلم.

وقيل: معنى[5] ويكأن، أي: ألم تَرَ أنَّ. قاله قتادةُ. وقيل: معناها «وَيْ كأن»، ففصلها وجعل حرف «وي» للتعجب أو للتنبيه، وكأنَّ بمعنى أظن وأحسِبُ. قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قَتادة: إنها بمعنى: ألم تَرَ أنَّ، واستشهد بقول الشاعر[6]:

سَـألَتَـانِي الـطَّلاقَ أنْ رَأَتَـانِي ... قَـلَّ مَـالِي، قَـدْ جِئْتُمَانِي بِنُكْرِ

وَيْـكَـأَنْ مَنْ يَكُن لـه نَشَبٌ يُحْـ ... ـبَبْ، ومن يَفْتَقِـرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُـرِّ

(١) بنو لاوي: من ولد إسرائيل عليه السلام. انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٥٠٣ ـ ٥٠٤.

(٢) أخرج الأثر ابن أبي حاتم في تفسيره بإسناده إلى عثمان بن عطاء بن أبي مسلم الخراساني.

(٣) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢٦٧ من سورة البقرة، ١١٤ من سورة هود، ٥٦ من سورة المؤمنون.

(٤) تفسير الطبري ٢٠/١٢١. وهذا الرأي وتضعيفه نقله الطبري عن الفراء في معانيه ٢/٣١٢. (٥) في النسخ: معناها.

(٦) هو زيد بن عَمرو بن نُفَيل من قريش، شاعرٌ جاهلي. وهذان البيتان من شواهد النحو المشهورة، انظرهما في كتاب سيبويه ٢/١٥٥.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى أنَّ الدار الآخرة ونَعيمَها المقيمَ الذي لا يَحُول ولا يَزُول جعلها لعباده المؤمنين المُتَواضِعين، الذين لا يُريدون عُلُوّاً في الأرض، أي: تَرَفُّعاً على خَلْق الله وتعاظُماً عليهم وتَجَبُّراً بهم، ولا فساداً فيهم. كما قال عكرمة: العُلُو: التجبر. وقال سعيد بن جُبَير: العُلُو: البَغي.

وقال سفيان بن سَعِيد الثَّوري، عن مَنْصُور، عن مُسلِم البَطِين: العُلُو في الأرض: التَّكبُّر بغير حَقّ. والفساد: أخذُ المال بغير حَقّ[1].

وقال ابنُ جُرَيج: ﴿ لا يُريدُونَ عُلُوّاً في الأرض ﴾، تَعَظُّماً وتجبراً، ﴿ وَلاَ فَساداً ﴾: عَمَلاً بالمَعاصِي.

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثنا ابنُ وَكِيع، حَدَّثنا أبي، عن أشعثَ السَّمَّان[2]، عن أبي سَلَّام[3] الأعْرَج، عن عَلِيٍّ قال: إنَّ الرجل لَيُعجِبُه من شِرَاكِ نَعْلِه أن يكون أجود من شِرَاكِ صَاحِبِه، فيدخل في قوله: ﴿ تلكَ الدارُ الآخرةُ نَجعَلُها للذين لا يُرِيدُون عُلُوّاً في الأرضِ ولا فَساداً والعاقبةُ للمُتَّقين ﴾[4].

وهذا محمولٌ على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاوُلَ على غيره، فإن ذلك مذمومٌ، كما ثبت في الصَّحيح، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنَّهُ أُوحِيَ إليَّ أن تَواضَعُوا، حتى لا يفخَرَ أحدٌ على أحَدٍ»[5]، وأما إذ أحبَّ ذلك لمجرَّدِ التَّجَمُّل فهذا لا بأسَ به، فقد ثَبَت أن رَجُلاً قال: يا رسولَ الله، إنّي أُحِبُّ أن يكونَ رِدَائي حسناً ونَعلِي حَسَنةً، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميلٌ يحبُّ الجَمالَ»[6].

وقال: ﴿ مَن جاء بالحسنة ﴾، أي: يومَ القيامة ﴿ فله خيرٌ منها ﴾، أي: ثوابُ الله خيرٌ من حَسَنةِ العبد، فكيف والله يضاعِفُه أضعافاً كثيرةً، وهذا مقامُ الفَضْلِ.

ثم قال: ﴿ ومَن جاء بالسيئةِ فلا يُجزَى الذين عَمِلوا السيئات إلا ما كانوا يعملُونَ ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ ومَن جاء بالسيئةِ فَكُبَّت وجُوُهُهم في النار هل تُجزَوْن إلا ما كنتم تَعْمَلُون ﴾ وهذا مقام الفَضْلِ العَدْلِ.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والطبري ٢٠/١٢٢.

(٢) كذا في النسخ، وتفسير الطبري: أشعث السَّمَّان. وفي تفسير ابن أبي حاتم: أشعث بن يزيد الشامي. وترجم له ابن أبي حاتم في الجرح ٢/٢٧٧، وقال في نسبه: الدمشقي. على أن في الجرح أيضاً ٢/٢٧٢ ترجمة لأشعث بن سعيد أبي الربيع السَّمَّان. هذا وانظر الأنساب للسمعاني ٣/٢٩٢.

(٣) في تفسير الطبري: «عن أبي سلمان». والصواب ما هنا وهو مَنْظُورٌ أبو سلَّام الأعرج. انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/٤٣١، والمُقْتَنى في سرد الكنى للذهبي ٢٨١.

(٤) تفسير الطبري ٢٠/١٢٢، كما أخرجه ابن أبي حاتم بإسناده إلى أشعث.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الجنة ٤/٢١٩٨ـ٢١٩٩، والنسائي في فضائل القرآن من سننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٨/٢٥٠ ـ ٢٥١. وكذلك أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ٤/٢٧٤، وابن ماجه في الزهد ٢/١٣٩٩. كلهم عن عياض بن حمار المجاشعي.

(٦) أخرجه مسلم والترمذي عن عبد الله بن مسعود. مسلم، كتاب الإيمان ١/٩٣، وعارضة الأحوذي، أبواب البر والصلة ٨/١٦٣ ـ ١٦٥.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾
وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ
عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى آمراً رسولَه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بِبَلاغ الرسالةِ وتلاوةِ القرآنِ على الناس، ومُخبِراً له بأنه سيَرُدُّه إلى مَعَادٍ، وهو يومُ القيامةِ، فيسأله عما استرعاه من أعباءِ النبوةِ، ولهذا قال: ﴿إن الذي فَرَضَ عليك القرآن﴾، أي: افترض عليك أداءه إلى الناس، ﴿لرادُّك إلى مَعَادٍ﴾، أي: إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَنسألَنَّ الذين أُرسِلَ إليهم وَلَنسألَنَّ المرسَلِينَ﴾، وقال: ﴿يومَ يجمعُ الله الرسُلَ فيقولُ ماذا أُجِبتُم﴾... الآية، وقال: ﴿وجِيءَ بالنَّبِيِّين والشُّهَدَاءِ﴾.

قال السُّدِّي، عن أبي صَالح، عن ابن عباس: ﴿إنَّ الذي فَرَضَ عليكَ القرآنَ لرادُّك إلى مَعَادٍ﴾، يقول: لرادُّكَ إلى الجَنَّةِ، ثم سائِلك عن القرآنِ. قال السُّدِّي: وقال أبو سعيدٍ مثلَها(١).

وقال الحكم بن أبَان، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿لرادك إلى معاد﴾، قال: إلى يوم القيامة. ورواه مالك، عن الزُّهرِيّ.

وقال الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿لرادُّكَ إلى مَعَادٍ﴾، إلى الموت.

ولهذا طُرُقٌ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وفي بعضها: لَرَادُّك إلى مَعْدِنِكَ من الجَنَّةِ.

وقال مجاهد: يُحيِيك يومَ القيامة. وكذا رُوِي عن عكرمة، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، وأبي قَزَعَةَ(٢)، وأبي مالك، وأبي صالح.

وقال الحسن البَصريّ: إي والله، إن له لمعاداً، يبعثُه الله يومَ القيامة، ثم يُدخِلُه الجنة.

وقد رُوِي عن ابن عباس غير ذلك، كما قال البخاري في التفسير من صحيحه:

حدثنا محمد بن مُقَاتِلٍ، أنبأنا يعلى، حدثنا سُفيان العُصفُرِيُّ، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عَبَّاسٍ: ﴿لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ﴾، قال: إلى مكّةَ(٣).

وهكذا رواه النسائي في تفسير سُنَنِه، وابنُ جرير، من حديث يَعْلَى ـ وهو ابن عُبَيد الطَّنَافِسِي ـ به(٤).

وهكذا روى العَوفيّ، عن ابن عباس: ﴿لرادُّك إلى مَعَادٍ﴾، أي: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها.

وقال محمد بن إسحاق، عن مجاهد في قوله: ﴿لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ﴾، إلى مَوْلِدِكَ بمكّةَ.

قال ابنُ أبي حاتم: وقد رُوِي عن ابن عباس، ويحيى بن الجَزَّار، وسَعِيد بن جُبَير، وعَطِيَّةَ، والضَحَّاكِ، نحوُ ذلك.

حدثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمَر قال: قال سُفيان: فَسَمِعناه (من مُقَاتِلٍ)(٥) منذ سَبعين سنة، عن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره.
(٢) هو: سُوَيد بن حجير الباهلي. المغني للذهبي ٢/٢٤.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة القصص ٨/٥٠٩ـ٥١٠.
(٤) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف ٥/١٣٥، والطبري ٢٠/١٢٥.
(٥) ما بين القوسين ساقط من تفسير ابن أبي حاتم.

الضَّحَّاكِ قال: لما خَرَجَ النبيُّ ـ ﷺ ـ من مكة، فبلغ الجُحْفَةَ(١)، اشتاق إلى مَكَّةَ، فأنزل الله عليه: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ إلى مَكَّةَ.

وهذا من كلام الضَّحَّاكِ يقتضي أَنَّ هذه الآيةَ مَدَنيَّةٌ، وإن كان مجموعُ السُّورةِ مَكِّيّاً، والله أعلم.

وقد قال عبدُ الرزَّاقِ: حدثنا مَعْمَرٌ، عن قتادةَ في قوله: ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾، قال: هذه مما كان ابن عباس يكتُمها.

وقد رَوَى ابنُ أبي حاتم بِسَندِهِ عن نُعَيم القارئ أنه قال في قوله: ﴿ لرادُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾، قال: إلى بيت المقدس.

وهذا ـ والله أعلم ـ يرجع إلى قول مَن فَسَّر ذلك بيوم القيامة؛ لأنَّ بيتَ المقدِس هو أرضُ المحشَرِ والمَنْشَرِ، والله الموفق للصواب.

ووجهُ الجَمْعِ بين هذه الأقوال أن ابن عباس فَسَّرَ ذلك تارة برجُوعه إلى مكة، وهو الفتحُ الذي هو عند ابن عباس أمارةٌ على اقتراب أجلِه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ كما فَسَّره ابن عباس بسورة: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾، أنه أَجَلُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ نُعِي إليه، وكان ذلك بحضره عُمَرَ بن الخطاب، ووافقه عُمَرُ على ذلك، وقال: لا أعلمُ منها غيرَ الذي تعلم. ولهذا فَسَّر ابن عباس تارة أخرى قوله: ﴿ لرادُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ بالموت، وتارة بيومِ القيامةِ الذي هو بعد الموت، وتارة بالجَنَّةِ التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالةِ الله وإبلاغِها إلى الثَّقَلَين: الجنِّ والإنسِ، ولأنه أكملُ خَلْقِ الله، وأفصحُ خَلْقِ الله، وأشرفُ خلقِ الله على الإطلاق.

وقولُه: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾، أي: قل لمن خالفك وكذَّبك ـ يا محمد ـ من قومِكَ من المشركين ومن تبعهم على كُفرهم، قل: رَبِّي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمن تكون عاقبةُ الدار، ولِمَن تكُون العاقبة والنصرةُ في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى مُذَكِّراً لنبيِّه نعمتَه العظيمةَ عليه وعلى العبادِ إذ أرسلَه إليهم: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾، أي: ما كنت تَظُنُّ قبل إنزال الوحي إليك أَنَّ الوحي يَنْزِل عليك، ولكن ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾، أي: إنما أُنزِلَ الوحيُ عليكَ من الله من رَحْمتِه بك وبالعبادِ بِسَبَبِك، فإذا مَنَحك بهذه النِّعمةِ العظيمةِ ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا ﴾، أي: مُعيناً ﴿ لِّلْكَافِرِينَ ﴾، ولكن فارِقْهم ونابِذْهم وخالِفْهم.

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾، أي: لا تتأثر بمخالفتهم لك وصدِّهم الناس عن طريقِكَ، لا تَلْوِي على ذلك ولا تُبالِه، فإن الله مُعلٍ كَلِمَتك، ومؤيدٌ دينَك، ومظهرٌ ما أُرسِلْتَ به على سائرِ الأديانِ، ولهذا قال: ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾، أي: إلى عبادةِ ربِّك وحدَه لا شريكَ له، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

وقولُه: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾، أي: لا تَلِيقُ العبادةُ إلا له، ولا تنبغي الإلٰهيةُ إلا لِعَظَمتِه.

وقولُه: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ إخبارٌ بأنه الدائم الباقي الحيُّ القيُّومُ، الذي تموتُ الخلائق ولا يموتُ، كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾، فعبَّر بالوجه عن

(١) الجُحفَة: موضع بالحجاز بين مكة والمدينة، وهي ميقات أهل الشام.

الذاتِ، وهكذا قوله هاهنا: ﴿ كلُّ شيء هالك إلا وَجْهَه ﴾، أي: إلا إيَّاه.

وقد ثَبت في الصحيح، من طريق أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أصدَقُ كَلِمَةٍ قالها شاعرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ:

أَلَا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ[1]

وقال مجاهدٌ والثَّوريُّ في قولِه: ﴿كُلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وَجْهَه﴾ أي: إلا ما أُريد به وجهُه، وحكاه البُخاريُّ[2] في صَحِيحِه كالمُقرِّر له.

قال ابنُ جَرِيرٍ: ويستشهد مَن قال ذلك بِقَولِ الشاعر[3]:

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ   رَبَّ العِبَادِ، إليه الوَجْهُ والعَمَلُ

وهذا القولُ لا يُنافي القولَ الأول، فإن هذا إخبار عن كُلِّ الأعمال بأنها باطلة إلَّا ما أُريد بها وجهُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الأعمال الصالحة المطابقةِ للشَّريعة. والقولُ الأولُ مُقتضاه أن كل الذَّواتِ فانيةٌ وهالكةٌ وزائلةٌ إلا ذاتَه ـ تعالى ـ فإنه الأوَّلُ الآخِرُ الذي هو قبلَ كلِّ شيءٍ وبعدَ كُلِّ شيء.

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدُّنيا في كتاب التفكر والاعتبار:

حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بكر، حدثنا مُسلم بن إبراهيم، حدثنا عُمَر بن سُلَيم الباهليُّ، حدثنا أبو الوليد قال: كان ابن عُمَر إذا أراد أن يَتعاهَدَ قلبه يأتي الخَرِبَةَ فيقفُ على بابها، فيُنادي بصوت حَزِينٍ فيقول: أينَ أهلُكِ؟ ثم يَرجِع إلى نفسه فيقول: ﴿ كلُّ شَيءٍ هالكٌ إلا وَجْهَه ﴾

وقولُه: ﴿ له الحكم ﴾، أي: المُلك والتصرُّف، ولا مُعقِّب لِحُكمِه، ﴿ وإليه تُرجَعُون ﴾، أي: يومَ مَعادِكم، فيَجزيكم بأعمالكم، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ. والله أعلم.

آخر تفسير سورة القصص

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ١٤٩/٧، ومسلم، كتاب الشعر ١٧٦٨/٤. وعجز البيت:
وكل نعيم لا محالة زائل

(٢) فتح الباري، تفسير سورة القصص ٥٠٥/٨.

(٣) تفسير الطبري ١٢٧/٢٠ وقد استشهد الفراء به قبل الطبري، المعاني ٣١٤/٢

تفسير

سُورَةُ العَنكَبُوت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ ﴾

أما الكلامُ على الحُروفِ المُقَطَّعةِ فقد تقدّم أوّل سُورةِ البقرة.

وقولُه: ﴿ أَحَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكُوا أن يقولوا آمنا وهُم لا يُفتَنُونَ ﴾ استفهام إنكار، ومعناه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا بُدَّ أن يَبتلِيَ عبادَه المؤمنين بحسَبِ ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصَّحيح: «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الصالحون، ثم الأمثلُ فالأمثل، يُبتلى الرجلُ على حسَبِ دِينه، فإن كان في دينه صلابةٌ زِيدَ في البلاءِ»[١]. وهذه الآية كقوله: ﴿أم حَسِبتُم أن تدخُلُوا الجنَّةَ[٢] ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرينَ ﴾، ومثلها في «سورة براءة»، وقال في البقرة: ﴿ أم حَسِبتُم أن تدخُلوا الجنَّةَ ولما يأتِكم مثلُ الذين خَلَوا من قبلكم مَسَّتهُم البأساءُ والضرَّاءُ وزُلزِلوا حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معه متى نصرُ الله ألا إن نصر الله قريبٌ ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿ ولقد فَتَنَّا الذين من قَبلِهم فَليعلمنَّ الله الذين صَدَقُوا وَليعلمنَّ الكاذبين ﴾، أي الذي صدقُوا في دعواهم الإيمانَ ممن هو كاذبٌ في قوله ودَعواه. والله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلَمُ ما كان وما يكونُ، وما لم يكُن لو كان كيفَ يكُون. وهذا مُجمَعٌ عليه عند أئمة السنة والجماعة، ولهذا يقول ابن عباس وغيرُه في مثل: ﴿ إلا لِنَعلَمَ ﴾[٣]، إلا لنرى. وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعَمُّ من الرؤية، فإنه يَتعلق بالمعدوم والموجُود.

وقولُه: ﴿ أم حَسِبَ الذين يعملون السيئات أن يَسبِقُونا ساء ما يحكمون ﴾، أي: لا يحسبنَّ الذين لم

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٨٣ من سورة الأنبياء، وخرجناه هنالك.
(٢) في النسخ: (أم حسبتم أن تُتركوا) وهو نص آية براءة. وقد أثبتنا هنا آية آل عمران ١٤٢، لأن ابن كثير قال بعد ذكرها: «ومثلها في سورة براءة». يعني الآية ١٦ منها.
(٣) من آية البقرة ١٤٣.

يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان؛ فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم، ولهذا قال: ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ﴾، أي: يفوتونا، ﴿ ساء ما يحكمون ﴾، أي: بئس ما يظنون.

﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ من كان يرجُو لقاء الله ﴾ أي: في الدار الآخرة، وعَمِل الصالحات رجاءَ ما عند الله من الثَّواب الجَزيل، فإن الله سَيُحقق له رَجاءه، ويُوفِّيه عملَه كاملاً موفوراً، فإن ذلك كائن لا محالة، لأنه سميعُ الدعاءِ، بصيرٌ بكل الكائنات، ولهذا قال: ﴿ من كان يرجُو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميعُ العليم ﴾.

وقولُه: ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهدُ لنفسه ﴾، كقوله: ﴿ من عَمِل صالحاً فلنفسه ﴾، أي: من عمل صالحاً فإنما يعود نفعُ عَمَلِه على نفسه، فإن الله غَنِيٌّ عن أفعال العباد، ولو كانوا كلُّهم على أتقى قلب رجل واحدٍ منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولهذا قال: ﴿ ومن جاهَدَ فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنيٌّ عن العالمين ﴾.

قال الحسن البصريُّ: إن الرجل ليجاهدُ، وما ضَرَب يوماً من الدَّهرِ بسيف.

ثم أخبر أنه مع غِناه عن الخلائق جَميعِهم من إحسانه وبِرِّه بهم يُجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسنَ الجزاءِ، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبلُ القليلَ من الحسنات، ويُثيب عليها الواحدةَ بعشرِ أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيِّئةِ بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿ إن الله لا يظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ وإن تكُ حسنةً يُضاعِفها ويُؤتِ من لدنه أجراً عَظيماً ﴾، وقال هاهنا: ﴿ والذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات لنكفرَنَّ عنهم سَيِّئاتِهم ولنجزينَّهم أحسنَ الذي كانُوا يعمَلُون ﴾

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسانِ إلى الوالدين بعد الحثِّ على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سببُ وُجودِ الإنسان، ولهما عليه غايةُ الإحسانِ، فالوالدُ بالإنفاق، والوالدةُ بالإشفاق، ولهذا قال تعالى: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغنَّ عندك الكبر أحدُهما أو كلاهما فلا تَقُل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقُل لهما قولاً كريماً ۝ واخفض لهما جَناحَ الذل من الرحمةِ وقُل ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيراً ﴾.

ومع هذه الوصيَّة بالرأفةِ والرحمةِ والإحسانِ إليهما، في مُقابلة إحسانهما المتقدِّم، قال: ﴿ وإن جاهداك لِتُشرك بي ما ليس لك به علم فلا تُطعْهُما ﴾، أي: وإن حَرَصَا عليك أن تُتابعهما في دِينهما إذا كانا مُشركين، فإيَّاك وإيَّاهما، لا تُطعْهُما في ذلك، فإن مَرجعَكُم إليَّ يوم القيامة، فأجزيك بإحسانِكَ إليهما وصَبْرِكَ على دِينِكَ، وأحشُرك مع الصالحين لا في زُمرةِ والديك، وإن كنتَ أقربَ الناس إليهما في الدنيا، فإن المرءَ إنما يُحشر

يوم القيامة مع من أحبَّ، أي: حَبّاً دينياً، ولهذا قال: ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ لَنُدخلنَّهم في الصَّالحين ﴾، قال التِّرمذيُّ عند تفسير هذه الآية:

حدثنا محمد بن بَشَّار ومحمد بن المُثَنَّى، حدثنا محمدُ بن جعفر، حدثنا شُعبةُ، عن سِماكِ بن حَرْب قال: سَمِعت مُصعَب بنَ سعدٍ يُحدِّث عن أبيه سَعدٍ، قال: نَزَلت فيَّ أربعُ آياتٍ. فذكَر قِصَّةً[1]. وقالت أمُّ سعدٍ: أليس قد أمرك الله بالبرِّ؟ والله لا أطعَمُ طعاماً ولا أشرَبُ شراباً حتى أموتَ أو تكفُرَ. قال: فكانوا إذا أرادوا أن يُطعِمُوها شَجَروا[2] فاها، فنزلت: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ ﴾ . الآية[3].

وهذا الحديث رَوَاه الإمام أحمدُ، ومسلمٌ، وأبو داودَ، والنسائيُّ أيضاً، وقال الترمذيُّ: حسنٌ صَحيحٌ[3].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن صفاتِ قومٍ من المُكَذِّبين الذين يَدَّعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبتِ الإيمانُ في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم فتنةٌ ومحنةٌ في الدنيا اعتقَدُوا أن هذا من نِقمةِ الله ـ تعالى ـ بهم، فارتدُّوا عن الإسلام. ولهذا قال: ﴿ وَمِنَ الناس من يقولُ آمنَّا بالله فإذا أُوذِيَ في الله جَعَل فتنةَ الناسِ كعذابِ الله ﴾.

قال ابنُ عباس: يعني فتنته أن يَرْتدَّ عن دينه إذا أُوذِيَ في الله[4]. وكذا قال غيرُه من عُلماء السَّلَف. وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿ وَمِن الناس من يعبدُ الله على حَرفٍ فإن أصابه خير اطمأنَّ به وإن أصابته فتنةٌ انقلبَ على وجهه خَسِر الدنيا والآخرةَ ذلك هو الخسرانُ المبين ﴾.

ثم قال: ﴿ وَلَئِن جاء نصرٌ من رَبِّك ليقولُنَّ إنا كنا معكم ﴾، أي: ولئن جاء نصرٌ قريبٌ من رَبِّك ـ يا محمدُ ـ وفَتحٌ ومغانِمُ، ليقولُنَّ هؤلاء لكم: إنا كنا معكم. أي: إخوانكم في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ الذين يَتربَّصُون بكم فإن كانَ لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيبٌ قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكُم من المؤمنين ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَعَسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيُصبِحُوا على ما أَسَرُّوا في أنفسهم نادمين ﴾.

وقال تعالى مُخبراً عنهم هاهنا: ﴿ ولئن جاء نصرٌ من ربِّك ليقولُنَّ إنا كنا معكم ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ أوَليس الله بأعلَمَ بما في صدور العالمين ﴾، أي: أوَ ليس الله بأعلم بما في قلوبهم، وما تُكنه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة؟!

وقولُه: ﴿ وَلَيعلمنَّ الله الذين آمنوا وليعلَمَنَّ المنافقين ﴾، أي: وليختبِرَنَّ الله الناسَ بالضَّراء والسرَّاء، ليتميَّزَ هؤلاء من هؤلاء، مَن يُطيع الله في الضَّراءِ والسرَّاءِ، ومَن إنما يُطيعه في حَظِّ نفسه، كما قال تعالى:

---

(١) انظر القصة في مصادر تخريج الحديث.

(٢) أي: فتحوه ثم صَبُّوا فيه الطعام.

(٣) عارضة الأحوذي، تفسير سورة العنكبوت ١٢/٦٤، ومسند أحمد ١/١٨١، ١٨٥ ـ ١٨٦، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ٤/١٨٧٨، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/٧٧ ـ ٧٨ والنسائي، كتاب التفسير من سُننه الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٣/٣١٧.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/١٣٢.

﴿ وَلَنبلونَّكم حتى نعلَمَ المجاهدين منكم والصابرين ونبلُوَا أخباركم ﴾، وقال تعالى بعد وقعةِ أُحُدٍ التي كان فيها ما كانَ من الاختبارِ والامتحان: ﴿ ما كان الله لِيَذَرَ المؤمنينَ على ما أنتُم عليه حتى يَميزَ الخبيثَ من الطَّيِّبِ ﴾... الآية. والله أعلم.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كفار قريش أنّهم قالوا لمن آمن منهُم واتّبع الهُدَى: ارجعُوا عن دِينِكُم إلى دينِنا، واتّبعُوا سبيلنا، ﴿وَلْنَحمِل خطاياكم﴾، أي: آثامكم إن كانت لكم آثامٌ، وذلك عَلَينا وفي رِقابِنا، كما يقولُ القائل: وافعل هذا وخَطِيئتك في رقبتي». قال الله تكذيباً لهم: ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾، أي: فيما قالـوه: إنهم يحمِلُون عن أولئك خطاياهم. فإنه لا يحمِل أحدٌ وِزْرَ أحد، ﴿ وإن تَدْعُ مُثقَلَة إلى حِمْلِها لا يُحمَل منه شيءٌ ولو كان ذا قُربى﴾، وقال تعالى: ﴿ولا يَسألُ حَميمٌ حَميماً * يُبصَّرونَهم ﴾.

وقولُه: ﴿ وَلَيحمِلُنَّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾، إخبارٌ عن الدُّعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يومَ القيامة يحمِلُون أوزار أنفسهم، وأوزاراً أُخَرَ بسَبَبِ ما أضلُّوا من الناس، من غيرِ أن ينقُصَ من أوزارِ أولئك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿ ليَحمِلُوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة ومن أوزارِ الذين يُضِلُّونَهم بغير عِلمٍ ألا ساء ما يَزِرُون ﴾.

وفي الصحيح: «من دعا إلى هُدىً كان له من الأجر مثلُ أُجُورِ من اتَّبعه إلى يوم القيامة، مِن غيرِ أن ينقُصَ من أُجُورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضَلالةٍ كان عليه من الإثم مثلُ آثام من اتَّبعه إلى يوم القيامة، مِن غَيرِ أن يَنقُصَ من آثامِهم شيئاً»[١]. وفي الصحيح: «ما قُتِلت نفسٌ ظُلماً إلا كان على ابنِ آدمَ الأولِ كِفْلٌ من دَمِها، لأنه أوَّلُ من سَنَّ القتلَ»[٢].

وقولُه: ﴿ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يومَ القيامةِ عما كانوا يَفتَرُونَ ﴾، أي: يَكذِبون ويَختَلِقُون من البهتان.

وقد ذكر ابنُ أبي حاتم هاهنا حديثاً فقال: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمَّار، [حدثنا صَدَقَةُ][٣]، حدثنا عثمان أبو[٤] حَفص ابن أبي العاتكة، حدثني سليمانُ بن حَبيبٍ المُحاربي، عن أبي أُمامةَ أنَّ رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ بَلَّغَ ما أُرسِل به، ثم قال: إيّاكم والظُّلمَ، فإن الله يعزِمُ يوم القيامةِ فيقول: وعزّتي لا يجوزُني اليومَ ظلمٌ! ثم ينادي مناد فيقول: أينَ فلانُ بنُ فلانٍ؟ فيأتي يتبعُهُ مِنَ الحسناتِ أمثالُ الجبالِ، فيشخَصُ الناسُ إليها أبصارَهم حتى يقومَ بين يَدَي الله الرحمن ـ عزّ وجلّ ـ ثم يأمرُ المنادي فينادي: من كانَت له تِباعَةٌ[٥] ـ أو: ظُلامَة ـ عند فلان بن فلان، فَهَلُمّ. فيُقبِلون حتى يجتمِعُوا قياماً بين يَدَي الرحمن، فيقولُ الرحمنُ: اقضُوا عن عبدي. فيقولون: كيف نَقضي عنه؟ فيقول لَهُم: خذُوا لهم من حسناتِهِ. فلا يزالُون يأخذُون منها حتى لا يبقى له حَسَنةٌ، وقد بَقِي من أصحاب الظُّلاماتِ، فيقول: اقضُوا عن عبدي. فيقولون: لم يبقَ له حَسَنةٌ. فيقول: خذُوا

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٥ من سورة النحل، وخرجناه هنالك.
(٢) تقدم أيضاً عند تفسير الآية ٣٠ من سورة المائدة، وخرجناه هنالك.
(٣) سقط من نسخة المحرم
(٤) في النسخ: عثمان بن حفص بن أبي العالية. والمثبت من تهذيب الكمال، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم.
(٥) يقال: ما عليه من الله في هذا تَبِعَةٌ ولا تِبَاعَةٌ، أي: إثم يتبع به.

من سيئاتهم فاحملُوها عليه. ثم نزع[1] النبي ـ ﷺ ـ بهذه الآية الكريمة: ﴿وليحملُنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وَلَيُسْئَلُنَّ يومَ القيامةِ عمَّا كانوا يفترون﴾[2].

وهذا الحديثُ له شاهدٌ في الصَّحيح من غير هذا الوَجْهِ: [[3]إنَّ الرجُلَ ليأتي يوم القيامة بحَسَناتٍ أمثال الجِبَالِ، وقد ظَلَم هذا، وأخذَ مال هذا، وأخذ من عِرْضِ هذا. فيأخذ هذا من حَسَناتِه، وهذا من حَسَناتِه، فإذا لم تبق له حَسَنَةٌ أُخِذَ من سيئاتهم فطُرِح عليه][3].

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أحمدُ بن أبي الحَوارِيِّ، حدثنا أبو بشر الحَذَّاء، عن أبي حمزة الثمالي[4]، عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: يا معاذ، إن المؤمن يُسْأل يوم القيامة عن جميع سَعْيِهِ، حتى عن كُحلِ عَينَيهِ، وعن فُتاتِ الطِّينة بإصبَعَيهِ، فلا أَلْفِيَنَّكَ تأتي يومَ القيامةِ وأحدٌ أسعدُ بما آتاه الله منك.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

هذه تَسليةٌ من الله تعالى لعبده ورسوله محمدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ يُخبره عن نوحٍ ـ عليه السلام ـ: أنه لَبِثَ في قومه هذه المدَّة يدعُوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، وسِرّاً وجِهاراً، ومع هذا ما زادهم إلا فِراراً عن الحقِّ، وإعراضاً عنه، وتكذيباً له، وما آمن معَه منهم إلا قليلٌ، ولهذا قال: ﴿فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً فأخذَهُمُ الطوفانُ وهُم ظالمُون﴾، أي: بَعْدَ هذه المدة الطويلة ما نَجَع فيهم البلاغُ والإنذارُ، فأنت ـ يا محمد ـ لا تأسَفْ على مَن كَفَر بك من قومك، ولا تحزَنْ عليهم؛ فإن الله يَهدِي مَن يشاء ويُضِلّ من يشاء، وبيَدِه الأمرُ وإليه تُرجَعُ الأمورُ، ﴿إن الذين حَقَّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ حتى يروا العذاب الأليم﴾، واعلم أن الله سَيُظهِرُكَ ويَنصُرُك ويُؤيِّدُك، ويُذِلّ عدُوَّك ويَكبِتُهم ويجعلُهم أسفلَ سافلين.

قالَ حَمَّاد بن سَلَمة، عن علي بن زَيدٍ، عن يوسُفَ بن مِهْرَانَ[5]، عن ابن عباس قال: بُعِث نوحٌ وهو لأربعين سنة، ولَبِث في قومه ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستينَ عاماً، حتى كَثُر الناسُ وفشَوا.

وقال قتادةُ: يقال: إن عُمرَه كلَّه ألفُ سَنةٍ إلا خمسين عاما، لبث فيهم قبلَ أن يدعُوَهم ثلثمائةِ سنةٍ، ودعاهم ثلثمائةٍ، ولبث بعد الطوفان ثلثمائةٍ وخمسينَ سنةً.

وهذا قولٌ غريبٌ، وظاهر السياق من الآية أنه مَكَث في قومه يدعُوهم إلى الله ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً.

وقال عَونُ بنُ أبي شَدَّادٍ: إن الله أرسلَ نوحاً إلى قومِهِ وهو ابنُ خمسينَ وثلثمائةِ سنةٍ، فدعاهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عاماً، ثم عاش بعد ذلك ثلثمائةٍ وخمسينَ سنةٍ.

---

(١) أي: استشهد.

(٢) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور عن ابن أبي حاتم ٦/٤٥٤ ـ ٤٥٥. كما أخرج ابن أبي حاتم والطبري نحوه عن عبد الله بن مسعود، وقد تقدَّم عند تفسير الآية ٤٠ من سورة النساء.

(٣ ـ ٣) عن نسخة الحرم. والحديث أخرجه مسلم في كتاب البر ٤/١٩٩٧.

(٤) في نسخة الحرم: اليماني. ولعله ثابت بن أبي صفية، انظر المغني للذهبي ١/٢٠٢ وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٩٢ من سورة الحجر.

(٥) في نسخة الحرم: يوسف بن وائل. وهو تحريف. والأثر أخرجه الحاكم في كتاب التاريخ ٢/٥٤٥ ـ ٥٤٦ وانظر الدر المنثور ٦/٤٥٥

وهذا أيضاً غريب، رواه ابن أبي حاتم وابنُ جرير. وقولُ ابن عباس أقربُ، والله أعلم.

وقال الثوريُّ، عن سَلَمة بن كهيل، عن مجاهد قال: قال لي ابنُ عُمَر: كم لَبِثَ نوحٌ في قومه؟ قال قلتُ: ألف سَنَةٍ إلا خمسينَ عاماً. قال: فإن الناس لم يزالُوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقِهم إلى يومكَ هذا[١].

وقولُه: ﴿ فأنجيناه وأصحابَ السفينةِ ﴾، أي: الذين آمنوا بنوحٍ عليه السلام. وقد تَقَدَّم ذكر ذلك مفصلاً في «سورة هود»، وتقدَّم تفسيره بما أغنى عن إعادته.

وقولُه: ﴿ وجعلناها آيةً للعالمين ﴾، أي: وجعلنا تلك السفينةَ باقيةً، إما عينُها كما قال قتادة: إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجُوديِّ، أو نوعُها جَعَلَه للناس تذكرةً لِنعمه على الخلق، كيف نجّاهم زَمَن الطوفان، كما قال تعالى: ﴿وآيةٌ لهم أنا حَمَلنا ذريتَهم في الفلكِ المشحُون * وخَلَقنا لهم من مِثْلِه ما يركَبُونَ * وإن نشأ نُغرقهم فلا صريخَ لهم ولا هُم يُنقَذُون * إلا رحمةً منا ومتاعاً إلى حين﴾، وقال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلَها لكم تذكرة وتَعِيَها أُذُنٌ واعية ﴾، وقال هاهنا: ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آيةً للعالمين ﴾، وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجِنس، كقوله تعالى: ﴿ ولقد زَيَّنا السماءَ الدُّنيا بمصابيحَ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾، أي: وجعلنا نوعها، فإن التي يُرمَى بها ليست هي التي هي زينة للسماء. وقال تعالى: ﴿ ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالَةٍ من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾، ولهذا نظائر كثيرة.

وقال ابنُ جرير: لو قيل: إن الضمير في قوله ﴿ وجعلناها ﴾، عائدٌ إلى العقوبة، لكان وجهاً[٢]. والله أعلم.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيمَ إمام الحُنَفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، والإخلاص له في التقوى، وطَلَب الرزق منه وحدَه لا شريك له، وتوحيدِه في الشكر، فإنه المشكورُ على النِّعم، لا مُسْدِيَ لها غيره، فقال لقومه: ﴿ اعبدوا الله واتقوه ﴾، أي: أخلِصُوا له العبادةَ والخوفَ، ﴿ ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾، أي: إذا فعلتم ذلك حَصَل لكم الخيرُ في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشرُّ في الدنيا والآخرة.

ثم أخبرهم أن الأصنامَ يَعبدُونها والأوثان لا تَضرُّ ولا تنفعُ، وإنما اختلقتُم أنتم لها أسماءً فَسمَّيتمُوها آلهة، وإنما هي مخلوقةٌ مثلكم. هكذا رَوَى العوفي عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، والسدِّي.

ورَوَى الوالبيُّ، عن ابن عباس: وتصنعُون إفكاً، أي: تَنحِتُونها أصناماً ـ وبه قال مجاهد، في رواية،

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور وغير واحد. الدر المنثور ٦/٤٥٥.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/١٣٦.

وعكرمة، والحسن، وقتادة وغيرهم، واختاره ابنُ جَرير رحمه الله ـ وهي لا تملك لكم رزقاً، ﴿ فابتغوا عند الله الرزق﴾، وهذا أبلغُ في الحصر، كقوله: ﴿إياك نعبدُ وإياكَ نستعين﴾، ﴿رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾، ولهذا قال: ﴿ فابتغُوا ﴾، أي: فاطلبُوا ﴿ عند الله الرِّزقَ ﴾، أي: لا عندَ غيره، فإنَّ غيرَه لا يَملكُ شيئاً، ﴿ واعبدُوه واشكُروا له ﴾، أي: كُلُوا من رزقه واعبدُوه وحدَه، واشكروا له علَى ما أنعَمَ بِهِ عليكم، ﴿ إليه تُرجَعُون ﴾، أي: يوم القيامة، فيجازي كُلَّ عاملٍ بِعَمَلِه.

وقولُه: ﴿ وإن تُكذِّبوا فقد كَذَّب أُمَمٌ من قبلكم ﴾، أي: فَبلغكم ما حلَّ بهم من العذاب والنَّكالِ في مخالفة الرسل، ﴿ وما على الرسولِ إلا البلاغُ المبينُ ﴾، يعني إنما على الرسولِ أن يُبلِّغكم ما أمرهُ الله ـ تعالى ـ به من الرِّسالةِ، والله يُضلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرِصُوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء.

وقال قتادةُ في قوله: ﴿ وإن تُكذِّبوا فقد كَذَّب أمم من قبلكم ﴾، قال: يُعزي نَبِيَّه ﷺ. وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلامُ الأولُ، واعترض بهذا إلى قوله: ﴿ فما كان جَوابَ قومه ﴾. وهكذا نصَّ على ذلك ابنُ جرير أيضاً.

والظاهرُ من السِّياقِ أن كُلَّ هذا من كلامِ إبراهيمَ الخليل لِقَوْمِه، يحتج عليهم لإثبات المَعَادِ، لقوله بعد هذا كله: ﴿ فما كانَ جَوابَ قومِه ﴾، والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الخليل ـ عليه السلامُ ـ أنه أرشدَهُم إلى إثباتِ المَعَاد الذي يُنكرُونَه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خَلْقِ الله إيَّاهم، بعد أن لم يكونُوا شيئاً مذكوراً، ثم وُجِدُوا وصارُوا أناساً سامعينَ مُبصِرينَ، فالذي بدأ هذا قادرٌ على إعادته؛ فإنه سهل عليه، يَسيرٌ لديه.

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات الباهرةِ من خَلْقِ الله الأشياء: السمواتِ وما فيها من الكواكب النَّيِّرة، الثَّوابتِ والسيَّاراتِ، والأرضين وما فيها من مِهَادٍ وجبالٍ، وأوديةٍ وبَرارِيٍّ وقفارٍ، وأشجارٍ وأنهارٍ، وثمارٍ وبحارٍ، كل ذلك دالٌّ على حُدُوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء: كُن، فيكونُ، ولهذا قال: ﴿ أوَ لم يَرَوا كيف يُبدِيءُ الله الخَلْقَ ثم يُعِيدُه إن ذلك على الله يسيرٌ ﴾، كقوله: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيدُه وهو أهونُ عليه ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخَلْقَ ثُمَّ الله يُنْشِيءُ النشأةَ الآخِرَةَ ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿ إنَّ الله على كُلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾. وهذا المقام شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم حَتَّى يتبيَّنَ لهم أنه الحقُّ ﴾، وكقوله تعالى: ﴿أم خُلِقُوا من غيرِ شيءٍ أم هُم الخالقون * أم خَلَقوا السمواتِ والأرضَ بل لا يُوقِنُون ﴾.

وقولُه: ﴿ يُعَذِّب من يشاء ويرحم من يشاء ﴾، أي: هو الحاكم المتصرِّف، الذي يفعلُ ما يشاء ويَحكُم

ما يُريد، لا مُعقِّب لِحُكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، فله الخلقُ والأمرُ، مهما فعَل فعَدْلٌ؛ لأنه المالكُ الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رَوَاه أهل السُّنَن: «إن الله لو عَذَّبَ أَهْلَ سَمواته وأهل أرضه لَعذَّبهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم»(١). ولهذا قال تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يشاء ويرحَمُ من يشاء وإليه تُقلَبُونَ ﴾، أي: تُرجعُونَ يومَ القيامة.

وقولُه: ﴿ وما أنتم بمُعجِزِينَ في الأرضِ ولا في السَّماء ﴾، أي: لا يُعجِزُه أحدٌ من أهل سَمواته وأرْضِه، بل هو القاهر فوقَ عباده، وكل شيءٍ خائفٌ منه، فقيرٌ إليه، وهو الغنيُّ عما سِواه.

﴿وما لَكُم من دونِ الله من وَلِيٍّ ولا نصيرٍ * والذين كَفَرُوا بآيات الله ولِقائه﴾، أي: جَحَدُوها وكفَرُوا بالمعاد، ﴿ أولئكَ يَئِسوا مِن رَحمتي ﴾. أي: لا نَصيبَ لهم فيها، ﴿ وأولئك لهم عذابٌ أليم ﴾، أي: مُوجِعٌ في الدنيا والآخِرَة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كُفرهم وعِنادِهم ومُكابرتهم، ودَفْعِهم الحقَّ بالباطل: أنَّه ما كان لهم جوابٌ بعد مقالة إبراهيم هذه المُشتمِلةِ على الهُدَى والبيانِ ﴿ إلا أن قالوا اقتُلوه أو حَرِّقوه ﴾، وذلك لأنهم قام عليهم البرهانُ، وتوجَّهت عليهم الحُجَّة، فعَدلوا إلى استعمال جاهِهم وقُوَّة مُلْكِهم، ﴿ قالوا ابنُوا له بنياناً فألقوه في الجَحيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾، وذلك أنهم حَشَدوا في جَمْع أحطابٍ عظيمةٍ مُدَّةً طويلة، وحَوَّطوا حَولَها، ثم أضرمُوا فيها النار فارتفع لها لهبٌ إلى عَنانِ السماءِ. ولم تُوقَد نارٌ قطُّ أعظَمُ منها، ثم عَمَدوا إلى إبراهيم فكتَّفوه وألقوه في كِفَّة المَنْجَنِيق، ثم قذفُوا به فيها، فجعلها الله عليه برداً وسَلاماً، وخَرَج منها سالماً بعد ما مَكَث فيها أياماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً. فإنه بَذَل نفسَه للرحمن، وجَسَده للنيرانِ، وسَخا بوَلَدِه للقُربان، وجَعَل ماله للضِّيفانِ، ولهذا اجتَمَع على مَحبَّتِه جَميعُ أهلِ الأديانِ.

وقولُه: ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾، أي: سَلَّمه الله منها، بأن جعلها عليه بَرداً وسَلاماً، ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يُؤمِنونَ * وقال إنما اتخذتُم من دُونِ الله أوثاناً مودَّةَ بينِكم في الحياةِ الدُّنيا﴾، يقول لقومه مقرِّعاً لهم وموبخاً على سُوءِ صنيعهم، في عبادتهم الأوثان: إنما اتخذتُم هذه لِتجتمعُوا على عبادتها في الدنيا، صداقةً وألفةً منكم، بعضُكم لبعض في الحياة الدنيا. وهذا على قراءة من نصب(٢) ﴿مَوَدَّةَ بينكم﴾، على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتخذتُم هذا لِتَحصُلَ لكم المودَّةُ في الدُّنيا فقط. ﴿ ثم يومَ القيامة ﴾ ينعكسُ هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بُغْضَة وشَنآناً، فـ﴿يكفُرُ بعضُكم ببَعضٍ ﴾ أي: تتجاحَدُون ما كان بينكم، ﴿ويلعَنُ بعضُكم بعضاً﴾، أي: يلعنُ الأتباعُ المتبوعين، والمتبوعُونَ الأتباعَ، ﴿كُلَّما دَخَلَت أمةٌ لعنَت أختَها﴾، وقال تعالى: ﴿ الأخِلاَّء يومئذٍ بعضهم لبعض عَدُوٌّ إلا المتقين ﴾، وقال هاهنا: ﴿ ثم يومَ القيامة يكفُر بعضُكم ببعضٍ ويلعَنُ بعضُكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾، أي: ومَصيرُكُم ومَرجِعكم بعدَ عَرَصاتِ

(١) رواه أبو داود وابن ماجه، وهو موقوف على أبي بن كعب وابن مسعود. سنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢٢٥، وابن ماجه، المقدمة ١/٢٩. وانظر تحفة الأشراف للمزي ١/٣٨، ٣/٢١٩

(٢) قرأ بالنصب والإضافة حفص وحمزة، وبالرفع والإضافة ابن كثير وأبو عمرو والكسائي. والباقون بالنصب والتنوين. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٢٦

القيامةِ إلى النارِ، وما لكم من ناصرٍ ينصُركم، ولا مُنقِذٍ يُنقِذُكم من عذابِ الله. وهذا حالُ الكافرين، فأما المؤمنونَ فبخلافِ ذلك.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيلَ الأحْمَسي، حدثنا أبو عاصم الثقفي الربيع بنُ إسماعيل، عن[1] عمرو بن سعيد بن جَعْدَة بن هُبَيرة المخزومي، عن أبيه، عن جدِّه، عن أم هانئ ـ أختِ علي بن أبي طالب ـ قالت: قال لي النبي ـ ﷺ ـ أُخبِرُكِ أنَّ الله ـ تعالى ـ يجمَعُ الأولين والآخرين يوم القيامة في صَعيد واحد، فمن يَدْري أينَ الطرفان؟ فقالت: الله ورسوله أعلم. ثم يُنادي مُنادٍ من تحتِ العرْش: يا أهلَ التوحيدِ. فيَشْرَئِبُّون ـ قال أبو عاصم: يرفعون رُءوسَهم ـ ثم يُنادي: يا أهلَ التوحيد. ثم يُنادي الثالثة: يا أهلَ التوحيدِ، إن الله قد عَفَا عنكم. قال: فيقوم الناس قد تعلَّق بعضُهم ببعضٍ في ظُلاماتِ الدنيا ـ يعني: المظالمَ ـ ثم ينادي: يا أهل التوحيد، يعفو بعضُكم عن بعضٍ، وعلى الله الثواب.

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه آمن له لوطٌ، يقال: إنه ابنُ أخي إبراهيم، يقولون هو: لوطُ بن هارانَ ابن آزر. يعني: ولم يؤمن به من قومه سواه وسارّة امرأة الخليل. لكن يقال: كيف الجمعُ بين هذه الآية وبين الحديث الواردِ في الصحيح أن إبراهيم حين مرَّ على ذلك الجبار، فسأل إبراهيم عن سارّة: ما هي منه؟ فقال: أختي. ثم جاء إليها فقال لها: إني قلتُ له: «إنك أختي»، فلا تُكذِّبيني، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيرُك وغيري، فأنت أُختي في الدين. وكأن المراد من هذا ـ والله أعلم ـ أنه ليس على وجه الأرض زوجانِ على الإسلام غيري وغيرُكِ، فإنَّ لوطاً ـ عليه السلام ـ آمن به من قومه، وهاجرَ معه إلى بلاد الشام، ثم أُرسِلَ في حياة الخليل إلى أهل «سَدُوم» وإقليمها، وكان من أمرهم ما تقدّم وما سيأتي.

وقولُه: ﴿ وقال إني مهاجرٌ إلى ربّي ﴾، يَحتَمِلُ عودُ الضمير في قوله ﴿ وقال ﴾ على لوطٍ الذي هو أقربُ المذكورين، ويَحْتَمِلُ عودُه إلى إبراهيم، قال ابن عباس، والضحاك[2]: وهو المكني عنه بقوله: ﴿ فآمن له لوطٌ ﴾. أي: من قومه.

ثم أخبر عنه بأنه اختار المُهاجَرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهارِ الدِّين والتمكُّن من ذلك، ولهذا قال: ﴿ إنه هو العزيزُ ﴾ أي: له العزّةُ ولرسُوله وللمؤمنين به، ﴿ الحكيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله وأحكامه القدَرية والشَّرعيَّة.

وقال قتادةُ: هاجَرَا جميعاً من «كُوثى»، وهي من أرض سوادِ الكوفة إلى الشام. قال. وذُكرَ لنا أن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ قال: إنها ستكونُ هجرةٌ بعد هجرةٍ، ينحاز أهلُ الأرضِ إلى مُهاجَر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرارُ أهلها، حتى تلفِظُهم أرضُهم وتَقْذَرُهم[3] روح الله، وتَحشُرهم النارُ مع القِرَدَةِ والخنازير، تبيت معهم إذا باتُوا، وتَقِيل معهم إذا قالُوا، وتأكُل ما سَقَط منهم.

---

(١) في نسخة الأزهر: الربيع بن سليمان. والمثبت من نسخة الحرم، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/٤٥٥. وفي النسختين بن عَمْرو. فأثبتنا: عن عَمْرو، ففي الجرح في ترجمة الربيع. روى عن الجعدي من ولد جعدة بن هبيرة

(٢) أثر الضحاك كما في تفسير الطبري ٢٠/١٤٣ «إبراهيم القائل. إني مهاجر إلى ربي»

(٣) أي: تكرههم. وفي نسخة الحرم: تقذرهم نفس روح الله.

وقد أسندَ الإمامُ أحمدُ هذا الحديثَ فرواه مُطَوَّلاً من حديث عبد الله بن عَمْرو بن العاص، قال:

حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمرٌ، عن قتادةَ، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: لما جاءتنا بيعةُ يزيدَ بن معاويةَ، قَدِمتُ الشامَ فأُخبِرتُ بمقامٍ يقومه نوفُ البِكَاليُّ، فجئتُه إذ جاء رجلٌ، فانتبذَ الناسُ[1] وعليه خَمِيصَةٌ، وإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص. فلما رآه نوفٌ أمسكَ عن الحديث، فقال عبد الله: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: إنها ستكون هجرةٌ بعد هجرة، فينحاز الناسُ إلى مُهاجَر إبراهيم، لا يبقى في الأرض إلا شرارُ أهلِها، تلفِظُهم أرَضُوهم، تقذرهم نفسُ الرحمن، تحشُرهم النار مع القِرَدة والخنازير، تَبيتُ معهم إذا باتوا، وتَقيل معهم إذا قالُوا، وتأكل منهم من تَخَلَّف. قال: وسَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: سَيخرُجُ أناسٌ من أمتي من قبل المشرق، يقرءون القرآن لا يُجاوِزُ تَراقِيَهم[2]، كُلَّما خَرَج منهم قَرْنٌ قُطِع[3]، كُلَّما خرج منهم قَرْنٌ قُطِع ـ حتى عَدَّها زيادة على عشرين[4] مَرَّةً ـ كلما خرج منهم قرن قُطِع، حتى يخرج الدجّالُ في بَقِيَّتِهم[5].

ورواه أحمدُ عن أبي داود، وعبد الصمد، كلاهما عن هشام الدَّسْتَوائِيُّ، عن قتادةَ، به[5].

وقد رواه أبو داود في سُنَنِه، فقال في كتاب الجهاد، باب ما جاء في سكنى الشام:

حدثنا عُبَيد الله بن عُمَر. حدثنا مُعاذ بن هشام، حَدَّثني أبي، عن قتادةَ، عن شَهر بن حَوْشَب، عن عبد الله بن عَمْرو قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: ستكون هجرةٌ بعد هجرةٍ، فخيارُ أهلِ الأرضِ الزَمُهم مُهاجَر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرارُ أهلِها، تلفِظُهم أرضهم وتَقْذَرهم نَفْسُ الرَّحمنِ، وتَحشُرُهم النارُ مع القِرَدَةِ والخنازير[6].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيدُ: أخبرنا أبو جَنابٍ يحيى بن أبي حَيَّة، عن شهر بن حَوْشَبٍ قال: سمعتُ عبد الله بن عُمَر يقول: ولقد رأيتُنا وما صاحبُ الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم، ثُمَّ لقد رأيتُنا بآخِرةِ الآنَ والدينارُ والدرهمُ أحبُّ إلى أحدِنا من أخيه المسلم. ولقد سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: لئن أنتم اتبعتم أذنابَ البقر، وتبايعتم بالعِينة[7]، وتركتُم الجهادَ في سبيل الله، لَيُلزِمَنَّكُم الله مَذلَّةً في أعناقكم لا تُنزَع منكم حتى ترجِعُوا إلى ما كنتم عليه، وتتوبوا إلى الله عزَّ وجلَّ. وسَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: لتكونَنَّ هجرةٌ بعد هجرةٍ إلى مُهاجَر أبيكم إبراهيم، حتى لا يبقى في الأرضينَ إلا شرارُ أهلها وتَلفِظُهم أرَضُوهم، وتقذَرُهم روحُ الرحمن، وتَحشُرُهم النارُ مع القردة والخنازير، تَقيلُ حيث قالوا، وتَبيتُ حيث يبيتون، وما سقط منهم فلها. ولقد سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: يخرُج من أمتي قومٌ يُسيئون الأعمال، يقرءُون القرآن لا يُجاوِزُ حَناجِرَهم ـ قال يزيد: لا أعلمه إلا قال: يحقِرُ أحدُكم عِلْمَه مع علمهم، يقتلُون أهلَ الإسلام، فإذا خرجوا فاقتلوهم، ثُمَّ إذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرَجُوا فاقتلُوهُمْ، فَطوبى لمن قَتَلوه، وطوبى لمن قتلوه، كُلَّما طَلَع منهم قرنٌ قطعه الله. فردّد ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ عِشرين مَرَّة، أو أكثر، وأنا أسمَعُ»[8].

---

(١) أي: تنحّوا جانباً. والخميصة: كساء أسود مُربّع.

(٢) التراقي: جمع تَرْقُوة، وهي العظم بين ثُغرة النحر والعاتق، وهما ترقوتان. والمعنى: أن قراءتهم لا يرفعها الله ولا يقبلها.

(٣) أي: لا يأتي قرن على شاكلة السابق. (٤) في المسند: عشر مرات.

(٥) مسند أحمد ٢/١٩٨ ـ ١٩٩، ٢٠٩.

(٦) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/٤.

(٧) العِينة: أن يبيع الرجل سلعةً بثمنٍ معلوم إلى أجلٍ مُسمّى، ثم يشتريها منه بأقلّ من الثمن الذي باعها به. وذكر الجرجاني في التعريفات ١٦٠ وهي أن يأتي الرجل رجلاً ليستقرضه، فلا يرغب المقرض في الإقراض طمعاً في الفضل الذي لا يُنال بالقرض، فيقول: أبيعك هذا الثوب باثني عشر درهماً إلى أجل، وقيمته عشرة، وسُمّي عِينة، لأن المقرض أعرض عن القرض إلى بيع العين».

(٨) مسند أحمد ٢/٨٤

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو الحُسَيْن بن الفضل، أخبرنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا: حدثنا يحيى بن حَمْزة، حدثنا الأوزاعيُّ، عن نافع ـ وقال أبو النضر، عمن حدثه، عن نافع ـ عن عبد الله بن عُمَر: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «سَيُهاجِرُ أهلُ الأرض هِجْرةً بعد هِجْرَةٍ، إلى مُهَاجَرِ إبراهيم، حتى لا يبقى إلاَّ شرارُ أهلها تَلْفِظُهم الأرَضُون وتَقْذَرُهم روحُ الرحمن، وتحشُرهم النارُ مع القِرَدَة والخنازير، تبيت معهم حيثُ باتُوا، وتَقِيل معهم حيثُ قالوا، لها ما سَقَط منهم».

غريبٌ من حديثِ نافع. والظاهرُ أنَّ الأوزاعيَّ قد رَواه عن شَيْخٍ له من الضُّعفاء، والله أعلم. وروايتُه من حديث عبد الله بن عَمْرو بن العاص أقرب إلى الحِفْظ.

وقولُه: ﴿ وَوَهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾، كقوله تعالى. ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ وكُلاًّ جعلنا نبياً ﴾، أي: إنَّه لما فارَقَ قَوْمَه أقرَّ الله عينَه بوجُود ولد صالح نَبيٍّ، لَهُ وَلَدٌ صالحٌ نبيٌ في حَيَاةِ جَدِّه. وكذلك قال الله: ﴿ وَوَهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ نافلةً ﴾، أي: زيادةً، كما قال: ﴿ فبَشَّرناها بإسحاقَ ومن وراء إسحاقَ يعقوبَ ﴾، أي: ويولَد لهذا الولد وَلَدٌ في حياتكما، تقَرُّ به أعيُنكما. وكونُ يعقوبَ ولداً لإسحاق نَصَّ عليه القرآن، وثبتت به السنةُ النبوية، قال الله: ﴿ أم كنتم شُهَداء إذ حضر يعقوبَ الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبدُ إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ إلٰهاً واحداً ونحنُ له مسلمون ﴾، وفي الصَّحيحَين: «إن الكريم ابنَ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيمَ»(١).

فأما ما رَوَاه العَوفيُّ عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَوَهبنا لَهُ إسحاقَ ويعقوبَ ﴾، قال: «هما وَلَدا إبراهيم»(٢). فمعناه أنَّ ولدَ الولدِ بمنزلةِ الوَلَدِ، فإن هذا أمرٌ لا يكاد يَخفَى على من هُو دُونَ ابنِ عباس.

وقولُه: ﴿ وجعلنا في ذُرِّيته النُّبوَّةَ والكتابَ ﴾، هذه خِلْعةٌ سَنِيَّةٌ عظيمة مع اتخاذ الله إيَّاه خليلاً، وجعْلِه له للناس إماماً، أنْ جَعَل في ذُرِّيته النُّبوَّةَ والكتابَ، فلم يُوجَد نبي بعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلا وهو من سُلالته، فجميعُ أنبياء بني إسرائيل من سُلالة يعقوبَ بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرَهم عيسى ابنُ مريم، فقام في مَلَئِهم مبشراً بالنبيِّ العربي القرشي الهاشمي، خاتمِ الرُّسلِ على الإطلاق، وسيِّدِ ولدِ آدمَ في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صَمِيم العربِ العَرْباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيمَ عليهم السلام. ولم يوجد نبيٌّ من سلالة إسماعيلَ سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام من الله.

وقولُه: ﴿ وآتيناه أَجْرَه في الدُّنيا وإنَّه في الآخرة لَمِن الصَّالحينَ ﴾، أي: جَمَع الله له بين سَعَادةِ الدُّنيا الموصولة بِسَعادةِ الآخِرَة، فكان له في الدنيا الرزقُ الواسعُ الهنيُّ والمنزلُ الرَّحْبُ، والمَوْرِدُ العَذْبُ، والزوجةُ الحسَنَةُ الصالحةُ، والثناءُ الجميلُ، والذكرُ الحسَنُ فكلُّ أحدٍ يُحِبه ويتولاَّه، كما قال ابنُ عباس ومجاهدٌ وقتادةُ وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿ وإبراهيم الذي وفَّى ﴾، أي: قام بجميع ما أمر به وكَمَّلَ طاعةَ ربِّه، ولهذا قال تعالى: ﴿ وآتيناه أجرَه في الدُّنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾، كما قال تعالى: ﴿ إنَّ إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ● شاكراً لأنعُمه اجتباه وهداه إلى صراطٍ مُستقيم ● وآتيناه في الدنيا حَسَنة وإنَّه في الآخرة لمن الصَّالِحينَ ﴾.

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الرابعة من سورة يوسف، وخرجناه هنالك.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/١٤٣.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن نبيِّه لوط ـ عليه السلام ـ انه أنكر على قومه سُوءَ صَنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتيانهم الذُّكرانَ من العالمين، ولم يَسبقهم إلى هذه الفَعلةِ أحدٌ من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفرُون بالله، ويُكذِّبون رَسُوله ويُخالِفُون ويَقطَعُون السبيلَ، أي: يقفون في طريق الناس يَقتلونهم ويأخذُون أموالهم، ﴿ وتأتون في ناديكم المُنكر ﴾ أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مَجالسهم التي يجتمعون فيها، لا يُنكر بعضُهم على بعضٍ شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانُوا يأتون بعضهم بعضاً في المَلإ، قاله مجاهدٌ. ومن قائل: كانوا يَتضارَطُون ويَتضاحكون، قالته عائشة ـ رَضِي الله عنها ـ والقاسم. ومن قائل: كانوا يُناطِحُون بين الكِبَاش، ويُناقِرُون بين الدُّيوك، وكل ذلك كان يَصدُر عنهم، وكانوا شَرّاً من ذَلِكَ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حَمَّاد بن أُسامَة، أخبرني حاتم بن أبي صَغِيرة، حدثنا سِمَاك بن حَرْب، عن أبي صالح ـ مولى أم هانيء ـ عن أُمِّ هانيء قالت: سألتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾، قال: يَحذِفُون أهلَ الطريقِ، ويَسْخرون منهم، وذلك المُنكرُ الذي كانُوا يأتُونه[١].

وَرَواه الترمذيُّ، وابنُ جَرير، وابنُ أبي حاتمٍ من حديث أبي أسامةَ حماد بن أسامةَ، عن أبي يونس القُشيري حاتم بن أبي صَغِيرَة، به. ثم قال الترمذِيُّ: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتِم أبي صَغِيرَة، عن سِماكٍ[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسنُ بن عَرَفَة، حدثنا محمد بن كثير، عن عَمْرو بن قيس، عن الحَكَم، عن مجاهد: ﴿ وتأتون في ناديكم المُنكر ﴾ قال: الصَّفِير، ولَعِب الحَمَام والجُلاهق[٢]، والتبوُّل في المجلس، وحَلُّ أزرار القَباء.

وقولُه: ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنتَ من الصادقين ﴾، وهذا من كُفرهم واستهزائهم وعِنادِهم. ولهذا استنصَرَ عليهم نَبيُّ الله فقال: ﴿ رَبِّ انصُرني على القومِ المُفسِدينَ ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

لَمَّا استنصر لوطٌ ـ عليه السلامُ ـ الله عليهم، بعثَ الله لِنُصرته ملائكةً فمرُّوا على إبراهيم ـ عليه السلام ـ في هيئة أضياف، فجاءهم بما يَنبغي لِلضَّيفِ، فلما رأى أنه لا هِمَّة لهم إلى الطعام نكِرَهم وأوجَسَ منهم خيفة،

(١) مسند أحمد ٦/٣٤١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة العنكبوت ١٢/٦٥-٦٦، وتفسير الطبري ٢٠/١٤٥.
(٢) الجُلاهِقُ: الذي يرمى به الصبيان، وهو الطين المُدَوّر.

ذَرْعًا يؤانسونه ويُبشِّرونه بوجُود ولدٍ صالحٍ من امرأتِه سارَّة ـ وكانت حاضِرةً ـ فتعجَّبت من ذلك، كما تقدَّم بيانه في سورة «هود» و«الحِجْر». فلما جاءَتْ إبراهيمَ البُشرى، وأخبروه بأنهم أُرسِلُوا لهلاك قوم لوطٍ، أخذ يدافع لعلهم يُنظَرُون، لعلَّ الله أن يَهديَهم، ولما قالوا: ﴿إنا مُهلكو أهل هذه القرية﴾، ﴿قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلمُ بمن فيها لَنُنجيَنَّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾، أي: من الهالكين؛ لأنها كانت تُمالئهم على كُفرِهِم وبَغْيِهِمْ ودَبْرِهِم. ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شَبابٍ حِسَانٍ، فلما رآهم كذلك ﴿سيءَ بهم وضاقَ بهم ذرعاً﴾، أي: اهتمَّ بأمرهم، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن يُضِفهم خَشِي عَلَيهم مِنهُم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة، ﴿قالوا لا تخف ولا تحزن إنا مُنَجُّوك وأهلك إلا امرأتك كانت في الغابرين * إنا مُنزِلُون على أهل هذه القريةِ رجزاً من السَّماء بما كانوا يَفسُقُون﴾، وذلك أن جبريلَ ـ عليه السلام ـ اقتلع قُراهم من قَرارِ الأرض، ثم رَفعها إلى عَنان السماء، ثم قلبها عليهم. وأرسل الله عليهم حِجارةً من سِجّيل منضودٍ، مُسوَّمةً عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل الله مكانها بُحيرة خَبيثة مُنتِنة، وجعلهم عبرةً إلى يوم التَّناد، وهم من أشدِّ الناس عذاباً يوم المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد تركنا منها آية بيِّنة﴾، أي: واضحةً، ﴿لقومٍ يَعقِلُون﴾، كما قال: ﴿وإنكم لتَمُرُّون عليهم مُصبِحِين * وباللَّيل أفلا تعقِلُون﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يُخبر تعالى عن عبده ورسوله شُعَيبٍ ـ عليه السلامُ ـ أنَّه أنذر قومَه أهل مَدْيَن، فأمرهُم بعبادةِ الله وحدَه لا شريكَ له، وأن يخافوا بأسَ الله ونِقمَته وسَطْوته يومَ القيامة، فقال: ﴿يا قوم اعبدُوا الله وارجُوا اليومَ الآخِرَ﴾.

قال ابنُ جرير: قال بعضُهم، «معناهُ: واخشَوْا اليومَ الآخر»[1] وهذا كقوله تعالى ﴿لمن كان يرجُو الله واليومَ الآخِرَ﴾.

ثم نهاهم عن العَيْثِ في الأرض بالفساد، وهو السعيُ فيها والبَغْيُ على أهلها، وذلك أنهم كانوا يَنقصُون المِكْيالَ والميزانَ، ويقطَعُون الطريقَ على الناس، هذا مع كُفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برَجْفةٍ عظيمةٍ زَلْزلَت عليه بلادَهم، وصَيحةٍ أخرجَت القلوبَ من حَناجرها، وعذابِ يَوم الظُّلَّة الذي أزهَق الأرواحَ من مُستَقرِّها، إنه كان عذابَ يومٍ عظيمٍ. وقد تقدَّمت قصتُهم مبسوطةً في سورة الأعراف، وهُود، والشُّعَراءِ.

وقولُه: ﴿فأصبحُوا في دارِهم جاثِمِين﴾، قال قتادةُ: مَيِّتِين[1]. وقال غيره: قد أُلقيَ بَعضُهم على بَعضٍ.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/١٤٩.

يُخبِر تعالى عن هؤلاء الأُمم المُكذِّبة للرسل كيف أبادَهُم وتنوّع في عذابهم، فأخذَهم بالانتقام منهم، فعادٌ قومُ هودٍ، وكانوا يسكنون الأحقاف، وهي قريبةٌ من حَضْرَموت بلاد اليمن، وثمودُ قومُ صالحٍ وكانوا يسكنون الحِجْرَ قريباً من وادي القرى. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمرُّ عليها كثيراً، وقارُون صاحبُ الأموال الجَزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة. وفرعَونُ ملكُ مصر في زمانِ مُوسَى ووزيرُه هامان القِبْطِيان الكافران بالله ورسوله، ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾، أي: كانت عقوبته بما يُناسِبُه، ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾، وهم عادٌ، وذلك أنهم قالوا: مَن أشدُّ منا قوة؟! فجاءتهم ريحٌ صَرْصَرٌ باردة شديدةُ البَرْد، عاتيَةٌ شديدَةُ الهُبُوب جداً، تحمِلُ عليهم حَصْبَاءَ الأرضِ فتقلبها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجُلَ منهم إلى عَنَانِ السماءِ، ثم تَنكُسُه على أُمِّ رأسه فتَشْدَخُه، فيبقى بَدَناً بلا رأسٍ كأنهم أعجازُ نخلٍ مُنقَعِر. ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾، وهم ثمودُ، قامت عليهم الحجّةُ وظهرت لهم الدَّلالَةُ، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرةُ، مثل ما سألوا سواءً بسواءٍ، ومع هذا ما آمنوا بل استمرُّوا على طغيانهم وكُفرهم، وتهدَّدوا نبيَّ الله صالحاً ومن آمن معه، وتوعَّدُوهم بأن يُخرِجُوهم ويَرْجُمُوهم، فجاءتهم صيحةٌ أخمدَت الأصوات منهم والحركاتِ. ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾، وهو قارونُ الذي طَغَى وبَغَى وعَتَا، وعَصَى الربَّ الأعلى، ومَشَى في الأرضِ مَرَحاً، وفَرِحَ ومَرِحَ وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضلُ من غيره، واختال في مِشْيَته، فخسَفَ الله به وبداره الأرضَ، فهو يَتَجَلْجَلُ فيها إلى يوم القيامة. ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾، وهم فرعونُ ووزيرُه هامانُ، وجنودُه عن آخرهم، أُغرِقُوا في صَبيحةٍ واحدةٍ، فلم ينج منهم مُخبِرٌ. ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾، أي: فيما فَعَل بهم، ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، أي: إنما فَعَلَ ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كَسَبت أيديهم.

وهذا الذي ذكرناه ظاهرُ سياقِ الآية، وهو من باب اللَّفِّ والنَّشْرِ[1]، وهو أنه ذَكَر الأمم المكذبة، ثم قال: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾، أي: من هؤلاء المذكورين، وإنما نبهتُ على هذا لأنه قد رُوي أن ابن جُرَيج قال: قال ابن عباس في قوله: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾، قال: قومُ لوط. ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾، قال: قومُ نوح.

وهذا منقطع عن ابن عباس، فإن ابن جُرَيج لم يُدرِكه. ثم قد ذكر الله في هذه السورة إهلاكَ قومِ نُوحٍ بالطوفان، وقومِ لوط بإنزال الرِّجزِ من السماء، وطال السياقُ والفصلُ بين ذلك وبين هذا السياق.

وقال قتادةُ: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾، قومُ لوطٍ، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾، قومُ شُعَيبٍ[2]. وهذا بعيد أيضاً لما تقدّم، والله أعلم.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

هذا مثلٌ ضرَبه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دُونِ الله، يرجُون نَصْرَهم ورزْقَهم، ويتمسَّكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كَبيت العنكبُوت في ضعفه وَوَهنِه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كَمَن

(١) تقدّم هذا المصطلح البلاغي وشرحه عند تفسير الآية ٧٣ من سورة القصص.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/١٤٩.

يتمسَّك بِبَيت العنكبُوتِ، فإنه لا يُجدِي عنه شيئاً، فلو عَلِموا هذا الحالَ لما اتَّخذوا من دونِ الله أولياء. وهذا بخلاف المسلمِ المؤمنِ قلبُه لله، وهو مع ذلك يُحسِن العمل في اتباع الشرع فإنه مُتَمَسِّكٌ بالعُروة الوُثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها.

ثم قال تعالى مُتوعِّداً لمن عَبَد غيرَه وأشرَك به: إنه تعالى يعلم ما هُم عليه من الأعمالِ، ويعلَم ما يُشركون به من الأنداد، وسَيَجزيهم وَصْفَهم إنه حكيمٌ عليمٌ.

ثم قال تعالى: ﴿ وتلكَ الأمثالُ نَضرِبُها للناس ومَا يعقِلُها إلاَّ العالمون ﴾، أي: وما يَفهَمُها ويَتدبَّرُها إلا الرَّاسِخُون في العلم المُتَضلِّعون منه.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاقُ بن عيسى، حدثني ابنُ لَهيعةَ، عن أبي قَبِيلٍ، عن عَمْرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: عَقَلْتُ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ ألفَ مَثَلٍ[1].

وهذه مَنْقَبة عظيمةٌ لِعَمرو بن العاص ـ رَضي الله عنه ـ حيث يقول تعالى: ﴿ وتلكَ الأمثالُ نَضربها للناس وما يَعقِلُها إلا العالمون ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا عَلِيُّ بن الحسين، حَدَّثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا أبي، حدثنا ابنُ سِنان، عن عَمرو بن مُرَّة قال: مَا مَرَرْتُ بآيةٍ من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزَنَتني، لأني سَمِعتُ الله تعالى يقول: ﴿ وتلك الأمثالُ نَضرِبها للناس وما يَعقِلُها إلا العالِمُونَ ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقولَ تعالى مخبراً عن قُدرته العظيمة: أنه خلق السمواتِ والأرضَ بالحقِّ، يعني: لا على وَجْهِ العَبَث واللَّعِب، ﴿ لِتُجزَى كلُّ نَفسٍ بما تَسْعَى ﴾، ﴿ لِيَجزِيَ الذين أساءُوا بما عَمِلوا ويَجزي الذين أحسَنُوا بالحُسنَى ﴾.

وقوله: ﴿ إنَّ في ذلك لآيةً للمؤمنين ﴾، أي: لدلالةً واضحةً على أنه تعالى المتفرِّدُ بالخَلْقِ والتدبير والإلَهيَّةِ.

ثم قال تعالى آمراً رَسُولَه والمؤمنين بتلاوةِ القُرآن، وهو قِرَاءتُه وإبلاغُه للناس، ﴿ وأَقِمِ الصلاةَ إنَّ الصلاةَ تنهَى عن الفحشاء والمنكر وَلَذِكْرُ الله أكبرُ ﴾، يعني: أن الصلاةَ تَشتَمِلُ على شيئين: على تَرْكِ الفواحِش والمُنكَرات، أي: إنَّ مُواظَبتها تحمِلُ على تَرْكِ ذلك. وقد جاء في حديث عِمْران، وابن عباس مرفوعاً: «من لم تَنْهَهُ صلاتُه عن الفحشاء والمنكر، لم تَزِدْهُ من الله إلا بُعداً».

ذِكْرُ الآثارِ الوارِدَةِ في ذَلِكَ

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون المَخرَمي الفَلاَّسُ، حدَّثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زِياد ـ دُرَّخْتُ ـ حدثنا عمر بن أبي عثمان، حدثنا الحسن، عن عمران بن حُصَين قال: سُئِل النبيُّ ـ ﷺ ـ عن قول الله: ﴿ إنَّ الصلاة تَنهى عن الفَحْشَاءِ والمُنكر ﴾، قال: «من لم تَنْهَه صلاتُه عن الفَحشاءِ والمُنكرِ فلا صَلاةَ لَهُ».

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٢٠٣.

وحَدَّثنا علي بن الحُسين، حَدَّثنا يحيى بن أبي طَلْحَةَ اليَرْبُوعيُّ، حدثنا أبو مُعاوية، عَن ليث، عن طاوس، عن ابن عَبَّاس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَنْ لم تَنْهَه صلاتُه عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنكرِ لم يَزْدَدْ بها من الله إلا بُعداً».

ورواه الطَّبَرانيُّ من حَديث أبي مُعَاوِيَةَ(١).

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا خالد بن عبد الله، عن العلاء بن المُسَيِّب، عمن ذكره، عن ابن عباس في قوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾، قال: فَمَن لم تأمُره صلاتُه بالمعرُوفِ وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بُعداً. فهذا موقوف(٢).

قال ابنُ جرير: وَحَدَّثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا عليُّ بن هاشم بن البَرِيد، عن جُوَيبر، عن الضحاك، عن ابن مَسعود، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا صَلاة لمن لم يُطِع الصلاة. وطاعةُ الصلاة أن تَنْهَى عن الفحشاءِ والمُنْكَر». قال: وقال سُفيان: ﴿قالوا يا شُعَيب أصلاتك تأمُرُك﴾؟ قال: سفيان: إي والله، تأمُرُه وتنهاه(٣).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد، عن جُوَيبر، عن الضحاك، عن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقال أبو خالد مَرَّة: عن عبد الله ـ: لا صَلاة لمن لم يُطِع الصلاة، وطاعةُ الصلاةِ تَنْهَى عن الفحشاء والمنكر.

والموقوفُ أصحُّ، كما رواه الأعمش، عن مالك بن الحارث، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قيل لعبد الله: إن فُلاناً لَيُطِيل الصلاة؟ قال: إن الصَّلاة لا تنفَع إلا مَن أطاعها.

وقال ابن جُرير: [وقال](٣) علي، حدثنا إسماعيل بن مسلم، عن الحَسَن قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: من صَلَّى صلاةً لم تَنْهَه عن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَد بها من الله إلا بعداً.

والأصحُّ في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود، وابن عَبَّاس، والحَسَن، وقتادَةَ، والأعمش، وغيرهم، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البَزَّار: حدثنا يوسف بن مُوسى، حدثنا جَرير ـ يعني ابنَ عبدِ الحميد ـ عن الأعمش، عن أبي صالح قال: أُرَاه عن جابر ـ شَكَّ الأعمش ـ قال: قال رَجلٌ للنبي ـ ﷺ ـ: إن فلاناً يُصَلِّي فإذا أصبح سَرَق! قال: سينهاه ما تقول(٤).

وحدثنا محمد بن موسى الحَرَشِيُّ، حدثنا زِياد بنُ عبد الله، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه، ولم يَشُكَّ(٥). ثم قال: وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش، واختلفوا في إسناده، فرواه غير واحد عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة أو غيره، وقال قيس، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر. وقال جَريرٌ وزيادُ بنُ عبدِ الله: عن الأعمش، عن أبي صالح، عن جابر.

---

(١) المعجم الكبير ٥٤/١١، ومجمع الزوائد ٢٥٨/٢.
(٢) تفسير الطبري ١٥٥/٢٠.
(٣) في النسخ: «وحدثنا علي» والمثبت من تفسير الطبري ١٥٥/٢٠ وعلي هو: علي بن هاشم بن البَرِيد.
(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار، أبواب صلاة التطوع ٣٤٦/١.
(٥) المصدر السابق، والباب ٣٤٧/١

وقال الإمام أحمد: حَدَّثنا وكيعٌ، حدثنا الأعمش قال: أُرَى أبا صالح، عن أبي هُرَيرة قال: جاء رَجُلٌ إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: إنَّ فلاناً يُصلِّي بالليل فإذا أصبحَ سَرَقَ! فقال. إنه سَيَنهاه ما تقول[1]

وتشتمِلُ الصلاةُ أيضاً على ذِكْرِ الله تعالى، وَهُوَ المطلوبُ الأكبرُ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولذكرُ الله أكبرُ ﴾، أي: أعظم من الأوَّل، ﴿ والله يعلمُ ما تَصْنَعُون ﴾، أي: يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم

وقال أبو العالية في قوله: ﴿ إن الصلاةَ تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾، قال: إن الصلاةَ فيها ثلاثُ خلالٍ، فكلّ صلاة لا يكون فيها شيءٌ من هذه الخلال فليست بصلاةٍ: الإخلاصُ، والخشيةُ، وذِكرُ الله. فالإخلاصُ يأمُره بالمعروفِ، والخشيةُ تنهاه عن المنكر، وذِكْرُ الله القرآنُ يأمره وينهاه[2].

وقال ابنُ عونٍ الأنصاريُّ: إذا كنتَ في صلاةٍ فأنتَ في معروفٍ، وقد حَجَزتك عن الفحشاءِ والمنكرِ، والذي أنتَ فيه من ذِكْرِ الله أكبرُ[3].

وقال حَمَّادُ بن أبي سُلَيمان: ﴿ إنَّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمُنكرِ ﴾، يعني: ما دُمْتَ فيها.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾، يقول: وَلَذِكْرُ الله لعبادِه أكبرُ [إذا ذكروه] من ذكرهم إياه[4]. وكذا رَوَى غير واحد عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، وغيره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن داود بن أبي هند، عن رجلٍ، عن ابن عباس: ﴿ وَلَذِكْرُ الله أكبرُ ﴾، قال: ذِكْرُ الله عندَ طَعَامِك وعند منامك. قلت: فإنَّ صاحباً لي في المنزل يقولُ غيرَ الذي تقول؟ قال: وأيَّ شيءٍ يقولُ؟ قلت: قال: يقول الله: ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾، فَلَذِكْرُ الله إيانا أكبرُ من ذكرنا إيَّاه. قال: صَدَقَ.

قال: وحدثنا أبي، حدثنا النُّفَيلي، حدثنا إسماعيلُ، عن خالدٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ الله أكبرُ﴾، قال: لها وَجْهانِ، قال: ذِكْرُ الله عند مَا حَرَّمه، قال: وذِكرُ الله إيَّاكم أعظمُ من ذِكرِكُم إيَّاه.

وقال ابن جرير: حدثني يعقُوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيم، أنبأنا عطاءُ بن السائب، عن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابنُ عباس: هل تَدري ما قولُه تعالى: ﴿ ولذكرُ الله أكبرُ ﴾؟ قال: قلتُ: نعم، قال: فما هو؟ قلت: التسبيحُ والتحميدُ والتكبيرُ في الصلاة، وقراءةُ القرآنِ، ونحوُ ذلك. قال: لقد قلتَ قولاً عَجَباً، وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذِكْرُ الله إيَّاكم عندما أَمَرَ أو نَهَى عنه إذا ذكرتُموه أكبرُ من ذكركم إياه[5].

وقد رُوِي هذا من غير وجه عن ابن عباس. ورُوِي أيضاً عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وسَلْمان الفارسي، وغيرهم، واختاره ابنُ جرير.

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾

---

(١) مسند أحمد ٤٤٧/٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨٩/٧: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن الأعمش قال: أرى أبا صالح، عن أبي هريرة».

(٢) أخرجه عبد بن حميد، الدرّ المنثور ٤٦٤/٦.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، والطبري ١٥٥/٢٠.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن المنذر، والطبري ١٥٦/٢٠، وانظر الدر المنثور ٤٦٦/٦

(٥) تفسير الطبري ١٥٦/٢٠

قال قتادةُ وغيرُ واحدٍ: هذه الآيةُ منسوخةٌ بآية السيف، ولم يَبْقَ معهم مجادلةٌ، وإنما هو الإسلامُ أو الجِزْيَةُ أو السيفُ.

وقال آخرون: بل هي باقيةٌ محكمةٌ لمن أرادَ الاستبصارَ منهم في الدِّين، فيجادلُ بالتي هي أحسنُ، ليكونَ أنجعَ فيه كما قال تعالى: ﴿ ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنةِ وجادلهم بالتي هي أحسنُ إن ربَّك هو أعلمُ بمن ضَلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين ﴾، وقال تعالى لموسى وهارونَ حين بعثهما إلى فرعون: ﴿ فقولا له قولاً ليِّناً لعله يتذكر أو يَخْشَى ﴾. وهذا القولُ اختارَه ابنُ جَرير، وحكاه عن ابنِ زَيدٍ.

وقولُه: ﴿ إلا الذين ظَلَموا منهم ﴾، أي: حادُوا عن وَجْهِ الحقِّ، وعَمُوا عن واضح المحجَّةِ، وعانَدُوا وكابَرُوا، فحينئذ يُنتَقَلُ من الجِدالِ إلى الجِلادِ، ويُقاتلون بما يردَعُهم ويمنَعُهم، قال الله تعالى: ﴿ لقد أرسلنا رُسُلَنا بالبيناتِ وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناسِ وليعلَمَ الله مَن يَنْصُره ورُسُلَه بالغيبِ إن الله قوي عزيز ﴾.

قال جابر: أُمِرْنَا مَنْ خالَفَ كتابَ الله أن نَضْرِبه بالسيف. قال مجاهد: ﴿ إلا الذين ظَلَموا منهم ﴾، يعني: أهلَ الحربِ، ومن امتنع منهم من أَدَاءِ الجزية.

وقولُه: ﴿ وقُولُوا آمنَّا بالذي أُنزِل إلينا وأُنزِل إليكم ﴾، يعني: إذا أخبروا بما لا يُعلَمُ صِدقُه ولا كَذِبُه فهذا لا نُقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مُجمَلاً مُعلَّقاً على شرط، وهو أن يكون مُنَزَّلاً، لا مُبَدَّلاً ولا مُؤَوَّلاً.

قال البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عثمان بن عُمَر، أخبرنا علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أهلُ الكتاب يقرءون التوراة بالعِبْرانية، ويُفسِّرونها بالعربية لأهلِ الإسلام، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لا تصدقوا أهلَ الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون. وهذا الحديث تفرد به البخاري[١].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عثمان بن عُمر، حدثنا يونُسُ، عن الزُّهريِّ، أخبرني ابن أبي نَمْلَةَ: أن أبا نَمْلَةَ الأنصاري أخبره، أنه بينما هو جالس عند رسول الله ـ ﷺ ـ جاءه رجل من اليهود، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: الله أعلم. قال اليهوديُّ: أنا أشهدُ أنها تتكلم. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إذا حدَّثكم أهلُ الكتاب فلا تُصدِّقوهم ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: آمنا بالله ورُسُلِه وكُتُبه، فإن كان حقاً لم تُكذِّبوهم، وإن كان باطلاً لم تُصدِّقوهم[٢].

قلت: وأبو نَمْلَةَ هذا هو: عُمَارة، وقيل: عَمَّار. وقيل: عَمْرو بن معاذ بن زُرَارة الأنصاري، رضي الله عنه.

ثم لِيُعلَمْ أن أكثر ما يُحدِّثون به غالبُه كَذِبٌ وبُهتان، لأنه قد دخله تحريفٌ وتبديلٌ وتغييرٌ وتأويلٌ، وما أقلَّ الصدقَ فيه، ثم ما أقلَّ فائدةَ كثيرٍ منه لو كان صحيحاً.

قال ابنُ جرير: حدثنا ابنُ بشار، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سُفيان، عن سليمان بن عامر، عن عُمَارةَ بن عُمَير، عن حُرَيث بن ظُهَير، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء. فإنهم لن

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٣٦ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك.
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/١٣٦ وقد تقدم عند تفسير الآية الرابعة من سورة البقرة، ١٩٠ من سورة الأعراف.

يَهدُوكم وقد ضلُّوا، إما أن تُكذِّبوا بحق أو تُصدِّقوا بباطل، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال[1].

وقال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيلَ، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرنا ابن شهاب، عن عُبَيد الله بن عَبْدِ الله، عن ابن عباس قال: كيف تسألُونَ أهلَ الكتاب عن شيء وكتابُكم الذي أنزل إليكم على رَسُوله ـ ﷺ ـ أحدثُ، تقرءُونه محضاً لم يُشَب، وقد حَدّثكم أنَّ أهل الكتاب بَدَّلوا كتابَ الله، وغَيَّروه وكتبوا بأيديهم الكتابَ، وقالوا هُو من عند الله، ليشتَرُوا به ثَمناً قليلاً؟ ألا ينهاكُم ما جاءكُم من العلم عَن مَسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهُم رَجُلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم[2].

وقال البخاري: وقال أبو اليَمَانِ: أخبرنا شُعَيب، عن الزهريِّ، أخبرني حُمَيد بن عبد الرحمن: أنه سَمِع مُعاويةَ يُحَدِّث رهطاً من قُرَيش بالمدينة ـ وذَكر كعبَ الأحبار ـ فقال: إن كان من أصدقِ هؤلاء المحدِّثين الذين يحدِّثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لَنَبلُو عليه الكَذِبَ[3].

قلتُ: معناه أنه يقع منه الكذبُ لغةً من غير قَصْدٍ، لأنهُ يُحَدِّث عن صُحُفٍ هو يُحسِنُ بها الظنَّ، وفيها أشياءُ موضوعةٌ ومكذوبةٌ، لأنهم لم يكن في مِلَّتهم حُفَّاظٌ مُتقِنُون كهذه الأمَّةِ العظيمة، ومع ذلك وقُرب العهد وُضِعَت أحاديثُ كثيرةٌ في هذه الأمّة، لا يعلَمُها إلا الله ومَن مَنَحه الله علماً بذلك، كُلٌّ بِحَسَبِه، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قال ابنُ جَرير: يقول الله تعالى: وكما أنزلنا الكُتُبَ على من قَبلكَ ـ يا محمدُ ـ من الرُّسلِ، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب[4]. وهذا الذي قاله حَسَنٌ، ومناسبتُه وارتباطُه جيِّدٌ.

وقولُه: ﴿ فالذين آتيناهم الكتابَ يُؤمنُونَ به ﴾، أي: الذين أخذوه فتلَوْه حقَّ تلاوته من أحبارهم العُلَماءِ الأذكِياء، كعبد الله بن سلام وسَلْمَان الفارسي، وأشباههما.

وقولُه: ﴿ وَمِن هؤلاء من يُؤمن به ﴾، يعني: العربَ من قُرَيش وغيرهم، ﴿ وما يجحدُ بآياتنا إلا الكافرون ﴾، أي: ما يُكذِّب بها ويَجحَدُ حقَّها إلا من يستُر الحقَّ بالباطل، ويُغطِّي ضوءَ الشمسِ بالوصائل، وهيهات!

ثم قال تعالى: ﴿ وما كنت تتلُوا من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك ﴾، أي: قد لَبِثتَ في قومك ـ يا محمدُ ـ ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عُمراً لا تقرأُ كتاباً ولا تُحسِنُ الكتابة، بل كلُّ أحدٍ من قومكَ وغيرهم يعرفُ أنَّك رجلٌ أُمِّي لا تقرأ ولا تَكتُب. وهكذا صفته في الكُتُب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿ الذين يَتَّبعون الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذي يَجِدُونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾.

---

(1) تفسير الطبري ٢١/٣.
(2) فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/٣٣٣ ـ ٣٣٤.
(3) فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/٣٣٣
(4) تفسير الطبري ٢١/٤.

وهكذا كان ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه دائماً إلى يوم الدين ـ لا يُحسِن الكتابةَ ولا يَخُطُّ سطراً ولا حَرْفاً بيده. بل كان له كُتّابٌ يكتبون بين يَدَيهِ الوحيَ والرسائلَ إلى الأقاليم. ومن زعم من متأخري الفُقهاء، كالقاضي أبي الوليد الباجيِّ[1] ومن تابعه، أنه عليه السلامُ كَتَب يوم الحُدَيبية: «هذا ما قاضَى عليه محمدُ بنُ عبد الله». فإنما حَمَله على ذلك روايةٌ في صَحِيح البخاري: «ثم أخَذ فكَتب»[2]. وهذه محمولةٌ على الرواية الأخرى: «ثم أمَر فكَتب». ولهذا اشتدَّ النكير من فُقهاء المغرب والمشرق على مَن قال بقول الباجيِّ، وتَبَرَّءُوا منه، وأنشدُوا في ذلك أقوالاً، وخَطَبُوا به في مَحافلهم. وإنما أراد الرجلُ ـ أعني الباجيَّ، فيما يظهرُ عنه ـ أنه كتب ذلك على وَجْهِ المُعجزة[3]، لا أنه كان يُحسِن الكتابةَ، كما قال ـ ﷺ ـ إخباراً عن الدجال: «مكتوبٌ بين عينَيه. كافر». وفي رواية: «ك ف ر، يقرؤها مؤمن»[4]. وما أورَدَه بعضُهم من الحديث أنه لم يَمُت ـ ﷺ ـ حتى تَعلَّم الكتابة، فَضَعيفٌ لا أصلَ له، قال الله تعالى: ﴿ وما كنت تتلُوا ﴾، أي: تقرأ ﴿ من قَبْلِهِ من كتاب ﴾ لتأكيد النفي ﴿ ولا تخطُّه بيمينك ﴾، تأكيد أيضاً، وخرج مَخْرَج الغالب، كقوله تعالى: ﴿ ولا طائرٌ يطيرُ بجناحيه ﴾.

وقولُه: ﴿ إذاً لارتابَ المُبطِلُونَ ﴾، أي: لو كنتَ تُحسِنُها لارتابَ بعضُ الجَهَلَةِ من الناس فيقول: إنما تَعَلَّم هذا من كُتبٍ قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع عِلْمِهم بأنه أميٌّ لا يحسن الكتابة: ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتَتَبها فهي تُملَى عليه بكرةً وأصيلاً ﴾، قال الله تعالى: ﴿ قل أنزله الذي يعلَمُ السرَّ في السموات والأرض إنه كان غفُوراً رَحِيماً ﴾، وقال هاهنا: ﴿ بل هو آياتٌ بيناتٌ في صُدُور الذين أوتوا العلم ﴾، أي: هذا القرآنُ آياتٌ بَيِّنَةٌ واضحةٌ في الدلالة على الحق، أمراً ونهياً وخبَراً، يحفظُهُ العلماءُ، يَسَّرَه الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿ ولقد يَسَّرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر ﴾، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما من نبي إلا وقد أُعطِي ما آمَنَ على مِثْلِه البشرُ، وإنما كان الذي أُوتِيتُه وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجُو أن أكونَ أكثَرَهم تابعاً»[5]. وفي حديث عياض بن حِمَار، في صحيح مسلم، يقول الله تعالى: «إني مُبتَلِيك ومُبتلٍ بكَ، ومُنَزِّلٌ عليكَ كِتاباً لا يَغسِله الماءُ، تقرؤه نائماً ويقظانَ»[6]. أي: لو غَسَل الماءُ المحلَّ المكتوبَ فيه لَما احتِيجَ إلى ذلك المَحَلِّ، كما جاء في الحديث الآخر: «لو كان القرآنُ في إهابٍ ما أحرقَته النارُ»[7]. لأنه محفوظ في الصدور، مُيَسَّرٌ على الألسنة، مُهيمِنٌ على القلوب، معجز لفظاً ومعنى. ولهذا جاء في الكُتُب المتقدِّمة، في صِفَة هذه الأمة: «أناجِيلُهم في صُدُورهم».

واختار ابنُ جرير أنَّ المعنى في قوله تعالى: ﴿ بل هو آياتٌ بيناتٌ في صُدُور الذين أُوتُوا العلم ﴾، بل العلمُ بأنك ما كنت تتلُو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تَخُطُّه بيمينك آياتٌ بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكِتَاب[8]. ونقله عن قتادَةَ، وابنِ جُرَيجٍ. وحكَى الأول عن الحَسَن البصري فقط.

قلتُ: وهو الذي رَوَاه العوفيُّ عن عبد الله بن عباس، وقاله الضحاكُ، وهو الأظهرُ، والله أعلم.

---

(١) هو سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب التُّجيبي، أحد أعلام الأندلس، وصاحب المصنفات في الحديث والفقه والأصول. توفي رحمه الله بالمرية سنة ٤٧٤. انظر العبر للذهبي ٣/٢٨٠ ـ ٢٨١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، فتح الباري ٧/٤٩٩. وانظر ما ذكره ابن حجر ٧/٥٠٣ ـ ٥٠٤.

(٣) انظر ما ذكره السهيلي في الروض الأنف ٢/٢٣٠.

(٤) أخرجه الشيخان في كتاب الفتن، فتح الباري ١٣/٩١، ومسلم ٤/٢٢٤٨. وأخرجه البخاري في كتاب التوحيد ١٣/٣٨٩.

(٥) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢٤ من سورة البقرة، ٣٩ من سورة يونس، ٣١ من سورة الرعد، ٢٠ من سورة طه. وخرّجناه هنالك

(٦) مسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٩٧.

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عقبة بن عامر ٤/١٥١، ١٥٥.

(٨) تفسير الطبري ٢١/٥.

وقولُه: ﴿ وما يجحَد بآياتنا إلا الظالمون ﴾، أي: ما يُكذِّب بها ويَبخسُ حقَّها ويردُّها إلا الظالمون، أي: المعتدُونَ المكابرون، الذين يعلَمُون الحقَّ ويَحيدُون عنه، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين حقَّت عليهم كلِمَةُ ربِّك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كُلُّ آيةٍ حتى يرَوُا العذابَ الأليمَ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المشركين في تَعَنُّتهم وطَلَبِهم آياتٍ ـ يعنُون ـ تُرشِدُهم إلى أنَّ محمداً رسولُ الله، كما جَاء صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿ قُل ﴾ يا محمد: ﴿ إنما الآياتُ عند الله ﴾، أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو عَلِمَ أنكم تهتَدُون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن ذلك سهلٌ عليه، يَسير لديه، ولكنَّه يعلَمُ منكم أنما قَصْدُكم التعنُّتُ والامتحانُ، فلا يُجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وما منعنا أن نُرسِلَ بالآياتِ إلا أن كذَّب بها الأولون وآتينا ثمودَ الناقةَ مُبصِرَةً فظلمُوا بها ﴾.

وقولُه: ﴿ وإنما أنا نذيرٌ مبين ﴾، أي: إنما بُعِثْتُ نَذيراً لكم بيِّنَ النِّذارةِ فعَليَّ أن أُبلغكم رسالةَ الله، و﴿ من يَهدِ الله فَهُو المهتدِ ومن يُضلِلْ فَلَن تَجِدَ له وَلِيّاً مُرشِداً ﴾، وقال تعالى: ﴿ ليس عليك هُداهم ولكنَّ الله يهدي مَن يشاء ﴾.

ثم قال تعالى مبيناً كثرةَ جهلهم، وسَخَافة عقلهم، حيث طَلَبُوا آياتٍ تَدُلُّهم على صِدْقِ محمد فيما جاءهم به، وقد جاءهم بالكتابِ العزيز الذي لا تأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، الذي هو أعظمُ من كلِّ معجزة، إذ عَجَزت الفُصحاء والبلغاء عن مُعارضَتِه، بل عن مُعارضةِ عَشْرِ سُورٍ من مثله، بل مُعارضةِ سُورَةٍ منه، فقال تعالى: ﴿ أوَ لم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتابَ يتلى عليهم ﴾، أي: أوَ لم يكفهم آيةً أنّا أنزلنا عليك هذا الكتابَ العظيم، الذي فيه خَبَرُ ما قبلهم، ونبأُ ما بعدهم، وحُكم ما بينهم، وأنتَ رَجُلٌ أُمِّيٌ لا تقرأُ ولا تكتبُ، ولم تُخالِط أحداً من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبارِ ما في الصُّحُفِ الأولى، ببيانِ الصَّواب مما اختلفُوا فيه، وبالحقِّ الواضح البيِّن الجَليِّ، كما قال تعالى: ﴿ أوَ لم يكن لهم آيةً أن يعلَمَه علماءُ بَني إسرائيلَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وقالُوا لولا أُنزِل عليه آيةٌ من ربِّه أوَ لم تأتِهم بَيِّنةُ ما في الصُّحُفِ الأُولى ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا ليث، حدثني سَعيدُ بن المُسَيِّبِ أبي سَعيد، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطيَ من الآياتِ ما مثلُه آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنما كان الذي أُوتيتهُ وَحْياً أوْحَاهُ الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(١). أخرجاه من حديث الليث(١).

وقال الله تعالى: ﴿ إن في ذلك لرحمةً وذِكرى لقومٍ يُؤمِنُون ﴾، أي: إنَّ في هذا القرآنِ ﴿ لرحمةً ﴾، أي: بياناً للحقِّ، وإزاحةً للباطِل، و﴿ ذِكرى ﴾ بما فيه حلول النِّقْماتِ ونُزول العقاب بالمكذِّبين والعاصين ﴿ لقومٍ يُؤمِنون ﴾.

(١) مسند أحمد ٢/ ٤٥١. وانظر المسند ٢/ ٣٤١، وقد تقدّم تخريج الحديث في الصحيحين من قريب عند تفسير الآية ٤٩ من هذه السورة.

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾. أي: هو أعلمُ بما تُفيضُونَ فيه من التكذيبِ، ويعلمُ ما أقولُ لكم من إخباري عنه بأنه أرسلَني، فلو كنتُ كاذباً عليه لانتقم مني. كما قال تعالى: ﴿ ولو تقوَّلَ علينا بعض الأقاويل ● لأخذنا منهُ باليمين ● ثم لقطعنا منهُ الوتينَ ● فما منكم من أحدٍ عنه حاجزينَ ﴾، وإنما أنا صادقٌ عليه فيما أخبرتُكم به، ولهذا أيدني بالمعجزاتِ الواضحاتِ، والدلائلِ القاطعاتِ.

﴿ يعلمُ ما في السموات والأرض ﴾، أي: لا تخفى عليه خافيةٌ. ﴿ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾، أي: يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلُوا، ويُقابلُهم على ما صَنَعُوا من تكذيبهم بالحقِّ واتباعهم الباطلَ، كذَّبوا برُسُلِ الله مع قيامِ الأدلةِ على صِدْقِهم، وآمنوا بالطَّواغيت والأوثانِ بلا دليلٍ، فسيجزيهم على ذلك، إنه حكيم عليم.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن جهلِ المشركينَ في استعجالِهم عذابَ الله أن يقعَ بهم، وبأسَ الله أن يَحِلَّ عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وإذ قالوا اللهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السَّماءِ أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ ﴾ وقال هاهنا ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجلٌ مسمّىً لجاءهم العذاب ﴾، أي: لولا ما حتَّم الله من تأخيرِ العذاب إلى يوم القيامة لجاءَهُم العذابُ قريباً سريعاً كما استعجلُوه.

ثم قال: ﴿وليأتينَّهم بغتةً ﴾، أي: فجأةً، ﴿ وهم لا يشعرون ● يستعجلونك بالعذاب وإن جهنَّم لمحيطة بالكافرين ﴾، أي: يستعجِلُون العذابَ وهُو واقعٌ بهم لا محالةَ.

قال شعبة، عن سماكٍ، عن عكرمة قال في قوله: ﴿ وإن جهنَّم لمحيطة بالكافرين ﴾، قال: البحر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عُمَر بن إسماعيلَ بن مُجالدٍ، حدثنا أبي، عن مُجالدٍ، عن الشعبي أنه سمع ابن عباس يقول: ﴿ وإنَّ جهنَّم لمحيطةٌ بالكافرين ﴾، وجهنَّم هو هذا البحرُ الأخضرُ، تنتثر الكواكبُ فيه، وتُكوَّر فيه الشمسُ والقمرُ، ثم يُستوقَدُ فيكون هُو جهنَّم[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبد الله بن أمية، حدثني محمد بن حُيَيٍّ، حدثنا صفوان بن يعلى، عن أبيه أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «البحرُ هو جهنَّم». قالوا ليعلى. فقال: ألا تَرَون أن الله يقول: ﴿ناراً أحاط بهم سُرادقُها﴾، قال: لا، والذي نفسُ يعلى بيده لا أدخلُها أبداً حتى أُعرضَ على الله، ولا يُصيبُني منها قطرةٌ حتى أُعرض على الله عزَّ وجلَّ[2].

هذا تفسيرٌ غريبٌ، وحديثٌ غريبٌ جداً، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ يوم يغشاهم العذابُ من فوقهم ومن تحتِ أرجُلهم ﴾، كقوله تعالى: ﴿ لهم من جهنَّم مهادٌ ومن فوقهم غواشٍ ﴾، وقال: ﴿ لهم من فوقهم ظُللٌ من النار ومن تحتهم ظُللٌ ﴾، وقال: ﴿ لو يعلم

(١) أخرجه السيوطي في الدر عن ابن أبي حاتم ٦/٤٧٣
(٢) مسند أحمد ٤/٢٢٣

الذين كَفَرُوا حين لا يَكُفُّونَ عن وُجُوههم النارَ ولا ظُهُورهم﴾، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحِسِّي.

وقوله: ﴿ويقول ذُوقُوا ما كنتم تعملُون﴾، تهديدٌ وتقريعٌ وتوبيخٌ، وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله: ﴿يوم يُسحَبُون في النار على وجوههم ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾، وقال: ﴿يوم يُدَعُّونَ إلى نار جَهَنَّم دَعًّا * هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبرُوا أو لا تَصْبِرُوا سواءٌ عليكم إنما تُجزون ما كُنتم تَعملُون﴾.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦٠﴾

هذا أمرٌ من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البَلَد الذي لا يَقدِرُون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعةِ، حيث يمكن إقامةُ الدين، بأن يُوحِّدوا الله ويعبدُوه كما أمرهم، ولهذا قال: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعةٌ فإياي فاعبدُونِ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ بن عبد رَبِّه، حدثنا بقية بن الوليد، حدثني جُبير بن عمرو القُرَشي، حدثني أبو سعد الأنصاري، عن أبي يحيى مولى الزُّبير بن العَوَّام، عن الزُّبَير بن العوَّام قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «البلادُ بلادُ الله، والعبادُ عبادُ الله، فحيثُما أصبتَ خيراً فأَقِم»[1].

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكةَ مُقامهم بها، خرجُوا مُهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمَنُوا على دينهم هناك، فوجَدُوا هناك خيرَ المُنزلين، أصحمةَ النجاشيَّ مَلِكَ الحبشة ـ رحمه الله ـ آواهم وأيَّدهم بنصره، وجعلهم سُيُوماً[2] ببلاده. ثم بَعْدَ ذلك هاجَرَ رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابُه الباقون إلى المدينة النبويَّة يثرب المُطَهَّرة.

ثم قال: ﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ثم إلينا تُرجَعُون﴾، أي: أينما كنتم يدرككم الموتُ، فكونوا في طاعة الله وحيثُ أمَرَكم الله، فهو خيرٌ لكم، فإنَّ الموت لا بدَّ منه، ولا مَحيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضلَ الجزاءِ، ووافاه تمام الثواب. ولهذا قال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهُم من الجنة غُرَفاً تجري من تحتها الأنهار﴾، أي: لَنُسكِنَنَّهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهارُ، على اختلافِ أصنافِها، من ماءٍ وخمرٍ، وعَسَلٍ ولَبَنٍ، يُصَرِّفُونها ويُجرونها حيثُ شاءوا. ﴿خالدِين فيها﴾، أي: ماكِثِينَ فيها أبداً لا يَبغُون عنها حِوَلاً، ﴿نعم أجرُ العاملين﴾، نِعمت هذه الغرفُ أجراً على أعمال المؤمنين ﴿الذين صَبَرُوا﴾ أي: على دينهم، وهاجَرُوا إلى الله، ونابذُوا الأعداء، وفارقُوا الأهل والأقرباء، ابتغاء وجهِ الله، ورَجَاء ما عنده، وتَصْدِيقَ موعوده.

قال ابن أبي حاتم، رحمه الله: حدثني أبي، حدثنا صفوان المؤذِّن، حدثنا الوليدُ بن مسلم، حدثنا معاوية بن سَلاَّم، عن أخيه زيد بن سَلاَّم، عن جدِّه أبي سَلاَّم الأسود، حدثنا أبو مُعانِق الأشعريّ: أن أبا مالك

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/١٦٦

(٢) أي: آمنين. وانظر النهاية لابن الأثير

الأشعريَّ حدَّثه، أن رسول الله ـ ﷺ ـ حدَّثه: «أن في الجنة غُرَفاً يُرَى ظاهرها من باطِنِها، وباطِنُها من ظاهِرِها، أعدَّها الله لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام»[١].

﴿ وعلى رَبِّهم يتوكَّلون ﴾ في أحوالهم كلِّها في دِينهم ودُنياهم.

ثم أخبرهم تعالى أن الرِّزق لا يختصُّ ببُقعةٍ، بل رزقُه تعالى عامٌّ لخلقه حيثُ كانوا وأين كانُوا، بل كانت أرزاقُ المهاجرين حيث هاجروا أكثرَ وأوسعَ وأطيبَ، وإنهم بعد قليل صاروا حُكَّام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، ولهذا قال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دابة لا تَحمِلُ رِزقَها ﴾، أي: لا تطيق جَمْعَه وتحصيلَه ولا تَدَّخِرُ شيئاً لغد، ﴿ الله يرزقُها وإياكم ﴾، أي: الله يُقَيِّض لها رِزقَها على ضَعفِها، ويُيَسِّره عليها، فيبعث إلى كلِّ مخلوق من الرزق ما يُصلِحهُ حتى الذَّرِّ في قرار الأرض، والطيرِ في الهواء، والحيتانِ في الماء. قال الله تعالى: ﴿ وما من دَابَّةٍ في الأرض إلا على الله رزقُها ويعلم مُستَقَرَّها ومُستودَعَها كُلٌّ في كتابٍ مُبين ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهَرَوِيُّ، حدثنا يزيدُ ـ يعني ابنَ هارونَ ـ حدثنا الجَرَّاحُ بنُ منهالٍ الجَزَرِيُّ ـ هو أبو العَطوف ـ عن الزُّهرِيِّ، عن رجل، عن ابن عُمَر قال: خرجتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ حتى دخل بعضَ حيطانِ المدينة، فجعل يلتقط من التَّمر ويأكلُ، فقال لي: يا ابنَ عُمَر، ما لك لا تأكلُ؟ قال قلت: لا أشتهيه يا رسولَ الله. قال: لكنِّي أشتهيه، وهذه صُبحُ رابعةٍ منذُ لم أذُق طعاماً ولم أجِده، ولو شئتُ لدعوتُ رَبِّي فأعطاني مثلَ ملك قيصرَ وكِسْرى فكيف بك يا ابنَ عُمَر إذا بقيتَ في قوم يَخْبَئُون رِزقَ سَنَتِهم بضَعف اليقين؟ قال: فوالله ما بَرِحنا ولا رِمْنا[٢] حتى نزلت: ﴿ وكأيِّن من دابة لا تحمِلُ رِزقها الله يرزُقُها وإياكم وهو السَّميع العَليم ﴾. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إن الله لم يأمُرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشَّهوات، فمن كنَز دُنياه يُريدُ بها حياةً باقيةً فإن الحياةَ بيدِ الله، ألا وإنِّي لا أكنِزُ ديناراً ولا درهماً، ولا أخبأُ رِزقاً لغد»[٣]. هذا حديثٌ غَرِيبٌ، وأبو العَطُوفِ الجَزَري ضَعيفٌ.

وقد ذكروا أن الغُرَاب إذا فَقَس عن فِرَاخِه البِيضُ خرجوا وهم بيضٌ، فإذا رآهم أبواهم كذلك نَفَرا عنهم أياماً حتى يَسْوَدَّ الريش، فيظل الفرخُ فاتحاً فاه، فقد أبويه. فيُقَيِّض الله له طيراً صغاراً كالبَرْغَش[٤] فيغشاه فيَتَقَوَّتُ منه تلك الأيامَ حتى يَسْوَدَّ رِيشُه، والأبوانِ يتفقدانه كُلَّ وقتٍ، فكلما رأوه أبيضَ الرِّيش نَفَرا عنه، فإذا رأوه قد اسودَّ ريشُهُ عَطفا عليه بالحَضانة والرِّزق، ولهذا قال الشاعرُ:

يا رَازِقَ النَّعَّابِ في عُشِّهِ وَجَابِرَ العَظْمِ الكَسِيرِ المَهِيضِ

وقد قال الشافعي في جملة كلامٍ له في الأوامر، كقول النبي ـ ﷺ ـ: «سَافِرُوا تَصِحُّوا وتُرزَقُوا».

قال البيهقي: أخبرنا إملاء أبو الحسن علي بن أحمد عَبْدَانُ، أخبرنا أحمد بن عُبَيد، أخبرنا محمد بن غالب، حدثني محمد بن سِنَانٍ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن رَدَّاد ـ شيخ من أهل المدينة ـ حدثنا عبدُ الله ابن دينار، عن ابنِ عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «سافروا تَصِحُّوا وتغنَمُوا»[٥]. قال: ورويناهُ عن ابنِ عَبَّاسٍ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيبة، حدثنا ابن لَهِيعة، عن دَرَّاج، عن عبد الرحمن بن حُجَيْرة، عن أبي

---

(١) تقدَّم الحديثُ عند تفسير الآية ٧٢ من سورة التوبة.
(٢) أي: ولا بَرِحْنا.
(٣) أخرجه أيضاً عبد بن حميد، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساكر. قال السيوطي في الدر ٦/٤٧٥: «بسند ضعيف».
(٤) البَرْغَش: البَعوض الشائع.
(٥) السنن الكبرى، كتاب النكاح ٧/١٠٢.

هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «سافِرُوا تربَحُوا، وصُومُوا تصِحُّوا، واغزُوا تغنَمُوا»[١].

وقد وَرَد مثلُ حديثِ ابنِ عُمَر عن ابن عباس مرفُوعاً[٢]، وعن مُعاذِ بن جَبَلٍ موقوفاً. وفي لفظ: «سافِرُوا مع ذَوِي الجدِّ[٣] والميسَرَة».

وقولُه تعالى: ﴿ وهو السميع العليم ﴾، أي: لأقوالِ عبادِه، العليمُ بحركَاتِهِمْ وسَكَناتِهِمْ.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

يقول تعالى مُقرِّراً أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين ـ الذين يَعبُدون مَعه غيرَه ـ مُعترِفُونَ أنه المستقلُّ بخلق السموات والأرض والشمسِ والقَمَر، وتَسْخِير اللَّيل والنَّهار، وأنه الخالقُ الرازقُ لعبادِه ومُقدِّرٌ آجالهم واختلافَها واختلافَ أرزاقهم، فَفاوت بينهم، فمنهم الغنيُّ والفقيرُ، وهو العليمُ بما يُصلح كُلّاً منهم، ومن يَستحِقُّ الغِنَى ممن يستحقُّ الفقرَ، فذَكر أنه المستبدُّ بخَلْق الأشياء المتفرِّد بتدبيرها، فإذا كان الأمرُ كذلك فلم يُعبَدُ غيرُه؟ ولم يُتوكَّل على غيرِه؟ فكما أنَّه الواحدُ في مُلكِه فَلْيَكُن الواحدَ في عِبادَته، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلٰهية بالاعتراف بتوحيد الرُّبوبية. وقد كان المشركونَ يعترِفون بذلك، كما كانوا يقولون في تَلْبِيَتِهِم - «لبَّيك لا شريكَ لَك، إلا شريكاً هو لك، تَمْلِكُهُ وما مَلَك».

﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبِراً عن حَقَارة الدنيا وزوالِها وانقضائِها، وأنها لا دَوَامَ لها، وغايةُ ما فيها لهوٌ ولَعِبٌ: ﴿ وإنَّ الدارَ الآخِرَة لهِي الحيوانُ ﴾، أي: الحياةُ الدائمةُ الحقُّ التي لا زوالَ لها ولا انقضاءَ، بل هي مُستمِرَّةٌ أبدَ الآبادِ.

وقولُه: ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾، أي: لآثَرُوا ما يبقَى على ما يفْنَى.

ثم أخبر تعالى عن المشركين أنَّهم عند الاضطرار يدعُونه وحدَه لا شريكَ له، فَهلَّا يكُون هذا منهم دائماً! ﴿ فإذا ركبوا في الفُلْك دَعَوُا الله مُخلِصِينَ له الدينَ ﴾، كقوله: ﴿ وإذا مسَّكم الضرُّ في البحر ضَلَّ من تدعُون إلا إيَّاه فلما نَجَّاكم إلى البَرِّ أعرضتُم ﴾. وقال هاهنا: ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يُشرِكُون ﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق، عن عكرمة بن أبي جهل: أنه لما افتتح رسول الله ـ ﷺ ـ مَكَّةَ ذَهَب فارّاً منها، فَلَمَّا رَكِب في البحر ليذهَب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينةُ، فقال أهلها: يا قوم، أخلِصُوا لربكم

---

(١) مسند أحمد ٢/٣٨٠.

(٢) قال الهيثمي في الزوائد ٥/٣٢٤: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن رداد، وهو ضعيف».

(٣) في نسخة: الجود.

الدُّعاء، فإنه لا يُنْجِي هاهنا إلا هو. فقال عكرمة: والله إن كان لا يُنْجِي في البحر غيره فإنه لا ينجي غَيْرُه في البرِّ أيضاً، اللهم لك عَلَيَّ عهدٌ لَئِن حرجتُ لأذهبنَّ فلأضعَنَّ يَدِي في يد محمد، فَلأَجِدَنَّه رءوفاً رحيماً. وكان كذلك(١)

وقولُه: ﴿ لِيكفُرُوا بما آتيناهُم وَلِيتَمتَّعُوا ﴾، هذه اللام يُسمِّيها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماءِ الأصول لامَ العاقبة، لأنهم لا يَقصِدُونَ ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنِّسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تَقدِير الله عليهم ذلكَ وتَقْيِيضه إياهم لذلك فهي لامُ التعليل. وقد قدَّمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿ ليكون لهم عَدُوّاً وحَزَناً ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُمتَنَّاً على قُرَيش فيما أحلَّهم من حَرَمه، الذي جعله للناس سواءً العاكفُ فيه والبادي، ﴿ومن دَخله كان آمناً﴾، فهمْ في أمن عظيم، والأعرابُ حولَه يَنهَبُ بعضُهم بعضاً، ويقتلُ بعضُهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿لإيلافِ قُرَيش * إيلافِهم رحلةَ الشتاء والصيف * فَليَعْبُدوا ربَّ هذا البيتِ * الذي أطعمَهم من جُوعٍ وآمنهم من خوف﴾.

وقولُه: ﴿ أفبالباطل يُؤمِنُونَ وبنعمةِ الله يكفُرون ﴾، أي: أفكان شكرُهم على هذه النعمةِ العظيمةِ أن أشرَكُوا به، وعبدوا معه [غيره من](٢) الأصنام والأندادِ، و﴿ بَدَّلُوا نعمةَ الله كفراً وأَحَلُّوا قومَهُم دارَ البَوارِ ﴾، فكفَرُوا بنبيِّ الله وعَبْده ورَسُوله، فكان اللائقُ بهم إخلاصَ العبادةِ لله، وألاَّ يُشرِكوا به، وتصديقَ الرسولِ وتعظيمَه وتوقيرَه، فَكَذَّبُوه وقاتَلُوه وأخرجُوه من بين أظهُرِهم، ولهذا سَلَبهم الله ما كان أنعمَ به عليهم، وقُتِل مَن قُتِل منهم ببدرٍ، وصارت الدولةُ لله ولرسوله، ففتح الله على رَسُوله مَكَّة، وأرغم آنافَهم وأذلَّ رِقَابَهم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَن أظلم مِمَّن افترى على الله كَذِباً أو كَذَّب بالحقِّ لما جاءه ﴾، أي: لا أحدَ أشدُّ عقوبة مِمَّن كذَب على الله فقال: إن الله أوحى إليه. ولم يُوحَ إليه شيء. ومن قال: سأُنزِلُ مثلَ ما أنزلَ الله. وهكذا لا أحدَ أشدُّ عقوبة مِمَّن كذَّب بالحق لما جاءه، فالأول مفترٍ، والثاني مُكَذِّب، ولهذا قال: ﴿ أليس في جهنَّم مثوىً للكافرين ﴾.

ثم قال: ﴿ والذين جاهدُوا فينا ﴾، يعني الرسولَ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ وأصحابَه وأتباعَه إلى يوم الدين، ﴿ لَنَهدِيَنَّهم سبلنا ﴾، أي: لنُبَصِّرَنَّهم سُبُلَنا، أي: طُرُقَنا في الدُّنيا والآخِرَة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ، حدثنا عباس الهَمْدَاني أبو أحمدَ ـ من أهل عكَّا ـ في قول الله: ﴿ والذين جاهدُوا فينا لنهدينهم سُبُلَنا وإن الله لَمَع المُحسنين ﴾، وقال: الذين يعمَلُون بما يَعْلَمون، يهديهم لما لا يَعْلَمون. قال أحمد بن أبي الحَوَاريِّ: فحدثت به أبا سُلَيمان ـ يعني الدَّارانيَّ ـ

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، من غير طريق ٥/٥٠، ٥٩ ـ ٦٠، ٩٨ ـ ٩٩. وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٤/٢٩٧.
(٢) من نسخة الحرم

فأعجبَه، وقال: أليس ينبغي لمن أُلهِمَ شيئاً من الخَير ان يَعْمَلَ به حتى يَسْمَعَه في الأثر، فإذا سَمِعه في الأثر عَمِل به، وحَمِد الله حين وافق ما في قلبه.

وقولُه: ﴿ وَإِن الله لمع المحسنين ﴾، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا عيسى بن جعفر قاضي الرَّيِّ، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن المُغيرَة، عن الشَّعبيِّ قال: قال عيسى ابنُ مَرْيَمَ ـ عليهما السلامُ ـ إنّما الإحسانُ ان تُحسِنَ إلى مَن أساءَ إليكَ، ليسَ الإحسانُ أن تُحسِنَ إلى مَن أحسَنَ إليكَ. واللهُ أعلَمُ.

* * *

تفسير

سورة الروم

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾

نزلت هذه الآياتُ حين غَلَب سابورُ ملكُ الفرسِ على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، فاضطَرَّ هرقلَ ملكَ الرومِ حتى ألجأه إلى القُسطنطينيَّة، وحاصره مُدَّةً طويلة، ثم عادت الدولةُ لهرقلَ كما سيأتي.

قال الإمام أحمدُ: حَدَّثنا معاويةُ بن عَمرو، حدثنا أبو إسحاقَ، عن سفيانَ، عن حبيب بن أبي عَمْرَةَ، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۞ غُلِبت الرومُ في أدنى الأرضِ ﴾، قال: غُلِبَت وغَلَبت. قال: كان المشركون يُحِبُّون أن تَظهَرَ فارسُ على الروم، لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يَظهَرَ الرومُ على فارس، لأنهم أهلُ كتاب، فذُكِرَ ذلك لأبي بكر، فذَكره أبو بكر لرسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أما إنَّهم سَيَغلِبُون. فذَكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعَلْ بيننا وبينكَ أجلاً، فإن ظَهَرْنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظَهَرْتُم كان لكم كَذا وكذا. فَجعل أجلاً خَمْسَ سِنينَ، فلم يَظْهَروا، فَذَكَر ذلك أبو بكر ـ للنبي ـ ﷺ ـ فقال: ألا جعلتها إلى دُونِ؟! ـ أراه قال: العَشر ـ قال سعيد بن جُبَير: البِضْعُ ما دُونَ العشر. ثم ظَهرت الرومُ بعدُ، قال: فذلك قوله: ﴿ الٓمٓ ۞ غُلِبت الرومُ ۞ في أدنى الأرضِ وَهُم من بعدِ غَلَبِهم سَيَغلِبُون ۞ في بِضْعِ سِنِينَ لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون ۞ بِنَصْرِ الله يَنصُرُ من يشاءُ وهو العزيزُ الرحيمُ ﴾[1].

---

(١) مسند أحمد ١/٢٧٦، ٣٠٤، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الروم ١٢/٦٨ ـ ٦٩. وذكر المزّيّ في تحفة الأشراف ٤/٤٠٨ أنَّ النسائي أخرجه في كتاب التفسير من سُنَنه الكبرى.

هكذا رواه الترمذيُّ والنسائيُّ جميعاً، عن الحسين بن حُريث، عن معاوية بن عمرو، عن أبي إسحاق الفَزَارِيّ، عن سُفيان بن سعيد الثوريّ، به. وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ غريبٌ، إنما نعرفه من حديث سُفيان، عن حَبيب. ورواه ابنُ أبي حاتمٍ، عن محمدِ بنِ إسحاقَ الصَّغانيّ[1]، عن معاويةَ بن عمرٍو، به. ورواه ابنُ جرير:

حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن سَعيد[2] أبو سَعيد[3] التَّغلبيُّ، الذي يقال له: ابن أَسْعَد[4]، من أهل طَرَسُوسَ، حدثنا أبو إسحاق الفَزَارِيّ، فذكره. وعندهم: قال سفيان: فبلغني أنَّهم غَلَبوا يومَ بدر[5].

حديث آخر، قال سُليمان بن مِهران الأعمش، عن مُسلم، عن مَسْروقٍ قال: قال عبدُ الله: خَمسٌ قد مَضين: الدخان، واللِّزام، والبطشةُ، والقَمر، والرُّوم. أخرجاه[6].

وقال ابن جرير: حدثنا ابنُ وكيعٍ، حدثنا المُحاربي، عن داود بن أبي هند، عن عامرٍ، هو الشَّعبيُّ ـ عن عبد الله ـ هو ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه ـ قال: كان فارسُ ظاهراً على الروم، وكان المشركون يُحِبُّون أن تظهرَ فارسُ على الروم. وكان المسلمون يُحبُّون أن تظهرُ الروم على فارس، لأنهم أهلُ كتابٍ وهُم أقربُ إلى دينهم، فلما نزلت: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ الرومُ * في أدنى الأرض وهُم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلِبُون * في بِضْعِ سِنِينَ﴾، قالوا: يا أبا بكر، إنَّ صاحِبَكَ يقول: إن الروم تَظْهَرُ على فارسَ في بضع سنين؟! قال: صَدَق. قالوا: هل لك إلى أن نُقامِرَكَ: فبايعوه على أربعِ قَلائِصَ[7] إلى سبع سنين، فمضت السبعُ ولم يكن شيءٌ، ففرِح المشركون بذلك وشَقَّ على المسلمين، فذكر ذلك للنبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: ما بِضعُ سنينَ عندكم؟ قالوا: دُون العشر. قال: اذهب فزايدهم وازدَدْ سَنتين في الأجل. قال: فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظُهُورِ الرُّومِ على فارس، ففرح المسلمون بذلك، وأنزل الله: ﴿الٓمٓ * غُلِبتِ الرومُ﴾، إلى قوله: ﴿وَعْدَ اللهِ لا يُخلِفُ اللهُ وعدَه﴾[8].

حديث آخر، قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، أحمد بن عُمَر الوكيعي، حدثنا مُؤَمَّل، عن

---

(١) يقال فيه: الصَّغاني، والصاغاني. وهو منسوب إلى الصَّغَانيان، كورة عظيمة واسعة، وهي كما قال السمعاني في الأنساب ٥٤٢. بلادٌ مجتمعة وراء نهر جيحون. وانظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٩٥/٧ ـ ١٩٦.

(٢) كذا في النسخ وتفسير الطبري. وفي المقتنى: محمد بن سعد، أو ابن أسْعَد.

(٣) كذا في نسخنا، ومثله في المقتنى للذهبي ٢٧٢ وفي تفسير الطبري ١٦/٢١. أو سعيد الثعلبي.

(٤) في نسخة: أبو سعد. ومثله في تفسير الطبري، وفي نسخة الحرم: ابن سعد. والمثبت عن المقتنى. وقال ابن أبي حاتم في الجرح ٢٠٨/٧: محمد بن أسعد.

(٥) تفسير الطبري ١٦/٢١ ـ ١٧.

(٦) فتح الباري، تفسير سورة الدخان ٥٧١/٨، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٢١٥٧/٤.

والمراد بالخمس خمسُ علامات، وقد مضين: قد وقعن. أما الأولى وهي الدخان فهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾، وهي الآية العاشرة من سورة الدُّخان. وسيأتي تفسيرها في موضعها. وأما الثانية وهي اللزام، فقد اختلف في تفسيرها، فذكر ابن أبي حاتم في تفسيره بأنه القتل الذي أصابهم ببدر. وروَى ذلك عن ابن مسعود وغير واحد. وقيل: هو التصاق القتلى بعضهم ببعض في بدر. وقيل: هو الأسْرُ في بدر أيضاً، وقد أسر سبعون قرشياً. وأما الثالثة، وهي البطشة، فهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾، وهي الآية ١٦ من الدُّخان، وفُسِّرت بما وقع من القتل يوم بدر، فتكون هي واللِّزام ـ في بعض ما روي في تفسيرها ـ واحداً. والرابعة: القمر، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشقّ القمر﴾. والخامسة: الرومُ. وهي العلامة التي نحن بصددها.

(٧) القلائص: جمع قلوص، وهي من الإبل: الشابة.

(٨) تفسير الطبري ٢٠/٢١.

إسرائيلَ، عن أبي إسحاق، عن البَرَاء قال: لما نزلت ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ الرومُ ۞ في أدنى الأرض وَهُم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلِبُون ﴾، قال المشركون لأبي بكر: ألا تَرَى إلى ما يقولُ صاحبُك؟ يزعُم أنَّ الرومَ تَغلِب فارسَ! قال: صَدَق صاحبي. قالوا: هل لك أن نُخاطِرك[1]؟ فَجَعل بينه وبينهم أجلاً، فَحَلّ الأجلُ قبل أن تَغْلِبَ الرومُ فارسَ، فبلغ ذلك النبي ـ ﷺ ـ فساءه ذلك وكَرِهَه، وقال لأبي بكر: ما دَعَاك إلى هذا؟ قال: تصديقاً لله ولرسوله. فقال: تَعَرَّض لهم وأعظِمَ الخَطَر[1]، واجعله إلى بضع سنين. فأتاهُم أبو بكر فقال لهم: هل لكم في العَوْد، فإنَّ العودَ أحمدُ؟ قالوا: نعم. فلم تَمْضِ تلك السنين حتى غَلَبَتِ الرومُ فارسَ، ورَبَطُوا خُيُولَهم بالمدائن، وبَنَوا الرُّومية. فجاء[2] به أبو بكر إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: هذا السُّحْتُ، قال: تَصَدَّق به[3].

حديثٌ آخرُ. قال أبو عيسى، التِّرمذيُّ: حدثنا مُحمَّد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن أبي أُوَيس، أخبرني ابنُ أبي الزِّناد، [عن][4] أبي الزِّناد، عن عُروَة بن الزُّبير، عن نِيَارِ بن مُكرَمٍ الأسْلَمِيِّ قال: لما نزلت: ﴿ الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ الرُّوم ۞ في أدنى الأرض وهُم من بعد غَلَبِهم سَيَغلبون ۞ في بِضع سنين ﴾، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم، وكان المسلمون يُحِبُّون ظُهورَ الروم عليهم، لأنهم وإيَّاهُم أهلُ كتاب، وفي ذلك قولُ الله: ﴿ويومئذٍ يفرَحُ المؤمنون ۞ بنصر الله ينصُر مَن يشاء وهو العزيزُ الرحيمُ ﴾، وكانت قُرَيشٌ تُحِبُّ ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا أهلَ كتابٍ ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلما أنزل الله هذه الآيةَ خَرَج أبو بكر يَصِيح في نواحي مَكَّة: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَت الروم ۞ في أدنى الأرض وهُم من بعد غَلَبِهم سيغلبون ۞ في بضع سنين ﴾، قال ناس من قريش لأبي بكر: فذاك بيننا وبينكم، زَعَم صاحبُك أن الروم ستَغلب فارسَ في بضع سنين، أفلا نُرَاهِنُك على ذلك؟ قال: بلى ـ وذلك قبل تحريم الرهان ـ فارتَهَنَ أبو بكر والمشركون، وتواضَعُوا الرِّهان، وقالوا لأبي بكر: كم تَجعلُ؟ البِضْعُ ثلاثُ سنين إلى تِسع سنين، فَسَمِّ بيننا وبينك وَسَطاً نَنْتَهي إليه. قال: فَسَمَّوا بينهم سِتَّ سنين. قال: فَمَضت ستُّ السِّنين قبل أن يَظْهَرُوا، فأخذ المشركون رهنَ أبي بكر، فلما دخلت السنةُ السابعةُ ظهرت الرومُ على فارسٍ، فعاب المسلمونَ على أبي بكرٍ تَسْمِيةَ ستِّ سِنِينَ، قال: لأنَّ الله قال: ﴿في بِضعِ سِنِينَ﴾. قال: فأسلم عند ذلك ناسٌ كثيرٌ.

هكذا ساقه الترمذيُّ، وقال: وهذا حديث حسن صحيحٌ، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزِّناد[5].

وقد رُوِي نحوُ هذا مُرسَلاً عن جماعةٍ من التابعين، مثل عِكْرِمَةَ، والشعبيِّ، ومجاهدٍ، وقتادَةَ، والسُّدِّيِّ، والزُّهريِّ، وغيرِهم. ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سُنَيد بن دَاوُدَ في تفسيره حيثُ قال:

حدثني حَجَّاجٌ، عن أبي بكر بن عبد الله، عن عِكْرِمة قال: كانت في فارسَ امرأةٌ لا تَلِد إلا الملوكَ الأبطالَ، فدعاها كسرى فقال: إني أريدُ أن أبعثَ إلى الروم جَيشاً وأستعمل عليهم رَجُلاً من بَنيك، فأشيري عَلَيَّ، أيّهم أستعملُ؟ فقالت: هذا فلانٌ، وهو أروَغُ من ثعلب، وأحذَرُ من صقر. وهذا فَرُّخَانُ، وهو أنفذ من سنَان[6]. وهذا شهرَبَرَازُ، وهو أحلَمُ من كذا ـ تعني أولادها الثلاثة ـ فاستَعْمِل أيَّهم شئت. قال: فإني قد

---

(١) أي: مراهنك. والخطر: ما يُراهَنُ عليه. وفي نسخة الحرم: ألا نُخاطرك.

(٢) في الدر المنثور: فقمر أبو بكر فجاء به . . . ، وبنحوه في تفسير القرطبي ٣/١٤.

(٣) ذكره السيوطي في الدر عن أبي يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر ٦/٤٧٩.

(٤) عن سنن الترمذي. وقد سقط من النسخ.

(٥) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الروم ١٢/٦٩ ـ ٧٢.

(٦) السنان: الرمح.

استعملتُ الحليم. فاستعمل شَهْرِبُرَازَ، فسار إلى الرُّوم بأهل فارس، فظهر عليهم فقتلهم، وخرَّب مدائنهم، وقطع زيتونهم.

قال أبو بكر بن عبد الله: فحدثت بهذا الحديث عطاءً الخراساني فقال: ما رأيت بلادَ الشام؟ قلتُ: لا. قال: أما إنَّكَ لو رأيتها لرأيتَ المَدائن التي خُرِّبت، والزيتونَ الذي قُطع. فأتيتُ الشام بعد ذلك فرأيتُه.

قال عطاءٌ الخراسانيُّ: حدثني يحيى بن يَعْمَرَ: أنَّ قيصرَ بعث رجلاً يُدعَى قَطمة بجيش من الرُّوم، وبعث كسرى شَهْرَبْرَازَ، فالتقيا بأذرعاتٍ وبُصرى، وهي أدنى الشام إليكم، فلقيت فارسُ الرومَ، فغلبتهم فارسُ. ففرحت بذلك كفارُ قريشٍ، وكرِهه المسلمون.

قال عِكرمةُ: ولقي المشركون أصحابَ النبي ـ ﷺ ـ فقالوا: إنكُم أهلُ كتاب، والنصارى أهلُ كتاب، ونحن أميُّون، وقد ظهَر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إنْ قاتلتمونا لنظهَرنّ عليكم، فأنزل الله: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبت الروم ۞ في أدنى الأرض وهُم من بعد غَلَبِهم سيغلبون ۞ في بضع سنينَ لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرح المؤمنون ۞ بنصر الله ينصُرُ من يشاء﴾. فخرج أبو بكر الصِّدِّيقُ إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا. ولا يُقِرَّنَّ الله أعيُنَكم، فوالله لَيُظهِرَنَّ الله الرومَ على فارسَ، أخبرنا بذلك نبيُّنا ﷺ. فقام إليه أُبَيُّ بن خَلَفٍ فقال: كذبت يا أبا فَضِيلٍ، فقال له أبو بكر: أنت أكذَبُ يا عَدُوَّ الله. فقال: أُنَاحِبُكَ[1]، عشرُ قلائصَ مني وعشرُ قلائصَ منك، فإن ظَهرتِ الرومُ على فارسَ غَرِمتُ، وإن ظَهرت فارسُ غَرمتَ، إلى ثلاثِ سنينَ. ثم جاء أبو بكر إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ فأخبَره، فقال: ما هكذا ذكرتُ، إنما البِضعُ ما بين الثلاثِ إلى التسع. فزايِدْه في الخَطَر ومادَّه في الأجل. فخرج أبو بكر فلقي أُبَيًّا فقال: لعلك ندِمتَ؟ فقال: لا، تعالَ أزايِدْكَ في الخَطَرِ وأُمادُّكَ في الأجل، فاجعلها مائةَ قَلوصٍ لمائة قَلوصٍ إلى تسعِ سنينَ. قال: قد فَعلتُ. فظهرتِ الرومُ على فارسَ قبل ذلك، فغلبهم المسلمون.

قال عكرمةُ: لما أن ظهرت فارسُ على الروم، جلس فَرُّخانُ يشرب هو[2] وأخوه شَهْرِبُرَازَ، فقال لأصحابه: رأيتُ كأني جالسٌ على سَرِير كِسْرَى. فبَلَغَتْ كسرى، فكتب إلى شَهْرِبُرَازَ: إذا أتاك كتابي فابعث إليَّ برأس فَرُّخانَ. فكتب إليه: أيها الملك، إنك لن تجد مثل فَرُّخانَ، له نكايةٌ وصوتٌ في العدو، فلا تفعل. فكتب إليه: إنَّ في رجال فارسَ خَلَفاً منه. فَعجِّل إليَّ برأسه. فراجَعَه، فغضب كسرى فلم يجبه، وبعث بريداً إلى أهل فارسَ: إني قد نزعتُ عنكم شَهْرِبُرَازَ، واستعملتُ عليكم فَرُّخانَ. ثم دفع إلى البَريد صَحيفة لطيفة صغيرة فقال: إذا وَلِيَ فَرُّخانُ الملكَ وانقاد له أخوه، فأعطه هذه. فلما قرأ شَهْرِبُرَازَ الكتاب قال: سمعاً وطاعةً. ونزَل عن سَريره، وجلس فَرُّخانُ، ودَفَع إليه الصَّحيفة قال: ائتوني بِشَهْرِبُرَازَ، وقدَّمه ليضربَ عنقه، قال: لا تعجل حتى أكتُبَ وَصِيَّتِي، قال: نعم. فدعا بالسَّفَط[3] فأعطاه ثلاث صحائفَ وقال: كُلُّ هذا راجعتُ فيك كسرى، وأنت أردتَ أن تقتلني بكتابٍ واحدٍ. فرَدَّ الملك إلى أخيه شَهْرِبُرَازَ، وكتب شَهْرِبُرَازَ إلى قيصر ملك الروم: إنَّ لي إليكَ حاجةً لا تحملها البُرُد ولا تحملها الصُّحُفُ، فالقَنِي ولا تَلْقَنِي إلاَّ في خمسين روميّاً، فإنّي ألقاكَ في خمسين فارسياً. فأقبل قيصر في خمسمائة ألفِ روميٍّ، وجعل يضع العيونَ بين يديه في الطريق، وخاف أن يكون قد مُكِر به، حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلا خمسون رَجُلاً. ثم بُسِط لهما والتقيا في قُبَّةِ ديباج ضُرِبت

---

(١) ناحَبَ فلاناً: راهنه.

(٢) كذا في نسخة الحرم. وفي غيرها: وهو أخو شهربراز.

(٣) السَّفَطُ: وعاء من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء.

لهما، مع كُلٍّ واحد منهما سِكّينٌ، فدَعَيا[1] ترجُماناً بينهما، فقال شَهْرَبَرَازُ: إن الذين خرَّبوا مدائِنَكَ أنا وأخي بكيدنا وشجاعتِنا، وإن كسرى حَسَدَنا وأراد أن أقتُلَ أخي فأبيتُ، ثم أمر أخي أن يقتُلَني. وقد خلعناه جميعاً. فنحن نُقاتِلُه معَكَ. قال: قد أصبتُما. ثم أشار أحدُهما إلى صاحبه أن السرَّ بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا. قال: أجل. فقتلا الترجُمانَ جميعاً بسكّينيهما، فأهلك الله كسرى، وجاء الخبرُ إلى رسُولِ الله ـ ﷺ ـ يومَ الحُدَيبية، ففرِح والمسلمون معه[2].

فهذا سياقٌ غريبٌ، وبناءٌ عجيبٌ. ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة، فقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾، قد تقدَّم الكلامُ على الحُروف المُقَطَّعة في أوائل السور، في أول سُورَة البقرة. وأما الرومُ فهم من سلالة العِيصِ بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عَمِّ بني إسرائيل، ويقال لهم: بَنُو الأصفر. وكانوا على دين اليونان، واليونانُ من سلالة يافثَ بن نُوحٍ، أبناءِ عَمِّ التُّرك. وكانوا يَعبُدون الكواكبَ السيَّارة السبعة، ويقال لها: المُتحيِّرة، ويُصلُّون إلى القُطبِ الشمالي، وهم الذين أسَّسُوا دمشق، وبنَوا مَعبدها، وفيه محاريبُ إلى جِهَةِ الشمال. فكان الرُّوم على دينهم إلى بعد مَبْعَثِ المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكانَ مَن ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: قيصرُ. فكان أولَ مَن دخل في دين النَّصارى من الملوك قُسطَنْطِينُ بن قسطس، وأمه مريمُ الهيلانية الفندقانية[3] من أرضِ حرّان، كانت قد تنصَّرت قبله، فدَعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فيلسُوفاً، فتابعها ـ يقال: تَقِيَّة ـ واجتمعت به النصارى، وتناظَرُوا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافاً كثيراً منتشراً مُتَشتِّتاً لا ينضبطُ، إلا أنه اتَّفق من جماعتهم ثلاثمائةٍ وثمانيةَ عشرَ أسقفاً، فوضعوا لقُسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها الأمانةَ الكبيرة، وإنما هي الخيانةُ الحَقيرة، وَوَضَعُوا له القوانين، يعنُونَ كُتُبَ الأحكام من تحليلٍ وتحريمٍ وغير ذلك مما يحتاجُون إليه، وغيَّروا دينَ المسيح عليه السلام، وزادوا فيه ونقصوا منه. وصلَّوا إلى المَشرق واعتاضوا عن السبت بالأحدِ، وعبَدُوا الصَّليب وأحلُّوا الخنزير. واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقرابين والغطاس. وغير ذلك من البَواعِيث والشَّعانين[4]، وجعلُوا له الباب وهو كبيرهم، ثم البَتارِكَة ثم المَطارنة، ثم الأساقفة والقَساقِسة، ثم الشَّمامِسة. وابتدعوا الرهبانية. وبَنَى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسَّسَ المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية، يقال: إنه بَنَى في أيامه اثني عشر ألف كنيسةٍ، وبنى بيتَ لحمٍ بثلاثةِ محاريبَ، وبنت أمه القُمامة[5]، وهؤلاء هم المَلَكيَّة، يعنون الذين على دين المَلِك.

ثم حدثت بعدهم اليَعقُوبية أتباع يَعقوبَ الإسكاف، ثم النَّسطورية أصحاب نسطورا، وهم فِرَقٌ وطوائف كثيرة، كما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إنهم افترقوا على اثنتين وسبعينَ فرقةً[6]. والغَرَضُ أنهم استمرُّوا على النصرانية، كُلَّما هلك قيصرٌ خلَفه آخرُ بعدَه، حتى كان آخرُهم هرقلَ. وكان من عقلاء الرجال، ومن أحزَمِ الملوك وأدهاهم، وأبعدهم غوراً وأقصاهم رأياً، فتملَّكَ عليهم في رياسَةٍ عظيمة وأُبَّهةٍ كبيرة، فناوأه كِسْرَى ملك الفرس، ومَلَكَ البلادَ كالعراق وخراسانَ والرَّي، وجميعَ بلادِ العجم، وهو سابُور ذُو الأكتاف. وكانت مملكته أوسَعَ من مملكة قيصرَ، وله رياسةُ العَجَم وحَماقةُ الفُرس، وكانوا مَجُوساً يعبدُون النارَ. فتقدَّم عن عكرمة أنه

(١) يقال: دعيا، ودعوا.

(٢) أخرجه الطبري بإسناده إلى سُنَيد بن داود المِصِّيصي، واسمه الحُسين، وسُنَيدٌ لقب غلب عليه. تفسير الطبري ٢١/١٨ ـ ١٩.

(٣) في البداية والنهاية لابن كثير ٧/٥٩. واسم أمه: «هيلانة الحرانية البندقانية».

(٤) الباعوث جمعُ باعوثٍ، وهو للنصارى كالاستسقاء للمسلمين. يقول في اللسان: «وهو اسم سرياني». وقيل: هو بالغين والثاء فوقها نقطتان، والشعانين هكذا بالشين المعجمة، وفي اللسان بالسين المهملة، ونقل عن ابن الأثير أنه «عيد لهم معروف قبل عيدهم الكبير بأسبوع». وهو سرياني مُعرّب. وقيل، هو جمع، واحده: سعون.

(٥) القُمامة: كنيسة بيت المقدس، انظر خبرها في البداية والنهاية ٧/٥٧، ٥٩.

(٦) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة في كتاب السنة ٤/١٩٧ ـ ١٩٨، وابن ماجه عن عوف بن مالك الأشجعي في كتاب الفتن ٢/١٣٢٢.

يَبعث إليه نُوّابه وجيشَه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقَصَره، حتى لم يبقَ معه سوى مدينة قُسطَنطِينيَّة. فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، وكانت النصارى تُعظِّمه تعظيماً زائداً، ولم يقدِر كِسرَى على فتح البلاد، ولا أمكنَهُ ذلك لحَصَانتها، لأنَّ نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم المِيرة والمَدَد من هنالك. فلما طال الأمرُ دَبَّر قيصرُ مكيدةً، ورأى في نفسه خديعة، فطلب من كسرى أن يُقلِعَ عن بلاده على مالٍ يُصالحه عليه، ويشترطُ عليه ما شاء. فأجابه إلى ذلك، وطلب منه أموالاً عظيمةً لا يقدِر عليها أحدٌ من ملوك الدنيا، من ذَهَب وجواهرَ وأقمشةٍ وجوارٍ وخُدّام وأصنافٍ كثيرة. فطاوعه قيصر، وأوهمه أن عنده جميعَ ما طلب، واستقلَّ عقله لَمّا طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإيّاه لعَجزت قُدرتُهما عن جَمْعِ عُشْره، وسأل كسرى أن يُمكِّنه من الخروج إلى بلادِ الشام وأقاليم مَمْلكتِه، ليسعى في تحصيل ذلك من ذَخائره وحواصلِه ودفائنه، فأطلق سراحه، فلما عَزَم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية، جَمَع أهل مِلَّته وقال: إني خارج في أمر قد أبرمتُه، في جُندٍ قد عيَّنته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار، إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري. فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيّاً، ولو غِبتَ عشرةَ أعوامٍ، فلما خرج من القسطنطينية خرج جَريدةً في جيشٍ متوسط، هذا وكسرى مُخيِّم على القسطنطينية ينتظر ليرجِعَ، وركب قيصر من فوره وسار مُسرِعاً [١] [حتى انتهى إلى بلاد فارس، فَعاثَ في بلادهم قتلاً لرجالها ومَن بها من المُقاتِلَة، أوّلاً فأوّلاً، ولم يزل يقتُل] [١] حتى انتهى إلى المدائن، وهي كُرسِيُّ مملكة كِسْرَى، فقتل من بها وأخذ جميع حَواصِله وأمواله، وأسر نساءه وحَرِيمه، وحَلَق رأسَ وَلَدِه، وركّبه على حمار وبَعث مَعَه من الأساوِرَة[٢] من قومه في غايةِ الهَوَان والذِّلَّة، وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبتَ فَخُذْه. فلما بلغ ذلك كِسرى أخذه من الغَمِّ ما لا يُحصيه إلا الله عزَّ وجلَّ، واشتد حَنَقه على البلد، فاشتدَّ في حصارها بكُلِّ ممكن فلم يقدِر على ذلك. فلما عَجز رَكِب ليأخُذَ عليه الطريقَ من مَخاضَةِ[٣] جَيحُونَ، التي لا مَسْلَكَ لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها، فلما علِم قيصرُ بذلك احتال بحيلةٍ عظيمةٍ لم يُسبَق إليها، وهو أنه أرْصَدَ[٤] جُنده وحواصله التي معه عند فَمِ المخاضة، وركِب في بعضِ الجيش، وأمر بأحمال من التِّبن والبَعر والرَّوث فَحُمِلَت مَعَه، وسار إلى قريبٍ من يوم في الماء مُصعِداً، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمالِ في النهر، فلما مَرَّت بِكِسْرَى ظَنَّ هو وجندُه أنهم قد خاضُوا من هنالك، فركبوا في طَلَبهم فشَغرت[٥] المخاضةُ عن الفُرس، وقَدِم قيصرُ فأمَرهم بالنُّهوض في الخَوْض، فخاضُوا وأسرعُوا السير ففاتُوا كِسرَى وجنودَه، ودَخلُوا القُسطَنطِينيَّة. وكان ذلك يوماً مَشهُوداً عند النصارى، وبَقِي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون لم يحصُلُوا عَلَى بلاد قيصرَ، وبلادُهم قد خَرَّبتها الرومُ وأخذُوا حَواصلهم، وسَبَوا ذَرارِيهم. فكان هذا من غَلَب الرُّومِ فارسَ، وكان ذلك بعد تسع سِنينَ من غَلَب الفُرسِ للرُّوم.

وكانت الواقعةُ الكائنةُ بين فارسَ والرومِ حينَ غَلَبَت الرومُ بين أذرعاتٍ وبُصرَى، على ما ذكره ابنُ عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز. وقال مجاهد: كان ذلك في الجَزِيرة، وهي أقربُ بلادِ الروم من فارِسَ، فالله أعلم.

(١ ـ ١) سقط من نسخة الحرم، وهو انتقال نظر.

(٢) الأساورة: جمع إسوار، وهو قائد الفُرس.

(٣) المخاضة من النهر الكبير: الموضع القليل الماء الذي يعبُر فيه الناسُ النهر مشياً وركباناً.

(٤) في نسخة الحرم: أرصده. والمراد: أنه أعدَّ الجند والحواصل عند فم المخاضة.

(٥) أي. خلت المخاضة من الفرس. ويعني أن مكان العبور الذي يريد قيصر أن يعبر منه المخاضة صار وجنوده خلاً من هذه الناحية من الفرس، فعبر الروم آمنين، وتاه كسرى ولم يعرف المكان الذي عبروا منه

ثم كان غَلَبُ الرُّوم لفارسَ بعد بضع سنين، وهي تسعٌ؛ فإن البِضْعَ في كلام العرب ما بين الثلاثِ إلى التِّسع، وكذلك جاء في الحديث الذي رواه الترمذيُّ وابنُ جرير وغيرهما، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجُمَحي، عن الزُّهري، عن عُبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لأبي بكر في مُناحَبَةِ[1] ﴿ الٓمٓ * غُلِبَت الرُّومُ ﴾: «ألا احتطْتَ يا أبا بكرٍ، فإن البِضْعَ ما بين الثَّلاثِ إلى التِّسع؟» ثم قال: هذا حديث حَسَنٌ غريبٌ من هذا الوجه[2]. ورَوى ابنُ جَريرٍ، عن عبدِ الله بن عَمْرو: أنه قال ذلك[2].

وقولُه: ﴿ لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ﴾، أي: من قبلِ ذلك ومن بعدِه، فَبُني على الضمِّ لما قُطِع المضافُ، وهو قوله «قبلُ» عن الإضافة، ونُوِيَت.

﴿ ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بِنَصرِ الله ﴾، أي: للرُّومِ أصحاب قيصَرَ ملكِ الشام، على فارسَ أصحاب كِسْرى، وهم المجوس. وقد كانت نُصرةُ الروم على فارسَ يوم وقعةِ بدر في قولِ طائفةٍ كبيرةٍ من العلماء، كابن عباس، والثَّوري، والسُّدِّي، وغيرهم. وقد وَرَد في الحديث الذي رواه الترمذي وابنُ جرير وابن أبي حاتم، والبزَّار، من حديث الأعمش، عن عطية، عن أبي سَعيد قال: لما كان يومُ بدر، ظَهرتِ الرومُ على فارسَ، فأعجَبَ ذلك المؤمنين وفرِحوا به، وأنزل الله: ﴿ ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون * بِنَصرِ الله ينصُر من يشاء وهو العزيزُ الرحيم ﴾[3].

وقال آخرون: بل كان نصرة الروم على فارس يومَ الحُدَيبية؛ قاله عِكْرِمة، والزُّهري، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ، ووجَّه بعضهم هذا القولَ بأن قيصَرَ كان قد نَذَر لئن أظفره الله بكِسْرى ليمشيَنَّ من حِمْص إلى إيلياء، وهو بيت المقدس، شُكراً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ففعل، فلما بلَغ[4] بيتَ المَقْدِس لم يخرج منه حتى وافاه كتابُ رسولِ الله ﷺ، الذي بَعَثه مع دِحْيَة بن خَليفة، فأعطاهُ دِحيةُ لعظيم بُصرى، فدفعه عظيم بُصرَى إلى قيصَرَ، فلما وصَل إليه سأل مَن بالشام مِن عَرَب الحجاز، فأُحضِرَ له أبو سُفيان صَخْرُ بنُ حَربٍ الأُمَويُّ في جَماعةٍ من كُفَّار قريش وكانُوا في غَزَّة، فَجِيء بهم إليه، فَجلَسُوا بين يديه، فقال: أيكم أقربُ نَسَباً بهذا الرجل الذي يزعُم أنه نَبِيٌّ؟ فقال أبو سفيان: أنا. فقال لأصحابه ـ وأجلَسَهم خلفه ـ: إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل، فإن كَذَب فَكَذِّبوه. فقال أبو سُفيان: فوالله لولا أن يَأْثُروا عليَّ الكَذِبَ لكذبتُ. فسأله هِرَقلُ عن نَسَبه وصِفَتِه، فكان فيما سأله أن قال: فهل يَغدِرُ؟ قال: قلتُ: لا، ونحن منه في مُدَّة لا ندري ما هو صانعٌ فيها[5] ـ يعني بذلك الهُدنة التي كانت قد وَقَعت بين رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ وكفار قريش يَوْمَ الحُدَيبية على وَضْع الحرب بينهم عَشْرَ سنين ـ فاستدلُّوا بهذا على أن نَصْرَ الرُّومِ على فارسَ كان عامَ الحُدَيبية، لأن قيصَرَ إنما وَفَى بنذره بعدَ الحُدَيبية، والله أعلم.

ولأصحاب القولِ الأول أن يُجيبوا عن هذا بأنَّ بلاده كانت قد خَرِبَتْ وتَشَعَّثَتْ، فما تَمكَّن من وفاءِ نَذْرِه حتى أصلَح ما ينبغي إصلاحُه وتفقَّدَ بلادَه، ثم بعدَ أربع سِنين من نُصرَتِهِ وَفَى بِنَذْرِه، والله أعلم.

والأمر في هذا سهل قريب، إلا أنه لما انتصرت فارسُ على الروم ساءَ ذلك المؤمنين، فلما انتصرت

(١) أي: مراهنة.

(٢) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الروم ١٢/٦٦ ـ ٦٧، ورواية الطبري عن ابن عباس في تفسيره ٢١/١٧، وأثر عبد الله بن عَمْرو في التفسير أيضاً ٢١/٢١.

(٣) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الروم ١٢/٦٧. وتفسير الطبري ٢١/٢٠.

(٤) في نسخة الحرم: فلما فتح.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ١/٣١ ـ ٣٢.

الرومُ على فارسَ فرِح المؤمنون بذلك، لأن الرومَ أهلُ كتاب في الجُملة، فهم أقربُ إلى المؤمنين من المجُوسِ، كما قال تعالى: ﴿ لَتجِدَنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ولَتجدَنَّ أقرَبهم مودَّةً للذين آمنوا الذين قالُوا إنا نَصارى ذلك بأن منهم قِسِّيسين ورُهباناً وأنهم لا يستكبرُون * وإذا سمِعوا ما أُنزل إلى الرسولِ تَرَى أعيُنَهم تَفِيضُ من الدَّمعِ مما عرَفُوا من الحق يقولون ربَّنا آمنا فاكتُبنا مع الشاهدين ﴾. وقال تعالى هاهنا: ﴿ ويومئذٍ يفرَحُ المُؤمنون * بنَصْرِ الله ينصرُ مَن يشاء وهُو العزيزُ الرَّحيم ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعةَ، حدثنا صفوانُ، حدثنا الوليد، حدَّثني أُسَيدٌ الكِلَابي، قال: سَمِعْتُ العَلاء بن الزُّبَير الكِلَابي يحدِّث عن أبيه، قال: رأيت غَلَبَةَ فارسَ الرومَ، ثم رأيت غَلَبَة الرومِ فارسَ، ثم رأيت غَلَبَة المُسلِمين فارسَ والرومَ، كلُّ ذلك في خَمسَ عَشرة سنةً[1].

وقولُه: ﴿ وهو العزيزُ ﴾، أي: في انتصارِه وانتقامِه من أعدائِه، ﴿ الرحيمُ ﴾ بعبادِه المؤمنين.

وقولُه: ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾، أي: هذا الذي أخبرناك به ـ يا محمدُ ـ من أنا سننصُر الرومَ على فارسَ، وعدٌ من الله حَقٌّ، وخَبَرُ صِدْقٍ لا يُخلَفُ، ولابدَّ من كونه ووقوعه، لأن الله قد جَرَت سُنَّتُه أن ينصُرَ أقربَ الطائفتين المقتتلتين إلى الحقِّ، ويجعلَ لها العاقبة، ﴿ ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلَمُون ﴾، أي: بحُكمِ الله في كَونِه وأفعالِه المُحكَمَة الجارية على وَفْقِ العَدْلِ.

وقولُه: ﴿ يَعلَمُون ظاهراً من الحياةِ الدنيا وهُم عن الآخرةِ هم غافِلُون ﴾، أي: أكثرُ الناسِ ليس لهم علمٌ إلا بالدنيا واكتسابها وشُئونها وما فيها، فهم حذاقٌ أذكياءُ في تحصيلها ووجُوهِ مكاسِبها، وهم غافِلون عما يَنفعُهم في الدارِ الآخرةِ، كأن أحدَهم مُغفَّلٌ لا ذِهنَ له ولا فِكرَةَ.

قال الحسن البَصريُّ: والله لَيَبْلُغُ من أحدِهم بدُنياه أنه يَقلِبُ الدِّرهم على ظُفُرِه، فيُخبِرُك بوَزنِه، وما يُحسِنُ يُصلِّي[2].

وقال ابنُ عباس في قوله: ﴿يَعلَمُون ظاهراً من الحياةِ الدُّنيا وهُم عن الآخرةِ هم غافِلُون﴾، يعني: الكُفَّار، يعرِفُون عُمران الدنيا، وهم في أمرِ الدِّين جُهَّالٌ[3].

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنبِّهاً على التفكُّرِ في مخلُوقاتِه الدالَّةِ على وُجُودِه وانفرادِه بخلقِها، وأنه لا إلهَ غيرُه ولا ربَّ سِواه، فقال: ﴿ أوَ لم يَتفكَّروا في أنفسِهم ﴾، يعني به النَّظَرَ والتدبُّرَ والتأمُّلَ لخلقِ الله الأشياءَ من العالمِ العلويِّ والسفليِّ، وما بينهما من المخلوقاتِ المتنوِّعة، والأجناسِ المُختلِفة، فيعلموا أنها ما خُلِقت سُدًى، ولا باطلاً،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في الجرح، ترجمة الزبير بن عبد الله الكلابي ٣/٥٧٩ وزاد في الدر المنثور أن البيهقي أخرجه ٦/٤٨٢.
(٢) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه. الدر المنثور ٦/٤٨٤.
(٣) أخرجه الطبري ٢١/٢٣.

بل بالحقِّ، وأنَّها مُؤجَّلةٌ إلى أجلٍ مُسمّىً، وهو يومُ القيامة، ولهذا قال: ﴿ وإنَّ كثيراً من الناسِ بلقاءِ ربِّهم لكافرون ﴾.

ثم نبَّههم على صِدْقِ رُسُلِه فيما جاءُوا به عنه، بما أيَّدهم به من المعجزات، والدلالاتِ الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونَجاةِ من صدَّقهم، فقال: ﴿ أوَ لم يسيروا في الأرضِ ﴾، أي: بأفهامِهم وعُقولِهم ونَظرهم وسَماعِ أخبارِ الماضين، ولهذا قال: ﴿ فينظُروا كيف كان عاقبةُ الذين مِن قبلِهم كانوا أشدَّ منهم قوةً ﴾، أي: كانت الأممُ الماضيةُ والقرونُ السالفةُ أشدَّ منكم ـ أيها المبعوثُ إليهم محمدٌ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ وأكثرَ أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشارَ ما أُوتوا، ومُكِّنوا في الدنيا تَمكيناً لم تبلُغوا إليه، وعَمَروا فيها أعماراً طِوالاً، فعَمرُوها أكثر منكم. واستغَلُّوها[1] أزيدَ من استغلالِكم، ومع هذا لمَّا جاءتهم رسُلُهم بالبيِّنات وفرِحُوا بما أوتوا، أخذَهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واقٍ، ولا حالت أموالُهم وأولادُهم بينَهم وبين بأسِ الله، ولا دفَعوا عنهم مثقالَ ذرَّةٍ، وما كان الله لِيَظلِمَهم فيما أحلَّ بهم من العذاب والنَّكال، ﴿ ولكن كانوا أنفُسَهم يَظلِمُون ﴾، أي: وإنما أُوتُوا من أنفسِهم حيثُ كذَّبوا بآيات الله، واستهزأُوا بها، وما ذاك إلا بسَبَبِ ذُنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدِّم، ولهذا قال: ﴿ ثم كان عاقبةَ الذين أساءُوا السُّوأى أن كذَّبوا بآياتِ الله وكانوا بها يَستَهزِءُون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ونُقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ ونَذَرُهم في طُغيانِهم يَعْمَهُون ﴾، وقوله: ﴿ فلما زاغُوا أزاغَ الله قُلُوبَهم ﴾، وقال: ﴿ فإن تَولَّوا فاعلَم أنما يُريدُ الله أن يُصيبَهم ببعضِ ذُنوبِهم ﴾.

وعلى هذا تكون السوأى منصوبةً مفعولاً لأساءوا، وقيل: بل المعنى في ذلك: ﴿ ثم كان عاقبةُ الذين أساءوا السُّوأى ﴾ أي: كانت السوأى عاقبتَهم، لأنهم كذَّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون السوأى منصوبةً خبر كان. هذا توجيه ابنِ جريرٍ[2]، ونقَله عن ابن عباس وقتادة. ورواه ابنُ أبي حاتمٍ عنهما وعن الضَّحاك بن مُزاحِمٍ، وهو الظاهرُ، والله أعلم، لقوله: ﴿ وكانوا بها يَستَهزِءُونَ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ الله يبدأ الخَلق ثم يُعيده ﴾، أي: كما هو قادرٌ على بَدْأتِه فهو قادر على إعادَتِه، ﴿ ثم إليه تُرجَعُون ﴾، أي: يومَ القيامةِ، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعَمَلِه.

ثم قال: ﴿ ويومَ تقوم الساعةُ يبلس المجرمون ﴾، قال ابن عباس: ييْأَس المجرمونَ. وقال مجاهد: يفتضح المجرمون. وفي رواية: يكْتَئِبُ المجرمون.

﴿ولم يكن لهم من شُركائهم شُفعاء ﴾، أي: ما شفَعت فيهم الآلهةُ التي كانوا يَعبُدونَها من دون الله، وكفَروا بهم وخانُوهم أحوجَ ما كانُوا إليهم.

(١) في نسخة الحرم: واشتغلوها أزيد من اشتغالكم.

(٢) تفسير الطبري ٢١/٢٥ هذا وقد قرأ بنصب ﴿عاقبة﴾ الكوفيون وابن عامر، والباقون بالرفع. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٢٩.

ثم قال: ﴿ويوم تقومُ الساعةُ يومئذٍ يتفرَّقون﴾، قال قتادةُ: هي ـ والله ـ الفُرقة التي لا اجتماعَ بعدها. يعني أنّه إذا رُفع هذا إلى عِلِّيِّين، وخُفِض هذا إلى أسفلِ السّافلين، فذاك آخرُ العهد بينهما، ولهذا قال: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يُحبَرُون﴾، قال مجاهد وقتادة: يُنعَّمون. وقال يحيى بنُ أبي كَثير: يعني سَمَاعَ الغناء. والحَبْرَةُ أعمُّ من هذا كلِّه، قال العَجّاج[1]:

فالحمدُ لله الذي أعطى الحَبَرْ مَوالِيَ الحَقِّ، إنِ المَوْلى شَكَرْ

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

هذا تسبيحٌ منه تعالى لنفسه المقدَّسة، وإرشادٌ لعباده إلى تسبيحه وتحميده، في هذه الأوقات المتعاقبة الدالَّة على كَمال قُدرته وعظيمِ سُلطانه، عند المساء وهو إقبالُ الليل بظلامه، وعند الصباحِ وهو إسفارُ النهار عن ضِيائه.

ثم اعترض بحمده مناسبةً للتسبيح، وهو التَّحميدُ، فقال: ﴿وله الحمدُ في السمواتِ والأرضِ﴾، أي: هو المحمودُ على ما خَلَق في السمواتِ والأرضِ.

ثم قال: ﴿وعَشِيًّا وحين تظهرون﴾، فالعِشاء هو: شِدَّةُ الظلام، والإظهارُ: قُوَّة الضِّياء. فسبحان خالقِ هذا وهذا، ﴿فالقُ الإصباحِ وجاعلُ الليل سَكَناً﴾، كما قال: ﴿والنَّهارِ إذا جَلّاها * والليل إذا يغشاها﴾، وقال: ﴿والليلِ إذا يَغْشَى * والنهار إذا تجلّى﴾، وقال: ﴿والضُّحى * والليل إذا سَجى﴾، والآيات في هذا كثيرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حَسَن، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثنا زَبّان بن فائد، عن سَهْل بن معاذ بن أَنَس الجُهَني، عن أبيه، عن رسولِ الله ﷺ، أنه قال: «ألا أخبرُكم لِمَ سمّى الله إبراهيمَ خليلَه الذي وفّى؟ لأنّه كان يقول كُلَّما أصبحَ وأمسى: ﴿سبحانَ الله حين تمسُونَ وحين تُصبحون * وله الحمدُ في السموات والأرضِ وعَشِيّاً وحين تُظهِرُون﴾»[2].

وقال الطَّبرانيُّ: حدثنا مُطَّلِبُ بن شُعَيب الأزْدي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، عن سعيد بن بَشِير، عن محمد بن عبد الرحمن بن البَيْلَماني، عن أبيه، عن عبد الله بن عباس، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «من قال حين يصبح: ﴿سُبحان الله حين تُمسُون وحين تُصبِحُون * وله الحمدُ في السموات والأرض وعَشِيّاً وحين تُظهِرون﴾... الآية بكمالها، أدرك ما فاته في يومه، ومن قالها حين يُمسي أدرك ما فاته في ليلته»[3] إسناد ضعيف[4]. ورواه أبو داود في سننه[5].

وقولُه: ﴿يُخرِجُ الحيَّ مِن الميِّتِ ويُخرجُ الميِّتَ من الحيِّ﴾، هو ما نحنُ فيه من قدرته على خلق

(١) ديوانه ٤، وتفسير الطبري ٢١/٢٧.
والحَبَرُ: السرور، وموالي الحق: أولياء الحق.
(٢) مسند الإمام أحمد ٣/٤٣٩.
(٣) المعجم الكبير ١٢/٢٣٩.
(٤) في نسخة الأزهر: إسناده جيد. وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ٤/١٢٩: وأخرجه أبو داود والعقيلي وابن عدي من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف. وقال البخاري: لا يصح.
(٥) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣١٩.

الأشياء المتقابلة. وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلُّها من هذا النمط، فإنه يذكر فيها خَلْقَه الأشياء وأضدادَها، ليدُلّ خلقه على كَمال قُدرته، فمن ذلك إخراجُ النباتِ من الحبِّ، والحبِّ من النباتِ. والبَيض من الدَّجاج، والدَّجاج من البيض، والإنسان من النُّطفةِ، والنُّطفةِ من الإنسانِ، والمؤمن من الكافرِ، والكافرِ من المُؤمن.

وقولُه: ﴿ وَيُحيي الأرضَ بعد موتها ﴾، كقوله: ﴿ وآيةٌ لهم الأرض الميتةُ أحييناها وأخرجْنا منها حبًّا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جناتٍ من نَخيلٍ وأعنابٍ وفجَّرنا فيها من العُيونِ ﴾. وقال: ﴿وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّتْ وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحقُّ وأنه يُحيي الموتى وأنَّه على كلِّ شيءٍ قدير * وأن الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها وأن الله يَبعَثُ مَن في القُبورِ﴾. وقال: ﴿وهو الذي يُرسِلُ الرِّياح نُشراً بين يَدَي رَحمَتِه حتى إذا أقلَّت سَحاباً ثِقالاً سُقناه لبلدٍ ميِّت فأنزلنا به الماءَ فأخرجنا به من كلِّ الثمرات كذلك نُخرِج الموتى لعلَّكم تذكَّرُونَ ﴾ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وكذلك تُخرَجُونَ ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ ومن آياتِه ﴾ الدالَّة على عَظَمته وكَمال قُدرَته أنه خلق أباكم آدمَ من تُراب، ﴿ ثم إذا أنتم بَشَرٌ تنتشِرُون ﴾، فأصلكُم من تُرابٍ، ثم من ماء مهينٍ، ثم تصَوَّر فكان علقة، ثم مُضغَةً، ثم صار عظاماً مُشكَّلةً على شكلِ الإنسان، ثم كسا الله تلك العظامَ لحمًا، ثم نفخ فيه الرُّوحَ، فإذا هو سَميعٌ بَصيرٌ. ثم خرَج من بطنِ أُمِّه صَغيراً ضَعيفَ القُوى والحَركة، ثم كلَّما طال عُمرُه تكامَلَت قُواه وحَركاتُه حتى آل به الحالُ إلى أن صار يَبني المدائن والحُصونَ، ويُسافرُ في أقطارِ الأقاليم، ويركَبُ متنَ البُحورِ، ويَدُور أقطارَ الأرض ويَتكَسَّبُ ويجمعُ الأموالَ، وله فِكرٌ وغَورٌ، ودهاء ومكر، ورأيٌ وعِلم، واتساعٌ في أُمُورِ الدنيا والآخرةِ كُلٌّ بِحَسَبِه. فسبحانَ من أقدرَهم وسَيَّرهم وسَخَّرهم وصَرَّفهم في فُنُونِ المعايش والمكاسب، وفاوتَ بينهم في العُلُوم والفِكرةِ، والحُسنِ والقُبحِ، والغِنَى والفَقرِ، والسعادةِ والشَّقاوَةِ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ومن آياته أن خَلَقكُم من تُرابٍ ثم إذا أنتم بَشَرٌ تنتشرون ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد وغُندر قالا: حدثنا عوفٌ، عن قَسامَةَ بن زُهَير، عن أبي موسى قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إن الله خَلَق آدم من قبضةٍ قَبَضها من جَميع الأرضِ، فجاء بنو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ، جاء منهم الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ وبينَ ذلك، والخبيثُ والطَّيِّبُ، والسَّهلُ والحَزْنُ، وبينَ ذلك[1].

ورواه أبو داودَ والترمذيُّ من طُرُقٍ، عن عَوفٍ الأعرابيِّ، به. وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[1].

وقولُه: ﴿ ومن آياته أن خَلَق لكم من أنفُسكم أزواجاً ﴾، أي: خَلَق لكم من جنسكم إناثاً يَكُنَّ لكم أزواجاً، ﴿ لتسكُنوا إليها ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هو الذي خَلَقكم من نفسٍ واحدةٍ وجَعَل منها زوجَها ليسكن إليها ﴾، يعني بذلك حواءَ، خلقها الله من آدمَ من ضِلَعِه الأقصرِ الأيسرِ. ولو أنه جَعَل بَني آدم كُلَّهم ذكوراً وجعل إناثَهم من جنسٍ آخرَ من غيرِهم، إما من جانٍّ أو حيوان، لما حصل هذا الائتلافُ بينهم وبين الأزواج،

(١) مسند أحمد ٤/٤٠٠، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢٢٢، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة البقرة ١١/٧٥ ـ ٧٧. وتقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢ من سورة المؤمنون.

بل كانت تحصل نَفرةٌ لو كانت الأزواجُ من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهنَّ مودةً، وهي المحبةُ، ورحمةً، وهي الرأفة، فالرجل يُمسكُ المرأة إما لمحبته لها أو لرحمته بها، بأن يكون لها منه ولدٌ، أو محتاجةً إليه في الإنفاق، أو للأُلفة بينهما، وغير ذلك. ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ومن آياتِ قُدرته العظيمة ﴿ خلقُ السمواتِ والأرضِ ﴾، أي: خلقُ السموات في ارتفاعها واتساعها، وشُفُوفِ أجرامها وَزَهارة[1] كواكبها ونُجومها الثَّوابتِ والسيَّارات، والأرض في انخفاضها وكثافتها، وما فيها من جِبَالٍ وأوديةٍ، وبحارٍ وقِفارٍ، وحيوانٍ وأشجارٍ.

وقولُه: ﴿ واختلافُ ألسنتكم ﴾، يعني: اللغاتِ، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تترٌ لهم لُغَةٌ أخرى، وهؤلاء كُرْجٌ، وهؤلاء رُومٌ، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بَرْبر، وهؤلاء تُكْرور، وهؤلاء حَبَشَةٌ، وهؤلاء هنودٌ، وهؤلاء عَجَمٌ، وهؤلاء صَقَالبة، وهؤلاء خَزَرٌ، وهؤلاء أرمنٌ، وهؤلاء أكرادٌ، إلى غير ذلك مما لا يعلَمُه إلا الله من اختلاف لغاتِ بني آدم، واختلاف ألوانهم وهي حُلَاهم، فجميعُ أهلِ الأرض بل أهلِ الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة: كُلٌّ له عينان وحاجبان، وأنف وَجبين، وفَمٌ وخدَّان. وليس يشبه واحدٌ منهم الآخر، بل لا بدَّ أن يفارقَه بشيءٍ من السَّمتِ أو الهيئةِ أو الكلامِ، ظاهراً كان أو خفياً، يظهرُ عند التأمل، كلُّ وجهٍ منهم أسلوبٌ بذاته وهيئةٌ لا تُشبه الأخرى. ولو توافق جماعةٌ في صفةٍ من جمالٍ أو قُبحٍ، لا بدَّ من فارقٍ بين كُلِّ واحدٍ منهم وبين الآخر، ﴿ إن في ذلك لآياتٍ للعالمين * ومن آياته منامكُم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ﴾، أي: ومن الآياتِ ما جَعَل لكم من صفةِ النوم في الليل والنهار، فيه تحصلُ الراحةُ وسكونُ الحركةِ، وذهابُ الكلالِ والتَّعَبِ، وجعل لكم الانتشارَ والسعيَ في الأسباب والأسفار، وهذا ضدُّ النوم، ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يَسْمَعُونَ ﴾، أي: يَعُونَ.

قال الطَّبَرانيُّ: حدثنا حَجَّاج بن عِمران السَّدُوسيُّ، حدثنا عَمرو بن الحُصَين العُقيلي، حدثنا محمد بن عبد الله بن عُلَاثَة، حدَّثني ثورُ بنُ يَزيدَ، عن خالد بن مَعْدَانَ، سَمِعتُ عبد الملك بن مروان يحدِّثُ عن أبيه، عن زيدِ بن ثابتٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: أصابني أرَقٌ من الليل، فشكوتُ ذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال «قُل: اللَّهُمَّ، غارتِ النُّجومُ، وهَدأتِ العيونُ، وأنتَ حيٌّ قيُّومٌ، يا حَيُّ يا قيومُ، أنِمْ عيني وأهدئ ليلي» فقلتُها، فذهَبَ عنِّي[2].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(١) أي: صفاء لونها.
(٢) المعجم الكبير ٥/١٢٤ وقال في مجمع الزوائد ١٠/١٢٨: فيه عمرو بن الحصين العقيلي، وهو متروك.

يقولُ تعالى: ﴿ومن آياته﴾الدالَّة على عظمته أنه ﴿يُريكم البَرْقَ﴾ تارةً تخافُونَ مما يحدُث بعده من أمطارٍ مُزعجة، أو صواعق متلفة، وتارةً ترجُون وَميضهُ وما يأتي بعده من المَطَرِ المُحتاجِ إليهِ، ولهذا قال: ﴿ وينَزِّلُ من السماء ماءً فيُحيي به الأرضَ بعد مَوتها ﴾، أي: بعد ما كانت هامدةً لا نباتَ فيها ولا شيءَ، فلما جاءها الماء ﴿ اهتزَّت وَرَبت وأنبتتْ من كلِّ زَوجٍ بَهيجٍ ﴾. وفي ذلك عبرةٌ ودَلالةٌ واضحةٌ على المَعَادِ وقيامِ الساعةِ، ولهذا قال ﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يَعقِلُونَ ﴾.

ثم قال: ﴿ ومن آياتِه أن تقُومَ السماءُ والأرضُ بأمره ﴾ كقوله: ﴿ ويُمسِكُ السماءَ أن تقعَ على الأرضِ إلا بإذنِهِ ﴾، وقوله: ﴿ إن الله يُمسِكُ السموات والأرض أن تزُولا ﴾. وكان عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا اجتهدَ في اليمين يقول: «لا، والذي تقومُ السماءُ والأرضُ بأمرِه». أي: هي قائمةٌ ثابتة بأمره لها وتسخيره إيَّاها، ثم إذا كان يومُ القيامة بُدِّلت الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتِ، وخرجتِ الأمواتُ من قُبورِها أحياءً بأمره تعالى ودعائِه إيَّاهم، ولهذا قال. ﴿ ثم إذا دَعَاكم دعوةً من الأرض إذا أنتم تَخرُجُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ يوم يدعُوكم فتستجيبُونَ بحمدِه وتظُنُّون إن لبِثتم إلاَّ قليلاً ﴾. وقال تعالى: ﴿ فإنَّما هي زَجرَةٌ واحدة * فإذا هُم بالساهِرَة ﴾، وقال: ﴿ إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم جميعٌ لدينا مُحضَرُونَ ﴾.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ وله مَن في السمواتِ والأرضِ ﴾، أي: مِلكُه وعَبيده، ﴿ كُلٌّ له قانِتُونَ ﴾، أي: خاضِعُونَ خاشِعُونَ طَوعاً وكَرهاً.

وفي حديث دَرَّاجٍ، عن أبي الهَيثمِ، عن أبي سَعيدٍ، مرفوعاً: «كُلُّ حَرفٍ في القرآنِ يُذكَرُ فيه القنوتُ فهو الطاعةُ»[١].

وقولُه: ﴿ وهو الذي يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعيدُه وهو أهونُ عليه ﴾، قال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباس: يعني أيسرُ عليه. وقال مجاهدٌ: الإعادةُ أهونُ عليه من البَدَاءةِ، والبَدَاءةُ عليه هَيِّنٌ. وكذا قال عِكْرِمَةُ وغيرُه[٢].

قال البخاريُّ: حدَّثنا أبو اليمانِ، أخبرَنا شُعَيبٌ، أخبرنا أبو الزناد، عن الأعرجِ، عن أبي هُرَيرَة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: قال الله: «كذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك، وشَتَمَني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبُه إياي فقوله: لن يُعيدني كما بدأني، وليس أولُ الخَلْقِ بأهونَ عليَّ من إعادتِهِ. وأما شَتمُه إيَّايَ فقوله: اتَّخذَ الله ولداً، وأنا الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلِد ولم يُولَد، ولم يكُن له كُفُواً أحدٌ»[٣].

انفرَد بإخراجه البخاريُّ كما انفرَد بروايته أيضاً من حديث عبد الرزَّاق عن مَعْمَر، عن هَمَّام، عن أبي هُرَيرَةَ، به[٣]. وقد رَوَاه الإمامُ أحمدُ منفرداً به عن حَسَن بن مُوسَى، عن ابن لَهيعة، حدثنا أبو يونُسَ سُلَيم بن جُبَير، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ بنَحوِه، أو مِثلِه[٣].

وقال آخرون: كلاهُما بالنسبة إلى القُدرةِ على السَّواءِ. قال العَوفيُّ، عن ابن عباس: كُلٌّ عليه هَيِّنٌ.

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١١٦ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك. وقال ابن كثير عنده: «ولكن هذا الإسناد ضعيف لا يعتمد عليه، ورفع هذا الحديث منكر، وقد يكون من كلام الصحابي أو من دونه. والله أعلم...».

(٢) تفسير الطبري ٢١/٣٦.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الإخلاص ٨/٧٣٩. ومسند الإمام أحمد ٢/٣٥٠.

وكذا قال الربيعُ بن خُثَيم. ومالَ إليه ابن جرير[1]. وذكر عليه شواهد كثيرة، قال. ويَحْتَمِلُ أن يعودَ الضمير في قوله: ﴿ وهو أهونُ عليه ﴾ إلى الخَلْق، أي: وهو أهْوَن على الخَلْق[2].

وقولُه: ﴿ وَلَهُ المثلُ الأعلَى فِي السَّمواتِ والأرضِ ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباسٍ كقوله: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[3].

وقال قتادة: مَثَلُه أنه لا إلَه إلا هو، ولا ربَّ غيره، وقال مثلَ هذا ابن جرير.

وقد أنشد بعض المُفَسِّرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف:

إذا سَكَنَ الغديرُ على صَفَاءٍ ... وَجُنِّبَ أن يُحَرِّكَهُ النَّسِيمُ
تَرَى فيه السَّمَاءَ بِلا امْتِرَاء ... كَذاكَ الشَّمسُ تَبْدُو والنُّجُومُ
كَذاكَ قُلُوبُ أرْبابِ التَّجَلِّي ... يُرَى في صَفْوِها اللهُ العَظِيمُ

﴿ وَهُوَ العزيزُ ﴾: الذي لا يُغالَبُ ولا يمانَعُ، بل قد غَلَبَ كُلَّ شيءٍ، وقَهَر كلَّ شيء بقُدرته وسُلطانه ﴿ الحكيمُ ﴾ في أفعالِه وأقواله، شَرْعاً وقَدَراً.

وعن مالك في تفسيره المرويِّ عنه، عن محمد بن المُنْكَدِر، في قوله تعالى: ﴿ وله المَثَلُ الأعلى ﴾، قال: لا إلَه إلا الله.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

هذا مثلٌ ضَرَبه الله ـ تعالى ـ للمشركين به، العابِدين مَعَه غيرَه، الجاعلين له شُركاء، وهم مع ذلك مُعترِفُون أنَّ شركاءه من الأصنام والأندادِ عبيدٌ له ملكٌ له، كما كانوا في تَلْبِيَتِهم يقولُون: لَبَّيك لا شريكَ لك، إلا شريكاً هُو لَك، تملِكُه وما ملك. فقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لكم مَثَلاً من أنفُسِكم ﴾ أي: تشهَدُونه وتفهمونه من أنفسكم: ﴿ هل لكم مما مَلَكت أيمانُكم من شُركاء فيما رَزَقناكم فأنتم فيه سواءٌ ﴾، أي: أيَرْتَضِي أحدٌ منكم أن يكونَ عبدُه شريكاً له في مالِه، فهو وهو فيه على السَّواءِ؟! ﴿ تخافُونهم كَخِيفتكم أنفُسكم ﴾، أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال.

قال أبو مِجْلَز: إنَّ مملوكك لا تخافُ أن يُقاسِمَك مالك، وليس له ذَلِكَ، كذلك الله لا شَريكَ له[4].

والمعنى أن أحدكم يأنَفُ من ذلك، فكيف تجعلُون لله الأندادَ من خلقه. وهذا كقوله تعالى: ﴿ ويجعلُون لله ما يكرَهُون ﴾، أي: من البنات، حيث جَعَلُوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وقد كان أحدُهم إذا بُشِّر بالأنثى ظَلَّ وجهُه مُسْوَدّاً وهو كَظِيم، يتوارى من القوم من سُوءِ ما بُشِّر به، أيُمسكُه على هُونٍ أم يَدُسُّه في التراب، فهم يَأنفُون من البنات وجَعَلوا الملائكة بناتِ الله، فنسبوا إليه ما لا يَرْضَونه لأنفسهم،

(١) تفسير الطبري ٢١/٣٦.
(٢) قال الطبري في تفسير هذا: «أي إعادة الشيء أهون على الخلق من ابتدائه».
(٣) تفسير الطبري ٢١/٣٨.
(٤) أخرجه الطبري ٢١/٣٩

بهذا أغلظُ الكُفر. وهكذا في هذا المقام جعلُوا له شُركَاء من عَبيده وخَلْقِه، وأحدُهم يأبى غاية الإباء ويأنَفُ غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبدُه شريكَه في مالِه، يُساويه فيه. ولو شاء لَقاسَمه عليه، تعالى الله عن ذَلِكَ عُلُوّاً كَبيراً.

قال الطَّبَرانيُّ: حدثنا محمودُ بنُ الفَرَج الأصبهانيُّ، حدثنا إسماعيل بن عَمْرو البَجَليُّ، حدثنا حَمَّادُ بن شُعَيب، عن حَبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاس قال: كان يُلَبِّي أهلُ الشِّركِ: لَبَّيكَ اللهُمَّ لَبَّيك، لَبَّيكَ لا شريكَ لك، إلا شَريكاً هو لك، تَملِكُه وما ملك. فأنزلَ الله: ﴿ هل لكم مما مَلَكت أيمانُكم من شُركاء فيما رَزَقناكم فأنتم فيه سواءٌ تخافونهم كَخِيفَتِكم أنفُسَكم ﴾[1].

ولما كان التنبيهُ بهذا المَثَل على براءتِه تعالى ونَزَاهته بطريقِ الأولى والأحرى، قال: ﴿ كذلك نُفصِّل الآياتِ لقومٍ يَعقِلون ﴾.

ثم قال تعالى مُبيِّناً أن المشركين إنما عبَدُوا غيرَه سَفَهاً من أنفُسِهم وجَهْلاً: ﴿ بل اتَّبعَ الذين ظَلَموا ﴾، أي: المشركون ﴿ أهواءَهم ﴾، أي: في عبادتهم الأندادَ بغير علمٍ، ﴿ فمن يَهدِي من أضلَّ الله ﴾، أي: لا أحدَ يَهديهم إذا كتَب الله إضلالَهم، ﴿ وما لهم من ناصِرِينَ ﴾، أي: ليس لهم من قُدرةِ الله مُنقِذٌ ولا مُجيرٌ، ولا مَحيدَ لهم عنه؛ لأنه ما شاءَ كانَ، وما لم يَشأ لم يَكُن.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾

يقولُ تعالى: فسَدِّد وجهَك واستمِرَّ على الدين الذي شَرَعه الله لك، من الحَنِيفية مِلَّةِ إبراهيمَ، الذي هَدَاك الله لها، وكمَّلها لك غايةَ الكَمال. وأنتَ مع ذلك لازِمٌ فِطرتَك السليمةَ، التي فَطَر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خَلْقه على مَعرفَتِه وتَوحيدِه، وأنه لا إلهَ غيرُه، كما تقدَّم عند قوله تعالى: ﴿ وأشهَدَهُم على أنفُسِهم ألستُ بربكم قالوا بلى ﴾ وفي الحديث: «إني خلقتُ عبادي حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالَتْهُم عن دينهم»[2]. وسنذكر في الأحاديث أن الله ـ تعالى ـ فطر خَلْقه على الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسيَّة.

وقولُه: ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾، قال بعضُهم: معناه لا تُبدِّلوا خلق الله، فتُغيِّروا الناسَ عن فطرتهم التي فَطرهم الله عليها. فيكونُ خبراً بمعنى الطَّلَب، كقوله تعالى: ﴿ ومن دَخَله كان آمناً ﴾، وهذا معنًى حسنٌ صحيحٌ.

وقال آخرون: هو خبَرٌ على بابه، ومعناه: أنَّه ـ تعالى ـ ساوى بين خَلْقِه كُلِّهم في الفطرةِ على الجِبِلَّةِ المستقيمة، لا يُولَد أحدٌ إلا على ذلك، ولا تفاوُتَ بين الناس في ذلك. ولهذا قال ابنُ عباس، وإبراهيم النَّخعيُّ، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضَّحَّاكُ، وابنُ زيدٍ في قوله: ﴿ لا تبديلَ لخلق الله ﴾، أي: لدِين الله.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، وقال في مجمع الزوائد ٢٢٣/٣: «وفيه حماد بن شعيب، وهو ضعيف».

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٧٢ من سورة الأعراف، والآية ١٥ من سورة الإسراء، وخرجناه وشرحنا غريبه هنالك.

وقال البخاريُّ قوله: ﴿لا تبديلَ لِخَلْقِ الله﴾: لدين الله، ﴿خُلُقُ الأولين﴾[1]: دِينُ الأوّلين، و﴿الفِطْرَةُ﴾: الإسلام.

حدثنا عَبْدانُ، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونُسُ، عن الزُّهريِّ، أخبرني أبو سَلَمَةَ بنُ عبد الرحمن: أنّ أبا هُرَيْرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما من مولودٍ يُولَدُ إلا على الفِطْرَةِ، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعاءَ؟ ثم يقول: ﴿فطرةَ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها لا تَبديلَ لخلق الله ذلك الدينُ القَيِّمُ﴾[2].

وَرواه مسلم من حديث عبد الله بن وَهْب، عن يُونُسَ بن يَزِيدَ الأيْليِّ، عن الزُّهريِّ، به[3]. وأخرجاه أيضاً من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن هَمّامٍ، عن أبي هُرَيرةَ ـ رَضِيَ الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ[3].

وفي معنى هذا الحديثِ قد وردت أحاديثُ عن جماعةٍ من الصحابة، فمنهم الأسودُ بن سَريع التَّميمي، قال الإمامُ أحمدُ:

حَدَّثنا إسماعيل، حدثنا يونُسُ، عن الحسن، عن الأسود بن سَرِيع قال: أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وغَزَوتُ معه، فأصبتُ ظَفَراً، فقَتَلَ الناسُ يومئذٍ، حتى قتلُوا الولدان. فبلغ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: ما بالُ أقوامٍ جاوزَهم القتلُ اليومَ حتى قتلوا الذرية؟! فقال رجل: يا رسولَ الله، أما هم أبناءُ المشركين؟ فقال: ألا إنما خِيارُكم أبناءُ المشركين. ثم قال: لا تقتلوا ذُرِّيَّةً، لا تقتلوا ذُرِّيَّةً. وقال: كُلُّ نَسَمةٍ تُولَد على الفِطْرَة، حتى يُعرِب عنها لسانُها، فأبواها يُهَوِّدانِها أو يُنَصِّرانها[3]

ورَوَاه النسائي في كتاب السِّيَر، عن زيادِ بن أيُّوبَ، عن هُشَيم، عن يونُسَ ـ وهو ابن عُبَيد ـ عن الحَسَنِ البَصريِّ، به[3].

ومنهم جابرُ بن عبد الله الأنصاريُّ، قال الإمام أحمد:

حدثنا هاشمٌ، حدثنا أبو جعفرٍ، عن الرَّبيع بن أنس، عن الحَسَنِ، عن جابرِ بن عَبدِ الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كُلُّ مولودٍ يُولَد على الفِطْرَةِ حتى يُعرِبَ عنه لسانُه، فإذا أعرَبَ عنه لسانُه إما شاكِراً وإمَّا كَفوراً»[4]

ومنهم عبدُ الله بن عباس الهاشميُّ، قال الإمام أحمدُ:

حدثنا عَفّان، حدثنا أبو عَوانَةَ، حدثنا أبو بِشْرٍ، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ سُئِل عن أولاد المشركين، فقال: الله أعلمُ بما كانوا عامِلين إذْ خَلَقَهم[5].

أخرجاه في الصحيحين، من حديث أبي بشر جعفر بن إياس اليشكري، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً بذلك[5].

وقد قال أحمدُ أيضاً: حدثنا عفّان، حدثنا حَمّاد ـ يعني ابن سَلَمة ـ أنبأنا عَمّارُ بن أبي عَمّار، عن ابن عباس قال: أتى عَلَيَّ زمانٌ وأنا أقولُ: «أولادُ المسلمين مع أولادِ المسلمين، وأولادُ المشركين مع المُشركين»،

(١) من الآية ١٣٧ من سورة الشعراء، في قراءة ابن كثير، وأبي عَمْرو، والكسائي.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة الروم ٥١٢/٨. وقد تقدم الحديث في غير موضع وخرجناه، وشرحنا غريبه. انظر تفسير سورة النساء، الآية ١١٩، والأنعام، الآية ٧٩، والأعراف، الآية ٣٠، ١٠٢، ١٧٢، وهود ١٧، والإسراء ١٥

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٧٢ من سورة الأعراف، والآية ١٧ من سورة هود. وقد أخرجه النسائي في كتاب السير من سُننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف للمزِّيّ ٧٠/١.

(٤) مسند أحمد ٣٥٣/٣

(٥) مسند أحمد ٣٢٨/١. وتقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٥ من سورة الإسراء.

حتى حدثني فلانٌ عن فلان: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ سُئِل عنهم فقال: الله أعلمُ بما كانوا عاملين. قال: فلقيتُ الرجلَ فأخبرني، فأمسكت عن قولي(١).

ومنهم عياضُ بن حِمَارٍ المجاشعي، قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشامٌ، حدثنا قتادةُ، عن مُطَرِّف، عن عياض بن حِمَار أن رسول الله ـ ﷺ ـ خطب ذاتَ يوم فقال في خطبته: إنَّ ربي ـ عزَّ وجلَّ ـ أمرني أن أُعَلِّمكم ما جهلتم مما عَلَّمني في يومي هذا: كُلُّ مال نحلتُه عبادي حلالٌ، وإني خلقتُ عبادي حُنَفاء كُلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطينُ فأَضَلَّتْهم عن دينهم، وحَرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتْهم أن لا يُشركوا بي ما لم أُنزل به سلطاناً. ثم إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نظر إلى أهلِ الأرض فمقتهم، عَرَبَهم وعَجَمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسلُه الماء تقرؤه نائماً ويقظانَ. ثم إن الله أمرني أن أحرق قُرَيْشاً، فقلت: يا ربِّ، إذا يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خُبزَة. قال: استخرِجْهم كما استخرجُوك، واغزُهم نُغْزِك، وأنفِقْ عليهم فسَنُنفِقُ عليك. وابعث جيشاً نبعثْ خمسةً مثله، وقاتلك بمن أطاعك من عصاك. وأهلُ الجَنَّةِ ثلاثةٌ: ذو سلطانٍ مُقسِط مُتَصَدِّق موفَّق، ورجلٌ رحيمٌ رقيقُ القلبِ بكلِّ ذي قُرْبَى ومُسلِم، ورجل عفيف فقيرٌ متصدِّق. وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تَبَعاً، لا يَبتغُونَ أهلاً ولا مالاً. والخائنُ الذي لا يخفَى له طَمَعٌ وإن دَقَّ إلا خانَه. ورجُلٌ لا يُصبحُ ولا يُمسِي إلا وهو يُخادِعُك عن أهلك ومالِك. وذكر البَخيل، أو الكذَّاب. والشِّنظير: الفَحَّاشُ(٢).

انفرد بإخراجه مسلم، فرواه من طُرُق عن قتادةَ، به(٢).

وقولُه تعالى: ﴿ذلك الدين القَيِّمُ﴾، أي: التمسُّكُ بالشريعةِ والفِطْرَةِ السَّليمة هو الدينُ القويمُ المستقيمُ، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلَمُون﴾، أي: فلهذا لا يعرفه أكثرُ الناس، فهم عنه ناكِبُون، كما قال تعالى: ﴿وما أكثرُ الناسِ ولو حَرَصت بمؤمنين﴾، ﴿وإن تُطِع أكثرَ مَن في الأرضِ يُضِلُّوك عن سبيل الله﴾... الآية.

وقولُه: ﴿مُنيبين إليه﴾ ـ قال ابنُ زيد، وابن جريج: راجعين إليه، ﴿واتقوه﴾، أي: خافُوه وراقِبُوه، ﴿وأقيموا الصَّلاة﴾، وهي الطاعةُ العظيمةُ، ﴿ولا تكونُوا من المشركين﴾، أي: بل من الموحِّدين المُخلِصِين له العبادةَ، لا يُريدُون بها سِوَاه.

قال ابن جرير: [حدثنا ابن حُمَيد(٣)]، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن يزيد بن أبي مريم قال: مر عمر ـ رضي الله عنه ـ بمعاذ بن جبل فقال: ما قِوامُ هذه الأمَّة؟ قال معاذٌ: ثلاثٌ، وهُنَّ المُنجياتُ: الإخلاصُ، وهي الفطرةُ ﴿فِطرةَ الله التي فَطَر الناسَ عليها﴾، والصلاةُ وهي المِلَّة، والطاعةُ وهي العِصْمَةُ. فقال عمر: صَدَقْت(٤).

حدثني يعقوبُ، حدثنا ابنُ عُلَيَّة، حدثنا أيوبُ عن أبي قِلَابَةَ: أن عُمَرَ قال لِمُعاذٍ: ما قِوامُ هذا الأمر؟ فذكر نحوه(٤).

---

(١) مسند أحمد ٥/٧٣.
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٩ من سورة المائدة، وخرّجناه هنالك، وشرحنا غريبه.
(٣) ما بين القوسين سقط من مخطوطتي الأزهر والحرم، وقد أثبتناه من تفسير الطبري، وهو سند يتكرر فيه مراراً.
(٤) تفسير الطبري ٢١/٤٠.

وقولُه: ﴿ من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كُلُّ حزب بما لديهم فرحون ﴾، أي: لا تكونوا من المشركين الذين قد فرّقوا دِينَهم، أي: بدَّلُوه وغيَّروه وآمنوا ببعضٍ وكفَروا ببعضٍ. وقرأ بعضُهم: «فارَقوا دِينَهم»[1]، أي: تركُوه وراءَ ظُهورِهم، وهؤلاء كاليهودِ والنصارى والمجوسِ وعَبَدةِ الأوثانِ، وسائرِ أهلِ الأديانِ الباطلةِ مما عدا أهلَ الإسلامِ، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين فرّقوا دينَهم وكانوا شيَعاً لستَ منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم يُنبِّئهم بما كانوا يفعلون ﴾. فأهلُ الأديانِ قبلَنا اختلفُوا فيما بينهم على آراءٍ ومِلَلٍ باطلة كلِّها، وكلُّ فرقةٍ منهم تزعُم أنهم على شيءٍ، وهذه الأمةُ أيضاً اختلفُوا فيما بينَهم على نحلٍ كلُّها ضلالةٌ إلا واحدةً، وهم أهلُ السنةِ والجماعةِ، المُتمسِّكون بكتابِ الله وسُنّةِ رسولِ الله ﷺ، وبما كان عليه الصدرُ الأوَّلُ من الصحابةِ والتابعين، وأئمةِ المسلمين في قديمِ الدَّهرِ وحديثِه، كما رَواه الحاكم في مستدركه أنه سُئِل ـ عليه السلام ـ عن الفرقة الناجية منهم، فقال: «ما أنا عليه وأصحابي»[2].

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الناس أنّهم في حال الاضطرارِ يدعُون الله وحدَه لا شريكَ له، وأنه إذا أُسبِغَ عليهم النِّعم إذا فريقٌ منهم في حالِ الاختيار يُشركون بالله، ويعبدُون معه غيره.

وقولُه: ﴿ لِيكفُروا بما آتيناهُم ﴾، هي لام العاقبةِ عند بعضهم، ولامُ التعليل عند آخرين، ولكنها تعليلٌ لتقييضِ الله لهم ذلك.

ثم توَعَّدهم بقوله: ﴿ فسوف تعلمُون ﴾، قال بعضُهم: والله لو توعَّدني حارس دَرْبٍ لخِفتُ منه، فكيفَ والمتوعِّدُ هاهنا هو الذي يقول للشيء: كُن، فيكونُ.

ثم قال مُنكِراً على المشركين فيما اختلقُوه من عبادةِ الأوثانِ بلا دليلٍ ولا حُجّةٍ ولا بُرهانٍ: ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾، أي: حُجّةً، ﴿ فهو يتكلّم ﴾، أي: ينطِق ﴿ بما كانوا به يُشركُونَ ﴾، وهذا استفهامُ إنكارٍ، أي: لم يكن شيءٌ من ذلك.

ثم قال: ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمةً فرحوا بها وإن تُصِبهم سيئة بما قدَّمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾، هذا إنكار على الإنسان من حيثُ هو إلا مَنْ عَصَمه الله ووَفَّقه، فإن الإنسانَ إذا أصابته نعمةٌ بَطِرَ وقال: ﴿ ذهب السيِّئات عني إنه لفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾، أي: يفرَحُ في نفسِه ويفخَرُ على غيره، وإذا أصابته شدّةٌ قَنِط وأيِس أن يحصُلَ له بعد ذلك خيرٌ بالكلية، قال الله: ﴿ إلا الذين صَبرُوا وعَمِلوا الصالحاتِ ﴾، أي: صَبرُوا في الضَّرّاءِ، وعملوا الصالحات في الرَّخاءِ، كما ثبت في الصَّحيح: «عَجَباً للمؤمن! لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سَرَّاءُ شكَرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاءُ صَبَر فكان خيراً له»[3].

---

(١) هذه قراءة حمزة والكسائي من السبعة. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٤٥
(٢) أخرجه الحاكم في كتاب العلم ١/١٢٨ ـ ١٢٩.
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٥٣ من سورة البقرة، ٩٥ من سورة الأعراف، ١٢ من سورة يونس. وخرّجته هنالك.

وقولُه تعالى: ﴿ أوَ لم يروا أن الله يبسُطُ الرِّزق لمن يشاءُ ويقدِرُ ﴾، أي: هو المتصرِّف الفاعِلُ لذلك بحكمته وعَدْله، فيوسِّعُ على قومٍ ويُضيِّقُ على آخرينَ، ﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنُونَ ﴾.

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً بإعطاءِ ذي القُربى حقَّه، أي: من البرِّ والصِّلَةِ، ﴿ والمِسْكِين ﴾، وهو: الذي لا شيءَ له يُنفِقُ عليه، أوله شيءٌ لا يقومُ بكفايته، ﴿ وابنَ السبيل ﴾، وهو المسافر المحتاج إلى نَفَقةٍ وما يحتاجُ إليه في سَفَرِه، ﴿ذلك خيرٌ للذين يُريدونَ وجهَ الله﴾، أي: النظرُ إليه يومَ القيامةِ، وهو الغايةُ القُصوَى، ﴿وأولئك هم المفلِحُون ﴾، أي: في الدُّنيا وفي الآخرة.

ثم قال: ﴿ وما آتيْتُم من رِباً ليربُوَا في أموالِ الناسِ فلا يربُوا عند الله ﴾، أي: مَن أعطى عَطِيَّةً يُريدُ أن يردَّ الناس عليه أكثَرَ مما أهدى لهم فهذا لا ثوابَ له عند الله. بهذا فسَّره ابنُ عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادةُ، وعكرمة، ومحمد بن كعب، والشعبي. وهذا الصنيعُ مباحٌ، وإن كان لا ثواب له فيه، إلا أنه قد نَهى عنه رسول الله ـ ﷺ ـ خاصَّةً، قاله الضحاك، واستدلَّ بقوله: ﴿ ولا تَمْنن تَستكثِرُ ﴾، أي: لا تُعطِ العطاء تُريد أكثَرَ منه.

وقال ابن عباس: الرِّبا رِباءانِ، فرباً لا يصحُّ، يعني رِبا البيع، ورباً لا بأس به، وهو هَدِيَّةُ الرجُلِ يريد فضلَها وإضعافها. ثم تلا هذه الآية: ﴿ وما آتيتُم من رباً ليربُوا في أموال الناس فلا يربُوا عند الله ﴾[1].

وإنما الثوابُ عندَ الله في الزكاةِ، ولهذا قال: ﴿ وما آتيتُم من زكاةٍ تُريدون وَجْهَ الله فأولئك هم المُضعِفُون ﴾، أي: الذين يضاعِفُ الله لَهم الثوابَ والجزاء، كما جاء في الصحيح: «وما تَصدَّق أحد بِعَدْلِ تمرةٍ من كسْبٍ طيِّبٍ إلا أخذها الرحمنُ بيمينه، فيُربِّيها لصاحبها كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّه أو فَصيله، حتى تَصِير التمرة أعظَمَ من أُحُدٍ»[2].

وقولُه: ﴿ الله الذي خلقكُم ثم رزقكُم ﴾، أي: هو الخالقُ الرازقُ، يُخرِج الإنسانَ من بطن أُمِّه عُرياناً لا عِلْمَ له ولا سَمعٌ ولا بَصرٌ ولا قُوى، ثم يرزُقه جميعَ ذلك بعد ذلك، والرِّياشَ واللِّباسَ والمالَ والأملاكَ والمكاسِبَ، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو مُعاوِيَةَ، حدثنا الأعمشُ، عن سلام أبي شُرحبيل، عن حَبَّةَ وسَوَاءٍ ابنَي خالدٍ قالا: دَخلنا على النبي ـ ﷺ ـ وهو يُصلِحُ شيئاً فأعنَّاه، فقال: «لا تيأسا من الرِّزق ما تهزَّزت رُءوسكما؛ فإن الإنسان تلِدهُ أمُّه أحمَرَ ليس عليه قِشرةٌ، ثم يرزُقه الله ـ عز وجل ـ»[3].

وقولُه: ﴿ ثم يُميتكم ﴾، أي: بعدَ هذه الحياة، ﴿ ثم يُحييكُم ﴾، أي: يومَ القيامةِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٦/٤٩٥.
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٧٦ من سورة البقرة، وخرجته هنالك، وشرحنا غريبه.
(٣) مسند أحمد ٣/٤٦٩. وتهزَّزت: تحركت. قشرة: لباس.

وقوله: ﴿ هل مِن شُرَكائِكُم ﴾، أي: الذين تعبدُونهم من دُونِ الله، ﴿ مَن يفعلُ مِن ذلكم من شيءٍ ﴾، أي: لا يَقدِر أحدٌ منهم على فِعْلِ شيءٍ من ذلك، بل الله ـ سُبحانه وتعالى ـ هو المستقلُّ بالخلقِ والرِّزقِ، والإحياءِ والإماتةِ، ثم يَبعثُ الخلائقَ يومَ القيامة. ولهذا قال بعد هذا كلِّه: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾، أي: تَعالى وتقدَّسَ وتنزَّه وتعاظمَ وجَلَّ وعزَّ عن أن يكُونَ له شريكٌ أو نظيرٌ أو مساوٍ، أو ولَدٌ أو والدٌ، بل هو الأحدُ الفردُ الصَّمَدُ، الذي لم يَلِد ولم يُولَد، ولم يكُن له كُفُواً أحدٌ

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قال ابن عباس، وعِكْرِمةُ، والضحَّاكُ، والسدِّيُّ، وغيرُهم: المراد بالبرِّ هاهنا: الفيافي، وبالبحر الأمصارُ والقُرَى، وفي رواية عن ابن عباس وعِكْرِمَةَ: البحر: الأمصارُ والقُرَى، ما كان منها على جانبِ نهرٍ. وقال آخرون: بل المراد بالبرِّ هو البرُّ المعروف، وبالبحر: البحرُ المعروف.

وقال زيد بن رُفَيع: ﴿ ظَهَر الفسادُ ﴾ يعني: انقطاعَ المطر عن البرِّ يعقبُه القحطُ، وعن البحرِ تعمى دوابُّه. رواه ابن أبي حاتم[1].

وقال: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيدَ المُقرِيء، عن سُفيانَ، عن حُمَيد بن قيسٍ الأعرج، عن مجاهد: ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾، قال: فسادُ البرِّ: قتلُ ابنِ آدمَ، وفسادُ البحرِ: أخذُ السفينةِ غصْباً.

وقال عطاء الخُراسانِي: المراد بالبرِّ: ما فيه من المدائنِ والقُرَى، وبالبحر: جزائرُه.

والقولُ الأولُ أظهرُ، وعليه الأكثرُ، ويؤيده ما ذكره محمدُ بن إسحاق في السيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ صالَحَ مَلِكَ أيْلَةَ، وكَتب له ببحره، يعني ببلدِه[2].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كسبت أيدي الناسِ ﴾، أي: بانَ النقصُ في الثِّمار والزُّروع بسَببِ المعاصي.

وقال أبو العالية: مَن عَصَى الله في الأرض فَقَد أفسَدَ في الأرض، لأنَّ صلاحَ الأرض والسماء بالطاعة ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود[3]: «لَحَدٌّ يُقامُ في الأرضِ أحبُّ إلى أهلِها من أن يُمطَرُوا أربعين صَباحاً». والسببُ في هذا أنَّ الحدودَ إذا أُقيمت انكفَّ الناسُ ـ أو أكثرُهم، أو كثيرٌ منهم ـ عن تعاطي المُحرَّمات، وإذا تُركتِ المعاصي كان سبباً في حُصُولِ البركاتِ من السماءِ والأرضِ. ولهذا إذا نَزَل عيسى ـ عليه السلام ـ في آخرِ الزمان فَحكَم بهذه الشريعة المُطهَّرة في ذلك الوقت، من قتلِ الخنزير وكسرِ الصليب وَوَضعِ الجِزْيةِ ـ وهو تَرْكُها ـ فلا يَقبَلُ إلا الإسلامَ أو السيفَ، فإذا أهلكَ الله في زمانه الدجَّالَ وأتباعَه ويأجوجَ ومأجوجَ، قيل للأرض: أخرجي بَرَكاتك. فيأكلُ من الرُّمَّانةِ الفِئَامُ من الناس، ويستظلُّون بقِحفها، ويكفي لبنُ اللَّقحَةِ الجَماعةَ من الناس[4]. وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ـ ﷺ ـ فكلما أُقيم العدل كثرت

---

(١) ذكره كما في الدر المنثور ٦/٤٩٦ـ٤٩٧ وفيه: انقطاع المطر. قيل: فالبحر؟ قال: إذا لم يمطر عميت دوابُّ البحر.
(٢) صاحب أيلة هو يُحَنَّة بن رُؤْبَة. انظر العهد في سيرة ابن هشام ٢/٥٢٥ـ٥٢٦.
(٣) لم يخرجه أبو داود، وإنما أخرجه النسائي وابن ماجه، وتقدم تخريجه عند تفسير الآية الثانية من سورة النور.
(٤) أخرجه مسلم والإمام أحمد، انظر تفسير الآية ١٥٩ من سورة النساء، فقد تقدم الحديث وتخريجه وشرح غريبه.

البركات والخير، ولهذا ثبت في الصحيحين: «أنَّ العاجِرَ إذا ماتَ تستريحُ العبادُ والبلادُ، والشجرُ والدوابُّ»[1] ولهذا قال الإمامُ أحمدُ بن حَنبلٍ:

حدثنا مُحمَّدُ والحُسَينِ قالا: حدثنا عَوفٌ، عن أبي قَحْذَمٍ قال: وُجِد رجلٌ في زمان زياد ـ أو: ابن زيادٍ ـ صُرَّة فيها حَبٌّ ـ يعني من بُرٍّ ـ أمثال النَّوَى[2] عليه مكتوب: هذا نَبَتَ في زمانٍ كان يُعمَلُ فيه بالعدلِ[3].

ورَوَى مالك، عن زيد بن أسلَمَ: أن المرادَ بالفسادِ هاهنا الشركُ. وفيه نظرٌ.

وقولُه: ﴿ لِيُذِيقَهم بعضَ الذي عَمِلوا ﴾، أي: يَبْتَليهم بنقصِ الأموالِ والأنفسِ والثَّمرات، اختباراً منه، ومجازاةً على صَنِيعهم، ﴿ لَعلَّهم يرجِعُون ﴾، أي: عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿ وبَلوناهُم بالحَسَنات والسيِّئاتِ لَعَلَّهم يرجِعُونَ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ قل سِيرُوا في الأرضِ فانظُروا كيفَ عاقبةُ الذين من قبلُ ﴾، أي: مِن قَبْلِكُم، ﴿ كان أكثرُهم مشركين ﴾، أي: فانظُروا ماذا حَلَّ بهم من تكذيبِ الرُّسُلِ وكُفْرِ النِّعَم.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً بالمبادَرَةِ إلى الاستقامةِ في طاعتِه، والمبادَرَةِ إلى الخيراتِ: ﴿ فَأَقِم وَجْهَكَ للدِّين القَيِّم من قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا مَرَدَّ له منَ اللهِ ﴾، أي: يومَ القيامةِ، إذا أرادَ كونَه فلا رادَّ له، ﴿ يومئذٍ يَصَّدَّعون ﴾، أي: يَتفرَّقونَ، ففريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعير، ولهذا قال: ﴿ من كَفر فعليه كُفْره ومن عَمِل صالحاً فلأنفُسِهم يمهَدُون[4] * ليجزيَ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ من فَضْلِه ﴾، أي: يُجازيهم مجازةَ الفضلِ، الحسنةُ بعَشرِ أمثالِها، إلى سَبْعمائةِ ضِعْفٍ، إلى ما يشاءُ الله، ﴿ إنه لا يُحِبُّ الكافِرين ﴾. ومع هذا هو العادلُ فيهم، الذي لا يَجُورُ.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يذكر تعالى نِعَمه على خَلْقِه في إرسالِه الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ بين يَدَي رَحمَتِه، بمجيءِ المطرِ والغيثِ عَقِيبها، ولهذا قال: ﴿ وَلِيُذِيقكم من رَحمته ﴾، أي: المَطَرَ الذي ينزله فيُحيي به العبادَ والبلادَ، ﴿ وَلِتجرِيَ الفُلك بأمرِه ﴾، أي: في البحر، وإنما سَيْرُها بالريح، ﴿ وَلِتبتغوا من فضله ﴾، أي: في التجاراتِ و المعايِش، والسَّير

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الرقاق ١٢/٣٦٢، ومسلم، كتاب الجنائز ٢/٦٥٦.

(٢) في المسند: أمثال النوى.

(٣) مسند أحمد ٢/٢٩٦.

(٤) قال الطبري في تفسير هذه الآية ٢١/٥١: ويقول: فَلأنفُسِهم يستعدُّون، ويُسَوُّون المَضْجَع ليَسْلَمُوا من عقابِ ربِّهم، وينجوا من عذابه، كما قال الشاعر:

أمْهِدْ لِنَفْسِكَ حانَ السُّقْمُ والتَّلَفُ ... ولا تُضِيعَنْ نَفْساً ما لها خَلَفُ

ثم ساق نصوصاً بهذا المعنى عن مجاهد بن جبير رضي الله عنه.

من إقليم إلى إقليم، وقُطْرٍ إلى قُطْرٍ، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾، أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النِّعم الظاهرةِ والباطنة، التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

ثم قال: ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رُسُلاً إلى قومهم فجاءُوهم بالبيِّنات فانتقمنا من الذين أجرمُوا ﴾، هذه تسليةٌ من الله لعبده ورسوله محمدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بأنه وإن كَذَّبه كثيرٌ من قومه ومن الناس، فقد كُذبت الرسلُ المتقدِّمون مع ما جاءوا أُممهم به من الدلائل الواضحات، ولكن انتقم الله ممن كَذَّبهم وخالفهم، وأنجى المؤمنين بهم ﴿ وكان حَقّاً علينا نصرُ المؤمنينَ ﴾، هو حَقٌّ أوجبَه على نفسه الكريمة، تكرُّماً وتفضُّلاً. كقوله تعالى: ﴿ كَتَبَ ربُّكم على نفسِهِ الرحمةَ ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نُفَيل، حدثنا مُوسَى بن أعينَ، عن ليث، عن شَهر بن حَوْشَب، عن أم الدَّرْدَاءِ، عن أبي الدَّرْدَاء قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: ما من امرىءٍ مُسلِم يَرُدُّ عن عِرْضِ أخيه إلا كان حقاً على الله أن يَرُدَّ عنه نار جَهنَّم يوم القيامة. ثم تلا هذه الآية: ﴿ وكان حَقّاً علينا نصرُ المؤمِنِينَ ﴾[1].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

بيَّنَ تعالى كيف يَخلُق السحابَ التي[2] يَنزِلُ منها الماءُ فقال: ﴿ الله الذي يُرسِلُ الرِّياح فتُثِير سَحَاباً ﴾، إما من البحر على ما ذكره غيرُ واحدٍ، أو مما يشاءُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿ فيبسُطه في السَّماءِ كيف يشاءُ ﴾، أي: يَمُدُّه فيكثِّرهُ ويُنمِّيه، ويجعل من القليل كثيراً، يُنشىء سحابةً فتَرَى في رَأْيِ العين مثل التُّرس، ثم يَبسُطها حتى تملأ أرجاءَ الأُفق، وتارةً يأتي السحابُ من نحو البحر ثِقالاً مملوءةً ماءً، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يُرسِل الرياحَ بُشراً بين يَدَي رَحْمَتِهِ حتى إذا أقلَّتْ سَحَاباً ثِقالاً سُقناه لبلدٍ مَيِّت فأنزلنا به الماءَ فأخرجْنا به من كل الثمرات كذلك نُخرج الموتَى لعلَّكُم تذكرون ﴾، وكذلك قال هاهنا ﴿ الله الذي يُرسِل الرياح فتثير سحاباً فيبسُطه في السماءِ كيفَ يشاء ويَجعَلهُ كِسَفاً ﴾، قال مجاهد، وأبو عمرو بن العلاء، ومطر الوَرَّاق، وقتادةُ: يعني قطعاً. وقال غيره: مُتراكِماً، قاله الضحاك. وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تَرَاه مُدلَهِمّاً ثقيلاً قريباً من الأرض.

وقولُه: ﴿ فتَرى الوَدْقَ يخرُج من خِلالِه ﴾، أي: فترى المَطَر، وهو القَطْرُ، يخرج من بين ذلك السَّحاب، ﴿ فإذا أصاب به من يشاءُ من عبادِهِ إذا هم يَستَبْشِرُون ﴾، أي: لحاجتهم إليه يَفرَحُون بنزوله عليهم ووصُوله إليهم.

وقولُه: ﴿ وإن كانوا من قبلِ أن يُنَزَّل عليهم من قبلِه لَمُبلِسِينَ ﴾، معنى الكلام أن هؤلاءِ القومَ الذين

---

(١) أخرجه أيضاً الطبراني وابن مردويه، الدر المنثور ٦/٤٩٩.

(٢) في نسخة المحرم: اللتي والسحاب يذكر ويؤنث. انظر بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي ٣/١٩٥. ويقول الرضي في شرح الكافية ٢/١٦٢. «والجنس المميَّز واحده بالتاء يذكره الحجازيون، ويؤنثه غيرهم». وسحاب: واحده سحابة.

أصابهم هذا المطر كانوا قنطين أزلين[١] من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعاً عظيماً.

وقد اختلف النحاةُ في قوله: ﴿ من قبلِ أن يُنزَّل عليهم مِن قَبلِهِ ﴾، فقال ابنُ جرير: هو تأكيد. وحكاه عن بعض أهلِ العَربية[٢].

وقال آخرون: ﴿ وإن كانوا من قبل أن يُنزَّل عليهم ﴾ المطرُ، ﴿ من قَبْلِهِ ﴾، أي: الإنزالِ ﴿ لَمُبلِسينَ ﴾[٣].

ويحتمِلُ أن يكونَ ذلك من دِلالة التأسيس، ويكون معنى الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله أيضاً، أي: قد فات عندهم نزولُه وقتاً بعد وقت، فترقَّبوه في إبّانه فتأخر، فمضت مُدّةٌ فترقَّبوه فتأخر، ثم جاءهم بغتةً بعد الإياس منه والقُنوط، فبعد ما كانت أرضُهم مقشعرة هامدةً أصبحَت وقد اهتزَّت ورَبت، وأنبتت من كل زَوجٍ بَهيجٍ. ولهذا قال: ﴿ فانظُر إلى آثارِ رَحمَةِ الله ﴾، يعني المَطر، ﴿ كيف يُحيي الأرض بعد مَوْتِها ﴾.

ثم نبَّه بذلك على إحياءِ الأجسادِ بعد موتِها وتَفرُّقها وتَمزُّقها، فقال: ﴿ إنَّ ذلك لمحيي الموتَى ﴾، أي: إن الذي فَعل ذلك لقادرٌ على إحياءِ الأمواتِ، ﴿ إنَّه على كل شيء قدير ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَئِن أرسلنا ريحاً فَرَأَوه مُصفَرّاً لَظَلُّوا من بَعدِه يَكفُرون ﴾، يقول: ﴿ ولئن أرسَلنا ريحاً ﴾ يابسةً على الزَّرعِ الذي زَرَعُوه، ونبت وشَبَّ واستوى على سُوقِه، ﴿فَرَأَوه مُصْفَرّاً﴾، أي: قد اصفرَّ وشَرَع في الفساد، ﴿لَظَلُّوا من بعده﴾، أي: بعد هذا الحالِ ﴿يكفُرون﴾، أي: يَجحَدُون ما تقدَّم من النعم، كما قال: ﴿أفرأيتم ما تحرثُون * أأنتم تزرعُونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لَجَعلناه حُطاماً فظلتم تَفَكَّهُون * إنّا لَمُغرَمُون * بل نحن محرومون﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عيسى بن الطبَّاع، حدثنا هُشَيم، عن يعلَى بن عطاءٍ، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: «الرياح ثمانيةٌ، أربعة منها رحمةٌ، وأربعةٌ عذابٌ، فأما الرحمةُ فالناشراتُ والمبشِّرات والمُرسَلات والذاريات، وأما العذاب فالعَقيم والصَّرصر، وهما في البر، والعاصِفُ والقاصِفُ، وهما في البحر».

[٤][فإذا شاء سبحانه وتعالى حَرَّكه بحركة الرحمة فجعله رُخاءً ورحمة ونُشْراً[٥] بين يَدَي رحمته، ولاقحاً للسحاب يلقحه بحمل الماء، كما يلقح الذكر[٦] الأنثى بالحمل. وإن شاء حَرَّكه بحَرَكة العذاب، فجعله عقيماً، وأودعه عَذَاباً أليماً، وجَعله نقمةً على من يشاء من عباده، فيجعله صَرْصَراً وعاتياً ومفسداً لما يَمُرُّ عليه.

---

(١) الأَزْلُ: الشدَّة.

(٢) تفسير الطبري ٢١/٥٤.

(٣) لعلَّ هذا المعنى هو الذي عناه الطبري بقوله ٢١/٥٤: «وقال غيره: ليس ذلك كذلك، لأن مع (من قبل أن ينزل عليهم المطر) حرفاً ليس مع الثانية، قال: فكأنه قال: من قبل التنزيل من قبل المطر. فقد اختلفتا».

(٤ ـ ٤) عن نسخة المحرم.

(٥) كذا بالنون، وقد قرأ عاصم آية الأعراف ٥٧: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بُشْراً بين يدي رحمته﴾ بالباء مضمومة: (بُشْراً)، وقرأ ابن عامر بالنون مضمومة وإسكان الشين (نُشْراً)، وقرأ حمزة والكسائي بالفتح والإسكان (نَشْراً)، وقرأ باقي السبعة بضم النون والشين (نُشُراً) الإقناع لابن الباذش ٢/٦٤٧، ومعنى (نُشْراً) أي: ناشرة بين يَدَي السحاب الحامل للمطر.

(٦) في نسخة المحرم: «كما يلقح الذكر والأنثى».

والرياح مختلفةٌ في مَهَابِّها، صباً[1] ودَبُور، وجنوب وشمال، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريحٌ لينة رطبة تغذِّي النبات وأبدانَ الحيوان، وأخرى تجفِّفه، وأخرى تهلكه وتعطِبُه، وأخرى تشدُّه وتصلِّبه[2]، وأخرى توهِنه وتُضعِفه]».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عُبيد الله ابنُ أخي ابن وهب، حدثنا عمِّي، حدثنا عبد الله بن عيَّاش، حدثني عبد الله بنُ سُليمان، عن دَرَّاج، عن عيسى بن هلال الصدَفي، عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الريحُ مُسَخَّرةٌ من الثانية ـ يعني الأرضَ الثانية ـ فلمَّا أراد الله أن يُهلك عاداً أمر خازن الريح أن يُرسِلَ عليهم ريحاً تُهلك عاداً، فقال: يا ربِّ، أرسِلُ عليهم من الريح قَدْرَ مِنْخَرِ الثَّوْر؟ قال له الجبار تبارك وتعالى: لا، إذاً تَكْفأ الأرضَ ومن عليها، ولكن أرسِلْ عليهم بقدرِ خاتم، فهي التي قال الله في كتابه: ﴿ ما تَذَرُ من شيءٍ أتت عليه إلا جَعَلته كالرميم ﴾[3]». هذا حديثٌ غريبٌ، ورفعهُ مُنكر. والأظهر أنه من كلام عَبدِ الله بن عَمْرو، رَضِي الله عنه.

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى: كما أنَّك ليس في قُدرتك أن تُسمِعَ الأمواتَ في أجداثِها، ولا تُبلغُ كَلامَك الصُّمَّ الذين لا يَسمعُون، وهم مع ذلك مُدْبِرُون عنك، كذلك لا تَقدِرُ على هِدَاية العُميانَ عن الحقِّ، ورَدِّهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله تعالى، فإنه تعالى بقُدرَتِه يُسمِع الأمواتَ أصواتَ الأحياءِ إذا شاء، ويهدي مَن يشاء، ويُضِلُّ من يشاء، وليس ذلك لأحدٍ سواه، ولهذا قال: ﴿ إن تُسمِعُ إلَّا من يؤمن بآياتنا فهم مُسلِمُون ﴾، أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يَستَمِعُون الحق ويتبعونه، وهذا حالُ المؤمنين، والأول مَثَلُ الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ إنما يستجيبُ الذين يَسمَعُون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾.

وقد استدلَّت أمُّ المؤمنين عائشةُ ـ رَضِي الله عنها ـ بهذه الآية: ﴿ إنَّك لا تُسمِعُ الموتَى ﴾، على تَوهِيم عَبدِ الله بن عُمَر في رِوَايته مخاطبةَ النبيِّ ـ ﷺ ـ القتلى الذين أُلقوا في القَلِيب قليب بَدْرٍ، بعدَ ثلاثةِ أيَّام، ومُعَاتَبتِه إيَّاهم وتقريعِه لهم، حتى قال له عُمَر: يا رسولَ الله، ما تُخاطِب مِن قوم قد جيَّفُوا؟ فقال: «والذي نفسي بيدِه، ما أنتم بأسمَعَ لما أقولُ منهم، ولكن لا يُجيبون»[4]. وتأوَّلته عائشةُ على أنه قال: «إنهم الآن ليعلَمُون أن ما كنتُ أقولُ لهم حَقٌّ»[4].

وقال قتادةُ: أحياهُم الله له حتى سَمِعوا مقالَته تقريعاً وتَوبيخاً ونقمَةً. والصحيحُ عندَ العلماء روايةُ ابن عُمَر، لما لها من الشواهد على صِحَّتها من وُجُوهٍ كثيرةٍ، من أشهر ذلك ما رواه ابنُ عبد البرِّ مُصَحِّحاً، عن ابن

(١) الصبا: ريحٌ مهَبُّها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار. والدَّبُور: ريح تَهُبُّ من المغرب.

(٢) أي: تُقوِّيه.

(٣) الآية غير ثابتة في نسخة الحرم، ونسخة أخرى. هذا وسوف يأتي الحديث عند هذه الآية ٤٢ من سورة الذاريات بسنده ومتنه، وفيه ذكرت الآية.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، فتح الباري ٣٠١/٧، ومسلم في كتاب الجنائز ٦٤٣/٢، والنسائي، كتاب الجنائز ١١٠/٤ ـ ١١١. هذا وقد تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٤٤ من سورة الأعراف.

عباس مرفوعاً: «ما من أحدٍ يَمُرُّ بقبر أخيه المسلم، كان يَعرِفه في الدنيا، فيُسلِّم عليه، إلا رَدَّ الله عليه رُوحَه، حتى يَرُدَّ عليه السلام»(١).

(٢)[وثَبتَ عنه - ﷺ - لأمته إذا سلَّموا على أهل القُبور أن يُسلِّموا عليهم سَلامَ مَن يُخاطِبُونَه فيقولُ المُسلِّم. «السَّلامُ عليكم دارَ قوم مُؤمنين»(٣). وهذا خطابٌ لمن يسمَع ويعقِل، ولولا هذا الخطابُ لكانوا بمَنزلةِ المعدُوم والجماد(٤). والسَّلفُ مُجمِعُون على هذا. وقد تواترت الآثارُ عنهم بأن الميِّتَ يَعرِفُ بزيارة الحيِّ له ويستبشر، فَروى ابنُ أبي الدنيا في كتاب القُبُور عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله - ﷺ -: «ما من رجل يَزُور قبرَ أخِيه ويجلس عنده إلا استأنسَ به وردَّ عليه حتى يقوم». وروَى عَن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه - قال: إذا مَرَّ الرجلُ بقبر يعرفه فَسلَّم عليه رَدَّ عليه السلام.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسناده عن رجلٍ من آل عاصم الجَحْدَريّ قال: رأيت عاصماً الجحدريَّ في منامي بعد مَوته بسنتين فقلت: أليس قد مُتَّ؟ قال: بلى، قلت: فأين أنت؟ قال: أنا والله في رَوضةٍ من رِياضِ الجنة أنا ونَفَرٌ من أصحابي نجتمع كُلَّ ليلةِ جُمُعة وصُبيحتها إلى بكر بن عبد الله المُزَني فَنتلقَّى أخباركم. قال: قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات، قد بَلِيت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح(٥). قال: قلت: فهل تعلمُون بزيارتنا إيَّاكم؟ قال: نَعلَم بها عَشيَّةَ الجمعة ويومَ الجُمُعَةِ كُلَّه ويوم السبت إلى طُلُوع الشمس: قال: قلت. فكيفَ ذلك دُونَ الأيام كلِّها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعَظَمته.

قال: وحدثنا محمد بن الحسين، حدثنا بكر بن محمد، حدثنا حَسَن القَصَّاب قال: كنت أغدُو مع محمد ابن واسع في كلِّ غَدَاةِ سَبتٍ حتى نأتي أهل الجَبَّان فنقفُ على القبور فَنُسلِّم عليهم وندعُو لهم، ثم ننصرف. فقلتُ ذاتَ يوم: لو صَيَّرتَ هذا اليوم يوم الاثنين؟ قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزُوَّارهم يومَ الجُمُعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها.

قال: حدثنا محمد، حدثنا عبد العزيز بن أبان، قال: حدثنا سُفيان الثوريُّ قال: بَلَغَني عن الضَّحَّاك أنه قال: من زار قبراً يوم السبتِ قبلَ طُلُوع الشمسِ عَلِم الميتُ بزيارته، فَقِيل له: وكيفَ ذلك؟ قال: لمكان يومِ الجمعة.

حدثنا خالد بن خداش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن أبي التَّيَّاح يقول: كان مُطَرِّف يغدُو فإذا كان يومُ الجمعة أدْلَج. قال: وسَمِعتُ أبا التَّيَّاح يقولُ: بَلَغَنا أنه كان ينزِلُ بغُوطة، فأقبل ليلةً حتى إذا كان عند المقابر يقومُ وهو على فَرَسه، فرأى أهل القبور، كُلَّ صاحب قبر جالساً على قبره. فقالوا: هذا مُطَرِّفٌ يأتي الجمعة. [قال](٦): وتعلمون عندكم يومَ الجُمُعةِ؟ قالوا: نعم، ونعلم ما يقولُ فيه الطيرُ. قلت: وما يقولُون؟ قال: يقولُون: سلامٌ عليكم.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك ٢/٢١٨ بإسناده إلى أبي هريرة.

(٢) انفردت نسخة الحرم بهذا النص إلى آخر تفسير الآية.

(٣) أخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه في كتاب الجنائز بإسنادهم إلى عائشة رضي الله عنها، مسلم ٢/٦١٩، وسنن النسائي ٤/٩٣، وابن ماجه ١/٣٩٤، كما أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز ٣/٢١٩، وابن ماجه في الزهد ٢/١٤٣٩، ومالك في الموطأ كتاب الطهارة ١/٢٨ - ٢٩ من أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في نسخة الحرم: «ولولا هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد».

(٥) هذا القدر أخرجه ابن أبي الدنيا في كتابه المنامات ٥٤ - ٥٥.

(٦) زيادة يستقيم بها السياق

حدثني محمد بن الحسين، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا الفضل بن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال: لما مات أبي جزعت عليه جزعاً شديداً، فكنت آتي قبره في كل يوم، ثم قصرت عن ذلك ما شاء الله، ثم إني أتيته يوماً فبينا أنا جالس عند القبر غلبتني عيناي فنمت، فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج، وكأنه قاعد في قبره، متوشح أكفانه، عليه سحنة الموتى، قال: فكأني بكيت لما رأيته، قال: يا بني ما بطأ بك عني؟ قلت: وإنك لتعلم بمجيئي؟ قال: ما جئت مرة إلا علمتها، وقد كنت تأتيني فأسر بك ويسر من حولي بدعائك. قال: فكنت آتيه بعد ذلك كثيراً.

حدثني محمد، حدثنا يحيى بن بسطام، حدثنا عثمان بن سويد الطفاوي ـ قال: وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة ـ قال: لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت: يا ذخري وذخيرتي، ومن عليه اعتمادي في حياتي وبعد موتي، لا تخذلني عند الموت ولا توحشني. قال: فماتت، فكنت آتيها كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ذات يوم في منامي، فقلت لها: يا أمه، كيف أنت؟ قالت: أي بني، إن للموت لكربة شديدة، وإني بحمد الله لفي برزخ محمود، يفرش فيه الريحان، ونتوسد السندس والإستبرق إلى يوم النشور. فقلت لها: حاجة؟ قالت: نعم، قلت: وما هي؟ قالت: لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا، فإني لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك، يقال لي: راهبة، هذا ابنك قد أقبل. فأسر ويسر بذلك من حولي من الأموات.

حدثني محمد، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان، حدثنا بشر بن منصور قال: لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى وقف على المقابر، فقال: آنس الله وحشتكم، ورحم غربتكم، وتجاوز عن مسيئكم، وقبل حسناتكم. لا يزيد على هؤلاء الكلمات، قال: فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلي ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو. قال: فبينا أنا نائم إذا بخلق قد جاؤوني فقلت: ما أنتم؟ وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك. قلت: وما هي: قالوا: الدعوات التي كنت تدعو بها. قال: قلت: فإني أعود لذلك، قال: فما تركتها بعد.

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحي من أقاربه وإخوانه؟ قال عبد الله بن المبارك:

حدثني ثور بن يزيد، عن أبي رهم، عن أبي أيوب[1] قال: تعرض أعمال الأحياء على الموتى، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا، وإن رأوا سوءاً قالوا: اللهم راجع به.

وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الحواري قال: حدثني محمد أخي قال: دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح، وهو على فلسطين فقال: عظني. قال: بم أعظك، أصلحك الله؟ بلغني أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى فانظر ما يعرض على رسول الله ـ ﷺ ـ من عملك. فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته[2].

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني محمد بن الحسين، حدثني خالد بن عمرو الأموي، حدثنا صدقة بن سليمان الجعفري قال: كانت لي شرة[3] سمجة، فمات أبي، فتبت وندمت على ما فرطت، ثم زللت أيما زلة

(١) في نسخة الحرم: «عن إبراهيم، عن أيوب». والمثبت من المنامات لابن أبي الدنيا ٢٠ ـ ٢١، والزهد لعبد الله بن المبارك ١٤٩ ـ ١٥٠.
(٢) أي: نداها وبلها.
(٣) الشرة: الحدة، ونشاط الشباب.

فرأيتُ أبي في المنام فقال: أيْ بُنيّ، ما كان أشدَّ فرَحي بك وأعمالُك تُعرَض علَينا، فنُشَبِّهُهَا بأعمالِ الصالحين، فلما كانت هذه المرةُ استحيَيْتُ لذلك حياءً شديداً، فلا تُخزِني فيمَن حَولي من الأمواتِ. قال: فكنتُ أسمَعهُ بعدَ ذلِك يقولُ في دُعائه في السَّحر، وكان جاراً لي بالكوفة: أسألُك إنابةً لا رجعةَ فيها ولا حَوَرَ، يا مُصلِح الصالحين، ويا هادي المُضِلِّين، ويا أرحَمَ الراحمين[1].

وهذا بابٌ فيه آثار كثيرة عن الصَّحابة، وكان بعضُ الأنصار من أقارب عبد الله بن رَوَاحة يقول: اللَّهمَّ إني أعوذُ بِك من عَمَلٍ أخزَى به عندَ عبد الله بن رَوَاحَةَ، كان يقولُ ذلك بعدَ أن استُشهدَ عبدُ الله.

وقد شُرِعَ السلامُ على الموتى، والسلامُ على مَن لم يشعرُ ولا يَعْلَم بالمُسَلِّم محالٌ، وقد عَلَّمَ النبيُّ - ﷺ - أمَّته إذا رَأَوُا القُبورَ أن يقولوا: «سلامٌ عليكم أهلَ الديارِ من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحِقُون يرحَمُ الله المستقدِمينَ منَّا ومنكُم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافيَةَ»[2]. فهذا السلامُ والخطابُ والنداءُ لِمَوجُودٍ يسمَعُ ويُخاطَبُ ويَعقِل ويَرُدُّ، وإن لم يَسمَع المُسَلِّم الردَّ، والله أعلم][3].

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾

يُنَبِّه تعالى على تنَقُّل الإنسانِ في أطوار الخَلْق حَالاً بعد حالٍ، فأصلُه من تُرَابٍ، ثم من نُطفةٍ، ثم من عَلَقة، ثم من مُضغة، ثم يصير عظاماً ثم يُكْسَى لحماً، ويُنفَخ فيه الروحُ، ثم يخرُج من بطن أمِّه ضعيفاً نحيفاً واهِنَ القُوَى. ثم يَشِبّ قليلاً قليلاً حتى يكونَ صغيراً، ثم حَدَثاً، ثم مُراهِقاً، ثم شاباً. وهو القوةُ بعد الضَّعفِ، ثم يشرَعُ في النقصِ فيكهلُ، ثم يَشيخ ثم يهرَمُ، وهو الضَّعفُ بعد القُوّة. فتضعف الهِمّةُ والحركةُ والبطشُ، وتَشيب اللِّمَّةُ، وتتغيَّر الصفاتُ الظاهرة والباطنة، ولهذا قال: ﴿ ثم جَعَل من بعد قُوّة ضَعفاً وشَيبة يَخلُق ما يشاءُ ﴾، أي: يفعلُ ما يشاءُ ويتصرَّف في عَبيده بما يُريدُ، ﴿ وهو العليمُ القديرُ ﴾.

قال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، عن فُضَيل[4] ويزيدُ، حدثنا فُضيل بن مرزوق، عن عَطيَّةَ العَوفيّ: قال: قرأتُ على ابن عُمَر: ﴿ الله الذي خلقكُم من ضَعْفٍ[5] ثم جَعَل من بعد ضَعْفٍ قوة ثم جَعَل من بعد قُوّة ضَعفاً وشَيبةً ﴾، فقال ابن عمر: ﴿ الله الذي خلقكم من ضُعْفٍ[6] ثم جَعَل من بعد ضُعفٍ قُوّةً ثم جَعَل من بعد قوّةٍ ضُعفاً وشيبةً ﴾، ثم قال: قرأتُ على رسول الله - ﷺ - كما قرأتَ علَيّ، فأخَذَ علَيَّ كما أخذتُ عليك[7].

ورواه أبو داود[2] والترمذي - وحَسَّنه - من حديث فُضَيل، به. ورواه أبو داودَ من حديث عبد الله بن جابرٍ عن عَطِيَّة، عن أبي سَعيد، بنحوه[3].

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المنامات ٢٩ ـ ٣٠.
(٢) أخرجه مسلم والنسائي في كتاب الجنائز، صحيح مسلم ٢/٦٧١، والنسائي ٤/٩٣.
(٣) إلى هنا تنتهي الزيادة التي في نسخة الحرم.
(٤) في المسند: فضيل. ولعله: الفضل بن دكين، أو الفضل بن العلاء.
(٥) أي: بفتح الضاد.
(٦) أي: بضم الضاد.
(٧) مسند أحمد ٢/٥٨، وسُنن أبي داود، كتاب الحروف ٤/٣٢، وعارضة الأحوذي، أبواب القراءات ١١/٥٦ ـ ٥٧

﴿وَالْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يُخبر تعالى عن جهلِ الكُفَّار في الدنيا والآخرة، ففي الدُّنيا فعلُوا ما فعلُوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكونُ منهم جهلٌ عظيمٌ أيضاً، فمنه إقسامُهم بالله أنهم ما لَبِثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودُهُم بذلك عدمُ قيام الحُجَّة عليهم، وأنهم لم يُنظَروا حتى يُعذَر إليهم. قال الله تعالى: ﴿كذلك كانُوا يُؤفكون * وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعثِ﴾، أي: فيَرُدُّ عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حُجَّةَ الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفُون ما لبثوا غير ساعة: ﴿لقد لَبِثتم في كتابِ الله﴾، أي: في كتابِ الأعمالِ ﴿إلى يومِ البعثِ﴾، أي: من يوم خُلِقتم إلى أن بُعثتم، ﴿ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾

قال الله تعالى: ﴿فيومئذٍ﴾، أي: يومَ القيامةِ ﴿لا ينفعُ الذين ظلموا معذرتُهم﴾، أي: لا ينفعهم اعتذارهم عما فعلُوا، ﴿ولا هم يُستعتَبون﴾، أي: ولا هُم يُرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وإن يَسْتعتِبُوا فما هُم من المُعتَبِين﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿ولقد ضَرَبنا للناسِ في هذا القرآنِ من كلِّ مَثَلٍ﴾، أي: قد بيَّنا لهم الحقَّ، ووضَّحناه لهم، وضربنا لهم فيه الأمثالَ ليتبيَّنوا الحقَّ ويتَّبِعُوه. ﴿ولئن جئتَهم بآية ليقولنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مُبطِلُون﴾، أي: لو رَأوا أيَّ آيةٍ كانت، سَواءٌ كانت باقتراحِهم أو غيره، لا يُؤمنون بها، ويعتقدون أنها سحرٌ وباطل، كما قالوا في انشقاق القَمَر ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقَّت عليهم كلمة ربِّك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آية حتى يَرَوا العذاب الأليم﴾، ولهذا قال هاهنا: ﴿كذلك يَطبعُ الله على قلوب الذين لا يعلمون * فاصبِرْ إنَّ وعدَ الله حقٌّ﴾، أي: اصبر على مخالفتهم وعِنادهم، فإن الله مُنجزٌ لك ما وَعَدك من نصره إيَّاك، وجعلِه العاقبةَ لَكَ ولمن اتَّبعكَ في الدنيا والآخرة. ﴿ولا يَستخفَّنَّكَ الذين لا يُوقنون﴾، أي: بل اثبُت على ما بَعَثك[1] الله به، فإنه الحق الذي لا مِريةَ فيه، ولا تَعدِل عنه وليس فيما سواه هُدىً يُتبع، بل الحقُّ مُنحصِرٌ فيه.

قال سَعيدٌ، عن قتادَةَ: نادى رَجُلٌ من الخوارج عَلِيّاً - رضي الله عنه - وهو في الصلاة، صلاةِ الغَداة، فقال: ﴿ولقد أُوحِي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركتَ ليَحبطنَّ عملُك ولتكوننَّ من الخاسرين﴾، فأنصتَ له عَلِيٌّ حتَّى فَهِم ما قال، فأجابه وهو في الصلاة: ﴿فاصبر إنَّ وعد الله حقٌّ ولا يستخفَّنَّكَ الذين لا يُوقنون﴾.

رواه ابنُ جرير[2]، وابنُ أبي حاتم، وقد رَواه ابنُ جريرٍ من وجهٍ آخرَ فقال.

حدَّثنا ابنُ وكيع، حدثنا يحيى بن آدَمَ، عن شريك، عن عثمانَ بن أبي زُرعَةَ، عن علي بن رَبيعة قال: نادى رجل من الخوارج عَلِيّاً وهو في صلاة الفجر، فقال: ﴿ولقد أُوحِيَ إليكَ وإلى الذينَ من قبلك لئن أشركت

(١) في نسخة الحرم: وَعَدك
(٢) تفسير الطبري ٢١/٥٩.

ليحبَطَنَّ عمَلُك ولَتكونَنَّ من الخاسِرينَ ﴾، فأجابه عَلِيٌّ وهو في الصلاة: ﴿ فاصبِر إنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ولا يستخفَّنَّكَ الذين لا يُوقِنُون ﴾.

طريق أخرى، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن الجَعْد، أخبرنا شَريك، عن عِمْرانَ بن ظَبْيان، عن أبي يحْيى قال: صَلَّى علي ـ رضي الله عنه ـ صلاةَ الفجر، فناداه رجل من الخوارج: ﴿ لَئِن أشركت ليحبطَنَّ عملُك ولَتكونَنَّ من الخاسِرينَ ﴾، فأجابه علي، وهو في الصلاة: ﴿ فاصبر إنَّ وعدَ الله حَقٌّ ولا يستخفَّنَّكَ الذين لا يُوقِنُون ﴾[1].

ما رُوي في فَضْلِ هذه السُّورةِ الشريفةِ، واستحبابِ قراءتها في الفَجْر

قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا محمد بن جعفر، عن شُعبَة، عن عبد الملك بن عُمَير، سمعتُ شَبيبَ أبا رَوح يُحدِّث عن رجلٍ من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ صَلَّى بهم الصُّبحَ فقرأ فيها الرُّوم فَأَوْهَمَ، فلما انصرف قال: إنه يلبس علينا القرآن، فإن أقواماً منكم يُصَلُّون مَعَنا لا يُحسِنُون الوضوءَ، فمن شَهِد الصلاةَ معنا فَلْيُحسِن الوُضُوءَ[2].

وهذا إسناد حسن، ومتن حسن، وفيه سرٌّ عَجيب. ونَبأٌ غَريب، وهو أنه ـ ﷺ ـ تأثر بنقصان وُضُوءِ من ائتمّ به، فَدَلَّ ذلك أن صلاة المأمومِ مَعْلوقةٌ[3] بصلاةِ الإمامِ.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣٠٧/١٥ بإسناده إلى عمران بن ظبيان، وأخرجه الحاكم في مستدركه ١٤٦/٣، والبيهقي في سُنَنه، كتاب الصلاة ١٤٥/٢، بإسنادهما إلى شريك.

(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٠٨ من سورة التوبة وخرّجناه هنالك. هذا وقد ركَّبَ ابنُ كثير مَتْن الحديث المذكور في المسند ٤٧١/٣ ـ ٤٧٢ على السند المثبت هنا وهذا السند مذكور في المسند أيضاً ٤٧١/٣، ٣٦٨/٥، ومتنه مقارب لما أثبت.

(٣) في نسخة الحرم والأزهر «معلوقة» ولا معنى له. وفي نسخة «معروفة». ومعنى مَعْلُوقة بصلاة الإمام أنها محمولة عليها ومتصلة بها. والله أعلم

تفسير

سورة لقمان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

تقدَّم في أول «سورة البقرة» عامةُ الكلام على ما يتعلَّق بصدر هذه السورة، وهو أنه ـ تعالى ـ جَعَل هذا القرآن هدى وشفاءً ورحمةً للمحسنين، وهمُ الذين أحسَنُوا العملَ في اتِّباع الشريعةِ، فأقامُوا الصلاةَ المفروضةَ بحُدُودِها وأوقاتِها، وما يتبعُها من نوافلَ راتبةٍ وغيرِ راتبةٍ، وآتَوا الزكاةَ المفروضةَ عليهم إلى مُستحقِّيها، ووصلُوا قَراباتِهم وأرحامَهم، وأيقنوا بالجزاءِ في الدارِ الآخرةِ، فرَغِبُوا إلى الله في ثوابِ ذلك، لم يرائُوا به ولا أرادُوا جَزاءً من الناس ولا شُكُوراً، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿ أولئك على هُدًى من ربهم ﴾، أي: على بصيرةٍ وبيِّنةٍ ومَنهجٍ واضحٍ جَليٍّ، ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾، أي: في الدُّنيا والآخرة.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ ﴾

لما ذَكَر تعالى حالَ السُّعَداء، وهم الذينَ يَهتَدُون بكتابِ الله ويَنتفِعُون بسماعِه، كما قال تعالى: ﴿ الله نَزَّل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً مثانيَ تقشعرُّ منه جلودُ الذين يخشَون ربهم ثم تَلين جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر الله ذلك هُدَى الله يَهدي به مَن يشاءُ ومَن يُضلِلِ الله فما له من هادٍ ﴾، عطف بذكر حالِ الأشقياء الذين أعرضُوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلُوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ ومن الناس من يَشْتري لَهْوَ الحديثِ ﴾. قال: هو ـ والله ـ الغناء.

قال ابنُ جرير: حدثني يونُس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني يزيدُ بن يونُس، عن أبي صَخرٍ، عن أبي معاويةَ البَجَليِّ، عن سعيد بن جُبَير، عن أبي الصَّهباء البَكري، أنه سَمع عبد الله بن مسعود ـ

وهو يسأل عن هذه الآية: ﴿ ومن الناس من يشتري لَهو الحَديثِ لِيُضِلَّ عن سبيل الله ﴾، فقال عبد الله: الغناءُ، والله الذي لا إِلَه إلا هُو، يُردِدها ثلاث مرات[1].

حدثنا عَمرو بن علي، حدثنا صفوانُ بن عيسى، أخبرنا حُميد الخَرَّاط، عن عمَّارٍ، عن سَعيد بن جُبَير، عن أبي الصَّهباء: أنه سأل ابنَ مسعود عن قول الله: ﴿ ومِنَ الناس مَن يشتري لهو الحديثِ ﴾، قال: الغناء[2].

وكذا قال ابنَ عباس، وجابر، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، ومكحولٌ، وعَمرو بن شُعَيب، وعلي ابن بَذِيمة.

وقال الحسن البصري: أُنزلت هذه الآيةُ: ﴿ ومِنَ الناسِ مَن يشتري لَهو الحديث لِيُضِلَّ عن سبيل الله بغير علم ﴾ في الغناءِ والمزامير[3].

وقال قتادةُ: قوله: ﴿ ومِنَ الناس مَن يشتري لَهو الحديث لِيُضلَّ عن سبيلِ الله بغيرِ علم ﴾، والله لعلَّه لا يُنفِق فيه مالاً، ولكن اشتراؤه استحبابُه، بِحَسْبِ المرءِ من الضَّلالةِ أن يختارَ حديثَ الباطلِ على حديث الحق، وما يضرُّ على ما ينفعُ.

وقيل: أراد بقوله: ﴿ يَشتري لَهْوَ الحديثِ ﴾ اشتراءَ المُغنِّياتِ من الجَوَاري[4].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمَسِيُّ: حدثنا وكيع، عن خَلَّادٍ الصفَّار، عن عُبَيد الله ابن زَحْر، عن علي بن يَزيدَ، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أُمَامَة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: لا يَحلُّ بيعُ المغنيات ولا شراؤهُنَّ، وأكلُ أثمانِهنَّ حَرَامٌ، وفيهن أنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عَلَيَّ: ﴿ومِنَ الناسِ مَن يَشترِي لهو الحديث ﴾.

وهكذا رَوَاه التِّرمذيُّ وابنُ جَرير، من حديث عُبَيد الله بن زَحْرٍ، بنحوه. ثم قال الترمذيُّ: هذا حديث غريبٌ. وضَعَّفَ عليَّ بن يزيدَ المذكور[5].

قلتُ: عليٌّ، وشيخُه، والراوي عنه، كلُّهم ضعفاءُ، والله أعلم.

وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾، قال: يعني الشركَ. وبه قال عبد الرحمن بنُ زيد بن أسلَم، واختار ابن جرير أنَّه كلُّ كلامٍ يَصُدُّ عن آياتِ الله واتباعِ سبيله.

وقولُه. ﴿ لِيُضِلَّ عن سبيل الله ﴾، أي: إنما يصنَعُ هذا لِيُخَالِفَ الإسلامَ وأهلَه. وعلى قراءة فتح[6] الياء، تكون اللامُ لامَ العاقبة، أو تعليلاً للأمر القَدَرِيِّ، أي: قُيِّضوا لذلك ليكونوا كذلك.

وقولُه: ﴿ ويَتَّخِذَها هُزُواً ﴾، قال مجاهد: ويَتَّخذ سبيل الله هُزُواً، يستهزىء بها. وقال قتادةُ: يعني ويَتَّخذ آياتِ الله هُزُواً. وقولُ مجاهدٍ أولى.

---

(١) تفسير الطبري ٢١/٦١.

(٢) تفسير الطبري ٢١/٦١، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/٣٠٩، عن حاتم بن إسماعيل، عن حميد، به، كما أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/٤١١، بإسناده إلى حميد، وصححه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٦/٥٠٥.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/٦١.

(٥) أخرجه الترمذي في أبواب البيوع، عارضة الأحوذي ٥/٢٨١ ـ ٢٨٢، وتفسير الطبري ٢١/٦٠

(٦) هذه قراءة ابن كثير وأبي عمرو من السبعة، ويعقوب من العشرة، والباقون بالضم التبصرة على ٥٠٢، والمبسوط لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران ٢٩٦

وقولُه تعالى: ﴿أولئك لهم عذاب مُهين﴾، أي: كما استهانُوا بآيات الله وسبيلِه أُهينوا يومَ القيامة في العذابِ الدائِم المستمرِّ.

ثم قال تعالى: ﴿وإذا تُتلَى عليه آياتُنا وَلَّى مستكبراً كأَن لم يَسْمعها كأنَّ في أُذُنَيه وَقْراً﴾، أي: هذا المقبلُ على اللَّهو واللَّعِب والطَّرب، إذا تُليت عليه الآيات القرآنيَة وَلَّى عنها وأعرضَ وأدبرَ وتَصامَّ وما به من صَمَمٍ، كأنَّه ما يسمَعها، لأنه يتأذَّى بسماعِها، إذْ لا انتِفاعَ له بها، ولا أَرَبَ له فيها. ﴿فَبَشِّره بعذاب أليم﴾، أي: يومَ القيامةِ، مُؤلمٍ كما تألَّم بسماعِ كِتابِ الله وآياتِه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

هذا ذكرُ مآلِ الأبرار من السُّعداء في الدار الآخرة الذين آمنُوا بالله وصَدَّقُوا المُرسَلين، وعَمِلوا الأعمالَ الصالحةَ المُتابعةَ لشريعة الله، ﴿لهم جنَّاتُ النعيم﴾، أي: يَتنعَّمون فيها بأنواع الملاذِّ والمَسارِّ، من المآكلِ والمشارِب، والملابِس والمساكنِ، والمَراكِب، والنساءِ والنَّظْرة والسماعِ الذي لم يخطُر ببال أحد، وهم في ذلك مُقيمون دائماً فيها، لا يَظعَنُون ولا يبغُون عنها حِوَلاً.

وقولُه: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقّاً﴾، أي: هذا كائنٌ لا محالَةَ؛ لأنه من وَعْدِ الله، والله لا يُخلِفُ الميعادَ، لأنه الكريمُ المنَّان، الفَعَّالُ لما يشاءُ، القادِرُ على كلِّ شيءٍ ﴿وهو العَزيزُ﴾، الذي قد قَهَرَ كُلَّ شيءٍ، ودَانَ له كلُّ شيء، ﴿الحكيمُ﴾ في أقواله وأفعالِه، الذي جعَلَ القرآنَ هُدىً للمؤمنين، ﴿قل هو للذينَ آمنُوا هُدىً وشِفَاءٌ والذين لا يُؤمِنُون في آذانِهم وَقْرٌ وهو عليهم عَمىً﴾، ﴿ونُنَزِّلُ من القرآنِ ما هُو شِفَاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يَزيدُ الظالمين إلا خَساراً﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ الظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

يُبيِّن سبحانه بهذا قدرتَه العظيمةَ على خَلْقِ السمواتِ والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال: ﴿خلَقَ السمواتِ بغير عَمَدٍ﴾، قال الحسن وقتادة: ليس لها عَمَدٌ مرئيَّة ولا غيرُ مَرْئيَّة.

وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد: لها عَمَدٌ لا تَرَونَها. وقد تقدَّم هذه المسألة في أول سورةِ الرَّعد، بما أغنى عن إعادته[1].

﴿وألقى في الأرض رواسيَ﴾، يعني: الجبالَ أَرْسَتِ الأرضَ وثَقَّلتها لئلا تَضطَرِب بأهلها على وَجْهِ الماءِ، ولهذا قال: ﴿أن تَميد بكم﴾، أي: لئلَّا تَميد بكم.

وقولُه: ﴿وَبَثَّ فيها من كلِّ دابَّةٍ﴾، أي: وذرأ فيها من أصنافِ الحيوانات مما لا يعلم عددَ أشكالها وألوانها إلا الذي خَلَقَها.

---

(١) انظر تفسير الآية الثانية من سورة الرعد

ولما قرّر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى: ﴿ وأنزلنا مِنَ السَّماءِ ماءً فأنبتنا من كلِّ زَوجٍ كريم ﴾، أي: من كل زَوْجٍ من النباتِ كريمٍ، أي: حَسَنِ المَنْظَرِ.

وقال الشعبيُّ: والناس أيضاً من نَبَاتِ الأرض، فَمَن دخل الجنةَ فهو كريمٌ، ومن دَخَل النار فهو لَئِيمٌ.

وقولُه: ﴿ هذا خلقُ الله ﴾، أي: هذا الذي ذَكَره تعالى من خَلْقِ السمواتِ والأرض وما بينهما، صادرٌ عن فعل الله وخَلْقِه وتقديره، وحدَه لا شريكَ له في ذلك، ولهذا قال: ﴿ فَأَرُوني ماذا خَلَقَ الذين من دُونِه ﴾، أي: مما تَعبدُون وتَدْعُون من الأصنام والأندادِ، ﴿ بل الظالمون ﴾، يعني المشركين بالله العابدينَ معه غيرَه، ﴿ في ضلالٍ ﴾، أي: جَهل وعَمىً، ﴿ مُبين ﴾، أي: واضح ظاهر لا خَفَاء به.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

اختلف السلفُ في لُقمانَ ـ عليه السلام ـ هل كان نبياً، أو عبداً صالحاً من غير نُبُوَّة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني.

وقال سفيان الثوري، عن الأشعثِ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: كان لقمانُ عبداً حَبَشياً نَجّاراً.

وقال قتادة، عن عبد الله بن الزُّبير قلتُ لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لُقمانَ؟ قال: كان قصيراً أفطسَ من النُّوبَةِ[1].

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيِّب قال: كان لقمانُ من سُودَانِ مصر، ذا مَشافِرٍ، أعطاه الله الحكمةَ ومَنَعه النُّبوَّةَ[2].

وقال الأوزاعيُّ رحمه الله: حدَّثني عبد الرحمن بن حَرْمَلة قال: جاء أسودُ إلى سعيد بن المسيِّب يسأله، فقال له سعيد بن المسيِّب: لا تحزن من أجل أنَّك أسودُ، فإنه كانَ من أخير الناس ثلاثةٌ من السودان: بِلالٌ، ومِهْجَع مولى عمر بن الخطاب، ولُقمانُ الحَكيم، كان أسود نُوبيًّا ذا مشافر[3].

وقال ابن جرير: حدثنا ابنُ وكيع، حدثنا أبي، عن أبي الأشْهَب، عن خالد الرَّبعيِّ قال: كان لقمانُ عبداً حَبَشيّاً نجاراً، فقال له مولاه: اذبَحْ لنا هذه الشاةَ. فذبحها، قال: أَخرِجْ أطيبَ مُضغَتَين فيها، فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاء الله، ثم قال: اذبح لنا هذه الشاةَ. فَذَبحها، فقال: أخرج أخبثَ مُضغَتَين فيها. فأخرج اللسانَ والقلبَ. فقال له مولاه: أمرتُك أن تخرج أطيبَ مُضغَتَين فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبثَ مُضغَتَين فأخرجتَهُما. فقال لقمانُ: إنه ليس من شيءٍ أطيبَ منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا[4].

وقال شعبةُ، عن الحَكَم، عن مجاهدٍ: كان لقمانُ عبداً صالحاً، ولم يَكُن نبيّاً.

وقال الأعمشُ: قال مجاهدٌ: كان لقمان عبداً أسودَ عظيمَ الشَّفتين، مُشَقَّقَ القَدَمين.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، الدرّ المنثور ٦/٥٠٩.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/٦٧، وابن المنذر وابن أبي حاتم، الدر المنثور ٦/٥٠٩.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/٦٧.

(٤) تفسير الطبري ٢١/٦٧ ـ ٦٨ وأخرجه ابن أبي شيبة وأحمد، الدر المنثور ٦/٥١٩. وخالد الرَّبَعي هو: خالد بن باب الأحدب، بصري روى عن شهر بن حوشب وابن أخيه صعوان بن محرز، ترجم له ابن حاتم في الجرح ٣/٣٢٢ وقال: ترك أبو زرعة حديث خالد بن باب الربعي، ولم يقرأ علينا حديثه.

وقال حَكَّام بن سَلْم، عن سَعِيد الزُّبيدي، عن مجاهد: كان لقمانُ الحَكِيم عبداً حَبَشِيًّا غليظَ الشفتين، مُصَفَّح[1] القَدَمين، قاضياً على بني إسرائيل.

وذكر غيرُه أنَّه كانَ قاضياً على بني إسرائيل في زَمَن داودَ عليه السلام.

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثنا ابنُ حُمَيد، حدثنا الحَكَم، حدثنا عَمرو بن قيس قال: كان لقمانُ ـ عليه السلامُ ـ عبداً أسودَ غليظَ الشَّفَتَين، مُصَفَّح القَدَمين، فأتاه رجلٌ وهو في مَجلِسِ أُناسٍ يُحَدِّثهم، فقال له: ألستَ الذي كنتَ ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا؟ قال: نَعَم. فقال: فما بَلَغ بكَ ما أَرَى؟ قال: صِدْقُ الحديث، والصَّمْتُ عمَّا لا يعنيني[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعةَ، حدثنا صفوانُ، حدثنا الوَليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيدَ، عن جابر قال: إن الله رَفَع لقمانَ الحكيم بحكمته، فرآه رجلٌ كان يعرفه قبل ذلك، فقال: ألستَ عبدَ بني فلانٍ الذي كنتَ تَرعَى بالأمس؟ قال: بلى. قال: فما بَلَغ بك ما أرَى؟ قال: قَدَرُ الله، وأداءُ الأمانة، وصِدْقُ الحديثِ، وتَرْكِي ما لا يَعنيني.

فهذه الآثارُ منها ما هو مُصرِّح فيه بنفي كَونِه نبياً، ومنها ما هو مُشعِرٌ بذلك، لأن كونه عبداً قد مَسَّه الرقُّ ينافي كونَه نبياً، لأن الرسُلَ كانت تُبعَث في أحساب قومها. ولهذا كان جمهورُ السَّلَف على أنه لم يكن نبياً، وإنما يُنقَل كونُه نَبياً عن عكرمة ـ إن صح السند إليه ـ فإنه رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث وكيع، عن إسرائيل، عن جابر، عن عكرِمَةَ قال: كان لقمان نبياً[1]. وجابر هذا هو ابن يزيدَ الجُعفي، وهو ضعيف، والله أعلم.

وقال عبدُ الله بن وَهب: أخبرني عبد الله بن عَيَّاش القِتْباني، عن عُمَر مولى غُفْرَةَ قال: وَقَف رجلٌ على لُقمان الحكيم فقال: أنتَ لُقمانُ، أنت عبدُ بني الحَسْحَاس؟ قال: نعم. قال: أنت راعي الغَنَم؟ قال: نعم. قال: أنت الأسودُ؟ قال: أما سَوَادي فظاهرٌ، فما الذي يُعجِبك من أمري. قال: وَطْءُ الناسِ بِساطَك، وغَشْيُهم بابَكَ، ورضاهم بقولك. قال: يا ابن أخي، إن صَغَيتَ إلى ما أقولُ لك كنتَ كذلك. قال لقمان: غَضِّي بَصَري، وكَفِّي لساني، وعِفَّةُ طُعمَتي، وحِفظِي فرجي، وقَومي[3] بصدقي، ووفائي بِعَهدي، وتَكرِمتي ضيفي، وحِفْظِي جاري، وتَرْكِي ما لا يَعنيني، فذاك الذي صَيَّرني كما ترى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نُفَيل، حدثنا عَمرو بن واقد، عن عُقْبَةَ بن زِبَاح، عن رَبيعة، عن أبي الدَّرداءِ ـ رضي الله عنه ـ أنه قال يوماً ـ وذُكِرَ لقمانُ الحكيمُ ـ فقال: ما أُوتيَ ما أُوتيَ عن أهلٍ ولا مالٍ، ولا حَسَبٍ ولا خِصَالٍ، ولكنه كان رَجُلاً صَمْصَامةً[4] سِكِّيتاً، طويلَ التفكر، عَميقَ النَّظَر، لم يَنَم نهاراً قَطُّ، ولم يَرَه أحدٌ قطُّ يبزُق ولا يتنخَّع[5]، ولا يَبُولُ ولاَ يَتغوَّطُ، ولاَ يغتسِلُ، ولا يعبَثُ ولا يضحَكُ. وكان لا يُعيد منطقاً نَطَقه إلا أن يَقُولَ حكمةً يَستعيدُها إيَّاه أحدٌ، وكان قد تَزَوَّج ووُلِد له أولادٌ، فماتوا فلم يَبْكِ عليهم. وكان يَغْشَى السُّلطان، ويأتي الحُكَّام، لينظر ويَتفكَّرَ ويَعتَبِر، فبذلك أُوتيَ ما أُوتيَ[6].

---

(١) أي: عريض القدمين.

(٢) تفسير الطبري ٢١/٦٨.

(٣) في نسخة الحرم: «وقوامي». يقال: وقام يقوم قَوماً، وقياماً، وقامةً.

(٤) الصَّمْصَام والصَّمْصَامَةُ: المُصَمِّم الماضي في الأمر بعزيمة نافذ. وسِكِّيتاً: كثير السكوت.

(٥) تنخع: رمى نُخاعته، وهي: ما يخرجه الإنسان من حلقه من البلغم.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٦/٥١٧.

وقد ورد أثرٌ غريبٌ عن قتادةَ رواه ابنُ أبي حاتم. فقال:

حَدَّثنا أبي، حدثنا العباسُ بن الوَليد، حدثنا زيد بن يحيى بن عُبَيد الخزاعي، حدثنا سعيد بن بَشِير، عن قتادةَ قال: خَيَّرَ اللهُ لقمانَ الحكيم بين النبوّةِ والحكمةِ، فاختارَ الحكمةَ على النبوّة. قال: فأتاه جبريلُ وهو نائم فذَرَّ عليه الحِكْمَةَ ـ أو: رَشَّ عليه الحكمةَ ـ قال: فأصبحَ ينطِقُ بها.

قال سَعيدٌ: فَسَمِعتُ عن قتادة يقولُ: قِيلَ لِلُقمان: كيف اختَرت الحكمةَ على النبوّةِ وقد خَيَّرَك ربُّك؟ فقال: إنه لو أرسَلَ إلي بالنبوّة عزْمَةً(١) لرجوتُ فيه الفوزَ منه، ولكنت أرجو أن أقومَ بها، ولكنه خَيَّرَني فخِفتُ أن أضعُفَ عن النبوّة، فكانت الحكمة أحَبَّ إلي.

فهذا من رِوَاية سعيد بن بشير، وفيه ضَعفٌ قد تكَلَّمُوا فيه بسببه، فالله أعلم.

والذي رواه سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادَةَ، في قوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾، أي: الفقه في الإسلام، ولم يكن نبياً، ولم يوح إليه.

وقولُه: ﴿ ولقد آتينا لقمانَ الحكمة ﴾، أي: الفهم والعلم والتَّعبير، ﴿ أن اشكر لله ﴾، أي: أمرناه أن يَشكُرَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على ما آتاه الله ومَنَحه ووَهَبه من الفضل الذي خَصَّصَه به عمن سِوَاه من أبناء جِنْسِه وأهل زمانه.

ثم قال تعالى: ﴿ ومن يشكُر فإنما يشكُر لنفسه ﴾، أي: إنما يعودُ نفعُ ذلك وثوابُه على الشاكرين، لقوله تعالى: ﴿ ومن عَمِل صالحاً فلأنفسهم يمهدُون ﴾.

وقولُه: ﴿ وَمَن كَفَر فإن الله غنيٌّ حَميدٌ ﴾، أي: غَنِيٌّ عن العبادِ، لا يتضرّرُ بذلك ولو كَفَر أهلُ الأرضِ كُلّهم جميعاً، فإنه الغنيُّ عما سواه، فلا إلَه إلا الله، ولا نعبدُ إلا إيَّاه.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبِراً عن وَصِيَّةِ لقمان لولده ـ وهو: لقمانُ بن عنقاء بن سَدُون. واسمُ ابنه ثارانُ في قول حكاه السهيلي. وقد ذكره تعالى بأحسن الذِّكر، وأنَّه آتاه الحكمة. وهو يُوصِي ولده الذي هو أشفَقُ الناس عليه وأحبُّهم إليه، فهو حقيقٌ أن يمنَحه أفضلَ ما يعرف، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبدَ الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ثم قال مُحَذِّراً له: ﴿ إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ ﴾، أي: هو أعظمُ الظلم.

قال البخاريُّ: حَدَّثنا قُتَيبةُ، حَدَّثنا جَريرٌ، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَةَ، عن عبدِ الله ـ رضي الله عنه ـ قال: لمّا نَزَلَت: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظُلم ﴾، شَقَّ ذلك على أصحابِ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ وقالوا: أيُّنا لم يَلْبِس إيمانَه بظُلم؟! فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إنَّه ليس بذاكَ، ألا تسمَعُ إلى قولِ

(١) أي: فرضاً وإيجاباً.

لقمان: ﴿ يا بنيَّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ورواه مسلم من حديث الأعمش، به[١]

ثم قَرَنَ بوصيته إيَّاه بعبادة الله وحده البرَّ بالوالدين، كما قال تعالى: ﴿ وقضى ربك ألَّا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾. وكثيراً ما يقرنُ تعالى بين ذلك في القرآن، وقال هاهنا: ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أُمُّه وهناً عَلَى وهنٍ ﴾، قال مجاهد: مَشَقَّةَ وَهْنِ الولد. وقال قتادة: جهداً على جَهدٍ. وقال عطاء الخراساني: ضعفاً على ضعف.

وقولُه: ﴿ وفِصَالُه في عَامَين ﴾، أي: تربيتُه وإرضاعُه بعد وَضْعِه في عامين، كما قال تعالى: ﴿ والوالدات يُرضِعْنَ أولادهن حَوْلين كامِلَين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ ومن هاهنا استنبط ابنُ عباس وغيره من الأئمة أن أقلَّ مدة الحمل ستَّةُ أشهر، لأنه قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وحملُه وفصالُه ثلاثون شهراً ﴾.

وإنما يذكر تعالى تربيةَ الوالدة وتَعَبَها ومَشَقَّتَها في سَهَرِها ليلاً ونهار، ليُذَكِّر الوَلَد بإحسانها المتقدِّم إليه، كما قال تعالى: ﴿ وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيراً ﴾. ولهذا قال: ﴿ أن اشكُر لي ولوالديك إليَّ المصيرُ ﴾، أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا عبد الله بن أبي شيبةَ، ومحمودُ بن غيلان قالا: حدثنا عُبَيد الله، أخبرنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاق، عن سَعِيد بن وَهبٍ قال: قَدِم علينا معاذُ بن جَبَلٍ، وكان بعثه النبيُّ ـ ﷺ ـ فقام فَحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال: إني رسولُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ إليكم: أن تعبدُوا الله ولا تُشركوا به شيئاً، وأن تُطِيعوني لا آلوكُم[٢] خيراً، وإن المصيرَ إلى الله، وإلى الجنةِ أو إلى النارِ، إقامةٌ فلا ظَعْنٍ، وخلودٌ فلا موتَ.

وقولُه: ﴿ وإن جاهداك على أن تُشركَ بي ما ليسَ لك به علمٌ فلا تُطِعهما ﴾، أي: وإن حَرَصا عليك كُلَّ الحرص على أن تُتابِعهما على دينهما فلا تَقْبَل منهما ذلك، ولا يَمْنَعنَّك ذلك من أن تُصاحِبَهما في الدنيا معروفاً، أي: مُحسناً إليهما، ﴿ واتَّبِع سبيلَ من أنابَ إليَّ ﴾، يَعني المؤمنينَ، ﴿ ثم إليَّ مَرجِعُكم فأنبئكم بما كنتم تعمَلُون ﴾.

قال الطبراني في كتاب العشرة: حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمدَ بن حَنبلٍ، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد، حدثنا مسلمة بن علقمة، عن داودَ بن أبي هِندٍ: أن سعدَ بن مالك قال: أُنزِلَت فيَّ هذه الآية: ﴿ وإن جاهداكَ على أن تُشرك بي ما ليس لك به علْمٌ فلا تُطعهما ﴾... الآية، وقال: كنتُ رجلاً بَرًّا بأُمِّي، فلما أسلمتُ قالت: يا سعدُ، ما هذا الذي أراكَ قد أحدَثت؟ لَتَدعَنَّ دينَك هذا أو لا آكلُ ولا أشرَبُ حتى أموتَ، فَتُعَيَّر بي، فَيُقال: يا قاتلَ أُمِّه. فقلت: لا تفعلي يا أُمَّه، فإني لا أدَعُ ديني هذا لشيءٍ. فَمَكَثَتْ يوماً وليلةً لم تأكُل فأصبَحت قد جَهِدت، فَمَكَثَتْ يوماً وليلة أخرى لا تأكُل، فأصبَحت قد اشتدَّ جَهدُها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أُمَّه، تعلَمين والله لو كانت لك مائةُ نفسٍ فَخَرَجت نَفَساً نَفَساً ما تَرَكتُ ديني هذا لشيءٍ، فإن شئتِ فَكُلِي، وإن شِئتِ لا تأكُلي. فأكَلَتْ[٣].

(١) فتح الباري، تفسير سورة لقمان ٥١٣/٨، ومسلم، كتاب الإيمان ١١٤/١ ـ ١١٥. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٨٢ من سورة الأنعام.

(٢) أي: لا أقصِّر في إبلاغ الخير إليكم.

(٣) أخرجه أيضاً أبو يعلى، وابن مردويه، وابن عساكر. الدرّ المنثور ٥٢١/٦. وانظر الحديث في أسد الغابة ٣٦٨/٢.

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

هذه وصايا نافعةٌ قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم، ليمتثلَها الناسُ ويقتدُوا بها، فقال: ﴿ يا بنيَّ إنها إن تكُ مثقالَ حبَّةٍ من خردَلٍ ﴾، أي: إن المظلمةَ أو الخطيئةَ لو كانت مِثقالَ حبَّةِ خردلٍ. وجوَّز بعضهم أن يكون الضمير في قوله: ﴿ إنها ﴾ ضمير الشأن والقصَّة، وجوَّز على هذا رفعَ ﴿ مثقالُ ﴾ والأوَّل أولى[١].

وقوله: ﴿ يأتِ بها الله ﴾، أي: أحضرها الله يومَ القيامةِ حين يضعُ الموازين القسط، وجازَى عليها إن خيراً فخيرٌ، إن شراً فشرٌ. كما قال تعالى: ﴿ ونضعُ الموازين القِسْطَ ليوم القيامةِ فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً وإن كان مثقالَ حبَّةٍ من خردَلٍ أتينا بها وكفَى بنا حاسِبين ﴾. وقال تعالى: ﴿ فمن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يرَه * ومن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ شراً يرَه ﴾. ولو كانت تلك الذرَّة مُحصَّنةً مُحجَّبةً في داخل صخرةٍ صمَّاء، أو غائبةً ذاهبةً في أرجاء السمواتِ والأرض، فإن الله يأتي بها، لأنه لا تخفَى عليه خافيةٌ، ولا يعزُب عنه مثقالُ ذرَّةٍ في السمواتِ ولا في الأرض، ولهذا قال: ﴿ إن الله لطيفٌ خبيرٌ ﴾، أي: لطيفُ العلم، فلا تخفَى عليه الأشياءُ وإن دقَّت ولَطُفت وتضاءلت، ﴿ خبيرٌ ﴾ بدَبيب النمل في الليل البَهيم.

وقد زَعَم بعضُهم أن المراد بقوله: ﴿ فتكن في صَخْرَةٍ ﴾، أنها صخرة تحتَ الأرضين السبع، ذكره السُّدِّيُّ بإسناده ذاك المطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعةٍ من الصحابة إن صحَّ ذلك، ويُرْوَى هذا عن عطية العوفي، وأبي مالكٍ، والثوريِّ، والمنهال بن عمرو، وغيرهم. وهذا ـ والله أعلم ـ كأنه مُتلقًّى من الإسرائيليَّات التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المرادَ أن هذه الحبَّةَ في حَقَارتها لو كانت داخِلَ صَخْرَةٍ فإن الله سيُبْدِيها ويُظهِرُها بلطيف عِلْمِه، كما قال الإمام أحمدُ:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعةَ، حدثنا دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صَمَّاء، ليس لها بابٌ ولا كُوَّة، لَخرج عملُه للناس كائناً ما كان»[٢].

ثم قال: ﴿يا بنيَّ أقِم الصلاة﴾، أي: بحدُودِها وفروضِها وأوقاتها، ﴿ وأمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكَر ﴾، أي: بحسب طاقتك وجهدك، ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾. عَلِم أن الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر لا بُدَّ أن ينالَه من الناس أذىً، فأمَره بالصَّبر.

وقولُه: ﴿ إنَّ ذلِكَ من عَزْمِ الأُمورِ ﴾، أي: إنَّ الصبر على أذى الناسِ لَمِن عَزْمِ الأُمُور.

وقولُه: ﴿ ولا تُصعِّر خدَّك للناسِ ﴾، يقول: لا تُعرِضْ بوَجْهك عن الناس إذا كلَّمْتَهم أو كلَّمُوك، احتقاراً منه لهم، واستكباراً عليهم. ولكن ألِن جانبك، وابسُط وجهَكَ إليهم، كما جاء في الحديث: «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبالَ الإزارِ فإنها من المَخيلة، والمَخِيلة لا يُحبُّها الله»[٣].

(١) ذكر الطبري الإعراب كما نقله ابن كثير، واختار أن يكون الضمير للشأن والقصة. تفسير الطبري ٢١/٧١-٧٢.

(٢) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ١٠٥ من سورة التوبة، وخرجناه هنالك.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس ٤/٥٦

قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا تُصعِّر خدَّك للناس﴾، يقول: لا تتكبر فتحتقر عبادَ الله وتُعرض عنهم بوجهك إذا كلَّموك. وكذا روى العَوفيّ وعكرمةُ، عنه.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ولا تُصعِّر خدك للناس﴾، لا تَكلَّم وأنت مُعرض. وكذا رُوِيَ عن مُجاهد، وعِكْرِمَة، ويزيد بن الأصمّ، وأبي الجوزاء، وسعيد بن جُبَير، والضحَّاك، وابن زَيد، وغيرهم. وقال إبراهيم النَّخعيُّ: يعني بذلك التشديقَ في الكلام. والصوابُ القول الأول.

قال ابن جرير: وأصل الصَّعَر داءٌ يأخذُ الإبلَ في أعناقها أو رُءوسها حتى تُلفتَ أعناقُها عن رُءوسها، فشُبِّه به الرجلُ المتكبِّر، ومنه قول عمرو بن حُنَيٍّ التَّغْلَبيِّ[1]:

إذا الجبَّارُ صَعَّر خَدَّهُ   أقَمْنا لَهُ مِنْ مَيْلِه فتقوَّما

وقال أبو طالب في شِعرِه[2]:

وَكُنَّا قَديماً لا نُقِرُّ ظُلامَةً   إذا ما ثَنَوا صُعْرَ الرُّءوسِ نُقيمها

وقولُه: ﴿ولا تمشِ في الأرض مَرَحاً﴾، أي: جَذِلاً مُتكبِّراً جَبَّاراً عَنيداً، لا تفعل ذلك يُبغضْكَ الله، ولهذا قال: ﴿إن الله لا يُحبُّ كل مختالٍ فَخُور﴾، أي: مُختال مُعْجَب في نفسه، فخور أي: على غيره، وقد قال تعالى: ﴿ولا تَمشِ في الأرض مَرَحاً إنَّك لن تَخرِق الأرض ولن تَبلُغ الجِبالَ طُولاً﴾، وقد تقدم الكلامُ على ذلك في موضعه[3].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرميُّ، حدثنا محمد بن عِمران بن أبي ليلى، حدثنا أبي، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن ثابت بن قيس بن شَمَّاس قال: ذُكِرَ الكِبرُ عند رسول الله ـ ﷺ ـ فَشَدَّد فيه، فقال: ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾. فقال رجل من القوم: والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها، ويُعجبني شِراكُ نَعْلي، وعِلاقَةُ سَوْطي، فقال: ليس ذلك الكِبرَ، إنما الكِبرُ أن تَسْفَه الحقَّ وتَغمِصَ الناسَ[4].

ورَوَاه من طريق أخرى بمثله[4]، وفيه قِصَّةٌ طويلةٌ، ومقتَلُ ثابتٍ ووصيَّتُه بعد موته.

وقولُه: ﴿واقصِد في مَشْيِكَ﴾، أي: امشِ مَشْياً مُقتصِداً ليس بالبطيءِ المُتَثَبِّط[5] ولا بالسريع المُفرِط، بل عَدْلاً وَسَطاً بينَ بينَ.

وقولُه: ﴿واغضُض من صَوتِكَ﴾، أي: لا تُبالِغْ في الكَلام، لا تَرْفَع صوتَكَ فيما لا فائدةَ فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿إن أنكر الأصواتِ لصوتُ الحَمير﴾، قال مجاهدٌ وغيرُ واحد: إن أقبح الأصوات لصوتُ الحَمير. أي: غاية مَنْ رفع صوته أنه يُشبَّه بالحَمير في عُلُوِّه ورفعِه، ومَعَ هذا هو بغيضٌ إلى الله تعالى. وهذا التشبيهُ في هذا بالحَمير يقتضي تحريمه وذمَّه غايةَ الذم، لأن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائدُ في هِبَته كالكلب يَقيء ثم يعودُ في قَيْئِه»[6].

---

(١) ينسب البيت إلى المتلمس، انظر اللسان: صعر، وديوان المتلمس ٢٤.

(٢) البيت في سيرة ابن هشام ١/٢٦٨.

(٣) انظر تفسير الآية ٣٧ من سورة الإسراء.

(٤) المعجم الكبير ٢/٦٩. وأما الطريق الأخرى فهي ٢/٧٠ ـ ٧١ وغمصه يَغْمِصُه غَمْصاً: حقره، واستصغره، ولم يره شيئاً.

(٥) تثبط: تريث.

(٦) أخرجه الشيخان، وقد تقدم عند تفسير الآية ١٧٧ من سورة الأعراف، وخرجته هناك.

وقال النسائي عند تفسير هذه الآية: حدثنا قُتَيبة بنُ سعيد، حدثنا الليث، عن جَعْفَر بن ربيعة، عن الأعْرَج، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: إذا سَمِعتُم صياح الدِّيَكَةِ فاسألوا الله من فَضْلِهِ، وإذا سَمِعتم نهيق الحَمير فتعوَّذوا بالله من الشيطان الرجيم، فإنّها رأت شيطاناً[1].

وقد أخرجه بقية الجماعة[1] سوى ابن ماجه، من طرق، عن جعفر بن ربيعة، به. وفي بعض الألفاظ: «بالليل»، فالله أعلم.

فهذه وصايا نافعة جداً، وهي من قَصَص القرآن العظيم عن لُقمانَ الحكيم. وقد رُوِيَ عنه من الحكم والمواعظ أشياءُ كثيرةٌ، فلْنَذكر منها أنموذَجاً ودُستوراً إلى ذلك، قال الإمام أحمد:

حدثنا عَلِيُّ بن إسحاق، أخبرنا ابنُ المبارك، أخبرنا سُفيانُ، أخبرني نَهْشَلُ بن مُجَمِّع الضَّبِّي، عن قَزَعَة، عن ابن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أخبرنا رسول الله ـ ﷺ ـ أنّ لُقمانَ الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودِعَ شيئاً حَفِظه[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا عيسى بن يونس، عن الأوزاعيِّ، عن مُوسَى بن سليمان، عن القاسم بن مُخيمِرةٍ أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قال لُقمانُ لابنه وهو يَعِظه: «يا بنيَّ، إياك والتقنّعَ فإنه مَخُوفَةٌ بالليل مَذَمَّةٌ بالنهار»[3].

وقال: حدثنا أبي، حدثنا عَمْرو بن عثمان، حدثنا ضَمْرَةُ، حدثنا السَّرِيّ بنُ يحيى قال قال لقمانُ لابنه: يا بنيَّ، إنّ الحِكْمَةَ أجلَسَتِ المساكينَ مجالسَ المُلُوكِ.

وقال: حدثنا أبي، حدثنا عَبدَةُ بن سليمان، أخبرنا ابن المبارك، حدثنا عبد الرحمن المسعُودي، عن عَونِ بن عبد الله قال: قال لقمانُ لابنه: يا بني، إذا أتيْتَ نادِيَ قوم فارمهم بسَهم الإسلام ـ يعني السَّلامَ ـ ثم اجلِس في ناحِيَتِهم، فلا تنطق حتى تَراهُم قد نطَقُوا، فإن أفاضُوا في ذِكْرِ الله فأَجِلْ[4] سَهْمَكَ معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحوَّل عنهم إلى غيرهم.

وحدثنا أبي، حدثنا عَمْرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا ضَمرةُ، عن حفص بن عُمَر ـ رضي الله عنه ـ قال: وَضَع لقمانُ جراباً من خَرْدَلٍ إلى جانبه، وجَعَل يعظ ابنه وعظةً ويخرجُ خَرْدَلَةً، حتى نَفِدَ الخردلُ، فقال: يا بني، لقد وعظْتُكَ موعِظةً لو وُعِظَها جبل تَفَطَّر. قال: فتفطَّرَ ابنُه.

وقال أبو القاسم الطبراني. حدثنا يحيى بن عبد الباقي المَصِّيصيُّ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحرّاني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائِفِيُّ، حدثنا أَيْمَن بن سفيان المَقدِسيُّ، عن خَلِيفَةَ بن سَلَّام، عن عطاء بن أبي رَبَاح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ. اتخِذُوا السودان، فإنّ ثلاثةً منهم سادات أهل الجنّة: لقمانُ الحكيم، والنجاشيّ، وبلالٌ المؤذن».

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، وفي اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف ١٠/١٥٥، والبخاري في كتاب بدء الخلق، فتح الباري ٦/٣٥٠، ومسلم في كتاب الذكر ٤/٢٠٩٢، وأبو داود في كتاب الأدب ٤/٣٢٧، والترمذي في الدعوات، عارضة الأحوذي ١٣/١٣.

(٢) مسند أحمد ٢/٨٧.

(٣) أخرجه الحاكم في تفسير سورة لقمان ٢/٤١١ بإسناده إلى الأوزاعي، عن موسى، عن القاسم، عن أبي موسى الأشعري. والتقنّع: التغشي بثوب.

(٤) أي: شاركهم في الذكر، وأجال السهم بين القوم: حرّكها وأفضى بها في القسمة

قال أبو القاسم الطَّبرانيُّ: أراد الحَبَش[1].

فصل في الخمول والتواضع

وذلك مُتعلِّق بوصيَّةِ لُقمانَ ـ عليه السلام ـ لابنه، وقد جَمَع في ذلك الحافظُ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً مفرداً، ونحن نذكر منه مقاصده، قال:

حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا عبد الله بن موسى المدني، عن أسامة بن زيد، عن حَفْص بن عُبيد الله ابن أنس، عن جده أنس بن مالك: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: رُبَّ أشعثَ ذي طِمْرينِ يُصْفَحُ[2] عن أبواب الناس، لو أقسَمَ على الله لأبرَّه[3].

ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان، عن ثابت وعلي بن زيد، عن أنس، عن النبي ـ ﷺ ـ فذكره، وزاد: منهم البَراءُ بنُ مالك.

[4] [ورَوَى أيضاً عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: طُوبَى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حَضَرُوا لم يُعرَفُوا، وإذا غابُوا لم يُفتَقَدُوا، أولئك مصابيح مُجَرَّبُون من كل فِتنةٍ غَبْراءَ مُشْتَبِهةٍ][4]

وقال أبو بكر بن سهل التَّميمي: حدثنا ابنُ أبي مَرْيَم، حدثنا نافع بن يزيد، عن عيَّاش بن عبَّاس، عن عيسى بن عبد الرحمن، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: عن عُمَر ـ رضي الله عنه ـ أنه دخل المسجدَ فإذا هو بمعاذ ابن جبل يبكي عند قَبر رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: ما يُبكيك يا معاذُ؟ قال: حديثٌ سَمِعته من رسول الله ـ ﷺ ـ سمعتُه يقول: إن اليَسِير من الرِّياء شِركٌ، وإنَّ الله يحب الأتقياء الأخفياءَ الأثرياء، الذين إذا غابُوا لم يُفتقَدُوا، وإذا حَضَروا لم يُعرَفُوا، قلوبُهم مصابيحُ الهُدَى، يَنجُون من كلِّ غَبْراءَ مُظلِمةٍ[5].

حدثنا الوليدُ بن شُجَاع، حَدَّثنا عَثَّام بن علي، عن حُمَيد بن عَطاءٍ الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مَسعُودٍ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: رُبَّ ذي طِمْرَين لا يُؤبَه له لو أقسَم على الله لأبَرَّه، لو قال: اللهم إني أسألك الجنةَ لأعطاه الجنةَ، ولم يُعطِه من الدنيا شيئاً.

وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو معاويةَ، عن الأعمش، عن سالم الجَعد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن مِن أُمَّتي من لو أتى بابَ أحدكم يسأله ديناراً أو درهماً أو فلساً لم يُعطِه، ولو سأل الله الجنةَ لأعطاه إياها، ولو سأله الدنيا لم يُعطِه إياها، وما يمنعها إياه لهوانه عليه، ذو طِمْرَين لا يُؤبَهُ له، لو أقسم على الله لأبرَّه[6].

وهذا مُرسَلٌ من هذا الوجه.

وقال أيضاً: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جعفر بن سليمان، حدثنا عوفٌ قال: قال أبو هُرَيرَةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إنَّ من ملوك الجنة كُلَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمرين لا يُؤبَه له، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم

---

(١) المعجم الكبير ١١/١٩٨. وقال في مجمع الزوائد ٤/٢٣٦: وفيه أيُّوبُ بن سُويد، وهو ضعيف.

(٢) أي: يُحجَبُ عنها. والطِّمْرُ: الثوب البالي.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من وجه آخر ٣/١٤٥.

(٤ ـ ٤) عن نسخة الحرم.

(٥) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا ٢٨ ـ ٣٠.

(٦) المصدر نفسه ١٥ ـ ١٧.

يُؤَدَن لهم، وإذا خطَبُوا النساء لم يُنكَحُوا، وإذ قالوا لم يُنصت لهم، حَوائجُ أَحَدِهم تَتَجلْجَلُ في صدره، لو قُسِّم نورُه يومَ القيامة بين الناس لَوَسِعَهُم.

قال: وأنشدني عُمَر بن شَبَّةَ، عن ابن عائشة قال: قال عبد الله بن المبارك:

أَلَا رُبَّ ذِي طِمْرَين في مَنْزِلٍ غَداً … زَرَابِيُّهُ مَبْثُوثَةٌ وَنَمَارِقُهْ
قَدِ اطَّرَدَتْ أنهارُه تحتَ قَصْرِه … وَأَشْرَقَ، والتَفَّتْ عَلَيهِ حَدَائِقُه[1]

وروَى أيضاً من حديثِ عُبَيد الله بن زَحْرٍ، عن علي بن زيد، عن القاسم، عن أبي أمامةَ مرفوعاً. قال الله: مِنْ أَغبَطِ أوليائي عندي مُؤمِنٌ خَفِيفُ الحاذِ، ذو حَظٍّ من صلاة، أحسنَ عبادة ربِّه وأطاعه في السِّرِّ، وكان غامضاً في الناس، لا يُشَار إليه بالأصابع، إن صَبَر على ذلك. قال: ثم نَقَر رسولُ الله بيدِه وقال: عُجِّلت مَنِيَّتُهُ، وقَلَّ تُراثُهُ، وقلَّت بَوَاكيه[2].

وعن عبد الله بن عَمْرو قال: أحبُّ عبادِ الله إلى الله الغُرَباءُ. قِيلَ: ومن الغُرَباءُ؟ قال: الفَرَّارون بدينهم، يُجمَعُون يومَ القيامةِ إلى عيسى ابن مَرْيَم[3].

وقال الفُضَيل بنُ عِياض: بَلَغني أن الله تعالى يقولُ للعبد يوم القيامة: أَلَم أُنعِم عليك؟ أَلَم أُعطِكَ؟ أَلَم أَستُرك؟ أَلَم ..؟ أَلَم ..؟ الم أُخمِلْ ذِكْرَكَ؟ ثم قال الفضيل: إن استطعت ألاّ تُعرَفَ فافعل، وما عَلَيك ألاّ يُثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس محموداً عند الله.

وكان ابنُ مُحَيريز يقول: اللهمَّ إنِّي أسألُكَ ذِكراً خامِلاً.

وكان الخليل بنُ أحمَدَ يقول: اللهم اجعَلْني عندك من أَرْفَعِ خَلْقِك، واجعلني في نفسي من أَوْضَعِ خَلْقِكَ، وعند الناس من أَوْسَطِ خَلْقِكَ[4].

ثم قال: بابُ ما جاء في الشُّهرَة:

حدثنا أحمدُ بن عيسى المِصْري، حدثنا ابن وهب، عن عَمْرو بنُ الحارث وابنِ لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سِنان بن سعد، عن أنس، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: حَسْبُ امرىءٍ من الشر ـ إلاَّ مَن عَصَم الله ـ أن يُشيرَ الناس إليه بالأصابع في دِينه ودُنياه[5]. وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم.

وروى مثله عن إسحاق بن البُهلُول، عن ابن أبي فُدَيك، عن محمد بن عبد الواحد[6] الأخنَسِيِّ، عن عبد الواحد بن أبي كَثير، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً. وروَى عن الحسن مُرسَلاً نحوه، فقيل للحسن: فإنه يُشار إليك بالأصابع، فقال: إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق[7].

(١) المصدر نفسه ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب الزهد من طريق عبد الله بن زَحْرٍ ٢٠٩/٩. كما أخرجه الإمام أحمد من هذه الطريق في موضعين ٢٥٢/٥، ٢٥٥.

وخفيف الحاذ: خفيف الحال أو: خفيف الظهر من العيال. وغامضٌ في الناس: غير مشهور. ونَقَد رسول الله: أي نَقَر، وبها رُوِي أيضاً.

(٣) التفكر والاعتبار ٤٢ ـ ٤٦.

(٤) انظر هذه الآثار في المصدر نفسه ٤٤ ـ ٤٦.

(٥) هذا هو القدر الذي أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناده إلى أنس، فأمّا ما أُلحِق به فذلك بتمامها رواية جابر بن عبد الله التي سيشير إليها ابن كثير. والحديث أخرجه الترمذي في أبواب القيامة، عارضة الأحوذي ٢٧٩/٩.

(٦) في كتاب التواضع: محمد بن سليمان الأخنسي.

(٧) التواضع والخمول ٦١ ـ ٦٣.

وعن عَليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: لا تَبَدَّ لأن تَشْتهر(١)، ولا ترفع شخصك لِتُذكَر، وتَعلَّم واكتُم، واصمُت تَسْلَم، تَسُرّ الأبرار، وتَغيظ الفجّار.

وقال إبراهيمُ بن أدْهَم ـ رَحِمه الله ـ: ما صَدَق الله من أحبّ الشُّهرة. وقال أيوب: ما صدق الله عبدٌ إلا سَرّه ألّا يُشْعَر بمكانه. وقال مُحمَّد بن العلاء: من أحبَّ الله أحبَّ ألّا يعرفَه الناسُ. وقال سِماكُ بن سَلَمة: إياك وكثرة الأخلاء. وقال أبان بن عثمان: إنْ أحببتَ أن يَسلَمَ لك دينُك فأقِلَّ مِنَ المعارِف. وكان أبو العالية إذا جَلَس إليه أكثَرُ من ثلاثةٍ نَهَض وتَركهم.

وقال: حَدَّثنا علي بن الجَعد، أخبرنا شعبةُ، عن عَوْفٍ، عن أبي رَجاءٍ قال: رأى طلحةُ قوماً يمشُونَ معه(٢)، فقال: ذُبابُ طَمَعٍ، وفَراشُ النّار.

وقال ابنُ إدريسَ، عن هارون بن عَنْتَرة، عن سُلَيم بن حَنْظَلة قال: بينا نحن حول أُبَيٍّ إذ علاه عُمَر بن الخطاب بالدِّرّة وقال: إنها مَذَلّةٌ للتابع، وفتنةٌ للمَتبوع.

وقال ابنُ عونٍ، عن الحسن: خرج ابنَ مسعود فاتّبعه أناسٌ، فقال: والله لو تعلَمُون ما أغلقُ عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان.

وقال حَمّاد بنُ زيدٍ: كنا إذا مَرَرنا على المجلس، ومَعنا أيوبُ، فَسَلَّم رَدّوا رداً شديداً، فكان ذلك يغمُّه وقال عبد الرزّاق، عن معمر: كان أيوب يطيل قميصه، فقيل له في ذلك، فقال: إن الشُهرَةَ فيما مضى كانت في طُولِ القَميص، واليوم في تشميره. واصطنع مَرّةً نعلين على حَذوِ نعلَي النبي ـ ﷺ ـ فلَبِسهما أياماً ثم خلَعهما، وقال: لم أرَ الناس يلبسونهما.

وقال إبراهيم النخَعي: لا تلبس من الثياب ما يشتهر في الفقهاء، ولا ما يزدريك السُّفهاء.

وقال الثوريُّ: كانوا يكرَهُون من الثِّياب الجِيادَ، التي يُشتَهر بها، ويرفع الناسُ إليه فيها أبصارَهم، والثيابَ الرديئة التي يُحتَقر فيها، ويُستَذَل دِينَه.

وحدثنا خالد بن خِداش: حدثنا حَمّاد، عن أبي خُشَيْنَةَ صاحب الزّياديّ قال: كُنّا عند أبي قِلابة إذ دخل عليه رَجُلٌ عليه أكسيةٌ، فقال: إيّاكُم وهذا الحمار النهاق.

وقال الحسنَ رَحِمه الله: إن قوماً جعلُوا الكِبْرَ في قُلوبهم والتواضُعَ في ثِيابهم، فصاحِبُ الكِساءِ بِكِسائِه أعجَبُ من صاحب المِطْرَفِ(٣) بِمِطْرفِه، ما لهم تفاقروا؟!

وفي بعض الأخبار أن موسى(٤) ـ عليه السلام ـ قال لبني إسرائيلَ: ما لَكُم تأتوني عليكم ثيابُ الرُّهبان، وقلوبُكم قلوبُ الذِّئاب؟! ألْبَسُوا ثيابَ المُلوكِ، وأَلِينُوا قلوبَكم بالخَشيَة.

فصل في حسن الخلق

قال أبو التَّيّاحِ، عن أنسٍ ـ رَضي الله عنه ـ: كانَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ من أحسَنِ النّاسِ خُلُقاً(٥).

---

(١) في مطبوعة التواضع: وتَبَذَّل لا تَشْهر. وتَبدَّى: ظهر.

(٢) في التواضع والخمول ٧٦ بعده: أكثر من عشرة. وفيه أيضاً: ذِبّان، وذبّان: جمع ذُباب.

(٣) المطرف: ثوب من حَرير. وتفاقروا: تظاهروا بالفقر. وفي النسخ «تفاقدوا» وهو غير مناسب. وفي التواضع والخمول: مما لم تفاقروا؟!.

(٤) الأثر في الخمول والتواضع ١٩٣ منسوباً إلى عيسى عليه السلام.

(٥) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الأدب ٥٨٢/١٠، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٠٥/٤

وعن عطاء، عن ابن عمر: قيل: يا رسولَ الله، أيّ المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنُهم خُلقاً.

وعن نوح بن عبَّاد، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً: «إن العبدَ ليبلُغ بحُسْنِ خُلُقِه دَرجاتِ الآخرة، وشرفَ المنازِل، وإنه لضعيفُ العبادة. وإنه ليبلُغ بسُوء خُلُقه دَرَكَ جَهنّم وهو عابدٌ»[1].

وعن سِنَان بن هارونَ، عن حُمَيد، عن أنسٍ مرفوعاً: «ذَهَب حسنُ الخُلق بخير الدُّنيا والآخرة».

والمطلب، عن عائشةَ مرفوعاً: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار»[2].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونُس، حدثنا عبد الله بن إدريسَ، أخبرني أبي وعمي، عن جَدّي، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ سُئِلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن أكثر ما يُدخِلُ الناسَ الجنةَ، فقال: «تقوى الله وحسنُ الخلق». وسئل عن أكثر ما يُدخِل الناسَ النارَ، فقال: «الأجوفانِ الفَمُ والفَرْجُ»[3].

وقال أسامة بن شَرِيك: كنت عندَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فجاءته الأعرابُ من كلِّ مَكانٍ، فقالوا: يا رسولَ الله، ما خيرُ ما أُعطِي الإنسانُ؟ قال: «حسن الخلق»[4].

وقال يَعْلَى بن مَمْلَكٍ، عن أم الدَّرداءِ، عن أبي الدَّرداءِ ـ يبلُغ به ـ قال: «ما من شيءٍ أثقلَ في الميزانِ من حُسنِ الخُلُق»[5]. وكذا رواه عطاءٌ، عن أم الدرداءِ به[5].

وعن مَسْروقٍ، عن عبد الله بن عَمرو مرفوعاً: «إنَّ مِن خيارِكم أحاسنَكم أخلاقاً»[6].

حدثنا عبد الله بن أبي بَدْر، حدثنا مُحمَّد بن عُبَيد، عن محمد بن أبي سَارَةَ، عن الحَسَن بن عَليٍّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لَيُعطِي العبدَ من الثَّوابِ على حُسنَ الخُلُقِ، كما يُعطِي المجاهدَ في سبيلِ الله، يغدُو عليه الأجرُ ويَرُوحُ»[7].

وعن مكحُول، عن أبي ثعلبةَ مرفوعاً: «إن أحبَّكُم إليَّ وأقربَكُم مِنّي مجلساً، أحاسنُكُم أخلاقاً، وإن أبغضَكُم إلي وأبعدَكُم مني منزلاً في الجنَّةِ مَساويكم أخلاقاً، الثرثارون المُتَشَدِّقون المُتَفَيهِقُونَ»[8].

وعن أبي أُوَيس، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابرٍ مرفوعاً: «ألا أُخبِرُكم بأكمَلِكُم إيماناً؟ أحاسنُكُم أخلاقاً، المُوطَّئُون أكنافاً، الذينَ يألفُون ويُؤلَفُون».

وقال الليث، عن يزيدَ بن عبدِ الله بن أُسامةَ، عن بكر بن أبي الفُرَات قال: رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما حَسَّن الله خَلْقَ رَجُلٍ وخُلُقَه فتَطعمَه النَّارُ».

وعن عبد الله بن غالب الحُدّاني، عن أبي سعيد مرفوعاً: «خصْلَتَان في مؤمن: البُخْلُ وسوءُ الخُـلُقِ».

وقال مَيمُون بن مِهْرَانَ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ: «ما من ذَنْبٍ أعظمَ عند الله من سُوءِ الخُلُق، وذَلِك أنَّ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١/٢٦٠
(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ٤/٢٥٢، والإمام أحمد في مسنده ٦/٦٤، ٩٠، ١٣٢
(٣) التواضع والخمول ٢١٧ ـ ٢١٨، وأخرجه الترمذي في أبواب البر والصلة، عارضة الأحوذي ٨/١٦٨، وابن ماجه في الزهد ٢/١٤١٨.
(٤) أخرجه الإمام أحمد ٤/٢٧٩، والحاكم في مستدركه، كتاب العلم ١/١٢١، وكتاب الطب ٤/١٩٨ ـ ١٩٩.
(٥) أخرجه الترمذي في أبواب البر والصلة، عارضة الأحوذي ٨/١٦٧ ـ ١٦٨. وأما حديث عطاء عن أم الدرداء ففي مسند أحمد ٦/٤٤٢.
(٦) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٤٥٦، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٨١٠.
(٧) التواضع والخمول ٢٢٥
(٨) أخرجه الإمام أحمد ٤/١٩٣
والمتشدقون: المتوسعون في الكلام من غير احتياط ولا تحرُّزٍ. وقيل: المستهزئون بالناس، يلوون أشداقهم ـ والشِّدْقُ: جانب الفم ـ عليهم. والمتفيهقون: الذي يتوسعون في الكلام، ويفتحون به أفواههم.

صاحِبَه لا يخرُج من ذَنْبٍ إلا وقد في آخَرَ».

قال: حَدَّثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو المغيرة الأَحْمَسِيُّ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن رجُلٍ من قريش قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الخُلُق الحَسَن لَيُذِيبُ الذنوب كما تُذيب الشمسُ الجليد، وإنَّ الخُلُق السيِّء لَيُفسِدُ العَمَل كما يُفْسِد الخَلُّ العَسَل»(١).

وقال عبد الله بن إدريسَ، عن أبيه، عن جَدِّه، عن أبي هُرَيرة مَرفوعاً: «إنكم لا تَسَعُون الناسَ بأموالكُم، ولكن يَسَعُهم منكُم بسطُ وُجوهٍ وحُسنُ خُلُقٍ».

وقال محمد بن سِيرِينَ: حُسنُ الخُلُق عَونٌ على الدين.

فصل في ذم الكبر

قال علقمة، عن ابن مسعود ـ رَفَعه ـ: «لا يدخل الجنة مَنْ في قلبه مثقال حَبَّةٍ من كِبْرٍ، ولا يدخل النارَ من في قلبه مثقال حَبَّةٍ من إيمانٍ»(٢).

وقال إبراهيم بن أبي عَبْلَةَ، عن أبي سَلَمَةَ، عن عبد الله بن عَمْرٍو مَرفُوعاً: «من كان في قلبه مثقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ أكبَّه الله على وجهه في النار»(٣).

حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو مُعاوية، عن عُمَر بن راشد، عن إياسِ بن سَلَمة، عن أبيه مرفوعاً: «لا يَزالُ الرجلُ يذهَبُ بنفسه حتى يُكتَبَ عند الله من الجَبَّارين، فَيُصيبه ما أصابَهُم من العذاب»(٤)

وقال مالكُ بنُ دينار: رَكِبَ سُلَيمانُ بنُ داودَ ـ عليهما السلام ـ ذاتَ يوم البِساطَ في مائتَي ألفٍ من الإنس، ومائتَي ألْفٍ من الجن، فَرُفِعَ حتى سَمِع تَسْبِيحَ الملائكةِ في السماء، ثُمَّ خَفَضُوه حتى مَسَّت قدمُه ماءَ البحرِ، فَسَمِعوا صوتاً: لو كان في قلبِ صاحبكم مِثْقالُ ذَرَّةٍ من كِبرٍ لَخُسِفَ به أبعدَ مِمَّا رُفِع(٥)

قال: حَدَّثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، عن حَمَّادِ بن سَلَمة، عن ثابتٍ، عن أنسٍ قال: كان أبو بكر يَخطُبُنا فَيذكُر بَدْءَ خَلْقِ الإنسانِ، حتى إنَّ أحدنا لَيقذرُ(٦) نفسه، يقول: خَرَجَ من مجرَى البولِ، مرَّتين

وقال الشعبيُّ: من قَتَل اثنين فهو جَبَّار، ثم تلا: ﴿أتريد أن تقتُلَني كما قتلت نفساً بالأمس إن تُريدُ إلا أن تكون جَبَّاراً في الأرض﴾.

وقال الحسنُ: عجَباً لابن آدم يغسل الخُرْءَ بيدِه في اليوم مرتين ثم يَتَكبَّر! يعارض جبَّار السموات!

قال: حدثنا خالد بن خِداشٍ، حدثنا حَمَّاد بن زيد، عن علي بن [زيد، عن](٨) الحسن، عن الضحاك ابن سفيان، فذكر حَديث: «ضَرَب مثَلَ الدنيا بما يَخرُجُ من ابن آدم(٩)».

(١) التواضع والخمول ٢٣٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ١/٩٣، وأبو داود في كتاب اللباس ٤/٥٩، والترمذي في أبواب البر، عارضة الأحوذي ٨/١٦٣ ـ ١٦٤، وابن ماجه في المقدمة ١/٢٢ ـ ٢٣.

(٣) مجمع الزوائد عن أحمد والطبراني في المعجم الكبير ٤/٩٨

(٤) التواضع والخمول ٢٤٨ ـ ٢٤٩. وأخرجه الترمذي في أبواب البر، عارضة الأحوذي ٨/١٦٥ ـ ١٦٦

(٥) التواضع والخمول ٢٥٠

(٦) أي: يكرهها.

(٧) الخُرْءُ: العَذِرَة، وهي فضلات الإنسان

(٨) عن التواضع والخمول ٢٥٧.

(٩) الحديث كما في التواضع والخمول ٢٥٧. «أن النبي ﷺ قال: يا ضحاك، ما طعامك؟ قال: اللحم واللبن. قال: ثم يصير؟ قال: إلى ما علمت. قال: إن الله ـ عز وجل ـ ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا»

وقال الحَسَنُ، عن عُتَيٍّ، عن أُبَيٍّ قال: إنَّ مَطْعَمَ ابنِ آدمَ ضُرِبَ مثلاً للدنيا وإن قَزَّحه ومَلَّحه[1].

وقال محمد بن الحُسَين بن علي ـ من ولد علي، رَضِي الله عنه ـ: «ما دخل قلبَ رَجُلٍ شيءٌ من كِبْرٍ إلا نَقَص من عقله بِقَدرِ ذلك[2].

وقال يُونُس بن عبيد: ليس مع السجود كبرٌ، ولا مع التوحيدِ نفاقٌ.

ونظَر طاوسٌ إلى عُمَرَ بن عبد العزيز وهو يختالُ في مِشْيَتِه، وذلك قبل أن يُستَخلَف، فطَعن طاوسٌ في جَنبِه بإصبَعِه، وقال: ليس هذا مَشْيَ من في بَطْنِه خُرْءٌ؟! فقال له كالمعتذر إليه: يا عَمّ، لقد ضُرِبَ كُلُّ عُضوٍ مِني على هذه المِشْيَةِ حتى تَعَلَّمتها.

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: كانت بَنُو أُميَّةَ يضرِبُون أولادَهم حتى يَتعلَّمُوا هذه المِشْيَةَ.

فصل في الاختيال

عن ابن أبي ليلى، عن ابن بُرَيدَةَ، عن أبيه مَرفُوعاً: «مَنْ جَرَّ ثوبه خُيَلاء لم ينظر الله إليه»[3].

ورواه عن إسحاقَ بن إسماعيل، عن سُفيان، عن زيد بن أسلم، عن ابن عُمَر مرفوعاً، مثله[4].

وحَدَّثنا محمدُ بن بكار، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن الأعرَج، عن أبي هُرَيرة مرفوعاً: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جَرَّ إزاره»[5]. و«بينما رجلٌ يتبختر في بُرْدَيه أعجبته نفسُه، خسَفَ الله به الأرضَ، فهو يَتَجلْجَل فيها إلى يوم القيامة»[5].

ورَوَى الزُّهري عن سالم، عن أبيه: بينما رجل... إلى آخره[6].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنَبِّهاً خلقه على نِعَمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سَخَّر لهم ما في السمواتِ من نُجُومٍ يَستَضِيئُون بها في لَيلِهم ونَهارِهم، وما يخلُق فيها من سَحَاب وأمطار وثَلْجٍ وبَرَدٍ، وجَعْلِه إياها لهم سَقفاً محفُوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قَرارٍ وأنهارٍ وأشجارٍ وزُرُوعٍ وثمارٍ. وأسبغَ عليهم نِعَمَه الظاهرةَ والباطنَةَ من إرسالِ الرسُلِ وإنزالِ الكُتُب، وإزاحةِ الشُبَه والعِلَل، ثم مع ذلك كلِّه ما آمن الناسُ كلُّهم، بل منهم مَن يُجادِلُ في الله، أي: في توحيده وإرسالِ الرُسُل. ومجادَلَتُه في ذلك بغير علم، ولا مستند من حُجَّة صَحيحة، ولا كتابٍ مأثور صَحيح، ولهذا قال تعالى: ﴿ ومن الناس مَن يجادل في الله بغير علم ولا هُدىً ولا

---

(١) قزّحه: جعل فيه القِزح، وهو: التّابِل.

(٢) التواضع والخمول ٢٧٣، والأثر في حلية الأولياء ٣/١٨٠.

(٣) التواضع والخمول ٢٨٥.

(٤) أخرجه الشيخان في كتاب اللباس، فتح الباري ١٠/٢٥٨، ومسلم ٣/١٦٥١.

(٥) التواضع والخمول ٢٧٦ ـ ٢٧٨، والحديث الثاني رواه ابن أبي الدنيا بالإسناد نفسه. والأول أخرجه البخاري في كتاب اللباس، فتح الباري ١٠/٢٥٧ ـ ٢٥٨. والثاني أخرجه مسلم في كتاب اللباس ٣/١٦٥٤.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، فتح الباري ١٠/٢٥٨.

كتاب منير ﴾، أي: مُبين مُضيء. ﴿ وإذا قيل لهم ﴾، أي: لهؤلاء المجادلين في توحيد الله. ﴿ اتّبعوا ما أنزل الله ﴾، أي: على رسوله من الشرائع المطهرة، ﴿ قالوا بل نتّبعُ ما وَجدنا عليه آباءنا ﴾، أي: لم يكن لهم حُجّةٌ إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله: ﴿ أوَلو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾، أي: فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خَلَف لهم فيما كانوا فيه، ولهذا قال: ﴿ أوَلو كان الشيطانُ يدعُوهم إلى عذاب السّعير ﴾.

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عمن أسلَم وجهَه لله، أي: أخلَصَ له العملَ وانقاد لأمره واتّبع شرعه، ولهذا قال: ﴿ وهو مُحسِنٌ ﴾، أي: في عَمَله، باتّباع ما به أَمَر، وتَرْكِ ما عنه زَجَر، ﴿ فقد استمسك بالعُرْوة الوُثقى ﴾، أي: فقد أخذ مَوثِقاً من الله مَتيناً أنه لا يُعذّبه، ﴿ وإلى الله عاقبة الأمورِ ۞ ومَن كَفر فلا يَحزُنك كفرُه ﴾، أي: لا تحزَن يا محمد عليهم في كُفرهم بالله وبما جئتَ به، فإن قدر الله نافذ فيهم، إلى الله مرجعُهم فَيُنبّئهم بما عملوا، أي: فيَجْزيهم عليه، ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾، فلا تخفى عليه خافية.

ثم قال: ﴿ نُمتّعهم قليلاً ﴾، أي: في الدنيا، ﴿ ثم نَضْطَرُّهم ﴾، أي: نُلجئهم ﴿ إلى عذابٍ غليظٍ ﴾، أي: فَظيع صَعْبٍ يَشُقُّ على النفوس، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين يفترُون على الله الكَذِبَ لا يُفلِحُونَ ۞ متاعٌ في الدنيا ثم إلينا مَرْجِعُهم ثم نُذيقهم العذابَ الشديدَ بما كانُوا يكفرون ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين أنهم يَعرفُون أن الله خالقُ السموات والأرض، وَحْدَه لا شريك له، ومع هذا يعبدُون معه شركاءَ يعترفون أنها خَلْقٌ له ومِلْكٌ له، ولهذا قال: ﴿ ولئن سألتَهم مَن خلق السمواتِ والأرضَ ليقولن الله قل الحمدُ لله ﴾ إذ قامت عليهم الحجة باعترافهم، ﴿ بل أكثرُهم لا يعلمُونَ ﴾.

ثم قال: ﴿ لله ما في السموات والأرض ﴾، أي: هو خَلْقُه ومِلْكُه، ﴿ إن الله هو الغنيُّ الحميدُ ﴾، أي: الغني عما سواه، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، الحميدُ في جميع ما خَلَق، له الحمد في السموات والأرض على ما خَلَق وشَرَع، هُوَ المحمود في الأمور كلِّها.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن عَظَمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحُسنى وصفاته العُلا وكلماته التّامة التي لا يُحيطُ بها أحدٌ، ولا اطّلاع لبشَرٍ على كُنْهِها وإحْصائها، كما قال سَيّد البَشر وخاتم الرُّسل: «لا أُحصي ثناءً عليك أنتَ

كما أثنيت على نفسك»(١)، فقال تعالى: ﴿ ولو أنَّ ما في الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يمدُّه من بعده سبعةُ أبحُرٍ ما نفِدَت كلماتُ الله ﴾، أي: ولو أن جميع أشجارِ الأرضِ جُعِلت أقلاماً، وجُعِل البحرُ مداداً وأمدَّه سبعةُ أبحُرٍ معه، فكُتِبت بها كلماتُ الله الدالَّة على عظمتِه وصِفَاتِه وجَلالِه لتكسَّرت الأقلامُ، ونفِدَ ماءُ البحار، ولو جاء أمثالُها مِداداً.

وإنما ذُكِرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يُرِد الحصرَ ولا أنَّ ثَمَّ سبعةَ أبحُرٍ موجودةٍ تُحيط بالعالم، كما يقوله من تلقَّاه من كلام الإسرائيليين التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ قل لو كان البحرُ مداداً لكلماتِ ربِّي لنفِدَ البحرُ قبل أن تنفَدَ كلماتُ ربِّي ولو جئنا بمثله مَدَداً ﴾، فليس المرادُ بقوله: ﴿ بمثله ﴾ آخرَ فقط، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله، ثم هَلُمَّ جرّاً، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته، كما قال الحسنُ البصريُّ: لو جُعِل شجرُ الأرض أقلاماً، وجُعِل البحرُ مِداداً، وقال الله: إنَّ من أمري كذا، ومن أمْري كذا. لنفِدَ ما في البُحورِ، وتكسَّرت الأقلامُ(٢).

وقال قتادةُ: قال المشركون: إنما هذا كلامٌ يُوشِك أن ينفَدَ، فقال الله تعالى: ﴿ ولو أنَّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ ﴾، أي: لو كان شجرُ الأرض أقلاماً، ومَعَ البحرِ سبعةُ أبحُرٍ، ما كان لِتنفَدَ عجائبُ ربِّي وحكمتُه وخلقُه وعِلْمُه.

وقال الربيعُ بن أنس: إنَّ مَثَل علم العباد كلِّهم في علم الله كقطرةٍ من ماء البُحُور كلِّها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾(٣) .. الآية.

يقولُ: لو كان ذلك البحرُ مداداً لكلمات الله، والشجرُ كلُّها أقلاماً، لانكسرَتِ الأقلامُ، وفَنِيَ ماءُ البحرِ، وبَقِيَت كلماتُ الله قائمةً لا يُفنيها شيءٌ، لأنَّ أحداً لا يستطيعُ أن يَقدُر قَدْرَه، ولا يُثني عليه كما ينبغي، حتى يكونَ هو الذي يُثني على نفسه، إن ربنا كما يقولُ، وفوق ما نقُول.

وقد رُوِيَ أن هذه الآيةَ نزلت جواباً لليهود، قال ابن إسحاق:

حدثني محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جُبَير أو عكرمة، عن ابن عباس: أن أحبارَ يَهُودَ قالوا لرسولِ الله ـ ﷺ ـ بالمدينة: يا محمد، أرأيتَ قولَك: ﴿ وما أُوتيتم من العِلْم إلا قليلا ﴾؟ إيَّانا تُريد أم قومَك؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كِلاكُما». فقالوا: ألستَ تتلو فيما جاءك أنا قد أُوتينا التوراةَ فيها تِبيان كلِّ شيء؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّها في علم الله قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم». وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿ ولو أنَّ ما في الأرضِ من شَجرةٍ أقلامٌ ﴾... الآية(٤).

وهكذا رُوِي عن عكرمة، وعطاء بن يسار. وهذا يقتضي أن هذه الآيةَ مدنيَّةٌ لا مكيَّةٌ، والمشهور أنها مكيَّةٌ، فالله أعلم.

وقولُه: ﴿ إن الله عزيزٌ حكيمٌ ﴾، أي: عزيزٌ قد عزَّ كلَّ شيءٍ وقهرَه وغلَبَه، فلا مانعَ لِمَا أرادَ ولا مُخالِفَ ولا مُعقِّبَ لِحُكمه، ﴿ حكيمٌ ﴾ في خلقِه وأمْرِه، وأقواله وأفعاله، وشَرْعِه وجميع شُئونه.

وقولُه: ﴿ ما خلقُكم ولا بعثُكم إلا كنفسٍ واحدة ﴾، أي: ما خَلْقُ جميعِ الناسِ وبَعْثُهم يومَ المعادِ

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٠٣ من سورة الأنعام، وخرّجناه هنالك.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/٨١، وغير واحد، الدر المنثور ٦/٥٢٨.

(٣) تقدم هذا الأثر عند تفسير الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

(٤) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، تفسير الطبري ٢١/٨١، والدر المنثور ٦/٥٢٦ ـ ٥٢٧.

بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميعُ هيِّن عليه، ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾، ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾، أي: لا يأمر بالشيء إلا مرةً واحدة، فيكون ذلك الشيءُ لا يُحتاجُ إلى تكرُّره وتوكيده. ﴿ فإنما هي زجرةٌ واحدةٌ ● فإذا هم بالساهرة ﴾.

وقولُه: ﴿إنّ الله سميعٌ بصيرٌ﴾، أي: كما هو سميعٌ لأقوالهم بصير بأفعالهم كسَمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقُدرته على نفس واحدة. ولهذا قال: ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميعٌ بصيرٌ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾

يخبرُ تعالى أنه ﴿ يُولج الليل في النهار ﴾. بمعنى يأخذُ منه في النهار، فيطول ذاك ويقصُر هذا، وهذا يكون زمنَ الصيف يطولُ النهار إلى الغاية، ثم يَشرع في النقص فيطول الليلُ ويقصُر النهار، وهذا يكون في الشتاء، ﴿ وسخّر الشمس والقمرَ كلٌّ يجري إلى أجل مُسمّى ﴾. قيل: إلى غايةٍ محدودةٍ، وقيل: إلى يوم القيامة. وكلا المعنيين صحيحٌ، ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في الصَّحيحَين: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يا أبا ذرٍّ، أتدري أين تذهبُ هذه الشمسُ؟ قلت: الله ورسولُه أعلمُ. قال: فإنها تذهبُ فتسجُد تحتَ العرش، ثم تستأذن ربَّها فيُوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئتِ»[1].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا يحيى بن أيوب، عن ابن جُريج، عن عطاء بن أبي رَباح، عن ابن عباس أنه قال: «الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جَرَت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلُع من مشرقها، قال: وكذلك القمر». إسنادُه صحيحٌ.

وقولُه: ﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾، كقوله: ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾، ومعنى هذا أنه تعالى الخالقُ العالم بجميع الأشياء، كقوله: ﴿ الله الذي خلق سبع سمواتٍ ومن الأرض مثلهن يتنزّل الأمر بينهنّ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيءٍ علماً ﴾.

وقولُه: ﴿ ذلك بأنّ الله هو الحقُّ وأن ما يدعُون من دونه الباطلُ ﴾، أي: إنما يُظهر لكم آياته لتستدلُّوا بها على أنه الحقُّ، أي: الموجودُ الحقُّ الإلهُ الحقُّ، وأنَّ كُلَّ ما سواه باطلٌ؛ فإنه الغنيُّ عما سواه، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، لأن كل ما في السموات والأرض الجميعُ خَلقُه وعَبيدُه، لا يقدِرُ أحدٌ منهم على تحريك ذرةٍ إلا بإذنه، ولو اجتمع كلُّ أهل الأرض على أن يخلُقوا ذباباً لعجَزُوا عن ذلك. ولهذا قال: ﴿ ذلك بأنّ الله هو الحقُّ وأنَّ ما يدعُون من دونه الباطل وأن الله هو العليُّ الكبير ﴾، أي: العليُّ الذي لا أعلى منه، الكبيرُ الذي هو أكبرُ من كلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ خاضعٌ حقير بالنسبة إليه.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٤٠٤، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٣٩.

يُخبر تعالى أنه هو الذي سَخَّر البحر لتجريَ فيه الفلكُ بأمره، أي: بلُطفِه وتَسْخيره، فإنه لولا ما جَعَل في الماءِ من قُوَّة تُحمَل بها السُّفن لما جَرَت، ولهذا قال: ﴿ لِيُرِيَكُم من آياتِه ﴾، أي: مِن قُدرته، ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لكل صبَّارٍ شَكُورٍ ﴾، أي: صَبَّارٍ في الضراء، شَكُورٍ في الرخاءِ.

ثم قال. ﴿ وإذا غَشِيَهم موجٌ كالظُّلَلِ ﴾، أي: كالجبال والغَمَام ﴿ دَعَوُا الله مُخلِصين له الدينَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وإذا مَسَّكُم الضرُّ في البحر ضَلَّ من تدعُون إلا إيَّاه ﴾، وقال: ﴿ فإذا رَكِبُوا في الفُلك دَعَوُا الله مُخْلِصين له الدينَ ﴾.

ثم قال: ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهم إلى البرِّ فَمنهُم مُقْتَصِدٌ ﴾، قال مجاهدٌ: أي كافر. وكأنه فَسَّر المقتصد هاهنا بالجَاحِد، كما قال تعالى: ﴿ فلما نَجَّاهُم إلى البرِّ إذا هُم يُشرِكُون ﴾. وقال ابنُ زَيدٍ: هو المتوسِّط في العَمَلِ.

وهذا الذي قاله ابنُ زيدٍ هو المراد في قوله: ﴿ فمنهم ظَالِمٌ لنفسه ومنهم مُقْتَصِدٌ ومنهُم سابِقٌ بالخيرات ﴾، فالمقتصد ههنا هو: المتوسِّط في العمل. ويَحْتَمِل أن يكون مراداً ههنا أيضاً، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص، كان ينبغي أن يُقَابِل ذلك بالعمل التام، والدُّأب في العبادة، والمبادَرَة إلى الخيرات. فمن اقتصد بعد ذلك كان مُقَصِّراً والحالة هذه، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ وما يجحَدُ بآياتنا إلا كلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾، فالخَتَّار: هو الغَدَّار. قاله مجاهدٌ، والحسن، وقتادةُ، ومالك، عن زيد بن أسلم، وهو الذي كلما عاهد نَقَض عهده، والخَتْر: أتَمُّ الغَدْرِ وأبلَغُه، قال عَمْرو بن مَعدِ يكرب[1]:

وإنَّـكَ لـو رأيتَ أبـا عُـمَيـرٍ ... مَـلأتَ يـدَيْـكَ مِنْ غَـدْرٍ وَخَتْـرِ

وقولُه: ﴿ كَفُورٍ ﴾، أي: جَحُودٍ للنِّعَم لا يَشكُرها، بل يتناساها ولا يذكرها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنذِراً للناس يوم المَعَاد، وآمراً لهم بتقواه والخوف منه، والخشيةِ من يوم القيامة حيثُ ﴿ لا يَجزي والدٌ عن وَلَدِه ﴾، أي: لو أراد أن يَفْدِيَهُ بنفسِه لما قُبِل منه. وكذلك الولدُ لو أرادَ فداءَ والدِهِ بنفسه لم يُقْبَل منه.

ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿ فلا تَغُرَّنكم الحياة الدنيا ﴾، أي: لا تُلهِيَنَّكُم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة، ﴿ ولا يَغُرَّنكم بالله الغَرُورِ ﴾، يعني: الشيطانَ. قاله ابنُ عباس، ومجاهد، والضحاكُ، وقتادةُ. فإنه يَغُرُّ ابنَ آدم ويَعِدُه ويُمنيه، وليس من ذلك شيء، بل كما قال تعالى: ﴿ يَعِدُهم ويُمَنِّيهم وما يَعِدُهم الشيطانُ إلا غُروراً ﴾.

قال وهبُ بن مُنَبِّه: قال عُزَير عليه السلامُ: لما رأيتُ بلاءَ قَوْمي اشتدَّ حُزْني وكَثُر هَمِّي، وأَرِق نَوْمي، فتضرَّعْتُ إلى ربي، وصَلَّيت وصُمت، فأنا في ذلك أتضرَّعُ أبكي إذ أتاني الملك فقلت له: أخبرني هل تشفع

(١) البيت في مجاز القرآن لأبي عُبيدة ٢/١٢٩، وتفسير الطبري ٢١/٨٥.

أرواحُ المصدِّقين للظُّلمة، أو الأباءِ لأبنائهم؟ قال: إن القيامة فيها فصل القضاء ومُلْكٌ ظاهر، ليس فيه رُخصَةٌ، لا يَتَكلَّمُ فيه أحد إلا بإذن الرحمن، ولا يؤخذ فيه والدٌ عن ولده، ولا وَلَدٌ عن والده، ولا أخٌ عن أخيه، ولا عَبدٌ عن سَيِّده، ولا يهتمُّ أحد بهَمِّ غيره، ولا يحزن لِحُزنه، ولا أحَدَ يرحَمُهُ، كل مُشفِقٌ على نفسه، لا يُؤخَذ إنسانٌ عن إنسانٍ، كلٌّ يَهُمُّ هَمُّه، ويبكي عَولَهُ[1]، ويَحمِلُ وِزرَه، ولا يَحمِلُ وِزرَه مَعَهُ غيره. رواه ابنُ أبي حاتمٍ.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

هذه مفاتيحُ الغَيب التي استأثر الله تعالى بعِلمِها، فلا يعلَمُها أحدٌ إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعِلْمُ وَقتِ الساعةِ لا يعلَمه نبيٌّ مُرسَلٌ ولا ملك مُقرَّب، ﴿ لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو ﴾، وكذلك إنزالُ الغيثِ لا يعلَمُه إلا الله، لكن إذا أمر به عَلِمته الملائكةُ الموكَّلون بذلك، ومَن شاء الله من خلقه. وكذلك لا يعلَم ما في الأرحام مما يريدُ أن يخلُقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، أو شقياً أو سعيداً، عَلِم الملائكة الموكَّلون بذلك، ومَن شاء الله من خلقه. وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسِب غداً في دنياها وأخراها، ﴿ وما تدري نفس بأيِّ أرضٍ تموتُ ﴾ في بلدها أو غَيره من أيِّ بلادِ الله كان، لا علمَ لأحدٍ بذلك. وهذه شَبيهةٌ بقوله تعالى: ﴿ وعنده مفاتحُ الغيبِ لا يَعلَمُها إلا هو ﴾ . . . الآية. وقد وَردت السنَّةُ بتَسمية هذه الخمسِ مفاتيحَ الغيب:

قال الإمام أحمدُ: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني حُسَين بن واقد، حدثني عبد الله بن بُرَيدة، سَمِعتُ أبي بُرَيدة يقولُ: سَمِعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «خمسٌ لا يعلمُهُنَّ إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ إن الله عندَه علمُ الساعةِ ويُنزِّلُ الغيثَ ويعلَم ما في الأرحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تَموتُ إن الله عليمٌ خبيرٌ ﴾»[2]. هذا حديثٌ صحيحُ الإسنادِ، ولم يُخرجُوه.

حديثُ ابنِ عُمَر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا سفيانُ، عن عبدِ الله بن دينارٍ، عن ابن عُمَر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مفاتيحُ الغيب خَمسٌ لا يَعلمهُنَّ إلا الله: ﴿ إن الله عنده علمُ الساعة ويُنزِّل الغيثَ ويعلم ما في الأرحامِ وما تدري نفسٌ ماذا تكسِب غداً وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ إن الله عليمٌ خبيرٌ ﴾»[3].

انفرد بإخراجه البخاري فرواه في كتاب الاستسقاء من صحيحه، عن محمد بن يوسف الفِريابيِّ، عن سفيانَ بن سعيد الثوريِّ، به[4]. ورواه في التَّفسير من وَجهٍ آخرَ فقال:

حدثنا يحيى بن سُلَيمان، حدثنا ابنُ وهبٍ، حدثني عُمَر بن محمد بن زيدِ بن عبد الله بن عُمَر: أنَّ أباه حدَّثه أن عبد الله بن عُمَر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مفاتيحُ الغيبِ خمسٌ». ثم قرأ: ﴿ إن الله عنده علمُ الساعةِ ويُنزِّلُ الغيثَ ويعلَمُ ما في الأرحام ﴾. انفرد به أيضاً[4].

ورواه الإمام أحمد عن غُندَر، عن شعبة، عن عُمَر بن محمد: أنه سَمع أباه يُحدِّث، عن ابن عُمَر، عن

---

(١) عَالَ الأمر فلاناً: أثقله وأحزنه. والعَوْل: رفع الصوت بالبكاء والصياح.
(٢) مسند أحمد ٥/٣٥٣.
(٣) مسند أحمد ٢/٢٤، وفتح الباري، كتاب الاستسقاء ٢/٥٢٤.
(٤) فتح الباري، تفسير سورة لقمان ٨/٥١٣ ـ ٥١٤.

النبي - ﷺ - قال: «أوتيتُ مفاتيحَ كلِّ شيءٍ إلا الخمسَ: ﴿إن الله عنده علمُ الساعةِ وينزِّل الغيثَ ويعلَمُ ما في الأرحامِ وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت إن الله عليم خبيرٌ﴾[(1)]».

حديث ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قال الإمام أحمدُ:

حدثنا يحيى، عن شُعبةَ، حدثني عمرو بن مُرَّةَ، عن عبد الله بن سَلِمَةَ قال: قال عبد الله: أُوتِيَ نبيُّكم - ﷺ - مفاتيحَ كلِّ شيءٍ غيرَ خَمْسٍ: ﴿إن الله عنده علمُ الساعةِ ويُنزِّلُ الغيثَ ويعلَمُ ما في الأرحامِ وما تدري نفسٌ ماذا تكسِبُ غداً وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت إن الله عليمٌ خبيرٌ﴾[(2)].

وكذا رواه عن مُحمَّد بن جعفر، عن شُعْبَةَ، عن عمرو بن مُرَّةَ، به. وزاد في آخره: «قال: قلتُ له: أنت سَمِعتَه من عبد الله؟ قال: نَعَم. أكثرَ من خمسينَ مرةً»[(3)]. ورواه أيضاً عن وكيعٍ، عن مِسْعَر، عن عَمرو بن مُرَّة به[(3)]. وهذا إسنادٌ حسنٌ على شَرْطِ السُّنَنِ ولم يُخرجُوه.

حديثُ أبي هُرَيرة، قال البُخاريُّ عند تفسير هذه الآية:

حدثنا إسحاقُ، عن جَرير، عن أبي حَيَّانَ، عن أبي زُرعةَ، عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه -: أن رسول الله - ﷺ - كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي، فقال: يا رسولَ الله، ما الإيمانُ؟ قال: الإيمانُ أن تُؤمن بالله وملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه ولقائِه، وتُؤمنَ بالبعث الآخر. قال: يا رسولَ الله، ما الإسلام؟ قال: الإسلامُ أن تعبدَ الله ولا تُشرِكَ به شيئاً، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصومَ رمضان. فقال: يا رسولَ الله، ما الإحسانُ؟ قال: الإحسانُ أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكُن تراه فإنه يراكَ. قال: يا رسولَ الله، متى الساعةُ؟ قال: ما المسئولُ عنها بأعلَمَ من السائِل، ولكن سأُحدِّثك عن أشراطها إذا وَلَدت الأَمةُ رَبَّتها[(4)] فذاك من أشراطها. وإذا كان الحفاة العراةُ رُءوسَ الناسِ فذاكَ من أشراطها، في خمس لا يعلَمُهنَّ إلا الله: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلَمُ ما في الأرحامِ﴾، ثم انصرف الرجل فقال: رُدُّوه علي، فأخذوا ليردُّوه، فلم يَرَوا شيئاً، فقال: هذا جبريلُ جاء ليعلِّم الناسَ دينَهم»[(5)].

ورواه البخاري أيضاً في «كتاب الإيمان»، ومسلم من طُرُقٍ، عن أبي حَيَّان، به. وقد تَكلَّمنا عليه في أول «شرح البخاري» وذكرنا ثَمَّ حديثَ أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب - رضي الله عنه - في ذلك بطوله، وهو من أفرادِ مُسلم[(5)].

حديثُ ابن عبَّاس، قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو النضر، حدثنا عبدُ الحميد، حدثنا شَهرٌ، حدثنا عبد الله بن عبَّاس - رَضِي الله عنهما - قال: جَلَس رسولُ الله - ﷺ - مَجْلِساً له، فأتاه جبريلُ فجَلَس بين يَدَي رسولِ الله - ﷺ - واضعاً كفَّيه على رُكْبَتي النبيِّ - ﷺ - فقال: يا رسولَ الله، ما الإسلامُ؟ قال رسولُ الله - ﷺ -: الإسلامُ أن تُسلِم وجهَكَ لله

---

(1) مسند أحمد ٢/٨٥ - ٨٦.

(2) مسند أحمد ١/٣٨٦.

(3) مسند أحمد ١/٤٣٨، ٤٤٥.

(4) روى البخاري في كتاب الإيمان: ربها، وفي التفسير: رَبَّتها، وفي تفسير هذا أوجه، واختار الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١/١٢٢ - ١٢٣ أن يكثر العقوق في الأولاد، فيعامل الولد أمه معاملة السيِّد أَمَته من الإهانة بالسبِّ والضرب والاستخدام، فأطلق عليها ربَّها مجازاً لذلك. وفي هذا من الاستهانة لكرامة الأمهات ما فيه!.

(5) فتح الباري، تفسير سورة لقمان ٨/٥١٣، وكتاب الإيمان ١/١١٤، ومسلم، كتاب الإيمان ١/٣٩، وحديث عُمَر - رضي الله عنه - في كتاب الإيمان ١/٣٦ - ٣٧.

ـ عزَّ وجلَّ ـ وتشهدَ أن لا إلَه إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه قال: فإذا فعلتُ ذلك فقد أسلمتُ؟ قال: إذا فعلتَ ذلك فقد أسلمتَ. قال: يا رسولَ الله، فحدِّثني ما الإيمان؟ قال: الإيمانُ أن تؤمنَ بالله، واليومِ الآخر، والملائكةِ، والكتاب، والنبيِّين، وتؤمنَ بالموت، وبالحياة بعد الموت، وتؤمنَ بالجنة والنار، والحساب والميزان، وتؤمنَ بالقَدَرِ كُلِّه خيرِه وشرِّه. قال: فإذا فعلتُ ذلك فقد آمنتُ؟ قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت. قال: يا رسولَ الله، حَدِّثني ما الإحسانُ؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: الإحسان أن تعمل لله كأنك تَراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراكَ. قال: يا رسول الله، فحدِّثني متى الساعة؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إذا رأيت الأمةَ ولدت رَبَّتها ـ أو: رَبَّها ـ ورأيتَ أصحابَ الشاءِ يتطاولون في البُنيانِ. ورأيت الحُفاةَ الجياعَ العالةَ رؤوسَ الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطِها. قال: يا رسولَ الله، ومن أصحابُ الشاءِ والحُفاةُ الجياعُ العالةُ؟ قال: العربُ[1]. حديث غريب، ولم يخرجوه.

حديثُ رجلٍ من بني عامر، رَوَى الإمامُ أحمد:

حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن منصورٍ، عن رِبْعِيِّ بن حِرَاش، عن رجل من بني عامر: أنَّه استأذَنَ على النبيِّ ـ ﷺ ـ فقال: أألِج؟ فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ لخادمه: اخرُجي إليه فإنه لا يُحسِنُ الاستئذانَ فقولي له: فَلْيَقُل: «السلامُ عليكُم، أأدخلُ؟». قال: فسمعتُه يقول ذلك، فقلت: السلامُ عليكم، أأدخلُ؟ فأذِن فدخلتُ، فقلتُ: بِمَ أتيتنا به؟ قال: لم آتكُم إلا بخير، أتيتكُم أن تعبدُوا الله وحدَه لا شريكَ له، وأن تدَعُوا اللاتَ والعُزّى، وأن تُصلُّوا بالليلِ والنهار خمسَ صلوات، وأن تصومُوا من السنة شهراً، وأن تَحُجُّوا البيتَ، وأن تأخذُوا الزكاةَ من مالِ أغنيائكم فتردُّوها على فُقرائكم. قال فقال: هل بَقِيَ من العلم شيءٌ لا تعلَمُه؟ قال: قد عَلِمَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خيراً، وإنَّ من العلم ما لا يعلَمُه إلا الله عزَّ وجلَّ: الخمسُ ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزِّل الغيثَ ويعلَمُ ما في الأرحام وما تدري نَفس ماذا تكسِب غداً وما تَدرِي نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ إن الله عليمٌ خبيرٌ﴾[2]. وهذا إسنادٌ صحيحٌ.

وقال ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهدٍ: جاء رجلٌ من أهل البادية فقال: إنَّ امرأتي حُبلى، فأخبِرني ما تلِدُ؟ وبلادنا مُجْدِبةٌ فأخبرني متى ينزلُ الغيثُ؟ وقد عَلِمتُ متى وُلِدتُ فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إن الله عنده علم الساعة ويُنَزِّل الغيث﴾ إلى قولِه: ﴿إن الله عليمٌ خبيرٌ﴾ ـ قال مجاهد: وهُنَّ مفاتيحُ الغيبِ التي قال الله تعالى: ﴿وعنده مفاتحُ الغيبِ لا يعلمها إلا هو﴾. رواه ابنُ أبي حاتم، وابنُ جَريرٍ[3].

وقال الشعبيُّ، عن مسروق، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ قال: مَن حَدَّثك أنه يعلَم ما في غدٍ فقد كذَب، ثم قرأت: ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾.

وقولُه: ﴿وما تدرِي نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ﴾ ـ قال قتادة: أشياءُ استأثَرَ بهنَّ، فلم يُطلِع عليهنَّ مَلَكاً مُقرَّباً، ولا نَبياً مرسَلاً: ﴿إنَّ الله عنده علمُ الساعةِ﴾، فلا يَدرِي أحدٌ من الناس متى تقومُ الساعةُ، في أيِّ سنةٍ أو في أيِّ شهرٍ، أو ليلٍ أو نهارٍ، ﴿ويُنزِّل الغيثَ﴾ فلا يَعلَم أحدٌ متى ينزلُ الغيثُ، ليلاً أو نهاراً، ﴿ويعلَمُ ما في الأرحامِ﴾، فلا يعلَمُ أحدٌ ما في الأرحام، أذكرٌ أم أُنثى، أحمَرُ أو أسودُ، وما هُوَ؟ ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾، أخيرٌ أم شرٌّ، ولا تَدري يا ابن آدم متى تموتُ؟ لَعلَّك الميتُ غداً، لَعلَّكَ المصابُ غداً، ﴿وما

---

(١) مسند أحمد ١/٣١٨ ـ ٣١٩.
(٢) مسند أحمد ٥/٣٦٨ ـ ٣٦٩.
(٣) تفسير الطبري ٢١/٨٧ ـ ٨٨.

تدْرِي نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ﴾ ليس أحدٌ من الناس يدري أين مَضجَعُه من الأرضِ، أفي بحرٍ أم بَرٍّ، أو سَهلٍ أو جَبَلٍ.

وقد جاء في الحديث: «إذا أراد الله قبض عبدٍ بـأرضٍ جَعَل له إليها حاجةً». فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في مُعجَمه الكبير، في مُسنَدِ أُسامَةَ بنِ زيدٍ:

حَدَّثنا إسحاقُ بن إبراهيمَ، أخبرنا عبدُ الرزّاق، أخبرنا مَعمَرٌ، عن أيوبَ، عن أبي المُلَيح، عن أسامَة بن زيد قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما جعل الله مَنِيَّةَ عبدٍ بأرضٍ إلا جَعَل له فيها حاجة»[(١)].

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو داود الحَفَريّ، عن سُفيانَ، عن أبي إسحاق، عن مَطَرِ بن عُكَامِسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا قضى الله مَنِيَّةَ عبد بأرضٍ جعل له إليها حاجة»[(٢)].

وهكذا رواه الترمذي في «القدر»، من حديث سُفيان الثوري، به. ثم قال: «حسن غريب، ولا يعرف لمَطَرٍ عن النبي ـ ﷺ ـ غيرُ هذا الحديث»[(٢)]. وقد رَوَاه أبو داود في «المراسيل»، فالله أعلم.

وقال الإمامُ أحمدُ: «حَدَّثنا إسماعيلُ، حدثنا أيّوبُ، عن أبي المُلَيح بن أُسامَةَ، عن أبي عَزَّةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا أرادَ الله قبضَ رُوحِ عبدٍ بأرضٍ جَعَل له فيها حاجةً ـ أو قال: بها ـ حاجةً»[(٣)].

وأبو عَزّة هذا هو: يَسَارُ بنُ عَبْدِ الله، ويقال: ابنُ عَبدِ الهُذَلي[(٤)]. وأخرجه الترمذي من حديث إسماعيل بن إبراهيم ـ وهو ابن عُلَيّة ـ وقال: صحيح[(٣)].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن عِصَام الأصفهانيُّ، حدثنا المُؤَمَّلُ بن إسماعيلَ، حدثنا عُبَيد الله بن أبي حُمَيد، عن أبي المُلَيح، عن أبي عَزَّة الهذلي قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إذا أراد الله قبض عبدٍ بأرضٍ جَعَل له إليها حاجة، فلم ينته حتى يَقْدَمَها. ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿إن الله عنده علم الساعةِ وينزل الغيثَ ويعلَم ما في الأرحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسِب غداً وما تدري نفس بأيِّ أرض تموتُ إن الله عليم خبيرٌ﴾.

حديث آخر، قال الحافظ أبو بكر البَزّار:

حدثنا أحمد بن ثابت الجَحْدَريّ ومحمد بن يحيى القُطَعي قالا: حدثنا عُمر بن علي، حدثنا إسماعيلُ، عن قَيـس، عن عبدِ الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا أراد الله قَبْضَ عبدٍ بأرضٍ جَعَل له إليها حاجة». ثم قال البَزّارُ: وهذا الحديث لا نعلم أحداً يرفعُه إلا عُمَرَ بن علي المُقَدَّمِيُّ.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني سُلَيمان بن أبي شيخ قال: أنشدني مُحَمَّدُ بن الحَكَم لأعشى هَمْدان[(٥)]:

فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ ... سِوَى حَنُوطٍ غَدَاةَ البَيْنِ مَعْ خِرَقِ
وَغَيْرَ نَفْحَةِ أعْوَادٍ تُشَبُّ لَهُ ... وَقَلَّ ذَلِكَ مِنْ زَادٍ لِمُنْطَلِقِ!
لَا تَأسَيَنَّ عَلَى شَيْءٍ، فَكُلُّ فَتًى ... إلَى مَنِيَّتِهِ يَسِيرُ فِي عَنَقِ[(٦)]

---

(١) المعجم الكبير ١/١٧٨، وقال في مجمع الزوائد ٧/١٩٦: «رجاله رجال الصحيح».

(٢) مسند أحمد ٥/٢٢٧، وعارضة الأحوذي، أبواب القدر ٨/٣١٣-٣١٤.

(٣) مسند أحمد ٣/٤٢٩، وعارضة الأحوذي، أبواب القدر ٨/٣١٤.

(٤) أسد الغابة ٦/٢١٢.

(٥) البيتان الأولان في الصبح المنير في شعر أبي بصير والأعشين الآخرين ٣٣٦-٣٣٧، مع أبيات أخر.

(٦) العنق: السير السريع.

وَكُلُّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ الموتَ يُخْطِئُهُ مُعَلَّلٌ بِأَعَالِيلَ مِنَ الحُمُقِ
بِأَيِّمَا بَلْدَةٍ تُقْدَرْ مَنِيَّتُهُ إِنْ لا يُسَيَّرْ إِلَيهَا طَائِعاً يُسَقِ

أورده الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله ـ في ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، وهو أعشى هَمْدَان، وكان الشعبي زَوْجَ أُختِه، وهو مُزَوَّج بِأُختِ الشعبي أيضاً، وقد كان مِمَّن طَلَبَ العِلْم وتَفَقَّه، ثم عَدَل إلى صناعةِ الشعر فعُرِفَ به.

وقد رواه ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعُمَر بن شَبَّة، كلاهما عن عُمَر بن علي مرفوعاً: «إذا كان أجلُ أحدكم بأرض أَوْثَبَتْه إليها حاجة، فإذا بلغ أقصى أَثَرِه قَبَضه الله عزَّ وجلَّ، فتقول الأرض يوم القيامة: [رَبِّ]، هذا ما أودَعْتني»[1].

قال الطبراني[2]: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، عن أبي المليح، عن أسامة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما جعل الله منية عبد بأرض إلا جعل له إليها حاجة».

[آخر تفسير «سورة لقمان» والحمد لله رب العالمين، وهو حَسْبُنا ونعم الوكيل]

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٤٢٤ ـ ١٤٢٥ وأقصى أثره: غاية ما قُدِّر له من الأجل.
(٢) تقدَّم هذا الحديث من قريب!.

تفسير

سُورَةُ السَّجْدَةِ

وهي مكية

قال البخاريُّ في «كتاب الجُمُعة»: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا سُفيان، عن سَعد بن إبراهيم، عن عبد الرحمن ابن هُرمُزَ الأعرَج، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ يقرأُ في الفَجر يوم الجُمُعة: ﴿ الٓمٓ * تَنزِيلُ ﴾ السجدَة، و﴿ هل أتى على الإنسانِ ﴾[1]. ورَوَاه مسلمٌ أيضاً من حديثِ سفيانَ الثَّوريِّ، به[1].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أسودُ بن عامر، أخبرنا الحسنُ بن صالحٍ، عن لَيث، عن أبي الزُّبير، عن جابرٍ قال: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ لا ينامُ حتى يقرأ ﴿الٓمٓ * تنزيلُ ﴾ السجدةَ، و﴿ تبارك الذي بيده الملكُ ﴾. تفرَّد به أحمدُ[2].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ
قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ﴾

قد تَقدَّم الكلام على الحروف المقطَّعة في أول سورة البقرة بما أغنَى عن إعادَتِه.

وقولُه: ﴿ تنزيلُ الكتاب لا ريبَ فيه ﴾، أي: لا شكَّ فيه ولا مِرْيَة أنه مُنَزَّلٌ ﴿ من رب العالمين ﴾، ثم قال مُخبِراً عن المشركين: ﴿أم يقولون افتراه﴾، بل يقولون: ﴿افتراه﴾، أي: اختَلَقه من تِلْقاءِ نفسِه، ﴿بل هو الحقُّ من ربك لتنذِرَ قوماً ما أتاهم من نَذيرٍ من قَبْلِك لعلَّهم يهتدُون﴾، أي يتَّبِعُون الحقَّ

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا
شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥

---

(١) أخرجه في كتاب الجمعة، فتح الباري ٢/٣٧٧، ومسلم ٢/٥٩٩.

(٢) مسند أحمد ٣/٣٤٠.

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ﴾

يُخبِر تعالى أنَّه الخالقُ للأشياء، فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستَّةِ أيام، ثم استوى على العَرْش، وقد تقدم الكلام على ذلك[(١)]

﴿ ما لكم من دُونه من وَليٍّ ولا شَفيع ﴾، أي: بل هو المالكُ لأزمَّةِ الأمور، الخالقُ لكُلِّ شيءٍ، المُدبِّرُ لِكُلِّ شيءٍ القادِرُ على كُلِّ شيءٍ، فلا وَليَّ لخلْقِه سِواه، ولا شَفيعَ إلاَّ مِن بعدِ إذنه.

﴿ أفلا تَتذكَّرُون ﴾، يعني: أيُّها العابدُون غيرَه، المتوكِّلُون على مَن عَداه، تعالى وتَقدَّس وتنزَّه أن يكون له نظيرٌ أو شريك أو نَديدٌ، أو وَزير أو عَديل، لا إلَه إلا هُو، ولا ربَّ سِواه.

وقد أورد النسائي هاهنا حديثاً فقال: حدثنا إبراهيم بن يعقوب، حدثني محمد بن الصباح، حدثنا أبو عُبيدة الحدَّادُ، حدثنا الأخضَر بن عجلان، عن ابن جُرَيج المكِّي، عن عَطاءٍ، عن أبي هُريرة: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ أخذ بِيَدي فقال: «إنَّ الله خَلَق السمواتِ والأرضَ وما بينهما في ستَّةِ أيام، ثم استوى على العَرْشِ في اليوم السابع، فخلق التربةَ يومَ السبتِ، والجبالَ يومَ الأحدِ، والشجرَ يومَ الاثنين، والمكرُوهَ يومَ الثلاثاءِ، والنورَ يومَ الأربعاء، والدوابَّ يومَ الخميس، وآدمَ يومَ الجُمُعةِ في آخرِ ساعةٍ من النهارِ بعدَ العصر، وخَلَقه من أديمِ الأرضِ، بأحمَرِها وأسوَدِها، وطَيِّبِها وخَبيثِها، من أجل ذلك جعل الله من [بني] آدم الطيِّبَ والخَبيثَ»[(٢)].

هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتناً، وقد أخرج مُسلِمٌ والنسائيُّ أيضاً من حديث الحجَّاج بن مُحمَّدٍ الأعورِ، عن ابن جُرَيجٍ، عن إسماعيل بن أُميَّةَ، عن أيُّوبَ بن خالدٍ، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوٍ من هذا السياق[(٣)].

وقد عَلَّله البخاريُّ في كتابِ «التاريخ الكبير» فقال: «وقال بعضُهم: أبو هُرَيرةَ عن كعب الأحبار، وهو أصحُّ». وكذا عَلَّله غيرُ واحدٍ من الحُفَّاظ، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ يُدَبِّرُ الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾، أي: يَتنزَّلُ أمرُه من أعلى السموات إلى أقصى تُخومُ الأرضِ السابعةِ، كما قال الله تعالى: ﴿ الله الذي خَلَق سبعَ سمواتٍ ومِنَ الأرضِ مِثْلَهُنَّ يتنزَّلُ الأمرُ بينهنَّ لِتَعلمُوا أنَّ الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾

وتُرفَعُ الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مَسيرةُ خمسمائةِ سنةٍ، وسُمك السماءِ خَمسُمائةِ سنةٍ.

وقال مجاهدٌ، وقتادةُ، والضحاكُ: النزول من المَلك في مسيرةِ خمسمائةِ عامٍ، وصعوده في مَسيرة خمسمائةِ عامٍ، ولكنه يُقطَعُها في طَرْفَةِ عَينٍ، ولهذا قال تعالى: ﴿ في يَومٍ كانَ مقدارُه ألفَ سنةٍ مما تعدُّونَ ﴾[(٤)].

---

(١) انظر تفسير الآيات: ٥٤ من سورة الأعراف، والثالثة من سورة يُونُس، والثانية من سورة الرعد، ٥٩ من سورة الفرقان

(٢) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف ١٠/٢٦٤

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف، وخرجناه هنالك. وأخرجه النسائي أيضاً في كتاب التفسير من سُننه الكبرى، تحفة الأشراف ١٠/١٣٣.

(٤) تفسير الطبري ٢١/٩١ ـ ٩٢.

﴿ ذلك عالمُ الغيبِ والشهادةِ ﴾، أي: المدبِّرُ لهذه الأمورِ الذي هو شهيد على أعمالِ عبادِه، يرفع إليه جَليلها وحَقيرها، وصَغيرها وكَبيرها، هو ﴿ العزيزُ ﴾ الذي قد عزَّ كلَّ شيءٍ فقهره وغلَبه، ودانت له العبادُ والرقابُ، ﴿ الرحيمُ ﴾ بعباده المؤمنين، فهو عزيزٌ في رحمته، رَحيم في عِزَّته[1].

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩ ﴾

يقول تعالى: إنه الذي أحسن خَلْقَ الأشياءِ وأتقنَها وأحكمَها.

وقال مالكٌ، عن زيدِ بن[2] أسلَمَ: ﴿ الذي أحسنَ كُلَّ شيءٍ خَلقه ﴾، قال: وأحسن خَلْقَ كُلَّ شيءٍ، كأنه جَعَله من المقدم والمؤخر.

ثم لما ذكر خَلْقَ السمواتِ [والأرض] شَرَع في ذكر خلق الإنسان فقال: ﴿ وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طين ﴾، يعني خَلَق أبا البشر آدمَ من طينٍ ﴿ ثم جَعَل نَسْلَه من سُلالَةٍ من ماء مَهين ﴾، أي: يتَناسَلون كذلك من نُطفةٍ تخرجُ من بين صُلْب الرَّجُل وتَرائبِ المرأة، ﴿ ثم سَوّاه ﴾، يعني: آدم، لما خَلَقه سَويّاً مُستَقيماً، ﴿ ونَفَخ فيه من رُوحِهِ وجَعَل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدَةَ ﴾، يعني: العقولَ، ﴿ قليلاً ما تَشْكُرونَ ﴾، أي: بهذه القُوى التي رزقكموها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. فالسعيدُ من استعملها في طاعةِ رَبِّه عزَّ وجلَّ.

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعادَ حيثُ قالوا: ﴿ أئذا ضَلَلْنا في الأرض ﴾، أي: تَمزَّقت أجسامُنا وتفرَّقت في أجزاء الأرض وذَهَبت، ﴿ أئنا لفي خَلْقٍ جديدٍ ﴾؟ أي: أئنا لَنَعودُ بعد تلك الحال؟! يستبعدون ذلك، وذا إنما هو بعيدٌ بالنسبة إلى قُدَرِهم العاجزةِ، لا بالنسبة إلى قُدْرةِ الذي بَدأهم وخَلَقهم من العَدَم، الذي إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يَقُول له كُنْ فيكونُ، ولهذا قال: ﴿ بل هُم بلقاء رَبِّهم كافِرُون ﴾.

ثم قال: ﴿ قل يتوفاكم مَلَكُ الموت الذي وُكِّل بكم ﴾، الظاهر من هذه الآية أن مَلَك الموت شخصٌ معيَّنٌ من الملائكة، كما هو المتبادر من حديثِ البراء المتقدم في «سُورَةِ إبراهيم»[3]، وقد سُمّي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور، قاله قتادةُ وغيرُ واحدٍ، وله أعوان. وهكذا ورد في الحديثِ أن أعوانه ينتزِعُون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقومَ تناولها مَلَكُ الموتِ.

قال مجاهد: حُوِيَت[4] له الأرضُ فَجُعِلَت له مثلَ الطَّسْتِ، يتناوَلُ منها حيثُ يَشاءُ. ورواه زُهَير بن

---

(١) بعده في نسخة المحرم. وهذا هو الكمال، العزّة مع الرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذلّة.

(٢) لعلّ زيد بن أسلم كان يقرأ (خلْقه) بالتسكين، وهي قراءة مشهورة كما يقول الطبري، وقرأ بها من السبعة ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو. الإقناع لابن الباذش ٢/٧٣٣، وتفسير الطبري ٢١/٩٣.

(٣) انظر تفسير سورة إبراهيم، الآية ٢٧.

(٤) أي: جُمِعت.

محمد، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه مرسلاً[1]. وقاله ابنُ عباس رضي الله عنهما.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقرئ، حدثنا عمرو[2] بن شمر قال: سمعت جعفر بن محمد قال: سمعت أبي يقول: نظر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبي ـ ﷺ ـ: يا ملكَ الموت، ارفق بصاحبي فإنه مؤمن. فقال ملكُ الموت: يا محمدُ، طِبْ نفساً وقَرَّ عيناً فإني بكلِّ مؤمنٍ رفيقٌ، واعلم أنَّ ما في الأرض بيتُ مَدَرٍ ولا شَعَرٍ، في برٍّ ولا بحرٍ، إلا وأنا أتصفَّحه في كلِّ يوم خمسَ مرات، حتى إني لأعرِفُ بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله ـ يا محمدُ ـ لو أني أردتُ أن أقبضَ روحَ بعوضةٍ ما قدَرتُ على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها[3].

قال جعفرٌ: بلغني أنه إنما يتصفَّحهم في مواقيت الصلاة، فإذا حضرهُم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاةِ دنا منه المَلَكُ، ودَفَع عنه الشيطانَ، ولقَّنه المَلَكُ «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، في تلك الحال العظيمة.

وقال عبد الرزاق: حدثنا محمد بن مسلم، عن إبراهيم بن ميسرة قال: سمعت مجاهداً يقول: ما على ظهر الأرض من بيت شَعَرٍ أو مَدَرٍ إلا وملَكُ الموتِ يُطيف به كُلَّ يوم مرَّتين.

وقال كعبُ الأحبار: والله ما من بيتٍ فيه أحد من أهلِ الدنيا إلا ومَلَكُ الموتِ يقومُ على بابه كُلَّ يومٍ سبعَ مرَّاتٍ، ينظُر هل فيه أحد أُمِر به أن يتوفَّاه. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقولُه: ﴿ ثم إلى ربكم تُرجَعُون ﴾، أي: يومَ معادِكم وقيامكم من قُبُوركم لجزائكم.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن حال المشركين يومَ القيامة، وقالهم[4] حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدَي الله حقيرين ذليلين، ناكسي رؤوسهم، أي: من الحياء والخجل، يقولون: ﴿ ربَّنا أبصرنا وسمعنا ﴾، أي: نحنُ الآنَ نسمَعُ قولك ونُطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿ أسمع بهم وأبصرْ يومَ يأتوننا ﴾. وكذلك يعُودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلُوا النار بقولهم: ﴿ لو كنا نسمَعُ أو نعقِل ما كنا في أصحاب السَّعير ﴾. وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿ رَبَّنا أبصَرنا وَسَمِعنا فارجعنا ﴾ أي: إلى الدار الدنيا، ﴿ نعملْ صالحاً إنا مُوقنون ﴾، أي: قد أيقنَّا وتحققنا أن وعدَكَ حَقٌّ ولقاءَكَ حَقٌّ، وقد علِم الربُّ تعالى منهم أنه لو أعادَهُم إلى الدارِ الدنيا لكانُوا كما كانُوا فيها كفاراً يُكَذِّبون آياتِ الله ويُخالِفون رُسُلَه، كما قال: ﴿ ولو ترى إذ وُقِفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكذِّبَ بآياتِ ربِّنا ونكونَ من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانُوا يُخفون من قبلُ ولو رُدُّوا لعادُوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون * وقالوا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٦/٥٤٠ ـ ٥٤١.

(٢) في نسخة الحرم: عمرو بن سَمُرة. وفي غيرها: عُمر بن سمرة. والمثبت من الجرح لابن أبي حاتم ٦/٢٣٩، والمغني في الضعفاء للذهبي ٢/٤٨٥.

(٣) أخرجه أيضاً أبو الشيخ، الدر المنثور ٦/٥٤٣.

(٤) أي: قولهم.

إن هي إلا حياتنا الدُّنيا وما نحنُ بمبعوثين ﴾ وقال هاهنا: ﴿ ولو شئنا لآتينا كُلَّ نفس هداها ﴾ كما قال تعالى: ﴿ ولو شاء ربُّك لآمن من في الأرض كلُّهم جميعاً ﴾.

﴿ولكن حقَّ القولُ مني لأملأنَّ جهنَّم من الجنَّة والناس أجمعين﴾، أي: من الصِّنفين، فدارُهم[1] النار، لا محيد لهم عنها ولا مَحِيصَ لهم منها، نعوذُ بالله وكلماته التامَّة من ذلك.

﴿ فذُوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾، أي: يُقال لأهل النار على سبيل التَّقريع والتَّوبيخ: ذوقوا هذا العذابَ بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقُوعه، وتناسيكم له، إذ عاملتُموه مُعاملة من هو ناسٍ له، ﴿ إنا نسيناكم ﴾، أي: سنُعاملُكم معاملةَ الناسي، لأنه تعالى لا ينسَى شيئاً ولا يَضِلَّ عنه شيءٌ، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿ اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾.

وقولُه: ﴿ وذُوقُوا عذابَ الخُلد بما كنتم تعملون ﴾، أي: بسبب كُفركم وتكذيبكم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ لا يذُوقون فيها برداً ولا شراباً ● إلا حميماً وغسَّاقاً ● جزاءً وفاقاً ● إنهم كانوا لا يرجُون حساباً ● وكذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً ● وكلَّ شيءٍ أحصيناه كتاباً ● فذُوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ إنما يُؤمنُ بآياتنا ﴾، أي: إنما يُصدِّق بها ﴿ الذين إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سُجَّداً ﴾، أي: استَمعُوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً، ﴿ وسبَّحُوا بحمد ربِّهم وهُم لا يستكبرون ﴾، أي: عن اتِّباعها والانقياد لها، كما يفعلُه الجهَلة من الكَفَرة الفَجَرة، قال الله تعالى: ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخُلون جهنَّم داخرين ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ تتجافى جُنوبهم عن المضاجع ﴾، يعني بذلك قيامَ الليل، وتركَ النوم والاضطجاع على الفُرُش الوطيئة. قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: ﴿ تتجافى جُنوبهم ﴾، يعني بذلك قيامَ الليل.

وعن أنس، وعكرمةَ، ومحمد بن المنكدر، وأبي حازم، وقتادةَ: هو الصلاةُ بين العِشاءين. وعن أنس أيضاً: هو انتظار صلاة العَتمة. رواه ابن جرير بإسنادٍ جيِّد[2].

وقال الضحَّاكُ: هو صلاةُ العشاء في جَماعة، وصلاةُ الغَداة في جَماعة.

﴿ يدعُون ربَّهم خوفاً وطَمعاً ﴾، أي: خوفاً من وَبيل عِقابه، وطمعاً في جزيل ثوابه. ﴿ ومما رزقناهم يُنفقون ﴾، فيجمعُون بين فعل القُرُبات اللازمة والمتعدِّية، ومُقدَّم هؤلاء وسيِّدُهم وفخرُهم في الدنيا والآخرة رسولُ الله ـ ﷺ ـ كما قال عبد الله بن رَواحة رضي الله عنه[3]:

وفينا رسُولُ الله يتلُو كتابَه ... إذا انشقَّ معرُوفٌ من الصُّبح ساطعُ
أرانا الهُدَى بعد العَمى، فقلُوبُنا ... به مُوقناتٌ أنَّ ما قال واقعُ

(١) أي: عاقبتهم.
(٢) تفسير الطبري ٢١/١٠١. والعتمة: وقت صلاة العشاء الأخيرة.
(٣) ديوانه ٩٦، وتفسير الطبري ٢١/١٠٢، والقرطبي ١٤/١٠٠.

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إذا اسْتَثْقَلَتْ بالْمُشْرِكِين المضَاجِعُ

وقال الإمامُ أحمد: حَدَّثنا روحٌ وعفانُ قالا: حدثنا حمَّاد بن سَلمة، أخبرنا عطاءُ بنُ السائب، عن مُرَّة الهَمْدَانِيِّ، عن ابن مسعُودٍ، عن النبيِّ - ﷺ - قال: «عجب ربُّنا من رَجُلين: رجلٍ ثار من وطائه ولحافه، من بين حِبِّه[1] وأهله إلى صَلاَتِه، [2][فيقول ربُّنا: أيا ملائكتي، انظُروا إلى عَبْدِي، ثار من فرشِه ووطائِه، ومن بين حِبِّه[1] وأهلِه إلى صَلاَتِهِ][2] رغبةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي. ورَجُلٌ غزا في سبيل الله - عزَّ وجلَّ - فانهزمُوا، فعلم ما عليه من الفِرارِ، وما له في الرجوع، فرجع حتى أُهريقَ دمُه، رغبةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي. فيقول الله - عزَّ وجلَّ - للملائكة: انظُروا إلى عَبْدِي رَجَع رغبةً فيما عندي، ورهبةً مما عندي، حتى أُهرِيقَ دَمُه»[3].

وهكذا رواهُ أبو داودَ في «الجهاد»، عن موسى بن إسماعيل، عن حَمَّاد بن سَلمة، بنَحوه[3].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا مَعْمَر، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن أبي وائلٍ، عن معاذ بن جَبَلٍ قال: كنتُ مع النبيِّ - ﷺ - في سَفرٍ، فأصبحتُ يومًا قريباً منه، ونحن نَسِيرُ، فقلتُ: يا نبيَّ الله، أخبرني بعملٍ يُدخِلني الجنة ويُباعدني من النار. قال: لقد سألتَ عن عظيمٍ، وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه، تعبد الله ولا تشركُ به شيئاً، وتُقيمُ الصلاةَ، وتُؤتي الزكاةَ، وتصومُ رمضان، وتحجُّ البيتَ. ثم قال: ألا أدُلُّكَ على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّةٌ، والصدقةُ تطفِئُ الخطيئةَ، وصلاةُ الرجل في جَوف الليل. ثم قرأ: ﴿ تتجافى جنوبُهم عن المضاجع ﴾، حتى بَلَغ ﴿ يعملُون ﴾. ثم قال: ألا أخبرُكَ برأسِ الأَمْرِ وعَمُودِه وذِرْوَةِ سَنامه؟ فقلتُ: بَلَى، يا رسولَ الله. فقالَ: رأس الأمر الإسلام، وعمودُه الصلاةُ، وذِرْوةُ سنامه الجهادُ في سبيل الله. ثم قال: ألا أُخبِرُكَ بِمِلاكِ ذلك كُلِّه؟ فقلت: بَلَى، يا نبي الله. فأخذ بِلِسانِه ثم قال: كُفَّ عليكَ هذا. فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخَذُون بما نتكلَّم به. فقال: ثكلتك أُمُّكَ يا مُعاذُ، وَهل يَكُبُّ الناسَ في النارِ على وُجُوهِهم - أو قال: على مَنَاخِرِهم - إلا حصائدُ أَلسِنَتِهم»[4].

ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه في سُنَنِهم، من طرق عن مَعْمر، به. وقال الترمذيُّ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ»[5].

وقد رَوَاه ابنُ جَرِيرٍ من حديث شُعْبَةَ، عن الحكم قال: سَمِعتُ عروة بن النزال[6] يحدث عن معاذ بن جبل: أن رسول الله - ﷺ - قال له: ألا أدُلُّك على أبواب الخير: الصوم جُنَّةٌ، والصدقةُ تُكَفِّر الخطيئةَ، وقيامُ العبدِ في جَوفِ الليل، وتلا هذه الآيةَ: ﴿ تَتَجافَى جُنُوبُهم عن المضاجِعِ يدعُون رَبَّهم خوفاً وطمعاً ومِمَّا رزقناهم يُنفِقُون ﴾.

---

(١) في نسخة الحرم: «من بين جنبه وأهله». ولفظ المسند: «من بين أهله وحيه» والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٢١/١٠، وفيه: «حِبِّه». وهي أنسب.

[٢ - ٢] عن المسند.

(٣) مسند أحمد ٤٦١/١، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ١٩/٣ - ٢٠.

(٤) مسند أحمد ٢٣١/٥.

(٥) عارضة الأحوذي، أبواب الإيمان ٨٧/١٠ - ٨٨، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، تحفة الأشراف ٣٩٩/٨، وابن ماجه، كتاب الفتن ١٣١٤/٢ - ١٣١٥.

(٦) في تفسير الطبري ١٠٢/٢١، ونسخة الحرم: عروة بن الزبير. وصوابه: عروة بن النزال، والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٣٧/٥ عن محمد بن جعفر، عن شعبة، عن الحكم، عن عروة بن النزال.

وَرَواه أيضاً من حديثِ الثَّوري، عن مَنصُورِ بنِ المُعتَمِر، عن الحكم، عن مَيْمُونِ بن أبي شَبيب، عن معاذ عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه. ومن حديث الأعمش، عن حَبيب بن أبي ثابت والحكم، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ مرفوعاً بنحوه. ومن حديث حماد بن سلمة، عن عاصم بن أبي النَّجُود، عن شَهرٍ، عن معاذ بن جبل، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله تعالى: ﴿ تَتجافى جُنُوبُهم عن المَضاجع ﴾، قال: قيامُ العبدِ من اللَّيلِ[(1)]

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان الواسطي، حدثنا يزيدُ بن هارون، حدثنا فِطر بن خليفَة، عن حبيب بن أبي ثابت والحكم وحَكِيم بن جُبَير، عن ميمون بن أبي شَبيب، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ـ ﷺ ـ في غزوة تَبوكَ فقال: إن شئت أنبأتك بأبواب الخير: الصومُ جُنَّةٌ، والصدقة تُطفيء الخطيئةَ، وقيام الرجل في جَوفِ الليل، ثم تلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ. ﴿تَتجافى جُنُوبهم عن المَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهم خوفاً وطَمَعاً ومما رَزَقناهم يُنفِقُون﴾.

ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا سُوَيد بن سَعيد، حدثنا عَلِي بن مُسهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حَوْشَبٍ، عن أسماءَ بنت يَزيدَ قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إذا جَمَعَ الله الأولين والآخرين يومِ القيامة جاء منادٍ فنادى بصوت يُسمِعُ الخلائقَ: سَيَعلم أهلُ الجمع اليومَ مَن أولى بالكرم. ثم يرجع فينادي: لِيقُم الذين كانت ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾... الآية، فيقومون وهُم قليل»[(2)].

وقال البَزَّار: حدثنا عبدُ الله بن شَبيب، حدثنا الوليد بنُ عطاء بن الأغَرّ، حدثنا عبد الحميد بن سُلَيمان، حدثني مُصعَب، عن زيدِ بن أسلَمَ، عن أبيه قال: قال بلالٌ لما نزَلَت هذه الآية: ﴿ تتجافى جُنوبُهم عن المضاجع ﴾... الآية. كنا نجلسُ في المجلس، وناسٌ من أصحابِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ يُصَلُّون بعد المغربِ إلى العشاء، فنزلت هذه الآيةُ: ﴿ تتجافى جُنُوبُهم عن المضاجع ﴾.

ثم قال: «لا نعلَم روى أسلم عن بلالٍ سواه، وليس له طريقٌ عن بلالٍ غير هذه الطريق»[(3)].

وقولُه: ﴿فلا تعلَم نفسٌ ما أُخفِيَ لهم من قُرَّةِ أعيُنٍ جزاءً بما كانُوا يعملون﴾، أي: فلا يعلَمُ أحد عظمة ما أخفَى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يَطَّلع على مثلها أحد، لَمّا أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثوابِ جَزاءً وِفاقاً؛ فإن الجَزاء من جِنسِ العَمَل.

قال الحسن البصريّ: أخفى قوم العمل فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطُر على قلب بَشرٍ. رواه ابن أبي حاتم.

قال البخاريُّ: قولُه: ﴿ فلا تعلَمُ نفسٌ ما أُخفِي لهم من قُرَّةِ أعيُنٍ ﴾... الآية.

حَدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعتْ، ولا خَطَر على قَلْب بَشَرٍ». قال أبو هُرَيرَةَ: فاقرءُوا إن شئتم: ﴿ فلا تعلَمُ نفسٌ ما أُخفِي لهم من قُرَّةِ أعيُنٍ ﴾[(4)].

قال: وحَدَّثنا سفيانُ، حدثنا أبو الزِّنادِ، عن الأعرجِ، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال الله مِثْلَه، قيل لسفيان: روايةً؟ قال: فأيُّ شيء[(4)]؟

(١) تفسير الطبري ٢١/١٠٢ ـ ١٠٣.
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٣٧ من سورة النور، من هذه الطريق.
(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار ٣/٦٥.
(٤) فتح الباري، كتاب التفسير ٨/٥١٥

ورواه مُسلمٌ والترمذيُّ من حديث سفيان بن عُيَيْنة، به. وقال الترمذي: «حَسن صحيح»(١).

ثم قال البخاري: حدثنا إسحاق بن نصر حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي ـ ﷺ ـ: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر، ذُخْراً مِنْ بَلْهِ ما أُطْلِعتُم عليه»(٢)، ثم قرأ: ﴿فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفيَ لهم من قرّة أعيُنٍ جزاءً بما كانوا يعمَلُون﴾(٣).

قال أبو معاويةَ، عن الأعمش، عن أبي صالح: قرأ أبو هُريرَةَ: ﴿قُرّات أعيُنٍ﴾(٣). انفرد به البُخاريُّ من هذا الوَجْه(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدَّث أبو هُرَيرةَ عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الله تعالى قال: أعددتُ لعبادِي الصالحِينَ ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سَمِعت، ولا خطر على قَلْبِ بَشَرٍ»(٥).

أخرجاه في الصحيحين من رواية عبد الرزاق(٦). ورواه الترمذي في التفسير، وابنُ جرير، من حديث عبد الرحيم بن سليمان، عن محمد بن عَمْرو، عن أبي سلمة، عن أبي هُريرة ـ رَضِي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ بمثله. ثم قال الترمذي: «هذا حديث حَسَنٌ صحيح»(٧).

وقال حَمَّاد بن سَلَمةَ، عن ثابتٍ، عن أبي رافعٍ، عن أبي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال حَمَّاد: أحسبه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مَن يَدخُل الجنَّةَ ينعَم لا يَبْأَسُ، لا تبلى ثيابُهُ، ولا يفنى شبابه، في الجَنَّة ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سَمِعت، ولا خَطَر على قَلْبِ بَشَرٍ». رواه مُسلمٌ من حَديثِ حَمَّادِ بن سَلَمةَ، به(٨).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هارونُ، حدثنا ابنُ وهبٍ، حدثني أبو صَخْرٍ، أنَّ أبا حازم حَدَّثه قال: سَمِعتُ سهل بن سَعد الساعديَّ ـ رضي الله عنه ـ يقول: شَهِدتُ مِن رسول الله ـ ﷺ ـ مَجلِساً وصَفَ فيه الجنةَ، حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُن سَمِعت، ولا خَطَر على قَلْبِ بَشَرٍ، ثم قرأ هذه الآية: ﴿تتجافى جنُوبُهم عن المضاجع يدعُون ربَّهم خوفاً وطمعاً﴾، إلى قوله ﴿يعملون﴾(٩).

وأخرجه مسلم في صحيحه عن هارونَ بن معْروفٍ، وهارونَ بن سَعيدٍ، كلاهُما عن ابن وَهبٍ، به(٩).

وقال ابنُ جَرير: حدثني العباسُ بنُ أبي طالب، حدثنا مُعلّى بنُ أسَدٍ، حدثنا سَلّام بن أبي مُطيع، عن

---

(١) فتح الباري، كتاب التفسير ٨/٥١٥، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٧٤، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة السجدة ١٢/٧٤ ـ ٧٥

(٢) قال الخطابي: كأنه يقول: دَعْ ما أُطلِعتُم عليه فإنه سهلٌ في جنب ما اُدّخرَ لهم. ويقول ابن جعفر وغيره: أي ما ذكره الخطابي ـ لأن بشرح (بله) بغير تقدم (من) عليها، وأما إذا تقدمت (من) عليها فقد قيل هي بمعنى كيف، ويقال بمعنى أجل، ويقال: بمعنى غير أو سوى، وقيل بمعنى فضل. فتح الباري ٨/٥١٦

(٣) فتح الباري ٨/٥١٥ ـ ٥١٧.

(٤) قال في الفتح ٨/٥١٧: «وصله أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، له، عن أبي معاوية بهذا الإسناد، مثله سواء وأخرج مسلم الحديث كلّه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي معاوية». وحديث مسلم في كتاب الجنة ٤/٢١٧٥

(٥) مسند أحمد ٢/٣١٣.

(٦) لم تقع لنا رواية عبد الرزاق في الصحيحين. والحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، من رواية عبد الله بن المبارك، عن معمر فتح الباري ١٣/٤٦٥.

(٧) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الواقعة ١٢/١٧٨ ـ ١٧٩، وتفسير الطبري ٢١/١٠٥

(٨) أخرجه الطبري ٢١/١٠٦، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٨٠

(٩) مسند أحمد ٥/٣٣٤، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٧٥.

قتادة، عن عُقبة بن عبد الغافر، عن أبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ يَرْوِي عن رَبِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ قال: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سَمِعت، ولا خَطر على قلب بَشرٍ[١] لم يخرجوه

وقال مسلم أيضاً في صحيحه: حدثنا ابنُ أبي عُمَرَ وغيره، حدثنا سفيانُ، حدثنا مُطرِّفُ بن طَريفٍ وعبدُ الملك بنُ سعيدٍ، سَمِعَا الشعبيَّ يخبرُ عن المغيرة بن شُعبةَ قال: سَمِعتُه على المنبر ـ يرفعُه إلى النبي ـ ﷺ ـ قال: «سأل موسى ـ عليه السلام ـ ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ: ما أدنى أهلِ الجنة منزلةً؟ قال: هو رجلٌ يجيءُ بعدما أدخِلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، فيقال له: ادخلِ الجنةَ. فيقول: أيْ ربِّ، كيف وقد نَزَل الناس منازلهم، وأخذوا أَخَذَاتهم[٢]؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِكٍ من مُلُوكِ الدنيا؟ فيقول: رَضِيتُ ربِّ. فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رَضِيت ربِّي. فيقول: هذا لك وعشرةُ أمثاله، ولك ما اشتهت نفسُك ولَذَّت عينُك. فيقول: رضيتُ ربِّ. قال: ربِّ، فأعلاهُم منزلةً؟ قال: أولئك الذين أردتُ غَرَسْتُ كرامَتَهم بيَدِي، وخَتَمتُ عليها، فلم تَرَ عينٌ، ولم تسمعْ أُذُنٌ، ولم يَخطُر على قلب بَشرٍ، قال ومصداقُه من كتاب الله: ﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قُرَّة أعيُنٍ جزاء بما كانوا يعملون﴾»[٣]

ورواه الترمذي عن ابن أبي عُمَر، به وقال: «حسن صحيحٌ». قال: «وَرَوَاه بعضُهم عن الشعبي، عن المغيرة ولم يَرفعه، والمرفوع أصح»[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفرُ بنُ مُنيرٍ المدائني، حدثنا أبو بدر شجاعُ بن الوليد، حدثنا زياد بن خَيْثَمة، عن محمد بن جُحَادة، عن عامر بن عبد الواحد قال: بلغني أنَّ الرجُلَ من أهل الجنَّةِ يمكثُ في مكانه سبعينَ سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأةٍ أحسَنَ مما كان فيه، فتقول له: قد أنَى لك أن يكون لنا منك نصيبٌ. فيقول: من أنت؟ فتقول. أنا من المَزيد. فيمكث معها سبعين سنة، ويلتفتُ فإذا هو بامرأة أحسَنَ مما كان فيه، فتقول له: قد أنَى لك أن يكون لنا منك نصيبٌ. فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا الذي قال الله: ﴿فلا تعلم نفسٌ ما أُخفِيَ لهم من قُرَّة أعيُن﴾[٤].

وقال ابن لَهِيعة: حدثني عطاءُ بن دينار، عن سَعيد بن جُبَير قال: تدخُل عليهم الملائكة في مقدار كلِّ يوم من أيام الدنيا ثلاثَ مَرَّاتٍ، معهم التُّحَف من الله من جناتِ عدنٍ ما ليسَ في جنَّاتِهم، وذلك قوله. ﴿فلا تعلَمُ نفسٌ ما أُخفي لهم من قرة أعين﴾، ويُخبرُون أنَّ الله عنهُم راضٍ[٥].

وقال ابن جرير: حدثنا سهلُ بن مُوسَى الرازيُّ، حدثنا الوليد بن مسلم، عن صَفوان بن عمرو، عن أبي اليمانِ الهَوْزَنيِّ ـ أو غيره ـ قال: الجنةُ مائةُ درجةٍ، أوّلها درجةُ فضَّةٍ، وأرضها فضةٌ، ومساكنها فضة، وآنيتُها فضةٌ وتُرابُها المسكُ. والثانية ذهبٌ، وأرضُها ذهبٌ، ومساكنها ذهَبٌ، وآنيتها ذَهَبٌ، وتُرابُها المسكُ. والثالثة لؤلؤ، وأرضها لؤلؤ، ومساكنُها اللؤلؤ، وآنيتُها اللؤلؤ، وتُرابها المسكُ وسبع وتسعون بعد ذلك، ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سَمِعت، ولا خَطَر على قلب بَشرٍ. ثم تلا هذه الآية: ﴿فلا تَعْلَم نفسٌ ما أُخفِيَ لهم من قُرَّةِ أَعْيُـنٍ جزاءً بما كانُوا يَعْمَلُون﴾[٦].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/١٠٦.
(٢) أخذوا أخذاتهم: هو ما أخذوه من كرامة مولاهم وحصَّلوه.
(٣) مسلم، كتاب الإيمان ١/١٧٦، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة السجدة ١٢/٧٥ ـ ٧٨
(٤) الدر المنثور عن ابن أبي حاتم وحده ٦/٥٤٩ ـ ٥٥٠. وأنى لك: حان.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة، الدر المنثور ٦/٥٥٠
(٦) تفسير الطبري ٢١/١٠٥.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا مُعتمِرُ بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغطريفِ، عن جابرِ بن زيد، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ عن الرُّوح الأمين قال: «يُؤتى بحسنات العبد وسيئاته، فَيَنْقُصُ بعضُها من بعض، فإن بَقِيت حسنةٌ واحدةٌ وسَّعَ الله له في الجنّةِ». قال: فدخلت على «يزداد» فَحدّثَ بمثلِ هذا الحديث، قال. فقلت: فإن[1] ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسنَ ما عمِلُوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعْدَ الصدق الذي كانوا يُوعدُون ﴾[2] قلت قولَه تعالى. ﴿ فلا تعلَمُ نفسٌ ما أُخفِيَ لهم من قُرَّةِ أعيُنٍ ﴾، قال: العبد يعمل سراً أسرَّه إلى الله، لم يُعلِم به الناس، فأسَرَّ له يومَ القيامةِ قُرَّةَ أعيُنٍ[3].

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يُساوي في حُكمه يوم القيامة مَن كان مؤمناً بآياته مُتَّبِعاً لرُسُله، بمن كان فاسقاً، أي: خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرُسُلِ الله إليه، كما قال تعالى: ﴿ أم حَسِبَ الذين اجترحُوا السيِّئاتِ أن نجعلَهم كالذين آمنوا وعمِلوا الصَّالِحاتِ سواءً محياهُم ومماتُهم ساءَ ما يحكُمُون ﴾، وقال تعالى: ﴿ أم نجعلُ الذين آمنُوا وعَمِلوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعلُ المتَّقين كالفُجّار ﴾، وقال تعالى: ﴿ لا يَستَوِي أصحابُ النار وأصحابُ الجَنّةِ أصحابُ الجَنّةِ هم الفائِزُون ﴾. ولهذا قال تعالى ها هنا: ﴿ أفمن كان مؤمناً كَمَن كان فاسِقاً لا يَستَوُونَ ﴾، أي: عند الله يومَ القيامة.

وقد ذَكَر عطاءُ بن يَسار والسُّدّي وغيرهما أنها نَزَلت في عَلِيِّ بن أبي طالب، وعُقبَةَ بن أبي مُعَيطٍ[4]. ولهذا فَصَّل حُكمهم فقال: ﴿ أمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾، أي: صَدَّقت قلوبهم بآيات الله وعَمِلُوا بمقتضاها، وهي الصالحاتُ، ﴿ فلهم جنّاتُ المأوَى ﴾، أي: التي فيها المساكنُ والدُّورُ والغُرَفُ العالية، ﴿ نُزُلاً ﴾، أي: ضيافةً وكرامةً ﴿ بما كانوا يعملون * وأما الذين فَسَقُوا ﴾، أي: خَرَجُوا عن الطاعة، ﴿ فمأواهم النار كُلّما أرادُوا أن يَخرُجُوا منها أُعِيدُوا فيها ﴾، كقوله. ﴿ كُلّما أرادُوا أن يَخرُجُوا منها من غَمٍّ أُعِيدُوا فيها ﴾.

---

(١) في النسخ وتفسير الطبري: فأين والصواب من الدر المنثور ٦/٥٥١، وسياقة الحديث في سورة الأحقاف

(٢) الآية ١٦ من سورة الأحقاف. وسيُذْكر الحديث عند تفسير هذه الآية. وقد ذكر ابن كثير هنالك أن ابن أبي حاتم أخرجه كذلك، وقال ابن كثير: «وهو حديث غريب، وإسناده جيِّدٌ لا بأس به».

(٣) أخرجه أيضاً الطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان الدر المنثور ٦/٥٥١

(٤) أخرج أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني، والواحدي، وابن عدي، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر من طرق عن ابن عباس، وأخرج ابن إسحق وابن جرير، عن عطاء بن يسار، وابن أبي حاتم عن السدي أن الوليد بن عقبة قال لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: أنا أحدُّ منك سناناً، وأبسط منك لساناً، وأردّ منك للكتيبة. فقال له علي ـ رضي الله عنه ـ اسكت، فإنك أنت فاسق فنزلت الآية: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾ كما أخرجه ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس، وفيه أن الفاسق عقبة بن أبي معيط. انظر الدر المنثور ٦/٥٥٣، وتفسير الطبري ٢١/١٠٧

قال الفُضَيل بن عياض: والله إن الأيدي لَمُوثَقة، وإن الأرجُلَ لَمُقيَّدة، وإنَّ اللهَبَ لَيَرفَعُهم، والملائكة تَقمَعُهم.

﴿وقيل لهم ذُوقُوا عذابَ النارِ الذي كُنتم به تُكَذِّبونَ﴾، أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

وقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِن العذابِ الأدنى دونَ العذابِ الأكبرِ﴾، قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى مَصَائِبَ الدنيا وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه. ورُوي مثله عن أبي بن كعب، وأبي العالية، والحسن، وإبراهيم النَّخعي، والضحاك، وعلقمة، وعطية، ومجاهد، وقتادة، وعبد الكريم الجَزَري، وخُصَيف، وقال ابن عباس ـ في رواية عنه ـ: يعني به إقامة الحدُود عليهم. وقال البَرَاء بن عازبٍ، ومجاهدٌ، وأبو عُبَيدَةَ: يعني به عذابَ القبر.

وقال النسائي: أخبرنا عمرو بن علي، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي، عن إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوص وأبي عُبَيدة، عن عبد الله: ﴿ ولنذيقنَّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾، قال: سِنُون أصابتهُم[1].

وقال عبدُ الله ابنُ الإمامِ أحمدَ: حدثني عُبَيد الله بن عُمَر القَوَارِيريّ، حدثنا يحيى بنُ سَعِيد، عن شُعبَةَ، عن قتادة، عن عَزْرَةَ، عن الحسن العُرَني، عن يحيى بن الجَزَّار، عن ابن أبي ليلى، عن أُبيِّ بنِ كعبٍ في هذه الآية: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهم من العذابِ الأَدنى دُونَ العذابِ الأَكبَرِ ﴾، قال: المصيبات والدخان قد مضيا، والبطشة واللِّزام[2].

ورواه مسلم من حديث شعبة، به موقوفاً نحوه. وعند البخاري عن ابن مسعود، نحوه[3].

وقال عبد الله بن مسعود أيضاً، في رواية عنه: العذاب الأدنى: ما أصابهم من القتلِ والسَّبي يوم بَدْرٍ: وكذا قال مالك، عن زيد بن أسلم[4].

قال السُّدِّيُّ وغيره: لم يبق بيتٌ بمكةَ إلا دَخَله الحزنُ على قَتيلٍ لهم أو أسيرٍ، فأُصيبُوا أو غرِمُوا، ومنهم من جُمِعَ له الأمران.

وقولُه: ﴿ ومَن أظلَمُ ممن ذُكِّر بآياتِ ربِّه ثم أعرضَ عنها ﴾، أي: لا أظلم ممن ذكَّرَه الله بآياته وبيَّنها له ووضَّحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرضَ عنها وتناساها، كأنه لا يَعرِفُها.

قال قتادة ـ رَحِمَه الله ـ إياكم والإعراضَ عن ذكرِ الله، فإنَّ من أعرضَ عن ذكرِهِ فقد اغترَّ أكبرَ الغِرَّةِ، وأعْوَزَ[5] أشدَّ العَوَزَة، وعَظُمَ من أعظمِ الذُّنوبِ.

ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿ إنا من المجرمين مُنتقِمُون ﴾، أي: سأنتقمُ ممن فَعَل ذلك أشدَّ الانتقام.

وقال ابنُ جرير: حدَّثني عِمرانُ بن بَكّار الكَلاعِيُّ، حدثنا محمد بن المُبَارك، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاشٍ، حدثنا عبد العزيز بن عُبَيد الله، عن عُبادة بن نُسَيٍّ، عن جُنادة بن أبي أُمَيَّة، عن مُعاذِ بن جَبَل قال:

(١) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى. انظر تحفة الأشراف للمزي ٧/١٢٩.
(٢) مسند أحمد ٥/١٢٨. وتقدم تفسير غريبه أول سورة الروم.
(٣) مسلم، كتاب صفة القيامة ٤/٢١٥٧ ـ ٢١٥٨، وفتح الباري، تفسير سورة الدخان ٨/٥٧٤.
(٤) أخرجه الحاكم وصححه ٢/٤١٤، وانظر الدر المنثور ٦/٥٥٤.
(٥) كذا في نسخة الحرم. وفي غيرها: أعور أشد العوز. وأعوز: افتقر. والإعواز: وهو ما أثبت. الرِّيبة. ورجل مُعْوِز: قليل الشيء.

سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول. ثلاثٌ من فعلهنَّ فقد أجرم من عقد لواءً في غير حقٍّ، أو عقَّ والديه، أو مشى مع ظالم ينصُره، فقد أجرَمَ، يقول الله تعالى. ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾.

ورَواه ابنُ أبي حاتم، من حديثِ إسماعيلَ بنِ عيَّاشٍ، به. وهذا حديثٌ غريبٌ جداً.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسُوله موسى - عليه السلام - أنه آتاه الكتاب وهو التوراة.

وقولُه: ﴿ فلا تكُن في مِرْيَةٍ من لقائِه ﴾، قال قتادةُ يعني به ليلةَ الإسراء. ثم رَوَى عن أبي العاليةِ الرِّياحيِّ قال: حَدَّثني ابنُ عَمِّ نبيِّكم - يعني ابنَ عباس - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «أُريتُ ليلةَ أُسرِيَ بي موسى بنَ عمران رجلا آدمَ طُوَالا جَعْداً، كأنه من رِجالِ شَنُوءَة. ورأيتُ عيسى رجلا مَرْبُوعَ الخَلْق، إلى الحُمْرَةِ والبياض، سَبْطَ الرأسِ. ورأيت مالكاً خازنَ النار والدجال، في آيات أراهُنَّ الله إيَّاه، ﴿ فلا تكُن في مِرْيَةٍ من لقائه ﴾، أنه قد رأى موسى، ولَقِيَ موسَى ليلةَ أُسرِي به»[1].

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شَيْبَةَ، حدثنا الحسن بن علي الحُلْواني، حدثنا رَوحُ بن عُبادَةَ، حدثنا سَعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ، عن أبي العالية، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - في قوله: ﴿ وجعلناه هُدًى لبني إسرائيلَ ﴾، قال: «جُعِل موسى هُدًى لبني إسرائيلَ، وفي قوله: ﴿ فلا تكُن في مريةٍ من لقائِه ﴾، قال: من لقاء موسى ربه عزَّ وجلَّ»[2].

وقولُه: ﴿ وجعلناهُ ﴾، أي: الكتابَ الذي آتيناه ﴿ هُدًى لبني إسرائيل ﴾، كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وآتينا موسى الكتابَ وجعلناه هُدًى لبني إسرائيل ألَّا تتخذوا من دوني وكيلا ﴾.

وقولُه: ﴿ وجعلنا منهم أئمةً يهدُون بأمرنا لما صَبَرُوا وكانوا بآياتنا يُوقنُون ﴾، أي: لما كانوا صابرينَ على أوامرِ الله وتركِ نواهيه وزواجره، وتصديقِ رسله، واتباعهم فيما جاءوهم به، كان منهم أئمةٌ يهدُون إلى الحق بأمر الله، ويدعُون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهَون عن المنكر. ثم لما بَدَّلوا وحرَّفوا وأوَّلوا سُلِبوا ذلك المقامَ، وصارت قلوبُهم قاسيةً، يُحَرِّفون الكَلِم عن مَواضِعه، فلا عَمَلَ صالحاً، ولا اعتقادَ صَحيحاً. ولهذا قال: ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتابَ ﴾[3].

قال قتادة وسفيان: ولما صَبَروا عن الدنيا. وكذلك قال الحسنُ بن صالح. قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكونَ إماماً يُقتدَى به حتى يتَجافَى عن الدنيا. وقال وكيع: قال سفيان: لا بد للدِّين من العلم، كما لا بُدَّ للجَسَد من الخُبز.

وقال ابنُ بنت الشافعي: قرأ أبي على عمي، أو عَمِّي على أبي. سُئِل سفيان عن قول علي - رضي الله

---

(١) تقدم الحديث في مفتتح سورة الإسراء، وخرجناه هنالك.

(٢) المعجم الكبير ١٢/١٦٠.

(٣) من الآية ١٦ من سورة الجاثية.

عنه ـ: الصبرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدُون بأمرنا لما صَبَرُوا ﴾، قال: لما أخذوا برأس الأمر صَارُوا رؤوساً.

قال بعضُ العلماء: بالصبر واليقين تُنَالُ الإمامةُ في الدين.

(١)[ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيلَ الكتابَ والحُكم والنبوّةَ ورزقناهُم من الطيِّبات وَفَضَّلناهم على العالمين* وآتيناهم بيناتٍ من الأمرِ فما اختلفُوا إلا من بعدِ ما جاءهم العلم ﴾، كما قال هنا](١): ﴿ إن ربَّك هو يفصِلُ بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾، أي: من الاعتقاداتِ والأعمال.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾

يقول تعالى: ﴿ أوَلَم يَهْدِ لهم ﴾، أي: أوَلم يُبيِّن لهؤلاء المكذِّبين بالرسُل ما أهلَك الله قبلَهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من قويم السُّبُلِ، فلم يبقَ منهم باقيةٌ ولا عينٌ ولا أثرٌ؟ ﴿ هل تُحِسُّ منهم من أحدٍ أو تسمعُ لهم رِكْزاً ﴾، ولهذا قال: ﴿ يمشُون في مساكنهم ﴾، أي: وهؤلاء المكذِّبون يمشُون في مساكنِ أولئك المكذِّبين، فلا يَرَون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمُرها، ذهبوا منها ﴿ كأن لم يغنَوا فيها ﴾، كما قال: ﴿فتلك بيوتُهم خاويةً بما ظلمُوا﴾، وقال: ﴿ فكأيِّن من قرية أهلكناها وهي ظالمةٌ فهي خاويةٌ على عُرُوشها وبئرٍ مُعطَّلةٍ وقصرٍ مشيد * أفلم يسيرُوا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿ إن في ذلك لآياتٍ ﴾، أي: إنّ في ذَهابِ أولئك القوم ودَمارهم وما حلّ بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاةِ مَن آمن بهم، لآياتٍ وعِبَراً ومواعِظَ، ودلالات ظاهرة. ﴿ أفلا يسمعون ﴾، أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم؟

وقولُه: ﴿ أوَلم يروا أنا نسوقُ الماءَ إلى الأرض الجُرُز ﴾، يبين تعالى لُطفه بخلقه، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إمَّا من السماء أو من السَّيح ، وهو: ما تحمِلهُ الأنهار ويحدِرُ من الجبال، إلى الأراضي المحتاجَة إليه في أوقاته، ولهذا قال: ﴿ إلى الأرضِ الجُرُز﴾، وهي: التي لا نباتَ فيها، كما قال تعالى: ﴿ وإنا لجاعِلُون ما عليها صَعيداً جُرُزاً ﴾، أي: يَبَساً لا تنبتُ شيئاً. وليس المرادُ من قوله: ﴿ إلى الأرض الجُرُز ﴾، أرضَ مصرَ فقط، بل هي بعضُ المقصود، وإنْ مثّل بها كثيرٌ من المفسرين فليست هي المقصودَة وحدَها، ولكنها مُرادةٌ قطعاً من هذه الآية، فإنها في نفسِها أرضٌ رِخوةٌ غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدّمت أبنيتها، فَيَسُوق الله إليها النيلَ بما يتحمَّلُه من الزيادةِ الحاصلةِ من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طينٌ أحمرُ، فيَغشى أرضَ مصرَ، وهي أرضٌ سَبِخَةٌ مُرمِلَة محتاجةٌ إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضاً، لينبُتَ الزرعُ فيه، فيَستغِلُّون كلَّ سنةٍ على ماءٍ جديدٍ ممطُورٍ في غير بلادهم، وطينٍ جديدٍ من غير أرضهم، فسبحانَ الحكيم الكريمِ المنَّان المحمود أبداً.

قال ابنُ لهيعة، عن قيس بن حجاج، عمَّن حدَّثه قال: لما فُتِحت مصرُ، أتى أهلُها عَمْرو بن العاص، وكان أميراً بها، حين دخل بَئونةُ من أشهُر العَجَم، فقالوا: أيها الأمير، إنَّ لِنيلِنا سُنَّة لا يجري إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت ثنتا عشرةَ ليلة خَلت من هذا الشهر عَمَدنا إلى جارية بِكْرٍ من أَبَوَيها، فأرضينا أبَوَيها، وجعلنا

(١ ـ ١) من الطبعات السابقة

عليها من الحُليّ والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عمرو: إنّ هذا ما لا يكون في الإسلام، إنّ الإسلام يهدِمُ ما كان قبله. فأقاموا بَئُونة والنيلُ لا يجري، حتى همُّوا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عُمرَ بن الخطاب بذلك، فكتب إليه: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وقد بعثت إليك بطاقةً داخل كتابي هذا، فألقها في النيل. فلما قَدِم كتابُه أخذ عَمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها: «من عبد الله عُمَر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مِصْرَ، أما بعد فإن كنتَ إنما تجري من قِبَلِك فلا تجْرِ، وإن كان الله الواحد القهّار هو الذي يُجريك فنسألُ الله أن يُجريَكَ». قال: فألقى البطاقة في النيل، فأصبحُوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلةٍ واحدةٍ، وقَطَع الله تلكَ السُّنَّة عن أهلِ مصرَ إلى اليوم. رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي الطبري في كتاب «السنة» له(١).

ولهذا قال تعالى: ﴿ أولم يَرَوا أنّا نسوقُ الماءَ إلى الأرض الجُرُزِ فنُخرج به زرعاً تأكلُ منه أنعامُهم وأنفسُهم أفلا يُبصِرُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ فلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِهِ * أنّا صَببنا الماءَ صبّاً * ثم شَقَقنا الأرضَ شقّاً * فأنبتنا فيها حَبّاً * وعِنَباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائِقَ غُلْباً * وفاكهةً وأبّاً * متاعاً لكم ولأنعامِكم ﴾، ولهذا قال هاهنا: ﴿أفلا يُبصِرُون﴾.

وقال ابن أبي نَجيح، عن رَجُلٍ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ إلى الأرض الجُرُزِ ﴾، قال: هي التي لا تُمطِرَ إلا مطراً لا يُغني عنها شيئاً، إلا ما يأتيها من السُّيُولِ. وعن ابن عباس، ومجاهدٍ: هي أرضٌ باليَمَن. وقال الحسن رحمه الله: هي قُرىً فيما بين اليمن والشام.

وقال عكرمة، والضحاك، وقتادة، والسُّدّي، وابن زيد: الأرض الجُرُزُ: التي لا نباتَ فيها وهي مُغْبَرّة

قلتُ: وهذا كقوله: ﴿وآيةٌ لهم الأرضُ الميتةُ أحييناها وأخرجنا منها حَبّاً فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنّاتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ وفَجّرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثَمَره وما عَمِلته أيديهم أفلا يشكُرون﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكُفّار ووقوعِ بأسِ الله بهم وحُلُولِ غضبه ونِقْمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً ﴿ ويقولُون متى هذا الفتحُ ﴾، أي: متى تُنصَرُ علينا يا محمّد كما تزعُم أن لك وقتاً تُدال علينا، ويُنتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابَك إلا مُختفِينَ خائفين قليلين ذليلين! قال الله تعالى: ﴿ قل يومَ الفتح ﴾، أي: إذا حَلّ بكم بأسُ الله وسَخَطُه وغَضَبُه في الدنيا وفي الأخرى، ﴿ لا ينفَعُ الذين كَفَروا إيمانُهم ولا هم يُنظَرُون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ فلما جاءتهم رُسلهم بالبينات فَرِحُوا بما عندهم من العلم وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزءُون * فلما رَأَوا بأسنا قالوا آمنّا بالله وَحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يَكُ ينفعُهم إيمانُهم لما رأوا بأسنا سُنّةَ الله التي قد خَلَت في عباده وخَسِر هنالك الكافرون ﴾. ومن زَعَم أن المراد من هذا الفتح فتحُ مكّة فقد أبعدَ النُّجعَةَ، وأخطأ فأفحَشَ، فإن يومَ الفتح قد قَبِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ [إسلام] الطُّلَقَاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المرادُ فتحَ مكة لما قَبِل إسلامهم، لقوله: ﴿ قل يومَ الفتح لا يَنفعُ الذين كفروا إيمانُهم

(١) ذكره ابن كثير في كتاب البداية والنهاية ٧/١٠٢. وأبو القاسم اللالكائي هو: هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي الحافظ، محدث بغداد، توفي في رمضان سنة ٤١٨. انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي ٣/١٠٨٣، والرسالة المستطرفة ٣٧، والعبر للذهبي ٣/٣١٤.

ولا هم يُنظَرُونَ ﴾، وإنما المراد الفتحُ الذي هو القضاءُ والفَصلُ، كقوله تعالى: ﴿ فافتحْ بيني وبينَهم فتحاً ونَجّني ومن مّعِي من المؤمنين ﴾، وكقوله: ﴿ قل يجمَعُ بيننا ربُّنا ثم يفتَحُ بيننا بالحقّ وهو الفتّاح العليم ﴾ وقال تعالى. ﴿ واستَفتَحُوا وخابَ كُل جبارٍ عَنيدٍ ﴾، وقال: ﴿ وكانوا من قبل يَستفتِحُون على الذين كفروا ﴾، وقال: ﴿ إن تَستَفتِحُوا فقد جاءكم الفتحُ ﴾.

ثم قال: ﴿فَأعرِضْ عنهُم وانتظِرْ إنهم مُنتَظِرُونَ﴾، أي: أعرض عن هؤلاء المشركين وبَلّغ ما أُنزل إليك من رَبّك، كقوله: ﴿ اتّبع ما أُوحِي إليك من رَبّك لا إِلَه إلا هو وأعرِض عن المُشرِكين ﴾، وانتظر فإنَّ الله سَيُنجِزُ لك ما وعَدَك، وسَيَنصُرُك على من خَالَفَك، إنه لا يُخلِفُ الميعادَ.

وقولُه: ﴿ إنهم مُنتَظِرُون ﴾، أي: أنت مُنتَظِرٌ وهم مُنتَظِرُون، ويتربّصون بكم الدوائرَ، ﴿ أم يقولون شاعرٌ نتربّص به ريبَ المنون ﴾، وسترى أنتَ عاقبَةَ صَبْرِكَ عليهم وعلى أداء رسالة الله، في نُصرتك وتأييدك، وسَيجِدُون غِبّ ما ينتظرونه فيكَ وفي أصحابِكَ، من وَبِيل عقابِ الله لهم، وحُلُول عَذَابِه بهم. والله أعلم.

بحمد الله وفضله تم تفسير (سورة السجدة)

تفسيرُ

سُورَةُ الأَحْزَابِ

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

قال [عبد الله بن][1] الإمام أحمد: حدثنا خَلَفُ بن هشام، حدثنا حَمَّاد، بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن زِرّ قال: قال لي أُبَيُّ بن كعب: كأيِّن تقرأُ سورةَ الأحزاب؟ أو كأيِّن تعدُّها؟ قال: قلت: ثلاثاً وسبعين آية. فقال: قَطْ! لقد رأيتُها وإنها لتُعادِلُ سورةَ البقرة، ولقد قرأنا فيها: «الشيخُ والشيخةُ إذا زَنَيا فارجُموهما البتة، نكالاً من الله، والله عليم حكيم»[2].

ورواه النَّسائي من وجه آخر، عن عاصم ـ وهو ابن أبي النَّجود، وهو ابن بَهْدَلَة ـ به[3]. وهذا إسناد حسن، وهذا يقتضي أنه كان فيها قرآن ثم نُسِخ لفظُه وحكمُه أيضاً، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (3) ﴾

هذا تنبيهٌ بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر مَن دُونَه بذلك بطريق الأولى والأحرى. وقد قال طَلْقُ بن حَبيب: التقوى أن تعملَ بطاعة الله، على نُورٍ من الله، ترجو ثوابَ الله، وأن تتركَ معصية الله، على نُورٍ من الله، مخافةَ عذابِ الله.

وقولُه: ﴿ لا تُطِعِ الكافرين والمنافقين ﴾، أي: لا تَسمَع منهم ولا تَستشيرهُم، ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾، أي: فهو أحقُّ أن تتَّبع أوامرَه وتُطيعه، فإنه عليمٌ بعواقب الأمور، حَكيم في أقواله وأفعاله. ولهذا

(1) في النسخ: قال الإمام أحمد. وفي نسخة الأزهر: وقال الإمام أحمد. إنما قاله عبد الله بن أحمد، والحديث في المسند من رواية عبد الله بن أحمد عن خلف. وفي الدر المنثور ٦/٥٥٨ أن عبد الله بن أحمد رواه في زوائد المسند. وخلف هو: أبو محمد خلف بن هشام البزّار البغدادي، روى عنه الإمام أحمد وابنه عبد الله. تهذيب الكمال ٨/٢٠١.

(2) مسند أحمد ٥/١٣٢. وأخرجه النسائي في كتاب الرجم من سننه الكبرى، تحفة الأشراف للمزي ١/١٦

قال: ﴿ واتَّبع ما يُوحى إليك من ربِّك ﴾، أي: من قرآن وسنة، ﴿ إن الله كان بما تعمَلُون خبيراً ﴾، أي: فلا تخفى عليه خافيةٌ. ﴿ وتوكَّل على الله ﴾، أي: في جميع أمورك وأحوالك، ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾، أي: وكفى به وكيلاً لمن توكَّل عليه وأناب إليه.

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

يقول تعالى مُوطِّئاً قبلَ المقصود المعنوي أمراً حِسِّياً معروفاً، وهو أنه كما لا يكونُ للشخص الواحد قلبانِ في جَوفه، ولا تَصير زوجتُه التي يُظاهِر منها بقوله: أنـتِ عَلَيَّ كظهر أمي، أُمًّا له، كذلك لا يَصير الدَّعيُّ ولداً للرجل إذا تبنَّاه فدعاه ابناً له، فقال: ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تُظاهرون منهن أمهاتِكم ﴾، كقوله: ﴿ ما هن أمهاتِهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولُون منكراً من القول وزُوراً ﴾.

وقولُه: ﴿ وما جَعَل أدعياءكم أبناءَكُم ﴾، هذا هو المقصودُ بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيدِ بن حارثةَ مولى النبي ـ ﷺ ـ كان النبي ـ ﷺ ـ قد تَبنَّاه قبلَ النُّبوَّة، وكان يقال له: «زيدُ بن محمد»، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله: ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكُم ﴾، كما قال في أثناء السُّورة: ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً ﴾. وقال ها هنا: ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾، يعني تَبنِّيكم له قولٌ لا يقتضي أن يكونَ ابناً حَقيقيّاً؛ فإنه مخلوق من صُلْب رَجل آخَرَ، فما يمكن أن يكونَ له أبوان، كما لا يمكن أن يكونَ للرجل الواحِد قلبان.

﴿ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾، قال سعيد بن جُبَير: ﴿ يقول الحق ﴾، أي: العدلَ. وقال قتادةُ: ﴿ وهو يهدي السبيل ﴾، أي: الصراطَ المستقيم.

وقد ذكر غير واحد: أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش، كان يقال له «ذو القَلبين»، وأنه كان يزعم أن له قَلْبين، كل منهما بعقلٍ وافرٍ. فأنزل الله هذه الآية رداً عليه. هكذا رَوَى العَوفي عن ابن عباس. وقاله مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادةُ، واختاره ابن جرير[1].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا حسن، حدثنا زُهَير، عن قابوسَ ـ يعني ابن أبي ظَبيان ـ أن أباه حدَّثه قال: قلت لابن عباس: أرأيت قولَ الله تعالى: ﴿ ما جَعَل الله لرجُلٍ من قلبين في جَوفِهِ ﴾، ما عَنَى بذلك؟ قال: قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً يُصلِّي، فخطر خَطْرَة، فقال المنافقون الذين يُصلُّون معه: ألا تَرَون له قَلْبين، قلباً معكم وقلباً معهُم؟ فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ ما جَعَل الله لرجُلٍ من قَلبينِ في جَوْفِهِ ﴾[2].

وهكذا رواه التِّرمذيُّ، عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارميُّ، عن صاعِدٍ الحَرَّاني ـ وعن عبد بن حُمَيد،

(١) تفسير الطبري ٢١/١١٩.
(٢) مسند أحمد ١/٢٦٧ ـ ٢٦٨، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الأحزاب ١١/٧٩ ـ ٨٠، وتفسير الطبري ٢١/١١٨

عن أحمد بن يُونُسَ ـ كلاهما عن زُهير، وهو ابن معاوية، به ثم قال: «وهذا حديث حسن». وكذا رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، من حديث زُهَير، به[1].

وقال عبد الرزّاق: أخبرنا معمرٌ، عن الزُهريّ، في قوله: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾، قال: بلغنا أنّ ذلك كان في زيدِ بن حارثة، ضُرب له مثلٌ، يقول: ليس ابنُ رجل آخر ابنك[2]. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابنُ زيد: أنها نزلت في زيدِ بن حارثة. وهذا يوافقُ ما قدّمناه من التفسير. والله أعلم.

وقولُه: ﴿ادعُوهم لآبائهم هو أقسطُ عند الله﴾، هذا أمرٌ ناسخٌ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادّعاء الأبناء الأجانب، وهم الأدعياءُ، فأمر تعالى بردِّ نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأنّ هذا هو العدلُ والقسطُ.

قال البخاري رحمه الله: حدثنا مُعَلّى بنُ أسَدٍ، حدثنا عبد العزيز بنُ المختار، حدثنا موسى بن عُقبةَ قال: حدَّثني سالم، عن عبد الله بن عُمَر: أن زيدَ بن حارِثةَ مولى رسول الله ـ ﷺ ـ ما كُنّا ندعُوه إلا زيد بن مُحَمَّد، حتى نزل القرآن: ﴿ادعُوهم لآبائهم هو أقسطُ عند الله﴾[3].

وأخرجه مسلم والترمذيّ والنسائيّ، من طُرُق، عن موسى بن عُقبة، به.

وقد كانوا يعامِلُونَهم معاملةَ الأبناء من كلِّ وجه، في الخُلوة بالمحارم وغير ذلك، ولهذا قالت سهلة بنت سُهَيل امرأة أبي حذيفة: يا رسولَ الله، إنّا كنا ندعو سالماً ابناً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل عَليّ، وإنّي أجدُ في نفسِ أبي حُذَيفة من ذلك شيئاً. فقال ـ ﷺ ـ: «أرضِعيه تَحرُمي عليه»[4]... الحديث.

ولهذا لما نُسِخَ هذا الحكم أباح تعالى زوجةَ الدَّعِيِّ، وتزوّج رسولُ الله ـ ﷺ ـ بزينب بنت جحش مُطلّقةِ[5] زيد بن حارثة، وقال: ﴿لكيلا يكونَ على المؤمنين حَرَجٌ في أزواجِ أدعيائهم إذا قَضَوا منهن وَطَراً﴾، وقال في آية التحريم: ﴿وحلائل أبنائكُم الذين من أصلابكم﴾، احترازاً عن زوجة الدَّعيّ، فإنه ليس من الصُّلب، فأما الابنُ من الرضاعة فمُنزّل منزلة ابن الصُّلبِ شرْعاً، بقوله ـ ﷺ ـ في الصحيحين: «حرِّموا من الرضاعةِ ما يحرُم من النسب»[6].

فأما دعوة الغيرِ ابناً على سبيل التكريم والتحبيب فليس مما نُهِيَ عنه هذه الآية، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلاّ الترمذي، من حديثِ سفيان الثوريّ، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن الحَسَن العُرَنيّ، عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قَدِمنا على رسولِ الله ـ ﷺ ـ أُغَيْلِمَةَ بني عبد المطلب على حُمُراتٍ لنا من جَمْعٍ، فجعل يَلْطَخُ أفخاذَنا ويقول «أُبَيْنيّ لا ترموا الجَمْرَةَ حتى تطلُعَ الشمسُ»[7].

---

(١) مسند أحمد ٣٦٧/١ ـ ٣٦٨، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الأحزاب ٧٩/١١ ـ ٨٠، وتفسير الطبري ١١٨/٢١

(٢) أخرجه الطبري ١١٩/٢١.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٥١٧/٨، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٨٤/٤، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الأحزاب ٨٧/١٢ ـ ٨٨، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، تحفة الأشراف ١٢/٥).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الرضاع ١٠٧٦/٤ ـ ١٠٧٨، والنسائي وابن ماجه في كتاب النكاح، سنن النسائي ١٠٤/٦ ـ ١٠٦، وابن ماجه ٦٢٥/١. بإسنادهم إلى سفيان بن عيينة، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها. وأخرجه أبو داود في سننه من وجه آخر، كتاب النكاح ٢٢٣/٢

وسالم هذا كان قد تبنّاه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وأنكحه ابنة أخيه هند بنت الوليد

(٥) كذا في نسخة الحرم، وفي غيرها: زوجة زيد

(٦) أخرجه الشيخان، فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٥٣٢/٨، ومسلم، كتاب الرضاعة ١٠٦٨/٢

(٧) مسند أحمد ٢١٦/١، ٣٤٣، وأخرجوه في كتاب المناسك، سنن أبي داود ١٩٤/٢، والنسائي ٢٧٠/٥ ـ ٢٧٢، وابن ماجه ١٠٠٧/٢ =

قال أبو عُبَيدٍ وغيره: «أُبَيْنِيّ: تصغير بَنِيّ»[1]. وهذا ظاهر الدلالة، فإن هذا كان في حَجَّة الوداع سنة عَشْرٍ، وقوله: ﴿ ادعُوهم لآبائهم ﴾ في شأن زيدِ بن حارثة، وقد قُتِل في يوم مؤتة سنة ثمانٍ، وأيضاً ففي الصحيح لمسلم، من حديث أبي عَوَانة الوضَّاح بن عبدِ الله اليشكري، عن الجَعدِ أبي عثمان البَصري، عن أنسِ بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا بُنَيَّ». ورواه أبو داود والترمذيُّ[2].

وقوله: ﴿فإن لم تعلَمُوا آباءَهُم فإخوانكُم في الدِّين ومواليكم﴾، أمر تعالى بردِّ أنسابِ الأدعياءِ إلى آبائهم، إن عَرَفوا، فإن لم يَعْرِفوا آباءهم فهم إخوانُهم في الدِّين ومواليهم، أي: عِوَضاً عما فاتَهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ـ ﷺ ـ يومَ خرج من مكة عام عُمرة القضاء، وتَبِعتهم ابنةُ حمزة تنادي: يا عَمِّ، يا عَمِّ. فأخذها علي وقال لفاطمة: دُونَكِ ابنةَ عَمِّك فاحتَمِليها. فاختَصم فيها علي، وزيد، وجعفر في أيّهم يكفُلها، فكلٌّ أدلَى بِحُجَّتِه، فقال علي: أنا أحقُّ بها وهي ابنةُ عمي. وقال زيد: ابنةُ أخي. وقال جعفر بن أبي طالب: ابنةُ عمِّي، وخالتها تحتي ـ يعني أسماءَ بنت عُمَيس ـ فقضى النبي ـ ﷺ ـ لخالتها، وقال: «الخالةُ بمنزلةِ الأم». وقال لعلي. «أنتَ مني، وأنا منكَ». وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي». وقال لزيدٍ: «أنت أخُونا ومولانا»[3]

ففي هذا الحديثِ أحكامٌ كثيرةٌ مِن أحسَنِها أنه ـ ﷺ ـ حَكَم بالحق، وأرضَى كُلًّا من المتنازعين، وقال لزيد: «أنت أخُونا ومولانا»، كما قال تعالى: ﴿ فإخوانُكم في الدين ومواليكم ﴾.

وقال ابنُ جرير: حدثني يعقوبُ بنُ إبراهيمَ، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن عُيَينة بنُ عبد الرحمن، عن أبيه قال. قال أبو بكرة: قال الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ ادعُوهم لآبائهم هو أقسطُ عند الله فإن لم تعلَمُوا آباءَهم فإخوانكم في الدِّين ومواليكم ﴾، فأنا ممن لا يُعرَفُ أبوه، وأنا من إخوانكم في الدين. قال: قال أبي: والله إنّي لأظنّه لو علِم أن أباه كان حماراً لانتمَى إليه»[4].

وقد جاء في الحديث: «[ليس] من [رجل] ادَّعى لغير أبيه وهو يعلَمه إلّا كفر»[5]. وهذا تشديدٌ وتهديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، في التبرِّي من النسبِ المعلوم، ولهذا قال: ﴿ادعُوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلَمُوا آباءهم فإخوانكُم في الدِّين وموَاليكم﴾.

ثم قال: ﴿ وليس عليكُم جناحٌ فيما أخطأتُم به ﴾، أي: إذا نَسبتُم بعضَهُم إلى غير أبيهِ في الحقيقةِ خطأً، بعد الاجتهاد واستفراغِ الوُسع، فإنّ الله قد وَضَع الحرَجَ في الخطأ ورفع إثمَه، كما أرشدَ إليه في قوله آمراً عباده أن يقولوا: ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نَسِينا أو أخطأنا ﴾. وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قال الله: قد فعلتُ»[6]. وفي صَحيح البخاري، عن عَمرو بن العاص قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا اجتهد الحاكمُ فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر»[7]. وفي الحديث الآخر: «إنَّ الله رَفَع عن أُمّتي الخَطأ والنسيان، وما يُكرَهُون عليه»[8].

= وأُغَيْلِمه: تصغير غِلْمة، يعني الصبيان. وحُمُرات جمع حُمُر، جمع حمار. وجَمْع: المزدلفة. واللَّطْحُ ـ بالحاء المهملة ـ: الضرب بالكفّ، وليس بالشديد.

(١) في نسختي المحرم والأزهر. «أبني تصغير ابني». انظر النهاية لابن الأثير، مادة: ابن.

(٢) مسلم، كتاب الآداب ١٦٩٣/٣، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٢٩١/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الأدب ٢٧٢/١٠

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلح ٣٠٣/٥ ـ ٣٠٤. (٤) تفسير الطبري ١٢١/٢١.

(٥) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب المناقب ٥٣٩/٦، ومسلم، كتاب الإيمان ٧٩/١. وما بين القوسين من الصحيح.

(٦) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٢٨٣ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك

(٧) تقدم أيضاً عند تفسير الآية ٧٩ من سورة الأنبياء، وخرجناه هنالك

(٨) تقدم الحديث عند الآية ٢٨٦ من سورة البقرة، ١٢١ من سورة الأنعام، وخرجناه هنالك. وفي نسخة المحرم: «والأمر تكرهون عليه»

وقال هاهنا: ﴿ وليس عليكم جُناحٌ فيما أخطأتُم به ولكن ما تعمَّدت قُلوبُكم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾.

أي: وإنما الإثم على من تَعَمَّد الباطل كما قال تعالى: ﴿ لا يُؤاخذُكم الله باللغو في أيمانكم ولكنْ يؤاخذُكم بما كسَبَت قلوبُكم ﴾. وفي الحديث المتقدم: «[ليس] من [رجل] ادَّعى إلى غير أبيه، وهو يعلمُه إلا كفر». وفي القرآن المنسوخ: «فإن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم».

قال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمرٌ، عن الزهريِّ، عن عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عُمَر أنه قال: بعث الله محمداً - ﷺ - بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آيةُ الرجم، فَرَجم رسولُ الله - ﷺ - ورَجمنا بعده، ثم قال: قد كنا نقرأ: «ولا ترغبُوا عن آبائكم فإنه كفرٌ بكم» أو: «إنَّ كفراً بكم أن ترغَبُوا عن آبائكم»، وإنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: «لا تُطروني كما أُطري عيسى ابنَ مريمَ، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُهُ ورسوله»[(١)] وربما قال معمرٌ: «كما أطرتِ النصارى ابن مريم»[(٢)].

ورواه في الحديث الآخر: «ثلاث في الناس كُفر: الطعنُ في النَّسب، والنِّياحةُ على الميت، والاستسقاءُ بالنجوم»[(٣)].

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ۝٦ ﴾

قد عَلِم الله تعالى شَفَقة رسوله - ﷺ - على أُمَّته، ونُصحَهُ لهم، فَجعله أولى بهم من أنفسهم، وحُكمَه فيهم مُقَدَّماً على اختيارِهم لأنفسِهم، كما قال تعالى: ﴿ فلا وربِّكَ لا يُؤمِنُون حتى يُحكِّموك فيما شَجَر بينهم ثم لا يجدوا في أنفُسِهم حَرَجاً مما قضيتَ ويُسلِّموا تَسْليماً ﴾، وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده، لا يُؤمِن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه ومالِه وَوَلدِه والناسِ أجمعين»[(٤)]. وفي الصحيح أيضاً أن عُمَر - رضي الله عنه - قال: يا رسولَ الله، والله لأنت أحبُّ إليَّ من كلِّ شيء إلا من نفسي. فقال: «لا يا عُمَر، حتى أكونَ أحبَّ إليكَ من نفسِكَ». فقال: والله يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ حتى من نفسي. فقال: «الآن يا عُمَر»[(٥)].

ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿ النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسِهم ﴾.

وقال البخاريُّ عند هذه الآية الكريمة:

حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا محمد بن فُلَيح، حدثنا أبي، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرَة، عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «ما من مُؤمنٍ إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم: ﴿ النبيُّ أولى بالمؤمنينَ من أنفُسِهم ﴾، فأيما مؤمنٍ تَرَك مالاً فليرِثْه عصَبتُه مَن كانوا، فإن تَرَكَ دَيناً أو ضِياعاً فَلْيأتني فأنا مولاه». تفرد به البخاري[(٦)].

(١) في نسخة الحرم: «فإنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله». (٢) مسند أحمد ١/٤٧

(٣) روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي مالك الأشعري: «أربع من الجاهلية لا يتركهن: الفخر في الأحساب»، وذكر الثلاثة الأخر. المسند ٥/٣٤٢ - ٣٤٣، ٣٤٤. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٥٠ من سورة إبراهيم، وخرجته هنالك. وانظر الحديث في صحيح مسلم، كتاب الجنائز ٢/٦٤٤.

(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٨ من سورة الأنفال، ٢٤ من سورة التوبة، وخرجته هنالك.

(٥) تقدم عند تفسير الآية ٢٤ من سورة التوبة، وخرجته هنالك.

(٦) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٨/٥١٧، وكتاب الاستقراض ٥/٦١، وتفسير الطبري ٢١/١٢٢، ومسند أحمد ٢/٣٣٤ - ٣٣٥

وَرَواه أيضاً في «الاستقراض»، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، من طُرُق، عن فُلَيح، بِه. وَرواه الإمام أحمد، من حَدِيث أبي حُصَين، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة، عن رسول الله ﷺ[1].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الرزّاق، عن مَعمَرٍ، عن الزُّهريِّ في قوله تعالى: ﴿ النبيُّ أولَى بالمؤمنين من أنفُسِهم ﴾ عن أبي سَلَمة، عن جابر بن عبد الله، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ كان يقولُ: «أنا أولَى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِه، فأيُّما رجلٍ ماتَ وتَرَك ديناً فإليَّ، ومَن تَرَك مالاً فلوَرَثَتِه»[2]. وَرواه أبو دَاودَ، عن أحمدَ بنِ حنبلٍ، به نحوَه[2].

وقولُه: ﴿وأزواجُه أمهاتُهم﴾، أي: في الحُرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوزُ الخَلوة بهنَّ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتِهنَّ وإخوانِهن بالإجماع، وَإن سَمَّى بعضُ العلماء بناتِهنَّ أخواتِ المؤمنين، كما هو منصوصُ الشافعي في المختصر، وهو من باب إطلاق العبارةِ لا إثباتِ الحكم. وهل يُقال لمعاوية وأمثالِه: خالُ المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء، ونصُّ الشافعي على أنه يُقال ذلك. وهل يُقال لهنَّ: أمهاتُ المؤمناتِ، فيَدخلَ النساءُ في جمع المذكر السالم تغليباً؟ فيه قولان، صَحَّ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: لا يقال ذلك. وهذا أصحُّ الوجهين في مذهبِ الشافعي رَحمه الله.

وقد رُوي عن أُبَيِّ بن كعب، وابن عَبّاس أنهما قرآ: «النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجُه أمهاتُهم وهو أبٌ لهم»[3]. ورُوِي نحوُ هذا عن معاوية، ومجاهدٍ، وعكرمَة والحسن، وهو أحدُ الوجهَين في مذهبِ الشافعي. حكاه البَغَوي وغيره. واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود:

حدثنا عبدُ الله بن محمد النُّفَيلي، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عَجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنما أنا لكم بمنزلةِ الوالدِ أُعَلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يَستقبِلِ القبلةَ ولا يَستدبِرْها، ولا يَستطِبْ بيمينه. وكان يأمر بثلاثة أحجارٍ، وينهَى عن الرَّوثِ والرِّمة»[4].

وأخرجه النسائي وابنُ ماجه، من حديثِ ابن عَجلان[4].

والوجهُ الثاني: أنه لا يُقال ذلك، واحتجُّوا بقوله: ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ﴾. وقوله: ﴿وأولوا الأرحام بعضُهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾، أي: في حكمِ الله ﴿ من المؤمنين والمهاجرين ﴾، أي: القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه ناسخةٌ لما كان قبلها من التوارث بالحِلْفِ والمؤاخاة التي كانت بينهم، كما قال ابنُ عباس وغيره: كان المهاجريُّ يَرِثُ الأنصاريَّ دون قَرَاباته وذَوِي رَحِمِه، للأُخُوَّة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ. وكذا قال سعيد بنُ جُبَير، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حَديثاً عن الزُّبير بن العوّام ـ رضي الله عنه ـ فقال:

حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي بكر المُصعَبيُّ ـ من ساكني بغداد ـ عن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد، عن هشام بن عُروة، عن أبيه، عن الزُّبير بن العوّام ـ رضي الله عنه ـ قال: أنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فينا خاصّةً معشر قُرَيش والأنصار: ﴿وأولُوا الأرحام بعضُهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾، وذلك أنّا ـ معشرَ قريشٍ ـ لما قَدِمنا

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٥١٧/٨، وكتاب الاستقراض ٦١/٥، وتفسير الطبري ١٢٢/٢١، ومسند أحمد ٣٣٤/٢ ـ ٣٣٥.

(٢) مسند أحمد ٢٩٦/٣، وسنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء ١٣٧/٣.

(٣) تفسير الطبري ١٢٢/٢١، والألوسي ١٥٢/٢١، والبغوي ٥٠٧/٣

(٤) أخرجوه في كتاب الطهارة، سنن أبي داود ٣/١، والنسائي ٣٨/١، وابن ماجه ١١٤/١

المدينة قَدِمنا ولا أموالَ لنا، فوَجَدْنا الأنصارَ نِعْمَ الإخوانُ، فواخيناهم ووارثناهم، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد، وآخى عُمَر فلاناً، وآخى عثمانُ بن عفان رَجُلاً من بني زُرَيق، سَعْدُ الزُّرَقي[١]، ويقول بعضُ الناس غيره. قال الزبيرُ: وواخيتُ أنا كعبَ بن مالك، فجئتُه فابتعلتُه[٢] فوجدتُ السلاحَ قد أثقله[٣] فيما يرى، فوالله يا بني، لو مات يومئذ عن الدنيا ما وَرِثَه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصارِ خاصة، فرَجعنا إلى موارِيثنا[٤].

وقولُه: ﴿إلا أن تفعلُوا إلى أوليائكم معروفاً﴾، أي. ذهب الميراث، وبقي النصر والبِرُّ والصِّلة والإحسانُ والوصية.

وقولُه: ﴿كان ذلك في الكتاب مَسطُوراً﴾، أي. هذا الحكمُ، وهو أن أُولي الأرحام بعضُهم أولى ببعضٍ، حكمٌ من الله مُقدَّر مكتوبٌ في الكتاب الأوَّل، الذي لا يُبدَّل، ولا يُغيَّر. قاله مجاهدٌ وغيرُ واحدٍ. وإن كان قد يُقالُ: قد شَرَع خلافَه في وقتٍ لما له في ذلك من الحكمةِ البالغةِ، وهو يعلَم أنه سينسخه إلى ما هو جارٍ[٥] في قَدَرِه الأزلي، وقضائه القَدَريِّ الشرعي.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبِراً عن أولي العزم الخمسة، وبقية الأنبياء: أنه أخذ عليهم العهدَ والميثاقَ في إقامة دين الله وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال الله تعالى: ﴿وإذ أخذَ الله ميثاقَ النبيين لما آتيتُكم من كتاب وحكمة ثم جاءكُم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم لَتؤمِنُنَّ به ولَتنصُرُنَّه قال أأقررتم وأخذتُم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهَدُوا وأنا معكم من الشَّاهِدين﴾. فهذا العهد والميثاق أُخِذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا. ونصَّ من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أُولُو العزم، وهُو من باب عطفِ الخاصِّ على العام، وقد صَرَّح بذكرهم نَصّاً في هذه الآية، وفي قوله: ﴿شَرَع لكم من الدين ما وَصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وَصَّينا به إبراهيم ومُوسى وعيسَى أن أَقِيمُوا الدِّين ولا تتَفرَّقُوا فيه﴾، فذكر الطرفين والوسط، الفاتحَ والخاتِمَ، ومَن بينهما على هذا الترتيب. فهذه هي الوصية التي أَخَذَ عليهم الميثاق بها، كما قال. ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقَهُم ومنكَ ومن نُوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى ابنِ مريم﴾، فبدأ في هذه الآية بالخاتَم؛ لشرفه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ثم رتَّبهم بحسَبِ وُجودِهم صلوات الله عليهم

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ الدِّمشقي، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا سَعِيد بن بَشِير، حدثني قتادةُ، عن الحسن، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ في قول الله تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾.. الآية، قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «كنتُ أوَّلَ النبيين في الخلْق وآخِرَهم في البَعثِ، فبُدِئ بي قبلهم». سَعِيدُ بن بَشِير فيه ضَعْفٌ[٦].

(١) في نسخة الحرم: بن سعد.
(٢) كذا في النسخ
(٣) في النسخ: ثقله. والمثبت من تفسير القرطبي
(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الفرائض ٣٤٤/٤ ـ ٣٤٥، بإسناده إلى ابن أبي الزناد بنحوه. وكذلك القرطبي في تفسيره ١٢٤/١٤ من طريق هشام بن عروة، بنحوه كذلك
(٥) في نسخة الحرم: «إلى ما جاء في قدره الأزلي، وقضائه المقدر الشرعي»
(٦) أخرجه غير واحد، انظر الدر المنثور ٥٧٠/٦، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١١ ـ ١٢

وقد رواه سَعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ مرسلاً، وهو أشبه. ورواه بعضُهم عن قتادةَ موقوفاً. فالله أعلم
وقال أبو بكر البزّار: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو أحمد، حدثنا حَمزَة الزيّاتُ، حدثنا عَدِيّ بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هُريرة قال: خيار ولد آدم خمسة: نوحٌ، وإبراهيمُ، ومُوسَى، وعيسى، ومحمّدٌ، وخيرهم محمد ـ ﷺ ـ أجمعين[1]. موقوفٌ، وحمزةُ فيه ضَعفٌ.

وقد قيل: إن المرادَ بهذا الميثاقِ الذي أُخذ منهم حين أخرجوا في صورة الذَّرِّ من صُلب آدم، كما قال أبو جعفر الرازيّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيّ بن كعب قال: ورفع أباهم آدم، فَنظر إليهم ـ يعني ذُرِّيته ـ وأن فيهم الغنيَّ والفقيرَ، وحسنَ الصُّورةِ، ودُونَ ذلك، فقال: ربِّ، لو سَوّيتَ بين عبادك؟ فقال: إني أُحببتُ أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثلَ السُّرُج، عليهم النور، وخُصُّوا بميثاق آخَرَ من الرسالة والنبوَّة فهو الذي يقولُ الله تعالى: ﴿ وإذ أخذنا من النبيِّين ميثاقَهم ومنك ومن نُوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ . . . الآية[2]. وهذا قولُ مجاهدٍ أيضاً.

وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ: العهد.

وقولُه: ﴿ ليسألَ الصَّادقين عن صِدْقهم ﴾، قال مجاهدٌ: المبلِّغين المؤدِّين منَ الرسل[3].

وقولُه: ﴿ وأعدَّ للكافرينَ ﴾، أي: من أُممهم ﴿ عذاباً أليماً ﴾، أي: مُوجِعاً، فنحن نشهدُ أن الرسُلَ قد بلَّغوا رسالاتِ ربِّهم، ونصحُوا الأمم وأفصحُوا لهم عن الحقِّ المبين، الواضح الجليِّ، الذي لا لبسَ فيه ولا شكَّ ولا امتراءَ، وإن كذَّبهم من كذَّبهم من الجَهَلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسلُ هو الحقُّ، ومن خالفهم فهو على الضلال، [4][كما يقول أهل الجنة: لقد جاءت رُسُل ربِّنا بالحق][4].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُخبِراً عن نِعمته وفَضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين، في صَرفه أعداءهم وهَزْمِه إيّاهم عام تألّبوا عليهم وتحزّبوا وذلك عامَ الخندق، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وقال موسى بن عقبة وغيره: كانت في سَنة أربع[5].

وكان سببُ قُدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهودِ بَني النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ من المدينة إلى خَيبر، منهم: سَلاّم بن أبي الحُقَيق، وسَلاّم بن مِشْكَم، وكِنَانة بن الرَّبيع، خرجُوا إلى مكّة واجتمعوا بأشراف قريش، وألّبوهم على حَرْب رسول الله ـ ﷺ ـ ووَعدوهم من أنفُسِهم النصرَ والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرَجوا إلى غَطَفان فدَعوهم فاستجابُوا لهم أيضاً. وخَرجت قُرَيشٌ في أحابيشها ومَن تابعها، وقائدُهم أبو سفيان صَخر بنُ حَرب، وعلى غطفان عُيَينة بن حِصْن بن بَدرٍ، والجميعُ قريبٌ من عشرةِ آلاف،

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب علامات النبوة ٣/ ١١٤.
(٢) تقدم الأثر عند تفسير الآية ١٧٢ من سورة الأعراف، وخرجناه هنالك.
(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ١٢٦.
[٤ ـ ٤] عن نسخة الحرم. وهي من الآية ٤٣ من سورة الأعراف.
(٥) انظر الآثار في ذلك في دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٩٢ ـ ٣٩٧. والبداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٩٥.

فلمَّا سمع رسول الله ـ ﷺ ـ بمَسيرهم أمرَ المسلمين بحفر الخندق حولَ المدينة مما يلي المشرق، وذلك بإشارة سَلمانَ الفارسيِّ فعمل المسلمون فيه واجتهدُوا، ونقل معهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ التراب وحفر، وكان في حَفْره ذلك آياتٌ بيِّناتٌ ودلائلُ واضحاتٌ. وجاء المشركون فنزلوا شرقيَّ المدينة قريباً من أُحُد، ونزلت طائفةٌ منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إذ جاءُوكم من فَوقكم ومن أسفلَ منكم﴾، وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ ومن مَعه من المسلمين، وهم نحو من ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسنَدُوا ظهورَهم إلى سَلْع[1] ووجُوههم إلى نحو العدو، والخندقُ حفيرٌ ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجَّالة والخيالة أن تصلَ إليهم، وجعل النساءَ والذراريَّ في آطام[2] المدينة، وكانت بنو قُرَيظة ـ وهم طائفةٌ من اليهود ـ لهم حصنٌ شرقيَّ المدينة، ولهم عهدٌ من النبي ـ ﷺ ـ وذمَّةٌ، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل، فذهب إليهم حُيَيّ بن أخطب النَّضري، فلم يَزَلْ بهم حتى نَقَضُوا العهد، ومالئُوا الأحزابَ على رسول الله ـ ﷺ ـ فعظُم الخطبُ واشتدَّ الأمر، وضاقَ الحالُ، كما قال الله تعالى: ﴿هُنالك ابتُلي المؤمنون وزُلزِلوا زِلزالاً شديداً﴾.

ومكثوا مُحاصَرين للنبيِّ ـ ﷺ ـ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقَع بينهم قتالٌ، إلا أن عمرو بن عَبْدِ ودّ العامري، وكان من الفُرسان الشُّجعانِ المشهُورينَ في الجاهلية، ركب ومعه فوارسُ فاقتحمُوا الخندقَ، وخلصوا إلى ناحية المسلمين. فندب رسولُ الله ـ ﷺ ـ خيلَ المسلمين إليه فيقال: إنه لم يبرُز إليه أحد، فأمر علياً فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتَله عليٌّ رضي الله عنه، فكان علامةً على النصر.

ثم أرسلَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على الأحزاب ريحاً شديدةَ الهُبوب قويَّةً، حتى لم تبقَ لهم خيمةٌ ولا شيءٌ ولا تُوقَد لهم نارٌ، ولم يقرَّ لهم قرارٌ حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكُروا نعمةَ الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾.

قال مجاهد: وهي الصَّبا. ويُؤيِّده الحديثُ الآخرُ: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهلِكَت عادٌ بالدَّبُور»[3].

وقال ابنُ جَرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا عبدُ الأعلى، حدثنا داودُ، عن عكرمةَ قال: قالت الجَنوبُ للشَّمال ليلة الأحزاب: انطلقي ننصرْ رسولَ الله ﷺ. فقالت الشَّمالُ: إن الحُرَّةَ لا تَسْري بالليلِ. قال: فكانت الريح التي أُرسِلَت عليهم الصَّبا[4].

ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشجِّ، عن حفص بن غياث، عن داودَ، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس فذكره.

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا يونُس، حدثنا ابنُ وهب، حدثني عُبَيد الله بن عمر، عن نافع، عن عَبد الله ابن عُمَر قال: أرسلني خَالِي عُثمان بن مَظعُون ليلة الخَندقِ في بَرْدٍ وَريحٍ إلى المدينةِ، فقال: ائتنا بطعام ولحافٍ، قال: فاستأذنتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأذن لي، وقال: ومَن أتيتَ من أصحابي فَمُرهم يرجعُوا. قال: فذهبتُ والريحُ تسفِي[5] كُلَّ شيء، فجعلتُ لا ألقَى أحداً إلا أمَرتُه بالرجُوعِ إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: فما يَلْوي

---

(١) سَلْع: جبلٌ معروفٌ بسوق المدينة.

(٢) الآطام: جمع أُطُم، وهو الحصن. وآطامُ المدينة: بيوتها المرتفعة كالحصون.

(٣) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الاستسقاء ٢/٥٢٠، ومسلم ٢/٦١٧.

والصَّبا: ريح، مَهبها من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار. والدبور: ريح تقابل الصبا، وهي الريح الغربية.

(٤) تفسير الطبري ٢١/١٢٧.

(٥) سَفَت الريحُ الترابَ ونحوه: حملته.

أحدٌ منهم عُنُقه[١]. قال: وكان معي تُرْسٌ لي، فكانت الريحُ تَضْرِبه عَلَيَّ، وكان فيه حديد، قال. فضربته الريحُ حتى وَقَع بعضُ ذلك الحديد على كَفِّي، فأنفذها[٢] إلى الأرض[٣].

وقولُه: ﴿ وجُنوداً لم تَرَوها ﴾، وهم الملائكةُ، زلزلتهم وألقت في قُلوبهم الرعبَ والخوف، فكان رئيسُ كلِّ قبيلة يقول: يا بَني فلان، إليَّ. فَيجتَمِعُون إليه فيقول: النَّجاءَ. لِمَا ألقى الله تعالى في قُلوبهم من الرُّعب.

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيدَ بن زيادٍ، عن محمد بن كعبٍ القُرَظيِّ قال: قال فَتىً من أهل الكُوفة لحُذيفَةَ بن اليَمان: يا أبا عبدِ الله، رَأيتُم رسول الله ـ ﷺ ـ وصَحِبتُموه؟ قال: نعم، يا ابنَ أخي. قال: وكيفَ كنتم تَصنَعُون؟ قال. والله لقد كنا نَجهَدُ. قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يَمشي على الأرض ولَحملناهُ على أعناقِنَا. قال: قال حُذَيفةُ: يا ابنَ أخي، والله لو رَأيتنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ بالخندق وصلَّى رسول الله ـ ﷺ ـ هُوِيّاً[٤] من الليل، ثم التفتَ فقال: مَنْ رجلٌ يقُوم فينظر لنا ما فعلَ القومُ؟ يشرط له النبي ـ ﷺ ـ أنه يَرجِعُ ـ أدخَله الله الجنّةَ. قال: فما قام رجلٌ. ثم صلَّى رسول الله ـ ﷺ ـ هُوِيّاً من الليل، ثم التفت إلينا، فقال مثلَه، فما قام منا رجلٌ. ثم صلَّى رسول الله ـ ﷺ ـ هُوِيّا من الليل ثم التفت إلينا فقال: «مَن رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ـ يشترط له رسول الله ـ ﷺ ـ الرجعةَ ـ أسأل الله أن يكون رَفِيقي في الجنة». فما قام رجلٌ من القوم؛ من شِدّةِ الخوف، وشِدّة الجوع، وشِدّة البرد، فلما لم يقم أحد، دَعَاني رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يكن لي بدٌّ من القيام حين دَعَاني فقال: «يا حُذَيفة، اذهَب فادخل في القوم فانظر ما يفعَلون، ولا تُحْدِثَنَّ شيئاً حتى تأتينا».

قال: فذهبتُ فدخلتُ في القوم، والريح وجنودُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تفعلُ بهم ما تفعلُ، لا تُقِرُّ لهم قِدراً ولا ناراً ولا بناءً. فقام أبو سفيان فقالَ: يا معشر قُرَيش. لينظر امرؤ مَن جليسُه. قال حُذَيفة: فأخذتُ بيد الرجل الذي إلى جنبي. فقلت: مَن أنت؟ فقال: أنا فلانُ بنُ فلان. ثم قال أبو سفيان: يا مَعشر قُرَيش، إنكم والله ما أصبحتم بدارِ مُقام، لقد هَلَكَ الكُراعُ[٥] والخُفّ، وأخلَفتنا بنو قُرَيظة. وبَلَغنَا عنهم الذي نكرَهُ، ولقينا من هذه الريح ما تَرَون. والله ما تَطمئِنُّ لنا قِدرٌ، ولا تقوم لنا نارٌ، ولا يستمسكُ لنا بناءٌ، فارتحِلُوا فإنّي مُرتَحِل. ثم قام إلى جَمَلِه وهو معقول، فَجَلس عليه، ثم ضَرَبه، فوثَب به على ثلاث. فما أطلق عِقَالَه إلا وَهُو قائم. ولولا عهدُ رسول الله ـ ﷺ ـ إليَّ: «لا تُحدِثْ شيئاً حتى تأتيني» ثم شِئتُ لقتلتُه بِسَهم.

قال حذيفةُ: فرجعت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو قائمٌ يصلِّي في مِرْط[٦] لبعضِ نسائه مُرحَّلٍ، فلما رآني أدخلني بينَ رِجلَيه، وطَرَح عليَّ طرف المِرْط، ثم رَكَع، وسَجَد وإني لفيه، فلما سَلَّم أخبرتُه الخَبَر. وسَمِعَت غَطَفان بما فعلت قُرَيش، فانشمروا[٧] راجعين إلى بلادهم[٨].

---

(١) في المعجم الكبير: فقال: فلا والله ما عطف عليَّ اثنان أو واحد. فقوله «ما لوى أحد عُنُقه» كناية ـ والله أعلم ـ عن عدم الاستجابة
(٢) في نسخة الحرم: فأبعدها
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/٣٦٨ ـ ٣٦٩ بإسناده إلى عبد الله بن عُمَر، نحوه. وقال في مجمع الزوائد ٦/١٣٥: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح»
(٤) أي: جزءاً من الليل
(٥) الكُراع: اسم لجميع الخيل. والمراد بالخفّ: الإبل.
(٦) المِرْط: كساء من صوف، وربما كان من خزّ أو غيره. ومِرْطٌ مُرَحَّلٌ: عليه تصاوير الرِّحال.
(٧) انشمروا: تهيّأوا
(٨) سيرة ابن هشام ٢/٢٣١ ـ ٢٣٢. وأخرجه الإمام أحمد بإسناده إلى ابن إسحق ٥/٣٩٢ ـ ٣٩٣.

وقد رواه مسلمٌ في صَحيحه من حديث الأعمش، عن إبراهيم التَّيميِّ، عن أبيه قال: كُنّا عند حُذَيفة بن اليَمَانِ ـ رَضِي الله عنه ـ فقال له رجلٌ: لو أدركتُ رسول الله ـ ﷺ ـ قاتلت معه وأبليتُ. فقال له حُذيفة: أنت كنتَ تفعلُ ذلك؟ لقد رَأيتُنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلةَ الأحزاب في ليلةٍ ذات ريحٍ شديدةٍ وقُرٍّ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا رَجلٌ يأتي بخبر القوم، يكون مَعي يوم القيامة». فلم يُجبه منا أحدٌ، ثم الثانية، ثم الثالثة مثلَه. ثم قال: «يا حُذَيفة، قُم فأتنا بخبر من القوم». فلم أجد بُدّاً إذ دعاني باسمي أن أقُومَ، فقال: «ائتني بخبر القوم، ولا تَذْعَرْهم عَلَيَّ»[1]. قال: فمضيت كأنما أمشي في حَمّام[2] حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يَصْلِي ظهرَه[3] بالنار، فَوَضعت سهماً في كَبِدِ قوسي[4] وأردت أن أرميه، ثم ذكرتُ قولَ رسول الله ـ ﷺ ـ: «ولا تَذْعَرْهم عَلَيَّ»، ولو رَمَيْته لأصبتُه. قال: فرجعتُ كأنما أمشي في حَمّام، فأتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ ثم أصابني البردُ حين فَرَغتُ وقُرِرْتُ، فأخبرتُ رسول الله ـ ﷺ ـ وألبسني من فَضل عَباءَة كانت عليه يُصلِّي فيها، فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قم يا نومان»[5].

ورواه يونُس بن بكير، عن هشام بن سعد، عن زَيد بن أسلم: أن رجلاً قال لحُذَيفة رَضي الله عنه: نشكو إلى الله صُحبَتَكم لرسول الله ـ ﷺ ـ إنكم أدركتُموه ولم نُدركه، ورأيتُموه ولم نَرَه. فَقال حُذَيفة: ونحن نشكُو إلى الله إيمانكم به ولم تَرَوه، والله لا تَدْري يا ابن أخي لو أدركتَه كيف كنتَ تكونُ. لقد رَأيتُنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة الخندق في ليلة باردةٍ مَطِيرةٍ... ثم ذكر نحو ما تقدم مطولاً[6].

ورَوَى بلال بن يحيى العَبْسي، عن حُذَيفة نحو ذلك أيضاً[7].

وقد أخرج الحاكم والبيهقي في «الدلائل»، من حديث عِكرمة بن عَمّار، عن محمد بن عبد الله الدُّؤلي، عن عبد العزيز ابن أخي حُذيفة قال: ذَكر حُذَيفة مشاهِدَهم مع رسول الله ـ ﷺ ـ فقال جلساؤه: أما والله لو كُنّا شَهدنا ذلك لَفَعلنا ولَفَعلنا. فقال حُذيفة: لا تَمنَّوا ذلك. لقد رأيتُنا ليلةَ الأحزاب ونحن صَافُّون قُعودٌ، أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنَا، وقُريظة اليهود أسفلَ منا نَخافُهم على ذَرَارينا، وما أتتْ علينا [ليلةٌ] قطُّ أشدُّ ظلمة ولا أشدُّ ريحاً، في أصواتِ ريحها أمثالُ الصواعق، وهي ظلمةٌ ما يَرى أحدُنا إصبَعَه. فجعل المنافقون يستأذنون النبيَّ ـ ﷺ ـ ويقولون: ﴿إنَّ بيوتَنا عورةٌ وما هي بعورةٍ﴾. فما يستأذنه أحد منهم إلا أَذِن له، ويأذنُ لهم فَيَتسلَّلون، ونحن ثلاثمائة ونحوُ ذلك، إذ استقبلنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ رجُلاً رَجلاً حتى أتى عَليَّ وما عَليَّ جُنّةٌ[8] من العدو ولا من البرد إلا مِرْطٌ لامرأتي، ما يُجاوزُ ركبتي. قال: فأتاني وأنا جاثٍ على رُكبتيَّ فقال: «من هذا؟» فقلت: حُذيفة. قال: حُذَيفة! فتقاصرتُ[9] بالأرض فقلت: بلى، يا رسول الله، كراهية أن أقُوم، [قال: قُم] فقمتُ فقال: «إنه كائنٌ في القوم خبرٌ، فأتني بخَبَر القوم»، قال: وأنا من أشدِّ الناسِ فَزعاً، وأشدِّهم قُرّاً.

---

(١) أي: لا تُفزِعْهُم فيتحرّكوا عليّ.
(٢) يريد أنه لم يجد البَرْدَ ببركة دعاء الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ له
(٣) أي: يدفئه.
(٤) كَبِدُ القوس: مقبضها. وكبد كلِّ شيء: وسطه.
(٥) صحيح مسلم، كتاب الجهاد ٣/١٤١٤ ـ ١٤١٥.
(٦) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٣/٤٥٤ ـ ٤٥٥.
(٧) أخرجه الحاكم وصححه، كتاب المغازي ٣/٣١
(٨) الجُنّة: السُّتْرة، وكلُّ ما وقى من سلاح وغيره
(٩) في النسخ: تقاصرتُ الأرض. والمثبت من الدلائل. والمعنى: أنه تصنّع القصر وتكلّف حتى يكون سبباً في عدول الرسول ـ ﷺ ـ عن تكليفه.

قال: فخرجتُ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اللهم، احفظه من بين يدَيه ومن خلفه، وعن يَمينه وعن شماله، ومن فوقِه ومن تحته». قال: فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قرّاً في جَوفي إلا خرج من جوفي، فما أجدُ فيه شيئاً.

قال: فلما وَلَّيت قال: «يا حُذَيفة، لا تُحدِثَنّ في القوم شيئاً حتى تأتيني». قال: فخرجت حتى إذا دنوتُ من عسكر القوم نظرت في ضَوءِ نارٍ تَوَقَّدُ وإذا رجلٌ أدهم ضخم يقول[1] بيده على النار، ويمسحُ خاصِرَته، ويقول: الرحيلَ الرحيلَ. ولم أكن أعرف أبا سُفيان قبل ذلك، فانتزعتُ سهماً من كِنانتي أبيضَ الريش، فأضعُه في كَبِدِ قوسي لأرميَه به في ضوء النار، فذكرتُ قولَ رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تحدِثَنّ فيهم شيئاً حتى تأتيني». فأمسكتُ ورَدَدْتُ سهمي إلى كِنانتي، ثم إني شَجَّعتُ نَفسي حتى دخلتُ العسكر، فإذا أدنى الناسِ مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر، الرحيلَ الرحيلَ، لا مُقام لكم. وإذا الريحُ في عسكرهم ما تُجاوزُ عَسْكرَهم شبراً، فوالله إني لأسمَعُ صوتَ الحِجارة في رحالهم وفُرُشِهم[2] الريحُ تضربُهم بها، ثم خَرَجْتُ نحوَ النبيِّ ـ ﷺ ـ فلما انتصفتُ بي الطريقُ أو نحوٌ من ذلك إذا أنا بنحوٍ من عشرينَ فارساً أو نحو ذلك مُعْتَمِّين، فقالوا: أَخْبِرْ صاحِبَك أن الله تعالى كَفاه القومَ. فرجعتُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو مُشْتَمِلٌ في شَمْلَةٍ يُصَلِّي، فوالله ما عدا أن رجعتُ رَاجَعَني القُرُّ وجعلت أُقَرْقِفُ[3] فأومأ إليَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيده وهو يصلي، فدنوتُ منه، فأسبل عليَّ شَمْلَته، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا حَزَبه أمرٌ صَلَّى، فأخبرته خَبَرَ القوم، وأخبرتُه أني تركتُهم يَترحَّلُون، وأنزل الله، تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكُروا نعمةَ الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾[4].

وأخرج أبو داود في سُنَنه منه: «كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا حزبه أمر صلى» من حديث عِكْرِمة بن عَمّار، به[5].

وقولُه: ﴿ إذ جاءوكُم من فوقكم ﴾، أي: الأحزاب، ﴿ ومن أسفلَ منكم ﴾، تقدَّم عن حُذَيفة أنهم بنو قُرَيظة، ﴿وإذ زاغتِ الأبصارُ وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجرَ﴾، أي: مِن شدّةِ الخوفِ والفَزَع، ﴿ وتَظُنُّون بالله الظُّنُونَا ﴾.

قال ابن جرير: ظَنَّ [بعضُ] مَن كان مع رسول الله ـ ﷺ ـ أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعلُ ذلك

وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وإذ زاغتِ الأبصارِ وبَلَغتِ القلوبُ الحناجرَ وتَظنُّون بالله الظُّنُونَا ﴾: ظَنَّ المؤمنون كلَّ ظن، ونَجَم النفاق حتى قال مُعَتِّب بنُ قُشَير ـ أخو بني عَمرو بن عَوفٍ ـ: كان محمدٌ يعِدنا أن نأكُلَ كُنوزَ كسرى وقيصر، وأحدُنا لا يقدِر أن يذهَب إلى الغائط[6].

وقال الحسنُ في قوله: ﴿ وتَظُنُّون بالله الظُّنُونا ﴾: ظنونٌ مختلفةٌ، ظَنَّ المنافقون أن محمداً وأصحابه سَيُسْتَأْصَلُون. وأيقن المؤمنون أن ما وَعَدنا الله ورسولُه حق، وأنه سيظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه المشركون.

وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أحمد بن عاصم الأنصاري، حدثنا أبو عامر (ح) وحَدَّثنا أبي، حَدَّثنا أبو عامر العَقَديُّ، وحدَّثنا الزُّبير ـ يعني ابنَ عبد الله، مولى عثمان بن عَفّان ـ عن رُبَيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد،

---

(١) يطلق القول في اللغة على كلِّ فعل. والمعنى كأنه يطفىء النار.

(٢) كذا في نسخة الحرم، ومثله في البداية والنهاية ١١٧/٤. وفي الدلائل: وفُرُشِهم.

(٣) أي: أرْعَد من البرد.

(٤) دلائل النبوة للبيهقي، كتاب المغازي ٤١٥/٣ ـ ٤٥٣. ولم نجده في المستدرك، وقد أخرجه ابن كثير أيضاً في البداية ١١٦/٤ عن الحاكم والبيهقي.

(٥) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٣٥/٢.

(٦) أخرجه الطبري ١٣١/٢١، والأثر في سيرة ابن هشام ٢٢٢/٢.

عَن أبيه، عن أبي سعيد قال: قلنا يومَ الخندق: يا رسولَ الله، هل من شيء نقول، فقد بلغت القلوبُ الحناجرَ؟ قال ـ ﷺ ـ: نَعم، قولوا: اللَّهمَّ استر عوراتِنا، وآمِن رَوْعاتِنا. قال: فضرب وُجوه أعدائِه بالرِّيح، فهزمَهُمْ بالريح[1].

وكذا رواهُ الإمامُ أحمدَ بن حَنبل، عن أبي عامرٍ العَقَدي[1].

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن ذلك الحال، حين نزلت الأحزابُ حولَ المدينة، والمسلمون محصُورون في غايةِ الجَهْدِ والضِّيق، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ بين أظهُرهم: أنهم ابتُلوا واختُبِرُوا وزُلزِلُوا زِلزالاً شديداً. فحينئذٍ ظهر النفاق، وتكلَّم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم، ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وَعدنا الله ورسولُه إلا غُروراً﴾، أما المنافق فنَجم نفاقه، والذي في قلبه شُبهة أو حَسِيكة[2]، ضَعُفَ حالُه فتنفَّس بما يجده من الوسواس في نفسه، لضعف إيمانه، وشِدَّة ما هُو فيه من ضِيقِ الحَال. وقومٌ آخرون قالُوا كما قال الله: ﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهلَ يثربَ لا مقام لكم فارجعوا﴾، يعني المدينة كما جاء في الصحيح «أُريتُ في المنام دارَ هجرتكُم أرض بين حَرَّتين فذهب وَهْلي[3] أنها هَجَر، فإذا هي يثربُ»[4] وفي لفظ: «المدينة».

فأمّا الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ: حدثنا إبراهيمُ بن مهديّ، حدثنا صالح بن عُمَر، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن البَراء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن سَمّى المدينةَ يثرب فَلْيَستغفِر الله، هي طابةُ، هي طابةُ»[5].

تفرَّد به الإمامُ أحمدُ، وفي إسنادِه ضَعفٌ، والله أعلم.

ويُقال: إنما كان أصل تسميتِها «يثرب» برجُلٍ نزَلها من العَماليق، يقال له: يَثْرب بن عَبيلِ بن مهلاثيل بن عوض بن عِمْلاقِ بن لاوذَ بن إرَمَ بن سَامِ بن نُوح[6]. قاله السهيلي، قال: ورُوِي[6] عن بعضهم أنه قال: إن لها في التوراة أحد عشر اسماً: المدينة، وطابة، وطَيِّبَةُ، والمسكينة، والجَابِرة، والمُحَبَّة، والمحبُوبة، والقاصِمة، والمجبُورة، والعَذْرَاء، والمرحُومَة[6].

وعن كَعب الأحبارِ قال: إنا نَجدُ في التَّوراةِ يقولُ الله للمَدينة: يا طَيبَة، ويا طَابة، ويا مسْكِينة، [لا تَقْبلي الكنوز أرفعُ أجاجِيرَكِ على أَجَاجِير القرى][7].

(١) الدرّ المنثور ٦/٥٧٣، ومسند أحمد ٣/٣. وأخرجه الطبري ٢١/١٣٧.
(٢) أي: عدواة وحقد.
(٣) الوَهْل: الوهم. وهَجَرٌ: قاعدة البحرين.
(٤) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ٧/٢٢٦، ومسلم، كتاب الرؤيا ٤/١٧٧٩
(٥) مسند أحمد ٤/٢٨٥. وأخرجه أبو يعلى في مسنده ٢/٩٠ بإسناده إلى صالح بن عُمَر وفي مجمع الزوائد ٣/٣٠٠: «رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده ثقات».
(٦) ذكره السهيلي في الروض الأنف ٢/١٦، والتعريف والإعلام له ١٠٢ وانظر تفسير القرطبي ١٤/١٤٨
(٧) قاله في الروض ٢/١٦ ورواه أبو زيد عُمر بن شبّة بإسناده إلى كعب الأحبار في كتابه تاريخ المدينة المنورة (أخبار المدينة النبوية) ١/١٧٣، وقال: «والأجاجيرُ السُّطُوح» وهي جمع إجّار كما في اللسان أجر

وقوله: ﴿ لا مُقام لكم ﴾ أي: هاهنا، يعنون عند النبي - ﷺ - في مقام المُرابطة، ﴿ فارجعُوا ﴾، أي إلى بُيُوتكم ومنازلكم ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾. قال العوفي، عن ابن عباس. هم بنو حارثة قالوا بيوتُنا نخاف عليها السَّرَق[1]. وكذا قال غيرُ واحد.

وذكَر ابنُ إسحاق أن القائل لذلك هو أوسُ بن قَيظيّ[1]. يعني: اعتذرُوا في الرجُوع إلى مَنازِلهم بأنها عَورةٌ، أي: ليس دونها ما يَحجُبُها عن العدو، فهم يخشَون عليها منهم. قال الله تعالى: ﴿ وما هي بِعورة ﴾، أي: ليست كما يزعُمون، ﴿ إن يُريدون إلا فِراراً ﴾، أي: هَرَباً من الزَّحف.

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يقولون إن بيوتَنا عَورة وما هي بعورةٍ إن يُريدون إلا فِراراً ﴾: أنهم لو دَخل عليهم الأعداءُ من كلِّ جانبٍ من جوانب المدينة، وقُطرٍ من أقطارها، ثم سُئِلُوا الفتنةَ، وهي الدخولُ في الكفر، لَكفرُوا سريعاً. وهم لا يُحافِظون على الإيمان، ولا يستَمسِكُون به مع أدنى خَوفٍ وفَزَع. هكذا فسرها قتادة، وعبدُ الرحمن بنُ زيدٍ، وابن جرير[2]. وهذا ذَمٌّ لهم في غاية الذَّم.

ثم قال تعالى يُذَكِّرهم بما كانوا عاهَدُوا الله من قبل هذا الخوف: ﴿لا يُوَلُّون الأدبار﴾ ولا يَفِرُّون من الزَّحف، ﴿ وكان عهد الله مسئولا ﴾، أي: وإن الله سَيَسألُهم عن ذلك العهد، لا بُدَّ من ذلك.

ثم أخبَرهم أن فِرارَهم ذلك لا يُؤخر آجالَهم، ولا يُطوِّل أعمارهم، بل رُبَّما كان ذلك سَبَباً في تعجيل أخذِهم غِرَّةً، ولهذا قال: ﴿ وإذاً لا تُمتَّعون إلا قليلاً ﴾ أي: بعد هَرَبكم وفِرارِكم. ﴿ قل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرة خير لمن اتقى ﴾.

ثم قال: ﴿ قُل من ذا الذي يَعصِمكم من الله ﴾، أي: يمنعُكم، ﴿ إن أراد بكم سُوءاً أو أراد بكُم رحمةً ولا يَجِدُونَ لهم من دُون الله وليّاً ولا نَصيراً ﴾، أي: ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مُجيرٌ ولا مُغيثٌ.

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن إحاطةِ علمه بالمعوِّقين لغيرهم عن شُهود الحرب، ﴿والقائلين لإخوانهم﴾، أي: أصحابهم وعُشَرائهم وخُلطائهم ﴿ هَلُمَّ إلينا ﴾، أي: إلى ما نحنُ فيه من الإقامة في الظِّلال والثِّمار، وهم مع ذلك ﴿ لا يأتُون البأسَ إلا قليلاً ● أشحةً عليكم﴾، أي: بخلاء بالمودَّة، والشفقة عليكم. وقال السُّدِّي: ﴿أشحة

(١) تفسير الطبري ٢١/١٣٥. والسَّرَق: السَّرِقة.
(٢) تفسير الطبري ٢١/١٣٦

عليكم ﴾، أي: في الغنائم. ﴿ فإذا جاء الخوفُ رأيتَهم ينظرون إليك تدورُ أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموتِ ﴾، أي: من شدَّة خوفِه وجزَعه. وهكذا خوفُ هؤلاء الجُبناء من القتال ﴿ فإذا ذهب الخوفُ سلقُوكم بألسنةٍ حِدَادٍ ﴾، أي: فإذا كانَ الأمنُ تكلَّموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً، وادَّعوا لأنفسهم المقاماتِ العاليةَ في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك.

وقال ابن عباس: ﴿ سَلَقُوكم ﴾، أي: استقبَلُوكم.

وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم، وأسوأه مقاسمة: أعطُونا، أعطُونا، قد شهِدنا معكم. وأما عند البأس فأجبنُ قوم: وأخذلُه للحق[1].

وهم مع ذلك أشِحَّةٌ على الخير، أي: ليس فيهم خيرٌ، قد جمَعُوا الجُبن والكَذِب وقلَّة الخير، فهُم كما قال الشاعر[2]:

أفي السِّلمِ أعيَاراً جَفَاءً وغِلْظَةً   وفي الحَرْبِ أمثالَ النِّساءِ العَوارِكِ[4]

أي: في حال المُسالَمة كأنهم الحُمُر. والأعيار: جمع عَير، وهو الحمار. وفي الحرب كأنهم النساء الحُيَّض. ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك لم يؤمنوا فأحبَطَ الله أعمالَهم وكان ذلك على الله يسيراً﴾، أي: سَهلاً هيِّناً عنده.

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحةِ في الجُبن والخوف والخَوَر، ﴿ يَحسَبُون الأحزابَ لم يذهَبُوا ﴾، بل هُم قريبٌ منهم، وإنَّ لهم عودةً إليهم ﴿ وإن يأتِ الأحزابُ يوَدُّوا لو أنهم بادُون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ﴾، أي. ويَوَدُّون إذا جاءت الأحزابُ أنهم لا يكُونون حاضِرين معكم في المدينة بل في البادية، يسألُون عن أخباركم، وما كان من أمركم مع عدُوِّكم، ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلُوا إلا قليلاً ﴾، أي: ولو كانوا بين أظهُركم لما قاتلوا معَكم إلا قليلاً، لكثرة جُبنهم وذِلَّتهم وضَعْفِ يقينهم.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾

هذه الآية الكريمةُ أصلٌ كبير في التأسِّي برسول الله ـ ﷺ ـ يوم الأحزاب، في صَبره ومُصَابرته ومُرابطته ومُجاهَدَتِه وانتظاره الفرجَ من ربِّه ـ عزَّ وجلَّ، صلواتُ الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ـ ولهذا قال تعالى: للذين تقلقوا وتَضَجَّروا وتَزَلْزَلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿ لقد كان لكم في رَسُولِ الله أسوة حسنة ﴾، أي: هلَّا اقتديتُم به وتأسَّيتم بشمائله؟! ولهذا قال: ﴿لمن كان يرجُو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعُود الله لهم، وجعْلِه العاقبةَ حاصِلَةً لهُم في الدنيا

---

(١) تفسير الطبري ٢١/١٤١. واستعمال الضمير موحَّداً، والعائد عليه جمع، أسلوبٌ عربيٌّ قديم، والنحاة يقولون: إن المعنى: وأخذَلُ شيء، فلذلك وُحِّد الضمير.

(٢) تقدم البيت عند تفسير الآية ٨٧ من سورة براءة.

والآخرة، فقال: ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ﴾.

قال ابن عباس وقتادة: يعنون قوله تعالى في «سورة البقرة». ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾[1].

أي: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال: ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾.

وقوله: ﴿ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾، دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قاله جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص. وقد قررنا ذلك في أول «شرح البخاري»، ولله الحمد والمنة.

ومعنى قوله: ﴿ وما زادهم ﴾، أي: ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إلا إيماناً ﴾ بالله، ﴿ وتسليماً ﴾، أي: انقياداً لأوامره، وطاعة لرسوله.

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

لما ذكر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ﴾، قال بعضهم: أجله[2]. وقال البخاري: عهده[3]. وهو يرجع إلى الأول. ﴿ ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾، أي: وما غيروا عهد الله، ولا نقضوه ولا بدلوه.

قال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه قال: لما نسخنا الصحف فقدت آية من «سورة الأحزاب» كنت أسمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقرؤها، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ـ الذي جعل رسول الله ـ ﷺ ـ شهادته بشهادة رجلين ـ: ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾[4].

انفرد به البخاري دون مسلم. وأخرجه أحمد في مسنده. والترمذي والنسائي ـ في التفسير من سننيهما ـ من حديث الزهري، به. وقال الترمذي: «حسن صحيح»[4].

وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري: حدثني أبي، عن ثمامة، عن أنس بن مالك قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر: ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾[3].

انفرد به البخاري من هذا الوجه، ولكن له شواهد من طرق أخر، قال الإمام أحمد:

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/١٤٤.
(٢) قاله الفراء في معانيه ٢/٣٤٠.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٨/٥١٧.
(٤) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٨/٥١٨، ومسند أحمد ٥/١٨٨، ١٨٩، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة التوبة ١١/٢٦٤ ـ ٢٦٥ والنسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف للمزي ٣/٢١٠ ـ ٢١٨.

حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا سُليمان بن المغيرة، عن ثابت قال: قال أنس: عَمّي أنس بن النَّضر سُمّيت به، لم يشهدْ مع رسول الله ـ ﷺ ـ يوم بَدْرٍ، فَشَقَّ عليه وقال: أولُ مشهَدٍ شهده رسولُ الله ـ ﷺ ـ غُيِّبْتُ عنه! لَئِن أراني الله مشهداً فيما بعدُ مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ لَيَرَيَنَّ الله ما أصنعُ. قال: فهاب أن يقولَ غيرها، فشهد مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ يوم أحد، فاستقبَلَ سعد بن مُعاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ واهاً(١) لريح الجنة أجِدُه دون أحد! قال: فقاتلهم حتى قُتِلَ قال: فَوُجِد في جَسَدِه بِضْعٌ وثمانون من ضربةٍ وطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ، فقالت أختُه ـ عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ ابنة النَّضرِ ـ: فما عرفتُ أخي إلا بِبَنَانِه. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿ رجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا الله عليه فمِنهُم من قَضَى نَحْبَه ومنهم من يَنْتَظِر وما بَدَّلوا تبديلاً ﴾. قال: فكانوا يُرَوْن أنها نزلت فيه، وفي أصحابه(٢).

ورواه مُسلم والترمذيّ والنسائيّ، من حديث سُليمان بن المغيرة، به. ورواه النسائيّ وابنُ جرير، من حديث حَمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، به نحوه(٢).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن سِنَان، حدثنا يزيدُ بن هارون، حدثنا حُمَيد، عن أنسٍ أن عَمَّه ـ يعني أنسَ بن النضر ـ غاب عن قتال بدر فقال: غُيِّبْتُ عن أوَّلِ قتالٍ قاتَلَه رسولُ الله ـ ﷺ ـ المشركين، لئن أشهدَني الله قتالاً للمشركين لَيَرَيَنَّ الله ما أصنعُ. قال: فلما كان يوم أُحُد انكشفَ المسلمون، فقال: اللهم إني أعتذِرُ إليك مما صَنَع هؤلاء ـ يعني أصحابه ـ وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم تقدم فلقيه سعد ـ يعني ابنَ معاد ـ دُون أُحُدٍ، فقال: أنا معك. قال سعدٌ: فلم أستطع أن أصنع ما صَنع. قال: فَوُجِد فيه بضعٌ وثمانُون ضربةَ سيفٍ، وطعنةَ رُمحٍ، ورميةَ سهمٍ. وكانوا يقولون: فيه وفي أصحابه: ﴿ فمنهم من قضى نَحْبَه ومنهم من ينتظر ﴾.

وأخرجه الترمذي في التفسير عن عَبْدِ بن حُمَيد، والنسائي فيه أيضاً عن إسحاق بن إبراهيم، كلاهما، عن يزيدَ بن هارونَ به. وقال الترمذي: حسن(٣). وقد رواه البخاري في المغازي عن حسان بن حسان، عن محمد بن طلحة بن مُصَرِّف، عن حميد، عن أنس به(٣). ولم يذكر نزول الآية. ورواه ابنُ جرير، من حديث المعتمر بن سُليمان، عن حُمَيدٍ، عن أنسٍ، به(٣).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمد بن الفضل العَسْقلاني، حدثنا سُليمان بن أيوب بن سليمان بن عيسى ابن موسى بن طلحة بن عُبَيد الله، حدثني أبي، عن جَدِّي، عن موسى بن طَلْحَةَ، عن أبيه طلحَةَ قال: لما أن رجع النبي ـ ﷺ ـ من أحد صَعِد المنبر، فَحمِد الله وأثنى عليه، وعَزّى المسلمين بما أصابهم، وأخبرهُم بما لهم فيه من الأجر والذُخرِ، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ رجال صَدَقُوا ما عاهَدُوا الله عليه فمنهُم من قَضَى نَحبَه ﴾ . . . الآية كلَّها. فقام إليه رجل من المسلمين فقال: يا رسول الله، مَن هؤلاء؟ فأقبلتُ وعَلَيَّ ثوبان أخضران حضرميّان فقال: «أيها السائلُ، هذا منهم».

(١) واهاً: كلمة تَحَسُّرٍ وتلهُّف.

(٢) مسند الإمام أحمد ١٩٤/٣، ومسلم، كتاب الإمارة ١٥٠٩/٣ ـ ١٥١٠، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الأحزاب ٨٠/١٢ ـ ٨٢، وأخرجه النسائي في كتاب المناقب من سننه الكبرى، فأما رواية حماد فهي في كتاب التفسير منها أيضاً، انظر تحفة الأشراف للمزي ١٣٥/١. وأخرجه الطبري في تفسيره ١٤٦/٢١ ـ ١٤٧.

(٣) عارضةُ الأحوذي، تفسيرُ سُورة الأحزاب ٨٢/١٢ ـ ٨٣، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف ٢١٣/١. وفتح الباري، كتاب المغازي ٣٥٤/٧ ـ ٣٥٥، وتفسير الطبري ١٤٧/٢١.

وكذا رواهُ ابنُ جَرير من حديث سُليمان بن أيوب الطَّلْحي، به[1]. وأخرجه الترمذي في التفسير والمناقب أيضاً وابنُ جرير، من حديث يونس بن بكير، عن طَلحة بن يحيى، عن مُوسى وعيسى ابنَي طلحةَ، عن أبيهما، به. وقال: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث يونس[1].

وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا أبو عامر ـ يعني العَقَدي ـ حدثنا إسحاقُ ـ يعني ابن طلحة بن عبد الله ـ عن مُوسى بن طَلحة قال. دخلتُ على معاوية ـ رضي الله عنه ـ فلما خرجتُ دعاني فقال: ألا أضع عندك يا ابن أخي حَديثاً سَمِعته مِن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ؟ أشهَدُ لَسَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «طلحة ممن قضى نحبه».

ورواه ابنُ جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحمّاني، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطلحي، عن موسى بن طلحة قال: قام معاوية بن أبي سُفيان فقال: إني سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «طلحة ممن قضى نحبه»[2].

ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿ فمنهُم من قَضَى نحبه ﴾، قال: عهده، ﴿ ومنهُم مَن يَنتَظِرُ ﴾، قال: يوماً فيه قتال فيَصْدُقَ في اللقاء.

وقال الحسن: ﴿ فمنهم من قَضَى نحبه ﴾، يعني مَوتَه على الصِّدق والوفاء، ﴿ ومنهم من ينتظر ﴾ الموتَ على مثل ذلك، ومنهم من لم يُبدِّل تبديلاً. وكذا قال قتادةُ، وابنُ زَيدٍ. وقال بعضهم: ﴿ نحبه ﴾: نذره.

وقولُه: ﴿ وما بَدَّلوا تبديلاً ﴾ أي: وما غَيَّروا عهدهم، وبَدَّلوا الوفاء بالغدر، بل استمرُّوا على ما عاهدوا الله عليه، وما نَقَضُوه كفعل المنافقين الذين قالوا: ﴿ إنَّ بيوتَنا عورةٌ وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ۞ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولُّون الأدبار ﴾.

وقولُه: ﴿ لِيجزيَ الله الصادقين بصدقهم ويُعذِّبَ المنافقين إن شاء أو يتوبَ عليهم ﴾، أي: إنما يختبر عِبادَه بالخوف والزلزال لِيُميِّزَ الخبيثَ من الطَّيِّب، فيَظهرَ أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلَمُ الشيءَ قَبلَ كَونِهِ، ولكن لا يُعذِّب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعمَلُوا بما يعلمه فيهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم حتى نعلَمَ المجاهدين منكم والصابرين ونَبلُوَا أخباركُم ﴾، فهذا عِلْمٌ بالشيء بعد[3] كونه، وإن كان العلمُ السابقُ حاصلاً به قبلَ وُجُودِه. وكذا قال تعالى: ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميزَ الخبيثَ من الطَّيِّب وما كان الله لِيُطلِعكم على الغيب ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿ لِيَجزِيَ الله الصَّادقين بصِدْقِهِمْ ﴾، أي: بصَبرهم على ما عاهَدُوا الله عليه، وقيامهم به، ومُحافظتهم عليه. ﴿ ويُعذِّب المنافقين ﴾، وهم الناقضون لعهد الله، المخالفُون لأوامره، فاستحقُّوا بذلك عقابَه وعذابَه، ولكن هم تحت مَشيئَتِه في الدنيا، إن شاءَ استمرَّ بهم على ما فعلوه حتى يلقَوه به فيُعذِّبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشَدَهُم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفُسُوق والعِصيان. ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة لِغَضَبِهِ قال: ﴿ إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾.

---

(١) تفسير الطبري ٢١/١٤٧، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الأحزاب ١٢/٨٣ ـ ٨٤، وكتاب المناقب ١٣/١٨٠
(٢) تفسير الطبري ٢١/١٤٧
(٣) في نسخة الحرم: قبل كونه

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الأحزاب لمَّا أجلاهم عن المدينة، بما أرسلَ عليهم من الرِّيح والجنود الإلهية، ولولا أن جَعَلَ رَسُوله رحمةً للعالمين لكانت هذه الريحُ عليهم أشدّ من الريح العقيم على عادٍ، ولكن قال الله تعالى: ﴿ وما كان الله ليعذِّبهم وأنت فيهم ﴾، فسلَّط عليهم هواءً فرَّق شملهم، كما كان سَبَبُ اجتماعهم من الهَوَى، وهم أخلاطٌ من قبائلَ شتَّى، أحزابٌ وآراء، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرَّق جماعتهم، وَرَدَّهم خائبين خاسرين بغَيظهم وحَنَقهم، لم ينالوا خيراً لا في الدنيا، مما كان في أنفسهم من الظَّفر والمغنم، ولا في الآخرة مما تحمَّلوه من الآثام في مُبارزةِ الرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بالعَداوة، وهمِّهم بقتله، واستئصالِ جَيْشِه. ومن هَمَّ بشيء وصَدَّق هَمَّه بفعله فهو في الحقيقة كفاعله.

وقولُه: ﴿ وكَفَى الله المؤمنينَ القتالَ ﴾، أي: لم يحتاجُوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يُجلوهم عن بلادهم، بل كفَى الله وحدَه، ونَصَر عبده، وأعزَّ جُنده، ولهذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا إله إلا الله وحدَه، صَدَقَ وعدَه، ونَصَر عبدَه، وأعزَّ جُنده، وهَزَمَ الأحزاب وحدَه، فلا شَيء بعدَه». أخرجاه من حديث أبي هُرَيرة[1].

وفي الصَّحِيحَين من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله بن أبي أوفَى قال: دعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ على الأحزاب فقال: «اللهم مُنْزِلَ الكتابِ، سريعَ الحِسابِ، اهزم الأحزابَ. اللهم، اهزمهم وزَلْزِلْهم»[2].

وفي قولِه: ﴿ وكفى الله المؤمنين القتالَ ﴾، إشارةٌ إلى وَضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقَعَ بعدها، لم يغزُهم المشركون بل غَزاهم المسلمون في بلادهم.

قال محمد بن إسحاق: فلما انصرف أهلُ الخندق قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيما بلغنا: «لن تَغزُوكم قُرَيشٌ بعد عامِكم هذا، ولكنكم تَغزُونهم». فلم تغزُ قريشٌ بعد ذلك، وكان هو يغزُوهم بعد ذلك، حتى فَتَحَ الله عليه مكة.

وهذا الحديث الذي ذَكَره محمد بن إسحاق حديثٌ صحيحٌ، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يحيى، عن سُفيان، حدثني أبو إسحاقَ قال: سَمِعتُ سُلَيمان بن صُرَدٍ يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ يومَ الأحزابِ: «الآن نغزُوهم ولا يَغزُونا»[3].

وهكذا رواه البخاري في صحيحه، من حديث الثوري وإسرائيل، عن أبي إسحاق، به[4].

وقولُه: ﴿ وكان الله قوياً عزيزاً ﴾، أي: بحَوله وقُوَّته ردَّهم خائبين، لم ينالُوا خيراً، وأعزَّ الله الإسلام وأهلَه، وصَدَقَ وعدَه، ونَصَر رسولَه وعبدَه، فلَه الحمد والمِنَّة.

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

قد تقدَّم أن بني قُرَيظة لما قَدِمت جنود الأحزاب ونزلُوا على المدينة، نقضُوا ما كان بينهم وبين

---

(١) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٤٠٦، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء ٤/٢٠٨٩.

(٢) أخرجاه في كتاب الجهاد، فتح الباري ٦/١٠٦، ومسلم ٣/١٣٦٣.

(٣) مسند أحمد ٤/٢٦٢، وفتح الباري، كتاب المغازي ٧/٤٠٥.

رسول الله ـ ﷺ ـ من العهد، وكان ذلك بِسِفَارة حُيَيِّ بن أخطَبَ النَّضْرِيِّ ـ لعنه الله ـ دَخَل حِصنهم، ولم يزَل بِسَيِّدهم كعب بن أَسَدٍ حتى نَقَضَ العهدَ، وقال له فيما قال: ويحكَ! قد جئتُكَ بعزِّ الدهر، أتيتُكَ بقُرَيش وأحابيشِهَا، وغطَفَانَ وأتباعِها، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه. فقال له كعب: بل، والله أتيتني بذُلِّ الدهر. ويحكَ يا حُيَيُّ. إنك مشئومٌ، فدعنا منك. فلم يَزَل يَفْتِلُه في الذِّرْوَةِ والغَارِبِ[1] حتى أجابه، واشترط لهُ حُيَيٌّ إن ذَهَب الأحزاب، ولم يكن من أَمْرِهم شيءٌ، أن يدخُل معهم في الحِصن، فيكون له أُسوتُهم. فلما نَقَضت قُرَيظةُ، وبَلَغ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ ساءه، وشَقَّ عليه وعلى المسلمين جداً، فلمَّا أيَّد الله ونَصَرَ، وكَبَت الأعداءَ ورَدَّهم خائبين بأخسَرِ صفقةٍ، ورجع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة مُؤَيَّداً منصوراً، وَضع الناسُ السلاحَ. فبينما رسول الله ـ ﷺ ـ يغتَسِل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أمِّ سَلَمة إذ تبدَّى له جبريل مُعتجِراً[2] بعمامةٍ من إستَبْرَقٍ، على بغلة عليها قطيفة ديباج، فقال: أَوَضعت السلاحَ يا رسولَ الله؟ قال: «نعم». قال: لكنَّ الملائكة لم تَضع أسلِحَتها، وهذا الآن رُجُوعي من طلب القوم. ثم قال: إن الله يأمُرك أن تنهَضَ إلى بني قُرَيظة. وفي رواية فقال له: عَذِيرَك من مُقاتِلٍ[3]. أوَضعتم السلاح؟ قال: «نعم». قال: لكنا لم نضع أسلحتنا بعد، انهَضْ إلى هؤلاءِ. قال: «أين؟». قال: بَنِي قُرَيظَةَ، فإن الله أمرني أن أُزلزِلَ عليهم. فنهضَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ من فَوره، وأمر النَّاسَ بالمسير إلى بَنِي قُرَيظَة، وكانت على أميالٍ من المدينةِ، وذلك بعد صلاةِ الظُّهرِ، وقال: «لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ منكم العصرَ إلا في بَنِي قُرَيظَة». فسار الناسُ، فأدركتهم الصلاةُ في الطريق، فَصَلَّى بعضُهم في الطريق وقالوا: لم يُرِد منا رسول الله ـ ﷺ ـ إلا تَعجيل السير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة. فلم يُعَنِّف واحداً من الفريقين. وتَبِعهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقد استخلف على المدينة ابن أمِّ مكتوم، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب. ثم نازلهم رسول الله ـ ﷺ ـ وحاصَرَهم خمساً وعشرين ليلةً، فلما طال عليهم الحالُ نَزَلُوا على حكم سعد بن معاذ سَيِّد الأوس، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية؟ واعتقدُوا أنه يحسن إليهم في ذلك، كما فَعَل عبدُ الله بن أُبَيِّ بن سَلُولَ في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله ـ ﷺ ـ فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم، كما فعل ابن أُبَيٍّ في أولئك، ولم يعلموا أن سعداً ـ رضي الله عنه ـ كان قد أصابه سهمٌ في أَكْحَلِه[4] أيام الخندق، فكواه رسول الله ـ ﷺ ـ في أكحَلِه، وأنزله في قُبَّةٍ في المسجد ليعودَه من قريبٍ. وقال سعدٌ فيما دعا به: اللهمَّ، إن كنتَ أبقيتَ من حرب قُرَيش شيئاً فأبقني لها. وإن كنت وضعتَ الحرب بينا وبينهم، فافجُرها ولا تُمِتني حتى تَقَرَّ عيني من بني قُرَيظَةَ. فاستجاب الله دعاءه، وقدَّر عليهم أن نَزَلُوا على حُكمه باختيارهم طَلَباً من تلقاء أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسولُ الله ـ ﷺ ـ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمارٍ قد وَطَّئوا[5] له عليه، جعل الأوس يلوذُون به ويقولون: يا سعدُ، إنهم مواليك، فأحسِن فيهم. ويُرَقِّقُونه عليهم ويُعَطِّفُونه، وهو ساكت لا يَرُدُّ عليهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألَّا تأخذَه في الله لومة لائم. فَعَرفُوا أنه غيرُ مُستَبقِيهم، فلما دنا من الخيمةِ التي فيها رسول الله ـ ﷺ ـ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «قُومُوا إلى سَيِّدكم».

(١) هذا مثل في المخادعة، والذِّرْوة: أعلى سنام البعير، والغارب: مقدم البعير. والجمل النَّفُور إذا أريد تأنيسه فإنَّ الرجلَ يمدُّ يده عليه، ويمسح غاربه، ويفتل وبره حتى يستأنس ويستقر، فيتمكن من وضع الزمام له. فمُثِّلت حال من يريد إقناع غيره بأمرٍ ويتأبى عليه، ثم ينقاد له في نهاية الأمر، بحال تلك الرجل مع بعيره.

(٢) اعتجر فلان بالعمامة: لَفَّها على رأسه، وردَّ طرفها على وجهه، ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه.

(٣) المعنى: هات من يعذُرُك. وعذيرٌ هنا بمعنى عاذر.

(٤) الأَكْحَل: عِرقٌ في وسط الذراع.

(٥) أي: جعلوه وطيئاً حتى لا يتأذى بالركوب. وفي سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٩: وقد وطَّئوا له بوسادة من أدم.

فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته، ليكون أسمع لحكمه فيهم. فلما جلس قال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن هؤلاء ـ وأشار إليهم ـ قد نزلوا على حُكمك، فاحكم فيهم بما شئت». قال: وحُكمي نافذٌ عليهم؟ قال: «نعم». قال: وعلى مَن في هذه الخيمة؟ قال: «نعم». قال: وعلى مَن هاهنا؟ وأشار إلى الجانب الذي فيه رسولُ الله ـ ﷺ ـ وهو مُعرِض بوجهه عن رَسُول الله ـ ﷺ ـ إجلالاً وإكراماً وإعظاماً، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «نعم». فقال: إني أحكُم أن تقتل مُقاتِلتُهم، وتُسبى ذُرّيتهم وأموالهم. فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «لقد حكمتَ بِحُكم الله مِن فوقِ سبعة أرقعة»[1]، وفي رواية: «لقد حكمْتَ فيهم بحكم الملك». ثم أمر رسول الله ـ ﷺ ـ بالأخاديد فَخُدّت[2] في الأرض، وجيء بهم مُكتّفين، فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، وسَبَى من لم يُنبت[3] منهم مع النساء وأموالهم. وهذا كلُّه مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبَسْطه في كتاب السيرة، الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً[4]، ولله الحمدُ والمنّة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وأنزل الذين ظاهَرُوهم﴾، أي: عاونُوا الأحزابَ وساعدُوهم على حرْب رسول الله ﷺ ﴿من أهلِ الكتاب﴾ يعني بَني قُريظةَ من اليهود، من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحِجَازَ قديماً، طَمَعاً في اتباع النبيِّ الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ﴿فلما جاءهُم ما عرفوا كفروا به﴾، فَعَليهم لعنةُ الله.

وقوله: ﴿من صَيَاصِيهم﴾، يعني: حُصُونهم. كذا قال مجاهد، وعكرمةُ، وعطاءٌ، وقتادةُ، والسُّديّ، وغيرُهم من السلف. ومنهُ سمِّيت صَيَاصِي البَقَر، وهي قُرُونها، لأنها أعلى شيء فيها.

﴿وقذَفَ في قُلُوبهم الرُّعبَ﴾، وهو الخوف؛ لأنهم كانوا مالَئُوا المشركين على حرْب رسُول الله ـ ﷺ ـ وليس من يَعلم كمن لا يَعلم، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزُّوهم في الدنيا، فانعكس عليهم الحالُ، وانقلب إليهم الفالُ، انشمَرَ[5] المشركون ففازوا بصفقة المغبون، فكما راموا العزَّ ذلّوا، وأرادوا استئصالَ المسلمين فاستُؤْصِلُوا، وأضيف إلى ذلك شقوةُ الآخرة، فصارت الجُملة أن هذه هي الصفقةُ الخاسرةُ، ولهذا قال تعالى: ﴿فريقاً تقتلُون وتأسِرُون فريقاً﴾، فالذين قُتِلوا المُقاتلة، والأُسراء هم الأصاغِرُ والنِّساء.

قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم بن بَشِير، أخبرنا عبد الملك بن عُمَير عن عطيّة القُرظي قال: عُرِضت على النبي ـ ﷺ ـ يَومَ قُرَيظةَ فَشَكُّوا فيّ، فأمر بي النبي ﷺ أن ينظروا: هل أنبتُّ بعدُ؟ فنظروا، فلم يجدوني أنبَتّ، فَخلَّى عني وألحقني بالسبي[6].

وكذا رواه أهلُ السُّنَنِ كُلُّهم من طُرُقٍ، عن عبد الملك بن عُمَير، به، وقال الترمذي: «حسن صحيح»[6]، ورواه النسائي أيضاً، من حديث ابن جريج، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن عطية، بنحوه[6].

(1) أي: من فوق سبع سموات، والأرقعة: جمع رقيع.

(2) أي: حُفِرَت.

(3) أي: من لم ينبت شعر عانته.

(4) كذا في نسخة الحرم، وفي غيرها: «موجزاً ومقتضباً».

(5) أي: أسرعوا راجعين إلى مواطنهم.

(6) مسند أحمد ٥/٣١١ ـ ٣١٢ وسنن أبي داود، كتاب الحدود ٤/١٤١، وأخرجه النسائي في السير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف ٧/٢٩٨، وفي كتاب الطلاق من سننه ٦/١٥٥، وعارضة الأحوذي، أبواب السير ٧/٨٢، وسنن ابن ماجه، كتاب الحدود ٢/٨٤٩

وقولُه: ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالَهم﴾، أي: جَعَلها لكم من قتلكم لهم ﴿وأرضاً لم تطئوها﴾، قيل: خيبر. وقيل. مكةُ. رواه مالك، عن زيد بن أسلم، وقيل: فارسُ والرومُ. وقال ابنُ جَرِيرٍ: يجوزُ أن يكونَ الجَمِيعُ مراداً[1].

﴿وكان اللهُ على كل شيءٍ قديراً﴾، قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا يزيدُ: أخبرنا محمَّد بن عَمرو، عن أبيه، عن جَدِّه علقمةَ بن وقَّاصٍ قال: أخبرتني عائشةُ قالت. خرجتُ يوم الخندق أقفُو[2] الناس، فسمعت وَئِيد الأرض وَرَائي، فإذا أنا بسعدِ بن معاذٍ ومعه ابنُ أخيه الحارث ابن أوس يحمِل مِجنَّهُ؛ قالت: فجلستُ إلى الأرض فمرَّ سعدٌ وعليه دِرْع من حَدِيد قد خَرَجت منه أطرافُه، فأنا أتخوّفُ على أطراف سعد؛ قالت: وكان سعدٌ من أعظَمِ الناسِ وأطوَلِهم، فمرَّ وهو يرتجزُ ويقول[3]:

لَبِّثْ قليـلاً يَشْهَـدِ الهَيْجَـا حَمَلْ   مَـا أحْسَنَ الموتَ إذا حَـانَ الأجَلْ

قالت: فقمتُ فاقتحمتُ حَدِيقةً فإذا فيها نفرٌ من المسلمين، وإذا فيها عُمَر بنُ الخطاب، وفيهم رجل عليه تَسْبِغَةٌ[4] له ـ تعني المِغْفَرـ فقال عمر: ما جاء بكِ؟ لَعَمري والله إنكِ لَجَريئة، وما يُؤمِنُكِ أن يكون بلاءٌ أو يكونَ تَحَوّز[5]. قالت: فما زال يَلُومني حتى تمنَّيت أن الأرض انشقَّت لي ساعَتئذٍ، فدخلت فيها. فرفع الرجل التَّسبِغَةَ عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عُبَيد الله فقال: يا عُمَر، ويحك! إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوُّزُ أو الفِرار إلا إلى الله تعالى؟! قالت: ويرمي سَعداً رجلٌ من قريش، يقال له: ابنُ العَرِقة[6] بسهم، وقال له: خذها وأنا ابنُ العَرِقةِ فأصابَ أكْحلَهُ فَقَطعه، فدعا الله سعدٌ فقال: اللهُمَّ، لا تُمِتْني حتى تُقِرَّ عيني من قريظة. قالت: وكانوا حُلَفاءه ومواليه في الجاهلية، قالت: فَرَقَأَ كَلْمُهُ[7]، وبعث الله الريح على المشركين، وكَفَى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً. فَلَحِق أبو سفيانَ ومَن معه بتِهامَة، ولحق عُيَينة بن بدر ومَن معه بنَجْدٍ، ورَجَعت بنو قُرَيظة فتحصَّنوا في صياصيهم، وَرَجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينةِ، وأمر بقُبَّة من أدَم[8] فضُرِبت على سَعدٍ في المسجد، قالت: فجاءه جبريلُ عليه السلام وإن على ثناياه لَنَقعَ[9] الغُبار، فقال: أوَقد وضعتَ السلاح؟ لا، والله ما وَضَعَتِ الملائكةُ بعدُ السلاح، اخرُج إلى بني قُرَيظة فقاتلهم.

قالت: فلَبِس رسول الله ﷺ لأمَتَه[10]، وأذّن في الناس بالرَّحيل أن يخرجُوا،[11- [فخرج رسول الله ﷺ] -11] ـ فمرّ على بني غَنْمٍ وهم جيران المسجد حوله، فقال: من مَرَّ بكم؟ قالوا: مَرَّ بنا دِحْيَةُ الكَلْبِيّ ـ وكان

---

(١) تفسير الطبري ٢١/١٥٥.

(٢) أي: اتبع. والوئيد: شدّة الوطء، يُسْمع كالدَّوِيّ من بُعْد.

(٣) هو بيت تمثل به كما قال السهيلي في الروض الأنف ٢/١٩٢، وقال: وعنى به حمل بن سعدانة بن حارثة بن معقل بن كعب بن عليم بن جناب الكلبي.

(٤) التَّسبغة. شيءٌ من حلَق الدّروع والزّرد يُعلّق بالخوذة دائراً معها، ليستر الرقبة وجيب الدرع. وهي المغفر أيضاً.

(٥) التحوُّز والتحيُّز والانحياز بمعنى واحد، وهو من قوله تعالى: ﴿أو متحيِّزاً إلى فئة﴾.

(٦) هو: حبَّان بن العرقة. انظر المؤتلف والمختلف للدارقطني ١/٤١٥ ـ ٤١٦، وسيرة ابن هشام ٢/٢٢٧، وأسد الغابة ٢/٣٧٤.

(٧) رَقَأ الدمُ والدمع ونحوهما: جَفّ. والكَلْمُ: الجُرْح.

(٨) الأَدَم: الجلد.

(٩) النقع: الغبار الساطع. والإضافة بيانية.

(١٠) اللأْمة. عدة الحرب من رمح وبَيْضة، ومغفر، وسيف، ودرع.

(١١ ـ ١١) من المسند.

بِدِحْيَةَ الكَلْبِي تُشْبِه لِحيَتُه وسِنُّه ووجهُه جبريل ـ عليه السلام ـ فأتاهم رسولُ الله ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتدَّ حصارُهم واشتد البلاءُ قيل لهم: انزلوا على حُكم رسول الله ﷺ فاستشاروا أبا لُبابة ابنَ عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبحُ قالوا: ننزل على حُكم سعد بن مُعاذ. فقال رسولُ الله ﷺ: «انزلُوا على حكم سعد بن معاذ». فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن مُعاذ فأتي به على حمار عليه إكافٌ[1] من ليفٍ قد حُمِل عليه، وحَفَّ به قومُه، فقالوا: يا أبا عمرو، حُلفاؤك ومواليك وأهل النِّكاية[2] ومن قد علمت. قالت: ولا يَرْجِع إليهم شيئاً، ولا يَلتفِتُ إليهم، حتى إذ دنا من دُورِهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لي ألا أبالي في الله لومَةَ لائم. قال: قال أبو سعيد[3] فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «قُومُوا إلى سيِّدكم فأنزِلُوه» فقال عمر: سَيِّدُنا الله. قال: «أنزِلُوه». فأنزلُوه، قال رسولُ الله ﷺ: «احكُم فيهم» قال سعدٌ: فإني أحكم فيهم أن تُقتَل مُقاتِلَتُهم، وتُسبَى ذراريهم، وتُقَسَّم أموالهم. فقال رسول الله: «لقد حكمْتَ فيهم بحكم الله وحُكمِ رسوله». ثم دَعا سعد فقال: اللهم، إن كنت أبقيتَ على نبيِّك من حرب قُرَيش شيئاً فأبقِني لها، وإن كنت قطعتَ الحربَ بينه وبينهم فاقبِضْني إليك. قال: فانفجر كَلْمُه، وكان قد برِيء منه إلا مثل الخُرْص[4]، ورجع إلى قُبَّته التي ضُرِب عليه رسول الله ﷺ.

قالت عائشة: فَحَضَره رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأبو بكر، وعُمَر، قالت: فوالذي نفسُ محمدٍ بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بُكاء عُمَر، وأنا في حُجْرَتي. وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رحماء بينهم﴾

قال علقمة: فقلت: أيْ أُمَّه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنعُ؟ قالت: كانت عينه لا تدمَعُ على أحد، ولكنه كان إذا وَجَدَ[5] فإنما هو آخِذٌ بلحيته[6].

وقد أخرج البخاريُّ ومسلمٌ من حديث عبد الله بن نُمير، عن هِشَام بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن عائشة نحواً من هذا، ولكنه أخصرُ منه، وفيه دُعاء سعدٍ رضي الله عنه[7].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

هذا أمرٌ من الله لرسولِه ـ صَلوات الله وسلامه عليه ـ بأن يُخَيِّر نساءَه بين أن يُفارقهنّ، فيَذهَبْنَ إلى غيره ممن يَحصُلُ لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتُها، وبين الصبر على ما عنده من ضِيق الحال، ولهنَّ عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن ـ رضي الله عنهُنّ وأرضاهن ـ الله وَرسولَه والدار الآخرة، فجمَع الله لهُنَّ بعد ذلك بينَ خَيرِ الدنيا وسعادةِ الآخرة.

---

(١) الإكاف: البَرْذَعَة.

(٢) أي: أهل البأس والشدّة.

(٣) في نسخة الحرم، وقالت: قال أبو سعدة. والصواب: أبو سعيد، هو الخدري، نظر تاريخ الطبري ٢/٥٨٧.

(٤) الخُرص: الحلقة الصغيرة من حليّ الأذن.

(٥) أي: حَزِن.

(٦) مسند أحمد ٦/١٤١ ـ ١٤٢.

(٧) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٤١١ ـ ٤١٢، ومسلم، كتاب الجهاد ٣/١٣٨٩

قال البخاري: حدثنا أبو اليَمان، أخبرنا شُعَيب، عن الزهري، قال: أخبرني أبو سَلَمة بن عبد الرحمن، أن عائشةَ رَضِي الله عنهَا زوجَ النبي ـ ﷺ ـ أخبَرته: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ جاءها حين أمَرَ الله أن يُخيِّر أزواجه، فبدأ بي رسولُ الله ﷺ فقال: «إني ذاكرٌ لك أمراً، فلا عليكِ أن تستعجلي حتى تَستأمري أبويك»، وقد عَلِمَ أن أبويَّ لم يكُونا يأمراني بِفِراقه، قالت: ثم قال: إنَّ الله قال: ﴿يا أيها النبيٌّ قل لأزواجك﴾ إلى تَمَام الآيتين، فقلت له: فَفِي أَيِّ هذا أَستأمِرُ أبويَّ، فإني أريد الله ورسولَه والدارَ الآخرة؟

وكذا رواه مُعَلَّقاً عن الليثِ: حدثني يُونس، عن الزُّهري، عن أبي سَلَمة، عن عائِشَة. فَذكره وزاد: «قالت: ثم فعل أزواجُ النبيِّ ﷺ مَثْلَ ما فعلتُ».

وقد حَكَى البخاريُّ أن معمراً اضطرب فيه، فتارةً رَوَاه عن الزُّهرِيِّ، عن أبي سَلَمة، وتارةً رواه عن الزهري، عن عُروَةَ، عن عائشة(١).

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عَبدَةَ الضبِّيُّ، حدثنا أبو عَوَانَة، عن عُمَر بن أبي سلمة، عن أبيه قال: قالت عائِشَة: لما نَزَل الخيار قال لي رسول الله ﷺ: «إنِّي أريدُ أن أذكُرَ لك أمراً، فلا تَقضِي فيه شيئاً حتى تستامِري أَبَوَيْكِ». قالت: قلتُ: وما هُوَ يا رسولَ الله؟ قال: فردَّه عليها فقالت: ما هُوَ يا رسول الله؟ قال: فقرأ عليها: ﴿يا أيها النبيٌّ قل لأزواجك إن كنتُنَّ تُرِدنَ الحياة الدنيا وَزِينَتَها﴾ . . . إلى آخر الآية، قالت: فقلت: بل نختار الله ورَسُولَه والدار الآخرة. قالت: فَفَرِح بذلك النبيُّ ﷺ(٢).

وحدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بشر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سَلَمة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت آيةُ التخيير، بَدَأ بي رسولُ الله ﷺ فقال: «يا عائشةُ، إني عارضٌ عليكِ أمراً، فلا تفتاتي(٣) فيه بشيء حتى تَعرِضيه على أبويك أبي بكر وأم رُومان. فقلت: يا رسولَ الله، وما هُوَ؟ قال: قال الله عز وجل: ﴿يا أيها النبي قُل لأزواجكَ إن كنتُنَّ تُرِدْنَ الحياة الدُّنيا وزينتها فتعالَين أُمَتِّعكُنَّ وأُسرِّحكُنَّ سَراحاً جميلاً ۞ وإن كنتن تُرِدْنَ الله وَرَسُوله والدارَ الآخِرَة فإنَّ الله أعدَّ للمُحسِنَاتِ مِنكُنَّ أجراً عظيماً﴾. قلتُ: فإني أُريدُ الله ورسولَه والدارَ الآخرةَ، ولا أُؤامِرُ في ذلك أبويَّ أبا بكر وأُمَّ رُومَانَ فَضحِكَ رسولُ الله ﷺ ثم استقرأ الحُجَر، فقال: «إن عائشةَ قالت كذا وكذا». فقلن: ونحنُ نقول مثل ما قالت عائشةُ، رضي الله عنهن كُلِّهن»(٢).

ورواه ابنُ أبي حاتم: عن أبي سَعيد الأشجِّ، عن أبي أُسَامة، عن محمد بن عمرو، به.

قال ابنُ جرير: وحدثنا سعيدُ بن يحيى الأُمَوِيُّ، حدثنا أبي، عن مُحَمَّدِ بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عَمْرَةَ، عن عائِشَة أن رَسُولَ الله ﷺ لما نَزَل إلى نسائه أمَرَ أن يُخَيِّرهن، فَدَخل عَليَّ فقال: «سأذكر لك أمراً فلا تعجلي حتى تَسْتَشِيري أباكِ. فقلتُ: وما هُوَ يا نبيَّ الله؟ قال: «إني أُمِرتُ أن أُخيِّرَكُنَّ»، وتلا عليها آيةَ التخيير، إلى آخر الآيتين. قالت فقلت: وما الذي تقولُ: لا تَعْجلي حتى تَسْتَشِيري أباكِ؟! فإني أختارُ الله ورسُولَه. فَسُرَّ بذلك، وعَرَض على نِسائه فَتَتابَعْنَ كُلُّهن، فاخترنَ اللهَ ورسوله(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يزيدُ بن سِنان البَصري، حدثنا أبو صالح عبدُ الله بن صالح، حدثني الليثُ،

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٨/٥١٩ ـ ٥٢٠.
(٢) تفسير الطبري ٢١/١٥٨.
(٣) أي: فلا تسبقي أبويك بإبداء الرأي فيه.

حدثني عُقَيل، عن الزُهري، أخبرني عُبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: نزلت آية التخيير، فبدأ بي أول امرأةٍ من نسائه، فقال: «إنّي ذاكِرٌ لكِ أمراً، فلا عليكِ أن لا تَعجلي حتى تستأمِري أبويكِ». قالت: قد علم أنّ أبويّ لم يكونا يأمراني بفِراقِهِ، قالت: ثم قال: «إن الله قال: ﴿يا أيها النبيُّ قُل لأزواجِكَ﴾..» الآيتين. قالت عائشة: فقلتُ: أفي هذا أستأمِرُ أبويَّ؟! فإني أُريدُ الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خَيَّر نساءه كُلّهن، فقُلن مثل ما قالت عائشةُ، رضي الله عنهن.

وأخرَجه البخاريُّ ومسلمٌ جميعاً، عن قُتيبة، عن الليث[1] [عن الزُهريّ، عن عُروة، عن عائشة، مثله[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو مُعَاوية، حدثنا الأعمش][1]، عن مسلم بن صُبَيح، عن مسروق، عن عائشة قالت: خَيَّرَنا رسولُ الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدها علينا شيئاً[3]. أخرجاه من حديث الأعمش[3].

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عَمْرو، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن أبي الزُّبير، عن جابر قال: أقبل أبو بكر رَضِي الله عنه يَستأذنُ على رسول الله ﷺ والناسُ ببابه جُلوسٌ، والنبي ﷺ جالسٌ، فلم يُؤذَن له. ثم أقبل عُمَر فاستأذن فلم يُؤذَن له. ثم أَذِنَ لأبي بكر وعُمَر فدخلا، والنبي ﷺ جالس، وحوله نساؤه، وهو ساكتٌ، فقال عُمَر: لأُكَلِّمَنَّ النبي ﷺ لعلَّه يضحَكُ، فقال عُمَر: يا رسولَ الله، لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتني النفقة آنفاً، فوجأتُ[4] عُنُقَها. فضحك النبي ﷺ حتى بدا نواجذُه، وقال: «هُنَّ حَوْلي يَسْأَلْنَني النفقة». فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليَضْرِبها، وقام عُمَر ـ رضي الله عنه ـ إلى حَفْصَة، كلاهُما يقولان: تسألان النبيَّ ﷺ ما ليسَ عنده! فنهاهما رسولُ الله ﷺ. فقُلن نساؤُهُ: والله لا نسألُ رسولَ الله بعد هذا المجلسِ ما ليس عندَه. قال: وأنزل الله عز وجل الخيارَ، فبدأ بعائشةَ فقال: «إني أذكرُ لكِ أمراً ما أُحبُّ أن تعجَلي فيه حتى تَستأمري أبويكِ». قالت: ما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يا أيها النبيُّ قُل لأزواجك﴾.. الآية. قالت عائشةُ: أفيكَ أستأمِرُ أبويَّ؟ بل أختارُ الله ورسوله، وأسألُكَ ألّا تذكُر لامرأةٍ من نسائِكَ ما اخترتُ. فقال: «إنَّ الله تعالى لم يبعثني مُعَنِّفاً، ولكن بعثني مُعَلِّماً ميسراً، لا تسألني امرأةٌ منهنّ عما اختَرْتِ إلا أخبرتُها»[5].

انفرد بإخراجه مسلمٌ دُونَ البخاري، فرواه هو والنسائيُّ، من حديث زكريا بن إسحاقَ المكي، به[5].

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا سُرَيجُ بن يونُس، حدثنا علي بن هاشم بن البَريد، عن محمد بن عُبَيد الله بن علي بن أبي رافع، عن عثمان بن علي بن الحُسين، عن أبيه، عن عَليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ خَيَّر نساءه الدنيا والآخرة، ولم يُخَيِّرهنَّ الطَّلاقَ[6].

(١) ما بين القوسين غير ثابت في نسخة الحرم
(٢) لم يقع لنا الحديث في الصحيحين بهذا السند، وانظر تحفة الأشراف للمزي ٧١/١٢ ـ ٧٤، ٤٦/٨ ـ ٤٨
(٣) مسند الإمام أحمد ٤٥/٦، وأخرجاه في كتاب الطلاق، فتح الباري ٣٦٧/٩، ومسلم ١١٠٤/٢
(٤) أي: طعنته وكسرته.
(٥) مسند أحمد ٣٢٨/٣، ومسلم، كتاب الطلاق ١١٠٤/٢ ـ ١١٠٥ وأخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء من سننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف للمزي ٢٩٧/٢.
(٦) مسند أحمد ٧٨/١.

وهذا منقطع، وقد رُوِي عن الحسن وقتادة وغيرهما نحوُ ذلك. وهو خلافُ الظاهرِ من الآيةِ، فإنه قال ﴿فتعالَين أُمتِّعكن وأُسرِّحكن سَراحاً جميلاً﴾، أي: أُعطيكُنَّ حقوقَكُنَّ وأُطلِقُ سَراحكُنَّ.

وقد اختلف العلماء في جوازِ تزويجِ غيرِه لهُنَّ لو طلقهُنَّ، على قولين، وأصحُّهما نَعَم لو وَقَع، ليحصُل المقصودُ من السراحِ، والله أعلم.

قال عكرمةُ: وكان تحته يومئذ تسعُ نسوةٍ، خمسٌ من قريش: عائشةُ، وحَفصةُ، وأم حَبيبة، وسَودَةُ، وأم سَلَمة. وكانت تحته ﷺ صَفيَّة بنت حُيَيّ النَّضْريَّة، وميمونةُ بنتُ الحارثِ الهِلاليَّة، وزينبُ بنتُ جَحشٍ الأسدية، وجُوَيرِيَةُ بنتُ الحارثِ المُصطَلِقيَّة، رضي الله عنهنَّ وأرضاهن.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

يقولُ تعالى واعظاً نساءَ النبي - ﷺ - اللاتي اخترنَ الله ورسولَه والدارَ الآخرة، واستقر أمرهُنَّ تحتَ رسولِ الله ﷺ [فناسَبَ][(١)] أن يُخبَرن بحكمهن [وتخصيصهنَّ][(١)] دون سائر النساء، بأنَّ من يأت منهُنَّ بفاحشة مبينة - قال ابن عباس: وهو النشوزُ وسوءُ الخُلق - وعلى كلِّ تقديرٍ فهو شَرْطٌ، والشرطُ لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: ﴿ولقد أُوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليَحبطنَّ عملُك﴾، وكقوله: ﴿ولو أشركُوا لحَبِطَ عنهم ما كانوا يعملون﴾، ﴿قل إن كان للرحمنِ وَلَدٌ فأنا أولُ العابدين﴾، ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطَفَى مما يخلقُ ما يشاءُ سبحانَه هو الله الواحدُ القَهَّار﴾. فلما كانت مَحلَّتُهنَّ رفيعةً، ناسب أن يُجعَلَ الذنبُ لو وَقَع منهن مُغَلَّظاً، صيانةً لجنابهنَّ وحِجابهنَّ الرفيع، ولهذا قال: ﴿من يأتِ منكنَّ بفاحشةٍ مبيِّنةٍ يضاعَف لها العذابُ ضعفين﴾.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿يضاعَف لها العذاب ضِعفين﴾، قال: في الدنيا وفي الآخرة. وعن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد مثله.

﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾، أي: سهلاً هيناً.

ثم ذكر عدلَه وفضلَه في قوله: ﴿ومن يقنُت منكنَّ لله ورسوله﴾، أي: تُطيع الله ورسوله وتستجيبُ ﴿نُؤتها أجرَها مرَّتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾، أي: في الجنة، فإنهن في منازلِ رسولِ الله ﷺ، في أعلى عِلِّيِّين، فوق منازلِ جميعِ الخلائق، في الوسيلة التي هي أقربُ منازلِ الجَنَّة إلى العرشِ.

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

(١) عن نسخة الحرم.

هذه آدابٌ أَمَر الله بها نساءَ النبي ﷺ، ونساءُ الأمةِ تَبَعٌ لهنَّ في ذلك، فقال مخاطباً لنساء النبيِّ بأنهنَّ إذا اتَّقين الله كما أمرهُنَّ فإنه لا يُشْبِهُهنَّ أحدٌ من النساء، ولا يلحقُهنَّ في الفضيلة والمنزلة، ثم قال: ﴿فلا تَخضَعْنَ بالقَولِ﴾.

قال السُّدِّيُّ وغيره: يعني بذلك تَرقيقَ الكلام إذا خاطَبْنَ الرجال. ولهذا قال: ﴿فيطمعَ الذي في قلبه مَرَضٌ﴾، أي: دَغَل[1]، ﴿وقُلن قولاً معروفاً﴾، قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير[2].

ومعنى هذا أنها تخاطِبُ الأجانبَ بكلامٍ ليس فيه ترخيمٌ، أي: لا تخاطِبُ المرأةُ الأجانبَ كما تخاطِبُ زوجَها.

وقولُه: ﴿وقَرْن في بيوتكنَّ﴾، أي: الْزَمنَ بيوتكُنَّ فلا تَخرُجْنَ لغيرِ حاجةٍ. ومن الحوائجِ الشرعيَّةِ الصلاةُ في المسجدِ بشرطِهِ، كما قال رسولُ الله ﷺ: «لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله، ولْيخرُجْنَ وهن تَفِلاتٌ»[3]، وفي روايةٍ: «وبيوتُهن خيرٌ لهن»[3].

وقال الحافظ أبو بكر البَزَّار: حدثنا حُمَيد بن مَسْعَدَة، حدثنا أبو رجاء الكلبي، روحُ بن المسيَّب ثقة، حدثنا ثابت البُنانيُّ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: جِئْنَ النساءُ إلى رسولِ الله ﷺ فقلن: يا رسولَ الله، ذَهَبَ الرجالُ بالفضلِ والجهادِ في سبيلِ الله تعالى، فما لنا عملٌ ندرِكُ به عملَ المجاهدين في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قَعَدَ ـ أو كلمةً نحوها ـ مِنْكُنَّ في بَيْتِها فإنها تُدرِكُ عَمَلَ المجاهِدِين في سبيل الله».

ثم قال: لا نعلم رَواه عن ثابتٍ إلا روحُ بن المسيب، وهو رجل من أهل البصرة مشهورٌ[4].

وقال البزَّارُ أيضاً: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عَمرو بن عاصم، حدثنا هَمَّام، عن قتادة، عن مُوَرِّق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «إن المرأة عورةٌ، فإذا خَرَجت استشرَفَها[5] الشيطانُ، وأقربُ ما تكون بروْحَة ربِّها وهي في قَعرِ بيتِها».

ورواه الترمذيُّ، عن بُندار، عن عَمرو بن عاصم، به نحوَه[5].

وروَى البزَّار بإسنادِه المتقدم، وأبو داود أيضاً، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «صلاةُ المرأةِ في مخدَعِها أفضلُ من صلاتها في بيتِها، وصلاتُها في بيتِها أفضلُ من صلاتِها في حُجرَتِها»[6]. وهذا إسناد جيد.

وقولُه تعالى: ﴿ولا تبرَّجن تبرُّجَ الجاهليةِ الأُولى﴾، قال مجاهد: كانت المرأةُ تخرُج تمشي بين يدَي الرجالِ، فذلك تبرُّج الجاهليةِ.

---

(١) الدَّغَلُ: العيب في الأمر يُفسِده.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/٣.

(٣) تَفِلات: تاركات للطيب. وتقدم تخريجه من الصحيحين عند تفسير الآية ٣٧ من سورة النور. وأخرجه أيضاً أبو داود عن أبي هريرة وابن عُمَر في كتاب الصلاة ١/١٥٥، ١/١٥٥ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة ٢/٤٣٨، ٤٧٥، ٥٢٨، عن زيد بن خالد الجهني ٥/١٩٢، ١٩٣، وعن عائشة ١/٦٩ ـ ٧٠ وأخرجه البزار عن زيد بن خالد. كشف الأستار عن زوائد البزار ١/٢٢٢

(٤) أخرجه الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/٦١

(٥) أصل الاستشراف: رفع البصر للنظر إلى الشيء، وبسط الكف فوق الحاجب. والمعنى: أنه يزيِّنها للرجال. والروحة: المرةُ من الرواح أي: تكون على مقدار روحة من ربِّها

والحديث أخرجه الترمذي في أبواب الرضاع، عارضة الأحوذي ٥/١٢٢

(٦) تقدم عند تفسير الآية ٣٧ من سورة النور، وأخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ١/١٥٦

وقال قتادةُ: ﴿ولا تبرَّجن تبرُّجَ الجاهليةِ الأولى﴾، يقول: إذا خرجتُنَّ من بُيوتِكُنَّ ـ وكانت لهن مِشْيةٌ وتكسُّر وتغنُّج[1] ـ فنهى الله عن ذلك.

وقال مُقاتِل بن حَيَّان: ﴿ولَا تَبرَّجن تَبرُّج الجاهليةِ الأُولى﴾، والتبرُّج: أنها تُلقي الخِمَار على رأسِها، ولا تَشُدُّه فيوارى قلائِدَها وقرْطَها وعُنُقَها، ويبدو ذلك كلُّهُ منها، وذلك التبرجُ، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرُّج[2].

وقال ابن جرير: حدثني ابنُ زُهير، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا داودُ ـ يعني ابنَ أبي الفُرات ـ حدثنا عِلباءُ بن أحمرَ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا هذه الآية: ﴿ولا تبرَّجن تبرُّجَ الجاهليةِ الأولى﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريسَ، وكانت ألفَ سنةٍ، وإنَّ بطنَين من ولد آدم كان أحدُهما يسكُن السهلَ، والآخر يسكُن الجبلَ، وكان رجال الجبلِ صِباحاً وفي النساءِ دَمَامةٌ. وكان نساءُ السهلِ صِباحاً وفي الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهلِ في صورة غُلام، فآجَر نفسَه منه، فكان يخدُمه واتخذ إبليسُ شيئاً مثلَ الذي يُزمِّر فيه الرِّعاء، فجاء فيه بصوت لم يَسمَع الناس مثلَه، فبلغ ذلك مَن حوله، فانتابُوهم يستمِعُون إليه، واتخذوا عِيداً يجتمِعُون إليه في السنة، فتبرَّج الرجال للنساء، قال: وتنزَّلَ الرجالُ لهنّ[3]، وإن رجلاً من أهل الجبلِ هَجَم عليهم في عِيدِهم ذلك، فرأى النِّساءَ وصَباحَتَهُنَّ، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحوَّلوا إليهن. فنزلوا مَعهُنَّ وظهرت الفاحِشَةُ فيهنَّ، فهو قولُه تعالى: ﴿ولَا تبرَّجنَ تبرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى﴾[4].

وقولُه: ﴿وأَقِمْنَ الصلاةَ وآتِينَ الزَّكاةَ وأَطِعْنَ الله ورسُولَه﴾، نَهاهُنَّ أوَّلاً عن الشر ثم أمرَهُنَّ بالخير، من إقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وأَطِعْنَ الله ورسُولَه﴾، وهذا من باب عطف العامّ على الخاص.

وقولُه: ﴿إنما يُريد الله لِيُذهِبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويُطَهِّرَكم تَطهيراً﴾ وهذا نصٌّ في دخولِ أزواج النبي ـ ﷺ ـ في أهل البيت هاهنا، لأنهُنَّ سببُ نزولِ هذه الآية، وسببُ النزولِ داخلٌ فيه قولاً واحداً، إما وحدَه على قولٍ، أو مع غيره على الصَّحيح.

وروَى ابنُ جرير، عن عِكرِمَةَ أنه كان يُنادي في السُّوق: ﴿إنما يُريدُ الله لِيُذهِب عنكُم الرجسَ أهلَ البيتِ ويُطَهِّركم تطهيراً﴾، نَزَلت في نساءِ النبي ﷺ خاصَّةً[5]. وهكذا روى ابن أبي حاتم، قال:

حدثنا علي بن حَرب الموصلي، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنا حُسَين بن واقد، عن يَزِيدَ النحويِّ، عن عكرمة، عن ابن عَبَّاسٍ في قوله: ﴿إنما يُريد الله لِيُذهِب عنكم الرجسَ أهلَ البيت﴾، قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصَّة.

وقال عكرمةُ: مَن شاءَ باهلتُه أنها نزلَت في أزواجِ النبي ﷺ.

---

(١) التغنُّج. التدلل والتكسُّر
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٦/٦٠٧
(٣) في تفسير الطبري: وتتزين النساء للرجال.
(٤) تفسير الطبري ٢٢/٤. وقد أخرجه الحاكم في كتاب التاريخ ٢/٥٤٨ كما أخرجه غير واحد، انظر الدر المنثور ٦/٦٠١.
(٥) تفسير الطبري ٢٢/٨

فإن كان المرادُ أنهنّ كُنّ سَبَبَ النزولِ دُونَ غيرِهنّ فصحيحٌ، وإن أُريدَ أنهنّ المرادُ فقط دون غيرهن ففي هذا نظرٌ، فإنه قد وردت أحاديثُ تدلُّ على أن المراد أعمُّ من ذلك.

الحديث الأول، قال الإمام أحمد: حدثنا عفَّان، حدثنا حَمَّاد، أخبرنا عليُّ بن زيد، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: إنّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يمرُّ بباب فاطمة ستة أشهرٍ إذا خرج إلى صلاة الفجر، يقول: الصلاةَ يا أهلَ البيت، ﴿إنما يُريدُ الله ليُذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويُطهِّركم تطهيراً﴾[1].

ورواه الترمذيُّ عن عبدِ بن حُمَيد، عن عفَّان، به، وقال: حسنٌ غريب[1].

حديثٌ آخرُ، قال ابنُ جَرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا يونُسُ بنُ أبي إسحاق، أخبرني أبو داود، عن أبي الحمراء قال: رابطتُ المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ، قال: رأيتُ رسول الله ﷺ ـ إذا طلع الفجرُ جاء إلى بابِ عليٍّ وفاطمة فقال: «الصلاةَ الصلاةَ، ﴿إنما يُريد الله ليُذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويُطهِّرَكم تطهيراً﴾[2].

أبو داود الأعمى هو: نُفَيع بن الحارث، كذّاب.

حديثٌ آخر، وقال الإمام أحمدُ أيضاً: حدَّثنا محمد بن مُصعَب، حدثنا الأوزاعيُّ، عن شداد أبي عمَّار قال: دخلتُ على واثِلَة بن الأسقع وعندَه قومٌ، فذكروا علياً رضي الله عنه، فلما قاموا قال لي: ألا أُخبرُكَ بما رأيتُ من رسولِ الله ﷺ؟ قلت: بلى. قال: أتيتُ فاطمة أسألها عن عليٍّ فقالت: توجّه إلى رسُول الله ﷺ فجلستُ أنتظره حتى جاءَ رسول الله ﷺ ومعه علي وحَسَنٌ وحُسَينٌ، آخذٌ كلَّ واحدٍ منهما بيده حتى دخل، فأدنى علياً وفاطمةَ وأجلسَهُما بين يديه، وأجلسَ حَسَناً وحُسَيناً كلَّ واحدٍ منهما على فخذِه، ثم لفَّ عليهم ثوبه ـ أو قال: كِساءه ـ ثم تلا هذه الآية: ﴿إنما يُريد الله ليُذهبَ عنكم الرجسَ أهل البيتِ ويُطهِّرَكم تطهيراً﴾. وقال «اللهُمّ هؤلاء أهلُ بيتي، وأهلُ بيتي أحقُّ»[3].

وقد رواه أبو جعفرِ بنُ جرير، عن عبد الكريم بن أبي عُمَير، عن الوليد بن مسلم، عن أبي عمرو الأوزاعي بسنده نحوه، زاد في آخره: «قال واثلةُ، فقلت: وأنا يا رسول الله من أهلك؟ قال: «وأنت من أهلي» قال واثلة: إنها من أَرْجَى ما أرتجي[3].

ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصلٍ، عن الفضل بن دُكَين، عن عبد السلام بن حَرب، عن كُلثوم المحاربي، عن شَدَّادٍ أبي عَمَّار قال: إني لجالس عند واثلةَ بن الأسقع إذ ذكروا علياً فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أُخبرَك عن هذا الذي شتموه، إني عند رسول الله ﷺ إذ جاءه علي وفاطمة وحسن وحُسين، فألقى ﷺ كساءً له، ثم قال: «اللهُمّ هؤلاء أهل بيتي، اللهُمّ أذهب عنهم الرجس وطهِّرهم تطهيراً». قلتُ: يا رسولَ الله، وأنا؟ قال: «وأنت»، قال: فوالله إنها لأوثقُ عملي عندي[4].

حديثٌ آخر، قال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الله بن نُمَير، حدثنا عبدُ الملك بن أبي سُليمان، عن عطاءِ بن

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٢٨٥، وتحفة الأحوذي، تفسير سورة الأحزاب ١٢/٨٥.
(٢) تفسير الطبري ٢٢/٦.
(٣) مسند الإمام أحمد ٤/١٠٧، وتفسير الطبري ٢٢/٧.
(٤) تفسير الطبري ٢٢/٦ ـ ٧.

أبي رباح، حدثني من سمع أم سلمة تذكر أن النبيّ ـ ﷺ ـ كان في بيتها، فأتته فاطمةُ رضي الله عنها ببُرْمَةٍ فيها خَزيرة[1]، فدخلت بها عليه فقال لها: ادعي زوجَكِ وابنَيك. قالت: فجاء عليٌّ وحَسَن وحُسَين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلُون من تلك الخَزيرة، وهو على مَنَامَةٍ له، وكانَ تحته[2] كساءٌ خَيبَرِيٌّ، قالت. وأنا في الحجرة أُصلِّي، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية: ﴿إنما يُريد الله لِيُذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيتِ ويُطَهِّركم تَطهيراً﴾ قالت فأخذ فضْلَ الكِساء فَغَطَّاهم به، ثم أخرج يده فألوى[3] بها إلى السماء، ثم قال «اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي وحاصتي، فأَذهِب عنهم الرجس وطهِّرهم تطهيراً، قالت: فأدخلتُ رأسي البيتَ، فقلتُ: وأنا معكُم يا رسولَ الله؟ فقال: إنّكِ إلى خَيرٍ، إنّكِ إلى خيرٍ»[4].

في إسنادِه مَن لم يُسَمَّ، وهو شيخُ عَطَاء، وبقيةُ رجالِه ثقاتٌ.

طريقٌ أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن أبي المُعَدَّل عَطِيَّة[5] الطُّفَاوي، عن أبيه أنَّ أمَّ سَلَمة حَدَّثَته قالت: بينما رسول الله ﷺ في بيتي يوماً إذ قالت الخادمُ: إن فاطمةَ وعليًا بالسُّدَّةِ[6] قالت: فقال لي: قومي فَتَنَحَّيْ لي[7] عن أهل بيتي. قالت: فقمتُ فتنحَّيت في البيت قَريباً، فدخَلَ عليٌّ وفاطمة، ومعهما الحَسَن والحُسين، وهما صَبِيَّان صغيران، فأخذ الصبيَّين فوضعهما في حِجْره فقبَّلهما، واعتنق عليًا بإحدى يَدَيه وفاطمةَ باليد الأخرى، وقبَّل فاطمة وقبَّل علياً، وأغدَق عليهم خَميصةً[8] سوداء وقال: اللهمَّ، إليكَ لا إلى النارِ أنا وأهلُ بيتي. قالت: فقلتُ: وأنا يا رسولَ الله؟ صلى الله عليكَ. قال: وأنت[9].

طريقٌ أخرَى، قال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب حدثنا الحسن بن عَطِيَّة، حدثنا فُضَيل بن مَرزوق، عن عطية، عن أبي سَعيد، عن أمِّ سلمة أن هذه الآيةَ نزلَت في بيتها ﴿إنما يُريد الله لِيُذهِبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويُطَهِّركم تَطهيراً﴾، قالت: وأنا جالسةٌ على بابِ البيتِ فقلتُ: يا رسولَ الله، ألستُ من أهلِ البيتِ؟ فقال: «إنك إلى خير، أنتِ من أزواجِ النبي ﷺ». قالت: وفي البيتِ رسولُ الله ﷺ وعليٌّ، وفاطمةُ، والحَسنُ، والحُسَين، رضي الله عنهم[10].

طريقٌ أخرَى، رواه ابنُ جرير أيضاً، عن أبي كُرَيب، عن وَكيع، عن عبد الحميد بن بَهرام، عن شهرِ بن حَوْشَبٍ عن أمِّ سلمَةَ بنحوه[10].

طريقٌ أخرَى، قال ابنُ جَرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا خالد بن مَخلد، حدثني موسى بن يعقوب، حدثني هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن عبد الله بن وهب بن زَمْعة قال: أخبرتني أم سَلَمة رضي الله

---

(١) الخزيرة: لحم يُقطَّع قطعاً صغيرة، ويُصبّ عليه ماء كثير، فإذا نضج ذُرّ عليه الدقيق.

(٢) كذا في نسخة الحرم. وفي المسند «وعلى منامة له على دكان تحته...». والدكان: الدَّكّة المبنيَّة للجلوس عليها.

(٣) أي: توجَّه بها.

(٤) مسند أحمد ٢٩٢/٦

(٥) في النسخ «عن أبي المعدل، عن عطية». والمثبت عن المسند. وانظر المقتنى للذهبي ٨٨/٢ مع تعليق المحقق، والأنساب للسمعاني ٩٩/٤

(٦) السُّدَّة: باب الدار، والظُّلَّة بباب الدار، والساحة بين يَدَي الباب.

(٧) تنحَّى: صار في ناحية.

(٨) الخميصة: ثوبٌ أسودُ من خَزٍّ أو صوف.

(٩) مسند أحمد ٢٩٦/٦

(١٠) تفسير الطبري ٧/٢٢

عنها أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ جمع عَلِيّاً[1] وفاطمةَ والحسن والحُسين، ثم أدخلهم تحت ثوبه، ثم جأر إلى الله عز وجل، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي». قالت أم سلمة. فقلت: يا رسول الله، أدخلني معهم فقال. «أنتِ من أهلي».

طريق أخرى، رواه ابن جرير أيضاً، عن أحمد بن محمد الطُّوسي، عن عبد الرحمن بن صالح، عن محمد بن سُلَيمان الأصبهانيّ، عن يحيى بن عُبَيد المكي، عن عطاء، عن عُمر بن أبي سلمة، عن أمه نحو ذلك.

طريق أخرى، قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا مُصعب بن المقدام، حدثنا سعيد بن زَرْبيٍّ، عن محمد بن سِيرين، عن أبي هُرَيرة، عن أم سَلَمة قالت: جاءت فاطمَةُ إلى رسولِ الله ﷺ ببُرْمَة لها قد صَنعت فيها عَصِيدَة[2] تحمِلها على طَبَق، فوضَعَتها بين يديه فقال. أين ابنُ عَمِّك وابناكِ؟ فقالت: في البيتِ. فقال. «ادعيهم»: فجاءت إلى عَلِيٍّ فقالت: أجِبْ رسولَ الله أنتَ وابناك. قالت أم سَلَمة: فلما رآهُم مقبِلين مَدَّ يده إلى كساءٍ كان على المنامة، فمَدَّه وبَسَطه، وأجلَسَهُم عليه، ثم أخذ بأطرافِ الكِساءِ الأربعة بِشماله، فضَمَّه فوق رُءُوسهم، وأومأ بيده اليمنى إلى رَبِّه عزَّ وجل فقال: «اللهُمَّ، هؤلاءِ أهلُ بيتي، فأذهِب عنهم الرِّجْسَ وطَهِّرهم تطهيراً»[3].

طريقٌ أخرى، قال ابنُ جرير: حدثنا ابن حُميد، حدثنا عبد الله بن عبد القُدُّوس، عن الأعمش، عن حكيم ابن سعد قال: ذَكرنا عليَّ بن أبي طالب عند أم سَلَمةَ، فقالت: في بيتي نَزَلت: ﴿إنما يُريد اللهُ لِيُذهِبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويُطَهِّركم تَطهيراً﴾. قالت أُمُّ سَلَمة: جاء رسولُ الله ﷺ إلى بيتي فقال: «لا تأذَني لأحدٍ». فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجُبها عن أبيها. ثم جاء الحسنُ فلم أستطع أن أحجُبَه عن أمه وجدِّه، ثم جاء الحُسَين فلم أستطع أن أحجُبه، [ثم جاء عليٌّ فلم أستطع أن أحجُبَه] فاجتمعوا فَجلّلهم رسول الله ﷺ بكساءٍ كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهلُ بيتي، فأذهِبْ عنهم الرجسَ وطَهِّرهم تطهيراً». فنزلت هذه الآيةُ حين اجتَمَعُوا على البِساطِ، قالت: فقلت: يا رسولَ اللهِ، وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعَمَ[4]، وقال: «إنك إلى خيرٍ»[5].

حديثٌ آخرُ، قال ابنُ جَرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا محمدِ بن بِشْرٍ، عن زكريا، عن مُصعَب بن شَيْبَةَ، عن صفيةَ بنتِ شيبة قالت: قالت عائشة رضي الله عنها: خرج رسولُ الله ﷺ ذاتَ غَداةٍ، وعليه مِرْطٌ مُرَحَّل[6] من شَعَرٍ أسودَ، فجاء الحسن فأدخلَه معه، ثم جاء الحُسَين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمةُ فأدخلَها معه، ثم جاء عليٌّ فأدخلَه معه، ثم قال: ﴿إنما يُريد الله لِيُذهِبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيتِ ويُطَهِّركم تطهيراً﴾[7].

ورواه مُسلِم عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن محمد بن بشر، به[7].

طريق أخرى، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سُرَيج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد بن

(١) في تفسير الطبري ٢٢/٨: «وجمع علياً والحسين».
(٢) العصيدة: دقيق يُلَتُّ بالسمن ويطبخ.
(٣) تفسير الطبري ٢٢/٧.
(٤) أي: ما قال: نعم
(٥) تفسير الطبري ٢٢/٨.
(٦) المِرْط: كساء. ومُرَحَّل: مُوَشَّى منقوش عليه صُوَر رِحالُ الإبل
(٧) تفسير الطبري ٢٢/٦، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ٤/١٨٨٣

يَزِيدَ، عن العوام بن حَوْشَبٍ، عن عَمٍّ له قال: دخلتُ مع أبي عَلى عائشةَ، فسألتها عن عَلِيٍّ رضي الله عنه، فقالت رضي الله عنها: تسألني عن رَجُلٍ كان مِن أحبِّ الناسِ إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنتُه وأحبُّ الناس إليه؟ لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ دعا عَلِيّاً وفاطمةَ وحَسَناً وحُسَيناً، فألقى عليهم ثوباً فقال: «اللهُمَّ، هؤلاء أهل بيتي، فَأذهِبْ عنهم الرجس وَطهِّرهم تطهيراً». قالت: فدنوتُ منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهلِ بيتك؟ فقال: «تَنَحَّي، فإنك على خير».

حديث آخر، قال ابنُ جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا بكرُ بن يحيى بن زَبَّانَ العَنَزِيُّ، حدثنا مَنْدَلٌ، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: نزلت هذه الآيةُ في خمسةٍ: فِيَّ، وفي عَلِيٍّ، وحَسَنٍ، وحُسَينٍ، وفاطمةَ. ﴿إنما يُريد الله لِيُذهِبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيتِ ويُطَهِّركم تَطْهيراً﴾[١].

قد تقدم أن فُضَيل بنَ مَرْزُوقٍ رواه عن عطيةَ، عن أبي سعيد، عن أمِّ سلمة كما تقدم.

وروى ابنُ أبي حاتم من حديث هارونَ بن سعدٍ العِجْلي، عن عطيَّةَ، عن أبي سَعيدٍ موقوفاً، فالله أعلم.

حديثٌ آخَرُ، قال ابن جَرير: حدثنا ابن المُثَنَّى، حدثنا أبو بكر الحَنَفي، حدثنا بُكَير بن مِسمَارٍ قال: سَمعت عامر ابنَ سعدٍ قال: قال سعدٌ: قال رسولُ الله ﷺ حين نَزَل عليه الوحيُ، فأخذ علياً وابنيه وفاطمةَ فأدْخَلَهُم تحت ثوبه، ثم قال: «رَبِّ. هؤلاء أهلي وأهلُ بيتي».

حديث آخر، وقال مُسلم في صَحيحه: حدثني زُهَير بن حَرب، وشُجاع بن مَخْلَد جَميعاً، عن ابن عُلَيَّة، قال زُهَير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثني أبو حَيَّان، حدثني يزيد بن حَيَّان قال: انطلقت أنا وحُصَين بن سَبْرَةَ وعُمَر بن مسلمٍ إلى زَيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حُصَين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً، رأيتَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وسمعتَ حديثه، وغزوت معه، وصلَّيتَ خلفه، لقد لقيت يا زيدُ خيراً كثيراً، حَدِّثنا يا زيد ما سَمِعتَ من رسول الله ﷺ. قال: يا ابنَ أخي، والله لقد كَبِرَتْ سِنّي، وقَدُم عَهدي، ونسيتُ بعضَ الذي كنتُ أعِي من رسول الله ﷺ، فما حَدَّثتكُم فاقبَلُوا، وما لا فلا تُكَلِّفُونيه. ثم قال: قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً فينا خطيباً بماءٍ يدعى خُمًّا ـ بين مكة والمدينة ـ فَحَمِد الله وأثنى عليه، وَوَعظ وذَكَّر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بَشرٌ يُوشِكُ أن يأتِيَ رسولُ رَبِّي فأجيبَ، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَين، أوَّلُهما كتاب الله فيه الهُدَى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فَحَثَّ على كِتاب الله وَرَغَّب فيه، ثم قال: «وأهلُ بَيتي، أذَكِّركُم الله في أهل بيتي، أذَكِّركم الله في أهل بيتي، ثلاثاً. فقال له حُصَين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه مِن أهلِ بيتِه؟ قال: نساؤه من أهلِ بيتِه، ولكن أهلُ بيته من حُرِمَ الصَّدقَةَ بعدَه. قال: ومن هُم؟ قال: هُم آلُ عَلِيٍّ، وآلُ عَقِيل، وآلُ جعفر، وآلُ عباس. قال: كل هؤلاء حُرِمَ الصَّدَقةَ؟ قال: نعم[٢].

ثم رواه عن محمد بن بَكَّار بن الرَّيَّانِ، عن حَسَّان بن إبراهيم، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد بن حَيَّانَ، عن زيد بن أرقَمَ، فذكَر الحديثَ بنحو ما تقدَّم، وفيه: فقلنا له: من أهلُ بيته؟ نساؤه؟ قال: لا وايمُ الله، إن المرأة تكون مع الرجل العَصْرَ مِنَ الدهرِ، يُطَلِّقها فترجع إلى أبيه وقَومِها، أهلُ بيته أصلُه وعَصَبَتُه الذين حُرِموا الصدقةَ بعده.

هكذا وَقَع في هذه الرواية والأولى أولى، والأخذُ بها أحْرَى. وهذه الثانيةُ تحتملُ أنه أرادَ تفسيرَ الأهلِ

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/٦

(٢) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ٤/١٨٧٣.

المذكورين في الحديث الذي رواه، إنما المراد بهم آله الذين حُرموا الصدقة، أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواجَ فقط، بل هم مع آله، وهذا الاحتمال أرجح؛ جمعاً بينها وبين الرواية التي قبلها، وجمعاً أيضاً بين القرآن والأحاديثِ المتقدِّمة إن صَحَّت، فإن في بعض أسانيدها نظراً، والله أعلم. ثم الذي لا يشُكُّ فيه من تدبر القرآن أن نساءَ النبي ﷺ داخلاتٌ في قوله ﴿إنما يريدُ الله ليذهِبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويُطهِّركم تطهيراً﴾، فإن سياق الكلام مَعهُنّ، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله ﴿واذكرن ما يتلى في بُيوتكُنّ من آيات الله والحكمة﴾، أي واعمَلن بما ينزل الله على رسوله في بُيوتكُنّ من الكتاب والسنة، قاله قتادة وغيرُ واحد. واذكرن هذه النعمة التي خُصِصْتُنّ بها من بين الناس، إنَّ الوحي ينزل في بُيوتكُنّ دون سائر الناس، وعائشة الصِّدِّيقةُ بنت الصديق، أولاهُنّ بهذه النعمة، وأحظاهُنّ بهذه الغَنيمة، وأخصُّهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحيُ في فِراش امرأةٍ سواها، كما نَصَّ على ذلك صلوات الله وسلامه عليه. قال بعضُ العلماء: لأنه لم يتزوّج بكراً سواها، ولَمْ ينم معها رَجُلٌ في فراشها سِواه، فناسبَ أن تُخصَّص بهذه المزيّة، وأن تفرد بهذه الرُّتبة العَليّة، ولكن إذا كان أزواجُه من أهل بيته، فقرابته أحقُّ بهذه التسمية، كما تقدّم في الحديث: «وأهل بيتي أحقُّ». وهذا يُشبه ما ثبت في صَحيح مسلم أن رسول الله ﷺ لما سُئل عن المسجد الذي أُسّس على التقوى من أول يوم، فقال: «هو مَسْجِدي هذا»[1]. فهذا من هذا القبيل؛ فإن الآية إنما نزلت في مسجد قُباء، كما ورد في الأحاديث الأخر. ولكن إذا كان ذاك أسّس على التقوى من أول يوم فَمسجدُ رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا أبو عَوَانة، عن حُصَين بن عبد الرحمن، عن أبي جَميلة أنَّ الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ استُخلف حين قُتِل علي رضي الله عنهما، فبينما هو يُصَلِّي إذ وَثَب عليه رجلٌ فطعنه بخنجر، وزعم حُصَين أنه بلغه أن الذي طعنه رجلٌ من بني أسد، وحَسَنٌ ساجد قال: فيزعُمون أن الطعنة وقعت في وَركه، فمرض منها أشهراً، ثم بَرَأ فقعد على المنبر، فقال: يا أهلَ العراق، اتقُوا الله فينا، فإنا أمراؤُكم وضيفانكم، ونحن أهلُ البيت الذي قال الله: ﴿إنما يُريد الله ليذهِبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيتِ ويُطهِّركم تطهيراً﴾، قال: فما زال يقولُها حتى ما بقي أحد من أهلِ المسجدِ إلا وهو يَحِنُّ[2] بكاء.

وقال السدِّي، عن أبي الدَّيلَم قال: قال علي بن الحُسَين لرجُلٍ من أهل الشام: أما قرأتَ في الأحزاب ﴿إنما يريدُ الله ليذهب عنكم الرجسَ أهل البيت ويُطهِّركم تطهيراً﴾؟ قال: نعم، ولأنتم هُم؟ قال: نَعَم.

وقولُه: ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾، أي: بِلُطفه بِكُنَّ بَلَغتُنَّ هذه المنزلة، وَبخبرته بِكُنَّ وَأنكُنَّ أهلٌ لذلك أعطاكُنَّ ذلك وخَصَّكُن بذلك.

قال ابنُ جرير: واذكُرن نعمةَ الله عليكُنَّ بأن جعلكُنَّ في بيوتٍ تُتلَى فيها آياتُ الله والحكمةُ، فاشكُرنَ الله على ذلك واحمدنه. ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾، أي: ذا لُطفٍ بِكُنّ، إذ جعلكُنَّ في البيوت التي تُتلى فيها آياته والحكمة ـ وهي السنةُ ـ خبيراً بِكُنَّ إذ اختاركُنَّ لرسوله أزواجاً[3].

وقال قتادة: ﴿واذكُرن ما يُتلَى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾، قال: يَمتَنُّ عليهن بذلك. رواه ابن جرير[3].

---

(١) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ١٠٨ من سورة التوبة، وخرجناه هنالك.
(٢) يقال: حَنَّ الرجل: إذا صَوَّت، توجُّعاً أو طرباً
(٣) تفسير الطبري ٢٢/٩

وقال عطيةُ العَوفي في قوله. ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾، يعني: لَطيفٌ باستخراجِها، خبيرٌ بموضعها. رواه ابن أبي حاتمٍ، ثم قال: وكَذا رَوَى الربيعُ بنُ أنسٍ، وقَتادَةُ، رَحِمَهما الله.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفّانُ، حدثنا عبدُ الواحد بن زيادٍ، حدثنا عُثمان بن حَكيم، حدثنا عبد الرحمن ابن شَيبَةَ، سَمِعتُ أمَّ سلمة زوجَ النبي ﷺ تقولُ: قلتُ للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذكَرُ في القرآنِ كما يُذكر الرِّجال؟ قالت: فلم يَرُعني منه ذاتَ يومٍ إلّا ونِداؤه على المِنبَر، قالت: وأنا أُسرِّح شعري، فلَففتُ شَعري، ثم خرجت إلى حُجْرَتي حُجْرَة بيتي[1]، فجعلتُ سَمْعي عندَ الجَريد، فإذا هو يقولُ عند المنبر: «يا أيها الناسُ، إن الله يقول: ﴿إن المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ﴾... إلى آخر الآية[2].

وهكذا رواه النسائي وابن جرير، من حديث عبد الواحد بن زياد، به مثله[2].

طريقٌ أخرى عنها، قال النسائي أيضاً: حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا سُوَيد، أخبرنا عبد الله، عن شَريك، عن محمد بن عَمْرو، عن أبي سَلَمة، عن أم سلمة أنها قالت للنبي ﷺ: يا نَبيَّ الله، ما لي أسمع الرجال يُذكَرُون في القرآن، والنساء لا يُذكَرْنَ؟ فأنزل الله: ﴿إن المسلمين والمسلماتِ والمؤمنين والمؤمناتِ﴾[3]

وقد رواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن أبي معاوية، عن محمد بنِ عمرو، عن أبي سَلَمة: أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: حَدَّثه عن أمِّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت: يا رسولَ الله، أيذكَرُ الرجالُ في كلِّ شيء ولا نُذكَرُ؟! فأنزل الله: ﴿إن المسلمينَ والمسلماتِ﴾... الآية[3].

طريق أخرى، قال سفيان الثوري، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ قال: قالت أمُّ سَلَمة: يا رسولَ الله، يُذكَرُ الرجال ولا نُذكَرُ؟ فأنزل الله: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾... الآية.

حديث آخر، قال ابن جرير: حدثنا[4-] [أبو كُرَيب قال: حدثنا][-4] سَيّارُ بنُ مُظاهِرٍ العَنَزيّ، حدثنا أبو كُدَينة يحيى بن المهلَّب، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال النساءُ للنبي ﷺ: ما له يَذكُر المؤمنين ولا يَذكُر المؤمنات؟! فأنزل الله: ﴿إنَّ المُسلِمينَ والمُسلِماتِ﴾...[5] الآية.

وحدثنا بشر، حدثنا يزيدُ، حدثنا سَعيدٌ، عن قتادة قال: دخل نساءٌ على نساءِ النبي ﷺ، فقُلن: قد ذَكَرَكُنَّ الله في القرآن، ولم نُذكَر بشيء، أما فينا ما يُذكَر؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إنَّ المُسلِمين والمُسلِماتِ﴾... الآية.

---

(١) في المسند «إلى حُجيرة من حُجَر بيتي». ولفظ الطبري «إلى حُجرةٍ من حُجرهن» ولفظ الطبراني: «إلى حجرتي فجعلت ...».

(٢) مسند أحمد ٦/٣٠٥، وأخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف ١٣/٢٢، والطبري ٢٢/١٠، والطبراني في الكبير ٢٣/٢٩٤.

(٣) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف للمزي ١٣/٤٢. والطبري ٢٢/١٠

(٤ ـ ٤) ما بين القوسين عن الطبري

(٥) تفسير الطبري ٢٢/١٠.

فقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دليلٌ على أن الإيمان غيرُ الإسلام، وهو أخصُّ منه، لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[1] فيسلبه الإيمانَ، ولا يلزم من ذلك كفرُه بإجماع المسلمين، فدَلَّ على أنه أخصُّ منه، كما قرَّرناه في أوَّل شَرْح البُخاري.

وقوله: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾، القُنوتُ: هو الطاعة في سكون، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾، ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾، فالإسلامُ بعده مرتبة يرتقى إليها وهو الإيمان، ثم القنوتُ ناشىءٌ عنهما.

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ هذا في الأقوال، فإن الصِّدق خَصلةٌ محمودةٌ، ولهذا كان بعضُ الصحابة لم تُجَرَّب عليه كذْبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامةٌ على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا، «عليكم بالصدق، فإن الصِّدق يهدي إلى البر، وإن البِرَّ يهدي إلى الجنَّة، وإياكم والكَذِب، فإنَّ الكَذِب يهدي إلى الفُجُور، وإن الفُجُور يهدي إلى النار، ولا يزالُ الرجلُ يصدُق ويتحرَّى الصِّدق حتى يكتَب عند الله صِدِّيقاً، ولا يزالُ الرجلُ يكذِبُ ويتحرَّى الكَذِب حتى يُكتَب عند الله كذّاباً»[2] والأحاديثُ فيه كثيرةٌ جداً.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾، هذه سَجِيَّةُ الأثباتِ، وهي الصبرُ على المصائب، والعلمُ بأن المقدُور كائنٌ لا محالَةَ، وتَلَقِّي ذلك بالصَّبر والثبات، وإنما الصبرُ عند الصدمةِ الأولى، أي: أصعَبُه في أوَّلِ وَهْلَةٍ، ثم ما بعده أسهلُ منه، وهو صِدْقُ السجِيَّة وثباتها.

﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾، الخشوعُ: السكون والطمأنينةُ، والتؤدةُ والوقارُ والتواضُع. والحامِلُ عليه الخوفُ من الله ومراقبته، كما في الحديث: «اعبدِ الله كأنك تَرَاه، فإن لم تكن تَرَاه فإنه يراك»[3]

﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾، الصدقةُ: هي الإحسانُ إلى الناسِ المحاويج الضُّعفاء، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسِبَ، يُعطَون من فُضولِ الأموالِ طاعةً لله، وإحساناً إلى خَلقِه، وقد ثبت في الصحيحين: «سبعةٌ يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه» فذكر منهم: «ورَجُلٌ تصدَّق بصَدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلمَ شمالُه ما تُنفِقُ يَمِينُه»[4]: وفي الحديث الآخر: «والصدقة تُطفِىءُ الخَطِيئَة كما يُطفِىءُ الماءُ النارَ»[5] والأحاديثُ في الحثِّ عليها كثيرةٌ جداً، له مَوضِعٌ بذاتِه.

﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾، في الحديث الذي رواه ابن ماجه: «والصوم زكاةُ البَدَن»[6]، أي: تُزَكِّيه وتُطَهِّره وتنقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً.

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٩٣ من سورة المائدة، وخرجناه هنالك.
(٢) تقدم الحديث أيضاً عند تفسير الآية ١١٩ من سورة التوبة، وخرجناه هنالك.
(٣) تقدم كذلك عند تفسير مفتتح سورة النساء، وخرجناه.
(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية، ٢٧١ من سورة البقرة، ٢٣ من سورة يوسف.
(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٦ من سورة السجدة، عن معاذ بن جبل. وأخرجه الإمام أحمد عن جابر في مسنده ٣/٣٩٩، وابن ماجه عن أنس، السنن ٢/١٤٠٨.
(٦) أخرجه ابن ماجه في كتاب الصيام ١/٥٥٥ عن أبي هريرة. والطبراني في الكبير ٦/١٩٣ بسنده إلى سهل بن سعد.

قال سَعِيدَ بْنُ جُبيرٍ: من صام رمضان وثلاثةَ أيامٍ من كلِّ شهرٍ دَخَلَ في قولـه ﴿والصائمين والصائمات﴾.

ولما كان الصومُ من أكبر العون على كسر الشهوة ـ كما قال رسول الله ﷺ: «يا معشَر الشباب، من استطاع منكم الباءَةَ فلْيتزوَّجْ، فإنه أغضُّ للبَصَرِ، وأحصَنُ للفَرْجِ، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاءٌ»(١) ـ نَاسَب أن يذكُر بعده. ﴿والحافظين فُرُوجَهم والحافظاتِ﴾، أي: عن المحارم والمآثم لا عن المُباحَ، كما قال تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافِظُون ● إلا على أزواجِهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ● فمن ابتغَى وراءَ ذلك فأولئكَ هم العادُون﴾.

وقوله: ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾، قال ابنُ أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عُبَيد الله، حدثنا محمد بن جابر، عن علي بن الأقمر، عن الأغرّ أبي مسلم، عن أبي سَعِيد الخُدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أيقظَ الرجلُ امرأته من الليل فصَلَّيا ركعتين، كُتِبَا(٢) تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ».

وقد رَوَاه أبو داود، والنسائي، وابنُ ماجه، من حديث الأعمش(٣- [عن علي بن الأقمر]-٣) عن الأغر أبي مسلم، عن أبي سعيد وأبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ، بمثله(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ، حدثنا دَرّاج، عن أبي الهَيْثم، عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه أنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله أيُّ العبادِ أفضَلُ درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». قال: قلت: يا رسولَ الله، ومَن الغَازي في سبيل الله؟ قال: «لو ضَرَب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضِب دماً لكان الذاكرون الله أفضلَ منه»(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفَّان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبيُّ ﷺ يَسِيرُ في طريق مكَّةَ، فأتى على جُمْدان فقال: «هذا جُمْدان، سيروا فقد سبق المُفَرِّدون» قالوا: وما المُفَرِّدون؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً» ثم قال: «اللهم اغفِر للمحلِّقين». قالوا: والمُقَصِّرين؟ قال: «اللهم، اغفِر للمُحلِّقين». قالوا: والمُقَصِّرين قال: «والمُقَصِّرين»(٦).

تَفَرَّدَ به من هذا الوجه، ورواه مسلم دون آخره(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حُجين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، عن زياد بن أبي زياد ـ مولى عبد الله بن عيَّاش بن أبي ربيعة ـ أنَّه بَلَغه عن مُعاذ بن جَبَل ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عَمِل آدمي عَمَلاً قطُّ أنْجى له من عذاب الله من ذِكْرِ الله». وقال معاذ: قال رسولُ الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مَليكِكُم، وأرفَعِها في دَرَجاتِكم، وخير لكم من تعاطي الذَّهَبِ والفِضَّةِ،

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٨٣ من سورة البقرة، ٣٢ من سورة النور.

(٢) في نسخة الحرم: كانا.

(٣ ـ ٣) سقط من النسخ، وأثبتناه من مصادر التخريج.

(٤) سنن أبي داود، كتاب التطوع ٢/٣٣، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة ١/٤٢٣ ـ ٤٢٤، وأخرجه النسائي في التفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ٣/٣٣١

(٥) مسند الإمام أحمد ٣/٧٥.

(٦) مسند الإمام أحمد ٢/٤١١، وأخرجه مسلم في كتاب الدعوات ٤/٢٠٦٢، وجُمْدان جبلٌ على ليلة من المدينة. والمفرِّدون: المُولَعون بالعبادة، ويقال. فَرَّد الرجل: إذا اعتزل الناس وخلا للعبادة.

ومن أن تلقوا عدوَّكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربُوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «ذكر الله عز وجل»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حَسَن، حدثنا ابنُ لَهيعة، حدثنا زبّان بنُ فائد، عن سهل بن مُعاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: أن رجلاً سأله فقال: «أيُّ المجاهدين أعظمُ أجراً يا رسول الله؟ فقال: «أكثرُهم لله ذكراً». قال: فأيُّ الصائمين أكثرُ أجراً؟ قال: «أكثرُهم لله ذكراً». ثم ذكر الصلاة والزكاة والحجَّ والصدقةَ، كُلُّ ذلك يقولُ رسولُ الله ﷺ: «أكثرُهم لله ذكراً». فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما: ذهب الذَّاكِرُون بكلِّ خير. فقال رسول الله ﷺ: أجل[٢].

وسنذكر بقية الأحاديث الواردة في كثرة الذكر عند قوله تعالى في هذه السورة: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً * وسبِّحوه بكرةً وأصيلاً﴾[٣] .. الآية، إن شاء الله تعالى.

وقولُه: ﴿أعدَّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾، خبَرٌ عن هؤلاء المذكورين كُلِّهم، أن الله ـ سبحانه ـ قد ﴿أعدَّ لهم﴾، أي: هيَّأ لهم مَغْفِرَةً منه لذنوبهم، و﴿أجراً عظيماً﴾ وهو الجنة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

قال العوفيُّ، عن ابن عباس، قوله ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾... الآية، وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ انطلق ليخطبَ على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينبَ بنت جحش الأسديَّة فخطَبها، فقالت: لستُ بناكِحَتِه. فقال رسولُ الله ﷺ: بل فانْكِحِيه، قالت: يا رسولَ الله، أُؤَامَرُ[٤] في نفسي. فبينما هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ: ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قَضَى الله ورَسُوله أمراً﴾.. الآية، قالت: قد رَضِيتَه لي مُنْكَحاً[٥] يا رسول الله؟ قال: نعم: قالت: إذاً لا أَعصِي رسولَ الله ﷺ، قد أنكحتُه نفسي[٦].

وقال ابنُ لَهيعَة، عن ابن أبي عَمْرَة، عن عكرمَة، عن ابن عباس قال: خَطَب رسولُ الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خيرٌ منه حَسَباً ـ وكانت امرأة فيها حِدَّةٌ ـ فأنزل الله عز وجل: ﴿وما كانَ لِمُؤمنٍ ولا مُؤمِنَةٍ﴾... الآية كلّها[٦].

وهكذا قال مجاهد، وقتادة، ومقاتلُ بن حيّان: أنها نزلَت في زينب بنتِ جحشٍ الأسديَّة حين خطبَها رسولُ الله ﷺ على مولاه زيد بنِ حارثَة، فامتنعَتْ ثمَّ أجابَت.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلَت في أمِّ كلثوم بنتِ عُقبَة بن أبي مُعَيط، وكانت أوَّل من هاجَرَ مِنَ النساءِ ـ يعني بعدَ صُلح الحُدَيبية ـ فوَهبت نفسها للنبيِّ ﷺ، فقال: قد قَبلتُ. فزوَّجها زيد بن

(١) مسند أحمد ٥/٢٣٩.
(٢) مسند أحمد ٣/٤٣٨.
(٣) انظر الآيتين ٤١ ـ ٤٢.
(٤) يقال: آمَرَه في أَمْرِه، ووامره، واستأمره: شاوره.
(٥) يقال: أنكحه المرأةَ: زوَّجه إياها.
(٦) أخرجه الطبري ٢٢/١١.

حارثة - يعني والله أعلم بعد فراقه زينبَ - فَسَخِطَت هي وأخوها وقالا: إنَّما أَردنا رسولَ الله ﷺ فزوَّجنا عبدَه. قال. فنزل القرآن: ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورَسُوله أمراً﴾ . . . إلى آخر الآية. قال: وجاء أمرٌ أجمَعُ من هذا: ﴿النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾، قال: فذاك خاصٌّ وهذا إجماعٌ[1].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرَّزاق، أخبرنا معمَرٌ، عن ثابت البُناني، عن أنس قال: خَطَب النبيُّ ﷺ على جُلَيْبِيب امرأةً من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى أستأمِرَ أُمَّها، فقال النبي ﷺ: «فَنعم إذاً». قال: فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر ذلك لها، فقالت: لاها الله إذاً[2]، ما وَجَدَ رسولُ الله ﷺ إلا جُلَيْبِيباً، وقد منعناها من فُلانٍ وفلانٍ قال: والجاريةُ في سِترها تسمَعُ، قال: فانطلق الرجلُ يُرِيدُ أن يخبر النبي ﷺ بذلك، فقالت الجارية: أتريدون أن تَرُدُّوا على رسول الله ﷺ أمره، إن كان قد رَضِيه لكم فأَنْكِحُوه. قال: فكأنها جلَّت[3] عن أبويها، وقالا: صدَقَت. فذهب أبوها إلى رسول الله - ﷺ - فقال: إن كنتَ رضِيته فقد رَضيناه. قال: «فإني قد رَضِيتُه». قال: فَزَوَّجها. ثم فَزِع أهلُ المدينة، فَرَكِب جُلَيْبِيبٌ فوجدُوه قد قُتِل، وحوله ناسٌ من المشركين قد قَتَلهم، قال أنسٌ: فلقد رأيتها وَإنها لَمِنْ أنفَقِ بيتٍ بالمدينة[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد - يعني ابن سَلَمة - عن ثابت، عن كِنَانة بن نُعَيم العَدَوي، عن أبي بَرْزَةَ الأسلَمِيّ أن جُلَيْبِيباً كان امرأً يدخلُ على النساء يَمُرُّ بهن ويُلاعِبُهُنّ، فقلتُ لامرأتي: لا يدخلن اليوم عليكُنَّ جُلَيْبِيبٌ، فإنه إن دَخل عليكنَّ لأفعلنَّ وَلأفعلنَّ. قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدِهم أَيِّم لم يُزَوِّجها حتى يعلم: هَل لنبيِّ الله ﷺ فيها حاجةٌ أم لا؟ فقال رسولُ الله ﷺ لرجلٍ من الأنصار: «زَوِّجني ابنتك». قال: نعم، وكرامةٌ يا رسولَ اللهِ، ونُعْمَةَ عَينٍ[5]. فقال: «إني لستُ أُريدها لنفسي». قال: فَلِمَن يا رسولَ الله؟ قال: «لِجُلَيْبِيب». فقال: يا رسولَ الله، أشاوِرُ أُمَّها. فأتى أمها فقال: رسولُ الله ﷺ يخطُب ابنَتكِ؟ فقالت: نَعم ونُعمَةَ عَينٍ. فقال: إنه ليس يخطُبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيب. فقالت: أَجُلَيْبِيبٌ إنِيهِ[6]؟! أَجُلَيْبِيبٌ إنِيه؟! لا، لَعَمْرُ الله لا تَزَوَّجُه. فلما أراد أن يقومَ ليأتي رسولَ الله ﷺ فيُخبِرَه بما قالت أمها، قالت الجارية: مَن خطبَني إليكم؟ فأخبرتها أُمُّها. وقالت: أتَرُدُّون على رسول الله ﷺ أمره؟! ادفعوني إليه، فإنه لن يُضَيِّعني. فانطلَق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: شأنك بها. فزوَّجها جُلَيْبِيباً. قال: فَخرج رسول الله ﷺ في غَزاةٍ له، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه: «هل تَفْقِدُون من أحد؟» قالوا: نَفقِد فُلاناً ونَفقِد فُلاناً. قال: «انظرُوا هل تَفقِدُون من أحدٍ؟» قالوا: لا قال: «لكني أَفقِدُ جُلَيْبِيباً». قال: «فاطلبُوه في القتلى». فطلبوه فوجَدُوه إلى جَنبِ سَبعةٍ قد قَتَلهم ثم قَتَلوه. فقالوا: يا رسولَ الله، ها هو ذا إلى جَنْبِ سبعةٍ قد قَتَلهم ثم قتلوه، فأتاه رسول الله - ﷺ - فقام عليه، فقال: «قَتَل سبعة وَقَتَلوه! هذا مني وأنا منه». مرّتين أو ثلاثاً، ثم وَضَعه رسول الله - ﷺ - على ساعِدَيه وحفر له، ما له سرير إلا ساعدُ النبي ﷺ، ثم وَضَعه في قبره، ولم يُذكر أنه غَسَّله رضي الله عنه. قال ثابت: فما كان في

(١) أخرجه الطبري ٢٢/١٢، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/٦١٠.
(٢) كذا في الأصول والمسند. وفي النهاية من حديث آخر: «لا ها الله ذا»، قال: «ومعناه: لا، والله لا يكون ذا».
(٣) كذا في المسند وبعض النسخ. وفي نسخة الحرم: «حلت على أبويها». وفي اللغة: «جَلَوتُ عن همّي: إذا أذهبتُه». فلعل المراد جلتْ عن أبويها الهمّ بهذا الأمر. والله أعلم.
(٤) مسند الإمام أحمد ٣/١٣٦.
(٥) أي: قُرّة عَيْنٍ وسُرُوراً.
(٦) تريد العَربُ «إنِيه» في آخر الاسم للدلالة على الإنكار. انظر في هذا كتاب سيبويه ٢/٤١٩ وما بعدها، والخصائص لابن جني ٣/١٥٦، ونتائج الفكر للسهيلي ١٩٥.

الأنصار أيِّمٌ أنفقَ منها. وحدَّث إسحاقُ بن عبد الله بن أبي طلْحة ثابتاً: هل تعلمُ ما دعا لها رسولُ الله ﷺ؟ فقال: «اللهُمَّ، صُبَّ عليها [الخيرَ] صبّاً، ولا تجعلْ عيشها كدّاً» كذا قال، فما كان في الأنصار أيِّمٌ أنفقَ منها[1].

هكذا أورده الإمامُ أحمدُ بطوله، وأخرج منه مسلمٌ والنسائيُّ في الفضائل قصّةَ قتله. وذكر الحافظ أبو عُمَر بن عبد البر في «الاستيعاب» أن الجارية لما قالت في خِدرها: أتردُّون على رسول الله ﷺ أمره؟ نزلَتْ هذه الآية: ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرةُ من أمرهم﴾[1].

وقال ابن جُريج: أخبرني عامرُ بن مُصعَب، عن طاوس قال: إنه سألَ ابنَ عباس عن ركعتين بعد العصر، فنهاه، وقرأ ابنُ عباسَ رضي الله عنه: ﴿وما كانَ لمُؤمنٍ ولا مُؤمنةٍ إذا قضى الله ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيرةُ من أمْرِهم﴾[2].

فهذه[3] الآية عامة في جميع الأمور، [وذلك] أنه إذا حكم الله ورسولُه بشيء، فليس لأحدٍ مُخالفته ولا اختيار لأحدٍ هاهنا ولا رأيٍ ولا قولٍ، كما قال تعالى: ﴿فلا وَربِّك لا يُؤمنون حتى يُحكِّموك فيما شَجَر بينهم ثم لا يَجِدُوا في أنفُسِهم حَرَجاً مما قَضَيتَ ويُسلِّموا تسليما﴾. وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمنُ أحدكُم حتى يكونَ هواه تَبَعاً لما جئتُ به»[4]، ولهذا شدَّد في خلاف ذلك، فقال: ﴿ومَن يعصِ الله ورسوله فقد ضَلَّ ضلالاً مبيناً﴾، كقوله تعالى: ﴿فلْيحذَرِ الذين يُخالفُون عن أمره أن تُصيبهم فتنةٌ أو يُصيبَهُم عذابٌ أليمٌ﴾.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أنه قال لمولاه زيدِ بن حارثةَ وهو الذي أنعمَ الله عليه، أي: بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ: ﴿وأنعمتَ عليه﴾، أي: بالعتْقِ من الرِّق، وكان سيِّداً كبير الشأن جَليلَ القَدْرِ، حَبيباً إلى النبيِّ ﷺ، يقال له الحِبُّ، ويقال لابنه أسامة: الحِبُّ ابنُ الحِبِّ. قالت عائشة رضي الله عنها: ما بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ في سَرِيَّةٍ إلا أمَّره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه. رواه الإمام أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد، عن وائل بن داود، عن عبد الله البَهِيِّ عنها[5].

وقال البَزَّارُ: حدثنا خالد بن يوسف، حدثنا أبو عَوَانة (ح) ـ وحدثنا محمد بن معمر، حدثنا أبو داود، حدثنا أبو عوانة ـ أخبرني عُمَر بن أبي سَلَمة، عن أبيه: حدثني أسامة بن زيد قال: كنت في المسجد، فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، فقالا: يا أسامة، استأذن لنا على رسول الله ﷺ. قال: فأتيت رسولَ الله فأخبرته، فقلت: علي والعباس يستأذنان؟ فقال: «أتدري ما حاجتهما؟» فقلت: لا يا رسول الله. فقال: لكني أدري، قال: فأذن لهما. قالا: يا رسول الله، جئناك لتخبرنا: أيُّ أهْلك أحبُّ إليك؟ فقال: «أحبُّ

---

(1) مسند الإمام أحمد ٤/٤٢٢. وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل ٤/١٩١٨ ـ ١٩١٩، والنسائي في كتاب المناقب من سُننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف للمزِّي ٩/١١، والاستيعاب ٤/٢٧٢.

(2) أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي. الدر المنثور ٦/٦١٠، وسنن البيهقي، كتاب الصلاة ٢/٤٥٣.

(3) في نسخة الحرم قبله: «وقال ابن جرير».

(4) تقدم الحديث عند تفسير آية النساء ٦٥.

(5) مسند الإمام أحمد ٦/٢٢٧، ٢٥٤، ٢٨١.

أهلي إليَّ فاطمةُ بنتُ محمدٍ». قالا: يا رسول الله، ما نسألك عن فاطمة. قال: «فأسامةُ بن زيد الذي أنعم الله عليه وأنعمتُ عليه»(١).

وكان رسولُ الله - ﷺ - قد زوّجه بابنةِ عمّته زينبَ بنتِ جحش الأسدية - وأمها أُميمةُ بنتِ عبدِ المطلب - وأصدقها عشرةَ دنانير، وستّين درهماً، وخِماراً، ومِلْحَفَة، ودِرْعاً، وخمسين مُدّاً من طعام، وعشرةَ أمْدَادٍ من تمر، قاله مقاتل بن حيان. فمكثت عنده قريباً من سَنَةٍ أو فوقها، ثم وقَع بينهما، فجاء زيدٌ يشكُوها إلى رسولِ الله - ﷺ - فجعلَ رسولُ الله - ﷺ - يقول له: ﴿أمسِك عليكَ زوجَك واتّقِ الله﴾. قال الله تعالى: ﴿وتُخفِي في نَفسِك ما الله مُبدِيه وتخشَى الناسَ والله أحقُّ أن تَخشاه﴾.

ذكر ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم هاهنا آثاراً عن بعض السلف رضي الله عنهم، أحببنا أن نَضرب عنها صَفحاً فلا نُورِدُها. وقد رَوَى الامامُ أحمدُ ها هنا أيضاً حديثاً، من رواية حمّاد بن زيد، عن ثابت، عن أنَس فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً. وقد رَوَى البخاري أيضاً بعضَه مختصراً فقال:

حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا مُعَلَّى بن منصور، عن حماد بن زيد، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك. إنّ هذه الآية: ﴿وتُخفِي في نَفسِك ما الله مُبدِيه﴾ نزلت في شأنِ زينبَ بنتِ جَحْشٍ، وزيدِ بن حارِثَة رضي الله عنهما(٢).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عُيينَة، عن علي بن زيد بن جُدْعان قال: سألني علي بن الحُسَين: ما يقول الحَسَنُ في قوله: ﴿وتخفي في نَفسِك ما الله مُبديه وتخشَى الناسَ والله أحقُّ أن تخشاه﴾، فذكرت له فقال: لا، ولكن الله أعلَمَ نبيّه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يَتزوَّجها، فلما أتاه زيد ليشكُوهَا إليه قال: اتقِ الله، وأمسِكْ عليكَ زوجَكَ. فقال: قد أخبرتك أني مُزَوِّجُكَ، وتخفي في نَفسِك ما الله مُبديه(٣).

وهكذا رَوَى عن السدِّي أنه قال نحوَ ذلك(٤).

وقال ابنُ جرير: حدثني إسحاق بن شاهين، حدثني خالد(٥)، عن داودُ، عن عامر، عن عائشةَ - رضي الله عنها - أنها قالت: لو كَتَم مُحمَّد - ﷺ - شيئاً مما أوحى الله إليهِ من كتابِ الله لَكَتم: ﴿وتُخفِي في نَفسِك ما الله مُبديه وتخشَى الناسَ والله أحقُّ أن تخشاه﴾(٦).

وقوله. ﴿فلما قَضَى زيدٌ منها وطرًا زوَّجناكها﴾، الوطرُ: هو الحاجةُ والأرَبُ، أي لما فَرَغ منها وفارَقَها زَوَّجناكها، وكان الذي وَلِي تَزْويجَها منه هو الله عز وجل، بمعنى: أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا وَلِيٍّ ولا مَهرٍ ولا عَقدٍ ولا شُهودٍ من البشر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم - يعني ابن القاسم أبو النضر - حدثنا سُلَيمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس - رضي الله عنه - قال: لما انقضت عِدَّةُ زينبَ قال رسول الله - ﷺ - لزيدِ بن حارِثَة: اذهب فاذْكُرْها

(١) أخرجه أيضاً ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه. الدر المنثور ٦١١، والمستدرك، كتاب التفسير ٢/٤١٧
(٢) فتح الباري، كتاب التفسير ٨/٥٢٣
(٣) وأخرجه الطبري ٢٢/١٣ بإسناده إلى سفيان بن عيينة، نحوه.
(٤) الدرّ المنثور ٦/٦١٦.
(٥) سقط من تفسير الطبري. وحدثنا خالد، وإسحاق بن شاهين يروي عن خالد بن عبد الله الواسطي، الذي يروي عن داود بن أبي هند. انظر تهذيب الكمال ٨/١٠٠ - ١٠١
(٦) تفسير الطبري ٢٢/٥٣.

عَلَيّ، فانطلقَ حتى أتاها وهي تُخمِّرُ عجينَها، قال: فلما رأيتُها عظُمت في صَدْري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ذكرها، فوَلَّيتُها ظهري ونكصتُ على عقبي، وقلت: يا زينبُ، أبشري، أرسلني رسول الله ـ ﷺ ـ يذكرك. قالت: ما أنا بصانِعة شيئاً حتى أؤامر ربِّي عز وجل. فقامت إلى مَسْجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. ولقد رأيتنا حين دَخَلْتُ على رسول الله ـ ﷺ ـ أطعمنا عليها الخبز واللَّحم، فخرج الناسُ وبقي رجالٌ يتحدَّثون في البيتِ بعد الطعام، فخرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ واتبعته فجعل يَتَتَبَّع حُجَر نسائه يسلم عليهن. ويقلن: يا رسولَ الله، كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجُوا أو أُخبِر ـ قال: فانطلق حَتَّى دخلَ البيتَ، فذهبتُ أدخلُ معه، فألقَى السِّتر بيني وبينه، ونزل الحجابُ، ووُعِظَ القومُ بما وُعِظُوا به: ﴿لا تدْخُلوا بيوتَ النبيِّ إلاَّ أن يُؤذنَ لكم﴾... الآية[١].

ورواه مسلم والنسائي من طرق، عن سُليمان بن المغيرة[١].

وقد رَوَى البخاري ـ رَحِمه الله ـ عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن زينب بنت جحْشٍ كانت تفخرُ على أزواج النبي ـ ﷺ ـ فتقول: زَوَّجَكُنَّ أهاليكُنَّ وزوَّجني الله من فوقِ سبع سَمواتٍ[٢].

وقد قَدَّمنا في «سُورَةِ النُّورِ» عن محمد بن عبد الله بن جَحْشٍ قال: تفاخَرت زينبُ وعائشةُ، فقالت زينب رضي الله عنها: أنا التي نَزَل تَزْويجي من السماء. وقالت عائشة: أنا التي نزل عُذْري من السماء. فاعترفت لها زينب رضي الله عنها[٣].

وقال ابنُ جرير: حدثنا ابن حُمَيدٍ، حدثنا جرير، عن المُغيرة، عن الشعبي قال: كانت زينبُ تقولُ للنبي ـ ﷺ ـ: إني لأُدِلُّ عليك بثلاث، مَا من نِسائِكَ امرأةٌ تُدِلُّ بهِنَّ: إن جدِّي وجدَّك واحدٌ، وإني أنكحنيك اللهُ من السماء، وإن السفير جبريل عليه السلام[٤].

وقولُه: ﴿لِكَيْ لا يكون على المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائِهم إذا قَضَوا منهُنَّ وَطَراً﴾، أي: إنما أبحنا لك تَزويجَها وَفَعلنا ذلك، لئلا يَبقى حرجٌ على المؤمنين في تَزْويج مُطلَّقات الأدعياءِ، وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان قبل النبوَّة قد تَبنَّى زيدَ بن حارثة، فكان يقال له: «زيدُ بنُ محمدٍ»، فلما قَطَع الله هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءَكم أبناءَكم ذلكم قولُكُم بأفواهكم والله يقولُ الحقَّ وهو يهدِي السبيل ۝ ادعُوهم لآبائهم هو أقسطُ عند الله﴾، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تَزويج رسول الله ـ ﷺ ـ بزينبَ بنتِ جَحْشٍ لمَّا طلقها زيدُ بن حارثةَ، ولهذا قال في آية التحريم: ﴿وَحَلائِلُ أبنائكم الذين من أصلابكم﴾، لِيُحتَرزَ من الابن الدَّعِيِّ، فإنَّ ذلك كان كثيراً فيهم.

وقولُه: ﴿وكان أمرُ الله مفعولاً﴾، أي: وكان هذا الأمرُ الذي وقع قد قدَّره الله تعالى وحَتَّمه، وهو كائنٌ لا محالَةَ، كانت زينب في علم الله ستَصير من أزواج النبي ﷺ.

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨ ﴾

يقول تعالى: ﴿ما كان على النبيِّ من حَرَجٍ فيما فَرَض الله له﴾، أي: فيما أحلَّ له وأمره به من تزويج زينبَ التي طلَّقها دَعِيُّه زيدُ بنُ حارثة.

(١) مسند الإمام أحمد ٣/١٩٥ ـ ١٩٦، وأخرجه مسلم والنسائي في كتاب النكاح، مسلم ٢/١٠٤٨ ـ ١٠٤٩، والنسائي ٦/٧٩، كما أخرجه النسائي في كتابي التفسير والمناقب من سننه الكبرى، تحفة الأشراف للمزي ١/١٣٦

(٢) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره، وتقدّم الحديث عند تفسير الآية ١١ من سورة النور

(٤) تفسير الطبري ٢٢/١٤

وقوله: ﴿سُنَّةَ الله في الذين خَلَوا من قبلُ﴾، أي: هذا حكمُ الله في الأنبياء قبله، لم يكُن ليأمُرهم بشيءٍ وعليهم في ذلك حَرَجٌ، وهذا رَدٌّ على من تَوهَّم من المنافقين نقصاً في تَزْويجه امرأةَ زيدٍ مولاه ودَعِيِّه الذي كان قد تبنّاه.

﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾، أي: وكان أمرُه يُقَدِّره كائناً لا محالةَ، وواقعاً لا مَحِيدَ عنه ولا مَعدِلَ، فما شاء كانَ، وما لم يشأ لم يكُن.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يمدحُ تعالى: ﴿الذين يُبلِّغون رسالاتِ الله﴾، أي: إلى خَلْقِه ويُؤدونها بأمانتها، ﴿ويخشَونه﴾ أي: يخافُونه ولا يخافُون أحداً سواه، فلا تمنعُهم سَطوةُ أحدٍ عن إبلاغ رسالاتِ الله، ﴿وكفى بالله حَسِيباً﴾، أي: وكفى بالله ناصراً ومعيناً. وسيِّدُ الناس في هذا المقام ـ بل وفي كل مقام ـ محمدٌ رسولُ الله ﷺ، فإنه قام بأداء الرسالةِ وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارِبِ، إلى جَميع أنواع بني آدمَ، وأظهرَ الله كَلِمَته ودِينَه وشَرْعَه على جميع الأديانِ والشرائع، فإنه قد كان النبيُّ قبله يُبعَثُ إلى قومه خاصَّة، وأما هو ـ صلواتُ الله وسلامه عليه ـ فإنه بُعِثَ إلى جميعِ الخلق عرَبِهم وعَجَمِهم، ﴿قل يا أيها الناس إني رسولُ الله إليكم جَميعاً﴾، ثم وَرِثَ مقامَ البلاغِ عنه أُمَّتُه من بعده، فكان أعلى مَن قام بها بعده أصحابُه رضي الله عنهم، بَلَّغُوا عنه كما أمرَهُم به في جميعِ أقوالِه وأعمالِه وأحوالِه، في ليله ونهارِه، وحَضَره وسَفَرِه، وسِرِّه وعَلانِيَتِه، فرَضِيَ الله عنهم وأرضَاهم. ثم وَرِثَه كُلُّ خَلَفٍ عن سَلَفِهم إلى زماننا هذا، فَبِنُورِهم يَقتَدِي المهتدُون، وعلى مَنْهجِهم يسلُك المُوفَّقُون. فنسألُ الله الكريمَ المنَّان أن يجعَلَنا من خَلَفِهم.

قال الإمام أحمدُ: حدثنا ابن نُمير، أخبرنا الأعمشُ، عن عَمرو بن مُرَّةَ، عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن أبي سَعيد الخُدْرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يَحْقِرَنَّ أحدكم نفسَه أن يَرَى أمر الله فيه مقال ثم لا يقولُه، فيقول الله: ما يمنَعُكَ أن تقولَ فيه؟ فيقول: رَبِّ، خَشِيتُ الناسَ. فيقول: فأنا أحق من أن يُخشَى»[1].

ورواه أيضاً عن عبد الرزّاق[1]، عن الثوريِّ، عن زُبَيد، عن عَمْرو بن مُرَّة. ورواه ابن ماجه، عن أبي كُرَيب، عن عبد الله بن نُمَير وأبي معاوية، كلاهما عن الأعمش، به[1].

وقولُه ﴿ما كان محمدٌ أبا أَحَدٍ من رجالكم﴾، نَهَى أن يُقال بعد هذا «زيدُ بن محمد»، أي: لم يكُن أباه وإن كان قد تَبَنَّاه، فإنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يعِش له ولدٌ ذَكَرٌ حتى بلغَ الحُلُم، فإنه وُلِد له القاسم، والطيِّب، والطاهر، من خديجة فماتوا صغاراً، ووُلِد له إبراهيمُ من مارِيَةَ القِبطيَّة، فمات أيضاً رَضيعاً. وكان له من خديجة أربعُ بناتٍ. زينبُ، ورُقَيَّة، وأمُّ كلثوم، وفاطمةُ ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فمات في حياته ثلاثٌ وتأخرت فاطمة حتى أُصيبت به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ثم ماتت بعده بستة أشهر.

وقوله: ﴿ولكن رسولَ الله وخاتم النبيين وكان الله بكلِّ شيءٍ عليماً﴾، وكقوله: ﴿الله أعلَمُ حيث يجعَلُ رِسَالاتِه﴾[2]، فهذه الآية نصٌّ على أنه لا نبيَّ بعده، وإذا كان لا نبيَّ بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٣٠ وتقدمت روايته عن عبد الرزاق عند تفسير الآية ٥٤ من سورة المائدة، وكذلك حديث ابن ماجه.
(٢) الآية ١٢٤ من سورة الأنعام. وقرأ (رسالته) بالإفراد ابن كثير وحفص. وقرأ بالجمع من عداهما من السبعة. وقد نبّهنا على هذه القراءة في موضعه من السورة.

والأحرى، لأنَّ مقام الرِّسالة أخصُّ من مقام النبوة، فإن كلَّ رسول نبيٌّ، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ـ ﷺ ـ من حديث جماعة من الصحابة:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزديُّ، حدثنا زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أُبيِّ بن كعب، عن أبيه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضعُ هذه اللَّبِنَة! فأنا في النبيين موضعُ تلك اللَّبِنَة»(١).

ورواه الترمذيُّ، عن بندار، عن أبي عامر العقديِّ، به، وقال: حسنٌ صحيحٌ.

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا المختار بن فُلفُل، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن الرسالة والنبوَّة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبيَّ. قال: فشقَّ ذلك على الناس قال: قال: ولكن المُبشِّرات. قالوا: يا رسولَ الله، وما المُبشِّرات؟ قال: رُؤيا الرجل المسلم، وهي جُزءٌ من أجزاء النبوة(٢).

وهكذا رواه الترمذيُّ عن الحسن بن محمد الزعفراني، عن عفان بن مسلم به، وقال: صَحيحٌ غريبٌ من حديث المختار بن فُلفُل(٢).

حديث آخر، قال أبو داودَ الطَّيالسيُّ: حدثنا سَليم بن حَيَّان، عن سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: مَثَلِي ومثلُ الأنبياء كَمثل رَجُلٍ بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبِنَةٍ، فكان من دخلها فَنَظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضعَ هذه اللبنة! فأنا موضعُ اللَّبِنة، خُتِم بي الأنبياءُ عليهم السلام(٣).

ورواه البخاري، ومسلمٌ، والترمذيُّ، من طُرقٍ، عن سَليم بن حَيَّان، به. وقال الترمذي: صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه(٣).

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: مثلي ومثلُ النبيين كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا لَبِنةً واحدةً، فَجِئتُ أنا فأتْمَمتُ تلك اللَّبِنَةَ(٤). انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش، به(٤).

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا يُونسُ بن محمد، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عثمان بن عُبيد الراسبيُّ قال: سمعت أبا الطفيل قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: لا نُبوَّة بعدي إلا المُبشِّرات. قال: قيل: وما المُبشِّراتُ يا رسولَ الله؟ قال: الرُّؤيا الحَسَنةُ ـ أو قال ـ: الرُّؤيا الصَّالِحةُ(٥).

حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا معمرٌ، عن همَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدَّثنا أبو هُرَيْرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إن مثلي ومثلُ الأنبياء من قبلي كَمثل رَجُل ابتنى بُيُوتاً فأحسنها وأكملها وأجملَها، إلا موضِعَ لَبِنَةٍ من زاوية من زَوَاياها، فجعل الناسُ يطوفون ويُعجِبُهم البُنيانُ ويقولون: ألا وضعْتَ

(١) مسند الإمام أحمد ١٣٦/٥ ـ ١٣٧، وعارضة الأحوذي، أبواب المناقب ١٠١/١٣

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٦٧/٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الرؤيا ١٢٦/٩ ـ ١٢٧

(٣) مسند أبي داود الطيالسي ٢٤٧، وفتح الباري، كتاب المناقب ٥٥٨/٦، ومسلم، كتاب الفضائل ١٧٩١/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الأمثال ٣٠٢/١٠

(٤) مسند الإمام أحمد ٩/٣. ومسلم، كتاب الفضائل ١٧٩١/٤

(٥) مسند الإمام أحمد ٤٥٤/٥

هاهُنا لَبِنَة فيتمّ بنيانُك؟! قال رسول الله ـ ﷺ ـ : فكنتُ أنا اللَّبِنَةَ[١]... أخرجَاه مِن حَدِيثِ عبد الرزّاق[١].

حَدِيثٌ آخَرُ، عن أبي هُرَيرَةَ أيضاً، قال الإمامُ مسلمٌ: حدثنا يحيى بن أيُّوبَ وقُتَيبة وعلي بن حُجْرٍ قالوا: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال فُضّلت على الأنبياء: أعطيت جوامع الكلم، ونُصِرت بالرعب، وأُحِلَّت لي الغنائم، وجُعِلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسِلتُ إلى الخلق كافة، وخُتِم بي النبيون[٢].

وَرَواه الترمذيُّ وابن ماجه، من حديث إسماعيل بن جعفرٍ، وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ[٢].

حديثٌ آخرُ، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو مُعَاوِيَةَ، حدثنا الأعمشُ، عن أبي صالحٍ، عن أبي سَعِيد الخدري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لَبِنَةٍ واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة»[٣].

وَرَواه مُسلِمٌ عن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ، وأبي كُرَيب، كِلاهُما عن أبي مُعَاوِيَةَ[٣]، به.

حديث آخرُ، قال الإمام أحمدُ: حدثنا عبد الرحمن بن مَهدي، حدثنا معاوية بن صالحٍ، عن سعيدِ بن سُوَيد الكَلْبِيّ، عن عبد الأعلى بن هِلَالٍ السُّلَمِيّ، عن العرباض بن سَارِيَةَ قال: قال لي النبي ﷺ: «إني عبدَ الله لخاتَمُ النبيِّين، وَإن آدم لَمُنجَدِل في طِينَتِه»[٤].

حديث آخر، قال الزُّهريُّ: أخبرني محمد بن جُبَير بن مطعم، عن أبيه ـ رَضِي الله عنه ـ قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن لي أسماءً: أنا محمد، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحُو الله بي الكفرَ، وأنا الحاشرُ الذي يُحشَرُ الناسُ على قَدَمِي، وأنا العاقِبُ الذي ليس بعدَه نَبِيٌّ». أخرجاه في الصحيحين[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاقَ، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، عن عبد الله بن هُبَيرَةَ، عن عبد الرحمن ابن جُبَير قال: سَمِعت عبد الله بن عَمرو يقول: خرج علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً كالمودِّع، فقال: «أنا محمد النبيُّ الأمي ـ ثلاثاً ـ ولا نبيَّ بعدي، أوتيتُ فواتحَ الكَلِم وجوامِعَه وخَوَاتِمه، وعَلِمتَ كم خَزَنَةُ النار وحَمَلة العَرشِ، وتُجُوِّزَ[٦] بي، وعُوفِيتُ وعُوفِيَتْ أُمّتي، فاسمَعُوا وأَطِيعوا ما دُمتُ فِيكُم، فإذا ذُهِبَ بي فَعَلَيكُم بكتاب الله، أحِلُّوا حَلَالَه وحَرِّمُوا حَرَامه». تَفرَّد به الإمامُ أحمد[٧].

ورواه أحمدُ أيضاً عن يحيى بن إسحاقَ، عن ابن لَهِيعة، عن عَبدِ الله بن هُبَيرَةَ، عن عبد الله بن مريح[٨] الخَوْلَانِي، عن أبي قَيسٍ ـ مولى عَمْرِو بن العاصِ ـ عن عبد الله بن عَمْرٍو، فَذكر مثلَه سواءً[٧].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٣١٢، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل ٤/١٧٩٠، ولم يخرجه البخاري، انظر تحفة الأشراف للمزي ١٠/٤٠٨.

(٢) مسلم، كتاب المساجد ١/٣٧١، وعارضة الأحوذي، أبواب السِّيَر ٧/٤١ ـ ٤٢، وابن ماجه، كتاب الطهارة ١/١٨٨.

(٣) كذا في النسخ، فقد تقدّم الحديث من قريب!

(٤) مسند الإمام أحمد ٤/١٢٧. وقد تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٢٩ من سورة البقرة. ومُنجَدِلٌ: مُلقًى على الجَدالة، وهي الأرضُ.

(٥) فتح الباري، كتاب التفسير، تفسير سورة الصف ٨/٦٤٠ ـ ٦٤١، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٨٢٨. على قَدَمي: على الأثر، أي: إنه ـ ﷺ ـ يُحشَرُ قبل الناس.

(٦) أي: إن الله تعالى خفف عن أمته ـ ﷺ ـ بسببه

(٧) مسند الإمام أحمد ٢/٢١٢، ٢/١٧٢.

(٨) كذا: عبد الله بن مُريح، ومثله في المسند. وسيأتي الحديث عند تفسير الآية ٥٦ من هذه السورة: عبد الرحمن بن مُريح. وهو الصواب انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/٢٨٧.

والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمةِ الله تعالى بالعباد إرسالُ محمدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ إليهم، ثُمَّ من تشريفه له ختمُ الأنبياءِ والمرسلين به، وإكمالُ الدين الحنيف له. وقد أخبر تعالى في كتابه، ورسولُه في السنّةِ المتواترة عنه: أنه لا نبيَّ بعده، ليَعلموا أن كلَّ مَن ادّعى هذا المقامَ بعدَه فهو كذَّاب أفَّاك، دَجَّال ضالٌ مُضِلّ، ولو تَخرّق وشعْبَذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنِّيرَنْجِيَّات⁽¹⁾، فكلُّها محالٌ وضلالٌ عند أولي الألباب، كما أجرى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على يدِ الأسود العَنْسي باليمن، ومُسَيلمة الكذَّاب باليمامة، من الأحوال الفاسدة والأقوالِ الباردة، ما علم كلُّ ذي لُبٍّ وفهمٍ وحِجىً أنهما كاذبان ضالّان، لعنهما الله. وكذلك كلُّ مُدَّعٍ لذلك إلى يوم القيمة حتى يختموا بالمسيح الدجال، فكُلُّ واحدٍ من هؤلاء الكذَّابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكَذِبِ مَن جاء بها. وهذا من تمام لُطفِه تعالى بخَلقِه، فإنهم بضرورةِ الواقع لا يأمُرونَ بمعروفٍ ولا ينهَون عن منكر إلا على سبيلِ الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصِدِ إلى غيره، ويكونون في غاية الإفك والفُجُورِ في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿هل أنبئُكم على من تَنَزَّلُ الشياطين * تَنَزَّلُ على كلِّ أفاكٍ أثيم﴾. . الآية: وهذا بخلاف الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فإنهم في غاية البرِّ والصدقِ والرُّشد والاستقامة والعَدْلِ فيما يقولُونه ويأمُرون به وينهَون عنه، مع ما يُؤَيَّدُون به من الخوارق للعاداتِ، والأدلَّةِ الواضِحَاتِ، والبراهين الباهرات. فصلواتُ الله وسلامُه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً عبادَه المؤمنين بكثرةِ ذكرهم لربِّهم تعالى المنعم عليهم بأنواع النِّعم وأصناف المِنَن، لما لهم في ذلك من جَزيل الثواب، وجَميل المآب.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الله بن سعيد، حدثني مولى ابن عَيَّاش، عن أبي بَحرِيَّة، عن أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكِكم، وأرفعِها في دَرجاتكم، وخيرٌ لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، وخيرٌ لكم من أن تلقوا عدُوَّكم فتضرِبوا أعناقَهم ويَضرِبوا أعناقكم؟ قالوا: وما هُو يا رسول الله؟ قال: ذِكرُ الله عز وجل»⁽²⁾.

وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبي هند، عن زياد ـ مولى ابن عياش ـ عن أبي بَحرِيَّة ـ واسمه عبد الله بن قيس التَّراغِمي ـ عن أبي الدرداء، به. قال الترمذي: «ورواه بعضهم عنه فأرسله»⁽²⁾.

قلت: وقد تقدَّم هذا الحديثُ عند قوله تعالى: ﴿والذاكرينَ الله كثيراً والذاكرات﴾ في مسند أحمد، من حديث زياد بن أبي زيادٍ، مولى عبد الله بن عَيَّاش: أنه بلغه عن معاذ بن جبل، عن رسول الله ﷺ، بنحوه، فالله أعلم.

---

(١) النِّيرَنْج: أخَذٌ كالسحر، وليس به.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/١٩٥، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٢/٢٢٠، وسنن ابن ماجه، كتاب الأدب ٢/١٢٤٥. والوَرِقُ: الفضة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ، حدثنا فَرَجُ بن فَضَالَة، عن أبي سَعْدٍ[١] الحِمْصِي قال: سمعتُ أبا هُرَيرة يقول: دُعاءٌ سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ لا أدَعُه: اللهم اجعلني أعظِم شُكْرَك، وأتْبعُ نَصِيحَتَكَ، وأُكثِرُ ذِكْرَكَ، واحفَظُ وَصِيّتَكَ[٢].

ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى، عن وكيع، عن أبي فضالة الفَرَج بن فضالة، عن أبي سعيد[٣] الحمصي، عن أبي هُرَيرة، فذكر مثله وقال: غريب.

وهكذا رواه الإمامُ أحمد أيضاً عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن فَرَجِ بن فَضَالَة، عن أبي سعيد المدني، عن أبي هريرة فذكره[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس قال: سمعت عبد الله بن بُسْر يقول: جاء أعرابيّان إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال أحدهما. يا رسولَ الله، أيُّ الناس خيرٌ؟ قال: من طال عُمُره وحَسُن عَمَلُه. وقال الآخر: يا رسولَ الله، إن شَرَائعَ الإسلام قد كثُرت علينا، فمُرني بأمرٍ أتشبَّثُ بِه. قال: «لا يَزالُ لِسانُكَ رَطْباً بِذِكْرِ الله»[٥].

وَرَوى التِّرمِذِيُّ وابن ماجه منه الفصل الثاني، من حديث مُعاوية بن صالحٍ، به، وقال الترمذيُّ: «حَسَن غَرِيبٌ»[٥].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُرَيج، حدثنا ابنُ وَهب، عن عمرو بن الحارث أنَّ دَرّاجاً أبا السَّمْحِ حَدَّثه، عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سَعِيد الخُدريِّ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: أكثروا ذكر الله حتى يَقُولوا: مَجنونٌ»[٦].

وقال الطبراني: حدثنا عبدُ الله بن أحمدَ، حدثنا عُقبَةُ بنُ مُكْرَم العَمّي، حدثنا سَعيد بنُ سُفيانَ الجَحدَرِيُّ، حدثنا الحسنُ بن أبي جَعفرٍ، عن عُقْبَةَ بن أبي ثُبَيتٍ الرَّاسِبيِّ، عن أبي الجَوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: اذكُروا الله ذِكراً يقولُ المنافِقُونَ: تُراءُونَ[٧].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو سَعيد مَولى بَني هَاشمٍ، حَدَّثنا شَدَّاد أبو طلحةَ الراسبيُّ، سَمِعتُ أبا الوَازِع جَابرَ بن عَمرو يُحدِّث عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ : «ما من قومٍ جَلَسُوا مَجلِساً لم يذكُروا الله فيه إلا رأوه[٨] حسرةً يومَ القيامةِ»[٩].

وقال عليُّ بن أبي طَلْحَةَ، عن ابن عَبَّاسٍ في قوله تعالى: ﴿اذكُروا الله ذِكراً كَثِيراً﴾: إنَّ الله لم يفرض فَريضَةً إلاّ عذر أهلها في حَال عُذْرٍ، غيرَ الذِّكر، فإن الله لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه، ولَم يَعذِرْ أحداً في تَركه إلا مَغلُوباً على تَركِهِ، فقال: ﴿فاذكُروا الله قياماً وقُعوداً وعلى جُنوبكم﴾، بالليل والنهار، في البرِّ والبحرِ، وفي

---

(١) في نسخة الحرم أبو سعيد» وفي المقتنى للذهبي ٢٦٤/١: «أبو سعد الحميري». وقد ترجم له المزي في الكنى، فقال: «أبو سعد الحميري الشامي الحمصي».

(٢) مسند الإمام أحمد ٤٧٧/٢.

(٣) كذا، والذي في تحفة الأحوذي ١٧/١٠. «عن أبي سعيد المقبري».

(٤) مسند الإمام أحمد ٣١١/٢.

(٥) مسند الإمام أحمد ١٩٠/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ٢٦٩/١٢، وسنن ابن ماجه، كتاب الأدب ١٢٤٦/٢.

(٦) مسند الإمام أحمد ٦٨/٣.

(٧) المعجم الكبير ١٦٩/١٢.

(٨) في نسخة الحرم: «إلا رأوهم».

(٩) مسند الإمام أحمد ٢٢٤/٢.

السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال، وقال: ﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته[1].

والأحاديثُ والآياتُ والآثار في الحثِّ على ذكر الله كثيرةٌ جداً، وفي هذه الآية الكريمة الحثُّ على الإكثار من ذلك. وقد صنَّف الناسُ في الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهم، ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيي الدين النَّواويّ رحمه الله تعالى.

وقولُه: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾، أي: عند الصباح والمساء، كقوله: ﴿فَسُبحانَ الله حين تُمسون وحين تُصبحونَ * وله الحمد في السموات والأرض وعَشِياً وحين تُظهرونَ﴾.

وقوله: ﴿هو الذي يُصَلِّي عليكم وملائكته﴾، هذا تهييجٌ إلى الذكر، أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكُروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكُم رسولاً منكم يتلو عليكُم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتابَ والحِكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمُون * فاذكروني أذكُركُم واشكُروا لي ولا تكفُرون﴾، وقال النبي ﷺ: «يقول الله: من ذكرني في نفْسِه ذكرتُه في نفْسِي، ومن ذكرني في ملإ ذكرتُه في ملإ خيرٍ منهم»[2].

والصلاةُ من الله ثناؤُه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاريُّ عن أبي العالية[3]، ورواه أبو جعفر الرازيُّ، عن الربيع بن أنس، عنه، وقال غيرُه: الصلاةُ من الله الرحمةُ. وقد يقال: لا مُنافاةَ بين القولين، والله أعلم.

وأما الصلاةُ من الملائكة فبمعنى الدعاءِ للناس والاستغفار، كقوله: ﴿الذين يَحملُون العرشَ ومن حوله يُسَبِّحون بحمد رَبِّهم ويؤمنون به ويَستغفرُون للذين آمنوا ربَّنا وَسِعت كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفِر للذين تابُوا واتَّبعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِم عذابَ الجحيم * رَبَّنا وأَدخِلْهُم جناتِ عَدْنٍ التي وعدتَهم ومَن صَلَحَ من آبائهم وأزواجِهم وذُرِّياتِهم إنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيم * وقِهِمُ السَّيِّئاتِ﴾. ـ الآية.

وقولُه: ﴿لِيُخرجَكُم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾، أي: بسبب رحمتِه بكم وثنائه عليكُم ودُعاءِ ملائكتِه لكُم يُخرجُكم من ظُلُماتِ الجَهلِ والضلالِ إلى نُورِ الهُدى واليقين، ﴿وكانَ بالمؤمنين رَحِيماً﴾، أي: في الدنيا والآخرة، أمَّا في الدنيا فإنه هَدَاهم إلى الحقِّ الذي جَهله غيرُهم، وبصَّرهم الطريقَ الذي ضلَّ عنه وحادَ عن سواهم من الدُّعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطَّغَام، وأما رحمتُه بهم في الآخرة فآمنَهُم من الفزَع الأكبر، وأمر ملائكته يَتلقَّونَهم بالبشارة بالفَوزِ بالجنَّةِ والنَّجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفتِه بهم.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن أبي عَدِيٍّ، عن حُمَيد، عن أنس قال: مرَّ النبيِّ ـ ﷺ ـ في نفَرٍ من أصحابه وصَبيٌّ في الطريق، فلما رأت أمُّه القومَ خَشيت على ولدها أن يُوطَأ، فأقبلت تسعَى وتقول: ابني! ابني! وَسَعَت فأخذَته، فقال القومُ: يا رسولَ الله، ما كانت هذِه لتُلقي ابنَها في النار. قال: فخفَّضَهُم رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقال: «ولا الله لا يُلقي حَبيبه في النَّارِ»[4].

إسناده على شرط الصحيحين، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، ولكن في صحيح الإمام البخاري، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً لها،

(١) أخرجه الطبري ٢٢/١٧، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، الدر المنثور ٦/٦١٨ ـ ٦١٩

(٢) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ١٥٢ من سورة البقرة، وخرجناه هناك

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٨/٥٣٢

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/١٠٤ وخفَّضَهُم: سكَّنَهُم حتى يتنبَّهوا لما يلقى عليهم

فألصقته إلى صدرها، وأرضعته فقال: «أترون هذه تُلقي وَلَدَها في النَّار وهي تَقدِر على ذلك؟ قالوا. لا. قال: فوالله للهُ أرحَمُ بعباده من هذه بولدها»(١).

وقولُه: ﴿تَحِيَّتُهم يومَ يلقونَه سلامٌ﴾، الظاهر أنَّ المراد. والله أعلم. ﴿تَحِيَّتُهُم﴾ أي: مِن الله تعالى يوم يَلْقونه ﴿سلامٌ﴾، أي: يوم يُسَلِّم عليهم كما قال تعالى: ﴿سلامٌ قولاً من ربٍّ رَحيم﴾(١).

وزعم قتادة أن المراد أنهم يُحَيِّي بعضُهم بعضاً بالسلام، يومَ يلقون الله في الدار الآخرة، واختاره ابنُ جرير(١).

قلت: وقد يُستَدَلُّ بقوله تعالى: ﴿دعواهُم فيها سبحانَكَ اللهُمَّ وتَحِيَّتُهم فيها سلامٌ وآخِرُ دعواهُم أن الحمدُ لله ربِّ العالمين﴾.

وقولُه: ﴿وأعدَّ لهم أجراً كريماً﴾، يعني: الجنة وما فيها من المآكل والمشارب، والملابس والمساكِن، والمَناكحِ، والمـلاذ والمناظرِ، وما لا عينٌ رأت، ولا أُذن سمِعت، ولا خطَر على قلبِ بَشر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا موسَى بن داود، حدثنا فُلَيح بن سليمان، عن هلال بن عَلي، عن عطاءِ بن يَسَارٍ قال: لَقِيتُ عبدَ الله بن عَمْرو بن العَاصِ فقلتُ: أخبرني عن صِفَةِ رسُولِ الله ـ ﷺ ـ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراةِ بصفته في القرآن: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهِداً ومُبَشِّراً ونَذيراً﴾، وحِرْزاً للأميين، أنت عبدي ورسُولي، سَمَّيْتُكَ المتوكل لست بفظٍّ ولا غَليظ ولا صَخَّاب في الأسواق: ولا يدفَعُ السيِّئة بالسيِّئة، ولكن يعفُو ويغفِرُ، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به المِلَّةَ العَوْجَاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيُناً عُمياً، وآذاناً صُمًّا، وقُلوباً غلفاً(٣).

وقد رواه البخاري في «البيوع» عن محمد بن سِنَان، عن فُلَيح بن سليمان، عن هلال بن علي، به. ورواه في «التفسير» عن عبد الله ـ قيل: ابن رجاء، وقيل: ابن صالح ـ عن عبد العزيز بن أبي سَلَمة، عن هلال، عن عطاء بن يَسَار، عن عبد الله بن عَمرو، به(٤). ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عبد الله بن رجاء، عن عبد العزيز بن أبي سَلَمة الماجِشُون، به. وقال البخاريُّ في البيوع: وقال سَعيدٌ، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سَلَام(٤).

وقال وهب بن منبِّه: إن الله أوحى إلى نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل ـ يقال له: شَعياء ـ: أن قُم في قومك بني إسرائيل، فإنِّي مُنطِقٌ لسانك بوَحي، وأبعث أُمياً من الأميين، أبعثُه ليس بفظٍّ ولا غليظٍ ولا صَخَّاب في الأسواق، لو يَمُرُّ إلى جَنْب سِراجٍ لم يُطفِئه، من سَكينته، ولو يمشي على القَصَب لم يُسمَع من تحتِ قدَميه،

(١) فتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٤٢٦ ـ ٤٢٧.
(٢) تفسير الطبري ٢٢/١٧
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٤.
(٤) فتح الباري، كتاب البيوع ٤/٣٤٢ ـ ٣٤٣، وكتاب التفسير، تفسير سورة الفتح ٨/٥٨٥.

أبعثه مُبشِّراً ونَذيراً، لا يقولُ الخَنَا، افتحُ به أعيناً كُمْهاً(١)، وآذاناً صُمّاً، وقُلوباً غُلفاً، أُسدّده لكل أمرٍ جميل، وأهَبُ له كُلَّ خُلُقٍ كَرِيم، وأجعلُ السكينةَ لِبَاسَه، والبِرَّ شِعارَه، والتقوى ضَمِيرَه، والحكمةَ مَنطِقَه، والصدقَ والوفاءَ طَبيعتَه، والعفوَ والمعروفَ خُلُقَهُ، والحقَّ شَريعتَه، والعدلَ سِيرَتَه، والهُدى إمامَه، والإسلامَ مِلَّته واحمدُ اسمُه، أهدي به بعدَ الضلالةِ، وأُعلِّمُ به بعدَ الجَهالةِ، وأرفعُ به بعدَ الخمالة(٢)، وأُعرِّفُ به بعدَ النُّكْرَةِ، وأُكثِرُ به بعدَ القِلَّةِ، وأُغني به بعدَ العَيْلَة(٣)، وأجمعُ به بعدَ الفُرقة، وأؤلِّفُ به بين أُمَمٍ مُتفرِّقةٍ، وقلوبٍ مختلفةٍ، وأهواءٍ مُتشتِّتةٍ، وأستنقذُ به فِئاماً(٤) من الناس عظيمةً من الهلكة، وأجعلُ أُمَّته خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر، مُوحِّدين مؤمنين مخلصين، مُصدِّقين لما جاءت به رُسُلي(٥) أُلهِمُهم التسبيحَ والتحميدَ، والثناءَ والتكبيرَ والتوحيدَ، في مساجدِهم ومَجالِسِهم، ومَضاجعِهم ومُتَقَلَّبِهم ومثواهم، يُصلّون لي قياماً وقُعُوداً، ويقاتلون في سبيلي صُفوفاً وزُحُوفاً، ويَخرجُون من ديارهم ابتغاءَ مرضاتي أُلوفاً، يُطهِّرون الوجوه والأطرافَ، ويَشُدُّون الثيابَ في الأنصافِ، قُربانُهم دِماؤُهم، وأناجيلُهم في صُدُورهم رُهبانٌ بالليلِ لُيوثٌ بالنهار، وأجعلُ في أهل بيته وذُرِّيته السابقين، والصدِّيقين والشُّهداءَ والصالحين، أُمّته من بعده يَهدُون بالحقِّ وبه يَعدِلُون. أُعِزُّ مَن نَصَرهم، وأؤيِّد مَن دَعا لهم، وأجعل دائرةَ السَّوءِ على من خالَفهم أو بَغى عليهم، أو أرادَ أن يَنتزِعَ شيئاً مما في أيديهم. أجعلُهم ورثةً لنبيِّهم، والداعيةَ إلى ربِّهم، يأمُرون بالمعروفِ، وينهَون عن المنكرِ، ويُقيمونَ الصَّلاةَ، ويؤتون الزكاةَ ويُوفون بِعَهدِهم، أختِمُ بهم الخيرَ الذي بَدَأته بأوَّلِهم، ذلك فضلي أُوتيه مَن أشاء، وأنا ذُو الفَضلِ العظيمِ.

هكذا رواه ابن أبي حاتم، عن وَهب بن مُنَبِّه اليماني، رحمه الله.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمٰن بن صالح، حدثنا عبد الرحمٰن بن محمد بن عُبَيدِ الله العَرْزَميّ، عن شَيبان النحويّ، أخبرني قتادةُ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومُبشِّراً ونَذيراً﴾ ـ وقد كان أمر عَلِيّاً ومُعاذاً أن يَسيرا إلى اليَمَن ـ، فقال: «انطلقا فبَشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا، إنه قد أُنزل عليَّ: ﴿يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهِداً ومُبشِّراً ونَذيراً﴾».

وَرواه الطبرانيُّ عن محمد بن نصر بن حُمَيد البَزّار البغدادي، عن عبد الرحمٰن بن صالح الأزدِيّ، عن عبد الرحمٰن بن محمد بن عبيد الله العَرْزَميّ، بإسناده مثله. وقال في آخره: «فإنه قد أُنزِلَت عليَّ: ﴿يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهداً﴾ على أمتك، ﴿ومبشراً﴾ بالجنة، ﴿ونذيراً﴾ من النار، ﴿وداعياً﴾ إلى شهادةِ أن لا إلٰهَ إلا الله بإذنه، ﴿وسراجاً منيراً﴾ بالقرآن»(٦).

وقولُه: ﴿شاهداً﴾: أي: لله بالوحدانيّة، وأنه لا إلٰه غيرُه، وعلى الناس بأعمالهم يومَ القيامة، ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاءِ﴾، ﴿لتكونوا شُهداءَ على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً﴾.

وقولُهُ: ﴿ومُبشِّراً ونَذيراً﴾، أي: بَشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونَذيراً للكافرين من وَبيل العقاب.

وقولُه: ﴿وداعِياً إلى الله بإذنِه﴾، أي: داعياً للخَلْقِ إلى عبادةِ ربِّهم عن أمره لك بذلك، ﴿وسِراجاً

(١) كُمْه: جمع أكْمَه، وهو الأعمى.
(٢) انظر ما علقنا به مع هذه الكلمة، عند تفسير الآية ٥٤ من سورة النور
(٣) العَيْلَة: الفقر.
(٤) الفِئَامُ: الجماعة الكثيرة.
(٥) تقدَّم هذا القدر من أثر وهب عند تفسير آية النور ٥٤، وخرجناه هناك
(٦) أخرجه في المعجم الكبير ١١/٣١٢.

مُنيرًا﴾، أي: وأمرُك ظاهرٌ فيما جئتَ به من الحقّ، كالشمسِ في إشراقها وإضاءتِها، لا يجحَدُها إلا معاندٌ.

وقولُه: ﴿ولا تُطعِ الكافرين والمُنافقينَ ودَعْ أذاهُم﴾، أي: لا تُطِعهم وتَسمَع منهم في الذي يَقولُونه، ﴿ودَعْ أذاهم﴾، أي: اصفَحْ وتجاوزْ عنهُم، وَكِلْ أمرَهُم إلى الله، فإنّ فيه كفايةً لَهُم، ولهذا قال: ﴿وتوكّل على الله وكَفَى بالله وَكيلًا﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

هذه الآيةُ الكريمةُ فيها أحكامٌ كثيرةٌ، منها: إطلاق النكاح على العَقْدِ وحدَه، وليس في القرآن آيةٌ أصرحُ في ذلك منها، وقد اختلفُوا في النكاح: هل هو حقيقةٌ في العقد وحدَه، أو في الوطءِ، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العَقدِ والوطءِ بعده، إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقدِ وحدَه، لقوله: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثمّ طلّقتُموهن من قبل أن تَمَسُّوهُنّ﴾. وفيها دلالة لإباحةِ طَلاق المرأةِ قبل الدُّخولِ بها.

وقوله: ﴿المؤمناتِ﴾ خَرَجَ مَخْرَجَ الغالب، إذ لا فرقَ في الحكم بين المؤمنةِ والكتابيّةِ في ذلك بالاتفاق، وقد استدلَّ ابنُ عباسٍ، وسَعيد بن المسيب، والحسن البصريّ، وعلي بن الحسين زينُ العابدين، وجماعة من السَّلف بهذه الآيةِ على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدّمه نكاح، لأن الله تعالى قال: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلّقتُموهن﴾، فعقّبَ النكاحَ بالطلاق، فدلَّ على أنه لا يصحّ ولا يقَعُ قبله. وهذا مذهب الشافعي، وأحمدَ بنِ حنبلٍ، وطائفةٍ كثيرةٍ من السلف والخَلَف، رحمهم الله تعالى.

وذهب مالك وأبو حَنيفة رَحمهما الله إلى صحة الطلاقِ قبل النكاح، فيما إذا قال: «إن تزوجتُ فلانَةَ فهي طالقٌ». فعندهما متى تَزَوَّجها طَلَقت منه. واختلفا فيما إذا قال: «كُلُّ امرأة أتزوَّجُها فهي طالق». فقال مالك: لا تُطلَّق حتى يُعَيِّن المرأةَ. وقال أبو حنيفة رَحِمه الله: كل امرأة يتزوَّجها بعدَ هذا الكلامِ تُطلَّقُ منه. فأما الجمهورُ فاحتجّوا على عدم وُقُوع الطلاقِ بهذه الآية.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزيُّ، حدثنا النضر بن شُمَيل، حدثنا يونسُ ـ يعني ابنَ أبي إسحاقَ ـ سَمِعتُ آدمَ مولى خالد، عن سَعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: [إذا قال]: «كُلُّ امرأة أتزوَّجُها فهي طالِقٌ»، قال: ليس بشيءٍ من أجلِ أن الله تعالى يقولُ: ﴿يا أيها الذين آمنُوا إذا نكحتُم المؤمناتِ ثمَّ طلّقتموهن﴾ ... الآية[1].

وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمَسيُّ، حدثنا وكيع، عن مَطَر، عن الحسن بن مسلم بن يَنّاق، عن ابن عباس قال: إنما قال الله تعالى: ﴿إذا نكحتُم المؤمنات ثم طلّقتُموهنّ﴾، ألا ترى أن الطلاقَ بعد النكاح.

وهكذا روى محمد بن إسحاق، عن داود بن الحُصَين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال الله: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن﴾، فلا طلاق [قبل النكاح][2].

وقد وَرَد الحديث بذلك عن عَمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «لا طلاق لابن آدمَ فيما لا يَملِكُ»[3]. رواه الإمام أحمدُ والترمذيُّ، وأبو داودَ، وابن ماجه. وقال الترمذي: وهذا حديثٌ

(١) الدر المنثور ٦/٦٣٧، عن ابن أبي حاتم، وابن المنذر.
(٢) عن الطبعات السابقة
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/١٨٩، ١٩٠، وأخرجوه في كتاب الطلاق، سنن أبي داود ٢/٢٥٨، وعارضة الأحوذي ٥/١٤٧ ـ ١٤٨، وابن ماجه ١/٦٦٠.

حَسَنٌ، وهو أحسنُ شيءٍ رُوِيَ في هذا الباب». وهكذا روى ابن ماجه، عن عليٍّ، والمِسْوَر بن مَخْرَمَة عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا طلاقَ قبل نِكاح»[1].

وقال: ﴿فما لكم عليهنَّ من عِدَّةٍ تعتدُّونها﴾، هذا أمر مُجمعٌ عليه بين العُلَماء أنَّ المرأة إذا طُلِّقت قبل الدخول بها لا عِدَّةَ عليها، فتذهب فتتزوَّج في فورها من شاءت، ولا يُستثنى من هذا إلا المتوفَّى عنها زوجُها، فإنها تعتدُّ منه أربعةَ أشهرٍ وعشراً، وإن لم يكن دَخَل بها بالإجماع أيضاً.

وقولُه: ﴿فَمَتِّعوهُنَّ وسَرِّحُوهُنَّ سراحاً جَميلاً﴾، المتعةُ ها هنا أعمُّ من أن تكون نصف الصَّداق المسمَّى، أو المتعةُ الخاصَّةُ إن لم يكُن قد سُمِّيَ لها، قال الله تعالى: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسُّوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾، وقال: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسُّوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومَتِّعوهُنَّ على المُوسِع قَدَرُه وعلى المُقتِر قَدَرُه متاعاً بالمعروف حَقّاً على المُحسِنين﴾ وفي صحيح البخاري، عن سهل بن سعد وأبي أُسَيد أن رسول الله ﷺ تزوَّج أُمَيمة بنتَ شَراحيل، فلما أُدخِلَت عليه بَسَط يدَهُ إليها، فكأنها كَرِهَت ذَلِك، فأمر أبا أُسَيد أن يُجهِّزها ويكسُوها ثوبين رَازِقيَّين[1].

قال علي بن أبي طَلْحَةَ، عن ابن عباس ـ رَضِيَ الله عنهما ـ: إن كان سُمِّي لها صَدَاقاً فليس لها إلا النصفُ، وإن لم يكن سمى لها صداقاً فأمتعها على قدر عُسْرِه ويُسْرِه، وهو السَّرَاحُ الجَميل[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٠﴾

يقول تعالى مخاطباً نبيَّه ـ صلواتُ الله وسلامهُ عليه ـ بأنه قد أحلَّ له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهُنَّ مُهورَهُنَّ، وهي الأجورُ ها هنا. كما قاله مجاهدٌ وغير واحد، وقد كان مَهْرُه لنسائه اثنتي عشرةَ أوقيَةً ونَشّاً، وهو نصفُ أوقِيَّةٍ، فالجميع خمسمائةُ درهم، إلا أم حَبِيبةَ بنتَ أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي ـ رحمه الله ـ أربعمائة دينار، وإلا صَفِيَة بنت حُيَيٍّ فإنه اصطفاها من سَبْي خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها. وكذلك جُوَيرية بنت الحارث المُصطَلِقيَّة، أدَّى عنها كتابتها إلى ثابتِ بن قيسِ بن شَمَّاس وتزوَّجها[3]، رضي الله عن جميعهن.

وقولُهُ: ﴿وما ملكت يمينُك مما أفاء الله عَلَيك﴾، أي: وأباحَ لك التَّسَرِّيَ مما أخذت من الغنائم، وقد مَلَك صَفِيَّة وجُوَيرِيَة فأعتقهما وتزوَّجهما. ومَلَك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام، وكانتا من السراري، رضي الله عنهما[4].

وقوله: ﴿وبناتِ عمِّك وبنات عمَّاتك وبنات خالِك وبنات خالاتِك اللاتي هاجَرْن معك﴾، هذا عدل

(١) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢٣٦ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك. والرازقية: ثياب من كتان بيض طوال.
(٢) أخرجه الطبري ٢٢/١٩
(٣) انظر خبر صفية ـ رضي الله عنها ـ في سنن أبي داود، كتاب الإمارة ٣/١٥٢ ـ ١٥٣، والخراج لأبي يوسف ٦٦، وخبر جويرية في سيرة ابن هشام ٢/٢٩٤ ـ ٢٩٥، والخراج ٣٧٣
(٤) انظر البداية والنهاية ٥/٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٨٤

وَسَط بين الإفراطِ والتفريط؛ فإنّ النّصارى لا يَتزوّجون المرأة إلّا إذا كان الرجُل بينه وبينها سبعةُ أجداد فصاعداً، واليهود يَتزوّج أحدهُم بنت أخيه وبنتَ أُخته، فجاءت هذه الشريعةُ الكاملة الطاهرةُ بهدم إفراطِ النّصارى، فأباح بنت العمِّ والعمّةِ، وبنتَ الخالِ والخالةِ، وتحريمَ ما فَرّطت فيه اليهودُ من إباحةِ بنت الأخ والأخت، وهذا شنيعٌ فَظيعٌ.

وإنما قال: ﴿وبناتِ عَمِّكَ وبنات عَمّاتك وبنات خَالك وبنات خالاتك﴾ فَوَحّدَ لفظ الذكر لشَرَفه، وجَمَعَ الإناث لنقصهن كقوله: ﴿عن اليمين والشمائل﴾، ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾، ﴿وجعل الظلمات والنور﴾، وله نظائر كثيرة.

وقولُه: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾، قال ابنُ أبي حاتمٍ رحمه الله:

حدثنا محمد بن عمار بن الحارث الرازي: حدثنا عُبَيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيلُ، عن السُّدِّي، عن أبي صالح، عن أم هانىء قالت: خَطَبني رسولُ الله ـ ﷺ ـ فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله: ﴿إنا أحللنا لك أزواجَكَ اللاتي آتيت أجورهُنَّ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عَمِّك﴾ . . . إلى قوله: ﴿اللاتي هاجَرن معك﴾، قالت: فلم أكن أُحِلُّ له، ولم أكن ممن هاجَرَ معه، كُنتُ من الطُّلَقاء.

ورواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن عُبَيد الله بن موسى، به[1]. ثم رواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح، عنها بنحوه. ورواه الترمذي في جامعه[1]. وهكذا قال أبو رَزِين وقتادةُ: إن المراد: مَن هاجر معه إلى المدينة. وفي رواية عن قتادة: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾، أي: أسلمن. وقال الضحاك: قرأ ابن مسعود: ﴿واللاتي هاجرن معك﴾[1].

وقولُه: ﴿وامرأة مؤمنة إن وَهَبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصةً لك﴾، أي: ويحلُّ لك ـ يأيها النبيُّ ـ المرأة المؤمنةُ إذا وَهَبت نَفسها لك أن تَتزوّجها بغير مهر إن شئتَ ذلك. وهذه الآية تَوالى فيها شرطان، كقوله تعالى إخباراً عن نوح ـ عليه السلام ـ أنه قال لقومه: ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردتُ أنْ أنصَحَ لكم إن كان الله يُريدُ أن يُغويَكم﴾، وكقول موسى: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾. وقال ها هنا: ﴿وامرأةً مؤمنةً إن وَهَبت نفسها للنبي إن أراد النبيُّ أن يستنكحها﴾، وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا إسحاقُ، أخبرنا مالكٌ، عن أبي حازم، عن سَهل بن سعدٍ الساعِديِّ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ جاءته امرأةٌ فقالت: يا رسولَ الله، إني قد وَهَبتُ نفسي لك. فقامت قياماً طَويلاً، فقام رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، زَوِّجنيها إن لم يكن لك بها حاجةٌ! فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: هل عندَكَ من شيء تُصدِقُها إياه؟ فقال: ما عندي إلا إزاري هذا! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن أعطيتَها إزارَكَ جلستَ لا إزارَ لك، فالتمِسْ شيئاً. فقال: لا أجدُ شيئاً. فقال: التمِسْ ولو خاتماً من حَديدٍ. فالتَمَسَ فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ـ ﷺ ـ: هل معك من القرآن شيء؟ قال نعم، سورةُ كذا، وسورةُ كذا ـ لِسُوَرٍ يُسَمِّيها ـ فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: زوجتُكَها بما مَعَك من القرآن[2]. أخرجاه من حديث مالك[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا مرحوم، سَمِعتُ ثابتاً يقولُ: كنتُ مع أنس جالساً وعنده ابنةٌ له،

(١) تفسير الطبري ٢٢/٢٠ ـ ٢١. وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الأحزاب ١٢/٨٩ ـ ٩٠.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٣٣٦، وأخرجه البخاري وحده من حديث مالك في كتاب النكاح، فتح الباري ٩/١٩٠ ـ ١٩١، وأخرجه مسلم في كتاب النكاح من حديث غيره ٢/١٠٤٠ ـ ١٠٤١ وانظر تحفة الأشراف للمزي ٤/١١٨

فقال أنسٌ: جاءت امرأةٌ إلى النبي ـ ﷺ ـ فقالت: يا نبي الله، هل لك فيَّ حاجةٌ؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءَهَا! فقال: هي خيرٌ منك، رَغِبت في النبي، فَعرضت عليه نفسها[١].

انفرد بإخراجه البخاريُّ، من حديث مَرْحوم بن عبدِ العزيز، عن ثابت البُنانيّ، عن أنسٍ، به[١].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الله بن بكرٍ، حدثنا سِنَانُ بن رَبيعة، عن الحضرميِّ، عن أنس بن مالك. أن امرأة أتت النبيّ ـ ﷺ ـ فقالت: يا رسولَ الله، ابنة لي كَذَا وكَذَا ـ فذكرت من حُسنها وجَمالها ـ فآثرتُك بها. فقال: «قد قَبِلتُها». فلم تَزَل تَمدحها حتى ذكرت أنها لم تُصْدَع ولم تَشْتَكِ شيئاً قطُّ، فقال: «لا حاجةَ لي في ابنتِكِ»[٢]. لم يُخرِجُوه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا منصورُ بن أبي مُزَاحِم، حدثنا ابن أبي الوضَّاح ـ يعني محمد بن مسلم ـ عن هشام بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن عائشة قالت: التي وَهَبت نفسَها للنبي ﷺ خَولَةُ بنت حكيم.

وقال ابن وهب، عن سَعِيد بن عبد الرحمٰن وابنِ أبي الزِّنادِ، عن هشام بن عُرْوَةَ، عن أبيه: أن خَوْلَةَ بنتَ حكيم بن الأوقص، من بني سُلَيم، كانت من اللاتي وَهَبْنَ أنفسهن لرسول الله ﷺ.

وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمٰن، عن هشام، عن أبيه: كنا نَتحدَّث أن خَوْلَةَ بنت حكيم كانت وَهَبت نفسها لرسول الله ـ ﷺ ـ وكانت امرأةً صالحةً[٣].

فَيَحْتَمِلُ أن أم سُلَيم هي خولة بنت حكيم، أو هي امرأةٌ أخرى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيلَ الأحمَسِيُّ، حدثنا وكيع، حدثنا موسى بن عُبَيدَة، عن محمد بن كعب، وعُمر بنِ الحكم، وعبدِ الله بن عُبَيدة قالوا: تَزَوَّج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة، ستٌّ من قُرَيشٍ: خديجةُ، وعائشةُ، وحفصةُ، وأم حَبيبة، وسَوْدَةُ، وأم سلمة. وثلاث من بني عامر بن صعصعة، وامرأتان من بني هلال بن عامر. ميمونة بنت الحارث، وهي التي وَهَبت نفسها للنبي ﷺ، وزينبُ أم المساكين امرأة من بني بكرِ بن كِلابٍ من القُرطاء، وهي التي اختارت الدنيا. وامرأة من بني الجَون، وهي التي استعاذت منه، وزينب بنت جحش الأسدية، والسَّبِيَّتان صفية بنت حُيَي بن أخطب، وجُوَيرِيَة بنت الحارث بن عمرو بن المُصطَلِق الخزاعية.

وقال سَعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادةَ، عن ابن عباسٍ: ﴿وامرأةً مؤمنةً إن وهَبَت نفسها للنبي﴾، قال: هي ميمونة بنت الحارثَ.

فيه انقطاع: هذا مرسل، والمشهور أن زينبَ التي كانت تُدعَى أم المساكين هي زينبُ بنت خُزَيمة الأنصارية، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته، فالله أعلم.

والغَرَضُ من هذا أن اللاتي وَهَبن أنفُسَهن من النبي ﷺ كثيرٌ، كما قال البخاري:

حدثنا زكريا بن يحيى، حدثنا أبو أسامةَ، قال هشام بن عُرْوَةَ، حدَّثنا عن أبيه، عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتي وَهَبن أنفسهن من النبي ﷺ وأقول: أتَهبُ المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله: ﴿تُرجي من تشاء منهن وتُؤوي إليكَ من تشاء ومن ابتغيتَ ممن عَزَلت فلا جُناحَ عليك﴾، قلت: ما أرى رَبَّك إلا يُسارِعُ في هَواكَ»[٤].

(١) مسند الإمام أحمد ٢٦٨/٣، وفتح الباري، كتاب النكاح ١٧٤/٩.
(٢) مسند أحمد ١٥٥/٣. لم تُصْدَع: لم يصبها صُداعٌ، وهو وَجعُ الرأس.
(٣) أخرجه الطبري ٢٢/٢٣.
(٤) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٥٢٤/٨ ـ ٥٢٥.

وقد قال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن منصورٍ الجُعفي، حدثنا يُونُس بن بُكَير، عن عُتْبَة بن الأزهر، عن سِمَاكٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عَبَّاسٍ قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأةٌ وَهَبَت نفسها له.

ورواه ابنُ جَرير عن أبي كُرَيب، عن يونس بن بكير[1]. أي: إنه لم يقبل واحدةً ممن وَهَبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به، لأنه مَردود إلى مَشيئَته، كما قال الله تعالى: ﴿إن أراد النبيُّ أن يستنكِحَها﴾، أي: إن اختار ذلك.

وقوله: ﴿خالصةً لك من دُونِ المؤمنين﴾، قال عكرمة: أي لا تَحِلُّ الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وَهَبت نفسها لرجل لم تَحِلَّ له حتى يُعطيها شيئاً. وكذا قال مجاهد والشعبيُّ وغيرهما.

أي: إنها إذا فَوَّضت المرأةُ نفسَها إلى رجل فإنه متى دَخل بها وَجَب لها عليه مهرُ مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في بَرْوَعَ بنتِ واشقٍ لما فَوَّضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداقِ مثلها لما توفي عنها زوجُها، والموتُ والدخُول سواءٌ في تقرير المهر وثُبوتِ مهر المثل في المفوضة لغير النبيِّ ﷺ، فأما هو عليه السلام فإنه لا يجبُ عليه للمفَوِّضة شيءٌ ولو دَخل بها، لأن له أن يتزوَّج بغير صداقٍ ولا وَلِيٍّ ولا شهُود، كما في قصة زينب بنت جَحش رضي الله عنها. ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿خالصةً لك من دون المؤمنين﴾، يقول: ليس لامرأة تَهَبُ نفسَها لرجل بغير وَلِيٍّ ولا مَهرٍ إلا للنبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿قد علمنا ما فَرَضنا عليهم في أزواجهم وما ملَكت أيمانُهم﴾، قال أُبَيُّ بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة وابن جرير في قوله: ﴿قد عَلِمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم﴾، أي: مَنْ حَصْرِهم في أربع نسوةٍ حرائر وما شاؤوا من الإماء، واشتراط الولي والمهر والشُّهود عليهم، وهم الأمةُ، وقد رَخَّصنا لكَ في ذلِك، فلم نُوجب عليك شيئاً منه، ﴿لكي لا يكون عليكَ حَرَجٌ وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

﴿ ۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝٥١ ﴾

قال الإمام أحمدُ: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا هشام بن عُروَةَ، عن أبيه، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ: أنها كانت تُعَيِّر النساء اللاتي وَهَبْنَ أنفُسَهُنَّ لرسول الله ـ ﷺ ـ قالت: ألا تستحي المرأة أن تعرضَ نفسَها بغير صَداقٍ؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿تُرجي مَن تشاءُ مِنهُنَّ وتُؤوي إليكَ مَن تَشاءُ ومن ابتَغَيتَ ممن عَزَلت فلا جُناحَ عليكَ﴾، قال: إني أرى رَبَّك يُسارعُ لك في هواك[2].

وقد تقدم أن البخاري رواه من حديث أبي أُسامَةَ، عن هشام بن عُروَةَ. فدلَّ هذا على أن المراد بقوله: ﴿تُرجي﴾، أي: تُؤَخِّر ﴿مَن تشاء منهن﴾، أي: من الواهبات، ﴿وتُؤوي إليك من تشاء﴾، أي: من شِئتَ قبلتها، ومن شئت رَدَدتها، ومَن رَدَدتها أنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك، إن شئت عُدْتَ فيها فآويتَها. ولهذا قال: ﴿ومَن ابتغيتَ ممن عَزَلت فلا جُناحَ عليك﴾، قال عامرٌ الشعبيُّ في قوله: ﴿تُرجي مَن تشاءُ مِنهُنَّ وتُؤوي إليكَ مَن تشاءُ﴾ كُنَّ نساءً وهبنَ أنفُسَهنَّ للنبي ﷺ، فدخَل ببعضِهنَّ وأرجأ بعضَهن لم يُنكحن بعده، منهن أم شَرِيك[3].

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/٢٣

(٢) مسند أحمد ٦/١٥٨

(٣) أخرجه ابن سعد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. الدر المنثور ٦/٦٣٤ ـ ٦٣٥، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب النكاح ٧/٥٥

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿تُرجي مَن تشاء منهنَّ وتؤوي إليك مَن تشاء﴾، أي: من أزواجك، لا حَرَج عليك أن تترك القَسْم لهن، فتُقدِّمَ من شئت، وتُؤخِّر من شئت، وتُجامعَ من شئت، وتترك من شئت.

هكذا رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وأبي رزين، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم. ومع هذا كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يقسمُ لهنَّ. ولهذا ذهب طائفةٌ من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القَسْمُ واجباً عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ واحتجوا بهذه الآية الكريمة.

وقال البخاري: حدثنا حِبّان بن موسى: حدثنا عبد الله ـ هو ابنُ المبارك ـ أخبرنا عاصم الأحولُ، عن مُعاذةَ عن عائشة: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يستأذن في يوم المرأة منّا بعدَ أن نزلت هذه الآيةُ: ﴿ترجي من تشاء منهن وتُؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيتَ ممَّن عَزَلت فلا جُناحَ عليك﴾، فقلت لها: «ما كنتِ تقولين؟» فقالت: كنتُ أقول: إن كان ذاك إليَّ فإني لا أُريدُ يا رسول الله أن أُوثِرَ عليك أحداً[1].

فهذا الحديثُ عنها يدلُّ على أن المراد من ذلك عَدَمُ وُجُوب القسم، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات. ومن هاهُنا اختار ابنُ جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عندَه، أنه مُخيَّر فيهنَّ إن شاء قَسَم وإن شاء لم يَقسِم. وهذا الذي اختاره حسنٌ جيدٌ قويٌّ، وفيه جمعٌ بين الأحاديث. ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك أدنى أن تقر أعينهنَّ ولا يحزنَّ ويرضين بما آتيتهنَّ كُلُّهن﴾، أي: إذا علمن أن الله قد وَضَع عنك الحَرَجَ في القَسْمِ، فإن شئت قَسَمت، وإن شئتَ لم تقسم، لا جُناح عليك في أيِّ ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تَقسِم لهن اختياراً منك لا أنّه على سبيل الوُجوب، فَرِحْنَ[2] بذلك واستبشرن به وحَمَلن جميلك في ذلك، واعترفن بمنَّتِك عليهنَّ في قَسْمك لهنَّ وتَسويتك بينهُنَّ وإنصافِك لهُنَّ وعدلِك فيهنَّ.

وقولُه: ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾، أي: من الميل إلى بعضِهن دُون بعض، مما لا يمكن دفعُه، كما قال الإمام أحمدُ:

حدثنا يزيدُ، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة، عن أيُّوبَ، عن أبي قِلابَةَ، عن عبد الله بن يَزِيدَ، عن عائشة قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقسمُ بين نِسائه فيعدِلُ، ثم يقول: اللهمَّ هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تَملكُ ولا أملِكُ[3].

ورواه أهل السنن الأربعة، من حديث حَمّاد بن سَلَمة، وزاد أبو داود بعد قوله: فلا تَلُمني فيما تملِكُ ولا أملِكُ: يعني القلب. وإسنادُهُ صحيحٌ، ورجالُه كُلُّهم ثقاتٌ[4]. ولهذا عَقَّب ذلك بقوله: ﴿وكان الله عليماً﴾، أي: بِضَمائِر السرائر، ﴿حليماً﴾، أي: يحلم ويَغفِرُ.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

ذكر غيرُ واحدٍ من العلماء ـ كابن عباس، ومجاهد، والضحّاك، وقتادةَ، وابن زيد، وابن جَرير، وغيرهم ـ: أن هذه الآية نَزَلت مجازاةً لأزواج النبي ـ ﷺ ـ ورضاً عنهن، على حُسن صنيعهن في اختيارهنَّ الله ورسوله والدار الآخرة، لمّا خيَّرهن رسول الله ـ ﷺ ـ كما تقدم في الآية. فلما اخترن رسول الله ـ ﷺ ـ كان

(١) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٨/٥٢٥.

(٢) هذا جواب الشرط المتقدم أول تفسير الآية، وهو «إذا علمن».

(٣) مسند الإمام أحمد ٦/١٤٤. وأخرجوه في كتاب النكاح، سنن أبي داود ٢/٢٤٢، وعارضة الأحوذي ٥/٧٩ ـ ٨٠، وابن ماجه ١/٦٣٣، والنسائي، في كتاب عشرة النساء ٧/٦٣ ـ ٦٤.

جزاؤهن أنَّ الله قصرَه عليهنَّ، وحَرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدلَ بهنَّ أزواجاً غيرهُنَّ، ولو أعجبه حُسنُهنَّ إلا الإماء والسَّراري فلا حَجْرَ عليه فيهنَّ. ثم إنه تعالى رَفَع عنه الحجر في ذلك ونَسَخ حكم هذه الآية، وأباح له التزويج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوُّجٌ لتكون المنَّةُ للرسول ـ ﷺ ـ عليهنَّ.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عَمرو، عن عطاء، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما مات رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أَحَلَّ الله له النساء[1].

ورواه أيضاً من حديث ابن جُرَيج، عن عطاء، عن عُبَيد بن عُمَير، عن عائشة. ورواه الترمذي والنسائي في سُنَنيهما[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شَيْبَةَ، حدثني عُمر بن أبي بكرٍ، حدثني المغيرةُ بن عبد الرحمن الحِزامِيُّ، عن أبي النضر مَولى عمر بن عُبَيد الله، عن عبد الله بن وَهْب بن زَمْعَةَ، عن أمِّ سلمةَ أنها قالت: لم يَمُتْ رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتَّى أحلَّ الله له أن يتزوَّج من النساء ما شاء، إلا ذاتَ محرم؛ وذلك قول الله عزَّ وجل: ﴿تُرجي مَن تشاء منهنَّ وتُؤوي إليك مَن تَشاءُ﴾.

فجعلت هذه الآيةُ ناسخَةً للتي بعدَها في التلاوة، كآيتي عدَّةِ الوفاةِ في البَقَرةِ، الأولى ناسِخَةٌ للتي بعدها، والله أعلم.

وقال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لا يحلُّ لك النساءُ من بعدُ﴾، أي: من بعد ما ذَكَرنا لك من صفة النساءِ اللاتي أحللنا لك من نِسائك اللاتي آتيت أجُورَهُنَّ وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات والخال والخالاتِ والواهبةِ، وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحلُّ لك، هذا مَرويٌ عن أُبَيِّ بن كعب، ومجاهدٍ، وعكرمةَ، والضحاك ـ في رواية ـ وأبي رَزين ـ في رواية عنه ـ وأبي صالح، والحسن، وقتادة ـ في رواية ـ والسُّدي، وغيرهم.

قال ابنُ جرير: حدثنا يعقوبُ، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن داودَ بن أبي هندٍ، حدثني محمد بن أبي موسى، عن زيادٍ ـ رَجُل من الأنصار ـ قال: قلتُ لأُبيِّ بن كَعب: أرأيت لو أنَّ أزواجَ النبيِّ ـ ﷺ ـ تُوُفِّين، أما كان له أن يَتزوَّج؟ فقال: وما يمنَعُه من ذلك؟ قال: قلت: قوله: ﴿لا يَحلُّ لك النساءُ من بعدُ﴾. فقال: إنما أحل الله له ضَرباً من النساء، فقال: ﴿يا أيها النبيُّ إنا أحللنا لك أزواجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إن وَهَبت نفسَها للنبي﴾. ثم قيل له: ﴿لا يَحل لك النساءُ من بعدُ﴾[2].

ورواه عبد الله بن أحمدَ من طُرُق، عن داود، به. وروى الترمذي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نهي رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن أصناف النِّساء، إلا ما كان من المؤمناتِ المهاجراتِ بقوله: ﴿لا يَحلُّ لك النساءُ من بعد ولا أن تَبدَّلَ بهنَّ من أزواجٍ ولو أعجَبَك حُسنُهنَّ إلا ما مَلَكت يمينُك﴾، فأحلَّ الله فَتَياتِكم المؤمناتِ ﴿وامرأةً مؤمنةً إن وَهَبت نفسها للنبيِّ﴾، وحَرَّم كُلَّ ذاتِ دينٍ غيرِ الإسلامِ، ثم قال: ﴿ومن يكفرْ بالإيمانِ فقد حَبِط عملُه وهو في الآخرة من الخاسِرين﴾ وقال: ﴿يا أيها النبيُّ إنا أحللنا لك أزواجكَ اللاتي آتيت أجورَهُنَّ وما ملكت يمينك مما أفاءَ الله عَلَيك﴾ إلى قوله ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾، وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء[3].

---

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الأحزاب ١٢/٩١، وسنن النسائي، كتاب النكاح ٦/٥٦.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/٢٩.

(٣) عارضة الأحوذي، تفسير سورة النساء ١٢/٩٠ ـ ٩١.

وقال مجاهد: ﴿لا يحلُّ لك النساء من بعدُ﴾، أي: من بَعدِ ما سُمّي لك، من مسلمة ولا يهوديةٍ ولا نصرانيةٍ ولا كافرةٍ[١].

وقال أبو صالح: ﴿لا تحل لك النساء من بعدُ﴾، أُمِر ألَّا يتزوَّجَ أعرابيةً ولا غَريبَةً، ويتزوج بعدُ من نساء تِهامَةَ، وما شاء من بنات العم والعمة، والخال والخالة، إن شاء ثلاثمائةٍ[٢].

وقال عِكرِمةُ ﴿لا يَحلُّ لك النساءُ من بعد﴾، أي التي سَمّى الله.

واختار ابنُ جَرير ـ رحمه الله ـ أن الآيةَ عامَّةٌ فيمن ذُكِر من أصناف النِّساءِ، وفي النِّساء اللواتي في عِصْمتِهِ وكُنَّ تسعاً. وهذا الذي قاله جيدٌ، ولعلَّه مرادُ كثيرٍ ممَّن حَكَينا عنه من السلف؛ فإن كثيراً منهم رُوي عنه هذا وهذا، ولا منافاةَ، والله أعلم. ثم أورد ابن جرير على نفسه ما رُوي أن رسول الله ـ ﷺ ـ طلَّق حفصة ثم رَاجَعها، وعَزَم على فِراقِ سَوْدةَ حتى وهبت يومها لعائشة، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله: ﴿لا يحلُّ لك النساء من بعدُ ولا أن تَبَدَّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنُهن﴾، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نُزُولِ الآية صحيح، ولكن لا يُحتاجُ إلى ذلك؛ فإن الآية إنما دلّت على أنه لا يتزوَّج بمن عدا اللَّواتي في عِصْمَتِه، وأنه لا يستَبدِلَ بهنَّ غيرَهُنَّ، ولا يَدلُّ ذلك على أنه لا يُطلِّق واحدةً منهنَّ من غير استبدالٍ، والله أعلم.

فأما قَضيةُ سودةَ في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، وهي سَبَبُ نزولِ قوله تعالى: ﴿وإن امرأةٌ خافَت من بَعْلِها نُشوزاً أو إعراضاً فلا جُناحَ عليهمَا أن يُصلِحا بينَهما صُلحاً والصلحُ خيرٌ﴾ . . . الآيةَ[٣].

وأما قضيَّةُ حفصة فَروى أبو داودَ والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، من طُرُق، عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن صالح بن صالح بن حَيٍّ، عن سَلَمَةَ بنِ كُهَيلٍ، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن عُمَر: أن رسول الله ﷺ طلَّق حفصة ثم رَاجَعها. وهذا إسنادٌ قوي[٤].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا يونس بن بُكَير، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن ابن عمر قال: دَخَل عُمَر على حفصة وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلَّقك! إنه قد كان طلَّقَكِ مَرَّةً ثم راجَعَكِ من أجلي، والله لئن كان طلَّقك مَرَّةً أخرى لا أكلِّمُكِ أبداً[٥]. ورجاله على شرط الصحيحين.

وقوله: ﴿ولا أن تبدَّل بهن من أزواجٍ ولو أعجبَكَ حُسنُهنَّ﴾، فنهاهُ عن الزِّيادة عليهن، أو طلاقِ واحدةٍ منهنَّ واستبدالِ غيرِها بها إلا ما ملَكت يمينه. وقد روى الحافظ أبو بكر البزّار حديثاً مناسباً ذكره ها هنا فقال:

حدثنا إبراهيم بن نصر، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام بنُ حَرْب، عن إسحاق بن عبد الله القُرَشي[٦]، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبي هُرَيرة قال: كان البَدَلُ في الجاهلية أن يقول الرجلُ للرجل: بادِلْني امرأتك وأُبادِلْك بامرأتي. أي: تَنزِلُ لي عن امرأتك، وأنزِلُ لك عن امرأتي. فأنزل الله: ﴿ولا أن تبدَّل بهنَّ من أزواجٍ ولو أعجبَكَ حُسنُهنَّ﴾ قال: فدخل عُيَينةُ بن حِصْنٍ الفَزاريُّ على النبي ـ ﷺ ـ وعنده عائشةُ، فدخل بغير إذنٍ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «وأين الاستئذان؟» فقال: يا رسولَ الله، ما استأذنت على

(١) أخرجه الطبري ٢٢/٣٠، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب النكاح ٤/٢/٢٦٩، وغير واحد كما في الدر المنثور ٦/٦٣٧.
(٢) أخرجه الطبري ٢٢/٢٩.
(٣) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٢٨ من سورة النساء، وخرجناه هنالك.
(٤) أخرجوه في كتاب الطلاق سنن أبي داود ٢/٢٨٥، وسنن النسائي ٦/٢١٣، وابن ماجه ١/٦٥٠، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٦/٢٣٥.
(٥) مسند أبي يعلى ١/١٦٥.
(٦) هو إسحاق بن عبد الله بن فَرْوة، يقال في نسبه القُرَشي الأُموي المَرْوَزيّ. انظر تهذيب الكمال ٢/٤٤٦.

رجل من مُضَرَ منذ أدركتُ. ثم قال: من هذه الحُمَيراء إلى جَنْبكَ؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذه عائشةُ أمُّ المؤمنين»، قال: أفلا أنزل لك على أحسنِ الخَلْقِ؟ قال: يا عُيَينة، إن الله قد حرَّم ذلك. فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا؟ قال: «هذا أحمقُ مطاعٌ، وإنه على ما ترينَ لَسَيِّدُ قومه»(١).

ثم قال البزّار: إسحاق بن عبد الله لَيِّنُ الحديثِ جداً، وإنما ذكرناه لأنا لم نحفظه إلا من هذا الوَجْهِ، وبَيَّنا العلة فيه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

هذه آية الحجاب، وفيها أحكامٌ وآدابٌ شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قولَ عُمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال: وافقتُ ربي في ثلاثٍ فقلت: يا رسول الله، لو اتخذتَ من مقامِ إبراهيمَ مُصَلّى، فأنزل الله: ﴿واتخِذُوا من مقام إبراهيم مصلى﴾. وقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّ نساءَك ليدخل عليهنَّ البرّ والفاجرُ، فلو حَجَبتهن، فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة: ﴿عَسَى ربُّه إن طلّقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾، فنزلت كذلك(٢).

وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر، وهي قضيةٌ رابعةٌ(٢).

وقد قال البخاري: حدثنا مُسَدَّد، عن يحيى، عن حُمَيد، عن أنس بن مالك قال: قال عُمَر بن الخطاب، يا رسول الله، يدخل عليكَ البَرُّ والفاجرُ، فلو أمرتَ أُمّهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحِجَاب(٣).

وكان وقتُ نزولها في صَبِيحَةِ عُرْسِ رسول الله - ﷺ - بزينب بنت جَحْش، التي تولى الله تعالى تَزْويجها بنفسه، وكان ذلك في ذي القعدة من السنةِ الخامسة، في قول قتادة والواقديّ وغيرهما. وزعم أبو عُبَيدة معمَر ابن المثنى وخليفة بن خَيّاط أن ذلك كان في سنةِ ثلاثٍ، فالله أعلم.

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله الرَّقاشي، حدثنا معتمر بن سُلَيمان، سَمِعتُ أبي، حدثنا أبو مِجْلَز، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: لما تزوّج رسول الله - ﷺ - زينبَ بنتَ جَحْش دعا القوم فَطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يَتهيأُ للقيام فلم يَقُوموا، فلما رأى ذلك قام، (فلما قام قام) من قامَ، وقعد ثلاثة نَفَرٍ. فجاء النبي - ﷺ - ليدخُلَ، فإذا القومُ جلوسٌ، ثم إنهم قاموا، فانطلقتُ فجئتُ فأخبرتُ النبي - ﷺ - أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دَخَل، فذهبت أدخلُ، فألقى الحِجابَ بيني وبينه، فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾... الآية(٣).

وقد رواه أيضاً في موضع آخر، ومسلم، والنسائي، من طرق، عن معتمر بن سليمان، به(٤). ثم رواه

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٦٥ - ٦٦.

(٢) تقدم الحديث عند تفسير آية البقرة ١٢٥، والمؤمنون ١٤، وخرجته هناك.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٨/٥٢٧.

(٤) فتح الباري، كتاب الاستئذان ١١/٢٢، ومسلم، كتاب النكاح ٢/١٠٥٠، والنسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ١/٤٢٥.

البخاري منفرداً به من حديث أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ـ بنحوه[(١)]. ثم قال:

حدثنا أبو مَعْمَر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا عبد العزيز بن صُهيب، عن أنس بن مالك قال: بُني على النبي ـ ﷺ ـ بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأُرسلتُ على الطعام داعياً، فيجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون، ثم يَجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون. فدعوتُ حتى ما أجدُ أحداً أدعُوه، فقلت: يا نبي الله، ما أجد أحداً أدعوه قال: «ارفعُوا طعامكم». وبقي ثلاثة رهط يتحدَّثون في البيت، فخرج النبيُّ ـ ﷺ ـ فانطلق إلى حُجرة عائشة، فقال: «السلام عليكم ـ أهل البيت ـ ورحمةُ الله وبركاته». قالت: وعليكَ السلامُ ورحمة الله، كيف وجدت أهلك، بارك الله لك؟ فتَقَرَّى[(٢)] حُجَر نسائه كُلِّهن، يقول لهُن كما يقول لعائشة، ويَقُلن له كما قالت عائشة. ثم رجع النبي ـ ﷺ ـ فإذا رَهطٌ في البيت ثلاثة يتحدثون: وكان النبي ـ ﷺ ـ شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حُجْرة عائشة، فما أدري أخبرتُه أم أُخبِرَ أن القوم خَرَجُوا؟ فرجع حتى إذا وضع رجله في أُسْكُفَّة[(٣)] الباب داخلةً، وأخرى خارجَةً، أرْخَى الستر بيني وبينه، وأُنزلت آيةُ الحجاب[(٤)].

انفرد به البخاريُّ من بين أصحاب الكتب الستَّةِ، سوى النسائي في اليوم والليلة، من حديث عبد الوارث.

ثم رواه عن إسحاق ـ هو ابن منصور ـ عن عبد الله بن بَكْر السَّهمي، عن حُمَيد، عن أنس، بنحو ذلك، وقال: «رجلان»[(٤)] انفرد به من هذا الوجه. [(* وقد تقدَّم في أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس *)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو المظفر، حدثنا جعفرُ بن سُلَيمان، عن الجَعْد أبي عثمان اليَشْكُريِّ، عن أنس بن مالك قال: أعرسَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ببعض نسائه، فصنعت أمُّ سُلَيم حَيْساً ثم وضعته في تَوْرٍ[(٦)]، فقالت: اذهب بهذا إلى رسولِ الله ﷺ، وأقرئه منّي السلام، وأخبره أن هذا منّا له قليلٌ. قال أنس: والناس يومئذٍ في جَهد، فجئت به فقلت: يا رسول الله، بعثت بهذا أمُّ سُلَيم إليك، وهي تُقرئُك السلامَ، وتقول: «أخبره أن هذا منا له قليل». فنظر إليه ثم قال: «ضعه» فوضعتُه في ناحية البيت، ثم قال: «اذهب فادعُ لي فلاناً وفلاناً». وسمَّى رجالاً كثيراً، وقال: «ومن لقيت من المسلمين». فدعوتُ من قال لي، ومن لَقيتُ من المسلمينَ، فجئت والبيت والصُّفَّة[(٧)] والحجرة مَلأى من الناس ـ فقلت: يا أبا عثمان كم كانوا؟ قال: كانوا زهاء ثلاثمائة ـ قال أنس: فقال لي رسولُ الله ﷺ: «جيءْ به». فجئتُ به إليه، فوضع يده عليه، ودعا وقال: «ما شاءَ الله!» ثم قال: «ليتحلَّق عَشَرةٌ عَشَرةٌ، وليُسمُّوا، وليأكُلْ كلُّ إنسان مما يليه». فجعلوا يُسمُّون ويأكلون، حتى أكَلُوا كلُّهم. فقال لي رسول الله ﷺ: «ارفعه». قال: فجئتُ فأخذت التَّوْر فنظرتُ فيه فلا أدري أهو حين وضعتُ أكثرُ أم حين أخذتُ؟ قال: وتخلَّف رجالٌ يتحدَّثُون في بيت رسولِ الله، وزوجُ رسول الله ـ ﷺ ـ التي دخل بها معهم مُوَلِّيَة وجهَها إلى الحائط، فأطالوا الحديثَ، فشَقُّوا على رسولِ الله ﷺ، وكان أشد الناس حياء ـ ولو عَلِمُوا كان ذلك عليهم عزيزاً ـ فقام رسول الله ﷺ، فخرج وسلَّم على حُجَره وعلى نسائه، فلما رأوه قد جَاءَ ظنُّوا أنهم قد ثَقُلوا عليه، ابتدروا البابَ فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى السِّتر، ودخل البيت وأنا

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٥٢٧/٨.

(٢) أي: تتبَّع الحُجُراتِ واحدةً واحدةً.

(٣) الأسكفة: عتبة الباب التي يوطأ عليها.

(٤) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٥٢٧/٥ ـ ٥٢٨. وتحفة الأشراف للمزي ٣٧٩/١.

(* ـ *) سقط من نسخة الحرم. وتقدَّم حديث مسلم عند تفسير الآية ٣٧ من هذه السورة.

(٦) التَّوْرُ: إناء من نحاس أو حجارة يُشْرَبُ فيه.

(٧) الصُّفَّة: موضع مُظَلَّلٌ في مسجد المدينة، وأهل الصُّفة: فقراء المهاجرين، ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه، فكانوا يأوون إليه.

في الحُجرة، فمكث رسولُ الله ـ ﷺ ـ في بيته يسيراً، وأُنزل عليه القرآنُ، فخرج وهو يقرأ هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخُلوا بيوتَ النبي إلا أن يُؤذَن لكم إلى طَعَامٍ غير ناظرين إناه ولكن إذا دُعِيتُم فادخلُوا فإذا طعِمتُم فانتشِرُوا﴾ إلى قوله: ﴿بكلِّ شيءٍ عليماً﴾. قال أنس: فقرأهُنَّ عليَّ قبل الناس، فأنا أحدثُ الناسِ بهنَّ عهداً.

وقد رواه مُسلم والتِّرمذيُّ والنَّسائي جميعاً، عن قُتَيبة، عن جعفر بن سليمانَ، به. وقال التِّرمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ. وعلَّقه البخاري في كتاب النكاح فقال: وقال إبراهيم بن طَهْمَانَ، عن الجَعْدِ أبي عُثمانَ، عن أنسٍ، فذكر نحوه. ورواه مسلم أيضاً عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، عن مَعمَرٍ، عن الجَعْدِ، به. وقد رَوَى هذا الحديثَ عبدُ الله بن المبارك، عن شَرِيكٍ، عن بَيَانِ بن بشرٍ، عن أنسٍ، بنحوه. وروى البخاري والترمذي، من طريقين آخرين، عن بَيَان بن بشر الأحمسي الكوفي، عن أنس، بنَحْوِه. ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، من حديث أبي نضرة العبديِّ، عن أنس بن مالك، بنحوه، ولم يخرجوه. ورواه ابنُ جرير من حديث عمرو بن سعيدٍ، ومن حديث الزُّهري، عن أنسٍ، بنحو[1] ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بهزٌ وهاشمُ بن القاسم قالا: حدثنا سُلَيمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: لما انقضت عدةُ زينبَ قال رسولُ الله ﷺ: «اذهب فاذكُرها عليَّ». قال: فانطلق زيدٌ حتى أتاها، قال: وهي تُخمِّر عجينها، فلما رأيتُها عَظُمت في صَدْرِي... وذكر تمام الحديث، كما قدمناه عند قوله: ﴿فلما قَضَى زيدٌ منها وطَراً﴾، وزاد في آخره بعد قوله: وَوَعظَ القوم بما وُعِظُوا به. قال هاشم في حديثه: ﴿لا تدخلُوا بيوت النبي إلا أن يؤذَن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دُعِيتم فادخلوا فإذا طَعِمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يُؤذِي النبيَّ فيستحيي منكم، والله لا يستحيي من الحق﴾[2].

وقد أخرجه مسلم والنسائي، من حديث سليمان بن المغيرة[3]، به[2].

وقال ابنُ جرير: حدثني أحمد بن عبد الرحمن ـ ابن أخي ابن وهب ـ حدثني عَمِّي عبد الله بن وهب، حدثني يونس، عن الزُّهريِّ، عن عُروَة، عن عائشةَ قالت: إن أزواجَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ كُنَّ يخرُجنَ بالليل إذا تَبرَّزن إلى المناصع ـ وهو صعيدٌ أفيَحُ[4] ـ وكان عُمَر يقول لرسول الله ـ ﷺ ـ: احجُب نساءَكَ. فلم يكن رسولُ الله ـ ﷺ ـ ليفعل، فخرجت سودةُ بنتُ زَمْعَة زوجُ النبي ـ ﷺ ـ وكانت امرأةً طويلةً، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناكِ يا سودةُ. حِرْصاً أن ينزل الحجاب، قالت: فأنزل الله الحِجَابَ[5].

هكذا وَقَع في هذه الرواية، والمشهورُ أن هذا كان بعدَ نُزولِ الحِجَاب، كما رواه الإمام أحمدُ والبخاري ومُسلم، من حديث هشام بن عُروَة، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: خَرَجت سودةُ بعد ما ضُرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأةً جَسِيمَةً لا تَخفَى على مَن يَعرفها، فرآها عُمر بن الخطاب فقال: يا سودةُ، أما وَالله ما تَخفَين علينا، فانظُري كيف تَخرُجِينَ؟ قالت: فانكَفَأَت رَاجِعةً، ورسولُ الله ﷺ في بَيْتِي، وإنه ليتعشَّى، وفي يده عَرْقٌ[6]، فدَخَلت فقالت: يا رسولَ الله، إني خَرجتُ لبعضِ حاجتي، فقال لي عُمر كذا

(١) روايتا مسلم في كتاب النكاح ٢/١٠٥١ ـ ١٠٥٢، وروايتا الترمذي في تفسير سورة الأحزاب ١٢/٩٢ ـ ٩٤. وتعليق البخاري في فتح الباري ٩/٢٢٦ ـ ٢٢٧، وحديثه عن بيان في كتاب النكاح، فتح الباري ٩/٢٣٢، وحديث النسائي في كتاب النكاح ٦/١٣٦ ـ ١٣٧ وتفسير الطبري ٢٢/٣٧ ـ ٣٨

(٢) مسند الإمام أحمد ٣/١٩٥ ـ ١٩٦، وأخرجه مسلم والنسائي في كتاب النكاح، مسلم ٢/١٠٤٨ ـ ١٠٤٩، والنسائي ٦/٧٩.

(٣) في النسخ: «من حديث جعفر بن سليمان». وهو سهو.

(٤) أي واسع.

(٥) تفسير الطبري ٢٢/٣٩.

(٦) العَرْقُ: العظمُ أخذ عنه معظم اللحم وبقي عليه لحوم رقيقة طيبة.

وكذا. قالت: فأوحى الله إليه، ثم رُفع عنه وإن العَرْقَ في يده، ما وضعه. فقال: «إنه قد أُذِن لَكُنّ أن تخرُجْن لحاجَتِكُنّ». لفظ البخاري(١).

فقولُه: ﴿لا تدخلُوا بيوتَ النبي﴾ حَظَر على المؤمنين أن يدخلُوا منازلَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ بغير إذنٍ، كما كانوا قبل ذلك يصنَعُون في بيوتهم في الجاهلية وابتداءِ الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة، ولهذا قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إياكم والدخولَ على النساء»(٢). ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿إلاّ أن يُؤذَنَ لكم إلى طَعامٍ غيرَ ناظرينَ إناهُ﴾. قال مجاهد وقتادةُ وغيرُهما: أي غير مُتحيِّنين نُضجَه واستواءه، أي: لا ترقبوا الطعام إذا طُبِخ حتى إذا قارب الاستواء تعرَّضتم للدخول، فهذا فيما يكرهُه الله ويذُمّه. وهذا دليلٌ على تحريم التَّطفُّل(٣)، وهو الذي تُسمِّيه العربُ الضيفَنَ، وقد صنَّف الخطيبُ البغداديُّ في ذلك كتاباً في ذَمِّ الطُّفَيليين وذَكَر من أخبارهم أشياء يطولُ إيرادُها.

ثم قال تعالى: ﴿ولكن إذا دُعيتم فادخلوا فإذا طَعِمْتُم فانْتَشِرُوا﴾. وفي صَحيح مسلم عن ابن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا دَعَا أحدُكم أخاه فَلْيُجِبْ، عُرْساً كانَ أو غيرَه»(٤). وأصلُه في الصحيحين. وفي الصحيح أيضاً، عن رسول الله ﷺ: «لو دُعِيتُ إلى ذِرَاعٍ لأَجَبْتُ، ولو أُهديَ إليّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ»(٥). فإذا فَرَغتم من الذي دُعيتم إليه فَخفِّفُوا عن أهل المنزل، وانتشِرُوا في الأرض. ولهذا قال: ﴿ولا مُسْتَأنِسِينَ لحديث﴾، أي: كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونَسُوا أنفُسَهم، حتى شَقّ ذلك على رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق﴾.

وقيل: المراد أنَّ دخولكم منزلَه بغير إذْنه كانَ يشُقُّ عليه ويتأذّى به، لكن كان يكرَهُ أن ينهاهم عن ذلك من شِدَّةِ حيائه عليه السلام، حتى أنزل الله عليه النهيَ عن ذلك، ولهذا قال: ﴿والله لا يَسْتَحيي من الحقِّ﴾، أي: ولهذا نَهاكُم عن ذلك وزَجرَكم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وإذا سألتموهُنّ متاعاً فاسألوهُنَّ من وراءِ حِجَابٍ﴾، أي: وكما نهيتُكم عن الدخول عليهِنّ، كذلك لا تنظُروا إليهنّ بالكُلِّية، ولو كان لأحدكم حاجةٌ يريد تناوُلَها منهن فلا ينظر إليهنّ، ولا يسألهنّ حاجةً إلا مِن وَرَاءِ حِجَابٍ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عُمَر، حدثنا سفيان، عن مِسْعَرٍ، عن موسى بن أبي كثير، عن مجاهد، عن عائشةَ قالت: كنتُ آكلُ مع النبي ـ ﷺ ـ حَيْساً في قَعْبٍ(٦) فَمَرَّ عُمَر فدعاه فأكلَ، فأصابت إصبَعُهُ إصبَعِي، فقال: حَسِّ(٧) ـ أو: أَوَّه ـ لو أُطاعُ فيكن ما رأتكُنّ عينٌ. فنزل الحِجَابُ(٨).

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٥٢٨/٨، ومسلم، كتاب السلام ١٧٠٩/٤، ومسند الإمام أحمد ٥٦/٦.

(٢) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب النكاح ٣٣٠/٩، ومسلم، كتاب السلام ١٧١١/٤.

(٣) في لنسخ: التطفيل. وتطفَّل: صار طُفَيلياً، نسبة إلى طُفيل، وهو رجلٌ من بني عبد الله بن غطفان، كان يأتي الولائم دون أن يُدعى إليها. والضَّيْفَنُ: الذي يتبع الضيف متطفلاً.

(٤) أخرجه الشيخان في كتاب النكاح، فتح الباري ٢٤٠/٩، ومسلم ١٠٥٣/٢.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، فتح الباري ٢٤٦/٩.

(٦) الحَيْس: طعام من تمر ولبن مُجفف وسمن، وقد يجعل الدقيق بدل اللبن. والقَعْبُ: القدح الضخم.

(٧) حَسِّ: كلمة تقال إذا أصاب الإنسان ما مضّه أو أحرقه غفلة.

(٨) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف للمزي ٣٩٥/١٢، والطبراني، وابن مردويه، الدر المنثور ٦٤٠/٦ ـ ٦٤١.

﴿ذلكم أطهرُ لقلوبكُم وقلوبهنَّ﴾، اي: هذا الذي أمرتكم به وشَرَعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب

وقولهُ: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسولَ الله ولا أن تنكحُوا أزواجَه من بعدِه أبداً إنَّ ذلكم كان عند الله عَظِيماً﴾، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾، قال: نزلت في رَجُل هَمَّ أن يتزوّجَ بعضَ نساءِ النبي ﷺ بعده، قال رجل لسفيان: أهي عائشةُ؟ قال: ذكروا ذاك[1].

وكذا قال مقاتل بن حَيَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السُّدي أن الذي عَزَم على ذلك طلحة بن عُبَيد الله رضي الله عنه، حتى نَزَل التنبيه على تحريم ذلك، ولهذا أجمعَ العلماء قَاطبةً على أن من تُوُفّي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرمُ على غيره تزويجُها من بعده، لأنهنَّ أزواجهُ في الدنيا والآخرة وأمَّهات المؤمنين كما تقدم. واختلفوا فيمن دَخَل بها ثم طَلَّقها في حياته هل يحلُّ لغيره أن يتزوّجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله ﴿من بعده﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طَلَّقها قبل أن يدخُلَ بها فما نعلم في حِلِّها لغيره ـ والحالة هذه ـ نزاعاً. والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنّى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا داود، عن عامر: أن نبي الله ـ ﷺ ـ مات وقد ملك قَيْلَة بنتَ الأشعث ـ يعني ابن قَيس ـ فتزوَّجها عكرمةُ بن أبي جَهل بعد ذلك، فَشَقَّ ذلك على أبي بكر مَشَقَّةً شَديدَةً، فقال له عمر: يا خليفةَ رسولِ الله، إنها ليست من نِسائه، إنه لم يُخيِّرها رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يحجُبها، وقد بَرَّأها الله منه بالردة التي ارتدَّت مع قومها. فاطمأنَّ أبو بَكْر ـ رضي الله عنهما ـ وَسَكن[2].

وقد عظم تبارك وتعالى ذلك، وشَدَّد فيه، وتوعَّد عليه بقوله: ﴿إنَّ ذلكم كان عندَ الله عَظِيماً﴾، ثم قال: ﴿إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكلِّ شيءٍ عليماً﴾، أي. مهما تُكِنُّه ضمائرُكم وتَنْطَوي عليه سرائِرُكم فإن الله يعلمه، فإنه لا تخفى عليه خافيةٌ، ﴿يعلم خائنةَ الأعيُنِ وما تُخفي الصُّدُورُ﴾.

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

لما أمر تعالى النساءَ بالحِجَاب مِن الأجانب بيَّن أن هؤلاءِ الأقاربَ لا يَجبُ الاحتجابُ منهم، كما استثناهم في سُورة النور، عند قوله: ﴿ولا يُبدِين زينتهُنَّ إلا لبعولتهنَّ أو آبائهن أو آباء بعولتهنَّ أو أبنائهنَّ أو أبناء بعولتهنَّ أو إخوانِهنَّ أو بني إخوانهنَّ أو بَني أخواتهنَّ﴾... إلى آخرها، وفيها زيادات على هذه. وقد تقدم تفسيرُها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته. وقد سأل بعضُ السلفِ فقال: لم لم يذكر العمَّ والخالَ في هاتين الآيتين؟ فأجاب عِكْرِمة والشعبيُّ بأنهما لم يذكرا، لأنهما قد يَصِفان ذلك لبنيهما.

قال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنّى، حدثنا حَجَّاج بن مِنْهال، حدثنا حَمَّاد، حدثنا داود، عن الشعبي وعكرمة في قوله: ﴿لا جناح عليهن في آبائهنَّ ولا أبنائهنَّ ولا إخوانهنَّ ولا أبناء إخوانهنَّ ولا أبناء

---

(١) أخرجه أيضاً ابن مردويه، الدر المنثور ٦/٦٤٣.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/٤١

إخوانهنّ ولا نسائهنّ ولا ما ملكت أيمانهنّ﴾، قلت: ما شأنُ العمِّ والخال لم يُذكرا؟ قال: لأنهما ينعتانها لأبنائهما. وكَرِها أن تضع خمارها عند خالها وعمِّها[1].

وقولُه: ﴿ولا نسائِهنّ﴾، يعني بذلك عَدَمَ الاحتجاب من النساء المؤمنات.

وقولُه: ﴿وما ملكت أيمانُهنّ﴾ يعني به أرقاءهُنّ من الذكور والإناث كما تقدم التنبيهُ عليه، وإيراد الحديث فيه[2].

قال سَعِيد بن المسيب: إنما يعني به الإماءَ فقط. رواه ابن أبي حاتم.

وقولُه: ﴿واتَّقِينَ الله إنّ الله كان على كُلِّ شيءٍ شهيداً﴾، أي: واخشَيْنَه في الخَلْوةِ والعَلَانِيةِ، فإنه شهيدٌ على كلِّ شيءٍ، لا تخفَى عليه خافِيةٌ، فَرَاقِبِ الرَّقِيبَ.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

قال البُخاريُّ: قال أبو العاليةِ: صلاةُ الله ثناؤُه عليه عند الملائكةِ، وصلاةُ الملائكة الدعاءُ. وقال ابن عباس: ﴿يُصَلُّونَ﴾: يُبَرِّكُونَ. هكذا علَّقه البخاريُّ عنهما[3].

وقد رَوَاه أبو جعفرٍ الرازيُّ، عن الربيع بن أَنَسٍ، عن أبي العاليةِ كذلك. ورُوِي مثله عن الربيع أيضاً وروى علي بن أبي طلحَةَ، عن ابن عباس كما قاله سواءً، رواهما ابن أبي حاتم.

وقال أبو عيسى التِّرمِذِيُّ: «ورُوِيَ عن سُفيانَ الثَّورِيّ وغيرِ واحدٍ من أهلِ العلم قالوا: صلاةُ الربِّ الرحمةُ، وصلاةُ الملائكةِ الاستغفارُ»[4].

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا عَمرو الأَوْدِيُّ، حدثنا وَكِيعٌ، عن الأعمش، عن عَمْرو بن مُرَّة قال الأعمش: أُرَاه عن عطاء بن أبي رَبَاح: ﴿إنّ الله وملائكته يُصَلُّون على النبيِّ﴾، قال: صلاته تَبَارك وتعالى: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، سَبَقت رَحْمتي غَضَبي».

والمقصودُ من هذه الآية أن الله سبحانه أخبر عبادَه بمنزلة عبده ونبيِّه عندَه في الملأ الأعلى، بأنه يُثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تُصَلِّي عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمعَ الثناءُ عليه من أهل العالَمين العُلوي والسُّفلي جميعاً.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعثَ بن إسحاق، عن جعفرٍ - يعني ابن المغيرة - عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: هل يُصَلِّي ربُّك؟ فناداه ربُّه: يا موسى، سألوكَ: هل يُصلّي ربك؟ فقل: نعم، أنا أُصَلِّي وملائكتي على أنبيائي ورُسُلي. فأنزل الله - عز وجل - على نبيه - ﷺ -: ﴿إنّ الله وملائكته يُصلُّون على النبيِّ يا أيها الذين آمنُوا صَلُّوا عليه وسَلِّمُوا تسليماً﴾.

وقد أخبر أنه سُبحانه وتعالى يُصلِّي على عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنُوا اذكُروا الله

(١) تفسير الطبري ٢٢/٤٢.
(٢) انظر تفسير الآية ٣١ من سورة النور.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٨/٥٣٢.
(٤) عارضة الأحوذي، أبواب الوتر ٢/٢٧١.

ذكراً كثيراً ۞ وسَبِّحوه بُكرةً وأصيلاً ۞ هو الذي يُصلِّي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾. وقال تعالى: ﴿وَبشِّر الصابرين ۞ الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ۞ أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون﴾. وفي الحديث: «إن الله وملائكته يُصلُّون على ميامنِ الصُّفوفِ»[١]. وفي الحديث الآخر: «اللهُمَّ، صَلِّ على آل أبي أوفى»[٢]. وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر ـ وقد سألته أن يُصلِّي عليها وعلى زَوجِها ـ: «صلى الله عليكِ وعلى زَوْجِكِ»[٣].

وقد جاءت الأحاديثُ المتواترة عن رسول الله ـ ﷺ ـ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفيَّةِ الصلاةِ عليه، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر، والله المستعان:

قال البخاريُّ عند تفسير هذه الآية: حدثنا سعيدُ بن يحيى بن سعيد، حدثنا أبي، عن مِسْعَرٍ، عن الحكم، عن ابن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرَة قال: قيل: يا رسولَ الله، أما السلامُ عليكَ فقد عَرَفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: «قولوا: اللهمَّ، صَلِّ على محمد وعلى آلِ محمدٍ كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ، اللهم، بارِك على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على آلِ إبراهيم، إنك حميد مجيد»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الحكم قال: سَمِعتُ ابنَ أبي ليلى قال: لقيني كعبُ بن عُجْرَة فقال: ألا أُهدِي لك هَدِيَّةً؟ خَرَج علينا رسولُ الله ﷺ فقلنا: يا رسولَ الله، قد عَلِمنا ـ أو: عرفنا ـ كيف السلامُ عليك، فكيفَ الصلاةُ؟ قال: «قولوا: اللهُمَّ، صلِّ على مُحمَّدٍ وعلى آل مُحمَّدٍ، كما صَلَّيت على آل إبراهيم إنك حَميدٌ مجيدٌ، اللهم، بارِك على مُحمَّدٍ وعلى آل مُحمَّدٍ، كما باركت على آل إبراهيمَ، إنك حميد مجيد»[٥].

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعةُ في كُتبهم، من طرق مُتعدِّدة، عن الحكم ـ وهو ابن عُتَيبة ـ زاد البخاريُّ: وعبد الله بن عيسى، كلاهُما عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، فذكره[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحَسَن بن عَرَفة، حدثنا هُشَيم بن بَشِير، عن يَزِيدَ بن أبي الزِّناد، حدثنا عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجْرَة قال: لما نزلت: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صَلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً﴾ ـ قال: قلنا: يا رسولَ الله، قد عَلِمنا السلامَ، فكيف الصلاةُ عليكَ؟ قال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآلِ إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم؛ إنك حميدٌ مجيدٌ». وكان عبد الرحمٰن ابن أبي ليلى يقول: «وعَلَينا معهم».

ورواه التِّرمذي بهذه الزيادة[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ١٨١/١، وابن ماجه في كتاب الإقامة ٣٢١/١.

(٢) أخرجه الشيخان في كتاب الزكاة، فتح الباري ٣٦١/٣، ومسلم ٧٥٦/٢ ـ ٧٥٧. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٠٣ من سورة التوبة.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ٨٨/٢ ـ ٨٩، والنسائي في اليوم والليلة وتقدم الحديث أيضاً عند تفسير آية التوبة ١٠٣

(٤) فتح الباري ٥٣٢/٨

(٥) مسند الإمام أحمد ٢٤١/٤ وفتح الباري، كتاب التفسير ٥٣٢/٨، وكتاب الدعوات ١٥٢/١١، وكتاب الأنبياء ٤٠٨/٦. ومسلم، كتاب الصلاة ٣٠٥/١، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢٥٧/١، وعارضة الأحوذي، أبواب الوتر ٢٦٨/٢ ـ ٢٦٩، والنسائي، كتاب السهو ٤٧/٣ ـ ٤٨، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٢٩٣/١

(٦) عارضة الأحوذي، أبواب الوتر ٢٦٨/٢ ـ ٢٦٩

ومعنى قولهم: «أما السلام عليك فقد عرفناه»، هو الذي في التشهد الذي كان يُعلِّمهم إياه، كما كان يُعلِّمهم السورةَ من القرآن، وفيه: «السلام عليك أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه».

حديثٌ آخرُ، قال البخاريُّ: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليثُ، عن ابن الهاد، عن عبد الله بن خبّاب، عن أبي سعيد الخُدري - رضي الله عنه - قال: قلنا: يا رسولَ الله، هذا السلامُ، فكيف نُصلّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد عبدِك ورسُولك، كما صلّيت على آل إبراهيم، وبارك على محمّدٍ وعلى آل مُحمّدٍ، كما باركت على آل إبراهيم». قال أبو صالح، عن الليث: «على محمد وعلى آل محمد، كما باركتَ على آل إبراهيم».

حدثنا إبراهيمُ بن حمزةَ، حدثنا ابن أبي حازم والدَّراوَرْديُّ، عن يزيد - يعني ابنَ الهاد - قال: «كما صلّيت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم»[(١)].

وأخرجه النسائيُّ وابن ماجه، من حديثِ ابن الهادِ[(١)] به.

حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: قرأتُ على عبد الرحمن: مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عمرو بن سُلَيم أنه قال: أخبرني أبو حُميد الساعديُّ أنهم قالوا: يا رسولَ الله، كيف نصلّي عليك؟ قال: «قولوا: اللهمَّ، صلِّ على محمد وأزواجه وذُرِّيته، كما صليت على [آل] إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ»[(٢)].

وقد أخرجه بقية الجماعة سوى الترمذي، من حديث مالك، به[(٢)].

حديثٌ آخرُ، قال مُسلمٌ: حدثنا يحيى بن يحيى التَّميمي قال: قرأت على مالكٍ، عن نُعيم بن عبد الله المُجْمِر، أخبرني محمد بن عبد الله بن زَيدٍ الأنصاري - قال: وعَبد الله بن زيد هو الذي كان أُري النداء بالصلاة - أخبرَه عن أبي مسعود الأنصاري - قال: أتانا رسولُ الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عُبادة، فقال له بَشير ابن سعد: أمرنا الله أن نُصلّي عليك يا رسول الله، فكيفَ نُصلّي عليك؟ قال: فسكت رسولُ الله ﷺ حتى تمنَّينا أنه لم يسأله، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «قولوا: اللهم صَلِّ على محمدٍ، وعلى آلِ محمدٍ، كما صلّيتَ على آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على مُحمّدٍ وعلى آلِ مُحمّدٍ، كما باركتَ على آل إبراهيمَ في العالمين، إنك حميدٌ مَجيدٌ، والسلامُ كما قد عُلِّمتم»[(٣)].

وقد رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، [وابن جرير][(٤)] من حديث مالك، به. وقال الترمذي: حسن صحيح[(٣)].

وروى الإمام أحمد، وأبو داودَ، والنسائي، وابن خُزيمة، وابن حِبّان، والحاكم في مستدركه، من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم التَّيمي، عن محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربِّه، عن أبي مسعود البَدْريِّ أنهم قالوا: يا رسولَ الله، أما السلام فقد عرفناه، فكيف نُصلّي عليك إذا نحنُ صلّينا في صلاتنا؟ فقال: «قولوا: اللهم، صَلِّ على محمد وعلى آل محمد» وذكره[(٥)]

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الأحزاب ٥٣٢/٨، وسنن النسائي، كتاب الصلاة، ٤٩/٣، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٢٩٢/١
(٢) مسند الإمام أحمد ٤٢٤/٥، وانظر ما أخرجه الجماعة في مواضعه حديث كعب بن عجرة المتقدم
(٣) مسلم، كتاب الصلاة ٣٠٥/١، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢٥٨/١، وعارضة الأحوذي، أبواب الوتر ٢٩٩/٢، وسنن النسائي ٤٥/٣ - ٤٦
(٤) من نسخة الحرم المكي
(٥) مسند الإمام أحمد ١١٩/٤، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢٥٨/١، وأخرجه النسائي في كتاب الصلاة من سننه الكبرى، واليوم =

ورواه الشافعي ـ رحمه الله ـ في مسنده[1] عن أبي هُرَيرَة، [بمثله]. ومن هاهنا ذهب الشافعي ـ رحمه الله ـ إلى أنه يجبُ على المصلِّي أن يُصَلِّي على رسول الله ـ ﷺ ـ في التشهد الأخير، فإن تركه لم تَصِحَّ صلاته. وقد شرَع بعضُ المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشَنِّع على الإمام الشافعي في اشتراطِه ذلك في الصلاة، ويزعمُ أنه قد تفرَّد بذلك، وحكى الإجماعَ على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطّابي وغيرهم، فيما نقله القاضي عياض[2]. وقد تعَسَّف القائلُ في ردِّه على الشافعي، وتكلَّف في دعواه الإجماع [[3-على خلافه، وقال ما لم يُحِطْ به خُبراً-[3]]، فإنه قد روَينا وُجوب ذلك والأمرَ بالصلاةِ على رسول الله ـ ﷺ ـ في الصلاة كما هو ظاهر الآية، ومُفَسَّرٌ بهذا الحديثِ عن جماعةٍ من الصحابة، منهم ابنُ مسعود، وأبو مسعود البَدْرِيُّ، وجابر بن عبد الله، ومن التابعين: الشعبيُّ وأبو جعفر الباقر، ومُقاتِل بن حَيَّان. وإليه ذَهَب الشافعي، لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، وإليه ذهب أحمدُ أخيراً فيما حكاه عنه أبو زُرعَةَ الدِّمشقي، به. وبه قال إسحاقُ بن راهَوَيه، والفقيه الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن الموَّازِ المالكيِّ[4] ـ رحمهم الله ـ حتى إنَّ بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ـ ﷺ ـ كما علَّمَهم أن يقولوا لما سألوه، وحتى إنَّ بعضَ أصحابنا أوجب الصلاة على الآل فيما حكاه البَنْدَنيجي، وسُلَيم الرازيُّ، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدِسي، ونقلَه إمامُ الحرَمَين وصاحبُه الغزالي قولاً عن الشافعي. والصحيحُ أنه وَجْهٌ، على أن الجمهورَ على خلافه، وحَكَوا الإجماع على خلافه. وللقولِ بوجوبه ظواهرُ الحديثِ، والله أعلم.

والغَرَضُ أن الشافعيَّ ـ رَحِمه الله ـ لقوله بوجوبِ الصلاةِ على النبي ـ ﷺ ـ في الصلاةِ ـ سَلَفٌ وَخَلَفٌ كما تقدم، ولله الحمد والمنة، فلا إجماع على خلافِه في هذه المسألةِ لا قديماً ولا حديثاً، والله أعلم.

ومما يؤيد ذلك الحديثُ الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داودَ والترمذي ـ وصَحَّحه ـ والنسائيُّ وابن خُزيمة، وابن حِبَّان في صَحيحَيهما، من رِوايةِ حَيوة بن شُرَيح المِصْري، عن أبي هَانِىء حُمَيد بن هانِىء، عن عمرو بن مالك أبي علي الجَنْبِيِّ، عن فَضالة بن عُبَيد ـ رضي الله عنه ـ قال: سَمِع رسولُ الله ـ ﷺ ـ رَجُلاً يدعُو في صلاته، لم يمجد الله ولم يُصَلِّ على النبي ـ ﷺ ـ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «عَجِلَ هذا». ثم دَعَاه فقال له أو لغيره: «إذا صَلَّى أحدكم فلْيَبدأ بتحميد الله ـ عز وجل ـ والثناء عليه، ثم لْيُصَلِّ على النبيِّ، ثم لْيَدْعُ بَعدُ ممَّا شاء»[5].

وكذا الحديثُ الذي رَوَاه ابنُ ماجه، من رواية عبد المُهَيمن بن عباس بن سَهل بن سعدٍ الساعديِّ، عن أبيه، عن جَدِّه، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا صلاةَ لمن لا وُضُوءَ له، ولا وُضوءَ لمن لم يَذْكُرِ اسمَ الله عليه، ولا صَلَاةَ لمن لم يُصَلِّ على النبيِّ، ولا صلاةَ لمن لا يُحِبُّ الأنصارَ»[6].

ولكنَّ عبد المُهَيمن هذا متروكٌ. وقد رواه الطبراني من رواية أخيه «أُبَيّ بن عباس»، ولكن في ذلك نظر، وإنما يعرف من رواية «عبد المهيمن»، والله أعلم[7].

= والليلة، كما في تحفة الأشراف للمزي ٧/٣٤٠، والإحسان بترتيب صحيح ابن حِبّان، كتاب الصلاة ٣/٢٠٧، والمستدرك، كتاب الصلاة ١/٢٦٨.

(١) ترتيب مسند الشافعي ١/٩٧.

(٢) الشفا ٢/٦٢٧ ـ ٦٢٨.

(٣ ـ ٣) من نسخة الحرم، ومكانه في غيرها: «على ذلك».

(٤) فقيه مقدّم من علماء القرن الثالث الهجري، وإليه انتهت رياسة المذهب المالكي، توفي في سنة ٢٨١، انظر العبر للذهبي ٢/٦٦

(٥) مسند الإمام أحمد ٦/١٨، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٧٧، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/٢١، وسنن النسائي، كتاب الصلاة ٣/٤٤ ـ ٤٥، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الصلاة ٣/٢٠٨.

(٦) سنن أبي داود، كتاب الطهارة ١/١٤٠

(٧) أخرجه الطبراني من رواية عبد المهيمن وأخيه أُبَيّ، المعجم الكبير ٦/١٢١

حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ. حدثنا يزيدُ بن هارون، أخبرنا إسماعيل، عن أبي داود الأعمى، عن بُريدة قال: قلت. يا رسولَ الله، قد علمنا كيف نُسلّم عليك، فكيف نُصلّي عليك؟ قال «قولوا: اللهم اجعل صلواتك وَرَحْمَتك وبركاتِكَ على مُحمّدٍ وعلى آل مُحمّدٍ، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ»(١).

أبو داود الأعمى اسمُه: نُفَيعُ بنُ الحارث، متروكٌ.

حديث آخر موقوفٌ رُوِّيناه من طريق سعيد بن منصور وزيد بن الحباب ويزيدَ بن هارون، ثلاثتهم عن نوح بن قيس، حدثنا سلامة الكندي: أن عَلياً ـ رضي الله عنه ـ كان يُعلِّم الناس هذا الدُّعاء: اللهم داحيَ المدْحُوّات، وباريءَ المسمُوكات(٢)، وَجَبَّار(٣) القُلُوب على فِطْرتها شَقيِّها وسعيدها، اجعَلْ شرائفَ صلواتك، ونَوامِي بركاتك، ورأْفةَ تحنُّنِكَ، [(٤)وفضائل آلائك]، على محمدٍ عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما أُغلِق، والمُعلِن الحقِّ بالحقِّ، والدامغ جَيْشَاتِ الأباطيل(٥)، كما حُمِّلَ فاضطلع(٦) بأمرك لطاعتك، مُستَوفِزاً في مرضاتك، غير نَكِلٍ في قَدَم(٧)، ولا واهِنٍ في عَزْم، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذِ أمرك، حتى أوْرَى قَبَساً لقابِسٍ(٨)، آلاء الله تَصِلُ بأهله أسبابه، به هُدِيت القلوب بعد خَوْضَاتِ الفِتَنِ والإثم، [وأنْهَجَ](٩) مُوضِحَاتِ الأعلام، ومُنِيرات الاسلام ونائرات الأحكام(١٠)، فهو أمينكَ المأمونُ، وخازِنُ عِلْمِكَ المخزون، وشهيدك يومَ الدين، وبَعِيثُكَ نِعمَةً، ورسولُك بالحق رَحمةً. اللهم افسح له مُفْسَحَات في عَدْنِك(١١)، واجزه مُضَاعَفَاتِ الخير من فضلك. مُهنّآت له غيرَ مكدرات، من فوز ثوابك المعلول(١٢) وجزيل عطائك المجمول. اللهم، أعل على بناء البانين(١٣) بُنيانه، وأكرم مَثْواه لديكَ ونُزُلَه. وأتمم له نُورَه، واجزه من ابتعاثك له مقبولَ الشهادة، مرضي المقالة، ذا منطقٍ عدلٍ، وخُطَّة فَصْلٍ، وحُجَّةٍ وبُرهانٍ عظيمٍ(١٤).

هذا مَشْهُورٌ من كلام علي ـ رضي الله عنه ـ وقد تكلّم عليه ابن قُتَيبة في مُشكِل الحَديث، وكذ أبو

(١) مسند أحمد ٥/٣٥٣.

(٢) دحا الله الأرض. بسطها. والمدحُوّات. الأرَضُون. وَسَمك الشيء: رَفَعه والمسموكات: السموات السبع.

(٣) جَبّار القلوب، مأخوذ من جَبْر العظم الكسير: إذا أصلحه، كأنه أقام القلوب وأثبتها على ما فطرها عليه من معرفته والإقرار به، شقيّها وسعيدها. وفي نهج البلاغة: «وجابل القلوب»، أي: خالقها.

(٤) عن هامش نسخة الحرم.

(٥) الجَيْشَات: جمع جَيْشة، وهي المرّةُ من الجَيْش. يقال. جاش الماء: تدفق وجَرى، وجاش البحر: هاج فلم يُستَطع رُكُوبُه. ويقال. دَمَغ فلاناً. غلبه وعلاه، وَدَمغ الحقُّ الباطلَ: محاه، وفي التنزيل: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فَيَدْمَغُهُ﴾.

(٦) في نهج البلاغة: « . قائماً بأمرك»

(٧) مستوفزاً: مسرعاً. النَكِلُ. الجبان. والقَدَم. الإقدام.

(٨) أورى النار: أوقدها. والقَبَس: الشعلة من النار.

(٩) من نسخة الحرم. وفيها. وأنهج. والذي في اللغة: نَهَج، يقال: نَهَجْتُ الطريق: أبنتُه وأوضحته. وفي نهج البلاغة. «وأقام موضحات الأعلام» وموضوحات الأعلام، من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: الأعلام المُوضِحة والأعلام. ما يستدل به على الطريق، والمُوضِحَة: المُبيِّنة

(١٠) في هامش نسخة الحرم ونيرات الأحكام. وهو نصّ نهج البلاغة. والنائرات. الواضحات البيّنات

(١١) من نسخة الحرم. وفي «عدلك». وفي غيرها: ظلك. والمثبت من الشفا للقاضي عياض.

(١٢) أي: المضاعف يعني أن ثواب الله مضاعف، ومنه العَلَل، وهو الشرب بعد الشرب.

(١٣) في نسخة الحرم: «على بناء الناس».

(١٤) هذا الأثر في نهج البلاغة، الخطبة السبعون ٨١ ـ ٨٢، ومجمع الزوائد ١٠/١٦٣ ـ ١٦٤ عن الطبراني في الأوسط والشفا للقاضي عياض ٢/٦٤٣ ـ ٦٤٤.

الحسين أحمد بن فارس اللغوي في جزء جَمَعه في فضل الصلاةِ على النبي ـ ﷺ ـ إلا أن في إسناده نظراً.

قال شيخُنا الحافظُ أبو الحجاج المِزّي: سَلامَةُ الكِنْدي هذا ليس بمعروف، ولم يُدرِك علياً[١]. كذا قال.

وقد رَوَى الحافظ أبو القاسم الطبراني هذا الأثر عن محمد بن علي الصائغ، عن سعيد بن منصور، حدثنا نوحُ ابنُ قيس، عن سَلامَةَ الكندي قال كان علي ـ رضي الله عنه ـ يُعلِّمنا الصلاةَ على النبي ـ ﷺ ـ فيقول: «اللهم، داحي المَدْحُوّات»، وذكره.

حديث آخر موقوف، قال ابن ماجه [[٢] حدثنا الحُسَين بن بَيَان-[٢]]، حدثنا زياد بن عبد الله، حدثنا المَسعُوديّ، عن عَون بن عبد الله، عن أبي فاختة، عن الأسود بن يَزيد، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا صَلَّيتُم على رسولِ الله ـ ﷺ ـ فأحسِنُوا الصلاةَ عليه؛ فإنكم لا تدرُون لعلَّ ذلك يُعرَض عليه قال: فقالوا له: فَعَلِّمنا. قال: قولوا: اللهم اجعَل صَلَواتك ورَحمتك وبَركاتك على سَيِّد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمدٍ عبدِك ورسولك، إمامِ الخير وقائدِ الخير، ورسولِ الرحمة. اللهم ابعثه مقاماً محموداً يَغبِطُه به الأولون والآخرون، اللهم صَلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صَلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ. اللهُمَّ، بارك على محمد وعلى آلِ مُحمَّدٍ، كما باركتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، إنك حميدٌ مجيدٌ[٣].

وهذا موقوف، وقد رَوَى إسماعيلُ القاضي[٤] عن عبد الله بن عَمرو ـ أو: عُمَر ـ على الشك من الراوي قريباً من هذا.

حديثٌ آخَرُ، قال ابنُ جرير. حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا أبو إسرائيلَ، عن يونس ابن خَبَّاب قال: خَطَبَنا بفارس فقال: ﴿إن الله وملائكته يُصَلُّون على النبي يا أيها الذين آمنوا صَلُّوا عليه وسَلِّموا تسليماً﴾، فقال: أنباني مَن سَمِع ابن عباس يقول: هكذا أنزل. فقلنا ـ أو: قالوا ـ: يا رسولَ الله، عَلِمنا السلامَ عليك، فكيف الصلاةُ عليك؟ فقال: «اللهمَّ، صَلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صَلَّيت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ. وارحَم محمداً وآل محمد، كما رحمت آل إبراهيم، إنك حَميدٌ مجيدٌ. وبارك على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ»[٥].

فَيستدِلُّ بهذا الحديثِ مَن ذَهب إلى جواز الترحُّم على النبي ﷺ، كما هو قول الجمهور. ويُعَضِّده حديث الأعرابي الذي قال: «اللهمَّ، ارحمني ومحمداً، ولا ترحَم معنا أحداً». فقال رسول الله ﷺ: «لقد حَجَّرت واسعاً»[٦].

وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعَه، قال: وأجازه أبو محمد بن أبي زيد[٧].

حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا شعبة، عن عاصم بن عُبَيد الله قال:

---

(١) انظر ترجمة سلامة الكندي في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/٣٠٩.

(٢ ـ ٢) سقط من النسخ، والمثبت من سنن ابن ماجه، وفيها. الحسن بن بيان وهو تحريف.

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة ١/٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٤) إسماعيل بن إسحق الأزدي، أبو إسحق. كان حافظاً فقيهاً مالكياً، أصله من البصرة، ونشأ ببغداد، توفي في سنة ٢٨٢. له مصنفات في التفسير والحديث والفقه، ومنها كتاب في الصلاة على النبي ﷺ، ذكره ابن خير في فهرسته ٣٠٤. انظر البداية والنهاية ١١/٧٧، وتاريخ بغداد ٦/٢٨٤، والعبر للذهبي ٢/٦٧.

(٥) تفسير الطبري ٢٢/٤٣ ـ ٤٤. وقد سقط من طبعة الطبري الدعاء بالرحمة.

(٦) أخرجه البخاري، فتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٤٣٨.

(٧) الشفا للقاضي عياض ٢/٦٤٩.

سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يُحدِّث عن أبيه قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من صلى عليّ صلاةً لم تزل الملائكةُ تُصلّي عليه ما صلى عليّ، فليُقِلَّ عبدٌ من ذلك أو ليُكثِر»[١].

ورواه ابن ماجه، من حديث شعبة، به[١].

حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو سَلَمة منصور بن سَلَمة الخُزاعي، ويونس هو ابن محمد قالا: حدثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبي عمرو، عن أبي الحُوَيرث، عن محمد بن جُبير بن مُطعِم، عن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ فاتبعته حتى دخل نخلاً، فسجد فأطال السجودَ، حتى خفت ـ أو: خشيت ـ أن يكون الله قد توفّاه أو قبضه. قال: فجئت أنظر، فرفع رأسه فقال: «ما لَكَ يا عبدَ الرحمن؟» قال: فذكرت ذلك له فقال: «إن جبريل ـ عليه السلام ـ قال لي: ألا أُبشِّرك؟ إن الله ـ عز وجل ـ يقول: من صلّى عليك صلّيتُ عليه، ومن سلّم عليك سلّمتُ عليه»[٢].

طريقٌ أُخرَى، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا عمرو ابن أبي عمرو، عن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ فتوجّه نحو صَدَقته، فدخل فاستقبل القبلة، فخرّ ساجداً، فأطال السجود، حتى ظننتُ أن الله قد قبضَ نفسَه فيها، فدنوتُ منه ثم جلستُ، فرفع رأسَه فقال: «مَن هذا؟» قلتُ: عبدُ الرحمن. قال: «ما شأنُك؟» قلت: يا رسولَ الله، سجدتَ سجدةً خشيت أن يكون الله ـ عزّ وجل ـ قبض نفسَك فيها. فقال: «إن جبريلَ أتاني فبشّرني أن الله ـ عزّ وجلّ ـ يقول: مَن صلّى عليكَ صلّيتُ عليه، ومن سلّم عليكَ سلّمتُ عليه فسجدتُ لله ـ عزّ وجلّ ـ شكراً»[٢].

[[٣]ورواه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه عن يحيى بن عبد الحميد، عن الدَّرَاوَرْدِي، عن عمرو، عن عبد الواحد بن محمد، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف، به. ورواه من وجه آخر عن عبد الرحمن بن عوف[٣]].

حديث آخرُ، قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بُجير بن عبد الله بن معاوية بن بجير بن رَيسان حدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا عبد الله بن عمر، عن الحَكَم بن عُتَيبة، عن إبراهيم النخعيّ، عن الأسود بن يزيد، عن عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه ـ قال: خرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ لحاجةٍ فلم يجد أحداً يتبَعُه، ففَزِع عُمَر، فأتاه بمِطْهَرة[٤] من خلفِه، فوجد النبي ـ ﷺ ـ ساجداً في مَشْرُبة[٥]، فتنحّى عنه من خلفه حتى رَفَع النبي ـ ﷺ ـ رأسه، فقال: «أحسنت يا عُمَر حين وجدتني ساجداً فتنحّيت عنّي، إن جبريل أتاني فقال: مَن صَلّى عليكَ من أُمّتِك واحدةً صلّى الله عليه عشراً، ورفعه عشر درجاتٍ».

وقد اختار هذا الحديثَ الحافظُ الضياءُ المقدسيُّ في كتابه «المستخرج على الصحيحين». وقد رواه إسماعيلُ القاضي، عن القَعْنَبي، عن سَلَمة بن وَرْدان، عن أنس، عن عُمَر، بنحوه. ورواه أيضاً عن يعقوب بن حُمَيد، عن أنس بن عياض، عن سَلَمة بن وَرْدان، عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن عُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(١) مسند الإمام أحمد ٣/٤٤٥، وسنن ابن ماجه، كتاب الإقامة ١/٢٩٤
(٢) مسند الإمام أحمد ١/١٩١
(٣ ـ ٣) عن نسخة الحرم
(٤) المِطْهَرَة: ما يتوضأ به، وكل إناء يُتطهّر منه، كالإبريق والسَّطل وما يُتطهّر به
(٥) المَشْرُبَة: مثل الصُّفّة (وهي الظُّلّة) بين يدي الغرفة

حديثٌ آخرُ، قال أبو عيسى الترمذي حدثنا بُندارٌ، حدثنا محمد بن خالد بن عَثْمَة، حدثني موسى بن يعقوب الزَمْعي، حدثني عبد الله بن كَيسان، أن عبد الله بن شَدّاد أخبره، عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أولَى الناس بي يومَ القيامةِ أكثرُهم عليَّ صلاةً».

تَفرَّد بروايته الترمذيُّ ـ رَحِمه الله ـ ثم قال: «هذا حَديثٌ حسنٌ غريبٌ»[1].

حديثٌ آخرُ، قال إسماعيلُ القاضي حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن يعقوب بن زيد بن طلحة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «أتاني آتٍ من ربِّي فقال لي. ما من عبد يُصَلِّي عليك صلاةً إلا صلّى الله عليه عشراً». فقام رجل فقال: يا رسول الله، ألا أجعلُ نصف دُعائي لك؟ قال: «إن شئتَ». قال: ألا أجعلُ ثلثي دعائي لك؟ قال: «إن شئتَ». قال: ألا أجعلُ دُعائي لكَ كُلَّه؟ قال: «إذن يكفيكَ الله همَّ الدنيا وهمَّ الآخرةِ». فقال شيخٌ ـ كان بمكة، يقال له. مَنيع[2] ـ لسفيان: عمن أسندَهُ؟ قال: لا أدري.

حديث آخر، قال إسماعيل القاضي: حدثنا سعيد بن سلام العطار، حدثنا سفيان ـ يعني الثَّوري ـ عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطُفَيل بن أُبي بن كعب، عن أبيه قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يخرج في جوف الليل فيقول: «جاءت الراجفةُ، تَتبعها الرادفةُ، جاء الموتُ بما فيه». قال أبي: يا رسولَ الله، إني أُصَلِّي من الليل، أفأجعل لك ثُلُثَ صلاتي؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «الشطرُ». قال: أفأجعل لك شطر صَلاتي؟ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الثلثان» قال: أفأجعل لك صلاتي كلَّها؟ قال: «إذن يغفرُ الله لك ذنبَكَ كُلَّه».

وقد رواه التِّرمذي بنحوه فقال: حدثنا هَنّاد، حدثنا قَبيصةُ، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عَقيل، عن الطُفَيل بن أُبي بن كعب، عن أبيه قال. كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناسُ، اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفةُ تتبعها الرادفةُ، جاء الموت بما فيه، جاء الموتُ بما فيه». قال أُبيٌّ. قلتُ. يا رسول الله، إني أُكثرُ الصَّلاة عليك، فكم أجعلُ لك من صَلاتي؟ قال: «ما شئتَ». قلت. الربعُ؟ قال: «ما شئتَ، فإن زدتَ فهو خير لك». قلت: فالنصفُ؟ قال: «ما شئتَ، فإن زِدْتَ فهو خير لك». قلت: فالثلثين؟ قال: «ما شئتَ، فإن زِدْتَ فهو خير لك». قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن تُكفَى هَمَّك، ويُغفَرُ لك ذنبُك».

ثم قال: «هذا حديثٌ حَسَن»[3].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطُفَيل بن أُبي، عن أبيه قال: قال رجل: يا رسول الله، أرأيتَ إن جعلتَ صلاتي كُلَّها عليكَ؟ قال: «إذن يكفيكَ اللهُ ما أهَمَّك من دُنياكَ وآخرَتِكَ»[4].

حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو كامل، حدثنا حَمّاد بن سلمة، عن ثابت، عن سليمان مولى الحسن بن علي، عن عبد الله بن أبي طَلحة، عن أبيه: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ جاء ذات يوم، والسرور يُرَى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله، إنا لنرى السرورَ في وجهك. فقال: «إنه أتاني المَلَك فقال: يا محمدُ، أما يُرضيك

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب الوتر ٢/٢٦٩

(٢) في نسخة الحرم: منيع. وفي الأزهرية: نسيع. وما اثبت عن الطبعات السابقة

(٣) عارضة الأحوذي، أبواب صفة القيامة ٩/٢٨٠ - ٢٨١

(٤) مسند الإمام أحمد ٥/١٣٦

أن ربَّكَ ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: إنه لا يُصلِّي عليك أحدٌ من أمتك إلا صلَّيتُ عليه عشراً، ولا يُسلِّم عليك أحدٌ من أُمَّتِكَ إلا سَلَّمتُ عليه عشراً؟ قال: بلى»[1].

ورواه النسائي من حديث حمَّاد بن سلمة، به[1]. وقد رواه إسماعيلُ القاضي، عن إسماعيل بن أبي أُوَيس، عن أخيه، عن سُليمانَ بن بلال، عن عُبيد الله بن عمر، عن ثابت، عن أنس، عن أبي طلحة، نحوه.

طريقٌ أخرى، قال أحمد: حدثنا سُريج، حدثنا أبو معشر، عن إسحاق بن كعب بن عُجْرة، عن أبي طَلْحَة الأنصاري قال: أصبحَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً طيِّبَ النفس، يُرَى في وجهه البِشْرُ، قالوا: يا رسولَ الله، أصبحتَ اليوم طَيِّبَ النفس، يُرَى في وجهك البشر؟ قال: «أجل، أتاني آتٍ من ربي ـ عزَّ وجلَّ ـ فقال: من صلَّى عليك من أمَّتك صلاةً كَتَب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيِّئات، ورفع له عشر درجات، وردَّ عليه مثلها»[2].

هذا أيضاً إسنادٌ جيدٌ، ولم يُخرِّجوه.

حديث آخر، رَوَى مسلم وأبو داودَ والترمذيُّ والنسائي، من حديث إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمٰن، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من صلَّى عليَّ واحدةً صَلَّى الله عليه عشراً»[3].

قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسن صحيح، وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف، وعامر بن ربيعة، وعمَّار، وأبي طلحة، وأنس، وأُبي بن كَعْب»[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شريك، عن لَيْث، عن كعب، عن أبي هُريرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «صلُّوا عَلَيَّ فإنها زكاةٌ لكم، وسَلُوا الله لي الوَسِيلَة، فإنها درَجَةٌ في أعلى الجنة، لا ينالها إلا رجلٌ، وأرجو أن أكون أنا هو»[4].

تَفَرَّد به أحمدُ [(٥) وقد رواه البَزَّارُ من طريق مجاهد، عن أبي هُرَيرة، بنحوه فقال:

حدثنا محمد بن إسحاق البَكَّالي، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا داود بن عُلَيَّة، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلُّوا عليَّ فإنها زكاة لكم، وسلوا الله لي الدرجة الوسيلة من الجنة فسألناه ـ أو: أخبرنا ـ فقال: هي درجة في أعلى الجنة، وهي لرجل، وأنا أرجو أن أكون ذلك الرجل».

في إسناده بعضُ من تُكُلِّمَ فيه (٥)].

حديثٌ آخَرُ، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهيعة، [(٦) عن عبد الله بن هبيرة (٦)]، عن عبد الرحمٰن بن مُرَيح الخَوْلاني، سَمِعتُ أبا قيس ـ مولى عمرو بن العاص ـ سَمِعت عبد الله بن عَمرو يقول: من صَلَّى على رسولِ الله ـ ﷺ ـ صلاةً، صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاةً، فَلْيُقِلَّ عبدٌ من

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٣٠، وسنن النسائي، كتاب الصلاة ٣/٤٤، ٥٠.
(٢) مسند أحمد ٤/٢٩.
(٣) مسلم، كتاب الصلاة ١/٣٠٦، وسنن أبي داود، كتاب الوتر ٢/٨٨، وعارضة الأحوذي، أبواب الوتر ٢/٢٧٠، والنسائي، كتاب الصلاة ٣/٥٠.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٣٦٥.
(٥ ـ ٥) سقط من نسخة الحرم.
(٦ ـ ٦) سقط من النسخ. والمثبت من المسند.

ذلك أو لِيَكْثِرْ. وسَمعتُ عبد الله بن عمرو يقول: خَرَجَ علينا رسول الله ـ ﷺ ـ يوماً كالمودِّع فقال: «أنا محمد النبي الأميّ ـ قاله ثلاثَ مراتٍ ـ ولا نبيَّ بعدي، أُوتيتُ فَوَاتِحَ الكَلامِ وخَواتِمَه وجَوامِعَه، وعَلِمْتُ كم خزنةُ النار وحَملةُ العرشِ، وتُجُوِّزَ بي، عُوفِيتُ وعُوفِيَتْ أُمَّتِي، فاسمَعُوا وأطيعوا ما دُمْتُ فيكم، فإذا ذُهِبَ بي فعليكم بكتابِ الله، أَحِلُّوا حَلاَلَه، وحَرِّموا حَرَامَه»(١).

حديث آخر، قال أبو داود الطَّيالِسي: حدثنا أبو سَلَمة الخُرَاساني، حدثنا أبو إسحاق، عن أنس قال. قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ. «مَن ذُكرت عنده فَلْيصلِّ عليَّ، ومَن صَلَّى عليَّ مرةً واحدةً صلَّى الله عليه عشراً»(٢).

ورواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث أبي داودَ الطَّيالسي، عن أبي سَلَمة ـ وهو المغيرة بن مُسلِم الخُراساني ـ عن أبي إسحاق عَمرو بن عبد الله السَّبيعي، عن أنس، به.

حديث آخر عن أنس، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فُضَيل، حدثنا يونس بن عَمرو ـ يعني يونُسَ ابن أبي إسحاقَ ـ عن بُرَيدِ بن أبي مَريمَ، عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن صلَّى عليَّ صلاةً واحدةً صلَّى الله عليه عشرَ صَلَواتٍ، وحَطَّ عنه عشرَ خَطِيئَاتٍ»(٣).

حديثٌ آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الملك بن عَمرو وأبو سعيد: حدثنا سليمان بن بلال، عن عُمارة بن غَزِيَّة، عن عبد الله بن علي بن الحسين، [عن أبيه علي بن الحسين] عن أبيه: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «البخيلُ من ذُكِرت عنده ثم لم يُصَلِّ عليَّ»(١). وقال أبو سعيد: «فلم يُصَلِّ عليَّ».

ورواه الترمذي من حديث سليمان بن بلال، ثم قال: «هذا حديث حسن غريب صحيح»(٤). ومِنَ الرواة مَن جعله من مُسند «الحسين بن علي»، ومنهم من جعله من مُسنَدِ «علي» نفسه.

حديث آخرُ، قال إسماعيلُ القاضي: حدثنا حَجَّاج بن مِنهالٍ، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، عن معبد بن هلال العَنَزِيِّ، حدثني رجلٌ من أهلِ دمشقَ، عن عوف بن مالك، عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن أبخل الناس من ذُكِرْتُ عِندَه فلم يُصَلِّ عليَّ».

حديث آخر مرسل، قال إسماعيل: وحدثنا سليمان بن حَرب، حدثنا جَرير بن حازم، سَمِعتُ الحسن يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بحسب امرئٍ من البخل أن أُذكَر عنده فلا يُصلِّي عليَّ». صَلَّى الله عليه وسلَّم.

حديث آخر، قال الترمذي: حدثنا أحمدُ بن إبراهيمَ الدَّورَقي، حدثنا رِبْعي بن إبراهيم، عن عبد الرحمٰن ابن إسحاق، عن سَعيد بن أبي سَعيد المَقبُري، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «رغم أنفُ رجلٍ ذُكِرتُ عنده فلم يُصَلِّ علي. ورَغِمَ أنفُ رَجلٍ دَخَلَ عليه شهرُ رمضانَ ثم انسلخ قبل أن يُغفَرَ له، ورَغِمَ أنفُ رجلٍ أدرك عنده أبواه الكِبَرَ فلم يُدخِلاه الجنةَ». ثم قال: «حسن غريب»(٥).

قلتُ: وقد رَوَاه البُخاريَ في الأدب، عن محمد بن عُبَيد الله، حَدَّثنا ابنُ أبي حازم، عن كَثير بن زيد،

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٢، وتقدم عند تفسير الآية ٤٠ من هذه السورة.

(٢) مسند أبي داود الطيالسي ٢٨٣.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/١٠٢.

(٤) مسند الإمام أحمد ١/٢٠١، وما بين القوسين عن الترمذي وقول أبي سعيد غير ثابت في طبعة المسند، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/٦٢ ـ ٦٣.

(٥) عارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/٦٢ والأدب المفرد ٢٨٠ وقد تقدم عند تفسير آية الإسراء ٢٤.

عن الوليد بن رباح، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً، بنحوه. ورواه من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هُرَيرَة، به. قال الترمذي: «وفي الباب عن جابر وأنس»[(١)].

قلت: وابن عباس، وكعب بن عُجرَة، وقد ذكرتُ طُرُق هذا الحديثِ في أول كتاب الصيام، وعند قوله تعالى: ﴿إما يَبلُغَنَّ عندك الكِبَرَ﴾.

وهذا الحديث والذي قبله دليلٌ على وجُوب الصلاة عليه ـ ﷺ ـ كُلَّما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء، [(٢-منهم الطَّحاويُ والحليمي-٢)]. ويتقوَّى بالحديث الآخر الذي رواه ابنُ ماجه:

حدثنا جُبَارة بن المُغَلِّس، حدثنا حَمَّاد بن زيد، حدثنا عَمرو بن دينار، عن جابر بنِ زَيدٍ، عن ابن عَبَّاس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن نَسِيَ الصلاةَ عَلَيَّ خَطِىءَ طريق الجنة»[(٣)].

جُبارة ضعيفٌ ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من نَسِيَ الصلاةَ عليَّ خَطِىءَ طريق الجنة»: وهذا مرسل يتقوى بالذي قبله. والله أعلم.

وذهب آخرون إلى أنه تَجِبُ الصلاة في المجلس مَرَّةً واحِدَةً، ثم لا تَجِبُ في بقيةِ ذلك المجلس، بل تُستَحَبُّ. نقله الترمذي عن بَعضِهم، ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي:

حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا عبدُ الرحمٰن، حدثنا سُفيانُ، عن صالح ـ مولى التَّوأمَةِ ـ عن أبي هُرَيرَة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما جلَسَ قومٌ مَجلِساً لم يذكُروا الله فيه، ولم يُصَلُّوا على نَبِيِّهم، إلا كان عليهم تِرَةً، فإن شاء عَذَّبهم، وإن شاء غفَر لهم»[(٤)].

تَفَرَّد به الترمذيُّ من هذا الوجه [(٥-ورواه الإمام أحمد[(٦)] عن حجَّاج ويزيدَ بن هارونَ، كلاهُما عن ابن أبي ذِئْب، عن صالح ـ مولى التَّوأَمَةِ ـ عن أبي هُرَيرَة، مرفوعاً مثله-٥)] ثم قال [الترمذي][(٥)]. «هذا حديث حسن»[(٤)]. وقد رُوِيَ عن أبي هريرة، عن النبي ـ ﷺ ـ من غير وجه، وقد رواه إسماعيلُ القاضي من حديث شُعبة، عن سليمان، عن ذَكوَانَ، عن أبي سَعيد قال: «ما من قوم يقعدُون ثم يقومُون ولا يُصَلُّون على النبي ـ ﷺ ـ إلا كان عليهم يوم القيامة حَسرةً، وإن دخلوا الجنةَ يرون الثواب».

وحُكِيَ عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ـ ﷺ ـ في العُمُر مرةً واحدةً، امتثالاً لأمر الآية، ثم هي مستحبة في كلِّ حال. وهذا هو الذي نصره القاضي عياضٌ بعدما حكى الإجماعَ على وُجوب الصلاة عليه ـ ﷺ ـ في الجملة. قال: «وقد حكى الطَّبَرِيّ أن مَحمَلَ الآيةِ على الندب، وادَّعى فيه الإجماعَ. قال: ولعله فيما زادَ على المرةِ، والواجبُ منه مرةٌ كالشهادة له بالنبوة، وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّبٌ فيه من سُنَنِ الإسلام، وشِعَار أهله»[(٧)].

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ٦٢/٣. والأدب المفرد ٢٨٠ وقد تقدم عند تفسير آية الإسراء ٥٤.

(٢ ـ ٢) عن نسخة الحرم.

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة ٢٩٤/١. وخَطِىءَ طريق الجنة: لم يُصِبه، ولم يهتد إليه. وذلك لأن الأعمال الصالحة طريق إلى الجنة، والصلاة من جملتها، فتركها كُلِّيَةً تَرْكٌ لطريق الجنة.

(٤) عارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ٢٧٢/١٢. ويقول الترمذي: «ومعنى قوله: تِرَةً: حَسْرَةً وندامة. وقال بعض أهل العلم بالعربية: التِّرَةُ هو الثأر».

(٥ ـ ٥) سقط من نسخة الحرم.

(٦) مسند الإمام أحمد ٤٥٣/٢.

(٧) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ٦٢٧/٢.

قلت: وهذا قولٌ غريبٌ، فإنه قد ورد الأمرُ بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجبٌ ومنها مستحبٌ على ما نُبيِّنه، فمنه بعد النداء للصلاة للحديث الذي رَواه الإمامُ أحمدُ:

حدثنا أبو عبد الرحمٰن، حدثنا حَيْوَةُ، حدثنا كعبُ بن علقمةَ، أنه سَمع عبد الرحمٰن بن جُبَير يقول: إنه سَمِع عبد الله بن عَمرو بن العاص يقولُ: إنه سَمع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إذا سَمِعتم مؤذناً فقولوا مثلَ ما يقولُ، ثُمَّ صلُّوا عليَّ، فإنه من صَلّى عَليَّ [صلاةً] صلى الله عليه بها عشراً، ثم سَلُوا لي الوَسيلة، فإنها منزلةٌ في الجنَّةِ لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجُو أن أكونَ أنا هو، فمن سَأَل لي الوَسِيلَةَ حَلَّت عليه الشفاعةُ»[1]

وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث كعب بن عَلْقَمةَ.

طريق أخرى، قال إسماعيلُ القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا عُمر بن علي، عن أبي بكر الجُشَمي، عن صفوان بن سُلَيم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن سَأَل الله لي الوسيلة حقَّت عليه شفاعتي يوم القيامة».

حديث آخر، قال إسماعيلُ القاضي: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا سعيد بن زيد، عن ليث، عن كعب ـ وهو كعب الأحبار ـ عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «صلُّوا عليَّ، فإنَّ صلاتكُم عليَّ زكاة لكم، وسَلُوا الله لي الوسيلة». قال: فإما حدَّثنا وإما سَألناه، فقال: «الوَسيلةُ أعلى درجةٍ في الجنة، لا ينالُها إلا رجل، وأرجو أن أكون أنا ذلك الرجل».

ثم رواه عن محمد بن أبي بكر، عن مُعتمر، عن لَيث ـ وهو ابن أبي سُلَيم ـ به. وكذا الحديث الآخر.

قال الإمام أحمد: حدثنا حَسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعةَ، حدثنا بكر بن سَوَادة، عن زياد بن نُعَيم، عن وفاءٍ الحضرمي، عن رُوَيفع بن ثابتٍ الأنصاري: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «من صلَّى على مُحمَّدٍ وقال: اللهمَّ، أنْزِله المقعَدَ المقرَّبَ عندك يوم القيامة، وَجبت له شفاعتي»[2].

وهذا إسنادٌ لا بأسَ به، ولم يُخرجُوه.

أثرٌ حَسَنٌ، قال إسماعيل القاضي: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا، سفيان، حدثني معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، سَمِعت ابنَ عباس يقول: اللهمَّ تقبَّل شفاعةَ محمَّدٍ الكُبرى، وارفَع درجَته العليا، وأعطه سُؤْله في الآخرة والأولى، كما آتيت إبراهيم وموسى عليهما السلام. إسنادٌ جَيِّدٌ قويٌّ صحيحٌ.

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه، للحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ليث بن أبي سليم، عن عبد الله بن الحسن، عن أمه فاطمة بنت الحُسين، عن جدته فاطمة بنت رسول الله ـ ﷺ ـ قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا دخل المسجد صَلَّى على محمد وسلَّم وقال: «اللهمَّ، اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبوابَ رحمتك». وإذا خَرج صلَّى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهمَّ، اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك»[3].

وقال إسماعيل القاضي: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا سيفُ بن عُمَر التميمي، عن سليمان

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٦٨/٢، وما بين القوسين عنه. وأخرجه مسلم وأبو داود في كتاب الصلاة، مسلم ٢٨٢/١ ـ ٢٨٣، وأبو داود ١٤٤/١، والنسائي في كتاب الأذان ٢٥/٢ ـ ٢٦ والترمذي في أبواب المناقب، عارضة الأحوذي ١٠١/١٢ ـ ١٠٢

(٢) مسند الإمام أحمد ١٠٨/٤

(٣) مسند الإمام أحمد ٢٨٢/٦

الضبي، عن علي بن الحسين قال. قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ. إذا مررتم بالمساجد فصلّوا على النبيّ ﷺ.

وأما الصلاةُ عليه ـ ﷺ ـ في الصلاة، فقد قدَّمنا الكلام عليها في التشهُّد الأخير، ومَن ذهب إلى ذلك من العلماء منهم الشافعي وأحمد وأما التشهُّد الأول فلا تجب فيه قولاً واحداً، وهل تُستحبُّ؟ على قولين للشافعي.

ومن ذلك الصلاة عليه ـ ﷺ ـ في صلاةِ الجنازة، فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحةَ الكتاب، وفي الثانية يُصَلِّي على النبي ﷺ، وفي الثالثة يدعُو للميِّت، وفي الرابعة يقول: اللهُمَّ، لا تحرمنا أجره، ولا تَفتنَّا بعدَه.

قال الشافعي رحمه الله: حدثنا مُطرِّف بن مازن، عن معمَر، عن الزُّهريِّ: أخبرني أبو أمامة بنُ سهل بن حُنَيف أنه أخبره رجلٌ من أصحابِ النبيِّ ـ ﷺ ـ: أن السنةَ في الصلاة على الجنازة أن يكبِّر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سِرّاً في نفسه، ثم يصلي على النبي ـ ﷺ ـ ويخلص الدُّعاء للجنازة، في التكبيرات لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سِرّاً في نفسه[1].

ورواه النسائي، عن أبي أمامة نفسِه أنه قال: من السنة، فذكره[1]. وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح. ورواه إسماعيلُ القاضي، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن معمَر، عن الزُّهري، عن أبي أمامة بن سهل، عن سَعِيد بن المسيَّب أنه قال: السنةُ في الصلاة على الجنازة... فذكره. وهكذا رُوِيَ عن أبي هُرَيرة، وابن عُمَر، والشعبي.

ومن ذلك في صلاة العيد، قال إسماعيل القاضي: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدستَوائي، حدثنا حَمَّاد بن أبي سُلَيمان، عن إبراهيم، عن عَلْقَمة: أن ابن مسعود وأبا مُوسَى وحُذَيفة خَرَجَ عليهم الوليد ابن عُقبَةَ قبل العيد يوماً، فقال لهم: إنَّ هذا العيد قد دنا، فكيفَ التكبيرُ فيه؟ قال عبد الله: تَبدأ فتكبِّر تكبيرةً تَفتَتِحُ بها الصلاة، وتَحمدُ ربَّك، وتُصَلِّي على النبي ﷺ، ثم تدعو، وتكبر وتفعَلُ مثل ذلك، ثم تُكبِّر وتفعل مثل ذلك، ثم تُكبِّر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تُكبِّر وتركع، ثم تقومُ فتقرأ وتَحمَدُ ربكَ وتصلِّي على النبي ـ ﷺ ـ ثم تدعو وتكبر، وتفعل مثلَ ذلك، ثم تركع. فقال حذيفة وأبو موسى: صَدَق أبو عبد الرحمن. إسنادُه صحيح.

ومن ذلك أنه يُستَحَبُّ ختمُ الدعاءِ بالصلاةِ عليه ﷺ، قال الترمذي:

حدثنا أبو داود، أخبرنا النضر بن شُمَيل، عن أبي قُرَّة الأسَدِيّ، عن سَعِيد بن المسيب، عن عُمَر بن الخطاب قال: الدعاءُ موقوفٌ بين السماء والأرض، لا يصعد منه شيءٌ حتى تُصَلِّي على نبيك[2].

وهكذا رواه أيوب بن موسى، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، قوله ورواه معاذ بن الحارث، عن أبي قُرَّة، عن سعيد بن المسيب، عن عُمَر مرفوعاً، وكذا رواه رَزِين بن معاوية في كتابه مرفوعاً، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الدعاءُ موقوفٌ بين السماء والأرض، لا يصعَدُ حتى يُصَلَّى عليَّ، فلا تجعلوني كغُمَرِ الراكبِ[3]، صَلُّوا عليَّ أول الدعاءِ وأوسَطه وآخره».

(١) ترتيب مسند الشافعي ١/٢١٠ ـ ٢١١، وسنن النسائي، كتاب الجنائز ٤/٧٥.

(٢) عارضة الأحوذي، أبواب الوتر ٢/٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٣) الغُمَرُ: القدح الصغير. وهو كالزيادة بالنسبة إلى الرحل، لا يُهتَمُّ به. وسيرد شرح ذلك في حديث عبد بن حميد التالي.

وهذه الزيادةُ إنما تُروى من رواية جابر بن عبد الله في مُسندِ الإمام عبد بن حُمَيد الكَشّي قال: حدثنا جعفرُ بن عَونٍ، أخبرنا موسى بن عُبَيدة، عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه قال: قال جابر. قال لنا رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تجعلوني كَقَدَح الراكب، إذا عَلّق تعاليقَه أخذ قدَحَه فملأه من الماء، فإن كان له حاجةٌ في الوضوء تَوَضّأ، وإن كان له حاجةٌ في الشُّرب شَرِبَ، وإلا أهْرَاقَ ما فيه. اجعلوني في أول الدُّعاءِ، وفي وَسَط الدُّعاء، وفي آخر الدُّعاءِ».

فهذا حديثٌ غريبٌ، وموسى بن عُبَيدة ضعيفُ الحديث.

ومن آكَدِ ذلك دعاءُ القُنوتِ، لما رواه الإمامُ أحمد وأهل السُّنَن، وابنُ خُزَيمة، وابن حِبّان، والحاكِمُ، من حديث أبي الجَوزاء، عن الحسن بن علي ـ رَضِيَ الله عنهما ـ قال: علَّمَني رسول الله ـ ﷺ ـ كلمات أقولُهنّ في الوِتْر: «اللهم اهدِني فيمن هَدَيت، وعافِني فيمن عافَيتَ، وتَوَلَّني فيمن تَوَلَّيت، وبارِك لي فيما أعطيتَ، وقِني شرَّ ما قضيت، فإنك تقضِي ولا يُقضَى عليك، إنه لا يذِلُّ من واليت، ولا يعزُّ من عاديت، تباركت ربَّنا وتَعاليتَ»[1]. وزاد النسائي في سُنَنه بعد هذا: وصَلَّى الله على النبيِّ محمدٍ.

وَمِن ذلك أنه يُستَحبُّ الإكثارُ من الصلاة عليه يومَ الجمعة وليلةَ الجُمُعةِ، قال الإمام أحمدُ:

حدثنا حُسَين بن علي الجُعفي: عن عبد الرحمٰن بن يزيدَ بن جابر، عن أبي الأشعثِ الصنعاني، عن أوس بن أوسٍ الثقفي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مِن أفضلِ أيامكم يومُ الجُمُعة، فيه خُلِقَ آدم، وفيه قُبِض، وفيه النفخةُ، وفيه الصعْقَةُ، فأكثروا عليَّ مِنَ الصَّلاة فيه، فإنّ صَلاتَكم معروضةٌ عليَّ». قالوا: يا رسولَ الله، وكيف تُعرَضُ عليك صلاتُنا وقد أرَمْتَ[2]؟ ـ يعني وقد بَليتَ ـ قال: «إن الله حَرّم على الأرض أن تأكُلَ أجساد الأنبياء»[3].

ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من حديث حسين بن علي الجعفي[3]. وقد صَحّح هذا الحديث ابنُ خُزَيمةَ، وابن حِبّان، والدارقطني، والنوويُّ في الأذكار[3].

حديث آخر، قال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا عمرو بن سَوّاد المِصري، حدثنا عبد الله بن وَهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أيمن، عن عُبَادة بن نُسَيٍّ، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا الصلاة عليَّ يومَ الجُمعة، فإنه مشهودٌ تشهدُه الملائكةُ. وإن أحداً لن يُصَلِّي عليَّ إلا عُرِضَت عَلَيَّ صلاتُه حتى يَفرُغَ منها». قال قلتُ: وبعدَ الموتِ؟ قال: [وبعد الموت]، إن الله حَرّم على الأرض أن تأكلَ أجساد الأنبياء، فَنبيُّ الله حَيٌّ يُرزَقُ»[4].

هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه، وفيه انقطاع بين عُبادة بن نُسَيٍّ وأبي الدرداء، فإنه لم يدركه، والله أعلم.

---

(١) مسند أحمد ١/١٩٩، وأخرجه أهل السنن في كتاب الصلاة، سنن أبي داود ٢/٩٣، وعارضة الأحوذي ٢/٢٥٠ ـ ٢٥١، والنسائي ٣/٢٤٨، وابن ماجه ١/٣٧٢، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الرقاق ٢/١٤٨. والمستدرك، كتاب معرفة الصحابة ٣/١٧٢.

(٢) كذا يرويه المحدثون ـ كما يقول الحربي ـ بفتح التاء. والصواب. أَرَمْتَ ـ بسكون التاء، فتكون التاء لتأنيث العظام. انظر النهاية لابن الأثير: رمم.

(٣) مسند أحمد ٤/٨. وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/٨٨، والنسائي ٣/٩١ ـ ٩٢، وابن ماجه، كتاب الجنائز ١/٥٢٤. وأخرجه البيهقي في كتاب الجمعة من سننه الكبرى ٣/٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الجنائز ١/٥٢٤.

وقد رَوَى البيْهقي من حديث أبي أمامة وأبي مَسعُود، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ في الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجُمُعة ويومَ الجُمُعة(١)، ولكن في إسنادهما ضعفٌ، والله أعلم. ورُوي مرسلاً عن الحسن البصري، فقال إسماعيل القاضي:

حدثنا سُليمان بن حرب، حدثنا جَرير بن حازم، سَمِعتُ الحَسَن ـ هو البصريُّ ـ يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تأكلِ الأرض جَسَدَ من كَلَّمه روحُ القدس». مرسل حسن.

وقال القاضي: وقال الشافعي: أخبرنا إبراهيم بن محمد، أخبرنا صفوان بن سُلَيم أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا كان يومُ الجُمُعة وليلة الجمعة فأكثِرُوا الصلاة عليَّ»(٢). هذا مرسل.

وهكذا يجبُ على الخطيب أن يُصَلّي على النبي ـ ﷺ ـ يوم الجُمعة على المنبر في الخطبتين، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك، لأنها عبادة، وذكر الله فيها شرطٌ، فوجَب ذكرُ الرسول ـ ﷺ ـ فيها كالأذان والصلاة، هذا مذهب الشافعيِّ وأحمدَ رحمهما الله.

ومن ذلك أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قَبْرِه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ قال أبو داود:

حدثنا ابن عوف هو محمد، حدثنا المُقري، حدثنا حيوة، عن أبي صخر حُمَيد بن زياد، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط، عن أبي هُرَيرة: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «ما من أحد منكم يُسَلِّم عليَّ إلا رَدَّ الله عليَّ رُوحِي، حتى أردَّ عليه السلام»(٣).

تَفرَّد به أبو داود، وصَحَّحه النووي في الأذكار، ثم قال أبو داود:

حدثنا أحمد بن صالح قال: قرأتُ على عبد الله بن نافع، أخبرني ابنُ أبي ذئب، عن سَعيد المقبُري، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تجعلوا بُيُوتَكم قُبُوراً، ولا تجعلوا قَبرِي عِيداً، وصلوا عَلَيَّ، فإن صلاتكم تَبلُغني حيثما كنتم»(٣).

تَفرَّد به أبو داود أيضاً. وقد رواه الإمام أحمدُ، عن سُرَيج، عن عبد الله بن نافع ـ وهو الصائغ ـ به(٤). وصححه النَّووي أيضاً. وقد رُوِيَ من وجهٍ آخَر عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال القاضي إسماعيل بن إسحاق في كتابه: «فضل الصلاة على النبي ﷺ»:

حدثنا إسماعيلُ بن أبي أويس، حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، عَمَّن أخبره من أهل بيته، عن علي بن الحسين بن علي: أن رجلاً كان يأتي كُلَّ غَداةٍ فيزورُ قبر النبي ـ ﷺ ـ ويُصلّي عليه، ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه عليُّ بن الحسين، فقال له عليُّ بن الحسين: ما يَحمِلُك على هذا؟ قال: أحبُّ السلامَ على النبيِّ ﷺ. فقال له عليُّ بن الحُسين: هل لك أن أُحدِّثَكَ حَديثاً عن أبي؟ قال: نعم، فقال له عليُّ بن الحسين: أخبرني أبي عن جَدِّي أنه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تجعلوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلّوا عليَّ وسلّموا حيثما كُنتم، فستبلغني صَلاتكم وسلامكم».

في إسناده رجل مبهم لم يُسَم. وقد رُوي من وجه آخر مرسلاً، قال عبد الرزاق في مصنفه، عن الثوري،

(١) حديث أبي أمامة في كتاب الجمعة من سننه الكبير، ٢٤٩/٣.

(٢) ترتيب مسند الشافعي ١٧٢/١.

(٣) سنن أبي داود، كتاب المناسك ٢١٨/٢.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣٦٧/٢.

عن ابن عجلان، عن رجل ـ يقال له: سهيل ـ عن الحسن بن الحسن بن علي قال: رأى قوماً عند القبر فنهاهم، وقال: إن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً، وصلّوا عليّ حيثما كُنتم، فإنّ صلاتكم تبلغني»[1]. فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة، فنهاهم.

وقد رُوِيَ أنه رأى رجلاً ينتاب القبرَ فقال: «يا هذا، ما أنتَ ورجلٌ بالأندلس منه إلا سواء»، أي: الجميعُ يبلغه، صلواتُ الله وسلامُه عليه دائماً إلى يوم الدين.

[[2] وقال الطبراني في مُعْجمه الكبير: حدثنا أحمدُ بن رِشْدين المِصْرِيُّ، حدثنا سعيد بن أبي مَرْيَم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرني حُمَيد بن أبي زينب، عن حَسَن بن حَسَن بن علي بن أبي طَالب ـ رضي الله عنهم ـ عن أبيه أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «صَلُّوا عليَّ حيثما كُنتم، فإنّ صلاتكم تَبلُغني»[3].

ثم قال الطبراني: حدثنا العباسُ بن حَمدان الأصبهاني، حدثنا شُعَيب بن عبد الحميد الطَّحان، أخبرنا يزيدُ بن هارون، أخبرنا شَيبان، عن الحكم بن عبد الله بن خُطَّاف، عن أم أُنَيس بنت الحَسَن بن علي، عن أبيها قال: قالوا: يا رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أرأيتَ قولَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿إنَّ الله وملائكتَه يُصَلُّون على النبي﴾؟ فقال: «إن هذا من المكتوم، ولولا أنّكم سألتموني عنه لما أخبرتُكم، إن الله وَكَّل بي مَلَكين لا أُذكَرُ عند عبدٍ مُسلم فَيصلّي عليَّ إلا قال ذانِكَ المَلَكان: «غفَر الله لك». وقال الله وملائكتُه جَواباً لذينِكَ المَلَكين: «آمينَ». ولا يُصَلِّي أحدٌ إلا قال ذَانِكَ المَلَكان: «لا غفَر الله لك». ويقول الله وملائكته جواباً لذينك المَلَكين: «آمين»[4].

غريبٌ جداً، وإسناده فيه ضعف شديد[2]].

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، عن سُفيان، عن عبدِ الله بن السائب، عن زَاذانَ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ لله ملائكةً سَيّاحين في الأرض، يُبلِّغوني عن أُمّتي السلام»[5].

وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان بن مهران الأعمش، كلاهما عن عبد الله بن السائب، به[5].

فأما الحديثُ الآخر: «مَن صلّى عَلَيَّ عند قبري سَمِعتُه، وَمَن صَلَّى عليَّ مِن بَعيدٍ بُلِّغتُه» ـ ففي إسناده نظر، تَفرَّد به محمد بن مروان السُّدِّي الصغير ـ وهو متروك ـ عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُريرةَ مرفوعاً.

قال أصحابنا: وَيُستَحبُّ للمُحرِمِ إذا لَبَّى وفَرَغ من تلبيته أن يُصَلِّي على النبي ـ ﷺ ـ لما رواه الشافعيُّ والدارقطني من رواية صالح بن محمد بن زائدة، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: كان يُؤمَرُ الرجلُ إذا فرغ من تلبيته أن يُصَلِّي على النبي ﷺ على كل حال[6].

(١) المصنف، كتاب الجنائز ٣/٥٧٧.

(٢ ـ ٢) حديثا الطبراني ساقطان من نسخة الحرم.

(٣) المعجم الكبير ٣/٨٢.

(٤) المعجم الكبير ٣/٨٩. وقال في مجمع الزوائد ٧/٩٣: «رواه الطبراني وفيه الحكم بن عبد الله بن خطاف. وهو كذاب».

(٥) مسند الإمام أحمد ١/٤٤١، والنسائي، كتاب السهو ٣/٤٣. وفي كتاب الملائكة من سننه الكبرى، وفي اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف ٧/٢١.

(٦) الأم للشافعي، كتاب الحج ٢/١٣٤، وسنن الدارقطني، باب المواقيت ٢/٢٣٨.

وقال إسماعيل القاضي: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا زكريا، عن الشعبي، عن وهب بن الأجدع قال: سمعتُ عمر بن الخطاب يقول: «إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً، وصلّوا عند المقام ركعتين، ثم ائتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت، فكبّروا سبع تكبيرات، تكبيراً بين حمد الله وثناءٍ عليه وصلاةٍ على النبي ﷺ، ومسألة لنفسك، وعلى المروة مثل ذلك». إسناد جيدٌ حسنٌ قويٌّ.

وقالوا: ويُستحبُّ الصلاة على النبي ـ ﷺ ـ مع ذكر الله عند الذبح، واستأنسوا بقوله تعالى. ﴿ورفعنا لك ذِكْرَكَ﴾، قال بعضُ المفسرين: يقول الله تعالى. (لا أُذكر إلا ذُكِرْتَ معي) وخالفهم في ذلك الجمهور، وقالوا: هذا موطن يُفرَدُ فيه ذكر الربِّ تعالى، كما عند الأكل، والدُّخول، والوِقاع وغير ذلك، مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي ﷺ.

حديثٌ آخَرُ، قال إسماعيل القاضي: حدثنا محمد بن أبي بكر المُقدَّمي، حدثنا عُمَر بن هارون، عن موسى بن عُبَيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبي هُريرَةَ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «صلّوا على أنبياء الله ورُسُلِه، فإن الله بعثَهم كما بعثني».

في إسناده ضعيفان، وهما عُمَر بن هارون وشيخُه، والله أعلم. وقد رواه عبد الرزّاق، عن الثوري، عن موسى بن عُبَيدةَ الرَّبَذِيِّ، به[1].

ومن ذلك أنه يُستحبُّ الصلاةُ عليه عند طَنِين الأُذن، إن صحَّ الخبرُ في ذلك، على أن الإمام أبا بكر محمد بن أسحاق بن خُزَيمَةَ قد رواه في صحيحه فقال:

حدثنا زياد بن يحيى، حدثنا معمر بن محمد بن عُبَيد الله بن علي بن أبي رافع، عن أبيه، عن أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا طنَّت أُذنُ أحدِكم فلْيذكُرني وليُصلِّ عليَّ، وليَقل: ذكرَ الله مَن ذكَرني بخيرٍ». إسنادُه غريب، وفي ثُبوتِه نظرٌ، والله أعلم.

مسألة

وقد استحبَّ أهلُ الكتابةِ أن يُكرِّر الكاتبُ الصلاةَ على النبي ـ ﷺ ـ كلما كَتَبه، وقد ورد في الحديث من طريق كادح بن رَحْمَةَ، عن نَهْشَل، عن الضَّحاك، عن ابن عبَّاس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من صلَّى عليَّ في كتابٍ لم تزَل الصلاةُ جاريةً له ما دام اسمي في ذلك الكتاب»[2].

وليس هذا الحديثُ بصحيحٍ من وُجوهٍ كثيرةٍ، وقد رُوِيَ من حديث أبي هُريرَةَ، ولا يَصِحُّ أيضاً، قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي شيخُنا: أحسبه موضوعاً. وقد رُوِيَ نحوُه عن أبي بكر، وابن عباس. ولا يصح من ذلك شيء. والله أعلم. وقد ذكر الخطيب البغداديُّ في كتابه: «الجامع لآداب الراوي والسامع»، قال: رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «إنه كثيراً ما يَكتُبَ اسمَ النبي ـ ﷺ ـ من غيرِ ذكرِ الصلاةِ عليه كتابةً». قال: وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظاً.

فصل

وأما الصلاةُ على غير الأنبياء فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدَّم في الحديث: «اللهم صل على محمَّد

(١) المصنَّف ٢/٢١٦.
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ٢/١٣٩.

وآله وأزواجه وذُرِّيته»، فهذا جائز بالإجماع، وإنما وقع النزاع فيما إذا أُفرِدَ غير الأنبياء بالصلاة عليهم، فقال قائلون: «يجوز ذلك». واحتجوا بقوله: ﴿هو الذي يُصَلِّي عليكم وملائكته﴾، وبقوله: ﴿أولئك عليهم صلواتُ من ربِّهم ورحمة﴾، وبقوله تعالى: ﴿خُذ من أموالهم صدقة تُطَهِّرهم وتُزَكِّيهم بها وَصَلِّ عليهم إنَّ صلاتَكَ سَكَنٌ لهم﴾، وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أتاه قومٌ بصدقتهم قال: «اللهمَّ صَلِّ عليهم». وأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى». أخرجاه في الصحيحين. وبحديث جابر: أن امرأته قالت: يا رسولَ الله، صَلِّ عليَّ وعلى زوجي. فقال: «صَلَّى الله عليكِ وعَلَى زوجِكِ»[(١)].

وقال الجمهورُ من العلماء: لا يجوزُ إفرادُ غيرِ الأنبياءِ بالصلاةِ، لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياءِ إذا ذُكِروا، فلا يُلحَقُ بهم غيرُهم، فلا يقال: «قال أبو بكر صَلَّى الله عليه». أو «قال عليٌّ صلَّى الله عليه». وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: «قال مُحمَّد عز وجل»، وإن كان عَزِيزاً جَلِيلاً، لأن هذا من شعار ذِكْرِ الله عز وجل. وحَمَلوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسُّنَّةِ على الدُّعاء لهم، ولهذا لم يَثْبُت شعاراً لآل أبي أوفى، ولا لجابر وامرأته. وهذا مَسلكٌ حسنٌ.

وقال آخرون: لا يجوزُ ذلك، لأن الصلاةَ على غير الأنبياء قد صارت من شعارِ أهل الأهواءِ، يُصَلُّون على من يَعتقِدُون فيهم، فلا يُقتَدَى بهم في ذلك، والله أعلم.

ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو الكراهةِ التنزيهيَّة، أو خلافِ الأولى؟ على ثلاثة أقوالٍ، حكاها الشيخ أبو زكريَّا النَّوويُّ في كتاب الأذكارِ. ثم قال: «والصحيحُ الذي عليه الأكثرون أنه مكروهٌ كراهةَ تنزيهٍ، لأنه شعارُ أهلِ البِدَعِ، وقد نُهِينا عن شِعارِهم، والمكروه هو ما وَرَد فيه نهيٌ مقصودٌ. قال أصحابنا: والمعتمد في ذلك أن الصلاةَ صارت مخصوصة في لسان السلفِ بالأنبياء ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ كما أن قولنا «عَزَّ وجَلَّ»، مخصوص بالله سبحانه وتعالى، فكما لا يقال: «مُحمَّد عز وجل» ـ وإن كان عَزِيزاً جليلاً ـ لا يقال أبو بكر أو: عَلِيٌّ صلَّى الله عليه». هذا لفظه بحروفه[(٢)].

قال: «وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجُوَيني من أصحابنا: هو في معنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب، ولا يُفرَدُ به غير الأنبياء، فلا يقال: «علي عليه السلام»، وسواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فَيُخاطَب به، فيقال: سلامٌ عليكم، أو سلامٌ عليك، أو السلامُ عليكَ أو عليكم. وهذا مجمع عليه»[(٣)]. انتهى ما ذكره.

قلت: وقد غَلَب هذا في عبارة كثيرٍ من النُّسَّاخ للكتب، أن يفرد علي ـ رضي الله عنه ـ بأن يقال: «عليه السلامُ»، من دون سائرِ الصحابة، أو: «كَرَّم الله وجهه» وهذا وإن كان معناه صحيحاً، لكن ينبغي أن يُساوَى بين الصحابة في ذلك؛ فإن هذا من باب التعظيمِ والتكريمِ، فالشيخانِ وأميرُ المؤمنين عثمانُ أولَى بذلِكَ منه، رضي الله عنهم أجمعين.

قال إسماعيل القاضي: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثني عثمان بن حكيم بن عَبَّاد بن حُنَيف، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: «لا تصلحُ الصلاةُ على أحد إلا على النبي ـ ﷺ ـ ولكن يدعي للمسلمين والمسلمات بالاستغفار».

---

(١) تقدم الحديثان أول تفسير هذه الآية.

(٢) الأذكار للنووي، ط الحلبي ١٠٨

(٣) الأذكار ١٠٩

وقال أيضاً: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حُسين بن علي، عن جعفر بن بُرقان قال: كتب عُمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ: «أما بعد، فإنَّ أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإنَّ ناساً من القُصّاص قد أحدثوا في الصلاة على خُلفائهم وأمرائهم عِدْلَ الصَّلاة على النبيِّ ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فَمُرْهُم أنْ تكونَ صلاتُهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامَّة، ويَدَعُوا ما سِوَى ذلك». أثر حسن[١]

قال إسماعيل القاضي: حدثنا مُعاذُ بن أسد، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا ابن لَهيعة، حدثني خالد ابن يَزيد، عن سَعيد بن أبي هلال، عن نُبَيه بن وَهب: أنَّ كعباً دَخل على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فذكَرُوا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال كعبٌ: ما من فجرٍ يطلعُ إلا نَزَل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يَحُفُّوا بالقبر يضربُون بأجنحتهم ويُصلُّون على النبي ﷺ، سبعُون ألفاً بالليل، وسبعُون ألفاً بالنهار، حتى إذا انشقت عنه الأرض خَرَج في سبعين ألفاً من الملائكة يَزُفُّونه.

فرع

قال النووي: إذا صُلِّيَ على النبي ﷺ فَلْيَجمع بين الصَّلاة والتسليم، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقولُ «صلى الله عليه» فقط، ولا: «عليه السلام» فقط. وهذا الذي قاله مُنْتَزَعٌ من هذه الآية الكريمة، وهي قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا صَلُّوا عليه وسَلِّموا تسليماً﴾، فالأولى أن يقال: صلى الله عليه وسَلَّم تسليماً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٨﴾

يقولُ تعالى مُتهدِّداً ومتوعِّداً من آذاه بمخالفة أوامره وارتكابِ زواجره وإصراره على ذلك، وأذى رسوله بعيب أو بنقص، عياذاً بالله من ذلك.

قال عكرمة في قوله: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾، قال: نزلت في المصوِّرين.

وفي الصحيحين، من حديث سفيان بن عُيَينة، عن الزُّهري، عن سَعيد بن المسيب، عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يقولُ الله عز وجل: يُؤْذِيني ابنُ آدم، يسبُّ الدهر، وأنا الدهرُ، أُقلِّب ليله ونهاره»[٢].

ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولُون: يا خيبةَ الدهرِ فَعَل بنا كذا وكذا. فيُسنِدُون أفعال الله تعالى إلى الدهر، ويَسبُّونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله عز وجل، فنهى عن ذلك. هكذا قرَّره الشافعي وأبو عُبَيد وغيرهما من العلماء رحمهم الله.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس في قوله ﴿يؤذون الله ورسوله﴾، نزلت في الذين طَعَنُوا في تزويجه صفيَّة بنت حُييِّ بن أخطب[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الزهد ١٣/٤٦٨.
(٢) فتح الباري، كتاب التفسير ٨/٥٧٤، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب ٤/١٧٦٢.
(٣) تفسير الطبري ٢٢/٤٥.

والظاهرُ أنَّ الآية عامَّة في كلِّ من آذاه بشيء، من آذاه فقد آذى الله، كما أنَّ من أطاعه فقد أطاع الله، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يونس، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن عَبِيدَةَ بن أبي رائطة الحَذَّاء التَّميمي، عن عبد الرحمٰن[(١)]، عن عبد الله بن المُغَفَّل المُزَني قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «اللهَ اللهَ في أصحابي! لا تتَّخِذوهم غَرَضاً بعدي، فمن أحبَّهم فَبِحُبي أحبَّهم، ومن أبغضَهم فَبِبُغضي أبغضَهم، ومَن آذاهم فقد آذاني، ومَن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يُوشِك أن يأخذَه»[(٢)].

وقد رواه الترمذي من حديث عَبِيدة بن أبي رائِطَةَ، عن عبد الرحمٰن بن زيادٍ، عن عبد الله بن المغفل، به. ثم قال: «وهذا حديثٌ غريبٌ، لا نَعرفُه إلا مِن هذا الوجه»[(٢)].

وقولُه: ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسَبُوا﴾، أي: ينسبون إليهم ما هم بُرآءُ منه لم يعملُوه ولم يفعلوه، ﴿فقد احتمَلُوا بُهتاناً وإثماً مبيناً﴾، وهذا هو البَهتُ البيِّن أن يحكى أو ينقل على المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه. على سبيل العيب والتنقص لهم، ومِن أكثر مَن يدخل في هذا الوعيدِ الكفرةُ بالله ورسوله، ثم الرافضةُ الذينَ يتنقصون الصحابة ويَعيبونهم بما قد بَرَّأهم الله منه، ويَصِفُونهم بنَقيضِ ما أخبر الله عنهم، فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومَدَحهم، وهؤلاء الجَهلةُ الأغبياءُ يسبُّونهم ويَتنقَّصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فَعَلُوه أبداً، فهم في الحقيقة منكوسُو القلوبِ، يَذُمُّون الممدوحين، ويمدَحُون المذمومين.

وقال أبو داود: حدثنا القَعْنَبيُّ، حدثنا عبد العزيز ـ يعني ابن محمد ـ عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هُريرةَ أنه قيل: يا رسولَ الله، ما الغيبةُ؟ قال: «ذِكرُكَ أخاكَ بما يكرَه». قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟ قال: «إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه ما تقولُ فقد بَهَتَّه»[(٣)].

وهكذا رواه الترمذي، عن قُتَيبة، عن الدَّراوَرْدِيِّ، به، ثم قال: «حسن صحيح»[(٣)].

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا معاوية بن هشام، عن عمار بن أنس، عن ابن أبي مُلَيكة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: «أيُّ الربا أَرْبَى عند الله؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: «أَرْبَى الرِّبا عند الله استحلالُ عِرْضِ امرئٍ مسلم». ثم قرأ: ﴿والذين يُؤذون المؤمنينَ والمؤمناتِ بغير ما اكتَسَبُوا فَقَدِ احتمَلُوا بُهتاناً وإثماً مُبيناً﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾ ﴾

(١) كذا في نسختنا. وفي المسند ٥/٥٤، ٥٧: «عبد الرحمن بن زياد، أو: عبد الرحمن بن عبد الله». وفي المسند ٤/٨٧: «عن عبيدة بن أبي رائطة، عن عبد الله بن عبد الرحمن».

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٨٧ وعارضة الأحوذي، أبواب المناقب ١٣/٢٤٤.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٦٩، وعارضة الأحوذي، أبواب البرّ ٨/١٢٠، وأخرجه مسلم أيضاً في كتاب البر ٤/٢٠٠١، بإسناده إلى العلاء، وبَهَتَّه: كذبت عليه.

يقولُ تعالى آمراً رسوله ـ صلّى الله عليه وسلّم تسليماً ـ أن يأمر النّساء المؤمنات ـ خاصّةً أزواجه وبناته لشرفهنّ ـ بأن يُدنين عليهنّ من جلابيبهن، ليتميّزن عن سِمات نساءِ الجاهليّة وسمت الإماء. والجلبابُ هو: الرداءُ فوق الخِمَار، قاله ابن مسعود، وعَبيدة، وقتادة، والحسن البصري، وسعيد بن جُبير، وإبراهيم النخعي، وعطاء الخراساني، وغير واحد. وهو بمنزلةِ الإزار اليومَ.

قال الجَوهري: الجلباب: المِلْحَفَة، قالت امرأةٌ من هُذيل ترثي قتيلاً لها[١]:

تَمْشي النسـورُ إليه وَهْيَ لاَهِيَـةٌ مَشْيَ العَـذارَى عليهنّ الجَلابِيـبُ

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أمر الله نساءَ المؤمنين إذا خرجْنَ من بيوتهن في حاجة أن يُغطّين وجوهَهُنّ من فوق رُءوسِهنّ بالجلابيب، ويُبدين عيناً واحدةً[٢].

وقال محمد بن سيرين: سألت عَبيدَة السّلماني عن قول الله تعالى: ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن﴾، فَغَطّى وجهَه ورأسه وأبرزَ عينه اليُسرَى. وقال عكرمة: تغطي ثُغْرَةَ نَحرِها بجلبابها تُدنيه عليها.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو عبد الله الظُّهرَانِيُّ فيما كَتَب إليَّ، حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمرٌ، عن ابن خُثَيم، عن صَفيَّةَ بنت شَيبة، عن أمّ سَلَمة قالت: لما نَزَلت هذه الآيةُ: ﴿يُدنِينَ عليهنّ من جَلابِيبِهِنّ﴾، خَرَج نساءُ الأنصارِ كأن على رُءوسِهِنّ الغِرْبَانَ من السَّكِينة، وعليهنّ أكسِيةٌ سُودٌ يلبسنَهَا.

وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثني الليث، حدثنا يونس بن يزيدَ قال: وسألناه ـ يعني الزُّهري ـ: هل على الوَليدة خمارٌ متزوِّجةً أو غيرَ متزوِّجةٍ؟ قال: عليها الخمار إن كانت متزوِّجة، وتُنهى عن الجلباب لأنه يكره لهن أن يتشبّهن بالحرائر إلا محصناتٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها النبيُّ قل لأزواجك وبناتِك ونساءِ المؤمنين يدنين عليهن من جَلاَبيبهن﴾.

ورُوِيَ عن سفيان الثَّوري أنه قال: لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذّمة، إنما يُنْهَى عن ذلك لخوفِ الفتنة، لا لحرمتهنّ. واستدل بقوله تعالى: ﴿ونساءِ المؤمنين﴾.

وقوله: ﴿ذلك أدنى أن يُعرَفْنَ فلا يُؤذَين﴾، أي: إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أنّهنّ حَرائِرُ، لسنَ بإماءٍ ولا عواهِرَ.

قال السُّدِّي في قوله تعالى: ﴿يا أيّها النبيُّ قل لأزواجك وبناتك ونساءِ المؤمنين يُدنِينَ عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذَين﴾، قال: كان ناس من فُسّاق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة، يتعرّضون للنساء، وكانت مساكنُ أهلِ المدينة ضَيِّقةً، فإذا كان الليل خَرَجَ النساء إلى الطرق يقضين حاجَتَهُنّ، فكان أولئك الفُسّاقُ يَبْغُون ذلك منهنّ، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا: هذه حُرّةٌ، كَفّوا عنها. وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب، قالوا: هذه أَمَةٌ. فوثبُوا إليها[٣].

وقال مجاهد: يَتَجلْبَبْنَ فيعلم أنهم حَرائِرُ فلا يَعرِضُ لهنّ فاسِقٌ بأذى ولا ريبَة.

وقوله: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾، أي: لما سلف في أيام الجاهلية حيثُ لم يكُن عندهنّ علم بذلك.

ثم قال تعالى مُتوعِّداً للمنافقين، وهم الذين يُظهرون الإيمانَ ويُبطِنون الكفر: ﴿والذين في قلوبهم

(١) هي جنوب أخت عمرو ذي الكَلْب ترثيه، كما في اللسان: جلب.
(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٩.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٦/ ٦٦١.

مرضٌ﴾ ـ قال عكرمة وغيره. هم الزناة ها هنا. ﴿والمُرجفُون في المدينة﴾، يعني: الذين يقولون. «جاء الأعداء»، «وجاءت الحروبُ». وهو كَذِبٌ وافتراء ـ لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعُوا إلى الحق ﴿لَنُغرِيَنَّكَ بهم﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي لنسلطنَّك عليهم. وقال قتادة رحمه الله: لَنُحَرِّشَنَّكَ بهم[1]. وقال السدي: لَنُعلِمَنَّكَ بهم.

﴿ثم لا يُجاورونك فيها﴾، أي: في المدينة ﴿إلا قليلاً * ملعُونِين﴾ حال منهم في مُدَّة إقامتهم في المدينة مدةً قريبةً مطرودين مبعدين، ﴿أينما ثُقِفوا﴾، أي: وُجِدُوا، ﴿أُخِذُوا﴾ لِذِلَّتهم وقِلَّتهم، ﴿وقُتِّلوا تقتيلاً﴾.

ثم قال: ﴿سنةَ الله في الذين خَلَوا من قبل﴾، أي: هذه سنتُهُ في المنافقين إذا تمرَّدوا على نفاقهم وكُفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن أهل الإيمان يسلطون عليهم وَيَقهرُونهم، ﴿ولن تَجِد لسُنَّةِ الله تبديلاً﴾، أي: وسنة الله في ذلك لا تُبدَّل ولا تُغيَّر.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

يقولَ تعالى مخبراً لرسوله ـ ﷺ ـ: أنه لا علمَ له بالساعةِ، وإن سأله الناسُ عن ذلك. وأرشده أن يَرُدَّ علمها إلى الله عزَّ وجلَّ، كما قال له في «سورة الأعراف»، وهي مكية وهذه مدنية، فاستمرَّ الحال في رَدِّ علمها إلى الذي يُقيمها، لكن أخبره أنها قريبةٌ بقوله: ﴿وما يُدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾، كما قال: ﴿اقتربت الساعة وانشقَّ القمر﴾، وقال: ﴿اقترب للناس حسابُهم وهم في غفلةٍ مُعرِضون﴾، وقال: ﴿أتى أمر الله فلا تَستعجلوه﴾.

ثم قال: ﴿إن الله لعن الكافرين﴾، أي: أبعدَهم من رحمته ﴿وأعدَّ لهم سعيراً﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿خالدين فيها أبداً﴾، أي: ماكثين مُستمرِّين، فلا خروجَ لهم منها ولا زوالَ لهم عنها، ﴿لا يَجدُون ولياً ولا نصيراً﴾، أي: وليس لهم مُغيثٌ ولا مُعينٌ ينقذهم مما هم فيه.

ثم قال: ﴿يوم تُقلَّب وجوهُهم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسُولاَ﴾، أي: يُسحَبُون في النار على وجوههم، وتُلوَى وجوهُهم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يَتمنَّون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر عنهم في حال العَرَصات بقوله: ﴿ويوم يَعَضُّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذتُ مع الرسول سَبيلاً * يا وَيلتا ليتني لم أتخذ فُلاناً خليلاً * لقد أضلَّني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطانُ للإنسان خذُولاً﴾. وقال تعالى: ﴿رُبما يَودُّ الذين كفروا لو كانوا مُسلمين﴾. وهكذا أخبر عنهم في حالهم هذه أنهم يَوَدون أن لو كانوا أطاعُوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا، ﴿وقالوا رَبَّنا إنا أطعنا سادَتنا وكُبَراءنا فأضلُّونا السبيلا﴾، وقال طاوس: سادتنا يعني الأشراف، وكبراءنا يعني العلماء. رواه ابن أبي حاتم.

أي: اتبعنا السادةَ وهم الأمراءُ والكبراءُ من المشيخة وخالفنا الرسُلَ، واعتقدنا أنَّ عندهم شيئاً، وأنهم

---

(١) أخرجه الطبري ٢٢/٤٨

على شيء فإذا هُم ليسوا على شيء، ﴿رَبَّنا آتهم ضعفين من العذاب﴾، أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا، ﴿والعنهم لعناً كبيراً﴾. قرأ بعض القُرَّاء بالباء الموحدة. وقرأ آخرون بالثاء المثلثة[١]، وهما قريبا المعنى، كما في حديث عبد الله بن عمرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علِّمني دُعَاءً أدعُو به في صَلاتي. قال: «قل: اللهم، إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوبَ إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفورُ الرحيمُ». أخرجاه في الصحيحين[٢]، يروى «كبيراً» و«كثيراً»، وكلاهما بمعنى صَحيح.

واستحبَّ بعضُهم أن يجمَع الداعي بين اللفظين في دُعائه. وفي ذلك نظرٌ، بل الأولى أن يقول هذا تارةً، وهذا تارةً، كما أن القارىء مُخيّر بين القراءتين، أيّهما قرأ فحَسَن، وليس له الجمعُ بينهما، والله أعلم.

وقال أبو القاسم الطَّبراني: حدثنا محمد بن عُثمان بن أبي شَيْبَةَ، حدثنا ضِرَارُ بن صُرَدٍ، حدثنا علي بن هاشم، عن عُبَيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، في تسمية من شهد مع علي رضي الله عنه: الحجاج بن عمرو بن غَزِيَّة، وهو الذي كان يقول عند اللقاء: يا معشر الأنصار، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه: ﴿رَبَّنا إنا أطعنا سادَتَنا وكُبَراءنا فأَضلُّونا السَّبيلاَ ＊ رَبَّنا آتهم ضِعفَين مِنَ العذابِ والْعَنهُم لعناً كبيراً﴾[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾

قال البخاريُّ عند تفسير هذه الآية: حَدَّثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا رَوح بن عُبادة، حدثنا عوف، عن الحسن ومحمدٍ وخِلاَسٍ، عن أبي هُريرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن موسى كان رجلاً حَيِيّاً»، وذلك قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وَجِيهاً﴾[٤].

هكذا أورد هذا الحديثَ ها هنا مختصراً جداً، وقد رواه في أحاديث «الأنبياء» بهذا السند بعينه، عن أبي هُريرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حَيِيّاً سِتِّيراً، لا يُرَى من جلده شيء استحياءً منه، فآذاهُ من آذاهُ من بني إسرائيل، فقالوا: ما يَتَستر هذا التَستُّرَ إلا من عَيبٍ بجلده، إما بَرَصٍ وإما أُدْرَةٍ[٥] وإما آفةٍ. وإن الله عز وجل أراد أن يُبَرِّئه مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوماً وحدَه، فخلع ثيابَه على حَجَرٍ، ثم اغتسلَ، فلمَّا فرغَ أقبلَ إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجرَ عَدَا بثوبه[٦]، فأخذ موسى عصاه وطلَبَ الحَجَرَ، فجعل يقول: ثوبي حَجَرُ، ثوبي حَجَرُ[٧]. حتى انتهى إلى مَلأٍ من بني إسرائيل، فرأوه عُرياناً أحسنَ ما خلق الله ـ عز وجل ـ وأبرأه مما يقولون، وقام[٨] الحجرُ، فأخذ ثوبَه فلَبِسَه، وطَفِقَ بالحَجرِ ضَرْباً بعَصاه، فوالله إنّ بالحجَر لَنَدَباً من أثر ضَرْبِهِ ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً». قال: فذلك قولُه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذينَ آذَوا موسى فَبرَّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾[٩].

---

(١) قرأ عاصم ـ من السبعة ـ بالباء الموحدة، والباقون بالثاء. الإقناع لابن الباذش ٢/٧٣٧

(٢) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٣٧٢، ومسلم، كتاب الذكر ٢٠٧٨/٤.

(٣) انظر أسد الغابة ٤٥٨/١، ترجمة حجاج بن عَمْرو

(٤) فتح الباري، كتاب التفسير ٥٣٤/٨

(٥) الأدْرَة ـ بضم فسكون، وبفتحتين ـ انتفاخ الخُصْيَة لتسرُّب سائل فيها، والأَدَرَة أيضاً: الخُصْيَةُ المنتفخة

(٦) أي: مضى مسرعاً.

(٧) ينادي الحجر، أي: ثوبي يا حَجرُ!

(٨) أي: ثبت

(٩) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٤٣٩/٦

وهذا سياقٌ حسَنٌ مطوّلٌ، وهذا الحديثُ من أفراد البخاري دون مسلم.

وقال الإمام أحمد، حدثنا رَوحٌ، حدثنا عوف، عن الحَسَن، عن النبي - ﷺ - وخِلَاس ومحمد، عن أبي هُرَيرة عن النبي - ﷺ - أنه قال في هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنُوا لا تكونوا كالذين آذَوا موسى فبرَّأه الله مما قالُوا﴾، قال: قال النبيُّ - ﷺ - : «إن موسى كان رجلاً حَيِيّاً سِتِّيراً، لا يكادُ يُرَى من جِلْدِهِ شيءٌ استحياءً منه. . .»[1].

ثم ساق الحديث كما رواه البخاري[2] مُطَوَّلاً، ورَوَاه في تفسيره عن رَوح، عن عوف، به. ورواه ابن جرير من حديث الثَّوري، عن جابر الجُعفي، عن عامر الشعبي، عن أبي هُرَيرَة، عن النبي ﷺ بنحو هذا[3]. وهكذا رواه من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَير، وعبد الله بن الحارث، عن ابن عباس في قوله: ﴿لا تكونوا كالذين آذَوا موسى﴾ قال: قال قومه له: إنك آدَرُ. فخرج ذات يوم يغتسِلُ، فوضع ثيابه على صَخرة، فخرجت الصخرة تشتدُّ[4] بثيابه، وخَرَج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالسَ بني إسرائيل، قال: فرأوه ليس بآدَرَ، فذلك قوله: ﴿فبرَّأه الله مما قالوا﴾[3]. وهكذا رواه العوفي، عن ابن عباس سواء[3].

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدثنا رَوح بن حاتم وأحمد بن المعلّى الأدَمي قالا: حدثنا يحيى بن حَمَّاد، حدثنا حماد بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن أنس، عن النبي - ﷺ - : قال: «كان موسى عليه السلام رجلاً حَيِيّاً، وإنه أتى - أحسبه قال: الماءَ - ليغتسِلَ، فوضع ثيابه على صَخرةٍ، وكان لا يكاد تَبدُو عورته»، فقالت بنو إسرائيل: إن موسى آدَرُ به آفةٌ، يعنون أنه لا يضَع ثيابه. فاحتملت الصخرةُ ثيابَه حتى صارت بحذاءِ مجالسِ بني إسرائيل، فنظروا إلى موسَى - عليه السلام - كأحسن الرجالِ، أو كما قال: فذلك قوله: ﴿فبرأه الله مما قالُوا وكان عند الله وجيهاً﴾[5].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سَعيد بن سليمان، حدثنا عَبَّاد بن العوام، عن سفيان بن حسين، حدثنا الحكم، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - في قوله: ﴿فبرَّأه الله مما قالُوا﴾، قال: صَعِدَ موسى وهارونُ الجبلَ، فمات هارون عليه السلام، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: أنت قتلتَه، كان ألينَ لنا منكَ وأشدَّ حياءً. فآذَوه من ذلك، فأمر الله الملائكة فحَمَلته، فمرُّوا به على مجالسِ بني إسرائيلَ، فتكلمت بموته، فما عَرَف موضِعَ قَبره إلا الرَّخَمُ[6]، وإن الله جعله أصمَّ أبكَمَ.

وهكذا رواه ابن جرير، عن علي[7] بن مسلم الطُّوسيِّ، عن عَبَّاد بن العَوَّام، به.

---

(١) مسند أحمد ٢/٥١٤ - ٥١٥.

(٢) في نسخة الحرم: كما روى البخاري مطولاً، ورواه عنه في تفسيره.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/٥١، وفيه: «عن جابر، عن عكرمة، عن أبي هريرة».

(٤) أي: تسرع

(٥) كشف الأستار عن زوائد البزار، تفسير سورة الأحزاب ٣/٦٦ - ٦٧.

(٦) الرَّخم. طائر غزير الريش، أبيض اللون، مُبقّع بسواد، له منقار طويل قليل التقوُّس، رماديّ اللون إلى الحمرة. وأكثر من نصفه مُغطًى بجلد رقيق، وفتحة الأنف مستطيلة عارية من الريش وله جناح طويل مُدَبَّب يبلغ طوله نحو نصف متر. والذنبُ طويل به أربع عشرة ريشةً، والقدم ضعيفة، والمخالب متوسطة الطول، سوداء اللون

(٧) في النسخ: علي بن موسى والصواب من تفسير الطبري ٢٢/٥٢، وتهذيب الكمال ١٤/١٤٢

ثم قال: وجائز أن يكون هذا هو المرادُ بالأذى، وجائز أن يكون الأول هو المرادُ، فلا قول أولى من قول الله عز وجل.

قلت: يحتمل أن يكون الكُلُّ مراداً، وأن يكون معه غيره، والله أعلم.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن شقيق، عن عبد الله قال: قسم رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يومٍ قَسْماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أُريد بها وجهُ الله. قال: فقلت: يا عدوَّ الله، أما لأخبرنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ بما قلت. قال: فذكرتُ[1] ذلك للنبي ـ ﷺ ـ فاحمرَّ وجهه، ثم قال: «رحمةُ الله على موسى، لقد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فصبر»[2].

أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش، به[2].

طريقٌ أخرى، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حجّاج، سمعت إسرائيل بن يونس، عن الوليد بن أبي هاشم مولى الهَمْدَانِيّ، عن زيد بن زائدٍ، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: «ولا يُبَلِّغني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ شيئاً، فإني أحبُّ أن أخرجَ إليكم وإني سَليمُ الصَّدرِ». فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ مال فقسَّمه، قال: فمررتُ برجُلين وأحدُهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمدٌ بقِسْمَتِهِ وجه الله ولا الدار الآخرة. قال: فتثبَّتُ حتى سَمِعتُ ما قالا، ثم أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسولَ الله، إنك قلت لنا: «ولا يُبَلِّغني أحدٌ عن أصحابي شيئاً»، وإني مَرَرتُ بفلان وفلان، وهما يقولان كذا وكذا. فاحمرَّ وجهُ رسول الله ـ ﷺ ـ وشقَّ عليه. ثم قال: «دعنا منك، لقد أُوذِيَ موسى بأكثرَ من هذا، فصَبر»[3].

وقد رواه أبو داود في الأدب، عن محمد بن يحيى الذهلي، عن محمد بن يوسف الفِرْيَابيِّ، عن إسرائيلَ، عن الوليد ابن أبي هاشم به مختصراً: «لا يُبَلِّغْنِي أحدٌ عن أحدٍ شيئاً، إني أحبُّ أن أخرج إليكم وأنا سليمُ الصَّدرِ»[3].

وكذا رواه الترمذيُّ في «المناقب»، عن الذهلي سواء، إلا أنه قال: «زيد بن زائدة»[4]. ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل، عن عبد الله بن محمد، عن عُبَيد الله بن موسى وحُسَين بن محمد، كلاهما عن إسرائيل، عن السُّدِّي، عن الوليد بن أبي هاشم، به مختصراً أيضاً، فزاد في إسناده السُّدِّي، ثم قال: «غريبٌ من هذا الوجه»[3].

وقولُه: ﴿وكان عند الله وجيهاً﴾، أي: له وجاهةٌ وجاهٌ عند ربِّه عز وجل.

قال الحسن البصري: كان مستجابَ الدعوة عند الله. وقال غيرهُ من السلف: لم يسألِ الله شيئاً إلا أعطاه، ولكن مُنِعَ الرؤيةَ لما يشاء الله عز وجل.

وقال بعضُهم: من وجاهته العظيمة أنه شَفَع في أخيه هارونَ أن يُرسِلَه الله معه، فأجاب الله سُؤْلَه، وقال: ﴿وَوَهبنا له من رَحمتنا أخاه هارونَ نَبِيّاً﴾.

---

(١) في المسند: فذُكِر.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/٣٨٠، وفتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٤٣٦، ومسلم، كتاب الزكاة ٢/٧٣٩

(٣) مسند الإمام أحمد ١/٣٩٥ ـ ٣٩٦، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٦٥، وعارضة الأحوذي، أبواب المناقب ١٣/٢٦٢ ـ ٢٦٣

(٤) الذي في عارضة الأحوذي: «زائدة»، دون هاء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً عبادَه المؤمنين بتقواه، وأن يَعبدُوه عبادةَ من كأنه يراه، وأن يقولوا ﴿قولاً سَديداً﴾، أي: مُستقيماً لا اعوجاجَ فيه ولا انحراف. ووعَدَهم أنهم إذا فعَلُوا ذلك أثابهم عليه بأن يُصلح لهم أعمالهم، أي: يُوفِّقُهم للأعمال الصالحة، وأن يغفِرَ لهم الذنوبَ الماضية. وما قد يَقَع منهم في المستقبل يُلهِمُهم التوبةَ منها.

ثم قال: ﴿ومَن يُطعِ الله ورسولَه فقد فازَ فوزاً عظيماً﴾، وذلك أنه يُجار من النار، ويَصير إلى النَّعيم المقيم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَمرو بن عَون، حدثنا خالد، عن ليث، عن أبي بُردَة، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: صَلَّى بنا رسول الله ـ ﷺ ـ صلاةَ الظهر، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجَلسنا، فقال: «إن الله أمرني أن آمركم أن تتقُوا الله وتقولُوا قولاً سديداً». ثم أتى النساء فقال: «إن الله أمرني أن آمركُنَّ أن تتَّقِينَ الله وتَقُلْنَ قولاً سديداً»(١).

[(٢) وقال ابن أبي الدنيا في كتاب «التقوى»: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، حدثنا عبد العزيز بن عمران الزُّهري، حدثنا عيسى بن سَمُرة، عن هشام بن عُرْوة، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ على المنبر إلا سمعتُه يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله وقولوا قولاً سديداً﴾ . . . الآية. غريب جداً.

وَرَوى من حديث عبد الرحيم بن زيد العَمِّي، عن أبيه، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس موقوفاً: من سَرَّه أن يكون أكرمَ الناس فلْيتَّقِ الله (٢)].

قال عكرمة: القولُ السديدُ: لا إله إلا الله. وقال غيره: السديدُ: الصِّدقُ. وقال مجاهد: هو السَّداد. وقال غيره: هو الصوابُ. والكلُّ حقٌّ.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾

قال العوفيُّ، عن ابن عباس: يعني بالأمانة: الطاعةَ، عَرَضَها عليها(٣) قبل أن يَعرِضَها على آدمَ فلم يُطِقْنها. فقال لآدم: إني قد عرضتُ الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبال فلم يُطِقْنَها، فهل أنت آخذٌ بما فيها؟ قال: يا ربِّ، وما فيها؟ قال: إن أحسنتَ جُزيتَ، وإن أسأتَ عُوقبتَ. فأخذها آدمُ فتحمَّلها، فذلك قولُه: ﴿وحَمَلَها الإنسانُ إنه كان ظَلوماً جَهُولاً﴾(٤).

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس، الأمانة: الفرائضُ، عَرَضَها الله على السموات والأرض

---

(١) الدر المنثور ٦/٦٦٧ عن ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه.
(٢ ـ ٢) سقط من نسخة الحرم.
(٣) في النسخ: «عليهم»، والمثبت من الطبري
(٤) أخرجه الطبري ٢٢/٥٤.

والجبال، إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم الله. فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله ألّا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها: وهو قوله: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾، يعني: غِرّاً بأمر الله[1].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس أنه قال في هذا الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾، قال: عُرِضَت على آدم فقال: خُذها بما فيها، فإن أطعتَ غفرتُ لك، وإن عصيتَ عذبتُك. قال: قبلتُ فما كان إلا قدرَ ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم، حتى أصاب الخطيئة[1].

وقد رَوَى الضحاك، عن ابن عباس، قريباً من هذا. وفيه نظر وانقطاع بين الضحّاك وبينه، والله أعلم. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، والضحّاك، والحسنُ البصريُّ، وغير واحد: إنّ الأمانةَ هي الفرائض. وقال آخرون: هي الطاعة.

وقال الأعمش، عن أبي الضُّحَى، عن مسروقٍ: قال أُبَيُّ بن كعب: من الأمانةِ أن المرأة اؤتمنت على فَرْجِها.

وقال قتادةُ: الأمانة الدين والفرائض والحدود. وقال بعضهم: الغسل من الجنابة. وقال مالك، عن زيد ابن أسلم قال: الأمانة ثلاثةٌ: الصلاةُ، والصومُ، والاغتسالُ من الجنابة.

وكل هذه الأقوال لا تنافي بَينها، بل هي متفقةٌ وراجعةٌ إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أُثيب، وإن تركها عُوقِبَ، فَقَبِلها الإنسانُ على ضَعفِه وجَهْلِه وظُلمِه، إلاّ من وَفّق الله، وبالله المستعانُ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة البصري، حدثنا حماد بن واقد ـ يعني أبا عمر الصفّار ـ سمعت أبا معمر ـ يعني عَوْنَ بن معمر ـ يُحدِّث عن الحسن ـ يعني البصري ـ أنه تلا هذه الآية. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾، قال: عَرَضها على السبع الطِّباق الطرائق التي زُيِّنت بالنجوم وحَمَلةِ العرش العظيم، فقيل لها: هل تحملين الأمانةَ وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال قيل لها: إن أحسنتِ جُزيتِ، وإن أساتِ عُوقِبْتِ. قالت: لا. ثم عَرَضها على الأرضين السبع الشدادِ، التي شُدَّت بالأوتادِ، وذُلِّلت بالمهاد، قال: فقيل لها: هل تحملين الأمانةَ وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال قيل لها: إن أحسنتِ جُزيتِ، وإن أسات عُوقِبتِ. قالت: لا. ثم عَرَضها على الجبالِ الشُّمِّ الشوامخ الصعاب الصِّلاب، قال قيل لها: هل تحملين الأمانةَ وما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال قيل لها: إن أحسنتِ جُزيت، وإن أساتَ عُوقِبت. قالت: لا.

وقال مقاتل بن حَيّان: إن الله حين خَلَق خلقه جَمَع بين الإنسِ والجنِّ، والسمواتِ والأرضِ والجبالِ، فبدأ بالسموات فَعرض عليهنَّ الأمانة وهي الطاعةُ، فقال لهن: أتحملْنَ هذه الأمانةَ، ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنـة؟ فَقُلن: يا ربِّ، إنا لا نستطيع هذا الأمرَ، وليست بنا قوّةٌ، ولَكِنّا لك مُطيعين. ثم عَرَض الأمانةَ على الأرضين، فقال لهن. أتحملن هذه الأمانة وتَقْبَلنها مني، وأعطيكنَّ الفضلَ والكرامَةَ؟ فقلن: لا صبر لنا على هذا يا ربِّ ولا نُطيق، ولَكِنّا لك سامعين مُطيعين، لا نَعصيك في شيء تأمرنا به. ثم قرّب آدم

---

(١) أخرجه الطبري ٥٤/٢٢

فقال له: أتحملُ هذه الأمانة وترعاها حقَّ رعايتها؟ فقال عند ذلك آدم: ما لي عندك؟ قال: يا آدم، إن أحسنت وأطعتَ ورعَيتَ الأمانةَ فلك عندي الكرامة والفضلُ وحسنُ الثواب في الجنة. وإن عَصَيت ولَم ترعَها حقَّ رعايتها وأسأتَ فإني مُعذِّبك ومُعاقِبك وأنزلُك النار. قال: رَضِيتُ رَبِّ. وتَحمَّلها، فقال الله عند ذلك: قد حمَّلْتُكَها فذلك قوله: ﴿وحَمَلها الإنسانُ﴾. رواه ابن أبي حاتم.

وعن مجاهد أنه قال: عَرَضها على السموات فقالت: يا ربِّ، حَمَّلتني الكواكبَ وسُكّان السماء وما ذُكر، وما أريد ثواباً ولا أحملُ فريضةً. قال: وعَرَضها على الأرض فقالت: يا رب، غَرَستَ فيَّ الأشجار، وأجريت فيّ الأنهار وسُكّان الأرض وما ذُكر، وما أريد ثواباً ولا أحمل فريضةً. وقالت الجبال مثل ذلك، قال الله تعالى: ﴿وحَملها الإنسانُ إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ في عاقبةِ أمره. وهكذا قال ابن جُرَيج

وعن ابن أشوَع أنه قال: لما عَرَض الله عليهنَّ حمل الأمانةِ، ضَجَجْنَ إلى الله ثلاثةَ أيام ولياليهنّ، وقلنَ: ربَّنا، لا طاقة لنا بالعمل، ولا نُريد الثوابَ(١).

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء الموصلي، حدثنا أبي، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم في هذه الآية: ﴿إنا عرضنا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ﴾، فقال الإنسان: بين أذني وعاتقي. فقال الله تعالى: ﴿إني مُعِينك عليها﴾، أي: مُعِينك على عينيك بطبقتين، فإذا نازعاك إلى ما أكره فأطبق. ومُعِينك على لسانك بطبقتين، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطبق. ومعينك على فرجك بلباس، فلا تكشفه إلى ما أكرهُ. ثم روى عن أبي حازم نحو هذا.

وقال ابن جرير: حدثنا يونُس، حدثنا ابنُ وَهب قال: قال ابنُ زيدٍ في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إنا عرضنا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أن يَحمِلْنَها وأشفَقْنَ منها﴾، قال: إنَّ الله عرضَ عليهنَّ الأمانةَ أن يَفترضَ عليهن الدين، ويجعلَ لهن ثواباً وعقاباً، ويستأمِنَهُنَّ على الدين. فقلن: لا، نحن مسخرات لأمرك لا نُريد ثواباً ولا عقاباً. قال: وعرضَها الله على آدم فقال: بين أُذُني وعاتِقي. قال ابن زيد: فقال الله تعالى له: أمَا إذْ تَحمَّلتَ هذا فسأُعِينُك، أجعلُ لِبَصرِكَ حجاباً، فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحلُّ لكَ فأرْخِ عليه حِجَابه، وأجعل لِلِسانِكَ باباً وغَلَقاً، فإذا خَشِيتَ فأغلِق. وأجعلُ لفَرْجِكَ لباساً فلا تكشِفه إلا على ما أحللتُ لكَ(٢).

وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السَّكُونيُّ، حدثنا بقيةُ، حدثنا عيسى بن إبراهيم، عن مُوسى بن أبي حَبيب، عن الحَكَم بن عُمَير ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «إن الأمانة والوفاء نَزَلا على آدمَ مع الأنبياء، فأُرسِلُوا به. فمنهم رسولُ الله، ومنهم نَبيٌّ، ومنهم نَبيٌّ رسولٌ، ونزل القرآن وهو كلامُ الله، ونزلت العربية والعجميَّةُ، فعَلِمُوا أمرَ القرآن وعَلِمُوا أمر السُّنن بألسنتهم، ولم يَدَع الله شيئاً من أمره مما يأتُون وما يَجتنِبُون وهي الحُجَج عليهم، إلا بيّنه لهم. فليس أهلُ لسانٍ إلا وهُم يعرفونَ الحسَنَ والقَبيحَ، ثم الأمانة أوّلُ شيءٍ يُرفَعُ ويبقى أثرها في جُذُورِ قلوبِ الناس، ثم يُرفَعُ الوفاءُ والعهدُ والذِّمَم وتبقى الكُتُب، فعالم يعمَلُ، وجاهِلٌ يعرفها ويُنكرها ولا يَحمِلُها، حتى وصل إليّ وإلى أُمّتي، ولا يَهلِك على الله إلا هالِكٌ، ولا يُغفِلُه إلا تاركٌ. فالحذرَ أيُّها الناسُ، وإياكم الوَسْوَاسَ الخنّاسَ، فإنما يَبْلُوكم أيُّكم أحسنُ عملاً»(٣)

هذا حديثٌ غريبٌ جداً، وله شواهدُ من وجوهٍ أُخرَى.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٦/٦٧٠. وابن أشوع هو سعيد بن عمرو الهمداني الكوفي القاضي مترجم في تهذيب التهذيب ٤/٦٧

(٢) تفسير الطبري ٢٢/٥٥. والغلَق: ما يُغلق به الباب ويفتح.

وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا عبد الله بن عبد المجيد الحنفي، أخبرنا أبو العوّام القطّان، حدثنا قتادةُ، وأبان بن أبي عياش، عن خليد العصريّ، عن أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «خمسٌ من جاء بهنّ يوم القيامة مع إيمان دخل الجنة. من حافظ على الصلوات الخمس على وُضوئهنّ وركوعهنّ وسُجودهنّ ومواقيتهنّ، وأعطى الزكاةَ من ماله طيِّب النفس بها، وكان يقولُ وأيمُ الله لا يفعلُ ذلك إلا مؤمن، [وصام رمضان، وحجَّ البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلا]، وأدّى الأمانة». قالوا: يا أبا الدرداء، وما أداءُ الأمانة؟ قال: الغسلُ من الجنابة، فإن الله لم يأمن ابنَ آدم على شيء من دينه غيرِه[1].

وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عبد الرحمن العَنْبَرِيّ، عن أبي علي عُبيد الله بن عبد المجيد الحَنَفيّ، عن أبي العوام عمران بن دَاوَرَ القطّان[2]، به.

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا تَميم بن المنتصر، أخبرنا إسحاقُ، شَريك، عن الأعمش، عن عبد الله بن السائب، عن زاذانَ، عن عبد الله بن مسعودٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «القتلُ في سبيل الله يُكفِّر الذنوبَ كلَّها ـ أو قال: «يُكفِّر كلَّ شيء ـ إلا الأمانةَ، يُؤتى بصاحب الأمانة فيُقالُ له: أدِّ أمانتك. فيقول: أنّى يا ربِّ وقد ذهبتِ الدنيا؟ فيقال له: أدِّ أمانتك. فيقول: أنّى يا رب وقد ذهبت الدنيا؟ فيُقال له: أدِّ أمانتك. فيقول: أنّى يا رَبِّ وقد ذهبت الدنيا؟ فيَقُول: اذهبُوا به إلى أمه الهاوية. فيُذهَبُ به إلى الهاوية، فيَهوي فيها حتى ينتهي إلى قَعرها، فيجدُها هنالك كهيئتها، فيَحملُها فيضعُها على عاتقه، فيَصعَدُ بها إلى شَفير جهنم، حتى إذا رأى أنه قد خَرَج زَلّت فهَوى في أثرها أبد الآبدين». قال: والأمانةُ في الصلاة، والأمانةُ في الصوم، والأمانة في الوضوء، والأمانة في الحديثِ، وأشدُّ ذلك الودائعُ. فلَقيتُ البَرَاء فقلت: ألا تسمَعُ إلى ما يقولُ أخوكَ عبد الله؟ فقال: صَدَق.

قال شريك: وحدثنا عَيّاش العامري، عن زاذانَ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه. ولم يذكر «والأمانة في الصلاة وفي كلِّ شيء»[3]. إسناده جيد، ولم يخرجوه.

وممّا يتعلّق بالأمانة الحديثُ الذي رَوَاه الإمام أحمد:

حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن زيد بن وَهبٍ، عن حُذيفة قال: حَدَّثنا رسول الله ـ ﷺ ـ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظرُ الآخرَ، حَدَّثنا أن الأمانة نَزَلت في جِذْرِ قُلوب الرجال، ثم نَزَل القرآن فعَلِمُوا من القرآن وعَلِمُوا من السُّنة. ثم حدثنا عن رَفع الأمانة، فقال: «ينام الرجلُ النومةَ فتُقبَضُ الأمانةُ من قلبه، فيظل أثرُها مثل أثر [(4) الوَكْتِ، فتُقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر (4)] المَجْل كجَمْرٍ دحرجتَهُ على رجلِكَ فتراه مُنتبراً[5] وليس فيه شيء» ـ قال: ثم أخذ حَصًى فدحرجَهُ على رِجْلِه ـ قال: «فيُصبِحُ الناسُ يتبايعون لا يكاد أحدٌ يُؤدّي الأمانةَ، حتى يُقالَ: إن في بني فلان رجُلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلدَه وأظرَفَه وأعقلَه! وما في قلبه حبّةٌ من خردلٍ من إيمانٍ. ولقد أتى عليَّ زمانٌ وما أبالي أيكم بايعتُ[6]، إن كان مُسلماً

---

(1) تفسير الطبري ٢٢/٥٥.

(2) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١١٦ ـ ١١٧. (3) تفسير الطبري ٢٢/٥٦.

(4 ـ 4) ما بين القوسين ساقط من النسخ، وأثبتناه من المسند. والوَكْتُ: الأثر اليسير. والمَجْلُ: هو التقرّح الذي يصير في اليد بين الجلد واللحم من العمل بفأس أو نحوها، ويصير كالقُبَّة فيه ماء قليل. يقال: مجلت يده تمجل مجلاً، ومجلت تمجَل مَجَلاً.

(5) مُنتبِراً: مرتفعاً.

(6) المبايعة هنا: البيع والشراء المعروفان. ومراده أني كنت أعلم أن الأمانة لم ترتفع، وأن في الناس وفاء بالعهود، فكنت أقدمُ على مبايعة ←

ليردَنّه عليّ دينُه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه عليّ ساعيه، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً[1].

وأخرجاه في الصحيحَين من حديث الأعمش، به[1].

وقال الإمام أحمد. حدثنا حَسنٌ، حدثنا ابن لَهيعَة، عن الحارث بن يَزيدَ الحَضْرَميّ، عن عبد الله بن عَمرو أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «أربعٌ إذا كنَّ فيكَ فلا عَلَيكَ ما فاتكَ من الدُّنيا، حفظُ أمانَةٍ، وصِدقُ حَديثٍ، وحُسن خَليقةٍ، وعِفَّةُ طُعْمَةٍ»[2]. هكذا رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص

وقد قال الطبراني في مسند عبد الله بن عُمَر بن الخطاب: حدثنا يحيى بن أيّوب العَلّاف المصريّ، حدثنا سعيد بن أبي مريمَ، حدثنا ابن لَهيعة، عن الحرث بن يزيدَ، عن ابن حُجَيرة، عن عبد الله بن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ إذا كنَّ فيكَ فلا عليكَ ما فاتكَ من الدنيا: حفظُ أمانةٍ، وصدقُ حديثٍ، وحُسن خَليقةٍ، وعفّةُ طُعمَةٍ». فزاد في الإسناد: «ابن حُجَيرة»، وجعله في مسند ابن عُمَر.

وقد وَرَد النهيُ عن الحَلِف بالأمانة، قال عبد الله بن المبارك في كتاب الزُّهد. حدثنا شَريك، عن أبي إسحاقَ الشَّيباني، عن خُنَاس بن سُحَيم ـ أو قال. جَبَلَة بن سُحَيم ـ قال: أقبلتُ مع زياد بن حُدَير من الجابية[3] فقلتُ في كلامي. لا والأمانة. فجعل زياد يبكي ويبكي، فظننت أني أتيتُ أمراً عظيماً، فقلت له: أكان يُكرَه هذا؟ فقال: نعم. كان عُمَر بنُ الخطاب ينهَى عن الحلف بالأمانة أشدَّ النهي[4].

وقد وَرَد في ذلك مرفوعٌ، قال أبو داود: حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدثنا زُهَير، حدثنا الوليد بن ثعلَبَة الطائي، عن ابن بُرَيدَةَ، عن أبيه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن حَلَفَ بالأمانةِ فَلَيس منّا»[5]، تفرّد به أبو داود، رحمه الله.

وقولُه تعالى: ﴿لِيُعذِّبَ الله المنافقين والمنافقات والمشركينَ والمشركاتِ﴾، أي: إنما حَمَل ابنُ آدم الأمانةَ وهي التكيف ليعذِّبَ الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يُظهِرُون الإيمانَ خوفاً من أهله ويُبطِنُون الكفرَ متابعةً لأهله. ﴿والمشركينَ والمشركاتِ﴾، وهم الذين ظاهرُهم وباطنُهم على الشرك بالله ـ عز وجل ـ ومخالفة رُسُلِه، ﴿ويتوبَ الله على المؤمنين والمؤمنات﴾، أي: وَلِيرحَم المؤمنين من الخلق الذي آمنوا بالله [وملائكته] وكتبه ورُسُله العاملين بطاعته، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾[6].

= من أثق غير باحث عن حاله، وثوقاً بالناس وأماناتهم، فإنه إن كان مسلماً فدينه وأمانته تمنعه من الخيانة وتحمله على أداء الأمانة، وإن كان كافراً فساعيه ـ وهو الوالي عليه ـ كان يقوم أيضاً بالأمانة في ولايته، فيستخرج حقي منه. وأما اليوم فقد ذهبت الأمانة، فما بقي لي وثوقٌ بمن أبايعه، ولا بالساعي في أدائهما الأمانة فما أبايع إلا فلاناً وفلاناً، يعني أفراداً من الناس، أعرفهم وأثق بهم.

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٣٨٣، وفتح الباري، كتاب الفتن ١٣/٣٨، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٧

(٣) في كتاب الزهد: من الكُناسة.

(٤) الزهد للإمام عبد الله بن المبارك ٧٠ ـ ٧١

(٥) سنن أبي داود، كتاب الأيمان والنذور ٣/٢٢٣.

(٦) ورد في آخر الجزء الخامس من نسخة الحرم المكي الشريف: «آخر تفسير سورة الأحزاب، وبه تم الجزء الخامس، ويتلوه تفسير سورة سبأ. والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلّم على محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأزواجه وأصحابه وأنصاره وأصهاره أجمعين، إلى يوم الدين، آمين».

تفسير

سورة سبأ

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾.

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أنَّ له الحمدَ المطلقَ في الدنيا والآخرة، لأنه المُنعِم المتفضِّلُ على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال: ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرةِ وله الحكمُ وإليه تُرجعون﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿الحمدُ لله الذي له ما في السمواتِ وما في الأرضِ﴾، أي: الجميعُ ملكه وعبيده، وتحت قهره وتصرُّفه، كما قال: ﴿وإن لنا للآخرةَ والأولى﴾.

ثم قال: ﴿وله الحمدُ في الآخرةِ﴾، فهو المعبود أبداً، المحمودُ على طُول المَدَى وقال: ﴿وهو الحكيمُ﴾، أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره، ﴿الخبيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيبُ عنه شيء.

وقال مالك عن الزهري: خَبيرٌ بخلقه، حَكيمٌ بأمره. ولهذا قال: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرجُ منها﴾، أي: يعلم عددَ القَطر النازلِ في أجزاء الأرض، والحبَّ المبذورَ والكامنَ فيها، ويعلمُ ما يخرجُ من ذلك، عددَه وكيفيَّته وصفاته، ﴿وما ينزل من السماء﴾، أي من قَطر ورزقٍ، ﴿وما يعرجُ فيها﴾، أي: من الأعمالِ الصالحةِ وغير ذلك، ﴿وهو الرحيمُ الغفورُ﴾، أي: الرحيمُ بعباده فلا يُعاجِل عُصاتهم بالعقوبة، الغفورُ عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ
أَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ ﴾.

هذه إحدى الآيات الثلاث اللاتي لا رابع لهنَّ، مما أمر الله رسوله ـ ﷺ ـ أن يُقسِم بربِّه العظيم على وقوع المَعاد لَمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهنَّ في سورة يونس: ﴿ويستنبئونك أحقٌّ هو قل إي وربِّي

إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾، والثانية هذه. ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾ والثالثة في التغابن. ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتُبعثُنّ ثم لتنبّؤُنّ بما عَملتم وذلك على الله يسير﴾.

فقوله تعالى: ﴿قل بلى وربي لتأتينكم﴾، ثم وَصَفَه بما يؤكد ذلك ويُقرّره: ﴿عالِم الغيب لا يعزُب عنه مثقال ذَرَّةٍ في السموات ولا في الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلا في كتاب مبين﴾، قال مجاهدٌ وقتادة: ﴿لا يعزُب عنه﴾، لا يغيبُ عنه[1]. أي: الجميعُ مندرج تحت عِلْمِه فلا يخفى عليه منه شيءٌ، فالعظام وإن تلاشت وتفرّقت وتمزّقت فهو عالم أين ذَهَبت وأين تفرّقت، ثم يعيدها كما بداها أوّل مرّةٍ، فإنه بكل شيء عليم.

ثم بيّن حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله: ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ * والذين سَعوا في آياتنا معاجزين﴾، أي: سَعَوا في الصدِّ عن سبيل الله وتكذيب رُسُله، ﴿أولئك لهم عذاب من رجز أليم﴾، أي: لِيُنَعِّم السعداء من المؤمنين، ويُعَذِّب الأشقياء من الكافرين، كما قال: ﴿لا يستوي أصحابُ النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾. وقال تعالى: ﴿أم نجعلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾.

وقولُه: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربِّك هو الحقَّ﴾، هذه حكمةٌ أخرى معطوفة على التي قبلها. وهي أن المؤمنين بما أُنزل على الرسل إذا شاهدوا قيامَ الساعة ومجازاةَ الأبرار والفجّار بالّذي كانوا قد عَلِموه من كُتب الله في الدنيا رأوه حينئذٍ عين اليقين، ويقولون يومئذٍ أيضاً: ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾، ويقال أيضاً: ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾، ﴿لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث﴾، ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحقّ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾، العزيزُ هو: المنيع الجَناب، الذي لا يُغالَب ولا يُمانَع، بل قد قهر كلَّ شيء، الحميدُ في جميع أقواله وأفعاله وشَرْعِهِ وقَدَرِه، وهو المحمود في ذلك كلِّه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

هذا إخبارٌ من الله عن استبعاد الكفرة المُلْحِدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول ـ ﷺ ـ في إخباره بذلك: ﴿وقال الذين كفروا هل ندلُّكم على رجل ينبئكم إذا مُزّقتم كُلَّ ممزّق﴾، أي: تفرقت أجسادكم في الأرض، وذهبت فيها كل مذهب، وتمزّقت كل ممزق: ﴿إنكم﴾، أي: بعد هذا الحال ﴿لفي خلق جديد﴾، أي: تعودون أحياءً ترزقون بعد ذلك! وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين، إما أن يكون قد تَعَمَّد الافتراء على الله أنه قد أُوحي إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد لكن لُبِّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون.

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٠

ولهذا قالوا: ﴿أفترى على الله كذباً أم به جنة﴾؟ قال الله تعالى راداً عليهم ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾، أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ـ ﷺ ـ هو الصادق البارّ الراشد الذي جاء بالحقّ، وهم الكذبةُ الجهلةُ الأغبياء، ﴿في العذاب﴾، أي: الكفر المُفضي بهم إلى عذاب الله، ﴿والضلال البعيد﴾ من الحق في الدنيا.

ثم قال منبهاً لهم على قُدرته في خَلْق السموات والأرض، فقال: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾، أي: حيثما توجَّهوا وذهبوا فالسماء مُظِلّة لهم مُطِلّة عليهم، والأرض تحتهم، كما قال: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لَموسِعُون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾.

قال عَبْدُ بن حُمَيد: أخبرنا عبد الرزاق، عن مَعْمر، عن قتادة: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾، قال: إنك إن نظرتَ عن يمينك أو عن شمالك، أو من بين يديك أو من خلفك، رأيت السماء والأرض.

وقولُه: ﴿إن نشأ نخسِفْ بهم الأرضَ أو نسقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء﴾، أي: لو شئنا لفعَلْنا بهم ذلك لِظُلمِهم وقُدرَتِنا عليهم، ولكن نُؤخِّر ذلك لِحلْمنا وعَفْونا.

ثم قال: ﴿إن في ذلك لآية لكل عبد مُنيب﴾، قال معمرٌ عن قتادة: ﴿مُنيب﴾: تائب. وقال سفيانُ عن قتادة: المنيب: المقبل إلى الله عزّ وجلّ.

أي: إن في النظر إلى خَلْق السماء والأرض لدلالةً لكلّ عبد فَطِنٍ لبيب رَجّاعٍ إلى الله، على قُدرةِ الله على بعثِ الأجساد ووقوع المعاد، لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادرٌ على إعادةِ الأجسام ونَشْر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أوَلَيسَ الذي خَلَق السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلُقَ مثلهم بلى﴾، وقال: ﴿لَخلْقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خَلْقِ الناس ولكنّ أكثرَ الناس لا يَعلَمُون﴾.

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

يُخبِر تعالى عما أنعَمَ به على عبده ورسوله داود ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ مما آتاه من الفَضْل المُبين، وجَمَع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العَدَد والعُدَد، وما أعطاه ومَنَحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سَبَّح به تُسبِّح معه الجبالُ الراسياتُ، الصمُّ الشامخاتُ، وتَقِف له الطيورُ السارحات، والغاديات والرائحات، وتُجاوبه بأنواع اللغات. وفي الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ سَمِع صوتَ أبي موسى الأشعريِّ يقرأ من الليل، فوقَفَ فاستمَعَ لقراءته، ثم قال: «لقد أُوتِيَ هذا مِزْمَاراً من مزامير آل داود»[2].

وقال أبو عثمان النَّهدي: ما سمعت صوت صَنْجٍ[3] ولا بَرْبطٍ ولا وَتَرٍ أحسَنَ من صوتِ أبي موسى الأشعري رضي الله عنه[4].

(١) الدر المنثور ٦/٦٧٥.
(٢) فتح الباري، كتاب فضائل القرآن ٩/٩٢، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٤٦.
(٣) الصَّنْج: صفيحة مُدَوَّرة من صُفْرٍ يُضرب بها على أخرى، وصفائح صغيرة مستديرة تُثبَّت في أطراف الدُّفّ أو في أصابع الراقصة يدق بها عند الطرب. والبَرْبط: العود، من آلات الموسيقى.
(٤) أخرجه أبو عُبَيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، وانظر فضائل القرآن لابن كثير لون هذا التفسير

ومعنى قوله: ﴿أَوِّبِي﴾، أي: سبِّحي. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وغيرُ واحد.

وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سبِّحي بلسان الحبشة. وفي هذا نظرٌ، فإن التأويب في اللغة هو الترجيع، فأُمرت الجبال والطير أن تُرَجِّعَ معه بأصواتها.

وقال أبو القاسم عبد الرحمٰن بن إسحاقَ الزجاجيُّ في كتابه «الجُمَل» في باب النداء منه: ﴿يا جبالُ أَوِّبِي معه﴾، أي: «سيري معه بالنهار كلِّه، والتأويب: سيرُ النهار كلِّه، والإسآد: سيرُ الليل كلِّه»(١). وهذا لفظُه، وهو غريبٌ جداً لم أجِدْه لغيره، وإن كان له مساعَدةٌ من اللفظ في اللغة، لكنه بعيد في معنى الآية هاهنا. والصوابُ أن المعنى في قوله تعالى: ﴿أوبي معه﴾، أي: رَجِّعي مُسَبِّحة معه، كما تقدم، والله أعلم.

وقولُه: ﴿وألنا له الحديد﴾، قال الحسنُ البصري، وقتادةُ، والأعمشُ وغيرهم: كان لا يحتاج أن يُدخِله ناراً ولا يضربَه بمطرقة، بل كان يَفتِلُه بيده مثلَ الخيوط، ولهذا قال: ﴿أن اعمل سَابغاتٍ﴾، وهي: الدروع، قال قتادةُ: وهو أول من عملها من الخَلَق(٢)، وإنما كانت قبلَ ذلك صَفائحَ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا ابن سماعة، حدثنا ابن ضَمرة، عن ابن شَوْذَب قال: كان داود ـ عليه السلام ـ يَرْفَع في كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم: ألفين له ولأهله، وأربعة آلافَ دِرْهم يُطعِم بها بني إسرائيل خبزَ الحُوَّاري(٣).

﴿وَقَدِّر في السرد﴾، هذا إرشاد من الله لنبيه داود ـ عليه السلام ـ في تَعْليمه صنعةَ الدروع.

قال مجاهدٌ في قوله: ﴿وقَدِّر في السرد﴾: لا تُدِقَّ المسمار فَيقلَقَ في الحَلْقَة، ولا تُغَلِّظْهُ فيفصِمَها، واجعله بِقَدَر(٤).

وقالَ الحكم بن عُتَيبة: لا تُغلِظْه فَيَفْصِم، ولا تُدِقَّه فيقلَق. وهكذا رُوِيَ عن قتادَةَ، وغير واحد.

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: السَّرد: حَلَقُ الحديد. وقال بعضهم: يقال: دِرْع مسرودةٌ: إذا كانت مَسْمُورَةَ الحَلَق، واستشهد بقول الشاعر(٥):

وَعَليهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ، او صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ

وقد ذكر الحافظُ ابنُ عساكرَ في ترجمةِ داود ـ عليه السلام ـ من طريق إسحاق بن بشر ـ وفيه كلام ـ عن أبي إلياس(٦)، عن وهب بن مُنَبِّه ما مضمونُه: أن داود ـ عليه السلام ـ كان يخرجُ متنكراً، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً في عبادته وسيرته ومعدلته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قال وهب: حتى بَعَث الله ملكاً في صُورَةِ رجل، فلقيه داود فسأله كما كان يسأل غيره، فقال: هو خيرُ الناس لنفسه ولأمته، إلا أن فيه خَصلةً لو لم تكن فيه كان كاملاً. قال: ما هي؟ قال: يأكل ويُطعِم عياله من مال المسلمين. يعني بيت المال، فمتد ذلك نَصِبَ(٧) داود ـ عليه السلام ـ إلى ربِّه في الدعاء أن يُعَلِّمه عملاً بيده يستغني به

(١) الجمل في النحو ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٢) الحَلَق ـ بفتحتين ـ : جمع الحلْقة، وهي كلُّ شيء استدار. وتجمع الحَلْقة أيضاً على حِلَقٍ وحِلاَقٍ.
(٣) الحُوَّارَى: الدقيق الأبيض، وهو لُبابُ الدقيق.
(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٨.
(٥) أبو ذؤيب الهذلي: انظر ديوان الهذليين ١/ ١٩. قضاهما: فرغ منهما. والصَّنَعُ: الحاذق في الصنعة
(٦) هو إدريس بن سنان اليماني، مترجم في تهذيب الكمال ٢/ ٢٩٨.
(٧) أي: جدَّ واجتهد في الدعاء.

ويُغني به عياله، فألان له الحديد، وعلَّمه صنعة الدروع، فعمِل الدرع، وهو أولُ من عملها، فقال الله: ﴿أَنِ اعمل سابغاتٍ وقدِّر في السرد﴾، يعني مسامير الحَلَق، قال: وكان يعمل الدرع، فإذا ارتفع من عمله درْعٌ باعها، فتصدَّق بثلثها، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدَّق به يوماً بيوم إلى أن يعمَلَ غيرها. وقال: إن الله أعطى داود شيئاً لم يُعطِه غيره من حُسْنِ الصوت، إنه كان إذا قرأ الزبُور تسمَعُ الوحشُ إليه حتى يُؤخذ بأعناقها وما تَنفِرُ، وما صنعت الشياطينُ المزاميرَ والبرابطَ والصُّنوجَ إلا على أصناف صوته، وكان شديد الاجتهادِ، وكان إذا افتتحَ الزبور بالقراءة كأنما ينفخ في المزامير، وكأن قد أُعطي [مِزْماراً] في حَلْقِهِ.

وقولُه: ﴿واعمَلُوا صالحاً﴾، أي: في الذي أعطاكُم الله من النِّعَمِ، ﴿إنِّي بما تعملون بصير﴾، أي مراقِبٌ لكم، بصيرٌ بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى عَلَيَّ من ذلك شيء.

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى ما أنعَمَ به على داود عَطَفَ بذكر ما أعطى ابنه سليمان بن داود من تسخير الريح له تحمل بساطه، غُدوُّها شهر ورواحها شهر.

قال الحسنُ البصريُّ: كان يغدُو [على بساطه] من دمشق فينزل بإصطخر يتغدَّى بها، ويذهبُ رائحاً من إصْطَخْرَ فيبيت بكابُل، وبين دمشقَ وإصْطَخْرٍ شهر كامل للمُسرِع، وبين إصْطَخْرَ وكابُلَ شهر كامل للمُسْرِع[١].

وقولُه: ﴿وأسلنا له عين القطر﴾، قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وعطاءُ الخراسانيُّ، وقتادةُ، والسديُّ، ومالك عن زيد بن أسلم، وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، وغيرُ واحد: القِطْر النُّحاسُ. قال قتادةُ: وكانت باليمن، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمانَ عليه السلام. قال السديُّ: وإنما أُسيلَتْ له ثلاثة أيام[٢].

وقولُه: ﴿ومن الجنّ من يعملُ بين يديه بإذن ربِّه﴾، أي: وسخَّرنا له الجنَّ يعملون بين يديه بإذن الله، أي: القَدَرِيِّ، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاءُ من البنايات وغير ذلك. ﴿ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا﴾، أي ومن يَعدِل ويخرجْ منهم عن الطاعة ﴿نُذِقه من عذاب السعير﴾، وهو الحريقُ.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً فقال: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا معاويةُ بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جُبَير بن نُفَير، عن أبي ثعلبة الخُشَنِيِّ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: والجن على ثلاثة أصنافٍ: صنف له أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حياتٌ وكلابٌ، وصنف يَحِلُّون ويظعنون. رفعُه غريبٌ جداً.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا حَرْمَلَةُ، حدثنا ابنُ وَهْبٍ، أخبرني بكر بن مُضَر، عن محمد [بن يحيى]، عن ابن أنعم أنه قال: الجنُّ ثلاثةٌ: صنف لهم الثوابُ وعليهم العقابُ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض، وصنفٌ حياتٌ وكلابٌ.

---

(١) إِصْطَخْر: من أقدم مدن فارس، وكابُل: قاعدة بلاد الأفغان.
(٢) انظر تفسير الطبري ٢٢/ ٦٩ ـ ٧٠

قال بكر بن مُضر ولا أعلم إلا أنه قال: حدثني أن الإنس ثلاثة. صنف يُظلُّهم الله بظلِّ عرشه يوم القيامة، وصنف كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً، وصنف في صُوَر الناس على قلوب الشياطين.

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا سلمة -يعني ابن الفضل- عن إسماعيل، عن الحسن قال: الجن ولدُ إبليس، والإنسُ ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون، وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهوَ وَلِيُّ الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان.

وقولُه: ﴿يَعمَلُون لَهُ ما يشاء من محاريب وتماثيل﴾، أما المحاريب فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدرُه[1].

وقال مجاهد: المحاريب بنيان دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجدُ. وقال قتادة: هي القصور والمساجد. وقال ابنُ زيد: هي المساكن. وأما التماثيل فقال عطيةُ العوفي، والضحاك والسديُّ: التماثيل، الصُّوَر. قال مجاهد: وكانت من نحاس. وقال قتادةُ: من طين ومن زجاج.

وقولُه: ﴿وجفانٍ كالجوابِ وقدور راسيات﴾، الجَوَاب: جمع جَابِية، وهي الحوض الذي يُجبى فيه الماء، كما قال الأعشى ميمونُ بن قيس[2]:

تَـرُوحُ عَـلَى آل الـمُـحَـلَّق جَـفْـنَـةٌ كَـجَـابِـيَـةِ الـشَّـيْـخ الـعِـرَاقِيِّ تَـفْـهَـقُ

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: (كالجواب)، أي: كالجَوْبَة من الأرض[3]. وقال العوفي، عنه: كالحياض. وكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادةُ، والضحاكُ، وغيرهم.

والقدورُ الراسيات: أي الثابتاتُ في أماكنها، لا تتحوّلُ ولا تتحرّكُ عن أماكنها لعظَمِها. كذا قال مجاهد، والضحاك، وغيرهما. وقال عكرمة: أثافيُّها منها[4].

وقوله: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾، أي: وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أُنعِم به عليكم في الدنيا والدين.

وشُكراً: مصدر من غير الفعل[5]، أو أنه مفعولٌ له، وعلى التقديرين فيه دلالةٌ على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنيّة، كما قال[6]:

أَفَـادَتْـكُمُ الـنَّـعْـمَـاءُ مِـنِّـي ثَـلاثَـةً: يَـدِي، وَلِـسَـانِي، والـضَّـمِـيـرَ الـمُـحَـجَّـبَـا

---

(١) عن نسخة.

(٢) ديوانه ١٣١، وفيه يُروَى صدرُه:

نَفَى الذَّمَّ عن آل المُحلَّق جفنةٌ

والبيت في تفسير الطبري ٧١/٢٢ كما هنا.

ويقول المبرد في الكامل ٩/١: وكذا ينشده أهل البصرة، وتأويله عندهم أن العراقي إذا تمكن من الماء ملأ جابيته، لأنه حضريٌّ، فلا يعرف مواقع الماء ولا محالَّهُ. ثم ذكر أنه سمع أعرابية تنشد البيت: «كجابية السَّيْح»، بالسين، تريد النهر الذي يجري على جابيته، فملؤها لا ينقطع، لأن النهر يمدُّه. وانظر أيضاً الكامل ٩٨٨/٢.

(٣) الجوبة: الحفرة المستديرة الواسعة

(٤) الأثافيّ: جمعُ أثفيَّة، وهي أحدُ أحجار ثلاثة تُوضَعُ عليها القِدْر.

(٥) يريد أنه مفعول مطلق من غير فعله، قال الطبري ٧٢/٢٢: «وأخرج قوله ﴿شكراً﴾ مصدراً من قوله ﴿اعملوا آل داود﴾، لأن معنى قوله ﴿اعملوا﴾ اشكروا ربكم بطاعتكم إياه».

(٦) البيت في الكشاف عند تفسير آية الفاتحة ٧/١، والدر المصون ٣٦/١

قال أبو عبد الرحمٰن السُّلمي[1]: الصلاةُ شكرٌ، والصيامُ شكرٌ، وكلُّ خيرٍ تعمله لله شكر. وأفضلُ الشُّكر الحمد. رواه ابن جرير.

وروى هو وابنُ أبي حاتم، عن محمد بن كعب القُرَظيِّ قال: الشكر تقوى الله والعملُ الصالح.

وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود ـ عليه السلام ـ كذلك قائمين بشكر الله قولاً وعملاً.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي بكر، حدثنا جعفر ـ يعني ابن سليمان ـ عن ثابت البُناني قال: كان داود ـ عليه السلام ـ قد جزَّأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، كان لا تأتي عليهم ساعةٌ من الليل والنهار إلا وإنسانٌ من آل داودَ قائم يصلي، فعمّرتهم هذه الآية. ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليلٌ من عبادي الشكور﴾.

وفي الصَّحيحَين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن أحبَّ الصلاة إلى الله صلاةُ داود، كان ينامُ نصف الليل، ويقومُ ثلثه، وينام سُدُسه، وأحبُّ الصيامِ إلى الله صيامُ داودَ، كان يصومُ يوماً ويُفطر يوماً، ولا يَفِرُّ إذا لاقى»[2].

وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سُنَيد بن داود، حدثنا يوسف بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جابر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قالت أمُّ سليمانَ بن داود لسليمان: يا بُنَيّ، لا تُكثِرِ النومَ بالليل، فإنَّ كثرة النَّوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة»[3].

وروى ابن أبي حاتم عن داود ـ عليه السلام ـ هاهنا أثراً غريباً مطولاً جداً، وقال أيضاً:

حدثنا أبي، حدثنا عمرانُ بن موسى، حدثنا أبو يزيدَ فيضُ بن إسحاقَ الرقِّي قال: قال فُضَيل في قوله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾. فقال داود: يا رب، كيف أشكرك، والشكر نعمةٌ منك؟ قال: «الآن شكرتَني حين قُلتَ: إنَّ النعمةَ مني».

وقوله: ﴿وقليل من عبادي الشُّكُور﴾، إخبارٌ عن الواقع.

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾.

يذكر تعالى كيفيةَ موتِ سليمان ـ عليه السلام ـ وكيف عمَّى الله موته على الجانِّ المسخَّرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه ـ وهي مِنْسَأته ـ كما قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والحسنٌ، وقتادةُ وغير واحد ـ مُدَّةً طويلةً نحواً من سنة، فلما أكلتها دابةُ الأرض ـ وهي الأَرَضَةُ ـ ضَعُفَت وسقط إلى الأرض، وعُلِم أنه قد كان مات قبل ذلك بمدة طويلة ـ تبيَّنَتِ الجنُّ والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهَّمون ويُوهِمُون الناس ذلك.

وقد وَرَد في ذلك حديثٌ مرفوعٌ غريبٌ، وفي صِحَّته نظر، قال ابن جرير:

(١) كذا، ولعله الحبلي، فالأثر مروي في تفسير الطبري بإسناده إلى زهرة بن معبد، عن الحبلي.
(٢) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٤٥٥، ومسلم، كتاب الصيام ٢/٨١٦.
(٣) سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة ١/٤٢٢.

حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: وكان سليمان نبي الله ـ عليه السلام ـ إذا صَلّى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها: ما اسمُكِ؟ فتقول: كذا. فيقول: لأي شيءٍ أنتِ؟ فإن كانت لغرس غُرِسَتْ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ»[1]. فبينما هو يُصَلِّي ذاتَ يوم إذ رأى شجرةً بين يديه، فقال لها: ما اسمُكِ؟ قالت: الخَرُّوبُ. قال: لأيِّ شيءٍ أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت. فقال سُليمان: اللهمَّ، عَمِّ على الجنِّ موتتي حتى يعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيبَ. فنحتها عصاً، فتوكأ عليها حولاً ميتاً، والجن تعمل، فأكلتها الأرضةُ، فتَبيَّنتِ الإنسُ أن الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لَبِثوا حَوْلاً في العذابِ المُهين

قال: وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال: فشكَرَتِ الجنُّ للأرضَةِ فكانت تأتيها بالماء»[2].

وهكذا رواه ابن أبي حاتم، من حديث إبراهيم بن طَهْمَان، به. وفي رَفْعِه غرابةٌ ونَكارةٌ، والأقربُ أن يكونَ موقوفاً، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غراباتٌ، وفي بَعْضِ حديثه نَكارَةٌ.

وقال السديُّ في حديث ذَكَره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس. وعن مُرَّةَ الهَمْدانيِّ، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ قال: كان سليمان يَتحرَّدُ[3] في بيت المقدس السنة والستين والشهر والشهرين، وأقلَّ من ذلك وأكثَر، يُدخِلُ طعامَه وشرابه، فأدخله في المرَّة التي تُوفِّيَ فيها. وكان بدءُ ذلك أنه لم يكن يومٌ يصبح فيه إلا نَبَتت في بيت المقدس شجرة، فيأتيها فيسألها: ما اسمُكِ؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا. فإن كانت لغرس غَرَسها، وإن كانت نَبَتَت دواءٍ قالت: نَبَتُّ دواءً لكذا وكذا، فيجعلها كذلك، حتى نَبَتت شجرة يقال لها: الخَرُّوبة، فسألها: ما اسمُكِ؟ فقالت: أنا الخَرُّوبة. قال: ولأيِّ شيءٍ نَبَتِّ؟ قالت: نَبَتُّ لخرابِ هذا المسجدِ؟ قال سُليمان: ما كان الله لِيُخرِّبه وأنا حَيٌّ؟ أنت التي على وجهك هلاكي وخَرابُ بيتِ المقدس. فنزعها وغرسَها في حائط له، ثم دخل المِحرابَ فقام يُصَلِّي مُتكِئاً على عصاه، فمات ولا تعلَمُ به الشياطين، وهم في ذلك يعمَلُون له، يخافون أن يَخرُج فيعاقبهم. وكانت الشياطينُ تجتمع حول المحراب، وكان المحراب له كُوىً بين يديه وخَلْفَه، فكان الشيطانُ الذي يريد أن يخلَع[4] يقول: ألستُ جَلْداً إن دخلتُ فخرجتُ من ذلك الجانب؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخَل شيطان من أولئك فمر، ولم يكن شيطانٌ ينظر إلى سليمان في المحراب إلا احترق. فمَرَّ ولم يسمع صوتَ سُليمان، ثم رَجَع فلم يسمع، ثم رَجَع فوقع في البيت ولم يحترق. ونَظَر إلى سُلَيمان ـ عليه السلام ـ قد سقط ميتاً. فخَرَج فأخبر الناس أن سُلَيمان قد مات. ففتحوا عنه فأخرجوه. وَوَجدوا مِنْسأته ـ وهي العَصَا بلسان الحبشة ـ قد أكلتها

---

(١) ورد نص الحديث في النهاية، مادة خرب أن الشجرة تقول: «أنا دواء من داء كذا، فيأمر بها فتقطع، ثم تُصرّ، ويكتب على الصرّة اسمها ودواؤها».

(٢) تفسير الطبري ٢٢/٧٤

(٣) في النسخ: يتحرّز. وفي تفسير الطبري: يتجرّد. ولعلّ الصواب ما أثبتناه، ففي اللسان: «حَرَد يحرِدُ حروداً، أي: تنحّى وتحوّل عن قومه ونزل منفرداً لم يخالطهم. وفي حديث صعصعة: فرُفع لي بيتٌ حريدٌ، أي منتبذٌ متنحٍّ عن الناس، من قولهم: تحرّد الجملُ: إذا تنحّى عن الإبل فلم يبرك، وهو حريدٌ فريد. وكوكبٌ حريد: طلع منفرداً. وفي الصحاح: معتزل عن الكواكب، والمتحرِّد: المنفرد، في لغة هذيل، قال أبو ذؤيب:

كأنه كوكبٌ في الجوِّ مُنْحَرِدُ

ورواه أبو عمرو بالجيم، وقال: هو سُهيل».

وعلى هذا يمكن أن يقال فيه أيضاً: يتجرّد، ففي اللسان أيضاً: «وتجرّد الفرس وانجرد: تقدّم الحلْبَةَ فخرج منها، وتجرّد للأمر: جدّ فيه، وكذلك تجرّد في سيره وانجرد. وإذا أجدّ في القيام بأمر: تجرّد لأمر كذا، وتجرّد للعبادة».

(٤) أي: يخرج عن طاعته

الأرضةُ، ولم يعلمُوا منذ كم مات؟ فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها يوماً وليلةً، ثم حَسَبُوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنةٍ. وهي في قراءة ابن مسعود: «فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولاً» فأيقن الناس عند ذلك أن الجنّ كانوا يكذبُونَهم ولو أنّهم عَلِموا الغيب لَعلمُوا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب يعمَلُون له سنة، وذلك قولُ الله عز وجل: ﴿ما دلَّهم على موته إلّا دابَّةُ الأرض تأكل منْسَأته فلما خرَّ تبيّنتِ الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لَبثوا في العذاب المهين﴾، يقول: تبيَّن أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبُونهم ثم إن الشياطين قالوا للأرضَةِ: لو كُنْتِ تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين[1] الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكنا سننقُل إليك الماء والطين. قال: فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت. قال: ألم تر إلى الطين الذي يكون في جَوْفِ الخشب؟ فهو ما تأتيها به الشياطينُ تشكُّراً لها[2].

وهذا الأثر، والله أعلم، إنما هو مما تُلُقّي من علماء أهل الكتاب، وهي وَقْفٌ لا يُصدَّق منه إلا ما وافق الحقَّ، ولا يُكَذَّب منه إلا ما خالَفَ الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

وقال ابنُ وهب وأصبغُ بن الفَرَج، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿ما دلَّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل مِنْسَأته﴾، قال: قال سُليمان ـ عليه السلام ـ لملك الموت: إذا أُمِرْت بي فأعلمني. فأتاه فقال: يا سليمان، قد أُمِرْتُ بك، قد بَقِيتْ لك سُوَيعة. فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير، وليس له باب، فقام يُصَلّي فاتكأ على عصاه، قال: فدخَلَ عليه مَلَك الموت، فقبض رُوحَه وهو متوكىء على عصاه، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت. قال: والجن تَعمَلُ بين يديه وينظرون إليه، يحسَبُون أنه حيٌّ. قال: فبعث الله ـ عز وجل ـ دابةَ الأرض، قال: والدابة تأكل العيدان ـ يقال لها: القادحُ ـ فدخلت فيها فأكلتْها، حتى إذا أكلت جوفَ العصا ضَعُفَتْ، وثقُل عليها فخرَّ ميتاً، فلما رأت ذلك الجنُّ انفضُّوا وذهبوا، قال: فذلك قولُه: ﴿ما دلَّهم على مَوْته إلا دابةُ الأَرضِ تأكل منسأته﴾[3]. قال أصبغ: بلغني عن غيره أنها أقامَتْ سنةً تأكلُ منها قبل أن يَخِرّ.

وقد ذَكَر غيرُ واحدٍ من السلَفِ نحواً من هذا، والله أعلم.

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

كانت سَبَأ ملوكَ اليَمَنِ وأهلها، وكانت التبابعةُ منهم، وبِلْقيس ـ صاحبةُ سليمان ـ منهم، وكانوا في نِعْمَةٍ وغِبْطَةٍ من بلادهم وعَيْشِهم واتساع أرزاقِهم وزُرُوعهم وثمارهم. وبَعَث الله إليهم الرسلَ تأمرهم أن يأكلُوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضُوا عما أُمِرُوا به، فعُوقِبُوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شَذَرَ مَذَرَ كما يأتي تفصيلُه وبيانه قريباً إن شاء الله تعالى، وبه الثقة

(١) في نسخة: تشتهين الشراب.
(٢) تفسير الطبري ٢٢/٧٤ ـ ٧٥.
(٣) انظر أثر ابن وهب عن ابن زيد في تفسير الطبري ٢٢/٧٥ ـ ٧٦

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا ابن لَهيعة، عن عبد الله بن هُبَيرة، عن عبد الرحمن بن وَعْلَة قال: سمعتُ ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن سَبَإٍ. ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «بل هو رجل، وَلَد عَشْرَة، فَسَكَنَ اليمنَ ستةٌ، وبالشام منهم أربعةٌ، فأما اليمانيون فَمَذْحِجُ وكِندةُ، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحِمْيَر وأما الشامية فلَخْمٌ، وجُذَام، وعاملةُ، وغَسَّان»(١).

ورواه عَبْدٌ، عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعةَ، به. وهذا إسناد حسن، ولم يخرجوه. وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب «القَصْدُ والأمَمْ، بمعرفة أُصول أنساب العرب والعَجَم»، من حديث ابن لَهيعَة، عن علقَمَة بن وعلَة، عن ابن عباس، فذكر نحوه.

وقد روى نحوه من وجه آخر. وقال الإمام أحمد (٢) أيضاً وعبدُ بن حُمَيد: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، حدثنا أبو جَنَاب يحيى بن أبي حَيَّةَ الكلبي، عن يحيى بن هانىء بن عُروَة، عن فَرْوَة بن مُسَيك قال: أتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسولَ الله، أقاتل بمُقبل قومي مُدبِرَهم؟ قال: «نَعَم، فقاتِلْ بمُقبِل قَومِكَ مُدبِرَهم». فلما وَلَّيت دعاني فقال: «لا تقاتِلْهُم حتى تدعُوهم إلى الإسلام». قلت: يا رسولَ الله، أرأيت سَبَأً أوادٍ هو أو رجل، أَمْ ما هو؟ قال: «بل رجل من العرب، وُلِدَ له عَشَرةٌ فتَيامَنَ ستةٌ وتشاءم أربعةٌ، تَيامن الأزدُ، والأشعريون، وحِمْيرٌ، وكِندةَ، ومَذْحِج، وأنمار الذين يقال لهم بَجيلةُ، وخثعم. وتشاءم لَخْم، وجُذَام، وعامِلَةُ، وغَسَّان».

وهذا أيضاً إسنادٌ جَيِّدٌ وإن كان فيه أبو جَنَاب الكَلْبي، وقد تَكلّموا فيه. لكن رواه ابن جَرير عن أبي كُرَيب، عن العنقزيِّ، عن أسباط بن نصر، عن يحيى بن هانىء المُرَادِيِّ، عن عَمِّه أو عن أبيه ـ يشك أسباط ـ قال: قدم فَرْوَةُ بن مُسَيك على رسول الله ـ ﷺ ـ فذكره(٣).

طريقٌ أخرى لهذا الحديث، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا يونُس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وَهب، حدثني ابن لَهيعة، عن تَوْبَةَ بن نَمِر(٤)، عن عبد العزيز ابن يحيى أنه أخبره قال: كنا عند عُبَيدة بن عبد الرحمٰن بإفريقية فقال يوماً: ما أظنُّ قوماً بأرض إلا وهم من أهلها. فقال علي بن رَبَاح: كلاّ، قد حَدَّثني فلان أنَّ فَرْوَةَ بن مُسَيك الغُطَيفي قَدِم على رَسُول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا نَبيَّ الله، إن سَبَأً قومٌ كان لهم عزٌّ في الجاهلية، وإنّي أخشى أن يرتدُّوا عن الاسلام، أفأقاتلهم؟ فقال: «ما أُمِرْتُ فيهم بشيءٍ بعدُ». فأُنزلت هذه الآية: ﴿لقد كان لسبإٍ في مساكنهم(٥) آية﴾. الآيات، فقال له رجلٌ: يا رسول الله، ما سبأ، فذكرَ مثلَ حديث [الذي] قبله: أن رسول الله ـ ﷺ ـ سُئل عن سبأ: ما هو؟ أبلد، أم رجل، أم امرأة؟ قال: «بل رجل، وَلَد عَشَرَة فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة، أما اليمانيون فَمَذْحِجٌ، وكِنْدَة، والأزدُ، والأشعريّون، وأنمارٌ، وحِمْيَرٌ غير ما حلها. وأما الشام فلخم، وجُذَام، وغَسَّانُ، وعاملةُ».

فيه غرابة من حيث ذكر الآية بالمدنية، والسورة مكيّة كلها، فالله أعلم.

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/٣١٦.

(٢) كلمة «أحمد» ساقطة من نسخة الأزهر ولم يقع لنا هذا الحديث في المسند، لكن رواه أبو داود في كتاب الحروف ٤/٣٤، والترمذي في تفسير سورة سبأ كلاهما من غير هذه الطريق، انظر عارضة الأحوذي ١٢/٩٨ - ١٠١

(٣) تفسير الطبري ٢٢/٧٧.

(٤) في النسخ نمير. والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/٤٤٦، والمؤتلف والمختلف للدارقطني ١/٢٧٤.

(٥) كذا في النسخ. (مساكنهم)، بالجمع وهي قراءة الجمهور، وقرأ بالإفراد من السبعة حفص وحمزةُ والكسائي، انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٣٩

طريق أخرى، قال ابن جرير:

حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا أبو أسامةَ، حدثني الحسن بن الحكم، حدثنا أبو سَبْرة النخعي، عن فروة بن مُسَيك الغطيفي قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، أخبرني عن سبأ، ما هو؟ أرض، أم امرأة؟ قال: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجلٌ وَلَدَ عشرةً من الولد، فتيامنَ ستة وتشاءم أربعة، فأما الذين تشاءموا فلخمٌ وجُذام وعاملةُ وغسَّانُ. وأما الذين تيامنوا فكِندةُ، والأشعريُّون، والأزدُ، ومذحجٌ، وحِميَرٌ، وأنمار». فقال رجل: ما أنمار؟ قال: «الذين منهم خَثْعَمٌ وبَجيلةُ»[1].

ورواه الترمذي في جامعه، عن أبي كُرَيب وعبدِ بن حميد قالا: حدثنا أبو أسامة... فذكره أبسط من هذا، ثم قال: «هذا حديث حسن غريب»[2].

وقال أبو عمر بنُ عبد البر: حدثنا عبد الوارث بن سفيان، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا أحمدُ بن زهير، حدثنا عبدُ الوهاب بن نجدَة الحَوْطيُّ، حدثنا ابن كثير ـ هو عثمان بن كثير ـ عن الليث بن سعد، عن موسى بن علي، عن يزيد بن حُصَين، عن تميم الداريِّ أن رجلاً أتى رسول الله ـ ﷺ ـ فسأله عن سبأ... فذكر مثله، فَقَوِيَ هذا الحديث وحَسُنَ.

قال علماءُ النَّسب، منهم محمدُ بن إسحاق: اسمُ سبأ عبدُ بن شمس بن يشجُب بن يعرُب بن قحطان[3].

وإنما سُمِّيَ سَبأً لأنه أوَّلُ من سَبَى في العَرَب. وكان يُقال له الرائش، لأنه أول من غَنِم في الغزو فأعطى قومه، فَسُمِّيَ الرائشَ، والعرب تسمي المال: رِيشاً ورِياشاً. وذكروا أنه بشَّر برسول الله ـ ﷺ ـ في زمانه المتقدم، وقال في ذلك شعراً[4]:

سَيَمْلِكُ بَعْدَنَا مُلْكاً عَظِيماً نَبيٌّ لا يُرَخِّصُ في الحَرَامِ[5]
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُ مِنْهُمْ مُلُوكٌ يَدِينُونَ العِبَادَ بِغَيْرِ ذَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَهُمْ مِنَّا مُلُوكٌ يَصِيرُ المُلْكُ فِينَا بِاقْتِسَامِ
وَيَمْلِكُ بَعْدَ قَحْطَانٍ نَبِيٌّ تَقِيٌّ جَبِينُهُ[6] خَيْرُ الأَنَامِ
وسُمِّيَ[7] أحْمَداً يَا لَيْتَ أَنِّي أُعَمَّرُ بَعْدَ مَبْعَثِهِ بِعَامِ
فَأَعْضُدُهُ وأَحْبُوهُ بِنَصْرِي بِكُلِّ مُدَجَّجٍ وَبِكُلِّ رَامِ
مَتَى يَظْهَرْ فَكُونُوا نَاصِرِيهِ وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلِغْهُ سَلَامِي

ذكر ذلك الهَمْدانيُّ في كتاب «الإكليل».

واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال، أحدها: أنه من سلالة إرَم بن سام بن نوح، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق.

(١) تفسير الطبري ٢٢/٧٦ـ ٧٧
(٢) تقدم تخريج حديث الترمذي من قريب
(٣) سيرة ابن هشام ١/١٠
(٤) الأبيات في البداية والنهاية لابن كثير ٢/١٤٧، وقد ذكرها عن ابن دحية في كتابه التنوير في مولد البشير النذير
(٥) في هامش إحدى النسخ عند هذا البيت: «يعني سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ أحد ملك بلقيس»
(٦) في النسخ بغير نقط. وفي البداية والنهاية «جبينه» ولا يستقيم الوزن عليه. يقال: أغلان ناصع الجيب، يعنون طهارة قلبه وصدره وأمانته
(٧) في نسخة: تسمى. وعلى هامشها: «وأحمد اسمه»

والثاني: أنه من سُلالة عابَر، وهو هُودُ عليه السلام، واختلفوا في كيفيَّةِ اتِّصال نَسَبِه به على ثلاث طرائق أيضاً.

والثالث: أنه من سُلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل ـ عليهما السلام ـ واختلفُوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً. وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظُ أبو عُمَر بن عبد البر النَّمرِيّ رحمه الله، في كتابه: «الإنباهُ على ذِكْرِ أصولِ القبائل الرواة».

ومعنى قوله عليه السلام: «كان رَجُلاً من العرب»، يعني: العربَ العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه السلام، من سُلالة سام بن نوح. وعلى القول الثالث: كان من سلالة الخليل عليه السلام، وليس هذا بالمشهور عندهم، والله أعلم. وفي صحيح البخاري أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ مرَّ بنفر من «أسلَم» يتنضلون[1]، فقال: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً»[1]. فأسلم قبيلةٌ من الأنصار، [والأنصارُ] أوسُها وخزرجُها من غسان من عرب اليمن من سبأ ـ نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد، حين بعث الله عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام، وإنما قيل لهم: غسَّان، بماء نزلوا عليه قيلَ: باليمن، وقيل: إنه قريب من المُشلَّل[2]، كما قال حسان بن ثابت[3]:

إمَّا سألتَ فإنَّا معشرٌ نُجُبٌ الأزْدُ نِسْبتُنا، والماء غسَّانُ

ومعنى قوله: «وَلَدَ عشرةً من العَرَب»، أي: كان من نسله هؤلاء العشرةُ الذين يرجِعُ إليهم أصولُ القبائل من عَرَبِ اليمن، لا أنهم وُلدوا من صلبه، بل منهم من بينه وبينه الأبوانِ والثلاثةُ والأقلُّ والأكثر، كما هو مُقرَّر مبين في مواضعه من كُتُب النسب.

ومعنى قوله: «فتيامن منهم ستَّةٌ، وتشاءمَ منهم أربعةٌ»، أي: بعد ما أرسل عليهم سيل العَرِم، منهم من أقام ببلادهم، ومنهم من نزَح عنها إلى غيرها. وكان من أمر السدِّ أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضاً سيولُ أمطارهم وأوديتهم، فعَمَدَ ملوكُهم الأقادم، فبنوا بينهما سداً عظيماً مُحكَماً حتى ارتفع الماءُ، وحُكِمَ على حافات ذَينِكَ الجبلين، فغرسوا الأشجار واستغلُّوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن. كما ذَكَرَه غير واحد من السلف، منهم قتادةُ: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مِكْتَلٌ أو زَنْبِيل، وهو الذي تَخْتَرِفُ[4] فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يُحتاجَ إلى كُلْفَةٍ ولا قِطاف، لكثرته ونضجه واستوائه. وكان هذا السدُّ بمأرِبَ: بلدة بينها وبين صنعاء ثلاثُ مراحِل، ويعرف بسدِّ مأرِبَ.

وذكر آخرون أنه لم يكُن ببلدهم شيءٌ من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيءٌ من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحَّةِ المزاج وعناية الله بهم، ليوحِّدوه ويَعبُدوه، كما قال تعالى: ﴿لقد كان لسبإ في مساكنهم آية﴾[5]، ثم فسَّرها بقوله: ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾، أي: من ناحيتي الجَبَلين والبلدةُ بين ذلك، ﴿كُلُوا من رِزْقِ ربكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ وربٌ غفور﴾، أي: غفور لكم إن استمرَرْتم على التوحيد.

وقولُه: ﴿فأعرضوا﴾، أي: عن توحيدِ الله وعبادته وشُكْرِه على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة

---

(١) فتح الباري، كتاب المناقب ٦/٥٣٧.
(٢) المُشلَّل: جَبَلٌ يُرَاه قريباً، ولها قريب من المدينة ـ يُهبط منه إلى قُديد من ناحية البحر، وقُديد: موضع قرب مكة.
(٣) ديوانه ٢٧٩.
(٤) أي: تجتنيه. وأصله ما كان جَنَّى في الخريف.
(٥) تقدَّم تخريج هذه القراءة من قريب

الشمس، كمَا قال هُدْهُد سليمان: ﴿وجئتك من سبإ بنبإ يقين * إني وجدتُ امرأةً تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتُها وقومها يسجدُون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾.

وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن مُنَبِّه: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً. وقال السُّدي: أرسل الله إليهم اثني عشر ألفَ نبيٍّ. فالله أعلم.

وقولُه: ﴿فأرسلنا عليهم سيلَ العَرِمِ﴾، قيل: المراد بالعرم المياهُ. وقيل: الوادي. وقيل: الجُرذ[1]. وقيل: الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته، مثل: «مسجد الجامع» و «سعيد كُرْز»[2]، حكى ذلك السهيلي.

وذكر غيرُ واحدٍ منهم ابن عباس، ووهب بن مُنَبِّه، وقتادةُ، والضحّاك: أن الله ـ عز وجل ـ لما أراد عُقُوبَتهم بإرسال العَرِم عليهم، بعث على السد دابّةً من الأرض، يقال لها «الجُرَذ» نقبَتْه. قال وهب بن منبّه: وقد كانوا يَجِدون في كتبهم أن سببَ خَرَاب هذا السدّ هو الجُرَذ فكانوا يرصُدُون عنده السنانير بُرهة من الزمان، فلما جاء القَدَر غلبت الفأر السنانير، وَوَلَجت إلى السَّدّ فنقبته، فانهار عليهم.

وقال قتادةُ وغيره: الجُرَذ: هو الخُلْد[3]، نقبت أسافله حتى إذا ضَعُف ووَهَى، وجاءت أيامُ السيول، صدَمَ الماءُ البناءَ فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخرّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فيَبِسَت وتحطّمت. وتبدّلت تلك الأشجارُ المثمرةُ الأنيقة النضرة، كما قال الله تعالى: ﴿وبدّلناهم بجنّتيهم جنّتين ذواتَيْ أُكُلٍ خمْطٍ﴾

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وعطاءٌ الخراساني، والحسن، وقتادة، والسُّدّيُّ: هو الأراك، وأُكُلُه البَرِيرُ[4].

﴿وأثْلٍ﴾، قال العَوْفي، عن ابن عباس: هو الطَّرْفاء. وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء. وقيل: هو السَّمُرُ[5]. فالله أعلم.

وقولُه: ﴿وشَيْءٍ من سِدْرٍ قليلٍ﴾، لما كان أجودُ هذه الأشجار المُبْدَلَ بها هو السِّدْرُ[5] قال: ﴿وشيء من سدْرٍ قليلٍ﴾، فهذا الذي صار أمر تَيْنك الجنتين إليه، بعد الثمار النَّضِيجة والمناظر الحسنة، والظِّلال العميقة والأنهار الجارية، تَبدّلت إلى شَجَر الأراك والطّرْفاء والسِّدْر ذي الشوك الكثير والثمر القليل. وذلك بسبب كُفرهم وَشِرْكهم بالله، وتكذيبهم الحقَّ وعدولهم عنه إلى الباطل. ولهذا قال: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نُجازي إلا الكفور﴾؟ أي: عاقبناهم بكفرهم.

قال مجاهد: ولا يُعاقَب إلا الكفور. وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم. لا يُعاقَبُ بمثل فعْله إلا الكفور. وقال طاوس: لا يُناقَشُ إلا الكَفُور.

---

(١) الجُرَذُ: الكبير من الفيران.

(٢) الكُرْز: خُرْج الراعي. وهو هنا لقب سعيد، فالإضافة إلى اللقب لا إلى الصفة. انظر مقالة السهيلي في الروض الأنف ١/١٥، والتعريف والإعلام ١٠٦ ـ ١٠٧، ونتائج الفِكْر ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) الخُلْدُ: نوع من الفيران. وقيل: هي الفأرة العمياء.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/٨٩. والبرير: ثمرٌ مرّ الطعم.

(٥) السَّمُر: ضرب من شجر ترعاه الإبل. والسِّدْرُ: شجر النَّبْق.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عُمير[1] بن النحاس الرَّمْلي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو البيداء، عن هشام بن صالح التغلبيِّ، عن ابن خَيْرَة[2] ـ وكان من أصحاب علي، رضي الله عنه ـ قال: جزاءُ المَعْصِيةِ الوهن في العبادة، والضِّيق في المعيشة، والتعسُّر في اللذة. قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادِفُ لذةً حلالاً إلا جاءه من يُنَغِّصُه إيّاها.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

يذكُر تعالى ما كانوا فيه من الغِبطة والنِّعمة، والعيش الهنيِّ الرغيدِ، والبلادِ الرخيةِ، والأماكن الآمنة والقُرى المتواصلة المتقاربة بعضُها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إنَّ مسافرهم لا يحتاجُ إلى حَمْلِ زاد ولا ماءٍ، بل حيثُ نَزَل وجدَ ماءً وثمراً، ويَقيل في قريةٍ ويبيتُ في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وجعلنا بينهم وبين القُرَى التي باركنا فيها﴾، قال وهب بن مُنَبِّه: هي قرى بصنعاء. وكذا قال أبو مالك.

وقال مجاهد، والحسن، وسعيد بن جُبَير، ومالك عن زيد بن أسلَمَ، وقتادةُ، والضحاك، والسدّي، وابن زيد، وغيرهم: يعني قُرَى الشام. يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة.

وقال العوفي، عن ابن عباس: القُرَى التي باركنا فيها بيت المقدس. وقال العَوْفيُّ عنه أيضاً: هي قُرًى عربيةٌ بين المدينة والشام[3].

﴿قُرًى ظاهرة﴾، أي: بيِّنةً واضحةً، يعرفها المسافرون، يَقيلُون في واحدةٍ ويَبِيتُون في أخرى. ولهذا قال: ﴿وقَدَّرنا فيها السيرَ﴾، أي: جَعلناها بحسَب ما يحتاج المسافرون إليه، ﴿سِيرُوا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾، أي: الأمن حاصلٌ لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً.

﴿فقالوا ربَّنا باعِدْ بين أسفارنا وظلموا أنفسهم﴾، وقرأ آخرون: ﴿بَعِّد بين أسفارنا﴾[4]، وذلك أنهم بَطِروا هذه النعمةَ ـ كما قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد ـ وأحبُّوا مفاوزَ ومَهامِهَ يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسَّير في الحَرُورِ والمخاوفِ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يُخرج الله لهم مما تُنبِتُ الأرضُ، من بقلِها وقثّائها وفومِها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رَغيد في مَنٍّ وسَلوى وما يشتهون من مآكل ومشاربَ وملابسَ مرتفعةٍ، ولهذا قال لهم. ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطُوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضُربت عليهم الذلّة والمسكنة وباؤوا بغضبٍ من الله﴾، وقال تعالى: ﴿وكم أهلكنا من قريةٍ بَطِرت معيشتَها﴾، وقال تعالى: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقُها رغداً من كل مكان

---

(١) في النسخ: أبو عُمر. والصواب ما أثبت، عن تهذيب التهذيب ٨/٢٢٨، والإكمال ٧/٣٧٣، والمغني للذهبي ١/٤٣٩. وهو: عيسى ابن محمد الرملي.

(٢) كذا في النسخ، وفي الرواة عن علي رضي الله عنه: أبو حيَّرَة، وأبو حيرة شيحةُ بن عبد الله، انظر الإكمال ٢/٣١، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/٣٨٩، فالله أعلم.

(٣) تفسير الطبري ٢٢/٨٤.

(٤) قرأ بتشديد العين مكسورة ابنُ كثير وأبو عمرو وهشامٌ، انظر التبصرة لمكي ٦٤٥

فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجُوع والخوف بما كانوا يصنعُون﴾. وقال في حقِّ هؤلاء: ﴿وظلمُوا أنفُسهم﴾، أي: بكفرهم، ﴿فجعلناهم أحاديث ومزّقناهم كُلَّ ممزّقٍ﴾، أي: جعلناهم حديثاً للناس، وسمراً يتحدّثُون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، تفرّقوا في البلاد هاهنا وهاهنا. ولهذا تقولُ العربُ في القوم إذا تفرّقوا: «تفرّقُوا أيدي سَبَا» و«أيادي سَبَا»[1]، و«تفرّق شذر مذر».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطانُ، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، سمعت أبي يقول: سَمِعت عكرمة يحدّث أهل سبأ، قال: ﴿لقد كان لسبإٍ في مساكنهم آية جنتان﴾ إلى قوله ﴿فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾: وكانت فيهم كهنة، وكانت الشياطينُ يسترقون السمع، فأخبروا الكهنة بشيءٍ من أخبار السماء، فكان فيهم رجلٌ كاهنٌ شريفٌ كثيرُ المال، وإنه خُبّر أن زوال أمرهم قد دنا، وأن العذاب قد أظلّهم. فلم يدر كيف يصنَعُ، لأنه كان له مالٌ كثيرٌ من عقار، فقال لرجلٍ من بنيه ـ وهو أعزُّهم أخوالاً ـ: إذا كان غداً وأمرتك بأمر فلا تفعل، فإذا انتهرتُك فانتهرني، فإذا تناولتك فالطمني. فقال: يا أبت، لا تفعلْ، إن هذا أمرٌ عظيمٌ، وأمرٌ شديدٌ. قال: يا بني، حَدَث أمرٌ لا بدّ منه. فلم يزل به حتى وافاه على ذلك. فلما أصبحوا واجتمعَ الناسُ، قال: يا بني، افعل كذا وكذا. فأبى، فانتهرَه أبوه، فأجابه، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبُوه، فوثب على أبيه فلَطمه، فقال: ابني يَلْطِمُني؟! عليَّ بالشّفرَة. قالوا: وما تصنعُ بالشفرة؟ قال: أذبحُه قالوا: تذبحُ ابنك. الطُمه أو اصنعَ ما بدا لك. قال: فأبى، قال: فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك، فجاء أخواله فقالوا: خُذ منا ما بدا لك. فأبى إلا أن يذبحه. قالوا: فلَتموتَنَّ قبل أن تذبحه. قال: فإذا كان الحديث هكذا فإني لا أرى أن أُقيم ببلد يُحال بيني وبين ولَدي فيه، اشتروا مني دُوري، اشتَرُوا مِنّي أرضي. فلم يزل حتى باع دُورَه وأراضيَه وعقَاره، فلما صار الثمنُ في يده وأحرزه، قال: أي قوم، إن العذابَ قد أظلّكم، وزوالَ أمركم قد دَنا، فمن أراد منكم داراً جديداً، وجَمَلاً شديداً، وسَفَراً بعيداً، فليلحق بعُمان. ومن أراد منكم الخمْر والخَمِير والعَصير ـ وكلمة، قال إبراهيم: لم أحفظها ـ فليَلْحق ببُصرَى، ومن أراد الراسخات[2] في الوَحْل، المطعمات في المَحْل، المقيمات في الضَّحْل، فليلحق بيثرب ذاتِ نَخل. فأطاعه قومه، فخرج أهلُ عُمان إلى عُمان. وخرجت غسّان إلى بصرى. وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذاتِ النخل، قال: فأتوا على بطن مُرٍّ فقال بنو عثمان: هذا مكان صالح، لا نبغي به بدلاً. فأقاموا به، فسُمُّوا لذلك خزاعة، لأنهم انخزعوا من أصحابهم، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة، وتوجّه أهل عُمان إلى عُمان وتوجهت غسّان إلى بُصرَى[3].

هذا أثر غريب عجيب، وهذا الكاهن هو عَمرو بن عامر أحدُ رؤساء وكُبَراء سبَإٍ وكُهّانهم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يَسَار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أوّلَ من خرج من بلاد اليمن، بسبب استشعاره بإرسال العَرِم فقال: وكان سببُ خروج عَمرو بن عامر من اليمن ـ فيما حدّثني أبو زيد الأنصاري ـ أنه رأى جُرَذاً[4] يحفِرُ في سد مأرب، الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفُونه حيث شاؤوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاء للسدّ على ذلك، فاعتزم على النُّقلة عن اليمن، فكاد قومه، فأمر أصغر أولاده إذا

(١) تطلق اليد في اللغة على الطريق، والمعنى: فرقتهم طرقهم التي سلكوها. ومعنى «تفرقوا شذر مذر»: ذهبوا في كل وجه.
(٢) أراد النخل. والوَحْل: الجدب، والضَّحْل: القليل من الماء.
(٣) الدر المنثور عن ابن المنذر وابن أبي حاتم ٦/٦٨٨ ـ ٦٨٩.
(٤) الجُرَذُ: الكبير من الفئران.

أغلظ له ولَطَمه أن يقومَ إليه فَيَلْطِمَه، ففعل ابنُه ما أمره به، فقال عمرو: لا أقيم ببلد لَطَم وجهي فيها أصغرُ وَلَدي. وَعَرَضَ أمواله، فقال أشراف من أشراف اليمن: اغتنموا غَضْبَةَ عمرو. فاشتروا منه أموالَه، وانتقل في وَلَده ووَلَدِ ولده. وقال الأزد: لا نتخلف عن عَمرو بن عامر. فباعوا أموالَهم، وخرجُوا معه فساروا حتى نَزَلُوا بلاد عَـكٍّ مجتازين يرتادون البلدانَ، فحاربتهم عَكٌّ، وكانت حَربُهم سِجَالاً[1]. ففي ذلك يقول عَبَّاسُ بن مرداسٍ السُّلَمي:

وَعَـكُّ بنُ عَدنَـانَ الـذين تلعَّبُـوا[2] بِـغَسَّـانَ، حَتَّى طُـرِّدُوا كُـلَّ مَـطْرَدِ

وهذا البيت من قصيدة له.

قال: ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلاد، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثربَ، ونزلت خزاعة مَرّاً. ونزلت أزدُ السراةِ السراةَ، ونزلت أزد عُمَان عُمَانَ: ثم أرسل الله على السد السيل فهدمه، وفي ذلك أنزل الله عز وجل هذه الآيات[3].

وقد ذكر السُّدِّي قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمدُ بن إسحاق، إلا أنه قال: «فأمر ابن أخيه» مكان «ابنه»، إلى قوله: «فباع ماله وارتحل بأهله، فتفرقوا». رواه ابن أبي حاتم[4].

وقال ابنُ جرير: حدثنا ابن حُمَيد، أخبرنا سَلَمةُ، عن ابن إسحاق قال: يزعمون أن عَمْرو بن عامر وهو عمُّ القوم، كان كاهناً، فرأى في كهانته أن قومَه سَيُمزَّقون ويُبَاعَدُ بين أسفارهم. فقال لهم: إني قد علمتُ أنكم سَتُمزَّقون، فمن كان منكم ذا هَمٍّ بعيدٍ وجَمَلٍ شديدٍ، ومَزَادٍ جَديدٍ[5] فَلْيلحَق بكاس أو كرود[6]. قال: فكانت وادِعَةُ بن عمرو. ومن كان منكم ذا هَمٍّ مُدْنٍ، وأمر دَغْنٍ[7]، فَلْيَلْحَقْ بأرض شَنّ. فكانت عوفُ بن عمرو، وهم الذين يقال لهم: بارق. ومن كان منكم يُريدُ عيشاً آنياً[8]، وحَرَماً آمناً، فَلْيلحَقْ بالأرزين[9]. فكانت خُزاعةُ. ومن كان منكم يريد الراسيات[10] في الوحل، المطعماتِ في المَحْلِ، فَلْيلحَق بيثربَ ذات النخلِ. فكانت الأوسُ والخزرجُ. وهما هذا الحيان من الأنصار. ومن كان منكم يريدُ خَمراً وخَميراً، وذهباً وحَريراً، ومُلكاً وتأميراً، فَلْيَلحَقْ بِكُوثَى[11] وبُصرى، فكانت غَسَّان بنو جَفنة ملوكَ الشام. ومن كان منهم بالعراق.

قال ابن إسحاق: وقد سمعتُ بعضَ أهل العلم يقول: إنما قالت هذه المقالة طريفةُ امرأة عمرو بن عامر، وكانت كاهنة، فرأت في كهانتها [ذلك]، فالله أعلم أيَّ ذلك كان[12].

---

(١) السِّجال: أن يغلب هؤلاءِ مرّةً، وهؤلاءِ مرّةً.

(٢) في نسخة الأزهر: تقلبوا. وأثبت محقق السيرة: تلقبوا. وفي أصل السيرة مثل ما في باقي أصولنا. تلعَّبُوا. وكذلك في هامش الروض الأنف ١/١٤، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/١٤٩، ١٨٥

(٣) سيرة ابن هشام ١/١٠ ـ ١٣.

(٤) الدرّ المنثور ٦/٦٨٨ ـ ٦٨٩.

(٥) المَزَاد: واحده مزادةٌ، وهي الراوية يحمل فيها الماء.

(٦) كذا، ولم نجدهما في الأماكن، على أن في معجم البلدان لياقوت: «كالسَن» من قرى نخشب مما وراء النهر.

(٧) الدَّغْن: الدَّجْنُ، وهو إلباسُ الغيم الأرض وأقطار السماء. وأراد بالأمر الدَّغْن: الملتبس. وفي تفسير الطبري، وبعض نسخنا: دعن، بالعين المهملة. وشنّ: قبيلة.

(٨) أي: حاضراً.

(٩) كذا، ولعلها: بالأرزين، أي: المطمئين.

(١٠) يريد النخل.

(١١) كُوثَى بسواد العراق في أرض بابل.

(١٢) تفسير الطبري ٢٢/٨٦

وقال سعيد، عن قتادة، عن الشعبيِّ. أما غَسّان فلحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فَلَحِقُوا بِتِهامَةَ، وأما الأزد فلحقوا بعمان فمزَّقهم الله كل مُمزَّقٍ. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير[١].

ثم قال محمد بن إسحاق: حدثني أبو عُبيدة قال. قال الأعشى ـ أعشى بني قيس بن ثعلبة ـ واسمه: ميمون بن قيس[٢]:

وَفي ذاكَ لِلمُؤتَسي أُسوَةٌ ... ومأرِبُ عَفّى عَلَيها العَرِمْ
رُخامٌ بَنَتهُ لَهُم حِميَرٌ ... إذا جاءَ مَوّارُهُ لم يَرِمْ
فَأروى الزُّروعَ وأعنابَها ... عَلى سَعَةٍ ماؤُهُم إذ قُسِمْ
فَصاروا أيادي ما يَقدِرو ... نَ مِنهُ عَلى شُربِ طِفلٍ فُطِمْ

وقولُه تعالى: ﴿إن في ذلك لآياتٍ لكلِّ صبارٍ شَكُورٍ﴾، أي: إن في هذا الذي حَلَّ بهؤلاء من النِّقمة والعذاب، وتبديل النِّعمة وتحويل العافية، عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ـ لعبرةً ودَلالةً لكلِّ عبدٍ صَبّارٍ على المصائب، شكور على النعم.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمٰن وعبد الرزاق المعني: قالا: أخبرنا سفيانُ، عن أبي إسحاق، عن العَيْزار بن حُرَيث، عن عُمَر بن سعد، عن أبيه ـ هو سَعدُ بن أبي وقاص، رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «عَجِبتُ من قضاءِ الله للمؤمن، إن أصابه خيرٌ حَمِدَ ربَّه وشَكَر، وإن أصابته مُصيبةٌ حَمِدَ ربَّه وصَبَر، يُؤجَر المؤمن في كلِّ شيء، حتى في اللقمة يرفَعُها إلى في امرأته»[٣].

وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة»، من حديث أبي إسحاق السَّبيعي، به ـ وهو حديثٌ عزيزٌ ـ من رواية عمر بن سعد، عن أبيه. ولكن له شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة: «عَجَباً للمؤمن! لا يَقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»[٣].

قال عبد[٤]: حدثنا يونس، عن شيبانَ، عن قتادةَ: ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لكل صَبّارٍ شَكُورٍ﴾: قال: كان مُطَرِّفٌ يقول: «نعم العبدُ الصبّار الشكُور، الذي إذا أُعطِيَ شَكَر، وإذا ابتُلِيَ صَبَر».

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

لما ذكر تعالى قصَّة سبإٍ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطانَ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممَّن اتبع إبليسَ والهَوى، وخالف الرشاد والهُدَى، فقال: ﴿ولقد صَدَّق عليهم إبليسُ ظَنَّه﴾.

قال ابن عباس وغيره: هذه الآيةُ كقوله تعالى إخباراً عن إبليسَ حين امتنع من السجودِ لآدم، ثم قال:

(١) تفسير الطبري ٢٢/٨٦.
(٢) سيرة ابن هشام ١/١٤. وعفّى عليها: طمسها. والعرمُ: السيلُ. ولم يرِمْ: لم يمسكه السدّ حتى يأخذوا منه ما يحتاجون إليه.
(٣) مسند الإمام أحمد ١/١٧٣، وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٩٥ من سورة الأعراف، ١٢ من سورة يونس، ٣٣ من سورة الروم، وخرجناه هنالك.
(٤) هو: عبدُ بن حميد. وقد أخرجه الطبري ٢٣/٨٧، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/٦٩٤.

﴿أرأيتك هذا الذي كرّمتَ علي لئنْ أخّرتنِ إلى يوم القيامةِ لأحتنِكَنّ ذرّيته إلا قليلاً﴾، ثم قال: ﴿ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجدُ أكثرهم شاكرين﴾... والآيات في هذا كثيرة.

وقال الحسن البصري: لما أُهبِطَ الله آدم من الجنة ومعه حوّاء، هَبَطَ إبليسُ فَرِحاً بما أصاب منهما، وقال: «إذا أصبتُ من الأبوين ما أصبتُ، فالذريّةُ أضعفُ وأضعفُ». وكان ذلك ظناً من إبليس، فأنزل الله عزَّ وجلَّ. ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾، فقال عند ذلك إبليس: «لا أفارِقُ ابن آدم ما دام فيه الروح، أغرُّه وأمَنّيه وأخدعُه». فقال الله: «وعزّتي لا أحجُب عنه التوبة ما لم يُغرغِر بالموت، ولا يدعُوني إلا أجبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفرني إلا غفرتُ له». رواه ابن أبي حاتم(١).

وقولُه: ﴿وما كان له عليهم من سُلطانٍ﴾، قال ابن عباس: أي من حُجّةٍ.

وقال الحسنُ البصريُّ: والله ما ضَربهم بعصاً، ولا أكرهَهُم على شيءٍ، وما كان إلا غُروراً وأمانيَّ دعاهم إليها فأجابوه(٢).

وقولُه: ﴿إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممّن هو منها في شكّ﴾، أي: إنما سلطناه عليهم ليظهَر أمرُ مَن هو مؤمنٌ بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيُحسِنَ عبادة ربِّه عزّ وجلَّ في الدنيا، مِمّن هو منها في شكٍّ.

وقوله: ﴿وربُّك على كل شيءٍ حفيظٌ﴾، أي: ومع حِفْظِه ضَلَّ من ضلَّ من أتباعِ إبليسَ، وبحفظه وكَلاءته سَلِمَ من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

يُبيِّنُ تعالى أنه الإلٰهُ الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصمدُ، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وَحْدَهُ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتُم من دونِ الله﴾، أي: من الآلهة التي عُبِدت من دونه ﴿لا يملكون مثقالَ ذرّةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ﴾، كما قال تبارك وتعالى: ﴿والذين تدعونَ من دونه ما يملكُون من قطمير﴾.

وقوله: ﴿وما لهم فيهما من شركٍ﴾، أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة، ﴿وما له منهم من ظَهيرٍ﴾ أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهِرُ به في الأمور، بل الخلقُ كلُّهم فُقراءُ إليه، عبيدٌ لديه.

قال قتادة في قوله: ﴿وما له منهم من ظَهيرٍ﴾، من عَونٍ يُعينُه بشيءٍ.

وقال: ﴿ولا تنفعُ الشفاعة عنده إلا لمن أذِن له﴾، أي: لعظمتِه وجلالِه وكبريائِه لا يجترىء أحدٌ أن يشفَع عنده تعالى في شيءٍ، إلا بعد إذنِه له في الشفاعةِ، كما قال تعالى: ﴿من ذا الذي يشفَعُ عنده إلا بإذنِه﴾،

---

(١) الدر المنثور ٦/٦٩٥
(٢) أخرجه الطبري ٢٢/٨٨، وغيرُ واحد، الدر المنثور ٦/٦٩٥.

وقال: ﴿وَكَم من مَلَكٍ في السموات لا تُغني شفاعتُهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾، وقال ﴿ولا يشفَعُون إلا لمن ارتضى وهُم من خشيته مشفقون﴾.

ولهذا ثبت في الصحيحَين، من غير وجه عن رسول الله ﷺ ـ وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله ـ أنه حين يقوم المقامَ المحمودَ ليشفع في الخلق كلّهم أن يأتي ربّهم لفصل القضاء، قال: «فأسجد لله فيدعُني ما شاء الله أن يَدَعني، ويفتح عليَّ بمحامدَ لا أُحصيها الآن، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل تُسمع، وسل تُعطَه، واشفع تشفع»... الحديث[1] بتمامه.

وقولهُ: ﴿حتى إذا فُزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحقّ﴾ وهذا أيضاً مقامٌ رفيعٌ في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تَكلّم بالوحي، فَسمع أهل السموات كلامه أُرْعِدُوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي. قاله ابن مسعود ومسروق، وغيرهما[2]. فإذا فُزّع عَن قُلُوبِهِمْ، أي: زال الفزعُ عنها، قال ابنُ عباس، وابن عمر، وأبو عبد الرحمن السُلَميُّ، والشعبيُّ، وإبراهيم النَخَعِيُّ، والضحّاك، والحسن، وقتادةُ في قوله تعالى ﴿حتى إذا فُزّع عن قلوبهم﴾ يقول: جُلّي عن قلوبهم.

وقرأ بعض السلف ـ وجاء مرفوعاً ـ: «حتّى إذا فُرّغ» بالغين المعجمة، ويرجع إلى الأول[3].

فإذا كان كذلك يسأل بعضُهم بعضاً: ﴿ماذا قال ربكم﴾ فَيُخبر بذلك حَمَلةُ العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدُّنيا، ولهذا قال: ﴿قالوا الحقَّ﴾، أي: أخبَرُوا بما قال من غير زيادةٍ ولا نُقصَانٍ، ﴿وهو العليُّ الكبيرُ﴾.

وقال آخرون: بل معنى قوله: ﴿حتى إذا فُزّع عن قُلُوبهم﴾، يعني المشركينَ عند الاحتضار، ويوم القيامة إذا استيقَظُوا مما كانوا فيه من الغَفْلَةِ في الدنيا، ورجَعَت إليهم عُقُولُهم يومَ القيامة، ﴿قالوا ماذا قال ربكم﴾ فقيل لهم: الحقَّ، وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا.

قال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿حتى إذا فُزّع عن قلوبهم﴾، كُشِف عنها الغطاء يوم القيامة. وقال الحسن: «حتى إذا فُرّغ عن قُلُوبهم»، يعني: ما فيها من الشكّ والتكذيب.

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: ﴿حتى إذا فُزّع عن قلوبهم﴾، قال: فَرّغ الشيطانُ عن قُلُوبهم وفارقهم وأمانيّهم وما كان يُضلهم، ﴿قالُوا ماذا قال ربكم قالوا الحقَّ وهو العليُّ الكبيرُ﴾، قال: وهذا في بني آدم، هذا عند الموت، أقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار[4].

وقد اختار ابن جرير القول الأول: أن الضمير عائد على الملائكة، وهذا هو الحق الذي لا مِرْيَةَ فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار، ولنذكر منها طرفاً يدل على غيره:

قال البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه: حدثنا الحُمَيدي، حدثنا سُفيان، حدثنا عَمرو، سَمِعت عكرِمَة، سَمِعت أبا هُرَيرة يقول: إن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا قَضَى الله الأمرَ في السماء ضَرَبت الملائكة بأجنِحَتِها خُضعاناً[5] لقوله، كأنه سلسلة على صفوانٍ، فإذا فُزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم

(١) انظر أحاديث الشفاعة عند تفسير الآية ٧٩ من سورة الإسراء.
(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٠.
(٣) نسبها الطبري ٢٢/ ٩٣ إلى الحسن، وانظر البحر المحيط ٧/ ٢٨٧.
(٤) أخرجه الطبري ٢٢/ ٩٢.
(٥) أي: خاضعين.

قالوا﴾ للذي قال: ﴿الحقَّ وهو العليُّ الكبير﴾، فيسمعُها مُسْتَرِقُ السَّمعِ، ومُسْتَرِقُ السمع ـ هكذا بعضُه فوقَ بعض ـ ووصف سفيانُ بيده ـ فحرَفَها(١)، وبَدَّدَ بين أصابعه ـ فيسمَعُ الكلمةَ، فَيُلقيها إلى مَن تحته، ثم يُلقيها الآخرُ إلى مَن تحته، حتَّى يُلقيَها على لسانِ الساحرِ أو الكاهنِ. فربما أدركَه الشِّهابُ قبل أن يُلقيَها، ورُبَّما ألقاها قبل أن يُدرِكَه، فيكذبُ معها مائةَ كِذْبَةٍ، فيُقال: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا، كَذَا وكذا؟ فيُصدَّق بتلك الكلمةِ التي سُمِعَتْ مِن السماء»(٢).

انفرد بإخراجه البخاريُّ دون مسلمٍ من هذا الوجه. وقد رواه أبو داودَ، والترمذيُّ، وابنُ ماجه، من حديث سفيانَ بن عُيَينةَ، به(٣).

حديثٌ آخرُ، قال الإمام أحمدُ: حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزَّاق، أخبرنا معمر، أخبرنا الزُّهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ جالساً في نفر من أصحابه ـ قال عبد الرزاق: «من الأنصار» ـ فَرُمِيَ بنجم فاستنار، قال: ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا في الجاهلية؟ قالوا: كنا نقول يُولَد عظيم، أو يَموتُ عظيم ـ قلت للزُّهري: أكان يُرمَى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، ولكن غُلِّظت(٤) حين بعث النبي ﷺ ـ قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يُرمَى بها لموتِ أحدٍ ولا لحياته، ولكن ربنا ـ تبارك وتعالى ـ إذا قضى أمراً سبح حَمَلةُ العرش، ثم سَبَّح أهل السماء الذين يَلُونهم، حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أهلُ السماء الذين يَلُونَ حملة العرش، فيقول الذين يَلُون حملةَ العرش لحملةِ العرش. ماذا قال ربكم؟ فَيُخبرونهم، ويُخبِرُ أهلُ كلِّ سماءٍ سماءً، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماءِ، وتخطفُ الجن السمعَ فيرمُون، فما جاءُوا به على وجهِهِ فهو حق، ولكنهم يُقَرِّفون فيه ويَزيدُون»(٥).

هكذا رواه الإمام أحمد. وقد أخرجه مسلم في صحيحه، من حديث صالح بن كيسان، والأوزاعي، ويونس ومعقل بن عُبَيد الله، أربعتهم عن الزُّهري، عن علي بن الحسين، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار، به. وقال يونس: عن رجال من الأنصار(٦). وكذا رواه النسائي في «التفسير» من حديث الزُّبَيدي، عن الزهري، به. ورواه الترمذي فيه عن الحُسَين بن حريث، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن رجل من الأنصار(٦)، فالله أعلم.

حديثٌ آخرُ، قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَوف، وأحمد بن منصور بن سَيّار الرَّمَادِيُّ ـ والسياق لمحمد بن عوف قالا: حدثنا نُعَيم بن حماد، حدثنا الوليد ـ هو ابن مسلم ـ عن عبد الرحمٰن بن يزيدَ بن جابر، عن عبد الله بن أبي زكرياء، عن رجاء بن حَيْوَة، عن النواس بن سِمْعان قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا أراد الله أن يُوحي بأمره تكلَّم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السمواتِ منه رجفةٌ ـ أو قال: رِعدةٌ ـ شديدة؛ من خوفِ الله، فإذا سَمِع بذلك أهل السموات صَعِقوا وخرُّوا لله سُجَّداً، فيكون أول من يَرفَع رأسه جبريلُ، فيكلِّمه الله من وَحيه بما

(١) أي: أمالها وحرَّفها. وبدَّد بين أصابعه: فرق بينها. وفي رواية علي بن عبد الله: «ووصف سفيان بيده، ففرَّج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض».
(٢) فتح الباري، تفسير سورة سبأ ٨/٥٣٧ ـ ٥٣٨. وتقدَّم الحديث عند الآية ١٨ من سورة الحجر، ٢٢٣ من سورة الشعراء.
(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الحروف والقراءات ٤/٣٤ ـ ٣٥، والترمذي في تفسير سورة سبأ، عارضة الأحوذي ١٢/١٠١، وابن ماجه في المقدمة ١/٦٩ ـ ٧٠.
(٤) أي: صُعِّب الأمر
(٥) مسند الإمام أحمد ١/٢١٨.
(٦) مسلم، كتاب السلام ٤/١٧٥٠ ـ ١٧٥١، وعارضة الأحوذي، أبواب التفسير ١٢/١٠٥، والنسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ١١/١٧٢.

أراد، فيمضي به جبريلُ على الملائكة، كلما مَرّ بسماءٍ سماءٍ سأله ملائكتها: ماذا قال ربُّنا يا جبريلُ؟ فيقول: قال الحقَّ، وهو العليُّ الكبير. فيقولون كُلُّهم مثلَ ما قال جبريل. فينتهي جبريلُ بالوحي حيث أمَرَه الله من السماء والأرض».

وكذا رواه ابنُ جَرير وابن خُزَيمة، عن زكريا بن أبانَ المِصْريّ، عن نُعَيم بن حَمّاد، به[1].

قال ابن أبي حاتم: سَمِعت أبي يقول: ليس هذا الحديثُ بالشام عن الوليد بن مسلم، رحمه الله.

وقد رَوَى ابن أبي حاتم من حديث العَوفي، عن ابن عباس، وعن قتادةَ: أنهما فَسّرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله سبحانه إلى محمد - ﷺ - بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى. ولا شَكَّ أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية.

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

يقولُ تعالى مُقَرِّراً تَفَرُّدَه بالخلقِ والرِّزق، وانفرادَه بالإلٰهية أيضاً، فكما كانوا يَعترفُون بأنه لا يَرزُقُهم من السماء والأرض - أي: بما يُنَزِّل من المطر ويُنبِت من الزَّرع - [إلا الله]، فكذلك فَلْيَعلَمُوا أنه لا إلٰه غيره.

وقولُه: ﴿وإنا أو إياكم لَعَلى هُدىً أو في ضَلال مُبين﴾، هذا من باب اللَّفِّ والنَّشر[2]، أي واحدٌ من الفريقين مُبطِلٌ والآخر مُحِقٌّ، لا سبيلَ إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهُدى أو على الضلال، بل واحدٌ منا مُصيبٌ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فَدَلَّ على بطلان ما أنتم عليه من الشِّرك بالله. ولهذا قال: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هُدًى أو في ضَلَالٍ مُبينٍ﴾.

قال قتادةُ: قد قال ذلك أصحابُ محمدٍ - ﷺ - للمشركين: والله ما نحنُ وإيّاكم على أمرٍ واحدٍ، إنَّ أحدَ الفريقَين لَمُهْتَدٍ[3].

وقال عكرمةُ وزيادُ بن أبي مريمَ: معناه: إنا نحنُ لعلى هدى، وإنكم لفي ضلالٍ مُبينٍ.

وقولهُ: ﴿قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسْأَل عما تعملون﴾، معناه التبرّي منهم: أي لستم منّا ولا نحنُ منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيدِه وإفرادِ العبادةِ له، فإن أجبتُم فأنتم منا ونحنُ منكم، وإن كَذَّبتم فنحن بُرَآء منكم وأنتم بُرَآء منا، كما قال تعالى: ﴿فإن كَذَّبوك فَقُل لي عَمَلي ولكم عملكم أنتم بَريئُون مما أعمل وأنا بَرِيءٌ مما تعمَلُون﴾. وقال: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبدُ ما تعبدون * ولا أنتم عابدونَ ما أعبدُ * ولا أنا عابدٌ ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبدُ * لكم دينكم ولي دينِ﴾.

وقولُهُ: ﴿قل يجمَع بيننا ربنا﴾، أي: يوم القيامة، يجمَع الخلائقَ في صعيدٍ واحدٍ، ثم يفتح بيننا بالحقِّ، أي: يحكم بيننا بالعدل، فَيَجزِي كُلَّ عاملٍ بِعَمَلِه، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌّ. وستعلمون يومئذٍ لمن العزّةُ

(١) تفسير الطبري ٩١/٢٢.
(٢) تقدم التعريف بهذا المصطلح عند تفسير الآية ٧١ من سورة القصص
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٩٣/٢٢.

والنُّصرة والسعادةُ الأبدية، كما قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرَّقون ۞ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يُحبَرون ۞ وأما الذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب مُحضرون﴾ ولهذا قال تعالى ﴿وهو الفتَّاح العَليم﴾، أي: الحاكِمُ العالِمُ بحقائق الأمور.

وقوله: ﴿قل أَروني الذين ألحقتُم به شُركاء﴾، أي: أروني هذه الآلهةَ التي جعلتُموها لله أنداداً وصيَّرتموها له عِدْلاً؟! ﴿كلا﴾، أي ليس له نظير ولا نديد، ولا شريكٌ ولا عَديلٌ. ولهذا قال: ﴿بل هو الله﴾، أي: الواحدُ الأحدُ الذي لا شريك له ﴿العزيزُ الحكيم﴾، أي ذُو العزة التي قد قَهر بها كلَّ شيء، وغلَبَت كلَّ شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشَرْعِه وقَدَره، تعالى وتقدَّس.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يقول تعالى لعبده ورسُوله محمد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿وما أرسلناك إلا كافَّةً للناس﴾، أي: إلا إلى جَميع الخلق من المكلفين، كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناسُ إني رسول الله إليكم جميعاً﴾، ﴿تبارَكَ الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكونَ للعالمينَ نَذيراً﴾.

﴿بَشيراً ونَذيراً﴾، أي: تُبشِّرُ مَن أطاعك بالجنَّة، وتُنذِرُ من عَصاك بالنار.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾، كقوله تعالى: ﴿وما أكثرُ الناسِ ولو حَرصت بمؤمنينَ﴾، ﴿وإن تُطع أكثر من في الأرض يُضلُّوك عن سبيل الله﴾.

قال محمدُ بنُ كعب في قوله: ﴿وما أرسلناك إلا كافَّةً للناس﴾، يعني إلى الناس عامَّةً[1].

وقال قتادةُ في هذه الآية: أرسلَ الله محمداً ـ ﷺ ـ إلى العَرَبِ والعَجَم، فأكرمهُم على الله أطوعُهم لله عز وجل[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهراني، حدثنا حَفص بن عُمَر العَدَنيُّ، حدثنا الحكم ـ يعني ابنَ أبان ـ عن عكرمة قال: سَمعت ابن عباس يقول: إن الله فَضَّلَ محمداً ـ ﷺ ـ على أهل السماء وعلى الأنبياء. قالوا: يا ابن عباس، فَبِم فَضَّله الله على الأنبياء؟ قال: إن الله قال: ﴿وما أرسلنا من رَسُولٍ إلا بلسانِ قَومه لِيُبيِّن لَهم﴾، وقال للنبي ﷺ: ﴿وما أرسلناك إلا كافَّةً للناسِ﴾، فأرسله الله إلى الجنِّ والإنسِ.

وهذا الذي قاله ابن عباس قد ثَبَت في الصحيحين رَفْعُهُ عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خَمساً لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مَسجداً وطَهوراً، فأيما رَجُلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ. وأحلت لي الغنائم، ولم تَحِلَّ لأحد قبلي. وأُعطيتُ الشفاعةَ. وكان النبيُّ يبعَثُ إلى قومه وبُعِثتُ إلى الناس عامَّةً»[3].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٦/٧٢
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٢/٩٦
(٣) تقدم الحديث في غير موضع، انظر آية آل عمران ١٥١، والنساء ٤٣، والأنعام ٩٢، والأعراف ١٥٨، والأنفال ١، ٦٧

وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بُعثتُ إلى الأسود والأحمر»[1]. قال مجاهد: يعني الجنَّ والإنس. وقال غيره: يعني العرب والعجم. والكلُّ صحيحٌ.

ثم قال تعالى مخبراً عن الكُفّار في استبعادهم قيام الساعة: ﴿ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين﴾، كما قال تعالى: ﴿يستعجِلُ بها الذين لا يُؤمنون بها والذين آمنوا مُشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾... الآية.

ثم قال: ﴿قل لكم ميعادُ يومٍ لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون﴾، أي: لكم ميعادٌ مؤجَّلٌ معدودٌ محرَّرٌ، لا يزداد ولا يَنتقصُ، فإذا جاء فلا يُؤخَّر ساعةً ولا يُقدَّم، كما قال تعالى: ﴿إن أجلَ الله إذا جاء لا يُؤخَّر﴾ وقال: ﴿وما نُؤخِّره إلا لأجلٍ معدودٍ ● يوم يأتِ لا تكلَّم نفسٌ إلا بإذنه فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٣٣ ﴾

يخبر تعالى عن تَمادِي الكفار في طُغيانهم وعِنادِهم وإصرارِهم على عدم الإيمان بالقرآن وبما أخبر به من أمر المَعاد، ولهذا قال: ﴿وقال الذين كفرُوا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾. قال الله تعالى مُتهدِّداً لهم ومُتوعِّداً، ومُخبراً عن مواقِفِهم الذليلةِ بين يدَيه في حال تخاصُمِهم وتحاجُجِهم: ﴿يرجِعُ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ يقُول الذين استُضعِفُوا﴾ منهم، وهم الأتباعُ ﴿للذين استكبروا﴾، وهم قادتهم وسادتهم: ﴿لولا أنتم لكنّا مُؤمنينَ﴾، أي: لولا أنتم تصدونا لكُنّا اتبعنا الرسل وآمنّا بما جاءونا به. فقال لهم القادةُ والسادةُ، وهم الذين استكبروا: ﴿أنحنُ صَدَدناكم عن الهُدَى بعد إذ جاءكُم﴾، أي: نحن ما فعلنا بكم أكثرَ من أنّا دعوناكم فاتّبعتُمونا من غير دَليلٍ ولا بُرهانٍ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحُجَج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختيارِكُم لذلك، ولهذا قالوا: ﴿بل كنتم مُجرِمين ● وقال الذين استُضعِفُوا للذين استكبروا بل مكرُ الليلِ والنهارِ﴾، أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتَغُرُّونا وتُمَنُّوننا، وتخبروننا أنّا على هُدًى وأنّا على شيء، فإذا جميعُ ذلك باطلٌ وكَذِبٌ ومَيْنٌ.

قال قتادةُ، وابنُ زيدٍ: ﴿بل مكرُ الليلِ والنهارِ﴾، يقول: بل مكرُهم بالليل والنهار. وكذا قال مالك، عن زيدِ بن أسلم: مكرهم بالليل والنهار.

﴿إذ تأمرونَنا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾، أي: نُظَراء وآلهةً معه، وتُقيموا لنا شُبَهاً وأشياءَ من المُحال، تُضِلونا بها. ﴿وأسرُّوا الندامةَ لما رأوا العذابَ﴾، أي: الجميع من السادة والأتباع، كلٌّ ندم على ما سلف منه.

﴿وجعَلنا الأغلالَ في أعناق الذين كفَرُوا﴾، وهي السلاسلُ التي تجمع أيديهم مع أعناقهم، ﴿هل

(١) تقدم أيضاً في المقدمة، وعند آية آل عمران ٢٠، والفرقان ٥١، والقصص ٥٩.

يُجزَون إلا ما كانوا يعملون﴾، أي: إنما نُجازيكم بأعمالكم، كُلٌ بِحَسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بِحَسَبِهم؛ ﴿قال لكلٍ ضعفٌ ولكن لا تعلمُون﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَروةُ بن أبي المَغْرَاء، حدثنا محمد بن سليمان ابن الأصبهاني، عن أبي سِنانٍ ضِرار بن صُرَد، عن عبد الله بن أبي الهُذَيل، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول ـ ﷺ ـ : «إن جهنم لما سيق إليها أهلها تَلَقَّاهُم لهبها، ثم لَفَحَتْهم لَفحةً فلم يبق لحم إلا سقط على العُرقُوب».

وحدثنا أبي، حدثنا أحمدُ بن أبي الحَوَارِيّ، حدثنا الطيب أبو الحسن، عن الحسن بن يحيى الخُشَني قال: ما في جَهَنم دارٌ ولا مَغارٌ ولا غِلٌ، ولا قيدٌ، ولا سلسلةٌ، إلا اسمُ صاحبها عليه مكتوبٌ. قال: فحدثتُه أبا سليمان ـ يعني الداراني، رحمة الله عليه ـ فبكى ثم قال: ويحكَ! فكيف به لو جُمِع هذا كلُه عليه، فَجُعِل القيدُ في رجليه، والغُلّ في يَدَيه والسلسلةُ في عُنُقه، ثم أُدخِلَ الدارَ، وأُدخِلَ المغَارَ؟!

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

يقول تعالى مُسَلّياً لنبيه، وآمراً له بالتأسّي بمن قبله من الرسل، ومُخبِره بأنه ما بَعث نبياً في قرية إلا كذَّبه مُترفُوها، واتبعه ضُعفاؤهم، كما قال قوم نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾، ﴿وما نراك اتَّبعك إلا الذين هم أراذلنا باديَ الرأي﴾، وقال الكبراء من قوم صالح ﴿للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أُرسلَ به مؤمنون ۞ قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾ وقال تعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ وقال: ﴿وكذلك جَعَلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾، وقال: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مُترَفيها ففسَقُوا فيها﴾.

وقال ها هنا: ﴿وما أرسلنا في قريةٍ من نذير﴾، أي: نَبيٍّ أو رسولٍ ﴿إلا قال مُترَفُوها﴾، وهم أولوا النعمة والحشمة والثروة والرِّياسة.

قال قتادةُ: هم جَبابرتهم وقادتُهم ورؤوسهم في الشر. ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون﴾، أي: لا نؤمن به ولا نتبعه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، عن سفيان، عن عاصم، عن أبي رزين قال: كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بُعث النبي ـ ﷺ ـ كتب إلى صاحبه يسأله: ما فَعَل؟ فكتب إليه إنّه لم يَتْبعه أحدٌ من قريش، إنما اتبعه أراذلُ الناسِ ومساكينُهم. قال: فترك تجارته ثم أتى صاحبَه فقال: دُلّني عليه ـ قال: وكان يقرأ الكُتُب، أو بعض الكتب ـ قال. فأتى النبي ـ ﷺ ـ فقال. إلامَ تدعُو؟ قال «إلى كذا وكذا». قال: أشهد أنّك رسولُ الله. قال. «وما عِلمُك بذلك؟» قال: إنه لم يبعث نبيٌ إلا اتبعه رُذالةُ الناسِ ومساكينُهم. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وما

أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾، قال: فأرسل إليه النبي ـ ﷺ ـ: «إن الله قد أنزل تصديق ما قلت».

وهكذا قال هِرَقْلُ لأبي سُفيان حين سأله عن تلك المسائل، قال فيها: «وسألتُك: أضعفاءُ الناس اتّبعه أم أشرافُهم؟ فزعمتَ: بل ضُعفاؤهم، وهم أتباعُ الرُّسُل»(١).

وقوله تعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذَّبين﴾، أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليلٌ على محبةِ الله لهم وعنايته بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يُعذِّبهم في الآخرة، وهيهاتَ لهم ذلك! قال الله: ﴿أيحسبون أنما نُمدُّهم به من مال وبنين * نُسارِع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾. وقال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يُريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهَقَ أنفسهم وهم كافرون﴾. وقال تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبَنِين شُهوداً * ومَهَّدتُ له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً * سأُرهقه صَعُوداً﴾.

وقد أخبر الله عن صاحب تَيْنك الجنتين: أنه كان ذا مالٍ ووَلَدٍ وثَمرٍ، ثم لم تُغْن عنه شيئاً، بل سُلب ذلك كلُّه في الدنيا قبلَ الآخرة، ولهذا قال تعالى ها هنا: ﴿قل إن ربِّي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾، أي: يعطي المال لمن يُحِبُّ ومَن لا يحب، فيُفقِرُ مَن يشاء ويُغني مَن يشاء، وله الحكمةُ التامَّةُ البالغةُ، والحجَّةُ الدامغةُ القاطعةُ، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

ثم قال: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تُقرِّبكم عندنا زلفى﴾ أي: ليست هذه دليلاً على محبَّتنا لكم، ولا اعتنائِنا بكُم، قال الإمام أحمد رحمه الله:

حدثنا كَثير، حدثنا جعفر، حدثنا يزيدُ بن الأصمِّ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لا ينظُر إلى صُوَرِكم وأموالكم، ولكن إنما ينظُر إلى قُلوبكم وأعمالكم»(٢).

رواه مسلمٌ وابن ماجه، من حديث كَثِير بن هِشَام، عن جعفر بن بُرْقان، به(٣).

ولهذا قال: ﴿إلا مَن آمن وعمل صالحاً﴾، أي: إنما يُقرِّبكم عندنا زُلْفَى الإيمانُ والعملُ الصالحُ، ﴿فأولئك لهم جزاءُ الضِّعف بما عَمِلُوا﴾، أي: تُضاعَفُ لهم الحسنةُ بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف. ﴿وهم في الغُرُفات آمنون﴾، أي: في منازلِ الجنة العالية آمنون من كلِّ بأسٍ وخوفٍ وأذىً، ومن كلِّ شيءٍ يُحْذَر منه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَروةُ بن أبي المغراء الكِنْدي، حدثنا القاسمُ وعلي بن مُسهر، عن عبد الرحمٰن بن إسحاق، عن النُّعمان بن سعد، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن في الجنةِ لَغُرَفاً تُرى ظُهُورُها من بُطونها، وبُطُونها من ظُهورها» فقال أعرابي: لِمَن هي؟ قال: «لمن طيَّب الكلامَ، وأطعم الطعام، وأدامَ الصِّيام»(٣).

﴿والذين يَسْعَون في آياتنا مُعاجِزين﴾، أي: يَسْعَون في الصدِّ عن سبيل الله، واتباعِ رُسُله، والتصديق بآياتِه: ﴿فأولئك في العذاب مُحضرون﴾، أي: جميعُهم مجزيُّون بأعمالهم فيها بحسبها(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي، فتح الباري ١/٣٢، ومسلم في كتاب الجهاد ٣/١٣٩٥.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/٥٣٩، ومسلم، كتاب البر ٤/١٩٨٧، وابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٣٨٨. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٧٥ من سورة البقرة، ٥٣ من سورة الأنعام، ٣٧ من سورة الحج.

(٣) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٧٢ من سورة التوبة.

(٤) في نسخ: بحسبهم.

وقولهُ: ﴿قل إنَّ ربِّي يبسطُ الرزقَ لمن يشاء من عبادِهِ ويقدِرُ له﴾، أي: بحسب ما له في ذلك من الحِكْمَةِ، يبسطُ على هذا من المالِ كثيراً، ويُضيِّق على هذا ويُقتِّر عليه رِزْقَه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يُدرِكها غيرُه، كما قال تعالى: ﴿انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً﴾، أي: كما هم متفاوتون في الدنيا، هذا فقيرٌ مُدقع، وهذا غني مُوسَّع عليه، فكذلك هم في الآخرة، هذا في الغُرفاتِ في أعلى الدرجات، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات. وأطيبُ الناسِ في الدنيا كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قد أفلحَ من أسلم ورُزِق كَفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه». رواه مسلم من حديث ابن عَمْرو[1].

وقولهُ: ﴿وما أنفقتم من شيءٍ فهو يُخلِفُه﴾، أي: مهما أنفقتم من شيءٍ فيما أمَركم به وأباحه لكم فهو يُخلِفه عليكم في الدُّنيا بالبدَلِ، وفي الآخرةِ بالجزاءِ والثَّواب، كما ثبت في الحديث: «يقول الله تعالى: أنفِقْ أُنفِقْ عليكَ»[2]. وفي الحديث أن مَلَكين يَصيحان كل يوم، يقول أحدهما: «اللهم أعطِ مُمسِكاً تَلَفاً»، ويقول الآخر: «اللهمَّ أعطِ مُنفقاً خلفاً»[3]. وقال رسول الله ﷺ «أنفِق بلالاً، ولا تخشَ من ذي العرشِ إقلالاً»[4].

وقال ابنُ أبي حاتم، عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس، حدثنا هُشَيم، عن الكَوثر بن حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنَّ بعدكُم زماناً عَضوضاً، يعض الموسرُ على ما في يده حِذَارَ الإنفاق». ثم تلا هذه الآية: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا رَوح بن حاتم، حدثنا هُشَيم، عن الكَوثرِ بنِ حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حُذَيفة أنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا إنَّ بعد زمانكم هذا زماناً عَضوضاً، يَعض المُوسِر على ما في يَدَيه حِذارَ الإنفاق»، قال الله تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خيرُ الرازقين﴾، وتَنهَدُ[5] شِرارُ الخَلق يبايعون كُلَّ مُضطَر، ألا إن بيع المُضطَرِّين حَرامٌ، ألا إن بيع المُضطَرِّين حرام، المسلمُ أخو المسلم، لا يَظلِمُه ولا يَخذُله، إن كان عندك معروفٌ فعُد به على أخيك، وإلاّ فلا تَزِده هَلاكاً إلى هلاكه»[6].

هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده ضعف.

وقال سُفيان الثوري، عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال: قال مجاهدٌ: لا يتأوَّلنَّ أحدُكم هذه الآية: ﴿وما أنفقتم من شيءٍ فهو يخلفه﴾: إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليَقتصِد فيه، فإنَّ الرزقَ مقسومٌ[7].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٩٧ من سورة النحل، وسيأتي كذلك عند تفسير الآية ٨ من سورة الضحى. هذا وفي النسخ: «من حديث ابن عُمَر». والصواب ما أثبت.

(٢) أخرجه الشيخان، فتح الباري، تفسير سورة هود ٨/٣٥٢، ومسلم، كتاب الزكاة ٢/٦٩٠ ـ ٦٩١. وتقدم عند تفسير آية البقرة ٢١٢

(٣) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٢١٢ من سورة البقرة، ٢٩ من سورة الإسراء، وخرجناه هنالك.

(٤) تقدم كذلك عند تفسير الآية ٢١٢ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك

(٥) في النسخ «ينهل» والمثبت من المطالب العالية. ومعنى تَنهَدُ: تنهض وتمضي.

(٦) أخرجه ابن حجر في المطالب العالية في باب السلم من كتاب البيوع ١/٤٠٤، وقال. «فيه متروك ومنقطع».

(٧) الأثر في تفسير البغوي ٣/٥٦١.

يُخبر تعالى أنه يُقرِّع المشركين يوم القيامة على رءوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صُور الملائكة ليقرِّبوهم إلى الله زُلفى، فيقولُ للملائكة ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾، أي: أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ كما قال في سورة الفرقان ﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾، وكما يقول لعيسى: ﴿أأنت قُلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دُون الله قال سُبحانك ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليسَ لي بحقٍّ﴾. وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبحانك﴾، أي: تعاليت وتقدَّست عن أن يكون مَعَك إله. ﴿أنت وليُّنا من دُونهم﴾، أي: نحن عبيدُك ونبرأُ إليك من هؤلاء، ﴿بل كانوا يَعبدُون الجنَّ﴾، يعنون الشياطينَ ثم الذين يُزيِّنون لهم عبادة الأوثان ويُضلونهم، ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾، كما قال تعالى ﴿إن يدعون من دُونه إلا إناثاً وإن يدعُون إلا شيطاناً مَريداً﴾، قال الله تعالى ﴿فاليوم لا يملكُ بعضكم لبعض نفعاً ولا ضرّاً﴾، أي: لا يقع لكم نفعٌ ممن كنتم ترجُون نفعه اليومَ من الأنداد والأوثان، التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرَبكم، اليومَ لا يملِكون لكم نفعاً ولا ضرّاً، ﴿ونقول للذين ظلمُوا﴾ ـ وهم المشركون ـ ﴿ذوقُوا عذابَ النارِ التي كُنتم بها تُكذِّبون﴾، أي: يُقال لهم ذلك، تقريعاً وتوبيخاً.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب، لأنهم كانوا إذا تُتلى عليهم آياته بيناتٍ يَسمعُونها غضَّةً طريَّةً من لسان رسوله ـ ﷺ ـ ﴿قالوا ما هذا إلا رجلٌ يُريدُ أن يَصُدَّكم عما كان يعبدُ آباؤكم﴾، يَعنُون أنَّ دين آبائهم هو الحقُّ، وأنَّ ما جاءهم به الرسولُ عندهم باطلٌ ـ عليهم وعلى آبائهم لعائنُ الله ـ ﴿وقالوا ما هذا إلا إفكٌ مفترى﴾، يَعنُونَ القرآن، ﴿وقال الذين كفروا للحقِّ لما جاءهم إن هذا إلا سحرٌ مبينٌ﴾. قال الله تعالى: ﴿وما آتيناهم من كُتُب يَدرُسُونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نَذير﴾، أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبلَ القرآن، وما أرسل إليهم نبياً قبلَ محمد ﷺ، وقد كانوا يودّون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذيرٌ أو أُنزل علينا كتاب، لكنا أهدى من غيرنا، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذَّبوه وجحدُوه وعاندُوه. ثم قال: ﴿وكَذَّب الذين من قبلهم﴾، أي: من الأمم، ﴿وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾، قال ابن عباس: أي من القوّة في الدنيا. وكذلك قال قتادة، والسُّدّي، وابن زيد. كما قال تعالى: ﴿ولقد مكَّنَّاهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سَمعاً وأبصاراً وأفئدةً فما أغنى عنهم سمعهُم ولا أبصارهم ولا أفئدتُهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاقَ بهم ما كانوا به يستهزءُون﴾، ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثرَ منهم وأشدَّ قوة﴾، أي: وما دفع ذلك عنهم عذابَ الله ولا ردَّه، بل دمَّر الله عليهم لما كذَّبوا رُسُله. ولهذا قال: ﴿فكذبوا رُسُلي فكيف كان نكير﴾، أي: فكيف كان نَكالي وعقابي وانتصاري لرُسُلي؟!.

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: قل يا مُحمَّدُ لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنونٌ. ﴿إنما أعظُكم بواحدةٍ﴾، أي إنما

أمركم بواحدة، وهي ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾، أي: تقوموا قياماً خالصاً لله، من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضاً، ﴿ثم تتفكروا﴾، أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ـ ﷺ ـ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك، ولهذا قال: ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾.

هذا معنى ما ذكره مجاهدٌ، ومحمدُ بن كعب، والسُّدِّي، وقتادةُ، وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية. فأما الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمَّار، حدثنا صَدَقة بن خالد، حدثنا عُثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «أُعطيتُ ثلاثاً لم يُعطهُنَّ مَن قبلي ولا فخرَ: أُحِلَّت لي الغنائم، ولم تَحِلَّ لمن قبلي، كانوا قبلي يجمعون غنائمهم فيحرقونها. وبُعثت إلى كل أحمرَ وأسودَ، وكان كل نبي يُبعث إلى قومه. وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، أتيمم بالصعيد، وأصلي فيها حيث أدركتني الصلاة، قال الله ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى﴾، وأُعِنْتُ بالرُّعب مسيرةَ شهرٍ بين يَدَيَّ»[1].

فهو حديثٌ ضعيفُ الإسنادِ، وتفسيرُ الآية بالقيام في الصلاة في جماعةٍ وفُرادى بعيدٌ، ولعله مُقْحَمٌ في الحديث من بعضِ الرواة، فإن أصله ثابتٌ في الصحاح وغيرها[2]، والله أعلم.

وقولهُ: ﴿إن هو إلا نذيرٌ لكم بين يَدَي عذابٍ شديدٍ﴾، قال البخاري عندها:

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن خَازِم، حَدَّثنا الأعمش، عن عَمرو بن مرَّة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: صَعِدَ النبي ـ ﷺ ـ الصفا ذات يوم، فقال: يا صَبَاحاه. فاجتمعت إليه قُرَيش، فقالوا: ما لك؟ فقال: أرأيتم لو أخبرتُكم أن العدوَّ يُصبِّحكم أو يُمَسِّيكم، أما كنتم تُصَدِّقوني؟ قالوا: بلى؟ قال: فإني نذيرٌ لكم بين يَدَي عذابٍ شديد. فقال أبو لَهَب: تبّاً لك! ألهذا جَمَعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّت يَدَا أبي لَهَبٍ﴾[3].

وقد تقدم عند قوله: ﴿وأنذِرْ عَشِيرتَكَ الأقربين﴾[4].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا بَشير بن المهاجر، حَدَّثني عبد الله بن بُرَيدة، عن أبيه قال: خرج إلينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً فنادَى ثلاث مرات فقال: «أيها الناس، تدرُون ما مَثَلي ومَثَلكم؟» قالوا: الله ورسولُه أعلمُ. قال: «إنما مَثَلي ومَثَلكم مثلُ قومٍ خافوا عدُوّاً يأتيهم، فبعثوا رَجُلاً يَتَراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصرَ العدُوّ، فأقبل لِيُنذرهُم وخَشِيَ أن يُدركه العدوُّ قبل أن يُنذرَ قومَه، فأهوى بثوبه: أيُّها الناس، أوتيتم. أيُّها الناسُ، أوتيتُم. ثلاث مرَّاتٍ»[5].

وبهذا الإسناد قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بعثت أنا والساعة جميعاً، إن كادت لتسبقني»[5]. تفرَّد به الإمامُ أحمدُ في مسنده.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ

---

(١) الدر المنثور عن ابن أبي حاتم وحده ٦/٧١٠

(٢) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية ٢٨ من هذه السورة

(٣) فتح الباري، تفسير سورة سبأ ٨/٥٣٩

(٤) انظر تفسير الآية ٢١٤ من سورة الشعراء

(٥) مسند الإمام أحمد ٥/٣٤٨.

ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

يقولُ تعالى آمراً رسُولَه أن يقولَ للمشركين: ﴿ما سألتكم من أجرٍ فهُو لكم﴾، أي: لا أُريد منكم جُعْلاً ولا عَطاءً على أداء رسالةِ الله إليكم، ونُصحي إيَّاكم، وأمْرِكُم بعبادة الله، ﴿إن أجري إلا على الله﴾، أي: إنما أطلبُ ثوابَ ذلك عند الله، ﴿وهوَ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾، أي: عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إيَّاي إليكم، وما أنتم عليه.

وقولُهُ: ﴿قُل إنَّ ربِّي يقذِفُ بالحقِّ علَّامُ الغيوب﴾، كقوله تعالى: ﴿يُلقي الروح من أمره على من يشاءُ مِن عباده﴾، أي: يُرسِلُ المَلَك إلى مَن يشاءُ من عبادِهِ من أهل الأرض، وهو علَّامُ الغيوب، فلا تخفى عليه خافيةٌ في السمواتِ ولا في الأرض.

وقولُهُ: ﴿قل جاء الحق وما يُبدئُ الباطل وما يعيد﴾، أي: جاء الحق من الله والشَّرع العظيم، وذَهَبَ الباطل وَزَهَق واضمَحَلَّ، كقوله: ﴿بل نقذِف بالحقِّ على الباطل فيدمَغُه﴾، ولهذا لما دَخل رسول الله ـ ﷺ ـ المسجد الحرام يوم الفتح، وَوَجد تلك الأصنام منصوبةً حول الكعبة، جعل يَطعُن الصنم بِسِيَةِ[1] قَوسِه، ويقرأ: ﴿وقُل جاء الحق وزَهَق الباطلُ إنَّ الباطل كان زَهُوقاً﴾، ﴿قل جاء الحقُّ وما يُبدئ الباطل وما يُعيد﴾. رواه البخاري ومسلم والترمذيُّ، والنسائي وحده عند هذه الآية، كُلُّهم من حديث الثَّوري، عن ابن أبي نَجيح، عن مُجاهِدٍ، عن أبي مَعْمَرٍ عبد الله بن سَخْبَرَةَ، عن ابن مَسْعُودٍ[2] به. أي: لم يبق للباطل مقالة ولا رِياسة ولا كَلِمَةٌ.

وزعم قتادةُ والسُّدِّي: أن المرادَ بالباطل ها هنا إبليسُ، أي: إنه لا يخلُق أحداً ولا يُعيده، ولا يَقدر على ذلك. وهذا وإن كان حقاً ولكن ليس هو المرادُ ها هنا، والله أعلم.

وقولُهُ: ﴿قُل إن ضَلَلْتُ فإنما أَضِلُّ على نفسي وإنِ اهتديتُ فبما يوحي إليَّ ربِّي﴾، أي: الخير كلُّه من عند الله، وفيما أنزله الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الوحي والحقِّ المُبِيْنِ فيه الهُدَى والبيان والرشاد، ومن ضَلَّ فإنما يَضِل من تلقاء نفسه، كما قال عبد الله بن مسعُودٍ ـ رضي الله عنه ـ لما سُئِل عن تلك المسألة في المُفوِّضَة. أقولُ فيها برَأيي، فإن يَكُن صواباً فمِنَ الله، وإن يَكُن خطأً فمِنِّي ومِنَ الشيطانِ، والله ورسولهُ بريئانِ منه[3].

وقولُهُ: ﴿إنه سميعٌ قريبٌ﴾، أي: سَميع لأقوالِ عبادِه، قريبٌ يجيبُ دعوةَ الدَّاعي إذا دعاه. وقد رَوَى النسائي ها هنا حديث أبي موسى الذي في الصَّحيحَين: «إنكم لا تدعُون أصمَّ ولا غائباً، إنما تدعُون سَميعاً قَريباً»[4].

---

(١) سِيَةُ القوس: ما عُطِفَ من طرفيها، وهما سِيَتَان.

(٢) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٨١ من سورة الإسراء، وخرجناه هنالك.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح ٢/٢٣٧ ـ ٢٣٨، والإمام أحمد في مسنده ٤/٢٧٩. وانظر تحفة الأشراف للمزي ٨/٤٥٦
وذلك أن عبد الله بن مسعود أُتِي في رجل تزوَّج امرأةً، فمات عنها ولم يدخُل بها، ولم يفرض لها [يعني الصَّداق] فاختلفوا إليه شهراً، فقال: إن لها صداقاً كصداق نسائها، لا وَكْسَ ولا شَطَطَ، وإنَّ لها الميراث، وعليها العِدَّةُ، ثم قال: «فإن يكن صَواباً...» الخ، فقام ناسٌ من أشجعَ فقالوا: يا ابن مسعود، نحن نشهد أن رسول الله ـ ﷺ ـ قضاها فينا في بَرْوَعَ بنت واشق، وإنَّ زَوجها هلال بن مُرَّة الأشجعي، كما قضيت. قال: ففرح عبد الله بن مسعود فرحاً شديداً، حين وافق قضاؤه قضاء رسول الله ﷺ

(٤) فتح الباري، كتاب الدعوات ١١/١٨٧، ومسلم، كتاب الذكر ٤/٢٠٧٦.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾.

يقول تعالى: ولو ترى ـ يا محمدُ ـ إذ فزع هؤلاء المكذِّبون يومَ القيامة، ﴿فلا فَوْتَ﴾، أي: فلا مفرٌّ لهم، ولا وَزَرَ ولا ملجأ. ﴿وأُخِذُوا من مكانٍ قريبٍ﴾، أي: لم يُمكَّنوا أن يُمْعِنُوا في الهَرَب، بل أُخِذُوا من أوَّلِ وهْلَةٍ.

قال الحسن البصريُّ: «حين خَرَجُوا من قبورهم». وقال مجاهد، وعطية العوفي، وقتادة: «من تحتِ أقدامهم». وعن ابن عباس والضحاك: «يعني عَذَابَهم في الدنيا». وقال عبدُ الرحمٰنِ بنُ زَيْدٍ: «يعني قتلهم يومَ بدرٍ».

والصحيحُ أن المراد بذلك يومُ القيامة، وهو الطامَّةُ العُظمى، وإن كان ما ذُكِر مُتَّصِلاً بذلك.

وحَكَى ابنُ جَرِيرٍ عن بعضهم قال: إنَّ المراد بذلك جَيْشٌ يُخْسَفُ بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس(١). ثم أورد في ذلك حديثاً موضوعاً بالكُلِّيَة. ثُم لم يُنَبِّه على ذلك، وهذا أمر عجيبٌ غريبٌ منه.

﴿وقالوا آمنا به﴾، أي: يومَ القيامة يقولون: آمنا بالله وبكُتُبه ورسله. كما قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسُوا رءوسِهم عند ربِّهم ربَّنا أبصَرنا وسَمِعنا فارجِعْنا نعمَلْ صالحاً إنا مُوقِنُون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنَّى لهم التناوُشُ من مكانٍ بعيدٍ﴾، أي: وكيف لهم تعاطِي الإيمان وقد بَعُدُوا عن مَحَلِّ قبوله منهم وصارُوا إلى الدار الآخرة، وهي دارُ الجزاءِ لا دارُ الابتلاءِ، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافِعَهُم، ولكنِ بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيلَ لهم إلى قَبُولِ الإيمان، كما لا سبيلَ إلى حُصُول الشيءِ لمن يتناوله من بَعِيد.

قال مجاهد: ﴿وأنَّى لهم التناوش﴾، قال: التناولُ لذلك. وقال الزُّهريُّ: التناوش: تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهُم.

وقال الحسن البصريُّ: أمَا إنَّهم طَلَبُوا الأمرَ من حَيثُ لا يُنَالُ، تعاطَوا الإيمانَ من مكانٍ بعيدٍ.

وقال ابن عباس: طَلَبُوا الرجعة إلى الدُّنيا والتوبة مما هم فيه، وليس بحين رَجْعَةٍ ولا تَوْبَةٍ. وكذا قال محمدُ بنُ كعبٍ القُرَظِي رَحِمه الله.

وقوله: ﴿وقد كَفَرُوا به من قبل﴾، أي: كيف يحصلُ لهم الإيمانُ في الآخرةِ، وقد كَفَرُوا بالحقِّ في الدنيا، وكَذَّبوا الرسلَ؟!.

﴿ويقذِفُون بالغيب من مَكَانٍ بَعيدٍ﴾، قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ويقذِفُون بالغيب﴾، قال: بالظن.

قلت: كما قال تعالى: ﴿رَجْماً بالغيب﴾، فتارةً يقولُون: شاعرٌ. وتارةً يقولُون: كاهنٌ. وتارةً يقولُون: ساحرٌ. وتارة يقولون: مجنونٌ. إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويُكَذِّبون بالغيب والنشُور والمَعَادِ، ويقولون: ﴿إن نَظُنُّ إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾.

قال قتادة: يرجُمون بالظن، لا بعث ولا جَنَّة ولا نار(٢).

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/١٠٧

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/١١٢، وابن أبي حاتم كما في الدرّ المنثور ٦/٧١٥

وقوله: ﴿وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهُون﴾، قال الحسنُ البصري، والضحّاك، وغيرهما: يعني الإيمان

وقال السُّدّي: ﴿وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهُون﴾، وهي التوبةُ. وهذا اختيارُ ابن جَرير، رحمه الله

وقال مجاهد: ﴿وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهُونَ﴾ من هذه الدنيا، من مال وزهْرَةٍ وأهلٍ. ورُوِيَ عن ابن عباس وابن عُمر، والربيع بن أنس. وهو قول البخاري[1] وجماعةٍ. والصحيحُ أنه لا منافاة بين القولين، فإنه قد حِيلَ بينهم وبين شَهَواتهم في الدنيا وبين ما طَلَبُوه في الآخرة، فمُنِعُوا منه.

وقد ذكر ابن أبي حاتم ها هنا أثراً غريباً عجيباً جداً، فلنذكُره بطوله فإنه قال:

حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا بشر بن حَجَرٍ السَّامي، حدثنا علي بن منصور الأنباري، عن الشَّرَقِيِّ بن قُطَامي، عن سعد بن طريف، عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. ﴿وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون﴾ . . . إلى آخر الآية، قال: كان رجلٌ من بني إسرائيل فاتحاً أي. فتح الله له مالاً ـ فمات فوَرِثَه ابنٌ له تافِهٌ ـ أي: فاسد ـ فكان يعملُ في مالِ الله بمعاصي الله. فلما رأى ذلك إخوانُ أبيه أتَوْا الفتى فعَذَلوه ولامُوه، فضَجِر الفتى فباع عَقَاره بصامت[2]، ثم رَحَل فأتى عيناً ثَجَّاجَةً[3] فسَرَّح فيها مالَه، وابتنى قصراً. فبينما هو ذات يوم جالس إذ شَمَلت عليه ريحٌ بامرأةٍ من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرَجاً ـ أي: ريحاً ـ فقالت: من أنت يا عبدَ الله؟ فقال: أنا امرؤ من بني إسرائيل. قالت: فلك هذا القصرُ، وهذا المال؟ قال: نعم. قالت: فهل لك من زوجةٍ؟ قال: لا. قالت: فكيف يَهْنِيك[4] العيش ولا زوجةً لك؟ قال: قد كان ذلك، فهل لكِ من بَعلٍ؟ قالت. لا. قال: فهل لك إلى أن أتزوَّجَكِ؟ قالت: إني امرأةٌ منك على مسيرة ميلٍ، فإذا كان غدٌ فتَزَوَّد زادَ يومٍ وائتِني، وإن رأيتَ في طريقِكَ هولاً فلا يَهُولَنَّكَ. فلما كان من الغد تَزَوَّد زادَ يومٍ، وانطلق فانتهى إلى قصرٍ، فقَرَع رِتَاجه[5]، فخرج إليه شابٌ من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرَجاً ـ أي: ريحاً ـ فقال: من أنت يا عبدَ الله؟ فقال: أنا الإسرائيليُّ. قال: فما حاجَتُك؟ قال: دعتني صاحبةُ هذا القصرِ إلى نَفْسِها. قال: صدقتَ، فهل رأيتَ في طريقكَ هَوْلاً؟ قال: نعم، ولولا أنها أخبرتني أن لا بأسَ عليَّ لهالَني الذي رأيت. [قال: ما رأيت؟ قال]: أقبلت حتى إذا انفرجَ بي السَّبيلُ إذا أنا بكَلْبَةٍ فاتحةٍ فاها، ففَزِعتُ، فوَثَبت فإذا أنا من ورائها، وإذا جِرَاؤُها[6] يَنْبَحنَ في بطنها. فقال له الشاب: لستَ تُدرِكُ هذا، هذا يكونُ في آخرِ الزَّمانِ، يقاعِدُ الغلامُ المشيخةَ في مَجلِسِهم وَيَبْتَزُّهم حَدِيثَهم[7].

قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرَجَ بيَ السَّبيلُ إذا أنا بمائةِ عَنْزٍ حُفَّلٍ[8]، وإذا فيها جَدْيٌ يَمَصُّها، فإذا أتى عليها وَظَنَّ أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة. فقال: لست تدرِكُ هذا، هذا يكون في آخر الزمان، مَلِكٌ يجمَعُ صَامِتَ الناس كلِّهم، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة.

قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بي السبيلُ إذا أنا بشجر، فأعجبني غُصنٌ من شَجَرةٍ منها ناضرٌ، فأردتُ

---

(١) فتح الباري ٨/٥٣٥.
(٢) الصامت: الذهب والفضة، خلاف الناطق، وهو الحيوان
(٣) أي: يسيل منها الماء سيلاً.
(٤) أي: كيف تهنأ به؟!
(٥) الرتاج: الباب العظيم، ويقال للباب مطلقاً.
(٦) الجراء: جمع جَرْوٍ، وهو ولد الكلب
(٧) بَزَّ الشيء، وابتزّه: نزعه وأخذه بجفاء وقهر.
(٨) حُفَّل: جمع حافل، وهي كثيرة اللبن.

قطعه، فنادتني شجرةٌ أخرى: «يا عبد الله، مِنِّي فَخُذ». حتى ناداني الشجرُ أجمعُ: «يا عبد الله، منَّا فخذ» قال: لستَ تدرك هَذا، هذا يكون في آخر الزمان، يَقِلُّ الرِّجَالُ ويكثرُ النِّساءُ، حتى إن الرجل ليخطُب امرأةً فتدعُوه العشرُ والعشرُون إلى أنفسِهِنَّ.

قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بيَ السبيلُ إذا أنا برجُلٍ قائم على عَينٍ، يَغرفُ لكلِّ إنسان مِنَ الماءِ، فإذا تَصَدَّعُوا[1] عنه صَبَّ في جَرَّته فلم تَعلَق جَرَّتُه من الماء بشيءٍ. قال: لستَ تُدرِك هذا، هذا يكون في آخر الزمان، القاصُّ يُعلِّم الناسَ العلمَ ثم يُخالِفُهم إلى معاصي الله.

قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بي السبيلُ إذا أنا بِعَنْزٍ، وإذا بقوم قد أخذوا بقوائمها، وإذا رجلٌ قد أخذ بقرنيها، وإذا رَجُل قد أخذ بِذَنَبِها، وإذا رجلٌ قد رَكِبها، وإذا رجل يَحلِبها. فقال: أما العنزُ فهي الدنيا، والذين أخذُوا بقوائمها يتساقطون من عَيشها، وأما الذي قد أخذ بقرنيها فهو يُعالج من عيشها ضِيقاً، وأما الذي أخذ بِذَنَبِها فقد أدبرت عنه، وأما الذي قد ركبها فقد تركها. وأما الذي يحلبها فَبَخٍ بَخٍ[2]، ذهب ذاك بها.

قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بي السَّبيلُ، وإذا أنا برجل يَمْتَح على قَلِيب[3]، كلما أخرج دَلْوَه صبَّه في الحوض، فانساب الماءُ راجعاً إلى القَلِيب. قال: هذا رجل رَدَّ الله صالحَ عَمَلِه، فلم يقبله.

قال: ثم أقبلتُ حتى إذا انفرجَ بي السَّبِيل، إذا أنا برجل يَبْذُر بَذْراً فَيَسْتَحصِدُ[4]، فإذا حِنطَةٌ طَيِّبَةٌ. قال: هذا رجلٌ قَبِل الله صَالِح عَمَلِه، وأزكاه له.

قال: ثم أقبلت حتى إذا انفرجَ بي السَّبيل، إذا أنا برجل مُستَلقٍ على قفاه، قال: يا عبدَ الله، ادنُ مني فَخُذ بِيَدِي وأقعِدْني، فوالله ما قَعدتُ منذ خلقني الله عزَّ وجلَّ. فأخذتُ بيده، فقام يسعَى حتى ما أراه. فقال له الفتى: هذا عُمُر الأبعد نَفِدَ، وأنا ملك الموت، [وأنا المرأة التي أتتك]. أمرني الله بِقَبضِ رُوحِ الأبعد في هذا المكانِ، ثم أُصَيِّره إلى نارِ جَهَنَّم. قال: ففيه نزلت هذه: ﴿وحِيلَ بينهم وبين ما يَشْتَهُون﴾... الآية[5].

هذا أثرٌ غريبٌ، وفي صِحَّتِه نظرٌ، وتنزيلُ الآية عليه وفي حَقِّه بمعنى أن الكفار كُلَّهم يُتوفَّون وأرواحهم مُتعلِّقة بالحياة الدنيا، كما جرى لهذا المغرور المفتون، ذَهَب يطلُب مُرَاده فجاءه الموت فَجأةً بغتةً، وحِيلَ بينه وبين ما يشتهي.

وقوله: ﴿كما فُعِل بأشياعهم من قبل﴾، أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرُّسل، لما جاءهم بأسُ الله تَمَنَّوا أن لو آمنوا فلم يُقبَل منهم، ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحدَه وكَفَرنا بما كنا به مشركين * فلم يَكُ ينفعُهم إيمانُهم لما رَأَوا بأسنا سُنَّةَ الله التي قد خَلَت في عباده وخَسِر هنالك الكافرون﴾.

وقولُه: ﴿إنهم كانوا في شَكٍّ مُرِيب﴾ أي: كانوا في الدُّنيا في شَكٍّ وريبَةٍ، فلهذا لم يُتقبَّل منهم الإيمانُ عند معاينَةِ العَذاب.

قال قتادة: إيَّاكُم والشكَّ والريبةَ؛ فإنه مَن مات على شكٍّ بُعِثَ عليه، ومَن مات على يَقِين بُعِث عليه[6].

آخر تفسير سورة سبأ، ولله الحمد والمنة[7]

---

(١) أي: تفرقوا.

(٢) بخٍ بخٍ: كلمة تقال عند الاستحسان والمدح.

(٣) القليب: البئر. ويمتح: يستقي.

(٤) أي: يحين حصاده.

(٥) الأثر في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم ٦/٧١٦ - ٧١٧.

(٦) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، الدر المنثور ٦/٧١٩.

(٧) بعده في المخطوطة: «وكان الفراغ من جاهتها ليلة السبت وقت السحر، التي يُسفر صباحها عنه، وهو ثاني عشر شهر ربيع الآخر، سنة تسع وستين وسبعمائة من الهجرة النبوية».

تفسير

سورة فاطر

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾.

قال سفيانُ الثَّوري، عن إبراهيم بن مُهَاجِر، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس قال: كنتُ لا أدري ما فاطرُ السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيَّان يختصمان في بئر، فقال أحدهما [لصاحبه]: أنا فطرتُها. أنا بدأتُها[1].

وقال ابن عباس أيضاً: ﴿فاطر السموات والأرض﴾، بديع السموات والأرض.

وقال الضحاك: كلُّ شيء في القرآن ﴿فاطر السموات والأرض﴾، فهو خالقُ السمواتِ والأرض.

وقولهُ: ﴿جاعلِ الملائكةِ رُسُلاً﴾، أي: بينه وبينَ أنبيائِه، ﴿أولي أجنحةٍ﴾، أي: يطيرُون بها ليُبلِّغوا ما أمروا به سَريعاً ﴿مثنى وثُلاثَ ورُباعَ﴾، أي: منهم من له جَناحان، ومنهم من له ثلاثةٌ، ومنهم من له أربعةٌ، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث: «أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ رأى جبريل ليلةَ الإسراءِ وله ستمائة جَنَاحٍ، بين كل جَناحين كما بين المشرق والمغرب»[2]. ولهذا قال: ﴿يزيدُ في الخَلْقِ ما يشاءُ إنّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾، قال السُّدِّي: يزيد في الأجنحة وخَلْقِهم ما يشاءُ.

وقال الزهري وابن جُرَيج في قوله: ﴿يزيدُ في الخلق ما يشاء﴾، يعني: حسن الصوت. رواه عن الزُّهريِّ البُخاريُّ في الأدب، وابن أبي حاتم في تفسيره. وقُرِئَ في الشاذ: «يزيد في الحلْقِ»، بالحاء المهملة[3]، والله أعلم.

﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾.

يُخبر تعالى أنه ما شاء كانَ، وما لم يَشَأ لم يكُن، وأنه لا مانعَ لما أعطَى، ولا مُعطي لما منَع

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائله، وعبْد بن حُميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شُعب الإيمان. الدر المنثور ٣/٧

(٢) أخرجه الشيخان ، فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣١٣، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٥٨

(٣) هي قراءة تنسب إلى عبد الله بن مسعود، كما في شواذ القراءة للكرماني

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا مُغيرةُ، أخبرنا عامر، عن وَرَّاد - مولى المُغيرة بن شعبة - قال. كَتَب معاويةُ إلى المُغيرَة بن شُعبَةَ: اكتب إليَّ بما سَمِعتَ من رسول الله ﷺ. فدعاني المغيرة فكتبتُ إليه: إني سَمِعتُ رسولَ الله - ﷺ - إذا انصرفَ من الصلاة قال: «لا إلَه إلا الله، وحدَه لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانعَ لما أعطيتَ ولا مُعطِيَ لما منَعتَ، ولا ينفَعُ ذا الجدِّ منك الجَدّ». وسمعته ينهى عن قِيلَ وقالَ، وكثرةِ السُّؤال وإضاعةِ المالِ، وعن وَأدِ البنات، وعُقوقِ الأمَّهاتِ، ومَنْعٍ وهَاتِ[1].

وأخرجاه من طرق عن وَرَّاد به[1]. وثبت في صحيح مُسلم عن أبي سعيد الخُدريِّ - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ كان إذا رفَع رأسه من الركوع يقول: «سَمِع الله لمن حمده، اللهمَّ ربَّنا لك الحمدُ، مِلءُ السموات ومِلءُ الأرض، ومِلءُ ما شِئتَ من شيءٍ بعدُ. اللهم، أهلَ الثناءِ والمجدِ. أحقُّ ما قال العبدُ - وكلنا لك عبد - اللهمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطِيَ لما منعتَ، ولا ينفَعُ ذَا الجَدِّ منك الجَدُّ»[2].

وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وإن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فلا كاشِفَ له إلا هُوَ وَإن يُرِدْكَ بخيرٍ فَلَا رادَّ لِفَضْلِه﴾ ولها نَظائرُ كثيرةٌ.

وقال الإمامُ مالكٌ: كان أبو هُرَيرَة إذا مُطِرُوا يقول: مُطِرْنا بنَوءِ[3] الفَتْح، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿ما يفتَح الله للناس من رحمة فلا مُمسِكَ لها وما يُمسِكْ فلا مُرسِلَ له من بَعْدِه وهو العزيزُ الحَكيمُ﴾[4]. ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس، عن ابن وهب، عنه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣ ﴾.

يُنَبِّه تعالى عبادَه ويُرشِدُهم إلى الاستدلال على توحيده في إفرادِ العبادةِ له، كما أنه المستقِلُّ بالخلق والرِّزق فكذلك فَلْيُفرَد بالعبادة، ولا يُشرَكْ به غيرُه من الأصنام والأنداد والأوثان. ولهذا قال: ﴿لا إله إلا هو فأنّى تُؤفَكُونَ﴾، أي: فكيف تُؤفَكُون بعد هذا البيان، ووُضُوحِ هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدُون الأندادَ والأوثان؟!

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٢٥٤ - ٢٥٥، وفتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/٢٦٤، ومسلم، كتاب المساجد ١/٤١٥.

(٢) مسلم، كتاب الصلاة ١/٣٤٣.

(٣) النَّوء. واحدُ أنواء القمر، وهي منازله، وللقمر ثمانٍ وعشرون مَنْزلة، ينزل القمر كلَّ ليلة في منزلة منها، وتسقط في المغرب كلَّ ثلاث عشرة ليلة مَنزِلةٌ مع طلوع الفجر، وتطلُع أخرى مقابلها ذلك الوقت في المشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة. وهو مأخوذ من ناء: إذا سقط. وقيل. بل من ناء إذا نهض، ولا تَخالُفَ بين القولين، لأن كلَّ نجم منها إذا طلع في المشرق وقع حال طلوعه آخَرُ في المغرب، لا يزالُ ذلك مستمراً إلى أن تنتهي الثمانية والعشرون بانتهاء السنة، فإن لكل واحد منها ثلاثة عشر يوما تقريباً. وكانت العرب تزعم أنه مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها فيقولون: مُطِرنا بنَوءِ كذا. فأبطل الشرع ذلك، يقول الشافعي في الأم: من قال مُطِرنا بنَوء كذا وكذا، على ما كان بعض أهل الشرك، يعنون من إضافة المطر إلى أنّه مطر نوء كذا، فذلك كفرٌ؛ لأن النَّوءَ وقتٌ، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً. ومن قال: مطرنا بنوء كذا، على معنى: مطرنا في وقت كذا، فلا يكون كفراً، وغيره من الكلام أحبُّ إليَّ منه. وانظر فتح الباري، كتاب الاستسقاء ٢/٥٢٢ - ٥٢٤.

(٤) الموطأ، كتاب الاستسقاء ١/١٩٢.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾

يقول: وإن يُكذِّبوك ـ يا محمدُ ـ هؤلاء المشركون بالله ويُخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن سَلَف قبلك من الرسل أسوةٌ؛ فإنهم كذلك جاءوا قومَهم بالبينات وأمرُوهم بالتوحيد فكذَّبوهم وخالفوهم، ﴿وإلى الله تُرجَعُ الأمور﴾، أي: وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء.

ثم قال: ﴿يا أيُّها الناسُ إنَّ وعدَ الله حَقٌّ﴾، أي: المعادُ كائنٌ لا محالة، ﴿فلا تغرَّنَّكم الحياةُ الدنيا﴾، أي: العيشة الدَّنيئةُ بالنسبة إلى ما أعدَّ الله لأوليائه وأتباع رُسُله من الخير العظيم، فلا تتلهَّوا عن ذلك الباقي بهذه الزَّهرةِ الفانية، ﴿ولا يغُرَّنكم بالله الغَرُورُ﴾، وهو الشيطان، قاله ابنُ عباس. أي: لا يفتنَّكُم الشيطان ويَصرِفَنَّكم عن اتباعِ رسل الله وتصديق كَلِماتِه، فإنه غرَّار كذَّابٌ أفاكٌ. وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان ﴿فلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدنيا ولا يَغُرَّنَّكم بالله الغَرورُ﴾.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: هو الشيطانُ. كما قال: يقولُ المؤمنون للمنافقين حين يُضرَبُ ﴿بينهم بسورٍ له باب باطنُه فيه الرحمة وظاهره من قِبَلِهِ العذابُ * يُنادُونَهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنَّكُم فتنتُم أنفُسَكم وتَربَّصتُم وارتبتُم وغرَّتكم الأمانيُّ حَتَّى جاء أمرُ الله وغرَّكم بالله الغَرُورُ﴾.

ثم بيَّن تعالى عداوةَ إبليسَ لابن آدم فقال: ﴿إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوًّا﴾، أي: هو مُبارِزٌ لكم بالعداوة، فعادُوه أنتم أشدَّ العداوة، وخالِفوه وكذِّبوه فيما يغرُّكم به، ﴿إنما يدعُو حِزْبَه ليكونوا من أصحاب السَّعير﴾، أي: إنما يقصد أن يُضِلَّكم حتى تدخُلوا معه إلى عذابِ السعير، فهذا هو العدوُّ المبين. فنسأل الله القويَّ العزيزَ أن يجعلَنا أعداءَ الشيطان، وأن يرزُقَنا اتباعَ كتابه، والاقتفاءَ بطريق رسُوله، إنه على ما يشاءُ قديرٌ، وبالإجابة جديرٌ. وهذه كقوله: ﴿وإذ قلنا للملائكةِ اسجُدوا لآدم فسجَدُوا إلا إبليسَ كان من الجنِّ ففسَقَ عن أمرِ ربِّه أفتتخِذُونَه وذُرِّيَّته أولياءَ من دُوني وهم لكم عَدُوٌّ بئسَ للظالمينَ بَدَلاً﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

لما ذكر تعالى أن أتباعَ إبليسَ مَصيرُهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك أن ﴿الذين كفروا لهم عذابٌ شديدٌ﴾، لأنهم أطاعُوا الشيطانَ وَعَصَوُا الرحمن، وأن ﴿الذين آمنوا﴾ بالله ورسله ﴿وعَمِلوا الصالحاتِ لهم مغفرةٌ﴾ أي لما كان منهم من ذَنْبٍ، ﴿وأجرٌ كبيرٌ﴾ على ما عَمِلُوه من خير.

ثم قال: ﴿أفمن زُيِّن له سوءُ عَمَله فرآه حَسَناً﴾، يعني كالكفار والفُجَّار، يعمَلون أعمالاً سيِّئةً، وهم في ذلك يَعتقدُون ويَحسَبون أنهم يُحسِنُون صنعاً، أي: أفَمَن كان هكذا قد أضلَّه الله، ألك فيه حيلةٌ؟ لا حيلةَ لك فيه، ﴿فإن الله يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾، أي: بقَدَره كان ذلك، ﴿فلا تذهب نفسُك عليهم حَسَراتٍ﴾، أي: لا تأسَفْ على ذلك، فإن الله حكيمٌ في قَدَره، إنما يُضِلُّ من يُضِلُّ، ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحُجَّةِ البالغة، والعلم التام، ولهذا قال: ﴿إن الله عليمٌ بما يصنعون﴾.

وقال ابن أبي حاتم عند هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا محمد بن كثير،

عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي عَمْرو السَّيباني ـ أو: ربيعة ـ عن عبد الله بن الدَّيلمي قال: أتيتُ عبد الله بن عَمْرو، وهو في حائط بالطائف يقال له: الوَهْطُ، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خَلْقَه في ظُلمَةٍ، ثم ألقى عليهم من نُورِه، فمن أصابه من نوره يومئذٍ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضَلَّ. فلذلك أقولُ. جَفَّ القلم على ما علم الله عز وجل»[١].

ثم قال: حدثنا يحيى بن عَبْدَكَ القَزوينيّ، حدثنا حَسَّان بن حَسَّان البصري، حدَّثنا إبراهيم بن بشير، حدثنا يحيى بن مَعْنٍ، حدثنا إبراهيم القرشي، عن سعد بنُ شُرحبيل، عن زَيدِ بن أبي أوفى قال: خرجَ علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: «الحمدُ لله الذي يَهدِي من الضلالة، ويُلبِسُ الضَّلالة على من أحبَّ».

وهذا أيضاً حديثٌ غريبٌ جداً.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

كثيراً ما يَستدلُّ تعالى على المعادِ بإحيائِه الأرضَ بعد موتها ـ كما في أول سورة الحج[٢] ـ يُنَبِّه عبادَه أن يَعتَبِرُوا بهذا على ذلك، فإن الأرضَ تكونُ مَيْتَةً هامِدَةً لا نباتَ فيها، فإذا أُرسِلَ إليها السَّحابَ تَحمِلُ الماءَ وأنزله عليها، ﴿اهتزَّت وربَت وأَنبتَتْ من كل زوجٍ بهيجٍ﴾، كذلك الأجساد، إذا أراد الله سبحانه بعثَها ونُشُورَها أنزل من تحت العرشِ مَطَراً يعُمُّ الأرضَ جميعاً، فَتنبُتُ الأجسادُ في قُبورهاكمايَنبُتُ الحبُّ في الأرض ولهذا جاء في الصحيح: «كلُّ ابن آدم يبلَى إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خُلِق ومنه يُرَكَّب»[٣]. ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك النشورُ﴾.

وتَقدَّم في «الحج» حديثُ أبي رَزِين وقلتُ: يا رسولَ الله، كيف يُحيِي الله الموتى؟ وما آيةُ ذلك في خلقه؟ قال: يا أبا رَزين، أما مَرَرْتَ بوادي قَومِك مَحْلاً ثم مَرَرْتَ به يَهتَزُّ خَضِراً؟ قلت: بلى. قال: «فكذلك يُحيِي الله الموتى»[٤].

وقولُه: ﴿من كان يُرِيد العزَّةَ فَلِلَّهِ العزَّةُ جَميعاً﴾، أي: من كان يُحبُّ أن يكونَ عَزيزاً في الدنيا والآخرة فَلْيلزَمْ طاعةَ الله فإنه يحصلُ له مقصودُه، لأن الله مالكُ الدنيا والآخرة، وله العزةُ جميعُها، كما قال تعالى: ﴿الذينَ يَتَّخِذُون الكافرين أولياء من دُونِ المؤمنين أيبتغُون عندهم العزَّةَ فإنَّ العِزَّةَ لله جميعاً﴾. وقال تعالى: ﴿ولا يحزنك قولُهم إنَّ العزةَ لله جميعاً﴾، وقال: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾

قال مجاهد: ﴿من كان يُريد العزَّةَ﴾ بعبادة الأوثان، ﴿فإنَّ العزَّةَ لله جميعاً﴾. وقال قتادة: ﴿مَن كان يُريد

---

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٣٥ من سورة النور، من رواية الإمام أحمد والبزار بإسناد أحمد إلى ربيعة بن يزيد، والبزار إلى يحيى بن أبي عمرو، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، وخرجناه هنالك.

(٢) سورة الحج، الآيات ٥ ـ ٧.

(٣) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٤ من سورة المؤمنون، وخرجناه هنالك، وشرحنا غريبه.

(٤) تقدم عند تفسير الآية ٦ من سورة الحج، وخرجناه هنالك.

العزّة فإن العزّة لله جميعاً﴾، أي: فليتعزّز بطاعة الله عز وجل. وقيل: من كان يريد علم العزّة، لمن هي؟﴿فإن العزة لله جميعاً﴾، حكاه ابن جرير[1].

وقوله: ﴿إليه يصعَدُ الكَلِم الطَّيِّبُ﴾، يعني: الذكرَ والتلاوةَ والدعاء. قاله غير واحد من السلف.

وقال ابنُ جَرير: حدثني محمد بن إسماعيل الأحمَسيُّ، أخبرني جعفرُ بنُ عونٍ، عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعوديّ، عن عبد الله بن المُخارِق، عن أبيه المُخارق بن سُلَيم قال: قال لنا عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ إذا حَدَّثناكم حديثاً أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله. إن العبد المسلم إذا قال: «سبحان الله وبحمده، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تبارك الله»، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه، ثم صعد بهنّ إلى السماءِ فلا يمُرُّ بهن على جَمْعٍ من الملائكةِ إلا استغفَرُوا لقائلهنّ، حتى يجيء بهنّ وجه الرحمن ـ عزّ وجلّ ـ ثم قرأ عبد الله: ﴿إليه يصعَدُ الكَلِم الطيِّبُ والعملُ الصالح يرفَعُه﴾[1]

وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، أخبرنا سعيد الجُرَيْري، عن عبد الله بن شَقِيق قال: قال كعبُ الأحبار: إنّ لـ «سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» لَدَوِيّاً حولَ العرش كدَوِيّ النحل، يُذَكِّرنَ بصاحبهنّ والعمل الصالح في الخزائن[1].

وهذا إسنادٌ صَحيحٌ إلى كَعْبِ الأحبار ـ رَحِمَه الله ـ وقد رُوِيَ مرفوعاً:

قال الإمام أحمدُ: حدثنا ابن نُمير، حدثنا موسى ـ يعني ابن مُسلم الطَّحان ـ عن عونِ بن عبد الله، عن أبيه ـ أو: عن أخيه ـ عن النُّعمانِ بن بَشِير قال: قال رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ: «الذين يذكرون من جلال الله، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله، يَتَعاطَفْنَ حولَ العرش، لهن دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النحل، يُذَكِّرْنَ بصاحبهنّ، ألا يُحِبُّ أحدُكم أن لا يزالُ له عند الله شيءٌ يُذكِّرُ به»[2]؟!.

وهكذا رواه ابنُ ماجه عن أبي بشر بكر بن خَلَف، عن يحيى بن سعيد القَطَّان، عن موسى بن أبي [عيسى][3] الطحان، عن عَونِ بن عبدِ الله بن عُتْبَةَ بن مسعودٍ، عن أبيه ـ أو: عن أخيه ـ عن النُّعمانِ بن بَشِير، به[2].

وقولهُ: ﴿والعملُ الصالحُ يرفَعُه﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الكَلِمُ الطيِّبُ ذِكرُ الله، والعملُ الصالح أداءُ فرائضه، فمن ذكر الله في أداءِ فرائضه حَمَلَ عَمَلُه ذكر الله يصعَدُ به إلى الله عزَّ وجلّ. ومن ذكر الله ولم يُؤَدِّ فرائضه رُدَّ كلامه على عمله، وكان أولى به[4].

وكذا قال مجاهد: العملُ الصالحُ يرفَعُ الكلامَ الطيِّب. وكذا قال أبو العالية، وعكرمةُ، وإبراهيم النَّخعيّ، والضَّحاك، والسدّي، والربيعُ بن أنسٍ، وشَهرُ بن حَوْشَبٍ، وغيرُ واحدٍ.

وقال إياس بن مُعاوِيَةَ القاضي: لولا العملُ الصالحُ لم يُرفَعِ الكلامُ. وقال الحسن، وقتادة: لا يُقبَلُ قولٌ إلا بِعَمَلٍ.

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/١٢٠

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٢٦٨، وسنن ابن ماجه، كتاب الأدب ٢/١٢٥٢

(٣) من سنن ابن ماجه. والطحان هكذا في النسخ، وسنن ابن ماجه، والذي في كتب الرجال: الحناط. انظر تهذيب التهذيب ١٠/٣٦٥، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/١٦٥.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٢/١٢١.

وقولهُ. ﴿والذين يمكُرون السَّيئات﴾، قال مجاهد، وسَعِيد بن جُبَير، وشهر بن حَوْشب: هُم المراءون بأعمالهم، يعني يَمكُرون بالناس، يُوهِمُون أنهم في طاعةِ الله، وهم بُغَضاءُ إلى الله عز وجل، يُراءُون بأعمالهم، ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾.

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: هم المُشرِكُونَ.

والصحيحُ أنها عامَّةٌ، والمشركون داخِلُون بطريق الأولى، ولهذا قال: ﴿لهم عذابٌ شديدٌ ومكرُ أولئكَ هو يَبُورُ﴾، أي: يَفسُد ويَبطُل ويظهَرُ زيفُهم عن قريب لأولي البصائر والنُّهى، فإنه ما أسرَّ عبدٌ سريرةً إلا أبداها الله على صفحاتِ وَجْهه وفَلَتاتِ لِسانِه، وما أسرَّ أحدٌ سَريرَةً إلا كساه الله رِداءها، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ. فالمرائي لا يَرُوجُ أمرُه ويستمر إلا على غَبِيٍّ، أما المؤمنون المتفرِّسُون فلا يَرُوجُ ذلك عليهم، بل ينكشِفُ لهم عن قريبٍ، وعالم الغيب لا تخفَى عليه خافية.

وقولهُ: ﴿والله خَلَقكُم من تُراب ثم من نُطفَةٍ﴾، أي: ابتدأ خلْقَ أبيكم آدمَ من تُرابٍ، ثم جَعَل نَسْلَه من سلالة من ماءٍ مَهينٍ، ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾، أي: ذَكَراً وأُنثى، لُطفاً منه ورحمةً أن جَعَل لكم أزواجاً من جِنسِكم، لِتَسْكُنُوا إليها.

وقولهُ: ﴿وما تحمِلُ من أُنثى ولا تَضَع إلا بعِلْمِه﴾، أي: هو عالمٌ بذلك، لا يخفَى عليه من ذلك شيءٌ، بل ﴿ما تسقُطُ من وَرَقَةٍ إلا يعلَمُها ولا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ﴾. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿الله يعلَمُ ما تحمل كل أنثى وما تَغيضُ الأرحامُ﴾... إلى قوله: ﴿المتعالِ﴾[(١)].

وقولهُ: ﴿وما يُعمَّر من مُعَمَّرٍ ولا يُنقَصُ من عُمُرِه إلا في كتابٍ﴾، أي: ما يُعطَى بعضُ النُّطَفِ من العمر الطويل يَعْلَمه، وهو عنده في الكتاب الأول، ﴿وما يُنقَصُ من عُمُرِه﴾ الضمير عائد على الجنس، لا على العَينِ، لأن العينَ الطويلَ العُمُرِ في الكتاب وفي علم الله لا يُنقَصُ من عُمُرِه، وإنما عاد الضمير على الجِنس؛ قال ابن جرير: وهذا كقولهم: «عندي ثوب ونصفه»، أي: ونصف آخر[(٢)].

ورَوَى من طريق العَوْفيِّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وما يُعَمَّر من مُعَمَّر ولا يُنقَصُ من عُمُرِه إلا في كتابٍ إنَّ ذلك على الله يَسيرٌ﴾، يقول: ليس أحدٌ قَضَيتُ له طُولَ العُمُرِ والحياة إلا وهو بالغ ما قَدَّرت له من العُمُر، وقد قَضَيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قَدَّرتُ لا يُزادُ عليه، وليس أحدٌ قَضَيتُ له أنه قَصِير العُمُر والحياة ببالغِ العُمُر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كُتِبَ له، فذلك قوله: ﴿ولا يُنقَصُ من عُمُرِه إلا في كتابٍ إنَّ ذلك علَى الله يَسيرٌ﴾، يقولُ: كل ذلك في كتابٍ عنده[(٢)].

وهكذا قال الضحاكُ بن مُزاحِم.

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿ولا يُنقَصُ من عُمُرِه إلا في كتابٍ﴾، قال: ما لَفَظت الأرحام من الأولاد من غير تَمامٍ.

وقال عبدُ الرحمٰنِ في تَفسيرها: ألا تَرَى الناسَ، يَعيشُ الإنسانُ مائةَ سنةٍ، وآخرُ يموت حين يُولَد، فهذا هذا.

---

(١) انظر تفسير آيتي الرعد ٨ ـ ٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/١٢٢.

وقال قتادة: والذي ينقص من عمره، فالذي يموت قبل ستين سنة.

وقال مجاهد: ﴿وما يُعَمَّر من مُعَمَّر ولا يُنقَصُ من عُمُرِه إلا في كتاب﴾، أي: في بطن أمه يُكتَب له ذلك، لم يخلق الخلق على عُمُرٍ واحدٍ، لهذا عُمُرٌ، ولهذا عمرٌ هو أنقص من عُمُرِه، وكل ذلك مكتوبٌ لصاحبه، بالغٌ ما بَلَغ[1].

وقال بعضهم: بل معناه: ﴿وما يُعَمَّر من مُعَمَّرٍ﴾، أي: ما يُكتَب من الأجل ﴿ولا يُنقَصُ من عُمُرِه﴾، وهو ذَهَابه قليلاً قليلاً، الجميعُ معلومٌ عند الله سنةً بعد سنةٍ، وشهراً بعد شهر، وجمعةً بعد جمعةٍ، ويوماً بعد يوم، وساعةً بعد ساعةٍ، الجميع مكتوب عند الله في كتاب.

نقله ابن جرير عن أبي مالك. وإليه ذهب السُّدِّي، وعطاءٌ الخراساني، واختار ابنُ جرير الأوَّل[2]، وهو كما قال.

وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة: حدثنا أحمدُ بن يحيى بن الوزير بن سُلَيمان[3]، سمعت ابنَ وهب يقول: حدثني يونس، عن ابن شِهاب، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من سَرَّه أن يُبسَطَ له في رِزقِه، ويُنسأ له في أثَرِه فَلْيَصِلْ رَحِمه»[4].

وقد رواه البخاريُّ ومسلم وأبو داودَ، من حديثِ يُونُس بن يزيدَ الأَيليِّ، به[5].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين[6]، حدَّثنا الوليدُ بن عبد الملك بن عُبَيد الله بن مُسَرِّح[7]، حدثنا عثمان بن عطاء، عن مَسْلَمة بن عبد الله، عن عَمِّه أبي مَشْجَعَةَ بن رِبْعِيٍّ، عن أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: ذكرنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلُها، وإنما زيادةُ العُمر بالذرِّية الصالحة يُرزَقُها العبدُ، فيدعُون له من بعدِه، فيلحقُه دعاؤُهم في قبره، فذلك زيادةُ العُمُر».

وقولُه: ﴿إن ذلك على الله يَسِيرٌ﴾، أي: سَهْلٌ عليه، يَسِيرٌ لديه، علمُه بذلك وبتفصيلِه في جميع مخلوقاته، فإنَّ عِلْمَه شامِلٌ لجميع ذلك، لا يخفى عليه منه شيءٌ.

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

يقولُ تعالى مُنبِّهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة، وخلقِ البحرين العذب الزُّلال، وهو هذه الأنهار السارحةُ بين الناس، من كبارٍ وصغارٍ، بحسب الحاجةِ إليها في الأقاليم والأمصار، والعُمران والبراريِّ والقِفار، وهي عذبةٌ سائغ شرابها لمن أراد ذلك، ﴿وهذا ملحٌ أُجاجٌ﴾، وهو البحر الساكن الذي تسير

(١) أخرجه عبد بن حميد، الدر المنثور ١١/٧.
(٢) تفسير الطبري ٢٢/١٢٣.
(٣) في النسخ: بن أبي زيد بن سليمان. والمثبت من تهذيب الكمال ١/٥١٩، وتحفة الأشراف
(٤) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى، تحفة الأشراف ١/٣٩٧
(٥) فتح الباري، كتاب البيوع ٤/٣٠١، ومسلم في كتاب البر ٤/١٩٨٢، وأبو داود في كتاب الزكاة ٢/١٣٢ ـ ١٣٣
(٦) في النسخ: علي بن الحسين بن الوليد، بزيادة (بن الوليد)
(٧) في النسخ أيضاً: ابن مسرح. والمثبت من الجرح والتعديل ٩/١٠، وتهذيب الكمال، ترجمة سليمان بن عطاء ١٢/٤٣ وكنيته الوليد أبو وهب.

فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زُعافاً مُرّة، ولهذا قال: ﴿وهذا مِلحٌ أجاجٌ﴾، أي: مُرٌّ.

ثم قال: ﴿ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً﴾، يعني السمك، ﴿وتستخرجون حِليَةً تلبسونها﴾، كما قال تعالى: ﴿يخرُجُ منهما اللؤلؤُ والمرجانُ * فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبان﴾.

وقوله: ﴿وترى الفلكَ فيه مواخِرَ﴾، أي: تمخَرُه وتشقُّه بحيزومها، وهو مُقدَّمها المُسنَّم الذي يشبه جُؤجُؤَ الطير، وهو صدرُه. وقال مجاهد: تمخَرُ الريحَ السفُن، ولا يمخَرُ الريحَ من السفن إلا العظامُ.

وقوله: ﴿لتبتغوا من فَضلِه﴾ أي: بأسفاركم بالتجارة، من قُطر إلى قُطر، وإقليم إلى إقليم، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي: تشكرون ربَّكم على تسخيره لكم هذا الخلقَ العظيمَ، وهو البحرُ، تتصرَّفون فيه كيف شِئتم، وتذهبون أين أردتُم، ولا يمتنع عليكم شيءٌ منه، بل بقدرته قد سخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميعُ من فضله ومن رحمته.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾.

وهذا أيضاً من قُدرته التامّة وسُلطانه العظيم، في تسخيره الليلَ بظلامه والنهارَ بضيائه، ويأخذُ من طول هذا فيزيدُه على قِصَر هذا فيعتدلان. ثم يأخذ من هذا في هذا فيطُول هذا ويقصُرُ هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاءً. ﴿وسخَّر الشمس والقمر﴾، أي: والنجومَ السيَّارات، والثوابتَ الثاقباتِ بأضوائهنَّ أجرامَ السمواتِ، الجميعُ يسيرون بمقدار مُعيَّن، وعلى منهاج مُقنَّن مُحرَّر، تقديراً من عزيز عليم. ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾، أي: إلى يوم القيامة. ﴿ذلكم الله ربكم﴾، أي: الذي فعل هذا هو الربُّ العظيمُ، الذي لا إلهَ غيرُه، ﴿والذين تدعُون من دُونِه﴾، أي: من الأندادِ والأصنامِ التي هي على صُورة مَن تزعمُون من الملائكة المُقرَّبين، ﴿ما يملكُون من قِطْمير﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، وعطيَّةُ العَوفي، والحَسن، وقتادة، وغيرهم: القِطْمير: هو اللِّفافة التي تكون على نَواةِ التمرة. أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئاً، ولا بمقدار هذا القِطْمير.

ثم قال: ﴿إن تدعُوهم لا يسمَعُوا دعاءكم﴾، يعني الآلهة التي تَدعُونها من دون الله لا يَسْمَعُون دعاءكم، لأنها جماد لا أرواح فيها. ﴿ولو سَمِعوا ما استجابُوا لكم﴾، أي: لا يقدِرُون على ما تطلبون منها، ﴿ويومَ القيامة يكفُرون بشرككم﴾، أي: يتبرَّءُون منكم، كما قال تعالى: ﴿ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله مَن لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حُشِرَ الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال: ﴿واتخذوا من دون الله آلهةً ليكونوا لهم عِزّاً * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضِدّاً﴾.

وقوله: ﴿ولا يُنبِّئك مثلُ خبير﴾، أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تَصير إليه مثل خَبيرٍ بها. قال قتادةُ: يعني نفسَه تبارك وتعالى، فإنه أخبرُ بالواقع لا محالة.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦﴾

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالى بغناه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلِّها إليه، وتذلُّلها بين يديه، فقال: ﴿يا أيها الناسُ أنتم الفقراءُ إلى الله﴾، أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو الغنيُّ عنهم بالذات، ولهذا قال: ﴿والله هو الغنيُّ الحميدُ﴾، أي: هو المتفرِّد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميدُ في جميع ما يفعله ويقوله، ويُقدِّره ويَشْرَعُه.

وقولهُ: ﴿إن يَشَأ يُذهِبكم ويأتِ بخَلقٍ جديدٍ﴾، أي: لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقومٍ غيركم، وما هذا عليه بِصَعبٍ ولا مُمتنِعٍ. ولهذا قال: ﴿وما ذلك على الله بعزيزٍ﴾.

وقوله: ﴿وَلا تزرُ وازرةٌ وِزرَ أُخرى﴾، أي: يوم القيامة. ﴿وإن تدْعُ مُثقَلَةٌ إلى حمْلها﴾، أي: وإن تدع نفسٌ مُثقلة بأوزارها إلى أن تُساعَدَ على حَمْلِ ما عليها من الأوزار أو بعضِه، ﴿لا يُحملْ منه شيءٌ ولو كان ذا قُربَى﴾، أي: ولو كان قريباً إليها، حتى ولو كان أباها أو ابنها، كلٌّ مشغولٌ بنفسه وحاله.

قال عكرمة في قوله: ﴿وإن تدعُ مُثقَلَةٌ إلى حملها﴾. الآية، قال: هو الجارُ يتعلَّق بجاره يوم القيامة، فيقول: يا ربِّ، سَلْ هذا: لِمَ كان يُغلِقُ بابه دُوني؟ وإنَّ الكافر لَيتعلَّق بالمؤمن يومَ القيامة، فيقول له: يا مؤمنُ، إنَّ لي عندك يداً، قد عرفت كيف كُنتُ لك في الدنيا؟ وقد احتجتُ إليكَ اليومَ. فلا يزالُ المؤمنُ يشفَعُ له إلى ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ حتى يرُدَّه إلى مَنْزلة دُونَ مَنْزِلَةٍ، وهو في النار. وإنَّ الوالد ليتعلَّق بولده يوم القيامة، فيقول: يا بنيَّ، أيُّ والدٍ كنتُ لكَ؟ فيُثني خيراً، فيقول له: يا بنيَّ، إني قد احتجتُ إلى مثقالِ ذَرَّةٍ من حسناتك أنجو بها مما ترى. فيقول له ولده: يا أبتِ، ما أيسَرَ ما طلبت، ولكني أتخوَّف مثلَ ما تتخوَّف، فلا أستطيع أن أُعطيك شيئاً. ثم يتعلَّقُ بزوجته فيقول: يا فلانةُ ـ أو: يا هذه ـ أيُّ زوجٍ كنتُ لكِ؟ فتُثني خيراً، فيقول لها: إني أطلبُ إليك حسنةً واحدةً تَهَبِينَها لي، لعلِّي أنجو بها مما تَرَيْنَ. قال: فتقول: ما أيسرَ ما طلبت. ولكني لا أُطيق أن أعطيكَ شيئاً، إني أتخوَّف مثل الذي تتخوَّف. يقول الله تعالى: ﴿وإن تدعُ مُثقَلَةٌ﴾.. الآية، ويقول الله: ﴿لا يَجزي والدٌ عن وَلَدِه﴾، و﴿يَوْمَ يَفِرُّ المرءُ من أخيه * وأمِّه وأبيه * وصاحبَته وبَنيه * لكُلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾.

رواه ابنُ أبي حاتمٍ ـ رحمه الله ـ، عن أبي عبد الله الطِّهْرانيِّ، عن حَفص بن عُمَر، عن الحكم بن أبانَ، عن عِكرمةَ، به[(١)].

ثم قال: ﴿إنما تنذِرُ الذين يخشَون ربَّهم بالغيب وأقاموا الصَّلاةَ﴾، أي: إنما يَتَّعِظُ بما جئتَ به أولو البصائرِ والنُّهى، الخائفُون من ربِّهم، الفاعلون ما أمَرَهُم به، ﴿ومن تَزَكَّى فإنما يتزكَّى لنفسه﴾، أي: ومن عَمِل صالحاً فإنما يعودُ نفعُه على نفسه، ﴿وإلى الله المصيرُ﴾، أي: وإليه المرجعُ والمآبُ، وهو سريعُ الحساب، وسَيَجزي كُلَّ عاملٍ بِعَمَلِه، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، الدر المنثور ٧/١٧.

مِن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

يقولُ تعالى. كما لا تَستوي هذه الأشياءُ المتباينةُ المختلفةُ، كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرقٌ وبَونٌ كبيرٌ، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحَرُور، كذلك لا تستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ. وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأمواتُ، كقوله تعالى: ﴿أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يَمْشي به في الناس كَمن مثله في الظلمات ليس بخارجٍ منها﴾، وقال تعالى: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع هل يستويان مثلاً﴾. فالمؤمن سميعٌ بصيرٌ في نورٍ يَمشي، على صراطٍ مستقيم في الدنيا والآخرة، حتى يستقرَّ به الحالُ في الجنّاتِ ذاتِ الظِّلال والعُيُونِ، والكافر أعمى أصَمُّ في ظلماتٍ يمشِي، لا خُروجَ له منها، بل هُوَ يَتِيهُ في غَيِّه وضَلاله في الدنيا والآخرة، حتى يُفضي به ذلك إلى الحَرُور والسَّموم والحَميم، ﴿وظلّ من يَحمُومٍ * لا باردٍ ولا كَريمٍ﴾.

وقولهُ: ﴿إنّ الله يُسمع مَن يَشاء﴾، أي: يَهديهم إلى سَماع الحُجَّةِ وقَبولها والانقياد لها، ﴿وما أنت بمُسْمِعٍ مَن في القُبُورِ﴾، أي: كما لا ينتفع الأمواتُ بعد موْتهم وصَيرُورَتهم إلى قُبورِهم وهم كفار بالهدايةِ والدَّعوةِ إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتِب عليهم الشقاوة لا حِيلَةَ لكَ فيهم، ولا تَستطيع هدايتهم. ﴿إن أنت إلا نذير﴾، أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء. ﴿إنا أرسلناكَ بالحقّ بَشيراً ونَذيراً﴾ أي بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذيرٌ﴾، أي: وما مِن أمة خَلَت من بني آدم إلا وقد بَعَث الله إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿إنما أنت منذرٌ ولكل قوم هادٍ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أُمّةٍ رسولاً أن اعبُدوا الله واجتَنِبُوا الطاغوتَ فمنهُم مَن هَدَى الله ومنهم مَن حَقّت عليه الضلالةُ﴾... الآية، والآياتُ في هذا كثيرة.

وقولهُ تبارك وتعالى: ﴿وإن يُكذِّبوك فقد كذّب الذين مِن قَبْلِهم جاءتهم رُسلُهم بالبيِّناتِ﴾، وهي: المعجزاتُ الباهراتُ، والأدلّةُ القاطعاتُ، ﴿وبالزُّبُرِ﴾، وهي الكُتُب، ﴿وبالكِتاب المُنير﴾، أي: الواضِح البَيِّن. ﴿ثم أخذتُ الذين كفروا﴾، أي: ومع هذا كلّه كَذّب أولئك رُسُلَهم فيما جاؤوهم به فأخذتهم، أي: بالعقاب والنَّكال، ﴿فكيف كان نَكِير﴾؟ أي: فكيف رأيتَ كان إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً؟!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى مُنبِّهاً على كَمال قدرته في خَلقه الأشياءَ المتنوِّعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماءُ الذي يُنزِّله من السماء يُخرِج به ثَمراتٍ مختلفاً ألوانها، من أصفرَ وأحمرَ وأخضرَ وأبيضَ، إلى غير ذلك من ألوانِ الثِّمار، كما هو المشاهَدُ من تنوّعِ ألوانها وطُعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وفي الأرض قِطَعٌ متجاوراتٌ وجنّاتٌ من أعناب وزرْعٌ ونخيلٌ صِنوانٌ وغيرُ صِنوانٍ يُسقى بماءٍ واحدٍ ونُفضِّل بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾.

وقولهُ تباركَ وتعالى: ﴿ومِن الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانُها﴾، أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوانِ، كما هو المشاهد أيضاً من بيضٍ وحُمرٍ، وفي بعضها طرائق ـ وهي: الجُدد، جمعُ جُدّة ـ مختلفةُ الألوانِ أيضاً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجُدد الطرائق. وكذا قال أبو مالك، والحسن، وقتادة والسُّدّي ـ ومنها ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ﴾، قال عكرمة: الغرابيبُ: الجبالُ الطوال السود. وكذا قال أبو مالك، وعطاء الخراساني وقتادة. وقال ابنُ جرير: والعربُ إذا وصفُوا الأسود بكثرة السواد، قالوا: أسودُ غربيبٌ[1]. ولهذا قال بعض[2] المفسرين في هذه الآية: هذا من المُقدّم والمؤخر في قوله تعالى: ﴿وغرابيبُ سُودٌ﴾، أي: سُودٌ غرابيبُ. وفيما قاله نَظَرٌ.

وقولهُ تعالى: ﴿ومِنَ الناسِ والدَّوابِّ والأنعامِ مُختلفٌ ألوانُه كذلك﴾، أي: كذلك الحيوانات من الأناسيِّ والدوابِّ ـ وهو: كل ما دبَّ على قوائِمَ ـ والأنعام، من باب عطف الخاصّ على العامّ. كذلك هي مختلفةٌ أيضاً، فالناسُ منهم بَرْبَرٌ وحُبُوش وطَمَاطِمُ[3] في غاية السواد، وصَقالبة ورُومٌ في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنودُ دونَ ذلك. ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿واختلافُ ألسنتكم وألوانكم إنَّ في ذلك لآياتٍ للعالِمين﴾. وكذلك الدوابُّ والأنعامُ مختلفةُ الألوانِ، حتى في الجنس الواحد، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان، بل الحيوانُ الواحدُ يكون أبلَقَ[4]، فيه من هذا اللونِ وهذا اللون، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مُسْنَدِه: حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا عبدُ الله بن عُمَر بن أبان بن صالح، حدثنا زياد بن عبد الله، عن عطاءِ بن السَّائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أَيَصْبُغُ ربك؟ فقال: «نعم صبغاً لا يَنْفُضُ[5]، أحمر وأصفر وأبيض». ورُوِيَ مُرسَلاً ومَوقوفاً[6]. والله أعلم.

ولهذا قال تعالى بعد هذا: ﴿إنما يخشَى الله من عبادِه العلماءُ﴾، أي: إنما يخشاه حَقَّ خشيته العلماءُ العارفون به، لأنه كُلَّما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفاتِ الكمالِ المنعوتِ بالأسماء الحسنى، كُلَّما كانت المعرفةُ به أَتَمَّ، والعلمُ به أكملَ، كانت الخشيةُ له أعظمَ وأكثرَ.

قال علي ابن أبي طلحةَ، عن ابن عَبَّاسٍ في قوله تعالى: ﴿إنما يخشَى الله من عبادِه العُلماءُ﴾، قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير[7].

وقال ابن لَهِيعَةَ، عن ابن أبي عَمْرَةَ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: العالم بالرحمن من لم يُشرك به شيئاً، وأحلَّ حلالَه، وحَرَّم حَرَامَه، وحَفِظَ وَصِيَّته، وأيقن أنه مُلاقيه ومحاسبٌ بعمله.

وقال سعيد بن جبير: الخشيةُ هي التي تحولُ بينك وبين مَعصية الله عزَّ وجلَّ. وقال الحسن البصري:

(١) تفسير الطبري ٢٢/١٣١.
(٢) ذكر ذلك البَغَوِيّ في تفسيره ٣/٥٦٩.
(٣) الطُّمْطُمَةُ: العُجْمة، والطُّمْطُمُ: الأعجمي الذي لا يُفصحُ، وجمعه طماطم. قال الأزهري:
كالأسودِ الحبشيِّ الحمشِ يتبعه سُودٌ طماطمُ في آذانها الشُّنُفُ
(٤) الأبلقُ: ما كان فيه سواد وبياض.
(٥) يقال: نَفَضَ الثوب أو الصِّبغُ: ذهب بعض لونه.
(٦) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب اللباس ٣/٣٦١.
(٧) أخرجه الطبري ٢٢/١٣٢، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. الدر المنثور ٧/٢٠.

الإيمانُ مَنْ خَشِيَ الرحمنَ بالغيب، ورَغِبَ فيما رَغَّبَ اللهُ فيه، وزَهِدَ فيما سَخِطَ[1] اللهُ فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ إن اللهَ عزيزٌ غفورٌ﴾[2]. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: ليس العلمُ عن كثرةِ الحديثِ، ولكنَّ العِلْمَ عن كثرةِ الخشيةِ.

وقال أحمد بن صالح المصري، عن ابن وهبٍ، عن مالكٍ قال: إن العلم ليس بكثرة الروايةِ، وإنما العلمُ نورٌ يجعلُه اللهُ في القلب.

قال أحمد بن صالح المصري: معناهُ أن الخشيةَ لا تُدرَكُ بكثرة الرواية، وأما العِلْمُ الذي فَرضَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يُتَّبَعَ فإنما هو الكتابُ والسنةُ، وما جاء عن الصحابة ـ رَضِيَ اللهُ عنهم ـ ومن بَعدهم من أئمةِ المسلمين ـ فهذا لا يُدرَكُ إلا بالرِّواية، ويكون تأويلُ قوله: «نور» يُريد به فهمَ العِلْمِ، ومعرفةَ معانيه.

وقال سفيان الثوري، عن أبي حيان التَّيميِّ، عن رجل قال: كان يقال: العلماء ثلاثة: عالمٌ بالله عالِمٌ بأمر الله. وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله. وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله ويعلَم الحدودَ والفرائض. والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشَى الله ولا يعلَمُ الحدودَ ولا الفرائض. والعالمُ بأمرِ الله ليس بعالمٍ بالله الذي يعلَمُ الحدود والفرائض، ولا يخشى الله عزَّ وجلَّ[3].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن عبادِه المؤمنين الذين يتلُون كتابه ويُؤمِنون به ويعمَلُون بما فيه، من إقام الصلاةِ، والإنفاقِ مما رَزَقهم الله في الأوقات المشروعةِ ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانيةً، ﴿يرجُون تجارةً لن تَبورَ﴾، أي: يرجون ثواباً عند الله لا بدَّ من حصوله. كما قدَّمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه: «إنَّ كل تاجرٍ من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة». ولهذا قال تعالى: ﴿ليُوفِّيهم أُجورَهم ويَزيدَهم من فضلِه﴾، أي: ليوفِّيهم ثوابَ ما فعلوه ويضاعِفَه لهم بزياداتٍ لم تخطُر لهم، ﴿إنه غفورٌ﴾، أي: لذُنوبهم، ﴿شكورٌ﴾ للقليلِ من أعمالِهم.

قال قتادة: كان مُطَرِّف ـ رحمه الله ـ إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آيةُ القُرّاء[4].

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا حَيْوَةُ، حدثنا سالم بن غيلان أنه سمع دَرّاجاً أبا السَّمْحِ يُحدِّث عن أبي الهَيْثم، عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله تعالى إذا رَضِيَ عن العبد أثنى عليه سَبْعةَ أصناف من الخير لم يعمله، وإذا سخط على العبد أثنى عليه سَبْعةَ أصناف من الشر لم يعمله»[5]. غريب جداً.

(١) في الدر المنثور: «وزهد فيما أسخط الله».
(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، الدر المنثور ٦/٢٠.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ، الدر المنثور ٧/٢٠.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة عن مطرف ، المصنف ١٣/١٧٦ ـ ١٧٧، والطبري عن قتادة ٢٢/١٣٢، وعن مطرف ٢٢/١٣٣. كما أخرجه عبد ابن حميد، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، الدر المنثور ٧/٢٢.
(٥) مسند الإمام أحمد ٣/٣٨.

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾

يقولُ تعالى: ﴿والذي أوحينا إليكَ﴾ ـ يا محمدُ ـ من الكتاب، وهو القرآن ﴿هو الحقّ مُصدِّقاً لما بين يديه﴾، أي: من الكتب المتقدمة يصدِّقها، كما شهدت هي له بالتنويه، وأنه منزَّل من ربّ العالمين.

﴿إنَّ الله بعباده لخبيرٌ بصيرٌ﴾، أي: هو خبيرٌ بهم، بصيرٌ بمن يستحقُّ ما يُفضِّله به على من سواه. ولهذا فضَّل الأنبياء والرسُل على جميع البشر، وفضَّل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمدٍ ـ ﷺ ـ فوقَ جميعهم، صلواتُ الله عليهم أجمعين.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾.

يقولُ تعالى: ثم جعَلْنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدِّق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمةُ، ثم قسَّمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال: ﴿فمنهم ظالمٌ لنفسه﴾، وهو: المفرِّط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرَّمات. ﴿ومنهم مُقتصدٌ﴾، وهو: المؤدِّي للواجبات، التارك للمُحرَّمات، وقد يترُكُ بعضَ المستحبات، ويفعل بعضَ المكروهات. ﴿ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله﴾، وهو: الفاعلُ للواجباتِ والمستحبَّاتِ، التاركُ للمحرَّماتِ والمكروهاتِ وبعضِ المُباحات.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادنا﴾، قال: هم أمّة محمد ـ ﷺ ـ ورَّثهم الله كُلَّ كتاب أنزله، فظالمهم يُغفرُ له، ومُقتصدهم يحاسَبُ حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب(١).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، وعبد الرحمن بن معاوية العُتْبيّ قالا: حدثنا أبو الطاهر بنُ السَّرح، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصَّنعاني، حدثني ابن جُريج، عن عطاء، عن ابن عباس، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال ذاتَ يوم: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، قال ابن عباس: والسابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخلُ الجنة برَحمةِ الله، والظالم لنفسه وأصحابُ الأعراف يدخلون الجنّة بشفاعةِ محمد ﷺ(٢).

وهكذا رُوي عن غير واحد من السلف: أنّ الظالم لنفسه من هذه الأمة من المُصطفين، على ما فيه من عِوَجٍ وتقصيرٍ. وقال آخرون: بل الظالمُ لنفسه ليسَ من هذه الأمة، ولا من المُصطفين الوارثين الكتاب.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بنُ هاشم بن مَرْزُوق، حدثنا ابن عُيينة، عن عمرو، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿فمنهم ظالمٌ لنفسه﴾، قال: هو الكافرُ(٣). وكذا رَوَى عنه عِكْرِمَةُ، وبه قال عِكْرِمَةُ أيضاً فيما رواه ابن جرير(٤).

(١) أخرجه الطبري ٢٢/١٣٣ ـ ١٣٤، وابن أبي حاتم، وغير واحد. الدر المنثور ٧/٢٣.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/١٨٩.
(٣) الدرّ المنثور عن ابن أبي حاتم وغير واحد ٧/٢٦.
(٤) تفسير الطبري ٢٢/١٣٥.

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾، قال: هم أصحاب المشأمة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم، والحسن، وقتادة: هو المنافق.

ثم قد قال ابن عباس، والحسن، وقتادةُ، وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول «سورة الواقعة»، وآخرها.

والصحيحُ أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهو اختيار ابن جَرير كما هو ظاهر الآيةِ، وكما جاءت به الأحاديثُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ من طرق يَشُدُّ بعضُها بعضاً، ونحن نُوردُ منها ما تَيَسَّر:

الحديث الأول، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعبَةُ، عن الوليد بن العيزار: أنه سَمِع رجلاً من ثَقِيف يُحَدِّث عن رجلٍ من كنانَةَ، عن أبي سعيد الخُدْرِي ـ رَضِي الله عنه ـ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ أنه قال: في هذه الآية: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذينَ اصطَفَينا من عبادِنا فمنهم ظالمٌ لنفسِه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذنِ الله﴾، قال: «هؤلاء كلُّهم بمنزلة واحدة، وكلهم في الجنة»(١).

هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده من لم يُسَمَّ. وقد رواه ابنُ جرير وابن أبي حاتم، من حديث شعبة، به نحوه(١).

ومعنى قوله «بمنزلة واحدة» أي: في أنهم من هذه الأمّةِ، وأنهم من أهل الجنةِ، وإن كان بينهم فرقٌ في المنازل في الجَنَّةِ.

الحديثُ الثاني، قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أنس بن عياض الليثي أبو ضَمْرَةَ، عن موسى بن عُقْبَةَ، عن علي بن عبد الله الأزْدِيِّ، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «قال الله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطَفَينَا مِن عِبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مُقتَصِدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله﴾، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنةَ بغير حسابٍ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يُحاسَبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يُحبَسُون في طول المحشَر، ثم هم: الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزنَ إنّ ربنا لغفور شكور * الذي أحَلَّنا دارَ المُقامَةِ مِن فَضلِهِ لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لُغُوبٌ﴾»(٢).

طريق أخرى، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أُسيدُ بنُ عاصمٍ، حدثنا الحُسَين بن حَفص، حدثنا سُفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدَّرداء قال: سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: ﴿ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفَينا من عِبادِنا فمنهم ظالمٌ لنفسه﴾ قال: «فأما الظالمُ لنفسِه فَيُحبَسُ حتى يُصِيبه الهمُ والحزنُ، ثم يدخلُ الجنَّةَ».

ورواهُ ابنُ جرير من حديث سُفيان الثوري، عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجدَ، فجلسَ إلى جَنْبِ أبي الدرداء، فقال: اللهُمَّ، آنِسْ وَحْشتِي، وارحَمْ غُرْبَتِي، ويَسِّر لي جليساً صَالِحاً. قال أبو الدرداء: لئن كنتَ صادِقاً لأنا أسعدُ به منك، سأحدثك حديثاً سَمِعتُه من رسولِ الله ـ ﷺ ـ لم أُحَدِّث به منذ سَمِعتُه منه، ذكر هذه الآيةَ: ﴿ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفَينا من عبادنا فمنهُم ظالمٌ لنفسه ومنهُم مقتصدٌ ومنهُم سابقٌ بالخيرات﴾، فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب، وأما المقتصدُ فيُحاسَب حساباً يسيراً. وأما الظالم

(١) مسند الإمام أحمد ٧٨/٣ وتفسير الطبري ١٣٧/٢٢ وقد أخرجه الترمذي في تفسير سورة فاطر، عارضة الأحوذي ١٠٥/١٢ ـ ١٠٦، وقال: «غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٢) مسند الإمام أحمد ١٩٨/٥

لنفسه فيُصِيبه في ذلك المكان من الغمّ والحزن، وذلك قولهُ: ﴿الحمدُ لله الذي أذهب عنّا الحزن﴾[١].

الحديثُ الثالثُ، قال الحافظ أبو القاسم الطّبرانيُّ: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس، حدثنا أبو مسعود[٢]، أخبرنا سهل بن عبد ربّه الرازيُّ، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه[٣]، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أسامة بن زيد: ﴿فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات﴾... الآية، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّهم من هذه الأمّة»[٤].

الحديث الرابع، قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عُزيز، حدثنا سَلامةُ، عن عُقيل، عن ابن شهاب، عن عَوف بن مالك، عن رَسُول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «أُمّتي ثلاثة أثلاثٍ، فثُلثٌ يدخُلون الجنّة بغير حسابٍ ولا عَذابٍ، وثُلُثٌ يُحاسَبُون حِسَاباً يسيراً ثم يدخُلون الجنّة، وثُلث يُمَحَّصُون ويُكشَفون، ثم تأتي الملائكةُ فيقولون: وجدناهم يقولون: «لا إلَه إلا الله وحده». يقول الله عزَّ وجلَّ: صَدَقُوا، لا إلَه إلا أنا، أدخلوهم الجنة بقولهم: «لا إلَه إلا الله وحدَه»، واحمِلُوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: ﴿وليحمِلُنَّ أثقالَهُم وأثقالاً مع أثقالهم﴾، وتصديقُها في التي فيها ذِكْرُ الملائكة، قال الله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطَفَينا من عِبادِنا﴾، فجعلهم ثلاثة أفواجٍ، وهم أصناف كلهم، فمنهم ظالمٌ لنفسِه، فهذا الذي يكشف ويُمَحَّص» غريب جداً[٥].

أثر عن ابن مسعود، قال ابنُ جرير: حدثني ابن حُميد، حدثنا الحكيم بن بشير، عن عَمْرو بن قيس، عن عبد بن عِيسَى، عن يزيدَ بن الحارث، عن شقيقٍ أبي وائلٍ، عن عبد الله بن مَسْعُودٍ أنه قال: هذه الأمةُ ثلاثةُ أثلاثٍ يوم القيامة: ثُلثٌ يدخلُون الجنّةَ بغير حسابٍ، وثُلثٌ يُحاسَبُون حِساباً يسيراً، وثُلثٌ يَجيئُون بذنوب عِظامٍ حتى يقول: ما هؤلاء؟ ـ وهو أعلم تبارك وتعالى ـ فتقول الملائكة: هؤلاء جاءوا بذنوب عظام، إلا أنهم لم يشركوا بك. فيقول الربُّ عزّ وجلّ: أدخلوا هؤلاء في سَعَة رحمتي. وتلا عبدُ الله هذه الآيةَ: ﴿ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطَفَينا من عِبادِنا﴾... الآية[٦].

أثر آخر، قال أبو داود الطيالسي، عن الصلت بن دينار أبو شُعَيب[٧]، عن عُقْبَة بن صُهبَانَ الهُنائيِّ قال: سألتُ عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن قول الله: ﴿ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطَفَينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه﴾... الآية، فقالت لي: يا بُنيّ، هؤلاء في الجنةِ، أما السابقُ بالخيرات فمن مَضَى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ـ ﷺ ـ بالحياة والرزق. وأما المقتصد فمن اتّبع أثره من أصحابه حتى لَحِق به. وأما الظالمُ لنفسه فَمِثْلي ومِثْلُكم. قال: فجعلت نفسها معنا[٨].

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/١٣٧

(٢) في النسخ: ابن مسعود. والمثبت من المعجم الكبير ١/١٦٧، ١٧٠، وأبو مسعود هو: أحمد بن الفرات بن خالد الضبيّ، مترجم في تهذيب الكمال ١/٤٢٢

(٣) في المعجم الكبير: «عن ابن أبي ليلى، عن أخيه عبد الرحمن».

(٤) المعجم الكبير ١/١٦٧، وقال في مجمع الزوائد ٧/٩٦: «رواه الطبراني وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهو سيّئ الحفظ».

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٨/٧٩ ـ ٨٠ بإسناده إلى محمد بن عزيز، نحوه. والحديث في الدرّ المنثور ٧/٢٤ ـ ٢٥ عن ابن أبي حاتم والطبراني، وفي مجمع الزوائد ٧/٩٦، وقال: «رواه الطبراني، وفيه سلامة بن روح، وثقه ابن حبان، وضعّفه جماعة، وبقية رجاله ثقات». هذا وللحديث بقية تجدها في مصادر التخريج

(٦) تفسير الطبري ٢٢/١٣٤.

(٧) في النسخ: «الصلت بن دينار بن الأشعث» والمثبت من مسند أبي داود، وتهذيب الكمال ١٣/٢٢١

(٨) مسند أبي داود ٢٠٩.

وهذا منها ـ رضي الله عنه ـ من باب الهَضْمِ والتواضع، وإلاَّ فهي من أكبرِ السابقين بالخيرات، لأن فَضْلَها على النساء كفضل الثَّريد على سائرِ الطعامِ.

وقال عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ: قال أميرُ المؤمنين عثمانُ بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: في قوله تعالى: ﴿فمنهم ظالمٌ لنفسه﴾، قال: هي لأهل بَدْوِنا، ومُقتَصِدُنا أهل حَضَرِنا، وسابقُنا أهلُ الجهادِ. رواه ابن أبي حاتم.

وقال عوفُ الأعرابي: حدثنا عبد الله بن الحارث بن نَوفل قال: حدثنا كعبُ الأحبار قال: «إنَّ الظالم لنفسه من هذه الأمة، والمقتصد والسابق بالخيرات كلُّهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهُم ظالمٌ لنفسه ومنهُم مُقتصِدٌ ومنهُم سابقٌ بالخيراتِ بإذنِ الله ذلك هو الفضلُ الكبيرُ ● جنَّات عدن يدخلونها﴾.. إلى قوله: ﴿والذين كفروا لهم نارُ جهنم﴾، قال: فهؤلاء أهل النار».

رواه ابن جرير[١] من طُرُقٍ، عن عوفٍ به. ثم قال:

حدثني يعقوبُ بن إبراهيم، حدثنا ابنُ عُليَة، أخبرنا حُمَيد، عن إسحاقَ بن عبد الله بن الحارث، عن أبيه أن ابن عبَّاسٍ سأل كعباً عن قوله: ﴿ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفَينا من عِبادِنا﴾ إلى قوله: ﴿بإذنِ الله﴾، قال: تماسَّت مناكبُهم وربِّ كَعْبٍ، ثم أعطوا الفضلَ بأعمالهم[١].

ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا الحَكَم بن بَشِير، حدثنا عَمرو بن قيس، عن أبي إسحاق السَّبيعي في هذه الآية: ﴿ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادنا﴾... الآية، قال أبو إسحاق: أمَّا ما سَمِعتُ منذ ستِّين سنة فكلُّهم ناجٍ[١].

ثم قال: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا الحَكَم، حدثنا عَمرو، عن مُحمَّد بن الحَنَفية قال: إنها أمة مرحومة، الظالم مَغفورٌ له، والمقتصد في الجنَّانِ عند الله، والسابق بالخيراتِ في الدرجاتِ عند الله[٢].

ورواه الثَّوريُّ، عن إسماعيلَ بن سُمَيعٍ، عن رَجُلٍ، عن مُحمَّد ابن الحنفية، بنحوه.

وقال أبو الجارُودِ: سألتُ مُحمَّد بن علي ـ يعني الباقر ـ عن قوله: ﴿فمنهم ظالمٌ لنفسه﴾، فقال: هو الذي خَلَط عملاً صالحاً وآخَرَ سيئاً.

فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلِّقة بهذا المقام. وإذا تقرَّر هذا فإن الآية عامَّة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبطُ الناس بهذه النِّعمة، وأولى الناس بهذه الرَّحمة، فإنَّهم كما قال الإمام أحمد، رَحِمه الله:

حدثنا مُحمَّد بن يزيد، حدثنا عاصِمُ بنُ رجاءِ بن حَيْوَة، عن قيس بن كَثِير قال: قدم رجلٌ من المدينة إلى أبي الدرداءِ وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أيْ أخِي؟ قال: حديثٌ بَلَغني أنك تُحدِّث به عن رسولِ الله ﷺ. قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: أما قَدِمتَ لحاجة؟ قال: لا؟ قال: أما قَدِمتَ إلاَّ في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم. قال: فإني سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «من سَلَك طريقاً يطلبُ فيها علماً سَلَكَ الله به طريقاً إلى الجَنَّة، وإنَّ الملائكة لتضعُ أجنحَتها رِضاً لطالب العلم، وإنه ليستغفرُ للعالم مَن في السمواتِ والأرضِ

(١) تفسير الطبري ٢٢/١٣٤.
(٢) تفسير الطبري ٢٢/١٣٥.

حتى الحيتانُ في الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضلِ القمر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[1].

وأخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث كثير بن قيس ـ ومنهم من يقول: قيسُ بنُ كثير ـ عن أبي الدرداء[1]. وقد ذكرنا طُرُقَه واختلاف الرُّواة فيه في شرح «كتاب العلم» من «صحيح البخاري»، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وقد تَقدَّم في أوَّلِ «سُورة طه» حديثُ ثعلبةَ بن الحكم، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء: إني لم أضع عِلْمِي وحُكمِي فيكم إلا وأنا أريدُ أغفر لكم، على ما كان منكم، ولا أبالي».

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

يخبر تعالى أنَّ مأوَى هؤلاء المُصطفَين من عباده، الذين أُورِثُوا الكتابَ المنزل من رب العالمين يوم القيامة ﴿جناتُ عدنٍ﴾، أي: جناتُ الإقامةِ يدخلونها يومَ معادهم وقدُومهم على ربِّهم عز وجل ﴿يُحلَّون فيها من أساورَ من ذَهَبٍ ولؤلؤاً﴾، كما ثبت في الصَّحيح عن أبي هُريرة ـ رَضِيَ الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «تَبلُغ الحِليَةُ مِنَ المؤمنِ حيثُ يبلُغُ الوضوءُ»[2].

﴿ولباسهم فيها حَريرٌ﴾، ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا، فأباحه الله لهم في الدار الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من لَبِسَ الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» وقال: «هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»[2].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عَمرو بن سَوّاد السَّرْحي، أخبرنا ابنُ وهب، عن ابن لهيعة، عن عُقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبي هُرَيرَة ـ رضي الله عنه ـ: أن أبا أُمامَةَ حدَّث أن رسول الله ـ ﷺ ـ حدَّثهم، وذكر حُلِيَّ أهلِ الجنةِ فقال: «مُسَوَّرون بالذهب والفِضَّةِ، مُكَلَّلَةً بالدُّرِّ، وعليهم أكاليل من دُرٍّ وياقوتٍ متواصلةٍ، وعليهم تاجٌ كتاجِ الملوكِ، شبابٌ جُرْدٌ مُرْدٌ مكحَّلُونَ».

﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾، وهو الخوف من المحذور، أزاحه عنا، وأراحنا مما كنا نتخوفه، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة.

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إلٰه إلا الله، وحشة في قبورهم ولا في منشرهم، وكأني بأهل لا إلٰه إلا الله، ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: ﴿الحمدُ لله الذي أذهب عنا الحزَن﴾» رواه ابن أبي حاتم من حديثه.

---

(1) مسند الإمام أحمد ١٩٦/٥، وأخرجه أبو داود والترمذي في كتاب العلم، أبو داود ٣١٧/٣، وعارضة الأحوذي ١٠/١٥٤ ـ ١٥٥، وسنن ابن ماجه، المقدمة ٨١/١.

(2) تقدم الحديث عن تفسير الآية ٢٣ من سورة الحج، وتخريجه هناك.

وقال الطبراني: حدثنا جعفر بن محمد الفِرْيَابِيُّ، حدثنا موسى بن يحيى المروزي، حدثنا سُليمان بن عبد الله بن وهب الكوفي، عن عبد العزيز بن حكيم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل «لا إله إلا الله» وحشةٌ في الموت ولا في القبور ولا في النُّشور، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب، يقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهَبَ عنا الحَزَنَ إنَّ ربَّنا لَغفورٌ شكورٌ﴾»[١].

قال ابن عباس وغيره: غَفَر لهم الكثير من السيِّئات، وشَكَر لهم اليسيرَ من الحسنات.

﴿الذي أحلَّنا دارَ المُقامة من فَضْلِه﴾، يقولون: الذي أعطانا هذه المنزلة وهذا المقامَ من فضلِه ومَنِّه ورَحْمَتِه، لم تَكُن أعمالنا تُساوي ذلك. كما ثَبَتَ في الصَّحيح أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لن يُدخِلَ أحداً منكم عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يَتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفضلٍ»[٢].

﴿لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لُغُوبٌ﴾، أي: لا يمسنا فيها عَناء ولا إعياء. والنَّصَبُ واللُّغوبُ كلٌّ منهما يُستعمَلُ في التَّعب. وكأن المراد بِنَفْي هذا وهذا عنهم أنهم لا تَعَب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلمُ. فمن ذلك أنهم كانوا يُدْئِبُون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فَسَقط عنهم التكليفُ بِدُخُولها، وصاروا في رَاحةٍ دائمةٍ مُستَمِرَّةٍ. قال تعالى: ﴿كلوا واشرَبُوا هَنِيئاً بما أسلفتُم في الأيامِ الخالية﴾.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

لما ذَكَر تعالى حال السُّعَداء، شَرَع في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿والذين كفرُوا لهم نارُ جهنَّم لا يُقضَى عليهم فَيَمُوتُوا﴾، كما قال تعالى: ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾. وثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «وأما أهلُ النارِ الذينَ هُم أهلُها فَلا يَمُوتونَ فيها ولا يَحْيَوْنَ»[٣]. قال تعالى: ﴿ونادوا يا مالِكُ لِيَقْضِ علينا ربك قال إنكم ماكثُون﴾. فهم في حالهم ذلك يَرَون موتهم راحةً لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لا يُقضَى عليهم فَيَمُوتوا ولا يُخفَّفُ عنهم من عَذَابها﴾، كما قال تعالى: ﴿إنَّ المجرمين في عذابِ جَهنَّمَ خالدون * لا يُفتَّر عنهم وهم فيه مُبلِسُون﴾، وقال: ﴿كلما خَبَت زِدْنَاهُم سَعِيراً﴾، ﴿فَذُوقوا فلن نَزِيدَكم إلا عذاباً﴾.

ثم قال: ﴿كذلك نَجْزي كُلَّ كفُورٍ﴾، أي: هذا جزاءُ كلِّ مَن كَفَر بِرَبِّه، وكَذَّب بالحقِّ.

وقولهُ: ﴿وهم يَصْطَرِخُون فيها﴾، أي: يُنادُون فيها، يَجْأَرُون إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بأصواتهم: ﴿ربَّنا أخرِجْنا نَعمَلْ صالحاً غيرَ الذي كنا نَعمَل﴾، أي: يسألون الرجعَةَ إلى الدنيا، ليعملُوا غير عَمَلِهم الأول، وقد عَلِمَ الربُّ ـ جلَّ جلالُه ـ أنه لو رَدَّهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نُهُوا عنه، وإنهم لكاذبون. فلهذا لا يُجيبهم إلى

---

(١) أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء ١٤٩١/٣، من غير هذه الطريق بإسناده إلى ابن عُمَر، وذكر في مجمع الزوائد ٨٣/١٠ أنه رواه في الأوسط من طريقين، إحداهما كما في كتاب الدعاء، والأخرى غير ما ذكر هنا أيضاً، فللحديث عنده ثلاث طرق.

(٢) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الرقاق ٢٩٤/١١، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٢١٦٩/٤ وما بعدها

(٣) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٧٤ من سورة طه، وتخريجه هنالك.

سؤالهم، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم: ﴿فهل إلى خروج[١] من سبيل ۝ ذلكم بأنه إذا دُعِيَ الله وحده كفرتم وإن يُشرَكْ به تُؤمنوا﴾، أي: لا يُجيبكم إلى ذلك، لأنكم كنتم كذلك، ولو رُددتم لعُدتم إلى ما نُهيتم عنه. ولهذا قال ها هنا: ﴿أوَلم نُعمِّركم ما يَتذكَّر فيه من تذكَّر﴾، أي: ما عشتم في الدنيا أعمار لو كنتم ممن ينتفع بالحقِّ لانتفعتم به في مُدَّة عُمُركم؟!

وقد اختلف المفسِّرون في مقدار العمر المُرَاد ها هنا، فرُوي عن علي بن الحسين زين العابدين أنه قال: مقدارُ سَبعَ عشرةَ سنةً.

وقال قتادةُ: اعلَمُوا أن طُولَ العُمُر حُجَّةٌ، فنعوذ بالله أن نُعَيَّر بطول العُمُر، قد نزلت هذه الآيةُ. ﴿أولم نُعمِّركم ما يَتذكَّر فيه من تَذكَّر﴾، وإن فيهم لابن ثماني عشرة[٢] سنةً. وكذا قال أبو غالب الشَّيباني.

وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن رَجُل، عن وهب بن مُنَبِّه في قوله: ﴿أوَلم نُعمِّركم ما يَتذكَّر فيه من تَذكَّر﴾، قال: عشرون سنةً.

وقال هُشَيم، عن منصور، عن زاذانَ، عن الحسن في قوله: ﴿أوَلم نُعمِّركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾، قال: أربعين سنة.

وقال هُشَيم أيضاً عن مُجالِد، عن الشَّعبي، عن مَسْرُوق أنه كان يقول: إذا بلغ أحدُكم أربعين سنة فليأخذ حِذْرَه من الله عزَّ وجلَّ[٣].

وهذه روايةٌ عن ابن عباس فيما قال ابن جَرير: حدثنا ابنُ عبد الأعلى، حدثنا بِشْر بن المفضل، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن مجاهدٍ قال: سَمِعتُ ابنَ عباس يقول: العمرُ الذي أعذَرَ الله إلى ابن آدمَ: ﴿أوَلم نُعمِّركم ما يَتذكَّر فيه من تَذكَّر﴾ أربعونَ سنةً[٣].

هكذا رواه من هذا الوجه، عن ابن عباس. وهذا القول هو اختيارُ ابن جرير. ثم رواه من طريق الثَّوريّ وعبد الله بن إدريسَ، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن مجاهد، عن ابن عباس قالَ: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أوَلم نُعمِّركم ما يَتذكَّر فيه من تَذكَّر﴾، ستون سنةً.

فهذه الرواية أصحُّ عن ابن عباس، وهي الصحيحةُ في نفس الأمر أيضاً، لما ثَبَتَ في ذلك من الحديث ـ كما سَنورِده ـ لا كما زَعَمه ابن جرير، من أن الحديث لم يَصِحَّ، لأن «في إسناده مَن يجب التثبُّتُ في أمرِه»[٤].

وقد رَوَى أصبغُ بن نُباتة، عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: العمرُ الذي عَيَّرهم الله به في قوله تعالى: ﴿أوَ لم نُعمِّركم ما يَتذكَّر فيه من تَذكَّر﴾ سِتُونَ سنةً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا دُحَيم، حدثنا ابن أبي فُدَيك، حدثني إبراهيم بن الفضل المخزومي، عن ابن حُسَين المكي: أنه حَدَّثه عن عَطاء ـ هو ابن أبي رَبَاح ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا كان يومُ القيامة قيلَ: أين أبناءُ الستين؟ وهو العُمُر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿أوَ لم نُعمِّركم ما يَتذكَّر فيه من تَذكَّر وجاءكم النذيرُ﴾».

(١) في النسخ: «فهل إلى مَرَدٍّ من سبيل»، والأيتان من سورة غافر ١١ ـ ١٢.
(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، الدر المنثور ٧/٣١ ـ ٣٢.
(٣) تفسير الطبري ٢٢/١٤١.
(٤) تفسير الطبري ٢٢/١٤٢.

وكذا رواه ابنُ جرير، عن علي بن شُعَيب، عن [محمد بن][1] إسماعيل بن أبي فُدَيك، به. وكذا رواه الطَّبَراني من طريق ابن أبي فُدَيك، به[2]. وهذا الحديث فيه نَظَرٌ، لحال إبراهيم بن الفضل، والله أعلم.

حديثٌ آخرَ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن رَجُل من بني غِفار، عن سَعيد المَقْبُريّ، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «لقد أعذَرَ الله إلى عبدٍ أحياه حتى بَلَغَ سِتّينَ أو سبعين سنةً، لقد أعذر الله إليه، لقد أعذر الله إليه»[3].

وهكذا رواه الإمام البخاري في «كتاب الرقاق» من صحيحه: حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر، عن عُمَر بن عليّ، عن مَعْن بن محمد الغِفَاريّ، عن سعيد المَقْبُريّ، عن أبي هُرَيرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أعْذَرَ الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى امرئٍ أخَّرَ عُمْرَه حتّى بَلَّغَه سِتّين سنة».

ثم قال البخاريُّ: «تابَعَه أبو حازمٍ وابنُ عَجْلانَ، عن سَعيدٍ المَقْبُريّ»[4].

فأمّا أبو حازم فقال ابنُ جرير: حدثنا أبو صالح الفَزَاريّ، حدثنا محمد بن سَوَّار، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمٰن بن عَبْدٍ القاريُّ الإسكندريُّ، حدثنا أبو حازم، عن سَعيد المقبُري، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من عَمَّرَهُ الله سِتّينَ سنةً فَقَد أعذَرَ إليه في العُمُرِ»[5].

وقد رواه الإمام أحمدُ والنَّسائي في الرِّقاق جميعاً عن قُتَيبة، عن يعقوب بن عبد الرحمٰن، به[5].

ورواه البَزَّار قال: حدثنا هشام بن يونس، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن سعيد المَقْبُري، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «العُمُر الذي أعذَرَ الله فيه إلى ابن آدمَ سِتّونَ سنةً». يعني: ﴿أوَ لم نُعَمِّركم ما يَتَذَكَّر فيه مَن تَذَكَّرَ﴾.

وأما متابعةُ «ابن عَجْلانَ» فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو الصَّقْر[6] يحيى بن محمد بن عبد الملك بن قَزَعَةَ بِسامِرَّاءَ، حدثنا أبو عبد الرحمٰن المقرئُ، حدثنا سَعيد بن أبي أيوب، حدثني محمد بن عَجْلانَ، عن سَعيد المقبُري، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من أتَت عليه سِتّونَ سنة فقد أعْذَرَ الله ـ عز وجل ـ إليه في العُمُر».

وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمٰن هُوَ المقرِئُ، به[7]. ورواه أحمد أيضاً عن خَلَف، عن أبي مَعْشَر، عن سَعيد المقبُري[7].

طريقٌ أخرى، عن أبي هُرَيرَةَ، قال ابنُ جرير: حدثني أحمدُ بنُ الفَرَج أبو عُتْبة الحِمْصِيُّ، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا المُطَرِّف بن مازن الكِنَاني، حدثني مَعْمَرُ بنُ راشدٍ قال: سَمِعت محمد بن عبد الرحمٰن الغِفَاريّ يقول: سَمِعتُ أبا هُرَيرَة يقولُ: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لقد أعذر الله ـ عزّ وجلّ ـ في العُمُر إلى صاحب السِّتِّين سنةً والسبعينَ»[8].

(١) من تفسير الطبري ٢٢/١٤١.
(٢) أخرجه في المعجم الكبير ١١/١٧٧ ـ ١٧٨.
(٣) مسند الإمام أحمد ٢/٢٧٥.
(٤) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٢٣٨.
(٥) تفسير الطبري ٢٢/١٤٢، ومسند أحمد ٢/٤١٧، وأخرجه النسائي في كتاب الرقاق من سننه الكبرى، تحفة الأشراف للمِزِّيّ ٩/٤٧٢.
(٦) في النسخ: وأبو السفر، والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/١٨٦.
(٧) مسند الإمام أحمد ٢/٣٢٠، ٤٠٥.
(٨) تفسير الطبري ٢٢/١٤٢.

فقد صَحَّ هذا الحديثُ من هذه الطُّرُقِ، فلو لم يكن إلا الطريقُ التي ارتضاها أبو عبد الله البُخاري شيخ هذه الصناعةِ [لَكَفَتْ]. وقولُ ابن جرير: «إن في رجاله بعضَ مَن يجب التثبُّت في أمره»، لا يُلْتَفَتُ إليه مع تَصْحِيح البُخَارِيِّ، والله أعلم.

وذكر بعضُهم أن العُمُرَ الطبيعي عند الأطباء مائةٌ وعشرون سنةً. فالإنسان لا يزالُ في ازديادٍ إلى كمال السِّتِّين، ثم يشرَعُ بعد هذا في النَّقصِ والهَرَم، كما قال الشاعر[1]:

إذا بَـلَغَ الـفـتى سِـتِّـيـن عَـامـاً فَـقَـد ذَهَـبَ الـمَـسَـرَّةُ والـفَـتَـاءُ

ولما كان هذا هو العمرُ الذي يُعذِر الله إلى عباده به، ويُزِيح به عنهُم العِلَل، كان هو الغالبَ على أعمارِ هذه الأمَّةِ. كما ورد بذلك الحديث، قال الحسن بن عَرَفَةَ رَحِمَه الله:

حدثنا عبد الرحمٰن بن محمد المُحَارِبي، حدثنا محمد بن عَمْرو، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيرَةَ قال. قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أعمارُ أُمَّتِي ما بين السِّتِّين إلى السَّبعِين، وأقلُّهم مَن يَجُوزُ ذلك».

وهكذا رَوَاه التِّرمذي وابنُ ماجه جميعاً في كتاب الزُّهـد، عن الحَسَن بن عَرَفَة، به. ثم قال الترمذيُّ: «هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه»[2].

وهذا عَجَبٌ من الترمذي، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى، عن أبي هُرَيرَةَ، حيث قال:

حدثنا سُلَيمان بن عمر، عن مُحَمَّد بن رَبِيعَةَ، عن كامل أبي العلاء، عن أبي صَالح، عن أبي هُرَيرة، قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أعمار أمتي ما بين السِّتِّين إلى السَّبعين، وأقلُّهم من يجوز ذلك».

وقد رَوَاه الترمذي في «كتاب الزُّهد» أيضاً، عن إبراهيمَ بن سَعِيدٍ الجَوْهَرِيِّ، عن مُحَمَّد بن ربيعة، به. ثم قال: «هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، من حَدِيثِ أبي صالح، عن أبي هُرَيرَةَ. وقد رُوِيَ من غير وَجْهٍ عنه»[3]. هذا نَصُّه بحُرُوفِهِ في الموضِعَين، والله أعلمُ.

وقال الحافظُ أبو يَعْلَى: حدثنا أبو مُوسَى الأنصاريُّ، حدثنا ابن فُدَيكٍ، حدثني إبراهيمُ بن الفَضل ـ مولى بني مخزوم، عن المقبُري، عن أبي هُرَيرَة، قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مُعْتَرَكُ المنايا ما بين الستِّين إلى السَّبعِينَ»[4].

وبه قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أَقَلُّ أُمَّتِي أبناءُ سَبْعِينَ». إسنادُهُ ضعيفٌ[4].

حديثٌ آخَرُ في معنى ذلك، قال الحافظ أبو بكر البَزّار في مُسنَدِه:

---

(١) الرَّبيع بن ضَبُع الفزاري، وكان من المُعَمَّرين، من قصيدة يقول فيها:

ألا أبلغ بَنِيَّ بَني رَبيعٍ فأشرارُ البنين لكم فداءُ
بأني قد كبرت ودقَّ عظمي فلا تشغلكم عني النساءُ

والنحاة واللُّغويُّون يَرْوُون البيتَ المُسْتَشْهَد به:

إذا عاش الفتى مائتين عاماً

وهو من شواهد الكتاب ١/٢٠٨، ٢/١٦٢، واللسان: فتا.

(٢) عارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ١٢/٦٥، وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٤١٥.

(٣) عارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٩/٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٤) مسند أبي يعلى، تحقيق إرشاد الحق ٦/٨٥ ـ ٨٦.

حدثنا إبراهيم بن هانيء، حدثنا إبراهيم بن مهدي، حدثنا عثمان بن مَطَر، عن أبي مالك، عن رِبْعِيٍّ، عن حذيفة أنه قال: يا رسولَ الله، أَنْبِئْنا بأعمارِ أُمَّتِكَ. قال: «ما بين الخَمْسِين إلى السِّتِّينَ». قالوا: يا رسولَ الله، فأبناءُ السَّبعينَ؟ قال: «قَلَّ من يبلُغها من أُمَّتي، رَحِمَ الله أبناءَ السَّبعين، ورَحِمَ الله أبناءَ الثَّمانينَ»[1].

ثم قال البَزَّارُ: لا يُرْوَى بهذا اللَّفظِ إلاَّ بهذا الإسنادِ، وعُثمانُ بنُ مَطَرٍ من أهلِ البَصْرَةِ ليسَ بقويٍّ[1].

وقد ثَبَتَ في الصحيح أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ عاش ثلاثاً وستِّين سنةً، وقيل: سِتِّينَ. وقيل: خمساً وستين سنةً، والمشهورُ الأوَّلُ، والله أعلم.

وقولُهُ: ﴿وجاءكم النذيرُ﴾، رُوِيَ عن ابن عباس، وعكرمةَ، وأبي جَعفرٍ الباقرِ، وقتادةَ، وسُفيان بن عُيَيْنة أنهم قالوا: يعني الشَّيْبَ.

وقال السُّدِّي، وعبدُ الرحمٰن بن زَيدِ بن أسلَمَ: يعني به الرسولَ ﷺ. وقرأ ابنُ زيدٍ: ﴿هذا نَذيرٌ من النُّذُرِ الأولى﴾[2]. وهذا هو الصحيحُ عن قتادةَ، فيما رواه شَيْبان، عنه أنه قال: احتجَّ عليهم بالعُمُرِ والرسل[3].

وهذا اختيارُ ابن جرير، وهو الأظهرُ، لقوله تعالى: ﴿ونادَوا يا مالكُ ليقضِ علينا ربُّك قال إنكم ماكثون ۝ لقد جئناكُم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾، أي: لقد بيَّنا لكم الحقَّ على ألسنةِ الرُّسُلِ، فأبيتم وخالفتم. وقال تعالى: ﴿وما كنا مُعَذِّبين حتى نبعثَ رَسُولاً﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿كُلَّما أُلقيَ فيها فَوجٌ سألهم خَزَنَتُها ألم يأتكم نَذيرٌ ۝ قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكَذَّبنا وقلنا ما نَزَّلَ الله من شيءٍ إن أنتم إلا في ضلالٍ كبيرٍ﴾.

وقولُهُ: ﴿فذُوقُوا فما للظَّالِمين من نَصيرٍ﴾، أي: فَذُوقوا عذابَ النارِ جزاءً على مخالفتكم للأنبياءِ في مُدَّةِ أعمالكم، فما لكم اليومَ ناصرٌ يُنقِذُكم مما أنتم فيه من العذاب والنَّكال والأغلالِ.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ ﴾.

يخبر تعالى بعلمه غَيْبَ السمواتِ والأرضِ، وأنه يعلَمُ ما تُكِنُّه السرائرُ وتَنطوي عليه الضمائرُ، وسيُجازي كُلَّ عامل بعَمَلِه.

ثم قال: ﴿هو الذي جَعَلكم خلائفَ في الأرض﴾، أي: يخلفُ قوم لآخرين قَبْلَهم، وجيلٌ لجيلٍ قبلَهم، كما قال: ﴿ويجعلكم خُلَفاءَ الأرضِ فمن كفرَ فعليه كُفْرُه﴾، أي: فإنما يعودُ وبالُ كُفْرِهِ ذلكَ على نفسِه دُونَ غيرِه، ﴿ولا يَزيد الكافرين كفرُهم عند رَبِّهم إلا مَقْتاً﴾، أي: كلما استمرُّوا على كفرهم أبغضَهُم الله، وكلَّما استمرُّوا فيه خَسِرُوا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامة، بخلاف المؤمنين فإنهم كُلَّما طال عُمُرُ أحدِهم وحَسُنَ عَمَلُه ارتفعت درجتُهُ ومنزلتُه في الجنةِ، وزاد أجرُه، وأحبَّهُ خالِقُهُ وبارئُهُ ربُّ العالمين.

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن

(١) كشفُ الأستار عن زوائد البزّار، كتاب الزهد ٤/٢٢٥.
(٢) أخرجه الطبري ٢٢/١٤٢، وابن أبي حاتم، الدرّ المنثور ٧/٣٢.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، وعبد بن حُميد، الدرّ المنثور ٧/٣١ ـ ٣٢.

تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

يقولُ تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ أن يَقُولَ للمشركين: ﴿أرأيتم شركاءكم الذين تدعُون من دُون الله﴾، أي: من الأصنام والأنداد، ﴿أَرُوني ماذا خَلَقُوا من الأرضِ أم لهم شركٌ في السموات﴾، أي: ليس لهم شيءٌ من ذَلِكَ، مَا يَمْلِكُونَ من قِطْمِيرٍ.

وقولهُ: ﴿أم آتيناهم كتاباً فهم على بيِّنةٍ منه﴾، أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يَقُولونه من الشِّرك والكفر؟ ليس الأمرُ كذلك، ﴿بل إن يَعِدُ الظالمون بعضُهم بعضاً إلا غُروراً﴾، أي: بل إنما اتَّبعُوا في ذلك أهواءَهُم وآراءَهُم وأمانيَّهم التي تَمنَّوها لأنفسهم، وهي غرورٌ وباطلٌ وزورٌ.

ثم أخبر تعالى عن قُدرته العَظيمة التي بها تَقُوم السماءُ والأرضُ عن أمره، وما جعل فيهما من القُوَّة الماسكة لهما، فقال: ﴿إن الله يُمسِكُ السمواتِ والأرضَ أن تَزُولَا﴾، أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال: ﴿ويُمسِكُ السماءَ أن تَقَع على الأرضِ إلا بإذنِهِ﴾، وقال تعالى: ﴿ومن آياتِهِ أن تَقُومَ السماءُ والأرضُ بأمرِهِ﴾، ﴿ولئن زالَتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾، أي: لا يقدِرُ على دَوامِهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حَليمٌ غفورٌ، أي: يَرَى عبادَه وهم يكفرون به ويعصُونه، وهو يحلم فيُؤخِّر ويُنظِر ويُؤجِّل ولا يَعجَل، ويستُر آخرين ويَغفِر، ولهذا قال: ﴿إنه كان حَليماً غَفُوراً﴾.

وقد أورد ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً غريباً، بل منكراً، فقال:

حدثنا علي بن الحسين بن الجُنَيد، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني هشام بن يُوسُف، عن أُمَيَّة، بن شِبْلٍ، عن الحكم بن أَبَانَ، عن عِكرِمَة، عن أبي هُرَيرَةَ قال: سَمِعتُ رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ يحكي عن موسى ـ عليه السلام ـ على المنبر قال: «وَقَعَ في نفسِ مُوسَى ـ عليه السلام ـ هل يَنَامُ اللهُ عز وجل؟ فأرسل الله إليه مَلَكاً، فأرَّقه ثلاثاً، وأعطاه قَارُورَتَينِ، في كلِّ يَدٍ قَارُورةٌ، وأَمَرَه أن يحتفِظَ بهما، قال: فجعل ينامُ وتكاد يداه تلتقيَانِ، ثم يَسْتَيقِظ فيحبِسُ إحداهما عن الأخرى، حتى نام نومه فاصطفقتْ يداه، فتكسَّرت القارورتان، قال: ضَرَبَ الله له مثلاً: أن الله لو كان ينامُ لم تَستَمسِك السماءُ والأرض»[١]

والظاهرُ أنَّ هذا الحديثَ ليس بمرفوعٍ، بل من الإسرائيليات المُنكَرَة، فإن موسى ـ عليه السلام ـ أجلُّ من أن يُجَوِّزَ على الله ـ سبحانه وتعالى ـ النومَ، وقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز بأنه: ﴿الحيُّ القَيُّومُ لا تأخذُه سِنَةٌ ولا نومٌ له ما في السمواتِ وما في الأرضِ﴾. وثَبَتَ في الصحيحَين[٢] عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخفِض القِسْطَ ويرفَعُه، يُرفَعُ إليه عملُ الليلِ قبلَ النهار، وعملُ النهارِ قبلَ الليلِ، حِجَابُهُ النورُ أو النار، لو كَشَفه لأحرقَت سُبُحاتُ وَجهِهِ ما انتهى إليه بصرُه من خَلْقِهِ».

وقد قال أبو جعفر بنُ جَرِيرٍ: حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا عبدُ الرحمن، حدثنا سفيانُ، عن الأعمش، عن أبي وائلٍ قال: جاء رجلٌ إلى عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ فقال: من أين جئتَ؟ قال: من الشام. قال: مَن لقيتَ؟ قال: لقيتُ كعباً. قال: ما حَدَّثك كعب؟ قال: حَدَّثني أن السمواتِ تدورُ على مَنكِب مَلَك. قال: أفصدَّقته أو

(١) تقدَّم الحديث عند تفسير آية البقرة ٢٥٥، من رواية ابن جرير، عن إسحق بن إبراهيم، به
(٢) الحديث أخرجه به مسلم، ذكر ذلك ابن كثير في تفسير آية النمل الثامنة، وقال في آية البقرة ٢٥٥: «وفي الصحيح عن أبي موسى». وقد خرجناه هنالك، وشرحنا غريبه

كَذَّبتَه؟ قال: ما صَدَّقتُه ولا كَذَّبتُه. قال: لَوَدِدتُ أنك افتديتَ من رِحْلَتِكَ إليه بِرَاحِلَتِكَ ورَحْلِها، كَذَبَ كعبٌ. إن الله تعالى يقول: ﴿إن الله يُمسِكُ السمواتِ والأرضَ أن تزولا ولَئِن زالتا إن أمسكهما من أحدٍ من بعده﴾[1].

وهذا إسنادٌ صَحِيحٌ إلى كعب وإلى ابن مسعود. ثم رواه ابن جرير عن ابن حُمَيد، عن جَرير، عن مُغِيرة، عن إبراهيم قال: ذَهَبَ جُندُبٌ البَجَلي إلى كَعبٍ بالشام، فذَكَر نحوه. وقد رأيتُ في مصنف الفقيه يحيى بن إبراهيم بن مُزَين الطُلَيطِلي، سَمَّاه «سِيَرُ الفقهاء»، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطَّبَّاع، عن وكيع، عن الأعمش، به. ثم قال: وأخبرنا زُونان[2] ـ يعني عبد الملك بن الحسن ـ عن ابن وَهْب، عن مالك أنه قال: السماءُ لا تَدُور. واحتج بهذه الآية، وبحديث: «إنَّ بالمغرب باباً للتَّوبة لا يَزالُ مفتوحاً حتى تَطلُعَ الشمسُ منه».

قلت: وهذا الحديث في الصحيح[3]، والله أعلم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

يُخبِر تعالى عن قُرَيش والعرب أنهم أقسَموا بالله جَهْدَ أيمانهم، قبل إرسال الرسول إليهم: ﴿لئن جاءهم نذيرٌ ليكونُنَّ أهدَى من إحدى الأمم﴾، أي: من جميع الأمم الذين أُرسِلَ إليهم الرُّسُل. قاله الضحاك وغيره، كقوله تعالى: ﴿أن تقولوا إنما أُنزِلَ الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كُنَّا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنَّا أُنزِلَ علينا الكتابُ لكُنَّا أهدَى منهم فقد جاءكُم بيِّنةٌ من ربِّكم وهدًى ورحمةٌ فمن أظلم ممن كَذَّب بآيات الله وصَدَف عنها﴾، وكقوله تعالى: ﴿وإن كانُوا ليقولون * لو أنَّ عندنا ذكراً من الأوَّلين * لَكُنَّا عبادَ الله المُخلَصِينَ * فكفَرُوا به فسوف يعلمون﴾.

قال الله تعالى: ﴿فلما جاءهم نذيرٌ﴾، وهو محمد ﷺ، بما أُنزِلَ معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المُبين، ﴿ما زادَهم إلا نُفُوراً﴾، أي: ما ازدادوا إلا كُفراً إلى كُفرِهم. ثم بَيَّن ذلك بقوله: ﴿استكباراً في الأرض﴾، أي: استكبَروا عن اتِّباع آيات الله، ﴿ومَكْرَ السَّيِّء﴾، أي: ومَكَرُوا بالناس في صَدِّهم إياهم عن سبيل الله، ﴿ولا يَحِيقُ المكر السَّيِّءُ إلا بأهلِه﴾، أي: وما يعودُ وَبالُ ذلك إلا عليهم أنفسِهم دونَ غيرهم.

قال ابن أبي حاتم: ذكر علي بن الحُسَين، حدثنا ابنُ عُمَر، حدثنا سفيان، عن أبي زكريا الكوفي، عن رَجُلٍ حَدَّثه، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إيَّاكَ ومكرَ السَّيِّء، فإنه لا يَحِيقُ المكرُ السَّيِّءُ إلا بأهله، ولهم من الله طالب»[4].

وقد قال محمد بن كعب القُرَظي: ثلاثٌ مَن فعلَهُنَّ لم يَنجُ حتى يَنزِلَ به، مَنْ مَكَر أو بَغَى أو نَكَثَ،

(١) تفسير الطبري ٢٢/١٤٤.

(٢) انظر نزهة الألباب في الألقاب لابن حجر ١/٣٤٩، والديباج المذهب ٢/١٩.

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب الدعاء، عارضة الأحوذي ١٢/٥٥ ـ ٥٧، وابن ماجه في كتاب الفتن ٢/١٣٥٣، والنسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف للمزي ٤/١٩٢، والإمام أحمد في مسنده ٤/٢٤٠، ٢٤١.

(٤) الدر المنثور ٧/٣٦.

وتصديقُها في كتاب الله ﴿ولا يَحِيقُ المكرُ السيِّئُ إلا بأهلِه﴾، ﴿إنما بَغيُكم على أنفسِكم﴾، ﴿ومن نكث فإنما ينكُثُ على نفْسِه﴾[1].

وقولهُ: ﴿فهل ينظرون إلا سُنّةَ الأوّلين﴾، يعني: عُقوبةَ الله لهم على تكذيبهم رُسُلَه ومخالفتهم أمْرَه، ﴿ولن تَجد لسُنّةِ الله تبديلاً﴾، أي: لا تُغيَّر ولا تُبدَّل، بل هي جاريةٌ كذلك في كل مُكذِّب، ﴿ولن تجد لسُنّةِ الله تحويلاً﴾، أي: ﴿وإذا أراد الله بقومٍ سُوءاً فلا مَرَدَّ له﴾، ولا يكشِفُ ذلك عنهم ويحوِّله عنه أحدٌ

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

يقولُ تعالى: قل يا محمّدُ لهؤلاء المكذِّبين بما جئتَهم به من الرسالة: سِيرُوا في الأرض فانظُروا كيف كان عاقبةُ الذين كَذَّبوا الرسل، كيف دَمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالُها، فخَلَتْ منهم منازلُهم، وسُلِبوا ما كانوا فيه من النِّعَم بعد كَمال القُوّة، وكثرةِ العَدَد والعُدَد، وكَثرةِ الأموالِ والأولادِ، فما أغنى ذلك شيئاً، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيءٍ لما جاءَ أمرُ ربك، لأنه تعالى لا يُعجزُه شيءٌ إذا أراد كونَه في السمواتِ والأرض، ﴿إنه كان عَليماً قديراً﴾، أي: عليم بجميع الكائنات، قديرٌ على مَجمُوعِها.

ثم قال تعالى: ﴿ولو يُؤاخِذُ الله الناس بما كَسَبوا ما تَرَك على ظَهرِها من دابَّةٍ﴾، أي: لو آخذهم بجميع ذُنوبِهم لأهلك جميعَ أهلِ الأرض، وما يَملِكُونه من دَوابَّ وأرزاقٍ

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سُفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: كاد الجُعَل أن يُعذَّبَ في جُحْرِه بذَنْبِ ابنِ آدمَ، ثم قرأ: ﴿ولو يُؤاخذُ الله النّاسَ بما كَسَبُوا ما تَرَك على ظهرِهَا من دابَّةٍ﴾.

وقال سعيد بن جُبَير، والسُّدِّي في قوله: ﴿ما تَرَك على ظَهرِها من دابَّةٍ﴾، أي: لما سقاهم المطَر، فماتت جميعُ الدوابّ.

﴿ولكن يُؤخِّرهم إلى أجلٍ مُسمًّى﴾، أي: ولكن يُنظِرُهُم إلى يوم القيامة فيُحاسِبُهم يومئذٍ، ويُوفِّي كلَّ عاملٍ بعمله، فيجازي بالثوابِ أهلَ الطاعةِ، وبالعِقاب أهلَ المعصية ولهذا قال تعالى: ﴿فإذا جاء أجلُهم فإن الله كان بعبادِه بَصيراً﴾.

آخر تفسير سُورَةِ فاطر، ولله الحمدُ[2]

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. الدر المنثور ٧/٣٦

(٢) ووقع في آخر تفسير سورة فاطر من مخطوطة «وكان الفراغ من كتابتها بخط العبد الفقير إلى الله محمد بن بهادر بن عبد الله الشجاعي، وقت السحر، وليلة يسفر صباحها عن نهار الاثنين، سابع عشرين شهر ربيع الآخر، سنة تسع وستين وسبعمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

كما وقع في آخرها من مخطوطة الأزهر «وهو آخر الجزء الخامس، يتلوه إن شاء الله تعالى في أول السادس تفسير سورة يس. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين».

تفسير

سورة يس

وهي مكية

قال أبو عِيسَى التِّرمذي: حَدَّثنا قتيبة وسُفيان بن وَكيع، حدثنا حُمَيد بن عبد الرحمٰن الرُّؤَاسِيُّ، عن الحسن بـن صالح، عن هارونَ أبي محمد، عن مُقَاتِل بن حَيَّان، عن قَتادَةَ، عن أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ لكل شيءٍ قلباً، وقلبُ القرآنِ يس. ومن قرأ يس كَتَب الله له بقراءتها قراءة القرآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ».

ثم قال: وهذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث حُمَيد بن عبد الرحمٰن. وهارونُ أبو محمدٍ شيخٌ مجهولٌ. وفي الباب عن أبي بكر الصِّديق، ولا يَصِحُّ لِضَعفِ إسنادِه»[1]. ومن أبي هُرَيرَة منظورٌ فيه.

أما حديثُ الصديق فرواه [[2] الحكيم التِّرمذِيُّ في كتابه نوادر الأصول[2]]، وأما حديثُ أبي هُرَيرَةَ فقال أبو بكر البَزَّار:

حدثنا عبدُ الرحمٰن بن الفضل، حدثنا زيدٌ ـ هو ابن الحُبَاب ـ حدثنا حُمَيد ـ هو المَكِّي، مولى آل عَلْقَمَة ـ عن عطاء ـ هو ابن أبي رباح ـ عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ قَلباً، وقلبُ القرآنِ يس».

ثم قال: لا نعلم رواه إلا زيدٌ، عن حُمَيد[3].

وقال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا إسحاقُ بن أبي إسرائيلَ، حدثنا حَجَّاج بن محمد، عن هِشَام بن زِيَادٍ، عن الحسن قال: سَمِعتُ أبا هُرَيرة يقولُ: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مَن قَرَأ يس في ليلةٍ أصبحَ مغفوراً له. ومَن قَرَأ: «حم» التي يُذكَرُ فيها الدُّخَانُ[4] أصبحَ مغفوراً له»[5]. إسناد جيد.

(١) عارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ١١/١٧ ـ ١٨.

(٢ ـ ٢) من الطبعات السابقة، ومكانه بياض في النسخ. وقد ذكر القرطبي في تفسيره ١٥/٢ أنَّ الحكيم الترمذيَّ ذكرَهُ من حديث أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ مسنداً.

(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار، باب فضائل القرآن ٣/٨٧.

(٤) في مسند أبي يعلى: «التي يذكر فيها الدخان في ليلة جمعة».

(٥) مسند أبي يعلى، تحقيق إرشاد الحق ٥/١٥٢ ـ ١٥٣.

وقال ابنُ حِبَّان في صحيحه: حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثقيف، حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السَّكُوني، حدثنا أبي، حدثنا زياد بن خيثمة، حدثنا محمد بن جُحادة، عن الحسن، عن جُندب بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ يسٓ في ليلةٍ ابتغاء وجه الله غُفر له»[١].

وقد قال الإمامُ أحمد: حدثنا عارمٌ، حدثنا مُعتمر، عن أبيه، عن رجل، عن أبيه، عن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «البقرةُ سَنام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستُخرِجَت ﴿الله لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ﴾ من تحتِ العرش فوُصلت بها ـ أو: فوُصِلت بسورة البقرة ـ ويس قلبُ القرآن، لا يقرؤها رَجُلٌ يريدُ الله والدارَ الآخرة، إلا غُفرَ له، واقرؤوها على موتاكم».

وكذا رواه النَّسائي في «اليوم واللَّيلة»، عن محمد بن عبد الأعلى، عن معتمر بن سليمان، به.

ثم قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عارمٌ، حدثنا ابنُ المبارك، حدثنا سُليمان التَّيمي، عن أبي عثمان ـ وليس بالنَّهدي ـ عن أبيه، عن مَعقِل بن يسار قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «اقرؤوها على موتاكم»، يعني يسٓ[٢].

ورواه أبو داود، والنَّسائي في «اليوم والليلة»، وابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك، به إلا أن في رواية النَّسائي: عن أبي عُثمان، عن مَعقِل بن يَسارٍ[٢].

ولهذا قال بعضُ العلماء: من خصائص هذه السورةِ أنها لا تُقرأ عند أمرٍ عسيرٍ إلا يسَّره الله. وكأن قراءتها عند الميتِ لتَنزِلَ الرحمةُ والبركةُ، وليسهُلَ عليه خروجُ الرُّوح، والله أعلم.

قال الإمامُ أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان قال: كان المشيخة يقولون: «إذا قُرِئت ـ يعني يسٓ ـ عند الميت خُفِّفَ عنه بها»[٣].

وقال البزَّارُ: حدثنا سَلَمةُ بن شبيب، حدثنا إبراهيمُ بن الحَكم بن أبان، عن أبيه، عن عكْرِمَة، عن ابن عباسٍ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «لوَدِدتُ أنها في قلبِ كلِّ إنسانٍ من أُمتي»، يعني يسٓ»[٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ ① وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ③ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ④ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ⑤ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ⑥ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑦ ﴾

قد تقدَّم الكلام على الحروف المُقطَّعة في أول «سُورة البقرة». ورُوي عن ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، والحسن، وسفيان بن عُيينة: أن «يسٓ» بمعنى: يا إنسان[٥].

---

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الصلاة ٤/١٢١.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٢٦، وسنن أبي داود، كتاب الجنائز ٣/٩١، وابن ماجه في كتاب الجنائز ١/٤٦٥ ـ ٤٦٦ وتحفة الأشراف للمزي ٨/٤٦٥.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/١٠٥.

(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار، باب فضائل القرآن ٣/٨٧.

(٥) أخرجه الطبري ٢٢/١٤٨، وابن أبي شيبة، وغير واحد، الدر المنثور ٧/٤١.

وقال سعيد بن جُبَير: هو كذلك في لغة الحبشة. وقال مالك، عن زيد بن أسلم: هو اسم من أسماء الله تعالى.

﴿والقرآنِ الحكيم﴾، أي: المحكَم الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يدَيه ولا من خلْفِه، ﴿إنك﴾ يا محمدُ ﴿لمِن المرسلين * على صراطٍ مُستقيم﴾، أي: على منهجٍ ودينٍ قويم، وشرْعٍ مستقيم، ﴿تنزيلَ العزيزِ الرحيم﴾، أي: هذا الصراطُ والمنهجُ والدينُ الذي جئتَ به مُنَزَّلٌ من ربِّ العزة الرحيمِ بعبادِهِ المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ * صراطِ اللهِ الذي له ما في السمواتِ وما في الأرضِ ألا إلى اللهِ تَصير الأمورُ﴾.

وقولهُ تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قوماً ما أُنذِرَ آباؤُهم فهُم غافِلُون﴾، يعني بهم العربَ؛ فإنه ما أتاهم من نذيرٍ من قبله. وذكرهُم وحدَهم لا ينفي مَن عداهم، كما أن ذِكْرَ بعضِ الأفراد لا ينفِي العُمُومَ. وقد تَقدَّمَ ذِكْرُ الآياتِ والأحاديثِ المتواترة في عُمُومِ بعثته - صلوات الله وسلامه عليه - عند قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناسُ إني رسولُ اللهِ إليكم جميعاً﴾[1].

وقولهُ: ﴿لقد حَقَّ القولُ على أكثرِهم﴾، قال ابنُ جَرير: لقد وَجَبَ العذابُ على أكثرِهم بأنَّ الله حَتَّم عليهم في أُمِّ الكتاب أنهم لا يُؤمِنُونَ، ﴿فهُم لا يؤمِنُونَ﴾ بالله، ولا يُصَدِّقون رُسُلَه[2].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى: إنَّا جعلنا هؤلاءِ المحتومَ عليهم بالشقاء نسبتُهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة مَن جُعِلَ في عنقه غُلٌّ، فجمَعَ يديه مع عُنُقه تحت ذَقْنِه، فارتفع رأسُه، فصار مقمَحاً، ولهذا قال: ﴿فهم مُقْمَحُون﴾، والمُقمَحُ هو الرافع رأسه، كما قالت أم زَرْع في كلامها: «وأشرب فأتقمَّحُ»[3]، أي: أشرب فأروَى، وأرفع رأسي تَهنيئاً وتَرَوِّياً. واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين، وإن كانتا مرادتين، كما قال الشاعر[4]:

فَما أدري إذا يَمَّمْتُ أرضاً ... أُريدُ الخَيْرَ أيُّهما يَلِيني
ألَخيرُ الذي أنا أبتغيهِ ... أمِ الشَّرُّ الذي لا يأتِليني

(١) انظر تفسير آية الأعراف ١٥٨.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/١٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، فتح الباري ٩/٢٥٥، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ٤/١٨٩٩ - ١٩٠٠. ويروى: «فأتقنَّحُ» بالنون. والمعنى على رواية الميم: أروى حتى أدع الشراب من شدة الرَّيّ، ومنه: قمح البعير يَقْمَحُ. إذا رفع رأسه من الماء بعد الرِّيِّ ومن قال بالنون فمعناه: أقطع الشرب وأتمهَّل فيه. وقيل: هو الشرب بعد الرِّيّ.

(٤) المثقّب العبْدي. وقد استشهد الفراء بهما في غير موضع من معانيه ١/٢٣١، ٢/٧، ٢/١١٢، ٢/٢٧٢، قال في ٢/١١٢: «يريد أي الخير والشرَّ يليني، لأنه إذا أراد الخير فهو يتقي الشر». وأخذ ذلك الطبري في تفسيره ٢٢/١٥١.

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لَمَّا دل السِّياقُ والكلامُ عليه، وكذا هذا، لما كان الغُلُّ إنما يُعرفُ فيه جَمْعَ اليدين مع العُنُقِ اكتفى بذكر العُنق عن اليدين.

قال العَوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مُقمَحُون﴾، قال: هو كقول الله تعالى ﴿ولا تجعل يدَك مغلولةً إلى عُنُقِك﴾، يعني بذلك أن أيديهم مُوثَقَةٌ إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن يَبْسُطُوها بخير[١].

وقال مجاهد: ﴿فهم مُقمَحُون﴾، قال: رافِعُو رُءوسِهم، وأيديهم موضوعةٌ على أفواههم، فهم مغلولُون عن كلِّ خيرٍ.

وقولُهُ: ﴿وَجَعلنا من بين أيديهم سَدًّا﴾، قال مجاهد: عن الحق، ﴿ومن خلفهم سدًّا﴾، قال مجاهد عن الحَقِّ، فهم يتردَّدُون. وقال قتادة: في الضلالات[٢].

وقولُهُ: ﴿فأَغْشَيْنَاهُم﴾، أي: أغشينا أبصارَهم عَنِ الحَقِّ، ﴿فهم لا يُبصِرُون﴾، أي: لا ينتفعون بخيرٍ ولا يَهْتَدُونَ إليه.

قال ابنُ جَرير: ورُوِيَ عن ابن عباس أنه كان يَقرأ «فأعشيناهم»، بالعَين المهملة[٣]، من العشا، وهو داءٌ في العين[٣].

وقال عبد الرحمن بن زَيد بن أسلم: جَعَل الله هذا السَّد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصُون إليه، وقرأ ﴿إن الذين حَقَّت عليهم كلمةُ رَبِّك لا يُؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يَرَوا العذابَ الأليم﴾ ثم قال: من منعه الله لا يستطيع[٣].

وقال عكرمة: قال أبو جَهل: لئن رأيتُ مُحمَّداً لأفعلنَّ ولأفعلنَّ. فأنزلت: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ إلى قوله: ﴿لا يُبصِرُون﴾، قال: وكانوا يقولون: هذا محمدٌ. فيقول: أين هُوَ؟ أين هُوَ؟ لا يُبصِرهُ رواه ابن جرير[٣].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يَزِيدُ بن زِيادٍ، عن محمد بن كعب قال: قال أبو جهل وهم جلوسٌ: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتُموه كنتم ملوكاً، فإذا متُّم بُعثتُم بعد موتكم، وكانت لكم جِنانٌ خير من جنان الأرْدُن وأنكم إن خالفتُموه كان لكم منه ذَبحٌ، ثم بُعِثتم بعد مَوتكم وكانت لكم نارٌ تُعذَّبون بها. وخرج عليهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ عند ذلك، وفي يَدِه حَفْنَةٌ من تُرابٍ، وقد أخذ الله على أعيُنِهم دُونَه، فجعل يذرُّها على رءوسهم، ويقرأ: ﴿يسٓ * والقرآنِ الحكيم﴾، حتى انتهى إلى قوله: ﴿وجَعلنا من بين أيديهم سَدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهُم فَهُم لا يُبصِرُون﴾، وانطلق رسولُ الله ـ ﷺ ـ لحاجته، وباتوا رُصداء على بابه، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارجٌ من الدار، فقال ما لكم؟ قالوا: ننتظرُ مُحمَّداً قال: قد خَرَج عليكم، فما بَقِي منكم من رجُلٍ إلا وَضَع على رأسه تراباً، ثم ذهب لحاجته. فجعل كلُّ رَجُلٍ منهم يَنْفُضُ ما على رأسه من التراب. قال: وقد بلغ النبيَّ ـ ﷺ ـ قولُ أبي جهل فقال: «وأنا أقولُ ذلك: إنَّ لهم مني لَذَبحاً، وإنه لأحدهم»[٤]

(١) أخرجه الطبري ٢٢/١٥١.
(٢) كذا في النسخ، وفي تفسير الطبري ٢٢/١٥٢ عن قتادة قال: «ضلالات»، دون ذكر «في».
(٣) تفسير الطبري ٢٢/١٥٢. وهي قراءة منسوبة لغير واحد، انظر روح المعاني للألوسي ٢٢/١١٥
(٤) انظر سيرة ابن هشام ١/٤٨٣، وقال في الدر المنثور ٧/٤٣: «وأخرج ابن إسحق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في الدلائل عن محمد بن كعب»، وذكر الخبر

وقولهُ: ﴿وسواءٌ عليهم أأنذرتَهم أم لم تُنذِرْهُم لا يُؤمِنُونَ﴾، أي: قد خَتَم الله عليهم بالضلالةِ، فما يُفيد فيهم الإنذارُ ولا يَتأثَّرونَ به. وقد تقدَّم نظيرها في أول «سورة البقرة»[1] وكما قال تعالى: ﴿إن الذين حقَّت عليهم كلمةُ ربِّك لا يؤمنون ● ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ﴾.

﴿إنما تُنذِرَ مَن اتَّبع الذكرَ﴾، أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذي يَتَّبِعون الذِّكر، وهو القرآنُ العظيمُ، ﴿وخَشِيَ الرحمٰنَ بالغيبِ﴾، أي: حيثُ لا يراه أحدٌ إلا الله، يعلَم أن الله مُطَّلِعٌ عليه، وعالم بما يفعَلُه، ﴿فَبَشِّره بمغفرةٍ﴾، أي: لذُنُوبه، ﴿وَأجرٍ كَريمٍ﴾، أي: كبيرٍ واسعٍ حَسَنٍ جميلٍ، كما قال: ﴿إن الذين يخشَون ربَّهم بالغيبِ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إنا نَحنُ نحيي الموتَى﴾، أي: يومَ القيامةِ، وفيه إشارةٌ إلى أن الله تعالى يُحيي قَلْبَ مَن يشاءُ من الكفار الذين قد ماتت قلوبُهم بالضَّلالة، فيَهدِيهم بعد ذلك إلى الحقِّ، كما قال بعدَ ذِكْرِ قَسْوَةِ القلوب، ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بيَّنا لكم الآياتِ لَعَلَّكم تَعقِلُون﴾.

وقوله: ﴿ونَكتُب ما قَدَّموا﴾، أي: من الأعمال. وفي قوله: ﴿وآثارَهم﴾ قولان:

أحدهما: نكتب أعمالهم التي باشَرُوها بأنفسهم، وآثارَهم التي أثَّرها[2] مَنْ بَعدَهُم، فنجزيهم على ذلك أيضاً، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ، كقوله ـ ﷺ ـ: «من سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً كان له أجرُها وأجرُ مَن عَمِل بها مِن بَعْدِه، من غير أن يَنقُصَ من أُجُورِهم شيئاً، ومَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سَيِّئةً كان عليه وِزْرُها وَوِزْرُ مَن عَمِل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً».

رواهُ مُسلِمٌ، من رِوَاية شعبة، عن عَون بن أبي جُحَيْفَة، عن المنذر بن جَرير، عن أبيه جَرير بن عبد الله البَجَلِيِّ ـ رضي الله عنه ـ وفيه قِصَّةُ مُجْتابي النِّمارِ المُضَرِيِّين[3]. ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن يحيى بن سليمان الجعفي، عن أبي المحياة يحيى بن يَعْلَى، عن عبد الملك بن عُمَير، عن جَرير بن عبد الله. فذكر الحدث بطُوله، ثم تَلَا هذه الآية: ﴿ونكتُب ما قَدَّموا وآثارَهُم﴾.

وقد رواه مسلم من رواية أبي عَوَانَةَ، عن عبد الملك بن عُمَير، عن المُنذِر بن جَرير، عن أبيه، فذكره[4].

وهكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مُسلمٍ عن أبي هُرَيرَة ـ رَضِيَ الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا مات ابن آدم انقطع عَمَلُه إلا من ثلاثٍ: من علمٍ يُنتَفَع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعُو له، أو صَدَقةٍ جاريةٍ من بعده»[5].

وقال سُفيان الثوريُّ، عن أبي سَعيد قال: سَمِعت مجاهداً يقول في قوله: ﴿إنا نحن نُحيي الموتى ونَكتُب ما قدَّموا وآثارَهُم﴾، قال: ما أَوْرَثُوا من الضَّلَالَةِ.

وقال ابن لَهِيعة، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جُبَير في قوله: ﴿ونكتُبُ ما قَدَّموا وآثارهم﴾، يعني:

---

(١) انظر تفسير الآية السادسة من سورة البقرة.
(٢) يقال: أثَرَه يأثُره أثْراً، وأثَرَةً، وأثارةً: تبع أثَرَه.
(٣) تقدّم الحديث عند تفسير الآية الأولى من سورة النساء، وخرجناه، وشرحنا غريبه.
(٤) مسلم، كتاب الزكاة ٧٠٦/٢.
(٥) مسلم، كتاب الوصية ١٢٥٥/٣.

ما أثَّروا، يقول: مَا سَنُّوا من سُنَّةٍ، فَعَمِل بها قومٌ من بعد موتهم، فإن كان خيراً فله مثلُ أجورِهم، لا ينقُص مِن أجرِ مَن عَمِله شيئاً، وإن كانت شرّاً فعليه مثلُ أوزارِهم، ولا يَنقُصُ من أوزارِ مَن عَمِله شيئاً. ذكرهما ابن أبي حاتم.

وهذا القول هو اختيار البَغَوِيِّ[1].

والقول الثاني: أن المراد بذلك آثار خُطَاهم إلى الطاعة أو المعصية.

قال ابنُ أبي نَجِيحٍ وغيرُه، عن مجاهد: ﴿ما قدَّموا﴾، أعمالهم، ﴿وآثارَهم﴾، قال: خُطَاهم بأرجُلِهم. وكذا قال الحسنُ وقتادةُ: ﴿وآثارَهم﴾، يعني: خُطَاهم. قال قتادةُ: لو كان الله ـ عز وجل ـ مُغْفِلاً شيئاً من شأنِك يا ابنَ آدمَ أغفلَ ما تُعَفِّي الرياحُ من هذه الآثارِ، ولكن أحْصَى على ابن آدم أثرَه وعَمَله كُلَّه، حتى أحصَى هذا الأثرَ فيما هُوَ من طاعةِ الله أو من مَعْصِيَتِه، فَمَنِ استطاعَ منكم أن يُكتَبَ أثَرُه في طاعةِ الله فَلْيفعَلْ[2].

وقد وَرَدَت في هذا المعنى أحاديث:

الحديثُ الأوَّلُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا الجُرَيري، عن أبي نَضْرَةَ، عن جابر بن عبد الله قال: خَلَت البِقاع حولَ المسجد، فأراد بنو سَلِمة أن يَنتقِلُوا قُرْبَ المسجدِ، فبلغ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تُريدُون أن تنتقِلُوا قُرْبَ المسجدِ؟» قالوا: نعم، يا رسولَ الله، قد أردنا ذلك. فقال: «يا بني سَلِمَة، ديارَكُم، تُكْتَبْ آثارُكم، ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم»[3].

وهكذا رواه مسلم، من حديث سَعِيد الجُرَيري وكَهْمَس بن الحسن، كلاهما عن أبي نَضْرَة ـ واسمه: المنذرُ بن مالك بن قِطْعَة العَبْدِيّ ـ عن جابر، به[3].

الحديث الثاني، قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي، حدثنا إسحاق الأزرقُ، عن سفيانَ الثَّوريِّ، عن أبي سُفيانَ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ قال: كانت بنو سَلِمَة في ناحيةٍ من المدينة، فأرادُوا أن يَنتقِلُوا إلى قريبٍ من المسجد، فنزلت: ﴿إنا نحنُ نُحيي الموتَى ونكتب ما قدَّموا وآثارَهم﴾. فقال لهم النبي ـ ﷺ ـ: «إنَّ آثارَكُم تُكْتَبُ». فلم ينتقلوا.

انفرد بإخراجه الترمذي عند تفسيرِ هذه الآية الكريمة، عن محمد بن الوزير، به. ثم قال: «حَسَنٌ غَرِيبٌ من حَدِيث الثوري»[4].

ورواه ابن جرير، عن سليمان بن عُمَر بن خالد الرقي، عن ابن المبارك، عن سُفيانَ الثَّوريِّ، عن طَرِيفٍ ـ وهو ابن شهاب أبو سفيان السَّعدي ـ عن أبي نَضْرَة، به[5].

وقد رُوِيَ من غير طريق الثَّوري، فقال الحافظ أبو بكر البَزَّار:

حدثنا عَبَّاد بن زِياد السَّاجي، حدثنا عثمان بن عُمَر، حدثنا شُعبةُ، عن سَعِيد الجُرَيري، عن أبي نَضْرَة،

---

(١) تفسير البغوي ٤/٧.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/١٥٥، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، الدرّ المنثور ٧/٤٧.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٣٣٢ ـ ٣٣٣، ومسلم، كتاب المساجد ١/٤٦٢.

ومعنى «ديارَكُم، تُكْتَبْ آثارُكم»: الزموا دياركم، فإنكم إذا لزمتموها كُتِبت آثاركم وخطاكم الكثيرة إلى المسجد.

(٤) عارضة الأحوذي، تفسير سورة يسٓ ١٢/١٠٦ ـ ١٠٧.

(٥) تفسير الطبري ٢٢/١٥٤.

عن أبي سعيد قال: إن بني سَلِمَةَ شَكَوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بُعدَ منازِلهم من المسجدِ، فنزلت: ﴿ونكتبُ ما قدَّموا وآثارَهُم﴾، فأقاموا في مكانهم.

وحدَّثنا محمد بن المثنَّى، حدثنا عبدُ الأعلى، حدثنا الجُرَيريُّ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سَعيدٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه.

وفيه غَرابة مِن حيثُ ذِكْرُ نُزولِ هذه الآية، والسورةُ بكمالها مكّية، فالله أعلم.

الحديث الثالث، قال ابنُ جَرِير: حدثنا نصرُ بن علي الجَهْضَميُّ، حدثنا أبو أحمد الزُّبَيْرِيُّ، حدثنا إسرائيلُ، عن سِمَاكٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابنِ عباسٍ قال: كانت منازلُ الأنصارِ متباعدةً من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد، فنزلت: ﴿ونكتبُ ما قدَّموا وآثارَهُم﴾، فقالوا: نَثْبُتُ مكانَنا[1]. هكذا رواه وليس فيه شيء مرفوع.

ورواه الطَّبرانيُّ عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مَرْيَمَ، عن محمد بن يوسف الفِرْيابيِّ، عن إسرائيلَ، عن سِمَاكٍ، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاسٍ قال: كانت الأنصارُ بعيدةً منازِلُهم من المسجد، فأرادوا أن يَتَحوَّلوا إلى المسجدِ، فنزلت: ﴿ونكتب ما قدَّموا وآثارَهم﴾، فثَبَتُوا في منازِلهم[2].

الحديثُ الرابع، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حَسَن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثني حُيَيّ بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمٰن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو قال: تُوُفِّيَ رجلٌ بالمدينة، فصَلَّى عليه النبي ـ ﷺ ـ وقال: «يا ليته ماتَ في غير مَوْلِدِه». فقال رجلٌ من الناس: ولِمَ يا رسولَ الله؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الرجل إذا تُوُفِّيَ في غير مولده قِيسَ له من مَوْلِدِه إلى مُنقَطَعِ أَثَرِه في الجنة»[3].

ورواه النسائي عن يونس بن عبد الأعلى، وابن ماجه عن حَرْمَلَةَ، كلاهما عن ابن وهب، عن حُيَيِّ بن عبد الله، به[3].

وقال ابنُ جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا أبو تُمَيلة، حدثنا الحسين، عن ثابت قال: مشيتُ مع أنسٍ فأسرعتُ المشي، فأخذ بيدي فمشينا رُوَيداً، فلما قَضَينا الصلاةَ قال أنسٌ: مشيتُ مع زيدِ بن ثابت فأسرعتُ المشيَ، فقال: يا أنسُ، أما شَعَرْتَ أن الآثار تُكتَبُ؟! أما شَعَرْتَ أن الآثار تُكتَبُ؟![1].

وهذا القولُ لا تنافِيَ بينه وبين الأوَّل، بل في هذا تنبيهٌ ودَلالةٌ على ذلك بطريق الأولى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتَب، فلأنْ تُكتَبَ تلك التي فيها قُدوة بِهم من خير أو شرٍّ بطريق الأولى، والله أعلم.

وقولهُ: ﴿وكلَّ شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مبين﴾، أي: جميع الكائنات مكتوبٌ في كتابٍ مسطورٍ مضبوطٍ في لوحٍ محفوظ، والإمام المبينُ ههنا هو: أمُّ الكتاب. قاله مجاهد، وقتادةُ، وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم. وكذا في قوله تعالى: ﴿يوم ندْعُوا كُلَّ أناسٍ بإمامهم﴾، أي: بكتاب أعمالهم الشاهِد عليهم بما عَمِلوه من خيرٍ وشرٍّ، كما قال تعالى: ﴿ووُضِعَ الكتابُ وجِيءَ بالنبيِّين والشهداء﴾، وقال تعالى: ﴿ووُضِعَ الكتابُ فترى المجرمينَ مُشفقين مما فيه ويقولونَ يا ويلتنا ما لهذا الكتابِ لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجَدُوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾.

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/١٥٤.

(٢) قال في مجمع الزوائد ٧/٩٧: «رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، وهو ضعيف».

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٧، والنسائي وابن ماجه في كتاب الجنائز، سنن النسائي ٤/٧ ـ ٨، وابن ماجه ١/٥١٥.

فهرس موضوعات الجزء السادس

- تفسير سورة النور ٢٤٥٧
- تفسير سورة الفرقان ٢٥٣٧
- تفسير سورة الشُّعراء ٢٥٧٤
- تفسير سورة النمل ٢٦١١
- تفسير سورة القصص ٢٦٤٦
- تفسير سورة العنكبوت ٢٦٨٣
- تفسير سور الرّوم ٢٧١٠
- تفسير سورة لُقمان ٢٧٣٩
- تفسير سورة السّجدة ٢٧٦٤
- تفسير سورة الأحزاب ٢٧٧٩
- تفسير سورة سبأ ٢٨٧١
- تفسير سورة فاطر ٢٩٠٣
- تفسير سورة يس [إلى الآية ١٢] ٢٩٢٨

□□□